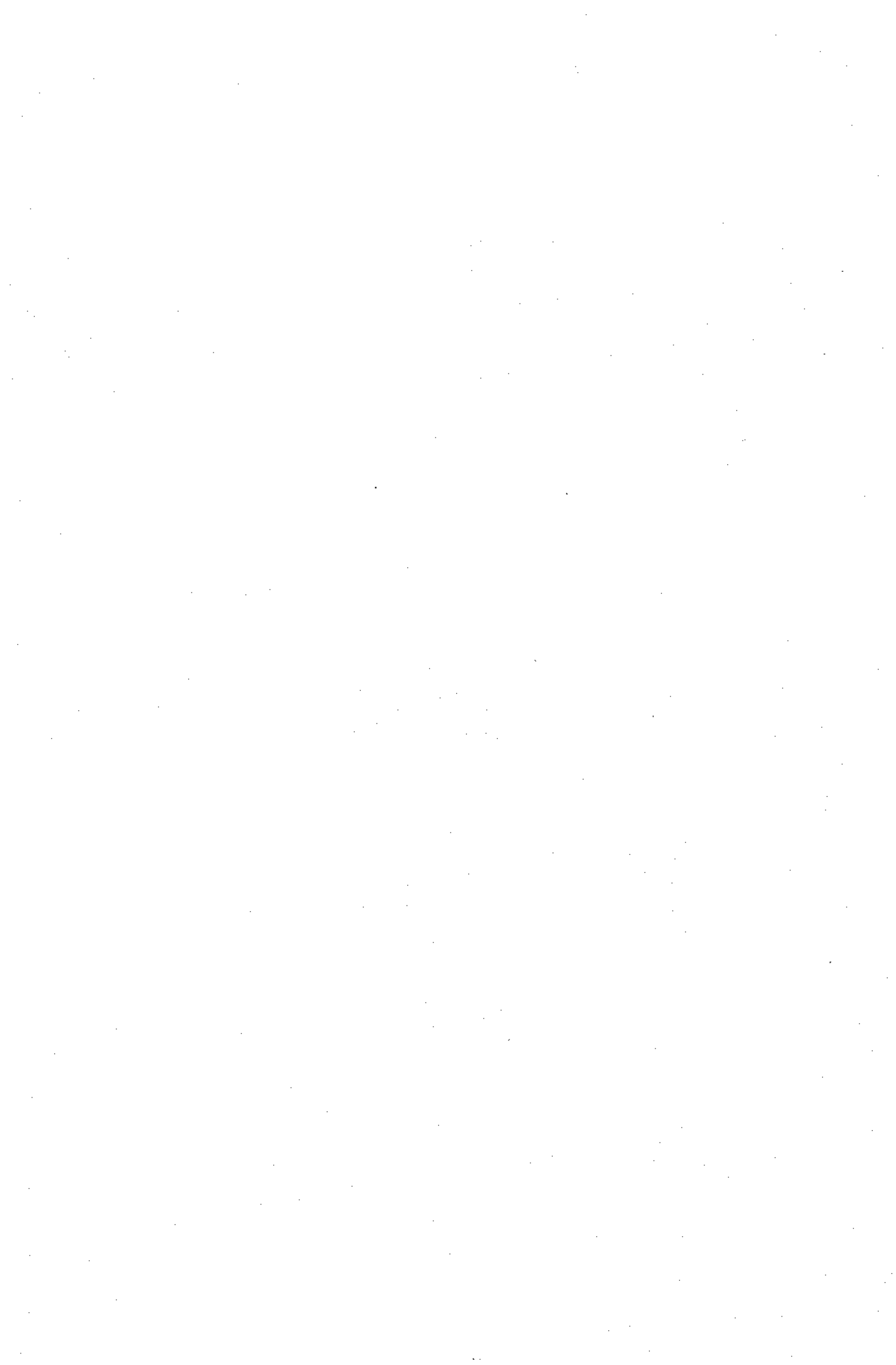

سورة يوسف



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ①﴾

قد تعرضنا من قبل لفواتح السور[١] ؛ من أول سورة البقرة، وسورة آل عمران، وقلنا: إن فواتح بعض من سور القرآن تبدأ بحروف مُقطَّعة ؛

● سورة يوسف سورة مكية، نزلت بمكة المكرمة. قال السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (١/٤٠): «استثنى منها ثلاث آيات من أولها، حكاه أبو حيان، وهو واه جداً لا يلتفت إليه». عدد آياتها ١١١ آية. وهى سورة جامعة «لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين، والملائكة والشياطين، والجن والإنس، والأنعام والطير، وسيَر الملوك والممالك، والتجار والعلماء والجهَّال، والرجال والنساء، وحيلِهنَّ ومكْرهنَّ، وفيها ذكر التوحيد والفقه، والسِّير وتعبير الرؤيا، والسياسة والمعاشرة وتدبير المعاش، وجمل الفوائد التى تصلح للدين والدنيا» ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٤١).

(١) قال الإمام السيوطى : «اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة أنواع من الكلام:

الأول : الثناء عليه تعالى، والثناء قسمان. الأول: التحميد فى خمس سور، وتبارك فى سورتين، والثانى: التسبيح فى سبع سور.

الثانى : حروف التهجِّى فى تسع وعشرين سورة.

الثالث : النداء فى عشر سور: خمس بنداء الرسول ﷺ، وخمس بنداء الأمة.

الرابع : الجمل الخبرية، نحو: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنفَالِ .. ①﴾ [الأنفال]، وذلك فى ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم ، فى خمس عشرة سورة.

السادس : الشرط ، فى سبع سور مثل : ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ①﴾ [الواقعة].

السابع : الأمر، فى ست سور، نحو : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ①﴾ [الإخلاص]

الثامن : الاستفهام، فى ست سور، نحو: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ①﴾ [النبأ]

التاسع : الدعاء، فى ثلاث سور: الهمزة، المطففين، المسد.

العاشر : التعليل ، فى سورة قريش . انتهى باختصار [الإتقان فى علوم القرآن ٣/٢١٦].

ننطقها ونحن نقرؤها بأسماء الحروف ، لا بمسميات الحروف.

فإن لكل حرف اسماً ومُسمًّى ، واسم الحرف يعرفه الخاصة الذين يعرفون القراءة والكتابة ، أما العامة الذين لا يعرفون القراءة أو الكتابة ؛ فهم يتكلمون بمسميات الحروف ، ولا يعرفون أسماءها.

فإن الأمى إذا سُئل أن يتهجى أىَّ كلمة ينطقها ، وأن يفصل حروفها نطقاً ؛ لما عرف ، وسبب ذلك أنه لم يتعلم القراءة والكتابة ، أما المتعلم فهو يعرف أسماء الحروف ومُسمَّياتها.

ونحن نعلم أن القرآن قد نزل مسموعاً ، ولذلك أقول: إياك أن تقرأ كتاب الله إلا أن تكون قد سمعته أولاً ؛ فإنك إذا قرأته قبل أن تسمعه فسيستوى عندك حين تقرأ فى أول سورة البقرة : ﴿الٓمٓ ①﴾ [البقرة]

مثلما تقرأ فى أول سورة الشرح : ﴿أَلَمْ .. ①﴾ [الشرح]

أما حين تسمع القرآن فأنت تقرأ أول سورة البقرة كما سمعها رسول الله ﷺ من جبريل[1] - عليه السلام - « ألف لام ميم » ، وتقرأ أول سورة الشرح « ألم ».

وأقول ذلك لأن القرآن ـ كما نعلم ـ ليس كأى كتاب تُقبل عليه لتقرأه من غير سماع ، لا. بل هو كتاب تقرؤه بعد أن تسمعه وتصحح

(١) إن السماع قبل القراءة ضرورة من ضرورات سلامة النطق ، وطهارة الكلمة ؛ لذلك يقول الحق : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ⑮①﴾ [البقرة] فالتلاوة ابتداء ، والتزكية ارتقاء ، والتعليم صفاء ، ووضع الشىء فى مكانه ووضع للمقال فى مقامه ، وفى الغيب علم يتوالى ، وفى التوالى إعجاب ، والإعجاب توحيد بنزاهة ، وتفريد بطهارة ، وتجريد بإخلاص.

قراءتك على قارىء ؛ لـتعرف كيف تنطق كل قَوْل كـريم ، ثم من بعد ذلك لك أن تقرأ بعد أن تعرفتَ على كيـفية القراءة ؛ لأن كل حرف فى الكتاب الكريم موضوع بميزان[١] وبقدر.

ونحن نعلـم أيضـاً أن آيات القـرآن منهـا آياتٌ مُـحْكمـات وأُخَـر مُتَشابهات[٢] . والآيات المُحْكماتُ تضـم الأحكام التى عليك أن تفعلها لِتُثـاب عليها ، وإنْ لم تفعلهـا تُعاقب ، وكل ما فى الآيات المُـحْكمات واضـح.

أما الآيات المُتَشابهات إنمـا جاءت متشابهة[٣] لاختلاف الإدراك من إنسـان لآخر ، ومن مـرحلة عُـمـرية لأخرى ، ومن مـجـتمع لآخـر ، والإدراكات لهـا وسـائل يتشابه فـيها الناس ، مـثل : العين ، والأذن ، والأنف ، واللسـان ، واليد.

ووسـائل الإدراك هذه ؛ لهـا قوانين تـحكمـها:

---

(١) قال ابن الجـزرى فى كتابه «النشـر فى القراءات العشـر» (٢١٠/١) : «لاشك أن هذه الأمة كما هم متعبدون بفهم معانى القرآن وإقامة حـدوده متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفـة المتلقـاة من أئمة القـراءة المتصلة بالحـضرة النبـوية الأفصـحـية العـربية التى لا تجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها».

(٢) يقول تعالى : ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ۝٧﴾ [آل عمران]

(٣) معنى المـتشابه هنا أى: مـا استأثر الله بعلمه، وخـفى معناه على الناس، أو هو ما احـتمل أوْجُهـاً من حيث المعنى والتـأويل. وهذا هو معنى الآية السابعـة من سورة آل عمـران، أما قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا .. ۝٢٣﴾ [الزمر] فمعناه: أنه يشـبه بعضه بعضاً فى الصحة، وعدم التناقض وتأييد بعـضه لبعض. انظر «فتح الرحمن بكشف مايلتبس فى القرآن» لأبى يحيى الأنصارى (ص٦٠).

فَعـيْنُك يحكمها قـانون إبصارك ، الذى يمتـد إلى أن تلتقى خطوط الأشعة عند بؤرة تمتنع رؤيتُك عندها ؛ ولذلك تصـغُر الأشياء تدريجياً كلما ابتعدت عنها إلى أن تتلاشى من حدود رؤيتك.

وصـوتُك له قـانون ؛ تحكمـه ذبذبات الهـواء التى تصل إلى أدوات السمع داخل أذنك.

وكذلك الشَّمُّ له حدود ؛ لأنك لا تستطيع شَمَّ وردة موجودة فى بلد بعيدة.

وكذلك العقل البشرى له حدود يُدرك بها ، وقد علم الله كيف يدرك الإنسـان الأمـور ، فلم يمنع تأمل وردة جـميلة ، لكنـه أمـر بغضٍّ البصر[1] عند رؤية أى امرأة.

وهكذا يُحدِّد لـكَ الحق الحلال الذى تراه ، ويُحـدِّد لك الحرام الذى يجب أن تمـتنع عن رؤيتـه . وكذلك فـى العقل ؛ قـد يفـهم أمراً وقـد لا يفهم أمراً آخـر ، وعدم فَهْمك لذلك الأمر هـو لَوْن من الفهم أيضاً ، وإنْ تساءلتَ كيف ؟

انظر إلى مـوقف تلميذ فى الإعـدادية ؛ وجاء لـه أستـاذه بتمـرين

(١) غض بصره وغض من بصـره، يغض غضاً: خفضه ولم يرفعه ولم يحـدِّقه فيمـا أمامه، أو كفَّ بَصـره ولم ينظره. وفى غضِّ البـصر قـال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ..﴿٣٠﴾ ﴾ [النور]، وقال : ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] . ومنه غضَّ صـوته: خفضه، قال تعالى: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ .. ﴿١٩﴾﴾ [لقمان][القاموس القويم : ٢/٥٦].

هندسى[1] مما يدرسه طلبة الجامعة ؛ هنا سيقول التلميذ الذكى لأستاذه : نحن لم نأخذ الأسس اللازمة لحلِّ مثل هذا التمرين الهندسى ، هذا القول يعنى أن التلميذ قد فهم حدوده.

وهكذا يُعلِّمنا الله الأدب فى استخدام وسائل الإدراك ؛ فهناك أمر لك أن تفهمه ؛ وهناك أمر تسمعه من ربك وتطيعه ، وليس لك أن تفهمه قبل تنفيذه ؛ لأنه فوق مستوى إدراكك.

ودائماً أقول هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إنك حين تنزل فى فندق كبير، تجد أن لكل غرفة مفتاحاً خاصاً بها ، لا يفتح أى غرفة أخرى ، وفى كل دَوْر من أدوار الفندق يوجد مفتاح يصلح لفتْح كل الأدوار ، ولا يفهم هذا الأمر إلا المتخصص فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله تعالى ، وهو الكتاب الجامع فى تصميم مثل تلك المفاتيح.

فما بالنا بكتاب الله - تعالى - وهو الكتاب الجامع الذى يقول فيه الحق - تبارك وتعالى:

﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ[2] هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ[3] وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

---

(١) أصل هذه الكلمة الهنداز، وهى كلمة فارسية أصلها أنداز فصيرت الزاى سيناً، لأنه ليس فى شىء من كلام العرب زاى بعد الدال، والاسم الهندسة. والمهنْدز: هو الذى يُقدِّر مجارى القُنىِّ والأبنية. [انظر: لسان العرب ـ مادتى : هندز ، هندس].

(٢) أحكم الأمر: أتقنه، قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .. ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحج] أى: يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة. وآيات محكمة: متقنة مقنعة واضحة. وقيل: محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل. وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ ..﴿٢٠﴾ ﴾ [محمد] أى: متقنة. [القاموس القويم: ١/١٦٦].

(٣) أم الكتاب: أصله، يُرَدُّ إليها كل ماعداها مما يحتمل أوجهاً كثيرة. قال فى التهذيب: أمُّ الكتاب كل آية محكمة من آيات الشرائع والأحكام والفرائض. [نقله ابن منظور فى اللسان ـ مادة: أمم] وأم الكتاب: فاتحته؛ لأنه يبتدأ بها فى كل صلاة. [اللسان].

قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ [(١)] فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ[(٢)] الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ⑦ ﴾ [آل عمران]

إذن : فهذا المتشابه يعتبره أهل الزيغ فرصة لتحقيق مآربهم[(٣)]، وهو إبطال الدين بأىِّ وسيلة وبأى طريقة ، ويحاولون ممارسة التكبر على كتاب الله.

ولهؤلاء نقول: لقد أراد الله أن يكون بعضٌ من سور الكتاب الكريم مُبْتدئةً بحروف تُنطق بأسمائها لا بمُسمَّياتها.

وقد أرادها الحق ـ سبحانه ـ كذلك ليختبر العقول ؛ فكما أطلق ـ سبحانه ـ للعقل البشرى التفكير فى أمور كثيرة ؛ فهناك بعض من الأمور يخيب فيها التفكير ، فلا يستطيع العقل إدراك الأشياء التى تفوق حدود عقله.

---

(١) زاغ يزيغ زَيْغًا وزيغانًا: مال عن القصد. وأزاغه: أماله وصرفه عن القصد : ﴿ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ .. ⑤ ﴾ [الصف] أى: فلما انحرفوا عن الحق واختاروا طريق الباطل، صرف الله قلوبهم وتركهم وما اختاروه فلم يجبرهم على الإيمان. [القاموس القويم: ١/٢٩٣، ٢٩٤].

(٢) بغى الشىء: طلبه، وابتغاه: طلبه، قال تعالى : ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ ..㊼﴾ [التوبة] ، أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا .. ㉙﴾ [الفتح] أى: يطلبون فضلاً. وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. ㊽﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسَعَوْا فى بثِّها ونَشْرِها. [القاموس القويم: ١/٧٦].

(٣) المارب والأَرَب والإرْب : الحاجة والغرض. يقول تعالى عن عصا موسى أن موسى عليه السلام قال عنها: ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ⑱﴾ [طه] أى: حاجات وأغراض كثيرة أخرى كاتقاء ضرر أو غير ذلك. [القاموس القويم : ١/١٧] بتصرف.

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يصنع للإنسان ابتلاءات فى وسائل إدراكه؛ وجعل لكل وسيلة إدراك حدوداً ، وشاء أن يأتى بالمتشابه ليختبر الإنسان ، ويرى : ماذا يفعل المؤمن ؟

وقوله الحق ـ سبحانه:

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ[1] إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ[2] فِي الْعِلْمِ..(٧) ﴾ [آل عمران]

قد يُفْهم منه أنه عطف ؛ بمعنى أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويله ؛ وبالتالى سيُعلِّمون الناس ما ينتهون إليه من علم بالتأويل. ولكن تأويل الراسخين فى العلم هو قولهم:

﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

إذن : فنهاية تأويلهم : هو من عند ربنا ، وقد آمنا به.

وجاء لنا قوله ﷺ ليَحُل لنا إشكال المُتَشابَه:

«ما تشابه منه فآمنوا به»[3].

(١) تأويل الكلام: تفسيره وتبيين المراد منه. قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة: أول]: «التأويل والمعنى والتفسير واحد. قال أبو عبيد فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ .. (٧) ﴾ [آل عمران] : التأويل المرجع والمصير مأخوذ من آل يؤول إلى كذا، أى: صار إليه قال الجوهرى: التأويل تفسير ما يؤول إليه الشىء.

(٢) رسخ يَرْسَخ رُسُوخاً : ثبت فهو راسخ أى : ثابت. الراسخون فى العلم: المتمكِّنون فيه. [القاموس القويم: ١/ ٢٦٤].

(٣) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٤٦) لابن مردويه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.

لأن المتشابه من ابتلاءات الإيمان.

والمثل الذى أضربه هنا هو أمره ﷺ لنا أن نستلم[١] الحجر الأسود وأن نُقبِّله[٢]، وأن نَرْجُم الحجر[٣] الذى يمثل إبليس، وكلاهما حجر، لكننا نمتثل بالإيمان لما أمرنا به ﷺ[٤].

وأنت لو أقبلتَ على كل أمر بحُكْم عقلك، وأردتَ أن تعرف الحكمة وراء كل أمر، لَعبدْتَ عقلك، والحق - سبحانه - يريد أن تُقبِل على الأمور بِحُكْمِه هو - سبحانه.

وأنت إن قلتَ لواحد: إن الخمر تهرى الكبد. ووضعت على كبده جهاز الموجات فوق الصوتية الذى يكشف صورة الكبد، ثم ناولتَ الرجل كأس خمر؛ فرأى ما يفعله كأس الخمر فى الكبد، ورَاعَه[٥] ذلك؛ فقال: والله لن أشربها أبداً.

---

(١) قال الليث: استلام الحجر تناوله باليد وبالقُبْلة ومَسْحه بالكفِّ. وقال الجوهرى: استلم الحجر لمسه إما بالقُبْلة أو باليد. [نقله ابن منظور فى لسان العرب - مادة: سلم].

(٢) عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: استقبل رسول الله ﷺ الحجر فاستلمه، ثم وضع شفتيه عليه يبكى طويلاً، فالتفت فإذا هو بعمر يبكى، فقال: « ياعمر، ههنا تُسْكب العبرات». أخرجه ابن ماجه فى سننه (٢٩٤٥) والحاكم فى مستدركه (١/ ٤٥٤) كلاهما من طريق محمد بن عون الخراسانى قال البوصيرى فى الزوائد: ضعفه ابن معين وأبو حاتم وغيرهما، قلت: قد صححه الحاكم وأقره الذهبى على تصحيحه.

(٣) وهو ما يُعرف برمى الجمرات فى منًى فى أيام الحج، وهى ثلاث جمرات: الصغرى وهى القريبة من مسجد الخيف، ثم الجمرة الوسطى وبينهما ١٥٥متراً، ثم الجمرة الكبرى. كل جمرة تُرْمى بـ ٢١ حصاة على ثلاثة أيام: ١١، ١٢، ١٣ من ذى الحجة. انظر: كتابى «فتاوى وأحكام حول مناسك الحج والعمرة».

(٤) لذلك كان عمر رضى الله عنه يقول: «والله إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنى رأيت رسول الله ﷺ يُقبِّلك ما قبَّلتك» أخرجه البخارى فى صحيحه (١٦١٠) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

(٥) راعه ذلك: أفزعه. وارتاع منه وله وروّعه فتروّع، أى: تفزع. والرَّوْع والرُّواع: الفزع. [لسان العرب - مادة: روع].

هل هو يفعل ذلك لأنه مؤمن ؟ أم أنه ربط سلوكه بالتجربة ؟

لقد ربط سلوكه بالتجربة ، وهو يختلف عن المؤمن الذى نفَّذ تعاليم السماء، فامتنع عن الخمر لأن الله أمر بذلك ، فلا يمكن أن نؤجل تعاليم السماء إلى أن تظهر لنا الحكمة منها.

إذن: فعِلَّة المُتَشابه ؛ الإيمان به. وقد يكون للمُتَشابه حكمة ؛ لكنَّا لن نُؤجِّل الإيمان حتى نعرف الحكمة.

وأقول دائماً : يجب أن يعامل الإنسانُ إيمانَه بربه معاملته لطبيبه ، فالمريض يذهب إلى طبيبه ليعرض عليه شكواه من مرض يؤلمه ؛ ليصفَ الطبيب له الدواء ، كذلك عمل عقلك؛ عليه أن ينتهى عند عتبة إيمانك بالله.

ونجد من أقوال أهل المعرفة بالله مَنْ يقول: إن العقل كالمطيَّة[1] ، يُوصِّلك إلى باب السلطان، لكنه لايدخل معك.

إذن: فالذى يناقش فى عِلَل الأشياء هو مَنْ يرغب فى الحديث مع مُسَاوٍ له فى الحكمة، وهل يوجد مُسَاوٍ لله؟

طبعاً لا ، لذلك خُذْ افتتاحيات السور التى جاءت بالحروف المقطعة كما جاءت ، واختلافنا على معانيها يؤكد على أنها كَنْز لا ينفد من

---

(١) المطية: الدابة تُمتطى أى: يُركب ظهرها. والجمع: مَطايَا والمطا : الظهر لامتداده. وأصل المطو المد. وتمطى الرجل: تمدَّد. وكل شىء مددته فقد مطوْته. وتمطى النهار: امتد وطال. [لسان العرب ـ مادة: مطا ـ بتصرف].

العطاء، إلى أن تُحل إنْ ـ شاء الله ـ من الله[1].

ومن العجيب أن آيات القرآن كلها مبنيةٌ على الوَصْل، ففى آخر سورة هود نجد قول الحق ـ سبحانه:

﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣)﴾ [هود]

وكان من المفترض أن نقف عليها فننطق كلمة «تعملون» ساكنة النون ، لكنها موصولة بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لذلك جاءت النون مفتوحة.

وأيضاً ما دامت الآياتُ مبنية على الوصل، كان من المفروض أن ننطق بدء سورة يوسف «ألفٌ لامٌ رَاءٌ» لكن الرسول ﷺ علَّمنَا أن نقرأها «ألفْ لامْ راءْ» وننطقها ساكنة.

وهذا دليل على أنها كلمة مبنية على الوقف ، ودليل على أن لله ـ سبحانه ـ حكمة فى هذا وفى ذاك.

ونحن نعلم أن الرسول ﷺ كان يراجع القرآن مرة كل رمضان مع جبريل ـ عليه السلام ـ وراجعه مرتين فى رمضان الذى سبق وفاته ﷺ[2].

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٧): «مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً، وهى – ا ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن – يجمعها قول : «نص حكيم قاطع له سر».

(٢) عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت: «أسرَّ إلىَّ النبى ﷺ أن جبريل كان يُعارضنى بالقرآن كل سنة مرة، وإنه عارضنى العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلى» أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٦٢٤) وأحمد فى مسنده (٦/٢٨٢).

وهكذا وصلنا القرآن كما أنزله الحق ـ سبحانه ـ على رسوله الكريم ﷺ.

وهنا يقول الحق : ﴿ الٓر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝١ ﴾ [يوسف]

و «تلك» إشارة لما بَعْدَ (الٓر) ، وهى آيات الكتاب.

أى: خذوا منها أن آيات القرآن مُكوَّنة من مثل هذه الحروف ، وهذا فَهْم البعض لمعنى : ﴿ الٓر .. ۝١ ﴾ [يوسف]

لكنه ليس كل الفهم.

مثل : صانع الثياب الذى يضع فى واجهة المحل بعضاً من الخيوط التى تم نَسْج القماش منها ؛ ليدلنا على دِقَّة الصنعة.

فكأنَّ الله ـ سبحانه ـ يُبيِّن لنا أن ﴿ الٓر .. ۝١ ﴾ [يوسف]

أسماء لحروف هى من أسماء الحروف التى نتكلم بها ، والقرآن تكوَّنت ألفاظه من مثل تلك الحروف ، ولكن آيات القرآن معجزة ، لا يستطيع البشر ـ ولو عاونهم الجن ـ أن يأتوا بمثله[1].

إذن : فالسُّمو ليس من ناحية الخامة التى تُكوِّن الكلام ، ولكن المعجزة أن المتكلم هو الحق ـ سبحانه ـ فلابد أن يكون كلامه مُعجزاً ؛ وإن كان مُكوَّناً من نفس الحروف التى نستخدمها نحن البشر.

---

(١) وفى هذا يقول الحق سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَـٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۝٨٨ ﴾ [الإسراء].

وهناك معنى آخر : فهذا رسول الله ﷺ ينطق أسماء الحروف «ألفْ لام رَاء» ، وهو ﷺ الأمي[1] بشهادة المعاصرين له بما فيهم خصومه ، رغم أن القادر على نُطْق أسماء الحروف لا بُدَّ أن يكون مُتعلِّماً ، ذلك أن الأمي ينطق مُسمَّيات الحروف ولا يعرف أسماءها[2] ، وفي هذا النطق شهادة بأن مَنْ علَّمه ذلك هو ربه الأعلى.

ويقول الحق ـ سبحانه :﴿الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ①﴾ [يوسف]

كلمة «الكتاب» عندما تُطلق فمعناها ينصرف إلى القرآن الكريم[3].

ونجد كلمة «المبين» ، أي : الذي يُبيِّن كل شيء تحتاجه حركة الإنسانِ الخليفةِ في الأرض ، فإن بانَ لك شيء وظننتَ أن القرآن لم

---

(١) «قال أبو إسحاق: معنى الأمي: المنسوب إلى ما عليه جبلته امه، مكتسبة، فكأنه نُسبَ إلى ما يُولد عليه، أي: على ما ولدته أمه عليه» نقله ابن منظور في [لسان العرب ـ مادة : أمم] وقال: «بعثه الله رسولاً وهو لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وكانت هذه الخَلَّة إحدى آياته المعجزة لأنه ﷺ تلا عليهم كتاب الله منظوماً، تارة بعد أخرى، بالنظم الذي أنزل عليه فلم يُغيِّره ولم يُبدِّل ألفاظه» إذن : الأمي هو ما كان على الفطرة الربانية ، وتلقيه للإمدادات هو من العطاءات النورانية ، أما الكتابة فهي اكتساب ، وعلم الأمي من الخصوصيات الاصطفائية.

(٢) الفرق بين الاسم والمسمَّى بالنسبة للحروف أن حروفاً مثل: (ك)، (ت)، (ب)، ينطقها الأمي في كلامه (كتب) كمسميات للحروف، ولكنه لا يستطيع أن يقول لك : إن هذا الحرف اسمه (ك) أو هذا اسمه (تاء) أو هذا اسمه (باء)، فهو لا يستطيع أن يتهجى الكلمة، ولكنه يستطيع أن ينطقها للدلالة على فعل الكتابة، وقد أخذها من أفواه الناس هكذا. (من مفهوم الخواطر).

(٣) وردت لفظة «الكتاب» في القرآن (٢٣٠) مرة، ويقصد بها معاني كثيرة: القرآن، التوراة، الإنجيل، اللوح المحفوظ. ومن معاني الكتاب أيضاً «الرسالة» مثل رسالة سليمان عليه السلام التي أرسلها مع الهدهد إلى ملكة اليمن فقال: ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ㉘﴾ [النمل]. ومن المعاني أيضاً صحيفة الإنسان التي تعرض عليه يوم القيامة: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ⑭﴾ [الإسراء].

يتعـرَّض له ، فلابد أن تبحث عن مـادة أو آية تلفتك إلى مـا يبين لك ما غابَ عنك.

ويُروى عن الإمام محـمد عبده[١] أنه قابل أحد المسـتشرقين[٢] فى باريس ؛ ووجَّه المستشرق سؤالاً إلى الإمام فقال:

مـادامتْ هناك آية فى القرآن تقـول : ﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ[٣] مِن شَيْءٍ ..(٣٨) ﴾ [الأنعام]

فَدعْنِى أسألك: كم رغيفاً ينتجه أردبٌّ القمح؟

فقال الإمام للمستشرق : انتظر. واستدعى الإمام خبازاً، وسأله: كم رغيفاً يمكن أن نصنعه من أردب القمح؟ فأجاب الخباز على السؤال.

هنا قال المستشرق: لقد طلبتُ منك إجابة من القرآن ، لا من الخباز.

---

(١) هو : محـمد عبـده بن حسن خيـر الله، من آل التركمـانى، مفتى الديار المـصرية. ولد فى شنرا (من قـرى الغربيـة بمصـر) عام ١٨٤٩م ونشـأ فى مـحلة نصر (بالبـحيـرة)، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا، ثم بالأزهر، أجاد الفرنسية بعد الأربعين، أصدر فى باريس جريدة «العـروة الوثقى» مع جـمـال الدين الافـغانـى. توفى عام ١٩٠٥م بـالإسكندرية، ودفن فى القاهرة. [الاعلام للزركلى ٦/٢٥٢].

(٢) المستشرقون: جمع مستشـرق ، وهم علماء الغرب المهتمون بعلوم الشرق وآدابه ودياناته وفلسفـاته، فهم يتـخصصـون فى هذا دراسة وبحثـاً وتنقيبـاً، ومنهم المنصفـون للإسلام، ومنهم المعادون له الذين يسخِّرون دراساتهم للطعن فى الإسلام.

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٣/٢٥٠٥) «أى: فى اللوح المـحفوظ، فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقـيل: أى : فى القرآن أى: ما تركنا شيـئاً من أمر الدين إلا وقـد دلت عليه فى القـرآن، إما دلالة مـبينة مـشـروحة، وإمـا مجـملة يتلقى بيـانها من الرسـول ﷺ ، أو من الإجماع، أو من القياس الذى ثبت بنصِّ الكتاب».

فردٌ الإمامُ : إذا كان القرآن قد قال:

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ..(٣٨) ﴾ [الأنعام]

فالقرآن قال أيضاً:

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

لقد فَطِن الإمام[١] محمد عبده إلى أن العقل البشرى أضيق من أن يسع كل المعلومات التى تتطلبها الحياة ؛ لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يوزِّع المواهب بين البشر ؛ ليصبح كل متفوق فى مجال ما ، هو من أهل الذكر فى مجاله.

ونحن – على سبيل المثال – عندما نتعرض لمسألة ميراث؛ فنحن نلجأ إلى مَنْ تخصص فى المواريث ، ليدلنا على دقة توزيع أنصبة هذا الميراث.

وحين يؤدى المسلم من العامة فريضة الحج، فيكفيه أن يعلم أن الحج فريضة؛ ويبحث عند بَدْء الحج عمَّنْ يُعلِّمه خُطوات الحج كما أدَّاها ﷺ.

---

(١)الإمام محمد عبده من الأئمة الأعلام ، وهو مجدد لعصره ، له آثاره الفكرية ، وله مدرسته الإصلاحية ، عاصر جمال الدين الأفغانى ، وكان للإمام محمد عبده اتجاهاته فى تربية الأفراد والشعوب ، بحيث تبدأ التربية بالفرد أولاً ، ثم بالجماعة ثانياً ، وهذا التدرج التربوى انفرد به الإمام عن جمال الدين الأفغانى ، وإن كان بينهما عموم وخصوص.

وهذا سؤال لأهل الذكر ، مثلما نستدعى مهندساً ليصمم لنا بيتاً حين نشرع فى بناء بيت ، بعد أن نمتلك الإمكانات اللازمة لذلك.

وهكذا نرى أن علوم الحياة وحركتها أوسع من أن يتسع لها رأس ؛ ولذلك وزَّع الله أسباب فضله على عباده ، ليتكاملوا تكاملَ الاحتياج، لا تكامل التفضُّل ، ويصير كل منهم مُلْتحماً بالآخرين غَصْباً عنه.

وبعد ذلك يقول الحق ـ سبحانه:

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾

وبالنسبة للقرآن نجد الحق ـ سبحانه ـ يقول : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ[1] الأَمِينُ ۝١٩٣ ﴾ [الشعراء]

فنسب النزول مرة لجبريل كحامل للقرآن ليبلغ به رسول الله ﷺ.

ومرة يقول : ﴿ نُزِّلَ .. ۝٢ ﴾ [محمد]

والنزول فى هذه الحالة منسوب لله وجبريل والملائكة.

أما قول الحق ـ سبحانه : ﴿ أُنزِلَ .. ۝٩١ ﴾ [البقرة]

فهو القول الذى يعنى أن القرآن قد تعدى كونه مَكْنوناً فى اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ببعث رسول الله ﷺ .

---

(١) «الروح الأمين: هو جبريل عليه السلام. قاله غير واحد من السلف: ابن عباس ومحمد بن كعب وقتادة وعطية العوفى والسدى والضحاك والزهرى وابن جريج، وهذا مما لا نزاع فيه» قاله ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٤٧).

هذا هو معنى الإنزال للقـرآن جملةً واحدة من اللوح المحـفوظ إلى السماء الدنيا[١]، ثم نزل من بعد ذلك نجوماً[٢] متفرقـة ؛ ليعالج كل المسائل التى تعرَّض لها المسلمون.

وهكذا يؤول الأمر إلى أن القرآن نزل أو نزل به الروح الأمين.

والحق ـ سبحانه ـ يقول :

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

أى: أن الحق ـ سبحانه ـ أنزله من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا، ثم أنزله مفرقاً ليعالج الأحداث ويباشر مهمته فى الوجود الواقعى[٣].

---

(١) ذكر أبو شامة فى المرشد الوجيز أن «السر فى إنزاله جملة إلى السماء، تفخيم أمره وأمر من نزل عليه، وذلك بـإعلام سكان السمـاوات السبع أن هذا آخر الكتب المـنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم، قد قـرَّبناه إليـهم لننزله عليـهم، ولولا أن الحكمـة الإلهيـة اقتـضت وصوله إليهم مُنجماً بحسب الوقـائع لهبط به إلى الأرض جملة، كسائر الكتب المنزلة قبله، ولكن الله باين بينه وبينها. فجعل له الأمرين: إنزاله جـملة، ثم إنزاله مُفرّقاً، تشريفاً للمُنزل عليه. نقله السيوطى فى [الإتقان فى علوم القرآن ١/١١٩)].

(٢) نجوماً: مُنجَّماً، أى: أن القرآن أُنزل مفرقاً نجماً بعد نجم، آية بعد آية ، على حسب الأحداث والأحوال، ولذلك كان علم «أسبابَ النزول» وذلك أدعى إلى قـبوله، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة، فإنه كان ينفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهى. انظر [لسان العرب مادة: نجم]، [الإتقان للسيوطى ١/١٢٣].

(٣) من أمثلة هذا قـوله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ .. (٥٣) ﴾ [الأحزاب]

قال الواحـدى عن أسباب نـزول هذه الآية: « لما بنى رسول الله ﷺ بزينـب بنت جحش أولم عليها بتمر وسويق وذبح شاة. قال أنس: وبعثت إليه أمى أم سليم بحيس فى تور من حجـارة، فأمرنى النبـى ﷺ أن أدعو أصحـابه إلى الطعام، فجـعل القوم يجـيئون فـيأكلون فيخرجـون ، ثم يجىء القوم ويأكلون ويخرجون. فقلت: يا نبى الله قد دعـوت حتى ما أجد أحداً أدعـوه. فقال: ارفـعوا طعامكم، فـرفعوا وخرج الـقوم وبقى ثلاثة أنفار يتـحدثون فى البيت، فـأطالوا المكث، فتـأذى منهم رسول الله ﷺ وكـان شديد الحيـاء، فنزلت هذه الآية» [أسباب النزول: ص٢٠٥].

وفى هذه الآية يقول ـ سبحانه :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا .. ②﴾ [يوسف]

وفى الآية السابقة قال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ..①﴾ [يوسف]

فمرَّة يَصِفه بأنه قرآن بمعنى المقروء ، ومرّة يَصِفه بأنه كتاب ؛ لأنه مسطور ، وهذه من معجزات التسمية.

ونحن نعلم أن القرآن حين جُمِع[1] ليكتب ؛ كان كاتب القرآن لا يكتب إلا ما يجده مكتوباً ، ويشهد عليه اثنان من الحافظين.

ونحن نعلم أن الصدور قد تختلف بالأهواء ، أما السطور فمُثْبتة لا لَبْسَ فيها.

وهو قرآن عربى؛ لأن الرسول ﷺ سيجاهر بالدعوة فى أمة عربية، وكان لابد من وجود معجزة تدل على صدق بلاغه عن الله، وأن تكون

---

(١) قال الحاكم فى المستدرك : جمع القرآن ثلاث مرات:
إحداها : بحضرة النبى ﷺ .
الثانية : بحضرة أبى بكر رضى الله عنه.
الثالثة : فى زمن عثمان رضى الله عنه.
والمقصود هنا هو الجمع الثانى للقرآن والذى قام به زيد بن ثابت بأمر من أبى بكر رضى الله عنه: إنك شاب عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ، فتتبع القرآن فاجمعه . قال زيد : فتتبعت القرآن أجمعه من العُسُب واللخاف وصدور الرجال. وكان زيد لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان. قال السيوطى: «وهذا يدل على أن زيداً كان لا يكتفى بمجرد وجدانه مكتوباً حتى يشهد به مَنْ تلقَّاه سماعاً، مع كون زيد كان يحفظ، فكان يفعل ذلك مبالغة فى الاحتياط. [انظر: الإتقان فى علوم القرآن ١/ ١٦٤ ـ ١٦٧] باختصار.

مِمَّا نبغ[١] فيه العرب ؛ لأن المعجزة مشروطة بالتحدى ، ولا يمكن أن يتحداهم فى أمر لا ريادة لهم فيه ولا لهم به صلة ؛ حتى لا يقولن أحد: نحن لم نتعلم هذا ؛ ولو تعلمناه لجئنا بأفضل منه.

وكان العرب أهل بيان وأدب ونبوغ فى الفصاحة والشعر ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق[٢] ، وتتفاخر كل قبيلة بشعرائها وخطبائها المُفوَّهين[٣] ، وكانت المباريات الآدائية تُقَام ، وكانت التحديات تجرى فى هذا المجال ، ويُنصَب لها الحكام.

أى : أن الدُّرْبَة على اللغة كانت صناعة متواترة ومتواردة ، محكوم عليها من الناس فى الأسواق ، فَهُم أمة بيان[٤] وبلاغة وفصاحة.

لذلك شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يكون القرآن معجزة من جنس ما نبغ فيه العرب ، وهم أول قوم نزل فيهم القرآن ، وحين يؤمن

---

(١) نبغ الشىء : ظهر. نبغ منهم شاعر: خرج. والنابغة: الشاعر المعروف، سُمِّى بذلك لظهوره. [لسان العرب ـ مادة: نبغ].

(٢) كانت للعرب أسواق يجتمعون فيها، مثل: عكاظ، وذى المجاز، فكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة ويتفاخرون بها، يحضرها الشعراء فيتناشدون ما أحدثوا من الشعر.

(٣) المفوَّه : حسن الكلام بليغ المنطق، فهو قادر على الكلام الجيد فى بساطة وسلاسة. راجع بعض هذا فى [لسان العرب ـ مادة: فوه].

(٤) البيان: إظهار المقصود بأبلغ لفظ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللَّسَن، وأصله الكشف والظهور. [اللسان ـ مادة: بين]. والبيان: الكشف والإيضاح والكلام البليغ. قال تعالى: ﴿هَـٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ ..(١٣٨)﴾ [آل عمران] أي: كشف وإيضاح أو هذا كلام بليغ. وقوله: ﴿عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾ [الرحمن] أى: النطق المعبِّر عمَّا فى النفس من معانٍ وأفكار. [القاموس القويم ـ مادة: بين].

هؤلاء لن يكون التحدى بفصاحة الألفاظ ونسق الكلام ، بل بالمبادىء التى تطغى على مبادىء الفرس والروم.

وهى مبادىء قد نزلت فى أمة مبتدِّية[١]، ليس لها قانون يجمعها، ولا وطن يضمهم يكون الولاء له ، بل كل قبيلة لها قانون ، وكلهم بَدْو يرحلون من مكان إلى مكان.

وحين نزل فيهم القرآن علم أهل فارس والروم أن تلك الأمة المُتبدِّية قد امتلكتْ ما يبنى حضارة ليس لها مثيل من قَبْل ، رغم أن النبى أميٌ وأن الأمة التى نزل فيها القرآن كانت أمية.

وفارس والروم يعلمون أن الرسول الذى نزل فى تلك الأمة تحدَّاهم بما نبغُوا فيه، وما استطاع واحد منهم أن يقوم أمام التحدى ، ومن هنا شعروا أنهم أمام تحد حضارى من نوع آخر لم يعرفوه.

ويشاء الحق ـ سبحانه ـ أن ينزل القرآن عربياً ؛ لأن الحق لم يكن ليرسل رسولاً إلا بلسان قومه ، فهو القائل:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ[٢] قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ④﴾ [إبراهيم]

---

(١) متبدية: نسبة إلى البادية. يقال: تبدّى الرجل: أقام بالبادية. والبادية: خلاف الحضَر. وسُمِّيت بادية لبروزها وظهورها عن أماكن تجمع الناس فى الحضر حول الماء وغيره. بتصرف من [لسان العرب ـ مادة: بدو].

(٢) اللسان: إحدى حواس الذوق والنطق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ⑧ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ⑨﴾ [البلد] فالله يمتنُّ على الإنسان بنعمة البصر والنطق. واللسان: اللغة والكلام، قال تعالى: ﴿وَأَخِي هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا .. ㉞﴾ [القصص] أى: أقدر منى على الكلام الفصيح. وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ..㉒﴾ [الروم] السنتكم، أى: لغاتكم ولهجاتكم [القاموس القويم ـ مادة لسن].

وأُرسِلَ محمد ﷺ بالقرآن ، الذى تميَّز عن سائر كتب الرسل الذين سبقوه ؛ بأنه كتاب ومعجزة فى آنٍ واحد ، بينما كانت معجزات الرسل السابقين عليه ﷺ مُنْفصلةً عن كُتب الأحكام التى أُنزِلتْ إليهم.

ويظلُّ القرآن معجزة تحمل منهجاً إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومادام قد آمنَ به الأوائل وانساحوا[1] فى العالم، فتحقق بذلك ما وعد به الله أن يكون هذا الكتابُ شاملاً ، يجذب كل مَنْ لم يؤمن به إلى الانبهار بما فيه من أحكام.

ولذلك حين يبحثون عن أسباب انتشار الإسلام فى تلك المدة الوجيزة، يجدون أن الإسلام قد انتشر لا بقوة مَنْ آمنوا به ؛ بل بقوة مَنْ انجذبوا إليه مَشْدُوهين[2] بما فيه من نُظُمٍ تُخلِّصهم من متاعبهم.

ففى القرآن قوانين تُسعِد الإنسانَ حقاً ، وفيه من الاستنباءات بما سوف يحدث فى الكون ؛ ما يجعل المؤمنين به يذكرون بالخشوع أن الكتاب الذى أنزله الله على رسولهم لم يفرط فى شىء.

وإذا قال قائل من المستشرقين: كيف تقولون : إن القرآن قد نزل

---

(١) السياحة: الذهاب فى الأرض لاغراض مختلفة منها العبادة والدعوة والتجارة. وأصله من سَيْح الماء الجارى على وجه الأرض. [لسان العرب ـ مادة: سيح] بتصرف.

(٢) شُدِه الرجل شَدَهاً: تحيَّر. والدَّهْش أيضاً: التحيُّر. دهش: تحيَّر، أو ذهب عقله من ذَهَل أو وَلَه فهو مدهوش، وأدهشه غيره. [اللسان ـ مادتا: شده، دهش].

بلسان عربى مبين ؛ رغم وجود ألفاظ أجنبية مثل كلمة « آمين » التى تُؤمِّنون[١] بها على دعاء الإمام ؛ كما توجد ألفاظ رومية[٢]، وأخرى فارسية[٣]؟

وهؤلاء المستشرقون لم يلتفتوا إلى أن العربى استقبل ألفاظاً مختلفة من أمم متعددة نتيجة اختلاطه بتلك الأمم ، ثم دارتْ هذه الألفاظ على لسانه ، وصارت تلك الألفاظ عربية ، ونحن فى عصورنا الحديثة نقوم بتعريب الألفاظ ، وندخل فى لغتنا أىَّ لفظ نستعمله

---

(١) التأمين: قول آمين. وآمين : كلمة تُقال فى إثر الدعاء، قال الفارسى: هى جملة مركبة من فعل واسم، معناه: اللهم استجب لى. [لسان العرب ـ مادة: أمن]. وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أمَّن الإمام فأمِّنوا، فإنه من وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه» أخرجه الإمام مالك فى موطئه (١/٨٧) وأحمد فى مسنده (٢/٢٣٨ ، ٣٢١) والبخارى فى صحيحه (٧٨٠) وكذا مسلم (٤١٠).

(٢) من أمثلة الألفاظ الرومية الموجودة فى القرآن الكريم :
– (الرقيم) فى قوله تعالى : ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ۝٩﴾ [الكهف]. قال السيوطى فى الإتقان (٢/١١٢) أنه قد قيل فيها ثلاثة أقوال: اللوح، الكتاب، الدواة.
– (الصراط) : حكى النقاش وابن الجوزى أنه الطريق بلغة الروم.
– (طفقا) فى قوله تعالى : ﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ .. ۝٢٢﴾ [الأعراف] معناه: قصدا بالرومية.

(٣) من أمثلة الألفاظ الفارسية فى القرآن الكريم :
ـ (أباريق) : حكى الثعالبى فى فقه اللغة أنها فارسية. وقال الجواليقى: الإبريق فارسىٌّ مُعرَّب، ومعناه: طريق الماء، أو صب الماء على هينة.
– (دينار) : فى قوله تعالى : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا .. ۝٧٥﴾ [آل عمران] . ذكر الجواليقى وغيره أنه فارسى.
– (سجيل): عن مجاهد قال: سجيل بالفارسية، أولها حجارة، وآخرها طين.

ويدور على ألسنتنا ، ما دُمْنا نفهم المقصود به[١].

ويُذيِّل الحق ـ سبحانه ـ الآية الكريمة بقوله :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝٢ ﴾ [يوسف]

ليستنهض همة العقل ، ليفكر فى الأمر ، والمُنْصف بالحق يُهِمه أن يستقبل الناس ما يعرضه عليهم بالعقل ، عكس المدلس[٢] الذى يهمه أن يستر العقل جانباً ؛ لينفُذَ من وراء العقل.

وفى حياتنا اليومية حين ينبهك التاجر لسلعة ما ، ويستعرض معك مَتَانتها ومحاسنها ؛ فهو يفعل ذلك كدليل على أنه واثق من جودة بضاعته.

أما لو كانت الصَّنْعة غير جيدة ، فهو لن يدعوك للتفكير بعقلك ؛ لأنك حين تتدبر بعقلكَ الأمر تكتشف المُدلس وغير المُدلس ؛ لذلك فهو يدلس عليك، ويُعمِّى عليك، ولا يدع لك فرصة للتفكير.

---

(١) ذكر السيوطى فى كتابه الإتقان (٢/١٠٥ ـ ١٠٨) اختلاف العلماء فى عربية هذه الألفاظ وفى أعجميتها وذكر أدلة كل من الفريقين.ثم قال: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «الصواب عندى مذهب فيه تصديق القولين جميعاً، وذلك أن هذه الأحرف أصولها أعجمية كما قال الفقهاء، لكنها وقعت للعرب، فعربّتها بألسنتها وحوّلتها عن ألفاظ العجم إلى ألفاظها، فصارت عربية، ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الحروف بكلام العرب، فمن قال إنها عربية فهو صادق، ومن قال أعجمية فصادق» ومال إلى هذا القول الجواليقى وابن الجوزى وآخرون».

(٢) التدليس: إخفاء العيب. والمدالسة: المخادعة. والتدليس فى البيع: كتمان عيب السلعة عن المشترى. واندلس الشيء: إذا خفى [لسان العرب ـ مادة: دلس].

ويقول الحق ـ سبحانه ـ من بعد ذلك:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ(١) بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③ ﴾

حين يتحدث الحق ـ سبحانه ـ عن فعل من أفعاله ؛ ويأتى بضمير الجمع ؛ فسبب ذلك أن كل فعل من أفعاله يتطلب وجودَ صفات متعددة ؛ يتطلب : علماً ؛ حكمة ؛ قدرة ؛ إمكانات.

ومَنْ غيره ـ سبحانه ـ له كل الصفات التى تفعل ما تشاء وقْتَ أن تشاء؟

لا أحد سواه قادر على ذلك ؛ لأنه ـ سبحانه ـ وحده صاحب الصفات التى تقوم بكل مطلوب فى الحياة ومُقدَّر.

لكن حين يتكلم ـ سبحانه ـ عن الذات ؛ فهو يؤكد التوحيد فلا تأتى بصيغة الجمع ، يقول تعالى : ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدْنِي

---

(١) قصَّ الكلام أو الأخبار: يقصُّها قصاً وقصصاً: تتبعها ورواها وحكاها، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لا تَخَفْ .. ㉕﴾ [القصص] أى: قص عليه أخباره وحدَّثه بها. والقصص: مصدر يُطلق على ما يُروى من الأخبار، قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ .. ⑪⑪⑪﴾ [يوسف] . [القاموس القويم (٢/ ١٢٠)] .

وَأَقِمِ[1] الصَّلاةَ لِذِكْرِي[2] (١٤) ﴾ [طه]

وهنا يتكلم - سبحانه - بأسلوب يعبر عن أفعال لا يَقْدر عليها غيره؛ بالدقة التى شاءها هو - سبحانه - فيقول:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. (٣) ﴾ [يوسف]

وحدد - سبحانه - أنه هو الذى يقصُّ، وإذا وُجِد فعل لله ؛ فنحن نأخذ الفعل بذاته وخصوصه ؛ ولا نحاول أن نشتق منه اسماً نطلقه على الله ؛ إلا إذا كان الفعل له صفة من صفاته التى علِمْناها فى أسمائه الحسنى ؛ لأنه الذات الأقدس.

وفى كل ما يتعلق به ذاتاً وصفاتٍ وأفعالاً إنما نلتزم الأدب ؛ لأننا لا نعرف شيئاً عن ذات الله إلا ما أخبرنا الله عن نفسه ، لذلك لا يصح أن نقول عن الله أنه قصَّاص ، بل نأخذ الفعل كما أخبرنا به ، ولا نشتق منه اسماً لله ؛ لأنه لم يصف نفسه فى أسمائه الحسنى بذلك.

---

(١) أقام الصلاة: أداها كاملة. وقوله تعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ..(٢٩) ﴾ [الأعراف] أى: أخلصوا قلوبكم لله، وعَدِّلوا وجوهكم واجعلوها تتجه لله فى المساجد فى الصلاة بإخلاص. وقوله تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا .. (٣٠) ﴾ [الروم] أى: ارفعه وعَدِّله، والمراد كن مستقيماً مخلصاً للدين. وإقام: اسم مصدر من أقام بمعنى إقامة. ومنه: ﴿ وَإِقَامِ الصَّلاةِ .. (٣٧) ﴾ [النور] أى: إقامة الصلاة كاملة بصفة دائمة. [القاموس القويم ٢/١٤٠، ١٤١، ١٤٣] بتصرف واختصار شديدين.

(٢) الذكر: الاستحضار بالقلب مع التأمل، والذكر الحديث والقصة. والذكر: القرآن والكتب المنزلة كلها. قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر] هو القرآن الكريم. وقوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) ﴾ [الشرح] أى: شرفك وحديث الناس عنك بالخير.

والواجب أن ما أطلقه ـ سبحانه ـ اسماً نأخذه اسماً، وما أطلقه فعلاً نأخذه فعلاً.

وهنا يقول ـ سبحانه:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ③﴾ [يوسف]

ونعلم أن كلمة «قص» تعنى الإتباع ، وقال بعض العلماء : إن القصة تُسمَّى كذلك لأن كل كلمة تتبع كلمة ، ومأخوذة من قَصِّ الأثر ، وهو تتبع أثر السائر على الأرض ، حتى يعرف الإنسان مصير مَنْ يتتبعه ولا ينحرف بعيداً عن الاتجاه الذى سار فيه مَنْ يبحث عنه.

واقرأ قول الحق ـ سبحانه ـ: ﴿وَقَالَتْ لأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ[1] بِهِ عَن جُنُبٍ[2] وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ⑪﴾ [القصص]

و ﴿قُصِّيهِ .. ⑪﴾ [القصص]

أى: تتبعى أثره.

إذن : فالقَصُّ ليس هو الكلمة التى تتبع كلمة، إنما القَصُّ هو تتبُّع ما حدث بالفعل.

---

(١) بصُر به: رآه ببصره فهو بصير. وبصُر بالأمر: علِمَه كأنه رآه ببصره.. وقوله: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. ⑪﴾ [القصص] أى: رأته من أحد جوانب البيت وهى متخفية. وقوله تعالى عن السامرى: ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ .. ⑯﴾ [طه] أى: علمت بما لم يعلموا، وهو رؤية أثر الرسول أو سرِّه. [القاموس القويم ١/٦٩].

(٢) الجنب: قد يراد به البُعْد البعيد كما يراد به الجانب. قال تعالى : ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ .. ⑪﴾ [القصص] أى : عن بُعْد ، أو رأته من جانب من جوانب القصر أو من بعيد. [القاموس القويم ١/١٣٠].

ويعطينا الحق سبحانه مثلاً من قصة موسى عليه السلام مع فتاه:

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ[1] وَمَا أَنسَانِيهُ إِلاَّ الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا[2] (٦٣) قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ[3] فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)﴾ [الكهف]

أى : تَابَعا الخطوات.

وهكذا نعلم أن القص هو تتبُّع ما حدث بالفعل، فتكون كل كلمة مُصوِّرة لواقع ، لا لَبْسَ[4] فيه أو خيال ؛ ولا تزيُّد ، وليس كما يحدث

(١) الحوت: السمكة. كبرت أو صغرت، والجمع حيتان. قال تعالى عن موسى قوله: ﴿ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ .. (٦٣) ﴾ [الكهف] أى : السمكة، وقال: ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف] كانت تظهر لهم الحيتان فى الماء يوم السبت، فيصيدونها مخالفين أمر ربهم. [القاموس القويم ١/١٧٦] قال ابن منظور فى [لسان العرب ـ مادة: حوت]: «المحاوتة: المراوغة. وهو يُحاوتنى اى يُراوغنى. وحاتَ الطائر على الشيء يحوت أى : حام حوله».

(٢) العجب: روعة ودهشة تأخذ الإنسان عند استحسان شيء خَفِى سرُّه او استعظامه. واعجبه الأمر: سرَّه أو حمله على العجب منه. وأمر عجيب وعُجاب وعُجَّاب بتشديد الجيم للمبالغة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ.. (٥) ﴾ [ص]. [القاموس القويم ٢/٧].

(٣) بغى الشيء: طلبه. وابتغاه: طلبه. قال تعالى: ﴿ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ .. (٤٧) ﴾ [التوبة] أى: يطلبونها لكم. وقال تعالى: ﴿ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ ..(٢٩) ﴾ [الفتح] وقوله: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ .. (٤٨) ﴾ [التوبة] أى: طلبوها وسعوا فى بثها ونشرها. والابتغاء: الطلب. قال تعالى : ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ .. (١٠٤) ﴾ [النساء] فى طلبهم لقتالهم، وقال: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد] أى: طلباً لرضاه تعالى عنهم. [القاموس القويم ١/٧٦، ٧٧].

(٤) اللَّبْس واللبَس : اختلاط الأمر. لبس عليه الأمر يلبسه لبساً فالتبس إذا خلطه عليه حتى لا يعرف جهته. والتبس عليه الأمر أى: اختلط واشتبه. وتلبس بى الأمر: اختلط وتعلق. [لسان العرب ـ مادة: لبس].

فى القصص الفنىِّ الحديث ؛ حيث يضيف القصَّاص لقطاتٍ خيالية من أجل الحَبْكة[١] الفنية والإثارة وجَذْب الانتباه.

أما قَصَص القرآن فوضْعُه مختلف تماماً ، فكلٌّ قَصص القرآن إنما يتتبع ما حدث فعلاً؛ لنأخذ منها العبرة[٢]؛ لأن القصة نوع من التاريخ.

والقصة فى القرآن مرةً تكون للحدث، ومرَّة تكون لتثبيت فؤاد الرسول ﷺ ، فلم تَأْتِ قصة رسول فى القرآن كاملة، إلا قصة يوسف ـ عليه السلام.

أما بقية الرسل فقَصَصهم جاءت لقطاتٍ فى مناسبات لتثبيت فؤاد[٣] الرسول محمد ﷺ ، فتأتى لقطة من حياة رسول، ولقطة من حياة رسول آخر، وهكذا.

ولا يقولن أحد : إن القرآن لم يستطع أن يأتى بقصة كاملة

---

(١) الحبْك : الشدُّ .والحُبْكة: الحبل يُشدُّ به على الوسط. والتحبيك: التوثيق. وجاد ما حبكه إذا أجاد نَسْجه. وحبك الثوب يحبكه حبكاً: اجاد نسجه وحسَّن أثر الصنعة فيه. [لسان العرب ـ مادة: حبك] ويستعار اللفظ ليستخدم فى الحبكة القصصية كأنها ثوب يُجَاد نسجه وصنعه فلا يكون مُهلهَلاً.

(٢) وذلك فى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ..(١١١)﴾ [يوسف]. والعبرة: اسم للشىء الذى يتعظ به الإنسان. والعبرة: العظة. قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً ..(٤٤)﴾ [النور]. وقال: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ (٢)﴾ [الحشر] أى: اتعظوا. [القاموس القويم ٢/٤].

(٣) يقول الحق سبحانه : ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ (١٢٠)﴾ [هود] أى: نثبت به فؤادك على اداء الرسالة والصبر على ما ينالك فيها من الأذى. [تفسير القرطبى ٣٤٣٥/٤].

مستوفية؛ فقد شاء الحق ـ سبحانه ـ أن يأتى بقصة يوسف من أولها إلى آخرها، مُسْتوفية، ففيها الحدث الذى دارتْ حوله أشخاصٌ، وفيها شخصٌ دارتْ حوله الأحداث.

فقصة يوسف ـ عليه السلام ـ فى القرآن لا تتميز بالحَبْكة فقط؛ بل جمعتْ نَوعَىْ القصة، بالحدث الذى تدور حوله الشخصيات، وبالشخص الذى تدور حوله الأحداث.

جاءتْ قصة يوسف بيوسف، وما مَرَّ عليه من أحداث ؛ بَدْءً من الرُّؤيا، ومروراً بحقد الإخوة وكيدهم، ثم محاولة الغواية[1] له من امرأة العزيز، ثم السجن، ثم القدرة على تأويل الأحلام، ثم تولِّى السلطة، ولقاء الإخوة والإحسان إليهم، وأخيراً لقاء الأب من جديد.

إذن : فقول الحق ـ سبحانه:

﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ .. ③﴾ [يوسف]

يبيِّن لنا أن الحُسْن أتى لها من أن الكتب السابقة تحدثت عن قصة يوسف، لكن أحبار[2] اليهود حين قرأوا القصة كما جاءتْ بالقرآن ترك

---

(١) الغواية : الضلال والانهماك فى الغَيّ والفساد. غَوَى يَغْوِى: انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد، قال تعالى : ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦)﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/٦٤].

(٢) الأحبار: جمع حَبْر، وهو العالم، قال تعالى : ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ .. (٣١)﴾ [التوبة] وأصل الكلمة الحِبْر: الذى يُكتب به، وهو المداد. وكل ما حَسُن من خط أو كلام أو شعر أو غير ذلك، فقد حُبِر حَبْراً وحُبِّر. [لسان العرب ـ مادة: حبر].

بعضهم كتابه ، واعتمد على القرآن فى روايتها ، فالقصة أحداثها واحدة ، إلا صياغة الأداء ؛ وتلمُّسات المواجيد النفسية ؛ وإبراز المواقف المطْويَّة فى النفس البشرية ؛ وتحقيق الرُّؤى الغيبية كُلُّ ذلك جاء فى حَبْكة ذات أداء بيانى مُعْجز جعلها أحسنَ القَصَص .

أو : هى أحسن القصص بما اشتملتْ عليه من عِبَر متعددة ، عِبَر فى الطفولة فى مواجهة الشيخوخة ، والحقد الحاسد بين الإخوة ، والتمرد ، وإلقائه فى الجبِّ والكيد له ، ووضعه سجيناً بظلم ، وموقف يوسف عليه السلام من الافتراء الكاذب ، والاعتزاز بالحق حتى تمَّ له النصر والتمكين .

وكيف ألقى الله على يوسف ـ عليه السلام ـ محبةً منه ؛ ليجعل كل مَنْ يلتقى به يحب خدمته .

وكيف صانَ يوسف إرثَ النبوة ، بما فيها من سماحة وقدرة على العفو عند المقدرة ؛ فعفَا عن إخوته بما روتْه السورة: ﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف]

وقالها سيد البشر محمد ﷺ لأهله يوم فتح مكة : « اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء»[2] .

---

(١) ثَربه : لامه وعتب عليه . وثرَّبه بالتضعيف : أكثر لَوْمَه ، وعَيَّره بذنبه ، وأنَّبه على سوء فعله. قال تعالى : ﴿ لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ..(٩٢)﴾ [يوسف] أى: لا لوم ولا تأنيب. [القاموس القويم ١/١٠٦].

(٢) قال ابن إسحاق: حدثنى بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قام فى خطابه على باب الكعبة فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، إلى أن قال : ما تَرَوْن أنى فاعل فيكم ؟ قالوا : خيراً ، أخ كريم ، وابن أخ كريم . قال : اذهبوا فأنتم الطلقاء» [راجع : السيرة النبوية لابن هشام ٤/٤١٢].

هكذا تمتلئ سورة يوسف بعِبَر متناهية ، يتجلَّى بعضٌ منها فى قضية دخوله السجنَ مظلوماً ، ثم يأتيه العفو والحكم ؛ لذلك فهى أحسنُ القَصص ؛ إما لأنها جمعتْ حادثة ومَنْ دار حولها من أشخاص ، أو جاء بالشخص وما دار حوله من أحداث.

أو : أنها أحسنُ القصص فى أنها أدّتْ المتَّحد والمتفق عليه فى كل الكتب السابقة ، وجاء على لسان محمد الأمى ، الذى لا خبرة له بتلك الكتب ؛ لكن جاء عَرْضُ الموضوع بأسلوب جذَّاب مُسْتمِيل مُقْنع مُمْتع.

أو : أنها أحسن القصص ؛ لأن سورة يوسف هى السورة التى شملت لقطاتٍ متعددةٍ تساير : العمر الزمنى ؛ والعمر العقلى ؛ والعمر العاطفى للإنسان فى كل أطواره ؛ ضعيفاً ؛ مغلوباً على أمره ؛ وقوياً مسيطراً ، مُمكَّناً من كل شىء .

بينما نجد أنباء الرسل السابقين جاءت كلقطات مُوزَّعة كآيات ضمن سُور أخرى ؛ وكل آية جاءت فى موقعها المناسب لها.

إذن : فالحُسْن البالغ قد جاء من أسلوب القرآن المعجز الذى لا يستطيع واحد من البشر أن يأتى بمثله.

يقول الحق سبحانه : ﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③ ﴾ [يوسف]

والمقصود بالغفلة هنا أنه ﷺ كان أُمِّيًا، ولم يعرف عنه أحدٌ قبل

نزول القرآن أنه خطيب أو شاعر ، وكل ما عُرِف عنه فقط هو الصفات الخُلقية العالية من صدق وأمانة ؛ وهى صفات مطلوبة فى المُبلِّغ عن الله ؛ فما دام لم يكذب من قبل على بشر فكيف يكذب وهو يُبلِّغ عن السماء رسالتها لأهل الأرض ؟

إن الكذب أمر مُسْتبعد تماماً فى رسول الله ﷺ قبل البعثة وبعدها.

والمثال على تصديق الغير لرسول الله هو تصديق أبى بكر رضى الله عنه له حين أبلغه رسول الله ﷺ أن الوحى قد نزل عليه ، لم يَقُلْ له أكثر من أنه رسول من عند الله ، فقال أبو بكر ـ رضى الله عنه ـ: صدقْتَ.

وحين حدثتْ رحلة الإسراء ؛ وكذَّبها البعض متسائلين : كيف نضرب إليها أكباد الإبل شهراً ويقول محمد إنه قطعها فى ليلة ؟ فسألهم أبو بكر : أقال ذلك ؟ قالوا : نعم . فقال أبو بكر : ما دام قد قال فقد صدق[(١)] .

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٣٩٨) باختصار «أن رسول الله ﷺ لما أصبح بعد عودته من بيت المقدس غدا على قريش فأخبرهم الخبر. فأنكروا عليه ذلك ، وقصدوا أبا بكر وعرضوا عليه هذا الأمر فى إنكار ، فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه . فقالوا : بلى ، هاهو ذاك فى المسجد يحدِّث به الناس.

فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يُعجبكم من ذلك . فوالله إنه ليُخبرنى أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض فى ساعة من ليل أو نهار فأصدقه ، فهذا أبعد مما تعجبون منه ».

وهكذا نجد أن حيثية الصِّدْق قبل الرسالة هى التى دَلَّتْ على صدقه حين أبلغ بما نزل عليه من وحى.

مثال ذلك : تصديق خديجة رضى الله عنها وأرضاها له ؛ حين أبلغها بنزول الوحى ، فقالت له : « والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتَصِلُ الرَّحِم، وتحمل الكَلَّ[١] ، وتُكسِب المَعْدُوم[٢]، وتَقْرِى[٣] الضَّيف ، وتعين على نوائب[٤] الحق »[٥].

وكان فى صدق بصيرتها ، وعميق حساسية فطرتها أسبابٌ تؤيد تصديقها له ﷺ فى نبوته[٦].

وحين وقعت بعض الأمور التى لا تتفق مع منطق المقدمات والنتائج ، والأسباب والمسببات ؛ كانت بعض العقول المعاصرة

---

(١) الكَلُّ : هو مَنْ لا يستقل بأمره . قال تعالى: ﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ ..(٧٦)﴾ [النحل] . والكل هو: العاجز الثقيل لا خير فيه [القاموس القويم ٢/١٦٩] باختصار .

(٢) المعدوم: كالميت الذى لا تصرُّف له . والمعنى : أنك تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك. [فتح البارى ١/٢٤].

(٣) قَرَى الضيف : أضافه . والقِرى : طعام الأضياف . [لسان العرب ـ مادة : قرى].

(٤) النوائب : جمع نائبة ، وهى ما ينوب الإنسان أى : ينزل به من الملمات والحوادث . والنائبة : المصيبة من مصائب الدهر تنزل بالإنسان . [لسان العرب ـ مادة : نوب] بتصرف.

(٥) حديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها.

(٦) قال رسول الله ﷺ : « آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدَّقتنى إذ كذَّبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الله الولد دون غيرها من النساء » . أخرجه أحمد فى مسنده (٦/١١٨) من حديث عائشة.

لرسول الله تقف متسائلة : كيف ؟ فيوضح لهم أبو بكر : « انتبهوا إنه رسول الله ».

مثال هذا : ما حدث في صلح الحديبية ، حين يقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ متسائلاً ـ ويكاد أن يكون رافضاً لشروط هذا الصلح ـ : ألسْنا على الحق ؟ عَلام نعطي الدَّنية[1] في ديننا ؟

ويرد عليه أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : استمسك بِغَرْزِه[2] يا عمر ، إنه رسول الله[3].

أي : انتبه واعلم أنك تتكلم مع رسول الله ﷺ ، وليس في ذلك انصياعٌ أعمى ؛ بل هي طاعة عن بصيرة مؤمنة.

والحق سبحانه يقول هنا:

﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③ ﴾ [يوسف]

والغافل : هو الذي لا يعلم ـ لا عن جهل ، أو قصور عقل ـ ولكن لأن ما غفل عنه هو أمر لا يشغل باله.

---

(١) الدنية: الخصلة المذمومة. ورجل دَنِيٌّ من قوم أدنياء هو الضعيف الخسيس [لسان العرب ـ مادة: دنا] باختصار .

(٢) الغرز: ركَاب الرحْل ، وكل ما كان مساكاً للرِّجْلَيْن في المركب غَرْز . والغرز للناقة مثل الحزام للفرس ، ومثل الركاب للبغل . ومنه حديث أبي بكر أنه قال لعمر : « استمسك بغرزه » أي : اعتلق به وأمسكه واتبع قوله وفعله ولا تخالفه ، فاستعار له الغرز كالذي يمسك بركاب الراكب ويسير بسيره. [لسان العرب ـ مادة : غرز].

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣/٤ ـ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة الزهري ومروان ابن الحكم وتمامه « أن عمر بن الخطاب أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أو ليس برسول الله؟ أو لسنا بالمسلمين؟ أو ليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قال: فعلام نعطي الذلة في ديننا؟ فقال أبو بكر: يا عمر الزم غرزه حيث كان» الحديث.

أو : أن يكون المقصود بقوله:

﴿ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ③ ﴾ [يوسف]

أى : أنك يا محمد لم تكن ممَّنْ يعرفون قصة يوسف ؛ لأنك لم تتعلم القراءة فتقرأها من كتاب ، ولم تجلس إلى مُعلِّم يروى لك تلك القصة ، ولم تجمع بعضاً من أطراف القصة من هنا أو هناك.

بل أنت لم تَتَلقَّ الوحى بها إلا بعد أن قال بعض من أهل الكتاب لبعض من أهل مكة : اسألوه عن أبناء يعقوب وإخوة يوسف ؛ لماذا خرجوا من الشام وذهبوا إلى مصر[1] ؟

وكان ضَرْباً[2] من الإعجاز أن ينزل إليك يا رسول الله هذا البيان العالى بكل تفاصيل القصة ، كدليل عمليٍّ على أن مُعلِّم محمدٍ ﷺ هو الله ، وأنه سبحانه هو مَنْ أوحى بها إليه .

والوَحْى - كما نعلم - هو الإعلام بخفاء ، وسبحانه يوحى للملائكة فيقول :

﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا.. ⑫﴾ [الأنفال]

---

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره من قول النحاس (٣٤٤٠/٤) : « يُروى أن اليهود قالوا : سلوه لم انتقل آل يعقوب من الشام إلى مصر ؟ وعن خبر يوسف ، فأنزل الله عز وجل هذا بمكة موافقاً لما فى التوراة ، وفيه زيادة ليست عندهم » .

(٢) الضرب : الصنف من الأشياء . ويقال : هذا من ضرب ذلك أى من نحوه وصنْفه ، والجمع : ضُروب . وضرب الله مثلاً أى وصف وبيَّن . وقولهم : ضرب له المثل بكذا ، إنما معناه بيَّن له ضَرْباً من الأمثال أى صنفاً منها . [لسان العرب - مادة : ضرب] .

وسبحانه يوحى إلى مَنْ يصطفى من البشر إلى صفوتهم ؛ مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ[1] أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (١١١) ﴾ [المائدة]

ويقذف الحق سبحانه بالإلهام وحياً لا يستطيع الإنسان دَفْعاً له ، مثل الوحى لأم موسى بأن تلقى طفلها الرضيع موسى فى اليَمّ[2] :

﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ[3] فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ[4] يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه]

ويوحى سبحانه إلى الأرض وهى الجماد ، مثل قوله الحق :

﴿ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا (٥) ﴾ [الزلزلة]

---

(١) الحواريون : جمع حوارى . وهو : الخالص النقىُّ من كل شىء ، وشاع استعماله فى الخلصاء والأصفياء للأنبياء ، قال تعالى : ﴿ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ .. (٥٢) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم : ١/١٧٧] .

(٢) اليم : البحر أو النهر العذب ، قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] ، وهو خليج السويس وماؤه ملح ، وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم : ٢/٣٧٢] .

(٣) التابوت : الصندوق . قال تعالى : ﴿ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ .. (٢٤٨) ﴾ [البقرة] والتابوت أيضاً : الأضلاع وما تحويه كالقلب والكبد وغيرهما ، تشبيهاً بالصندوق الذى يُحْرز فيه المتاع . [القاموس القويم : ١/٩٦] ، [لسان العرب ـ مادة : تبت] .

(٤) سحله : قشره ونحته . والرياح تسحل الأرض : تكشط ما عليها من تراب . والساحل : شاطىء النهر ؛ لأن الموج يأكل منها وينحته ويسحته ، قال تعالى : ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي (٣٩) ﴾ [طه] أى : بشاطىء النهر . [القاموس القويم : ١/٣٠٦] .

وأوحى سبحانه إلى النحل ، فقال الحق :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ[1] ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً[2] ..﴿٦٩﴾ ﴾

[النحل]

والحق سبحانه يوحى لمن شاء بما شاء ، فالكل ؛ جماد ونبات وحيوان وإنسان ؛ من خَلْقه ، وهو سبحانه يخاطبهم بِسرٍّ خَلْقه لهم ، واختلاف وسائل استيعابهم لذلك.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ[3] لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا[4] وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾

---

(١) عرش البيت : سقفه . قال تعالى : ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا..﴿٤٥﴾ ﴾ [الحج] . [لسان العرب ـ مادة : عرش] .

(٢) ذل : لان وانقاد من غير قهر بعد تصعُّب ، فهو ذلول وجمعه ذلل ، وهذه مطايا ذلل أو طرق ذلل : سهلة ممهدة ، قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾ [الملك] ، وقوله : ﴿ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل] أى : ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم : ١/٢٤٥ باختصار] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٤١) : « سئل أبو الحسن الأقطع ـ وكان حكيماً ـ عن « يوسف » فقال : الأسف فى اللغة الحزن ، والأسيف العبد ، وقد اجتمعا فى يوسف ؛ فلذلك سُمِّى يوسف » .

(٤) الكوكب : فى تعبير القرآن يشمل الكوكب البارد التابع المستمد نوره من غيره ، ويشمل النجم الملتهب كأنه كرة كبيرة من النيران ، قال تعالى : ﴿ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ..﴿٣٥﴾ ﴾ [النور] أى : نجم ساطع الضياء . [القاموس القويم : ٢/١٧٧ باختصار] .

وهكذا تبدأ قصة يوسف ، حين يقول لأبيه يعقوب عليهما السلام « يا أبت » ، وأصل الكلمة « يا أبى » ، ونجد فى اللغة العربية كلمات « أبى » و « أبت » و « أبتاهُ » و « أبَة » وكلها تؤدى معنى الأبوة ، وإن كان لكل منها مَلْحظ لغوى .

ويستمر يوسف فى قوله :

﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ④ ﴾ [يوسف]

وكلنا رأينا الشمس والقمر ؛ كُلٌّ فى وقت ظهوره ؛ لكن حُلم يوسف يُبيِّن أنه رآهما معاً ، وكلنا رأينا الكواكب متناثرة فى السماء آلافاً لا حَصْرَ لها ، فكيف يرى يوسف أحد عشر كوكباً فقط ؟

لا بُدَّ أنهم اتصفوا بصفات خاصة ميَّزتهم عن غيرهم من الكواكب الأخرى ؛ وأنه قام بعدِّهم .

ورؤيا يوسف عليه السلام تبيِّن أنه رآهم شمساً وقمراً وأحد عشر كوكباً ؛ ثم رآهم بعد ذلك ساجدين .

وهذا يعنى أنه رآهم أولاً بصفاتهم التى نرى بها الشمس والقمر والنجوم بدون سجود ؛ ثم رآهم وهم ساجدون له ؛ بملامح الخضوع لأمر من الله ، ولذلك تكررت كلمة « رأيت » وهو ليس تكراراً ، بل لإيضاح الأمر .

ونجد أن كلمة ﴿ سَاجِدِينَ ④ ﴾ [يوسف]

وهى جمع مذكر سالم ؛ ولا يُجمع جَمْع المذكر السالم إلا إذا كان

المفرد عاقلاً ، والعقل يتميز بقدرة الاختيار بين البدائل ؛ والعاقل المؤمن هو مَنْ يجعل اختياراته فى الدنيا فى إطار منهج الدين ، وأسْمَى ما فى الخضوع للدين هو السجود لله .

ومَنْ سجدوا ليوسف إنما سجدوا بأمر من الله ، فَهُم إذن يعقلون أمر الحق سبحانه وتعالى[1] .

مثلُهم فى ذلك مَثَلُ ما جاء فى قول الحق سبحانه :

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ۝١ وَأَذِنَتْ[2] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق]

هذه السماء تعقل أمر ربِّها الذى بَنَاها .

وقال عنها أنها بلا فُرُوجٍ[3] :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٤٣/٤) : « القول عند الخليل وسيبويه أنه لما أخبر عن هذه الأشياء بالطاعة والسجود وهما من أفعال من يعقل أخبر عنهما كما يخبر عمَّنْ يعقل ».

ويؤخذ من مفهوم خواطر الإمام أن الآية بيَّنت منزلة يوسف بين الأسرة ، ومنزلته عند ربه وأنه فى نهاية المطاف سيعترفون بفضله وعظمته ، وهذا دليل الانتصار بعد الحصار .

ولنعلم أن الرؤيا المنامية لها قوانين تختلف عن الرؤية البصرية ، وأن رمزيات الرؤيا المنامية فيها من الأسرار ما يعطى المطلوب ؛ لأنها تحمل إشارات توضيحية للمراد منها مثل رؤيا يوسف فى حالة سجودهم له ، وأنه رأى الجميع فى وقت واحد مع حذف الزمن المنوط بهما .

(٢) أذن لكلام فلان ، وأذن إلى صوته : استمع إليه بإذنه وأنصت معجباً به مُحباً له ، وفُسِّر بهذا المعنى قوله تعالى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢﴾ [الانشقاق] أى : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم : ١٦/١ باختصار].

(٣) الفروج : جمع فرج ، وهو الخلل بين الشيئين . والفرج : الشق ، قال تعالى فى وصف السماء : ﴿ وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦﴾ [ق] أى : شقوق فهى متماسكة لا خلل فيها ولكنها يوم القيامة تتشقق . قال تعالى : ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ ۝٩﴾ [المرسلات] . [القاموس القويم : ٧٤/٢] .

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ⦗٦⦘﴾ [ق]

وهى أيضاً تسمع أمر ربها ، مصداقاً لقوله سبحانه :

﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⦗٢⦘﴾ [الانشقاق]

أى : أنها امتلكتْ حاسة السمع ؛ لأن «أذنت» من الأذن ؛ وكأنها بمجرد سماعها لأمر الله ؛ تنفعل وتنشق[1] .

وهكذا نجد أن كل عَالَم من عوالم الكون أُمَم مثل أمة البشر[2] ، ويتفاهم الإنسان مع غيره من البشر ممَّن يشتركون معه فى اللغة ، وقد يتفاهم مع البشر أمثاله ممن لا يعرف لغتهم بالإشارة ، أو من خلال مُترجم ، أو من خلال تعلُّم اللغة نفسها .

ولكن الإنسان لا يفهم لغة الجماد ، أو لغة النبات ، أو لغة الحيوان ؛ إلا إذا أنعم الله على عبد بأن يفهم عن الجماد ، أو أن يفهم الجماد عنه .

والمثل : هو تسبيح الجبال مع داود ، ويُشكِّل تسبيحه مع تسبيحها «جُوقة »[3] من الانسجام مُكوَّن من إنسان مُسبِّح ؛ هو أعلى الكائنات ، والمُردِّد للتسبيح هى الجبال ، وهى من الجماد أدنى الكائنات .

---

(١) ومثال هذا قوله تعالى : ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ⦗١١⦘﴾ [فصلت]

(٢) قال تعالى : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ..⦗٣٨⦘﴾ [الأنعام] .

(٣) الجَوْق فى اللغة : كل خليط من الرعاء أمرهم واحد . وقال الليث : الجوق كل قطيع من الرعاة أمرهم واحد . والجوق أيضاً : الجماعة من الناس . [لسان العرب ـ مادة : جوق].

ونحن نعلم أن كل الكائنات تُسبِّح ، لكننا لا نفقه تسبيحها[1] ، ولكن الحق سبحانه يختار من عباده مَنْ يُعلِّمه مَنْطق الكائنات الأخرى ، مثلما قال سبحانه عن سليمان :

﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾
[النمل]

وهكذا علمْنا أن للطير منطقاً . وعلَّم الحقُّ سبحانه سليمان لغة النمل ؛ لأننا نقرأ قول الحق :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ[2] سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي[3] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩) ﴾
[النمل]

إذن : فلكُلِّ أُمَّة من الكائنات لغة ، وهى تفهم عن خالقها ، أو مَنْ أراد له الله سبحانه وتعالى أن يفهم عنها ، وبهذا نعلم أن الشمس والقمر والنجوم حين سجدتْ بأمر ربها ليوسف فى رؤياه ؛ إنما فهمتْ عن أمر ربها .

---

(١) قال تعالى : ﴿ .. وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤) ﴾ [الإسراء] .

(٢) حطمه يحطمه : كسره بعنف ، وأصل الحطم : كسر الشيء الجاف ، ويُطلق على أى كسر ، قال تعالى : ﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ .. (١٨) ﴾ [النمل] . والحطام : ما تكسَّر من اليابس ، قال تعالى : ﴿ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا .. (٦٥) ﴾ [الواقعة] .

(٣) أوزعه أن يفعل كذا : دفعه وحثَّه وأغراه ، أو ألهمه وأرشده ، قال تعالى : ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ.. (١٩) ﴾ [النمل] أى : ألهمنى شكرك وادفعنى إليه وحبِّبه إلىَّ [القاموس القويم ٢/٣٣٤] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا[1] إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ ﴾

وحين يُورد القرآن خطاب أب لابن نجد قوله ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ وهو خطابُ تحنينٍ ، ويدل على القرب من القلب[2] ، و « بُنى » تصغير « ابن » .

أما حين يأتى القرآن بحديث أب عن ابنه فهو يقول « ابنى » مثل قول الحق سبحانه عن نوح يتحدث عن ابنه الذى اختار الكفر على الإيمان :

﴿ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي .. ۝٤٥ ﴾ [هود]

وكلمة « يا بنى » بمـا فيها من حنان وعطف ؛ ستفيدنا كثيراً فيما سوف يأتى من مواقف يوسف ؛ ومواقف أبيه منه .

وقول يعقوب ليوسف « يا بنى » يُفْهم منه أن يوسف عليه السلام ما زال صغيراً ، فيعقوب هو الأصل ، ويوسف هو الفرع ، والأصل دائماً يمتلىء بالحنان على الفرع ، وفى نفس الوقت نجد أىَّ أب يقول : مَنْ يأكل لقمتى عليه أن يسمع كلمتى .

---

(١) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به . والكيد مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم : ٢/ ١٨٠] .

(٢) ورد هذا الخطاب فى القرآن ٦ مرات فى سورة هود ويوسف ولقمان فى ثلاث آيات والصافات .

ولنعلم أن الكون وما فيه ومَنْ فيه وظيفته أمام الله الطواعية والسجود استجابة لمراد الله فهو من الواردات .

وقول الأب : يا بنى ، يفهم منه أن الابن ما زال صغيراً ، ليست له ذاتية منفصلة عن الأب ليقرر بها ما هو المناسب ، وما هو غير المناسب .

وحين يفزع يوسف مما يُزعجه أو يُسيء إليه ؛ أو أى أمر مُعْضَل[1]؛ فهو يلجأ إلى مَنْ يحبه ؛ وهو الأب ؛ لأن الأب هو – الأقدر فى نظر الابن – على مواجهة الأمور الصعبة .

وحين روى يوسف عليه السلام الرؤيا لأبيه ؛ قال الأب يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. ۝٥ ﴾ [يوسف]

ونفهم من كلمة « رؤيا » أنها رؤيا منامية ؛ لأن الشمس والقمر والنجوم لا يسجدون لأحد ، وهذا ما يوضح لنا دقة اللغة العربية ، فكلمة واحدة هى « رأى » قد يختلف المعنى لها باختلاف ما رُؤى ؛ فرؤيتك وأنت يقظانُ يُقال عنها « رؤية » ؛ ورؤيتك وأنت نائم يُقال عنها « رؤيا » .

والرؤية مصدر مُتفق عليه من الجميع ؛ فأنت ترى ما يراه غيرك ؛ وأما « الرؤيا » فهى تأتى للنائم .

وهكذا نجد الالتقاء فى « رأى » والاختلاف فى الحالة ؛ هل هى حالة النوم أو حالة اليقظة . وفى الإعراب كلاهما مؤنث ؛ لأن علامة التأنيث إما :

---

(١) الأمر المعضل : الصعب الشديد الضيق . عضَّل عليه فى أمره تعضيلاً : ضيَّق من ذلك وحال بينه وبين ما يريد ظلماً . وعضّل بهم المكان : ضاق . وعضّلت الأرض بأهلها إذا ضاقت بهم لكثرتهم . [لسان العرب ـ مادة : عضل] .

« تاء » ، أو « ألف ممدودة » ، أو « ألف مقصورة » [1] .

وأخذت الرؤية الحقيقية التي تحدث في اليقظة « التاء » وهي عمدة التأنيث ؛ أما الرؤيا المنامية فقد أخذت ألف التأنيث .

ولا يقدح [2] في كلمة « رؤيا » أنها منامية إلا آية واحدة في القرآن ، حين تحدث الحق سبحانه عن لحظة أن عُرِجَ [3] به ﷺ ؛ فقال :

﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً [4] لِّلنَّاسِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [الإسراء]

ولكن مَنْ يقولون : « إنها رؤيا منامية » لم يفقهوا المعنى وراء هذا القول ؛ فالمعنى هو : إن ما حدث شيء عجيب لا يحدث إلا في الأحلام ، ولكنه حدث في الواقع ؛ بدليل أنه قال عنها : أنها «فتنة للناس » .

---

(١) علامات التأنيث اللفظية ثلاث هي :
– تاء التأنيث : تدخل على الفعل والاسم ، مثل جالسة وفاطمة ولأنها تدخل للتفرقة بين المذكر والمؤنث فإنها لا تدخل في الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل : حائض ، مرضع ، ثيب.
– ألف التأنيث المقصورة : وهي ألف لازمة مفتوح ما قبلها تلحق آخر الكلمة المؤنثة .
– ألف التأنيث الممدودة : وهي مقطع مكون من همزة تسبقها ألف مد مفتوح ما قبلها ، وهي تلحق الأسماء ، دون الأفعال مثل : حسناء ، صحراء ، كبرياء ، عاشوراء . راجع : القواعد الصرفية ـ الدكتور علي أبو المكارم ـ طبعة ١٩٧٩ ص : ٦٢ ـ ٦٥ .

(٢) قدح : أثّر . يقال : قدح الشيء في صدري : أثّر . وفي حديث علي كرم الله وجهه : يقدح الشك في قلبه بأول عارضة من شبهة . [لسان العرب ـ مادة : قدح] .

(٣) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع . والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود . والجمع معارج ، قال تعالى : ﴿ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الزخرف] أي : يركبونها ويصعدون فيها إلى أعلى . [القاموس القويم باختصار : ٢/ ١٣] .

(٤) قال الأزهري وغيره : جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار . [انظر : لسان العرب ـ مادة : فتن] .

فالرسول ﷺ لو كان قد قال إنها رؤيا منامية لما كذَّبه أحد فيما قال ؛ لكنه أعلن أنها رؤيا حقيقية ؛ لذلك عبّر عنها القرآن بأنها فتنة للناس .

وهنا يقول يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ يَا بُنَيَّ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ .. (٥) ﴾ [يوسف]

لأن يعقوب عليه السلام كأب مأمونٌ على ابنه يوسف ؛ أما إخوة يوسف فهم غير مأمونين عليه ، وحين يقصُّ يوسف رؤياه على أبيه ، فهو سينظر إلى الصالح ليوسف ويدلُّه عليه[1] .

أما إن قصَّ الرؤيا على إخوته ؛ فقد تجعلهم الأغيار البشرية يحسدون أخاهم ، وقد كان .

وإن تساءل أحد : ولماذا يحسدونه على رؤيا منامية ، رأى فيها الشمس والقمر وأحدَ عشرَ كوكباً يسجدون له ؟

نقول : لا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علِم تأويل الرُّؤيا ؛ وأنها نبوءة لأحداث سوف تقع ؛ ولا بُدَّ أن يعقوب عليه السلام قد علم أيضاً قدرة إخوة يوسف على تأويل تلك الرؤيا ، ولو قالها يوسف لهم لَفهموا المقصود منها ، ولا بد حينئذ أن يكيدوا له كيداً يُصيبه بمكروه .

فهم قد أصابهم الضيق من يوسف وهو ما زال طفلاً ، فما باله بضيقهم إنْ علِموا مثل هذه الرؤيا التي يسجد له فيها الأب والأم مع الإخوة .

(١) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٤٧) : « هذه الآية أصل في ألا تقص الرؤيا على غير شفيق ولا ناصح ، ولا على من لا يحسن التأويل فيها » .

ولا يعنى ذلك أن نعتبر إخوة يوسف من الأشرار ؛ فهم الأسباط[1] ؛ وما يصيبهم من ضيق بسبب علُو عاطفة الأب تجاه يوسف هو من الأغيار التى تصيب البشر ، فهم ليسوا أشراراً بالسَّليقة[2] ؛ لأن الشرير بالسَّليقة تتصاعد لديه حوادثُ السوء ، أما الخيِّر فتتنزَّل عنده حوادث السوء .

والمثل على ذلك : أنك قد تجد الشرير يرغب فى أن يصفع إنساناً آخر صفعة على الخَدِّ ؛ لكنه بعد قليل يفكر فى تصعيد العدوان على ذلك الإنسان ، فيفكر أن يصفعه صفعتين بدلاً من صفعة واحدة ؛ ثم يرى أن الصفعتين لا تكفيان ؛ فيرغب أن يُزيد العدوان بأن يصوِّب عليه مسدساً ؛ وهكذا يُصعِّد الشرير تفكيره الإجرامى.

أما الخَيِّر فهو قد يفكر فى ضرب إنسان أساء إليه « علقة » ؛ لكنه يُقلِّل من التفكير فى رَدِّ الاعتداء بأن يكتفى بالتفكير فى ضربه صفعتين بدلاً من «العلقة » ، ثم يهدأ قليلاً ويعفو عَمَّنْ أساء إليه .

وإخوة يوسف - وهم الأسباط[3] - بدءوا فى التفكير بانتقام كبير من يوسف ، فقالوا لبعضهم :

---

(١) الأسباط : جمع سبط ، والسبط : الشجرة ذات أصل واحد ، ولها أغصان كثيرة ، ونقل ذلك مجازاً إلى شجرة النسب . فالسبط : القبيلة المتفرعة من أصل واحد . والأسباط : هم القبائل من أولاد يعقوب عليه السلام ، وهما اثنتا عشرة قبيلة تنسب إلى أبناء يعقوب الاثنى عشر : ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا .. (١٦٠)﴾ [الأعراف] [القاموس القويم : ١/ ٣٠٠].

(٢) السليقة : الطبيعة والسجية ، وفلان يقرأ بالسليقة أى بطبيعته لا بتعلُّم . وقيل : بالسليقية ، أى : بطبعه الذى نشأ عليه . قال أبو زيد : إنه لكريم الطبيعة والسليقة [لسان العرب - مادة : سلق] .

(٣) ذكرت كلمة الأسباط فى القرآن ٥ مرات منها ٤ مرات يُعنَى بها أسباط كانوا أنبياء ، والموضع الخامس الأسباط بمعنى أصول قبائل بنى إسرائيل ، وكان كل ابن من أبناء يعقوب هو أول السبط أو ذاك.

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

ثم هبطوا عن هذه الدرجة المُؤْلمة من تعبيرهم عن الغيرة من زيادة محبة أبيهم ليوسف ، فقالوا :

﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ [1] أَرْضًا يَخْلُ [2] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف]

وحينما أرادوا أن يطرحوه أرضاً ترددوا ؛ واستبدلوا ذلك بإلقائه فى الجُبّ [3] لعل أن يلتقطه بعض السَّيارة [4] . فقالوا :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ [5] الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ⑩ ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أنهم تنزَّلوا عن الانتقام الشديد بسبب الغيرة ؛ بل إنهم فكروا فى نجاته .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

---

(١) طرح الشىء يطرحه طرحاً : نبذه وألقاه ، قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ⑨ ﴾ [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ⑨ ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ، ويتجه إليكم بكل عنايته ، ولا يشتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

(٣) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : الجب : البئر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شىء منها مُقبَّبة . وهو أيضاً : البئر الكثيرة الماء البعيدة القعر . [لسان العرب - مادة : جبب] .

(٤) سيَّار : كثير السير ، صيغة مبالغة . وسيارة : صيغة مبالغة للمؤنث . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ⑲ ﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ㊾ ﴾ [المائدة] للمسافرين [القاموس القويم ١/٣٤٠] .

(٥) غاب الشىء يغيب غيباً : استتر عن العين أو عن علم الإنسان فى المعنوى . والغيب : مصدر ويسمى به ما غاب واستتر ، قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ③ ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم ٢/٦٤ ، ٦٥ باختصار] .

﴿ لا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا .. ⑤ ﴾ [يوسف]

والكيد : احتيال مستور لمَنْ لا تقوى على مُجَابهته، ولا يكيد إلا الضعيف ؛ لأن القوى يقدر على المواجهة .

ولذلك يُقَال : إن كيد النساء عظيم ؛ لأن ضعفهن أعظم .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ⑤ ﴾ [يوسف]

وهذه العداوة معروفة لنا تماماً ؛ لأنه خرج من الجنة ملعوناً مطروداً ؛ عكس آدم الذى قَبِل الله توبته ؛ وقد أقسم الشيطان بعزة الله لَيُغْوِينَّ الكُلَّ ، واستثنى عبادَ اللَّه المخلصين[1] .

ولذلك يقول ﷺ : « لقد أعاننى الله على شيطانى فأسلم »[2] .

ويصف الحق سبحانه عداوة الشيطان للإنسان أنها عداوةٌ مُبينة[3] . أى : محيطة . وحين نقرأ القرآن نجد إحاطة الشيطان للإنسان فيها يقظة :

﴿ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ⑰ ﴾ .. [الأعراف]

---

(١) حكى رب العزة هذا عن إبليس اللعين أنه قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ㊇ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ㊈﴾ [ص] .

(٢) عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة . قالوا : وإياك يا رسول الله ؟ قال : وإياى ولكن الله أعاننى عليه فلا يأمرنى إلا بحق » . أخرجه أحمد فى مسنده (١/٣٨٥) .

(٣) بان الشيء يبين بياناً : ظهر واتضح فهو بيِّن وهى بيِّنة أى : ظاهر وظاهرة ، ويستعمل البيِّن والبينة بمعنى المظهر والمظهرة والموضح والموضحة ، وبالمعنيين يُفسَّر . وبين الشيء وأبان وبيَّن واستبان : لم يَعُدْ خافياً . وقوله : ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾ [البقرة] . [القاموس القويم ١/٩١ ، ٩٢ بتصرف] .

ولم يأتِ ذكْر للمجىء من الفوقية أو من التحتية ؛ لأن مَنْ يحيا فى عبودية تحتية ؛ وعبادية فوقية ؛ لا يأتيه الشيطان أبداً .

ونلحظ أن الحق سبحانه جاء بقول يعقوب عليه السلام مخاطباً يوسف عليه السلام فى هذه الآية :

﴿ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْداً .. ۝٥ ﴾ [يوسف]

ولم يقل : فيكيدوك ، وهذا من نَضْح[1] نبوة يعقوب عليه السلام على لسانه ؛ لأن هناك فارقاً بين العبارتين ، فقول : « يكيدوك » يعنى أن الشرَّ المستور الذى يدبرونه ضدك سوف يصيبك بأذى.

أما ﴿ فَيَكِيدُوا[2] لَكَ .. ۝٥ ﴾ [يوسف]

فتعنى أن كيدهم الذى أرادوا به إلحاق الشر بك سيكون لحسابك ، ويأتى بالخير لك .

ولذلك نجد قوله الحق فى موقع آخر بنفس السورة :

﴿ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. ۝٧٦ ﴾ [يوسف]

أى : كِدْنا لصالحه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) أصل النضح : الرشح . يقال : نضح الرجل بالعرق نضحاً : فضَّ به . ونضحت العين : فارت بالدمع وعيناه تنضحان ونضحت الخابية والجَرَّة تنضح : إذا كانت رقيقة فخرج الماء من الخزف ورشحت . [لسان العرب ـ مادة : نضح بتصرف] .

(٢) كاد فلاناً يكيده كيْداً : خدعه ومكر به واحتال لإلحاق الضرر به ، والكيد مصدر ويُطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه . [القاموس القويم ٢/ ١٨٠] .

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ[1] رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ[2] وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

أى : كما آنسك الله بهذه الرؤيا المُفْرحة المُنْبِئة بأنه سيكون لك شأن كبير بالنسبة لإخوتك وبالنسبة لأبيك ، فلسوف يجتبيك ربك ؛ لا بأن يحفظك فقط ؛ ولكن بأن يجعل كيدهم سبباً لصالحك ، ويُعلِّمك من تأويل الأحاديث ما يجعل أصحابَ الجاهِ والنفوذ يلتفتون إليك .

ومعنى تأويل الشيء أى معرفة ما يؤول إليه الشيء ، ونعلم أن الرُّؤى تأتى كطلاسم ، ولها شَفْرة رمزية لا يقوم بِحلِّها إلا مَنْ وهبه الله قدرة على ذلك ؛ فهى ليست عِلْماً له قواعد وأصول ؛ لأنها إلهامات من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) اجتبى فلاناً : اختاره واستخلصه واصطفاه ، قال تعالى : ﴿ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ ﴾ [الشورى] أى : يصطفى ويختار من يشاء من خلقه . [القاموس القويم ١١٧/١] .

(٢) الحديث : الكلام وجمعه أحاديث ، والأحاديث جمع أُحْدوثة ، وهى الحديث العجيب . والحديث قد يُطلق على الرُّؤى والأحلام ، قال تعالى : ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ..﴿٦﴾﴾ [يوسف] وأما قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ..﴿٤٤﴾﴾ [المؤمنون] فهو كناية عن الموت والهلاك ، أى : بعد أن كانوا أحياء صاروا أمواتاً يتحدَّث الناس عنهم . [القاموس القويم ١٤٥/١] .

وبعد ذلك تصير يا يوسف على خزائن الأرض ؛ حين يُوجد الجَدْبُ[1] ، ويعمُّ المنطقة كلها ، وتصبح عزيز مصر .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⟨٦⟩ ﴾ [يوسف]

فكلُّ ما تَمَتَّع به يوسف هو من نعم الدنيا ، وتاج نعمة الدنيا أن الله اجتباه رسولاً .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⟨٦⟩ ﴾ [يوسف]

بمعنى ألا تسلب منك النعمة أبداً ؛ ففى حياة يوسف منصبٌ مهم ، هو منصب عزيز مصر ، والمناصب من الأغيار التى يمكن أن تنزع .

أو أن : ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⟨٦⟩ ﴾ [يوسف]

بأن يصل نعيم دنياك بنعيم أُخْراك[2] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ⟨٦⟩ ﴾ [يوسف]

يُذكِّر الحق سبحانه يوسف عليه السلام بأن كيد إخوته له لا يجب أن يُحوِّله إلى عداوة ؛ لأن النِّعم ستتم أيضاً على هؤلاء الإخوة فهم آلُ يعقوب ؛ هم وأبناؤهم حَفَدة يعقوب ، وسينالهم بعضٌ من عِزِّ

(١) الجدب : القحط وهو نقيض الخصب . والأرض الجدبة : التى ليس بها قليل ولا كثير ولا مَرْتَع ولا كلأ ، والأرض المجداب : التى لا تكاد تُخْصب . [لسان العرب ـ مادة : جدب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٠) « ﴿ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ .. ⟨٦⟩ ﴾ [يوسف] أى : بالنبوة . وقيل : بإخراج إخوتك إليك . وقيل : بإنجائك من كل مكروه » .

يوسف وجاهه وماله ، كما أتمَّها من قبل على إبراهيم الجد الأول ليوسف باتخاذه خليلا[1] لله ، وأتمَّ سبحانه نعمته على إسحق بالنبوة .

وهو سبحانه أعلمُ بمَنْ يستحق حمْل الرسالة ، وهو الحكيم الذى لا يترك شيئاً للعبث ؛ فهو المُقدِّر لكل أمر بحيث يكون مُوافقاً للصواب .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾

أى : أن يوسف صار ظَرْفاً للأحداث ، لأن « فى » تدل على الظرفية[2] ، ومعنى الظرفية أن هناك شيئاً يُظْرف فيه شىء آخر ، فكأن يوسف صار ظَرْفاً ستدور حوله الأحداث بالأشخاص المشاركين فيها .

و « يوسف » اسم أعجمى ؛ لذلك فهو « ممنوع من الصرف » أى : ممنوع من التنوين فلا نقول : فى يوسفٍ .

و ﴿ يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن ما حدث إنما يُلفت لقدرة الله سبحانه ؛ فقد أُلقِى فى الجُبِّ وأُنقِذ ليتربى فى أرقى بيوت مصر .

---

(١) قال تعالى : ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ۝١٢٥﴾ [النساء] ، وسُمِّى إبراهيم عليه السلام خليل الله لشدة محبته لربه عز وجل لما قام له به من الطاعة التى يحبها ويرضاها . [ابن كثير ١/ ٥٦٠] .

(٢) قال ابن هشام الانصارى فى مغنى اللبيب (١/ ١٤٤) : « فى : حرف جر له عشرة معان منها : الظرفية وهى إما مكانية أو زمانية ، وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤﴾ [الروم] » .

ونعلم أن كلمة آية تطلق على الأمر العجيب الملفت للنظر ، وهى تَرِد بالقرآن بثلاثة معانٍ :

آية كونية : مثل الشمس والقمر والليل والنهار ، وتلك الآيات الكونية رصيد للنظر فى الإيمان بواجب الوجود وهو الله سبحانه ؛ فساعة ترى الكون منتظماً بتلك الدقة المتناهية ؛ لا بُدَّ أن تفكر فى ضرورة وجود خالق لهذا الكون .

والآيات العجيبة الثانية هى المعجزات الخارقة للنواميس التى يأتى بها الرسل ؛ لتدل على صدق بلاغهم عن الله ، مثل النار التى صارت بَرْداً[1] وسلاماً على إبراهيم ، ومثل الماء الذى انفلق وصار كالطود[2] العظيم أمام عصا موسى .

وهناك المعنى الثالث لكلمة آية ، والمقصود به آيات القرآن الكريم .

وفى قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] والبرد : ضد الحر . والبرودة : نقيض الحرارة . قال على ابن أبى طالب : أى لا تضر به . قال ابن عباس وأبو العالية : لولا أن الله عز وجل قال : ﴿ وَسَلَامًا ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] لآذى إبراهيم بردها . وقال جويبر عن الضحاك : ﴿ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء] قالوا : ضعوا له حظيرة من حطب جزل وأشعلوا فيه النار من كل جانب ، فأصبح ولم يصبه منها شىء حتى أخمدها الله » [انظر تفسير ابن كثير ٣/ ١٨٤] .

(٢) الطود : الجبل الثابت العالى . قال تعالى : ﴿ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ ﴾ [الشعراء] .

نستشف العبرة من كل ما حدث ليوسف الذى كَادَ له إخوته ليتخلصوا منه ؛ لكن كَيْدهم انقلب لصالح يوسف .

وفى كل ذلك سلْوى[1] لرسول الله ﷺ ؛ لتثبيت فؤاده ؛ فلا يُعير بالاً لاضطهاد قومه له ، وتآمرهم عليه ، ورغبتهم فى نَفْيه إلى الشام ، ومحاولتهم قَتْله ، ومحاولتهم مُقاطعته ، وقد صاروا من بعد ذلك يعيشون فى ظلال كَنفه .

إذن : فلا تيأس يا محمد ؛ لأن الله ناصرك بإذنه وقدرته ، ولا تستبطىء نصر الله ، أنت ومَنْ معك ، كما جاء فى القرآن .

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ[2] وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤) ﴾ [البقرة]

ويبين لنا الحق سبحانه ما حدث ليوسف بعد القهر الذى أصابه من إخوته ، ويمر الوقت إلى أن تتحقق رؤيا الخير التى رآها يوسف عليه السلام .

ويُقال : إن رؤيا يوسف تحققت فى فترة زمنية تتراوح بين

---

(١) سلأنى من همِّى تسلية وأسلانى أى كشفه عنى . وانسلى عنى الهمُّ وتسلى بمعنًى أى : انكشف . [لسان العرب ـ مادة : سلا] .

(٢) البأساء : الفقر والشدة ، قال تعالى : ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ ..(١٧٧) ﴾ [البقرة] فى وقت الفقر والحاجة . والضراء : طول المرض أو أى شدة أو نقص الأموال والأنفس ، وذلك مؤلم محزن وهو ضد السراء . [القاموس القويم ١/٥٣ ، ٣٩٢] .

أربعين سنة وثمانين عاماً[1] .

ولذلك نجد رُؤْيَا الخير يطول أَمَدُ تصديقها ؛ ورُؤْيَا الشر تكون سريعة ؛ لأن من رحمة الله أن يجعل رؤيا الشر يقع واقعاً وينتهى ، لأنها لو ظلَّتْ دون وقوع لأمد طويل ؛ لوقع الإنسان فريسةَ تخيُّل الشر بكُلِّ صوره.

والشر لا يأتى إلا على صورة واحدة ، ولكن الخير له صور متعددة ؛ فيجعلك الله مُتخيِّلاً لما سوف يأتيك من الخير بألوان وتآويل شتى .

والمثل لدعوة الشر هو دعوة موسى على آل فرعون ؛ حين قال :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[2] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[3] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

---

(١) « قال ابو عثمان النهدى عن سليمان : كان بين رؤيا يوسف وتأويلها اربعون سنة . وقال الحسن : كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه ودموعه تجرى على خديه » . وهذا يوافق ما قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٩١) .

(٢) طمس الشىء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوَّهه أو مَحَاهُ وأزاله ، وطمس عينه : أعماها . وطمس على عينه : أعماها مضمَّنة معنى غطَّى وغشى عليها . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ .. (٦٦) ﴾[يس] .[القاموس القويم ١/٤٠٦ باختصار].

(٣) شدَّه : قوَّاه . وشد الحبل : ربطه ربطاً مُحكماً . وشد أسره : قوَّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أى : أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ.. (٢٠) ﴾ [ص] أى : قويناه . [القاموس القويم ١/٣٤٣ ، ٣٤٤ بتصرف] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

فكل يوم من أيام تلك القصة هناك آية وتُجمع آيات .

وهناك قراءة أخرى : « لقد كان فى يوسف وإخوته آية للسائلين » أى : أن كل القصة بكل تفاصيلها وأحداثها آية عجيبة .

والحق سبحانه أعطانا فى القرآن مثلاً على جَمْع الأكثر من آية فى آية واحدة ، مثلما قال : ﴿ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً[1] .. ۝ ﴾ [المؤمنون]

مع أن كلاً منهما آية منفردة .

ولك أن تنظر إلى قصة يوسف كلها على أنها آية عجيبة تشمل كل اللقطات ، أو تنظر إلى كل لقطة على أنها آية بمفردها .

ويقول الحق سبحانه فى آخر هذه الآية أن القصة : ﴿ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

والسائلون هنا إما من المشركين الذين حرَّضهم اليهود[2] على أنْ

---

(١) أى : انه سبحانه جعلهما آية للناس ، أى حجة قاطعة على قدرته على ما يشاء ، فإنه خلق آدم من غير أب ولا أم ، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى ، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر ، وخلق بقية الناس من ذكر وأنثى . قاله ابن كثير فى تفسيره لهذه الآية (٣/٢٤٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٥٠) : « أى : لقد كان للذين سألوا عن خبر يوسف آية فيما خبِّروا به ، لأنهم سألوا النبى ﷺ وهو بمكة فقالوا : أخبره عن رجل من الأنبياء كان بالشام أخرج ابنه إلى مصر ، فبكى عليه حتى عمى ؟ - ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب ، ولا من يعرف خبر الأنبياء ، وإنما وَجَّه اليهودُ من المدينة يسألون عن هذا - فأنزل الله عز وجل سورة « يوسف » جملة واحدة ، فيها كل ما فى التوراة من خبر وزيادة ، فكان ذلك آية للنبى ﷺ بمنزلة إحياء عيسى بن مريم عليه السلام الميت » .

يسألوا رسـول الله ﷺ عن مسـألة يوسف ، وإما من المسلـمين الذين يطلبـون العبَـر من الأمم السـابقة ، وجـاء الوَحْيُ لينزل على الرسـول الأمىِّ بتلك السورة بالأداء الرفيع المُعْجِز الذى لا يَقْوَى عليه بشر .

وأنت حين تقرأ السورة ؛ قد تأخذ من الوقت عشرين دقيقة ، هاتْ أنت أىَّ إنسان لـيتكلم ثُلث سـاعة ، ويظل حافـظاً لما قاله ؛ لـن تجد أحداً يفعل ذلك ؛ لكن الحق سبحانه قال لرسوله ﷺ :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ⑥ ﴾ [الأعلى]

ولذلك نجد الرسول ﷺ يحفظ مـا أُنزِل إليه من ربه ، ويُمليه على صحابته ويصلى بهم ؛ ويقرأ فى الصلاة ما أُنزل عليه ، ورغم أن فى القـرآن آياتٍ مـتـشـابهـات ؛ إلا أنه ﷺ لم يخطىء مـرة أثناء قـراءته للقرآن .

والأمثلة كثيرة منها قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ⑰ ﴾ [لقمان]

ومرة أخرى يقول :

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ[1] الأُمُورِ ㊸ ﴾ [الشورى]

وكذلك قول الحق سبحانه :

---

(١) عزم الأمـر : من المجاز أى نفـذ بعزيمة قوية مـن صاحبه . قـال تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمَ الأَمْرُ .. ㉑ ﴾ [محمد] فعل لازم أى : نفذ وتقرر وثبت بعزيمة قوية منكم . وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ ㉒㉗ ﴾ [البقرة] أى : عـقدوا النية على إتمامـه . وقال تعالى : ﴿ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ⑱⑥ ﴾ [آل عمران] أى : من الأمور الجادة الرشيـدة التى لا يجوز التردد فيها أو من الأمور العظيمة التى يفعلها أصحاب العزم القوى . [القاموس القويم ٢/ ٢٠].

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الحجر]

وفى موقع آخر يقول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [الطور]

فكيف يتأتَّى لبشر أُميٍّ أن يتذكر كل ذلك ، لولا أن الذى أنزل عليه الوحى قد شاء له ذلك .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ[2] مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾

ولا بُدَّ لنا هنا أن ننظر إلى الأخوة بنوعياتها ؛ فقد تكون الأخوة من ناحية الأبوين معاً ؛ وقد تكون من ناحية الأب دون الأم، أو من ناحية الأم دون الأب ، وكان عدد أبناء يعقوب عليه السلام اثنا[3]

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة ، قال تعالى عن إخوة يوسف قولهم : ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ..﴿٨﴾﴾ [يوسف] . عصبه : ربطه ربطاً شديداً . وقوله : ﴿ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [هود] أى : شديد العَصْب يعصب الناس ويُضيّق عليهم أو شديد الحر ، شديد الهول . [القاموس القويم ٢/٢٢] .

(٢) الضلال : النسيان والضياع . وقد يطلق الضلال على عمل خلاف الأوْلى كقوله فى قصة يوسف : ﴿إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف] أى : شدة تعلقك بيوسف وحزنك عليه فهو فى نظرهم ضلال . [القاموس القويم : ١/٣٩٥] .

(٣) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٥١/٤) : « أسماؤهم : روبيل وهو أكبرهم ، وشمعون ولاوى ويهوذا وزيالون ويساخر ، وأمهم ليا بنت ليان ، وهى بنت خال يعقوب ، وولد له من سريتين أربعة نفر : دان ونفتالى وجاد وآشر ، ثم توفيت ليا فتزوَّج يعقوب أختها راحيل ، فولدت له يوسف وبنيامين ، فكان بنو يعقوب اثنى عشر رجلاً . قال السهيلى : أم يعقوب اسمها رفقا ، وراحيل ماتت فى نفاس بنيامين . وقيل : فى اسم الأمتين ليا وتلتا ، كانت إحداهما لراحيل والأخرى لأختها ليا » .

عشـر : سبعة من واحـدة ؛ وأربعة من اثنتيـن : زلفى وبلهه ؛ واثنين من راحيل هما : يوسف ، وأخوه بنيامين .

وتبدأ الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا.. ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

وحرف اللام الذى سبق اسم يوسف جاء للتوكيد ، وكأنهم قالوا : والله إن أبانا يحب يوسف وأخاه أكثر من حُبِّه لنا . والتوكيد لا يأتى إلا بصدد إنكار .

وهذا يدل على أنهم مـخـتلفـون فى أمـر يوسف عليـه السـلام ؛ فأحـدهم يريد أن ينتـقم من يوسف ، وآخر يقـترح تخـفيف المـسألة بإلقائه فى الجب[1] ؛ ثم انتهوا إلى أن يوسف أحبُّ إلى أبيهم منهم .

وفى قولهم لَمْحة من إنصاف ؛ فـقد أثبتوا حب أبيهم لهم ؛ ولكن قولهم به بعضٌ من غـفلة البشر ؛ لأنهم كـان يجب أن يلتمسـوا سبب زيادة حُبِّ أبيهم ليوسف وأخيه .

فيـوسف وأخوه كانوا صِـغَاراً وماتت أمهـما[2] ؛ ولم يَعُدْ لهم إلا الأب الذى أحسَّ بضرورة أن يجـتمع فيه تجاهـهما حنانُ الأب وحنانُ الأم ؛ ولأنهما صغارٌ نجد الأب يحنُو عليهما بما أودعه الله فى قلبه من قدرة على الرعاية .

وهذا أمر لا دَخْل ليـعقوب فيه ؛ بـل هى مسـألة إلهيـة أودعها الله

(١) الجب : البئر التى لم تُبْن بالحجارة . قال الليث : هى البئـر غير البعيدة . وقال الفراء : بئر مُجبَّبة الجوف إذا كان وسطها أوسع شىء منها مُقبَّبة . [لسان العرب ـ مادة : جبب] .

(٢) ماتت أمهما راحيل فى نفاس بنيامين . ذكره القرطبى فى تفسيره .

في القلوب بدون اختيار ؛ ويُودعها سبحانه حتى في قلوب الحيوانات.

وقد شاء سبحانه أن يجعل الحنان على قدر الحاجة ؛ فالقطة - على سبيل المثال - إن اقتربَ أحد من صغارها المولودين حديثاً ؛ تهجم على هذا الذي اقترب من صغارها .

ولذلك نجد العربي القديم قد أجاب على مَنْ سأله « أي أبنائك أحب إليك ؟ » فقال : « الصغير حتى يكبر ؛ والغائب حتى يعود ، والمريض حتى يشفى » .

وهذه مسألة نراها في حياتنا اليومية ، فنجد امرأة لها ولدان ، واحد أكرمه الله بسعة الرزق ويقوم بكل أمورها واحتياجاتها ؛ والآخر يعيش على الكفاف[1] أو على مساعدة أخيه له ؛ ونجد قلبها دائماً مع الضعيف .

ولذلك نقول : إن الحب مسألة عاطفية لا تخضع إلى التقنين ؛ ولا تكليف بها ؛ وحينما يتعرض القرآن لها فالحق سبحانه يوضح : أن الحب والبغض انفعالات طبيعية[2] ؛ فأحبِبْ مَنْ شئتَ وأبغضْ مَنْ شئتَ ؛ ولكن إياك أن تظلم الناس لمن أحببت ؛ أو تظلم مَنْ أبغضت .

---

(١) الكفاف : أي ليس في نفقته فضل إنما عنده ما يكفه عن الناس . قال الجوهري : كفاف الشيء بالفتح مثله وقَيْسُه ، والكفاف أيضاً من الرزق : القوت وهو ما كفَّ عن الناس أي أغنى فهو لا يفضل عن الشيء ويكون بقدر الحاجة إليه . [لسان العرب - مادة : كفف].

(٢) الطبع والطبيعة : الخليقة والسجية التي جُبِل عليها الإنسان . والطباع : كالطبيعة ، مؤنثة [لسان العرب - مادة : طبع] .

اقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ[1] شَنَآنُ[2] قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ⑧ ﴾ [المائدة]

فأحبب مَنْ شئتَ ، وأبغض مَنْ شئتَ ، ولكن لا تظلم بسبب الحب أو البغض .

وقد يقول قائل : ولكن الرسول ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » .

نقول : اقرأ ما جاء في نفس رواية الحديث ؛ فقد قال عمر رضى الله عنه ـ بوضوحه وصراحته وجراءته ؛ دون نفاق ـ : أحبك يا رسول الله عن مالى وعن ولدى أما عن نفسى ؛ فلا . فكرر النبى ﷺ قوله :

« لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه »[3] .

(١) جرم الشيء ، جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . يقال : جرم : أذنب وجنى جناية . وجرم المال : كسبه من أى وجه . وجرمه : حمله على فعل شر أو ذنب وجُرْم . قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا .. ⑧ ﴾ [المائدة] أى : لا يحملنكم بغض قوم على عدم العدل ، أى : التزموا العدل حتى مع من تكرهونهم . أى : اعدلوا دائماً فالعدل أقرب للتقوى . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) شنأه وشنئه شنئاً وشنأة وشنآناً : أبغضه وكرهه قال تعالى : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ⑧ ﴾ [المائدة] وشانيء : اسم فاعل . قال تعالى : ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ③ ﴾ [الكوثر] أى : مبغضك وكارهك . [القاموس القويم ١/٣٥٧] .

(٣) عن جد زهرة بن معبد قال : كنا مع النبى ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فقال : والله يا رسول الله ، لأنت أحب إلىَّ من كل شيء إلا نفسى فقال النبى ﷺ : « والذى نفسى بيده ، لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه » قال : فأنت الآن والله أحب إلىَّ من نفسى . فقال رسول الله ﷺ : « الآن يا عمر » أخرجه أحمد فى مسنده (٣٣٦/٤) .

ففطنَ عمر رضى الله عنه إلى أن الأمر هو التزام عقدىٌّ وتكليفى ؛ وفَهِم أنَ المطلوب هو حُبُّ العقل ؛ لا حب العاطفة .

وحب العقل ـ كما نعلم ـ هو أن تُبصر الأمر النافع وتفعله ؛ مثلما تأخذ الدواء المُرَّ ؛ وأنت تفعل ذلك بحبٍّ عقلى ؛ رغبةٌ منك فى أن يأذن الحق بالشفاء .

والمسلم يحب رسول الله ﷺ بعقله ؛ لأنه يعلم أنه لولا مجىء رسول الله لما عرف حلاوة الإيمان ، وقد يتسامى[1] المسلم فى حُبٍّ رسول الله ﷺ إلى أن يصير حب الرسول فى قلبه حباً عاطفياً .

وهكذا نرى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قد أوضح لنا الخطوط الفاصلة بين مبادىء الحب العقلى والحب العاطفى .

والمثال الآخر من سيرة عمر رضى الله عنه فى نفس المسألة ؛ حب العقل وحب العاطفة ؛ حين مَرَّ عليه قاتل أخيه ؛ فقال واحد ممَّنْ يجلسون معه : هذا قاتل أخيك . فقال عمر : وماذا أفعل به وقد هداه الله للإسلام ؟

وصرف عمر وجهه بعيداً عن قاتل أخيه ؛ فجاء القاتل إليه قائلاً : لماذا تزوى وجهك عنى ؟ قال عمر : لأنِّى لا أُحبك ، فأنت قاتلُ أخى . فقال الرجل : أو يمنعنى عدم حبك لى من أىِّ حق من حقوقى ؟ قال عمر : لا . فقال الرجل : « لك أن تحب مَنْ تريد ، وتكره مَنْ تريد ، ولا يبكى على الحب إلا النساء » .

وكان على إخوة يوسف أن ينتبهوا إلى أن حب والدهم ليوسف

(١) السمو : الارتفاع والعلو . سما الشىء يسمو سمواً : ارتفع . وتساموا : تباروا . وتساميها : تباريها وتفاخرها . والتسامى : الرِّفْعة والارتقاء . [لسان العرب ـ مادة : سما] بتصرف .

وأخيه هو انفعال طبيعى لا يُؤاخَذُ به الأب ؛ لأن ظروف الولدين حتمت عليه أن يحبهم مثل هذا الحب .

وتستمر القصة بما فيها من تصعيد للخير وتصعيد للشر ؛ ولسائل أن يسأل : ولماذا انصبَّ غضبهم على يوسف وحده ؟

ويُقال : إنهم لم يرغبوا أنْ يَفْجعوا[1] أباهم فى الاثنين ـ يوسف وأخيه ـ أو أن شيئاً من رؤيا يوسف تسرب إليهم .

ومن العجيب أن يقولوا بعد ذلك : ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ.. ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

والعصبة من عدد عشرة فما فوق ؛ والعصبة أيضاً هم المُتكاتفون المُتعصِّبون لبعضهم البعض ؛ وهم الذين يقومون بالمصالح ويقضون الحاجات ؛ وقد تقاعد أبوهم ؛ وترك لهم إدارة أعمال العائلة .

وقالوا : « ما دُمْنَا نقوم بمصالح العائلة ، فكان من الواجب أن يَخُصَّنا أبونا بالحب » ولم يلتفتوا إلى أنهم عُصْبة ، وهذا ما جعل الأب يحبهم ، لكنه أعطى مَنْ ليسوا عصبة مزيداً من الرعاية ، ولكنهم سدروا[2] فى غَيِّهم[3] ، ووصلوا إلى نتيجة غير منطقية وهى قولهم :

---

(١) الفجيعة : الرزية الموجعة . فجعته المصيبة : أوجعته . والفواجع : المصائب المؤلمة التى تفجع الإنسان بما يعز عليه من مال أو حميم ، الواحدة فاجعة . [لسان العرب ـ مادة : فجع] .

(٢) السادر : المتحير ، وهو أيضاً الذى لا يهتم لشيء ولا يُبالى ما صنع . [لسان العرب ـ مادة : سدر] .

(٣) الغيُّ : الضلال والخيبة . غَوى : ضلَّ . والغواية : الانهماك فى الغَيِّ . والغوى : شديد الضلالة والغواية ، وأغواه : أضلَّه وأوقعه فى الغيِّ والضلال . [القاموس القويم ٢/ ٦٤].

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ ﴾ [يوسف]

وهذا القول هو نتيجة لا تنسجم مع المقدمات ، فيوسف وأخوه طفلان ماتت أمهما ، ولا بُدَّ أن يعطف عليهم الأب ؛ وحبُّه لهما لم يمنع حبه للأبناء الكبار القادرين على الاعتماد على أنفسهم .

وحين يقولون :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ⑧ ﴾ [يوسف]

قد يفهم بعض الناس كلمة « ضلال » هنا بالمعنى الواسع لها .

نقول : لا ؛ لأن هناك ضلالاً مقصوداً ، وهو أن يعرف طريق الحق ويذهب إلى الباطل ، وهذا ضلال مذموم .

وهناك ضلال غير مقصود ، مثل : ضلال رجل يمشي فيسلك طُرقاً لا يعرفها فيضل عن مقصده ؛ ومثل مَنْ ينسى شيئاً من الحق .

وسبحانه القائل :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ .. ②⑧② ﴾ [البقرة]

وسبحانه القائل أيضاً :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَىٰ ⑦ ﴾ [الضحى]

إذن : فالضلال المذموم هو أن تعرف طريق الحق ، وتذهب إلى الضلال .

وهكذا أخطأ إخوة يوسف في تقدير أمر حُبِّ أبيهم ليوسف

وأخيه ؛ ووصلوا إلى نتيجة ضارَّة ؛ لأن المقدمات التى أقاموا عليها تلك النتيجة كانت باطلة ؛ ولو أنهم مَحَّصُوا المقدمات تمحيصاً دقيقاً لَمَا وصلوا إلى النتيجة الخاطئة التى قالوها :

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما جاء على ألسنة إخوة يوسف :

﴿ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ[1] أَرْضًا يَخْلُ[2] لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿٩﴾ ﴾

والقتل هو قمة ما فكّروا فيه من شرّ ؛ ولأنهم من الأسباط هبط الشر إلى مرتبة أقل ؛ فقالوا : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف]

فكأنهم خافوا من إثم القتل ؛ وظنُّوا بذلك أنهم سينفردون بحبِّ أبيهم ؛ لأنهم قالوا : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف]

والوجه هو الذى تتم به المواجهة والابتسام والحنان ، وهو ما تظهر عليه الانفعالات .

والمقصود بـ : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) طرح الشىء وطرح به : رماه . والطَّرَح بالتحريك : البُعْد والمكان البعيد . قال تعالى : ﴿ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف] أى : ألقوه فى أرض بعيدة . [القاموس القويم ١/٣٩٩] .

(٢) خلا فلان إلى فلان : فرغ له ولم يشتغل عنه بغيره . قال تعالى على لسان إخوة يوسف : ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ .. ﴿٩﴾ ﴾ [يوسف] أى : يفرغ لكم والدكم ويتجه إليكم بكل عنايته ولا يُشْتغل عنكم بأحد غيركم . [القاموس القويم ١/٢٠٩] .

هو ألا يوجد عائق بينكم وبين أبيهم .

وقولهم : ﴿ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يُقدِّرون الصلاح ؛ ويعرفون أن الذى فكَّروا فيه غيرُ مقبول بموازين الصلاح ؛ لذلك قالوا : إنهم سيتوبون من بعد ذلك .

ولكن : ما الذى أدراهم أنهم سوف يعيشون إلى أن يتوبوا ؟ وهم بقولهم هذا نَسُوا أن أمر المَوْت قد أُبهم حتى لا يرتكب أحدٌ المعاصىَ والكبائرَ .

أو : أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

هو أن يكونوا صالحين لحركة الحياة ، ولعدم تنغيص[1] علاقتهم بأبيهم ؛ فحين يخلُو لهم وجهه ؛ سيرتاحون إلى أن أباهم سيعدل بينهم ، ويهبُهم كل حبه فيرتاحون .

أو أن يكون المقصود بـ : ﴿ قَوْمًا صَالِحِينَ ۝ ﴾ [يوسف]

أن تلك المسألة التى تشغل بالهم وتأخذ جزءًا من تفكيرهم إذا ما وجدوا لها حلاً ؛ فسيرتاح بالهم فينصلح حالهم لإدارة شئون دنياهم .

وهكذا نفهم أن سعيهم إلى الصلاح : منوط بمراداتهم فى الحياة ، بحسب مفهومهم للصلاح والحياة .

---

(١) النغَص : كَدَرُ العيش .. وقد نغص عليه عيشه تنغيصاً اى : كدَّره ، ونغَّص علينا اى : قطع علينا ما كنا نحب الاستكثار منه ، وكل من قطع شيئاً مما يحب الازدياد منه فهو مُنغِّص . [لسان العرب ـ مادة : نغص] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ[1] الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ[2] إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾

وهكذا نرى التخفيف في الشر حين يرفض واحد منهم مبدأ القتل ، واستبدله بالإخفاء بإلقائه في الجُبِّ .

ولم يحدد الحق سبحانه لنا اسم القائل حتى يعصمهم جميعاً من سوء الظن بهم .

والجُبُّ هو البئر غير المطوى[3] ؛ ونحن نعلم أن الناس حين تحفر بئراً ، فمياه البئر تتدفق طوال الوقت ؛ وقد يأتى الردم فيسُدُّ البئر ؛ ولذلك يبنون حول فُوَّهة البئر بعضاً من الطوب لحمايته من الرَّدْم ؛ ويسمون مثل هذا البئر « بئر مطوى » ، وهكذا تظل المياه في البئر في حالة استطراق .

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [يوسف] وقرىء غيابات بالجمع . [القاموس القويم ٢/٦٥] وغيابة كل شيء : قعره ، ووقعوا في غيابة من الأرض ، أى : فى منهبط منها . [لسان العرب ـ مادة : غيب] .

(٢) السيار : الكثير السير . والسيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف] ، وقوله : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [المائدة] أى : للمسافرين . [القاموس القويم ١/٣٤٠] .

(٣) الطوى : البئر المطوية بالحجارة . يقال : طوى الركية طيًا : عرشها بالحجارة والآجُرِّ . [لسان العرب ـ مادة : طوى] .

وكلمة : ﴿ غَيَابَةِ الْجُبِّ ⦗١٠⦘ ﴾ [يوسف]

أى : المنطقة المَخْفِية فى البئر ؛ وعادة ما تكون فوق الماء ؛ وما فيها يكون غائباً عن العيون .

ولسائل أن يقول : وكيف يتأتّى إلقاؤه فى مكان مَخْفِىٍّ مع قول أحد الإخوة : ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ ⦗١٠⦘ ﴾ [يوسف]

ونقول : إن فى مثل هذا القول تنزيلاً لدرجة الشر التى كانت مُتوقِّدة فى اقتراح بعضهم بقتل يوسف ؛ وفى هذا الاقتراح تخفيض لمسألة القتل أو الطَّرْح أرضاً .

وبعد ذلك عاد القائل[1] لحالته العادية ، وصَحَتْ فيه عاطفة الأخوة ؛ وقال :

﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ⦗١٠⦘ ﴾ [يوسف]

أى : أنه توقع عدم رفضهم لاقتراحه .

وهكذا يشرح لنا الحق سبحانه كيف تمّتْ تصفية هذه المسألة ؛ فلم يقف صاحب هذا الرأى بالعنف ضد اقتراح إخوته بقتل يوسف أو طَرْحه فى الأرض ؛ بل أخذ يستدرجهم ليستلَّ منهم ثورة الغضب ؛ فلم يَقُلْ لهم « لا تقتلوه » ، ولكنه قال : «لا تقتلوا يوسف » .

وفى نُطْقه للاسم تحنين لهم .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٥٢/٤) : « القائل هو يهوذا ، وهو أكبر ولد يعقوب. قاله ابن عباس . وقيل : روبيل ، وهو ابن خالته . وقيل : شمعون » .

ويضيف :

﴿ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَةِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ[1] بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ⑩ ﴾ [يوسف]

وكأنه يأمل في أن يتراجعوا عن مخططهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ⑪ ﴾

وبعد أن وافقوا أخاهم الذى خفَّف من مسألة القتل ، ووصل بها إلى مسألة الإلقاء فى الجب ؛ بدأوا التنفيذ ، فقال واحد منهم مُوجِّهاً الكلام لأبيه ، وفى حضور كل الإخوة :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ .. ⑪ ﴾ [يوسف]

وساعة تسمع قول جماعة ؛ فاعلم أن واحداً منهم هو الذى قال ، وأمَّنَ الباقون على كلامه ؛ إما سُكوتاً أو بالإشارة .

ولكى يتضح ذلك اقرأ قول الحق سبحانه عن دعاء موسى عليه السلام على فرعون وكان معه هارون .

---

(١) التقط الشيء ولقطه : أخذه ليصونه أو لغرض آخر ، ولا يلتقط الإنسان إلا ما يراه نافعاً، قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ .. ⑧ ﴾ [القصص] فأخذوه ظناً منهم أنه مفيد نافع لهم . وكذلك قوله ﴿ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ .. ⑩ ﴾ [يوسف] يأخذه بعض المسافرين لينتفعوا به وليصونوه . [القاموس القويم ٢/١٩٨] .

قال موسى عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ[1] عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ[2] عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ (٨٨) ﴾ [يونس]

ورَدَّ الحق سبحانه على دعاء موسى :

﴿ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا.. (٨٩) ﴾ [يونس]

والذى دعا هو موسى ، والذى أمَّنَ على الدعوة هو هارون عليه السلام .

وهكذا نفهم أن الذى قال :

﴿ يَا أَبَانَا مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾ [يوسف]

تلك الكلمات التى وردتْ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو واحد من إخوة يوسف ، وأمَّن بقية الإخوة على كلامه .

وقولهم : ﴿ مَا لَكَ لا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ (١١) ﴾[يوسف]

يدل أنه كانت هناك محاولات سابقة منهم فى ذلك ، ولم يوافقهم الأب .

---

(١) طمس الشىء : تغيرت صورته أو انمحى أثره . وطمسه غيره : شوهه أو محاه وأزاله . وطمس عينه : أعماها . وقوله تعالى : ﴿ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أنزل عليها ما يمحوها ويهلكها . [القاموس القويم ١/ ٤٠٦] .

(٢) شد الحبل : ربطه ربطاً محكماً وشد أسره : قوّى قيده وأحكم وثاقه فلا يفلت منه أبداً ، أى أحكم السيطرة عليه . ﴿ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ .. (٢٨) ﴾ [الإنسان] . أى : أحكمنا وثاقهم وسيطرنا عليهم . وقوله : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ .. (٢٠) ﴾ [ص] أى : قوّيناه . وقوله : ﴿ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ .. (٨٨) ﴾ [يونس] أى : أحكم الغطاء واربطه بقوة على قلوبهم وهو دعاء عليهم . [القاموس القويم ١/ ٣٤٤] .

وقولهم : ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ⑪ ﴾ [يوسف]

يعنى أنهم سوف ينتبهون له ، ولن يحدث له ضرر أو شرّ ؛ وسيعطونه كل اهتمام فلا داعى أن يخاف عليه الأب .

ويستمر عَرْض ما جاء على لسان إخوة يوسف :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ[1] وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑫ ﴾

ولأنهم كانوا يخرجون للرعى والعمل ؛ لذلك كان يجب أن يأتوا بعلَّة ليأذن لهم أبوهم بخروج يوسف معهم ، ويوسف فى أوان الطفولة ؛ واللعب بالنسبة له أمر مُحبَّب ومسموح به ؛ لأنه ما زال تحت سن التكليف ، واللعب هو الشغل المباح لقصد انشراح النفس .

ويُفضِّل الشرع أن يكون اللعب فى مجال قد يطلبه الجدُّ مستقبلاً ؛ كأن يتعلمَ الطفلُ السباحةَ ، أو المصارعة ، أو إصابة الهدف ؛ وهى الرماية[2] وهكذا نفهم معنى اللعب : إنه شُغُل لا يُلهِى عن واجب ، أما اللهو[3] فهو شُغُل يُلهِى عن واجب .

---

(١) رتع يرتع : أكل وشرب كما يشاء فى خصب وسعة . وأصله : أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أطلق لشهوات بطنه العنان . [القاموس القويم ١/٢٥٤] .

(٢) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « مر النبى ﷺ بنفر يرمون ، فقال : رميا بنى إسماعيل فإن أباكم كان راميا » أخرجه أحمد فى مسلم (١/٣٦٤) وأخرجه البخارى فى صحيحه (٢٨٩٩) عن سلمة بن الأكوع رضى الله عنه بنحوه .

(٣) لها يلهو لهْوا : تسلَّى وشغل نفسه بما فيه لذتها وسرورها . أو تسلى بما لا يفيده . قال تعالى : ﴿قُلْ مَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ .. ⑪﴾ [الجمعة] واللهو هنا : الغناء والطبل والزمر الذى كان يصاحب عودة التجار وقت الصلاة . [القاموس القويم ٢/٢٠٥].

وهناك بعضٌ من الألعاب يمارسها الناس ؛ ويجلسون معاً ؛ ثم يُؤذِّن المؤذن ؛ ويأخذهم الحديث ؛ ولا يلتفتون إلى إقامة الصلاة فى ميعادها ؛ وهكذا يأخذهم اللهو عن الضرورة ؛ أما لو التفتوا إلى إقامة الصلاة ؛ لَصَار الأمر مجرد تسلية لا ضرر منها .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾

وكلام الأب هنا لا بُدَّ أن يغيظهم فهو دليل المحبة الفائقة إلى الدرجة التى يخاف فيها من فِراق يوسف لقلَّة صبره عنه ، وشدة رعايته له ؛ ثم جاء لهم بالحكاية الأخرى ، وهى :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾ [يوسف]

وقال بعض الناس[١] : لقد علَّمهم يعقوب الكذبة ؛ ولولا ذلك ما عرفوا أن يكذبوها .

ونلحظ أن يعقوب جعل للأخوة لَحْظاً ؛ فلم يقل : « أخاف أن يأكله الذئب وأنتم قاعدون » بل قال :

﴿ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ (١٣) ﴾ [يوسف]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٤٧٠) : « أخذوا من فمه هذه الكلمة وجعلوها عذرهم فيما فعلوه » . وقد أورد السيوطى فى « الدر المنثور » (٤/ ٥١٠) آثاراً فى هذا الشأن ، فقال : أخرج أبو الشيخ وابن مردويه والسلفى فى الطيوريات عن ابن عمر رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : « لا تلقنوا الناس فيكذبوا ، فإن بنى يعقوب لم يعلموا أن الذئب يأكل الناس ، فلما لقنهم أبوهم كذبوا فقالوا أكله الذئب » .

وهذا ليُربِّى فيهم مواجيد الأخوة التى تفترض ألاَّ يتصرفوا مع أخيهم بشرّ ؛ ولا أن يتصرف غيرهم معه بشرّ إلا إذا غفلوا عن أخيهم .

ونلحظ فى ردِّهم عجزَهم عن أنْ يردوا على قوله :

﴿ إنِّى لَيَحْزُنُنِى أَن تَذْهَبُوا بِهِ .. (١٣) ﴾ [يوسف]

فهذا الحب من يعقوب ليوسف هو الذى دفعهم إلى الحقد على يوسف ، وردّوا فقط على خوفه من أنْ يأكله الذئب ، وجاء القرآن بما قالوه :

﴿ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾

وهنا يكشف لنا الحق سبحانه محاولاتهم لطمأنة أبيهم ؛ كى يأذن فى خروج يوسف معهم ؛ ولهذا استنكروا أن يأكله الذئب وهم مُحيطون به كعُصْبة ، وأعلنوا أنه إنْ حدث ذلك فهم سيخسرون كرامتهم أمام أنفسهم وأمام قومهم ، وهم لا يقبلون على أنفسهم هذا الهوان[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٦٢) : « قوله ﴿ إِنَّا إِذًا لَّخَاسِرُونَ (١٤) ﴾ [يوسف] أى : إنا لخاسرون فى حفظ أغنامنا ، أى : إذا كنا لا نقدر على دفع الذئب عن أخينا فنحن أعجز أن ندفعه عن أغنامنا » .

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟[1] أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾

وقوله الحق :

﴿ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾﴾ [يوسف]

يدلنا على أن تلك المسألة أخذتْ منهم مناقشة ، فيها أَخْذٌ وردٌّ ، إلى أن استقروا عليها[2] .

وألهم الحق سبحانه يوسف عليه السلام بما سوف يفعلونه ، والوحى كما نعلم هو إعلام بخفاء .

وسوف يأتى فى القصة أن يوسف عليه السلام بعد أن تولى الوزارة فى مصر ودخلوا عليه أمسك بقدح ونقر عليه بأصابعه ، وقال لهم : اسمعوا ما يقوله القدح ؛ إنه يقول : إن لكم أخاً وقد فعلتم به كذا وكذا[3] .

---

(١) جمع أمره : عزم عليه أو أحكمه . قال تعالى : ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾﴾ [طه] أى : عزم عليه وأحكمه . وأجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه ، قال تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾﴾ [طه] وقال تعالى : ﴿وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ .. ﴿١٥﴾﴾ [يوسف] أى : اتفقوا . [القاموس القويم ١ / ١٢٧] .

(٢) ذكر القرطبى فى هذا أن يعقوب عليه السلام لما أرسله معهم أخذ عليهم ميثاقاً غليظاً ليحفظنه، وسلّمه إلى روبيل وقال : يا روبيل إنه صغير وتعلم يا بنى شفقتى عليه ، فإن جاع فأطعمه ، وإن عطش فاسقه ، وإن أعيا فاحمله ، ثم عَجِّل بردّه إليَّ . قال : فأخذوه يحملونه على أكتافهم ، لا يضعه واحد إلا رفعه آخر [انظر : تفسير القرطبى ٣٤٦٢/٤] .

(٣) أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « لما دخل إخوة يوسف على يوسف فعرفهم وهم له منكرون . جيء بالصواع فوضعه على يده ، ثم نقره فَطَنَّ فقال : إنى ليخبرنى هذا الجام أنه كان لكم أخ من أبيكم يُقال له يوسف ، يدين دينكم وأنكم انطلقتم به فالقيتموه فى غيابة الجب ، فأتيتم أباكم فقلتم : إن الذئب أكله وجئتم على قميصه بدم كذب . فقال بعضهم لبعض : إن هذا الجام ليخبره خبركم » (أورده السيوطى فى الدر المنثور ٥١١/٤)

وبعض المفسرين قال : إن الحق سبحانه أوحى له ، ولم يَلْحَظْ إخوته هذا الوحى .

ونقول : إن الوَحْى إعلام بخفاء ، ولا يمكن أن يشعر به غير المُوحَى إليه ، وعلى ذلك نرى أنهم لم يعلموا هذا الأمر إلا بعد أن تولى يوسف مقاليد الوزارة فى مصر ؛ بل إنهم لم يعرفوا أن يوسف أخوهم ؛ لأنهم قالوا له لحظتها :

﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ[1] أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. (٧٧)﴾ [يوسف]

والمقصود بالوحى فى هذه الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ هو إيناس الوَحْشة ؛ وهو وارد إلهى لا يرده وارد الشيطان ؛ والإلهام وارد بالنسبة لمَنْ هم غير أنبياء ؛ مثلما أوضحنا الأمر الذى حدث مع أم موسى حين أوحى لها الله أن تلقيه فى اليم[2] .

---

(١) يقصدون يوسف عليه السلام. قال سعيد بن جبير عن قتادة : كان يوسف عليه السلام قد سرق صنماً لجده أبى أمه فكسره . وقال محمد بن إسحاق عن عبدالله بن أبى نجيح عن مجاهد قال : كان أول ما دخل على يوسف من البلاء ـ فيما بلغنى ـ أن عمته ابنة إسحاق وكانت أكبر ولد إسحاق وكانت عندها منطقة إسحاق وكانوا يتوارثونها بالكبر وكان من اختباها ممن وليها كان له سلماً لا ينازع فيه يصنع فيه ما يشاء وكان يعقوب حين ولد له يوسف قد حضنته عمته وكان لها به وَلَهٌ فلم تحب أحداً حبها إياه حتى إذا ترعرع وبلغ سنوات تاقت إليه نفس يعقوب فأتاها فقال : يا أخية سلمى إلىّ يوسف فو الله ما أقدر على أن يغيب عنى ساعة قالت : فو الله ما أنا بتاركته ثم قالت : فدعه عندى أياماً أنظر إليه وأسكن عنه لعل ذلك يسلينى عنه أو كما قالت فلما خرج من عندها يعقوب عمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ثم قالت : فقدت منطقة إسحاق عليه السلام فانظروا من أخذها ومن أصابها ؟ فالتمست ثم قالت : اكشفوا أهل البيت فكشفوهم فوجدوها مع يوسف فقالت : والله إنه لى لسلم أصنع فيه ما شئت ، فأتاها يعقوب فأخبرته الخبر فقال لها : أنت وذاك إن كان فعل ذلك فهو سلم لك ، ما أستطيع غير ذلك . فأمسكته فما قدر عليه يعقوب حتى ماتت « راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٨٦ .

(٢) يقول تعالى : ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩)﴾ [طه] .

والوارد الإلهى لا يجد له معارضة فى النفس البشرية ، وقد أوحى الله ليوسف ما يُؤنسُ وحشته[1] حين ألقاه إخوته فى الجُبِّ الذى ابتعد فيه عن حنان أبيه وأنسه بأخيه ، ومفارقته لبلده التى درج[2] فيها وأُنْسه بالبيئة التى اعتاد عليها .

فكان لا بُدَّ أن تعطيه السماء دليلاً على أن ما حدث له ليس جَفْوة لك يا يوسف ؛ لكنه إعداد لك لتقابل أمراً أهمّ من الذى كنت فيه ؛ وأن غُرَماءك ـ وهم إخوتك ـ سوف يُضطَّرون لدقِّ بابك ذات يوم يطلبون عَوْنك ، ويطلبون منك أقواتهم ، وستعرفهم أنت دون أن يعرفوك .

هذا من جهة يوسف ؛ وجهة الجُبِّ الذى ألقوْه فيه ، وبقى أن تعالج القصة أمر الإخوة مع الأب ، فيقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ١٦ ﴾

وهنا تتجلى لنا قدرة أداء القرآن أداء دقيقاً معبراً عن الانفعالات التى توجد فى النفس الإنسانية ، فها هم إخوة خدعوا أباهم ومكروا

---

(١) ومما ورد فى هذا ما نقله القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٦٥) : « قال الضحاك : نزل جبريل عليه السلام على يوسف وهو فى الجب فقال له : ألا أعلمك كلمات إذا أنت قلتهن عجل الله لك خروجك من هذا الجب ؟ فقال : نعم . فقال له : قل يا صانع كل مصنوع ، ويا جابر كل كسير ، ويا شاهد كل نجوى ، ويا حاضر كل ملأ ، ويا مفرج كل كربة ، ويا صاحب كل غريب ، ويا مؤنس كل وحيد ، ايتنى بالفرج والرجاء ، واقذف رجاءك فى قلبى حتى لا أرجو أحداً سواك .
فرددها يوسف فى ليلته مراراً ، فأخرجه الله فى صبيحة يومه ذلك من الجبّ » .

(٢) يقال للصبى إذا دَبَّ وأخذ فى الحركة : درج . ودرج الشيخ والصبى يدرج فهو دارج : مشيا مَشْياً ضعيفاً ودَبًّا . [لسان العرب ـ مادة : درج] .

بأخيهم ، وأخذوه وألقوه فى الجُبِّ مع أنهم يعلمون أن أباه يحبه ، وكان ضنيناً[1] أن يأتمنهم عليه ، فكيف يواجهون هذا الأب ؟

هذا هو الانفعال النفسى الذى لا تستطيع فطرة أن تثبته ؛ فقالوا : نؤخر اللقاء لأبينا إلى العشاء : والعشاء مَحَلٌّ الظلمة ، وهو ستر للانفعالات التى توجد على الوجوه من الاضطراب ؛ ومن مناقضة كذب ألسنتهم ؛ لأنهم لن يخبروا الأب بالواقع الذى حدث ؛ بل بحديث مُخْتلق[2] .

وقد تخدعهم حركاتهم ، ويفضحهم تلجلجهم ، وتنكشف سيماهم الكاذبة أمام أبيهم ؛ فقالوا : الليل أخْفَى للوجه من النهار ، وأستَر للفضائح ؛ وحين ندخل على أبينا عشاءً ؛ فلن تكشفنا انفعالاتنا .

وبذلك اختاروا الظرف الزمنى الذى يتوارون فيه من أحداثهم :

﴿ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [يوسف]

والبكاء انفعال طبيعى غريزى فطرىّ ؛ ليس للإنسان فيه مجال اختيار ؛ ومَنْ يريد أن يفتعله فهو يتباكى ، بأن يَفْرُك عينيه ، أو يأتى ببعض ريقه ويُقرِّبه من عينيه ، ولا يستر ذلك إلا أن يكون الضوء

---

(١) ضننت بالشىء أضن : بخلت به ، وهو ضنين به . ورجل ضنين : بخيل . والضِّنة والضّن : الإمساك والبخل . وقال تعالى : ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التكوير] فهو لا يكتم غيباً عن رسول الله ، بل يبلغه كل ما أوحاه الله إليه من خبر السماء . [راجع لسان العرب ، والقاموس القويم] .

(٢) خلق الكذب والإفك يخلقه وتخلّقه واختلقه وافتراه : ابتدعه. الاختلاق : الكذب ، وهو افتعال من الخلق والإبداع كأن الكاذب تخلّق قوله . [لسان العرب ـ مادة : خلق]

خافتاً ؛ لذلك جاءوا أباهم عشاء يُمثِّلون البكاء[1] .

والحق سبحانه حينما تكلم عن الخصائص التى أعطاها لذاته ، ولم يُعْطِها لأحد من خلقه ؛ أعلمنا أنه سبحانه هو الذى يميت ويحى ، وهو الذى يُضحك ويُبْكى .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) ﴾ [النجم]

ولا يوجد فَرْق بين ضحك أو بكاء إنسان إنجليزى وآخر عربى ؛ ولا يوجد فرق بين موت أو ميلاد إنسان صينى وآخر عربى أو فرنسى ؛ فهذه خصائص مشتركة بين كل البشر .

وإذا ما افتعل الإنسان الضحك ؛ فهو يتضاحك ؛ وإذا ما افتعل الإنسان البكاء فهو يتباكى ؛ أى : يفتعل الضحك أو البكاء . والذى يفضح كل ذلك هو النهار .

والتاريخ يحمل لنا الكثير من الحكايات عن اتخاذ الليل كستار للمواقف ؛ والمثل فى سيدنا الحسين رضى الله عنه وأرضاه ؛ حين جاءت موقعة كربلاء ، ورأى العدو وقد أحاط به ؛ ورأى الناس وقد انفضوا عنه بعد أن دَعَوْهُ ليبايعوه ، ولم يَبْقَ معه إلا قلة ؛ وعَزَّتْ عليه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٦٦/٤) : « قال علماؤنا : هذه الآية دليل على أن بكاء المرء لا يدل على صدق مقاله ، لاحتمال أن يكون تصنعاً ، فمن الخلق من يقدر على ذلك ، ومنهم من لا يقدر . وقد قيل : إن الدمع المصنوع لا يخفى ، كما قال حكيم :

إذَا اشتبكتْ دُمُوعٌ فى خُدودٍ ... تبيَّن مَنْ بكَى مِمَّنْ تباكَى ».

نفسه ؛ وعَزَّ عليه أن يقتل هؤلاء في معركة غير متكافئة صمم هو على دخولها .

فلما أقبل الليل دعا أصحابه وقال لهم :

« إن كنتم قد استحييتم أن تفروا عني نهاراً ، فالليل جاء وقد ستركم ، فمَنْ شاء فليذهب واتركوني »[1] .

يقص الحق سبحانه ما بدر منهم فوْرَ أنْ دخلوا على أبيهم :

﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ[2] وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾

كلمة : ﴿ نَسْتَبِقُ .. (١٧) ﴾ [يوسف]

تعبر عن بيان تفوُّق ذات على ذات في حركة ما ؛ لنرى من

---

(١) ذكر ابن كثير في كتابه (البداية والنهاية ١٧٨/٨) أن الحسين بن على رضى الله عنه قال لأصحابه : « من أحب أن ينصرف إلى أهله في ليلته هذه فقد أذنت له فإن القوم إنما يريدونني ، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه حجلاً ، ليأخذ كل منكم بيد رجل من أهل بيتي ثم اذهبوا في بسيط الأرض في سواد هذا الليل إلى بلادكم ومدائنكم فإن القوم إنما يريدونني ، فلو قد أصابوني لهوا عن طلب غيري ، فاذهبوا حتى يفرج الله عز وجل » .

(٢) استبقا : تباريا ليسبق كل منهما الآخر . واستبقا الشيء : تباريا في الجرى نحوه للوصول إليه ، ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ .. (١٧) ﴾ [يوسف] أي : نتبارى في الجرى والسبق . ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ .. (٢٥) ﴾ [يوسف] حاول كل منهما أن يصل إليه قبل الآخر . ويقول تعالى : ﴿ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ .. (١٤٨) ﴾ [البقرة] تباروا في الوصول إليها أو فعلها قبل غيركم . [القاموس القويم ٣٠٢/١] .

سيسبق الآخر ؛ فحين يتسابق اثنان فى الجرى نرى مَنْ فيهما سبق الآخر ؛ وهذا هو الاستباق .

وقد يكون الاستباق فى حركة بآلة ؛ كأن يمسك إنسان ببندقية ويُصوِّبها إلى الهدف ؛ ويأتى آخر ويمسك ببندقية أخرى ويحاول أن يصيب الهدف ؛ ومَنْ يسبق منهما فى إصابة الهدف يكون هو المتفوق فى هذا المجال .

وقد يكون الاستباق فى الرمى بالسهام ؛ ونحن نعرف شكل السهم ؛ فهو عبارة عن غُصْن مَرِنٍ ، يلتوى دون أن ينكسر ؛ ومُثبَّت عليه وتر ، ويوضع السهم فى منتصف الوتر ، ليشده الرامى فينطلق السهم إلى الهدف .

وتُقَاسُ دقة إصابة الهدف حسب شدة السهم وقوة الرمى ، ويسمى ذلك «تحديد الهدف» .

أما إذا كان التسابق من ناحية طول المسافة التى يقطعها السهم ؛ فهذا لقياس قوة الرامى .

وهكذا نجد الاستباق له مجالات متعددة ؛ وكل ذلك حلال ؛ فهم أسباط وأولاد يعقوب ، ولا مانع أن يلعب الإنسان لُعْبة لا تُلهيه عن واجبه ؛ وقد تنفعه فيما يَجِدُّ من أمور ؛ فإذا التقى بعدو نفعه التدريب على استخدام السهم أو الرمح أو أداة قتال ؛ واللعب[1] الذى لا يَنْهى عن طاعة ، وينفع وقت الجد هو لَعِب حلال .

---

(١) اللعب قد يكون محموداً إذا لم يتعارض مع القيم الفاضلة ، أما إذا كان اللعب قد يلهى الإنسان عن الواجبات فهو مذموم ، واللهو لا يكون إلا مذموماً .

وهناك ألعاب قد لا يدرك الناس لها غاية مثل كرة القدم .

وأقول : قد يوجد عَدوَّانِ ؛ وبينهما قنبلة موقوتة ؛ ويحاول كل طرف أن يبعدها عن موقعه ، والقوة والحكمة تظهر فى محاولة كل فريق فى إبعاد الكرة عن مرماه .

ولكن لا بد ألا يُلْهِى لعب الكرة عن واجب ؛ فمثلاً حين يؤذن المؤذن للصلاة ، الواجب علينا ألا نهمل الصلاة ونواصل اللعب ، وعلى اللاعبين أن يُراعُوا عدم ارتداء ملابس تكشف عن عوراتهم .

وأبناء يعقوب قالوا :

﴿ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا[1] .. ﴿١٧﴾ ﴾ [يوسف]

وفى هذا إخلال بشروط التعاقد مع الأب الذى أذِنَ بخروج يوسف بعد أن قالوا :

﴿ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [يوسف]

وقالوا :

﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [يوسف]

فهل أخذتموه معكم ليرتع ويلعب ، ويأكل من ثمار الأشجار والفاكهة ؛ وتحفظونه ، أم ليحفظ لكم متاعكم وأنتم تستبقون .

---

(١) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ويجمع على أمتعة باعتبار ما ينتفع به وما يتمتع به . قال تعالى : ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. ﴿١٧﴾﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء ينتفع بها ، وقال تعالى : ﴿ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ .. ﴿١٠٢﴾﴾ [النساء] جمع متاع بمعنى أشياء ينتفع بها من طعام وأدوات للحرب ومال ونحو ذلك . [القاموس القويم ٢/٢١٥] .

وهذا أول الكذب الذى كذبوه ؛ وهـذه أول مخالفـة لشرط إذن والده له بالخروج معكم ؛ ولأن «المريب يكاد يقول خذونى » نجدهم قد قالوا :

﴿ فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧) ﴾ [يوسف]

أو : أنهم قالوا ذلك لأنـهم يعلمون أن والدهم لن يُصـدِّقهم مهـما قالوا . ونعلم أن « آمن » إما أن تتعدى إلى المفعول بنفسها مثل «آمنه الله من الجوع » ، أو قوله الحق :

﴿ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

أو : تجىء بالباء ، ويُقال « آمن به » أى : صدَّق واعتقد .

أو : يُقَال « آمن له » أى : صدَّقه فيما يقول .

وهم هنا يتهمون أباهم أنه مُتحَدٍّ لهم ، حتى ولو كانوا صادقين ، وهم يعلمون أنهم غير صادقين ؛ ولكن جاءوا بكلمة الصدق ليداروا كذبهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ(١) بِدَمٍ كَذِبٍ(٢) قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ(٣) لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾

---

(١) القـميص : مـا يحيط بالبـدن وقد يُـسمَّى شـعارًا ومـا فوقـه دثار ، وقد يُسـمَّى كل ثوب قميصاً . والجمع اقمصة وقُمص وقُمْصان . [القاموس القويم ٢/١٣٣] .

(٢) « قال مجاهد : كـان دم سخلة أو جدى ذبحوه . وقال قتادة : كـان دم ظبية ، أى : جاءوا على قميصه بدم مكذوب فـيه . وقرأ الحسن وعائشة : « بدم كدب » بالدال غيـر المعجمة ، أى : بدم طرى . وحكى أنه المتغير ، قاله الشعبى » (تفسير القرطبى ٤/٣٤٧١) .

(٣) سولت نفسه له أمـراً : زينته له ليفعله . وسول له الشيطان : أغواه . والتـسويل : تحسين الشىء وتزيينه وتحبيبه إلى الإنسان ليفعله أو يقوله . [لسان العرب ـ مادة : سول] .

كأن قميص يوسف كان معهم . ويُقال : إن يعقوب علَّق على مجيء القميص وعليه الدم الكذب بأن الذئب كان رحيماً ، فأكل لحم يوسف ولم يُمزِّق قميصه ؛ وكأنه قد عرف أن هناك مؤامرة سيكشفها الله له[١] .

ويصف بعض العلماء قصة يوسف بقصة القميص :

فهنا جاء إخوته بقميصه وعليه دم كذب .

وفي أواسط السورة[٢] تأتي مسألة قميص يوسف إن كان قد شُقَّ من دُبُرٍ لحظة أنْ جذبتْه امرأة العزيز لتراوده[٣] عن نفسه .

وفي آخر السورة[٤] يرسل إخوته بقميصه إلى والده فيرتد بصره .

ولهذا أخذ العلماء والأدباء كلمة القميص كرمز لبعض الأشياء ؛ والمثل هو قول الناس عن الحرب بين علي رضي الله عنه ومعاوية

---

(١) نقل القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٧١) « أن يعقوب عليه السلام لما تأمل القميص فلم يجد فيه خَرقاً ولا أثرًا استدل بذلك على كذبهم ، وقال لهم : متى كان هذا الذئب حكيماً يأكل يوسف ولا يخرق القميص . قاله ابن عباس وغيره » .

(٢) وذلك في قوله تعالى : ﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾ [يوسف].

(٣) راوده على الشيء : مراودة : طلبه منه بجهد وحيلة ومساومة ، وقوله تعالى : ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] أي : طلبت منه نفسه في محاولة ومخادعة ، [القاموس القويم ١/٢٨١ بتصرف] .

(٤) وذلك في قوله تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال لإخوته : ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣)﴾ [يوسف] .

رضى الله عنه أن معاوية أمسك بقميص عثمان بن عفان طلباً للثأر من على ، فقيل «قميص عثمان » رمزاً لإخفاء الهدف عن العيون ، وكان هدف معاوية أن يحكم بدلاً من على بن أبى طالب رضى الله عنهم أجمعين .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ [1] .. ⑱ ﴾ [يوسف]

وكأن القميص كان معهم ، ووضعوا عليه دماً مكذوباً ، لأن الدم لا يكذب ، إنما كذب مَنْ جاء بدم الشاة ووضعه على القميص .

وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطى الوصف المصدرى للمبالغة ؛ وكأن الدم نفسه هو الذى كذب ؛ مثلما تقول « فلان عادل » ويمكنك أن تصف إنساناً بقولك « فلان عَدْل » أى : كأن العدل تجسَّد فيه ، أو قد تقول « فلان ذو شرّ » ، فيرد عليك آخر « بل هو الشر بعينه » ، وهذه مبالغة فى الحدث .

وهل كان يمكن أن يُوصَف الدم بأنه دم صادق ؟

نقول : نعم ، لو كان الذئب قد أكل يوسف بالفعل ؛ وتلوَّث قميص يوسف بدم يوسف وتمزق . ولكن ذلك لم يحدث ، بل إن الكذب يكاد يصرخ فى تلك الواقعة ويقول « أنا كذب » .

فلو كان قد أكله الذئب فعلاً ؛ كان الدم قد نشع من داخل القميص لخارجه ؛ ولكنهم جاءوا بدم الشاة ولطخوا به القميص من الخارج .

---

(١) هذا أسلوب الإعجاز البلاغى ، وفيه إشارة إلى قضية ملفقة .

وبالله ، لو أن الذئب قد أكله فعلاً ، ألم تكُنْ أنيابه قد مزَّقَتْ القميص ؟

وحين انكشف أمرهم أمام أبيهم ؛ أشار أحدهم خُفْية للباقين وقال لهم همساً : قولوا لأبيكم : إن اللصوص قد خرجوا عليه وقتلوه ؛ فسمع يعقوب الهمس فقال : اللصوص أحوَجُ لقميصه من دمه[1] ؛ وهذا ما تقوله كتب السير.

وهذا ما يؤكد فراسة يعقوب ، هذه الفراسة[2] التى يتحلى بها أىُّ محقق فى قضية قتل ؛ حين يُقلِّب أسئلته للمتهم وللشهود ؛ لأن المحقق يعلم أن الكاذب لن يستوحى أقواله من واقع ؛ بل يستوحى أقواله من خيال مضطرب .

ولذلك يقال : « إن كنت كذوباً فكُنْ ذَكُوراً »[3] .

ويأتى هنا الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

« والسَّوَل » : هو الاسترخاء ؛ لأن الإنسان حين تكون أعصابه

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٤٧٢/٤) محاولات أبناء يعقوب تبرير ما حدث وانكشاف أمرهم أمام أبيهم لفراسته فقال : « روى أنهم قالوا له : بل اللصوص قتلوه ، فاختلف قولهم ، فاتهمهم ، فقال لهم يعقوب : تزعمون أن الذئب أكله ، ولو أكله لشقّ قميصه قبل أن يفضى إلى جلده ، وما أرى بالقميص من شق ، وتزعمون أن اللصوص قتلوه ، ولو قتلوه لأخذوا قميصه ، هل يريدون إلا ثيابه ؟! » .

(٢) الفراسة : فى النظر والتثبت والتأمل للشىء والبصر به ولهما معنيان قالهما ابن الأثير :
أحدهما : ما يُوقعه الله تعالى فى قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس .
الثانى : نوع يُتعلَّم بالدلائل والتجارب والخَلْق والأخلاق ، فتُعرف به أحوال الناس » . نقله ابن منظور فى [لسان العرب - مادة : فرس] .

(٣) الذكر : الحفظ للشىء تذكره . ورجل ذَكيرٌ : جيد الذكر والحفظ . والذكر والذكرى : نقيض النسيان . والتذكر : تذكر ما أنسيته . [لسان العرب - مادة : ذكر] .

مشدودة ؛ ثم يحب أن يسترخى ، فيستريح قليلاً ، وبعد ذلك يجد فى نفسه شيئاً من اليُسْر فى بدنه ونبضه .

ونأخذ ﴿ سَوَّلَتْ .. ⟨١٨⟩ ﴾ [يوسف]

هنا بمعنى يَسَّرت وسهَّلتْ ، وما دامت قد سوَّلتْ لكم أنفسكم هذا الأمر فسوف أستقبله بما يليق بهذا الوضع ، وهو الصبر .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ⟨١٨⟩ ﴾ [يوسف]

والذين يحاولون اصطياد خطأ فى القرآن يقولون « وهل يمكن أن يكون الصبر جميلاً ؟ » .

نقول : هم لا يعرفون أن الصبر يُقال فيه « اصبر عن كذا » إذا كان الأمر عن شهوة قد تُورث إيلاماً ؛ كأن يُقال « اصبر عن الخمر » أو « اصبر عن الميسر » أو « اصبر عن الربا » .

ويُقال « اصبر على كذا » إذا كان الصبر فيه إيلام لك . والصبر يكون جميلاً حينما لا تكون فيه شكوى أو جزع .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ وَاهْجُرْهُمْ [1] هَجْرًا جَمِيلاً ⟨١٠⟩ ﴾ [المزمل]

وهؤلاء الذين يبحثون عن تناقض أو تضارب فى القرآن إنما هم قوم لا يعرفون كيفية استقباله وفهمه ؛ وقد بيَّن لنا يعقوب عليه السلام أن الصبر الجميل هو الصبر الذى لا شكوى فيه ، وهو القائل :

﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. ⟨٨٦⟩ ﴾ [يوسف]

---

(١) هجره يهجره هجراً وهجراناً : تركه مع سخط ونفور . قال تعالى : ﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ⟨٥⟩ ﴾ [المدثر] أى : اترك الرجز كله نافراً منه كارهاً له ، وهذا الأمر بالنسبة للرسول ﷺ معناه : اثبت على هجره لأنه لم يفعل رجزاً . وقوله تعالى : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ⟨١٠⟩ ﴾ [المزمل] أى : اتركهم وابتعد عنهم فى سماحة بغير إيذاء . [القاموس القويم ٢/٢٩٨] .

وهكذا نعلم أن هناك فارقاً بين الشكوى للربِّ ؛ وشكوى من قدر الربِّ .

ولذلك يقول يعقوب عليه السلام هنا :

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1] .. ⑱ ﴾ [يوسف]

ويتبعها :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ⑱ ﴾ [يوسف]

كأن الصبر الجميل أمر شاقٌّ على النفس البشرية ، ولم يكُنْ يعقوب قادراً على أن يُصدِّق ما قاله أبناؤه له ؛ فكيف يُصدِّق الكذب ؟ وكيف يمكن أن يواجه أبناءه بما حدث منهم ؟ وهم أيضاً أبناؤه ؛ لكنه كان غير قادر على أن يكشف لهم كذبهم .

والمثل لذلك ما جاء فى التراث العربى حين قِيلَ لرجل : إن ابنك قد قتل أخاك ، فقال :

أَقولُ لنفسى تأساء وتعزيةً إحدى يدىَّ أصَابتْنِى ولم تُرِد
كِلاهُمَا خلف عَنْ فَقْدِ صاحبِه هذا أخى حين أدعُوه وذَا ولدِى

ومثل هذه المواقف تكون صعبة وتتطلب الشفقة ؛ لأن مَنْ يمر بها يحتار بين أمر يتطلب القسوة وموقف يتطلب الرحمة ؛ وكيف يجمع إنسان بين الأمرين ؟

إنها مسألة تعزُّ عل خَلْق الله ؛ ولا بد أن يفزع فيها الإنسان إلى الله ؛ ولذلك علَّمنا ﷺ أنه إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[2] ؛ وحزبه أمر

---

(١) الصبر الجميل هو الصبر مع الرضى ، والتفويض لمن بيده الأمر : من مفهوم خواطر الإمام.

(٢) عن حذيفة قال : « كان النبى ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٨٨) وأبو داود فى سننه (١٣١٩) .

ما يعنى : أن مواجهة هذا الأمر تفوق أسباب الإنسان ؛ فيلجأ إلى المُسبِّب الأعلى ؛ ولذلك قال يعقوب عليه السلام :

﴿ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

وقوله : « تصفون » يعنى : أنكم لا تقولون الحقيقة ، بل تصفون شيئاً لا يصادف الواقع ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ[1] أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ .. (١١٦) ﴾ [النحل]

أى : أن ألسنتكم نفسها تَصِفُ الكلام أنه كذب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) ﴾ [الصافات]

وتعنى أن هؤلاء الذين قالوا ما قيل عنه أنه وصف قد كذبوا فيما قالوا ؛ وكان مصير كذبهم مفضوحاً .

﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[2] وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١٨) ﴾ [يوسف]

وهكذا عبَّر يعقوب عليه السلام عن نفسه ؛ فالجوارح قد تكون ساكنة ؛ لكن القلب قد يزدحم بالهموم ويفتقد السكون ؛ لذلك لا بد من الاستعانة بالله .

---

(١) وصف الأمر : ذكره وعرَّفه وتحدَّث به . قال تعالى : ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ .. (١١٦) ﴾ [النحل] أى : تذكره وتقوله . وقال تعالى : ﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ (١٠٠) ﴾ [الأنعام] أى : من الوصف الذى يصفونه به مما لا يليق بكماله كوجود شريك له أو ابن أو غير ذلك ، وقال تعالى : ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ .. (١٣٩) ﴾ [الأنعام] . أى : جزاء وصفهم وعقابه . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

(٢) الجمال : البهاء والحسن يوصف به الحسىّ والمعنوى ، قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ..(١٨) ﴾ [يوسف] وهو جمال معنوى ، وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ (٨٥) ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . والسراح الجميل : الطلاق المصحوب بالإحسان إلى المطلقة ومنحها حقوقها كاملة وبغير إيذاء ، وقوله : ﴿ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا (١٠) ﴾ [المزمل] لا إيذاء فيه بقول أو عمل. [القاموس القويم ١/١٢٨] .

وقد علَّمنا الحق سبحانه أن نقول فى فاتحة الكتاب :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥) ﴾ [الفاتحة]

فأنت تقف لعبادة الله وبين يديه ؛ لكن الدنيا قد تشغلك عن العبادة أثناء أداء العبادة نفسها ؛ لذلك تستعين بخالقك لتُخلص فى عبادتك .

وبعد أن عرض الحق سبحانه لموقف الأب مع أولاده ، نأتى لموقف يوسف عليه السلام فى الجُبِّ .

يقول سبحانه :

﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ(١) فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ(٢) فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ(٣) قَالَ يَا بُشْرَىٰ(٤) هَٰذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ(٥) بِضَاعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩) ﴾

---

(١) السيارة : الجماعة السائرة المسافرة . قال تعالى : ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ (١٩) ﴾ [يوسف] أى : جماعة مسافرة . وقوله تعالى : ﴿ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ (٩٦) ﴾ [المائدة] للمسافرين . [القاموس القويم ١/ ٣٤٠] .

(٢) وردت الماء إذا حضرته لتشرب . والوِرْد : الماء الذى ترد عليه . والواردة : وُرَّاد الماء . والورد : الوراد وهم الذين يردُون الماءَ . [لسان العرب ـ مادة : ورد] . ورد الماء : قصده وبلغه ووصل إليه .

(٣) الدلو : الوعاء الذى يخرج الماء من البئر ونحوه . قال تعالى : ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ .. (١٩) ﴾ [يوسف] أى : أنزله فى البئر ليخرج منه ماء . [القاموس القويم ١/ ٢٣١] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٤٧٥) : « فى معناه قولان :
أحدهما : اسم الغلام .
الثانى : يا أيتها البشرى هذا حينك وأوانك . قال قتادة : بشَّر أصحابه بأنه وجد عبداً . قال السدى : نادى رجلاً اسمه بشرى . قال النحاس : قول قتادة أولى ، لأنه لم يأت فى القرآن تسمية أحد إلا يسيراً . قال القرطبى : وهذا أصح لأنه لو كان اسماً علماً لم يكن مضافاً إلى ضمير المتكلم » .

(٥) أسررت الأمر والحديث : أخفيته . وأسر إليه الحديث : ألقاه إليه سراً ولم يُطلع عليه أحداً معه . وقوله : ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ .. (٥٤) ﴾ [يونس] أخفوها فى صدورهم وفى سرائرهم . وقوله فى قصة يوسف : ﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً .. (١٩) ﴾ [يوسف] أخفوه . وقوله : ﴿ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ .. (١) ﴾ [الممتحنة] أى : يسرون إليهم أنباء المسلمين وأحوالهم بسبب المودة بينكم ، وهو تبكيت وتوبيخ لمن يفعل ذلك ، أو تخفون المودة لهم ، أى : تجعلون مودتكم لهم سرًا ، وتخفونها عن المسلمين نفاقاً وخداعاً . [القاموس القويم ١/ ٣١٠] .

ولم يَقُلِ الحق سبحانه من أين جاء السيارة ؟ أو إلى أين كانوا ذاهبين ؟

والمقصود بالسيارة هم القوم المحترفون للسير ، مثل مَنْ كانوا يرحلون فى رحلة الشتاء والصيف ؛ بهدف التجارة وجَلْب البضائع .

وكانت السيارة لا تنتقل بكامل أفرادها إلى البئر ، بل يذهب واحد منهم إلى البئر ؛ ليأتى لهم بالمياه ويُسمَّى الوارد ، وذهب هذا الوارد إلى البئر ليُحضِر لبقية السيارة الماء وألقى دَلْوه فى البئر ؛ ويسمى حبل الدلو الرشاء .

وحين نزل الدلو إلى مستوى يوسف عليه السلام تعلق يوسف فى الحبل ؛ فأحسَّ الوارد بثقل ما حمله الرشاء ؛ ونظر إلى أسفل ؛ فوجد غلاماً يتعلق بالدلو فنادى :

﴿ يَا بُشْرَىٰ هَـٰذَا غُلامٌ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه يقول يا بشرى هذا أوانك ؛ وكأنه يبشر قومه بشىء طيب ؛ فلم يحمل الدلو ماء فقط ، بل حمل غلاماً أيضاً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً .. ﴿١٩﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم أخفوْه وعاملوه كأنه بضاعة ، ولم يتركوه يمشى بجانبهم؛

خشية أن يكون عبداً آبقاً[1] ويبحث عنه سيده ؛ وهم يريدون بيعه .

ويذيل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ .. ⑲ ﴾ [يوسف]

وهذا قول يعود على مَنْ أسرُّوه بضاعة ؛ وهم الذين عرضوه للبيع .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ[2] دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ⑳ ﴾

ونعلم أنهم لم يشتروه بل عثروا عليه ؛ ونعلم أن كلمة شراء تدل على البيع أيضاً ، أى : أنهم باعوه بثمن بخس ؛ أى : بثمن زهيد ، وكانت العبيد أيامها مُقوَّمة بالنقود .

والبخس أى : النقص ، وهو إما فى الكَمِّ أو فى الكَيْف ؛ فهو يساوى مثلاً مائة درهم وهم باعوه بعشرين درهماً فقط ؛ وكان العبد فى عُمر يوسف يُقوَّم بالنقد ؛ وهم باعوه بالبخْس ، وبثمن أقل قيمة إما كَمًّا وإما كَيْفا .

---

(١) أبق يأبق : هرب من مالكه ، قال تعالى : ﴿ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ⑭⓪ ﴾ [الصافات] جعل ترك يونس عليه السلام قومه إباقاً لأنه مملوك لله وللرسالة التى كلفه الله أن يقوم بها . [القاموس القويم : ١/ ٤] .

(٢) بخسه حقه بخساً : نقصه حقه ولم يُوفّه ، قال تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ⑧⑤ ﴾ [الأعراف] . والثمن البخس : القليل الناقص عن مثله : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ⑳ ﴾ [يوسف] وقوله : ﴿ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ⑬ ﴾ [الجن] أى : لا يخاف نقصاً ولا ظلماً . [القاموس القويم ١/ ٥٦] .

ثم أراد الحق سبحانه أن يوضح الأمر أكثر فقال :

﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠ ﴾ [يوسف]

والزهد هنا هو حيثية الثمن البَخْس ؛ فهُم قد خافوا أن يبحث عنه أبوه أو صاحبه ؛ وكأنهم قالوا لأنفسهم : أى شىء يأتى من ورائه فهو فائدة لنا[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ[2] عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٢١ ﴾

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٧٩) : « قوله تعالى : ﴿ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ۝٢٠ ﴾ [يوسف] قيل : المراد إخوته . وقيل : السيارة وقيل : الواردة . وعلى أى تقدير فلم يكن عندهم غبيطاً اى : أن يوسف لم يكن مصدر سرور لأحد منهم ، لا عند الإخوة ، لأن المقصد زواله عن أبيه لا ماله ، ولا عند السيارة لقول الإخوة إنه عبد أبق منا ـ والزهد قلة الرغبة ـ ولا عند الواردة لأنهم خافوا اشتراك أصحابهم معهم ، ورأوا أن القليل من ثمنه فى الانفراد أوْلى » .

(٢) ثوى المكان ، وثوى به يثوى : حله وأقام فيه واستقر به ، فهو متعد ولازم واستعمل القرآن اللازم ، فقال : ﴿ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ۝٤٥ ﴾ [القصص] أى : مقيماً عندهم . والمثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى . قال تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ۝٢١ ﴾ [يوسف] أى : إقامته . أى : اكرمي يوسف وعبَّر باسم المكان عن الحالِّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المحلية . [القاموس القويم ١/١١٣] .

وكان للشراء علّة ؛ فهو قد اشتراه لامرأته ليقوم بخدمتها ، وكانت لا تنجب وتكثر فى الإلحاح عليه فى طلب العلاج ، وتقول أغلب السير : إن مَن اشتراه كان ضعيفاً من ناحية رغبته فى النساء .

وهذه اللقطة تبين لنا الفساد الذى ينشأ فى البيوت التى تتبنى طفلاً ، لكنهم لا يحسبون حساب المسألة حين يبلغ هذا الطفل مبلغ الرجال ، وقد تعوَّد أن تحمله ربة البيت وتُقبِّله ، وتغدق عليه من التدليل ما يصعب عليها أن تمتنع عنه ؛ ولأن الطفل يكبر انسيابياً ؛ فقد يقع المحظور وندخل فى متاهة الخطيئة .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ لامْرَأَتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن تعتنى بالمكان الذى سيقيم فيه ، وبطبيعة الحال فهذا القول يقتضى أن تعتنى بالولد نفسه ؛ على رجاء أن ينتفع به الرجل وزوجته .

ولسائل أن يقول : كيف ينتفع به الرجل ؛ وهو عزيز مصر ، والكُلُّ فى خدمته ؟

ونقول : إن النفع المقصود هنا هو النفْع الموصول بعاطفة مَنْ ينفع ؛ وهو غير نفع الموظفين العاملين تحت قيادة وإمرة عزيز مصر، فعندما ينشأ يوسف كابن للرجل وزَوْجه ؛ وكإنسان تربَّى فى بيت الرجل ؛ هنا ستختلف المسألة ، ويكون النفع مُحمَّلاً بالعاطفة التى قال عنها الرجل :

﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد علمنا من السِّيَر أنهما لم يُرزَقا بأولاد[1] .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١) ﴾ [يوسف]

وقد بدأ التمكين فى الأرض من لحظة دخوله إلى بيت عزيز مصر ليحيا حياة طيبة ؛ وليعلمه الله تأويل الحديث ؛ بأن يهبه القدرة على تفسير الرُّؤى والأحلام ؛ وليغلب الله على أمره .

ولو نظر إخوته إلى ما آل إليه يوسف عليه السلام فسيعرفون أن مرادهم قد خاب ؛ وأن مراد الله قد غلب ؛ بإكرام يوسف ؛ وهم لو علموا ذلك لَضَنُّوا عليه بالإلقاء فى الجُبِّ ، وهذا شأن الظالمين جميعاً .

ولذلك نقول : إن الظالم لو علِم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضَنَّ عليه بالظلم .

وساعة يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ..(٢١) ﴾ [يوسف]

فهذا قول نافذ ؛ لأنه وحده القادر على أن يقول للشىء كُنْ فيكون ؛ ولا يوجد إله غيره ليرد على مراده .

---

(١) « قال ابن عباس : كان حصوراً لا يُولد له ، وكذا قال ابن إسحاق : كان قطفير لا يأتى النساء ولا يولد له ، فإن قيل : كيف قال (أو نتخذه ولداً) وهو ملكه ، والولدية مع العبدية تتناقض ؟ قيل له : يعتقه ثم يتخذه ولداً بالتبنى ، وكان التبنى فى الأمم معلوماً عندهم ، وكذلك كان فى أول الإسلام » ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٤٨٢/٤) .

ولذلك قلنا قديماً : إن الله سبحانه وتعالى قد شهد لنفسه أنه لا إله إلا هو[1] ؛ وهو يملك الرصيد المطلق المؤكد بأنه لا إله غيره ؛ فهو وحده الذى له المُلْك ، وهو وحده القادر على كل شىء .

ولكن خيبة بعض من الخلق الذين يتوهمون أنهم قادرون على أن يُخطِّطوا ويمكروا ؛ متناسين أو ناسين أن فوقهم قَيُّوم[2] ؛ لا تأخذه سنة[3] ولا نوم ، ولو انتبه هؤلاء لَعلمُوا أن الله يُملِّك بحق مَنْ يُظلم فوق الذى ظلَمه .

ورأينا فى حياتنا وتاريخنا ظالمين اجتمعوا على ظُلْم الناس ؛ وكان مصيرهم أسوأ من الخيال ؛ وأشد هَوْلاً من مصيرهم لو تحكم فيهم مَنْ ظلموهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ[4] ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] .

(٢) القيوم والقيام فى صفة الله تعالى وأسمائه الحسنى القائم بتدبير أمر خلقه فى إنشائهم ورزقهم وعلمه بأمكنتهم . وقال قتادة : القيوم القائم على خلقه بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم . [لسان العرب ـ مادة : قوم] .

(٣) وسِنَ يَوْسَن سنة : نام نومة خفيفة ، السِّنة : الفعلة . قال تعالى : ﴿لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة] أى : لا تأخذه نومة خفيفة ولا أى نوم ، أو لا تأخذه غفلة عن أى شىء ولا نوم من أى نوع ثَقُل أو خَفّ كثُر أو قلّ . [القاموس القويم ٢/٣٣٨] .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٤٨٤) : « معناه استكمال القوة ثم يكون النقصان بعد . وقال مجاهد وقتادة : الأشد ثلاث وثلاثون سنة . قال ربيعة وزيد بن أسلم ومالك بن أنس : الأشد بلوغ الحلم » .

والبلوغ هو الوصول إلى الغاية ، وقوله تعالى :

﴿ بَلَغَ أَشُدَّهُ ..(٢٢) ﴾ [يوسف]

أى : وصل إلى غايته فى النُّضْج والاستواء ؛ ومن كلمة « بلغ » أُخذ مصطلح البلوغ ؛ فتكليف الإنسان يبدأ فَوْرَ أن يبلغ أشده ؛ ويصير فى قدرة أن ينجب إنساناً مثله .

وحين يبلغ إنسانٌ مثل يوسف أشده ، وهو قد عاش فى بيت ممتلىء بالخيرات ؛ فهذا البلوغ إنْ لم يكُنْ محروساً بالحكمة والعلم ؛ ستتولد فيه رعونة[1] ؛ ولهذا فقد حرسه الحق بالحكمة والعلم .

والحُكْم هو الفيصل بين قضيتين متعاندتين متعارضتين ؛ حق وباطل ؛ وما دام قد أعطاه الله الحُكْم ، فهو قادر على أن يفصل بين الصواب والخطأ .

وقد أعطاه الله العلم الذى يستطيع أن ينقله إلى الغير ، والذى سيكون منه تأويل الرُّؤى[2] ، وغير ذلك من العلم الذى سوف يظهر حين يُولَّى على خزانة مصر .

إذن : فهنا بلغ يوسف أَشُدَّه وحرسه الحق بالحكمة والعلم .

ويُذيِّل الحق سبحانه هذه الآية بقوله :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

وكل إنسان يُحسِن الإقامة لمَا هو فيه ؛ يعطيه الله ثمرة هذا

---

(١) الرعونة : الحمق والاسترخاء . والأرعن : الأهوج فى منطقه . [لسان العرب ـ مادة : رعن] .

(٢) الرؤى : جمع رؤيا : وهى ما تراه فى منامك . ورأى : بمعنى اعتقد وبمعنى عرف . ورأى فى منامه رؤيا : حلَم . والرؤيا : الحلم فى المنام . [القاموس القويم ١/ ٢٥٠] .

الحُسْن ، والمـثل : حين لا يتأبى فقـير على قَدَر الله أن جعله فـقيراً ، ويحاول أن يُحسن ويُتقن ما يعـمل ، فيوضح الله بحُسْن الجزاء : أنت قبلت قدرى ، وأحسنتَ عملك ؛ فـخُذْ الجزاء الطيب . وهذا حال عظماء الدنيا كلهم .

وهكذا نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف]

لا ينطبق على يوسف وحده ؛ بل على كل مَنْ يحسن استقبال قَدَر الله ؛ لأنه سـبحانـه ساعة يـأتى بحُكْم من الأحكام ؛ وبعد ذلك يعـمِّم الحكم ؛ فهذا يعنى أن هذا الحكم ليس خاصاً بل هو عام.

وإذا كان الحق سبـحانه يورد هذا فى مناسبة بعينهـا ، فإنه يقرر بعدها أن كل مُحْسِن يعطيه الله الحُكْم والعلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [يوسف]

يوحى لنا أن يوسف عليـه السلام كان قـد بلغ مرحلة الفـتوة[1] ، وهنا بدأت متـاعبه فى القَصْر ، فـفى طفولته نظرتْ إليـه امرأة العزيز كطفل جميل ؛ فلم يكُنْ يملك ملامح الرجولة التى تهيج أنوثتها .

أما بعـد البلوغ فنجد حالهـا قد تغيَّـر ، فقد بدأت تدرك مـفاتنه ؛ وأخذ خيالهـا يسرح فيما هو أكثـر من الإدراك ، وهو التهاب الوجدان

---

(١) الفتاء : الشباب . والفتى والفتية : الشـاب والشابة . قال القتيبى : ليس الفتى بمعنى الشاب والحدث إنما هو بمعنى الكامل الجَزْل من الرجال . قال الشاعر :

إنَّ الفَـتَى حَمَّـالُ كَـلِّ مُلمـةٍ ليـسَ الفـتى بمُنعَّمِ الشُّـبانِ

[لسان العرب ـ مادة : فتا] .

بالعاطفة المشبوبة[1] ، وما بعد الإدراك والوجدان يأتى النزوع .

ولو كانت محجوبة عنه ؛ لما حدثت الغواية بالإدراك والوجدان .

وهذا يعطينا علَّة غَضّ البصر عن المثيرات الجنسية ؛ لأنك إنْ لم تغضّ البصر أدركتَ ، وإن أدركتَ وجدتَ ، وإن وجدتَ نزعتَ إلى الزواج أو التعفف بالكبْت فى النفس ، وتعيش اضطراب القلق والتوتر ، وإنْ لم تتعفف عربدتَ[2] فى أعراض الناس .

وكذلك أمرنا الحق سبحانه ألا تُبدى النساء زينتهن إلا لأناس حددهم الحق سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلاَّ لِبُعُولَتِهِنَّ[3] أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ[4] مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ .. (٣١) ﴾ [النور]

---

(١) شب النار والحرب : أوقدها . وشبَّة النار : اشتعالها . قال أبو حنيفة : حكى عن أبى عمرو ابن العلاء ، أنه قال : شُبَّت النار وشبَّت هى نفسها ، قال ولا يقال : شابَّةٌ ، ولكن مشبوبة. [لسان العرب ـ مادة : شبب] .

(٢) رجل عرْبد وعربيد ومعربد : شرِّير مُشَارٌ ، ويقال للمعربد : عربيد كأنه شبه بالحية . [لسان العرب ـ مادة : عربد] .

(٣) البعل : الزوج والزوجة فهو مصدر سمِّى به بلفظه فلا يؤنث ، وجمع البعل : بعول : قال تعالى فى قرآنه : ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا .. (٧٢)﴾ [هود] وقال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ..(٢٢٨)﴾ [البقرة] أى : وأزواجهن أحق بردهن بعد الطلاق الرجعى ـ وبعد طلقة بائنة أو طلقتين بائنتين بعقد جديد . [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٤) الأرب : الحاجة التى تقتضى الاحتيال لها ، وكذلك الأربة والمأرب . قال تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُوْلِي الإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ ..(٣١)﴾ [النور] أى : غير ذوى الحاجة إلى النساء ، أى : الذين ليس لهم شهوة لكبرهم أو عجزهم أو صغرهم . [القاموس القويم ١/١٧] .

أى : الذى بلغ من العمر والشيخوخة حداً لا يجعله يفكر فى الرغبة فى النساء .

وكانت نظرة امرأة العزيز إلى يوسف عليه السلام وهو فى فتوته ، بعد أن بلغ أشُدَّه نظرةً مختلفة ، يوضحها الله تعالى فى قوله :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ[1] وَقَالَتْ هَيْتَ[2] لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾

وساعة تسمع «راود » فافهم أن الأمر فيه منازعة مثل : « فَاعَل » أو « تَفاعل » ومثل : « شارك محمد علياً » أى : أن علياً شارك محمداً ؛ ومحمد شارك علياً ؛ فكل منهم مفعول مرة ، وفاعل مرة أخرى .

والمُرَاودة مطالبةٌ برفق ولين بستر ما تريده ممَّنْ تريده ؛ فإنْ كان الأمر مُسهَّلاً ، فالمُراودة تنتهى إلى شىء ما ، وإنْ تأبَّى الطرف

---

(١) غلق الباب يغلقه غَلْقاً : أوصده مثل أغلقه . وغلَّقه بالتضعيف للمبالغة فى إغلاق الأبواب وإحكامها ، كقوله تعالى : ﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ ..(٢٣)﴾ [يوسف] أى : أحكمت إغلاقها لتأمن على نفسها من الداخلين . [القاموس القويم ٢/ ٥٩] .

(٢) هَيَّأ الشىء : أعده وجهَّزه ويسَّره ، قال تعالى : ﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠)﴾ [الكهف] أى : يسِّر لنا من أمرنا طريق الرشاد والحق . وهِئت للأمر : أعددت نفسى له ، وقرئ فى سورة يوسف عليه السلام (وهِئتُ لك) أى : أعددت نفسى لك . و (هيت) : اسم فعل أمر بمعنى أقبل وتعال ، قال تعالى : ﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ .. (٢٣)﴾ [يوسف] والمعنى : أقبل . واللام للتعدية ، أى : أدعوك لتقبل أو الدعاء لك . [القاموس القويم ٢/ ٣١١ ، ٣١٢] .

الثانى بعد أن عرفَ المراد ؛ فلن تنتهى المراودة إلى الشىء الذى كنت تصبو[(١)] إليه .

وهكذا راودتْ امرأة العزيز يوسف عليه السلام ، أى : طالبته برفق ولين فى أسلوب يخدعه لِيُخرِجه عمًّا هو فيه إلى ما تطلبه .

ومن قبْل كان يوسف يخدمها ، وكانت تنظر إليه كطفل ، أما بعد أن بلغ أَشُده فقد اختلف الأمر ، ولنفرض أنها طالبته أن يُحضِر لها شيئاً ؛ وحين يقدمه لها تقول له « لماذا تقف بعيداً ؟ » وتَدعوه ليجلس إلى جوارها ، وهو لن يستطيع الفكاك ؛ لأنه فى بيتها ؛ وهى مُتمكِّنة منه ؛ فهى سيدة القصر .

وهكذا نجد أن المسألة مجموعة عليه من عدة جهات ؛ فهو قد تربَّى فى بيتها ؛ وهى التى تتلطف وترقُّ معه ، وفَهِم هو مرادها .

وهكذا شرح الحق سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها بأدب رَاقٍ غير مكشوف ، فقال تعالى :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾[يوسف]

وكلمة : ﴿ غَلَّقَتِ الأَبْوَابَ .. (٢٣) ﴾ [يوسف]

توضح المبالغة فى الحدث ؛ أو لتكرار الحَدث ، فهى قد أغلقت أكثرَ من باب . ونحن حين نحرك المزلاج[(٢)] لنؤكد غَلْق باب ، ونحرك المفتاح ، ونديره لتأكيد غَلْق الباب .

---

(١) صبا يصبو : مال وأحب . قال يوسف عليه السلام : ﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يُغريننى به ، وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه وصحبه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

(٢) الزُّلاج والمزلاج : مغلاق الباب ، سُمِّى بذلك لسرعة انزلاجه . وقد أزلجت الباب أى أغلقته . والمزلاج : المغلاق إلا أنه ينفتح باليد ، والمغلاق لا يفتح إلا بالمفتاح . [لسان العرب - مادة : زلج] .

فهذه عملية أكبر من غَلْق الباب ؛ وإذا أضفنا مزْلاجاً جديداً نكون قد أكثرنا الإغلاق لباب واحد ؛ وهكذا يمكن أن نَصِفَ ما فعلنا أننا غلّقنا الباب .

وامرأة العزيز قامت بأكثر من إغلاق لأكثر من باب ، فقُصور العظماء بها أكثر من باب ، وأنت لا تدخل على العظيم من هؤلاء فى بيته لتجده فى استقبالك بعد أول باب ، بل يجتاز الإنسان أكثر من باب لِيلْقى العظيم الذى جاء ليقابله .

ويحمل لنا التاريخ قصة ذلك الرجل الذى رفض أن يبايع معاوية فى المدينة ، فأمر معاوية باستدعائه إلى قصر الحكم فى دمشق .

هذا القصر الذى سبق أن زاره عمر بن الخطاب ؛ ووجد فيه أبهة زائدة بررها له معاوية بحيلة الأريب[١] أنها أُبهة[٢] ضرورية لإبراز مكانة العرب أمام الدولة الرومانية المجاورة ، فسكتَ عنها عمر[٣] .

وحين استدعى معاوية الرجل ، دخل بصحبة الحرس من باب ، وظن أنه سوف يلقى معاوية فَوْر الدخول ؛ لكن الحرس اصطحبه عبر أكثر من باب ؛ فلم ينخلع قلب الرجل ، بل دخل بثبات على معاوية وضَنّ عليه بمناداته كأمير للمؤمنين ، وقال بصوت عال :

---

(١) الأريب : العاقل ، والإرب والأرب : الدهاء والبصر بالأمور ، وهو من العقل . وأصل الإرب : الدهاء والمكر . [لسان العرب ـ مادة : أرب] .

(٢) الأبهة : العظمة والبهاء . والأبهة : العظمة والكبر . ورجل ذو أبهة أى ذو كبر وعظمة . [لسان العرب ـ مادة : أبه] .

(٣) ذكر أبو على القالى فى أماليه (١٣٦/٢) : « قال المغيرة بن شعبة : كان عمر إذا نظر إلى معاوية يقول : هذا كسرى العرب » .

« السلام على رسول الله ﷺ » .

ففطن معاوية إلى أن الرجل يرفض مبايعته .

ونعود إلى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ فنجد أن امرأة العزيز قد غلَّقتْ الأبواب ؛ لأن مَنْ يفعل الأمر القبيح يعلم قُبْح ما يفعل ، ويحاول أن يستر فِعْله ، وهى قد حاولتْ ذلك بعيداً عن مَنْ يعملون أو يعيشون فى القصر ، وحدثتْ المراودة وأخذتْ وقتاً ، لكنه فيما يبدو لم يَستجِبْ لها .

﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ..(٢٣) ﴾ [يوسف]

أى : أنها انتقلتْ من مرحلة المُراودة إلى مرحلة الوضوح فى طلب الفعل ؛ بأن قالت : تهيأتُ لك ؛ وكان ردُّه :

﴿ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ.. (٢٣) ﴾ [يوسف]

والمَعَاذ هو مَنْ تستعيذ به ، وأنت لا تستعيذ إلا إذا خارتْ أسبابك أمام الحدث الذى تمرُّ به علَّك تجد مَنْ ينجدك ؛ فكأن المسألة قد عَزَّتْ عليه ؛ فلم يجد مَعَاذًا إلا الله .

ولا أحد قادر على أن يتصرف هكذا إلا مَنْ حرسه الله بما أعطاه له من الحكمة والعلم ؛ وجعله قادراً على التمييز بين الحلال والحرام .

ولبيان خطورة وقوة الاستعاذة نذكر ما ترويه كتب السيرة من أن

النبى ﷺ عقد على ابنة ملك[١] ؛ كانت شديدة الجاذبية ، وشعرت بعض من نساء النبى بالغيرة منها ، وقالت واحدة منهن لعلها عائشة رضى الله عنها : إنْ تزوجها ودخل بها قد يفضلها عنَّا . وقالت للعروس : إن النبى يحب كلمة ما ، ويحب مَنْ يقولها[٢] . فسألت الفتاة عن الكلمة ، فقالت لها عائشة : إن اقترب منك قولى « أعوذ بالله منك » .

فغادرها رسول الله ﷺ وقال : « قد عُذْتِ بمعاذ »[٣] وسرَّحها السراح[٤] الجميل .

وهناك فى قضية السيدة مريم عليها السلام ، نجدها قد قالت لحظة أن تمثَّل لها الملاك بشراً سوياً[٥] :

﴿ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَـٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم]

فهى استعاذت بمَنْ يقدر على إنقاذها .

---

(١) جاء فى الطبرى أنها ملكة بنت داود الليثية (٣/١٢٣) أو فاطمة بنت الضحاك الكلابية (٣/١٣٩).

(٢) قال ابن حجر فى الفتح (٩/٣٥٩) : « وقع عند ابن سعد (فى الطبقات) أن عائشة وحفصة دخلت عليها أول ما قدمت فمشطتاها وخضبتاها وقالت لها إحداهما : إن النبى ﷺ يعجبه من المرأة إذا دخل عليها أن تقول أعوذ بالله منك » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٥) كتاب الطلاق من حديث أبى أسيد رضى الله عنه .

(٤) السراح : مصدر أو اسم مصدر بمعنى الطلاق : ﴿ فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأحزاب] أى : طلاقاً حسناً ليس فيه كيد ولا إيذاء . [القاموس القويم ١/٣٠٩].

(٥) السوى من الرجال : من ليس فى خلقه عيب وليس فى بدنه مرض ولا آفة ، فقوله : ﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ [مريم] أى : حالة كونك كامل الخَلْق لا خرس بك ولا بكم ولا أى عجز ، وقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ ﴾ [مريم] مستوى الخَلْق فى صورة إنسان كامل جميل وضىء . [القاموس القويم ١/٣٣٩] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ[1] إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣)﴾ [يوسف]

وأعطانا هذا القول معنيين اثنين :

الأول : أنه لم يوافق على طلبها بعد أن أوضحتْ ما تريد .

والمعنى الثانى : أنه طلب المعونة من الله ، وهو سبحانه مَنْ أنجاه من كيد إخوته ؛ ونجَّاه من الجُبِّ ؛ وهيَّأ له أفضل مكان فى مصر ، ليحيا فيه ومنحه العلم والحكمة مع بلوغه لأشُدِّه .

وبعد كل هذا أيستقبل كل هذا الكرم بالمعصية ؟ طبعاً لا .

أو : أنه قال : ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ.. (٢٣)﴾ [يوسف]

ليُذكِّر امرأة العزيز بأن لها زوجاً ، وأن هذا الزوج قد أحسن ليوسف حين قال لها :

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ..(٢١)﴾ [يوسف]

فالصعوبة لا تأتى فقط من أنها تدعوه لنفسها ؛ بل الصعوبة تزداد سوء لأن لها زوجاً فليست خالية ، وهذا الزوج قد طلب منها أن تُكرم يوسف ، وتختار له مكانَ إقامةٍ يليق بابن ، ولا يمكن أن يُستَقبل ذلك بالجحود والخيانة .

وهكذا يصبح قول يوسف : ﴿ إِنَّهُ رَبِّي .. (٢٣)﴾ [يوسف]

قد يعود على الله سبحانه ؛ وقد يعود على عزيز مصر .

---

(١) المثوى : اسم مكان أو مصدر ميمى ، قال تعالى : ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١)﴾ [آل عمران] اسم مكان قُصد به النار ، وقال تعالى : ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ .. (٢١)﴾ [يوسف] أى : إقامته . أى : اكرمي يوسف وعبَّر باسم المكان عن الحالّ فيه مجازاً مرسلاً علاقته المجازية . [القاموس القويم ١/١١٣] .

وتلك مَيْـزة أسلوب القرآن ؛ فهـو يأتى بعبارة تتـسـع لكل مناطات الفهم ، فما دام الله هو الذى يُجـازى على الإحسان ، وهو مَنْ قال فى نفس الموقف :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

فـمـعنى ذلك أن مَنْ يسىء يـأتى الله بالضـد ؛ فـلا يُفلح ؛ لأن القضيتين متقابلتان :

﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ (٢٢) ﴾ [يوسف]

و ﴿ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣) ﴾ [يوسف]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ (١) وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ (٢) رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ (٣) (٢٤) ﴾

---

(١) هم بالفعل يهم به هماً : قصده واتجه إليـه بنيته ولم يفعله ، قـال تعالى : ﴿إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ .. (١١) ﴾ [المائدة] أى : عـزموا واتجـهت نيتهـم إلى حربكم والتعدِّى عليكم وإيذائكم فكفهـم الله ، وقال تعالى فى قـصة يوسف عليـه السلام : ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا .. (٢٤) ﴾ [يوسف] همت به : هم عَزْم وتصميم . وهَمَّ بها هَمَّ ترْك وإعراض ومقاومة . أى : هَمَّ بمقاومتها والله أعلم . [القاموس القويم : ٣٠٧/٢ بتصرف] .

(٢) البـرهان : الحجـة البينة الفـاصلة ، قال تعـالى : ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١١١) ﴾ [البقرة] وقوله : ﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ..(٢٤) ﴾ [يوسف] أى : لولا أن رأى حجة ربه التى ثبتـته على الحق وصرفـته عما هم به ـ أو لولا أن رأى بـرهان ربه ، أى الدليل على قدوم سيـده وحضوره ، وقـدَّر الله مجىء سيده إلى الـبيت فى هذا الوقت ليصـرف عنه السوء . [القاموس القويم ٦٥/١] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً طاهراً . واسم المفعول «مخلَص » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف] أى : الأصفياء الأتقياء المطهرين . [القاموس القويم ٢٠٢/١] .

والهَمُّ هو حديث النفس بالشيء ؛ إما أن يأتيه الإنسان أو لا يأتيه. ومن رحمة ربنا بخلْقه أن مَنْ هَمَّ بسيئة وحدَّثتْه نفسه أن يفعلها ؛ ولم يفعلها كُتِبتْ له حسنة[1] .

وقد جاءت العبارة هنا فى أمر المراودة التى كانت منها ، والامتناع الذى كان منه ، واقتضى ذلك الأمر مُفَاعلة بين اثنين يصطرعان فى شىء .

فأحد الاثنين امرأة العزيز يقول الله فى حقها :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف]

وسبق أن أعلن لنا الحق سبحانه فى الآية السابقة موقفها حين قالت : « هيت لك » وكذلك بيَّن موقف يوسف عليه السلام حين قال يوسف «معاذ الله » .

وهنا يبين لنا أن نفسه قد حدثته أيضاً ؛ وتساوى فى حديث النفس ؛ لكن يوسف حدث له أن رأى برهان ربه .

ويكون فَهمُنا للعبارة : ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها ؛ لأننا نعلم أن « لولا» حرف امتناع لوجود ؛ مثلما نقول : لولا زيد عندك لأتيتك .

ولقائل أن يقول : كيف غابت قضية الشرط فى الإيجاد والامتناع عن الذين يقولون : إن الهم قد وُجِد منه ؟

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة ضعف ، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب ، وإن عملها كتبت » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٠) كتاب الإيمان (حديث ٢٠٦) .

ولماذا لم يَقُل الحق : لقد همَّتْ به ولم يهم بـها ؛ حتى نخرج من تلك القضية الصعبة ؟

ونقول : لو قال الحق ذلك لما أعطانا هذا القولُ اللقطةَ المطلوبة ؛ لأن امرأة العزيز هَمَّتْ به لأن عندها نوازع العمل ؛ وإنْ لم يَقُلْ لنا أنه قد هَمَّ بها لظننا أنه عِنِّين[1] أو خَصَاه موقف أنها سيدته فخارتْ قواه .

إذن : لو قال الحق سبحانه : إنه لم يَهِمّ بها ؛ لكان المانع من الهَمِّ إما أمر طبيعى فيه ، أو أمر طارىء لأنها سيدته فقد يمنعه الحياء عن الهَمِّ بها .

ولكن الحق سبحانه يريد أن يوضح لنا أن يوسف كان طبيعياً ، وهو قد بلغ أَشُدَّه ونُضْجه ؛ ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمَّ بها .

وهكذا لم يَقُمْ يوسف عليه السلام بما يتطلبه ذلك لنقص فيه ؛ ولا لأن الموقف كان مفاجأة ضَيَّعَتْ رجولته بغتة[2] ؛ مثل ما يحدث لبعض الشباب فى ليلة الزفاف ، حين لا يستطيع أن يَقربَ عروسه ؛ وتمر أيام إلى أن يستعيد توازنه . ويقرب عروسه .

إذن : لو أن القرآن يريد عدم الهَمِّ على الإطلاق ؛ ومن غير شىء ، لَقَال : ولقد هَمَّتْ به ولم يَهِم بها .

---

(١) العنين : الذى لا يأتى النساء ولا يريدهن بيِّن العنانة . وعُنِّن عن امرأته إذا حكم القاضى عليه بذلك أو مُنِع عنها بالسحر . وامرأة عنينة كذلك : لا تريد الرجال ولا تشتهيهم . وسُمِّى عنيناً لأنه يعن ذكره لقبل المرأة من عن يمينه وشماله فلا يقصده . [لسان العرب ـ مادة : عنن] .

(٢) بغته بغتاً وبغتة : فاجأه على غرة وغفلة ، قال تعالى : ﴿ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ۝٩٥ ﴾ [الأعراف] والمباغتة : المفاجاة والبَغْت والبغتة : الفجأة ، وهو أن يفجاك الشىء . [لسان العرب ـ مادة : بغت] .

ولكن مثل هذا القول هو نَفْىٌ للحدث بما لا يستلزم العفة والعصمة ، لجواز أن يكون عدم الهَمِّ راجعاً إلى نقص ما ؛ وحتى لا يتطرق إلينا تشبيهه ببعض الخدم ؛ حيث يستحى الخادم أن ينظر إلى البنات الجميلات للأسرة التى يعمل عندها ؛ ويتجه نظره إلى الخادمة التى تعمل فى المنزل المجاور ، لأن للعواطف التقاءات .

ومن لُطْف الله بالخلق أنه يُوجد الالتقاءات التفاعلية فى المتساويات ، فلا تأتى عاطفة الخادم فى بعض الأحيان ناحية بنات البيت الذى يعمل عنده ؛ وقد يطلب من أهل البيت أن يخرج لشراء أى شىء من خارج المنزل ، لعله يحظى بلقاء عابر من خادمة الجيران .

ويجوز أن الخادم قد فكر فى أنه لو هَمَّ بواحدة من بنات الأسرة التى يعمل لديها ؛ فقد تطرده الأسرة من العمل ؛ بينما هو يحيا سعيداً مع تلك الأسرة .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يوزع تلك المسائل بنظام وتكافؤات فى كثير من الأحيان .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها قال الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾

[يوسف]

إذن : فبرهان ربه سابق على الهَمِّ ، فواحد هَمّ ولم يرتكب ما يتطلبه الهمّ ؛ لأن برهان ربه فى قلبه ، وقد عرف يوسف برهان ربه من البداية .

وبذلك تنتهى المسألة ، ولذلك فلا داعى أن يدخل الناس فى متاهات أنه هَمّ وجلس بين شعبتيها[١] ، ولم يرتعد إلا عندما تمثَّل له وجه والده يعقوب ونهاه عن هذا الفعل[٢] ؛ فأفسقُ الفُسّاق ولو تمثَّل له أبوه وهو فى مثل هذا الموقف لأصيب بالإغماء .

وحين تناقش مَنْ رأى هذا الرأى ؛ يردّ بأن هدفه أن يثبت فحولة[٣] يوسف ؛ لأن الهمّ وجد وأنه قد نازع الهمّ .

ونقول لصاحب هذا الرأى : أتتكلم عن الله ، أم عن الشيطان ؟

أنت لو نظرتَ إلى أبطال القصة تجدهم ؛ امرأة العزيز ؛ ويوسف والعزيز نفسه ؛ والشاهد على أن يوسف قد حاول الفكَاك من ذلك الموقف ، ثم النسوة اللاتى دَعتْهُنَّ امرأة العزيز ليشاهدوا جماله ؛ والله قد كتب له العصمة .

فكُلٌّ هؤلاء تضافروا[٤] على أن يوسف لم يحدث منه شىء .

---

(١) فى الحديث : « إذا قعد الرجل من المرأة ما بين شعبها الأربع وجب عليه الغسل » شعبها الأربع : يداها ورجلاها . وقيل : رجلاها وشُفْرا فرجها ، كنى بذلك عن تغييبه الحَشَفَة فى فرجها . [لسان العرب ـ مادة : شعب] .

(٢) قال قتادة ومجاهد والحسن والضحاك وسعيد بن جبير : رأى صورة يعقوب على الجدران عاضاً على أنملته يتوعده فسكن ، وخرجت شهوته من أنامله . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٣٤٩٢/٤] .

(٣) رجل فحيل : فحل ، وإنه لبيّن الفُحولة . غير خصىّ بل هو مُنجب . [لسان العرب ـ مادة : فحل] .

(٤) تضافر القوم على فلان وتظافروا عليه وتظاهروا بمعنى واحد كله إذا تعاونوا وتجمعوا عليه ، وتألبوا وتصابروا مثله . قال ابن سيده : تضافر القوم على الأمر تظاهروا وتعاونوا عليه . [لسان العرب ـ مادة : ضفر] .

وقال يوسف نفسه :

﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي .. (٢٦) ﴾ [يوسف]

وامرأة العزيز نفسها قالت مُصدِّقة لمَا قال :

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ [1] .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

وقالت : ﴿ الآنَ حَصْحَصَ [2] الْحَقُّ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَلِكَ لِيَعْلَمَ [3] أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ .. (٥٢) ﴾ [يوسف]

وعن النسوة قال يوسف : ﴿ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف]

وقال يوسف لحظتها :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) ﴾ [يوسف]

والصَّبْوة هى حديث النفس بالشىء ؛ وهو ما يثبت قدرة يوسف عليه السلام على الفعل ، وحماه الله من الصبوة ؛ لأن الحق سبحانه قد قال :

---

(١) استعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسَّك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ (٣٢) ﴾ [يوسف] أى : فامتنع متمسكًا بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

(٢) حصحص الحق : وضح وتبيَّن بعد خفائه ، قال تعالى : ﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ .. (٥١) ﴾ [يوسف] . قال ابن منظور فى لسان العرب : « الحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه » . [مادة حصص] .

(٣) فى قائل هذه العبارة أقوال كثيرة ذكرها المفسرون منها : أنه يوسف ، ومنها أنها : امرأة العزيز. قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٨١) : « هذا القول هو الأشهر والأليق والأنسب بسياق القصة ومعانى الكلام ، وقد حكاه الماوردى فى تفسيره وانتدب لنصره الإمام أبو العباس ابن تيمية رحمه الله فأفرده بتصنيف على حدة ».

﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ .. (٣٤) ﴾ [يوسف]

وانظر إلى لقطة النسوة اللاتى تهامسْنَ بالنميمة عن امرأة العزيز وحكايتها مع يوسف ، ألم يَقُلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ..(٣١) ﴾ [يوسف]

فحين دخل عليهن اتجهت العيون له ، وللعيون لغات ؛ وللانفعال لغات ؛ وإلا لماذا قال يوسف :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ .. (٣٣) ﴾ [يوسف]

وهكذا نعلم أنه قد حدثت مُقدِّمات تدل على أن النسوة نَوَيْنَ له مثل ما نَوَتْه امرأة العزيز ؛ وظَنَنَّ أن امرأة العزيز سوف تطرده ؛ فيتلقفنه هُنَّ ؛ وهذا دأب[1] البيوت الفاسدة .

وهل هناك أفسد من بيت العزيز نفسه ، بعد أن حكم الشاهد أنها هى التى راودتْ يوسف عن نفسه ؛ فيدمدم العزيز على الحكاية ، ويقول :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وكان هدف العزيز أن يحفظ مكانته من القيل والقال .

وحين سأل الشاهد النسوة ، بماذا أَجِبْنَ ؟

يقول الحق سبحانه أن النسوة قُلْنَ :

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . والدَّأْب والدَّأَب : العادة والشأن . قال تعالى : ﴿ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ .. (٣١) ﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧) ﴾ [يوسف] أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . وقال تعالى : ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ.. (٣٣) ﴾ [إبراهيم] أى : مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . [القاموس القويم ١/٢١٩] .

﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.. (٥١) ﴾ [يوسف]

وقد صرف الله عنه الشيطان الذى يتكفل دائماً بالغُواية ، وهو لا يدخل أبداً فى معركة مع الله ؛ ولكنه يدخل مع خَلْق الله ؛ لأن الحق سبحانه يورد على لسانه :

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ[1] أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) ﴾ [ص]

فالشيطان نفسه يُقرُّ أن مَنْ يستخلصه الله لنفسه من العباد إنما يعجز - هو كشيطان - عن غوايته ، ولا يجرؤ على الاقتراب منه .

والشاهد الذى من أهل امرأة العزيز ، واستدعاه العزيز ليتعرف على الحقيقة قال :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ[2] مِن دُبُرٍ[3] فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾ [يوسف]

---

(١) اغواه : أضله وأوقعه فى الغىّ والضلال . قال تعالى : ﴿ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ..(٦٣) ﴾ [القصص] أى : أضللناهم كما ضللنا . وغوى يَغْوى غياً غواية : انهمك فى الجهل وهو ضد الرشد . قال تعالى : ﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ..(٢٥٦) ﴾ [البقرة] وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . والغاوى : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) ﴾ [الشعراء] أى : الضالين المنهمكين فى أعمال الجهل . [القاموس القويم ٢/٦٤].

(٢) قد الثوب : شقه . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] . والقِدَّة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة فى الرأى مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها. قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١) ﴾ [الجن] أى : جماعات مختلفة الرأى جمع قدَّة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

(٣) الدبر : مؤخَّر كل شيء وعقبه وظهره ضد القبل ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ..(٢٥) ﴾ [يوسف] أى : من خلف . وولَّى المحارب دبره : كناية عن فراره ، قال تعالى : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر] أى : ويفرون . وجمع الدبر أدبار . قال تعالى : ﴿ وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ﴾ [آل عمران] أى : يفرون منكم منهزمين ، وقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ (٤٠) ﴾ [ق] أى : عقب كل سجود أو عقب كل صلاة . [القاموس القويم ١/٢٢٠] .

وبعـد كل هذه الأدلـة فليس من حَقٍّ أحـد أن يتـســاءل : هل هَمَّ يوسف بامرأة العزيز ، أم لم يَهِمّ ؟

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْلا أَن رَّأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ .. (٢٤) ﴾ [يوسف]

والبرهان هو الحجة على الحكم . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ رُسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ .. (١٦٥) ﴾ [النساء]

أى : لا بُدَّ أن يبعث الحـقُّ رسولاً للناس مُؤيداً بمـعجزة تـجعلهم يُصدِّقون المـنهج الذى يسيرون عليه ؛ كى يعـيشوا حياتهـم بانسجام إيمانى ، ولا يعذبهم الله فى الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ[1] عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) ﴾ [يوسف]

والفـحشـاء هى الزنا والإتيـان ؛ والســوء هى فكرة الهَمِّ ، وبعض المعتـدلين قالوا : إنها بعد أن راودتْه عن نفســه ؛ وخرجت بالفعل إلى

(١) الصرف : رد الشىء مـن حال إلى حال. وصـرف النقود : تغـييرها أو إنفـاقهـا . وصرف السجـين : أخلى سبـيله . وصرف القلوب يصرفـها : حوَّلهـا من الهدى إلى الضـلال . قال تعالى : ﴿ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم (١٢٧) ﴾ [التوبة] . [القاموس القويم ١/٣٧٤] .

مرحلة السُّعَار[1] لحظة أن سبقهـا إلى الباب ؛ فكَّرتْ فى أن تقتله ؛ وحاول هو أن يدافع عن نفسه وأن يقتلها ، ولو قتلها فلسوف يُجازى كقاتل[2] .

فصرف الحق عنه فكرة القتل ؛ وعنى بها هنا قوله الحق « السوء » ؛ ولكنى أطمئن إلى أن السوء هو فكرة الهَمِّ ، وهى مُقدِّمات الفعل.

ويقـرر الحق سـبحـانه أن يوسف عليه السـلام من عبـاده المُخْلصين ، وفى هذا رد على الشيطان ؛ لأن الشيطان قال :

﴿ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

وقوله الحق هنا :

﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف]

يؤكد إقـرار الشيطان أنـه لن يَقْرب عبـاد الله المخلصـين . وهناك «مُخْلصـين » . و « مُخْلَصين » والمخلص هو مَنْ جـاهد فكسب طاعة الله ، والمُخْلَص هو مَنْ كسب فجاهد وأخلصه الله لنفسه[3] .

وهناك أُناس يَصلُون بطاعـة الله إلى كـرامـة الله ، وهناك أُناس

---

(١) السُّعار : شدة الجوع . يقـال : سُعِر الرجل ، فهو مسعور ، إذا اشـتد جوعـه وعطشه . والسعْر : شـهوة مع جـوع . والسُّعُر : الجنون . وسـعـار العطش : التـهابه . والسـعير والساعـورة : النار . وقيل : لهبـها . والسُّعار والسُّعْـر : حرها . [لسان العرب ـ مادة : سعر] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره أن من بين تأويلات هم يوسف عليه السلام بامرأة العزيز أنه هَمَّ بضربهـا ودفعها عن نفسه ، والبرهان كَفَّه عن الضرب ، إذ لو ضربها لأوهم أنه قـصدها بالحرام فامتنعت فضربها . [راجع تفسير القرطبى ٣٤٨٨/٤] .

(٣) أخلصه الله : جعله صافياً نقياً مُطهَّراً ، واسم المفعول « مُخْلَص » بفتح اللام . قال تعالى : ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [يوسف] أى : الأصفـياء الأتقياء المطهرين . وأخلص دينه لله : طهَّره وصفَّاه من شوائب الشرك والرياء . قال تعالى : ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَّهُ الدِّينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الزمر] . [القاموس القويم ٢٠٢/١] .

يكرمهم الله فيطيعون الله - ولله المثل الأعلى - مُنزَّه عن كل تشبيه ، أنت قد يطرق بابك واحد يسألك من فضل الله عليك ؛ فتستضيفه وتُكرمه ، ومرة أخرى قد تمشي في الشارع وتدعو واحداً لتعطيه من فضل الله عليك ، أي : أن هناك مَنْ يطلب فتأذن له ، وهناك مَنْ تطلبه أنت لتعطيه .

وبعد الحديث عن المراودة بما فيها من لينٍ وأَخْذ ورَد ؛ ينتقل بنا الحق سبحانه إلى ما حدث من حركة ، فيقول تعالى :

﴿ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا[1] سَيِّدَهَا[2] لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ ﴾

وعرفنا أن كلاهما حاول الوصول إلى الباب قبل الآخر ؛ وتسابقا في هذا الاستباق ، ونلحظ أن الحق سبحانه يذكر هنا باباً واحداً ؛ وكانت امرأة العزيز قد غلَّقَتْ من قبل أكثر من باب .

لكن قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ ..﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) ألفى الشيء : وجده ، قال تعالى : ﴿ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الصافات] ، وقال : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف] أي : وجداه . [القاموس القويم ٢/١٩٧] .

(٢) ساد قومه يسودهم سيادة : شَرُفَ عليهم ورأسهم ، فهو سائد وسيد وجمعه سادة : ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [يوسف] سيدها : زوجها ، وقال تعالى : ﴿ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [آل عمران] سيداً أي : شريفاً ورئيساً في الدين والعلم . وقال : ﴿ إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا .. ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب] أي : رؤساءنا من الملوك والأمراء . [القاموس القويم ١/٣٣٤] .

يدلنا على أنها لحقتْ بيوسف عند الباب الأخير ؛ وهى قد استبقتْ مع يوسف إلى الأبواب كلها حتى الباب الأخير ؛ لأنها تريد أن تغلق الباب لتسد أمامه المنفذ الأخير ، وهذا الاستباق يختلف باختلاف الفاعل فهى تريده عن نفسه ، وهو يريد الفرار من الموقف ، ثم قدَّتْ قميصه من دُبر .

هذا دليل على أنه قد سبقها إلى الباب ؛ فشدَّته من قميصه من الخلف ، وتمزَّق القميص فى يدها ، وقد محَّص الشاهد - الذى هو من أهلها[1] - تلك المسألة ليستنبط من الأحداث حقيقة ما حدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ.. (٢٥) ﴾ [يوسف]

أى : حدثت لهما المفاجأة ، وهى ظهور عزيز مصر أمامهما ؛ وصار المشهد ثلاثياً : امرأة العزيز ؛ ويوسف ؛ وزوجها .

وهنا ألقت المرأة الاتهام على يوسف عليه السلام فى شكل سؤال تبريرى للهروب من تبعية الطلب ، وإلقاء التهم على يوسف :

﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا .. (٢٥) ﴾ [يوسف]

ثم حددت العقاب :

﴿ إِلاَّ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) ﴾ [يوسف]

ويأتى الحق سبحانه بقول يوسف عليه السلام :

---

(١) وذلك هو قوله تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧)﴾ [يوسف] .

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ[1] شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا[2] إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ[3] مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)﴾ [يوسف]

وهنا وجد عزيز مصر نفسه بين قولَيْنِ مختلفين ؛ قولها هي باتهام يوسف ؛ وقوله هو باتهامها ، ولا بُدَّ أن يأتي بمَن يفصل بين القولين ، وأن يكون له دقّة استقبال وفَهْم الأحداث .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦)﴾

وتأتي كلمة « شاهد » في القرآن بمعانٍ متعددة .

---

(١) شهد : دلَّ بقول أو فعل . وقال تعالى : ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ..(٢٦)﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١/٣٥٨] . وقال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٩٤) : « شهد شاهد من أهلها ، أي : حكم حاكم من أهلها ، لأنه حكم منه وليس بشهادة » .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/٣٤٩٤ ، ٣٤٩٥) :

« اختلف في هذا الشاهد على أقوال :

منها : أنه طفل في المهد تكلم ، قال السهيلي : وهو الصحيح للحديث الوارد فيه عن النبي ﷺ ، وهو قوله : لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة » وذكر فيهم شاهد يوسف . ومنها : أنه رجل حكيم ذو عقل كان الوزير يستشيره في أموره ، وكان من جملة أهل المرأة » بتصرف .

(٣) قد الثوب : شقه ، قال تعالى : ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ .. (٢٥)﴾ [يوسف] والقدة : القطعة المقدودة من الثوب ، والجماعة المختلفة في الرأي مع مجموع الأمة كأنها قُدَّتْ وقُطعت منها ، قال تعالى : ﴿ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا (١١)﴾ [الجن] أي : جماعات مختلفة الآراء جمع قدة . [القاموس القويم ٢/١٠٢] .

فهى مرّة تكون بمعنى « حضر » ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا[1] طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور]

وتأتى مرّة بمعنى « علم » ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَمَا شَهِدْنَا إِلاَّ بِمَا عَلِمْنَا .. (٨١) ﴾ [يوسف]

وتأتى « شهد » بمعنى « حكم وقضى » أى : رجَّح كلاماً على كلام لاستنباط حق فى أحد الاتجاهين . والشاهد فى هذه الحالة وَثَّق القرآنُ أن قرابته من ناحية المحكوم عليه ، وهو امرأة العزيز ، فلو كان من طرف المحكوم له لَرُدَّتْ شهادته .

وهكذا صار الموقف رباعياً : امرأة العزيز ، ويوسف ، وعزيز مصر ، والشاهد ، وحملت الآية نصف قول الشاهد :

﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٦) ﴾ [يوسف]

لأن معنى هذا – والواقع لم يكن كذلك – أن يوسف عليه السلام وهو مَنْ أقبل عليها ؛ تدلَّى منه ثوبه على الأرض ، فتعثر فيه ، فتمزَّق القميص.

ويتابع الله قول الشاهد :

﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ[2] قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٧) ﴾

---

(١) أى : عذاب الزانية والزانى وإيقاع العقوبة بهما ، وذلك قوله تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) ﴾ [النور] .

(٢) القميص : ما يحيط بالبدن ، وقد يسمى شعاراً وما فوقه دثار ، وقد يسمى كل ثوب قميصاً ، قال تعالى : ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ .. (١٨) ﴾ [يوسف] . [القاموس القويم ١٣٣/٢] .

أى : أن قميص يوسف عليه السلام إن كان قُدَّ من الخلف ؛ فيوسف صادق ، وامرأة العزيز كاذبة .

ونلحظ أن الشاهد هنا قال هذا الرأى قبل أن يشاهد القميص ؛ بل وضع فى كلماته الأساس الذى سينظر به إلى الأمر ، وهو إطار دليل الإثبات .

وهذا ما تشرحه الآية التالية ، فيقول سبحانه :

﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ(١) عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾

وقول الحق سبحانه عن الشاهد القاضى :

﴿فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ .. ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه رتّب الحكم قبل أن يرى القميص ، وقرر المبدأ أولاً فى غيبة رؤية القميص ، ثم رآه بعدها ، وهكذا جعل الحيثية الغائبة هى الحكم فى القضية الشاغلة .

لذلك تابع قوله بما يدين امرأة العزيز :

﴿قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف]

والكيد كما نعلم هو الاحتيال على إيقاع السوء بخفاء ، ويقوم به

---

(١) الكيد : مصدر ويطلق على العمل أو الوسيلة التى يتذرع بها الكائد ليتغلب على خصمه ، ومن ذلك قوله : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ﴿٦٤﴾﴾ [طه] أى : اجمعوا الوسائل التى تكيدون بها . [القاموس القويم ٢/ ١٨٠] .

مَنْ لا يملك القدرة على المواجهة ، وكَيْد المرأة عظيم ؛ لأن ضعفها أعظم .

وتعود آيات السورة بعد ذلك إلى موقف عزيز مصر ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان الزوج :

﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا (١) وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢) (٢٩) ﴾

وبهذا القول من الزوج أنهى الحقُّ سبحانه هذا الموقف الرُّباعى عند هذا الحد ، الذى جعل عزيز مصر يُقِرُّ أن امرأته قد أخطأت ، ويطلب من يوسف أن يعرض عن هذا الأمر ليكتمه .

وهذا يبين لنا سياسة بعضٍ من أهل الجاه مع بيوتهم ، وهو أمر نشاهده فى عصرنا أيضاً ؛ فنجدُ الرجل ذا الجاه وهو يتأبَّى أن يرى أهله فى خطيئة ، ويتأبى أكثر من ذلك فيرفض أن يرى الغيرُ أهله فى مثل هذه القضية ، ويحاول كتمان الأمر فى نفسه ؛ فيكفيه ما حدث له من مهانة الموقف ، ولا يريد أن يشمتَ به خصومه أو أعداؤه .

وهنا مَلْحظ يجب أن نتوقف عنده ، وهو قضية الإيمان ، وهى

---

(١) أعرض عن الشىء : ولى منصرفاً عنه غير راغب فيه ، قال تعالى : ﴿ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ .. (٨٣) ﴾ [الإسراء] . [القاموس القويم ٢/١٦] . قال القرطبى : « أى : لا تذكره لأحد واكتمه » . [تفسير القرطبى ٤/٣٤٩٧] .

(٢) الخطأ والخَطَاء : ضد الصواب . وقد خطىء يخطأ خطأ : أذنب مطلقاً أو تعمَّد الذنب . قال تعالى : ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ (٩٧) ﴾ [يوسف] أى : مذنبين .

لا تزال متغلغلة حتى فى المنحرفين والمتسترين على المنحرفين ، فعزيز مصر يقول ليوسف :

﴿ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا .. (٢٩) ﴾ [يوسف]

ويقول لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

وهو فى قوله هذا يُقِرُّ بأن ذنباً قد وقع ؛ وهو لن يُقِرَّ بذلك إلا إذا كان قد عرف عن الله منهجاً سماوياً ، وهو فى موقف لا يسعه فيه إلا أن يطلب منها أن تستغفر الله .

وبعد أن كان المشهد رباعياً : فيه يوسف ، وامرأة العزيز ، والعزيز نفسه ، ثم الشاهد الذى فحص القضية وحكم فيها ، ينتقل بنا الحق سبحانه إلى موقف أوسع ؛ وهو دائرة المجتمع الذى وقعتْ فيه القضية .

وهذا يدل على أن القصور لا أسرار لها ؛ لأن لأسرار القصور عيوناً تتعسس[1] عليها ، وألسنة تتكلم بها ؛ حتى لا يظن ظان أنه يستطيع أن يحمى نفسه من الجريمة ؛ لأن هناك مَنْ سوف يكشفها مهما بلغتْ قدرة صاحبها على التستُّر والكتمان .

وقد تلصص البعض من خدم القصر ؛ إلى أن صارت الحكاية على ألسنة النسوة .

(١) أصل العَسِّ : الطواف ليلاً . ومنه حديث عمر رضى الله عنه أنه كان يعس بالمدينة . أى : يطوف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة . والعسس : اسم منه كالطلب ، وقد يكون جمعاً لعاسٍّ كحارس وحرس . [راجع لسان العرب ـ مادة : عسس] .

ويحكى القرآن الموقف قائلاً :

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ[1] فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا[2] حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٣٠﴾

وكلمة « النسوة » ، وكلمة « نساء » تدلُّ على الجماعة ، لكن مفردَ كلٍّ منهما ساقط فى اللغة ، فمفرد « نسوة » امرأة ؛ ومفرد « نساء » أيضاً هو « امرأة » .

ومن العجيب أن المفرد ، وهو كلمة « امرأة » له مثنى هو « امرأتان » ، لكن فى صيغة الجمع لا توجد « امراءات » ، وتوجد كلمة نسوة اسم لجماعة الإناث ، واحدتها امرأة ، وجمعها نساء .

وقد قالت النسوة :

﴿امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِه .. ۝٣٠﴾ [يوسف]

وما قُلْنَه هو الحق ؛ لكنهن لم يَقُلْنَ ذلك تعصباً للحق ، أو تعصباً للفضيلة .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٤٩٨/٤) : « قيل : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه . وقيل : امرأة الحاجب . عن ابن عباس وغيره » .

(٢) شغفه : أصاب شغاف قلبه أى غلافه ، أو أصاب باطنه وصميم قلبه . قال تعالى : ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ..۝٣٠﴾ [يوسف] أى : أصاب شغاف قلبها بحب قوى نافذ كالسهم . [القاموس القويم ٣٥٠/١] .

وشاء سبحانه أن يدفع هذه المقالة عنهن ، ففضح الهدف المختفى وراء هذا القول فى الآية التالية حين قال :

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ.. (٣٢)﴾ [يوسف]

والمكر هو سَتْر شىء خلف شىء ، وكأن الحق يُنبِّهنا إلى أن قول النسوة لم يكن غضبةً للحق ؛ ولا تعصباً للفضيلة ، ولكنه الرغبة للنِّكاية[1] بامرأة العزيز ، وفَضْحاً للضلال الذى أقامت فيه امرأة العزيز .

وأردْن - أيضاً - شيئاً آخر ؛ أن يُنزِلْنَ امرأة العزيز عن كبريائها ، وينشرن فضيحتها ، فَأتيْنَ بنقيضين ؛ لا يمكن أن يتعدى الموقف فيهما إلا خسيس المنهج .

فهى امرأة العزيز[2] ، أى : أرفع شخصية نسائية فى المجتمع ، قد نزلت عن كبريائها كزوجة لرجل يُوصَفُ بأنه الغالب الذى لا يُغلب ؛ لأن كلمة « العزيز » مأخوذة من المعانى الحسية .

---

(١) نكى العدو نكاية : أصاب منه . وقد نكيت فى العدو أنكى نكاية أى هزمته وغلبته ، فنكى ينكى نكىً . [لسان العرب ـ مادة : نكى] .

(٢) تدور معانى العزيز حول من بيده السلطان والقوة وبيده مقاليد الحكم لا يراجعه أحد شيئاً ، بل هو يملك سلطة الأمر والنهى . [راجع : لسان العرب ـ مادة : عزز] .

فيُقـال : « الأرض العَزَاز »[١] أى : الأرض الصخـرية التى يصعب المشى عليها ، ولا يقدر أحـد أنْ يطأها ؛ ومن هذا المعنى جاءت كلمة « العزيز » .

فكيف بامـرأة العزيز حـين تصـير مُـضْغـة[٢] فى الأفواه ؛ لأنـها راودتْ فتاها وخادمها عن نفسه ؛ وهو بالنسبة لها فى أدنى منزلة ، وتلك فضيحة مزرية[٣] مشينة[٤] .

وقالت النسوة أيضاً :

﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا .. (٣٠) ﴾ [يوسف]

والحب منازل ؛ وأول هذه المنازل « الـهوى » مـثل : شقـشقـة[٥] النبات ، ويُقال : « رأى شيئاً فهواه » .

---

(١) قـال ابن منظور فى [لسـان العـرب ـ مادة : عـزز] : « العَـزَز والعـزاز : المكان الصلب السريع السـيل . وقال ابن شـميل : العزاز مـا غلظ من الأرض . وإنما يكون فى أطرافـها ، وفى الحديث أنه ﷺ نهى عن البول فى العزاز لئلا يترشش عليه » .

(٢) مضغ يـمضغ : لاك . ومضـغ الطعام يمـضغه مـضغـاً . والمضـغة : القطعـة من اللحم . وامضـغ التـمرُ : حان أن يُـمضغ . وتمر ذو مَـضْغَة : صلب مـتين يُـمضـغ كثيـراً . ومُضَغ الأمور : صغـارها [لسان العرب : مادة ـ مـضـغ] والمقصود تشـبيهها بقطعة اللحم التى يلوكها الناس فى أفواههم .

(٣) الإزراء : التهاون بالشىء . وازدريته أى حقرته ، والازدراء : الاحـتقار والانتقاص والعيب ، وهو افتعال من زريت عليه زراية إذا عبته . [لسان العرب ـ مادة : زرى] .

(٤) الشـين : العيب . وهـو خلاف الزين . قـال الفـراء : العين والشَّـيْن والشَّنار أى : العيب ، والمشاين : المعايب والمقابح . [لسان العرب ـ مادة : شين] .

(٥) شق النبات يـشق شقوقـاً ، وذلك فى أول ما تنفطر عنه الأرض . وشقَّ نابُ الـصبى يشق شقوقاً : فى أول ما يظهر . [لسان العرب ـ مادة : شقق] .

وقد ينتهي هذا الهوَى بلحظة الرؤية ، فإذا تعلَّق الإنسان بما رأى ؛ انتقل من الهوى إلى العَلاقة[١] .

وبعد ذلك يأتي الكلف[٢] ؛ أي : تكلَّف أن يصل إلى ما يطلبه من هذه العَلاقة . ثم ينتقل بعد ذلك إلى مرتبة فيها التقاء وهي العشق[٣] ، ويحدث فيها تبادل للمشاعر ، ويعلن كل طرف كَلَفه ؛ ولذلك يسمونه « عاشق ومعشوق » .

ثم ينتقل إلى مرحلة اسمها « التدليه »[٤] ؛ أي : يكاد أن يفقد عقله . ثم يصير الجسم إلى هُزَال ويقال « تبلت[٥] الفؤاد » أي : تاه الإنسان في الأمر .

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة الهُيَام[٦] ، أي : يهيم الإنسان على

---

(١) علِق الشيء علقاً وعَلِق به علاقة وعُلوقاً : لزمه . والعلاقة : الهوى والحب اللازم للقلب ، وقد علِقها علقاً وعلاقة وعلق بها عُلوقاً وتعلَّق بها : أحبها . وقال اللحياني : العلَق الهوى يكون للرجل في المرأة . [لسان العرب - مادة : علق] .

(٢) الكلف : الولوع بالشيء مع شغل قلب ومشقة . وكلف بالشيء كَلفاً وكُلفة : لهج به . وكلف بها أشد الكَلَفِ : أحبها . ورجل مكلاف : محب للنساء . [لسان العرب - مادة : كلف] .

(٣) العشق : شدة الحب . وسمي العاشق عاشقاً لأنه يذبل من شدة الهوى كما تذبل العشقة إذا قطعت . والعشقة : شجرة تخضر ثم تدِقّ وتصفر . عن الزجاج . [لسان العرب - مادة : عشق] .

(٤) قال ابن القيم في روضة المحبين (ص ٥٩) : « وأما التدليه ففي الصحاح : التدليه ذهاب العقل من الهوى ، يقال : دلهه الحب ، أي : حيَّره وأدهشه » .

(٥) قال في روضة المحبين (ص ٤٩) : « أما التبالة فهي فعالة من تَبَله إذا أفناه . قال الجوهري : تبلهم الدهر وأتبلهم إذا أفناهم . وتبله الحب وأتبله ، أي أسقمه وأفسده » .

(٦) الهيام : كالجنون . وقد هيَّمه الحب . والاسم الهيام . ورجل هَيْمان : محب شديد الوجد . قال ابن السكيت : الهَيْم : مصدر هام يهيم هَيْماً وهيماناً إذا أحب المرأة . والهُيَّام : العُشَّاق . والهيوم : أن يذهب على وجهه . [لسان العرب - مادة : هيم] .

وجهه ؛ فلا يعرف له هدفاً ، فإن تبع ذلك جرم صار اسمه « جوى »[(١)] .

تلك هى مراحل الحب التى تمر بالقلب[(٢)] ، والقلب - كما نعلم - هو الجهاز الصنوبرى ، ويُسمُّونه مَقَرّ العقائد المنتهية ، والتى بحثها الإنسان واعتقدها بالفعل .

فالإنسان منا يدرك الأشياء بحواسه الظاهرة ، يرى ويشُمُّ ويسمع ويذوق ويلمس ، فإذا أدرك بعضاً من الأمور ؛ فهو يعرضها على العقل ليوازن بينها ؛ ويختار الأكثر قبولاً منه ، وبعد ذلك تذهب تلك الأمور المقبولة إلى القلب ؛ لتستقر عقيدة فيه لا يحيد عنها .

أما المسائل العقلية ؛ فقد تأتى مسائل أخرى تزحزحها ؛ ولذلك يُقال للأمور التى استقرت فى القلب « عقائد » ، أى : شىء معقود لا ينحل أبداً .

وما يصل إلى هذه المرتبة يظهر أثره فى إخضاع سلوك حركة الحياة عليه ، وإذا ما استقر المبدأ فى نفس الإنسان ؛ فهو يجعل كل حركته فى ظل هذا المبدأ الذى اعتقده .

وهكذا نعرف : كيف تمرُّ العقيدة بعدَّة مراحل قبل أن تستقر فى النفس ، فالإدراك[(٣)] يحدث أولاً ؛ ثم التعقُّل ثانياً ؛ وبعد ذلك يعتقد

---

(١) الجوى : الحرقة وشدة الوجد من عشق أو حزن . [لسان العرب - مادة : جوى] .

(٢) ذكر ابن القيم فى روضة المحبين (ص ٢٥) نحواً من ستين اسماً للمحبة ، لكل اسم مقام أو درجة فى الحب .

(٣) ويتفق مراد الإمام مع ما ذهب إليه علماء النفس عند اختيار الأشياء ، فلا بد من الإدراك ، ثم الانفعال ، ثم النزوع ، أى : الاختيار .

الإنسان الأمر، ويصبح كل سلوك من بعد ذلك وفقاً لما اعتقده الإنسان .

وكلمة : ﴿ شَغَفَهَا حُبًّا ..(٣٠) ﴾ [يوسف]

تعنى أن المشاعر انتقلتْ من إدراكها إلى عقلها إلى قلبها ، والشِّغاف هو الغشاء الرقيق الذى يستر القلب ؛ أى : أن الحب تمكَّن تماماً من قلبها .

وقولهن :

﴿ إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (٣٠) ﴾ [يوسف]

هو قول حَقٌّ أُريد به باطل .

ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك ما يفضح مَقْصدهن :

﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً[1] وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ[2] وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ[3] مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾

---

(١) تكيء يتكيء : جلس متمكناً ، أصله اوتكأ . قال تعالى : ﴿ وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ (٣٤) ﴾ [الزخرف] وقال أيضاً : ﴿ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الأَرَائِكِ .. (٣١) ﴾ [الكهف] . والمتكأ : اسم مكان . قال تعالى : ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً .. (٣١) ﴾ [يوسف] أى : مكاناً مريحاً يجلسن فيه متمكنات متكئات . والمتكأ : ما يتكيء عليه الإنسان من مخدة أو أريكة . [القاموس القويم ٢/٣٥٣].

(٢) أكبر الشيء : عدَّه كبيراً ، أو عظم تأثره به فرآه كبيراً ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف] [القاموس القويم ٢/١٥٠] .

(٣) حاش لله ، أى : براءة لله ومعاذاً لله ، قال ابن الأنبارى : معنى حاشى فى كلام العرب أعزل فلاناً من وصف القوم بالحشى وأعزله بناحية ، ولا أدخله فى جملتهم . [لسان العرب ـ مادة : حشا] .

ولسائل أن يقول : وكيف انتقل لَهُنَّ الكلام عن الذى حدث بينها وبين يوسف ؟

لا بُدَّ أن هناك مرحلة بين ما حدث فى القصر ؛ وكان أبطاله أربعة هم : العزيز ، وامرأته ، ويوسف ، والشاهد ، ولا بد أن يكون مَنْ نقل الكلام إلى خارج القصر ؛ إنسان له علاقتان ؛ علاقة بالقصر فسمع ورأى وأدرك ؛ ونقل ما علم إلى مَنْ له به علاقة خارج القصر.

وبحث العلماء عن علاقة النسوة اللاتى ثرثرن بالأمر ، وقال العلماء[1] : هُنَّ خمسة نساء : امرأة الساقى ، وامرأة الخباز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة صاحب الدواب (أى : سائس الخيل) ، وامرأة السجان .

وهؤلاء النسوة يَعِشْنَ داخل بيوتهن ؛ فمَنِ الذى نقل لَهُنَّ أسرار القصر ؟

لا بُدَّ أن أحداً من أزواجهن قد أراد أن يُسلِّى أهله ، فنقل خبر امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام ؛ ثم نقلتْ زوجته الخبر إلى غيرها من النسوة .

وحين وصل إلى امرأة العزيز الخبر ؛ وكيف يمكرن بها ؛ أرسلت إليهن :

﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا .. (٣١) ﴾ [يوسف]

والمتكأ هو الشيء الذى يستند إليه الإنسان حتى لا يطول به مَلَلٌ

---

(١) انظر : تفسير القرطبى (٤/٣٤٩٨) ، ذكره عن ابن عباس وغيره .

من كيفيـة جلْسته ، والمقصود بالقول هو أن الجلسة سـيطول وقتها ، وقـد خططتْ لتكشف وَقْعَ رؤيـة يوسف عليـهن ، فـقدَّمـتْ لكل منهن سكيناً ؛ وهو ما يوحى بأن هناك طعاماً سوف يؤكل .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

ويُقـال : أكـبـرْتَ الشيء ، كـأنك قـد تخـيَّلتـه قـبل أن تراه على حقيـقته ؛ وقد يكون خـيالك قد رسم له صورة جمـيلة ، إلا أنك حين ترى الشىء واقعاً ؛ تكبر المرائى عن التخيُّل .

والمثل أن إنساناً قد يُحدِّثك بخير عن آخر ؛ ولكنك حين ترى هذا الآخر تُفاجأ بأنه أفضل مما سمعتَ عنه .

والشاعر يقول :

كَادَتْ مُسَـاءلةُ الرُّكْبانِ تُخبِرنى — عـن جَعْفرِ بنِ حبـيبٍ أصدقَ القيم

حتَّى التقـيْنَا فَلا واللَّهِ مَا سَمِعتْ — أُذنى بأطيبَ مِمَّا قَدْ رأى بَصَرِى

ويقولون فى المقابل : سماعك بالمعيدى خير من أن تراه[1] . أى : يا ليتك قد ظللتَ تسمع عنه دون أن تراه ؛ لأن رؤيتك له ستُنقص من قدر ما سمعت .

---

(١) هذا مثل يُضرب لمن خبـره خيـر من مرآته ، يُضـرب للرجل الذى له صيت وذكـر ، فإذا رأيته ازدريت مَرآته . ومَعَدٌّ : حَىٌّ أو اسم للقبيلة . فأمـا قولهم فى المثل : تسمع بالمعيدى لا أن تراه ، فمخفف عن القياس اللازم فى هذا الضرب . [لسان العرب ـ مادة : معد] .

وهُنَّ حين آذينَ امرأة العزيز بتداول خبر مُراودتها له عن نفسه ، تخيَّلْنَ له صورةً ما من الحُسْن ، لكنهُنَّ حين رَأيْنَهُ فاقتْ حقيقته المرئية كل صورة تخيَّلْنَها عنه ؛ فحدث لهُنَّ انبهار .

وأول مراحل الانبهار هى الذهول الذى يجعل الشىء الذى طرأ عليك يذهلك عما تكون بصدده ؛ فإن كان فى يدك شىء قد يقع منك.

وقد قطعتْ كلٌّ منهن يدها بالسكين التى أعطتها لها امرأة العزيز لتقطيع الفاكهة ، أو الطعام المُقدَّم لَهُنَّ .

وقال الحق سبحانه فى ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ[1] أَيْدِيَهُنَّ .. (٣١) ﴾ [يوسف]

وهل هناك تصوير يوضح ما حدث لَهُنَّ من ذهول أدقّ من هذا القول[2] ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) ﴾[يوسف]

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٣/٤) : « قال مجاهد : قطعنها حتى ألقينها . وقيل : خدشنها . وروى ابن أبى نجيح قال : حزًّا بالسكين . قال النحاس : يريد مجاهد أنه ليس قطعاً تبين منه اليد ، إنما هو خدش وحزّ ، وذلك معروف فى اللغة أن يقال إذا خدش الإنسان يد صاحبه قطع يده » .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٤٧٦/٢) : « ذكر غير واحد أنها قالت لهن ـ بعد أن آتت كل واحدة منهن سكيناً ـ : هل لكُنَّ فى النظر إلى يوسف ؟ قُلْنَ : نعم . فبعثت إليه تأمره أن اخرج إليهن ، فلما رأينه جعلن يقطعن أيديهن ، ثم أمرته أن يرجع ، فرجع وهُنَّ يحززن فى أيديهن ، فلما أحسسن بالألم جعلن يولولن . فقالت : أنتن من نظرة واحدة فعلتُن هذا ، فكيف ألاَم أنا ؟ » .

وكلمة : ﴿ حَاشَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

هى تنزيه لله سبحانه عن العجز عن خَلْق هذا الجمال المثالى ، أو : أنهُنَّ قد نَزَّهْنَ صاحب تلك الصورة عن حدوث منكر أو فاحشة بينه وبين امرأة العزيز ، أو : أن يوسف عليه السلام لا بد أن يكون قد خرج عن صورة أرقى من صورة الإنس التى يعرفنها[1] ؛ فقُلْنَ : لا بدّ أنه ملَكٌ كريم .

وصورة الملك كما نعلم هى صورة مُتخيَّلة ، والإنسان يحكم على الأشياء المُتَخيَّلة بما يناسب صورتها فى خياله ، مثلما نتخيل الشيطان كأبشع ما تكون الصورة .

والبشاعة نفسها تختلف من واحد إلى آخر ؛ فما تراه بَشِعاً قد لا يراه غيرك كذلك ؛ لأن مقاييس القبح أو الجمال تختلف من أمة إلى أخرى .

فالمرأة الجميلة فى أواسط إفريقيا فى نظر الرجل هى ذات الشفاه الغليظة جداً ؛ أو صاحبة الشعر المُجعَّد والمُتموج .

وأكدت الحضارة الحديثة أن هذا لونٌ من الجمال ينجذب إليه الرجل فى بعض الحالات ؛ بدليل أن بعضاً من السيدات ذوات الشعر الناعم للغاية يذهبْن إلى مُصفِّفة الشعر ، ويطلبْنَ منها تجعيد شعورهن .

---

(١) قال القشيرى أبو نصر : وذكرت النسوة أن صورة يوسف أحسن من صورة البشر ، بل هو فى صورة ملك ، وقال الله تعالى : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين] والجمع بين الآيتين ان قولهن (حاش لله) تبرئة ليوسف عمّا رمتْه به امراة العزيز من المراودة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٠٥) .

إذن : فالجمال يُقاس بالأذواق ؛ هذا يرى جمالاً قد يراه غيره غير هذا ؛ وذاك يرى جمالاً لا يراه غيره كذلك .

والحق سبحانه يقذف معايير الجمال فى النفس الإنسانية على قَدْر مُقوِّمات الالتقاء فى الانسجام .

ولذلك يُقال فى الريف المصرى هذا المثل «كل فُولة ولها كَيَّال» .

ونجد شاباً يتقدم لفتاة يرغب فى الزواج منها ؛ وما أنْ يراها حتى ينفر منها ، ويتقدم لها شاب آخر فيقع فى هَواها ، ويتعجَّل الزواج منها ، وهذا يعنى أن مقاييس الأول تختلف عن مقاييس الثانى.

وحين يشاء الحق سبحانه أن يجمع بين اثنين فلا أحَدَ بقادر على أن يمنع القبول من كل طرف للطرف الآخر ؛ وهذه مسألة لها من الأسرار ما لا نعرفه نحن ؛ لأنه سبحانه الذى يكتب القبول ؛ ويُظهِر فى المرأة جمالاً قد يجذب رجلاً ولا يجذب رجلاً آخر ، ونفس المسألة تحدث فى نفسية المرأة .

إذن : فحين رأت النسوة يوسف عليه السلام ؛ قُلْنَ :

﴿ مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أن يوسف هو الصورة العليا فى الجمال التى لا يوجد لها مثيل فى البشر[1] .

(١) عن أنس رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « أعطى يوسف وأمه شطر الحسن » أخرجه أحمد فى مسنده (٣/٢٨٦) والحاكم فى مستدركه (٢/٥٧٠) .

وأورد السيوطى فى كتابه (الدر المنثور) (٤/٥٣٢) عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : كان وجه يوسف مثل البرق ، وكانت المرأة إذا أتت لحاجة ستر وجهه مخافة أن تفتتن به . وعزاه للحكيم الترمذى فى نوادر الأصول وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبى الشيخ والطبرانى .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز رداً عليهن :

﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ [(1)] وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ [(2)] وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ [(3)] (٣٢) ﴾

وكأنها وجدت الفرصة لتثبت لنفسها العذر في مراودتها له ، فيوسف باعترافهن قد بلغ من الجمال ما لا يوجد مثله في البشر .

وقولها : ﴿ فَذَٰلِكُنَّ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

مُكوَّن من « ذا » إشارة ليوسف ، و « ذَٰلِكُنَّ » خطاب للنسوة ، والإشارة تختلف عن الخطاب .

---

(١) لامه يلومه لَوْماً : عذله على عمل لا ينبغي ولا يليق فهو لائم . وتلاوم الرجلان : لام كل منهما الآخر : ﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) ﴾ [القلم] ، وألام : جرَّ على نفسه اللوم بفعل ما لا ينبغي فهو مليم : مستحق للوم . قال تعالى : ﴿ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) ﴾ [الصافات] أي : مذنب مستحق للوم . [القاموس القويم ٢/٢٠٨] بتصرف .

(٢) عصمه يعصمه : منعه ووقاه ، قال تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ (٦٧) ﴾ [المائدة] يحفظك ويقيك ، وقوله : ﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ (٤٣) ﴾ [هود] يحفظني . واعتصم : تمسَّك بقوة . قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا .. (١٠٣) ﴾ [آل عمران] أي : تمسكوا بدينه . واستعصم : طلب لنفسه العصمة وتمسَّك بها ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ (٣٢) ﴾ [يوسف] أي : فامتنع مُتمسكاً بعصمته وعفة نفسه وبحفظها من السوء . [القاموس القويم ٢/٢٣ ، ٢٤] .

(٣) الصِّغَر يكون مادياً في الحجم ، ويكون معنوياً في القدر والمنزلة وهو ضد الكِبَر . وصغير : في حجمه أو في قدره ومنزلته ، فمن المادي قوله : ﴿ وَلَا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا (٢٨٢) ﴾ [البقرة] ، ومن المعنوي قوله : ﴿ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) ﴾ [الأعراف] [القاموس القويم ١/٣٧٧] .

وهنا موقف أسلوبى ؛ لأن الكلام حين يُنطق به ، أو حين يُكتب ليُقْرأ ؛ له ألوان متعددة ، فمرة يكون نثراً لا يجمعه وزن أو قافية[١] ؛ وقد يكون نثراً مسجوعاً[٢] أو مُرْسَلاً ، ومرة يكون الكلام شعراً محكوماً بوزن وقافية .

والمثل على النثر المسجوع هو قول الحق سبحانه :

﴿وَالطُّورِ[٣] (١) وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ (٢) فِي رَقٍّ[٤] مَّنْشُورٍ (٣) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (٤)﴾ [الطور]

وهذا نثر مسجوع بلا تكلُّف ، وأنت إذا سمعتَ أو قرأت كلاماً ؛ فأذنك تأخذ منه على قدر سُمُوِّ أسلوبه ، لكنك إن انتقلت من أسلوب إلى أسلوب ، فأذنك تلتقط الفارق بين الأسلوبين .

والمثل نجده فى الرسالة التى كتبها ابن زيدون[٥] مُسْتعطفاً ابن جهور:

---

(١) القافية من الشعر : سميت قافية لأنها تقفو البيت . وقال الأخفش : القافية آخر كلمة فى البيت.

(٢) السجع : الكلام المقفَّى . وسجع يسجع سَجْعاً تسجيعاً : تكلم بكلام له فواصل كفواصل الشعر من غير وزن ، وصاحبه سجَّاعة وهو من الاستواء والاستقامة والاشتباه كأن كل كلمة تشبه صاحبتها . قال ابن جنى : سمى سجعاً لاشتباه أواخره وتناسب فواصله . [لسان العرب ـ مادة : سجع] .

(٣) الطور : جبل بسيناء نزل عنده موسى عليه السلام بعد خروجه مع قومه من مصر ، قال تعالى : ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ (١٥٤)﴾ [النساء] ، ويُسمَّى أيضاً : ﴿ طُورِ سَيْنَاءَ ..(٢٠)﴾ [المؤمنون] و ﴿وَطُورِ سِينِينَ (٢)﴾ [التين] . [القاموس القويم ١/٤٠٨] .

(٤) الرَّق : الجلد الرقيق يُكتب عليه ، وأُطلق على الصحيفة البيضاء يكتب عليها . [القاموس القويم ١/٢٧٢] .

(٥) هو : أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومى الأندلسى ، أبو الوليد ، وزير كاتب شاعر ، من أهل قرطبة ، ولد ٣٩٤ هـ ، انقطع إلى ابن جهور (من ملوك الطوائف بالأندلس) فكان السفير بينه وبين الأندلس ، توفى بإشبيلية عام (٤٦٣هـ) فى أيام المعتمد على الله ابن المعتضد . [الأعلام للزركلى ١/١٥٨]. بتصرف .

« هذا العَتْب محمودٌ عواقبه ، وهذه الغَمْرة نَبْوة ثم تنجلى ، ولن يريبنى من سيدى إنْ أبطأ سببه أو تأخر ، غير ضنين ضناه ، فأبطأُ الدِّلاء قَبْضاً أملؤها ، وأثقلُ السحابِ مشياً أعقلها ، ومع اليوم غد . ولكل أجل كتاب ، له الحمد على اهتباله ، ولا عَتْب عليه فى اغتفاله .

فإنْ يكُن الفعلُ الذى سَاء واحداً فَأَفْعالُه اللاتى سَرَرْنَ أُلوفُ

وهكذا تشعر انتقال ابن زيدون من النثر إلى الشعر ، ولكنك وأنت تقرأ القرآن ، تنتقل من النثر المُرْسل إلى النثر المسجوع إلى النظم الشعرى على وزن بحور الشعر ، فلا تكاد تفرق فى الأسلوب بين شعر أو نثر .

والمثل نجده فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ فَذَٰلِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف]

فهى موزونة من بحر البسيط ، ولكنك لا تشعر أنك انتقلت من نثر إلى شعر .

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَاللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ[1] مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النور]

وأيضاً قوله الحق :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِى أَنِّى أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) قال الأزهرى : قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائى : اهدنا الصراط المستقيم ، بالصاد ، وقرأ يعقوب بالسين ، قال : وأصل صاده سين قلبت مع الطاء صاداً لقرب مخارجها . قال الجوهرى : الصراط والسراط : الطريق . [لسان العرب - مادة : صرط] .

وتأتى تلك الآيات فى مواقع قد يكون ما قبلها نثراً ، مما يدلُّ على أن النغم الذى قاله الله نَظْماً أو شعراً أو نثراً لا نشاز[١] فيه ، ويكاد أن يكون سَيْلاً واحداً .

وهذا لا يتأتّى إلا من كلام الحق تبارك وتعالى ، وأنت لن تشعر بهذا الأمر لو لم يُنبِّهْك أحد لِمَا فى بعض الآيات من وزن شعرى .

أما كلام البشر ؛ فأنت إنْ قرأتَ الموزون ؛ ثم انتقلت إلى المنثور ؛ أحسَّتْ أذنك بهذا الانتقال ؛ ونفس المسألة تشعر بها حين تقرأ المنثور ، ثم تنتقل إلى الموزون ؛ وستشعر أذنك بهذا الانتقال .

﴿ قَالَتْ فَذَالِكُنَّ الَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ .. (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك بجراءة مَنْ رأت تأثير رؤيتهن ليوسف ، وأعلنت أنه « استعصم » ، وهذا يعنى أنه قد تكلَّف المشقة فى حجز نفسه عن الفعل ، وهو قول يثبت أن رجولة يوسف غير ناقصة ، فقد جاهد نفسه لِيكبتَها عن الفعل .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان امرأة العزيز :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) ﴾ [يوسف]

قالت ذلك وكأنها هى التى تُصدر الأحكام ، والسامعات لها هُنَّ من أكبرْنَ يوسف لحظة رؤيته ؛ تعلن لهُنَّ أنه إنْ لم يُطِعْها فيما

---

(١) نشز الشىء ينشز نشوزاً : ارتفع . وتل ناشز : مرتفع . ونشز فى مجلسه ينشز : ارتفع قليلاً . وأنشز الشىء : رفعه عن مكانه . [لسان العرب ـ مادة : نشز] .

تريد ؛ فلسوف تسجنه وتُصغِّر من شأنه لإذلاله وإهانته .

أما النِّسْوة اللاتى سَمعْنَها ؛ فقد طمعتْ كل منهن أن تطرد امرأة العزيز يوسف من القصر ؛ حتى تنفرد أى منهن به .

ولذلك يُورِد لنا الحق سبحانه قول يوسف عليه السلام :

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ[1] عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ[3] ﴿٣٣﴾ ﴾

ولسائل أن يقول : ولماذا جاء قول يوسف بالجمع ، وقال :

﴿ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف]

على الرغم من أن امرأة العزيز هى التى قالت :

﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) الصرف : ردُّ الشيء من حال إلى حال . وصرف السجين : أخلى سبيله ، وصرف القلوب يصرفها : حوَّلها من الهدى إلى الضلال : ﴿صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم .. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [التوبة] أى : حوَّلها . [القاموس القويم ١/٣٧٤] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحب ، قال تعالى : ﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يغرينني به . وصبا إلى اللهو : حَنَّ واشتاق إليه. [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

(٣) الجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق ، والجهل : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . واسم الفاعل « جاهل » ، وصيغة المبالغة « جهول » ، ويتحدد معنى الجهل بما يناسب المقام ، قال تعالى : ﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام] . [القاموس القويم ١/١٣٥] . بتصرف .

ونقول : لا بُدَّ أن يوسف عليه السلام قد رأى منهن إشارات أو غمزات تُوحى له بألاَّ يُعرض نفسه لتلك الورطة التى ستؤدى به إلى السجن ؛ لذلك أدخل يوسف عليه السلام فى قوله المفرد - امرأة العزيز - فى جمع النسوة اللاتى جمعتهُنَّ امرأة العزيز ، وهُنَّ اللاتى طلبْنَ منه غَمْزاً أو إشارة أن يُخرج نفسه من هذا الموقف .

ولعل أكثر من واحدة منهن قد نظرت إليه فى محاولة لاستمالته[(١)] ، وللعيون والانفعالات وقَسَمات الوجه تعبير أبلغ من تعبير العبارات ، وقد تكون إشارات عُيونهن قد دَلَّتْ يوسف على المراد الذى تطلبه كل واحدة منهن ، وفى مثل هذه الاجتماعات تلعب لغة العيون دوراً هاماً .

وها هو ذا أبو دلامة الشاعر وقد جلس فى مجلس الخليفة ، وكان أبو دلامة مشهوراً بقدرة كبيرة على الهجاء[(٢)] . وأراد الخليفة أن يداعبه فقال له : عزمتُ عليك إلا هجوتَ واحداً منا .

ودارت عيون فى المجلس ، وأشار له كل مَنْ حضر المجلس خُفيةً بأنه سيُجزل[(٣)] له العطاء إن ابتعد أبو دلامة عن هجائه ؛ ولأن أبا دلامة معروفٌ بالطمع ، وخشى أن يضيع منه أىُّ شىء من العطايا ؛ لذلك قام بهجاء نفسه ؛ وقال :

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٠٧/٤) « أن كل واحدة طلبت أن تخلو به للنصيحة فى امرأة العزيز ، والقصد بذلك أن تعذله (تلومه) فى حقها ، وتأمره بمساعدتها . فلعله يجيب ، فصارت كل واحدة تخلو به على حدة فتقول له : يا يوسف اقض لى حاجتى فأنا خير لك من سيدتك ، تدعوه كل واحدة لنفسها وتراوده ، فقال : يا رب كانت واحدة فَصِرْنَ جماعة».

(٢) هجاه يهجوه هجاء : شتمه بالشعر . وهو خلاف المدح . قال الليث : هو الوقيعة فى الأشعار . [لسان العرب ـ مادة : هجو] .

(٣) الجزيل : العظيم . وأجزلت له من العطاء أى أكثرت . وعطاء جزْل وجزيل إذا كان كثيراً . وقد أجزل له العطاء إذا عظم . [لسان العرب ـ مادة : جزل] .

ألا أبلــغْ لديْـك أباً دلامة فليسَ منَ الـكرامِ ولاَ كرامه
إذَا لَبِسَ العِمَامةَ كان قِرداً وخنْزِيراً إذا خلَـع العِمَامـه

وهكذا خرج من قـسم الأمير ؛ وكسب العطايا التى وعـده بها مَنْ حضروا المجلس .

وهنا فى الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا نجد يوسف عـليه السلام قد جمع امرأة العزيز مع النسوة ؛ فقال :

﴿رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ .. (٣٣)﴾ [يوسف]

أى : أن السجن أفـضل لديه من أن يوافق امرأة العـزيز على فعل الفـحـشاء ، أو يوافق الـنسوة علـى دعوتهن لــه أن يُحرِّر نفـســه من السجن بأن يستجيب لها ، ثم يخرج إليهن من القصر من بعد ذلك .

ولكن يوسف عليه السلام دعا ربه ، فقال :

﴿وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣)﴾ [يوسف]

ولسائـل أن يقول : ولماذا لـم يَقُلْ يوسف « يا إلهى » وهو يعلم أن مناط التكليف فى الألوهية بـ « افعل » و « لا تفعل » ؟

نقول : أراد يوسف أن يـدعو ربه باسم الربوبية اعـترافـاً بفضله سبحانه ؛ لأنه هو جَلَّ وعـلا مَنْ ربَّاه وتعهّده ؛ وهو هنا يدعوه باسم الربوبية ألاَّ يتخلى عنه فى هذا الموقف .

فيـوسف عليه السلام يعـرف أنه من البشــر ؛ وإنْ لم يصرف الله عنه كـيـدهُنَّ ؛ لاسـتجـاب لغـوايتـهن ، ولأصـبح من الجـاهلين الذين لا يلتفتون إلى عواقب الأمور .

وعلي الرغم من أن السجن أمر كريه ؛ إلا أنه قد فضَّله على معصية خالقه ، ولأنه لجأ إلى المُربِّى الأول . لتأتى الاستجابة منه سبحانه .

يقول الحق :

﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ﴾

وهكذا تفضَّل عليه الله الذى خلقه وتولَّى تربيته وحمايته ، فصرف عنه كيدهُنَّ ؛ الذى تمثل فى دَعْوتهنَّ له أن يستسلم لِمَا دَعتْه إليه امرأة العزيز ، ثم غُوايتهن له بالتلميح دون التصريح .

تلك الغواية التى تمثلت فى قول الملك من بعد ذلك :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ[1] إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا أنجاه الله من مكْر النسوة ؛ وهو جَلَّ وعَلا له مُطْلق السمع ومُطْلق العلم ، ولا يخفى عليه شىء ، ويستجيب لأهل الصدق فى الدعاء.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ[2] لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ ﴾

---

(١) الخَطْب : الشأن الذى تقع فيه المخاطبة والمساءلة . قال تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [الحجر] أى : ما شأنكم الهام . [القاموس القويم ١/١٩٨] وقال فى اللسان : « الخطب : الشأن أو الأمر ، صَغُر أو عظُم . ومنه قولهم : جَلَّ الخطب أى : عظم الأمر والشأن » .

(٢) قال ابن عباس : « القميص من الآيات ، وشهادة الشاهد من الآيات ، وقطع الأيدى من الآيات . وإعظام النساء إياه من الآيات » . ذكره القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٠٨) .

وبعد أن ظهرتْ العلامات الشاهدة على براءة يوسف عليه السلام أمام العزيز وأهل مشورته ، وانكشف لهم انحرافُ امرأة العزيز وإصرارها على أن تُوقِع بيوسف فى الفعل الفاضح معها ، دون خجل أو خوف من الفضيحة .

لذلك رأى العزيز وأهل مشورته أن يُوضَع يوسف عليه السلام فى السجن ؛ ليكون فى ذلك فَصْلٌ بينه وبينها ؛ حتى تهدأ ضجة الفضيحة ؛ وليظهر للناس أنه مسئول عن كل هذا السوء الذى ظهر فى بيت العزيز .

كما أن كلمة : ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ.. (٣٥) ﴾ [يوسف]

فيها نوع من استبقاء الحب الذى يُكِنُّه العزيز ليوسف ، فهو لم يأمر بقتله أو نَفْيه بعيداً ؛ بل احتفظ به بعيداً عن الزوجة المُصِرَّة على الخيانة ، وعن المجتمع الذى يلُوكُ تلك الوقائع .

والسجن ـ كما نعلم ـ هو حَبْس المسجون لتقييد حركته فى الوجود ؛ وهو إجراء يتخذه القاضى أو الحاكم كعقوبة يُراد بها إذلال المسجون ، أو وقاية المجتمع من شَرِّه .

ونعلم أن الإنسان لا يجترىء على الأحكام إلا حين يظن أو يعلم أن له قدرة ؛ وله غلبة ؛ فيعلن له القاضى أو الحاكم نهاية تلك الغلبة والقدرة ، ويأمر بدخوله إلى السجن ويحرس تقييد حريته سَجَّان ؛ وقد يتعرض للضرب أو الإهانة .

هذا هو السجن المتعارف عليه فى العصور القديمة والحديثة ، حين تعزل المسجون عن المجتمع ، وقد يعطف عليه بعض من أبناء

المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن دينى أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع الإيمانى عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألاّ يُكلِّم أحد الثلاثة[1] الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف فى السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ[2] قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا[3] وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ[4] ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة فى التخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٥١١/٤) : « قال « فتيان » لأنهما كانا عبدين ، والعبد يُسمى فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردى . وقال القشيرى : ولعل الفتى كان اسماً للعبد فى عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف] » .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذى يغطى العقل ويذهب به ، وهى إما مأخوذة من خمرْتُ الشىء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه فاختمر ، والخمر فى صنعها يوضع الخمير على العصير ويُترك حتى يخمر فتؤخذ منه الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ..﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ..﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف] أى : أعصر عنباً ليصير خمراً فهو مجاز مرسل علاقته ما سيئول إليه . [القاموس القويم ٢٠٩/١] بتصرف .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٣٥١٢/٤) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزِّى الحزانى . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسَّع عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له » .

المعية التى دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هى معية ذات ، وقيلَ : إنهما الخبّاز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بطَانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هى فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمّ للعزيز[1] .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشّف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حلْمًا ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحلْمين ، والسجين غالبًا ما يكون كثير الوساوس ، غير آمن على غَده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يُهمهم :

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾﴾[يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حلْمين ؛ فواحد منهما رأى فى منامه أنه يعصر خمرًا ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْزًا فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما ـ أو كُلٌّ منهما على حدَة ـ يطلبان ـ تأويل الرؤييين المناميتيْن ، أو أنهما قد طلبا نبأ تأويل هذا الأمر الذى رأياه .

---

(١) مما ذُكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه فدسُّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسمّاه جميعًا ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف . [تفسير القرطبى ٣٥١١/٤] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان فى ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين فى الكون ، ونظروا إلى أىِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص ـ على سبيل المثال ـ لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض فى أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إنْ أردتَ أن تعرف مقام الإحسان فى مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسلْباً .

والمثال الذى أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إنْ نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان - ميزانك للأمور - وقد اعتدل . وإذا أردتَ اعتدال الميزان فى كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح فى نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك ؛ بل ضيَّق حرية الملايين كى لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذى يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلِم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذى جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحسانى ؟ هل رأيتم حُسْن معاملتى لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختيارى للحَسَن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندى - بفضل الله - ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك فى الآية التالية :

﴿ قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ(١) قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧ ﴾

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ، ولكن هناك أمور مَخْفية ، وكأنه يُنمى فيهما شعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أىِّ طعام يُرزَقانه قبل أن يأتى هذا الطعام(٢) .

وهذه ليست خصوصية فى يوسف أو من عنْدياته ، ولكنها من علم تلقَّاه عن الله ، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحسنين ؛ فيكشف الله لهم بعضاً من الأسرار .

وهما ـ السجينان ـ يستطيعان أن يكونا مثله إنْ أحسناَ الإيمان بالله. ولذلك يتابع الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّى إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ٣٧ ﴾ [يوسف]

---

(١) الملة : الدين ، حقاً كان أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. ١٣٠ ﴾ [البقرة] ، وهى الدين الحق . ومن الباطل قوله : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. ٢٠ ﴾ [الكهف] ، وهى ملة باطلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٦] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥١٢/٤) : قوله : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ .. ٣٧ ﴾ [يوسف] يعنى : لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما : ﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ.. ٣٧ ﴾ [يوسف] لتعلما أنى أعلم تأويل رؤياكم . وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف ، وبيّن أن الله خصَّه بهذا العلم ؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله . يعنى : دين الملك » .

وكأنه بذلك يهديهما إلى الطريق الذى يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هِبَات الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى فى إنسانٍ ما مَخِيلَة[1] خير فَلْينمى هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ؛ ولكى يُطمِع العباد فى تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك ملَّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً فى النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ[2] إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَيْءٍۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾

(١) إنه لمخيل للخير أى : خليق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيَّل عليه تخيُّلاً ، كلاهما : اختاره وتفرَّس فيه الخير . وتخولت فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أى : رأيت مخيلته . وتخيل الشىء له : تشبَّه . وتخيَّل له أنه كذا أى تشبَّه وتخايل ، يقال : تخيلته فتخيَّل لى ، كما تقول تصورته فتصور . وتبينته فتبين ، وتحققته فتحقق . [لسان العرب ـ مادة : خيل] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٣٢ ، ٤١٦) ، والحاكم فى مستدركه (٢/٣٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملَّة القوم الذين لا يعبدون الله حَقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادى ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لِمَنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله ، فالشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

فلو أن هناك آلهةً غير الله سبحانه لصنع كلٌّ إله شيئاً لا يقدر على صُنْعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله ـ هكذا أوضح يوسف عليه السلام ـ أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلغوا منهجه إلى خَلْقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : ﴿ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

اعلم أن الأمر الذى أنت بصدده هو فى مقاييس العقل والفطرة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْر إلا على النعمة .

ولو فَطِنَ الناس لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذى بلَّغوه عن الله ؛ لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ[1] مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ[2] ﴿٣٩﴾ ﴾

وكلمة « صاحب » معناها ملازم[3] ؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو « صاحب حج » ، الشيء الذى يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذى جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

---

(١) الرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شيء أى مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو رَبُّ الأرباب . ورب كل شيء : مالكه ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبِّر والمربِّى والصاحب والقيِّم والمنعم . [لسان العرب ـ مادة : ربب] بتصرف .

(٢) قهره يقهره قهراً : غلبه وأذلَّه ، قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ ﴾ [الضحى] ، والقاهر : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الأنعام] أى : المسيطر عليهم . [القاموس القويم ٢/١٣٦] بتصرف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثُرت ملازمته . صحبه يصحبه وصاحبه : عاشره . والصاحب : المعاشر . [لسان العرب ـ مادة : صحب] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ [يوسف]

وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فأنت تعلم مُقدَّماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكأن يوسف قد وَثِق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكُنْ ليسأل إلاَّ إذا عرف أنهما سيُديرانِ كل الأجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذى أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض فى مقاييس الأشياء أن تُغنِيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : فى قُوَى البشر نجد التعدد يُثْرِى ويُضخِّم العمل ، لكن فى الألوهية نجد الشرك يُضعِف العمل .

ولذلك نجد الصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبى السجن :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ .. (٣٩) ﴾ [يوسف]

ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطةَ قوة ونقاطَ ضعف ؛ وتفرُّقهم هذا دليلٌ نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَماً[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد، وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه:

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ[3] وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

ونلحظ أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه، وهو تأويل الرُّؤْيَيْن، وهو لو تكلم في المطلوب منه أولاً؛ لانصرف ذِهْن وانتباه كُلٍّ من السجينين إلى قضاء

---

(١) شكس: ساء خلقه وغلب عليه حب النزاع. وتشاكس القوم: تنازعوا واشتد اختلافهم. قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه. [القاموس القويم ١/ ٣٥٤].

(٢) السِّلْم والسَّلْم: الأمان وعدم الحرب: ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)﴾ [البقرة] في الصلح والمهادنة والاستسلام: ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ..(٩٠)﴾[النساء] سالموكم وخضعوا لكم واستسلموا لكم، وقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أي: ملكاً خاصاً له لا ينازعه فيه أحد. [القاموس القويم ١/ ٣٢٤].

(٣) القيِّم: الثابت المستقيم الذي لا عوج فيه، أو المقوِّم المعدِّل للأمور أو المهيمن المشرف عليها. ومن ذلك قوله: ﴿دِينًا قِيَماً.. (١٦١)﴾ [الانعام] أي: مستقيماً أو مقوِّماً لغيره من الأديان السابقة. [القاموس القويم ٢/ ١٤٣].

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذى يدعو إليه هو الأمر الأبْقى ، وهو الأمر العام الذى يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهما إلى الأمر الجوهرى قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التى يسألانِ فيها ؛ وأراد أن يُصحِّح نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفى هذا إيثار لا أثرة[1] .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة مُتعدِّدة هو مُجرَّد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتُمْ بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كُفْر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتُوضع الأسماء عادةً للدلالة على المُسمَّى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجىء صورة المسمى إلى الذِّهْن ؛ ولذلك نسمى المولود بعد ولادته باسم يُميِّزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلِق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

---

(١) آثره عليه : فضَّله . وآثرت فلاناً على نفسى : من الإيثار . ويقال : قد أخذه بلا أَثَرة وبلا إثرة وبلا استئثار ، أى : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [لسان العرب ـ مادة : أثر] .

وإذا أُطلق اسم واحد على متعددين ؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمَثل من الريف المصرى ؛ حين يتفاءل أب باسم « محمد » ؛ فيسمِّى كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يُميِّز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِع اسم لِمُسمًّى غير موجود ؛ فهذا أمر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ؛ فصارت هناك أسماء على غير مُسمًّى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة ؛ لِيُسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تَكُنْ هناك آلهة ؛ بل كان هنا أسماء بلا مُسمَّيات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

وكأن يوسف يتساءل : ءإذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مُسمًّى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمًّى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسمًّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزل معهم المنهج الذى يوجز فى « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسمًّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزِل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام فى وَصْف تلك الأسماء التى بلا مُسمَّيات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : إننى ـ والكلام ليوسف ـ إن قلتُ شيئاً فلأنِّى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندى ؛ ولا عن هواى ؛ لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلَّغتهم بالمنهج ،

ولكنهم لم يُوظِّفوا هذا العلم فى أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام فى تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ[1] ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا رجع يوسف عليه السلام إلى مطلب السجينين ، وفسَّر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَبُ وتأكل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقول : إن الطير سيأكل من رأسه ؛ وهذا يعنى أن رأسه ستكون طعاماً للطير .

وتأويل الرؤيا علم يقذفه الله فى قلوب مَنْ علَّمهم تأويل الأحاديث ، وهى قدرة على فَكِّ شَفْرة الحُلْم ، ويعطيها الله لمَنْ يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمَنْ قال :

﴿ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف]

أنه سوف ينال العفو حَسْب ما أظهرته الرؤيا التى قالها ، وأما

---

(١) استفتاه : طلب منه الفتوى وساله رأيه فى مسالة فافتاه ، فأجابه . قال تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات] . وقال : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء] .

الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أى : سيُصلب كما أوحتْ بذلك رموز الرُّؤيا .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذى أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبى الرؤييين .

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُنصبّاً على الحكم ؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما ؛ وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، ومَنْ الذى سوف يُعاقب .

فنزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوى يُلوِّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويُعلِّمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ[2] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[3] وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي

---

(١) تسور السور : تسلقه وعلاه . قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾ [ص] [القاموس القويم ١/٣٣٥]

(٢) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء . قال تعالى : ﴿ لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) ﴾ [الكهف] أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٣) اكفلنيها : أى اجعلنى كافلاً لها راعياً شئونها مالكاً لها . عزنى فى الخطاب : غلبنى وقهرنى . [القاموس القويم ٢/١٨، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ[1] رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نِعَاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفِّه ؛ وكان يَريد أن يُصوِّر الظلم الذى وقع عليه ، وحكم داود بأنَ مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذى ظلم ؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق فى الحكم ؛ لأنه ذكر فى حيثية الحكم نعاج الذى أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذى أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذى وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهى أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدْر محبتها له .

---

(١) خر راكعاً : أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من علو . [القاموس القويم ١/ ١٩٠].

وتاقت نفس يعقوب إلى ولده ؛ فذهب إليها وقال لها : سلّمي إليّ يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدتْ إلى شيء[1] من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعته تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجاري أنه إذا سرق أحدٌ شيئاً وتَمَّ ضبطه ؛ تحول من حرّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته ؛ أعلنت العمة فقدان الشيء الذي أعطاه لها والدها إسحق ؛ وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلْم - أي عبد - وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقي يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لِغُوايته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أُودِع السجن ؛ ويقول الرّواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرف في السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْن السمت[2] ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير - أي تأويل الرُّؤيا - والإحسان إلى أهل السجن .

---

(١) هذا الشيء هو منْطقة إسحاق فيما ذكره ابن كثير في تفسيره [٤٨٦/٢] والمنطقة : هي كل ما شد به الإنسان على وسطه . وقد انتطق : أي شد النطاق على وسطه . [لسان العرب - مادة : نطق] .

(٢) السمت : حسن القصد والمذهب في أمور الدين والدنيا . قال خالد بن جَنْبة : السمت اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الأذيَّة . [لسان العرب - مادة : سمت] .

ولما دخل هذان الفَتيانِ معه السجن ؛ تآلفا به وأحبَّاه حُبّاً شديداً وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه ما من أحد أحبَّنى إلا دخل علىَّ من محبته ضررٌ ، أحبتنى عمَّتى فدخل الضرر بسببها ، وأحبَّنى أبى فأوذيتُ بسببه ، وأحبَّتنى امرأة العزيز فكذلك .

أى : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جَنَاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظَنَّ أنه سينجو من السجن :

﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ[2] فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾﴾

والمقصود هنا هو السجين الذى رأى حُلْماً يعصر فيه العنب ، فهو الذى فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته فى صناعة الخمر لسيده .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره [٣٥١١/٤] أن صاحب السجن أحب يوسف ، فوسع عليه فيه ، ثم قال : يا يوسف لقد أحببتك حباً لم أحب شيئاً حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه ، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى» .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى راعى الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ٢٥١/١] بتصرف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

يعنى أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

والذكر هو حضور شىء بالبال ؛ وكان لـه بالبال صلَة استقبال ، مثل أى قـضيـة عرفتَـها من قبل ثم تـركتَهـا ، ونسيتَـهاَ لفـترة ، ثم تذكرتَها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبـالات للإدراكات ، وهى لا تظل فى بُؤْرة الشعور كل الوقت ؛ لأن الذهن لا يسـتطيع أن يكون مشغولاً إلا بشىء واحد ، فإن جـاء شىء آخر فهو يزحزح الأمـر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد فى بؤرة الشعور .

والمثل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبـر ويتـتابع اتـساع أقطارها ، وهـكذا بؤرة الشعـور ، حـين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فـالخـاطر الجـديد يُبـعـد كل الخـواطر الأخـرى من المـركـز إلى الحاشـية ، ثم يأتى مـا يُذكِّرك بمـا فى حاشـية الشـعور ؛ ليـعود لك الخاطـر أو الأمر الذى كنت قـد نسيتَـه وتتذكـره بكل تفاصـيله ؛ لأن ذاكـرة الإنسـان تعـمل على مُـسْتَـويين ؛ فـهى تحـفظ المـعلومـات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه نَاجٍ :

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

أي : اذكر ما وجدته عندى من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول ؛ شاء له الله أن يمكث فى السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغى له كرسول أن يُوسِّط الغير فى مسألة ذِكْره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحى ؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ..(٣٧) ﴾ [يوسف]

وهذا يعنى أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذى يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ [يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعِين الحق على مُرَاداته من خَلْقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف في السجن بضع سنين ؛ ونعرف أن البِضْع من السنين يعني من ثلاث سنوات إلى عَشْر سنوات ، وبعض العلماء حَدَّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ[1] وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ[2] أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والأرض التي وقعتْ عليها ، وجَرَتْ فوقها تلك القصة هي مصر ، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّوْنَ الفراعنة ، وبعد أن اكتُشفَ « حجر رشيد » ، وتم فَكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية ؛ عرفنا

---

(١) عجف: هزل فهو أعجف وهي عجفاء . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] هي الهَزْلى التي لا لحم عليها ولا شحم ضُربت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خِصْب [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(٢) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه. [راجع : تفسير القرطبي ٤/٣٥٢٠] .

أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ، وهم الذين يُسمَّوْنَ الهكسوس .

وكانت هذه هى الفترة التى ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود مَلِك فى مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ فى القرآن .

وساعة تقرأ :

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعنى أنها رُؤيا منامية .

وكلمة : ﴿ سِمَانٍ (٤٣) ﴾ [يوسف]

أى : مُمْتلئة اللحم والعافية . وكلمة (عجاف) أى : الهزيلة ؛ كما يُقال عند العامة « جلدها على عضمها » ؛ فكيف تأكل العجاف السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً ؟

وأضاف الملك :

﴿ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ .. (٤٣) ﴾ [يوسف]

ولم يَصِف الملك أىَّ فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس ، ويملأون العيون :

﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف]

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أى : انتقل من شاطىء إلى شاطىء ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوى فى الرُّؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العِبْرة » ، وهى التجربة التى نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شىء مكتوم فى النفس ، ونُؤدِّيه ، ونُظهره بالعبارة .

ومنه « العَبْرة » ، وهو الدَّمْعة التى تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما ؛ سواء كانت مشاعر حُزْن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤيا حين يَعبُر ـ من خلال رموزها ـ من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملأ الذين حول الملِك تفسيراً للرُّؤيا التى رآها فى منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ(١) أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى .

---

(١) الضغث : قبضة من قضبان مختلفة من النبات . وقوله تعالى : ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [يوسف] أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزة على سبيل الاستعارة ، كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/٣٩٤] .

و « الضِّغْث » هو حزْمة من الحشائش مختلفة الأجناس ؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لها عندهم ؛ لأنهم ليسوا من أهل التمييز فى التأويل .

وهذا صِدْق من البطانة فى ألاَّ يخبر أحدهم بشىء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذى يعلن جهله بأمر لسائله ـ ويكون قد علمه ـ يجعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَثْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلماء ليفسحوا مجال الصِّدْق فى الفُتْيا : « مَنْ قال لا أدرى فقد أفتى » ؛ لأنه حين يقول « لا أدرى » ؛ سيضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ[1] بَعْدَ أُمَّةٍ[2] أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾

وكان الذى نجا من السجينين يسمع مقالة الملك وردّ الملأ ؛ فاسترجع بذاكرته ما مَرَّ عليه فى السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

---

(١) ادكر : أصلها اذتكر على وزن افتعل ، قلبت تاء الافتعال دالاً وذال الفعل دالاً وادغمت الدالان : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ [القمر] [القاموس القويم ١/٢٤٤] .

(٢) الأمة : المدة والحين والوقت . وفُسِّر به قوله تعالى : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف] . وقرأ ابن عباس « وادكر بعد أَمَه » بالهاء . والأَمَهُ : النسيان والغفلة أى تذكر بعد نسيان . [القاموس القويم ١/٣٤].

وقوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهنه ؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مرَّتْ ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أَوَّلَها له يوسف ، قال الساقى للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ٢/ ١٣٤].

يعنى أن التأويل ليس من عنده ؛ بل هو يعرف مَنْ يستطيع تأويل الرؤى .

ونلحظ أن القرآن لم يحمل على لسان هذا الرجل : إلى من سوف يذهب ؛ لأن ذلك معلوم بالنسبة له ولنا ، نحن الذين نقرأ السورة .

وانتقل القرآن من طلب الإرسال إلى لقاء يوسف عليه السلام ؛ فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان ساقى الملك :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ[1] أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وقوله : ﴿ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [يوسف]

يدل على أنه قد جرَّبه فى مسائل متعددة ، وثبت صدقه .

و « صِدِّيق » لا يقتصر معناها على أنه صادق فى كل أقواله ؛ وصادق فى كل أفعاله ، وصادق فى كل أحواله ، ولكن معناها يتسع ليدلَّنا على أن الصدق ملازم له دائماً فى القول وفى الفعل .

---

(١) الصِّدِّيق : بكسر الصاد وتشديد الدال: صيغة مبالغة من الصدق . ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ .. ﴿١٩﴾ ﴾[الحديد] ، وهى صدِّيقة : ﴿ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة] هى مريم عليها السلام . [القاموس القويم ١/ ٣٧٢] .

أما فى الأقوال فصدقه واضح ؛ لأنه يقول القضية الكلامية ولها واقع من الخارج يدلُّ عليها .

وأما صدق الأفعال فهو ألاَّ تُجرِّب عليه كلاماً ، ثم يأتى فعله مخالفاً لهذا الكلام ؛ وهذا هو مَنْ نطلق عليه « صِدِّيق » .

ونحن نعلم أن حركات الإنسان فى الحياة تنقسم قسمين ؛ إما قول وإما فعل ؛ والقول أداته اللسان ، والفعل أداته كل الجوارح .

إذن : فهناك قول ، وهناك فعل ؛ وكلاهما عمل ؛ فالقول عمل ؛ والرؤية بالعين عمل ؛ والسمع بالأذن عمل ، والمسُّ باليد عمل .

لكن القول اختصَّ باللسان ، وأخذتْ بقية الجوارح الفعل ؛ لأن الفعل هو الوسيلة الإعلامية بين متكلم وبين مخاطب ، وأخذ شق الفعل .

وهكذا نعلم أن الفعل قسمان : إما قول ؛ وإما فعل .

والصِّدِّيق هو الذى يصدُق فى قوله ، بأن تطابق النسبة الكلامية الواقع ، وصادق فى فعله بألاَّ يقول ما لا يفعل .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كَبُرَ مَقْتًا[1] عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

ونعلم أن ساقى الملك كانت له مع يوسف تجربتان :

---

(١) المقت : أشد الإبغاض . مقته يمقته : أبغضه . ويقول تعالى: ﴿ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ ..(١٠) ﴾ [غافر] قال : يقول : لمقت الله إياكم حين دعيتم إلى الإيمان فلم تؤمنوا أكبر من مقتكم أنفسكم حين رأيتم العذاب . [لسان العرب ـ مادة : مقت] .

التجربة الأولى : تجربة مُعَايشته فى السجن هو وزميله الخباز ، وقولهما له :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وكان قولهما هذا هو حيثية سؤالهم له أن يُؤوِّل لهما الرؤيين :

﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾[يوسف]

والتجربة الثانية : هى مجيء واقع حركة الحياة بعد ذلك مطابقاً لتأويله للرؤيين . ولذلك يقول له هنا :

﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

أى : أفتنَا فى رُؤيا سبع بقرات سمَان ؛ يأكلهن سبعُ بقرات شديدة الهُزَال ، وسبع سُنْبلات خُضْر ، وسبع أُخر يابسات ، لَعلِّى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون .

وقوله : ﴿ أَفْتِنَا .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

يوضح أنه لا يسأل عن رؤيا تخصُّه ؛ بل هي تخص رائياً لم يُحدده ، وإنْ كنا قد عرفنا أنها رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

هو تحرُّز واحتياط فى قضية لا يجزم بها ؛ وهو احتياط فى واقع

قدر الله مع الإنسان ، والسائل قد أخذ أسلوب الاحتياط ؛ ليخرجه من أن يكون كاذباً ، فهو يعلم أن أمر عودته ليس فى يده ؛ ولذلك يُعلمنا الله :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا (٢٤) ﴾ [الكهف]

وساعة تقول : « إن شاء الله » تكون قد أخرجتَ نفسك من دائرة الكذب ؛ وما دُمْتَ قد ذكرتَ الله فهو سبحانه قادر على أن يَهديك إلى الاختيار المناسب فى كل أمر تواجه فيه الاختيار .

فكأن الله يُعلِّم عباده أن يحافظوا على أنفسهم ، بأن يكونوا صادقين فى أقوالهم وأفعالهم ؛ لأنك مهما خططتَ فأنت تخطط بعقل موهوب لك من الله ؛ وحين تُقدم على أىِّ فعل ؛ فأيٌّ فعل مهما صَغُر يحتاج إلى عوامل متعددة وكثيرة ، لا تملك منها شيئاً ؛ لذلك فعليك أنْ تردَّ كلَّ شىء إلى مَنْ يملكه .

وهنا قال الساقى :

﴿ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

وبذلك يُعلِّمنا الحق سبحانه الاحتياط .

وأضاف الحق سبحانه على لسان الرجل :

﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ (٤٦) ﴾ [يوسف]

وكأن الرجل قد عرف أنه حين يأخذ التأويل من يوسف عليه

السـلام ؛ ويعود به إلـى الناس ؛ فهـو لا يعلم كـيف يسـتقـبلون هذا التأويل ؟

أيستقبلونه بالقـبول ، أم بالمُحاجَّة[1] فيه ؟ أو يسـتـقبلون التأويل بتصـديق ، ويعلمون قَدْرك ومنزلتك يا يوسف ؛ فـيُخلِّصوك مـما أنت فيه من بلاء السجن .

وقوله تعالى : ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ .. (٤٦) ﴾ [يوسف]

قد يدفع سائلاً إلى أن يقول : مَنِ الذى كلَّف الساقى بالذَّهاب إلى يوسف ؛ أهو الملك أم الحاشية ؟

ونقول : لقد نسبها الساقى إلى الكل ؛ للاحتياط الأدائى .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[2] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾

وهذه بداية تأويل رُؤْيا الملك .

والدَّأب معناه : المُـواظبة ؛ فكأن يوسف عليه السـلام قد طلب أن يزرع أهل مصر بدأبٍ وبدون كسل .

---

(١) تحاجّا : تخاصما وتنازعا الحجة ، كل منهما يحاول أن يثبت أنه المحق ، قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ .. (٤٧) ﴾ [غافر] أى : يتخاصمون . [القاموس القويم ١/١٤٣].

(٢) داب على الأمر: اعـتاده . والدَّأْب والدَّأَب : العادة والشأن . قـال تعالى : ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ ..(٣١)﴾ [غافر] أى : عادتهم وشأنهم . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧)﴾ [يوسف] [القاموس القويم ١/٢١٩] .

ويتابع : ﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ﴾ [يوسف]

أى : ما تحصدونه نتيجة الزرع بجدٍّ واجتهاد ؛ فلكم أنْ تأكلوا القليل منه ، وتتركوا بقيته محفوظاً فى سنابله .

والحفظ فى السنابل يُعلِّمنا قَدْر القرآن ، وقدرة مَنْ أنزل القرآن سبحانه ، وما آتاه الله جل علاه ليوسف عليه السلام من علم فى كل نواحى الحياة ، من اقتصاد ومقومات التخزين ، وغير ذلك من عطاءات الله ، فقد أثبت العلم الحديث أن القمح إذا خُزِّن فى سنابله ؛ فتلك حماية ووقاية له من السوس .

وبعض العلماء قال فى تفسير هذه الآية : إن المقصود هو تخزين القمح فى سنابله وعيدانه .

وأقول : إن المقصود هو تَرْك القمح فى سنابله فقط ؛ لأن العيدان هى طعام الحيوانات .

ونحن نعلم أن حبة القمح لها وعاءان : وعاء يحميها ؛ وهو ينفصل عن القمحة أثناء عملية « الدَّرْس » ؛ ثم يطير أثناء عملية « التذرية » مُنفصِلاً عن حبوب القمح .

ولحبة القمح وعاء ملازم لها ، وهو القشرة التى تنفصل عن الحبة حين نطحن القمح ، ونسميها « الردة » وهى نوعان : « ردة خشنة » و « ردة ناعمة » .

ومن عادة البعض أن يَفصِلوا الدقيق النقى عن « الردة » ،

وهؤلاء يتجاهلون - أو لا يعرفون - الحقيقة العلمية التى أكدت أن تناول الخبز المصنوع من الدقيق الأبيض الخالى من « الردة » يصيب المعدة بالتلبُّك .

فهذه القشرة الملازمة لحبة القمح ليست لحماية الحبة فقط ؛ بل تحتوى على قيمة غذائية كبيرة .

وكان أغنياء الريف فى مصر يقومون بتنقية الدقيق المطحون من « الردة » ويسمُّونه « الدقيق العلامة » ؛ الذى إنْ وضعت ملعقة منه فى فمك ؛ تشعر بالتلَبُّك ؛ أما إذا وضعت ملعقة من الدقيق الطبيعى الممتزج بما تحتويه الحبة من « ردة » ؛ فلن تشعر بهذا التلبُّك .

ويمتنُّ الله على عباده بذلك فى قوله الحق :

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ[1] وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ ﴾ [الرحمن]

وقد اهتدى علماء هذا العصر إلى القيمة الفاعلة فى طَحْن القمح، مع الحفاظ على ما فيه من قشر القمح ، وثبت لهم أن مَنْ يتناول الخبز المصنوع من الدقيق النقى للغاية ؛ يعانى من ارتباك غذائى يُلجئه إلى تناول خبز مصنوعٍ من قِشْر القمح فقط ، وهو ما يسمى « الخبز السِّن » ؛ ليعوض فى غذائه ما فقده من قيمة غذائية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الحب ذو العصف : أى ذو التبن أو ذو الورق الذى يغلفه . والعَصْف والعصيفة : ورق السنبل . قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٤/٢٧١) : «معنى هذا والله أعلم أن الحب كالقمح والشعير ونحوهما له فى حال نباته عصف وهو ما على السنبلة ، وريحان وهو الورق الملتف على ساقها » .

﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا أخبر يوسف الساقى الذى جاء يطلب منه تأويل رُؤْيا الملك ؛ بما يجب أن يفعلوه تحسُّباً للسنوات السبع العجاف التى تلى السبع سنوات المزدهرة بالخُضْرة والعطاء ، فلا يأكلوا ملْء البطون ؛ بل يتناولوا من القمح على قَدْر الكفاف :

﴿ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [يوسف]

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام من بقية التأويل لحُلْم الملك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ[1] ﴿٤٨﴾ ﴾

وهكذا أوضح يوسف عليه السلام ما سوف يحدث فى مصر من جَدْب يستمر سبع سنوات عجاف بعد سبع سنوات من الزرع الذى يتطلب همَّة لا تفتر .

وقوله سبحانه فى وصف السبع « سنوات » بأنها :

﴿ شِدَادٌ ﴿٤٨﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الجَدْب فيها سوف يُجهِد الناس ؛ فإنْ لم تكُنْ هناك

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٤/٣٥٢٦) : « أى : مما تحبسون لتزرعوا ، لأن فى استبقاء البذر تحصين الأقوات. قال أبو عبيدة : تحرزون . وقال قتادة : تحصنون : تدَّخرون ، والمعنى واحد » .

حصيلة تَمَّ تخزينها من محصول السبع السنوات السابقة ، فقد تحدُث المجاعة ، وليعصم الناسُ بطونهم فى السنوات السبع الأولى ، وليأكلوا على قَدْر الضرورة ؛ ليضمنوا مواجهة سنوات الجَدْب .

ونحن نعلم أن الإنسان يستبقى حياته بالتنفس والطعام والشراب؛ والطعام إنما يَمْرى على الإنسان ، ويعطيه قوة يواجه بها الحياة .

ولكن أغلب طعامنا لا نهدف منه القوة فقط ؛ بل نبغى منه المتعة أيضاً ، ولو كان الإنسان يبغى سَدَّ غائلة[1] الجوع فقط ، لاكتفى بالطعام المسلوق ، أو بالخبز والإدام فقط ، لكننا نأكل للاستمتاع .

ويتكلم الحق سبحانه عن ذلك فيقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا[2] مَّرِيئًا[3] (٤) ﴾ [النساء]

أى : بدون أن يضرك ، ودون أن يُلجِئك هذا الطعام إلى المُهْضِمات من العقاقير .

وهذا هو المقصود من قول الحق سبحانه :﴿ هَنِيئًا.. (٤) ﴾ [النساء]

أما المقصود بقوله : ﴿ مَّرِيئًا (٤) ﴾ [النساء]

---

(١) الغوائل : المهالك . والغَوْل : المشقة . [لسان العرب - مادة : غول] .

(٢) هَنُؤَ يَهْنُؤ هناءة : تيسر بلا مشقة ، وسَهُل أمره ، وسعد به صاحبه وهو طعام هنىء : أى سائغ نافع يسعد به آكله . قال تعالى : ﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا (٤) ﴾ [النساء] أى : حلالاً طيباً لا حرمة فيه ولا حرج عليكم فى أكله . [القاموس القويم ٢/٣٠٩] .

(٣) مَرُءَ الطعام : سَهُلَ فى الحلق وحُمِدت عاقبته وخلا من التنغيص . [القاموس القويم ٢/٢٢٠] .

فهو الطعام الذى يفيد ويمدُّ الجسم بالطاقة فقط ؛ وقد لا يُستساغ طعمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَالِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال نفهم أن السنوات ليست هى التى تأكل ؛ بل البشر الذين يعيشون فى تلك السنوات هم الذين يأكلون .

ونحن نفهم ذلك ؛ لأننا نعلم أن أى حدث يحتاج لزمان ولمكان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للزمان ؛ ومرة يُنسب الحَدث للمكان .

والمثل على نسبة الحَدث للمكان هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْأَلِ[1] الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ[2] .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

وطبعاً نفهم أن المقصود هو سؤال أهل القرية التى كانوا فيها ، وأصحاب القوافل التى كانت معهم .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد الحدث منسوباً للزمان ؛ وهم سيأكلون مما أحصنوا إلا قليلاً ؛ لأنهم بعد أن يأكلوا لا بد لهم من الاحتفاظ بكمية من الحبوب والبُذُور لاستخدامها كتقاوى فى العام التالى لسبع سنوات موصوفة بالجدب .

---

(١) وهذا الأسلوب يسمى فى البلاغة المجاز بالحذف ـ دلائل الإعجاز للجرجانى .

(٢) العير : القافلة . والعير : القوم معهم دوابُّهم وأحمالهم من الطعام . قال تعالى : ﴿ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف] أى : أيها القوم الراحلون . [القاموس القويم ٢ / ٤٤] .

وقوله تعالى :

﴿ مِمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ﴾ [يوسف]

نجده من مادة « حصن » وتفيد الامتناع ؛ ويقال : « أقاموا فى داخل الحصن » أى : أنهم إنْ هاجمهم الأعداء ؛ يمتنعون عليهم ؛ ولا يستطيعون الوصول إليهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ .. (٢٤) ﴾ [النساء]

أى : المُمْتنعات عن عملية الفجور ؛ وهُنَّ الحرائر .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّتِى أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا .. (٩١) ﴾ [الأنبياء]

أى : التى أحكمتْ صيانة عِفَّتها ، وهى السيدة مريم البتول[1] عليها السلام ، وهكذا نجد مادة « حصن » تفيد الامتناع .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ[2] (٤٩) ﴾

---

(١) البتول من النساء: العذراء المنقطعة عن الأزواج . ويُقال : هى المنقطعة إلى الله عز وجل عن الدنيا . [لسان العرب ـ مادة : بتل] .

(٢) قال ابن عباس : يعصرون الأعناب والدُّهْن . وقال ابن جريج : يعصرون العنب خمراً ، والسمسم دُهناً ، والزيتون زيتاً . وقيل : أراد حلب الألبان لكثرتها ، ويدلّ ذلك على كثرة النبات . [تفسير القرطبى ٤/٣٥٢٧] .

ونلحظ أن هذا الأمر الذى تحدث عنه يوسف عليه السلام خارج عن تأويل الرُّؤيا ؛ لأن ما احتوته رُؤيا الملك هو سبع بقرات عجاف[١] يأكلن سبع بقرات سِمَانٍ ؛ وسبع سُنبلات خُضْر وأُخَر يابسات .

وأنهى يوسف عليه السلام تأويل الرُّؤيا ، وبعد ذلك جاء بحكم العقل على الأمور ؛ حيث يعود الخِصْب العادى ليعطيهم مثلما كان يعطيهم من قبل ذلك .

وهذا يمكن أن يطلق عليه « غَوْث » ؛ لأننا نقول « أَغِثْ فلاناً » أى : أعِنْ فلاناً ؛ لأنه فى حاجة للعون ، والغيث[٢] ينزل من السماء لِيُنهِى الجَدْب .

وقوله : ﴿ يُغَاثُ النَّاسُ .. (٤٩) ﴾ [يوسف]

أى : يُعانون بما يأتيهم من فضل الله بالضرورى من قوت يمسك عليهم الحياة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله : ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

أى : ما يمكن عَصْره من حبوب أو ثمار ؛ مثل : السمسم ، والزيتون ، والعنب ، والقصب ، أو البلح ، وأنت لن تعصر تلك الحبوب أو الثمار إلا إذا كان عندك ما يفيض عن قوت ذاتك وقوت من تعول .

---

(١) عجف : هزل فهو أعجف ، وهى عجفاء . أى : هزيلة . والتعجيف : سوء الغذاء والهزال . وقوله تعالى : ﴿يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ..(٤٣)﴾ [يوسف] هى : الهَزْلَى التى لا لحم عليها ولا شحم ، ضربت مثلاً لسبع سنين لا قطْر فيها ولا خِصْب . [لسان العرب ـ مادة : عجف].

(٢) الغيث : المطر . والغيث : الكلأ ينبت من ماء السماء . والأصل المطر ، ثم سُمِّى ما ينبت به غيثاً . [لسان العرب ـ مادة : غيث] .

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه أنهم سوف يُرزَقُونَ بخير يفيض عن الإغاثة ؛ ولهم أن يدخروه ، وما سبق فى آيات الرؤيا وتأويلها هو حوار بين يوسف الصديق ـ عليه السلام ـ وبين ساقى الملك .

ولاحظنا كيف انتقل القرآن من لقطة عجز الحاشية عن الإفتاء فى أمر الرؤيا ، وتقديم الساقى طلباً لأنْ يرسلوه كى يُحضِر لهم تأويل الرؤيا ، ثم جاء مباشرة بالحوار بين يوسف والساقى .

هنا ينتقل القرآن إلى ما حدث ، بعد أن علِم الملك بتأويل الرُّؤيا ، فيقول سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾

ومعنى ذلك أن الساقى ذهب إلى مجلس الملك مباشرة ، ونقل له تأويل الرُّؤيا ، وأصرَّ الملك أنْ يأتوا له بهذا الرجل ؛ فقد اقتنع بأنه يجب الاستفادة منه ؛ وعاد الساقى ليُخرِج يوسف من السجن الذى هو فيه .

لكنه فُوجِىء برفض يوسف للخروج من السجن ، وقوله لمن جاء يصحبه إلى مجلس الملك :

﴿ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللاَّتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا حرص يوسف على ألاَّ يستجيب لمَنْ جاء يُخلِّصه من عذاب السجن الذى هو فيه ؛ إلا إذا برئتْ ساحته براءةً يعرفها الملك ؛ فقد

يكون من المحتمل أنهم ستروها عن أذن الملك .

وأراد يوسف عليه السلام بذلك أن يُحقق الملك فى ذلك الأمر مع هؤلاء النسوة اللاتى قَطَّعْنَ أيديهن ؛ ودَعَوْنَهُ إلى الفحشاء .

واكتفى يوسف بالإشارة إلى ذلك بقوله :

﴿ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف]

ويُخفى هذا القول فى طيَّاته ما قالته النسوة من قبل ليوسف بضرورة طاعة امرأة العزيز فى طلبها للفحشاء .

وهكذا نجد القصص القرآنى وهو يعطينا العِبْرة التى تخدمنا فى واقع الحياة ؛ فليست تلك القصص للتسلية ، بل هى للعبرة التى تخدمنا فى قضايا الحياة .

وبراءة ساحة أى إنسان هو أمر مُهِمٌّ ؛ كى تزول أىُّ ريبة من الإنسان قبل أن يُسند إليه أى عمل .

وهكذا طلب يوسف عليه السلام إبراء ساحته ، حتى لا يَقُولَنَّ قائل فى وشاية أو إشاعة « همزاً أو لَمْزاً »[1] : أليس هذا يوسف صاحب الحكاية مع امرأة العزيز ، وهو مَنْ راودته عن نفسه ؟

وها هو رسولنا ﷺ يقول :

«عجبت لصبر أخى يوسف وكرمه ـ والله يغفر له ـ حيث أُرْسِل إليه ليُستفتى فى الرؤيا ، وإن كنت أنا لم أفعل حتى أخرج ، وعجبت من

(١) اللمز : العيب فى الوجه ، وأصله الإشارة بالعين والرأس والشفة مع كلام خفى . والهمز : الغيبة والوقيعة فى الناس وذكر عيوبهم . [لسان العرب ـ مادتى : لمز ، همز] .

صبره وكرمه ـ والله يغفر له ـ أُتى ليخرج فلم يخرج حتى أخبرهم بعذره ، ولو كنت أنا لبادرت الباب ، ولكنه أحب أن يكون له العذر»[1] .

وشاء نبينا ﷺ أن يُوضِّح لنا مكانة يوسف من الصبر وعزة النفس والنزاهة والكرامة فقال ﷺ :

« إن الكريمَ ، ابن الكريم ، ابن الكريم ، ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحق بن إبراهيم . قال ـ لو لبثتُ فى السجن ما لبثَ ، ثم جاءنى الرسول أجبتُ ثم قرأ ﷺ ـ:

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ..(٥٠) ﴾»[2] [يوسف]

وهكذا بيَّنَ لنا الرسول ﷺ مكانة يوسف من الصبر والنزاهة ، وخشيته أن يخرج من السجن فَيُشَار إليه : هذا مَنْ راود امرأة سيده .

وفى قول الرسول ﷺ إشارة إلى مبالغة يوسف فى ذلك الأمر ، وكان من الأحوط أن يخرج من السجن، ثم يعمل على كَشْف براءته .

ومعنى ذلك أن الكريم لا يستغل المواقف استغلالاً أحمق ، بل يأخذ كل موقف بقدْره ويُرتِّب له ؛ وكان يوسف واثقاً من براءته ، ولكنه أراد ألاَّ يكون الملك آخر مَنْ يعلم .

---

(١) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١٦٤٠) ، قال الهيثمى فى مجمع الزوائد (٧/ ٤٠): «فيه إبراهيم بن يزيد القرشى المكى وهو متروك» ، وقد أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤/ ٥٤٨) وعزاه لابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه من طرق عن ابن عباس .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢) ، والترمذى فى سننه (٣١١٦) وقال : « حديث حسن»، وكذا أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٤٦) كلهم من حديث أبى هريرة . قال الحاكم : « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه السياقة » وسكت عنه الذهبى .

وصدق رسولنا ﷺ حين قال : « دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبك ، فإن الصدقَ طُمأنينة ، وإن الكذبَ ريبة »[1] .

وكان ﷺ يرى أن الإيمان بالله يقتضى ألاَّ يقف المؤمن موقفَ الرِّيبة ؛ لأن بعض الناس حين يَرَوْنَ نَابِهاً ، قد تثير الغيرةُ من نباهته البعضَ ؛ فيتقوَّلون عليه .

لذلك فعليك أن تحتاطَ لنفسك ؛ بألاَّ تقف موقف الرِّيبة ، والأمر الذى تأتيك منه الرِّيبة ؛ عليك أن تبتعد عنه .

ولنَا فى رسول الله ﷺ أسْوة حسنة ، فقد جاءته زَوْجه صفية بن حُيي تزوره وهو معتكف فى العشر الأواخر من رمضان ، فتحدثت عنده ساعة من العشاء ، ثم قامتْ تنقلب - أى : تعود إلى حجرتها - فقام معها رسول الله ﷺ ، حتى إذا بلغت باب المسجد الذى عند مسكن أم سلمة زوج رسول الله ﷺ ، مرّ بهما رجلان من الأنصار فسلَّما على رسول الله ﷺ ثم نفذا[2] ، فقال لهما رسول الله ﷺ : « على رِسْلكما ، إنما هى صفية بنت حُيي . قالا : سبحان الله يا رسول الله ، وكبر عليهما ما قال . قال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مبلغ الدم ، وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما »[3] .

---

(١) أخرجه أبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٧٨) ، وكذا الإمام أحمد فى مسنده (١/ ٢٠٠)، والترمذى فى سننه (٢٥١٨) وقال : « حديث حسن صحيح » من حديث الحسن بن على .

(٢) النفاذ : الجواز . وفى المحكم : جواز الشىء والخلوص منه . تقول : نفذت أى جُزْت . [لسان العرب - مادة : نفذ] . أى : مرَّا وجاوزاهما .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٢١٩) ، ومسلم فى صحيحه (٢١٧٥) من حديث صفية بنت حُيي .

وهنا فى الموقف الذى نتناوله بالخواطر ، نجد الملك وهو يستدعى النسوة اللاتى قطَّعن أيديهن ، وراَودْنَ يوسف عن نفسه ، وهو ما يذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ[1] ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ﴾

ونعلم أن المُراَودة الأولى ليوسف كانت من امرأة العزيز ؛ واستعصم يوسف ، ثم دَعَتْ هى النسوة إلى مجلسها ؛ وقطَّعْنَ أيديهن حين فُوجئْنَ بجمال يوسف عليه السلام ، وصدرت منهن إشارات ، ودعوات إثارة وانفعال .

قال عنها يوسف ما أورده الحق سبحانه :

﴿ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ[2] إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف]

واستدعاهن الملك ، وسألهن : ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [يوسف]

والخَطْب : هو الحَدَثُ الجَلَل ، فهو حدث غير عادى يتكلم به الناس ؛ فهو ليس حديثاً بينهم وبين أنفسهم ؛ بل يتكلمون عنه بحديث

---

(١) حصحص الحق : وضح وتبيَّن بعد خفائه . والحصحصة : بيان الحق بعد كتمانه أى : ظهر وبرز . [لسان العرب ـ مادة : حصص] .

(٢) صبا يصبو : مال وأحبَّ ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [يوسف] أى : أملْ إليهن وأفعل ما يغريننى به . وصبا إلى اللهو : حنَّ واشتاق إليه . [القاموس القويم ١/٣٦٨] .

يصل إلى درجة تهتز لها المدينة ؛ لأن مثل هذا الحادث قد وقع .

ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام ، وقد قال لجماعة من الملائكة :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات]

أى : أن الملائكة طمأنتْ إبراهيم عليه السلام ؛ فهى فى مهمة لعقاب قوم مجرمين .

وموسى عليه السلام حين عاد إلى قومه ، ووجد السامرى قد صنع لهم عِجْلاً من الذهب الذى أخذوه من قوم فرعون نجده يقول للسامرى :

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴿٩٥﴾﴾ [طه]

وقَوْل الملك هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ..﴿٥١﴾﴾ [يوسف]

يدلُّ على أنه قد سمع الحكاية بتفاصيلها فاهتزَّ لها ؛ واعتبرها خَطْباً ؛ مما يوضح لنا أن القيم هى القيم فى كل زمان أو مكان .

وبدأ النسوة الكلام ، فقُلْنَ :

﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ.. ﴿٥١﴾﴾ [يوسف]

ولم يذكُرْنَ مسألة مُرَاودتهنَّ له ، وكان الأمر المهم هو إبراء ساحة يوسف عند الملك .

وقولهن : ﴿حَاشَ لِلَّهِ .. ﴿٥١﴾﴾ [يوسف]

أى : نُنزِّه يوسف عن هذا ، وتنزيهُنَا ليوسف أمْرٌ من الله .

وهنا تدخلتْ امرأة العزيز :

﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ..(٥١) ﴾ [يوسف]

أى : أنها أقرَّتْ بأنه لم يَعُدْ هناك مجال للستر ، ووضح الحقُّ بعد خفاء ، وظهرتْ حِصَّة الحق من حِصَّة الباطل ، ولا بُدّ من الاعتراف بما حدث :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ﴾ [يوسف]

وواصلت امرأة العزيز الاعتراف فى الآية التالية :

﴿ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾

قالت ذلك حتى تُعلِنَ براءة يوسف عليه السلام ، وأنها لم تنتهز فرصة غيابه فى السجن وتنتقم منه ؛ لأنه لم يستجبْ لمُراودتها له ، ولم تنسج له أثناء غيابه المؤامرات ، والدسائس ، والمكائد .

وهذا يدلُّنا على أن شِرَّةَ الإنسان قد تتوهج لغرض خاص ، وحين يهدأ الغرض ويذهب ، يعود الإنسان إلى توازنه الكمالى فى نفسه ، وقد يجعل من الزَّلة الأولى فى خاطره وسيلة إلى الإحسان فيما ليس له فيه ضعف ، كى تستر الحسنةُ السيئة ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ (١١٤) ﴾ [هود]

ولو أن إنساناً عمل سيئة وفضحه آخر عليها ؛ فالفاضح لتلك

السيئة إنما يحرم المجتمع من حسنات صاحب السيئة .

ولذلك أقول : استروا سيئات المسيء ؛ لأنها قد تلهمه أن يقدم من الخير ما يمحو به سيئاته .

ولذلك قالوا : إذا استقرأتَ تاريخ الناس ، أصحاب الأنفس القوية في الأخلاق والقيم ؛ قد تجد لهم من الضعف هنات وسَقَطات ؛ ويحاولون أن يعملوا الحسنات كي تُذهب عنهم السيئات ؛ لأن بالَ الواحد منهم مشغولٌ بضعفه الذي يُلهبه ؛ فيندفع لفعل الخيرات .

وبعد أن اعترفتْ امرأة العزيز بما فعلت ؛ قالت :

﴿ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ۝٥٢ ﴾ [يوسف]

أي : أنها أقرَّتْ بأنه سبحانه وتعالى لا يُنفِذ كيد الخائنين ، ولا يُوصِّله إلى غايته .

وتواصل امرأة العزيز فتقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٥٣ ﴾

هذا القول من تمام كلام امرأة العزيز ؛ وكأنها توضح سبب حضورها لهذا المجلس ؛ فهي لم تحضر لتبرىء نفسها :

﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ .. ۝٥٣ ﴾ [يوسف]

ومجيء قول الحق سبحانه المؤكِّد أن النفس على إطلاقها أمَّارة بالسوء ؛ يجعلنا نقول : إن يوسف أيضاً نفس بشرية .

وقد قال بعض العلماء[1] : إن هذا القول من كلام يوسف ، كردٍّ عليها حين قالت :

﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٥١) ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢) ﴾ [يوسف]

وكان من المناسب أن يرد يوسف عليه السلام بالقول :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّي .. (٥٣) ﴾ [يوسف]

ويمكن أن يُنسب هذا القول إلى يوسف كلَوْنٍ من الحرص على ألاَّ يلمسه غرور الإيمان ، فهو كرسول من الله يعلم أن الله سبحانه هو الذى صرف كيدهُنَّ عنه .

وهذا لَوْن من رحمة الله به ؛ فهو كبشر مُجرّد عن العصمة والمنهج من الممكن أن تحدث له الغواية ؛ لكن الحق سبحانه عصمه من الزَّلَل .

ومن لُطْف الله أن قال عن النفس : إنها أمَّارة بالسوء ؛ وفى هذا توضيح كاف لطبيعة عمل النفس ؛ فهى ليستْ آمرةً بالسوء ، بمعنى أنها تأمر الإنسان لتقع منه المعصية مرة واحدة وينتهى الأمر .

لا ، بل انتبه أيها الإنسان إلى حقيقة عمل النفس ، فهى دائماً أمَّارة بالسوء ، وأنت تعلم أن التكليفات الإلهية كلها إمَّا أوامر أو نَوَاهٍ ،

---

(١) قاله ابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم . والقول الأشهر والأليق بسياق القصة ومعانى الكلام أنه من قول امرأة العزيز ، لأن سياق الكلام كله من كلامها بحضرة الملك ، ولم يكن يوسف عليه السلام عندهم ، بل بعد ذلك أحضره الملك . [انظر : تفسير ابن كثير ٤٨١/٢ بتصرف] .

وقد تستقبل الأوامر كتكليف يشقُّ على نفسك ، وأنت تعلم أن النواهى تمنعك من أفعال قد تكون مرغوبة لك ، لأنها فى ظاهرها ممتعة ، وتلبى نداء غرائز الإنسان .

ولذلك يقول المصطفى ﷺ :

« حُفَّتْ الجنة بالمكاره ، وحُفَّتْ النار بالشهوات »[(١)] .

أى : أن المعاصى قد تُغريك ، ولكن العاقل هو من يملك زمام نفسه ، ويُقدِّر العواقب البعيدة ، ولا ينظر إلى اللذة العارضة الوقتية ؛ إلا إذا نظر معها إلى الغاية التى تُوصِّله إليها تلك اللذة ؛ لأن شيئاً قد تستلِذُّ به لحظة قد تَشْقى به زمناً طويلاً .

ولذلك قلنا : إن الذى يُسرف على نفسه غافل عن ثواب الطاعة وعن عذاب العقوبة ، ولو استحضر الثواب على الطاعة ، والعذاب على المعصية ؛ لامتنع عن الإسراف على نفسه .

ولذلك يقول النبى ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[(٢)] .

إذن : فلحظة ارتكاب المعصية نجد الإنسان وهو يستر إيمانه ؛ ولا يضع فى باله أنه قد يموت قبل أن يتوبَ عن معصيته ، أو قبل أن يُكفِّر عنها .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس رضى الله عنه .

(٢) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) ، ومسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ويخطىء الإنسان فى حساب عمره ؛ لأن أحداً لا يعلم ميعاد أجله؛ أو الوقت الذى يفصل بينه وبين حساب المولَى - عَزَّ وجَلَّ - له على المعاصى .

وكل مِنَّا مُطَالب بأن يضع فى حُسْبانه حديث الرسول ﷺ :

« الموت القيامة ، فمَنْ مات فقد قامت قيامته »[1] .

ولنا أسوة طيبة فى عثمان بن عفان - رضى الله عنه - وهو الخليفة الثالث لرسول الله ﷺ ، الذى كان إذا وقف على قبر بكى حتى تبتلَّ لحيته ، فسُئِل عن ذلك ؛ وقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكى ، وتبكى إذا وقفتَ على قبر ؟ فقال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن القبر أول منازل الآخرة ، فإنْ نجا منه صاحبه فما بعده أيسر منه ، وإن لم يَنْجُ منه ، فما بعده أشد »[2] .

لذلك فلا يستبعد أحد ميعاد لقائه بالموت .

وتستمر الآية : ﴿ إِلاَّ مَا رَحِمَ رَبِّى إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٣) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن هناك ما يشفى من الداء ، وهناك ما يُحصِّن الإنسان ، ويعطيه مناعة أن يصيبه الداء ، والحق سبحانه غفور ، بمعنى أنه يغفر الذنوب ، ويمحوها ، والحق سبحانه رحيم ، بمعنى أنه يمنح الإنسان مناعة ، فلا يصيبه الداء ، فلا يقع فى زلة أخرى .

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غِنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم » الحديث .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (١/٦٣) ، وابن ماجه فى سننه (٤٢٦٧) ، والترمذى فى سننه (٢٣٠٨) وقال : « حديث حسن غريب » من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

فساعةَ تسمع القرآن فهو يشفيك من الداء الذى تعانى منه نفسياً ويُقوِّى قدرتك على مقاومة الداء ؛ ويُفجِّر طاقات الشفاء الكامنة فى أعماقك.

وهو رحمة لك حين تتخذه منهجاً ، وتُطبِّقه فى حياتك ؛ فيمنحك مناعة تحميك من المرض ، فهو طبٌ علاجىٌ وطبٌ وقائىٌ فى آنٍ واحد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ[1] أَمِينٌ (٥٤) ﴾

ونلحظ أن الملك قد قال : ﴿ ائْتُونِي بِهِ (٥٤) ﴾ [يوسف]

مرتين[2] ، مرة : بعد أن سمع تأويل الرؤيا ؛ لكن يوسف رفض الخروج من السجن إلا بعد أن تثبت براءته ؛ أو : أنه خرج وحضر المواجهة مع النسوة بما فيهنّ امرأة العزيز .

ورأى الملك فى يوسف أخلاقاً رفيعة ؛ وسعَةَ عِلْم .

وانتهى اللقاء الأول ليتدبر الملك ، ويُفكر فى صفات هذا الرجل ؛

---

(١) مكُنَ مكانة فهو مكين : ثبت واستقر فهو ثابت مستقر . قال تعالى : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف] أى : عظيم عندنا ثابت المنزلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٢] .

(٢) المرة الأولى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ (٥٠) ﴾ [يوسف] والمرة الثانية فى قوله تعالى هنا : ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف].

والراحة النفسية التى ملأتْ نفس الملك ؛ وكيف دخل هذا الرجل قلبه .

والمرة الثانية عندما أراد الملك أن يستخلصه لنفسه ويجعله مستشاراً له .

ويورد الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله :

﴿ ائْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهذا الاستخلاص قد جاء بعد أن تكلم الملك مع يوسف ، وبعد أن استشفَّ خفَّة يوسف على نفسه ؛ وتيقَّن الملك من بعد الحوار مع يوسف أنه رجل قد حفظ نفسه من أعنف الغرائز ؛ غريزة الجنس .

وتيقن من أن يوسف تقبَّل السجن ، وعاش فيه لفترة طالتْ ؛ وهو صاحب علْم ، وقد ثبت ذلك بتأويل الرُّؤيا ؛ وقد فعل ذلك وهو سجين، ولَم يقبل الخروج من السجن إلا لإثبات براءته ، أو بعد إثبات البراءة .

ولكلٍّ ذلك صار من أهل الثقة عند الملك ، الذى أعلن الأمر بقوله :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ ﴾ [يوسف]

وذلك ليسُدَّ باب الوشاية به ، أو التآمر عليه . ومكانة « المكين » هى المكانة التى لا ينالَ منها أىُّ أحد .

ولذلك نجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ حينما تكلَّم عن الوحى من جبريل عليه السلام قال :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [التكوير]

فالمعنى : أن يوسف عليه السلام أهْلٌ للثقة عند الحاكم ؛ وهو الذى سينُفذ الأمور ، وله صلة بالمحكومين ، وإذا كان هو المُمكَّن من عند الحاكم ؛ فهو أيضاً أمين مع المحكومين .

والمشكلة فى مجتمعاتنا المعاصرة إنما تحدث عندما يُرجِّح الحاكمُ مَنْ يراهم أهلَ الثقة على أهل الخبرة والأمانة ، فتختل موازين العدل .

وعلى الحاكم الذكىِّ أن يختار الذين يتمتعون بالأمرين معاً : أمانة على المحكوم ؛ وثقة عند الحاكم . وبهذا تعتدل الحياة على منهج الله .

وحين سمع يوسف عليه السلام هذا الكلام من الحاكم :

﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ (٥٤) ﴾ [يوسف]

قرر أن يطلب منه شيئاً يتعلق بتعبيره لرُؤْياه ، التى سبق أن أوَّلها يوسف :

﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا[1] فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (٤٩) ﴾ [يوسف]

وهذه عملية اقتصادية تحتاج إلى تخطيط وتطبيق ومتابعة وحُسْن تدبير وحزم وعِلْم .

لذلك كان مطلب يوسف عليه السلام فيه تأكيد على أن الواقع القادم سيأتى وفقاً لتأويله للرؤيا ، فتقول الآيات :

﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ[2] الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) ﴾

---

(١) داب فى عمله دأبا ودأبا : جَدَّ فيه ولازمه من غير فتور . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب. [القاموس القويم ١/٢١٩] بتصرف .

(٢) الخزائن : جمع خزانة ، وهى المكان الذى تحفظ فيه الأشياء النافعة . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٨٢) : « هى الأهرام التى يجمع فيها الغلات لما يستقبلونه من السنين التى أخبرهم بشأنها فيتصرف لهم على الوجه الأحوط والأصلح والأرشد » .

وهذا القول تأكيد لثقة يوسف أن القادم فى هذا البلد يحتاج لحكمة إدارة ، لا تبعثر ما سوف يأتى فى سنين الخصب ؛ لتضمن الاطمئنان فى سنين الشدة ، وتلك مهمة تتطلب الحفظ والعلم .

وقد تقدم ما يثبت أن هاتين الصفتين يتحلَّى بهما يوسف عليه السلام.

وقد يقول قائل : أليس فى قول يوسف شبهة طلب الولاية ؟ والقاعدة[(١)] تقول : إن طالب الولاية لا يولَّى .

فيوسف عليه السلام لم يطلب ولاية ، وإنما طلب الإصلاح ليتخذ من إصلاحه سبيلاً لدعوته وتحقيقاً لرسالته ، حيث أنه كان آمراً فيستجاب ، ولم يكن مأموراً للإيجاب حيث أنه كان واثقاً بالإيمان ومؤمناً بوثوق .

وقد تأتى ظروف لا تحتمل التجربة مع الناس ، فمَنْ يثق بنفسه أنه قادر على القيام بالمهمة فله أن يعرض نفسه .

ومثال ذلك : لنفترض أن قوماً قد ركبوا سفينة ؛ ثم هاجتْ الرياح وهبَّتْ العاصفة ؛ وتعقَّدت الأمور ؛ وارتبك القبطان ، وجاءه مَنْ يخبره أنه قادر على أن يحل له هذا الأمر ، ويُحسن إدارة قيادة المركب ، وسبق للقبطان أن علم عنه ذلك .

هنا يجب على القبطان أن يسمح لهذا الخبير بقيادة السفينة ؛ وبعد أن ينتهى الموقف الصعب ؛ على القبطان أن يُوجِّه الشكر لهذا الخبير ؛ ويعود لقيادة سفينته .

إذن : فمن حقِّ الإنسان أن يطلب الولاية إذا تعيَّن عليه ذلك ، بأن يرى أمراً يتعرض له غير ذى خبرة يُفسد هذا الأمر ، وهو يعلم وَجْه الصلاح فيه . وهنا يكون التدخل فرض عين من أجل إنقاذ المجتمع .

---

(١) دليل هذه القاعدة ما أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٣٣) عن أبى موسى الأشعرى أن رسول الله ﷺ قال : « إنا والله لا نولى على هذا العمل أحداً سأله . ولا أحداً حرص عليه » .

وفى مثل هذه الحالة نجد مَنْ طلب الولاية وهو يملك شجاعتين :

الشجاعة الأولى : أنه طلب الولاية لنفسه ؛ لثقته فى إنجاح المهمة.

والشجاعة الثانية : أنه حجب من ليس له خبرة أن يتولى منصباً لا يعلم إدارته ، وبهذا يصير الباطل متصرفاً .

وبذلك يُظهر وَجْه الحق ؛ ويُزيل سيطرة الباطل .

ولذلك نجد يوسف عليه السلام يقول للملك :

﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ ﴾ [يوسف]

والخزائن يوجد فيها ما يُمكِّن المسيطر عليها من قيادة الاقتصاد.

وقالوا : إن يوسف طلب من الملك أن يجعله على خزائن الأرض ، لوضع سياسة اقتصادية يواجهون بها سبع سنين من الجَدْب ، وتلك مسألة تتطلب حكمة وحفْظاً وعلْماً .

وكان يوسف عليه السلام يأخذ من كل راغب فى المَيْرة الأثمان من ذهب وفضة ، ومَنْ لا يملك ذهباً وفضة كان يُحضر الجواهر من الأحجار الكريمة ؛ أو يأتى بالدواب ليأخذ مقابلها طعاماً .

ومَنْ لا يملك كان يُحضر بعضاً من أبنائه للاسترقاق ، أى : يقول رَبُّ الأسرة الفقير : خُذْ هذا الولد ليكون عبداً لقاء أن آخذ طعاماً لبقية أفراد الأسرة .

وكان يوسف عليه السلام يُحسن إدارة الأمر فى سنوات الجَدْب ليشُد كل إنسان الحزام على البطن ، فلا يأكل الواحد فى سبعة أمعاء بل يأكل فى معًى واحد ، كما يقول رسولنا ﷺ فى الحديث الشريف : « المؤمن يأكل فى معًى واحد ، والكافر يأكل فى سبعة أمعاء »[1] .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٠٦٠) (١٨٤) كتاب الأشربة ، من حديث جابر وابن عمر رضى الله عنهما .

وكان التموين فى سنوات الجَدْب يقتضى دقَّة التخطيط ، ولا يحتمل أىَّ إسراف .

وما دام لكل شىء ثمن يجب أن يُدفع ، فكل إنسان سيأخذ على قَدْر ما معه ، وبعد أن انتهت سنوات الجَدْب ، وجاءت سنوات الرخاء ؛ أعاد يوسف لكل إنسان ما أخذه منه .

وحين سُئِل : ولماذا أخذتَ منهم ما دُمْتَ قد قررت أن تردَّ لهم ما أخذته ؟

أجاب : كى يأخذ كل إنسان فى أقلِّ الحدود التى تكفيه فى سنوات الجدب .

ومثل هذا يحدث عندنا حين نجد البعض ، وهو يشترى الخبز المُدعَّم ليُطعِم به الماشية ، وحين يرتفع ثمن الخبز نجد كل إنسان يشترى فى حدود ما معه من نقود ، ويحرص على ألاَّ يُلقِى مما اشترى شيئاً .

وكانت قدرة الدولة أيام الجفاف محدودة ؛ لذلك وجب على كل فرد أن يعمل لنفسه .

ونحن نرى ذلك الأمر ، وهو يتكرر فى حياتنا ؛ فحين لا يجد أحد ثمن اللحم فقد لا تهفو نفسه إلى اللحم ، وقد يعلن فى كبرياء : « إن معدتى لم تَعُدْ تتحمل اللحم ».

وقد يعلن الفقير حُبَّه للسمك الصغير ؛ لأن لحمه طيِّب ، عكس السمك الكبير الذى يكون لحمه « متفِّلاً » ، أو يعلن إعجابه بالفجل الطازج ، لأنه لذيذ الطعم .

وقديماً فى بدايات العمر كنا حين ندخل إلى المنزل ، ونحن نعيش بعيداً عن بيوت الأهل فى سنوات الدراسة ، ولا نجد إلا قرصاً واحداً من « الطعمية » ، كنا نقسم هذا القرص ليكفى آخر لقمة فى الرغيف ،

أما إذا دخلنا ووجدنا خمسة أقراص من الطعمية ، فكان الواحد منا يأكل نصف قرص من الطعمية مع لقمة واحدة .

وهكذا يتحمل كل واحد على قَدْر حركته وقدرته .

والشاعر يقول :

والنفسُ راغبةٌ إذَا رغَّبتَها ... وإذَا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا[1] حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾

وهكذا كان تمكين الله ليوسف عليه السلام فى الأرض ، بحيث أدار شئون مصر بصورة حازمة ؛ عادلة ؛ فلما جاء الجدب ؛ لم يَأتِهَا وحدها ؛ بل عَمَّ البلاد التى حولها .

بدليل أن هناك أُنَاساً من بلاد أخرى لجئوا يطلبون رزقهم منها ؛ والمثل : إخوة يوسف الذين جاءوا من الشام يطلبون طعاماً لهم ولمن ينتظرهم فى بلادهم ، فهذا دليل على أن رُقْعة الشدة كانت شاسعة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. ٥٦ ﴾ [يوسف]

---

(١) يتبوأ منها حيث يشاء : أى ينزل فى أى مكان يريده من أرض مصر ، وهذا كناية عن اتساع جاهه . [القاموس القويم ١/٨٨] .

نفهم منه أنه جعل لنفسه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ ولا يَظُنَنَّ ظَانٌّ أن هذا لَوْنٌ من اتساع أماكن التَّرَف .

لكن : لماذا لا ننظر إليها بعيون تكشف حقيقة رجال الإدارة فى بعض البلاد ؛ فما أنْ يعلموا بوجود بيت للحاكم فى منطقة ما ؛ وقد يزوره ؛ فهم يعتنون بكل المنطقة التى يقع فيها هذا البيت .

وهذا ما نراه في حياتنا المعاصرة ، فحين يزور الحاكم منطقة ما فَهُمْ يُعيدون رَصْف الشوارع ؛ ويصلحون المرافق ؛ وقد يُحضِرون أُصَص الزرع ليُجمِّلوا المكان .

فما بَالُك إنْ علموا بوجود بيت للحاكم فى مكان ما ؟ لا بُدَّ أنهم سيُوالون العناية بكلِ التفاصيل المتعلقة بالمرافق فى هذا الموقع .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا عن يوسف عليه السلام :

﴿ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

يعنى : شُيوع العناية بالخدمات لكل الذين يسكنون فى هذا البلد ؛ فلا تأخذ الأمر على أنه تَرَف وشَرَف ، بل خُذْ هذا القول على أنه تكليف سينتفع به المُحيطون ، سواء كانوا مقصودين به أو غير مقصودين .

وتلك لقطة توضح أن التبُّوء حيث يشاء ليس رحمةً به فقط ؛ ولكنه رحمةٌ بالناس أيضاً .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ .. (٥٦) ﴾ [يوسف]

فَمَنْ كان يحيا بلا مياه صالحة للشرب ستصله المياه النقية ؛ ومَنْ كان يشقى من أجل أن يعيش فى مكان مُريح ستتحول المنطقة التى

يسكن فيها إلى مكان مُريح به كل مُستلزمات العصر الذى يحيا فيه .

فيوسف المُمكّن فى الأرض له مسكن مـجاور له ؛ وسيجد العناية من قبَل الجهـاز الإدارى حيثمـا ذهب ، وتغمر العناية الجمـيع ، رحمة من الله له ، وللناس من حوله .

ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [يوسف]

والمُحْسِن هو الذى يصنع شيئاً فوق ما طُلب منه .

وهنا سنجد الإحسـان يُنسب ليوسف ؛ لأنه حين أقام لنفسـه بيتاً فى أكثر من مكان ؛ فـقد أحسن إلى أهل الأمكنة التى له فيـها بيوت ؛ بارتفاع مستوى الخدمة فى المرافق وغيرها .

وسبحانه يجازى المحسنين بكمال وتمام الأجر ، وقد كافأ يوسف عليه السلام بالتمكين مع محبة من تولّى أمرهم .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

ويوضح ـ هنا ـ سبحانه أنه لا يجزى المحسنين فى الدنيا فقط ؛ ولكن يجـازيهم بخيـر أبقى فى الآخرة . وكلمـة « خيـر » تستـعمل استعمالين :

الأول : هو أن شيئاً خير من شـىء آخر ؛ أى : أنهما شركاء فى الخير ، وهو المعنى المقصود هنا ، والمثال : هو قول الرسول ﷺ :

« المؤمن القـوىُّ خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضـعيف ، وفى كُلٍّ خـير . احـرص على ما ينفـعك ، واستـعنْ بالله ولا تعجـز ، وإنْ أصابك شىء فـلا تَقُلْ : لو أنِّى فعلتُ كذا وكَـذا ، ولكن قُلْ : قدَّر الله وما شاء فعل ؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان »[1] .

والاستـعمـال **الثانى** لكلمـة « خيـر » : هو خيـر مقابلـه شرّ ، والمثال : هو قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ **فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ[2] ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ۝ ٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ۝ ٨** ﴾ [الزلزلة]

والحق سبـحانه يريد أن يعتـدل ميزان حركـة الحياة ، لن يعـتدل ميزان حركة الحياة بأن نقول للإنسان على إطلاقه : سوف تأخذ أجر عملك الطيب فى الآخرة ؛ لأن المؤمن وحده هو الذى سيصدق ذلك .

أما الكافـر فقد يظلم ويسفك الدمـاء ، ويسرق ويستشـرى الفساد فى الأرض .

ولذلك شـاء الحق سبـحانه أن يـجعل الجـزاءَ نوعين : جـزاء فى الدنيا لـمَنْ يُحسن ، سواء أكـان مؤمناً أو كـافراً ؛ وجـزاءً فى الآخرة يختصُّ به الحقُّ سبحانه المؤمنين به .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ **وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ۝ ٥٧** ﴾ [يوسف]

أى : أنه أكثر خيراً من جزاء الدنيا ؛ لأن جزاء الآخرة يدوم أبداً ،

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل فى مسنده (٢ / ٣٦٦ ، ٣٧٠) ، ومسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) وابن ماجه فى سننه (٧٩) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) المثقال : وزن مـعلوم قَدْره . ويقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ .. ۝ ٤٠ ﴾ [النساء] . أى : مقدار وزن ذرة لا يظلم شيئاً صغر أو كبر . [القاموس القويم ١/ ١٠٩] .

على عكس خـيـر الدنيـا الذى قد تفـوتُه أو يفـوتُك ، بحُكْم أن الدنيـا موقـوتة بالنسبـة لك بعمرك فـيها ؛ ولكن الآخـرة لها الدَّيْمـومة التى شاءها الله سبحانه .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك عن إخوة يوسف :

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

وقد عرفهم يوسف ؛ لكنهم لم يعرفوه ، فقد ألقَوْهُ فى الجُبِّ صغيراً؛ ومرَّتْ رحلته فى الحياة بعد أن عثـر عليه بعض السَّيارة ؛ وباعوه لعزيز مصر ، لتـمر به الأحداث المتـتابعة بما فـيها من نُضْج جـسدى وحُسْن فائق ، ومُراودة من امرأة العزيز ، ثم سنوات السجن السبع .

ولكل حدث من تلك الأحداث أثر على مـلامح الإنسان ؛ فضلاً عن أنهم جاءوه وهو فى منصبه العالى ، بمـا يفرضه عليه من وجاهة فى الهيئة والملبس .

أمـا هو فقـد عـرفهـم ؛ لأنه قد تركـهم وهم كـبـار ، قد تحـددت ملامـحهم ، ونعلم أن الإنســان حين يمـرُّ عليه عقْـد من الزمان ؛ فـهذا الزمن قد يزيد من تحـديد ملامحـه ، إذا ما كانَ كـبيراً ناضــجاً ، لكنه لا يغيرها مثلما يُغيِّر الزمنُ ملامحَ الطفل حين يكبر ويصل إلى النضـج .

والذى دفـعهم إلى المـجىء هو القـحط الذى لم يُؤثِّر على مصــر وحدها ؛ بل أثَّر أيضاً على المناطق المجاورة لها .

وذاع أمر يوسف عـليه السلام الذى اخـتزن الأقـوات تحسُّـباً لذلك القحط ؛ وقد أرسلهم أبوهم ليطلبوا منه المَيْرة[1] والطعام ، ولم يتخيَّلوا

---

(١) الميـرة : الطعام يمـتاره الإنسان أى يجلبـه . مار أهله : جلب إليـهم الطعام . قـال تعالى : ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا.. ﴿٦٥﴾ ﴾ [يوسـف] . [القاموس القويم : ٢/٢٤٦] .

بأىِّ حال أن يكون مَنْ أمامهم هو أخوهم الذى ألقوْه فى الجُبِّ .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ[1] قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾

ولا بُدَّ أنه قد تكلم معهم عن أحوالهم ، وتركهم يَحْكُونَ له عن أبيهم وأخيهم ، وأنهم قد طلبوا المَيْرة ؛ وأمر بتجهيزها لهم[2] .

وكلمة « الجهاز » تُطلق هنا على ما تسبَّب فى انتقالهم من موطنهم إلى لقاء يوسف طلباً للميرة .

وطلب منهم ـ من بعد ذلك ـ أن يأتوا بأخيهم « بنيامين » معهم ، وقال لهم :

﴿ أَلا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ[3] ﴿٥٩﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) جهاز العروس والمسافر والجيش : هو ما يحتاجون إليه وما يلزمهم فى قصدهم. والمعنى هنا أنه أوفى لهم الكيل وأعطاهم الطعام الذى جاءوا من أجله . [راجع تفسير ابن كثير ٢//٤٨٣ ، والقاموس القويم ١/١٣٤] .

(٢) «ذكر السدى وغيره أن يوسف عليه السلام شرع يخاطبهم فقال لهم كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادى ؟ فقالوا : أيها العزيز إنَّا قدمنا للميرة . قال : فلعلكم عيون ؟ قالوا : معاذ الله. قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبى الله . قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثنى عشر فذهب أصغرنا هلك فى البرية ، وكان أحبنا إلى أبينا، وبقى شقيقه ، فاحتبسه أبوه ليتسلى به عنه، فأمر بإنزالهم وإكرامهم » [تفسير ابن كثير ٤٨٣/٢] .

(٣) النزول : الحلول بالمكان. والنُّزْل والنُّزُل : ما هُيئ للضيف إذا نزل عليه . [لسان العرب ـ مادة : نزل] .

وفى هذا تذكير لهم بأنه يُوفى الكيل تماماً ، وفيما يبدو أنهم طلبوا منه زيادة فى المَيْرة ؛ بدعوى أن لهم أخاً تركوه مع أبيهم الشيخ العجوز ، فطلب منهم يوسف أن يُحضروا أخاهم كى يزيد لهم كيلاً إضافياً ؛ لأنه لا يحب أن يعطى أحداً دون دليل واضح ؛ التزاماً منه بالعدل .

وكان كل منهم قد أتى على بعير ، عليه بضائع يدفعونها كأثمان لمَا يأخذونه ، وحين يحضرون ومعهم أخوهم سيأخذون كَيْل بعير فَوق ما أخذوه هذه المرَّة .

وهم قد قالوا لأبيهم هذا القول ، حينما سألوه عن إرسال أخيهم معهم لمصاحبتهم فى الرحلة حسب طلب يوسف عليه السلام ؛ لذلك تقول الآية :

﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٥٩) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه يرحب بالضيوف ؛ وقد لمسوا ذلك بحُسْن المكان الذى نزلوا فيه . بما فيه من راحة وطيب الاستقبال ، ووجود كل ما يحتاجه الضيف فى إقامته .

وكلمة « مُنْزِل » فى ظاهر الأمر أنها ضدّ مُعْلِى ، وحقيقة المعنى هو : مُنزِل مِنَ الذى ينزل بالمكان الموجود به كل مطلوبات حياته .

والحق سبحانه يقول عن الجنة :

﴿ نُزُلاً[1] مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

---

(١) النزل : المنزل ، وما يُعدُّ لينزل فيه الضيف . قال تعالى : ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ .. (١٩٨) ﴾ [آل عمران] [القاموس القويم ٢ / ٢٦٠] .

أى : أنه سبحانه قد أعدَّ الجنة بما يفوق خيال البشر ؛ وبمُطْلق صفات المغفرة والرحمة ، وإذا كان المَوْلى عَزَّ وجَلَّ هو الذى يعدّ ؛ فلا بُدَّ أن يكون ما أعدَّه فوق خيال البشر .

وقلت لإخوانى الذين بُهروا بفندق رَاق فى سان فرانسيسكو : إن الإنسان حين يرى أمراً طيباً ، أو شيئاً رَاقِياً ، أو جميلاً عند إنسان آخر سيستقبلها بواحد من استقبالين ؛ تظهر نَفسه فيه ؛ فإن كان حَقُوداً فسينظر للأشياء بكراهية وبحقد ، وإنْ كان مؤمناً يفرح ويقول :

هذه النعمة التى أراها تزيد من عشْقى فى الجنة ؛ لأن تلك النعمة التى أراها قد صنعها بشر لبشر ؛ فَماذا عن صُنْع الله للجنة ؟ وهو مَنْ خلق الكون كله بما فيه من بشر ؟

ودائماً أقول : ما رأيتُ نعيماً عند أحد إلا ازداد إيمانى ، بأن الذى أراه من نعمة قد أعدَّه البشر للبشر ؛ فما بالنا بما أعدَّه خالق البشر للمؤمنين من البشر ؟

أما مَنْ ينظر نظرةَ حقْد إلى النعمة عند الغير ؛ فهو يحرم نفسه من صَبابة[1] النعمة عند الغير ؛ لأن النعمة لها صَبابة عند صاحبها ، وتتعلق به ، وإن فرحتَ بالنعمة عند إنسان ؛ فثقْ أن النعمة ستطرق بابك ، وإن كرهتها عند غيرك ؛ كرهتْ النعمة أن تأتى إليك .

فإنْ أردتَ الخير الذى عند غيرك ؛ عليك أن تحب النعمة التى عند هذا الغير ؛ لتسعى النعمة إليك ؛ دون أن تتكلف عبء إدارة هذه النعمة أو صيانتها ؛ لأنها ستأتى إليك بقدرة الحق سبحانه .

وقَوْل يوسف عليه السلام فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الصبابة : الشوق . صببتُ إلى الشىء صبابة ، فأنا صَبٌّ ، أى : عاشق مشتاق . [لسان العرب ـ مادة : صبب] .

﴿ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ۝٥٩ ﴾ [يوسف]

هو إخبار منه يؤكد ما استقبلهم به من عدل ، وتوفية للكيل ، وحُسْن الضيافة ، ولا شك أنهم حين يُحضِرون أخاهم سيجدون نفس الاستقبال .

ويواصل الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ ﴾

ويوسف يعلم مُقدَّماً صعوبة أن يأمنهم أبوهم على أخيهم ؛ لذلك وجَّه إليهم هذا الإنذار :

﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي .. ۝٦٠ ﴾ [يوسف]

قال لهم ذلك ، وهو يعلم أن المَعَاد مَعَادُ[1] قَحْط وجَدْب ومجاعة .

وأضاف يوسف :

﴿ وَلا تَقْرَبُونِ ۝٦٠ ﴾ [يوسف]

أى : لا تأتوا ناحية هذا البلد الذى أحكمه ؛ ولذلك سنجدهم يقولون لأبيهم من بعد ذلك :

﴿ يَـٰأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٦٣ ﴾ [يوسف]

وتلقَّوْا الإنذار من يوسف ، وقالوا ما أورده القرآن هنا :

---

(١) المعاد : المرجع والمصير. أى : أن مرجعهم إلى بلاد ذات جدب وقحط وهى الموطن الذى جاءوا منه . والمعاد والمعادة : المأتم يُعاد إليه . [لسان العرب ـ مادة : عود] .

﴿ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴾

وقولهم : ﴿ سَنُرَاوِدُ[١] عَنْهُ أَبَاهُ.. (٦١) ﴾ [يوسف]

يعنى : أن الأمر ليس سهلاً ؛ وهم يعرفون ماذا فعلوا من قبل مع يوسف ، والمُرَاودة تعنى أَخْذ وردّ ، وتحتاج إلى احتيال ؛ وسبق المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ (٢٣) ﴾ [يوسف]

وأكّدوا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ (٦١) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سيبذلون كُلَّ جهودهم ؛ كى يقبل والدهم إرسالَ أخيهم معهم ، وهم يعلمون أن هذا مطلبٌ صَعْب المَنال ، عسير التحقيق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ[٢] لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا[٣] إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٦٢) ﴾

(١) أى : سنحرص على مجيئه إليك بكل ممكن ولا نبقى مجهوداً لتعلم صدقنا فيما قلنا . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٤٨٣] .

(٢) الرحال : جمع رَحْل . وهو ما يُوضع على البعير للركوب عليه ، ويطلق على ما يحمله المسافر من أمتعة . [القاموس القويم ١/٢٥٩] .

(٣) انقلب : رجع وتحوّل إلى وضعه الأول ، أو إلى وضع آخر . قال تعالى: ﴿ قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) ﴾ [الأعراف] . أى : راجعون إليه . [القاموس القويم ٢/١٢٩] . بتصرف .

أى : أن يوسف عليه السلام أمر مساعديه أنْ يُعيدوا البضائع التى أحضرها هؤلاء معهم ليقايضوا[١] بها ما أخذوه من قمح وطعام ، وكان على مساعدى يوسف عليه السلام أن يُنفِّذوا أمره بوضع هذه البضائع بشكل مُسْتتر فى الرِّحال التى أَتَوْا عليها ، وفى هذا تشجيع لهم كى يعودوا مرة أخرى[٢] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

وكان قولهم هذا هو أول خبر قالوه لأبيهم ، فور عودتهم ومعهم المَيْرة ، وكأنهم أرادوا أن يُوضِّحوا للأب أنهم مُنِعوا مستقبلاً من أنْ يذهبوا إلى مصر ، ما لم يكن معهم أخوهم .

وحكَوْا لأبيهم قصتهم مع عزيز مصر ، وإن وافق الأب على إرسال أخيهم « بنيامين » معهم ؛ فلسوف يكتالون ، ولسوف يحفظون أخاهم الصغير .

---

(١) قايضه مقايضة : إذا أعطاه سلعة وأخذ عوضها سلعة . والقَيْض : العِوَض . [لسان العرب ـ مادة : قيض] .

(٢)ذكر ابن كثير فى هذا أقوالاً منها : أن يوسف خشى أن لا يكون عندهم بضاعة أخرى يرجعون للميرة بها. وقيل : تذمَّم أن يأخذ من أبيه وإخوته عوضاً عن الطعام. [راجع تفسير ابن كثير ٢/٤٨٣] .

وهم فى قـولهم هذا يحـاولون أن يُبـعِدوا رِيبـةَ الأب عَـمًّا حـدث ليوسف من قبل .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما قاله أبوهم يعقوب عليه السلام :

﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾

وهنا يُذكِّـرهـم أبوهـم بأنهـم لم يُقـدِّمـوا من قبل مـا يُطمـئنه على ذلك ؛ فقد أضاعوا أخاهم يوسف وقالوا : إن الذئب قد أكله .

وأضاف : ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

وهو قَوْل نتنسَّم فيه أنه قد وافق على ذهاب بنيامين معِهم ، وأنه يدعو الحق ليحفظ ابنه .

وبدأ أبناء يعقوب فى فتح متاعهم بعد الرحلة ، وبعد الحوار مع أبيهم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى(١) هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ ﴾

---

(١) بغى : كذب وظلم . وبغى الشىء : طلبه . قال القـرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٥٩) : «المعنى : أى شىء نطلب وراء هذا ؟ وُفِّى لنا الكيل ، ورُدّ علينا الثمن ، أرادوا بذلك أن يطيبوا نفس أبيهم ».

وهكذا اكتشفوا أن بضائعهم التى حملوها معهم فى رحلتهم إلى مصر ليقايضوا بها ويدفعوها ثمناً لمَا أرادوا الحصول عليه من طعام ومَيْرة قد رُدَّتْ إليهم ؛ وأعلنوا لأبيهم أنهم لا يرغبون أكثر من ذلك ؛ فهم قد حصلوا على المَيْرة التى يتغذَّوْنَ بها هم وأهاليهم .

ولا بد أن يصحبوا أخاهم فى المرة القادمة ، ولسوف يحفظونه ، ولسوف يعودون ومعهم كيْل زائد فوق بعير ، وهذا أمر هَيِّن على عزيز مصر .

ولكن والدهم يعقوب عليه السلام قال ما أورده الحق سبحانه هنا :

﴿ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا[1] مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ[2] فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ ﴾

ونلحظ هنا رِقَّة قلب يعقوب وقُرْب موافقته على إرسال ابنه « بنيامين » معهم إلى مصر ، هذه الرِّقَّة التى بَدَتْ من قبل فى قوله :

﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [يوسف]

وطلب منهم أن يحلفوا بيمين مُوثقة أن يعودوا من رحلتهم إلى

---

(١) الميثاق والموثق : العهد المؤكَّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة] . أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/ ٣١٩] .

(٢) الإحاطة بالشيء : الإحداق به من جميع جوانبه . وقوله : ﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. ﴿٦٦﴾ ﴾ [يوسف] . أى : إلا أن تُحصروا أو تمنعوا سبيل النجاة . [القاموس القويم ١/ ١٧٨] .

مصر ، ومعهم أخوهم « بنيامين » إذا ما ذهب معهم ؛ ما لم يُحطْ بهم أمـر خارج عن الإرادة البشرية ، كـأن يحاصـرهم أعداء يُضـيِّعـونهم ويُضيِّعون بنيامين معهم ؛ وهذا من احتياط النبوة ؛ لذلك قال :

﴿ إِلاَّ أَن يُحَاطَ بِكُمْ .. (٦٦) ﴾ [يوسف]

وأقسم أبناء يعقوب على ذلك ، وأعطَوْا أباهم اليمين والعهد على رَدِّ بنيامين ، وليكون الله شهيداً عليهم .

قال يعقوب :

﴿ اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه مُطلع ورقيب ، فإن خُنْتم فسبحانه المنتقم .

ويُوصِى يعقوب أولاده الأسباط :

﴿ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدْخُلُواْ مِنْ أَبْوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغْنِي عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾

وقد قال يعقوب عليه السلام ذلك الكلام فى المرة الثانية لذهابهم إلى مصر ، بعد أن علم بحُسْن استقبال يوسف لهم ، وأن بضاعتهم رُدَّتْ إليهم ، وعلم بذلك أنهم صاروا أصحاب حَظْوة عند عزيز مصر .

وساعـةَ ترى إنسـاناً له شـأن ؛ فترقب أن يُعـادى ، لذلك توجَّس يعقوب خِيفة أن يُدبِّر لهم أحد مكيدة ؛ لأنهم أغراب .

ومن هنا أمرهـم أن يدخلوا مصـر من أبواب متفرقة ، وكانت المدن قديمـاً لها أبواب ؛ تُفتح وتـقفل فى مواعـيد محـددة ، وحين يدخلون فُرادى فلن ينتبه أحد أنهم جماعة .

وقـد خـاف يعقـوب على أبنائه مـن الحسـد ، ونعلم أن الحـسـد موجود .

وقد علَّـمنا سبحـانه أن نستـعيـذ به سبـحانه من الحـسد ؛ لأنه سبـحانه قد علِم أزلاً أن الحسـد أمر فوق طاقة دَفْع البـشر له ، وهو القائل :

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ① مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ② وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ③ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ④ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ⑤ ﴾
[الفلق]

وفى أمر الحـسد أنت لا تستطيع أن تستـعيذ بواحد مُـسَاوٍ لك ؛ لأن الحسد يأتى من مجـهول غير مُدْرَك ، فالشـعاع الخارج من العين قد يتأجج بالحـقد على كل ذى نعمة ، وإذا كان عصـرنا ، وهو عصر الارتقـاءات المـادية قـد توصَّل إلى اسـتـخدام الإشـعـاع فى تفـتـيت الأشياء .

إذن : فمن الممكـن أن يكون الحسدُ مثل تلك الإشـعاعات ؛ والتى

قد يجعلها الله فى عيون بعض خلقه ، وتكون النظرة مثل السهم النافذ ، أو الرصاصة الفتاكة.

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلاَّ هُوَ ..(٣١) ﴾ [المدثر]

وإنْ قال قائل : ولماذا يُعطى الحق سبحانه بعضاً من خلقه تلك الخواص ؟

أقول : إنه سبحانه يعطى من الإمكانات لبعض من خلقه ، فيستخدمونها فى غير موضعها ، وكلٌّ إنسان بشكل ما عنده إمكانية النظرة ، ولكن الحقد هو الذى يولد الشرارة المُؤْذية ، ويمكنك أن تنظر دون حسد إنْ قُلْتَ : ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله ، اللهم بارك[1] .

بذلك لا تتحقق الإثارة اللازمة لتأجُّج الشرارة المؤذية ، ويمكنك أن تستعيذ بالله خالق البشر وخالق الأسرار ، وتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ (١) مِن شَرِّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ (٣) وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (٥) ﴾ [الفلق]

وأن تقول كلمات رسول الله ﷺ حين كان يُعوِّذ الحسن والحسين رضى الله عنهما ، ويقول :

---

(١) يقول تعالى :﴿وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (٣٩)﴾ [الكهف]

« أعيـذكما بكلمـات الله التامة من كل شـيطان وهامَّة[١] ، ومن كل عين لامَّة[٢] »[٣] .

وقال ﷺ : « كان أبوكما - إبراهيم - يُعـوِّذ بها إسماعيل وإسحق عليهم السلام » .

كمـا أنه ﷺ : « كان إذا حَـزَبَهُ أمر قـام وصلى »[٤] ، لأن معنى حَزْب أمر للرسول ﷺ ، أو لواحد من أتباع الرسول ﷺ أن هذا الأمر يخرج عن قدرة البشر .

وهنا على الإنســان أن يأوى إلى المُســبِّب ، فهو الركـن الشديد ، بعد أن أخـذتَ أنت بالأسبـاب الممـدودة لك من يد الله ، وبذلك يكون ذهابك إلى الحـق هو ذهاب المُـضطر ؛ لا ذهاب الكـسـول عن الأخـذ بالأسباب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل]

والمضطـر هو من استنفـد كل أسبابه ، ولم يَـدْعُ ربه إلا بعد أن

---

(١) الهامَّة : مفـرد هوام . وهى الحيات والعقارب ، وكل ذى سم يقتل سمُّـه ، وأمَّا ما لا يقتل ويسُمُّ فهو السَّوام . [لسان العرب - مادة : هوم] .

(٢) اللامة : ما تخافه من مسٍّ أو فزع . واللامـة : العين التى تصيب الإنسان . [لسان العرب - مادة لمم] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٧٠)، والترمذى فى سننه (٢٠٦٠)، وأبو داود فى سننه (٤٧٣٧) عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال الترمذى « حديث حسن صحيح » .

(٤) أخرجـه أحمد فى مـسنده (٥/ ٣٨٨) ، وأبو داود فى سننه (١٣١٩) من حديث حـذيفة ابن اليمان .

أخذ بكل الأسباب الممدودة ، فلا تطلب من ذات الله قبل أن تأخذ ما قدمه لك بيده سبحانه من أسباب .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ نجد يعقوب عليه السلام وقد أوصى أبناءه ألاَّ يدخلوا مصر من باب واحد ؛ بل من أبواب متفرقة خشية الحسد ، وتنبهت قضية الإيمان بما يقتضيه من تسليم لمشيئة الله ، فقال :

﴿ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. (٦٧) ﴾ [يوسف]

أى : لست أُغْنى عنكم بحذرى هذا من قدر الله ، فهو مجرد حرص ، أما النفع من ذلك الحرص والتدبير فهو من أمر الله ، ولذلك قال :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧) ﴾
[يوسف]

فكل الخَلْق أمرهم راجع إلى الله ، وعليه يعتمد يعقوب ، وعليه يعتمد كل مؤمن .

ونفَّذَ أبناءُ يعقوب ما أمرهم به أبوهم ، يقول سبحانه :

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦٨) ﴾

أى : ما كان دخولهم من حيث أمرهم أبوهم يردُّ عنهم أمراً أراده سبحانه ، فلا شىء يردُّ قضاء الله ، ولعل أباهم قد أراد أنْ يردَّ عنهم حسد الحاسدين ، أو : أن يُدسَّ لهم أو يتشككوا فيهم ، ولكن أى شىء لن يمنع قضاء الله .

ولذلك قال سبحانه :

﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا[1] .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف]

ويعقوب يعلم أن أىَّ شيء لن يردَّ قدر الله ، وسبحانه لم يُعْطِ الاحتياطات الولائية ليمنع الناس بها قدرَ الله .

ويقول سبحانه هنا عن يعقوب :

﴿ وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه يعرف موقع المُسبِّب وموقع الأسباب ، ويعلم أن الأخذ بالأسباب لا ينافى التوكل على الله ؛ لأنه سبحانه قد خلق الأسباب رحمةً بعباده :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : يعزلون الأسباب عن المُسبِّب ، وهذا ما يُتعِب الدنيا .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

---

(١) قضى حاجته : أدركها ونالها . قال تعالى : ﴿ إِلاَّ حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [يوسف] . أى : أدركها وحصَّلها . [القاموس القويم : ٢/١٢٢] .

﴿ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ[1] إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ[2] بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

أى : أنهم حين دخلوا على يوسف أحسن استقبالهم ؛ وأكرم وفادتهم[3] ؛ بعد أن وَفَّواْ بوعدهم معه ، وأحضروا أخاهم وشقيقه بنيامين معهم ، وكان يوسف عليه السلام مُشْتاقاً لشقيقه بنيامين .

وقد عرفنا من قبل أنه الشقيق الوحيد ليوسف ؛ فهما من أم واحدة ؛ أما بقية الإخوة فهم من أمهات أخريات .

وقول الحق سبحانه عن يوسف :

﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ .. ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن يوسف كان مُتشوِّقاً لرؤية شقيقه .

وقوله :

﴿ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [يوسف]

يوضح لنا أن إخوة يوسف قد استفردوا[4] لفترة ببنيامين ، ولم

---

(١) آواه : ضمه إليه وأسكنه عنده أو أنزله في بيت . والمأوى : اسم مكان . قال تعالى : ﴿فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات] . هى : المنزل والملجأ . [القاموس القويم ١/٤٥] .

(٢) ابتأس الرجل : اكتأب وحزن . [القاموس القويم ١/٥٣] .

(٣) الوفد : : الرُّكبان المكرَّمون . قال الأصمعى : وفد فلان يفد وفادة إذا خرج إلى ملك أو أمير . [لسان العرب ـ مادة وفد] .

(٤) استفرد فلاناً : انفرد به . واستفرد الشىء : أخرجه من بين أصحابه . وأفرده : جعله فرداً . [لسان العرب ـ مادة : فرد] .

يُحْسِنوا معاملته ، وحاول يوسف أن يُسرِّى عن أخيه ، وأن يُزِيل عنه الكَدَر بسبب ما كان إخوته يفعلونه .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ[1] فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

أى : أن يوسف عليه السلام قد قام بصرف المَيْرة لهم ، كما سبق أن وعدهم ، وكما سبق أن جَهَّزهم فى المرَّة السابقة ؛ وأراد أن يُبقِى أخاه معه فى مصر ؛ ولكن كيف يأخذه من إخوته ليُبقِيه معه ؛ وقد أخذ أبوهم ميثاقاً عليهم ألاَّ يضيعوه ، وألا يُفرِّطوا فيه ، كما فعلوا مع أخيه من قبل ؟

إذن : لا بُدَّ من حيلة يستطيع بها أن يستبقى بها أخاه معه ، وقد جَنَّد الله له فيها إخوته الذين كانوا يُعَادونه ، وكانوا يحقدون عليه وعلى أخيه .

وجاءت هنا حكاية صُوَاع الملك ، التى يشرب فيها الملك ، وتُستخدم كمكيال ، وجعلها فى رَحْل أخيه .

---

(١) تطلق السقاية على الوعاء الذى يُستقى به . وقد كان إناء من الفضة كانوا يكيلون به الطعام. [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

وكلمة « السقاية » تُطلق إطلاقات متعددة من مادة « سقى » أى : « السين » و « القاف » و « الياء » ، فتُطلق على إسقاء الناس والحجيج الماء .

والقرآن الكريم يقول :

﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٩) ﴾ [التوبة]

فكأن معنى السقاية أيضاً هو المكان الذى يُوضَع فيه الماء ليشرب منه الناس .

أو : تُطلق « السقاية » على الآلة التى يُخرج بها الماء للشاربين .

وهنا تُطلق كلمة « السقاية » على الإناء الذى كان يشرب به الملك ، ويُستخدم كمكيال ، وهذا دليلٌ على نَفَاسة المكيل .

وتُطلق أيضاً كلمة « صواع » على مثل هذه الأداة التى يُشرب منها ، أو يُرفع بها الماء من المكان إلى فَمِ الشارب ؛ وأيضاً يُكَال بها ؛ ومفردها « صاع » .

ويقول الحق سبحانه هنا عن حيلة يوسف لاستبقاء أخيه معه :

﴿ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ .. (٧٠) ﴾ [يوسف]

أى : أمر بعضاً من أعوانه أن يَضَعوا « السقاية » فى رَحْل

أخيه ، و « الرَّحْل » : هو ما يوضع على البعير ، وفيه متاع المسافر كله .

وبعد أن ركب إخوة يوسف جِمالهم استعداداً للعودة إلى الشام ؛ وقعت المفاجأة لهم ؛ والتي يقول عنها الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ[1] أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف]

أي : يا أصحاب تلك العير أنتم سارقون . والسرقة فعل قبيح حينما يترتَّبُ عليها جزاء يُوقَّع على السارق ، والمسروق هو شيء ثمين .

وفيما يبدو أن هذه الحيلة تمَّتْ بموافقة من « بنيامين » ليمكث مع أخيه يوسف حتى يحضر أبواه[2] إلى مصر .

ولسائل أن يقول : وكيف رَضِي بنيامين بذلك ، وهو أمر يُزِيد من حُزْن يعقوب ؟ وكيف يتهم يوسف إخوته بسرقة لم يرتكبوها ؟

أقول : انظروا إلى دقَّة القرآن ، ولنُحْسِنَ الفهم عنه ؛ لنرى أن حزن يعقوب على فَقْد يوسف قد غلبه ؛ فلَن يُؤثِّر فيه كثيراً فَقْد بنيامين .

ودليل ذلك أن يعقوب عليه السلام حين عاد أبناؤه وأخبروه

---

(١) أذن تأذيناً وأذاناً : أعلم بالشيء. والتضعيف يدل على الكثرة والتكرار . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ (٧٠) ﴾ [يوسف] . أي : نادى وأعلم وأكثر النداء والإعلام . [القاموس القويم ١/١٦] .

(٢) المقصود بأبويه : أبوه يعقوب ، وخالته زوجة أبيه . لأن « راحيل » أم يوسف وبنيامين ماتت في نفاس بنيامين . [انظر : تفسير القرطبي ٥/٣٥٩٨] .

بحكاية السرقة ؛ واستبقاء بنيامين فى مصر قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يذكر يعقوب بنيامين .

وأما عن اتهامهم بالسرقة ؛ فالآية هنا لا تُحدِّد ماذا سرقوا بالضبط ، وهم فى نظر يوسف قد سَرَقوه من أبيه ، وألقوْه فى الجُبِّ .

وهنا يأتى الحق سبحانه بموقف إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

أى : أن إخوة يوسف أقبلوا على مَنْ يتهمونهم بالسرقة مُتسائلين : ماذا فقدتم ؟ ولماذا تتهموننا ؟

وهنا يقول الحق سبحانه ما قاله من اتهموهم :

﴿ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ[1] ﴿٧٢﴾ ﴾

أى : أن الذين أعلنوهم بالسرقة قالوا لهم : لقد ضاعت سقاية

(١) الزعيم : الكفيل والضمين والرئيس . زعم بالأمر : تكفل به فهو زعيم أى كفيل . [القاموس القويم ١/٢٨٦] .

الملك ؛ ويُقَال لها « صواع » ، ومَنْ سيُخرجها من المكان المختفية به سوف ينال مكافأة قدرها وَزْن حملْ بعير ؛ فلعل صُواع الملك قد خُبئت فى حِملْ أحدكم دون قصد .

وأكد رئيس المنادين أنه الضامن لمن يُخرج صواع الملك ، ويحضرها دون تفتيش أن ينال جائزته ، وهى حِملْ بعير من المَيْرة والغذاء .

وهنا قال إخوة يوسف عليه السلام :

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وقولهم ﴿ تالله ﴾ هو قَسَم ، وعادةً تدخل « التاء » على لفظ الجلالة عند القَسَم المقصود به التعجُّب ، أى : أن إخوة يوسف أقسموا مُندهشين لاتهامهم بأنهم لم يسرقوا ؛ وأن الكُلَّ قد علم عنهم أنهم لم يأتوا بغرض الإفساد بسرقة أو غير ذلك ، لم يسبق أن اتهمهم أحد بمثل هذا الاتهام .

وهنا يأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنة مَنْ أعلنوا عن وجود سرقة ، وأن المسروق هو صُوَاع الملك .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُواْ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾

وهذا سؤال من مُسَاعدى يوسف لإخوة يوسف عن العقوبة المقررة فى شريعتهم لمن يسرق ؟ وماذا نفعل بمن نجد فى رَحْله صُواع الملك ؛ وثبت كذبكم بأنكم لم تسرقوه ؟

وكان المعروف أن مَنْ يُضبط بسرقة فى شريعة آل يعقوب أن يُسترقَّ أو يظل فى خدمة مَنْ سرقهم ، كما فعلت عمة يوسف التى أحبته وعاش معها بعد وفاة أمه ؛ وحين أراد والده أن يسترده أخفَتْ فى ثياب يوسف شيئاً[1] عزيزاً ورثته عن أبيها إسحاق ، وبذلك استبقتْ يوسف معها ، ولم يأخذه أبوه إلا بعد أن ماتت عمَّته .

وكان هدف يوسف عليه السلام إذن أن يستبقى أخاه معه ؛ وهو قد علم من قبل هذا الحكم ، وهكذا تركهم يوسف عليه السلام يحكمون بأنفسهم الحكم الذى يَصْبُو إليه ، وهو بقاء أخيه معه .

ويُورِد الحق سبحانه قولهم :

﴿ قَالُواْ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحۡلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾

وهكذا نطقوا بالحُكْم هم أنفسهم ، وأكَّدُوه بقولهم :

﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِى الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) هو منْطقة إسحاق كان ينتطق بها ، أى : يشدها على وسطه . وكانت عمته هى أكبر ولد إسحاق ، فعمدت إلى منطقة إسحاق فحزمتها على يوسف من تحت ثيابه ، لتستبقيه عندها ولا تسلمه لأبيه يعقوب ، وقد كان هذا حتى ماتت . [راجع : تفسير ابن كثير ٢/٤٨٦] .

وهكذا أعانوا هم يوسف لتحقيق مأربه ببقاء شقيقه معه ، وأمر يوسفُ بتفتيش العير .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾

وكان الهدف من البَدْء بتفتيش أوعيتهم ؛ وهم عشرة ؛ قبل وعاء شقيقه ، كى ينفى احتمال ظنِّهم بأنه طلب منهم أن يأتوا بأخيهم معهم ليدبر هو هذا الأمر ، وفتش وعاء شقيقه من بعد ذلك ؛ ليستخرج منه صُوَاع الملك ؛ وليُطبِّق عليه قانون شريعة آل يعقوب ؛ فيستبقى شقيقه معه . وهذا دليل على الذكاء الحكيم .

وهكذا جعل الحق سبحانه الكيد مُحْكماً لصالح يوسف ، وهو الحق القائل :

﴿ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ .. (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : كان الكيد لصالحه .

ويتابع سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ ..(٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : ما كان يوسف ليأخذ أخاه فى دين الملك الذى يحكم مصر ؛ لولا فتوى الإخوة بأن شريعتهم تحكم بذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

وهكذا رفع الله من شأن يوسف ، وكَادَ له ، وحقَّق له أمله ، وهو يستحق كل ذلك ؛ ورفعه سبحانه درجاتٍ عالية من العلم والحكمة .

ولم يكُنْ الكيد بسبب أن يُنزل بشقيقه عذاباً أو ضياعاً ، بل نريد ليوسف ولأخيه الرِّفْعة ، فكأن كثيراً من المصائب تحدث للناس ، وهم لا يَدْرون ما فى المحنة من المِنَح .

وعلى المؤمن أن يعلم أن أىَّ أمر صعب يقع عليه من غير رأى منه ؛ لا بُدَّ وأن يشعر أن فيه من الله نفعاً للإنسان .

وإخوة يوسف سبق أنْ كَادوا له ، فماذا كانت نتيجة كَيْدهم ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يجعل الكيد كله لصالح يوسف ، وجعله سبحانه ذَا علم ، فقال :

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

و (ذى علم) أى : صاحب علم . وكلاهما مُنْفصل ، أى : هناك « صاحب » ، وهناك « علم » ، والصاحب يوجد أولاً ؛ وبعد ذلك يطرأ عليه العلم ؛ فيصير صاحبَ عِلْم ، ولكن فوقه :

﴿ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

أى : أن العلم ذاتىّ فيه ، وهو الحق سبحانه وتعالى .

فماذا كان موقف إخوة يوسف ؟

بطبيعة الحال لا بد أنهم قد بُهِتوا ، أول تصرف منهم كان لا بد أن ينصرف إلى الأخ الذى وُجِدت السقاية فى رَحْله ؛ وأخذوا يُوبِّخونه ؛ لأنه أحرجهم وفضحهم ، وبحثوا عن أسباب عندهم للحفيظة عليه ؛ لا للرفق به .

وموقفهم المُسْبق منه معروف فى قولهم :

﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ[1] .. ⑧ ﴾ [يوسف]

وهم يعلمون أن يوسف وأخاه من امرأة أخرى هى « راحيل » ، ولو كان شقيقاً لهم لَتلطَّفوا به[2] . وأوضح لهم : إن مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالى هو مَنْ جعل البضاعة فى رِحَالكم .

وهنا قال أحد الإخوة : تالله ، يا أبناء راحيل ، ما أكثر ما نزل علينا من البلاء منكم . فَرَدَّ بنيامين : بنو راحيل نزل عليهم من البلاء منكم فوق ما نزل عليكم من البلاء منهم .

ويُورد الحق سبحانه هنا قولهم :

---

(١) العصبة : الجماعة المترابطة . والعصبة والعصابة : جماعة ما بين العشرة إلى الأربعين [لسان العرب : مادة : عصب] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٥٦٩/٥) أن إخوته « لما رأوا ذلك نكسوا رءوسهم، وأقبلوا عليه قائلين : ويلك يا بنيامين . ما رأينا كاليوم قط ، ولدت أمك « راحيل » أخوين لصين . قال لهم أخوهم : والله ما سرقته ، ولا علم لى بمن وضعه فى متاعى » .

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ٧٧ ﴾

وهكذا ادَّعَوْا أن داء السرقة في بنيامين قد سبقه إليه شقيق له من قبل ، وقالوا ذلك في مجال تبرئة أنفسهم ، وهكذا وَضُحَتْ ملامح العداوة منهم تجاه يوسف وأخيه .

وقولهم :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. ٧٧ ﴾ [يوسف]

يُسمَّى في اللغة قضية شرطية . ومعنى القضية الشرطية ؛ أن حدثاً يقع بسبب حَدَث وقع قبله ، فهناك حَدَث يحدث وحده ، وهناك حَدَث يحدث بشرط أن يحدث قبله حدث آخر .

مثال هذا هو قولك لتلميذ : إنْ تذاكر دروسك تنجحْ ، وهنا حَدَثان ، المذاكرة والنجاح ، فكأن حدوثَ النجاح الشرط فيه حدوث المذاكرة ، ولا بُدَّ أن يحدث الشرط أولاً ؛ ثم يحدث الحدث الثاني ، وهو هنا قولهم :

﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. ٧٧ ﴾ [يوسف]

كتعليل لسرقة بنيامين .

والمثل من القرآن أيضاً :

﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ .. ﴿١٨٤﴾ ﴾ [آل عمران]

فكأن الله يوضح للرسول ﷺ : إنْ كذَّبوك الآن فيما تنقل لهم من أخبار السماء ؛ فلا تحزن ولا تبتئس ؛ فهذا التكذيب ظاهرة عانَى منها كل الرسل السابقين لك ؛ لأنهم يجيئون بما يُنكره المرسل إليهم أولاً ، فلا بد أن يكذبوا ، وهكذا يستقيم الشرط ، لأن الحق سبحانه هنا قد عدل بالشيء عن سببه ، فكان جواب الشرط بعد الزمان الذى حدث فيه الشرط .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لا تعجب يا عزيز مصر ؛ لأن هذه خصلة فى أولاد راحيل ، قالوا ذلك وهم يجهلون أنهم يتحدثون إلى يوسف ابن راحيل !!

وكل حدث يحدث للملَكات المستقيمة ؛ لا بُدَّ أن يُخرج تلك الملَكات عن وضعها ، ونرى ذلك لحظة أن يتفوَّه واحد بكلمة تُخرج إنساناً مستقيماً عن حاله وتُنغِّصه ، ويدرك بها الإنسان المستقيم ما يؤلمه ؛ وينفعل انفعالاً يجعله ينزع للردِّ .

ولذلك يوصينا ﷺ : « إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس ؛ فإن ذهب عنه الغضب ؛ وإلا فليضطجع »[١] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/١٥٢) ، وأبو داود فى سننه (٤٧٨٢) ، وابن حبان (١٩٧٣ - موارد الظمآن) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الهيثمى فى المجمع (٨/٧١) : « رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح » .

كى يساعد نفسه على كَظْم ضيقه وغضبه ، وليُسرِّب جزءً من الطاقة التى تشحنه بالانفعال .

ولكن يوسف عليه السلام لم ينزع إلى الرد ، لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

وكان يستطيع أن يقول لهم ما حدث له من عمَّته التى اتهمته بالباطل أنه سرق ؛ لتحتفظ به فى حضانتها من فَرْط حُبِّها له ، لكن يوسف عليه السلام أراد أن يظل مجهولاً بالنسبة لهم ، لتأخذ الأمور مجراها :

﴿ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ .. ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

حدث ذلك رغم أن قولهم قد أثَّر فيه ، ولكنه قال رأيه فيهم لنفسه :

﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

لأنكم أنتم مَنْ أخذتمونى طفلاً لألعب ؛ ثم ألقيتمونى فى الجُبِّ ؛ وتركتم أبى بلا موانسة .. وأنا لم أسرق بل سُرِقت ، وهكذا سرقتم ابناً من أبيه .

وهو إنْ قال هذا فى نفسه فلا بُدَّ أن انفعاله بهذا القول قد ظهر على ملامحه ، وقد يظهر المعنى على الملامح ، ليصلَ إليهم المعنى ، والقول ليس إلا ألفاظاً يصل به مدلول الكلام إلى مُسْتَمِع .

وقد وصل المعنى من خلال انفعال يوسف .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه أعلم بما تنعتون ، وتظهرون العلامات والسِّمات ، وغلبت كلمة « تصفون » على الكلام .

ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن ما تقولونه يُوحِى من تلقاء نفسه أنه كَذِب ، وهكذا نعرف أن كلمة « تَصِف » وكلمة « تصفون » غلب فى استعمالهما للكلام الذى يحمل معه دليلَ كَذِبه .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على ألسنتهم بعد ذلك :

﴿ قَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

وهكذا دخلوا مع يوسف فى نقاش ، وبدأوا فى الاستعطاف ؛ بقولهم :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيراً .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

ونلحظ أن كلمة « كبير » تُطلق إطلاقات متعددة ، إنْ أردتَ الكِبَر فى السنِّ تكون من «كَبِرَ يكْبَر » ، وإنْ أردتَ الكِبَرَ فى المقام تقول : « كَبُرَ يكبُر ».

والحق سبحانه يقول :

﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلاَّ كَذِبًا ﴿٥﴾ ﴾ [الكهف]

والكِبَر واحد من معانى العظمة ، أما الكِبَرُ فى السِّنِّ فهو مختلف ؛ وهنا قالوا :

﴿ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

قد تكون ترقيقاً بالعزة ، أو ترقيقاً بالضعف .

أى : إن له أباً شيخاً كبيراً عظيماً فى قومه ؛ وحين يُبلغه أن ابنه قد احتُجِز من أجل سرقة ، فهذا أمر مؤلم ؛ ولك أن تُقدِّر ذلك وأنت عزيز مصر ؛ ونرجو أن تحفظ للأب شرفه ومَجْده وعظمته ، واسْتُرْ ذلك الأمر من أجل خاطر ومكانة والده .

أو : أن يكون قولهم مقصوداً به ، أن الأب شيخ مُهدَّم ، لا يحتمل الصدمة ، وخصوصاً أن له ابناً قد فُقِد .

ثم يعرضون عَرْضاً آخر ، فيقولون :

﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم سألوه أن يُتمِّمَ إحسانه عليهم ، فقد أحسن استقبالهم ؛ وسبق أن أنزلهم منزلاً كريماً ، وأعطاهم المَيْرة ، ولم يأخذ بضائعهم ثمناً لها .

ومَنْ يفعل ذلك ؛ لا يضنُّ عليهم بأن يستجيب لرجائهم ، بأن يأخذ واحداً منهم بدلاً من أخيهم الصغير .

كل هذه ترقيقات منهم لقلبه ، ولكن القاعدة هي ألاَّ يُؤاخذ بالذنب إلا صاحبه ؛ ولذلك لم يَفُتْ هذا الأمر على يوسف ، فجاء الحق سبحانه بما يوضح ذلك :

﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

ويستعيذ يوسف عليه السلام بالله أن يأخذ أحداً بدلاً ممَّنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ، فما ذنبه في هذا الأمر ؟ ولا أحد يمكن أن ينال عقاباً على ذنبٍ ارتكبه غيره .

وساعةَ تقرأ « إذاً » مُنوَّنة ؛ فاعرف أن هناك جملةٌ محذوفةٌ ، أي : أن يوسف قال : إنْ أخذنا غير مَنْ وجدنا متاعنا عنده نكون من الظالمين .

وجاء « التنوين » بدلاً من الجملة المحذوفة التي ذكرناها .

ومثال آخر من القرآن هو قول الحق سبحانه :

﴿ وأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [الواقعة]

ويحدث ذلك حين تبلغ الرُّوح الحلقوم ، وجاء « التنوين » عِوَضاً عن الجملة كلها .

وهكذا أراد يوسف أن يُذكِّرهم أنه لا يحقُّ له أن يأخذ أخاً منهم بدلاً من بنيامين ؛ لأنه هو مَنْ وُجِد في متاعه صُوَاع الملك ؛

ولا يصح له أن يظلم أحداً ، أو يأخذ أحداً بجريرة[١] أحد آخر .

وهنا علم أبناء يعقوب أن المسألة لا يُبَتُّ فيها بسهولة ؛ لأنها تتعلق بأمر خطير .

ويصور الحق سبحانه حالتهم هذه فيقول :

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟[٢] مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا ۖ قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا[٣] مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَ ۖ فَلَنْ أَبْرَحَ[٤] ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

ويقال : « يئس » أى : قطع الأمل من الشيء ، وهم لم يقطعوا الأمل فقط ، بل استيأسوا ، وهو أمر فوق اليأس .

فهم قد أخذوا يُرقِّقون كل ألوان المُرقِّقات ؛ ولا فائدة ؛ وكلما أوردوا مُرقِّقاً ؛ يجدون الباب أمامهم مُوصَداً .

وكأنهم بذلك يُلحُّون على اليأس أن يأتيهم ؛ لأن الظروف المحيطة والجو المحيط لا يحمل أى بارقة أملٍ ، وكلما تبدو بارقةُ أملٍ

---

(١) الجريرة : الجناية والذنب يجنيه الرجل . [لسان العرب ـ مادة : جرر] .

(٢) استيأس : يئس منه بعد جهد ومشقة . [القاموس القويم ٢/٣٦٦] .

(٣) الميثاق والموثق : العهد المؤكَّد . قال تعالى : ﴿ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ .. ﴿٧﴾ ﴾ [المائدة]. أى : عهده الذى عاهدكم عليه ، وألزمكم الوفاء به . [القاموس القويم ٢/٣١٩] .

(٤) برح الأرض : زال عنها وفارقها . وقول كبير إخوة يوسف هنا ، أى : لن أفارق أرض مصر . [القاموس القويم ١/٦١] بتصرف .

ويطلبونها يجدون الطريق مُوصَداً ؛ فكأنهم يطلبون اليأس من أن يأذن يوسف بسفر أخيهم بنيامين معهم فى رحلة العودة إلى أبيهم .

وهنا : ﴿ خَلَصُوا نَجِيًّا[1] ..(٨٠) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم انفردوا عنه ، وعن أعين الحاضرين ؛ العزيز يوسف ، ومَنْ حوله من المُعَاونِين له ، وأخيهم موضع الخلاف ، وانفردوا بأنفسهم .

والانفراد هو المناجاة ؛ والمناجاة مَسرَّة ؛ والمَسرَّة لا تكون إلا فى أمر لا تحب لغيرك أن يطلع عليه .

ونلحظ أن ﴿ خَلَصُوا ..(٨٠) ﴾ [يوسف] هى جمع ، و ﴿ نَجِيًّا ..(٨٠) ﴾ [يوسف] مفرد ، وهذا من ضمن المواقع التى يتساءل فيها مَنْ لا يملكون ملَكة عربية : كيف يأتى القرآن بمفرد بعد الجمع ؟

ونقول دائماً : لو أنهم امتلكوا اللغة كملَكة لَعرفوا أن ذلك جائز جداً . ومثال هذا هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ[2] (٤) ﴾ [التحريم]

وهم لا يفهمون أن اللغة فيها ألفاظ يستوى فيها المفرد والجمع ، كأن الملائكة يجمعون قوة كل واحد منهم لتكون قوة واحدة .

ومثال آخر : هو قول إبراهيم خليل الرحمن :

---

(١) نجاه ينجوه نَجْواً : كلّمه سراً وخصّه بالحديث. فخلصوا نجياً أى : متناجين . تناجى الرجلان : أفضى كل منهما إلى الآخر بحديثه سراً . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] بتصرف.

(٢) الظهير : المعين المساعد كأنه يسند ظهر من يعاونه . [القاموس القويم ١/٤١٨] بتصرف .

﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧)﴾ [الشعراء]

أى : أن إبراهيم عليه السلام جمع الآلهة المتعددة التى يعبدونها وجعلها عدواً واحداً له .

وكذلك يمكن أن نفعل مع كلمة « صديق » ، وكذلك كلمة « عَدْل » فحين ينظر القضاء فى أمر قضية ما ؛ فالقاضى لا يُصدر الحكم وحده ؛ بل يُصدره بعد التشاور مع المُستشارين ؛ ويصدر الحكم من الثلاثة : رئيس المحكمة ، وعضو اليمين ، وعضو اليسار وكلاهما بدرجة مستشار .

ويُقَال : « حكم القضاة عَدْلاً » . ولا يقال : إن كل مستشار أو قاض له عدل .

وكذلك : ﴿نَجِيًّا ..(٨٠)﴾ [يوسف]

فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، فهم حين استيأسوا من يوسف انفردوا بأنفسهم ليتناجوا .

وعادة يكون الرأى الأول للأخ الأكبر ، الذى عادة ما يكون له من الخبرة والحكمة ما يتيح له أن يُبدِى الرأى الصواب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٠)﴾ [يوسف]

وقد يكون كبيرهم هو أكبرهم عمراً ؛ أو هو رئيس الرحلة ، وحين رآهم قد قَبِلوا فكرة العودة دون أخيهم الذى احتجزه عزيز مصر ؛ قال لهم رأيه الذى حذرهم فيه أنْ يغفلوا عن أن أباهم قد أخذ منهم موثقاً من الله إلا أنْ يُحَاط بهم ؛ كما يجب ألا ينسوا أن لهم سابقةً حين أخذوا يوسف وضيَّعوه .

وبناءً على ذلك استقر قراره ألاّ يبرحَ المكان ، ولن يعود إلى أبيه إلا إنْ أذنَ له بذلك ؛ أو أن يحكمَ الله له بأن يُسلِّمه عزيزُ مصر أخاه ، أو أن يموت هنا فى نفس البلد .

وهذا القول فى ظاهره دفاع عن النفس ؛ وخجل من أن يعود إلى أبيه بدون بنيامين ؛ ولذلك ترك إخوته يتحمَّلون تلك المواجهة مع الأب .

وتبدو هذه المسألة أكثر قسوة على الأب ؛ لأنه فقد فى الرحلة الأولى يوسف ، وفى الرحلة الثانية يفقد ابنه بنيامين ، وكذلك الابن الكبير الذى يرأس الرحلة .

وفى هذا تصعيد للقسوة على الأب ، وكان المفروض أن تدور مُدَاولة بين الإخوة فى تلك المُنَاجاة ، ولكن الأخ الكبير أو رئيس الرحلة حسم الأمر .

وحين سألوه : ماذا نفعل يا كبيرنا ؟ جاء قوله الذى أوردته الآية التالية :

﴿ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهكذا أمر الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة إخوته أن يرجعوا إلى أبيهم ، ويقولوا له ما حدث بالضبط ، فقد اتُّهِم ابنه بالسرقة ، ونحن لا نقول هذا الكلام إلا بعد أن وجد فتيان العزيز صُوَاع الملك فى رَحْلِه ، ولا نعلم هل دَسَّها أحد له ؟ وهل هى حيلة[1] ومكيدة ؟

ونحن لا نقول لك يا أبانا إلا ما وصل إلينا من معلومات ، وقد أخذه العزيز طبقاً لشريعتنا ، ونحن بخبرتنا بأخينا لا نشهد عليه بالسرقة ، إلا أن ثبوتَ وجود صُواع الملك فى رَحْلِه هو السبب فى كل ذلك .

ويعلم الأخ الأكبر أن يعقوب عليه السلام قد يُكذِّب أولاده ؛ لأن هناك سوابقَ لهم ؛ لذلك أوصاهم الأخ الأكبر أو رئيس الرحلة أن يقولوا لأبيهم ـ إنْ كَذَّبهم ـ ما جاء به الحق على ألسنتهم :

﴿ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ[2] ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

---

(١) الحيلة : الحذق فى تدبير الأمور وهو تقليب الفكر حتى يهتدى إلى المقصود وأصلها الواو واحتال : طلب الحيلة (المصباح المنير ص ٨٥ ، ٨٦) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٨٠) : « يريدون بالقرية مصر . وقيل : قرية من قراها نزلوا بها وامتاروا منها »، وهنا مجاز بالحذف وتقديره : واسأل أهل القرية .

أى : أنك يا أبانا إنْ كنتَ تشك فى أقوالنا ؛ يمكنك أن تطلب أدلة أخرى من المكان الذى كنا فيه ؛ لأن هذا الموضوع قد أحدث ضجَّة ، وحدث أمام جمع كبير من الناس ، والقوافل التى كانت معنا شهدتْ الواقعة ؛ فقد أذَّن مُؤذِّن بالحادث ، وتَمَّ تفتيش العِير علناً .

فإذا أردتَ أن تتأكد من صدق أقوالنا ، فاسأل العِير التى كانت تسير معنا فى الطريق ، وهم يعرفون هذه القضية كما نعرفها ، أو اسأل أهل القرية التى جئنا منها .

ونلحظ هنا أن الحق سبحانه أورد كلام إخوة يوسف لأبيهم يعقوب :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا (٨٢) ﴾ [يوسف]

ونحن نعلم أن كل حَدَث من الأحداث لا بُدَّ له من فاعل ، ومن مفعول يقع عليه ، ومن مكان يقع فيه ، ومن زمان يقع فيه ؛ ومن سبب يُوجِبه ، ومن قوة تنهض به .

وفى بعض الحالات نجد أن المكان هو الأمر الظاهر والقوى فى الحدث ، فننسبه إليه ، فيُقال :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

والمراد بطبيعة الحال أن يَسأل أهل القرية ، أو : أن المسألة كانت واضحة تماماً لدرجة أن الجماد يعرف تفاصيلها ، أو : أنك نبىٌّ ويوحى لك الله فَسَلْهُ أن يجعل الأرض تخبرك بما وقع عليها .

وكذلك قولهم :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف]

ونعلم أن العِيـر هى المَطايا ؛ سـواء أكـانت نِياقـاً أو كـانت من الجمال أو الحمير أو البِغَال التى تحمل البضائع .

وحين يُقَال :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن العير كان لها فى الأمر شىء فوق المُلاَبسات كلها .

ومثـال هذا ما كـان فى موقـعة بدر ؛ فـقد خـرج رسول الله ﷺ ليلقَى العير القادمة من الشام وهى مُـحمَّلة بالبضائع ؛ ليصادرها إيفاء ما استولى عليه الكافرون من أمـوال المهاجرين التى كانت بمكة ، ولم يكن مع هذه العِير إلا قليل من الحرس والرعاة .

ولكن حـين تكلم عن المـقاتلين الذين قَـدِمـوا من مكة ؛ وصفـهم بالنفير ، أى : الجماعة الذين نفروا لمواجهة معسكر الإيمان .

إذن : فكل حدَث يأخذ الأمر البارز فيه .

وهنا يورد الحق سبـحانه ما جاء على ألسنة إخوة يـوسف حينما عادوا ليلقَوْا أباهم ، وليس معهم أخوهم بنيامين ؛ وكذلك تَخلُّف أخيهم الكبير أو رئيس الرحلة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [يوسف]

ويجوز أن تفـتيـشـهم قـد تَمَّ فى مكان بعيـد قليلاً عن العُـمْران ؛

وفحص جنود أو مساعدو يوسف أمتعتهم التى عثروا فيها على صواع الملك .

وسُمى المكان « قرية » ، مثلما نفعل نحن حالياً حين نخصص مكاناً للجمارك ؛ نفحص فيه البضائع الخارجة أو الداخلة إلى البلد ، فقولهم :

﴿ واسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا .. (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل أهل الموقع الذى حدث فيه التفتيش . وكذلك قولهم :

﴿ وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

أى : اسأل مَنْ كانوا معنا ، وجِئْنا بصحبتهم من أصحاب القوافل الأخرى .

وكرروا قولهم :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم علموا سابق كذبهم من قبل ذلك ؛ لذلك أرادوا هنا أن يُثبِتوا صدقهم ؛ وحين يسأل أبوهم يعقوب ؛ سيجد أنهم صادقون فعلاً ، وهم لم يطلبوا شهادة الغير إلا لأنهم واثقون من صدقهم هذه المرة .

وجاء الحق سبحانه بهذه الجملة الإسمية :

﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٨٢) ﴾ [يوسف]

لأنهم قد فهموا أن والدهم قد شَكَّ فيهم من قبل ، حين جاءوا بدم كذبٍ ، وادَّعوا أنه قميص يوسف ، وأن الذئب قد أكله .

ويأتى الحق سبحانه بما جاء على لسان يعقوب :

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ[1] عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾

الأمور التى تخالف الضمير ؛ ويُستحى منها ؛ ويُخشى مَغبَّتها[2] ؛ هى أمور تستعصى على النفس ؛ وتحتاج النفس إلى علاج حتى تبرزها ، وتحتاج إلى مَنْ يُيسّر لها ، ما أن تُقدِم على فعل الأمر المستهجن ، وهذا ما يُقال له : « سَوَّل » .

وقول الحق سبحانه على لسان يعقوب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا .. ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

أى : يسَّرتْ لكم أنفسكم امراً يصعب أن تقبله النفوس المستقيمة ، وسبق أن قال يعقوب لحظةَ أنْ جاءوا له بقميص يوسف وعليه الدم الكاذب :

﴿ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) الجمال : البهاء والحُسْن يوصف به الحسىّ والمعنوى . قال تعالى : ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [يوسف] ، وهو جمال معنوى . وقوله : ﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر] الذى لا لوم معه ولا عتاب . [القاموس القويم ١/١٢٨] . والمراد هنا بالصبر الجميل هو الصبر المؤمن الذى يعطى أملاً .

(٢) المغبة : العاقبة . غب الأمر ومغبته : عاقبته وآخره . [لسان العرب ـ مادة : غبب] .

وهنا طلب يعقوب عليه السلام العون مما يدل على أن ما قالوه ، وكذلك أحداث القصة لن تقف عند هذا الحَدّ ، بل ستأتى من بعد ما قالوه أحداث تتطلب تجنيد قوى الصبر فى النفس ، وتتطلب معونة الله .

ويختلف الأمر هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ما جاء بعد الحديث عن تسويل النفس ، واستلهام الصبر من الله ، فَهبَات الفرج قد اقتربتْ ، فقال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٨٣) ﴾ [يوسف]

فى هذه الآية طلب الأمل الذى يوحى بالفرج ، وقد كان .

وبعض من الذين تأخذهم الغفلة يتساءلون :

لماذا قال يعقوب :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]

والغائب عنه هما يوسف وأخوه ؟

ونقول : ولماذا تنسوْنَ كبير الإخوة الذى رفض أن يبرحَ مصر ، إلا بعد أن يأذن له يعقوب ، أو يفرج عنه الله ؟

لقد غاب عن يعقوب ثلاثة من أولاده : يوسف وبنيامين وشمعون ؛ لذلك قال :

﴿ عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا .. (٨٣) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : يأتينى بهما .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يوسف]

فالله سبحانه يعلم أين هم ؛ لأنه العليم بكل شيء ، وهو سبحانه حكيم فيما يُجريه علينا من تصرّفات .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ[1] ﴿٨٤﴾ ﴾

وأعرض يعقوب عليه السلام عنهم ؛ فما جاءوا به هو خبر أحزنه ، وخَلاَ بنفسه ؛ لأنه ببشريته تحسَّر على يوسف ، فقد كانت قاعدة المصائب هي افتقاده يوسفَ .

وساعةَ تسمع نداءً لشيء محزن ، مثل : « وا حُزْناه » أو « وا أسفاه » أو « وا مُصيبتاه » ؛ فهذا يعني أن النفس تضيق بالأحداث وتقول « يا همّ ، هذا أوانك ، فاحضر » . أو أنه قال :

﴿ يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

لأن أخاه بنيامين كان أشبهَ الناس به ؛ فكان حُزْنه على يوسف

---

(١) كظيم : أي سكت وصبر على ما في نفسه من الغيظ ، ويجوز أن يكون كظيم بمعنى مكظوم من كظمه الغيظ أي : كربه وأحزنه وأسكته وشقّ عليه . [القاموس القويم ٢/١٦٣] .

طاقة من الهَمِّ نزلتْ به ، وتبعتها طاقة هَمٍّ أخرى ، هى افتقاد بنيامين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ .. ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أن دموع يعقوب كثُرتْ حتى بَدا الجزء الأسود فى العين وكأنه أبيض . أو : ابيضتْ عيناه من فَرْط حُزنه ، الذى لا يبثُّه لأحد ويكظمه .

وهو قد يكظم غيظه من كل ما حدث ، أما الانفعالات فلا أحد بقادر على أن يتحكم فيها .

ونجد رسولنا ﷺ يبكى ؛ وتذرف[1] عيناه حُزْناً على موت ابنه إبراهيم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف ـ رضى الله عنه ـ : أتبكى ؟ أو لم تكن نهيْتَ عن البكاء ؟ قال : « لا ، ولكن نهيتُ عن صوتين أحْمقيْن فاجرين : صوت عند مصيبة ، خمش[2] وجوه ، وشق جيوب[3] ، ورنة[4] شيطان»[5] .

وقد قال رسول الله ﷺ :

---

(١) الذرف : صَبُّ الدمع. ذرفت العين الدمع : أسالته . [لسان العرب ـ مادة : ذرف] .

(٢) الخموش : الخدوش . وقد خمش وجهه : خدشه . [مختار الصحاح].

(٣) الجيوب : جمع جيب . والجيب : إنما يكون فى الثوب موضع الصدر . [تفسير القرطبى : ٦/٤٧٦٧] .

(٤) الرنة : الصيحة الحزينة . والرنين : الصياح عند البكاء . قال ابن سيده : هى الصيحة الشديدة والصوت الحزين عند الغناء أو البكاء . [لسان العرب ـ مادة : رنن] بتصرف .

(٥) أخرجه الترمذى فى سننه (١٠٠٥) عن جابر بن عبدالله ، قال الترمذى : « هذا حديث حسن » . هكذا ورد الحديث فى الترمذى ، ولكن فى فتح البارى (١٠/١٧٤) زيادة : « صوت عند نغمة ، لهو ولعب ، ومزامير الشيطان » .

« إن العين تدمع ، والقلب يحـزن ، ولا نقول إلا ما يُرضى ربنا ، وإنَّا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون »[1] .

وهكذا نعـلم أن الحق سـبحـانه لا يريد من الإنسـان أن يكون جلمـوداً[2] أو يكون صـخـراً لا ينفـعل للأحـداث ، بل يريده مُنفـعـلاً للأحـداث ؛ لأن هذا لَوْنٌ يجب أن يكون فى إنسـانيتـه ، وهذه عاطفـة يريد الله أن يُبقيها ، وعلى المؤمن أن يُعليها .

فسبحانه هو الذى خلق العاطفة ، والغريزة فى الإنسان ، ولو أراد الله الإنسـانَ بلا عاطفـة أو غريزة لَفـعلَ ما شـاء ، لكنه أراد العاطـفة والغريزة فى الإنسان لمهمة .

ولحظة أن تخـرج العـاطفة أو الغـريزة عن مُـهمـتـها ، يقـول لك المنهج : لا . لأن مهمة المنهج أن يُهذِّب لك الانفعال .

والمثـل الذى أضربه هنا هو حُبُّ الإنسـان للاسـتـمتاع بالـطعام ، يقول له المنهج : كُلْ ما يفيدك ولا تَكُنْ شَرِهاً[3] .

والمثل الآخر : غريزة حب الاسـتطلاع ، يقول لك المنهج : اعرف ما يفيدك ؛ ولا تستخدم هذه الغريزة فى التجسُّس على الناس .

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١٣٠٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الجلمد والجلمود : الصـخر ، وهى الصخرة التى تكون فى المـاء القليل . [لسان العرب ـ مادة : جلمد] .

(٣) الشَّره : أسـوأ الحرص . وهو غلـبة الحرص . والشَّرِه : السريع الـطعام الشديـد الحرص عليه . [لسان العرب ـ مادة : شره] .

وغريزة الجنس أرادها الله لإبقاء النوع ، ولتأتى بالأولاد والذرية ، لكن لا تستعملها كانطلاقات وحشية . وهكذا يحرس المنهجُ الغرائزَ والعواطفَ لتبقى فى إطار مهمتها .

والعاطفة ـ على سبيل المثال ـ هى التى تجعل الأب يَحنُو على ابنه الصغير ويرعاه ، وعلى ذلك فالمؤمن عليه أن يُعْلِى غرائزه وعواطفه .

وقول الحق سبحانه عن يعقوب :

﴿ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنه أخذ النزوع على قَدْره . وكلمة « كظيم » مأخوذة من « كظمت القربة » أى : أحكمنا غَلْق فوهة القِرْبة ، بما يمنع تسرُّب الماء منها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالُواْ تَاللَّهِ تَفْتَؤُاْ(١) تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا(٢) أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾

ولقائل أنْ يسأل : ومَن الذين قالوا ليعقوب ذلك ، وقد ذكرت الآية السابقة أنه تولَّى عنهم ؟

---

(١) فتا وفَتىء : زال وتحول . والمضارع تفتؤا . أى : مازلت . وإنما قالوا له ذلك ، لأنهم علموا باليقين أنه يداوم على ذلك. [تفسير القرطبى ٥/٣٥٨٤] .

(٢) الحرض : الذى أذابه الحزن أو العشق ، الذى لا يقدر على النهوض . والحرض أيضاً : الذى أشرف على الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : حرض] بتصرف كثير . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٨٥) : « أصل الحرض الفساد فى الجسم أو العقل من الحزن أو العشق أو الهَرَم » .

نقول : لقد عاش يعقوب مع أبنائه وأحفاده ، ويُقَال فى الأثر : إن يعقوب دخل عليه بعض الناس ، فقالوا له « تالله انهشمت يا يعقوب ، ولم تبلغ سِنَّ أبيك إسحاق » .

والمعنى : أنك صِرْت عجوزاً عاجزاً ، مهشماً . قال : إنما هشَّمنى يوسف . فعتب عليه الله فى هذه القَوْلة ، وأوضح له : أتشكو ربك لخلقه ؟ فرفع يده وقال : خطيئة أخطأتها يا رب فاغفرها لى . قال : غفرتُها لك[1] .

وقد نبَّهه بعض أبنائه أو أحفاده فقالوا :

﴿ تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لا تزال تذكر يوسف وما حدث له ، حتى تُشرف على الهلاك . و « الحَرَض » كما نعلم هو المُشْرِف على الهلاك ، أو يهلك بالفعل .

وجاء الرد من يعقوب عليه السلام ، وأورده الحق سبحانه :

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٤ / ٥٧١) من قول طلحة بن مصرف الأيامى وعزاه لابن جرير الطبرى . قال طلحة : أنبئت أن يعقوب دخل عليه جار له فقال : يا يعقوب ، ما لى أراك قد انهشمت وفنيت ، ولم تبلغ من السن ما بلغ أبوك ؟ قال : هشمنى وأفنانى ما ابتلانى الله به من هَمِّ يوسف ، وذكره ، فأوحى الله إليه : يا يعقوب ، أتشكونى إلى خلقى ؟ فقال : يا رب ، خطيئة أخطأتها فاغفرها لى . قال : فإنى قد غفرت لك. فكان بعد ذلك إذا سُئل قال : ﴿ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ .. ﴿٨٦﴾ ﴾ [يوسف] .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي[1] وَحُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾

وشكاية الأمر إلى الله لَوْن من العبادة لله ، والبَثُّ : هى المصيبة التى لا قُدرة لأحد على كتمانها ؛ فينشرها ، وإذا أصاب الأعلى الأدنى بما يراه الأدنى سوءً ، يتفرع الأدنى إلى نوعين : نوعٍ يتودد إلى الأقوى ، و يتعطفه ويلين له ، ويستغفره ويستميحه ، ونوع آخر يتأبى على المُبْتلَى . ويتمرد ، ولسان حاله يقول : « فليفعل ما يريد ».

والحق تبارك وتعالى يقول فى كتابه :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا ﴿٤٣﴾ ﴾ [الانعام]

فساعةَ يأتى البأسُ ونتضرع إلى الله ؛ يكون البأس قد غسلنا من الذنوب ونسيان الذِّكْر ؛ وأعادنا إلى الله الذى لن يزيل البأس إلا هو .

أما الذى يتمرد ويستعلى على الأحداث ، فويل له من ذلك التمرد . والحق سبحانه حين يصيب إنساناً بمصيبة ، فهو يلطف بمَنْ يدعوه.

وتساءَل بعضهم : ولماذا لم يَقُلْ يعقوب ما علَّمنا إياه رسولنا ﷺ:

﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾[البقرة]

---

(١) حقيقة البث فى اللغة ما يرد على الإنسان من الأشياء المهلكة التى لا يتهيأ له أن يخفيها. قال الحسن : بثى : حاجتى . وقيل : أشد الحزن . [راجع : تفسير القرطبى ٥/٣٥٨٦] .

ونقول : إن هذا من النعم التى اختصّ بها الحق سبحانه أمةَ محمد ﷺ ؛ وحين دخل بعضهم على علىّ بن أبى طالب ـ كرَّم الله وجهه وأرضاه ـ وكان يعانى من وَعْكة ، وكان يتأوَّه ، فقالوا له : يا أبا الحسن أتتوجَّع ؟ قال : أنا لا أشجع على الله .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يعلن يعقوب عليه السلام أنه لا يشكو حُزْنه وهَمَّه إلا إلى الله ، فهو القادر على كشف الضُّرِّ ؛ لأن يعقوب عليه السلام يعلم من الله ما لا يعلم أبناؤه أو أحفاده .

فقد كان يشعر بوجدانه ، وبما كان لديه من شكوك لحظة إبلاغهم له بحكاية الذئب المكذوبة أن يوسف ما زال حَياً ، وأن الرُّؤيا التى حكى يوسف عنها لأبيه ، سوف يأذن الحق بتحقيقها .

ويذكر الحق سبحانه ما جاء على لسان يعقوب فيقول :

﴿ يَٰبَنِيَّ ٱذۡهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾

ونلحظ أن الذين غابوا هم ثلاثة : يوسف ، وبنيامين ، والأخ

---

(١) تحسس الشىء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿يَٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] . أى : تتبعوا أخبارهما وابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/ ١٥٤] .

الأكبر الذى أصرَّ على ألاَّ يبرح مصر إلا بعد أن يأذنَ أبوه ، أو يأتى فرج من الله .

وهنا فى هذه الآية جاء ذكْر يوسف وأخيه ، ولم يَأْتِ ذكْر الأخ الكبير أو رئيس الرحلة . ونقول : إن يوسف وأخاه هما المعسكر الضعيف الذى عانى من مناهضة بقية الإخوة ، وهما قد فارقا الأب صغاراً ، أما الأخ الأكبر فيستطيع أن يحتال ، وأن يعود فى الوقت الذى يريد .

وقول يعقوب :

﴿ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

نجد فيه كلمة ﴿ تحسسوا ﴾ ، وهى من الحسِّ ، والحسُّ يُجمع على « حواس » ، والحواس هى منافذ إدراك المعلومات للنفس البشرية ، فالمعلومات تنشأ عندنا من الأمور المُحسَّة ، وتدركها حواسنا لتصير قضايا عقلية .

وهكذا نعلم أن الحواس هى قنواتُ المعرفة ، وهى غير مقصورة على الحواس الخمس الظاهرة ؛ بل اكتشف العلماء أن هناك حواسَّ أخرى غير ظاهرة ، وسبق أن تعرضنا لهذا الأمر فى مرَّاتٍ كثيرة سابقة .

وقوله :

﴿ فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ .. ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى أعملوا حواسكم ، بكل ما فيها من طاقة ، كى تصلوا إلى الحقيقة .

ونعلم أن كلمة « الجاسوس » قد أُطلقَتْ على مَنْ يتنصَّتْ ويرى ويشُمُّ رائحة الأخبار والتحرُّكات عند معسكر الأعداء ؛ ويقال له « عين » أيضاً .

وفي عُرْفنا العام نقول لمن يحترف التقاط الأخبار « شَمْ شِمْ لنا على حكاية الأمر الفلاني » .

وتابع يعقوب القول :

﴿لاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ[1] اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]

أي : إياكم أن تقولوا أننا ذهبنا وتعبنا وتحايلنا ؛ ولم نجد حلاً ، لأن الله موجود ، ولا يزال لله رحمة .

والأثر يقول : « لا كَرْبَ وأنت رَبٌّ» .

وما يَعِزُّ عليك بقانونك الجأ فيه إلى الله .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ « أنه كلما حَزَبه أمر قام وصلى »[2] .

وبهذا لجأ إلى ربِّ الأسباب ، وسبحانه فوق كل الأسباب ، وجَرِّبوا ذلك في أيِّ أمر يُعضلكم ، ولن ينتهي الواحد منكم إلى نهاية الصلاة إلا ويجد حَلاً لمَا أعضلَه .

---

(١) الرَّوْح : الرحمة. سماها روحاً لأن الرَّوح والراحة بها. وقوله : ﴿ لا تيأسُوا من رَّوْح الله .. ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف] أي : لا تقنطوا من فرج الله . قاله ابن زيد . يريد أن المؤمن يرجو فرج الله . [راجع : القرطبي في تفسيره ٣٥٨٧/٥] و [لسان العرب - مادة : روح] .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٣٨٨/٥) ، وأبو داود في سننه (١٣١٩) من حديث حذيفة ابن اليمان .

وكلمة « رَوْح » نجدها تُنطَق على طريقتين « رَوْح » و « رُوح »، و « الرَّوْح » هى الرائحة التى تهبُّ على الإنسان فيستروح بها ، مثلما يجلس إنسان فى يوم قَيْظ[1] ؛ ثم تهبُّ نسمة رقيقة ينتعش بها.

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الواقعة]

ونأخذ لهذه الروح مثلاً من المُحسَّات حين يشتد القيظ ، ونجلس فى بستان ، وتهبُّ نسمة هواء ؛ فيتعطر الجو بما فى البستان من زهور .

والرُّوح[2] هى التى ينفخها الحقُّ سبحانه فى الجماد فيتحرك .

ويأتى هنا يعقوب عليه السلام بالقضية والمبدأ الذى يسير عليه كل مؤمن ، فيقول :

﴿ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

لأن الذى ليس له رَبٌّ هو مَنْ ييأس ، ولذلك نجد نسبة المنتحرين بين الملاحدة كبيرة ، لكن المؤمن لا يفعل ذلك ؛ لأنه يعلم أن له رباً يساعد عباده .

وما دام المؤمن قد أخذ بالأسباب ؛ فسبحانه يَهبُه ممَّا فوق الأسباب .

---

(١) القيظ : صميم الصيف . واليوم القائظ : شديد الحر . [لسان العرب ـ مادة : قيظ] .

(٢) الروح بالضم : ما به حياة النفس ، قال تعالى : ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ ﴿٩﴾﴾ [السجدة] . أى : من سر الحياة التى لا يخلقها إلا الله ، أى : بروح من الله لا من غيره ، بروح لا يملك نفخها فى الإنسان إلا الله . [القاموس القويم ١/ ٢٨٠] .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ۝ ﴾ [الطلاق]

وهذه مسألة تحدث لمن يتقى الله . أتحدى أن يوجد مؤمن ليس فى حياته مثل هذه الأمور ، ما دام يأخذ بالأسباب ويتقى الله ، وسوف يجد فى لحظة من لحظات الكرب أن الفرج قد جاء من حيث لا يحتسب ؛ لأن الله هو الرصيد النهائى للمؤمن .

وهَبْ أنك سائر فى الطريق ، وفى جيبك جنيه واحد ، وليس عندك غيره وضاع منك ؛ هل تحزن ؟ نعم سوف تحزن ، ولكن إنْ كان فى بيتك عشرة جنيهات فحزنك يكون خفيفاً لضياع الجنيه ، ولو كان رصيدك فى البنك ألف من الجنيهات ، فلن تحزن على الجنيه الذى ضاع .

ومَنْ له رَبٌّ ، يبذل الجَهْد فى الأخذ بالأسباب ؛ سيجد الحل والفرج من أىِّ كرب ممَّا هو فوق الأسباب .

ولماذا ييأس الإنسان ؟

إن المُلحد هو الذى ييأس ؛ لأنه لا يؤمن بإله ، ولو كان يؤمن بإله ، وهذا الإله لا يعلم بما فيه هذا الكافر من كَرْب ، أو هو إله يعلم ولا يساعد مَنْ يعبده ؛ إما عجزاً أو بُخْلاً ، فهو فى كل هذه الحالات ليس إلهاً ، ولا يستحق أن يُؤمَن به .

أما المؤمن الحق فهو يعلم أنه يعبد إلهاً قادراً ، يعطى بالأسباب ، وبما فوق الأسباب ؛ وهو حين يمنع ؛ فهذا المَنْع هو عَيْنُ العطاء ؛ لأنه قد يأخذ ما يضره ولا ينفعه .

وينقلنا الحق سبحانه إلى نَقْلة أخرى ؛ وهى لحظة أنْ دخلوا على يوسف عليه السلام فى مقرِّه بمصر ؛ ونقرأ قوله الحق :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ (١) فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾

ولم يذكر الحق سبحانه اسم مَنْ دخلوا عليه ، لأنه بطل القصة ، والضمير فى « عليه » لا بُدَّ أنْ يعود إلى معلوم ، ونادوه بالتفخيم قائلين :

﴿ يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

أى : أن الجوع صَيَّرنا إلى هُزَال ، وبدأوا بترقيق قلب مَنْ يسمعهم ؛ بعد تفخيمهم له ؛ فهو الأعلى وهُم الأدنى .

ويستمر قولهم :

---

(١) أى : ومعنا ثمن الطعام الذى نمتاره وهو ثمن قليل . قاله مجاهد والحسن وغير واحد . [ابن كثير ٤٨٨/٢] . وقال القرطبى (٣٥٨٨/٥) : « الإزجاء : السَّوْق بدفع والمعنى : أنها بضاعة تُدفع ، ولا يقبلها كل أحد » .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

ونعلم أنهم قد جاءوا ليتحسسوا أمر يوسف وأخيه ، وقد اختاروا مَدْخل الترقيق والتفخيم كلَوْن من المكْر ، فالتفخيم بندائه بلقب العزيز ؛ أي : المالك المُتمكِّن ؛ ويعنى هذا النداء أن ما سوف يطلبونه منه هو أمر فى متناول سلطته .

والترقيق بشكوى الحال من جوع صار بهم إلى هُزال ، وأعلنوا قدومهم ومعهم بضائع مُزجاة ، أى : بضاعة تُستخدم كأثمان لِمَا سوف يأخذونه من سلَع .

وكلمة : ﴿ مُّزْجَاةٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

أى : مدفوعة من الذى يشترى أو يبيع .

والحق سبحانه يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[1] .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [النور]

وكلمة « يزجى » بمعنى : يدفع .

إذن : فما معنى قول الحق سبحانه :

﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ .. ﴿٨٨﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) الرُّكْم : جمعك شيئاً فوق شىء حتى تجعله رُكاماً مركوماً كركام الرمل والسحاب ونحو ذلك من الشىء المرتكم على بعضه . وارتكم الشىء وتراكم إذا اجتمع . [لسان العرب - مادة : ركم] .

ولكى تعرف المعنى بإحساسك ؛ جَرِّب هذا الأمر فى نفسك ، وراقب كيف تدفع ثمن أىِّ شىء تشتريه ؛ فإنْ كان معك نقود قديمة ونقود جديدة ؛ ستجد أنك تدفع قيمة ما تشتريه من النقود القديمة ؛ وسوف تجد نفسك مرتاحاً لاحتفاظك بالنقود الجديدة لنفسك .

وقد يقول لك مَنْ تشترى منه : « خذ هذه الورقة النقدية القديمة التى تدفعها لى ، واستبدلها لى بورقة جديدة » .

فما دامت النقود سوف تُدفع ؛ فأنت تريد أن تتخلص من النقود القديمة ؛ وتفعل ذلك وأنت مُرتاح ، وبذلك يمكننا أن نفهم معنى :

﴿ ببِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ .. (٨٨) ﴾ [يوسف]

على أنها بضاعة رديئة .

فكأن الضُّرَّ الذى أصابهم جعلهم عاجزين عن دفع الأثمان للمَيْرة التى سوف يأخذونها ، مثل الأثمان السابقة التى تميزت بالجودة .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِى الْمُتَصَدِّقِينَ (٨٨) ﴾ [يوسف]

أى : أنهم يرجونه أن يُوفِّى لهم الكيل ولا ينقصه ؛ إنْ كان ما جاءوا به من أثمان لا يُوفى ما تساويه المَيْرة ، وطالبوه أن يعتبر تلك التَّوْفية فى الكَيْل صدقة .

وبذلك رَدُّوه إلى ثمن أعلى مما حملوه من أثمان ، وفوق قدرة البشر على الدَّفْع ؛ لأن الصدقة إنما يُثيب عليها الحق سبحانه وتعالى.

ولقائل أن يسأل : أليسوا أبناء نبوة ، ولا تجوز عليهم الصدقة ؟

نقول : إن عدم جواز الصدقة هو أمر اختصَّ به الحق سبحانه آل محمد ﷺ ، وهو أمر خاص بأمة محمد ﷺ ، فقد قال ﷺ : « إن الصدقة لا تنبغى لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس »[1] .

وانظر إلى ما فعلته الترقيقات التى قالوها ؛ نظر إليهم يوسف عليه السلام وتبسم ، ولما تبسَّم ظهرت ثناياه[2] ، وهى ثنايا مميزة عن ثنايا جميع مَنْ رأوه .

وجاء الحق سبحانه بما قاله :

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾

ومجىء هذا القول فى صيغة السؤال ؛ يدفعهم إلى التأمل والتدقيق ؛ لمعرفة شخصية المُتحدِّث .

ثم يأتى التلطُّف الجميل منه حين يضيف :

﴿ مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [يوسف]

وفى هذا القول ما يلتمس لهم به العُذْر بالجهل ، ولم يتحدث

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٦٦) ، ومسلم فى صحيحه (١٠٧٢) كتاب الزكاة من حديث عبدالمطلب بن ربيعة بلفظ : « ألا إن الصدقة لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنما هى أوساخ الناس » .

(٢) ثنايا الإنسان فى فمه هى : الأسنان الأربع التى فى مُقدَّم فمه : ثنتان من فوق ، وثنتان من أسفل . [لسان العرب ـ مادة : ثنى] .

إليهم بعزَّة الكبرياء ، وغرور المكانة التى وصل إليها ، وهدفه أن يخفف عنهم صَدْمة المفاجأة ، فذكر لهم أنهم فعلوا ذلك أيام جهلهم.

وهذا مثلما يكون أحدهم قد أخطأ فى حقِّك قديماً بسلوك غير مقبول ، ولكن الأيام أزالتْ مرارتك من سلوكه ، فتُذكِّره بما فعله قديماً وأنت تقول له : إن فعلك هذا قد صدر منك أيام طَيْشك ، لكنك الآن قد وصلتَ إلى درجة التعقُّل وفَهْم الأمور .

وقول يوسف عليه السلام لهم هذا الأمر بهذه الصيغة من التلطُّف ، إنما يعبر أيضاً عن تأثُّره بشكواهم ، ثم تبسُّمه لهم ، وظهور ثناياه دفعهم إلى تذكُّره[1] ، ودار بينهم وبينه الحوار الذى جاء فى الآية التالية :

﴿ قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ ۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى ۖ قَدْ مَنَّ[2] ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

وهكذا انتبهوا إلى شخصية يوسف وتعرَّفوا عليه ، وقالوا :

﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف]

---

(١) كان يوسف عليه السلام إذا تبسَّم كأن ثناياه اللؤلؤ المنظوم ، قال ابن عباس : تبسَّم يوسف ، فشبَّهوه بيوسف فقالوا له على جهة الاستفهام : ﴿ أَئِنَّكَ لأَنتَ يُوسُفُ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [يوسف] . وفى هذا روايات أخرى ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩١) .

(٢) مَنَّ عليه : أنعم عليه وأحسن إليه . قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩١) : « أى : قد مَنَّ الله علينا بالنجاة والملك » بتصرف .

وجاء قولهم بأسلوب الاستفهام التقريرىّ الذى أكّدوه بـ « إنْ » و « اللام » ، وقد قالوا ذلك بلهجة مُمتلئة بالفرح والتعجُّب بنجاحهم فى التحسُّس الذى أوصاهم به أبوهم .

فَردَّ عليهم :

﴿ أَنَا يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي .. (٩٠) ﴾ [يوسف]

وبطبيعة الحال هم يعرفون أخَ يوسف « بنيامين » ، وجاء ذكْر يوسف له هنا دليلاً على أن بنيامين قد دخل معه فى النعمة ، وأن الحق سبحانه قد أعزَّ الاثنين .

ويجىء شُكْر يوسف لله على نعمته فى قوله :

﴿ قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠) ﴾ [يوسف]

وجاء يوسف بهذا القول الذى يعرض القضية العامة التى تنفعهم كإخوة له ، وتنفع أىَّ سامع لها وكل مَنْ يتلوها ، وقد قالها يوسف عليه السلام بعد بيِّنة من واقع أحداث مرَّتْ به بَدْءًا من الرُّؤيا إلى هذا الموقف .

فهو كلام عليه دليل من واقع مُعَاش ، فقد مَنَّ الله على يوسف وأخيه مما ابْتُليا به واجتمعا من بعد الفُرْقة ، وعلَّل يوسف ذلك بالقول :

﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ .. (٩٠) ﴾ [يوسف]

أى : مَنْ يجعل بينه وبين معصية الله وقاية ، ويخشى صفات

الجلال ، ويتبع منهجه سبحانه ، ويصبر على ما أصابه ، ولا تفتُر همَّته عن عبادة الله طاعة ، ويتجنب كل المعاصى مهما زُيِّنَتْ له .

فسبحانه وتعالى لا يُضيع أجر المحسنين الذين يتقونه ، وصاروا بتقواهم مُستحقِّين لرحمته ، وإحسانه فى الدنيا والآخرة .

ويأتى قول الحق سبحانه بعد ذلك ليحمل لنا ما قاله إخوة يوسف فى هذا الموقف :

﴿ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾ ﴾

و « تالله » قَسَم بالله .

و ﴿ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا .. ﴿٩١﴾ ﴾ [يوسف]

أى : خصَّك بشىء فوق ما خَصَّ به الآخرين ، وهو لم يُؤْثِرْك بظلم لغيرك ، ولكنك كنت تستحق ما آثرك به من المُلْك وعلو الشأن والمكانة .

وهكذا صدَّق إخوة يوسف على ما قاله يوسف ، واعترفوا بخطيئتهم ، حين حاولوا أن يكونوا مُقرَّبين مثله عند أبيهم ، ولكنك يا يوسف وصلت إلى أن تصير مُقرباً مُقدَّماً عند ربِّ أبينا وربِّ العالمين.

والشأن والحال التى كنا فيها تؤكد أننا كنا خاطئين ، ولا بُدَّ أن ننتبه إلى الفَرْق بين « خاطئين » و « مخطئين » .

والعزيز قد قال لزوجته :

﴿ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (٢٩) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ لها « كنت من المخطئين » فالمادة واحدة هي : «الخاء » و « الطاء » و «الهمزة » ، ولكن المعنى يختلف ، فالخاطئ هو مَنْ يعلم منطقة الصواب ويتعدَّاها ، أما المُخْطِئ فهو مَنْ لم يذهب إلى الصواب ؛ لأنه لا يعرف مكانه أو طريقه إليه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام لإخوته بعد أن أقرُّوا بالخطأ :

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ (٩٢) ﴾

والتثريب هو اللوم العنيف ، وهو مأخوذ من الثَّرْب ؛ فحين يذبحون ذبيحة ، ويُخرجون أمعاءها يجدون حول الأمعاء دُهْناً كثيفاً ؛ هذا الدُّهْن يُسمَّى ثَرْب .

أما إن كانت هزيلة ، ولم تتغذَّ جيداً ، فأمعاؤها تخرج وقد ذاب من عليه هذا الثَّرْب .

والتثريب يعني : أن اللوم العنيف قد أذابَ الشحم من لحمه ، وجعل دمه ينزّ ، ويكاد أن يصل بالإنسان إلى أن ينزل به ويسلّه .

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال :

« إذا زنت أَمَةُ أحدكم فتبيَّن[1] زناها فليجلدها الحدّ ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إن زنت فليجلدها الحد ، ولا يُثرِّب عليها ، ثم إنْ زنت الثالثة فتبيّن زِنَاها فَلْيبعْها ، ولو بحبل من شعر »[2] .

أى : لا يقولن لها : يا مَنْ فعلتِ كذا وكذا ، بل فليعاقبها بالعقاب الذى أنزله الله لمثل هذه الجريمة ؛ فإن لم ترتدع عن الفعل فَلْيبِعْها ، وهكذا نفهم أن التثريب أو اللوم العنيف قد يُولِّد العناد .

وقال يوسف عليه السلام :

﴿ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

ولقائل أن يتساءل : ولماذا قال يوسف ذلك ؛ وقد يكونون قد استغفروا الله من قبل ؟

ونقول : إن دعوة يوسف بالمغفرة لهم جاءت فى حدود معرفته، ولتصفية النفوس مما شابها بهذا اللقاء .

وقوله :

﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

هو فَهْمٌ لحقيقة أن أىَّ رحمة فى العالم ، أو من أى أحد إنما هى مُستمدّة من رحمته سبحانه .

---

(١) قال النووى فى شرحه لمسلم (٢٢٣/١١) : « معنى تبيُّن زناها تحققه ، إما بالبينة ، وإما برؤية ، أو علم عند من يُجوِّز القضاء بالعلم فى الحدود » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٠٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وقد قال يوسف ذلك وهو واثق من إجابة دعوته ، لأنه قد غفر لهم خطأهم القديم وعفَا عنهم ؛ والله أَوْلَى منه بالعفو عنهم .

ثم يعود الحديث بينه وبينهم إلى والدهم ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف لإخوته ، وهو الذى علِم ما حدث لأبيه بعد فراقه له :

﴿ ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾ ﴾

وكان يوسف عليه السلام ، قد علِم أن أباه يربط عينيه من الحزن ، وكاد أن يفقد بصره ، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه الذى كان يلبسه إلى أبيه .

وتقول كتب السِّير أن أخاه الأكبر الذى رفض أن يبرح مصر ، وقال :

﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِى أَبِى أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِى وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [يوسف]

قد قال ليوسف :

« يـٰأيها العزيز إننى أنا الذى حملتُ القميص بدم كذب إلى أبى ، فدعْنى أحمل هذا القميص لأبى ، كى تمحو هذه تلك »[1] .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٥٩٣) : « حكى السدى أن الذى حمل قميصه يهوذا . قال ليوسف : أنا الذى حملت إليه قميصك بدم كذب فأحزنته ، وأنا الذى أحمله الآن لأسرّه ، وليعود إليه بصره ، فحمله » .

وقال يوسف عن فعل القميص مع الأب :

﴿ فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

ونلحظ أنه لم يَقُلْ : « وجه أبيكم » .

وفى قوله :

﴿ وَجْهِ أَبِي .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

إشارة إلى الحنان الأبوى الذى فقدوه منذ أن غاب يوسف ، فغرق والده فى الحزن .

و .

﴿ يَأْتِ بَصِيرًا .. (٩٣) ﴾ [يوسف]

أى : يرتدّ إليه بصره ، أو يراه أمامه سليماً .

ويضيف يوسف :

﴿ وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (٩٣) ﴾ [يوسف]

هذا تعبير قُرآنى دقيق ، أن يُحضروا معهم كل مَنْ يَمُتُّ بصلة قرابة لهم أو يعمل معهم[1] ، ولم يَقُلْ يوسف « بآلكم » حتى لا يأتوا بالأعيان فقط .

ونلحظ أنه لم يذكر والده فى أمر يوسف لإخوته أن يأتوه بكل مَنْ يمُتُّ لهم بصلة قُرْبى ؛ لأن فى مثل هذا الأمر ـ من موقع عزيز مصر ـ إجباراً للأب على المجىء ، وهو يُجِلُّ أباه عن ذلك .

---

(١) قال مسروق : كانوا ثلاثة وتسعين ، ما بين رجل وامرأة . القرطبى فى تفسيره (٥/٣٥٩٣) .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ[1] يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ[2] ﴿٩٤﴾ ﴾

و « فصلت » تدل على شيء كان مُلْتصقاً بشيء آخر وانفصل عنه ، وفَصلت العيرُ . أى : خرجتْ منْ المدينة وتجاوزتْها ؛ لتسير فى رحلتها ، والمقصود خروج القافلة من حدود مصر قاصدةً مكان يعقوب عليه السلام .

وهنا قال يعقوب لمن كانوا حاضرين معه من الأحفاد وأبناء الأبناء :

﴿ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

والمعروف أن القميص الذى أرسله مع أخيه الأكبر يحمل رائحة يوسف ، لكن الذين حول يعقوب من أقربائه لم يُصدِّقوا قوله ، فأضاف :

﴿ لَوْلا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ ﴾ [يوسف]

أى : لولا اتهامكم لى بالخَرف ، لأن التفنيد هو الخرف[3] .

---

(١) ريح يوسف : أى ريحاً تحمل رائحته ، أو الريح بمعنى الرائحة أى رائحته . [القاموس القويم ١/٢٨٠] .

(٢) فَند : ضعف رأيه من الهرم ، أو كذب عامداً ، وأتى بالباطل . وفنَّد رأيه : أضعفه وأبطله ، أو بيَّن ما فيه من الخطأ . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٣) الخرف : فساد العقل من الكِبَر . [لسان العرب ـ مادة : خرف] .

ومن العجيب أننا في أيامنا هذه نجد العلم وقد أثبت أن صُورَ المرائي والأصوات ، توجد لها آثار في الجو ، رغم ما يُخيَّل للإنسان أنها تلاشتْ .

ويحاول العلم بوسائل من الأشعة أن يكشف صورة أيِّ جماعة كانت تجلس في مكان ما ، ثم رحلتْ عنه منذ ساعة أو ساعتين ، ممَّا يدلُّ على أن الصور لها نضح من شعاع وظلال يظل بالمكان لفترة قبل أن يضيع .

وكذلك الأصوات ؛ فالعلماء يحاولون استرداد أصوات مَنْ رحلوا ؛ ويقولون : لا شيءَ يضيع في الكون ، بل كل ما وُجِد فيه محفوظ بشكل أو بآخر .

والرائحة أيضاً لا تضيع ، بدليل أن الكلب يشُمُّ الريح من على مسافات بعيدة ، ويميز الآن المخدرات من رائحتها ؛ ولذلك تنتشر الكلاب المدرَّبة في المطارات وعلى الحدود ؛ لتكشف أيَّ محاولة لتهريب المخدرات .

وإذا كان الحيوان المخلوق بقدرة الله قادراً على التقاط الرائحة من بين آلاف الروائح ، وإذا كان العلم الموهوب من الله للبشر ؛ يبحث الآن في كيفية استحضار الصورة واسترداد الصوت من الفضاء المحيط بالإنسان ؛ فعلينا أن ندرك أن العيرَ عندما خرجتْ من أسوار المدينة ؛ وأخذتْ طريقها إلى الموقع الذي يعيش فيه يعقوب عليه السلام ؛ استطاع يعقوبُ بقدرة الله أن يَشُمَّ رائحة يوسف ؛ تلك التي يحملها قميصه القادم مع القافلة .

ولسائل أن يقول : ولماذا ارتبط تنسُّم يعقوب لرائحة يوسف بخروج العِير من مصر ، وتواجدها على الطريق إلى موطن يعقوب ؟

نقول : لأن العيرَ لحظة تواجدها في المدينة تكون رائحة قميص يوسف مُخْتلطة بغيرِها من الروائح ؛ فهناك الكثير من الروائح الأخرى داخل أى مدينة ، ويصعب نفاذ رائحة بعينها لتغلب على كل الروائح ؛ ويختلف الأمر فى الخلاء ؛ حيث يمكن أن تمشى هَبَّة الرائحة دون أن يعترضها شىء .

وبذلك نؤمن أن كل شىء فى الكون محفوظ ولا يضيع ؛ مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ (١٠) كِرَامًا كَاتِبِينَ (١١) ﴾ [الانفطار]

وكل ما يصدر منك مُسجَّل عليك ؛ ولذلك يأتيك كتابك يوم القيامة لتقرأه ، وتكون على نفسك حسيباً .

ويردُّ مَنْ بقِى من أهل يعقوب معه على قوله بأنه يجد رِيحَ يوسف :

﴿ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ (٩٥) ﴾

وكأنهم قد ملُّوا حديثه عن يوسف ؛ وأعرضوا عن كلامه قائلين له : إلى متى ستظل على ضلالك ، وهم لا يعنُون الضلال[1] بمعنى الخروج عن المنهج ، ولكنهم يعنُونَ الضلال بمعنى الجزئيات التى لا علاقة لها بالتديُّن من محبة شديدة ليوسف ، وتعلُّق به ، والتمنِّى لعودته ، وكثرة الحديث عنه ، وتوقُّع لقائه ، وهم الذين ظَنُّوا أن يوسف قد مات .

---

(١) الضلال هنا يعني شدة الانشغال بالمحبوب وكثرة السؤال عنه والبحث المتلاحق مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ (٧) ﴾ [الضحى].

ويأتى البشير ليعقوب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَىٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ فَٱرْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾

وحين حضر البشير[1] ، وهو كما تقول الروايات كبير الإخوة ؛ ويُقال أيضاً : إنه يهوذا ؛ وهو مَنْ رفض أن يغادر مصر إلا بعد أن يأذن له والده ، أو يأتى حَلٌّ من السماء لمشكلة بقاء بنيامين فى مصر ، بعد اتهام أعوان العزيز له بالسرقة ، طبقاً لما أراده يوسف ليستبقى شقيقه معه .

ولما جاء هذا البشير ومعه قميص يوسف ؛ فألقاه على وجه الأب تنفيذاً لأمر يوسف عليه السلام .

وبذلك زال سبب بكاء يعقوب ، وفَرِح يعقوب فرحاً شديداً ؛ لأنه فى أيام حزنه على يوسف ، وابيضاض عينيه من كثرة البكاء حدَّثه قلبه بالإلهام من الله أن يوسف ما زال حياً ؛ وكان البكاء عليه من بعد ذلك هو بكاء من فَرْط الشوق لرؤية ابنه .

---

(١) البشير : الذي يُبشِّر القوم بالخبر السارّ . قيل : هو شمعون . وقيل : يهوذا . قال : أنا أذهب بالقميص اليوم كما ذهبتُ به مُلطَخاً بالدم . قاله ابن عباس . وعن السدى أنه قال لإخوته : قد علمتم أني ذهبت إليه بقميص التَّرْحة (الحزن) فدعونى أذهب إليه بقميص الفرحة . [تفسير القرطبى ٥/٣٥٩٦] .

وكذلك قد يكون يوسف قد علم بالوحى من الله أن إلقاء القميص على وجه أبيه يردُّ إليه بصره ، بإذن من الحق سبحانه وتعالى ، فضلاً عن أن الفرح له آثار نفسية تنعكس على الحالة الصحية ، وهكذا تجلَّتْ انتصارات الحقِّ والنبوة .

وقال يعقوب عليه السلام :

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ ذلك إذلالاً لهم ، بل ليعطى الثقة والتوثيق لأخبار كل نبى ، وأن الواقع قد أيَّد الكلام الذى قاله لهم :

﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا[1] مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف]

فإذا جاءكم خبر من معصوم ؛ إياكم أن تقفوا بعقولكم فيه ؛ لأن العقول تأخذ مُدْركات الأشياء على قَدْرها ، وهناك أشياء فوق مُدْركات العقول .

وحين يُحدِّثكم معصوم عن ما فوق مُدْركات عقولكم إياكم أن تُكذِّبوه ؛ سواء فهمتم ما حدَّثكم عنه ، أو لم تستوعبوا حديثه عمَّا فوق مُدْركات العقول .

---

(١) تحسس الشيء وتحسس منه : طلب معرفته بالبحث الدقيق عنه . قال تعالى : ﴿ يَٰبَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف] . أي : تتبعوا أخبارهما و ابحثوا عنهما بعناية شديدة . [القاموس القويم ١/١٥٤] .

راجعه على الأصل وخرج أحاديثه فضيلة الشيخ محمد السنراوى المستشار بالأزهر والأستاذ عادل أبو المعاطى .

وهنا يُقِر إخوة يوسف بذنوبهم ، فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وهم هنا يُقِرُّون بالذنب ، ويُحدِّثون والدهم بنداء الأبوة كى يستغفر لهم ما ارتكبوه من ذنوب كثيرة ، فقد آذَوْا أباهم وجعلوه حزيناً ، ولا يسقط مثل هذا الذنب إلا بأن يُقِرَّ به مَنْ فعله ، ونلحظ أنهم قالوا :

﴿ إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [يوسف]

أى : أنهم كانوا يعلمون الصواب ، ولم يفعلوه .

ويأتى الحق سبحانه بما قاله يعقوب :

﴿ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ ﴾

ونلحظ أن يوسف قد قال لهم من قبل :

﴿ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [يوسف]

لكن والدهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول :

---

(١) ثربه : لامه وعتب عليه . وثرَّبه بالتضعيف : أكثر لومه وعيَّره بذنبه وأنَّبه على سوء فعله .
[القاموس القويم ١/١٠٦] .

﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّى..(٩٨) ﴾ [يوسف]

ولم يَقُلْ : « سأستغفر لكم ربى » ، وهذا يدل على أن الكبار يحتاجون لوقت أكبر من وقت الشباب ؛ لذلك أجَّل يعقوب الاستغفار لما بعد .

والشيخ الألوسى فى تفسيره يقول :

« إنما كان ذلك لأن مطلوبات البر من الأخ لإخوته غير مطلوبات البر من ابن لأبيه ؛ لأن الأخ ليس له نفس حق الأب ؛ لذلك يكون غضب الأب أشدَّ من غضب الأخ » .

ثم إن ذنوبهم هنا هى من الذنوب الكبيرة التى مرّ عليها وعلى تأثيرها على الأب زمن طويل . ويقال : إن يعقوب عليه السلام قد أخَّر الاستغفار لهم إلى السَّحَر ، لأن الدعاء فيه مُستجَاب .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك إلى لحظة اللقاء بين يوسف عليه السلام وأهله كلهم ، بعد أن انتقلوا إلى حيث يعيش يوسف ، فيقول سبحانه :

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ[1] إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ (٩٩) ﴾

ونعلم أن الجَدَّ إسحق لم يكُنْ موجوداً ، وكانوا يُغلِّبون جهة الأُبوة على جهة الأمومة ، ودخلت معهم الخالة ؛ لأن الأم كانت غير موجودة[2] .

---

(١) آوى : ضمَّه إليه وأسكنه عنده أو انزله فى بيت . [القاموس القويم ١/٤٥] .

(٢) أم يوسف وبنيامين هى « راحيل » ، وقد ماتت فى نفاس بنيامين . راجع تفسير القرطبى جـ ٥ ص ٣٥٩٨ .

ويبدو أن يوسف قد استقبلهم عند دخولهم إلى مصر استقبال العظماء ، فاستقبلهم خارج البلد مرة ليريحهم من عناء السفر ويستقبلهم وجهاء البلد وأعيانهم ؛ وهذا هو الدخول الأول الذى آوى فيه أبويْه .

ثم دخل بهم الدخول الثانى إلى البلد بدليل أنه قال :

﴿ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ (٩٩) ﴾ [يوسف]

ففى الآية دخولان .

وقول الحق سبحانه :

﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ .. (٩٩) ﴾ [يوسف]

يدل على حرارة اللقاء لمغتربين يجمعهم حنان ، فالأب كان يشتاق لرؤية ابنه ، ولا بُدَّ أنه قد سمع من إخوته عن مكانته ومنزلته ، والابن كان مُتشوِّقاً للقاء أبيه .

وانفعالات اللقاء عادة تُترك لعواطف البشر ، ولا تقنينَ لها ، فهى انفعالات خاصة تكون مزيجاً من الود ، ومن المحبة ، ومن الاحترام ، ومن غير ذلك .

فهناك مَنْ تلقاه وتكتفى بأن تُسلّم عليه مُصَافحة ، وآخر تلتقى به ويغلبُك شوقُك فتحتضنه ، وتقول ما شئتَ من ألفاظ الترحيب .

كل تلك الانفعالات بلا تقنين عبادىّ ، بدليل أن يوسف عليه السلام آوى إليه أبويه ، وأخذهما فى حضنه .

والمثل من حياة رسولنا ﷺ فى سياق غزوة بدر حيث كان يستعرض المقاتلين ، وكان فى يده ﷺ قدح يعدل به الصفوف ، فمَرَّ بسواد بن غزية من بنى عدى بن النجار[1] ، وهو مستنصل[2] عن الصف - أى خارج عنه ، مما جعل الصف على غير استواء - فطعن رسول الله ﷺ فى بطنه بالقدح وقال له : « استَوِ يا سواد » .

فقال سواد : أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقِدْنى[3] .

فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه وقال ﷺ : « استقد » . فاعتنقه سَواد وقَبَّل بطنه .

فقال ﷺ : « ما حملك على هذا يا سواد ؟ » .

قال : يا رسولَ الله ، قد حضر ما ترى - يقصد الحرب - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمسَّ جِلْدِى جلدك . فدعا له رسول الله ﷺ بالخير[4] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) انظر ترجمة سواد بن غزية فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣/١٤٨) .

(٢) تنصَّلت الشىء واستنصلته إذا استخرجته . [لسان العرب - مادة : نصل] .

(٣) القَوَد : القصاص . وإذا أتى إنسان إلى آخر أمراً فانتقم منه بمثلها قيل : استقادها منه . [لسان العرب - مادة : قود] .

(٤) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٦٢٦) طبعة المكتبة العلمية - بيروت ، وكذا ابن كثير فى كتابه « البداية والنهاية ٣/٢٧١ » .

﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ[1] عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا[2] وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وقد رفع يوسف أبويه على العرش لأنه لم يحب التميُّز عنهم ؛ وهذا سلوك يدل على المحبة والتقدير والإكرام .

والعرش هو سرير الملك الذى يدير منه الحاكم أمور الحكم . وهم قد خَرُّوا سُجَّداً لله من أجل جمع شمل العائلة ، ولم يخروا سُجَّداً ليوسف ، بل خَرُّوا سُجَّداً لمن يُخَرّ سجوداً إليه ، وهو الله .

وللذين حاولوا نقاش أمر سجود آل يعقوب ليوسف أقول : هل أنتم أكثر غَيْرةً على الله منه سبحانه ؟

---

(١) أبويه : المقصود بهما هنا أبوه يعقوب عليه السلام ، وخالته زوجة أبيه ، لأن أمه راحيل كانت قد ماتت فى نفاس بنيامين . [راجع تفسير القرطبى ٥ / ٣٥٩٩] .

(٢) قال الحسن البصرى : لم يكن سجوداً ، ولكنه سنة كانت فيهم، يومئون برءوسهم إيماءً ، كذلك كانت تحيتهم . وقال الثورى والضحاك وغيرهما : كان سجوداً كالسجود المعهود عندنا ، وهو كان تحيتهم ، قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) : « أجمع المفسرون أن ذلك السجود على أى وجه كان فإنما كان تحية لا عبادة » .

إنه هو سبحانه الذى قال ذلك ، وهو سبحانه الذى أمر الملائكة من قَبْل بالسجود لآدم(١) فلماذا تأخذوا هذا القول على أنه سجود لآدم؟

والمؤمن الحق يأخذ مسألة سجود الملائكة لآدم ؛ على أنه تنفيذ لأمر الحق سبحانه للهَمِّ بالسجود لآدم ، فآدم خلقه الله من طين ، ونفخ فيه من روحه ؛ وأمر الملائكة أن تسجد لآدم شكراً لله الذى خلق هذا الخَلْق .

وكذلك سجود آل يعقوب ليوسف هو شكر لله الذى جمع شملهم ، وهو سبحانه الذى قال هذا القول ، ولم يُجرِّم سبحانه هذا الفعل منهم(٢) ، بدليل أنهم قَدَّموا تحية ليوسف هو قادر أن يردَّها بمثلها .

ولم يكن سجودهم له بغرض العبادة ؛ لأن العبادة هى الأمور التى تُفعل من الأدنى تقرُّباً للأعلى ، ولا يقابلها المعبود بمثلها ؛ فإنْ كانت عبادة لغير الله فالله سبحانه يُعاقب عليها ؛ وتلك هى الأمور المُحرَّمة .

أما العبادة لله فهى اتباع أوامره وتجنُّب نواهيه ؛ إذن : فالسجود هنا استجابة لنداء الشكر من الكل أمام الإفراج بعد الهم والحزن وسبحانه يُثيب عليها . أما التحية يُقدِّمها العبد ، ويستطيع العبد الآخر أن يردَّ بمثلها أو خَيْرٍ منها ، فهذا أمر لا يحرمه الله ، ولا دَخْل للعبادة به(٣) .

---

(١) ذلك قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [البقرة] .

(٢) نسخ الله ذلك كله فى شرعنا ، وجعل الكلام بدلاً عن الانحناء . قال قتادة : هذه كانت تحية الملوك عندهم ، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة . [راجع : تفسير القرطبى ٥/٣٦٠٠] .

(٣) عن أنس رضى الله عنه قال : « قلنا يا رسول الله ، أينحنى بعضنا إلى بعض إذا التقينا ؟ قال : لا . قلنا : أفيعتنق بعضنا بعضاً ؟ قال : لا . قلنا : أفيصافح بعضنا بعضاً ؟ قال : نعم » أورده القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٠) وعزاه لابن عبدالبر فى التمهيد .

لذلك يجب أن نفطن إلى أن هذه المسألة يجب أن تُحرَّر تحريراً منطقياً يتفق مع معطيات اللغة ومقتضى الحال ، ولو نظرنا إلى وضع يعقوب عليه السلام ، وما كان فيه من أحزان وموقف إخوته بين عذاب الضمير على ما فعلوا وما لاقوه من متاعب لأيقنا أن السجود المراد به شكر من بيده مقاليد الأمور بدلاً من خلق فجوات بلا مبرر وَهُمْ حين سجدوا ليوسف ؛ هل فعلوا ذلك بدون علم الله ؟ طبعاً لا .

ومن بعد ذلك نجد قول يوسف لأبيه :

﴿ وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وقد كانت الرُّؤيا هي أول لَقْطة في قصة يوسف عليه السلام حيث قال الحق ما جاء على لسان يوسف لأبيه :

﴿ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَاجِدِينَ (٤) ﴾ [يوسف]

وقوله في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

أي : أمراً واقعاً ، وقد رآه والد يوسف وإخوته لحظة أنْ سجدوا ليوسف سجودَ الشكر والتحية لا سجود عبادة ، وقد سجد الإخوة الأحد عشر والأب والخالة التي تقوم مقام الأم ، ورؤيا الأنبياء كما نعلم لا بُدَّ أن تصير واقعاً .

ولقائل أن يقول : وماذا عن رُؤْيا إبراهيم عليه السلام التي أمره

فيها الحق سبحانه أن يذبح ابنه ؛ فقام إلى تنفيذها ؛ واستسلم إسماعيل لأمر الرُّؤْيا .

نقول : إن الأنبياء وحدهم هم الملتزمون شرعاً بتنفيذ رؤاهم ؛ لأن الشيطان لا يُخايلهم ؛ فهم معصومون من مخايلة الشيطان .

أما إنْ جاء إنسان وقال : لقد جاءتنى رؤيا تقول لى نَفِّذ كذا . نقول له : أنت غير مُلْزم بتنفيذ ما تراه فى منامك من رُؤَى ؛ فليس عليك حكم شرعى يلزمك بذلك ؛ فضلاً عن أن الشيطان يستطيع أن يُخايلك .

أما تنفيذ إبراهيم عليه السلام لما رآه فى المنام بأن عليه أن يذبح ابنه ، وقيام إبراهيم بمحاولة تنفيذ ذلك ؛ فسببه أنه يعلم بالتزامه الشرعى بتنفيذ الرُّؤيا .

وقد جاء لنا الحق سبحانه بهذا الذى حدث ليبين لنا عظَم الابتلاءات التى مرَّتْ على إبراهيم ، وكيف حاول أن يتم كل ما توجهه له السماء من أوامر ، وأن ينفذ ذلك بدقّة .

وقال الحق سبحانه مُصوِّراً ذلك :

﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ[1] إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤)﴾ [البقرة]

---

(١) ابتلاه : اختبره ليعرف أمره وحاله. وبلوت الشىء : امتحنته واختبرته . قال تعالى : ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)﴾ [الأنبياء] أى : نختبركم بالشر والنعم ، أو بالخير والنعم ، لنعلم مدى صبركم أو شكركم ومدى إيمانكم أو كفركم . [القاموس القويم ١/ ٨٤] .

وكانت قمة الابتلاءات هى أن يُنفِّذ بيديه عملية ذبح الابن ؛ ولذلك أؤكد دائماً على أن الأنبياء وحدهم هم المُلْزمون بتنفيذ رُؤاهم ، أما أى إنسان آخر إنْ جاءته رُؤْيا تخالف المنهج ؛ فعليه أن يعتبرها من نزغ الشيطان .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف :

﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا لم يذكر يوسف الأحداثَ الجِسَام التى مرَّتْ به فى تَسلسُلها ؛ مثل إلقاء إخوته له فى الجُبِّ ؟

نقول : لم يُرِدْ يوسف أن يذكر ما يُكدِّر صَفْو اللقاء بين العائلة من بعد طول فراق . ولكنه جاء بما مرّ به من بعد ذلك ، من أنه صار عبدًا ، وكيف دخل السجن ؛ لأنه لم يستسلم لغُواية امرأة العزيز ، وكيف مَنَّ الله عليه بإخراجه من السجن ، وما أن خرج من السجن حتى ظهرت النعمة ، ويكفى أنه صار حاكماً .

وقد يقول قائل : إن القصة هنا غير مُنْسجمة مع بعضها ، لأن بعضاً من المواقف تُذكر ؛ وبعضها لا يُذْكر .

نقول : إن القصة مُنْسجمة تماماً ، وهناك فارق بين قصص التاريخ كتاريخ ؛ وبين قَصص يوضح المواقف الهامة فى التاريخ .

والمناسبة فى هذه الآية هى اجتماع الإخوة والأب والخالة ، ولا داعى لذكر ما يُنغِّص هذا اللقاء ؛ خصوصاً ؛ وأن يوسف قد قال من قبل :

﴿قَالَ لا تَثْرِيبَ[1] عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢)﴾ [يوسف]

وسبق أن قال لهم بلطف من يلتمس لهم العذر بالجهل :

﴿هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَاهِلُونَ (٨٩)﴾ [يوسف]

وهو هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يذكر إحسان الحق سبحانه له فيقول :

﴿هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا.. (١٠٠)﴾ [يوسف]

ويُثنى على الله شاكراً إحسانه فيقول :

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِى إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ السِّجْنِ .. (١٠٠)﴾ [يوسف]

وهو إحسان له فى ذاته ، ثم يذكر إحسان الله إلى بقية أهله :

﴿وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ.. (١٠٠)﴾ [يوسف]

وكلمة « أحسن » - كما نعلم - مرة تتعدى بـ إلى ، فتقول : « أحسن إليه » ، ومرة تتعدى بالباء ، فنقول : « أحسن به » ، وهو هنا فى مجال « أحسن بى » .

أى : أن الإحسان بسببه قد تعلَّق بكل ما اتصل به ؛ فجعله حاكماً ، وجاء بأهله من البدو[2] ؛ أما الإحسان إليه فيكون محصوراً فى ذاته لا يتعداه .

---

(١) ثرَّب عليه : لامه وعيَّره بذنبه ، وذكّره به . والمثرِّب : المُعيِّر . قال ثعلب : معنى الآية : أى لا تُذْكَر ذنوبكم . [لسان العرب - مادة : ثرب] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦٠٢) : «يُروى أن مسكن يعقوب كان بأرض كنعان ، وكانوا أهل مواشٍ وبرية . وقيل : كان يعقوب تحوّل إلى بادية وسكنها » .

وجعل الحق سبحانه الإحسان هنا قسمين : قسم لذاته ؛ وقسم للغير ، واعتبر مجيء الأهل من البدو إحساناً إليه ، لأن البَدْو قوم يعيشون على الفطرة والانعزالات الأسرية ، ولا تَوطُّن لهم فى مكان ، ولا يضمُّهم مجتمع ، وليس لهم بيوتٌ مبنية يستقرُّون فيها ، ولكنهم يتبعون أرزاقهم من منابت الكلأ ومساقط المياه ، ويحملون رِحالهم إلى ظهر الجمال متنقلين من مكان لآخر .

وتخلو حياتهم من نِعَم الحضارة . ففى الحضر يحضر إليك كل ما تطلب ، ولكن الحياة فى البدو تُحتِّم أن يذهب الإنسان إلى حيث يجد الخير ؛ ولذلك تستقر الحياة فى الحضر عنها فى البادية .

ويعطينا الشاعر أحمد[1] شوقى - رحمة الله عليه - صورة تبين الفارق بين البدو والحضر ، حين صنع مناظرة بين واحدة تتعصب للبدو ، وأخرى تتعصب للحضر . فقال :

فَأنا منَ البِيدِ[2] يا ابن جُرَيج ... ومِنْ هذه العيشَة الجَافِيه

ومن حَالبِ الشاةِ فى موضعٍ ... ومن مُوقدِ النارِ فى نَاحِيه

مُغَنِّيكُمو معبدٌ والغَريق ... وقَيْنتنا الضبع العَاوِيه

هُمْ يأكلونَ فُنونَ الطهاة ... ونحن نأكل ما طَهَتِ المَاشِيه

فابن جريج يشكو السَّأم من حياة البادية ، حيث لا يرى إلا المناظر المُعَادة من حَلْبٍ لشاة ، أو إشعال نار ، ولا يسمع كأهل

---

(١) أحمد شوقى من شعراء الإبداع ، وهو أمير الشعراء فى العصر الحديث ، وما زالت إمارة الشعر عنده .

(٢) البيد : جمع بيداء . وهى الصحراء المستوية ، قليلة الشجر جرداء ، سُميت بذلك لأنها تبيد سالكها . والإبادة : الإهلاك . [لسان العرب - مادة : بيد] .

الحضر صـوت المُغنِّين المشهورين فى ذلـك الزمن ؛ بل يسمع صوت الضِّبَاع العاوية ، ولا يأكل مثل أهل الحضر ما قام بِطَهْيِه الطُّهاة ؛ بل يأكل اللبن وهو ما تقدمه لهم الماشية .

وتردُّ ليلى المتعصِّبة للبادية :

قد اعتسفتْ هِنْدُ يا ابنَ جـرَيج ... وكانت عـلى مَهْـدها قَاسيه

فَـمَـا البِيـد إلاّ دِيَارُ الكرَام ... ومـنزِلةُ الـذِّمَـمِ الـوَاقـيـه

لها قِبْـلةُ الشمسِ عنـد البُزُوغِ ... وللحضَـرِ الـقبـلةُ الثَّانيـه

ونحنُ الرَّياحِين مِلْء الفـضاء ... وهُـنَّ الرَّياحـينُ فـى آنـيه

ويَقْتُلنا العِـشْـقُ والحَاضِـراتُ ... يَقُـمْنَ من العِشق فى غَامِـيه

وقولها « اعـتسفت » يعنى « ظلمت » ، أى : أن هنداً ظلمت الـبيد يا ابن جـريج ، ثم جاءت بمـيزات البدو ؛ فـأوضحت أن بنات الـبادية كالريـاحين المزروعـة فى الفضـاء الواسع ، عكس بنات الحَضَـر التى تشبه الواحدة منهن الريحـانة المزروعة فى أُصص الزرع ، أو أى آنية أخرى .

ثم تأتى إلى القـيم ؛ فـتـفـخر أن بنت البـادية يقـتلهـا العـشْق ، ولا تنال مـمَّنْ تعشـق شيـئاً ؛ فـتنسلّ وتمـوت ، أمـا بنت الحضـر ؛ فصحتها تأتى على الحب .

وهنا فى الآية ـ التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا ـ يشكر يوسف ما مَنَّ به الله عليـه ، وعلى أهله الذين جاء بهم سـبحـانه من البادية ، ليعـيشوا فى مـصر ذات الحضـارة الواسعة ؛ وبذلك يكون قـد ضخَّم

الفرق بين مـا كانوا يعيشون فـيه من شَظَف[1] العيش إلى حياة اللين والدَّعة[2] .

ثم يلمس ما كان من إخوته تجاهه فيقول :

﴿ مِنْ بَعْدِ أَن نَّزَغَ[3] الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ..(١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهذا مَسٌّ لطيف لما حدث ، وقد نسبه يوسف للشيطان ؛ وصَوَّره على أنه « نَزْغ » .

أى : أنه لم يكن أمراً مستقراً على درجة واحدة من السوء . أى : أن ما فعله الشيطان هو مجرد وَخْزة تُنبِّه إلى الشيء الضار فيندفع له الإنسان ، وهى مأخوذة من المِهْماز الذى يُروِّض به مدرب الخيل أىَّ حصان ، فهو ينغزه بالمِهْماز نزغة خفيفة ، فيستمع وينفذ ما أمره به ، فالنَّغْز تنبيه لمهمة ، ويختلف عن الطَّعْن .

والحق سبحانه ينبهنا إلى ما يفعله الشيطان ؛ فيقول لنا :

﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ..(٢٠٠) ﴾ [الأعراف]

وكُلٌّ منَّا يعلم أن الشيطان عدوٌّ له عداوة مُسبقة ، وحين تستعيذ بالله من الشيطان ، فأنت تكتسب حَصَانة من الشيطان .

وسبحانه القائل :

---

(١) الشظف : يُبْس العيش وشدته [لسان العرب ـ مادة : شظف] .
(٢) الدعة : الراحة والترف فى العيش . [لسان العرب ـ مادة : ودع] بتصرف .
(٣) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ بين الرجلين : أفسد ما بينهما . قال تعالى : ﴿ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ .. (٢٠٠) ﴾ [الأعراف] . [القاموس القويم ـ مادة : نزغ] بتصرف .

﴿ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ[1] مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (٢٠١) ﴾
[الأعراف]

أى : أن الإنسان حين يتذكر العداوة بينه وبين الشيطان ؛ فعليه أن يشحن نفسه بالمناعة الإيمانية ضد هذا النَّزْغ .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقول يوسف :

﴿ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠) ﴾ [يوسف]

فسبحانه هو المدبر الذى لا تَخْفى عليه خافية أبداً ، وكلمة « لُطْف » ضد كلمة « كثافة » فاللطيف هو الذى له جِرْم دقيق ، والشىء كلما لَطُف عَنُفَ ؛ لأنه لا توجد عوائق تمنعه .

ولا شىء يعوق الله أبداً ، وهو العليم بموقع وموضع كل شىء ، فهو يجمع بين اللُّطْف والخبرة ، فلُطْفه لا يقف أمامه أىُّ شىء ، ولا يوجد ما هو مستور عنه ، ولا يقوم أمام مراده شىء ، وسبحانه خبير بمواضع الأشياء ، وعلْمه سبحانه مُطْلق ، وهو حكيم يُجرى كل حَدَث بمراد دقيق ، ولا يضيف إليه أحد أىَّ شىء ، فهو صاحب الكمال المطلق .

ويذكر الحق سبحانه بعد ذلك مناجاة يوسف لله سبحانه :

﴿ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ[2] ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ (١٠١) ﴾

(١) الطائف من الشيطان : مسُّه للإنسان بالوسوسة فهو يأتيه من كل جهة ليضله ولا ينجيه منه إلا ذكر الله . [القاموس القويم ١ / ٤١٠] .

(٢) فطر الله الخلق : خلقهم وبدأهم فهو فاطر . قال تعالى : ﴿ فَاطِرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]خالقهما . وفى اللفظ معنى الشق فإنهما كانت رتقاً ففتقهما . وقوله : ﴿ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ .. (٥١) ﴾ [الإسراء] أى : خلقكم أول مرة فى الدنيا . [القاموس القويم ٢/ ٨٥] .

ونعلم أن الربوبية تعنى الخَلْق من عدم ، والإمداد من عدم ؛ والإقاتة لاستبقاء الحياة ، والتزاوج لاستباق النسل ، وتسير كل هذه العمليات فى تناسق كبير .

فالحق سبحانه أوجد من عدم ، واستبقى الحياة الذاتية بالقوت ، واستبقى الحياة النوعية بما أباح من تزاوج وتكاثر .

وكل مخلوق له حَظٌّ فى عطاء الربوبية ، مؤمناً كان أم كافراً ، وكل مخلوقات الكون مُسخَّرة لكل الخلق ، فسبحانه هو الذى استدعى الخَلْق إلى الوجود ؛ ولذلك تكفل بما يحقق لهم الحياة .

ويختص الحق سبحانه عباده المؤمنين بعطاء آخر بالإضافة لعطاء الربوبية ؛ وهو عطاء الألوهية المتمثل فى المنهج .

يقول يوسف عليه السلام مناجياً ربه :

﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

أى : أنه سبحانه هو الذى أعطاه تلك السيادة ، وهذا النفوذ والسلطان ؛ فلا أحد يملك قَهْراً عن الله ؛ وحتى الظالم لا يملك قهراً عن الله ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى آية أخرى من القرآن :

﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِى الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) ﴾
[آل عمران]

وإتيان المُلْك لا توجد فيه مقاومة ممَّنْ يملك ؛ ولكن نَزْع المُلْك هو الذى يقاومه المنزوع منه .

والحق سبحانه هو أيضاً الذى يُعِز مَنْ يشاء ، وهو الذى يُذِل مَنْ يشاء .

وحين تتغلغل هذه الآية فى نفس المؤمن ؛ فهو يُوقِن أنه لا مفرَّ من القدر ، وأن إيتاء المُلْك خير ، وأن نزع الملك خير ، وأن الإعزاز خير والإذلال خير ؛ كى لا يطغى الإنسان ، ولا يتكبر ، ولا يُعدِّل فى إيمان غيره .

وكان بعض الناس يقولون : لا بد أن تُقدر محذوفاً فى الآية .

وهم قد قالوا ذلك بدعوى الظن أن هناك خيرين فى الآية وشَرَّيْن محذوفين.

وأقول : لا ، إن ما تظنه أيها الإنسان أنه شر إنما هو خير يريده الله ؛ فكل ما يُجريه الله خير .

وقول يوسف عليه السلام هنا :

﴿آتَيْتَنِى مِنَ الْمُلْكِ .. (١٠١)﴾ [يوسف]

يقتضى أن نفهم معنى « المُلْك » ؛ ومعنى « المِلْك » ، ولنا أن نعرف أن كل إنسان له شىء يملكه ؛ مثل ملابسه أو قلمه أو أثاث بيته ، ومثل ذلك من أشياء ، وهذا ما يُسمَّى : « المِلْك » . أما « المُلْك » فهو أن تملك مَنْ يملك .

وقد ملَّك الله بعضاً من خَلْقه لخلقه ، ملَّكهم أولاً ما فى حوزتهم ، وملَّكهم غيرهم ، وسبحانه ينزع المُلْك من واحد ويهبه لآخر ، كى لا تصبح المسألة رَتَابة ذات .

ومثـال هذا : هو ما حـدث لشاه إيران ، وكـان له المُلْك ، وعنده كل أسباب الحضارة ، وفى طَوْعه جيش قوى ، ثم شاء الحق سبحانه أن ينزع منه المُلْك ، فقـام غيره بتـفكيك المسامـير غير المـرئية التى كان الشاه يُثبِّت بها عرشه ؛ فزال عنه المُلْك .

وأنت فى هذه الدنيـا تملك السـيطرة على جـوارحك ؛ تقول لليـد « إضربى فلان » فـتضرب يدُك فلاناً ، إلى أن يأتى اليـوم الآخر فلا يملك الإنســان السـيطرة على جـوارحـه ؛ لأن المُلْك يومـهـا يكون لله وحده ، فسبحانه القائل :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

ففى اليـوم الآخر تنتفى كل الـولايات ، وتكون الولاية لله وحده . وبجـانب « المُـلْك » و « المِلْك » ؛ هناك الملـكوت ، وهو مـا لا تراه بأجهزة الحواس .

وسبحانه يقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : أن الحق سبحانه قد كشف لإبراهيم أسرار العالم الخفية من المخلوقـات ، وأنت ترى العلماء وهم يتتبـعون أسرار ممـالك النباتات والحيوانات ؛ فتتعجب من دقَّة خَلْق الله .

ومَنْ وهبه الله دقَّة العلم وبصيرة العلماء ، يرى بإشعاعات البصر والعلم عالم الملكوت ، ويستخرج الأسرار ، ويستنبط الحقائق .

ويضيف يوسف عليه السلام فى مناجاته لربه :

﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

وهو يعترف بفضل الله عليه حين اختصّه بالقدرة على تأويل الأحاديث ؛ تلك التى أوَّل بها رُؤْيا الفتييْن اللذين كانا معه فى السجن ؛ وأوَّل رؤيا الملك ؛ هذا التأويل الذى قاده إلى الحكم ، وليس هذا غريباً أو عجيباً بالنِّسبة لقدرة الله سبحانه .

ويقول يوسف شاكراً لله :

﴿ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠١) ﴾ [يوسف]

وما دام سبحانه هو خالق كل شىء ؛ فليس غريباً أن يُعلِّمه سبحانه ما شاء ، وكأن إيمان يوسف قد وصل به إلى أن يعلم ما قاله الحق سبحانه :

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤) ﴾ [الملك]

ونحن فى حياتنا نجد الذى صنع جهازاً يستفيد منه غيره ؛ يوضح مواصفات استعمال الجهاز أو الأداة ، حتى ولو كانت نورجاً[1] أو مِحْراثاً ؛ وذلك ليضمن للجهاز الحركة السَّوِيَّة التى يؤدى بها الجهاز عمله .

والواحد منا إن تعطلت منه السيارة يستدعى الميكانيكى الذى ينظر ما فيها ؛ فإن كان أميناً ، فهو يُشخِّص بدقَّة ما تحتاجه السيارة ، ويُصلحها ، وإن كان غير أمين ستجده يُفسد الصالح ، ويزيد من الأعمال التى لا تحتاجها السيارة .

---

(١) النورج : آلة لدراس الحبوب يجره الحيوان والمحراث آلة الحرث .

وهكذا نرى أن كل صانع فى مجاله يعلم أسرار صنعته ، فما بالنا بالخالق الأعظم سبحانه وتعالى ؟

إنه خبير عليم بكل شىء .

ولماذا قال يوسف عن الحق سبحانه :

﴿ فَاطِرَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٠١) ﴾ [يوسف]

لأنه يعلم أن الحق سبحانه قد خلق الإنسان ؛ والإنسان له بداية ونهاية ، لا يعلمها أحد غير الله سبحانه ، فقد يموت الإنسان وعمره يوم ، أو يموت فى بطن أمه ، أو بعد مائة سنة ، وتمر على الإنسان الأغيار .

أما السماوات والأرض فهى مخلوقات ثابتة ، فالشمس لا تحتاج إلى قطعة غيار ، ولم تقع ، وتعطى الدفء للأرض ، وهى مرفوعة عن الأرض ؛ لا تقع عليها بمشيئة الله .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

واسمع قوله الحق :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

فالإنسان يتغير ويموت ؛ أما السماوات والأرض فثابتة إلى ما شاء الله .

ويقول يوسف عليه السلام مواصلاً المناجاة لله :

﴿أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ..(١٠١)﴾ [يوسف]

وصحيح أن الحق سبحانه وليّ ليوسف فى الدنيا ، وقد نصره وقرَّبه وأعانه ؛ بدليل كل ما مَرَّ به من عقبات ، ويرجو يوسف ويدعو ألاَّ يقتصر عطاء الله له فى الدنيا الفانية ، وأن يثيبه أيضاً فى الباقية ، الآخرة .

وما دام سبحانه وليَّه فى الدنيا والآخرة ؛ فيوسف يدعوه :

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١)﴾ [يوسف]

وقوله : ﴿تَوَفَّنِي مُسْلِماً (١٠١)﴾ [يوسف]

إنما بسبب أن يكون أهلاً لعطاء الله له فى الآخرة ؛ فقد أخذ يوسف عطاء الدنيا واستمتع به ، ومتّع به ، ومشى فيه بما يُرضِى الله .

وعند تمنِّى يوسف للوفاة وقف العلماء ، وقالوا : ما تمناها أحد إلا يوسف .

فالإنسان إن كان مُوفّقاً فى الدنيا ، تجده دائم الطموح ، وتوّاقاً إلى المزيد من الخير .

وتحمل لنا ذاكرة التاريخ عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز[1] أنه قَبِل الإمارة ، حينما كانوا يجيئون له بثوب ناعم ؛ كان يطلب

---

(١) هو : أبو حفص الخليفة الصالح ، من ملوك الدولة المروانية الأموية بالشام ، ولد ٦١ هـ ونشأ بالمدينة ، وولى إمارتها للوليد. ثم استوزره سليمان بن عبد الملك بالشام ، وولى الخلافة سنة ٩٩ هـ . ولم تطل مدته فقد مات عام ١٠١ هـ عن ٤١ عاماً . (الأعلام للزركلى ٥ / ٥٠) .

الأكثر منه نُعومة ، وإذا جِيءَ له بطعام ليِّن ؛ كان يطلب الأكثر لُيونة .

وحين صار خليفة ؛ كانوا يأتونه بالثوب ؛ فيطلب الأكثر خشونة ، وظن مَنْ حوله أنه لم يَعُدْ منطقياً مع نفسه ، ولم يفهموا أن له نفساً توَّاقة إلى الأفضل ؛ تستشرف الأعلى دائماً ، فحينما تَاقَ إلى الإمارة جاءتْه ؛ وحين تاق إلى الخلافة جاءتْه ، ولم يَبْقَ بعدها إلا الجنة[1] .

ونجد ميمون بن مهران وكان ملازماً له ؛ رضى الله عنهما ؛ دخل عليه مرة فوجده يسأل ربَّه الموت . فقال : يا أمير المؤمنين ، أتسأل ربك الموت وقد صنع الله على يديك خيراً كثيراً ؛ فأحيَيْتَ سُنناً ، وأَمَتَّ بِدعاً ؛ وبقاؤك خير للمسلمين ؟

فقال عمر بن عبد العزيز : ألا أكون كالعبد الصالح حينما أتمَّ الله عليه نعمته قال :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِالصَّالِحِينَ (١٠١) ﴾ [يوسف]

وقوله :

﴿ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا .. (١٠١) ﴾ [يوسف]

مكونة من شقَّين :

الشق الأول : طلب الموت .

والشق الثانى : أن يموت مسلماً .

وكلُّنا يُتوفَّى دون أن يطلب ، وعلى ذلك يكون الشق الأول غير

---

(١) قال عمر بن عبدالعزيز : إن نفسى هذه تواقة ، لم تعط من الدنيا شيئاً إلا تاقت إلى ما هو أفضل منه ، فلما أعطيت الخلافة التى لا شيء أفضل منها تاقت إلى ما هو أفضل منها . قال سعيد بن عامر : الجنة أفضل من الخلافة . [حلية الأولياء ٥/٣٣١] .

مطلوب فى ذاته ؛ لأنه واقع لا محالة ، ويصبح المطلوب - إذن - هو الشق الثانى ، وهو أن يتوفاه الله مسلماً ؛ ولذلك حين نأتى إلى القبور نقول : السلام عليكم ديار قوم مؤمنين ، أنتم السابقون ، وإنَّا إنْ شاء الله بكم لاحقون[١] .

وإنْ قال سائل : ولماذا نقول إن شاء الله بكم لاحقون ، رغم أننا سنموت حَتْماً ؟

نقول : إن قولنا « إن شاء الله » سببه هو رغبتنا أن نلحق بهم كمؤمنين .

وأيضاً قد يسأل سائل : لماذا يقول نبى لربه :

﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف]

وهل هناك صالح يأتى إلى هذا العالم دون أن يهتدى بمنهج نبى مرسل ؟

نقول : إن كلمة « الصالحين » تضم الأنبياء وغيرهم من الذين آمنوا برسالة السماء .

وهكذا انتهت قصة يوسف عليه السلام[٢] ؛ ولذلك يتجه الحق

---

(١) عن بريدة الأسلمى قال : كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر ، فكان قائلهم يقول : « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين ، إنا إن شاء الله بكم لاحقون ، أنتم فرطنا ونحن لكم تبع ، ونسأل الله لنا ولكم العافية » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٣٥٣ ، ٣٥٩) ، ومسلم فى صحيحه (٩٧٥) .

(٢) تُوفِّى يوسف عليه السلام بمصر ، وكان عمره ١٠٧ عاماً ، يذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٠٥) أنه دفن فى النيل فى صندوق من رخام ، وذلك أنه لما مات تشاحَّ الناس عليه ، كل يحب أن يُدفن فى محلتهم ، لما يرجون من بركته ، واجتمعوا على ذلك حتى هَمُّوا بالقتال ، فرأوا أن يدفنوه فى النيل من حيث مفرق الماء بمصر ، فيمر عليه الماء ، ثم يتفرق فى جميع مصر ، فلما خرج موسى ببنى إسرائيل أخرجه من النيل ونقل تابوته بعد أربعمائة سنة إلى بيت المقدس ، فدفنوه مع آبائه » .

سبحانه من بعد تلك النهاية إلى المُرَاد من القصة التى جاءتْ مكتملة فى سورة كاملة ، غير بقية قَصَص القرآن التى تتناثر أىٌّ منها فى لقطات متفرقة بمواقع مختلفة من القرآن الكريم .

وذلك باستثناء قصة نوح التى جاءت مكتملة أيضاً ، لدرجة أن بعض السطحيين قالوا « إن هذا تكرار للقصة فى لقطات مختلفة » ودائماً أقول رداً على ذلك : إنه تأسيس للقطات ؛ إن اجتمعت جاءت القصة كاملة .

وشاء الحق سبحانه أن تأتى اللقطات متفرقة ؛ لأن كل لَقْطة إنما جاءت لمناسبة ما ، وكل القَصَص القرآنى قد جاء لتثبيت فؤاد رسول الله ﷺ ؛ لأنه خلال عمره الرِّسالى الذى استمر ثلاثة وعشرين عاماً تعرَّض لأحداث جسَام . وكل لحظة كانت تحتاج لتثبيت ، فيُنزل الحق سبحانه ما يُثبِّت به فؤاد[1] رسوله ﷺ فيوضح له فى موقع ما : لا تحزن ؛ لأن مَنْ سبقك من الرسل حدث معهم كذا[2] .

بل قد تجد فى الواقعة الواحدة لقطتيْن ، مثلما جاء فى العداوة بين موسى وفرعون .

قال الحق سبحانه :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا[3] .. ⑧ ﴾ [القصص]

وهنا تكون العداوة من طرف موسى .

---

(١) يقول تعالى فى كتابه : ﴿ وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ⑫⓪ ﴾ [هود] .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④ ﴾ [فاطر] .

(٣) الحُزْن والحَزَن : الهَمّ والغَمّ . [القاموس القويم ١/١٥٢] .

ويقول فى نفس المسألة أيضاً :

﴿ يأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهنا تكون العداوة من جهتين ؛ لأن العداوة تتفاعل حين تكون من جهتين ، فلا يمكن أن يستمر عداءٌ من طرف واحد ، وتقوم من أجل هذا العداء معركة ، لكن حين تكون العداوة من جهتين فهذا يُطيل أَمَد المعركة .

والمثل الثانى هو قول الحق سبحانه فى نفس قصة موسى ؛ وهى لقطة متقدمة حدثتْ فى الأيام الأولى من حياة موسى ، وقبل أن تُلقيه أمه فى اليمِّ ؛ فقد مهَّد الله لها الأمر .

يقول الحق سبحانه عن ذلك :

﴿ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي .. (٧) ﴾ [القصص]

وهذا شَحْذٌ لهمَّتها قبل الحادث ، وتنبيه لها من قبل أن يقع ، ولحظةَ أن جاء الحادث نفسه أوحى لها الحق سبحانه :

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُ .. (٣٩) ﴾ [طه]

والذين قالوا : إن قَصص القرآن جاء مُبعثراً ، قد نسوا أن قصة نوح جاءت فى موقع واحد ، وجاءت سورة يوسف مَحْبوكة من أول الرؤيا إلى تولِّى المُلْك ، وجمع شَمْل العائلة .

ونزلت القصة فى سورة واحدة بعد أن سألوا عنها ؛ وهم يعلمون

أن محمداً ﷺ لم يجلس إلى مُعلِّم ، ولم يقرأ فى كتاب ، وتاريخه معروف بالنسبة لهم ، وحين يأتى لهم مُوضِّحاً أن الحق سبحانه قد أنزل عليه ، فكذَّبوه ؛ وادَّعَوْا أنه يسمع لقطة من هنا ؛ ولقطة من هناك . حين سألوه أن يأتى بقصة يوسف جاء بها كاملة ؛ من أولها إلى آخرها .

ويقول الحق سبحانه فى نهاية القصة :

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا[1] أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾

و « ذلك » إشارة إلى هذه القصة ، والخطاب مُوجَّه إلى محمد ﷺ أى : أنك يا محمد لم تكُنْ معهم حين قالوا :

﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ..﴿٨﴾﴾ [يوسف]

فالحق سبحانه أخبرك بأنباء لم تكن حاضراً لأحداثها ، والغيب - كما علمنا من قبل - هو ما غاب عنك ، ولم يَغبْ عن غيرك ، وهو غيب نسبىّ ؛ وهناك الغيب المُطْلق ، وهو الذى يغيب عنك وعن أمثالك من البشر .

والغيب كما نعلم له ثلاثة حواجز :

الأول : هو حاجز الزمن الماضى الذى لم تشهده ؛ أو حاجز الزمن المستقبل الذى لم يأتِ بَعْد .

---

(١) أجمع القوم على أمر : اتفقوا عليه . وأجمع الأمر : عزم عليه وأحكمه . قال تعالى : ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا .. ﴿٦٤﴾﴾ [طه] . [القاموس القويم ١/١٢٧] .

والثانى : هو حاجز المكان .

والثالث : هو حاجز الحاضر ، بمعنى أن هناك أشياء تحدثُ فى مكان أنت لا توجد فيه ، فلا تعرف من أحداثه شيئاً .

و ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [يوسف]

أى نُعلمك به بطَرْف خَفىّ ، حين اجتمعوا ليتفقوا ، إما أن يقتلوا يوسف ، أو يُلْقوه فى غَيابة[1] الجب .

وكشف لك الحق سبحانه حجاب الماضى فى أمر لم يُعلمه لرسول الله ؛ ولم يشهد ﷺ ما دار بين الإخوة مباشرة ، أو سماعاً من مُعلِّم ، ولم يقرأ عنه ؛ لأنه ﷺ أُمىّ لم يتعلم القراءة أو الكتابة .

وسبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ[2] بِيَمِينِكَ إِذًا لأَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت]

وهم بشهادتهم يعلمون كل حركة لرسول الله ﷺ قبل أن يُبعث ؛ إقامة وترْحالاً والتقاءً بأىِّ أحد .

فلو علموا أنه قرأ كتاباً لكانت لهم حُجَّة ، وحتى الأمر الذى غابتْ عنهم فطْنتهم فيه ؛ وقالوا :

---

(١) غيابة الجب : ما غاب من جوانبه عن النظر ويستر ما اختبأ فيه (القاموس القويم ٢/٦٤) والجب : هى البئر التى لم تُبْن بالحجارة .

(٢) الخط : السطر والكتابة . خط الكتابة يخطه خطاً : كتبه . قال تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت] أى : قبل القرآن ما كنت قارئاً ولا كاتباً . [القاموس القويم ١/١٩٨] .

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

فَرَدَّ عليهم الحق سبحانه :

﴿ لِسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

وأبطل الحق سبحانه هذه الحجة ، وقد قَصَّ الحق سبحانه على رسوله الكثير من أنباء الغيب ، وسبق أن قلنا الكثير عن : « ما كُنَّات القرآن » ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ[1] أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله الحق :

﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ[2] إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [القصص]

فكأن مصدر علم الرسول بكل ذلك هو من إخبار الله له .

وقد استقبل أهل الكفر ما طلبوا أن يعرفوه من قصة يوسف

---

(١) القلم : السهم أو خشبة تشبهه يكتب عليه رمز يدل على مقدار يعطى لمن يخرج باسمه ، وكانوا يستعملونه فى القمار أو فى القرعة ومن استعماله فى القرعة ، قوله : ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [آل عمران] فالأقلام هنا سهام الاقتراع ، وقد أجريت القرعة ففاز سهم زكريا فكفل مريم . [القاموس القويم ٢/١٣٢] .

(٢) هو : الجبل الغربى الذى كلم الله موسى من الشجرة التى هى شرقية على شاطىء الوادى . [ابن كثير ٣/٣٩١] .

باللدد[١] والجحود ـ وهم قـد طلبوا مطلبهم هذا بتأسـيس من اليهود ـ وهو ﷺ جاء لهم بقصة يوسف فى مكان واحد ، ودفعة واحدة ، وفى سورة واحدة ، لا فى لقطات متعددة منثورة كأغلب قصص القرآن .

وقد جـاء لهم بهـا كاملة ؛ لأنهم لم يطلبـوا جزئيـة منها ؛ وإنـما سـألوه عن القـصة بتـمـامـها ، وتوقـعـوا أن يعـزف عن ذلك ، لكنه لم يعزف ، بل جاء لهم بما طلبوه .

وكـان يجب أن يلتـفـتوا إلـى أن الله هو الذى أرسله ، وهو الذى علَّمـه ؛ وهو الذى أنبـأه ، لكنهـم لم يؤمنوا ، وعَـزَّ ذلك على رسـول الله ﷺ ، فأوضح له سبحانه : لا تبتئس ولا تيأس :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[٢] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ ﴾ [الشعراء]

ويقول له سبحانه :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْـسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَـٰذَا الْحَـدِيثِ أَسَفًا ⑥ ﴾ [الكهف]

فأنت يا رسـول الله عليك البلاغ فـقط ، ويذكر الحق ذلك لـيُسلِّى رسوله ﷺ حين رأى لدد الكافرين ؛ بعـد أن جاء لهم بما طلبوه ، ثم جحدوه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ⑭ ﴾ [النمل]

---

(١) لدَّ يلدُّ : اشـتد فى الجـدل والخصومة . والألدُّ : اسم تفـضيل أى الأشد خصـومة وجدلاً . قال تعـالى : ﴿ وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ [البقـرة] [القامـوس القويم ١٩١/٢] .

(٢) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [لسان العرب ـ مادة : بخع] .

وهم قد جحدوا ما جاء به رسول الله ﷺ ؛ لأنهم حرصوا على السلطة الزمنية فقط ، وكان من الواجب أن يؤمنوا بما جاءهم به ، لكن العناد هو الذى وقف بينهم وبين حقيقة اليقين وحقيقة الإيمان .

وأنت لا تستطيع أن تواجه المُعَاند بحجة أو بمنطق ، فهم يريدون أن يظل الضعفاء عبيداً ، وأن يكونوا مسيطرين على الخَلْق بجبروتهم ، والدين سيُسوِّى بين الناس جميعاً ، وهم يكرهون تلك المسألة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بقضية كونية ، فيقول :

﴿ وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾

فأنت يا محمد لن تجعل كل الناس مؤمنين ؛ ولو حرصت على ذلك ، وكان ﷺ شديد الحرص على أن يؤمن قومه ، فهو منهم .

ويقول فيه الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ [(١)] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

لكنهم جحدوا ما جاءهم به ؛ وقد أحزنه ذلك الأمر . وفى الحرص نجد آية خاصة باليهود ؛ هؤلاء الذين دفعوا أهل مكة أن يسألوا الرسول ﷺ عن قصة يوسف ؛ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَاةٍ .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [البقرة]

---

(١) العنت : المشقة . وأعنته : أوقعه فى العنت وشق عليه . قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ .. ﴿٢٢٠﴾ ﴾ [البقرة] أى : كلفكم الأمور الشاقة التى توقعكم فى العنت [القاموس القويم ٢/٣٩] .

وكان على أهل مكة أن يؤمنوا ما دام قد ثبت لهم بالبينات أنه رسول من الله .

وجاء قوله الحق :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

جاء ذلك القولُ تسليةً من الحق سبحانه لرسوله ، وليؤكد له أن ذلك ليس حال أهل مكة فقط ، ولكن هذه هى طبيعة معظم الناس . لماذا ؟

لأن أغلبهم لا يُحسن قياس ما يعطيه له منهج الله فى الدنيا والآخرة ، والإنسان حين يُقبل على منهج الله ، يقيس الإقبال على هذا المنهج بما يُعطيه له فى الآخرة ؛ فلسوف يعلم أنه مهما أعطى لنفسه من مُتَع الدنيا فعُمْره فيها مَوْقُوت بالقَدْر الذى قدَّره له الله ، والحياة يمكن أن تنتهى عند أية لحظة .

والحق سبحانه حين خبأ عن الناس أعمارهم فى الدنيا ، لم يكُنْ هذا الإخفاء إبهاماً كما يظن البعض ، وهذا الإبهام هو فى حقيقته عَيْن البيان ، فإشاعة حدوث الموت فى أى زمن يجعل الإنسان فى حالة ترقُّب .

ولذلك فميتات الفُجَاءة لها حكمة أن يعرف كل إنسان أن الموت لا سببَ له ، بل هو سبب فى حَدِّ ذاته ؛ سواء كان الموت فى حادثة أو بسبب مرض أو فجأة ، فالإنسان يتمتع فى الدنيا على حسب عمره المحدد الموقوت عند الله سبحانه ، أما فى الآخرة فإنه يتمتع على قدر إمدادات الخالق سبحانه .

والإنســان المؤمن يقـيس استـمـتاعـه فى الآخرة بقـدرة الله على العطاء ، وبإمكانات الحق لا إمكانات الخَلْق .

وهَبْ أن إنساناً مـعزولاً عن أمر الآخرة ، أى : أنه كـافر بالآخرة وأخذها علـى أساس الدنيا فـقط ، نقول له : انظر إلى مـا يُطلب منك نهياً ؛ وما يُطلب منك أمراً ، ولا تجعله لذاتك فقط ، بل اجعله للمقابل لك من الملايين غيرك .

سوف تجـد أن نواهى المنهج إن منعتْك عن شـر تفعله بغـيرك ؛ فقـد منعتْ الغير أن يفعل بك الشـر ، فى هذا مصلحة لك بالمـقاييس المادية التى لا دَخْل للدين بها .

ويجب أن نأخذ هذه المسألة فى إطار قضـية هى « دَرْء المفسدة مُقدّم على جلْب المصلحة » .

وهَبْ أن إنساناً مُحباً لك أمسك بتفاحة وأراد أن يقذفها لك ، بينما يوجـد آخر كاره لـك ، ويحاول أن يقـذفك فى نفس اللحظة بحـجر ، وأطلق الاثنان ما فى أيديهما تجاهك ، هنا يجب أن تردَّ الحجر قبل أن تلتقط التفاحة ، وهكذا يكون دَرْء المفسدة مُقدّماً على جلْب المصلحة .

وعلى الإنسان أن يقـيس ذلك فى كل أمر من الأمور ؛ لأن كثـيراً من أدوات الحضـارات أو ابتكارات المدنيـة أو المختـرعات العلميـة قد تعطينا بعـضاً من النفع ، ولكن يثبت أن لهـا ـ من بعد ذلك ـ الكثـير من الضرر .

مـثـال هذا : هو اخـتــراع مـادة «د. د. ت» التى قـتـلت بعض الحشرات ، وقتلت معها الكثير من الطيور المفيدة .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء]

وعليك أن تدرس أىَّ مُخْتَرع قبل استعماله ؛ لترى نفعه وضرره قبل أن تستعمله .

وقد رأينا مَنْ يُدخِلون الكهرباء إلى بيوتهم ، يحاولون أن يرفعوا موقع « فِيَش » الكهرباء عن مستوى تناول الأطفال ؛ كى لا يضع طفل أصابعه فى تلك الفتحات فتصعقهم الكهرباء ، ووجدنا بعضاً من المهندسين قد صَمَّموا أجهزة تفصل الكهرباء آلياً إنْ لمستْها يَدُ بشر .

وهذا هو دَرْء المفسدة المُقدَّم على جَلْب المنفعة ، وعلينا أن نحتاط لمثل هذه الأمور .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد الحق سبحانه يقول:

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف]

وهل قوله :

﴿ أَكْثَرُ النَّاسِ ..﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف]

نسبةٌ للذين لا يؤمنون ، يعنى أن المؤمنين قلة ؟

---

(١) قفاه : يقفوه قفْواً : مشى خلفه أو تبعه . وأصله من القفا . وقوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الإسراء] أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

نقول : لا ؛ لأن « أكثر » قد يقابله « أقل » ، وقد يقابله « الكثير » .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

وهكذا نجد أن كلمة « كثير » قد يقابلها أيضاً كلمة « كثير » .

وقد أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أنه لو حرص ما استطاع أن يجعل أكثر الناس مؤمنين ، والحرْص هو تعلُّق النفس وتعبئة مجهود للاحتفاظ بشيء نرى أنه يجلب لنا نفعاً أو يذهب بضُرٍّ ، وهو استمساك يتطلب جهداً .

ولذلك يوضح له الحق سبحانه : أنت لن تهدى مَنْ تحرص على هدايته .

ويقول سبحانه :

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَن يُضِلُّ .. (٣٧) ﴾ [النحل]

ومن هذه الآية نستفيد أن كل رسول عليه أن يُوطِّن نفسه على أن الناس سيعقدون مقارنات بين البدائل النفعية ؛ وسيقعون فى أخطاء اختيار غير الملائم لفائدتهم على المدى الطويل ؛ فوطِّنْ نفسك يا محمد على ذلك .

وإذا كنتَ يا رسول الله قد حملتَ الرسالة وتسألهم الإيمان

لفائدتهم ، فأنت تفعل ذلك دون أجر ؛ رغم أنهم لو فَطِنوا إلى الأمر لكان يجب أن يقدروا أجراً لمن يهديهم سواء[1] السبيل ، لأن الأجر يُعْطَى لمن يقدم لك منفعة .

والإنسان حريص على أن يدفع الأجر لمن يُعينه على منفعة ؛ والمنفعة إما أن تكون موقوتة بزمن دنيوى ينتهى ، وإما أن تكون منفعة ممتدة إلى ما لا نهاية ؛ راحة فى الدنيا وسعادة فى الآخرة .

ويأتى القرآن بقول الرسل[2] :

﴿لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً .. ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام]

ولم يَقُلْ ذلك اثنان هما : إبراهيم عليه السلام ، وموسى عليه السلام .

وكان العقل يقول : كان يجب على الناس لو أنها تُقدِّر التقدير السليم ؛ أن تدفع أجراً للرسول الذى يُفسِّر لهم أحوال الكون ، ويُطمئنهم على مصيرهم بعد الموت ، ويشرح لهم منهج الحق ، ويكون لهم أُسْوة حسنة .

---

(١) سواء : تدل على معنى التوسط والتعادل . فسواء السبيل : وسطه . قال تعالى : ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّى أَن يَهْدِيَنِى سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص] أى : وسط الطريق الموصِّل للخير . [القاموس القويم ١/٣٣٨] .

(٢) قالها نوح عليه السلام : [يونس : ٧٢] ، [هود : ٢٩] ، [الشعراء : ١٠٩] .
وقالها هود عليه السلام : [هود : ٥١] ، [الشعراء : ١٢٧] .
وقالها صالح عليه السلام : [الشعراء : ١٤٥] .
وقالها لوط عليه السلام : [الشعراء : ١٦٤] .
وقالها شعيب عليه السلام : [الشعراء : ١٨٠] .
وقالها محمد ﷺ رسول الله : [سبأ : ٤٧] .

ونحن نجد فى عالمنا المعاصر أن الأسرة تدفع الكثير للمدرس الخصوصى الذى يُلقِّن الابن مبادىء القراءة والكتابة ، فما بالنا بمَنْ يضىء البصر والبصيرة بالهداية ؟

ومقتضى الأمر أن الرسول ﷺ يقدم نفعاً أبدياً لمن يتبعه ، لكنه لم يطلب أجراً .

ويقول الحق سبحانه :

﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

وفى هذا القول الكريم ما يوضح أن النبى ﷺ لا يسأل قومه أجراً على هدايته لهم ؛ لأن أجره على الله وحده .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [الطور]

والحق سبحانه يقول على لسان رسوله فى موقع آخر :

﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ .. ﴿٤٧﴾﴾ [سبأ]

وهو هنا يُعلِى الأجر ، فبدلاً من أن يأخذ الأجر من محدود القدرة على الدَّفْع ، فهو يطلبها من الذى لا تُحَدّ قدرته فى إعطاء الأجر ؛ فكأن العمل الذى يقوم به لا يمكن أن يُجَازى عليه إلا من الله ؛ لأن العمل الذى يؤديه بمنهج الله ومن الله ، فلا يمكن إلا أن يكون الأجر عليه من أحد غير الله .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (١٠٤)﴾ [يوسف]

والذكر يُطْلَق إطلاقات متعددة ، ومادة « ذال » و « كاف » و « راء » مأخوذة من الذاكرة . وعرفنا من قبل أن الإنسان له آلات استقبال هى الحواس الإنسانية ، وتنتقل المعلومات أو الخبرات منها إلى العمليات العقلية ، وتمرُّ تلك المعلومات ببؤرة الشعور ، لتُحفظ لفترة فى هذه البؤرة ، ثم تنتقل إلى حاشية الشعور ، إلى أن تستدعيها الأحداث ، فتعود مرة أخرى إلى بُؤْرة الشعور .

ولذلك أنت تقول حين تتذكر معلومة قديمة « لقد تذكرتها » ؛ كأن المعلومة كانت موجودة فى مكان ما فى نفسك ؛ لكنها لم تكُنْ فى بؤرة الشعور . وحين جاءت عملية الاستدعاء ، فهى تنتقل من حاشية الشعور إلى بُؤْرة الشعور .

والتذكُّر هو : استدعاء المعلومة من حاشية الشعور إلى بؤرة الشعور .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ ..(٥)﴾ [إبراهيم]

أى : ذكِّرهم بما مَرَّ عليهم من أحداث أجراها الله ؛ وهى غير موجودة الآن فى بُؤْرة شعورهم . وسُمِّى القرآن ذكراً ؛ لأنه يُذكِّر كل مؤمن به بالله الذى تفضَّل علينا بالمنهج الذى تسير به حياتنا إلى خير الدنيا والآخرة .

فالذكر - إذن - يكون للعاقل معونة له ، وهو من ضمن رحمة الله بالخَلْق ، فلم يترك الخلقَ منشغلين بالنعمة عن مَنْ أنعمها عليهم ، فهذا الكون منظم بدقَّة بديعة ، وفيه كل مُقوِّمات حياة البشر .

ومن فضل الله عليهم أنه أرسل الرسل مُذكِّرين لهم بهذا العطاء الربانى .

وكلمة « ذكر » تدل على أن الفطرة فى الإنسان كان يجب أن تظل واعية ذاكرة لله ، وقد قَدَّر الله غفلة الأحداث ، فجعل لهم الذكر كله فى القرآن الكريم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

وإذا سمعتَ « كأين » افهم أن معناها كثير كثير كثير ؛ بما يفوق الحَصْر ، ومثل « كأين » كلمة « كم » ، والعَدُّ هو مظنة الحصر ، والشيء الذى فوق الحصر ؛ تنصرف عن عَدِّه ، ولا أحد يحصر رمال الصحراء مثلاً ، لكن كلاً منا يعُدُّ النقود التى يردُّها لنا البائع ، بعد أن يأخذ ثمن ما اشتريناه .

إذن : فالانصراف عن العَدِّ معناه أن الأمر الذى نريد أن نتوجه لعدِّه فوق الحصر ، ولا أحد يعُدُّ النجوم أو يحصيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُنبِّهنا إلى هذه القضية ، لإسباغ نعمه على خلقه ، ويقول :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا ..(٣٤) ﴾ [إبراهيم]

و « إنْ » هى للأمر المشكوك فيه ، وأنتم لن تعدُّوا نعمة الله ؛ لأنها فوق الحصر ، والمعدود دائماً يكون مُكَرراً ، وذَكَر الحق هنا نعمة واحدة ، ولم يحددها ؛ لأن أىَّ نعمة تستقبلها من الله لو استقصيتها لوجدتَ فيها نِعَماً لا تُحصَر ولا تُعَدُّ .

إذن : فكلمة « كأين » تعنى « كم » ، وأنت تقول للولد الذى لم يستذكر دروسه : كم نصحتك ؟ وأنت لا تقولها إلا بعد أن يفيض بك الكيل .

وتأتى « كم » ويُراد بها تضخيم العدد ، لا منك أنت المتكلم ، ولكن ممَّنْ تُوجِّه إليه الكلام ، وكأنك تستأمنه على أنه لن ينطق إلا صِدْقاً ، أو كأنك استحضرتَ النصائح ، فوجدتها كثيرة جداً .

والسؤال عن الكمية إما أنْ يُلْقَى من المتكلم ، وإما أن يُطلب من المخاطب ؛ وطلبُه من المخاطب دليل على أنه سَيُقِرّ على نفسه ، والإقرار سيد الأدلة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَكَأَيِّن (١٠٥) ﴾ [يوسف]

فمعناها أن ما يأتى بعدها كثير..

وسبحانه القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ[1] كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا[2] لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا[3] وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) ﴾

[آل عمران]

وهكذا نفهم أن (كأين) تعنى الكثير جداً ؛ الذى بلغ من الكثرة مبلغاً يُبرر لنا العذر أمام الغير إنْ لم نُحْصِه .

والآيات هى جمع « آية » ؛ وهى الشىء العجيب ، المُلْفِت للنظر ، ويُقال : فلان آية فى الذكاء . أى : أن ذكاءه مَضْرب المثل ، كأمر عجيب يفوق ذكاء الآخرين .

ويُقال : فلان آية فى الشجاعة ؛ وهكذا .

ومعنى الشىء العجيب أنه هو الخارج عن المألوف ، ولا يُنسَى .

وقد نثر الحق سبحانه فى الكون آيات عجيبة ، ولكل منثور فى الكون حكمة . وتنقسم معنى الآيات إلى ثلاث :

الأول : هو الآيات الكونية التى تحدثنا عنها ، وهى عجائب ؛ وهى حُجَّة للمتأمل أن يؤمن بالله الذى أوجدها ؛ وهى تلفتُك إلى أن مَنْ خلقها لا بُدَّ أن تكون له منتهى الحكمة ومنتهى الدِّقة ، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه .

---

(١) الرِّبىُّ : العالم التقى الصابر . قال تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ .. (١٤٦) ﴾ [آل عمران] والربى : مَنْ ربَّيته ، وهم هنا من ربَّاهم النبى فقاتلوا معه وناصروه . [القاموس القويم ١/٢٥١] .

(٢) الوهن : الضعف فى العمل والأمر . ورجل واهن فى الأمر والعمل ، وموهون فى العظم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : وهن] .

(٣) استكان : خضع وذل . [لسان العرب ـ مادة : سكن] .

وقد نشر الحق سبحانه هذه الآيات فى الكون . وحينما أعلن الله بواسطة رسله أنه سبحانه الذى خلقها ، ولم يَقُلْ أحد غيره : « أنا الذى خلقت » فهذه المسألة ـ مسألة الخلق ـ تثبُت له سبحانه ، فهو الخالق وما سواه مخلوق، وهذه الآيات قد خُلقت من أجل هدف وغاية .

وفى سورة الروم نجد آيات تجمع أغلب آيات الكون ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ(١) (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الأَرْضِ إِذَا أَنتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) ﴾ [الروم]

كل هذه آيات تنبه الإنسان الموجود فى الكون أنه يتمتع فيه

---

(١) أظهر : دخل فى وقت الظهيرة . والظهيرة : وقت الظهر ، ويتسع إلى العصر ، قال تعالى : ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ .. (٥٨) ﴾ [النور] أى : حين تستريحون فى منازلكم بعد صلاة الظهر عادة إلى العصر [القاموس القويم ١/٤١٨] .

طبقاً لنواميس عليا ؛ فيها سِرُّ بقاء حياته ؛ فيجب أن ينتبه إلى مَنْ أوجدها .

وبعد أن يتنبه إلى وجود واحد أعلى ؛ كان عليه أن يسأل : ماذا يريد منه هذا الخالق الأعلى ؟

هذه الآيات تفرض علينا عقلياً أن يوجد مَنْ يبلغنا مطلوبَ الواجد الأعلى ، وحينما يأتى رسول يقول لنا : إن مَنْ تبحثون عنه اسمه الله ؛ وهو قد بعثنى لأبلغكم بمطلوبه منكم أن تعبدوه ؛ فتتبعوا أوامره وتتجنبوا نواهيه .

والنوع الثانى من الآيات هى آيات إعجازية ، والمراد منها تثبيت دعوة الرسل ، فكان ولا بُدَّ أن يأتى كل رسول ومعه آية ؛ لتثبت صِدْق بلاغه عن الله ؛ لأن كل رسول هو من البشر ، ولا بد له من آية تخرق النواميس ، وهى المعجزات التى جاءت مع الرسل .

وهناك آيات حُكْمية ، وهى **النوع الثالث** ، وهى الفواصل التى تحمل جُملاً ، فيها أحكام القرآن الكريم ؛ وهو المنهج الخاتم .

وهى آياتٌ عجيبة أيضاً ؛ لأنك لا تجد حُكْماً من أحكام الدين إلا ويمسُّ منطقياً حاجةً من حاجات النفس الإنسانية ، والبشر وإنْ كفروا سيُضطرون إلى كثير من القضايا التى كانوا ينكرونها ، ولكن لا حَلَّ للمشكلات التى يواجهونها ، ولا تُحَلّ إلا بها .

والمثل الواضح هو الطلاق ، وهم قد عَابُوا مجىء الإسلام به ؛ وقالوا : إن مثل هذا الحل للعلاقة بين الرجل والمرأة قد يحمل الكثير

من القسـوة على الأسرة ، لكنهم لجـأوا إليه بعـد أن عضَّتـهم أحداث الحياة ، وهكذا اهتدى العقل البشرى إلى حكم كان يناقضه .

وكذلك أمر الربا الذى يحاولون الآن وَضْع نظام ليتحللوا من الربا كله ، ويقـولون : لا شىء يمنع العـقل البـشـرى من الـتـوصُّل إلى ما يفيد .

وهكذا نجـد الآيات الكونية هى عـجـائب بكل المقـاييس ، والآيات المصـاحبة للرسل هى معـجزات خَرَقَتْ النواميس ، وآياتُ القـرآن بما فـيـهـا من أحكام تَقِى الإنسـان مـن الداء قـبل أن يقع ، وتُجـبـرهم معضلات الحياة أن يعودوا إلى أحكام القرآن ليأخذوا بها .

وهم يُعرضون عن كل الآيات ، يُعـرضون عن آيات الكون التى إنْ دَقَّقوا فيها لَـثبتَ لهم وجود إله خالق ؛ ولأخذوا عطاءً من عطاءات الله ليسـرى تربية وتنميـة ، وكل الاكتشـافات الحديثة إنمـا جاءت نتيـجةً لملاحظاتِ ظاهرةٍ ما فى الكون .

وسبق أن ضـربتُ المثل بالرجل الذى جلس ليطهـو فى قِدْر ؛ ثم رأى غطاء القِدْر يعلو ؛ فـفكَّر وتساءل : لماذا يـعلو غطاء القدر ؟ ولم يُعـرِض الرجَل عن تأمُّل ذلك ، واسـتنبـاط حقـيـقة تحـوُّل المـاء إلى بخـار ؛ واستطاع عـن طريق ذلك أن يكتـشـف أن الماء حـين يتـبخـر يتمدد ؛ ويحتاج إلى حَيِّزٍ أكبر من الحَيِّز الذى كان فيه قبل التمدد .

وكـان هذا التأمُّل وراء اكـتـشاف طاقـة البـخار التـى عملتْ بهـا البواخر والقطارات ، وبـدأ عصر سُمِّى « عصـر البخار » . وهذا الذى رأى طَفْـوَ طبقٍ على سطح الماء وتـأمّل تلك الظاهرة ، ووضـع قاعـدة باسمه ، وهـى « قاعدة أرشميدس » .

وهكذا نجد أن أى إنسان يتأمل الكون بدقَّة سيجد فى ظواهره ما يفيده فى الدنيا ؛ كما استفاد العالم من تأملات أرشميدس وغيره ؛ ممَّنْ قدَّموا تأملاتهم كملاحظات ، تتبعها العلماء ليصلوا إلى اختراعات تفيد البشرية .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يضِنُّ على الكافر بما يفيد العالم ما دام يتأمل ظواهر الكون ، ويستنبط منها ما يفيد البشرية .

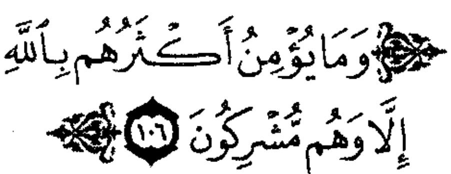
إذن : فقوله تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا .. (١٠٥) ﴾[يوسف]

إنْ أردتها وسيلة للإيمان بإله ؛ فهى تقودك إلى الإيمان ؛ وإنْ أردتها لفائدة الدنيا فالحقُّ لم يبخل على كافر بأن يُعطِيه نتيجة ما يبذل من جهد .

فكل المطلوب ألاّ تمُرَّ على آيات الله وأنت مُعرِض عنها ؛ بل على الإنسان أن يُقبِل إقبال الدارس ، إما لتنتهى إلى قضية إيمانية تُثرِى حياتك ؛ وتعطيك حياة لا نهايةَ لها ، وهى حياة الآخرة ، أو تُسعِد حياتك وحياة غيرك ، بأن تبتكر أشياء تفيدك ، وتفيد البشرية .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :



وهكذا نرى المصافى التى يمر بها البشر ليصلوا إلى الإيمان .

المصفى الأول : قوله تعالى :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

أى : أن الكثير من الناس لن يَصلوا إلى الإيمان ، حتى ولو حرص الرسول ﷺ أن يكونوا مؤمنين .

وقلنا : إن مقابل « كثير » قد يكون « قليل » ، وقد يكون « كثير » ، وبعض المؤمنين قد يشوب إيمانهم شبهةٌ من الشرك ، صحيح أنهم مؤمنون بالإله الواحد ، ولكن إيمانهم ليس يقينياً ، بل إيمانٌ متذبذب ، ويُشرِكون به غيره .

والمصفى الثانى : قوله تعالى :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

ومثال هذا : كفار قريش الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٨٧) ﴾ [الزخرف]

ويقول فيهم أيضاً :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ.. (٢٥) ﴾ [لقمان]

ورغم قولهم هذا إلا أنهم جعلوا شفعاء لهم عند الله ، وقالوا : إن الملائكة بنات الله ، وهكذا جعلوا لله شركاء . ومعهم كل مَنْ ادعى أن لله ابناً من أهل الكتاب .

وأيضاً مع هؤلاء يوجد بعض من المسلمين الذين يخصُّون قوماً أقوياء بالخضوع لهم خضوعاً لا يمكن أن يُسمَّى فى العرف مودة ؛ لأنه تَقرُّب ممتلىء بالذلة ؛ لأنهم يعتقدون أن لهم تأثيراً فى النفع والضر ؛ وفى هذا لون من الشرك .

ويأتى الواحد من هؤلاء ليقول لِمَنْ يتـقرب منه : أرجو أن تقضى لى الأمر الفـلانى . ويرد صاحب النفـوذ : اعتمـد على الله ، وإن شاء الله سيقضى الله لك حاجتك .

لكن صاحب الطلـب يتمادى فى الذِّلة ، ليـقول : وأنا أعتـمد عليك أيضاً ، لتقضى لى هذه الحاجة .

أو يرد صـاحـب النفـوذ ويقـول : أنا سـوف أفـعـل لك الشىء الفلانى ؛ والباقى على الله .

وحين أسمع ذلك فأنا أتساءل : وماذا عن الذى ليس باقياً ، أليس على الله أيضاً ؟

وينثر الله حِكَماً فى أشياء تمنَّاها أصحابها ؛ فَقُضِيتْ ؛ ثم تبين أن فيـها شراً ، وهناك أشيـاء تمناها أصحابهـا ؛ فلم تُقْضَ ؛ ثم تبين أن عدم قضائها كان فيه الخير كل الخير .

نجد الأثر يقول :

وَاطلبُوا الأشياءَ بِعزَّةِ الأنفُسِ فَإِنَّ الأُمـورَ تَجْـرِى بِمقَادِيرِ

وربما منعك هذا فكرهتـه ، وكان المنع لك خيراً من قـضائه لك ، فإن المنـع عَيْن العطاء ، ولذلك فـعلى الإنسان أن يعـرف دائماً أن الله هو الفاعل ، وهو المسبب ، وأن السبب شىء آخر .

ودائماً أذكِّر بأننا حين نحجُّ أو نعتمر نسعى بين الصفا[1] والمروة

---

(١) الصفـا والمروة : جبلان بين بطحـاء مكة والمسجـد . وأصل الصفا العريض من الحـجارة الأملس. [لسان العرب ـ مـادة : صفا] . والمروة : الحجـر الأبيض الهشُّ البراق . ومروة المسعى التى تُذكر مع الصـفا ، وهى أحد رأسيْه اللذين ينتهى السعى إليهـما سميت بذلك . [لسان العرب ـ مادة : صفا] .

لنتذكر ما فعلتْه سيدتنا هاجر التى سَعَتْ بين الصفا والمروة ؛ لتطلب الماء لوليدها بعد استنفدت أسبابها ؛ ثم وجدت الماء تحت رِجْل وليدها إسماعيل .

فقد أخذتْ هى بالأسباب ، فجاء لها رَبُّ الأسباب بما سألتْ عنه . ولم يَأْتِ لها الحقُّ سبحانه بالماء فى جهة الصفا أو المروة ؛ ليثبت لها القضية الأولى التى سألت عنها إبراهيم عليه السلام حين أنزلها فى هذا المكان .

فقد قالت له : ءأنزلتنا هنا برأيك ؟ أم أن الله أمرك بهذا ؟ قال : نعم أمرنى ربِّى . قالت : إذن لا يضيعنا[1] .

وقد سَعَتْ هى بحثاً عن الماء أخذاً بالأسباب ، وعثرتْ على الماء بقدرة المسبِّب الأعلى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ (١٠٦) ﴾ [يوسف]

يتطلب منا أن نعرف كيف يتسرَّب الشرك إلى الإيمان ، ولنا أن نتساءل : ما دام يوجد الإيمان ؛ فمن أين تأتى لحظة الشرك ؟

ويشرح الحق سبحانه لنا ذلك حين يقول :

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِى الْفُلْكِ[2] دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى

(١) ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٧/٥) ، وحينئذ استقبل إبراهيم عليه السلام القبلة ، ثم دعا فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم] .

(٢) الفلك : السفينة . للمذكر وللمؤنث ، وللواحد وللجمع . [القاموس القويم ٨٩/٢] .

الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)﴾ [العنكبوت]

هم إذن قد آمنوا وهم فى الفُلْك ، وأخذوا يدعُون الله حين واجهتهم أزمة فى البحر[1] ؛ لكنهم ما أن وصلوا إلى الشاطىء حتى ظهر بينهم الشرك .

حين يسألهم السائل : ماذا حدث ؟

فيجيبون : أنهم كانوا قد أخذوا حذرهم ، واستعدوا بقوارب النجاة . ونَسَوْا أن الله هو الذى أنقذهم فانطبق عليهم قول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)﴾ [إبراهيم]

وفى حياتنا اليومية قد تذهب لتقضى حاجة لإنسان ؛ وبعد أن يُسَهِّل لك الله قضاء تلك الحاجة ؛ تلتفت فلا تجده ، ولا يفكر فى أن يُوجِّه لك كلمة الشكر .

وحين تلقاه يقول لك : كل ما طلبته منك وجدته مقضياً ، لقد كلَّمْتُ فلاناً فقضاها .

---

(١) يقول الحق سبحانه فى آية أخرى : ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ .. (٢٣)﴾ [يونس] .

وهو يقول لك ذلك ليُبعد عنك ما أسبغه الله عليك من فضل قضائك لحاجته ؛ وذلك لأنه لحظة أن طلب منك مساعدته فى قضاء تلك الحاجة تذلّل وخضع ، وبعد أن تنقضى يتصرف كفرعون ويتناسى .

ولا ينزعه من فرعنته إلا رؤياك ؛ لأنه يعلم أنك صاحب جميل عليه ، بل قد يريد بك الشر ؛ رغم أنك أنت مَنْ أحسنتَ إليه ، لماذا ؟ لأن هذه هى طبيعة الإنسان .

يقول تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [العلق]

ولذلك يُقال فى المثل : « اتَّقِ شَرّ من أحسنت إليه » .

وأنت تتقى شره ، بأن تحذر أن تمُنَّ عليه بالإحسان ؛ كى لا تنمى فيه غريزة الكره لك .

والناصح يحتسب أىَّ مساعدة منه لغيره عند الله ؛ فيأخذ جزاءه من خالقه لحظة أداء فعل الخير ، ولا ينتظر شيئاً ممَّنْ فعل الخير له ؛ لأنك لا تعلم ماذا فكَّر لحظة أن أدَّيْتَ له الخدمة ، فحين يجد ترحيبَ الناس بك فى الجهة التى تُؤدِّى له الخدمة فيها ؛ قد يتساءل : لماذا يحترمونك أكثر منه ؟

وهو يسأل هذا السؤال لنفسه على الرغم من أنك مُتواجِد معه فى هذا المكان لتخدمه .

ولذلك يقول العامة هذا المثل : « اعمل الخير وارْمه فى البحر » ؛

لأن الله هو الذى يجازيك وليس البشر ؛ فاجعل كل عملك مُوجَّهاً لله ، وانْسَ أنك فعلْتَ معروفاً لأحد .

والمعروف المنكُور هو أجْدى أنواع المعروف عليك ؛ لأن الذى يُجازِى عليه هو الله ؛ وهو سبحانه مَنْ سيناولك أجره وثوابه بيده ؛ ولذلك عليك أن تنسى مَنْ أحسنتَ إليه ؛ كى يُعوِّضك الله بالخير على ما فعلت .

ويُقال فى الأثر : إن موسى عليه السلام قال : يا ربِّ ، إنى أسألك ألاّ يُقال فيّ ما ليس فىّ . فأوضح له الله : يا موسى لم أصنعها لنفسى ؛ فكيف أصنعها لك .

ويعرض الحق سبحانه هذه المسألة فى القرآن بشكل آخر ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا[1] إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ[2] نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلاً إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ⑧ ﴾ [الزمر]

والإنسان لحظةَ أن يمسّه الضُّر ؛ فهو يدعو الربوبية المتكفِّلة بمصالحه : يا ربّ أنت الذى خلقتنى ، وأنت المتكفِّل بتربيتى ؛ وأنا

---

(١) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ⑩﴾ [الشورى] أى : إليه أتوب وأرجع . ومنيب اسم فاعل . وجاء جمع منيب فى قوله : ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ .. ㉛﴾ [الروم] أى : راجعين إلى الله تائبين إليه. أى : كونوا تائبين وكونوا متقين . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

(٢) خوله : ملَّكه إياه متفضلاً عليه بغير عوض . [القاموس القويم ١/٢١٤] .

أتوكل عليك فى مصالحى ، فأنقذنى ممَّا أنا فيه .

ومثل هذا الإنسان كمثل الرُّبان الذى ينقذه الله بأعجوبة من العاصفة ؛ لكنه بعد النجاة يحاول أن ينسب نجاة السفينة من الغرق لنفسه .

ولذلك أقول دائماً : احذروا أيها المؤمنون أن تنسَوْا المُنعِم المُسبِّب فى كل شىء ، وإياكم أن تُفْتنوا بالأسباب ؛ فتغفلوا عن المُسبِّب ؛ وهو سبحانه مُعْطى الأسباب .

وأقول ذلك حتى لا تقعوا فى ظلم أنفسكم بالشرك بالله ؛ فسبحانه القائل :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا[1] إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (٨٢) ﴾ [الأنعام]

والظلم ـ كما نعلم ـ هو أن تُعطِى الحق لغير صاحبه ؛ فكيف يَجْرؤ أحد على أن يتجاهل فَضْل الله عليه ؟ فيقع فى الشرك الخفى ، والظلم الأكبر هو الشرك .

وسبحانه القائل :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ (١٣) ﴾ [لقمان]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

---

(١) لم يلبسوا إيمانهم بظلم ، أى : لم يخلطوا إيمانهم بشرك ، وهو الظلم العظيم ، ولا بأى نوع من الظلم . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

﴿أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَٰشِيَةٌ[(١)] مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً[(٢)] وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

ألم يحسب هؤلاء حساب انتقام الله منهم بعذاب الدنيا الذى يَعُمُّ ؛ لأن الغاشية هى العقاب الذى يَعُمُّ ويُغطِّى الجميع ؛ أم أنهم استبطئوا الموت ، واستبطئوا القيامة وعذابها ؛ رغم أن الموت مُعلَّق على رقاب الجميع ، ولا أحد يعلم ميعاد موته .

فالرسول ﷺ يقول : « من مات قامت قيامته »[(٣)] .

فما الذى يُبطئهم عن الإيمان بالله والإخلاص التوحيدى لله ، بدون أنْ يمسَّهم شرك ؛ قبل أن تقوم قيامتهم بغتةً ؛ أى : بدون جرس تمهيدى .

ونعلم أن مَنْ سبقونا إلى الموت لا يطول عليهم الإحساس بالزمن إلى أن تقومَ قيامة كُلِّ الخَلْق ؛ لأن الزمن لا يطول إلا على مُتتبع أحداثه .

والنائم مثلاً لا يعرف كَمْ ساعةً قد نام ؛ لأن وَعْيَه مفقود فلا

---

(١) قال مجاهد : عذاب يغشاهم. وقال قتادة : وقيعة تقع لهم . وقال الضحاك : يعنى الصواعق والقوارع . [تفسير القرطبى ٥ / ٣٦٠٨] .

(٢) بغته ـ بغتاً وبغتة : فاجاه على غرة وغفلة . قال تعالى : ﴿فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأعراف] .

(٣) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : «أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غِنًى كدَّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسَّعه عليكم ، الموت القيامة » .

يعرف الزمن ، والذى يوضح لنا أن الذين سبقونا لا يشعرون بمرور الزمن هو قوله الحق :

﴿ كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها (٤٦) ﴾ [النازعات]

ويأتى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ[1] أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾

أى : قُلْ يا محمد هذا هو منهجى . والسبيل كما نعلم هو الطريق ، وقوله الحق :

﴿ هَٰذه سَبِيلى .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

يدلُّ على أن كلمة السبيل تأتى مرة مُؤنَّثة ، كما فى هذه الآية ، وتأتى مرة مُذكَّرة ؛ كما فى قوله الحق :

﴿ وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ[2] يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. (١٤٦) ﴾ [الأعراف]

وأَعْلِنْ يا محمد أن هذه الدعوة التى جِئْتَ بها هى للإيمان بالله الواحد ؛ وسبحانه لا ينتفع بالمنهج الذى نزل عليك ليُطبِّقه العباد ، بل

---

(١) البصيرة : نور القلب الذى يرى به حقائق الأمور ، وهى أيضاً ما يبصره القلب من الحق الواضح . والبصيرة : البيان الواضح والحجة المقنعة والطريقة البينة التى لا لَبْس فيها ولا غموض . [القاموس القويم ١ / ٧٠] بتصرف .

(٢) الغَىُّ : الفساد والضلال والخيبة . والغواية : الانهماك فى الغَىِّ . [لسان العرب ـ مادة : غوى] .

فيه صلاح حياتهم ، وسبحانه هو الله ؛ فهو الأول قبل كل شيء بلا بداية ، والباقي بعد كل موجود بلا نهاية ؛ ومع خَلْق الخَلْق الذين آمنوا هو الله ؛ وإن كفروا جميعاً هو الله ، والمسألة التكليفية بالمنهج عائدة إليكم أنتم ، فمَنْ شاء فَلْيؤمن ، ومَنْ شاء فَلْيكفر .

ولنقرأ قوله الحق:

﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ⟨١⟩ وَأَذِنَتْ[1] لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[2] ⟨٢⟩﴾ [الانشقاق]

فهي تنشقُّ فَوْرَ سماعها لأمر الله ، وتأتي لحظة الحساب .

وقوله الحق :

﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. ⟨١٠٨⟩﴾ [يوسف]

أي : أدعو بالطريق المُوصِّل إلى الله إيماناً به وتَقبُّلاً لمنهجه ، وطلباً لما عنده من جزاء الآخرة ؛ وأنا على بصيرة مما أدعو إليه .

والبصر ـ كما نعلم ـ للمُحسَّات ، والبصيرة للمعنويات .

والبصر الحسيُّ لا يُؤدِّي نفس عمل البصيرة ؛ لأن البصيرة هي يقينٌ مصحوبٌ بنور يُقنِع النفس البشرية ، وإنْ لم تكُنْ الأمور الظاهرة مُلجئة إلى الإقناع .

ومثال هذا : أم موسى حين أوحى الله لها أن تقذف ابنها في

---

(١) أذنت : استمعت لأمر ربها واستجابت وأطاعت وخضعت راضية . [القاموس القويم ١٦/١] .

(٢) حق الأمر يحق : ثبت ووجب . وحقَّ له : ثبت له . وحُقَّ له بالبناء للمجهول أثبت له . قال تعالى : ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ⟨٢⟩﴾ [الانشقاق] أي : كان حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم ١/ ١٦٤] .

اليَمِّ ، ولو قاسَتْ هي هذا الأمر بعقلها لما قَبِلَتْه ، لكنها بالبصيرة قَبِلَتْه ؛ لأنه وارد من الله لا مُعاندَ له من النفس البشرية .

فالبصيرة إذن : هي يقين ونور مبني على برهان من القلب ؛ فيطيعه العبد طاعة بتفويض ، ويُقال : إن الإيمان طاعة بصيرة .

ويمكن أن نقرأ قوله الحق :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

وهنا جملة كاملة ؛ ونقرأ بعدها :

﴿ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

أو نقرأها كاملة :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف]

وقول الحق :

﴿ وَسُبْحَانَ اللَّهِ .. (١٠٨) ﴾ [يوسف]

أي : أنه سبحانه مُنزَّه تنزيهاً مطلقاً في الذات ، فلا ذاتَ تُشبهه ؛ فذاته ليست محصورة في القالب المادي مثلك ، والمنفوخة فيه الروح ، وسبحانه مُنزَّه تنزيهاً مُطْلقاً في الأفعال ، فلا فعلَ يشبه فعله ؛ وكذلك صفاته ليست كصفات البشر ، فحين تعلم أن الله يسمع ويرى ، فخُذْ ذلك في نطاق :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

وكذلك وجوده سبحانه ليس كوجودك ؛ لأن وجوده وجود واجد أزليّ ، وأنت حَدَثٌ طارىء على الكون الذى خلقه سبحانه .

ولذلك قاس بعض الناس رحلة الإسراء[1] والمعراج[2] على قدرة رسول الله ﷺ ؛ ولم ينتبهوا إلى أن رسول الله ﷺ قال : « لقد أُسرى بى»[3] .

ونزل قول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) ﴾[الإسراء]

وهكذا تعلم أن الفعل لم يكن بقوة محمد ﷺ ؛ ولكن بقوة مَنْ خلقَ الكون كله ، القادر على كل شىء ، والذى لا يُمكن لمؤمن حقٍّ أن يشرك به ، أمام هذا البرهان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰٓ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾

---

(١) سرى يسرى : سار ليلاً . وأسرى به : جعله يسرى ، أو حمله معه على السير ليلاً ، وهذا يُشعر أن الله تعالى كان رفيقاً للرسول ومعيناً له فى إسرائه [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) عرج يعرج عروجاً : صعد وعلا وارتفع ، والمعراج : كل ما ساعدك على الصعود ، والجمع : معارج . [القاموس القويم ٢/١٣] .

(٣) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٧١٠) ، ومسلم فى صحيحه (١٧٠) من حديث جابر بن عبد الله رضى الله عنه .

وينتقل الحق سبحانه هنا إلى الرسل الذين سبقوا محمداً ﷺ ؛ فالحق سبحانه يقول :

﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً ﴿٩٤﴾﴾ [الإسراء]

أى : أنهم كانوا يطلبون رسولاً من غير البشر ، وتلك مسألة لم تحدث من قبل ، ولو كانت قد حدثتْ من قَبْل ؛ لقالوا : « ولماذا فعلها الله مع غيرنا ؟ » .

ولذلك أراد سبحانه أن يَرُدَّ لهم عقولهم ؛ فقال تعالى :

﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء]

والملائكة بطبيعتها لا تستطيع أن تحيا على الأرض ، كما أنها لا تصلح لأنْ تكون قُدْوة أو أُسْوة سلوكية للبشر .

فالحق سبحانه يقول عن الملائكة :

﴿لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [التحريم]

والملاك لا يصلح أن يكون أُسْوة للإنسان ؛ لأن المَلَك مخلوق غيبيّ غير مُحَسٍّ من البشر ؛ ولو أراده الله رسولاً لَجسَّده بشراً ؛ ولو جعله بشراً لبقيتْ الشبهةُ قائمةً كما هى .

أو : أن الآية جاءت لتسُدَّ على الناس ذرائع[1] انفتحت بعد ذلك

(١) الذريعة : الوسيلة . وقد تذرع فلان بذريعة ، أى : توسل . والجمع : الذرائع . والذريعة : السبب إلى الشيء . يقال : فلان ذريعتى إليك. أى : سببى ووُصْلتى الذى أتسبب به إليك . [لسان العرب ـ مادة : ذرع] .

على الناس فى حروب الرِّدة حين ادَّعَتْ سجاح أنها نبية مُرْسَلة .

لذلك جاء الحق سبحانه من البداية بالقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف]

ليوضح لنا أن المرأة لا تكون رسولاً منه سبحانه ؛ لأن مهمة الرسول أن يلتحم بالعالم التحامَ بلاغٍ ، والمرأة مطلوب منها أن تكون سَكناً .

كما أن الرسول يُفترض فيه ألاّ يسقط عنه تكليف تعبدىّ فى أى وقت من الأوقات ؛ والمرأة يسقط عنها التكليف التعبدى أثناء الطمث[1] ، ومهمة الرسول تقتضى أن يكون مُسْتوفى الأداء التكليفى فى أىِّ وقتٍ .

ثم كيف يطلبون ذلك ولَمْ تَأْتِ فى مهام الرسل من قبل ذلك إلا رجالاً ، ولم يسأل الحق أيّاً منهم ، ولم يستأذن من أىِّ واحد من الرسل السابقين ليتولى مهمته ؛ بل تلقَّى التكليف من الله دون اختيار منه ، ويتلقى ما يُؤمر أن يُبلِّغه للناس ،ويكون الأمر بواسطة الوحى .

والوحى كما نعلم إعلام بخفاء ، ولا ينصرف على إطلاقه إلا للبلاغ عن الله . ولم يوجد رسول مُفوَّض ليبلغ ما يحب أو يُشرِّع ؛ لكن كل رسول مُكلَّف بأن ينقل ما يُبلَّغ به ، إلا محمد ﷺ ، فقد فوَّضه الحق سبحانه فى أن يُشرِّع ، ونزل فى القرآن:

﴿ مَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا.. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

(١) طمثت المرأة تطمث : حاضت . والطمث : الدم والنكاح . [لسان العرب ـ مادة : طمث] .

ويقول الحق سبحانه عن هؤلاء الرسل السابقين أنهم :

﴿ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ .. (١٠٩) ﴾ [يوسف]

والقرية كانت تأخذ نفس مكانة المدينة فى عالمنا المعاصر . وأنت حين تزور أهل المدينة تجد عندهم الخير عكس أهل البادية ، فالبدوىّ من هؤلاء قد لا يجد ما يُقدِّمه لك ، فقد يكون ضرع الماشية قد جَفَّ ؛ أو لا يجد ما يذبحه لك من الأغنام .

والفارق بين أهل القرية وأهل البادية أن أهل القرية لهم توطُّن ؛ ويملكون قدرة التعايش مع الغير ، وترتبط مصالحهم ببعضهم البعض ، وترقُّ حاشية[1] كل منهم للآخر ، وتتسع مداركهم بمعارف متعددة ، وليس فيهم غِلْظة أهل البادية .

فالبدوىُّ من هؤلاء لا يملك إلا الرَّحْل على ظهر جَمله ؛ ويطلب مساقط المياه ، وأماكن الكلأ[2] لما يرعاه من أغنام .

وهكذا تكون فى أهل القرى رقَّة وعلْم وأدبُ تناول وتعامل ؛ ولذلك لم يَأْتِ رسول من البدو كَى لا تكون معلوماته قاصرةً ، ويكون جافاً ، به غِلْظة قولٍ وسلوك .

والرسول يُفترض فيه أن يستقبل كل مَنْ يلتقى به بالرِّفق واللِّين وحُسْن المعاشرة ؛ لذلك يكون من أهل القرى غالباً ؛ لأنهم ليسوا قُساة ؛ وليسوا على جهل بأمور التعايش الاجتماعى .

---

(١) الحاشية : الجانب والناحية . أى : أنه يكون مهذباً دمث الطباع ، حسن السمت ، لين الجانب ، سليم الطوية .

(٢) الكلأ : العُشْب والبَقْل . وقيل : هو العشب رَطْبه ويابسُه . [لسان العرب ـ مادة : كلأ] .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴾ (١٠٩) [يوسف]

أى : أنهم إنْ كانوا غير مؤمنين بآخرة يعودون إليها ؛ ولا يعلمون متى يعودون ؛ فليأخذوا الدنيا مقْياساً ؛ ولْينظروا فى رُقْعة الأرض ؛ وينظروا ماذا حدث للمُكذِّبين بالرسل ، إنهم سيجدون أن الهلاك والعذاب قد حاقا[1] بكل مُكذِّب .

ولو أنهم ساروا فى الأرض ونظروا نظرة اعتبار ، لرأوا قُرَى مَنْ نحتوا بيوتهم فى الجبال[2] وقد عصف بها الحق سبحانه ، ولَرأوْا أن الحق قد صَبَّ سَوْط العذاب على قوم عاد وآل فرعون ، فإن لم تَخَفْ من الآخرة ؛ فعليك بالخوف من عذاب الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. ﴾ (١٠٩) [يوسف]

وهذا القول هو من لَفتات الكَونيّات فى القرآن ، فقديماً كنا لا نعرف أن هناك غلافاً جوياً يحيط بالأرض ، ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى به الأكسوجين الذى نحتاجه للتنفس .

ولم نَكُنْ نعرف أن هذا الغلاف الجوى من ضمن تمام الأرض ،

(١) حاق به الشىء يحيق : نزل به وأحاط به . وأحاقه الله به : أنزله . وقيل : حاق بهم العذاب أى أحاط بهم ونزل كأنه وجب عليهم . [لسان العرب ـ مادة : حيق] .

(٢) هؤلاء هم أصحاب الحجر ، قال عنهم رب العزة : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ (٨٠) وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٨١) وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ (٨٢) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٤) ﴾ [الحجر] .

وأنك حين تسير على اليابســة ، فالغلاف الجوى يكون فوقك ؛ وبذلك فـأنت تسـيـر فى الأرض ؛ لأن مـا فـوقك من غـلاف جـوى هو من مُلْحقات الأرض .

والسَّيْـر فى الأرض هو للسيـاحة فـيهـا ، والسيـاحة فى الأرض نوعان : سياحة اعتبار ، وسياحة استثمار .

ويُعبِّر الحق سبحانه عن سياحة الاعتبار بقوله :

﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٩)﴾ [الروم]

ويُعبِّر سبحانه عن سياحة الاستثمار بقوله :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ .. (٢٠)﴾ [العنكبوت]

إذن : فـسـيـاحة الاعـتبـار هى التى تَلْفـتك لقدرة الله سـبحـانه ، وسياحة الاستثمار هى من عمارة الأرض ، يقول الحق سبحانه :

﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً .. (١٠٠)﴾ [النساء]

وأنت مُكلَّف بهـذه المهـمة ، بل إن ضـاق عليك مكان فى الأرض فابحث عن مكان آخر ، بحسب قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧)﴾ [النساء]

ولك أن تسـتثـمـر كمـا تريد ، شـرطَ ألاَّ يُلْهِيك الاسـتـثمـار عن الاعتبار .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ.. (١٠٩)﴾ [يوسف]

ويا لَيْتَ الأمر قد اقتصر على النكال[١] الذى حدث لهم فى الدنيا ؛ بل هناك نَكَالٌ أشدُّ وَطْأة فى انتظارهم فى الآخرة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

وحديث الحق سبحانه عن مصير الذين كَذَّبوا ؛ يَظهر لنا كمقابل لما ينتظر المؤمنين ، ولم تذكر الآية مصير هؤلاء المُكذِّبين بالتعبير المباشر ، ويُسمُّون ذلك فى اللغة بالاحتباك[٢] .

مثل ذلك قوله الحق :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وكل يوم تنقص أرض الكفر ، وتزيد رقعة الإيمان .

وهكذا يأتى العقاب من جانب الله ، ونأخذ المقابل له فى الدنيا ؛ ومرة يأتى بالثواب المقيم للمؤمنين ، ونأخذ المقابل فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : ولماذا لم يَقُلِ الحق سبحانه أنه سوف يأتى لهم بما هو أشدّ شراً من عذاب الدنيا فى اليوم الآخر ؟

---

(١) النكال : التنكيل والعقوبة الشديدة الزاجرة. قال تعالى : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [المائدة] أى : عقوبة زاجرة فرضها الله ليتعظ بها الناس. [القاموس القويم ٢ / ٢٨٨] .

(٢) هو نوع من أنواع الحذف ، قال السيوطى : « هو من ألطف الأنواع وأبدعها ، وقلَّ من تنبه له أو نبَّه عليه من أهل فن البلاغة ، وهو أن يحذف من الأول ما أثبت نظيره فى الثانى ، ومن الثانى ما أثبت نظيره فى الأول ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ .. (١٧١) ﴾ [البقرة]. التقدير : ومثل الأنبياء والكفار كمثل الذى ينعق ، والذى يُنعَق به ، فحذف من الأول الأنبياء لدلالة « الذى ينعق » عليه ، ومن الثانى الذى يُنعق به لدلالة « الذين كفروا » عليه » [الإتقان فى علوم القرآن ١٨٢/٣] .

وأقول : إن السياق العقلى السطحى الذى ليس من الله ؛ هو الذى يمكن أن يُذكِّرهم بأن عذاب الآخرة هو أشدُّ شراً من عذاب الدنيا .

ولكن الحق سبحانه لا يقول ذلك ؛ بل عَدل عن هذا إلى المقابل فى المؤمنين ؛ فقال :

﴿ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٠٩) ﴾ [يوسف]

فإذا جاء فى الدنيا بالعذاب للكافرين ؛ ثم جاء فى الآخرة بالثواب للمُتقين ؛ أخذ من هذا المقابل أن غير المؤمنين سيكون لهم حسابٌ عسير ، وقد حذف من هنا ما يدل عليه هناك ؛ كى نعرف كيف يُحْبَك النظم القرآنى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُۖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُنَا عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ١١٠ ﴾

وكلمة :

﴿ حَتَّىٰ (١١٠) ﴾ [يوسف]

تدل على أن هناك غاية ، وما دامتْ هناك غاية فلا بُدَّ أن بداية ما قد سبقتْها ، ونقول : « أكلتُ السمكة حتى رأسها » . أى : أن البداية كانت أَكْل السمكة ، والنهاية هى رأسها .

والبداية التى تسبق :

﴿ اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف]

هى قوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِم .. ﴿١٠٩﴾ ﴾ [يوسف]

وما دام الحقُّ سبحانه قد أرسلهم ؛ فهم قد ضَمِنوا النصر ، ولكن النصر أبطأ ؛ فاستيأس الرسل ، وكان هذا الإبطاء مقصوداً من الحق سبحانه ؛ لأنه يريد أن يُحمِّل المؤمنين مهمة هداية حركة الحياة فى الأرض إلى أن تقوم الساعة ، فيجب ألا يضطلع بها إلا المُخْتَبر اختباراً دقيقاً .

ولا بُدّ أن يمر الرسول ـ الأُسْوة لمَنْ معه ـ ومَنْ يتبعه من بعده بمحن كثيرة ، ومَنْ صبر على المِحَن وخرج منها ناجحاً ؛ فهو أهْلٌ لأن يحمل المهمة[1] .

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا[2] مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة]

إذن : لا بُدَّ من اختبار يُمحِّص . ونحن فى حركة حياتنا نُؤهِّل التلميذ دراسياً ؛ ليتقدم إلى شهادة إتمام الدراسة الابتدائية ، ثم نُؤهِّله

---

(١) مثال هذا : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ .. ﴿٢٤٩﴾ ﴾ [البقرة] .

(٢) خلا الأمر ، يخلو : مضى وسبق . قال تعالى : ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر] أى : مضى وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

لنَيْل شهادة إتمام الدراسة الإعدادية ؛ ثم نؤهله لنيل شهادة إتمام الدراسة الثانوية ، ثم يلتحق بالجامعة ، ويتم اختباره سنوياً إلى أن يتخرج من الجامعة .

وإنْ أراد استكمال دراسته لنيل الماجستير والدكتوراه ، فهو يبذل المزيد من الجَهْد .

وكل تلك الرحلة من أجل أن يذهب لتوليّ مسئولية العمل الذى يُسند إليه وهو جدير بها ، فما بَالُنا بعملية بَعْث رسول إلى قوم ما ؟

لا بُدَّ إذن من تمحيصه هو ومَنْ يتبعونه ، وكى لا يبقى على العهد إلا المُوقِن تمام اليقين بأن ما يفوته من خير الدنيا ؛ سيجد خيراً أفضل منه عند الله فى الآخرة .

ولقائل أن يقول : وهل من المعقول أن يستيئس الرسل ؟

نقول : فلنفهم أولاً معنى « استيأس » ؛ وهناك فرق بين « يأس » و «استيأس » ، فـ « يأس » تعنى قطع الأمل من شيء . و « استيأس » تعنى : أنه يُلِحّ على قَطع الأمل .

أى : أن الأمل لم ينقطع بعد . ومَنْ قطع الأمل هو مَنْ ليس له منفذ إلى الرجاء ، ولا ينقطع أمل إنسان إلا إنْ كان مؤمناً بأسبابه المعزولة عن مُسبِّبه الأعلى .

لكن إذا كان الله قد أعطى له الأسباب ، ثم انتهت الأسباب ، ولم تَصِلْ به إلى نتيجة ، فالمؤمن بالله هو مَنْ يقول : أنا لا تُهمّنى الأسباب ؛ لأن معى المُسبِّب .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف]

ولذلك نجد أن أعلى نسبة انتحار إنما تُوجَد بين الملاحدة الكافرين ؛ لأنهم لا يملكون رصيداً إيمانياً ، يجعلهم يؤمنون أن لهم رباً فوق كل الأسباب ؛ وقادر على أن يَخْرِق النواميس .

أما المؤمن فهو يأوى إلى رُكْن شديد ، هو قدرة الحق سبحانه ، مُسبِّب كل الأسباب ، والقادر على أن يَخْرِق الأسباب .

ولماذا يستيئس الرسل ؟

لأن حرصهم على تعجُّل النصر دفع البعض منهم أن يسأل مثلما سأل المؤمنون :

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. ﴿٢١٤﴾﴾ [البقرة]

فضلاً عن ظَنِّهم أنهم كُذِّبوا ، والحق سبحانه يقول هنا :

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. ﴿١١٠﴾﴾ [يوسف]

ومادة « الكاف » ، و « الذال » و « الباء » منها « كَذَبَ » ، و« كُذبَ عليه » و « كُذِّب » . والكذب هو القول المخالف للواقع والعاقل هو من يُورِد كلامه على ذِهْنه قبل أن ينطق به .

أما فاقد الرشد الذى لا يمتلك القدرة على التدبُّر ؛ فينطق الكلام

على عَـواهِنه[1] ؛ ولا يمـرر الكلام عـلى ذهنه ؛ ولذلـك يقـال عنه « مخرف » .

وقـد سـبق لنا أن شـرحنا الصـدق ، وقلنا : إنه تطابق النسـبـة الكلامـيـة مع الواقع ، والكذب هـو ألاَّ تتطابق النسـبـة الكلامـيـة مع الواقع .

ومَنْ يقول كلاماً يعلم أنه لا يطابق الواقع ؛ يقال عنه : إنه مُتعمِّد الكذب ، ومَنْ يقول كلاماً بغالبية الظن أنه لا يطابق الواقع ، ونقله عن غـيره ؛ فـهـو يكذب دون أن يُحـسب كَـذبه افتـراءً . والإنسـان الذى يتوخَّى الدِّقة ينقل الـكلام منسوباً إلى مَنْ قاله له ؛ فيقـول « أخبرنى فلان » فلا يُعَدُّ كاذباً .

ولذلك أقـول دائماً : يجب أن يُفـرِّق العلمـاء بين كذب المُـفْتـين ، وكذب الخبـر ؛ وكذب المُخْبِر . فـالخبر الكاذب مسئـول عنه مَنْ تعمَّد الكذب ، أمـا الناقل للخبـر ما دام قـد نسبـه إلى مَنْ قاله ، فـموقـفه مختلف .

وفى الآية التى نحن بصـدد خـواطرنا عنهـا نجد لـهـا قـراءتين ؛ قـراءة هى : «وظنوا أنهم قـد كُـذبوا » أى : حـدَّثهم غـيـرهم كَـذِباً ؛ وقراءة ثانية[2] هى : « وظنوا أنهم قد كُذِّبوا » وهى تعنى : أنهم قد

---

(١) ألقى الكلام على عواهنه : لم يتدبره . وقيل : هو إذا لم يُبلْ أصاب أم أخطأ . وعهن الشىء إذا حضـر ، أى : أرسل الكلام على مـا حـضـر منه وعـجل من خطأ وصـواب . [لسـان العرب ـ مادة : عهن] .

(٢) هناك قراءة ثالثة ذكـرها القرطبى فى تفسيـره (٥/٣٦١١) قال : « قرأ مجاهد وحـميد : « قـد كَذَبوا » بفـتح الكاف والذال مُـخفَّـفـاً ، على معنى : وظـن قوم الرسل أن الرسل قـد كَذَبوا ، لما رأوا من تفضُّل الله عز وجل فى تأخير العذاب » .

ظنُّوا أن ما قيل لهم من كلام عن النصر هو كذب .

ولقائل أن يسأل : كيف يظن الرسل[1] ذلك ؟

وأقول : إن الرسول حين يطلب من قومه الإيمان ؛ يعلم أن ما يُؤكِّد صدْق رسالته هو مجيء النصر ؛ وتمرُّ عليه بعض من الخواطر خوفاً أن يقول المقاتلون الذين معه : « لقد كذب علينا » ؛ لأن الظن إخبار بالراجح .

ولا يخطر على بال الرسل أن الله سبحانه وتعالى - معاذ الله - قد كَذَبهم وعده ، ولكنهم ظَنُّوا أن النصر سيأتيهم بسرعة ؛ وأخذوا بطء مجيء النصر دليلاً على أن النصر لن يأتى .

أو : أنهم خافوا أن يُكذِّبهم الغير .

ولذلك نجد الحق سبحانه يُعْلِم رسله أن النصر سيأتى فى الموعد الذى يحدده سبحانه ، ولا يعرفه أحد ، فسبحانه لا يَعْجَلُ بعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد .

ويقول سبحانه :

﴿ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ..(١١٠)﴾ [يوسف]

---

(١) سأل عروةُ بن هشام عائشةَ رضى الله عنها عن قول الله عز وجل : ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ .. (١١٠)﴾ [يوسف] فقال : أكُذِبوا أم كُذِّبوا ؟ قالت عائشة : كُذِّبوا . قلت : فقد استيقنوا أن قومهم كذبوهم ، فما هو بالظن ؟ قالت : أجل لعمرى لقد استيقنوا بذلك . فقلت لها : ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا .. (١١٠)﴾ [يوسف] قالت : معاذ الله ، لم تكن الرسل تظن ذلك بربها . قلت ، فما هذه الآية ؟ قالت : هم أتباع الرسل الذين آمنوا بربهم وصدّقوهم ، فطال عليهم البلاء ، واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومهم ، وظنت الرسل أن أتباعهم كَذّبوهم جاءهم نصرنا عند ذلك. أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٩٥) وأورده القرطبى فى تفسيره (٣٦١١/٥) .

وهكذا يأتى النصر بعد الزلزلة الشديدة ؛ فيكون وَقْعه كوَقْع الماء على ذى الغُلَّة[1] الصَّادى ، ولنا أن نتخيل شَوْق العطشان لكوب الماء.

وأيضاً فإن إبطاء النصر يعطى غروراً للكافرين يجعلهم يتمادون فى الغرور ، وحين يأتى النصر تتضاعف فرحة المؤمنين بالرسول ، وأيضاً يتضاعف غَمُّ الكافرين به .

ومجىء النصر للمؤمنين يقتضى وقوع هزيمة للكافرين ؛ لأن تلك هى مشيئة الله الذى يقع بَأْسه وعذابه على الكافرين به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾

ونلحظ أن هذه الآية جاءت فى سورة يوسف ؛ أى : إنْ أردتَ قصة يوسف وإخوته ؛ ففى السورة كل القصة بمَراميها وأهدافها وعظَتها ، أو المهم فى كل قصص الأنبياء .

يقول الحق سبحانه :

﴿وَكُلاًّ نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ .. ﴿١٢٠﴾﴾[هود]

ونعلم أن معنى القَصَص مأخوذ من قَصِّ الأثر ؛ وتتبُّعه بلا زيادة أو نقصان .

(١) الغلة : شدة العطش وحرارته . وبعير غَالٌّ وغَلاَّن : عطشان شديد العطش . [لسان العرب ـ مادة : غلل] والصَّدَى : شدة العطش .

ويقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

وفى أول السورة قال الحق :

﴿ إن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾ [يوسف]

ونعرف أن مادة « العين » و « الباء » و « الراء » تفيد التعدية من جلىّ إلى خفىّ .

والعبْرة فى هذه القصة - قصة يوسف - وكذلك قصص القرآن كلها ؛ نأخذ منها عبْرة من الجلىِّ فيها إلى الخَفىِّ الذى نواجهه ؛ فلا نفعل الأمور السيئة ؛ ونُقدم على الأمور الطيبة .

وحين نُقبل على العمل الطيّب الذى جاء فى أىّ قصة قرآنية ؛ وحين نبتعد عن العمل السىء الذى جاء خَبرُه فى القصة القرآنية ؛ بذلك نكون قد أحسنَّا الفهم عن تلك القصص .

وعلى سبيل المثال : نحن نجد الظالم فى القَصَص القرآنى ؛ وفى قصة يوسف تحديداً ؛ وهو ينتكس ، فيأخذ الواحد منَّا العبرة ، ويبنى حياته على ألاّ يظلم أحداً . وحين يرى الإنسان منا المظلومَ وهو ينتصر ؛ فهو لا يحزن إنْ تعرَّض لظلم ؛ لأنه أخذ العبرة لما ينتظره من نصر بإذن الله .

ونحن نقول : « عبر النهر » أى : انتقل من شاطىء إلى شاطىء .

وكذلك قولنا « تعبر الرُّؤْيا » أى : تؤوّلها ؛ لأن الرُّؤْيا تأتى رمزية ؛ وتعبرها أى : تشرحها وتنقلها من خفىّ إلى جلىّ ؛ وإيضاح المطلوب منها .

ونَصِفُ الدَّمْعة بأنها « عَبْرة » ؛ والحزن المدفون فى النفس البشرية تدل عليه الدَّمْعة .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

والعِبْرة قد تمرُّ ، ولكن لا يلتفت إليها إلا العاقل الذى يُمحِّص الأشياء ، أما الذى يمرُّ عليها مُرور الكرام ؛ فهو لا يستفيد منها .

و« أولو الألباب » هم أصحاب العقول الراجحة ، و « الألباب » جمع « لُبّ » . واللب : هو جوهر الشيء المطلوب ؛ والقشْر موجود لصيانة اللُّبِّ ، وسُمِّى العقلُ « لُبّاً » لأنه ينثرُ القشور بعيداً ، ويعطينا جوهر الأشياء وخيرها .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ..(١١١) ﴾ [يوسف]

أى : أن ما جاء على لسانك يا محمد وأنزله الحق وَحْياً عليك ليس حديث كَذِبٍ مُتعمَّد ؛ بل هو الحق الذى يطابق الكتب التى سبقتْه.

ويُقال : « بين يديك » أى : سبقك ؛ فإذا كنت تسير فى طابور ؛ فَمَنْ أمامك يُقال له « بين يديك» ، ومَنْ وراءك يُقال له « مَنْ خلفك » .

والقرآن قد جاء ليصدق الكتب التى سبقتْه ؛ وليست هى التى تُصدِّق عليه ؛ لأنه الكتاب المهيمن ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ .. (٤٨) ﴾ [المائدة]

ويضيف الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ .. (١١١) ﴾ [يوسف]

فالقرآن يُصدِّق الكتب السابقة ، ويُفصِّل كل شيء ؛ أي : يعطي كل جزئية من الأمر حُكْمها في جزئية مناسبة لها . فهو ليس كلاماً مُجْملاً ، بل يجري تفصيل كل حُكْم بما يناسب أيَّ أمر من أمور البشر .

وفي أعرافنا اليومية نقول : « فلان قام بشراء بذلة تفصيل » . أي : أن مقاساتها مناسبة له تماماً ؛ ومُحْكمة عليه حين يرتديها .

وفي الأمور العقدية نجد ـ والعياذ بالله ـ مَنْ يقول : إنه لا يوجد إله على الإطلاق ، ويقابله مَنْ يقول : إن الآلهة مُتعددة ؛ لأن كل الكائنات الموجودة في الكون من الصعب أن يخلقها إله واحد ؛ فهناك إله للسماء ، وإله للأرض ؛ وإله للنبات ؛ وإله للحيوان .

ونقول لهم : كيف يوجد إله يقدر على شيء ، ويعجز عن شيء آخر ؟

وإنْ قال هؤلاء : « إن تلك الآلهة تتكاتف مع بعضها » .

نردُّ عليهم : ليست تلك هي الألوهية أبداً ، ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَمًا[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وحين يكون الشركاء مختلفين ؛ فحالُ هذا العبد المملوك لهم يعيش فى ضَنْك وعذاب ؛ أما الرجل المملوك لرجل واحد فحاله يختلف ؛ لأنه يأتمر بأمر واحد ؛ لذلك يحيا مرتاحاً .

ونجد الحق سبحانه يقول عن الآلهة المتعددة :

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١)﴾ [المؤمنون]

أما مَنْ يقول بأنه لا يوجد إله فى الكون ، فنقول له : وهل يُعقل أن كل هذا الكون الدقيق والمُحْكم بلا صانع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يُفَصّلَ هذا الأمر ليؤكد أنه لا يوجد سوى إله واحد فى الكون ، ونجد القرآن يُفصِّل لنا الأحكام ؛ ويُنزل لكل مسألة حُكْماً مناسباً لها ؛ فلا ينتقل حُكْم من مجال إلى آخر .

وكذلك تفصيل الآيات ، فهناك المُحْكم والمُتَشابه ؛ والمَثَل هو قول الحق سبحانه .

﴿وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. (١١٤)﴾ [آل عمران]

ويقول فى موقع آخر :

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) سلماً : أى ملْكاً خالصاً له لا ينازعه فيه أحد . [القاموس القويم ١/ ٣٢٤] .

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. (١٣٣) ﴾ [آل عمران]

جاء مرة بقول « إلى » ، ومرة بقول « فى » ؛ لأن كلاً منها مناسبة ومُفصَّلة حَسْب موقعها .

فالمُسَارعة إلى المغفرة تعنى أن مَنْ يسارع إليها موجود خارجها ، وهى الغاية التى سيصل إليها ، أما مَنْ يسارع فى الخيرات ؛ فهو يحيا فى الخير الآن ، ونطلب منه أن يزيد فى الخير .

وأيضاً نجد قوله الحق :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (١٧) ﴾ [لقمان]

ونجد قوله الحق :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وواحدة منهما وردتْ فى المصائب التى لها غَرِيم ، والأخرى قد وردتْ فى المصائب التى لا غريم فيها ؛ مثل المرض حيث لا غَرِيم ، ولا خُصومة .

أما إذا ضربنى أحد ؛ أو اعتدى على أحد أبنائى ؛ فهو غريمى وتوجد خصومة ؛ فوجوده أمامى يَهِيج الشر فى نفسى ؛ وأحتاج لضبط النفس بعزيمة قوية ، وهذا هو تفصيل الكتاب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ .. (٣) ﴾ [فصلت]

أى : أن كل جزئية فيه مناسبة للأمر الذى نزلتْ فى مناسبته .

ومثال هذا هو قوله سبحانه :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ[1] نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

وقوله الحق :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

وكل آية تناسب موقعها ، ومعناها مُتَّسق فى داخلها ، وتَمَّ تفصيلها بما يناسب ما جاءت له ، فقوله :

﴿ وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُم مِّنْ إِمْلاقٍ .. (١٥١) ﴾ [الأنعام]

يعنى أن الفقر موجود ، والإنسان مُنْشغل برزقه عن رزق ابنه .

أما قوله :

﴿ خَشْيَةَ إِمْلاقٍ .. (٣١) ﴾ [الإسراء]

أى : أن الفقر غير موجود ، وهناك خَوْف أن يأتى إلى الإنسان ؛ وهو خوف من أمر لم يَطْرأ بعد .

وهكذا نجد فى القرآن تفصيل كل شىء تحتاجونه فى أمر دنياكم وآخرتكم ، وهو تفصيل لكل شىء ليس عندك ؛ وقد قال الهدهد عن ملكة سبأ بلقيس :

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ .. (٢٣) ﴾ [النمل]

(١) أملق : افتقر بعد غنى ، والإملاق : الفقر . [القاموس القويم ٢/٢٣٤] .

وليس معنى هذا أنها أوتيت من كل شيء في هذه الدنيا ، بل هي قد أُوتيَتْ من كل شيء تملكه ، أو يُمكِن أن تملكه في الدنيا .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ ..(١١١) ﴾ [يوسف]

لا يعني أن نسأل مثلاً : « كم رغيفاً في كيلة القمح ؟ » .

وقد حدث أن سأل واحد الإمام محمد عبده هذا السؤال ؛ فجاء بخباز ، وسأله هذا السؤال ؛ فأجاب الخباز ؛ فقال السائل : ولكنك لم تَأْتِ بالإجابة من القرآن ؟ فقال الإمام محمد عبده : لماذا لا تذكر قوله الحق :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وهكذا نعلم أنه سبحانه لم يُفرِّط في الكتاب من شيء.

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

ونعلم أن الهُدى هو الطريق المُؤدي إلى الخير ، وهذا الطريق المؤدي إلى الخير ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : الوقاية من الشر لمن لم يقع فيه .

والقسم الثاني : علاج لمَنْ وقع في المعصية .

وإليك المثال : هَبْ أن أُناساً يعملون الشر ؛ فنردهم عنه ونشفيهم منه ؛ لأنه مرض ، وهو رحمة بمعنى ألاَّ يقعوا في المرض بداية .

إذن : فهناك ملاحظتان يشيران إلى القسمين :

الملاحظة الأولى : أن المنهج القرآنى قد نزل وقايةً لمَنْ لم يقع فى المعصية .

والملاحظة الثانية : أن المنهج يتضمن العلاج لِمَنْ وقع فى المعصية .

ويُحدِّد الحق سبحانه مَنْ يستفيدون من المنهج القرآنى وقاية وعلاجاً ، فيقول :

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف]

أى : هؤلاء الذين يؤمنون بإله واحد خلقهم وخلق الكون ، ووضع للبشر قوانين صيانة حياتهم ، ومن المنطقىِّ أن يسمع المؤمن كلامه ويُنفذه ؛ لأنه وضع المنهج الذى يمكنك أن تعود إليه فى كل ما يصون حياتك ، فإنْ كنت مؤمناً بالله ؛ فَخُذ الهدى ، وخُذ الرحمة .

ونسأل الله أن نُعطَى هذا كله .

○ ○ ○

سُورَةُ الرَّعْدِ



سورة الرعد[1]

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ① ﴾

وقد سبق لنا أن تكلمنا طويلاً فى خواطرنا عن الحروف التى تبدأ بها بعض من سور القرآن الكريم ، مثل قوله الحق :

﴿ الٓمٓ ① ﴾ [البقرة]

وقوله :

﴿ الٓمٓر .. ① ﴾ [الرعد]

ومثل قوله :

﴿ الٓمٓصٓ ① ﴾ [الأعراف]

---

(١) سورة الرعد هى السورة الثالثة عشرة فى ترتيب المصحف . قال القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٦١٣) : « مكية فى قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . ومدنية فى قول الكلبىّ ومقاتل . وقال ابن عباس وقتادة : مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة ، وهما قوله عز وجل : ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ .. ㉛ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ .. ㉜ ﴾ [الرعد] وانظر الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى (١ / ٣١) عدد آياتها ٤٣ آية ، وسميت بسورة الرعد لورود ذكره فى السورة فى قوله تعالى : ﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. ⑬ ﴾ [الرعد] .

وغير ذلك من الحروف التوقيفية التى جاءتْ فى أول بعض من فَواتِح السُّور .

ولكن الذى أُحب أن أؤكد عليه هنا هو أن آيات القرآن كلها مَبْنية على الوَصْل ؛ لا عَلى الوَقْف ؛ ولذلك تجدها مَشْكُولة ؛ لأنها مَوْصُولة بما بعدها .

وكان من المفروض ـ لو طبَّقْنَا هذه القاعدة ـ أن نقرأ « المر » فننطقها : « ألفٌ » « لامٌ » « ميمٌ » « راءٌ » ، ولكن شاء الحق سبحانه هنا أن تأتى هذه الحروف فى أول سورة الرعد مَبْنية على الوقف ، فنقول : « ألفْ » « لامْ » « ميمْ » « راءْ » .

وهكذا قرأها جبريل عليه السلام على محمد بن عبدالله ﷺ ؛ وهكذا نقرأها نحن .

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. ۝١ ﴾ [الرعد]

أى : أن السورة القادمة إليك هى من آيات الكتاب الكريم ـ القرآن ـ وهى إضافة إلى ما سبق وأُنْزل إليك ، فالكتاب كله يشمل من أول ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ ﴾ [الفاتحة]

فى أول القرآن ، إلى نهاية سورة الناس.

ونعلم أن الإضافة تأتى على ثلاث مَعَانٍ ؛ فمرَّة تأتى الإضافة بمعنى « من » مثل قولنا « أردب قمح » والمقصود : أردب من القمح .

ومرة تأتى الإضافة بمعنى « فى » مثل قولنا : « مذاكرة المنزل » والمقصود : مذاكرة فى المنزل .

ومرة ثالثة تأتى الإضافة بمعنى « اللام » وهى تتخذ شكْلَيْن .

إمَّا أن تكون تعبيراً عن ملكية ، كقولنا « مالُ زيدٍ لزيد » .

والشكل الثانى أن تكون اللام للاختصاص كقولنا « لجام الفرس » أى : أن اللجام يخص الفرس ؛ فليس معقولاً أن يملك الفرس لِجَاماً .

إذن : فقول الحق سبحانه هنا :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ .. (١) ﴾ [الرعد]

يعنى تلك آياتٌ من القرآن ؛ لأن كلمة « الكتاب » إذا أُطلقتْ ؛ فهى تنصرف إلى القرآن الكريم .

والمثل هو القول « فلانٌ الرجل » أى : أنه رجل حقاً ؛ وكأن سلوكه هو معْيار الرجولة ، وكأن خصَال الرجولة فى غيره ليست مُكْتملة كاكتمالها فيه ، أو كقولك « فلان الشاعر » أى : أنه شاعر مُتميِّز للغاية .

وهكذا نعلم أن كلمة « الكتاب » إذا أُطْلقتْ ينصرف فى العقائد إلى القرآن الكريم ، وكلمة الكتاب إذا أُطلقت فى النحو انصرفتْ إلى كتاب سيبويه الذى يضم قواعد النحو .

ويتابع سبحانه فى وصف القرآن الكريم :

﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن مراد الذى يخالف الحق هو أن يكسب شيئاً من وراء تلك المخالفة .

وقد قال سبحانه فى أواخر سورة يوسف :

﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣) ﴾ [يوسف]

ثم وصف القرآن الكريم ، فقال تعالى :

﴿ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ[1] وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١) ﴾ [يوسف]

وهكذا نرى أن الحق سبحانه لا يريد الكَسْب منكم ، لكنه شاء أن يُنزِل هذا الكتاب لتكسبوا أنتم :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يُؤْمِنُونَ (١) ﴾ [الرعد]

أى : أن أكثر مَنْ دعوتَهُم إلى الإيمان بهذا الكتاب الحق لا يؤمنون بأنه نزل إليك من ربك ؛ لأنهم لم يُحسنوا تأمُّل ما جاء فيه ؛ واستسلموا للهوَى ، وأرادوا السلطة الزَمنية ، ولم يلتفتوا إلى أن ما جاء بهذا الكتاب هو الذى يعطيهم خير الدنيا والآخرة .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢) ﴾

(١) افترى القول : اختلقه واخترعه . وافترى عليه الكذب : اخترعه . قال تعالى :﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ .. (٣٨) ﴾ [يونس] أى : اخترع القرآن واختلقه من عند نفسه . [القاموس القويم ٢ / ٨٠] .

وكلمة « الله » عَلَمٌ على واجب الوجود ؛ مَطْمورة فيه كُلُّ صفات الكمال ؛ ولحظةَ أنْ تقول « الله » كأنك قُلْتَ « القادر » « الضار » « النافع » « السميع » « البصير » « المُعْطى » إلى آخر أسماء الله الحسنى .

ولذلك قال ﷺ : « كُلُّ عمل لا يبدأ باسم الله هو أبتر(١) »(٢) .

لأن كل عمل لا يبدأ باسمه سبحانه ؛ لا تستحضر فيه أنه سبحانه قد سَخَّر لك كُلَّ الأشياء ، ولم تُسخِّرْ أنت الأشياء بقدرتك .

ولذلك ، فالمؤمن هو مَنْ يدخل على أيِّ عمل بحيثية « بسم الله الرحمن الرحيم » ؛ لأنه سبحانه هو الذى ذلَّلَ للإنسان كل شىء ، ولو لم يُذلِّلها لَمَا استجابتْ لك أيها الإنسان .

وقد أوضح الحق سبحانه ذلك فى أمثلة بسيطة ؛ فنجد الطفل الصغير يُمسك بحبل ويربطه فى عنق الجمل ، ويأمره بأن « ينخّ » ويركع على أربع ؛ فيمتثل الجمل لذلك .

ونجد البرغوث الصغير ؛ يجعل الإنسان ساهراً الليل كُلَّه عندما يتسلل إلى ملابسه ؛ ويبذل هذا الإنسان الجَهْدَ الجَهِيد لِيُمْسِك به ؛ وقد يستطيع ذلك ؛ وقد لا يستطيع .

وهكذا نعرف أن أحداً لم يُسخِّر أىَّ شيئ بإرادته أو مشيئته ،

---

(١) البتر : استئصال الشيء قطعاً . وكل أمر انقطع من الخير أثره ، فهو أبتر . والبتر : أصله القطع الحسى والقطع المعنوى من الخير . [لسان العرب ـ مادة : بتر ، القاموس القويم ١/٥٤] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٣٥٩) عن أبى هريرة رضى الله عنه : « كل كلام أو أمر ذى بال لا يفتح بذكر الله عز وجل فهو أبتر ، أو قال : أقطع » .

ولكن الحق سبحانه هو الذى يذلِّل كُلَّ الكائنات لخدمة الإنسان .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

وأنت حين تُقبِل على أىِّ عمل يحتاج إلى قدرة فتقول : « باسم القادر الذى أعطانى بعض القدرة » .

وإنْ أقبلتَ على عمل يحتاج مالاً ؛ تقول : « باسم الغنى الذى وَهَبنِى بعضاً من مال أقضى به حاجاتى » .

وفى كل عمل من الأعمال التى تُقبِل عليها تحتاج إلى قدرة ؛ وحكمة ؛ وغنىً ، وبَسْط ؛ وغير ذلك من صفات الحق التى يُسخِّر بها سبحانه لك كُلَّ شىء ؛ فشاءتْ رحمتُه سبحانه أنْ سَهَّل لنا أن نفتتح أىَّ عمل باسمه الجامع لكل صفات الجمال والكمال « بسم الله الرحمن الرحيم » .

ولذلك يُسَمُّونه « عَلَمٌ على واجب الوجود » .

وبقية الأسماء الحسنى صفات لا توجد بكمالها المُطْلق إلاَّ فيه ؛ فصارتْ كالاسم .

فالعزيز على إطلاقه هو الله . ولكنَّا نقول عن إنسان ما « عزيزُ قومه » ، ونقول « الغَنىّ » على إطلاقه هو الله ، ولكنْ نقول «فلان غنىَّ » و « فلان فقير » .

وهكذا نرى أنها صفاتٌ أخذتْ مرتبة الأسماء ؛ وهى إذا أُطلقَتْ إنما تشير إليه سبحانه .

وعرفنا من قَبْل أن أسماء الله ؛ إما أن تكون أسماءَ ذات ؛ وإما أن تكون أسمـاءَ صفـات ؛ فإنْ كان الاسم لا مـقابل له فـهو اسمُ ذاتٍ ؛ مثل : « العزيز » .

أما إنْ كان الاسم صفةَ الصفة والفعل ، مثل « المُعِز » فلا بُدَّ أن له مقابلاً ، وهو هنا « المُذِلّ » .

ولو كان يـقدر أنْ يُعِزَّ فـقط ؛ ولا يقدر أن يُـذِلَّ لما صار إلـهاً ، ولو كـان يضـر فقط ، ولا ينـفع أحداً لَمَـا اسـتطاع أن يكون إلـهاً ، ولو كان يقدر أنْ يَبسُطَ ، ولا يقدر أن يقبض[1] لما استطاع أنْ يكون إلهاً .

وكل هذه صفات لها مُقَابلها ؛ ويظهر فـعلُها فى لغير ؛ فسبحانه ـ على سبيل المثال ـ عزيزٌ فى ذاته ؛ ومُعِزٌّ لغيره ، ومُذِلٌّ لغيره .

وكلمـة « الله » هى الاسم الجـامع لكل صـفـات الكمـال ، وهناك أسماء أخرى علَّمها الله لبعض من خلقه ، وهناك أسماء ثالثة سنعرفها إنْ شاء الله حين نلقاه :

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ[2] (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) ﴾ [القيامة]

ونلحظُ أن الحق سبحانه بدأ هذه الآية بالحديث عن العالم العُلْوى أولاً ؛ ولم يتحدث عن الأرض ؛ فقال :

---

(١) قـال الحليمى فى مـعنى البـاسط : أنه الناشر فـضله على عـباده يرزق من يشـاء ويوسع ويجود ويُفـضِل ويمكِّن ويُخوِّل ويعطى أكـثر ممـا يُحتاج إليـه . وقال فى مـعنى القابض : يطوى بره ومعـروفه عمَّنْ يريد ويُضيق ويُقـتِّر أو يحرم فيـفقر . ذكره القرطبى فـى كتابه « الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى » (١/ ٣٦٠) .

(٢) نضر الوجه : حَـسُن وكان له رونق وبهجة . ويـقول تعالى : ﴿ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا (١١) ﴾ [الإنسان] . أى : وأكسب الله وجوههم نضـرة ، أى : حُسْناً وبهجـة وجمالاً . [القـاموس القويم ٢/ ٢٧١] .

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ .. ۝ ﴾ [الرعد]

وكلمة « رفع » إذا استعملتَها استعمالاً بشرياً ؛ تدلُّ أن شيئاً كان فى وَضْع ثم رفعتَه عن موضعه إلى أعلى ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ.. ۝ ﴾ [يوسف]

فقد كان أَبَوا يوسف فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعهما يوسف إلى موضع أعلى مما كَانَا فيه ، فهل كانت السماء موضوعة فى موضع أقلّ ؛ ثم رفعها الله ؟ لا ، بل خلقها الله مرفوعة .

ورَحِم الله شيخنا عبد الجليل عيسى الذى قال : « لو قلت : سبحان الله الذى كبَّر الفيل ؛ فهل كان الفيل صغيراً ثم كبَّره الله ؛ أم خلقه كبيراً ؟ لقد خلقه الله كبيراً . وإنْ قلت : سبحان الله الذى صغَّر البعوضة ؛ فهل كانت كبيرة ثم صَغَّرها الله ؟ لا بل خلقها الله صغيرة » .

وحين يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. ۝ ﴾ [الرعد]

فهذا يعنى أنه خلقها مرفوعة ، وفى العُرْف البشرى نعرف أن مُقْتضى رَفْع أىِّ شىء أنْ تُوجَد من تحته أعمدة ترفعه .

ولكن خلقَ الله يختلف ؛ فنحن نرى السماء مرفوعة على امتداد الأفق[1] ؛ ويظهر لنا أن السماء تنطبق على الأرض ؛ ولكنها لا تنطبق بالفعل .

---

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . قال تعالى : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ .. ۝ ﴾ [فصلت] . وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ ۝ ﴾ [التكوير] . أى : ما بين السماء والأرض . [القاموس القويم ١/٢٢] .

ولم نجد إنساناً يسير فى أىِّ اتجاه ويصطدم بأعمدة أو بعمود واحد يُظَنُّ أنه من أعمدة رَفْع السماء ؛ وهى مَرْئية هكذا ؛ فهل هناك أعمدة غير مَرْئية ؛ أم لا توجد أعمدة أصلاً ؟ .

وقد يكون وراء هذا الرَّفْع أمر آخر ؛ فقد قلنا : إن الشىء إذا رُفع ؛ فذلك بسبب وجود ما يُمسكه أو ما يَحْمله ؛ وسبحانه يقول فى أمر رفع السماء :

﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٦٥) ﴾ [الحج]

فإذا كانت مَمْسُوكة من أعلى ؛ فهى لا تحتاج إلى عَمَد ، وقوله الحق : (يمسك) يعنى أنه سبحانه قد وضع لها قوانينها الخاصة التى لم نعرفها بَعْدُ .

وقد قام العلماء المعاصرون بمَسْح الأرض والفضاء بواسطة الأقمار الصناعية وغيرها ، ولم يجدوا عَمَداً ترفع السماوات أو تُمْسِكها .

والمهندسون يتبارَوْنَ فى عصرنا ليرفعوا الأسْقُفَ بغير عَمَدٍ ؛ لكنهم حتى الآن ؛ ما زالوا يعتمدون على الحوائط الحاملة .

وهكذا نعلم أنه سبحانه إمَّا أنه حمل السماء على أعمدة أدقّ وألطفَ من أنْ تراها أعيننا ؛ ولذلك نراها بغير أعمدة ، أو أنها مرفوعة بلا أعمدة على الإطلاق .

و « عَمَد » اسم جمع ـ لا جمع ـ ومفردها «عمود» أو «عماد».

وقد جاءتْ هذه الآية بمثابة التفسير لِمَا أُجمل فى قول الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وجاء سبحانه هنا بالتفصيل ؛ فأوضح لنا أنه :

﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

أى : لا ترونها أنتم بِحُكْم قانون إبصاركم . ولا تعجب من أنْ يوجد مخلوق لا تراه ؛ لأن العينَ وسيلة من وسائل الإدراك ، ولها قانون خاص ؛ فهى ترى أشياء ولا ترى أشياء أخرى .

هذا بدليل أنك إذا نظرتَ إلى إنسان طوله متْران يتحرك مُبْتعداً عنك ؛ تجده يَصْغُر تدريجياً إلى أن يتلاشى من مجال رؤيتك ؛ لكنه لا يتلاشى بالفعل .

وهذا معناه أن قانون إبصارك مَحْكوم بقانون ؛ له مدىً مُحدّد .

وهناك قوانين أخرى مثل : قانون السمع ؛ وقانون الجاذبية ؛ وقانون الكهرباء ؛ وكلها ظواهر نستفيد بآثارها ، ولكنّا لا نراها ، فلا تعجب من أن يوجد شىء لا تدركه ؛ لأن قُوَى إدراكك لها قوانين خاصة .

ويشاء الحق سبحانه أن يُدلِّل على صدق ذلك بأن يجعل ما يكتشفه العلماء فى الكون من أشياء وقُوىً لم تكُنْ معروفة من قبلٍ ؛ ولكننا كنا نستفيد منها دون أن ندرى ؛ مما يدلُّ على أن إدراك

الإنسان غَيْرُ قادر على إدراك كل شىء .

وذلك يوضح لنا أن رؤيتنا للسماء مرفوعة بغير عَمَد نراها ؛ قد يعنى وجود أعمدة مصنوعة بطريقة غير معروفة لنا ؛ أو هى مرفوعة بغير عَمَدٍ على الإطلاق .

وقول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ۝٢ ﴾ [الرعد]

هو كلام خبرى ، والمثل من حياتنا حين تقول لابنك : « أنا خارج إلى العمل ؛ وذاكر أنت دروسك » ، وبذلك تكون قد أوضحتَ له : « ذاكر دروسك » وهذا كلام خبرىّ ؛ لكن المراد به إنشائىّ .

وإبراز الكلام الإنشائى فى مَقَام الكلام الخبرى له ملْحظ ، مثلما تقول : « فلان مات رحمه الله » وقولك « رحمه الله » كلام خبرىّ ؛ فأنت تخبر أن الله قد رحمه .

على الرغْم من أنك لا تدرى : هل رحمه الله أم لا ؛ ولكنك قلت ذلك تفاؤلاً أن تكون الرحمةُ واقعةً به ، وكان من الممكن أن تقول : « مات فلان يا ربِّى ارحمه » ، وأنت بذلك تطلب له الرحمة .

كذلك قول الحق سبحانه :

﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ۝٢ ﴾ [الرعد]

أى : دَقِّقوا وأمعنُوا النظر إليها ، وابحثوا فيما يعينكم على ذلك إن استطعتم ، وإذا لفتَكَ المتكلم إلى شىء ليُحرِّك فيك حواسَّ إدراكك ؛ فمعنى ذلك أنه واثقٌ من صَنْعته .

والمثل من حياتنا ـ ولله المثل الأعلى ، وسبحانه مُنزَّه عن أن يكون له مثل ـ حين تدخل لتشترى صُوفاً ؛ فيقدم لك البائع قماشاً ؛ فتسأله : « هل هذا صوف مائة فى المائة ؟ » فيقول لك البائع : « نعم إنه صوف مائة فى المائة ، وهاتِ كبريتاً لنشعل فتلة منه لترى بنفسك » .

ويوضِّح الحق سبحانه هنا : أن السماوات مرفوعة بغير عَمَد ؛ وانظروا أنتم ؛ بمَدِّ البصر ، ولن تجدوا أعمدة على هذا الامتداد ، وضمان عدم وجود أعمدة مُتحقِّق لك ولغيرك على مدى أُفُق أيٍّ منكم .

ولكُلِّ إنسان أُفُقه الخاص على حسب قدرة بصره ، فهناك مَنْ تنطبق السماء على الأرض أمام عيونه ؛ فنقول له : أنت تحتاج إلى نظارة طبية تعالج هذا الأمر .

فالآفاق تختلف من إنسان إلى آخر ، وفى التعبير اليومى الشائع يقال : « فلان ضَيِّق الأفق لا يرى إلا ما تحت قدميْه » .

ولقائل أن يقول : إن هذا يحدث معى ومع مَنْ يعيشون الآن ؛ ولا أحد يرى أعمدة ترفع السماوات ؛ فهل سيحدث ذلك مع مَنْ سيأتون من بعدنا ؟

ونقول : لقد مسحتْ الأقمار الصناعية من الفضاء الخارجى كل مساحات الأرض ؛ ولم يجد أحدٌ أية أعمدة ترفع السماء عن الأرض .

وهذا دليل صدق القضية التى قالها الحق سبحانه فى هذه الآية :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. ﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

والسماوات جمع « سماء » وهى كل ما عَلاَك فأظلَّك ، والحق سبحانه يقول :

﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [البقرة]

ونعلم أن المطر إنما نزل من السُّحُب التي تعلو الإنسان ، وتبدو مُعلَّقة فى السماء ، وإذا أُطلقتْ السماء انصرفت إلى السماء العليا التى تُظلِّل كل ما تحتها .

وحين أراد الناس معرفة كُنْه السماء ، وهل لها جِرْم[1] أم ليس لها جِرْم ؛ وهل هى امتداد أجواء وهواء ؟ لم يتفق العلماء على إجابة.

وقد نَثَر الحقُّ سبحانه أدلة وجوده ، وأدلة قدرته ، وأدلة حكمته ، وأدلة صَنْعته فى الكون ؛ ثم أعطاك أيها الإنسان الأدلة فى نفسك أيضاً ؛ وهو القائل سبحانه :

﴿ وَفِى أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ [الذاريات]

وانظر إلى نفسك تجد العلماء وهم يكتشفون فى كل يوم شيئاً جديداً وسراً عجيباً ، سواء فى التشريح أو علم وظائف الأعضاء .

وسوف تعجب من أمر نفسك ، وأنت ترى تلك الاكتشافات التى كانت العقول السابقة تعجز عن إدراكها ، وقد يُدرَك بعضها الآن ، ويُدرَك بعضها لاحقاً.

---

(١) الجرم : الجسم والبدن . [لسان العرب ـ مادة : جرم] . والمقصود هل السماء لها أبعاد محددة تأخذ حيزاً كالأجسام ، أم هى مجرد فضاء وهواء ؟

وإدراكُ البعض للمجهول فى الماضى يُؤذن بأنك سوف تدرك فى المستقبل أشياء جديدة .

وإن نظرت خارج نفسك ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

ومعنى ﴿ سَنُرِيهِمْ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

أن الرؤية لا تنتهى ؛ لأن « السين » تعنى الاستقبال ، ومَنْ نزل فيهم القرآن قرءوها هكذا ، ونحن نقرؤها هكذا ، وستظل هناك آيات جديدة وعطاءٌ جديد من الله سبحانه إلى أن تقوم الساعة .

وسبحانه القائل :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [غافر]

وأنت حين تفكر فى خَلْق السماوات والأرض ستجده مسألة غايةً فى الضخامة ؛ ويكفيك أن تتحيّر فى مسألة خَلْقك وتكوينك ؛ وأنت مجرد فرد محدود بحيّز ، ولك عمر محدود ببداية ونهاية ، فما بَالُك بخَلْق السماوات والأرض التى وُجدَتْ من قَبْلك ، وستستمر من بعدك إلى أن تنشقَّ بأمر الله ، وتتكسر لحظتها النجوم .

ولا بُدَّ أن خَلْق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ،

(١) الأفق : الناحية ـ وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . وجمعه آفاق . [القاموس القويم ١/٢٢] . بتصرف . والأفْق والأفُق : ما ظهر من نواحى الفلَك وأطراف الأرض ، وكذلك آفاق السماء نواحيها . [لسان العرب ـ مادة : أفق] .

فالسماوات والأرض تشمل الكون كله .

وحين تُحدَّث عنها إياك أن تخلط فيها بوهمك ؛ أو بتخمينك ؛ لأن هذه مسألة لا تُدرك فى المعامل ، ولا تستطيع أن تُجرِى تحليلات لمعرفة كيفية خَلْق السماوات والأرض .

ولذلك عليك أنْ تكتفى بمعرفة ما يطلبه منك مَنْ خلقها ؛ وماذا قال عنها ، وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء]

وقد حجز الحق سبحانه عن العقول المتطفلة أمرين ؛ فلا داعى أن تُرهِق نفسك فيهما :

الأمر الأول : هو كيفية خَلْق الإنسان ؛ وهل كان قرداً فى البداية ثم تطوَّر ؟ تلك مسألة لا تخصُّك ، فلا تتدخل فيها بافتراضات تُؤدى بك إلى الضلال .

والأمر الثانى : هو مسألة خَلْق السماوات والأرض فتقول : إن الأرض كانت جزءاً من الشمس ، ومثل هذا الكلام لا يستند إلى وقائع .

وتذكر قول الحق سبحانه :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ .. (٥١) ﴾ [الكهف]

---

(١) قفا الشىء يقفوه : مشى خلفه أو تبعه. وقوله تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦) ﴾ [الإسراء] . أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ، ولا من الآراء ، ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عما ليس لك به علم . [القاموس القويم ٢/١٢٨] .

ولو كان الحق سبحانه قد أراد أن تعلم شيئاً عن تفاصيل هذين الأمرين لأشهد خلقهما لبعض من البشر ، لكنه سبحانه نفى هذا الإشهاد ؛ لذلك ستظل هذه المسألة لُغْزاً للأبد ؛ ولن تَحُلَّ أنت هذا اللُّغْز أبداً ؛ بل يحلُّه لك البلاغ عن الحقِّ الذى خلق .

وقد أوضح لك أنه قد خلقك من طين ، ونفخَ فيك من روحه ، فاسمع منه كيفية خَلْقك وخَلْق الكون كله .

ويدل الإعجاز البيانى فى القرآن على أن بعضاً ممَّنْ يملكون الطموح العقلى أرادوا أن يأخذوا من القرآن أدلة على صحَّة تلك النظريات التى افترضها بعض من العلماء عن خَلْق الإنسان وخَلْق الأرض ، فيبلغنا الحق سبحانه مقدَّماً ألاّ نصدقهم .

ويقول لنا :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

والمُضلّ هو مَنْ يُضلُّك فى المعلومات ، هكذا أثبت لنا الحق سبحانه أن هناك مُضلِّين سيأتون ليقولوا كلاماً افتراضياً لا أساسَ له من الصِّحة .

وأوضح لنا سبحانه أن أحداً لم يتلصَّصْ عليه ، ليعرف كيفية خَلْق الشمس أو الأرض ، ومَنْ يدعى معرفة ذلك فهو من المُضلِّين ؛ لأنهم قَفَوْا ما ليس لهم به علم .

---

(١) العضد : المعاون المساعد . وهو فى الأصل : ما بين المرفق إلى الكتف ، ويستعمل مجازاً للمعين المساعد . قال تعالى : ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ .. (٣٥)﴾ [القصص] .أى : سنقويك به على سبيل المجاز المرسل ، فتقوية العضد تقوية للإنسان كله . [القاموس القويم ٢/٢٤] .

وما دام الحق سبحانه قد قال ذلك ، فنحن نُصدِّق ما قال .

وقد أثبتت التحليلات صدْق ما قاله سبحانه عن خَلْق الإنسان ، فسبحانه قد خلق الكون أولاً ، ثم خلق السيد لهذا الكون وهو الإنسان ، وكل الكون مُسخَّر للإنسان ويخدم هذا الخليفة فى الأرض ، وكل ما فى الكون يسير بنظام وانتظام .

والمُتمرِّد الوحيد فى الكون هو الإنسان ، فيأتى الحقُّ سبحانه إلى هذا المتمرِّد ؛ ليجعل الآية فيه ؛ وليثبت صدْق الغيب فى الأرض .

وأوضح سبحانه أنه خلق آدم من الطين ؛ والإنسان من نسل آدم الذى سَوَّاه الله ، ونفخ فيه من روحه ، وبعد ذلك أمر الملائكة ؛ من المُدبِّرات أمراً ومن الحَفَظة ؛ أنْ تسجدَ للإنسان.

وهذا السجود هو إعلان الطاعة لأمر الله بخدمة الإنسان . هذا الذى بدأت حكاية خَلْقه من تراب ، ثم خُلط التراب بالماء ؛ ليصير طيناً ؛ ثم تُركَ قليلاً ليصير حَمَأً مَسْنوناً[1] ؛ ثم يجفّ الحَمأ المسنون ليصير صَلْصالاً كالفخَّار ؛ ثم ينفخ فيه الحق بالروح .

فإذا ما انتهى الأجل ؛ فأول ما يُنقض هو خروج الروح ؛ ثم يتصلَّب الجثمان ، وبعد أن يُوارَى التراب يصير الجثمان رِمّة[2] ؛ ثم

(١) الحمأ والحمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى أو مصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقْل . [القاموس القويم ١/٣٣١] .
(٢) رَمَّ الميت : بلِى جسمه . قال تعالى : ﴿قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨)﴾ [يس] . والرميم : الخلق البالى من كل شىء. [لسان العرب ـ مادة : رمم] .

يتسـرَّب الماء الموجـود فى الجثة إلى الأرض ، وتـبقى العظام إلى أن تتحول هى الأخرى إلى تراب .

وهـكذا يتحـقق نَقْضُ كل بنـاء ؛ فما يُبـنى فى نهاية أىِّ بناء هو ما يُنقض أولاً ، وهكذا يتأكد لنا صدق الحق سبحانه حين نرى صدق المقابل فيما أخبرنا به سبحانه عن كيفية الخلق .

وعندما يُخـبرنا الحق سبحـانه أن كيفية خَلْـق السماوات والأرض ليست فى مُتَناولنا ؛ فقد أعطانا من قبلِ الدليل على صِدْق ما جاء به ، فيما أخبرنا به عن أنفسنا .

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَـٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وكلمـة « الســماوات» فــى اللغة جـمع ، وفى آية أخـرى ، يقـول سبحانه :

﴿ فَـقَـضَـاهُنَّ[1] سَـبْعَ سَـمَـٰـوَاتٍ فِى يَوْمَـيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَـمَـاءٍ أَمْرَهَا .. (١٢) ﴾ [فصلت]

وقديماً كانوا يقولون : إن المقـصود بالسبع سماوات هو الكواكب السـبــعة : الشـمس ، والقــمـر ، وعطارد ، والزهرة ، والـمـريخ ، والمُشْترى .

---

(١) قضاهن : خلقـهن وأوجدهن وأنفذ إرادته بخلقهن. [القاموس القـويم ٢/١٢٢] . وللقضاء معانٍ كثيرة ذكرها السيوطى فى (الإتقان ٢/١٢٨) منها : الفراغ ، فى قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ .. (٢٠٠) ﴾ [البقرة] . ومنها : الفـصل . فى قوله تعالى : ﴿ لَقُضِىَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ (٨) ﴾ [الأنعام] . ومنها العهد : ﴿ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الأَمْرَ .. (٤٤) ﴾ [القصص] .

وشاء سبحانه أن يُكذِّب هذا القول وأصحابُه أحياء ؛ فرأى علماء الفلك كواكبَ أخرى مثل : نبتون وبلوتو ؛ وكان فى ذلك لَفْتة سماوية لِمَنْ قالوا : إن المقصود بالسماوات السبع هو الكواكب السبعة .

وقد قالوا هذا القول بحُسْن نية وبرغبة فى رَبْط القرآن بالعلم ؛ لكنهم نَسُوا أن يُدقِّقوا الفهم لمَا فى كتاب الله ، فسبحانه قد أوضح أن الشمس والقمر والكواكب كلها زينة السماء الدنيا[١] ، فما بالُنَا بطبيعة وزينة بقية السماوات ؟

ويتابع سبحانه :

﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ .. ﴿٢﴾﴾ [الرعد]

وهذه قضية هى أهمُّ قضية كلامية ناقشها علماء الكلام ؛ قضية الاستواء والعرش ، وحتى نفهم أىَّ قضية لا بُدَّ أن نُحلِّل ألفاظها لنتفقَ على معانيها ، ثم نبحثها جملة واحدة ، لكن أن نجلس لنتجادل ونحن غير مُتواردين ومتفقين على فَهْم واحد ؛ فهذا أمرٌ لا يليق .

ولننظر الآن معنى « الاستواء » ومعنى « العرش » ، ونحن حين نستقرىء كلمة « استوى » فى القرآن نجدها قد وردتْ فى آيات متعددة .

وجاءت مرّة واحدة بمعنى الاستواء . أى : النضج ، فى قول الحق سبحانه :

---

(١) يقول تعالى : ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾﴾ [الصافات] . ويقول أيضاً : ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت] .

﴿ ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ[1] واسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْماً وعِلْماً .. ⑭ ﴾ [القصص]

أى : أنه قد بلغ نُضْجه الكمالىّ ، ويستطيع أن يكون رجلاً صالحاً لممارسة ما يُبقِى نوعه ، وإنْ تزوج فلسوف يُنجِب مثله ؛ وهذا استواء لمخلوق هو الإنسان .

ومرة أخرى يقول القرآن :

﴿ ذُو مِرَّةٍ[2] فَاسْتَوَىٰ ⑥ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ⑦ ﴾ [النجم]

والمعنى هنا هو : صعد ؛ والمقصود هو صعود محمد و جبريل عليهما السلام إلى الأفق الأعلى .

وهناك قوله الحق :

﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَاتٍ .. ㉙ ﴾ [البقرة]

أى : أنه سبحانه قد استوى إلى السماء ؛ وإياك أن تظن أن استواءه سبحانه إلى السماء مُسَاوٍ لاستواء البشر ؛ لأننا قُلْنا من قبل : إن كل شىء بالنسبة لله إنما نأخذه فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪ ﴾ [الشورى]

---

(١) الأشد : مبلغ الرجل الحنكة والمعرفة . قال الأزهرى : الأشد فى كتاب الله تعالى فى ثلاثة معان يقرب اختلافها . فقوله فى قصة يوسف : ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ .. ㉒﴾ [يوسف] فمعناه الإدراك والبلوغ . وأما قوله فى قصة موسى : ﴿ولَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ واسْتَوَىٰ .. ⑭﴾ [القصص] أى : أن يجتمع أمره وقوته ويكتهل وينتهى شبابه . وأما قوله : ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ..⑮﴾ [الأحقاف] فهو أقصى نهاية بلوغ الأشد ، وقد اجتمعت حنكته وتمام عقله . [لسان العرب ـ مادة : شدد] . بتصرف .

(٢) المرة : القوة والشدة وحصافة الرأى وقوة الخلق ، مأخوذ من إمرار الحبل وإحكام فتله . قال تعالى : ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ⑤ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ⑥﴾ [النجم] ، وهو وصف لجبريل عليه السلام بأنه ذو قوة . [القاموس القويم ٢/٢٢٣] .

وبذلك يكون استواؤه سبحانه إلى السماء هو استواء يليق بذاته، والاستواء المطلق شيء مختلف عن الاستواء على العرش .

وهكذا نجد استواءً لغير الله من إنسان ؛ وهناك استواء لغير الله من إنسان ومن ملك ؛ وهناك استواء من الله إلى غير العرش . وبجانب ذلك هناك استواء على العرش .

وقد وردَ الاستواء على العرش فى سبعة مواقع بالقرآن ؛ فى : سورة الأعراف ؛ وسورة يونس ؛ والرعد ، وطه ، والفرقان ، والسجدة ، والحديد .

وورد ذكر العرش فى القرآن بالنسبة لله واحداً وعشرين مرَّة، وورد بالنسبة لبلقيس أربع مرات ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا .. (٣٨) ﴾ [النمل]

ثم قال :

﴿ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا .. (٤١) ﴾ [النمل]

وقال :

﴿ أَهَـٰكَذَا عَرْشُكِ .. (٤٢) ﴾ [النمل]

وبالنسبة ليوسف قال سبحانه :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وإيَّاك أن تأخذ الاستواء بالنسبة لله على أن معناه « النُّضْج » ؛

لأن النُّضْجَ إشعارٌ بكمالٍ سبقه نَقْصٌ .

ولذلك نجد العلماء المُدقِّقين قد علمُوا أن ذكْر استواء الله على العرش قد ورد في سبعة مواضع بالقرآن الكريم وقالوا :

وَذِكْرُ استْواء اللَّه فِي كَلِمَاته على ... العَرْشِ في سَبْعِ مَوَاضِع فَاعْدُدِ

فَفِي سُورَةِ الأعْرَاف ثُمَّةَ يُونُسَ ... وَفِي الرَّعْدِ مع طَه فَلْلعَدِّ أَكِّدِ

وَفِي سُورَةِ الفُرْقَانِ ثُمَّةَ سَجْدة ... كَذَا فِي الحديدِ افْهمْهُ فَهْم مُؤَيَّدِ

وقالوا في المعنى :

فَلَهُمْ مَقالاتٌ عليْهَا أرْبعة ... قَدْ حُصِّلَتْ لِلْفارسِ الطَّعَّانِ

وَهي استقرَّ وقَدْ عَلاَ ... وكذلكَ ارتفَع مَا فِيهِ مِنْ نُكْرانِ

وكَذاكَ قَدْ صَعَدَ الذي هُوَ رَابِعٌ ... بِتمَامِ أمْرٍ مِنْ حِمَى الرَّحمَانِ

والصعود إلى العرش هو حركة انتقال من وضع إلى وضع لم يَكُنْ فيه .

وهكذا نجد أن المعاني التي تتمشَّى مع الاستواء في عُرْفنا البشري لا تتناسب مع كمال الله .

واختلف العلماء : قال واحد منهم : « سآخذ اللفظ كما قاله الله ».

ونردُّ على هذا بسؤال : وهل يمكنك أن تُغَيِّبَ :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

طبعاً ، لا أحدَ يستطيع ذلك ، وعليك أن تأخذ كل فَهْمٍ لشيء يخصُّ الذات العلية في إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ⑪ ﴾ [الشورى]

ولذلك نجد أهل الدِّقة[1] يقولون : « الاستواء معلوم ، والكَيْف مجهول ، والسؤال عنه بدعة » .

فنحن نعلم معنى الاستواء ؛ ولكن كيفية استواء الله مجهولةٌ بالنسبة لنا ، والسؤال عن الكيفية بدعة ؛ لأن المعاصرين لرسول الله ﷺ لم يسألوا عن تلك الكيفية ، رغم أنهم سألوا عن كثير من الأمور .

وهناك آيات متعددة[2] تبدأ بقول الحق سبحانه :

﴿ يَسْأَلُونَكَ .. ⑱⑨ ﴾ [البقرة]

وكان السؤال وارداً بالنسبة لهم ؛ لكنهم بملكتهم العربية الفطرية قد فَهِموا الاستواء كشيء يناسب الله ، فَلَمْ يسألوا عنه .

وجاء السؤال من المتأخرين الذين تمحَّكوا ، فقال واحد : سآخذ الألفاظ بمعناها ؛ فإن قال : إن له صعوداً ؛ فهو يصعد ، وإنْ قال : إن له استواء فهو يستوى .

ولمَنْ قال ذلك نردُّ عليه : إن ما تقوله صالحٌ للأغيار ، ولا يليق أن تقول ذلك عن الذى يُغيِّر ولا يتغيَّر . وإذا سألتَ عن معنى كلمة « استواء » فهو « استتب له الأمر » . وهل كان الأمر غير مستتب له سبحانه ؟

---

(١) رُوِى هذا عن الإمام مالك بن أنس .

(٢) ورد هذا فى ١٥ موضعاً فى القرآن : [البقرة : ١٨٩ ، ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٢٢] ، [المائدة : ٤] ، [الأعراف : ١٨٧] ، [الأنفال : ١] [الإسراء : ٨٥] ، [الكهف : ٨٣] ، [طه : ١٠٥] ، [النازعات : ٤٢] .

ونقول : نحن نعلم أن الله سبحانه وتعالى صفات متعددة ، وهذه الصفات كانت موجودة قبل أن يخلق الله الخَلْق والكَون ؛ فسبحانه موصوفٌ أنه خالق قبل أنْ يخلق الخَلْق ، ومُعِزٌّ قبل أن يخلق مَنْ يُعِزّه ، ومُذِلّ قبل أنْ يخلق مَنْ يُذِلّه ، وله سبحانه صفاتُ الكمال المُطْلق .

وبهذه الصفات خلق الخلق ، يقول الحق :

﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠ ﴾ [طه]

وكذا نؤمن بأن صفة الخَلْق كانت في ذاته قبل أن يخلق خَلْقه، وحين خلق سبحانه السماوات والأرض أبرز الصفة التي كانت موجودة فيه وليس لها مُتعلِّق ؛ فأوجد هو سبحانه المُتعلِّق ، وهكذا استتبَّ له الأمر سبحانه .

إذن : إذا ذُكر استواءُ الله ، فهذا يعني تمامَ المُرَاد له ، فصار للصفات التي كانت فيه ، وليس لها مُتعلِّق أو مَقْدُور ؛ مُتعلِّق ومَقْدور .

وإذا وُجِدَتْ هذه الصفة في البشر مثل بلقيس التي وصفها سبحانه :

﴿ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ ﴾ [النمل]

فهي تختلف عن صفَة الله ؛ لأنها لم تجلس على العرش إلا بعد أن خلقها الله ، ولا يستتب الأمر لملك أو ملكة إلا بمتاعب ومعارك ، وقد ينشغل هذا الشخص في معارك وحروب ، ثم يستتبّ له الأمر .

وهكذا يختلف استواءُ الله عن استواءِ خَلْق الله ، وإذا ذُكر استواء

الله على العرش ؛ فنحن نُنزِّه الله عن كل استواء يناسب البشر ، ونقول :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١) ﴾ [الشورى]

واستواؤه هو تمام الأمر له ، لأن أمره صادر ، وعند تحقيق أمره في توقيته المراد له يكون تمام الأمر ، وتمام الأمر استواؤه ، أما كلمة « العرش » فنحن نجدها في القرآن بالنسبة لله .

إما مُضَافاً لاسم ظاهر :

﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ .. (١٧) ﴾ [الحاقة]

وإما مُضَافة للضمير المخاطب أو الغائب :

﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ .. (٧) ﴾ [هود]

وإما مُضَافاً للتنسيب :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

ويقول الحق سبحانه في نفس الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ .. (٢) ﴾ [الرعد]

والتسخير هو طلب المُسخِّر من المُسخَّر أن يكون كما أراده تسخيراً ، بحيث لا تكون له رغبة ، ولا رأي ، ولا هوَى ، والتسخير ضدُّه الاختيار .

والكائن المُسخَّر لا اختيارَ له ، أما الكائن الذي له اختيار فهو إنْ شاء فعل ، وإنْ شاء لم يفعل .

وقُلْنا قديماً : إن الحق سبحانه قد خَيَّرَ الإنسان :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

وبذلك قَبِل الإنسان أداء الأمانة وَقْتَ أدائها ؛ لا وَقْتَ تحمُّلها ، ووقت الأداء غَيْر وقت التحمُّل ، وضربتُ المَثَل بمَنْ يقول لصديقه : « عندى ألف جنيه ؛ وأخاف أنْ يضيعوا منِّى ؛ فاحفظهم لى معك ؛ وحين أحتاجهم اعْطِهمْ لى » .

ويقول الصديق : « هَاتِ النقود وسأُعطيها لك وقت أنْ تطلبها » .

والصديق صادقٌ وقت تحمُّل الأمانة ؛ لكن ظروفاً تمرُّ عليه ، فيتصرَّف فى هذه الأمانة ؛ وحين يطلبها صاحبها ؛ قد يعجز حامل الأمانة عن رَدِّها ، وهو بذلك ضَمِنَ نفسه وقت التحمُّل ؛ لكنه لم يضمن نفسه وقت الأداء .

وكان من الواجب عليه أن يقول لصديقه لحظةَ أنْ طلب منه ذلك : « أرجوك ، ابتعد عنِّى لأنِّى لا أضمن نفسى وَقْت الأداء » .

وقد أَبَتِ السماء والأرض والجبال تحمُّل الأمانة وَقْت عَرْضها ؛ وقَبِلتْ كل منهم التسخير ؛ فلا الجبال ولا السماوات ولا الأرض لها قدرة الاختيار ، ولا هَوى لأىٍّ منها فى هذه القدرة ؛ مثلها فى ذلك مثل كل أجناس الكون ما عدا الإنسان ؛ ولم نجد فساداً فى الأرض

---

(١) أشفق من الشىء : خشى أن يناله منه مكروه . وقوله تعالى : ﴿ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا .. ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب] . أى : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ١/٣٥١] .

قد نشأ من ناحية المُسخَّرات .

أما الإنسان فقد قَبِل تحمُّل الأمانة ؛ لأن له عقلاً يُفكِّر ويختار ؛ ومن الاختيار ونتيجة للهوى جاء الفساد فى الكون ، ولو أقبل الإنسان على العمل وكأنه مُسخَّر خاضع لمنهج الله ؛ لاستقام عمل الإنسان مثْلما يستقيم عَمَلُ كل الكائنات المُسخَّرة بأمر الله .

فإنْ أردتم أن تستقيمَ أموركم فيما لكم فيه اختيار ، فطبِّقوا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا[1] فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وانظروا ماذا يطلب الحق منكم فى منهجه ، فإنْ نفَّذتم المنهج تَسْتقِمْ أموركم ، كما استقامتْ الكائنات المُسخَّرة .

ولا يأتى الخَلَل إلا من أننا نحن البشر نقوم ببعض الأعمال باختيارنا ، وتكون مخالفة لمنهج المُشرِّع ، أما إذا كنا نؤدى أعمالنا ونضع نُصْب أعيننا قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾ [الرحمن]

فلسوف تكون أعمالنا مُطابقة لمنهج الله ، وسنجد فى أعمالنا ما يَسرُّنا مثل سرورنا حين نجد الأفلاك منتظمة بدقة وحساب .

إذن : فالفساد لا يأتى إلا من الاختيار غير المُرْتجى لمنهج مَنْ

(١) طغى يطغى : تجاوز الحدَّ . [القاموس القويم ١/٤٠٢] .
(٢) القسط : العدل. وقسط يقسط : عدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور [القاموس القويم ٢/١١٦] .

خلق فينا الاختيار ، وإن كنت تريد أن تكون مختاراً ؛ فعليك أن تلتزم بمنهج مَنْ خيَّرك .

ولذلك نجد الصالحين من خَلْق الله قد ساروا على منهج ربهم ؛ والتزموا باختيار مراد ربهم فيما لهم فيه اختيار ؛ فصاروا وكأنهم مُسخَّرون لمُرَادات الله .

وهؤلاء يسمُّونهم «العباد» لا «العبيد» ؛ فكل مملوك لله من العبيد ؛ آمن به أو كفر ؛ أطاع أو عصى ؛ أما العباد فَهُمْ مَنْ جعلوا مرادات الله هى اختيارهم ، يقول تعالى :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

هؤلاء هم مَنِ اتجهوا بالاختيار إلى ما يختاره لهم الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى الملائكة :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾

[الأنبياء]

وإذا ما التزم العبد بمنهج ربه فى حال الاختيار ؛ فهو لا يتساوى مع الملائكة فقط ، بل قد يسمو عنهم ؛ لأنهم مَقْهورون بالتسخير ؛ بينما تتمتع أنت بالاختيار ؛ وآثرْتَ منهج ربك .

ويقول الحق سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

---

(١) الهَوْن والهُوَيْنا : التؤدة والرفق والسكينة والوقار . [لسان العرب ـ مادة : هون] .

﴿ وَسَخَّرَ[(١)] الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. (٢٩) ﴾
[لقمان]

ولحظةَ تجد التنوين مثل « كلٌّ » فهذه يعنى كُلاً من السابق . أى : الشمس والقمر . أما الجَرْى إلى أجَل مُسمّى ؛ فيقتضى مِنَّا أن نفهم معنى الجَرْى ؛ وهو تقليل الزمن عن المسافة .

فحين تريد الوصول إلى مكان مُعيَّن فقد تمشى الهُوَيْنا ؛ لتصلَ فى ساعة زمن ، وقد تجرى لتقطع نفس المسافة فى نصف ساعة ؛ والجَرْى بطبيعة الحال ملحوظ مِمَّن يراك .

لكن : هل يرى أحدنا الشمس وهى تجرى ؟

لا ، لأنها تجرى فى ذاتها ؛ ويُسمَّى هذا النوع من الجرى « جرى انسيابى » . أى : لا تدركه بالعين المجردة ، وهناك ما يُسمّى « انتقال قفزى » ، وهناك ما يُسمّى « انتقال انسيابى » .

وانظر إلى عقارب الساعة ؛ ستجد عقربَ الثَّوانى أسرعَ من عقرب الدقائق الذى يبدو ساكناً رغم أنه يتحرك ؛ وأنت ترى حركة عقرب الثوانى ؛ لأنها تتم قَفْزاً ؛ بينما لا ترى حركة عقرب الدقائق ؛ لأنه يتحرك تبَعاً لدورة هادئة من التروس داخل الساعة ؛ وكل جزئية فى حركة التُّرْس الخاص بعقرب الدقائق تتأثر بحركة تُرْس عقرب الثَّوانى ؛ والحركة القفزية لعقرب الثوانى تتحول إلى حركة انسيابية فى عقرب الدقائق .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. (٥٤) ﴾ [الأعراف] . أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ٣٠٦/١] .

وحركة كل من العقربين تتحول إلى حركة أكثر انسيابية فى عقرب الساعات ، وهذا يعني أن كل جزئية من الزمن فيها جزئية من الحركة .

وحتى فى النمو بالنسبة للإنسان أو الحيوان أو النبات ، تجد عملية النمو غير ظاهرة لك ؛ لأن الكائن الذي ينمو إنما ينمو بقدر بسيط غير ملحوظ ، وهذا القدر البسيط شائع فى اليوم كله .

وإن أردتَ أن تعرف هذه المسألة أكثر ، انظر إلى الظل ، وأنت ترى الظل واضحاً ساعةَ سطوع الشمس ، ثم ينحسر الظل بانحسار الشمس .

واقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان]

أى : أن الظل متحرك وغير ثابت ، وكل جزئية من الزمن تؤثر فى حركة الشمس ، فيتأثر بها الظل .

وهكذا يجب أن نُفرِّق بين الحركة القفزية والحركة الانسيابية ، وحين تقدمنا فى العلم نجدهم يقولون : « سنزيد من الحركة الانسيابية عن الحركات القفزية » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُّسَمًّى ..﴿٢﴾ ﴾ [الرعد]

والأجل هو المدة المحدودة للشيء ؛ وهى محدودة زمناً إنْ أردنا ظرف الزمان ؛ أو محدودة بالمسافة إن أردنا المكان .

والمقصود هنا بالأجل ؛ إما الأجل النهائى لوجود الشمس والقمر ؛ ثم إذا انشقتْ السماء كُوِّرتْ[1] الشمس ، وانكدرتْ[2] النجوم .

أو : أن المقصود هنا بالأجل هو للتعبير عن عملها اليومى .

وقد عرفنا أن هناك مطالع متعددة للشمس ، وعلى الرغم من أن المشرق له جهة عامة واحدة ؛ لكن المطالع مختلفة ، بدليل أن قدماء المصريين أقاموا فى بعض المعابد طاقاتٍ وفتحاتٍ فى البناء .

فتطلع الشمس كُلَّ يوم من أحد هذه الطاقات ؛ فكل يوم توجد لها منزلة مختلفة عن اليوم السابق ، وتظل تقطعها ، ثم تعود مرة أخرى ، وتفعل ذلك إلى أجل مُسمّى أى يومياً .

ونُسمِّى نحن تلك المنازل « البروج » كبرج الحَمَل ؛ والجَدْى ؛ والثور ؛ والأسد ؛ والسنبلة ؛ والقوس ؛ والحوت ؛ ونحن نرصد هذه الأبراج كوسيلة لمعرفة أحوال الطقس من حرارة ، وبرودة ، ومطر ، وغير ذلك ، ذلك أن كُلَّ برج له زمن ، ويمكن تعريف أحوال الجو خلال هذا الزمن بدقة .

ولكن بعضاً من تصرفات الإنسان تفسد عملية التحديد الدقيق فى الكون ، مثلما يشعل البعض الحرائق فى الغابات ؛ فتحرق النار

---

(١) كوَّر الشىء : لَفَّه على شىء مستدير ، فيقال « كوَّر عمامته » : لفَّها على رأسه . وقوله : ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ .. ۝٥﴾ [الزمر] . أى : يزيد الليل فيلتف على جزء من النهار وبالعكس . [القاموس القويم ٢/١٧٧] .

(٢) قال تعالى : ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ ۝٢﴾ [التكوير] . أى : تغيَّر لونها ولم يعد صافياً لامعاً ، أو تناثرت وتساقطت بسرعة كالصقور المنقضة على فرائسها عند قيام الساعة . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

الأكسوجين الذى يحتاجه البشر والحيوانات للتنفس ، ويحاول الغلاف الجوى أن يتوازن ، فيشُدّ كميات من الهواء من منطقة أخرى ، فيختلّ ميزان الطقس لأيام .

وكذلك يفسد الجو من التجارب الذرية التى تُجريها الدول أعضاء النادى الذرى ؛ تلك التجارب التى تقوم بتفريغ الهواء ، فتجعل الطقس غَيْرَ مُسْتقر وغير منضبط ؛ وهذا ما يفسد استخدامنا للأبراج كوسيلة لمعرفة تقلُّبات الطقس .

وقد أوجز الشاعر تلك الأبراج فى قوله :

حَملَ الثورُ جَوْزةَ السَّرطَانِ ورَعَى الليْثُ سُنْبلَ الميزَان

عَقْرب القَوْس جَدْى دَلْو وحُوت مَا عَرفْنَا مِنْ أُمة السُّرْيَانِ

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ ﴾ [الرعد]

وسبحانه قد أوضح من أول الآية مسألة رَفْع السماوات بغير عَمَد ، واستوائه على العرش ، وتسخير الشمس والقمر ، وكيف يجرى كُلُّ شىء لأجل مُسمّى .

وكُلُّ ذلك يتطلب تدبيراً للأمر بعد أن أبرز القدرة ؛ ثم يصون ذلك كله ، فكما قَدَّر فخلق ، فهو يُدبِّر بقيوميته ، فهو القائم على كل شىء ، وسبحانه كل يوم هو فى شأن[1] .

---

(١) عن عبدالله بن منيب الأزدى قال : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية : ﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ۝ ﴾ [الرحمن] فقلنا : يا رسول الله ، وما ذاك الشأن ؟ قال : «أن يغفر ذنباً ، ويفرج كرباً ، ويرفع قوماً ، ويضع آخرين» أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٣) .

وأقول هذا المثل لأوضح - لا لأُشبِّه فسبحانه مُنَزَّه عن التشبيه - ونحن نقول : فلان فكَّر أولاً ثم دبَّر ، والتفكير هو العملية التى تبحث فيها عن الشيء لإخراج المطلوب منه ؛ كأن تأتى بقليل من حبوب القمح لتفركه بيدك لتخرج القمحة من قشرته .

هذا هو التفكير الذى يطلب منك أن تبحث وتُنقِّب إلى أن تصل إلى لُبِّ الأشياء . والتدبُّر يقتضى ألاَّ تقتنع بما هداك إليه فكرك فى نفس اللحظة ، ولكن أن تُمحِّص الأمر لترى ماذا سينتج عن تنفيذ ما وصل إليه فكرك ؟

فربما ما فكرتَ فيه يُسعِفك ويُعينك فى لحظتِكَ الحالية ؛ لكنه سيأتى لك بعَطَبٍ بعد قليل .

والمَثَلُ الذى أضربه على مثل هذه الحالة دائماً هو اختراع المُبيدات الحشرية ؛ ولم يَفْطنوا إلى أن هذه المبيدات لا تقتل الحشرات الضارة وحدها ، بل تُسمِّم الطيور التى كانت تفيد الفلاح .

ووصل الأمر إلى حَدِّ تحريم استخدام هذه المبيدات ؛ وجاء هذا التحريم ممن تفاخروا من قَبْل على كل شعوب الأرض باختراعهم لتلك المبيدات ، فقد فَطنوا إلى أنَّ ما جاءهم من خَير عن طريق تلك المبيدات هو أقلُّ بكثيرَ من الضُّرِّ الذى وقع بسببها .

وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا اختراعهم لتلك المبيدات ؛ فقاموا بتصنيعها لفائدة عاجلة ، دون أن يلتفتوا إلى الخطورة الآجلة ، وكان لا بُدَّ لهم أن يتدبروا الأمر ؛ لأن التدبُّر معناه النظر فى دُبُر الأشياء .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾﴾ [محمد]

أي : لا تنظر إلى واجهة الآية فقط ، بل انظر في أعماقها ، ولذلك يقول لنا سيدنا عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : « ثَوِّروا[1] القرآن » .

أي : استخرجوا منه الكنوز بالتدبُّر ؛ لأن التدبر يحمي من حماقة التفكر ، والمثل البسيط المتكرر في بيوتنا هو أننا نغسل أفواهنا بعد تناول الطعام ونتمضمض مِمَّا بَقِي في الفم من بقايا .

ونجد من بين هذه البقايا بعضاً من « الفتافيت الصلبة بعض الشيء » ، ثم نغسل حوض المياه بتيار متدفق من ماء الصنبور ، ونُفَاجأ بعد فترة من الزمن بانسداد ماسورة الصرف الخاصة بالحوض ؛ وحين يفتح السباك ماسورة الصرف هذه يجدها مليئة برواسب من بقايا الأطعمة .

وأنت حين تمضمضتَ لم تلتفت إلا لنظافة الفَمِ من البقايا ، ولم تتدبر أمر تلك البقايا ، ولو أنك تدبرتَ ذلك لَقُمْتَ بتركيب ماسورة صرف للحوض أكبر من الماسورة التقليدية الضيقة ؛ ولَجعلْتَ صندوق الطرد الخاص بالحوض أكبر من الحجم المعتاد والمُجهَّز لصرف المياه فقط .

(١) أورد ابن منظور في لسان العرب حديث ابن مسعود : « أثيروا القرآن ، فإن فيه خبر الأولين والآخرين » قال شمر : تثوير القرآن قراءته ومفاتشة العلماء به في تفسيره ومعانيه » [مادة : ثور] .

وهكذا نرى أن الفكر يحثُّك على أن تبحث عن مطلوب لك ؛ ولكن عليك أن تنظر وتُدقِّق : هل يحقق لك ما يقترحه عليك فكرك ؛ ما يفيدك أم ما يضرك ؟

هذا هو التدبُّر ، وهو ما نُسمِّيه صيانة الأشياء .

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝ ﴾ [الرعد]

وتفصيل الآيات يعنى أنه جعل لكل أمر حُكْماً مناسباً له . ودائماً أقول لمن يسألنى عن فتوى ؛ ويُلِحّ أن تتوافق الفتوى مع مراده : « نحن لا نُفصِّل الفتوى من أجل هواك ؛ لأن ما عندى هى فتاوى جاهزة ؛ وعليك أن تضبط مقاسك أنت على الفتوى ، لا أن نُفصِّل لك الفتوى على هواك » .

أقول ذلك ؛ لأن المسألة ليست حياة تنتهى إلى العَدَم ، ولكن هناك حياة أخرى تُحاسب فيها على كل تصرُّف ، فالحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً[1] مَّنثُوراً ۝ ﴾

[الفرقان]

وهو القائل سبحانه أيضاً جَلَّ وعلا :

---

(١) الهباء : الغبار المتطاير فى الجو . قال تعالى : ﴿ فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنبَثًّا ۝ ﴾[الواقعة] . أى : تراباً متطايراً هنا وهناك . ومثله قوله : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ۝ ﴾ [الفرقان] . أى : كل عمل عملوه كالهباء المنثور لا يُعتدُّ به ولا قيمة له . [القاموس القويم ٢/٢٩٧] .

﴿ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ[1] لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ .. (١٨) ﴾ [إبراهيم]

ولذلك فعليك أن تُقبِل على كل عمل وأنت مُوقِن بأن هذا العمل لا ينتهى بتركك للحياة الدنيا ، ولكن لكل عمل آثاره فى حياة باقية ، وإذا كانت الدنيا تحمل لك راحة موقوتة أو تعباً موقوتاً ، فالراحة فى الآخرة باقية أبداً ؛ والتعب فيها غير مَوْقوت .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ[2] وَأَنْهَارًا ۖ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ يُغْشِي[3] اللَّيْلَ النَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾

ويتابع الحق سبحانه سَرْد آياته الكونية فى هذه الآية :

﴿ مَدَّ الأَرْضَ.. (٣) ﴾ [الرعد]

يعنى أنها موجودة أمامك ومُمْتدة ، وبعض الناس يفهمون المَدَّ بمعنى البسط ، ونقول : إن البَسْطَ تابع للمَدِّ .

---

(١) عصفت الريح : اشتد هبوبها . والريح العاصفة أحياناً تدمر كل شىء تمر عليه . [القاموس القويم ٢/ ٢٣] .

(٢) الرواسى : الجبال ، لأنها تثبت الأرض فتستقر ولا تميل . [لسان العرب ـ مادة : رسا].

(٣) غشَّيت الشىء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٥٠٠) : « أى : جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً ، فإذا ذهب هذا غشيه هذا ، وإذا انقضى هذا جاء الآخر » .

ولذلك وقف بعض العلماء وقالوا : ومن قال إن الأرض كُرَوِيّة ؟

إن الحق سبحانه قال : إنها مبسوطة ، وهو سبحانه الذى قال : إنه قد مَدَّ الأرض .

وقلتُ لهؤلاء العلماء : فَلْنفهم كلمة المَدِّ أولاً ، وَلْنَفْهَمْ أيضاً كلمة « الأرض » وهى التى تقف عليها أنت وغيرك ، وتعيش عليها الكائنات ، وتمتد شمالاً إلى القُطْب الشمالى ، وجنوباً إلى القُطْب الجنوبى ، أياً ما كُنْت فى أىِّ موقع فهى مَمْدودة شرقاً وغرباً .

ومعنى :

﴿مَدَّ الأَرْضَ.. ۝﴾ [الرعد]

تعنى أنك إنْ وقفتَ فى مكان وتقدمتَ منه ؛ تجد الأرض ممدودة أمامك ؛ ولا توجد حَافّة تنتهى لها ، ولو أنها كانت مبسوطة لَكانَ لها نهاية ، ولكانت على شكل مُثلّث أو مُربّع أو مُسْتطيل ؛ ولكانَ لها حافة ؛ ولوجدنا مَنْ يسير إلى تلك الحافة ، وهو يقول : « لقد وصلتُ لحافة الأرض ؛ وأمامى الفراغ » ولم يحدث أنْ قال ذلك واحد من البشر .

وإذا ما سار إنسان على خط الاستواء مثلاً ؛ فسيظل ماشياً على اليابسة أو راكباً لمركب تقطع به البحر أو المحيط ليصل إلى نفس النقطة التى بدأ منها سَيْره .

وهكذا نجد الأرض ممدودة غير محدودة ، لا يكون ذلك إلا إذا كانت الأرض مُكوَّرة ، بحيث إذا مشيت مُتتبِّعاً أىَّ خط من خطوط العرض أو خطوط الطول لانتهتْ إلى النقطة التى بدأت منها سَيْركَ .

وكان هذا هو الدليل الذى يقدمه العلماء على كروية الأرض ؛ قبل أن يخترعوا فكرة التصوير من خارج الغلاف الجوى .

ونأخذ من قول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

معنًى آخر هو ضرورة أن ينظر الإنسانُ فى هذا الامتداد ؛ ومَنْ تضيق به الحياة فى مكان يُمكنه أن يرحلَ إلى مكان آخر ، فأرضُ الله واسعة ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا .. (٩٧) ﴾ [النساء]

ونعلم أن فساد العالم فى زمننا إنما ينشأ من فساد السياسات ، وزيادة الاضطرابات ، وذلك واحد من نتائج تعويق مَدِّ الأرض ، فساعة يحاول إنسان أن يترك حدود موطنه ؛ يجد الحراسات والعوائق عند حدود البلاد المجاورة ، وتناسَى الجميع قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

فسبحانه قد سَخَّر الأرض وأخضعها للأنام كل الأنام[1] ، وإذا لم يتحقق هذا المبدأ القرآنى ؛ سيظل العالم فى صراع ؛ وستظلُّ بعض من البلاد فى حاجة للبشر ، وبعض من البلاد فى ضيق من الرزق ؛ لزيادة السكان عن إمكانات الأرض التى يعيشون عليها .

وستظل هناك أرض بلا رجال ؛ ورجال بلا أرض ، نتيجة للحواجز المصطنعة بين البلاد .

---

(١) الأنام : ما ظهر على الأرض من جميع الخلْق . وقال المفسرون : هم الجان والإنس . [لسان العرب ـ مادة : أنم] قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٧٠) : « أى : كما رفع السماء وضع الأرض ومهدها وأرساها بالجبال الراسيات الشامخات لتستقر لما على وجهها من الأنام وهم الخلائق المختلفة أنواعهم وأشكالهم وألوانهم والسنتهم فى سائر أقطارها وأرجائها » .

وحتى تُحل هذه القضـية ـ كما قلنا فى الأمم المـتحدة ـ لابد من تطبيق المبدأ القرآنى :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومَنْ تضيق به الأرض التى نشأ فيها فليسمح له بالهجرة .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا .. (٣) ﴾ [الرعد]

والرواسى هى جمع « رَاسٍ » وهو الشىء الثابت .

وسبحانه يقول :

﴿ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا (٣٢) ﴾ [النازعات]

وهكذا جاء الحق بالحـكم الذى شاء أن تكون عليه الجـبال ، وفى آية أخرى يأتينا الله بعلة كونها رواسى ؛ فيقول :

﴿ وَجَعَلْنَا فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ .. (٣١) ﴾ [الأنبياء]

أى : لا تضطرب بكم الأرض ، ولو كـانت الأرض مـخلوقـة على هيئـة الثبـات ؛ لما احـتجْنَا إلى الجـبال الرواسى كى تُثـبِّتهـا ، ولكن الأرض مخـلوقة متـحركـة ، وهى عُرْضـة للاضطراب ، ولولا الجـبال الرواسى لَمَادتْ الأرض .

ولسائل أن يقول : ولكننا نقطع الآن الجبال ، ونأخذ الجرانيت من جبل لِنُـزيِّن به أرضية بعض المـناطق ؛ ونقطع الرخام من جـبل آخر لنصنع منه حـمـامات وأحـواضـاً ودرجات السـلالم ، ونقـتطع بعض أحجار أنواع معينة من الجبال ؛ لنستخلص اليورانيوم منها ؟

ونقول : انظر إلى حكمة الحق تبارك وتعالى حين خلق ؛ وحكمته حين دَبَّر ، فهذه الأرض لها محيط ؛ ولها مركز ؛ ولها أقطار ، وكلما اقتربتْ من مركز الأرض فالقطر يَقِلّ .

ومثال هذا هو البطيخة ؛ فأنت إن استخلصتَ القشرة الخارجية لها يكون لديْكَ كرة من القشرة الخضراء ؛ وكرة أخرى من مُكوِّنات البطيخة التى نأكلها ، ولو استخلصتَ كرة أخرى من مكونات الألياف الحمراء التى تتكون منها البطيخة ، لصار عندك كرة أخرى ، ولصار قُطْر الكرة الجديدة أصغر بطبيعة الحال من الكرة الخضراء .

وكلما استخلصتَ كُريّات أخرى من مُكوِّنات البطيخة ؛ صَغُرَتْ الأقطار ؛ لأنك تقترب من مركز الدائرة ، والمحيط الأخضر الذى يحيط بالبطيخة وهو القشرة ؛ يشبه المحيط الذى يوجد على الكرة الأرضية ؛ وهذه القشرة التى توجد حول الكرة الأرضية صُلْبة ؛ أما ما بداخل الأرض وجَوْفها ؛ فهو مُكوَّن من أشياء ومواد متعددة ، منها ما هو سائل ومنها ما هو صَلْب .

وكلما اقتربنا من مركز الأرض ؛ وجدنا ارتفاعاً فى درجة الحرارة ؛ وتدلُّنا على ذلك كُتَل الحُمَم التى تخرج فوَّارة من فُوَّهات البراكين ؛ وهى حُمَم ذات حرارة مرتفعة للغاية ؛ وهى حُمَم مُحْرِقة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يجعل بطن الأرض سائلاً ، رحمةً بنا ؛ ذلك أننا حين نبنى بيوتاً ؛ أو نقتطع أحجاراً من الجبال ؛ أو نستخدم مُكوِّنات الجبال فى أى غرض ؛ إنما ننقل بعضاً من مُكوِّنات الأرض من موقع إلى آخر .

وحين ينتقل ثقل من مكان على سطح الأرض إلى مكان آخر ؛

فالسائل الذى فى باطن الأرض ينتقل من المنطقة التى زاد عليها الثقل إلى المنطقة التى خَفَّ من فوقها الثقل ليتحقق التوازن ، ولو لم يحدث ذلك لَتساقطتْ العمارات الشاهقة التى نراها أثناء دوران الأرض .

والمَثَـلُ الذى يُوضِّح ذلك أنك لو وضعتَ قطعة من العجين على سطح بطيخة أو كرة ، وجعلت البطيخة أو الكرة فى حالة دوران لَطردتْ الكرة أو البطيخة قطعة العجين من على سطحها .

وقد شرح العلماء فى « علم الحركة » ذلك فقالوا : إن كل شىء مستدير يتحرك ؛ إنما تنشأ عن حركته عملية اسمها الطرد الذاتى ؛ لأن قطعة العجين أو أىَّ شىء نضعه على شىء مستدير يتحرك ؛ تكون له كثافة وثقل على المنطقة التى يوجد فيها ، ويصل هذا الثقل إلى المركز ، ولكى تستمر الحركة الدائرية متوازنة لا بد أن يطرد الشىء المستدير ما فوقه من ثُقْل زائد .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل نِصْفى الكرة الأرضية من أى موقع تتخيله ، متساوياً فى الوزن مع النصف الآخر ، ومهما أخذتَ من مواد ونقلتَها من موقع إلى آخر ، فالوزن يتعادل نتيجة لحركة السوائل التى فى بطن الأرض .

وهذا يدلُّ على عظمة الخالق الذى خلق بتدبير دقيق ، ويكفى أن ننظر إلى عظمة الحق الذى لم يجعل الجبال رواسىَ ليمنع الأرض من أنْ تميدَ بنا ، بل جعل فى الجبال والصحارى ما استنجدنا به حين ضاقت الأرض بنا ؛ فذهبنا إلى الجبال ؛ لنستخرج منها المواد الخام ؛ ونُصدِّرها ؛ ثم نشترى بثمنها القمح .

ونرى من حولنا الصحارى حيث كان المقيمون فيها يلهثون قديماً من العطش ، ولا يجدون شجرة يستظلون بها ؛ فيُفجِّر فيها الحق آبار البترول .

وهكذا نرى أن كل قطاع من الأرض فيه خير مُسَاوٍ لأى قطاع آخر من الأرض ، وجعل الله لكل أمر زمناً يمكن للبشر أن يستفيدوا من هذا الأمر فى ذلك الزمن .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الجبال :

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[1] ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[2] فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾ [فصلت]

أى : أنه سبحانه بارك فى الجبال ، وهى جزء من الأرض ، وشاء أن يُقدِّر الأقواتَ فى الجبال والأرض ؛ ويكفى أن نعلم أن المطر حين يتساقط من السماء على الجبال ؛ فيحمل المطر بعضاً من الطَّمْى من على أسطُح تلك الجبال ، فتتجدد خُصوبة الأرض .

ولو كانت الجبال هَشَّة لذابتْ الجبال من عدد قليل من مرات سقوط المطر ، ولَذابتْ القشرة الخِصْبة التى تُغذِّى النبات حين نزرعه فى الأرض .

---

(١) الند : المثل والنظير ، وجمعه أنداد . قال تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا .. (٣٠) ﴾ [إبراهيم] . أى : أمثالاً شركاء . [القاموس القويم ٢/٢٥٧] .

(٢) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته ، وجمعه « أقوات » . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] . أى أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

ولكنه سبحانه شاء أنْ تمُرَّ الظروف الجوية باختلافها وتنوُّعها في تتابع يُوفِّر من الحرارة والرطوبة ما يجعل الأرض تتشقق ؛ فيصير سطح الجبال الصّلْبة هَشَّاً لينزل مع المطر ؛ وليُغذِّي الأرض بالخُصوبة من أجل أن يستمر استبقاء الحياة بإنتاج ما نحتاجه من نباتات مزروعة .

ونلحظ قوله سبحانه في نفس الآية :

﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا .. ۝٣ ﴾ [الرعد]

وهنا يجمع الحق بين الرواسي وهي الثوابت ، وبين الأنهار وهي التي تحمل الماء السائل ، وهذا جَمْعٌ بين الأضداد .

والنهر يُطلق على ما يحمل المياه العَذْبة ؛ أما البحر فهو المُكوَّن من الماء المالح ، وأنت إذا استعرضتَ أنهار الدنيا كلها ؛ ستجد أن مجاريها تصبُّ في البحار ، وهذا دليل على أن منسوب النهر أعلى دائماً من منسوب البحر ، ولو كان الأمر بالعكس ؛ لَطَغى ماء البحر على مياه النهر ، ولَمَا استطعنا أن نشرب أو نزرع .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن يجعل الماء العَذْب هو الأعلى ؛ لأن له مهمة يُؤدِّيها قبل أن يصُبَّ في البحر . أقول ذلك حتى نعلم الحكمة في قول الحق سبحانه :

﴿ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ[1] لاَّ يَبْغِيَانِ ۝٢٠ ﴾ [الرحمن]

---

(١) البرزخ : الحاجز بين الشيئين ، فالله تعالى جعل بين البحرين حاجزاً من الأرض يحجز كلاً منهما في مجراه فلا يبغي ولا يطغى على الآخر ، فهو يمزجهما حين يلتقيان فلا يبقى العذب عذباً لكن بينهما من الأرض برزخ قبل التقائهما يحفظ كلاً منهما في مجراه . [القاموس القويم ١/٦٣] .

ومن العجيب أن البرزخ الذى يفصل بين النهر والبحر يكون انسيابياً ، يتدرج نزول مياه النهر فى مياه البحر بما يُحقِّق سهولة فى هذا الانتقال ، ومن العجيب أيضاً أنك إنْ حفرتَ عند شاطىء البحر قد تعثر على الماء العذب .

ولذلك حين نزور العريش نجد شاطئاً باسم شاطىء النخيل ؛ ونحن نعلم أن النخيل يحتاج إلى الماء العَذْب ، وكأن الحق سبحانه قد جعل فى هذا النخيل خاصية استخلاص الماء العَذْب من هذا المكان الذى يوجد على البحر ؛ وقد تكون له جداول عذبة .

فسبحانه القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ[1] فِى الأَرْضِ ..(٢١) ﴾ [الزمر]

ونحن فى الريف نجد من يحفر بئراً ويكون ماؤه عَذْباً ؛ وآخر يحفر بئراً ويكون ماؤه مالحاً . وهذا دليل على أن الماء فى بطن الأرض غير مختلط ، بل لكل ماء مسارب[2] تختلف باختلاف نوعية المياه .

ويُرتِّب الحق سبحانه فى نفس الآية مجىء الثمرات كنتيجة على وجود الثابت ـ الجبال ـ كمصدر للغرْيَن[3] وخصوبة الأرض ، وعلى وجود الأنهار التى تحمل الماء اللاَزم للرى ، وهكذا يكون مجىء الثمرات أمراً طبيعياً .

---

(١) ينابيع : جمع ينبوع . وهو من نبع الماء إذا جرى من العين ، أى : تفجَّر . والينبوع : الجدول الكثير الماء . [لسان العرب ـ مادة : نبع] .

(٢) السرب : الطريق والمسلك . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٣) الغرين : ما بقى فى أسفل الحوض والغدير من الماء أو الطين . قال الأصمعى : الغرين أن يجىء السيل فيثبت على الأرض ، فإذا جف رأيت الطين رقيقاً على وجه الأرض قد تشقق . [لسان العرب ـ مادة : غرن] .

والثمرة كما نعلم هى الغاية من أى زرع .

وفى نفس الآية يواصل الحق ذكر عطائه ، فيقول سبحانه :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ③ ﴾ [الرعد]

ويستعمل البعض كلمة « زوج » ويراد به شيئان كقولنا « زوج أحذية » مع أن التعبير الدقيق يقتضى أن نقول « زوجان من الأحذية » كتوصيف لفردة حذاء يُمْنى وفردة حذاء يُسْرى ؛ لأن كلمة « زوج » مفرد ، وتستخدم فى الشىء الذى له مثْل ؛ ولذلك نجد العدد الفردى والعدد الزوجى ؛ والعدد الزوجى مُفْرد له مثيل ؛ وفى الإنسان هو الذكر والأنثى .

وسبحانه القائل :

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ .. ④٩ ﴾ [الذاريات]

ويخطىء الناس أيضاً فى فهم كلمة التوأم ، ويظنون أنها تعنى الاثنين اللذين يولدان معاً ، ولكن المعنى الدقيق للتوأم وهو الفرد الذى يُولَد مع آخر ، ويقال لاثنين معاً «التوأمان » .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ .. ③ ﴾ [الرعد]

ولم يخلق الحق سبحانه أىَّ شىء إلا وشاء له أن يتكاثر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ ③٦ ﴾ [يس]

وكُلٌّ تكاثر إنما يحتاج إلى زوجين ، وكنا نعتقد قديماً أن التكاثر يحدث فقط فى النبات ؛ مثلما نُلقِّح النخلة بالذَّكَر ، وفى الحيوان يخصب الفَحْل الأنثى ، ثم كشف لنا العلم بعد ذلك أن الكهرباء ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ تتكون من سالب وموجب وغير ذلك كثير ، وكل ما قدمه العلم من كشوف يؤيد صدْقه سبحانه :

﴿ سبْحَانَ الَّذى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يُغْشِى[1] اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن تأتى الظُّلْمة على النهار فتُغطيه ؛ وهو القائل فى موقع آخر من القرآن :

﴿ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً .. (١٢) ﴾ [الإسراء]

وذلك تحقيقاً لمشيئته التى قالها :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً[2] .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

وإنْ سأل سائل : هل الليل هو الذى خُلِقَ أولاً أم النهار ؟

أقول : نحن نرى الآن الليل والنهار ، كُلٌّ منهما يُؤدِّى مُهمَّته فى نصف ما فى الكرة الأرضية ، وكل منهما يخلف الآخر ، ولا بد أن الأمر كذلك من أول الخلق .

---

(١) أى : يجعل الليل يَغْشَى النهار ويغطيه بظلامه . [القاموس القويم ٢/٥٥] .

(٢) الخلفة : اسم مصدر بمعنى الاختلاف ، أو مصدر خلف : جاء بعده ليحل محله . أى : أن الليل والنهار يختلف كل منهما عن الآخر طولاً وقصراً ، أو يخلف كل منهما الآخر ويأتى بعده . [القاموس القويم ١/٢٠٦] .

فإنْ كان سبحانه قد أوجد الأرض مبسوطة وفى مواجهتها الشمس ، لَكان النهار هو الأسبق فى الخَلْق ، وإنْ كان قد خلق الشمس غير مواجهة للأرض ؛ يكون الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق .

ويوضح الحق سبحانه هذا الأمر قليلاً فى سورة يس حين يقول :

﴿ لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠) ﴾ [يس]

وكان العرب قديماً يظنُّون أن الليل هو الذى سبق النهار فى الخَلْق ؛ لأنهم كانوا يُؤرِّخون الشهور بالقمر ؛ فيدخل الشهر بليله لا بنهاره ، ونحن نعلم أن رمضان يأتينا بأول ليلة فيه .

وقد أوضح الحق سبحانه لهم على قَدْر معارفهم ، ثم ثبت لنا أن الليل والنهار قد وُجِدا فى وقت واحد بعد أن وضحتْ لنا أن صورة الأرض كروية ، وأنه سبحانه قد خلقها كذلك ، فما واجه الشمس كان نهاراً ؛ وما غابتْ عنه الشمس كان ليلاً ، ويخلف كل منهما الآخر .

وهكذا وضَّح لنا أنهما موجودان فى آنٍ واحد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) ﴾ [الرعد]

أى : أن على الإنسان مسئولية التفكُّر فيما يراه من حوله ليصل إلى لُبِّ الحقائق .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ(١) وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾

هذه الآية جاءت بشيء من التفصيل لقول الحق سبحانه في أواخر سورة يوسف :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وتلك آية تنضم إلى قوله تعالى :

﴿ رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى :

﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ يُفَصِّلُ الآيَاتِ .. (٢) ﴾ [الرعد]

وتنضم إلى قوله سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ .. (٣) ﴾ [الرعد]

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

---

(١) الصِّنو (بكسر الصاد وضمها) : المثْل ، إذا طلعت اثنتان أو أكثر من النخل أو الشجر من أصل واحد ، قيل لكل واحد منهما صنو . والجمع صِنوان (بضم الصاد وكسرها) . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

﴿ وَفِى الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ④ ﴾ [الرعد]

نجد أننا لا نستطيع أن نعرفها بأنها التى يعيش عليها أمثالنا ؛ تلك هى الأرض ، ولو أردنا تعريفها لأبهمناها ، فهى أوضح من أن تُعَرّف .

وكلمة « قِطَع » تدلُّ أول ما تدلُّ على « كل » ينقسم إلى أجزاء ، وهذا الكُلُّ هو جنس جامع للكلية ؛ وفيه خصوصية تمييز قطع عن قطع .

وأنت تسمع كلام العلماء عن وجود مناطق من الأرض تُسمّى حزام القمح ، ومناطق أخرى تُسمَّى حزام الموز ؛ ومناطق حارة ؛ وأخرى باردة .

وقول الحق سبحانه :

﴿ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ .. ④ ﴾ [الرعد]

هو قول يدل على الإعجاز ؛ فعلى الرغم من أنها متجاورات إلا أن كلاً منها تناسب الطقس الذى توجد فيه ؛ فزراعة الذرة تحتاج مناخاً مُعيناً ؛ وكذلك زراعة الموز .

وهكذا تجد كل منطقة مناسبة لما تنتجه ، فالأرض ليست عجينة واحدة استطراقية ، لا بل هى تربة مناسبة للجو الذى توجد به .

ومن العجيب أن فيها الأسرار التى يحتاجها الإنسان ؛ هذا السيد الذى تخدمه كل الكائنات ، فليست الأرض سائلة فى التماثل ؛ بل تختلف بما يناسب الظروف ، فهناك قطعة سبخة لا تنبت ؛ وأخرى خصبة تنبت .

بل وتختلف الخصوبة من موقع إلى آخر ؛ ومن قطعة إلى أخرى ؛ فثمرة الجوافة من شجرة معينة فى منطقة معينة تختلف عن ثمرة الجوافة من شجرة فى منطقة أخرى ؛ والقمح فى منطقة معينة يختلف عن القمح فى منطقة أخرى ؛ ويقال لك « إنه قمح فلان » .

ويحدث ذلك رغم أن الأرض تُسْقَى بماء واحد .

ويقول العلماء البعيدون عن منطق السماء : « إن السبب فى الاختلاف هو عملية الاختيار والانتخاب » . وكأنهم لا يعرفون أن الاختيار يتطلب مُخْتاراً ، وأن يكون له عقل يُفكِّر به ليختار ، وكذلك الانتخاب فهل البُذَيْرات تملك عقلاً تُفكِّر به وتختار ؟ طبعاً لا .

ويقولون : إن النبات يتغذَّى بالخاصية الشعرية ، ونعلم أن الأنابيب الشعرية التى نراها فى المعامل تكون من الزجاج الرفيع ؛ وإذا وضعناها فى حوض ماء ، فالماء يرتفع فيها على مستوى الإناء .

وإنْ صدَّقْنا العلماء فى ذلك ، فكيف نُصدِّقهم فى أن شجرة ما تأخذ ماءً مثل الشجرة الأخرى ؛ وتنتج كل منهما نفس الثمار ؛ لكن ثمار شجرة تختلف عن الأخرى فى الطَّعْم ؟

ونقول : إن كل شجرة تأخذ من الأرض ما ينفعها ؛ ولذلك تختلف النباتات ، ويحدث كل ذلك بقدرة الذى قَدَّر فهدى .

وهكذا نرى الأرض قطعاً متجاورات ؛ منها ما يصلح لزراعة تختلف عن زراعة الأرض الأخرى .

وقد يقول بعض من الملاحدة : إن هذا الاختلاف بسبب الطبيعة والبيئة .

وهؤلاء يتجاهلون أن الطبيعة فى مجموعها هى الشمس التى تعطى الضوء والحرارة والإشعاع ، والقمر أيضاً يعكس بعضاً من الضوء ، والنجوم تهدى مَنْ يسير فى الفَلاَة[1] ، وتيارات الهواء تتناوب ولها مسارات ومواعيد .

ورغم كل ذلك فهناك أرض خِصْبة تنتج ، وأرض سبخة لا تنتج ، وأرض حمراء ؛ وأخرى سوداء ، وثالثة رملية ، وكلها متجاورة .

لا بد إذن من وجود فاعل مختار يأمر هذه أمراً مختلفاً عن تلك .

ويتابع الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

وجاء الحق سبحانه هنا بالمُرفِّهات أولاً ؛ فتحدث عن الفاكهة ؛ ثم تحدث عن الزرع الذى منه القُوت الأساسى ، ونحن فى حياتنا نفعل ذلك ؛ فحين تدخل على مائدة أحد الكبار ؛ تجد الفاكهة مُعدَّة على أطباق بجانب المائدة الرئيسية التى يُقدَّم عليها الطعام .

ويأتى الحق سبحانه بعد الأعناب والزَّرْع الذى منه القُوت الضرورى بالنخيل ، وهو الذى ينتج غذاء ، وقد يكون التمر الذى ينتجه تَرَفاً يتناوله الإنسان بعد تناول الطعام الضرورى .

وقول الحق سبحانه :

﴿ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) الفلاة : القفر من الأرض التى لا ماء بها ولا أنيس . والفلاة : المفازة . وقيل : هى الصحراء الواسعة . [لسان العرب ـ مادة : فلا] .

يتطلب منَّا أن نعرف ما الصنوان ؟ ونجد الرسول ﷺ يقول : « العم صِنْو أبيك»[1] أى : أن الصِّنْو هو المِثْل .

وبهذا يكون معنى الصِّنْوان هو المِثْلان . ونرى ذلك واضحاً فى النخيل ؛ فنرى أحياناً أصلاً واحداً تخرج منه نخلتان ؛ أو ثلاث نخلات ؛ وأحياناً يخرج من الأصل الواحد أربع أو خمس نخلات .

ويُطلق لقب « الصنوان » على الأصل الواحد الذى يتفرع إلى نخلتين أو أكثر ؛ فكلمة « صنوان » تصلح للمثنى وللجمع ، ولكنها فى حالة المثنى تُعامل فى الإعراب كالمثنى ؛ فيقال « أثمرتْ صنوان » و « رأيت صنوين » أما فى حالة الجمع فيقال « رأيت صنواناً » و « مررْتُ بصنوان » . والمفرد طبعاً هو « صِنْو » .

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ .. ④ ﴾ [الرعد]

ومن العجيب أن كل شجرة تأخذ عَبْر جذورها كمية من الماء والغذاء اللازم لإنتاج ثمارٍ ذات شكل وطَعْم مختلف .

وهذا ما جعلنا نقول من قَبْل : إن افتراضات العلماء المتخصصين فى علوم النبات عن أن النباتات تتغذَّى بخاصية الأنابيب الشعرية هو افتراض غير دقيق .

فلو كان الأمر كذلك لأخذت الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٩٨٣) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال لعمر رضى الله عنه « يا عمر أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه » وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣٢٢/٢) .

المواد التى أخذتها الأنابيب الشعرية الخاصة بنبات آخر . والأمر ليس كذلك ، فكل نبات يأخذ من الأرض ما يخصه فقط ، ويترك ما عدا ذلك .

ذلك أن الثمار لكل نبات تختلف ولا تتشابه ؛ بل إن الشجرة الواحدة تختلف ثمارها من واحدة إلى أخرى .

مثال هذا : هو شجرة المانجو أو النخلة المثمرة ، ويمكنك أن تلاحظ نفسك ، وسترى أنك تنتقى من ثمار المانجو القادمة من شجرة واحدة ما يعجبك ، وترفض غيرها من الثمار ، وسترى أنك تنتقى من ثمار البلح القادم من نخلة واحدة ما يروقُ لك ؛ وترفض بعضاً من ثمار نفس النخلة .

وحين تذهب لشراء الفاكهة ؛ فأنت تشترى حسب موقفك من الادخار ؛ فإنْ كنتَ تحب الادخار فسوف تشترى الفاكهة التى من الدرجة الثانية ؛ وإذا كنت تحب أن تستمتع بالطيب من تلك الفاكهة فسوف تشترى من الفاكهة المتميزة .

وأتحدى أنْ يقف واحد أمام قفص للفاكهة ، وينتقى الثمار غير الجميلة الشكل والرَّوْنق[1] ، بل يحاول كل إنسان أن يأخذ الجميل والطيب من تلك الفاكهة ، وحين يدفع ثمن ما اشترى سنجده يدفع النقود الورقية القديمة التى تُوجد فى جيبه ، وسيحتفظ لنفسه بالنقود الجديدة .

وهذا الموقف يغلب على مواقف أى إنسان ، فهو مُقبل دائماً على رَفْض أخذ السىء ؛ وخائف دائماً على التفريط فى الحَسَن .

---

(١) الرونق : الصفاء والحسن . [لسان العرب ـ مادة : رنق] .

والحق سبحانه يقول :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّى إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وأنت لا تجد فى الثمار تشابهاً ، بل اختلافاً فى الطَّعْم من نوع إلى نوع ؛ كذلك تجد اختلافاً فى طريقة تناولها ؛ فلا أحد منَّا يأكل البلحة بكاملها ، بل نأكل ثمرة البلحة بعد أن نُخرج منها النواة ؛ ونأكل ثمرة التين بأكملها ، ونخرج ما فى قلب حَبَّة المشمش من بذرة جامدة ، ثم نأكل المِشْمشة من بعد ذلك .

فكل ثمرة لها نظام خاص ؛ وليست مسألة ميكانيكية فى عطاء الله لثمار متشابهة ؛ بل هناك اختلاف ، ويمتد هذا الاختلاف إلى أدقِّ التفاصيل ؛ لدرجة أنك حين تتناول قِطْفاً من العنب تجد اختلافاً لبعض من حبَّات العنب عن غيرها .

ونحن لا نُفضِّل بعضاً من الفاكهة على البعض الآخر فى الأُكُل فقط ، بل نُفضِّل فى الصنف الواحد بعضاً من ثماره عن البعض الآخر .

وحين تقرأ :

﴿ نُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى الأُكُلِ .. ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

فاعلم أنه لا يوجد شىء أو أمر مُفضّل على إطلاقه ، وأمر آخر مفضول على إطلاقه ، فما دُمْنَا نُفضِّل بعضه على البعض الآخر ؛ فهذا يعنى أن كلاً منهما مُفضَّل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمثل الواضح أمامنا جميعاً أننا حين نجلس إلى مائدة عليها ديك رومى قد تجد يدك تتجه إلى طبق « المخلل » قبل أن تمتدّ يدك إلى الديك الرومى ؛ لأن « نفسك » قد طلبتْه أولاً ، فلا تَقُلْ : إن هناك

شيئاً مفضولاً عليه طوال الوقت ، أو شيئاً مفضلاً كل الوقت .

وكذلك الناس ؛ إياك أن تظن أن هناك إنساناً فاضلاً على إطلاقه ؛ وآخر مفضولاً على إطلاقه ؛ بل هناك إنسان فاضل فى ناحية ، ومفضول عليه فى ناحية أخرى .

والمَثَل : هو صاحب السيارة الفارهة ؛ ثم ينفجر إطار سيارته ؛ فيتمنى أن يرزقه الله بمَنْ يمرُّ عليه ليقوم بتغيير إطار السيارة ؛ فيمرُّ عليه هذا الإنسان صاحب الملابس غير النظيفة بما عليها من شحوم ؛ فيكون هذا الإنسان أفضل منه فى قدرته على فَكِّ الإطار المنفجر بالإطار السليم الاحتياطى .

وهكذا نشر الله الفضل على الناس ليحتاج بعضهم لبعض ؛ ولذلك أقول : حين تجد نفسك فاضلاً فى ناحية إياك أنْ تقعَ فى الغرور ؛ واسأل نفسك : ما الذى يَفْضُل عليك فيه غيرك ؟

وتذكَّر قول الحق سبحانه :

﴿ لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ .. (١١) ﴾ [الحجرات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يُوزِّع الفضل بين الناس ، ليحتاج كل منهم الآخر ، وليتكامل المجتمع . وكذلك وَزَّع سبحانه الفضل فى الأطعمة والفواكه والثمار ، وانظر إلى نفسك لحظة أنْ تُقدَّم لك أصناف متعددة من الفاكهة ؛ فقد تأخذ ثمرة من الجميز قبل أن تأخذ ثمرة من التفاح ؛ فساعة طلبتْ نفسك ثمرة الجميز صارت فى تقدير الموازين والتبادل هى الأفضل ، وكل إنسان يمكن أن يجد ذلك فيما يَخصُّه أو يُحبه .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ⑧ ﴾ [الرعد]

ولذلك نجد الإنسان وهو يُلوِّن ويتفنَّن فى صناعة الطعام ، ويختلف إقبال الأفراد على الأطعمة المُنوَّعة ، وقد تجد اثنين يُقبلان على لحم الدجاج ؛ لكن أحدهما يُفضِّل لحم الصدر ؛ والآخر يُفَضِّل لحم « الوَرِك » ، وتجد ثالثاً يُفضِّل لحم الحمام ؛ وتجد رابعاً يفضل تناول السمك .

بل إنك تجد اختلافاً فى طريقة تناول مَنْ يحبون السمك ؛ فمنهم مَنْ يحب أكل رأس السمكة ، ومنهم مَنْ يحب لحم السمكة نفسها ، ولا أحد يملك معرفة السبب فى اختلاف الأمزجة فى الانجذاب إلى الألوان المختلفة من الأطعمة .

وحين تتأمل تلك المسائل قد يأتى إلى خاطرك قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. ㉘ ﴾ [البقرة]

والسؤال هنا من الله للتعجُّب ؛ والتعجُّب عادة يكون من شىء خَفِى سببه ، فهل يَخْفَى سبب على الله ليتعجب ؟

طبعاً لا ، فسبحانه مُنزَّه عن ذلك ، وسبحانه يعلم سبب كفر الكافرين ؛ لكنه ينكر عليهم أسباب الكفر .

والمثَلُ من حياتنا ـ ولله المَثَلُ الأعلى ـ فأنت تجد نفسك وأنت تنطق بكلمة « كيف تسُبّ أباك ؟ » لإنسان يوجه كلمات جارحة لوالده ؛ فتتعجب لِتُنكِر ما فعله هذا الإنسان .

وكذلك القول : كيف تكفـرون بالله ؟ لأن الكفر شىء لا يتأتى من عاقل . وكان لنا شـيخ هو فضيلة العالم أحمـد الطويل ؛ وكان يحدثنا عن شيخ له حين كان يقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

كـان يقول : إن الخطـاب هنا عام لكل إنســان ؛ لأن الحق بعـدها يأتى بالقضية العامة :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

وهذا القول للعموم . وكان شيخنا يحكى عن شيخه أنه حدَّثهم أن إنساناً كان مُسـرفاً على نفسه ؛ ثم انصبَّتْ عليـه الهداية مرة واحدة ؛ ورآه كل مَنْ حوله وهـو مُقْبِل على الله ؛ فـسألوه عن سـبب الهداية ، فقال :

كنت أجلس فى بسـتان ، ثم رَاقَ لى عـنقود من العنب ؛ فـقطفتُ العنقود ، وأخذتُ أتأمل فيه ؛ فوجدت غشاءً رقيقاً شفافاً ـ وهو قشرة حبة العنب ـ يشفُّ عما تحته من لحم العِنبة الممتلىء بالعصير .

وحين وضعتُ حـبة العنب فى فمى ؛ صارت مـاء رطباً ؛ وأخذنى العجب من احـتفاظ حـبة العنب ببرودتهـا ورطوبتها رغم حـرارة جَوٍّ شهـر بؤونة ؛ ثم وجدت بذرة الحبة ولهـا طَعْم المسْك ؛ فلما غـمرنى السرور من طَعْم وجمال العنب سمـعت هاتفاً يهتف بى : « كيف تكفر بالله وهو خالق العنب ؟ » فهتفت : آن يا رب أن أُومن بك .

وكل منَّا له أن ينظر إلى شىء يعجبه ؛ وسيجد الشىء كأنه يقول له : كـيفَ تكفـر بالله وهو خـالقـى ؟ وهكذا سنجـد كل إنســان وهو

مُـخاطب بهـذه العبـارة ، لأنه ما مـن كائن إلا وله شىء يعـجبـه فى الكون .

وهكذا نفهم معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الأُكُلِ .. ④ ﴾ [الرعد]

ونجـد أى شىء هو فاضل فى وقت الـحاجـة إليه وطلبـه ؛ وكل شىء مَفْضُول عليه فى وقت ما ؛ وإنْ كـان فاضلاً عند مَنْ يحتاجه . ونجد أن التفضيل هنا عند الأكْل .

والأُكل هو ما يُؤكَل ؛ لا الآن فقط إنما ما يؤكل الآن أو بعد ذلك، وسبحانه القائل :

﴿ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ[1] فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ[2] ..(٢٦٥) ﴾ [البقرة]

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

وكذلك قال :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نجد أن الأُكـل مقصـود به ما يُؤكل الآن ، ومـا بعد الأكل أيضاً .

---

(١) الوابل : المطر الغزير . وبل المطر : كثر وعَظُم قَطْره . [القاموس القويم ٢/٣١٨] .

(٢) الطَّل (بفتح الطاء) : المطر الخفيف يكون له أثر قليل ، لـكنه يقى النبات شر الظمأ . قال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ .. (٢٦٥) ﴾ [البقرة] . فإن لم يصب الربوة أو الحديقة وابل يسقـيها ويرويهـا فإنه يصـيبهـا طل ، فهى محـفوظة من الظمأ دائـماً . [القامـوس القويم ١/٤٠٦] .

ويُذيل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

وبعض الناس يظنون أن العقل يعنى أنْ يمرحَ الإنسان فى الأشياء ، وأنه يعطى الإنسان الحرية المطلقة ، ومثل هذا الظن خاطىء ؛ لأن العقل جاء ليُبصِّر الإنسانَ بعواقب كُلِّ فعل ونتائجه ، فيقول للإنسان : « إياكَ أنْ يستهويك الأمر الفلانى لأن عاقبته وخيمة » . ومن مادة العين والقاف واللام عقل . ويقال : عقلْتُ البعير.

ومن مهام العقل أنْ يُفرز الأشياء ، وأنْ يفكر فيها ليستخرج المطلوب ، وأنْ يتدبر كل أمر ، فعمليات العقل هى الاستقبال الإدراكى والبحث فيه لاستخلاص الحقائق والنتائج ، وأن يتدبر الإنسان كل أمر كى يتجنب ما فيه من ضرر .

والمثل : هو ما توصَّل إليه بعضٌ من العلماء من اكتشاف لأدوية يستخدمونها لفترة ما ، ثم يعلنون عن الاستغناء عنها ؛ لأن آثارها الجانبية ضارة جداً ؛ وهذا يعنى أنهم لم يتدبروا الأمر جيداً ؛ وخَطَوْا خطوات إلى ما ليس لهم به كامل العلم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد]

نلحظ فيه توجيهاً بالتعاون بين العقول ، لتبحث فى آيات رَبِّ العقول ؛ فلا يأخذ أحد قراراً بعقله فقط ؛ بل يسمع أىّ منّا لرأى عقل ثانٍ وعقل ثالث ورابع ؛ ليستطيع الإنسان تدبُّر ما يمكن أنْ يقع ؛ ولتَتكاتف العقول فى استنباط الحقائق النافعة التى لا يتأتَّى منها

ضـرر فيـما بعـد ؛ لأن من استـبـد برأيه هلك ، ومن شاور الرجـال شاركهم فى عقولهم .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾

والعـجب هو أن تُبـدى دهشة من شىء لا تعـرف سـببـه ، وهذا التعـجب لا يتأتّى من الله ؛ لأنه سبـحانه يعلم كل شىء ، فـإذا صدر عجب من الله مثل قوله الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [البقرة]

فمعنى هذا أنه سبحانه يُنكِر أن يكفر الإنسان مع قيام الأدلة على الإيمان ؛ لكن بعضاً من الناس ـ رغم ذلك ـ يكفر بالله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

هو خطاب مُوجَّـه لرسول الله ﷺ ، وكان رسول الله ﷺ يتـعجّب من أنهم كانـوا يُسمُّونه قـبل أن يبعثـه الله رسولاً بالصـادق الأمين ؛ وبعد ما جاءت الرسالة قالوا : إنه ساحر كذاب .

فكيف يكون صـادقاً أميناً ببـشريتـه وذاتيته ؛ ثـم إذا أمدّه الحق سبـحانه بـالمَدَد الرِّسَـالى تتهـمونه بالكذب ؟ ألم يكُنْ مـن الأجدر أنْ

تقولوا إنه صار أكثر صدْقاً ؟ وهل من المُمْكن أن يكون صادقاً عندكم ، ثم يكذب على الله ؟

والتعجُّب أيضاً من أنهم أنكروا البعث من بعد الموت ، رغم أنه سبحانه أوضح الأدلة على ذلك ؛ ولكن المؤمنين وحدهم هم الذين استقبلوا أمر البَعْث بالتصديق ؛ بمجرد أن أبلغهم به رسول الله مُبلِّغاً عن ربِّه .

ونجد الحقَّ سبحانه وتعالى قد احترم فُضُول العقل البشرى ، فأوضح سبحانه ذلك ونَصَبَ الأدلة عليه ؛ وأبلغنا أنه لم يعجز عن الخلْق الأول ؛ لذلك لن يعجز عن البعث .

فقد جاء بنا سبحانه من عدم ، وفى البعث سيأتى بنا من موجود ، ومن الغباء إذنْ أن يتشكَّك أحد فى البعث ، والمُسْرِف على نفسه إنما يُنكر البعث ؛ لأنه لا يقدر على ضبْط النفس ؛ ويظن أنه بإنكار البعث لن يَلْقَى المصير الأسود الذى سيلقاه فى الآخرة .

ولذلك تجد المسرفين على أنفسهم يحاولون التشكيك فى البعث ، ويأتى الحق سبحانه بتشكيكهم هذا فى قَوْل الحق سبحانه :

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ .. (٢٤)﴾ [الجاثية]

ولو أن الواحد منهم وضع مسألة البَعْث فى يقينه لانصرف عن شهواته ، بينما هو يريد أن ينطلق بالشهوات ؛ ولذلك نجدهم يقولون :

﴿أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ .. (١٠)﴾ [السجدة]

وهم يقصدون بذلك أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ، ويعودون

إلى الأرض كعناصر وتراب تَذْروه[1] الرياح ، فكيف سيأتى بهم الله للبعث ، ويُنشئهم من جديد ؟

ويقول سبحانه :

﴿ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ[2] رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾ [يس]

ومن الكافرين مَنْ قال : سنصير تراباً ، ثم نختلط بالتربة ، ويتم زراعة هذه التربة ، فتمتزج عناصرنا بما تنبته الأرض من فواكه وخُضر وأشجار ؛ ثم يأكل طفل من الثمرة التى تغذَّتْ بعناصرنا ؛ فيصير بعضٌ مناً فى مكونات هذا الطفل ؛ والقياس يُوضِّح أننا سوف نتناثر ؛ فكيف يأتى بنا الله ؟

كل ذلك بطبيعة الحال من وسوسة الشيطان ووحيه :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

وأقول : لنفترض أن إنساناً قد مرض ؛ وأصابه هُزَال ، وفقد ثلاثين كيلوجراماً من وزنه ، وما نزل من هذا الوزن لا بُدَّ أنه قد ذهب إلى الأرض كعناصر اختلطتْ بها ، ثم جاء طبيب قام بتشخيص الداء وكتب الدواء ، وشاء الله لهذا المريض الشفاء واستردَّ وزنه، وعاد مرة أخرى لحالته الطبيعية ؛ فهل الثلاثين كيلو جراماً التى استردَّها هى هى نفس الكمية بنوعيتها وخصوصيتها التى سبق أنْ فقدها ؟ طبعاً لا .

---

(١) ذرت الريح التراب تذروه : أطارته وسفَتْه وأذهبته . وقيل : حملته فأثارته . [لسان العرب ـ مادة : ذرا] .

(٢) رم الميت : بلِىَ جسمه . والرميم : الخلق البالى من كل شىء . [لسان العرب ـ مادة : رمم] .

وهكذا نفهم أن التكوين هو تكوين نسبىّ للعناصر ، كذا من الحديد ؛ كذا من الصوديوم ؛ كذا من المغنسيوم ؛ وهكذا .

إذن : فالجزاء فى اليوم الآخر عملية عقلية لازمة ، يقول الحق :

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٨) ﴾ [البقرة]

ما دام هناك أمر ؛ وهناك نهى ؛ وهناك منهج واضح يُبيِّن كل شىء . وإنْ كنت تعجبُ يا محمد من الكفار وما يثيرونه من أقضية ، فلَكَ أنْ تعجب لأنها أمور تستحق العجب .

والحق سبحانه حين يخاطب الخَلْق فهو يخاطبهم إمَّا فى أمر يشكُّون فيه ، أو فى أمر لا يشكُّ فيه أحد .

والمَثَل من حياتنا ـ ولله المَثَلُ الأعلى ـ حين تخاطب أنت واحداً فى أمر يَشُكُّ هو فيه ؛ فأنت تحاول أن تؤكد هذا الأمر بكل الطرق ، وهكذا وجدنا بعضاً من الناس ينكرون البعث والحساب ؛ ووجدنا الحق سبحانه وتعالى يُذكِّرهم به عبر رسوله ويؤكده لهم .

وأيضاً خاطبهم الحق سبحانه فيما لم يَشكُّوا فيه ؛ وهو الموت ؛ وقال :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

ويقول الرسول ﷺ :

« ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت » .

فـالمـوت يقـين ، ولكن لا أحـد يحـاول التـفكيـر فى أنه قـادم ، وسبحانه يقول :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَالِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [المؤمنون]

وهذا تأكيـد لأمر يُجمع الناس على أنه واقع ، لكنهم لغـفلتهم عنه بَدَوْا كالمنكرين له ، لذلك خاطبهم خطابَ المنكرين ، ثم قال بعد ذلك:

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [المؤمنون]

ولم يَقُلْ : « ولتبعـثون » لأن البعث مسألة لا تحتـاج إلى تأكيد ، وعدم التـأكيد هنا آكد من التـأكيد ، لأن أمر المـوت واضح جداً رغم الغفلة عنه ، أما البعث فهو واقع لا محالة بحيث لا يحتاج إلى تأكيد .

والمـثل من حـيـاتنا ـ ولله المـثل الأعلى ـ يـذهب الإنسـان إلى الطبيـب ؛ فيقـول له الطبيب بعـد الكشف عليه « اذهب فلـن أكتب لك دواء » . وهذا القـول يعنى أن هذا الإنسان فى تمـام الصحـة ؛ وكأن كتابة الدواء يحمل شبهة أن هناك مرضاً .

وكـذلك الحق سـبحـانه يخـاطب الخَلْق فى الـشىء الذى ينكرونه وعليه دليل واضح ؛ فـيأتى خطابه لهم بلا تأكـيد ؛ وهو يوضح بتلك الطريقة أنهم على غير حق فـى الإنكار ، أما الشـىء الذى يتأكدون منه وهم غافلون عنه ؛ فهو يؤكده لهم ؛ كى لا يغفلوا عنه .

وكذلك فى القَـسَم ؛ فنجده سبحـانه قد أقسم بالتـين والزيتون ؛ وأقسـم بالقرآن الـحكيم ؛ وأقسـم بغير ذلك ، ونجـده فى مواقع أخرى يقول :

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ[1] ۝ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ۝ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ۝ ﴾ [البلد]

والعجيب أنه يأتى بجواب القسم ، فيقول :

﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ[2] ۝ ﴾ [البلد]

وقد يقول قائل : كيف يقول :

﴿ لا أُقْسِمُ .. ۝ ﴾ [البلد]

ثم يأتى بجواب القسم ؟

وأقول : لقد جاء هنا بقوله :

﴿ لا أُقْسِمُ .. ۝ ﴾ [البلد]

وكـأنه يُوضِّح ألاَّ حقَّ لكم فى الإنكار ؛ ولذلك ما كان يصحّ أنْ أقسم لكم ، ولو كنت مُقْسماً ؛ لأقسمتُ بكذا وكذا وكذا .

وسبحانه يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ۝ ﴾ [الرعد]

وهو جَلَّ وعلا يُذكِّرهم بما كان يجب ألاَّ ينسوه ؛ فقد خلقهم من تراب ؛ وخلق التراب من عدم ، وهو القائل :

﴿ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ[3] مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ﴾ [ق]

---

(١) البلد : المكان المحدود يستوطنه جماعات من الناس ، وقد يسمى بها المكان الواسع من الأرض ينتفع به أهل البلد . قال تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ .. ۝ ﴾ [الأعراف] . وقوله تعالى : ﴿ لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ ۝ ﴾ [البلد] . أى : مكة . [القاموس القويم ١/٨٢] بتصرف .

(٢) الكبد : المشقة والعناء . فالإنسان فى مشقة وعناء ، طول حياته من المهد إلى اللحد . [القاموس القويم ٢/١٤٩] .

(٣) لبس الشىء : خلطه وعمّاه وأبهمه وجعله مُشْكلاً مُحيراً . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ ﴾ [ق] . أى : شك . [القاموس القويم ٢/١٨٨] بتصرف .

إذن : فسبحانه يتعجب من أمر هؤلاء ؛ ويزيد من العجب، أنهم كذَّبوا محمداً ﷺ بعد أن جرَّبوا فيه الصدق ، ولمسوا منه الأمانة ؛ وقالوا عنه ذلك من قبل أن يُبعث ؛ وفوق ذلك أنكروا البعث مع قيام الدليل عليه .

ويصفهم الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

أى : أن هؤلاء المُكذِّبين لك يا محمد والمُنْكرين للبعث لم يكفروا فقط بالله الذى أوجب التكليف العبادى ؛ بل هم يكفرون بالربوبية التى تعطى المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ، وتأتمر بأمرها الأسباب لتستجيب لأىٍّ مجتهد يتبع قوانين الاجتهاد ، فيأخذ من عطاءات الربوبية ؛ وهى عطاءات التشريف التى تضمن الرزق ، بينما عطاءات الألوهية ؛ هى تكليفاتٌ بالطاعة للأوامر التعبدية ؛ الممثلة فى « افعل » و« لا تفعل » .

وسبحانه لا يكلف الإنسان إلا بعد أنْ يبلغ الإنسان درجة النضج التى تؤهله ؛ لأنْ ينجب مثيلاً له ؛ وقد ترك الحق سبحانه كل إنسان يرتع فى خير النعم التى أسبغها سبحانه على البشر ، وكان على الإنسان أن يسعى إلى الإيمان فَوْر أن تصله الدعوة من الرسول المُبلِّغ عن الله ؛ هذا الرسول المشهود له بالصدق والأمانة .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يَصف المُنكرين للإيمان :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ .. ﴿٥﴾ ﴾ [الرعد]

ويضيف :

﴿ وَأُوْلَـئِكَ الأَغْـلالُ فِي أَعْنَاقِـهِمْ وَأُوْلَـئِكَ أَصْـحَابُ النَّارِ هُمْ فِـيهَا خَالِدُونَ (٥) ﴾ [الرعد]

والغُلّ : هو طَوْق الـحـديد الذى له طرف فى كل يد لـيُـقـيـدها ؛ وطرف مُعلَّق فى الرقبـة ليُقلل من مساحة حركـة اليدين ، ولمزيد من الإذلال .

وهم أصـحاب الـنار ؛ وكلمة « صـاحب » تُطلق على مَـنْ تعرفـه معرفةً تروق كيانك وذاتك ؛ فهناك مَنْ تصاحبه ؛ وهناك مَنْ تصادقه ؛ وهناك مَنْ تُؤاخيه ؛ وهناك مَنْ تعرفه معرفة سطحية ، ولا تقيم علاقة عميقة معه .

إن المعـرفة مراتب ، والصـحبة تآلف وتجـاذب بين اثنين ؛ ومَنْ يصاحب النار فـهو مَنْ تعـشقه النار ، ويعـشق هو النار ، ويحب كل منهما ملازمة الآخر ؛ ألاَ تقول النار لربها يوم القيامة :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

أى : أن العذاب نفسه يكون مَشُوقاً أنْ يصلَ إلى العاصى .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ(١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٦) ﴾

---

(١) المثلة : العـقوبة الفـاضحة التى يتـمثل بها لشـدتها وشهـرتها وتتـخذ عبـرة وعظة . قال تعالى : ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦) ﴾ [الرعد] . أى : مضت العـقوبات الزاجرة فى الأمم العاصية مما يُعدُّ عبرة لهم ولغيرهم . [القاموس القويم ٢/٢١٦] .

والاستعجال أن تطلب الشيء قبل زمنه ، وتقصير الزمن عن الغاية ، فأنت حين تريد غايةً ما ؛ فأنت تحتاج لزمن يختلف من غاية لأخرى ، وحين تتعجل غايةً ، فأنت تريد أنْ تصل إليها قبل زمنها .

وكل اختيار للتعجُّل أو الاستبطاء له مميزاته وعيوبه ، فهل الاستعجال هنا لمصلحة أمر مطلوب ؟

إنهم هنا يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، وهذا دليل على اختلال وخَلْف موازين تفكيرهم ، وقد سبق لهم أنْ قالوا :

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] .. ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء]

وهكذا نجد هؤلاء الكافرين وهم يستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، كما استعجلوا أنْ تنزل عليهم الحجارة ، وهم لا يعرفون أن كل عذاب له مدة ، وله ميعاد موقوت . و لم يفكروا فى أنْ يقولوا : « اللهم إنْ كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا إليه » .

بل إنهم قالوا :

﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنفال]

وهكذا أوضح لنا الحق سبحانه ما وصلوا إليه من خلل فى نفوسهم وفسادها ؛ ذلك أن مقاييسهم انتهت إلى الكفر ، وليس أدلّ على فساد المقاييس إلا استعجالهم للسيئة قبل الحسنة ؛ لأن العاقل

(١) الكسفة : القطعة ، وجمعها : كسف وكِسَف . [لسان العرب ـ مادة : كسف] .

حين يُخيَّر بين أمرين ؛ فهو يستعجل الحسنة ؛ لأنها تنفع ، ويستبعد السيئة .

وما دامت نفوس هؤلاء الكافرين فاسدة ؛ وما دامت مقاييسهم مُخْتلة ، فلا بد أن السبب فى ذلك هو الكفر .

إذن : فاستعجال السيئة قبل الحسنة بالنسبة للشخص أو للجماعة ؛ دليلُ حُمْق الاختيار فى البدائل ؛ فلو أنهم أرادوا الاستعجال الحقيقى للنافع لهم ؛ لاستعجلوا الحسنة ولم يستعجلوا السيئة .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. (٦) ﴾ [الرعد]

فلماذا يستعجلون العذاب ؟ ألم ينظروا ما الذى حاق بالذين كذَّبوا الرسل من قبلهم ؟

وحين يقول الرسول : احذروا أن يصيبكم عذاب ، أو احذروا أنْ كذا وكذا ؛ فهل فى ذلك كذب ؟ ولماذا لم ينظروا للعِبَر التى حدثتْ عَبْر التاريخ للأقوام التى كذبتْ الرسل من قبلهم ؟

و« المَثُلات » جمع « مُثْلة » ؛ و فى قول آخر « مَثُلَة » . والحق سبحانه يقول لنا :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

ويقول أيضاً :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

وهكذا تكون « مَثُلات » من المثل ؛ أى : أن تكون العقوبة مُمَاثلة للفعل .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ .. ⁦(٦)⁩ ﴾ [الرعد]

يعنى : أنه سبحانه سبق وأنزل العذاب بالمثيل لهم من الأمم السابقة التى كذبتْ الرسل ؛ إما بالإبادة إن كان ميئوساً من إيمانهم، وإما بالقهر والنصر عليهم .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⁦(٦)⁩ ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه لا يُعجِّل العذاب لمَنْ يكفرون ؛ لعل رجلاً صالحاً يوجد فيهم ، وقد صبر سبحانه على أبى جهل ؛ فخرج منه عكرمة بن أبى جهل ؛ وهو الصحابى الصالح ؛ وصبر على خالد بن الوليد فصار سيفَ الله المسلول ، بعد أن كان أحد المقاتلين الأشداء فى معسكر الكفر .

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف قاتل عكرمة بن أبى جهل ؛ إلى أن أصيب إصابة بالغة ، فينظر إلى خالد بن الوليد قائلاً : أهذه ميتة تُرضِى عنى رسول الله ؟

وتحمل لنا أخبار الصحابة كيف حزن واحد من المقاتلين المسلمين لحظة أنْ أفلتَ منه خالد بن الوليد أيام أنْ كان على الكفر ؛ وهو لا يعلم أن الحق سبحانه قد ادخر خالداً ليكون سيف الله المسلول من بعد إسلامه .

وهكذا شاء الحق أن يُفلت بعض من صناديد قريش من القتل أيام أنْ كانوا على الكفر ، كى يكونوا من خيرة أهل الإسلام بعد ذلك .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⟨٦⟩ ﴾ [الرعد]

فمع أن الناس ظالمون ؛ فسبحانه يغفر لهم ؛ لأنه سبحانه أفرح بعبده التائب المؤمن من أحدكم ، وقد وقع على بعيره ، وقد أضلَّه فى فَلاة[1] .

ولذلك أرى أن مَنْ يُعيِّر عبداً بذنب استغفر منه الله ؛ هو إنسان آثم ؛ ذلك أن العبد قد استغفر الله ؛ فلا يجب أنْ يحشر أحد أنفه فى هذا الأمر .

ونلحظ هنا قول الحق سبحانه :

﴿ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⟨٦⟩ ﴾ [الرعد]

وفى هذا القول يجد بعض العلماء أن الله قد استعمل حرفاً بدلاً من حرف آخر ؛ فجاءت « على » بدلاً من « مع » .

ونلحظ أن « على » هى ثلاثة حروف ؛ و « مع » مكونة من حرفين ؛ فلماذا حذف الحق سبحانه الأخفَّ وأتى بـ « على » ؟ لا بد أن وراء ذلك غاية .

أقول : جاء الحق سبحانه بـ « على » فى قوله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. ⟨٦⟩ ﴾ [الرعد]

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة ، فانفلتت منه ، وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينما هو كذلك إذ هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح » .

ليؤكد لنا أن ظلم الناس كان يقتضى العقوبة ؛ ولكن رحمته سبحانه تسيطر على العقوبة .

وهكذا أدت كلمة « على » معنى « مع » ، وأضافت لنا أن الحق سبحانه هو المسيطر على العقوبة ؛ وأن رحمة الله تَطْغَى على ظلم العباد .

ومثْل ذلك قوله سبحانه :

﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. ⁨٨⁩ ﴾ [الإنسان]

أى : أنهم يُحبون الطعام حَبًّا جَمًّا ؛ لكن إرادة الحفاوة والكرم تَطْغى على حُبِّ الطعام.

ولكن لا يجب أن يظن الناس أن رحمة الله تطغى على عقابه دائماً ؛ فلو ظن البعض من المجترئين هذا الظن ؛ وتوهموا أنها قضية عامة ؛ لَفسد الكون ؛ ولذلك يُنهِى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ⁨٦⁩ ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه قادر على العقاب العظيم ، وهكذا جمعت الآية بين الرجاء والتخويف .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ⁨٧⁩ ﴾

ونحن نعلم أن « لولا » إنْ دخلت على جملة إسمية تكون حرف امتناع لوجود ؛ مثل قولك « لولا زيد عندك لَزُرْتك » ، أى : أن الذى يمنعك من زيارة فلان هو وجود زيد .

ولو دخلتْ « لولا » على جملة فعلية ؛ فالناطق بها يحب أنْ يحدث ما بعدها ؛ مثل قولك « لولا عطفتَ على فلان » أو « لولا صفحتَ عن ولدك » ، أى : أن فى ذلك حَضاً على أنْ يحدث ما بعدها .

وظاهر كلام الكفار فى هذه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها أنهم يطلبون آية لتأييد صدق الرسول ﷺ فى البيان الذى يحمله من الحق لهم ، وكأنهم بهذا القول يُنكرون المعجزة التى جاء بها ﷺ وهى القرآن الكريم ، رغم أنهم أمةُ بلاغة وأدب وبيان ، وأداء لُغوى رائع ؛ وأقاموا أسواقاً للأدب ، وخَصَّصوا الجوائز للنبوغ الأدبى ؛ وعلَّقوا القصائد على جدران الكعبة ، وتفاخرت القبائل بمَنْ أنجبتهم من الشعراء ورجال الخطابة .

فلما نزل القرآن من جنس نبوغكم ؛ وتفوَّق على بلاغتكم ؛ ولم تستطيعوا أن تأتوا بآية مثل آياته ؛ كيف لم تعتبروه معجزة ؛ وتطالبون بمعجزة أخرى كمعجزة موسى عليه السلام ؛ أو كمعجزة عيسى عليه السلام ؟

لقد كان عليكم أن تفخروا بالمعجزة الكاملة التى تحمل المنهج إلى قيام الساعة .

ولكن الحُمْق جعلهم يطلبون معجزة غير القرآن ، ولم يلتفتوا إلى المعجزات الأخرى التى صاحبتْ رسول الله ﷺ ، لم يلتفتوا إلى أن

الماء قد نبع من أصابعه ﷺ ؛ والطعام القليل أشبع القوم وفاض منه ، والغمامة قد ظللته ، وجذع النخلة قد أنَّ بصوت مسموع عندما نقل رسول الله منبره ؛ بعد أنْ كان ﷺ يخطب من فوق الجذع[1] .

وقد يكونون أصحاب عُذْر فى ذلك ؛ لأنهم لم يَرَوْا تلك المعجزات الحِسِّية ؛ بحكم أنهم كافرون ؛ واقتصرت رُؤْياها على مَنْ آمنوا برسالته ﷺ .

وهكذا نعلم أن الرسول ﷺ لم يُحرم من المعجزات الكونية : تلك التى تحدث مرة واحدة وتنتهى ؛ وهى حُجَّة على مَنْ يراها ؛ وقد جاءتْ لتثبيت إيمان القلَّة المضطهدة ؛ فحين يروْنَ الماء مُتفجراً بين أصابعه ، وَهُمْ مُزَلْزلون بالاضطهاد ؛ هنا يزداد تمسُّكهم بالرسول ﷺ .

ولكن الكافرين لم يَرَوْا تلك المعجزات . وكان عليهم الاكتفاء بالمعجزة التى قال عنها رسول الله ﷺ : « القرآن كافينى[2] » .

والقرآن معجزة من جنس ما نبغتُم فيه أيها العرب ، ومحمد رسول من أنفسكم ، لم يأْتِ من قبيلة غير قبيلتكم ، ولسانه من

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٦/٦٠١ فتح البارى) ، والترمذى فى سننه - صلاة الجمعة - باب ما جاء فى الخطبة على المنبر ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٢/٥٥٧) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يخطب إلى جذع ، فلما اتخذ المنبر تحول إليه ، فَحنَّ الجذع ، فأتاه النبى ﷺ فمسحه فسكن » .

(٢) أورد العجلونى فى كشف الخفاء (١٨٦٨) : « القرآن غنى لا فقر بعده ، ولا غنى بعده » وعزاه لأبى يعلى والدارقطنى عن أنس مرفوعاً . وقال الدارقطنى : رواه أبو معاوية عن الحسن مرسلاً . قال فى المقاصد : « وهو أشبه بالصواب » .

لسانكم ، وتعلمون أنه لم يجلس إلى مُعلِّم ؛ ولا عُلِم عنه أنه خطب فيكم من قبل ، ولم يَقْرِض[1] الشعر ، ولم يُعرف عنه أنه خطيب من خطباء العرب .

ولذلك جاء الحق سبحانه بالقول على لسانه :

﴿ قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا[2] مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦) ﴾ [يونس]

أى : أننى عشتُ بينكم ولم أتكلّم بالبلاغة ؛ ولم أنافس فى أسواق الشِّعْر ؛ وكان يجب أن تؤمنوا أنه قول من لَدُنْ حكيم عليم .

ولكن منهم مَنْ قال : « لقد كان يكتم موهبته وقام بتأجيلها» .

وهؤلاء نقول لهم : هل يمكن أن يعيش طفل يتيم الأب وهو فى بطن أمه ؛ ثم يتيم الأم وهو صغير ، ويموت جَدّه وهو أيضاً صغير ، ورأى تساقط الكبار من حوله بلا نظام فى التساقط ؛ فقد ماتوا دون مرض أو سبب ظاهر ؛ أكان مثل هذا الإنسان يأمنُ على نفسه أن يعيش إلى عمر الأربعين ليعلن عن موهبته ؟

ثم من قال : إن العبقرية تنتظر إلى الأربعين لتظهر ؟ وكلنا يعلم أن العبقريات تظهر فى أواخر العقد الثانى وأوائل العقد الثالث .

---

(١) القريض : الشعر . والقرْض : قَرْض الشعر . وقرض فى سيره يقرض قرضاً : عدل يَمْنة ويَسرة . وقال الجوهرى : القرض قَوْل الشعر خاصة . يُقال : قرضتُ الشعر أقرضه إذا قلته . [لسان العرب ـ مادة : قرض] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤١٠) : « قال جعفر بن أبى طالب للنجاشى ملك الحبشة : بعث الله فينا رسولاً نعرف صدقه ونسبه وأمانته ، وقد كانت مدة مقامه عليه السلام بين أظهرنا قبل النبوة أربعين سنة » .

ورغم عدم اعترافكم بمعجزة القرآن ؛ هاهو الحق سبحانه يُجرى على ألسنتكم ما أخفيتموه فى قلوبكم ؛ ويُظهره للناس فى مُحكم كتابه :

﴿ وَقَالُوا لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾ [الزخرف]

وهكذا اعترفتُم بعظمة القرآن ؛ وحاولتُم أن تغالطوا فى قيمة المُنزَّل عليه القرآن .

ويقول سبحانه هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. (٧) ﴾ [الرعد]

فلماذا إذنْ قُلْتم واعترفتم أنَّ له رباً ؟ أمَا كان يجب أن تعترفوا برسالته وتُعلنون إيمانكم به وبالرسالة ، وقد سبق أنْ قالوا : إن ربَّ محمد قد قَلاَه[2] .

وهذا القول يعنى أنهم اعترفوا بأن له رباً ؛ فلماذا اعترفوا به فى الهَجْر وأنكروه فى الوَصْل .

وإذا كانوا يطلبون منك معجزة غير القرآن فاعلم يا محمد أن ربك هو الذى يرسل المعجزات ؛ وهو الذى يُحدِّد المعجزة لكل رسول

---

(١) القريتان : مكة والطائف . ذكر غير واحد منهم قتادة أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « الظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

(٢) القلَى : البغض . قال ابن سيده : قليته : أبغضته وكرهته غاية الكراهة فتركته . وقال تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى] . [لسان العرب ـ مادة : قلى] .

حسب ما نبغ فيه القوم المُـرْسَل إليهم الرسول ، وأنت يا محمد مُنْذر فقط ؛ أى مُحذِّر :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾ ﴾ [الرعد]

فكل قـوم لهم هَاد ، يهـديهم بالآيـات التى تناسب القـوم ؛ فـبنو إسرائيل كانوا مُـتفوِّقينَ فى السـحر ؛ لذلك جاءت معـجزة موسى من لَوْنِ ما نبغوا فيه ؛ وقوم عيسى كانوا مُتفوِّقين فى الطب ؛ لذلك كانت معجزة عيسى من نوع ما نبغوا فيه .

وهكذا نرى أن لكل قـوم هادياً ، ومعـه مـعجـزة تناسب قومـه ؛ ولذلك رَدَّ الله عليهم الرد المُفْحم[1] حين قالوا :

﴿ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ[3] أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسراء]

فيقول الحق سبحانه :

---

(١) أفحمه : أسكته . والمُفْحَم : العَيِىُّ . وكلّمه فَفحم : لم يُطق جواباً . [لسان العرب ـ مادة : فحم] .

(٢) الكسفـة : القطعة . وكِـسْف السحاب وكِـسَفَـة : قِطَعه . وكل شىء قطعتـه فقـد كسفـته . [لسان العرب مادة : كسف] .

(٣) الزخرف : الذهب . ثـم استعـمل فى الزينة وفى أثاث البيت الجـميل . وقـوله تعالى : ﴿ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْـرُفٍ .. ﴿٩٣﴾ ﴾ [الإسـراء] . أى من ذهـب أو كله زينة وأثاث جـمـيل . [القاموس القويم ١/ ٢٨٥] .

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

ويأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ..(٥٩) ﴾ [الإسراء]

أى : أن قوماً قبلكم طلبوا ما أرادوا من الآيات ؛ وأرسلها لهم الله ؛ ومع ذلك كفروا ؛ لأن الكفر يخلع ثوب العِناد على الكافر ؛ لأن الكافر مُصَمِّم على الكفر.

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ[1] وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) ﴾

وما المناسبة التى يقول فيها الحق ذلك ؟

لقد شاء الحق سبحانه أن يؤكد مسألة أن لكل قوم هادياً ، وأن رسوله ﷺ هو منذر ، وأن طلبهم للآيات المعجزة هو ابنٌ لرغبتهم فى تعجيز الرسول ﷺ .

(١) قال العوفى عن ابن عباس : ﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ..(٨) ﴾ [الرعد] يعنى : السقط . ﴿ وَمَا تَزْدَادُ ..(٨) ﴾ [الرعد] يقول : مازادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً . وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر ، ومن تحمل تسعة أشهر ، ومنهم من تزيد فى الحمل ومنهن من تنقص ، فذلك الغيض والزيادة التى ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى . [تفسير ابن كثير ٢/٥٠٢] .

ولو جاء لهم الرسول بآية مما طلبوها لأصرُّوا على الكفر ، فهو سبحانه العَالِم بما سوف يفعلون ، لأنه يعلم ما هو أخفى من ذلك ؛ يعلم ـ على سبيل المثال ـ ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد .

ونحن نعلم أن كُلَّ أنثى حين يشاء الله لها أن تحبل ؛ فهى تحمل الجنين فى رحمها ؛ لأن الرحم هو مُسْتقرٌّ الجنين فى بطن الأم .

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ.. ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد]

أى : ما تُنقص وما تُذهب من السَّقْط فى أى إجهاض ، أو ما ينقص من المواليد بالموت ؛ فغاضت الأرحام ، أى : نزلتْ المواليد قبل أن تكتمل خلْقتها ؛ كأن ينقص المولود عيناً أو إصبعاً ؛ أو تحمل الخلْقة زيادة تختلف عما نألفه من الخَلْق الطبيعى ؛ كأن يزيد إصبع ، أو أن يكون برأسين .

أو أن تكون الزيادة فى العدد ؛ أى : أن تلد المرأة تَوْأماً أو أكثر ، أو أن تكون الزيادة متعلقة بزمن الحَمْل .

وهكذا نعلم أنه سبحانه يعلم ما تغيض الأرحام . أى : ما تنقصه فى التكوين العادى أو تزيده ، أو يكون النظر إلى الزمن ؛ كأن يحدث إجهاض للجنين وعمره يوم أو شهر أو شهران ، ثم إلى ستة أشهر ؛ وعند ذلك لا يقال إجهاض ؛ بل يقال ولادة .

وهناك مَنْ يولد بعد ستة شهور من الحمل أو بعد سبعة شهور

أو ثمانية شهور ؛ وقد يمتد الميلاد لسنتين عند أبى حنيفة ؛ وإلى أربع سنوات عند الشافعى ؛ أو لخمس سنين عند الإمام مالك ، ذلك أن مدة الحمل قد تنقص أو تزيد .

ويُقَال : إن الضحاك وُلد لسنتين فى بطن أمه[1] ، وهرم بن حيان[2] وُلد لأربع سنين ؛ وظل أهل أمه يلاحظون كِبَر بطنها ؛ واختفاء الطَّمْث الشهرى طوال تلك المدة ؛ ثم ولدتْ صاحبنا ؛ ولذلك سموه « هرم » أى : شاب وهو فى بطنها .

وهكذا نفهم معنى « تغيض » نَقْصاً أو زيادة ؛ سواء فى الخِلْقة أو للمدة الزمنية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾ [الرعد]

والمقدار هو الكمية أو الكيف ؛ زماناً أو مكاناً ، أو مواهب ومؤهلات .

وقد عَدَّد الحق سبحانه مفاتيح الغيب الخمس حين قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الأَرْحَامِ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [لقمان]

---

(١) ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٠٢) ، أن الضحاك قال : وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين ، وولدتنى وقد نبتت ثنيتى .

(٢) هرم بن حيان العبدى ، كان عاملاً لعمر بن الخطاب ، مات فى يوم شديد الحر ، فلما نفضوا أيديهم عن قبره جاءت سحابة فأمطرت ونبت العشب من يومه . (حلية الأولياء ٢/١١٩) .

وقد حاول البعض أن يقيموا إشكالاً هنا ، ونسبوه إلى الحضارة والتقدم العلمى ، وهذا التقدم يتطرق إليه الاحتمال ، وكل شىء يتطرق إليه الاحتمال يبطل به الاستدلال ، وذلك بمعرفة نوعية الجنين قبل الميلاد ، أهو ذكر أم أنثى ؟ وتناسَوْا أن العلم لم يعرف أهو طويل أم قصير ؟ ذكى أم غبى ؟ شقى أم سعيد ؟ وهذا ما أعجز الأطباء والباحثين إلى اليوم وما بعد اليوم .

ثم إنْ سألتَ كيف عرف الطبيب ذلك ؟

إنه يعرف هذا الأمر من بعد أن يحدث الحَمْل ؛ ويأخذ عينة من السائل المحيط بالجنين ، ثم يقوم بتحليلها ، لكن الله يعلم دون أخذ عينة ، وهو سبحانه الذى قال لواحد من عباده :

﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ .. ﴿٧﴾﴾ [مريم]

وهكذا نعلم أن علْم الله لا ينتظر عيِّنة أو تجربة ، فعلْمه سبحانه أزلىّ ؛ مُنزَّه عن القصور ، وهو يعلم ما فى الأرحام على أى شكل هو أو لون أو جنس أو ذكاء أو سعادة أو شقاء أو عدد .

وشاء سبحانه أن يجلى طلاقة قدرته فى أنْ تحمل امرأة زكريا عليه السلام فى يحيى عليه السلام ، وهو الذى خلق آدم بلا أب أو أم ؛ ثم خلق حواء من أب دون أم ؛ وخلق عيسى من أم دون أب ، وخلقنا كلنا من أب وأم ، وحين تشاء طلاقة القدرة ؛ يقول سبحانه :

﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]

والمثل ـ كما قلت ـ هو فى دخول زكريا المحرابَ على مريم عليها السلام ؛ فوجد عندها رزقاً ؛ فسألها :

﴿أَنَّىٰ لَكِ هَـٰذَا .. ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران]

قالت :

﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾ [آل عمران]

وكان زكريا يعلم أن الله يرزق مَنْ يشاء بغير حساب ؛ ولكن هذا العلم كان فى حاشية شعوره ؛ واستدعاه قول مريم إلى بُؤْرة الشعور ، فزكريا يعلم عِلْم اليقين أن الله هو وحده مَنْ يرزق بغير حساب .

وما أنْ يأتى هذا القول مُحرِّكاً لتلك الحقيقة الإيمانية من حافة الشعور إلى بُؤْرة الشعور ؛ حتى يدعو زكريا ربه فى نفس المكان ليرزقه بالولد ؛ فيبشره الحق بالولد .

وحين يتذكر زكريا أنه قد بلغ من الكبر عتياً[1] ، وأن امرأته عاقر ؛ فيُذكِّره الحق سبحانه بأن عطاء الولد أمر هَيِّن عليه سبحانه :

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ (٩)﴾

ومَنْ كُلُّ شىء عنده بمقدار ؛ لا يغيب عنه شىء أبداً ، وما يحدث لأىِّ إنسان فى المستقبل بعد أن يُولَد هو غَيْب ؛ لكن المُطَّلع عليه وحده هو الله .

---

(١) عتا يعتو عُتواً : أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته . [القاموس القويم ٢/٦] .

وكأن هناك « نموذجاً » مُصَغَّراً يعلمه الله أولاً ؛ وإن اطلع عليه الإنسان فى أواخر العمر ؛ لوجده مطابقاً لمَا أراده وعلمه الله أولاً ؛ فلا شىء يتأبَّى عليه سبحانه ؛ فكُلُّ شىء عنَده بمقدار .

وهو عالم الغيب والشهادة ؛ يعلمُ ما خَفِى من حجاب الماضى أو المستقبل ، وكُلّ ما غاب عن الإنسان ، ويعلم - من باب أَوْلَى - المشهودَ من الإنسان ، فلم يقتصر علمه على الغيب ، وترك المشهود بغير علم منه ؛ لا بل هو يعلم الغيب ويعلم المشهود :

﴿ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ ﴾ [الرعد]

والكبير اسم من أسماء الله الحسنى ؛ وهناك مَنْ تساءل : ولماذا لا يوجد « الأكبر » ضمن أسماء الله الحسنى ؛ ويوجد فقط قولنا « الله أكبر » فى شعائر الصلاة ؟

وأقول : لأن مقابل الكبير الصغير ، وكل شىء بالنسبة لمُوجِده هو صغير. ونحن نقول فى أذان الصلاة « الله أكبر » ؛ لأنه يُخرجك من عملك الذى أوكله إليك ، وهو عمارة الكون ؛ لتستعين به خلال عبادتك له وتطبيق منهجه ، فيمدُّك بالقوة التى تمارس بها إنتاج ما تحتاجه فى حياتك من مأكل ، وملْبس ، وستْر عورة .

إذن : فكلُّ الأعمال مطلوبة حتى لإقامة العبادة ، فإياك أن تقول : إن الله كبير والباقى صغير ، لأن الباقى فيه من الأمور ما هو كبير من منظور أنها نعَم من المُنعم الأكبر ؛ ولكن الله أكبرُ منَّا ؛ ونقولها حين يُطلَبُ منَّا أنَ نخرج عن أعمالنا لنستعين بعبادته سبحانه .

ونعلم أن العمل مطلوب لعمارة الكون ، ومطلوب حتى لإقامة العبادة ، ولن توجد لك قوة لتعبد ربك لو لم يُقوِّك ربُّك على عبادته ؛

فهو الذى يستبقى لك قُوتَك بالطعام والشراب ، ولن تطعم أو تشرب ؛ لو لم تحرُثْ وتبذر وتصنع ، وكل ذلك يتيح لك قوة لتُصلى وتُزكِّى وتحُج ؛ وكل ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

وسبق أنْ قُلت: إن الحق سبحانه حينما نادانا لصلاة الجمعة قال:

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا إِذَا نُودىَ للصَّلاة من يَوْمِ الْجُمُعَة فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذكْرِ اللَّه وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩) ﴾ [الجمعة]

وهكذا يُخرجنا الحق سبحانه من أعمالنا إلى الصلاة الموقوتة ؛ ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قُضيَت الصَّلاةُ فَانتَشرُوا في الأَرْضِ وَابْتَغُوا من فَضْلِ اللَّه وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلحُونَ (١٠) ﴾ [الجمعة]

وهكذا أخرجنا سبحانه من العمل ، وهو أمر كبير إلى ما هو أكبر ؛ وهو أداء الصلاة .

وقول الحق سبحانه فى وصف نفسه (المتعال) يعنى أنه المُنزَّه ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً ؛ فلا ذات كذاته ؛ ولا صفة كصفاته ، ولا فعل كفعله ، وكل ما له سبحانه يليق به وحده ، ولا يتشابه أبداً مع غيره .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ[1] بِٱلنَّهَارِ (١٠) ﴾

(١) قال ابن عباس : « مستخف » مستتر . و « سارب » ظاهر . وقال أبو رجاء : السارب الذاهب على وجهه فى الأرض . وقال القتبى : « سارب بالنهار » أى : منصرف فى حوائجه بسرعة . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٢٦) .

وساعة تسمع كلمة « سواء » فالمقصود بها عدد لا يقل عن اثنين ، فنقول « سواء زيد وعمرو » أو « سواء زيد وعمر وبكر وخالد » .

والمقصود هنا أنه ما دام الحق سبحانه عالم الغيب والشهادة ؛ فأىُّ سرٍّ يوجد لا بد أن يعلمه سبحانه ، وهو سبحانه القائل :

﴿الرَّحْمَـٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ۝٥ لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۝٦ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه]

وهل السر هو ما ائتمنتَ عليه غيرك ؟ إذا كان السر هو ذلك ؛ فالأخْفَى هو ما بَقِى عندك ، وإنْ كان السر بمعنى ما يوجد عندك ولم تَقُلْه لأحد ؛ فسبحانه يعلمه قبل أن يكون سراً .

ويتابع سبحانه :

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ۝١٠﴾ [الرعد]

وهكذا جمع الحق سبحانه هنا كل أنواع العمل ؛ فالعمل كما نعلم هو شغل الجوارح بمتعلقاتها ؛ فعمل اللسان أن يقول وأن يذوق ، وعمل الأيدى أن تفعل ، وعمل الأذن أن تسمع ، وعمل القلب هو النية ، والعمل كما نعلم يكون مرَّة قَوْلاً ، ومرَّة يكون فِعْلاً .

وهكذا نجد « القول » وقد أخذ مساحة نصف « العمل » ، لأن البلاغ عن الله قَوْل ، وعمل الجوارح خاضع لِمَقُول القول من الحق سبحانه وتعالى .

ولذلك أوضح لنا الحق سبحانه أن العمل هو كُلُّ فعل متعلق بالجوارح ؛ وأخذ القول شقاً بمفرده ؛ وأخذتْ أفعال الجوارح الشِّقَّ الآخر ؛ لأن عمل بقية الجوارح يدخل فى إطار ما سمع من منهج الله .

ولذلك تجمع الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها كل العمل من قَوْل وفعل :

﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ⑩ ﴾ [الرعد]

ومَنْ يستخفى بالليل لابد أنه يُدبِّر أمراً ؛ كأن يريد أن يتسمَّع ما وراء كل حركة ؛ أو ينظر ما يمكن أنْ يشاهده ، وكذلك مَنْ يبرز ويظهر فى النهار فالله عالم به .

وكان على الكفار أن ينتبهوا لأمر عجيب كانوا يُسِرُّونه فى أنفسهم ؛ لحظة أنْ حكى الله ؛ فقال :

﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. ⑧ ﴾ [المجادلة]

فكيف علِمَ الله ذلك لولا أنه يعلم السِّرَّ وأخْفَى ؟

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ(١) مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ⑪ ﴾

(١) التعقب : العود بعد البَدْء . وقال أبو الهيثم : سميت الملائكة « مُعقِّبات » لأنهن عادت مرة بعد مرة . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٢٦] .

وكلمة (له) تفيد النفعية ، فإذا قلت « لك كذا » فهى عكس أن نقول « عليك كذا » . وحين يقول سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ .. (١١) ﴾ [الرعد]

فكأنَّ المُعقِّبات لصالح الإنسان . و « مُعقِّبات » جمع مؤنث ، والمفرد « مُعقِّبة » ، أى : أن للحق سبحانه وتعالى ملائكة يتناوبون على حراسة الإنسان وحِفْظه ليلاً ونهاراً من الأشياء التى لا يمكن الاحتراز منها .

والمَثَلُ هو تلك الإحصاءات التى خرجت عن البشر الذين تلدغهم الثعابين ، فقد ثبت أنها لا تلدغهم وهم نائمون ؛ بل فى أثناء صَحْوتهم ؛ أى : ساعةَ يكونون فى ستْر النوم فهناك ما يحفظهم ؛ أما فى اليقظة فقد يتصرَّف الإنسان بطَيْشٍ وغَفْلة فتلدغه الأفعى .

ونحن نقول فى أمثالنا الشعبية : « العين عليها حارس » ؛ ونلحظ كثيراً من الأحداث التى تبدو لنا غريبة كأنْ يسقط طفل من نافذة دور عُلوى ؛ فلا يُصاب بسوء ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن تحفظه الملائكة المُعقِّبات من السُّوء ؛ لأن مهمة الحَفَظة أنْ يحفظوا الإنسان من كُلِّ سوء .

وهكذا نرى أن الحق سبحانه قد أعدَّ للإنسان الكونَ قبل أن يخلقه ليستخلفه فيه ؛ أعدَّ السماوات وأعدَّ الأرض ؛ وسَخَّر الشمس والقمر ؛ وأخرج الثمراتِ ؛ وجعل الليل يَغْشَى النهارَ .

كُلُّ ذلك أعدَّه سبحانه للخليفة قبل أن يوجد الخليفة ؛ وهو سبحانه قَيُّوم على هذا الخليفة ؛ فيصونه أيضاً بعد الخَلْق ، ولا يَدَعُه مات نفسه ليدافع عنها فيما لا يستطيع الدفاع عنها ، ويُكلِّف الله الملائكة المُعقِّبات بذلك .

وقد ينصرف معنى المُعقِّبات إلى الملائكة الذين يتعقَّبون أفعال الإنسان وكتابة حسناته وكتابة سيئاته ، ويمكن أن يقوما بالعملين معاً ؛ حِفْظه وكتابة أعماله ، فإن كتبوا له الحسنات فهذا لصالحه .

ولقائل أن يقول : ولكنهم سيكتبون السيئات ؛ وهذه على الإنسان وليست له .

وأقول : لا ؛ ويَحْسُن أن نفهم جيداً عن المُشرِّع الأعلى ؛ ونعلم أن الإنسان إذا ما عرف أن السيئة ستُحْسب عليه وتُحْصى ؛ وتُكتب ؛ يمسك كتابه ليقرأه ؛ فلسوف يبتعد عن فعل السيئات .

وهكذا يكون الأمر فى مصلحته ، مَثَلُه مَثَلُ الطالب الذى يرى المراقب فى لجنة الامتحان ، فلا يكرهه ؛ لأنه يحمى حَقَّه فى الحصول على التقدير الصحيح ؛ بدلاً من أن يغُشَّ غيره ، فيأخذ فرصة أكبر منه فى التقدير والنجاح ؛ فضلاً عن أن كل الطلبة يعلمون أن وجود المراقب اليَقِظ هو دافعٌ لهم للمُذَاكرة .

ولذلك أقول دائماً : إياك أنْ تكره أن يكون لك أعداء ؛ لأن الذى يَغُرُّ الإنسانَ فى سلوكه هو نفاقُ أصحابه له ، أما عدوك فهو يفتح عينيه عليك طوال الوقت ؛ ولذلك فأنت تحذر أن تقع فى الخطأ .

وفى هذا المعنى يقول الشاعر :

عِداى لَهُمْ فَضْل علىَّ ومَيْزَةٌ ... فَتعدَّى لَهُم شُكْر عَلى نَفْعهم لِياَ

فَهم كَالدَّواءِ والشِّفَاءِ لِمُزْمنٍ ... فَلا أبعدَ الرحْمَانُ عنِّى الأعَادِيَا

هُمْ بَحثُوا عَنْ زَلَّتى فاجْتنبْتُهَا ... فَأصبَحتُ مِمَّا ذله العربُ خَالِيَا

إذن : فكتابة الحسنات والسيئات هى مسألةٌ لصالح الإنسان ؛ وحين يتَعاقبُونَ على الإنسان ؛ فكأنهم يصنعون دَوْريَّاتٍ لحماية الفرد ؛ ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر[1] ؛ فيصعد إليه الذين باتوا فيكم ، فيسألهم ـ وهو أعلم بكم ـ : كيف تركتُم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهُمْ يصلون ، وتركناهم وهُمْ يُصلُّون »[2] .

وكأن الملائكة دوريات .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء]

أى : أن ملائكة الليل يشهدون ؛ ومعهم ملائكة النهار[3] .

وحديث رسول الله ﷺ ملحوظ فيه الوقت الزمنى للحركة الإنسانية ؛ فَكُلٌّ حركات الإنسان وعمله يكون من الصبح إلى

---

(١) قال النووى فى شرحه على صحيح مسلم (المجلد ٣ / ص ١٣٩) طبعة دار القلم ـ بيروت ١٩٨٧ : « أما اجتماعهم فى الفجر والعصر فهو من لطف الله تعالى بعباده المؤمنين وتكرمة لهم أن جعل اجتماع الملائكة عندهم ومفارقتهم لهم فى أوقات عباداتهم واجتماعهم على طاعة ربهم ، فتكون شهادتهم لهم بما شاهدوه من الخير » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٣٢) . والبخارى فى صحيحه (٥٥٥) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٣) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٤٧٤) ، والترمذى فى سننه (٣١٣٥) ، وابن ماجه فى سننه (٦٧٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال فى هذه الآية : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ ﴾ [الإسراء] « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

العصر ، ثم يرتاح الإنسان غالباً من بعد ذلك ؛ ثم ينام .

والمُعقِّبات يَكُنَّ من بين يدى الإنسان ومن خلفه ؛ و (من بين يديه) من أجل الرصد ، ولذلك وجدنا أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - أثناء الهجرة النبوية كان يسير بعض الوقت أمام النبى ﷺ ؛ وكان يسير البعض الآخر خلف النبى ﷺ .

كان أبو بكر - رضى الله عنه - يتقدم ليرقب : هل هناك مَنْ يرصد الرسول أم لا ؟ ثم يتراجع إلى الخلف ليمسح كل المكان بنظره ليرقب : أهناك مَنْ يتتبعهما ؟ وهكذا حرص أبو بكر على أنْ يحمى الرسول ﷺ من الرَّصد أو التربُّص[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..(١١) ﴾ [الرعد]

والسطحىّ يقول : إن تلك الملائكة يحفظون الإنسان من الأمر المراد به من الله .

ونقول : إن الله لم يُنزل الملائكة ليعارضوا قَدَره ؛ وهذا الحفظ لا يكون من ذات الإنسان لنفسه ، أو من الملائكة ضد قَدَر الله ؛ والمعنى هنا ينصرف إلى أن الملائكة إنما يحفظون الإنسان بأمر الله .

---

(١) أخرج البيهقى فى سننه (٢/٤٧٦) أن عمر بن الخطاب قال : « والله لليلة من أبى بكر خير من آل عمر ، وليوم من أبى بكر خير من آل عمر ، لقد خرج رسول الله ﷺ ليلة انطلق إلى الغار ومعه أبو بكر رضى الله عنه ، فجعل يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه ، حتى فطن له رسول الله ﷺ ، فقال : « يا أبا بكر ما لك تمشى ساعة بين يدى وساعة خلفى ؟ فقال : يا رسول الله أذكر الطلب ، فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك » .

ولذلك نجد فى القرآن قول الحق سبحانه :

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا .. (٢٥) ﴾ [نوح]

أى : بسبب خطيئتهم أغرقوا ، فإياك أنْ تظن أنَّ الملائكة يحفظون الإنسان من قَدَر الله ؛ لأننا نعلم أن الحق سبحانه إذا أراد أمراً فلا رَادَّ له .

ويتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وهو سبحانه الذى خلق الكون الواسع بكل أجناسه ؛ جماداً ونباتاً وحيواناً وأفلاكاً وأملاكاً ؛ وجعل كل ذلك مُسخَّراً للإنسان ؛ ثم يحفظ الحق سبحانه الإنسان ويصونه بقيوميته .

وقد يقول قائل : ولماذا إذن تحدث الابتلاءات لبعض من الناس ؛ رغم أنه سبحانه قد قال إنه يحفظهم ؟

ونقول : إن تلك الابتلاءات إنما تجرى إذا ما غَيَّر البشر من منهج الله ؛ لأن الصيانة تُقوِّم ما قام بالمنهج .

واقرءوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ(١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . وقوله تعالى : ﴿ وَكُلا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/ ٢٦٩] .

وهكذا نعلم أن الصيانة للإنسان والحفظ له والإمداد له من قبل أن يُولَد ؛ كُلٌّ ذلك لن يرجع عنه الله ما دام الإنسان يمشى على صراط مستقيم ؛ لكن إذا ما حَادَ الإنسان عن الصراط المستقيم ؛ فيلفته الله ببعض من العِبَر والعظات ليعود إلى الصراط المستقيم .

والتغيير الذى يُجرِيه الله على البشر حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم ؛ يشمل الإمدادات الفرعية ؛ أما الإمدادات الأصلية فلا يمنعها عنهم ؛ مثل الشمس والقمر والنجوم والهواء ؛ ولم يمنع الأرض أن تُخرِج لهم المياه .

ويصيبهم فى الأشياء التى من الممكن أن يسير الكون فى انتظامه رغم حدوثها ؛ كالمصيبة فى المال أو المصيبة فى النفس ؛ ويظل الكون على مسيرته المنتظمة .

ولهذا نجد أحد الفلاسفة وقد قال : « إن الله لا يتغير من أجلكم ؛ ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله » .

وسبق أن قال الحق سبحانه :

﴿ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلا يَضِلُّ ولا يَشْقَىٰ (١٢٣) ﴾ [طه]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا[١] .. (١٢٤) ﴾ [طه]

(١) الضنك : الضيق من كل شىء . والضنك : ضيق العيش . وقال الليث فى تفسيره : أكل ما لم يكن من حلال فهو ضنك وإن كان مُوسَّعاً عليه ، وقد ضنك عيشه . [لسان العرب ـ مادة : ضنك] .

وأنت ترى فى عالمنا المعاصر مجتمعات مُتْرَفة ؛ نستورد منهم أدوات الحضارة المعاصرة ؛ لكنهم يعيشون فى الضَّنْك النفسى البالغ ؛ وهذا ما يُثبت أن الثراءَ المادى بالنقود أو أدوات الحضارة ؛ لا يُحقِّق للإنسان التوازن النفسى أو السعادة ؛ وينطبق عليهم ما قاله أمير الشعراء أحمد شوقى[1] رحمه الله :

لَيسَ الحمْلُ مَا أطَاقَ الظَّهْرُ مَا الحمْلُ إلاَّ مَا وَعَاهُ الصَّدْر

فقد يكون الثراء المادى فى ظَنِّ البعض هو الحُلْم ؛ فيجنح الإنسان إلى الطريق غير السَّوى بما فيه من عُمولات ؛ وعدم أمانة ؛ ورغم النقود التى قد يكتنزها هذا الإنسان ، إلا أن الأمراض النفسية أو الأمراض العضوية تفتكُ به .

وهكذا نجد الحق سبحانه وهو يُغيِّر ولا يتغيَّر ؛ فهو المُغيِّر لا المُتغيِّر .

وقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ (١١) ﴾ [الرعد]

يُوضِّح لنا أن أعمال الجوارح ناشئةٌ من نَبْعِ نفس تُحرِّك الجوارح ؛ وحين تصلح النفس ؛ تصبح الجوارح مستقيمة ؛ وحين تفسد النفس تصير الجوارح غير مستقيمة .

---

(١) أحمد شوقى ، أشهر شعراء العصر ، يلقب بأمير الشعراء ، ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨ م ، وتوفى بها عام ١٩٣٢ م عن ٦٤ عاماً . نشأ فى ظل البيت المالك ، درس الحقوق فى فرنسا واطلع على الأدب الفرنسى . تنوع إنتاجه بين نظم الشعر والقصص الشعرية . [الأعلام للزركلى ١/١٣٦] .

فالحق سبحانه وتعالى أخضع كل الجوارح لمُرادَاتِ النفس ، فلو كانت النفسُ مخالفةً لمنهج الله ؛ فاللسان خاضع لها ؛ ولا ينطق رغم إرادته بالتوحيد ؛ لأن النفسَ التى تديره مخالفةٌ للإيمان .

والمَثَل : هم هؤلاء الذين نسبوا الرسل الذين اختارهم الله ؛ فادَّعَوْا أنهم أبناءُ الله ؛ وسبحانه مُنزَّهٌ عن ذلك ؛ أما إذا كانت النفس مؤمنةً فهى تأمرُ اللسان أن يقول كلمة التوحيد ؛ ويسعد هو بذلك ؛ لكنه فى الحالتين لا يعصى النفس التى سَخَّره لها الله .

وهكذا تكون الجوارح مُنفعِلَة لإرادة صاحبها ، ولا تنحلُّ الإرادة البشرية عن الجوارح إلا حين يشاء الله ذلك فى اليوم الآخر ، وفى الموقف الحق .

ولحظتَها لن يستطيع أحد أنْ يسيطر على جوارحه ؛ لأن المُلْك يومئذ للواحد القهار ؛ وسقطتْ ولاية الفَرْد على جوارحه ؛ وتشهد هذه الجوارح على صاحبها بما فعلتْه وَقْتَ أنْ كانت مقهورة لإرادته .

وهكذا نعلم أن التغيير كله فى النفس التى تدير الجوارح .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ ..(١١) ﴾ [الرعد]

يَدلُّنا أنه سبحانه لا يتدخَّل إلا إذا عَنَّت[١] الأمور ؛ وفسد كل المجتمع ؛ واختفتْ النفس اللوَّامة من هذا المجتمع ؛ واختفى مَنْ

(١) عَنَّ الشيء يعن : ظهر أمامك . [لسان العرب ـ مادة : عنن] والمقصود أن تظهر الفواحش والمعاصى فى المجتمع وتفشو .

يَقْـدِرون على الرَّدْع ـ ولو بالكلمـة ـ من هذا المجـتمع ؛ هنا يتـدخل الحق سبحانه .

وحين يُغيِّـر الناس ما بأنفسـهم ، ويُصـحِّحون إطلاق الإرادة على الجوارح ؛ فـتنصلح أعمالهم ؛ وإياكـم أنْ تظنوا أنَّ هناك شيئـاً يتأبَّى على الله .

ولذلك يتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ..(١١) ﴾ [الرعد]

وعليكم أن تأخذوا الأمرين معاً :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ .. (١١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ ..(١١) ﴾ [الرعد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

إياك أن تفـهم أن هناك سلطة تحُـول دون أن يُغـيِّر الله مـا يريد تغييره ؛ ولن يجدوا صَدْراً حَنُوناً آخر يُربِّت عليهم إذا ما أراد الله بهم السُّـوء ، فليـس هناك وَالٍ آخـر يأخـذهم من الله ويتـولَّـى شـئـونهم وأمورهم من جلْبِ الخير ودَفْعِ الشر .

ولذلك يقول الحق سبحـانه :

﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١) ﴾ [الرعد]

وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن ظاهرة فى الكون لها وجهان وتُسْتقبل استقبالين ؛ أحدهما : سَارّ ، والآخر : مُزْعِج ؛ سواء فى النفس الواحدة أو فى الجماعة الواحدة .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ ﴾

وكُلُّنا يعرف البَرْق ، ونحن نستقبله بالخوف مما يُزعِج وبالطمع فيما يُحَبّ ويُرْغَب ، فساعةَ يأتى البرق فنحن نخاف من الصواعق ؛ لأن الصواعقَ عادةً تأتى بعد البَرْق ؛ أو تأتى السحابات المُمْطِرة .

وهكذا يأتى الخَوْف والطَّمَع من الظاهرة الواحدة . أو : أنْ يكون الخوف لقوم ؛ والرجاء والطمع لقوم آخرين .

والمثل الذى أضربه لذلك دائماً هو قول أحد المقاتلين العرب وصف سيفه بأنه « فَتْح لأحبابه ، وحَتْفٌ[1] لأعدائه » .

والمثل الآخر الذى أضربه ما رواه لنا أمير بلدة اسمها « الشريعة » وهى تقع بين الطائف ومكة ؛ وقد حدثنا أمير الشريعة عام ١٩٥٣ عن امرأة صالحة تحفظ القرآن ؛ اسمها « آمنة » .

هذه المرأة كان لها بنتان ؛ تزوَّجتا ؛ وأخذ كُلُّ زَوْجٍ زوجته إلى

---

(١) الحتف : الموت . وجمعه : حُتُوف . والحتف : الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : حتف] .

مَحَلِّ إقـامته ؛ وكـان أحدُ زَوْجَي البنتـين يعمل فى الزراعـة ؛ والآخر يعمل بصناعة « الشُّرُك[1] » . وقالت آمنة لزوجهـا : ألاَ تذهب لمعرفة أحوال البنتـين ؟ فذهب الرجل لمـعرفة أحوال البـنتين ، فكان أول مَنْ لقى فى رحلته هـى ابنته المتـزوجة ممَّنْ يحـرث ويبذر ، فقـال لها : كيف حالك وحال زوجك وحال الدنيا معك أنت وزوجك ؟

قالت : يا أبت ، أنا مـعه على خيـر ، وهو معى على خيـر ، وأما حال الدنيا ؛ فَـادْعُ لنا الله أنْ يُنزِل المطر ؛ لأننا حرثنا الأرض وبذرْنَا البذور ؛ وفى انتظار رَىِّ السماء .

فرفع الأب يديه إلى السماء وقال : اللهم إنِّى أسألك الغَيْث لها .

وذهب إلى الأخـرى ؛ وقـال لهـا : مـا حـالك ؟ ومـا حـال زوجك ؟ فقالت : خير ، وأرجـوك يا أبى أن تدعوَ لنا الله أنْ يمنع المطر ؛ لأننا قد صنعنا الشِّرَاك من الطين ؛ ولو أمطرتْ لَفسدتِ الشُّرُك ، فَدَعا لها .

وعاد إلى امرأته التى سـألته عن حال البنتين ؛ فبـدا عليه الضيق وقال : هى سَنة سيـئة على واحدة منهما ، وروى لهـا حال البنتين ؛ وأضـاف : ستكون سنة مُرْهِقة لواحدة منهما .

فـقـالـت له آمنة : لو صـبــرتَ ؛ لَقُلْتُ لك : إن مـا تقــوله قـد لا يتحقق ؛ وسبحانه قادر على ذلك .

قال لها : ونعم بالله ، قولى لى كيف ؟ فقالت آمنة : ألم تقرأ قول الله :

---

(١) الشُّرُك : جمع شَرَك ، وهو حبائل الصائد ، وكذلك ما ينصب للطير . [لسان العرب ـ مادة : شرك] .

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[4] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣)﴾ [النور]

فسجد الرجل لله شكراً أنْ رزقه بزوج تُعينه على أمر دينه ، ودعا : اللهم اصْرِف عن صاحب الشِّراكِ المطر ؛ وأَفِضْ بالمطر على صاحب الحَرْث . وقد كان .

وهذا المثل يوضح جيداً معنى الخوف والطمع عند رؤية الرعد :

﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا .. (١٢)﴾ [الرعد]

إما من النفس الواحدة بأن يخافَ الإنسانُ من الصواعق ، ويطمع في نزول المطر ، أو من متقابلين ؛ واحد ينفعه هذا ؛ وواحد يضره هذا .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢)﴾ [الرعد]

---

(١) أزجاه : ساقه برفق . وقال تعالى عن السفن : ﴿رَّبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء] أي : يدفعها ويُسيِّرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١/ ٢٨٤] .

(٢) الركام : السحاب المتراكم بعضه فوق بعض . [لسان العرب ـ مادة : ركم] .

(٣) الودق : المطر شديده وهيِّنه . وقوله تعالى : ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ .. (٤٣)﴾ [النور] أي : المطر يخرج من خلال السحاب المتراكم في السماء . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

(٤) البرد : حبات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً . [القاموس القويم ١/ ٦٢] .

ونحن نعلم أن السحاب هو الغَيْم المُتَراكم ؛ ويكون ثقيلاً حين يكون مُعَبئاً ؛ وهو عكس السحاب الخفيف الذى يبدو كَنُتَف[1] القطن .

ويُقال عند العرب : « لا تستبطىء الخَيْل ؛ لأن أبطأ الدِّلاء فَيْضاً أملؤها ، وأثقلَ السحابِ مَشْياً أَحْفَلُهَا »[2] .

فحين تنزل الدَّلْو فى البئر ؛ وترفعه ؛ فالدَّلْو المَلآن هو الذى يُرهقك حين تشدُّه من البئر ؛ أما الدلو الفارغ فهو خفيفٌ لحظة جَذْبه خارج البئر ؛ وكذلك السحاب الثِّقَال تكون بطيئة لِمَا تحمله من ماء .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ[3] ﴿١٣﴾ ﴾

وسبق أن جاء الحق سبحانه بذكر البرق وهو ضوئىّ ؛ وهنا يأتى بالرعد وهو صوتىّ ، ونحن نعرف أن سرعة الضوء أسرع من سرعة الصوت ؛ ولذلك جاء بالبرق أولاً ، ثم جاء بالرعد من بعد ذلك .

وحين يسمع أحدُ العامة واحداً لا يعجبه كلامه ؛ يقول له

---

(١) النتف : جمع نُتْفة ، وهو ما نتفْته بأصابعك من نَبْت أو غيره . [لسان العرب ـ مادة : نتف] .

(٢) الحَفْل : اجتماع الماء فى مَحْفله . مَحْفل الماء : مُجْتمعه . وحفلت السماء : اشتد مطرها . [لسان العرب ـ مادة : حفل] .

(٣) المحال من الله : العقاب على الكيد والتدبير المحكم المتين ، فهم يجادلون ويكيدون لإبطال الدين والله شديد العقاب لهم على هذه المجادلة الباطلة ، وهو قوى يُحكم التدبير لإبطال كيدهم وإفساد تدبيرهم . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

« سمعت الرعد » ؛ أى : يطلب له أنْ يسمع الصوت المزعج الذى يُتعب مَنْ يسمعه . ولنا أن ننتبه أن المُزْعجات فى الكون إذا ما ذكرت مُسَبِّحة لربها فلا تنزعج منها أبداً ، ولا تظن أنها نغمة نَشَازٌ فى الكون ، بل هى نغمة تمتزج ببقية أنغام الكون .

ونحن نفهم أن التسبيح للعاقل القادر على الكلام ، ولكن هذا عند الإنسان ؛ لأن الذى خلق الكائنات كلها علَّمها كيف تتفاهم ، مثلما علَّم الإنسان كيف يتفاهم مع بنى جنسه ؛ وكذلك علَّم كل جنس لغته .

وكلنا نقرأ فى القرآن ماذا قالت النملة حين رأتْ جنودَ سليمان :

﴿ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) ﴾ [النمل]

وقد سمعها سليمان عليه السلام ؛ لأن الله علَّمه مَنْطق تلك اللغات ، ونحن نعلم أن الحق سبحانه علَّم سليمان منطق الطير ، قال تعالى :

﴿ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. (١٦) ﴾ [النمل]

ألم يتخاطب سليمان عليه السلام مع الهدهد وتكلَّم معه ؟ بعد أن فَكَّ سليمان بتعليم الله له شَفْرة حديث الهدهد ؛ وقال الهدهد لسليمان :

﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) ﴾ [النمل]

إذن : فكُلُّ شىء له لغة يتفاهم بها لقضاء مصالحه ، ومَنْ يفيض الله عليه من أسرار خَلْقه يُسْمعه هذه اللغات ، وقد فاض الحقُّ سبحانه على سليمان بذلك ، ففهم لغةَ الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؛ وقال له :

﴿ اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) ﴾ [النمل]

وهكذا عرفنا بقصة سليمان وبلقيس ؛ وكيف فَهم سليمان مَنْطق الطير وتكلَّم بها مع الهدهد ؟ وهكذا علمنا كيف يتعلَّم الإنسان لغات متعددةً ؛ فحين يذهب إنسان إلى مجتمع آخر ويبقى به مُدَّة ؛ فهو يتعلم لغة ذلك المجتمع ، ويمكن للإنسان أن يتعلم أكثر من لغة .

وقد عرض الحق سبحانه مسألة وجود لغات للكائنات فى قصة النملة وقصة الهدهد مع سليمان ؛ وهما من المرتبة التالية للبشر ، ويعرض الحق سبحانه أيضاً قضية وجود لغة لكل كائن من مخلوقاته فى قوله :

﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) ﴾ [الأنبياء]

وكأن الجبال تفهم تسبيح داود وتُردِّده من خَلْفه .

أيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ[1] (١٩) ﴾ [ص]

وكذلك يخاطب الله الأرض والسماء ، فيقول :

﴿ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا .. (١١) ﴾ [فصلت]

فيمتثلان لأمره :

﴿ قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) ﴾ [فصلت]

---

(١) الأوَّاب : المسبح . أوبى معه : سبِّحى معه ورجِّعى التسبيح . والأوَّاب : صيغة مبالغة أى كثير الرجوع إلى الله تعالى . [لسان العرب ـ مادة : أوب ، والقاموس القويم ١/ ٤٢] .

وهكذا نعلم أن لكل جنس لغةً يتفاهم بها ، ونحن نلحظ أن لكل نوع من الحيوانات صَوْتاً يختلف من نوع إلى آخر ، ويدرس العلماء الآن لُغةَ الأسماك ، ويحاولون أنْ يضعوا لها مُعْجماً .

إذن : فساعة تسمع :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَـٰوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ..﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

فافهم أن ما من كائن إلا وله لغة ، وهو يُسبِّح بها الخالق الأكرم[1] .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [الإسراء]

مثلما لا يفقه جاهل بالإنجليزية لغة الإنجليز .

وقال البعض : إن المُرَاد هنا هو تسبيح الدلالة[2] على الخالق ؛ وقد حكم سبحانه بأننا لا نستطيع فَهْم تسبيح الدلالة .

ولكنى أقول : إن العلم المعاصر قد توصَّل إلى دراسة لغات الكائنات وأثبتها ؛ وعلى ذلك يكون التسبيح من الكائنات بالنُّطْق والتفاهم بين مُتكلِّم وسامع ، بل ولتلك الكائنات عواطف أيضاً .

---

(١) عن أنس رضى الله عنه قال : « دخل رسول الله ﷺ على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل فقال لهم : « اركبوها سالمة ، ودعوها سالمة ، ولا تتخذوها كراسى لأحاديثكم فى الطرق والأسواق فرُبَّ مركوبة خير من راكبها وأكثر ذكراً لله منه » أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣/٤٣٩ ، ٤٤٠) وابن حبان (٢٠٠٢ ـ موارد الظمآن) .

(٢) وكما تطلق الدلالة على تسبيح الخالق ، فأنت عندما ترى نعمة إبداعية تسبح الله فى حين أن كل مخلوق يسبح بلغته الخاصة التى لا نستطيع فقهها ، فيجتمع تسبيحان الرائى لإبداع الخالق وتسبيح المرئى بلغته [لسان اللسان مادة دل ص ٤١٧ جـ ١] .

ونحن نرى العلماء فى عصرنا يدرسـون عواطف الشجر تجاه مَنْ يسقـيه من البـشر ، وهناك تجـربة تتحـدث عن قياس العلمـاء لذبذبة النبـات أثناء ريِّه بـواسطة مُـزارِع مـسـئول عنه ؛ ثم مـات الرجل ؛ فقـاسوا ذبذبة تلك النـباتات ؛ فوجـدوها ذبذبة مضطربة ؛ وكـأن تلك النباتات قد حزنتْ على مَنْ كان يعتنى بها ؛ وهكذا توصَّل العلماء إلى معرفة أن النباتات لها عواطف .

وقد بيَّن لنا الحق سبحانه أن الجـمادات لها أيضاً عواطف ؛ بدليل قوله عن قوم فرعون :

﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ ..(٢٩) ﴾ [الدخان]

فالسماء والأرض قد استراحتا لذهاب هؤلاء الأشرار عن الأرض ، فـالسمـاوات والأرض ملتـزمـتان مع الـكون التزامـاً لا تخـرج به عن مُرادات الله ، وحين يأتى كـافر ليصنع بكفره نشـازاً مع الكون ؛ فهى تفرح عند اختفائه ولا تحزن عليه .

ومـا دامت السـماء والأرض لا تبكيـان على الكافـر عند رحـيله ؛ فلابد أنهما تفرحان عند هذا الرحـيل ؛ ولا بُدَّ أنهما تبكيان عند رحيل المؤمن[1] .

ولذلك نجد قَوْل الإمام على كرم الله وجهه : إذا مات ابن آدم بكى عليـه موضـعان ؛ مـوضع فى السمـاء ، وموضع فى الأرض ؛ وأمـا

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/١٤٢) قول مـجاهد فى تفسير آية الدخان ٢٩ : « ما مات مـؤمن إلا بكت عليه السـماء والأرض أربعـين صـباحـاً . قال : فـقلت له : أتبكى الأرض ؟ فـقـال : أتعجب ؟ ومـا للأرض لا تبكى عـلى عبـد كـان يعـمرهـا بالركوع والسـجـود ؟ وما للسماء لا تبكى على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوىٌ كدوىِّ النحل » .

موضعه في الأرض فَموضِع مُصَلاَّه ؛ وأما موضعه في السماء فَمصَعدُ عمله »[(١)] .

وهكذا نجد أن معنى قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ..(١٣) ﴾ [الرعد]

أي : يُنزِّه الرعد ويُمجِّد اسم الحق ـ تبارك وتعالى ـ تسبيحاً مصحوباً بالحمد .

ونحن حين نُنزِّه ذات الله عن أن تكون مثل بقية الذوات ، وحين ننزه فعْل الله عن أن يكون كأفعال غيره سبحانه ، وحين ننزه صفات الله عن أن تكون كالصفات ، فلا بد أن يكون ذلك مصحوباً بالحمد له سبحانه ؛ لأنه مُنزَّه عن كل تلك الأغيار ، وعلينا أنْ نُسَرَّ من أنه مُنزَّه.

ويقول تعالى :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ ..(١٣) ﴾ [الرعد]

ولقائل أنْ يتساءل : كيف تخاف الملائكة من الله ؟ وهم الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

وأقول : إن الملائكة يخافون الله خيفة المَهابة ، وخيفة الجلال . ونحن نرى في حياتنا مَنْ يحب رئيسه أو قائده ؛ فيكون خوفه مَهَابة ؛ فما بالنا بالحق سبحانه وتعالى الذي تُحبه ملائكته وتَهاب جلاله وكماله ، صحيح أن الملائكة مقهورون ، لكنهم يخافون ربَّهم من فوقهم.

وساعة تسمع الملائكةُ الرعدَ فهم لا يخافون على أنفسهم ؛

---

(١) أورده ابن كثير في تفسيره (٤/١٤٢) وعزاه لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وأورد أيضاً نحوه عن ابن عباس .

ولكنهم يخافون على الناس ؛ لأنهم حفظة عليهم ؛ فالملائكة تعى مهمتها كحفظة على البشر ؛ وتخشى أن يربكهم أىُّ أمر ؛ وهم يستغفرون لِمَنْ فى الأرض[1] .

إذن : فقوله :

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ .. (١٣) ﴾ [الرعد]

يُبيِّن لنا أن الملائكة تخاف على البشر من الرعد ؛ فَهُمْ مُكلَّفون بحمايتهم ، مع خوفهم من الله مهابة وإجلالاً .

ويقول رسول الله ﷺ فى الحديث الشريف :

« ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملَكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعْطِ مُنْفقاً خلَفَاً . ويقول الآخر : اللهم أعْطِ مُمْسكاً تلَفاً »[2] .

وقد يظُنُّ ظَانٌّ أن هذه دعوة ضد المُمْسك ؛ ولكنى أقول : لماذا لا تأخذها على أنها دعوة خَيْر ؟ فالمُنفق قد أخذ ثواباً على ما أدَّى من حسنات ؛ أما المُمْسك فحين يبتليه الله بتلف بعضٍ من ماله ؛ ويصبر على ذلك ؛ فهو يأخذ جزاء الصبر .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِى اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣) ﴾ [الرعد]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) ﴾ [غافر] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠١٠) ، وقال النووى فى شرحه : « قال العلماء : هذا فى الإنفاق فى الطاعات ومكارم الأخلاق وعلى العيال والضيفان والصدقات ونحو ذلك ، بحيث لا يُذَم ولا يسمى سرفاً . والإمساك المذموم هو الإمساك عن هذا » .

ولا بُدَّ من وجود حَدَث أليم في الكون لينتبه هؤلاء الناس من غفلتهم ؛ وها هو ذا رسول الله ﷺ ؛ وقد جاءه اثنان من المعاندين الكبار أربد بن ربيعة ؛ أخو لبيد بن ربيعة ، وعامر بن الطُّفَيْل ؛ ليُجادلاه بهدف التلكُّؤ والبحث عن هَفْوة فيما يقوله أو عَجْزٍ في معرفته ، والمثل ما قاله مجادلون مثلهم ، وأورده القرآن الكريم :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [المؤمنون]

وكذلك استعجال بعض من المجادلين للعذاب[1] .

وجاء هذان الاثنان وقالا لرسول الله ﷺ : هل ربنا مصنوع من الحديد أم من النحاس ؟ وهما قد قالا ذلك لأنهما من عَبَدة الأصنام المصنوعة من الحجارة ، والأقوى من الحجارة هو الحديد أو النحاس ؛ فدعا رسول الله ﷺ ؛ فنزلت صاعقة ؛ فأحرقتهما[2] .

وإرسال الصواعق هنا آية قرآنية ، ولابد وأن تأتي آية كونية تصدقها ؛ وقد حدثتْ تلك الآية الكونية .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ .. ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد]

والجدال في الله أنواع متعددة ؛ جدال في ذاته ؛ وجدال في

---

(١) قال تعالى :﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ [ص] . وقال أيضاً : ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [العنكبوت] .

(٢) أورد هذه القصة القرطبي في تفسيره (٥/٣٦٣١ ، ٣٦٣٢) وعزاها لابن عباس ، وكذا ابن كثير في تفسيره (٢/٥٠٦) ، وأوردها الواحدي في أسباب النزول (ص ١٥٦) .

صفاته ، أو جدال فى الحسنة والسيئة ، وقد جادلوا أيضاً فى إنزال آية مادية[1] عليه ؛ لأنهم لم يكتفوا بالقرآن كآية ؛ على الرغم من أن القرآن آية معجزة ومن جنس ما برعوا فيه ، وهو اللغة .

وقد جادلوا أيضاً فى الرعد ؛ وقالوا : إن الرعد ليس له عَقْل ليُسبح ؛ والملائكة لا تكليفَ لها ؛ فكيف تُسبِّح ؟

ولكن الحق سبحانه قال : إنه قادر على أن يُرسل الصواعق ويصيب بها مَنْ يشاء ؛ فيأتى بالخير لمَنْ يشاء ؛ ويصيبَ بالضر مَنْ يشاء . فهل هُمْ يملكون كل الوقت لهذا الجدل ؛ بعد أن خلق الحق كل هذا الكون ؟

هل لديكم الوقت لكل تلك المُمَاراة بقصد الجدَل والعناد المذموم ؟

فالجدل فى حَدِّ ذاته قد يَحْسُن استخدامه وقد يُساء استخدامه ؛ والحق سبحانه قال لنا :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ .. (٤٦) ﴾ [العنكبوت]

وقال أيضاً :

﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا[2] وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ .. (١) ﴾ [المجادلة]

---

(١) قال تعالى عنهم : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ .. (٩٣) ﴾ [الإسراء] .

(٢) نزلت هذه السورة سورة المجادلة فى شأن خولة بنت ثعلبة وكانت تشتكى زوجها أوس ابن الصامت أنها قالت لرسول الله ﷺ : « يا رسول الله ، أبلى شبابى ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى وانقطع ولدى ظاهر منى » أى قال لها : أنت حرام علىَّ كظهر أمى . [انظر : أسباب النزول للواحدى ص ٢٣١ ، ٢٣٢] .

وهذا جَدَلٌ المراد منه الوصول إلى الحق .

ويُذيِّل الله آية سورة الرعد بقوله :

﴿ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾ ﴾ [الرعد]

ويقال : « محل فلان بفلان » أى : كَادَ له كيداً خفياً ومكر به ، والمحَال هو الكَيْد والتدبير الخفىّ ، ومَنْ يلجأون إليه من البشر هُم الضِّعاف الذين يعجزون عن مواجهة الخَصْم علانية ، فيُبيِّتون له بإخفاء وسائل الإيلام .

وهذا يحدث بين البشر وبعضهم البعض ؛ لأن البشر لا يعلمون الغيب ؛ لكن حين يكيد الله ؛ فلا أحدَ بقادر على كَيْده ، وهو القائل سبحانه :

﴿ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾ ﴾ [الطارق]

لأن كيد الله لا غالب له ؛ وهو كَيْد غير مفضوح لأحد ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

هُمْ أرادوا أن يُبيِّتوا لرسوله ﷺ ؛ وأرادوا قَتْله ؛ وجاءوا بشاب من كل قبيلة ليمسك سيفاً كى يتوزع دَمُه بين القبائل ، وترصدوا له المرصاد ؛ ولكن رسول الله ﷺ كانت تصاحبه العناية فخرج عليهم ملهماً قوله تعالى :

﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس]

وبذلك أوضح لهم أنهم لن يستطيعوا دَفْع دعوة الإسلام ؛

لا مُجَابهة ومُجَاهرة ؛ ولا كَيْداً وتبييتاً ؛ حتى ولو استعنتُم بالجنِّ ؛ فالإنسان قد يمكر ويواجه ، وحين يفشل قد يحاول الاستعانة بقوة من جنس آخر له سلطان كسلطان الجن ، وحتى ذلك لم يفلح معه ﷺ ؛ فقد حاولوا بالسحر ؛ فكشف الله له بالرؤيا موقع وَضْع السحر[1] .

وذهب بعض من صحابته ليستخرجوا السِّحر من الموقع الذى حدده رسول الله لهم .

وهكذا أوضح لهم الحق سبحانه أن كل ما يفعلونه لن يَحِيق برسوله ﷺ ؛ فسبحانه :

﴿ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ .. (٢١) ﴾ [يوسف]

وهكذا كان الحق سبحانه وما زال وسيظل إلى أنْ يرث الأرضَ ومَنْ عليها ، وهو شديد المحال .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (١٤) ﴾

وسبحانه قد دعانا إلى أنْ نؤمن بإله واحد وهى دعوة حق ،

---

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : « سُحر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله ، حتى كان ذات يوم دعا ودعا ثم قال : أشعرت أن الله أفتانى فيما فيه شفائى ؟ أتانى رجلان فقعد أحدهما عند رأسى والآخر عند رجلىَّ ، فقال أحدهما للآخر : ما وجع الرجل ؟ فقال : مطبوب (أى : مسحور) قال : ومن طبَّه ؟ قال : لبيد بن الأعصم . قال : فيما ذا ؟ قال : فى مشط ومشاقة وجُفِّ طلْعة ذكر . قال : فأين هو ؟ قال : فى بئر ذروان » أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) .

والذين من دونه يدعون لإله غير حق . والضـمير هنا قد يعود إلى الله ؛ فكأن الله قـد دعـا خَلْقه إلى كلمـة الحق وهى « لا إله إلا الله » ، وهو سبحانه قد شهد بأنه لا إله إلا هو ؛ وشـهدتْ الملائكة شهادةَ المشْهد ، وشَهِد بها أولو العلم شهادة الاستدلال(1) ؛ تلك هى دعوة الحق .

أو « له » أى : للإنســان الذى يدعـو إلى الحق ، وحـين يدعـو الإنسان فهذا يدلُّ على أن أمراً قد خرج عن نطاق أسبابه ؛ لذلك يدعو مَنْ يعينه على هذا الأمر .

والدعـاء لَوْنٌ مـن الطلب ، إلا أن الطلب يخـتلف باخـتـلاف الطالب والمطلوب منه ؛ فـإنْ كـان الطالبُ أدنى من المطلوب منه لا يُـقال له فـعل أمر ؛ كقولك « اغفر لى يا رب» وهذا لا يقال له فعل أمر ؛ بل يقال له دعاء.

وهكذا نرى أنه إن كان فـعل الأمر من الأدنى للأعلى ؛ لا نسمـيه فعْل أمر بل نسمـيه دعاءً ، والطالب الذكىّ هو مَنْ يلحظ أثناء الإعراب إنْ كـان المطلوب هو من الأدْنى إلى الأعـلى ؛ فهـو لا يقـول « فـعْل أمر » بل يقول « فـعل دعاء » مثل قول العبـد لله : يا رب اغفر لى ، وإنْ كـان المطلوب من مُـساَو ؛ فـهو يقـول « التـماس » . وإنْ كـان المطلوب قد صدر من الأعلى للأدنى فهو « فعل أمر » .

وحين يدعـو الإنسان ربه ؛ فهذا يعنى أن أسـبابَ العبد قـد نفدتْ ؛ وهو يلجأ إلى مَنْ يعلو الكون ويملك كل الأسباب ، ولذلك فكُلٌّ منّا يدعو الله ؛ لأنه سبحانه القادر على إنفاذ مطلوب العباد ؛ ولا يُعْجِزه شئ .

ولكنْ إنْ دعوتَ مَنْ لا يستطيع ؛ فهـذه دعوةٌ لا تنفع العبد ، وهم

(1) قال تعالى : ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران] .

كـانوا يدعُـونَ الأصنام ؛ والأصنام لا تضـرُّ ولا تـنفع ؛ فـالصنم مِنْ هؤلاء لا يقدر على نفسه أو لنفسه ؛ فقد كان من الحجر .

وبطبيعـة الحال فالدعاء لمـثل تلك الأصنام لا تحقق شيـئاً ؛ لأنها لا تقدر على أيِّ شيء .

وهكذا يتـأكد لنا أن دعوة الحـقِّ هى أنْ تدعوَ القادر ؛ أمـا الذين يدعون المعبودات الباطلة فإنهـا تخيب من يدعوها فى مقصده ، ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ لَهُ دَعْـوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُـونَ مِن دُونِهِ لا يَسْـتَـجِـيبُـونَ لَهُم بِشَيْءٍ . . (١٤) ﴾ [الرعد]

لأنهم لا يملكون شيئاً فالصنم من هؤلاء لا يسمع فكيف يستجيب؟

ثم يضرب الحق سبحانه المَثَل بشىء مُحَسٍّ ؛ نفعله كلنا ؛ فيقول :

﴿ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ . . (١٤) ﴾ [الرعد]

فالعطشان مـا أنْ يرى ماءً حتى يَمُدَّ يده إليه ليـغترف منه ؛ لكن يده لا تصل إلى المـاء ؛ هذا هو حال مَنْ يدعو غـير الله ؛ فقـد سأل غير القـادر على إنفاذ مطلبه ، وهكذا يكون دعاء غـير الله ؛ وهو دعاء فى ضلال وفى غير متاهة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ[1] ۩ ١٥ ﴾

(١) الأصيل : الـوقت حين تصـفرُّ الشمـس بعد العـصر إلى المغـرب ، وقد يراد به الـعشى . والجـمع : أصُل . وجـمع الجـمع : آصال . قـال تعـالى : ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيـلاً (٤٢)﴾ [الأحزاب] . وقـال تعالى : ﴿يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦)﴾ [النور] [القامـوس القويم ٢١/١] .

والسجود. كما نعرفه حركة من حركات الصلاة ، والصلاة هى وَقْفة العبد بين يدى ربه بعد ندائه له ، والصلاة أقوال وأفعال مُبْتدأة بالتكبير ومُخْتتمة بالسلام[(١)] ؛ بفرائض وسنن ومستحبات مخصوصة .

والسجود هو الحركة التى تُبرز كاملَ الخضوع لله ؛ فالسجود وَضْع لأعلى ما فى الإنسان فى مُسْتوى الأدنى وهو قَدَم الإنسان ؛ ونجد العامة وهُمْ يقولون : « لا ترفع رأسك علىَّ » أى : لا تتعالى علىّ ، لأن رَفْع الرأس معناه التعالى ، وتخفيضها بالركوع أو السجود هو إظهارٌ للخضوع ، فإذا قال الله :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٥) ﴾ [الرعد]

عليك أن تفهم أن هذا ما يحدث فعلاً ؛ وإنْ لم يتسع ذهْنك إلى فَهْم السجود كما يحدث منك ؛ فليتسع ظنُّك على أنه مُنْتهى الخضوع والذِّلة لله الأمر .

وأنت تعلم أن الكون كله مُسخَّر بأمر الله ولأمر الله ، والكون خاضع له سبحانه ؛ فإن استجاب الإنسان لأمر الله بالإيمان به فهذا خير . وإنْ لم يستجب الإنسان ـ مثلما يفعل الكافر ـ فعليه سُوء عمله .

ولو استقصيتَ المسألة بدقَّة الفَهْم ؛ لوجدتَ أن الكافر إنما يتمرد بإرادته المُسَيطرة على جوارحه ؛ لكن بقية أبعاضه مُسخّرة ؛ وكلها تؤدى عملها بتسخير الله لها ، وكلها تُنفِّذ الأوامر الصادرة من الله لها ؛ وهكذا يكون الكافر مُتمرداً ببعضه ومُسخَّراً ببعضه الآخر ، فحين يُمرضه الله ؛ أيستطيع أنْ يعصى ؟

---

(١) عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « مفتاح الصلاة الطهور ، وتحريمها التكبير ، وتحليلها التسليم » أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٢٣ ، ١٢٩)، والدارمى فى سننه (١/١٧٥) والترمذى فى سننه (١/٨) وقال : « هذا الحديث أصح شىء فى هذا وأحسن » .

طبعاً لا . وحين يشاء الله أن يُوقف قلبه أيقدر أن يجعل قلبه يخالف مشيئة الله ؟ طبعاً لا .

إذن : فالذى يتعوّد على التمرد على الله فى العبادة ؛ وله دُرْبة على هذا التمرد ؛ عليه أن يُجرِّب التمرد على مرادات الله فيما لا اختيار له فيه ؛ وسيقابل العجز عن ذلك .

وعليه أنْ يعرف أنه لم يتمرد بالكفر إلا بما أوسع الله له من اختيار ؛ بدليل أن تسعة وتسعين بالمائة من قُدراته محكوم بالقهر ؛ وواحد بالمائة من قدراته متروك للاختيار ، وهكذا يتأكد التسخير .

وخضوع الكافر فى أغلب الأحيان ؛ وتمرّده فى البعض الآخر ؛ هو مُنْتهى العظمة لله ؛ فهو لا يجرؤ على التمرد بما أراده الله مُسخَّراً منه .

ولقائل أن يقول : ولماذا قال الله هنا :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٥) ﴾ [الرعد]

ولم يقُلْ : « ما فى السماوات وما فى الأرض » ؟

وأقول : ما دام فى الأمر هنا سجود ؛ فهو دليل على قمّة العقل ؛ وسبحانه قد جعل السجود هنا دليلاً على أنّ كافة الكائنَات تعقل حقيقة الألوهية ؛ وتعبد الحق سبحانه .

وهو هنا يقول :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ..(١٥) ﴾[الرعد]

وهنا يُعلمنا الحق سبحانه أن كل الكائنات ترضخ لله سجوداً ؛ سواء المُسخَّر ؛ أو حتى أبعاض الكافر التى يستخدمها بإرادته فى الكفر بالله ؛ هذه الأبعاض تسجد لله .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

ونحن فى حياتنا اليومية نسمع مَنْ يقول : « فلان يَتْبع فلاناً كَظله » ؛ أى : لا يتأبّى عليه أبداً مطلقاً ، ويلازمه كأنه الظل ؛ ونعلم أنَ ظلَّ الإنسان تابعٌ لحركته .

وهكذا نعلم أن الظِّلال نفسها خاضعة لله ؛ لأن أصحابها خاضعون لله ؛ فالظل يتبع حركتك ؛ وإياك أنْ تظنَّ أنه خاضع لك ؛ بل هو خاضع لله سبحانه .

وسبحانه هنا يُحدِّد تلك المسألة بالغُدوِّ والآصال ؛ و « الغدو » جمع « غداة » وهو أول النهار ، والآصال هو المسافة الزمنية بين العصر والمغرب .

وأنت حين تقيس ظلَّك فى الصباح ستجد الظِّل طويلاً ، وكلما اقتربت من الشمس طال الظل ، وكلما اقترب الزوال يقصُر الظلُّ إلى أنْ يتلاشى ؛ وأبرز ما يتمايل الظل بتمايل صاحبه هو فى الصبح وبعد العصر .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾ ﴾

و « قل » هى أَمْر للرسول أنْ يقول للكافرين ، وهناك فى آيات أخرى يقول سبحانه :

﴿ ولَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ[1] ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

---

(١) أفك يأفك : كذب وافترى باطلاً . والإفك : الكذب . وأفَّاك : كثير الكذب صيغة مبالغة [القاموس القويم ١ /٢٢] .

ولقائل أن يسأل : لماذا جاء الحق سبحانه هنا بالإجابة ؛ ولم يتركْها لتأتى منهم ؟

ونقول : إن مجيء الإجابة من الحق هنا عن الذى خلق السماوات والأرض أقوى ممَّا لو جاءت الإجابة منهم .

والمثل من حياتنا ؛ ولله المَثَل الأعلى ؛ قد تقول لابنك الصغير المُتَشاحن مع أخيه الكبير : مَن الذى جاء لك بالحُلَّة الجديدة ؟ فيرتبك خجلاً ؛ لأنه يعلم أن مَنْ جاء له بالحُلَّة الجديدة هو أخوه الأكبر الذى تشاحن معه ؛ فتقول أنت : جاء لك بها أخوك الأكبر الذى تشاحنتَ معه .

وهنا لحظة أن يقول رسول الله ﷺ لهم ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١٦) ﴾ [الرعد]

فسوف يرتبكون ؛ فيؤكد لهم بعد ذلك ما أمره الله أن يقول :

﴿ قُلِ اللَّهُ ..(١٦) ﴾ [الرعد]

ويتتابع أمر الله لرسوله ﷺ ، فيقول له الحق سبحانه :

﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا ..(١٦) ﴾ [الرعد]

وهكذا يكشف لهم الرسول ببلاغ الحق سبحانه مدى جهلهم ؛ وهم مَنْ سبق لهم الاعتراف بأن الله هو خالق السماوات والأرض ؛ ولم يجرؤ واحد منهم على أن ينسب خَلْق السماوات والأرض للأصنام .

وهنا يوضح لهم الرسول ﷺ ما أمر الحقُّ سبحانه بإيضاحه : لقد خلق الله السماوات والأرض أفبعد ذلك تتخذون من

دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ؛ ولا ضراً ؟ بدليل أن الصنم من هؤلاء لا يقدر لهم على شيء .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ (١٦) ﴾ [الرعد]

وبطبيعة الحال لا يمكن أن يستوى الأعمى بالمبصر .

وساعةَ ترى « أَمْ » اعلم أنها ضَرْب انتقالى ، وهكذا يستنكر الحق ما فعلوه بالاستفهام عنه ؛ لأنه شىء مُنْكر فعلاً :

﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ .. (١٦) ﴾ [الرعد]

أى : لو كان هؤلاء الشركاء قد خلقوا شيئاً مثل خَلْق الله ؛ لكَان لهم أنْ يعقدوا مقارنة بين خَلْق الله وخَلْق هؤلاء الشركاء ؛ ولكن هؤلاء الشركاء الذين جعلوهم مشاركين لله فى الألوهية لا يَقْدرون على خَلْق شىء ؛ فكيف يختارونهم شركاء لله ؟

ويأتى الأمر من الحق سبحانه :

﴿ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾ [الرعد]

وفى آية أخرى يُقدِّم الحق سبحانه تفسيراً لتلك الآية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

فهؤلاء الشركاء لم يخلقوا شيئاً ، ولن يستطيع أحدٌ الادعاء بأن هؤلاء الشركاء عندهم نية الخَلْق ، ولكن مجىء « لن » هنا يُؤكد أنهم حتى بتنبيههم لتلك المسألة ؛ فلَسوف يعجزون عنها ؛

لأن نَفْى المستقبل يستدعى التحدِّى ؛ رغم أنهم آلهة متعددة ؛ ولو اجتمعوا فلن يخلقوا شيئاً .

يستمر التحدى فى قوله سبحانه :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

أى : لو أخذ الذباب بساقه الرفيعة شيئاً ممَّا يملكون لَمَا استطاعوا أن يستخلصوه منه .

وهكذا يتضح أن الحق سبحانه وحده هو الخالق لكُلِّ شىء ؛ وتلزم عبادته وحده لا شريكَ له ؛ وهو جَلَّ وعَلا المتفرِّد بالربوبية والألوهية ؛ وهو القهار المتكبر ؛ والغالب على أمره أبداً ، فكيف يكون مَنْ دونه مساوياً له ؟ لذلك لا شريك له أبداً .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا[1] رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾

---

(١) زبد الماء : ما يعلوه عند جَيَشانه واضطرابه من الرغوة وحطام الأشياء . [القاموس القويم ٢٨٣/١] .

(٢) الجفاء : الزَّبَد . مثل الزبد الذى ترمى به القِدْر عند الغليان . وجفا الوادى غثاءه : رمى بالزبد والقذى . [لسان العرب ـ مادة : جفا] .

وهو سبحانه يُنزل الماء من جهة العُلو وهو السماء ، ونعلم أن الماء يتبخَّر من البحار والأنهار والأرض التى تتفجّر فيها العيون ليتجمع كسحاب ؛ ثم يتراكم السحاب بعضُه على بعض ؛ ويمرُّ بمنطقة باردة فيتساقط المطر .

يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا .. (١٧) ﴾ [الرعد]

والوادى هو المُنْخفض بين الجبلين ؛ وساعةَ ينزل المطر على الجبال فهو يسيل على الأودية ؛ وكل وَادٍ يستوعب من المياه على اتساعه .

ولنا أن نلحظ أن حكمة الله شاءتْ ذلك كَيْلا يتحول الماء إلى طوفان ، فلو زاد الماء فى تلك الأودية لَغرقتْ نتيجة ذلك القرى ، ولَخربت الزراعات ، وتهدمتْ البيوت .

والمَثَل على ذلك هو فيضان النيل حين كان يأتى مناسباً فى الكمية لحجم المَجْرى ؛ وكان مثل هذا القَدْر من الفيضان هو الذى يُسعد أهل مصر ؛ أما إذا زاد فهو يُمثِّل خطراً يَدْهَم القرى ويخربها .

وهكذا نجد أن من رحمة الحق سبحانه أن الماء يسيل من السماء مطراً على قَدْر اتساع الأودية ؛ اللهم إلا إذا شاء غير ذلك .

والحق سبحانه هنا يريد أنْ يضرب مثلاً على ما ينفع الناس ؛ لذلك جاء بجزئية نزول الماء على قَدْر اتساع الأودية .

ومَنْ رأى مشهد نزول المطر على هذا القَدْر يمكنه أنْ يلحظ أن نزول السَّيْل إنما يكنس كل القَشِّ والقاذورات ؛ فتصنع تلك الزوائد

رَغْـوةٌ على سطح المـاء الذى يجرى فى النهـر ، ثم يندفع المـاء إلى المَجْرى ؛ لِيُزيح تلك الرَّغاوى جانباً ؛ ليسير الماء من بعد ذلك صافياً رَقْراقاً .

﴿ أنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا[1] .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وهذا المَثَل يدركـه أهل البادية ؛ لأنهـا صحراء وجـبال ووديان ؛ فماذا عن مَثَلٍ يناسب أهل الحضر ؟

ويأتى الحق سبحانه بهذا المثل المناسب لهم ؛ فيقول :

﴿ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ.. (١٧) ﴾ [الرعد]

وأنت حـين تذهب إلى مـوقع عـمل الـحـداد أو صـائغ الذهب والفضة ؛ تجده يُوقد النار ليتحول المعدن إلى سائل مَصْهور ؛ ويطفو فوق هذا السـائل الزَّبَد وهو الأشياء التى دخلت إلى المعـدن ، وليست منه فى الأصل ؛ ويبقى المعدن صافياً من بعد ذلك .

والصَّائغ يضع الذهب فى النار لِيُخلِّصه من الشوائب ؛ ثم يضيف إليه من المواد ما يُقوِّى صـلابته ؛ أو ينقله من حالة النقاء إلى درجة أقل نقاءً ، وحـالة النقاء فى الذهب هى ما نطلق عليـه « عيار ٢٤ » ، والأقل درجة هو الذهب من « عيار ٢١ » ، والأقل من ذلك هو الذهب من « عيار ١٨ » .

(١) ربا الشيء يربو : زاد ونما . قال تعالى : ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] .

والذهب الخالص النقاء يكون ليِّناً ؛ لذلك يُضيفون إليه ما يزيد من صلابته ، ويصنع الصائغ من هذا الذهب الحُلى .

وهذا هو المَثَلُ المناسب لأهل الحضر ؛ حين يصنعون الحلى ، وهم أيضاً يصنعون أدوات أخرى يستعملونها ويستعملها مثلهم أهل البادية كالسيوف مثلاً ، وهى لا بُدَّ وأن تكون من الحديد الصُّلْب ؛ ذلك أن كل أداة تصنع منه لها ما يناسبها من الصَّلابة ؛ فإنْ أراد الحدَّاد أن يصنع سيفاً فلا بد أنْ يختار له من الحديد نوعيةً تتناسب مع وظائف السيف .

والزَّبَد فى الماء النازل من السماء إنما يأتى إليه نتيجة مرور المطر أثناء نزوله على سطح الجبال ؛ فضلاً عن غسيل مَجْرى النهر الذى ينزل فيه ؛ وعادة ما يتراكم هذا الزَّبَد على الحَوافّ ؛ ليبقى الماء صافياً من بعد ذلك .

وحين تنظر إلى النيل - مثلاً - فأنت تجد الشوائب ، وقد ترسبتْ على جانبى النهر وحَوافّه ، وكذلك حين تنظر إلى مياه البحر ؛ فأنت تجد ما تلقيه المركب ، وهو طافٍ فوق الأمواج ؛ لِتُلْقيه الأمواج على الشاطىء .

وهكذا ضرب الله المَثَل لأهل البدو ولأهل الحضر بما يفيدهم فى حياتهم ؛ سواء حلية يلبسونها ، أو أداة يقاتلون بها ، أو أداة أخرى يستخدمونها فى أَوْجُه أعمالهم الحياتية ؛ وهم فى كل ذلك يلجئون إلى تصفية المعادن التى يصنعون منها تلك الحلى أو الأدوات الحياتية ليستخلصوا المعادن من الخَبَث أو الزَّبَد .

وكذلك يفعل الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد]

وحين يضرب الله الحقَّ والباطل ؛ فهو يستخلص ما يفيد الناس ؛ ويُذهب ما يضرُّهم ، وقوله :

﴿ فَيَذْهَبُ جُفَاءً .. (١٧) ﴾ [الرعد]

أى : يبعده ؛ فـ « جُفَاء » يعنى « مَطْروداً » ؛ من الجَفْوة ؛ ويُقال : « فلان جَفَا فلاناً » أى : أبعده عنه .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (١٧) ﴾ [الرعد]

وشاء سبحانه أن يُبيِّن لنا بالأمور الحسِّية ؛ ما يساوى الأمور المعنوية ؛ كى يعلمَ الإنسانُ أن الظُّلْمَ حين يستشرى ويَعْلو ويَطْمِس الحق ، فهو إلى زَوَال ؛ مثله مثل الزَّبَد .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ [1] أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ [2] (١٨) ﴾

---

(١) افتدى : قدَّم الفدية عن نفسه ليخلصها من الأَسْر . وافتدى الأسير : فداه وأنقذه . قال تعالى : ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ .. (١٨) ﴾ [الرعد] . [القاموس القويم ٢/ ٧٤] .

(٢) المهاد : الفراش ، وأصل المهد التوثير . يقال : مهدت لنفسى ومهدت أى جعلت لها مكاناً وطيئاً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : مهد] .

والذين يستجيبون للرب الذى خلق من عَدَم ، وأوجد لهم مُقوِّمات الحياة واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ؛ فإذا دعاهم لشىء فليعلموا أن ما يطلبه منهم مُتمِّم لصالحهم ؛ الذى بدأه بإيجاد كل شىء لهم من البداية .

وهؤلاء الذين يستجيبون لهم الحُسْنى ؛ فسبحانه جعل الدنيا مزرعة للآخرة ، وأنت فى الدنيا مَوْكُول لقدرتك على الأَخْذ بالأسباب ؛ ولكنك فى الآخرة مَوْكُول إلى المُسبِّب .

ففى الدنيا أنت تبذُر وتحرُث وتروى وتحصد ، وقد تختلف حياتك شَظَفاً[1] وتَرفاً بقدرتك على الأسباب .

فإذا استجبْتَ لله واتبعتَ منهجه ؛ فأنت تنتقل إلى حياة أخرى ؛ تحيا فيها مع المسبب ؛ لا الأسباب ؛ فإذا خطر ببالك الشىء تَجِدْهُ أمامك ؛ لأنك فى الحياة الأخرى لا يكلك الله إلى الأسباب ، بل أنت مَوْكُول لذات الله ، والموكول إلى الذَّاتِ بَاقٍ ببقاء الذات .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِّنْهُ .. (١٧٥) ﴾ [النساء]

وبعض المُفسِّرين يقولون « إنها الجنة » وأقول : هذا تفسير مقبول ؛ لأن الجنة من رحمة الله ؛ ولكن الجنة باقية بإبقاء الله لها ؛ ولكن رحمة الله باقية ببقاء الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

---

(١) الشظف : يُبس العيش وشدته وضيقه . [لسان العرب ـ مادة : شظف] .

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ..(١٨) ﴾ [الرعد]

ويقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ .. (٢٦) ﴾ [يونس]

والحسنى هى الأمر الأحسن ؛ وسبحانه خلق لك فى الدنيا الأسباب التى تكدح فيها ؛ ولكنك فى الآخرة تحيا بكل ما تتمنى دون كَدْح ، وهذا هو الحسن .

وهَبْ أن الدنيا ارتقتْ ؛ والذين يسافرون إلى الدول المُتقدمة ؛ وينزلون فى الفنادق الفاخرة ؛ يُقال لهم اضغط على هذا الزر تنزل لك القهوة ؛ والزِّر الآخر ينزل لك الشاى .

وكل شىء يمكن أن تحصل عليه فَوْر أن تطلبه من المطعم حيث يُعدُّه لك آخرون ؛ ولكن مهما ارتقتْ الدنيا فلن تصل إلى أنْ يأتى لك ما يمرُّ على خاطرك فَوْر أنْ تتمناه ؛ وهذا لن يحدث إلا فى الآخرة .

وكلمة « الحسنى » مُؤنَّثة وأفعل تفضيل ؛ ويُقَال « حسنة وحُسْنى » ؛ وفى المذكر يُقَال « حسن وأحسن » . والمقابل لمن لم يستجيبوا معروف .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ ..(١٨) ﴾ [الرعد]

أى : يقول خذوا ما أملك كله واعتقونى ، لكن لا يُستجاب له .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أُولَـئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾

[الرعد]

لأن الحساب يترتب عليه مرة خَيْر ؛ ويترتب عليه مرة أخرى شَرٌّ ؛ وجاء الحق سبحانه بكلمة :

﴿ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾ [الرعد]

هنا ؛ لأن الواحد من هؤلاء والعياذ بالله لن يستطيع أن يتصرف لحظة وَضْعه فى النار ، كما لا يستطيع الطفل الوليد أن يتصرف فى مِهَاده ؛ ومن المؤكد أن النار بِئْس المهاد .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ[1] (١٩) ﴾

والمؤمن هو مَنْ يعلم أن القرآن الحامل للمنهج هو الذى أنزله سبحانه على رسوله ؛ ولا يمكن مقارنته بالكافر وهو الموصوف هنا من الحق سبحانه :

﴿ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ (١٩) ﴾ [الرعد]

وجاء هنا بـ « علم » و « عمى » ؛ لأن الآيات الدالة على القدرة من المرئيات .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) اللبُّ : العقل وجمعه ألباب . [القاموس القويم ١٨٧/٢] ولُبُّ كل شىء : خالصه وخياره . وهو أيضاً : نفسه وحقيقته . [لسان العرب ـ مادة : لبب] .

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ (١٩) ﴾ [الرعد]

أى : أصحاب العقول القادرة على التدبُّر والتفكُّر والتمييز .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك عن أولى الألباب :

﴿ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ (٢٠) ﴾

والواحد من أولى الألباب ساعةَ آمن بالله ؛ فهو يعلم أنه قد تعاهد مع الله عهداً بألاَّ يعبد غيره ؛ وألاَّ يخضع لغيره ؛ وألاَّ يتقرَّب لغيره ؛ وألاَّ ينظر أو ينتظر من غيره ؛ وهذا هو العهد الأول الإيمانى .

ويتفرّع من هذا العهد العقدى الأول كُلُّ عهد يُقطع سواء بالنسبة لله ، أو بالنسبة لخَلْق الله ؛ لأن الناشىء من عهد الله مثله مثل عهد الله ؛ فإذا كنتَ قد آمنتَ بالله ؛ فأنت تؤمن بالمنهج الذى أنزله على رسوله ؛ وإذا أوفيتَ بالمنهج ؛ تكون قد أوفيتَ بالعهد الأول .

ولذلك نجد كل التكليفات المهمة البارزة القوية فى حياة المؤمنين نجد الحق سبحانه يأتى بها فى صيغة البناء ؛ فيما يسمى « البناء للمجهول » ؛ مثل قوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ[1] فِى الْقَتْلَى .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

---

(١) القصاص : معاقبة الجانى بمثل جنايته . [القاموس القويم ٢/١٢٠] . والقصاص : القَود وهو القتل بالقتل ، أو الجرح بالجرح . وقال الليث : القصاص والتَّقاص : شىء بشىء . [لسان العرب ـ مادة : قصص] .

وقوله :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ.. (٢١٦) ﴾ [البقرة]

وكُلُّ التكليفات تأتى مَسْبوقة بكلمة « كُتب » والذى كتب هو الله ؛ وسبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به ؛ فساعةَ إعلان إيمانك بالله ؛ هى ساعة تعاقدك مع الله على أن تُنفِّذ ما يُكلِّفك به .

وأنت حُرٌّ فى أنْ تؤمن أو لا تؤمن ؛ لكنك لحظةَ إيمانك بالله تدخل إلى الالتزام بما يُكلِّفك به ، وتكون قد دخلت فى كتابة التعاقد الإيمانى بينك وبين الله .

ولذلك قال الحق سبحانه « كُتب » ولم يَقُلْ : « كتبْتُ » ؛ لأن العهد بينك وبين الله يقتضى أن تدخلَ أنت شريكاً فيه ، وهو سبحانه لم يُكلِّف إلا مَنْ آمن به .

وسبحانه هنا يقول :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ[1] الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

أى : أن العهد الإيمانى مُوثَّق بما أخذْتَه على نفسك من التزام .

ويواصل سبحانه وَصْفَ هؤلاء بقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾

وأوَّل ما أمر به الله أنْ يُوصَلَ هو صلَة الرَّحم ؛ أى : أن تَصل ما يربطك بهم نَسَبٌ . والمؤمن الحقُّ إذا سَلْسَل الأنساب ؛ فسيدخل

---

(١) النقض : إفساد ما أبرمت من عقد أو بناء . وفى الصحاح : النقض نقض البناء والحبل والعهد [لسان العرب ـ مادة : نقض] .

كُلُّ المؤمنين فى صِلَةَ الرَّحم ؛ لأن كل المؤمنين رَحم مُتداخل ؛ فإذا كان لك عَشْرة من المؤمنين تَصلهم بحكم الرَّحم ؛ وكل مؤمن يَصل عشرة مثلك ، انظر إلى تداخل الدوائر وانتظامها ؛ ستجد أن كل المؤمنين يدخلون فيها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول فى الحديث القدسى :

« أنا الرحمن ؛ خلقت الرَّحم ، واشتققتُ لها اسماً من اسمى ؛ فمَنْ وصلها وَصَلْته ؛ ومَنْ قطعَها قطعتُه »[1] .

وقد رَويْتُ من قَبْل قصةً عن معاوية رضى الله عنه ؛ فقد جاء حاجبه ليعلن له أن رجلاً بالباب يقول : إنه أخوك يا أمير المؤمنين .

ولا بد أن حاجبَ معاوية كان يعلم أن معاوية بن أبى سفيان لا إخوةَ له ، لكنه لم يَشَأْ أنْ يتدخَّل فيما يقوله الرجل ؛ وقال معاوية لحاجبه : ألاَ تعرف إخوتى ؟ فقال الحاجب : هكذا يقول الرجل . فأذنَ معاويةُ للرجل بالدخول ؛ وسأله : أى إخوتى أنت ؟ أجاب الرجل : أخوك من آدم . قال معاوية : رَحِم مقطوعة ؛ والله لأكون أوَّلَ من يَصلها .

والتقى الفضيل بن عياض[2] بجماعة لهم عنده حاجة ؛ وقال لهم : من أين أنتم ؟ قالوا : من خُراسان . قال : اتقوا الله ، وكونوا من حيث شِئْتم .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (١/١٩١ ـ ١٩٤) والترمذى فى سننه (١٩٠٧) وقال : حديث صحيح . وكذا أخرجه أبو داود فى سننه (١٦٩٤) كلهم من حديث عبدالرحمن بن عوف .

(٢) هو : الفضيل بن عياض التميمى ، أبو على ، شيخ الحرم المكى ، من أكابر العُبَّاد والصُّلحاء ، ثقة فى الحديث ، ولد بسمرقند (١٠٥ هـ) ، وسكن مكة وتوفى بها (١٨٧هـ) عن ٨٢ عاماً . الأعلام (٥/١٥٣) .

وقد أمرنا سبحانه أن نَصلَ الأهل أولاً ؛ ثم الأقارب ؛ ثم الدوائر الأبعد فالأبعد ؛ ثم الجار ، وكُلُّ ذلك لأنه سبحانه يريد الالتحام بين الخلق ؛ ليستطرق النافع لغير النافع ، والقادر لغير القادر ، فهناك جارك وقريبك الفقير إنْ وصلْتَه وصلَك الله .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ ومنْ خلاله يأمر كل مؤمن برسالته :

﴿ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ .. (٢٣) ﴾ [الشورى]

وقال بعض مَنْ سمعوا هذه الآية : قُرْباك أنت في قُرْباك[1] . وقال البعض الآخر : لا ، القربى تكون في الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن قال في محمد ﷺ :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (٦) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا تكون قرابة الرسول أوْلَى لكل مؤمن من قرابته الخاصة .

يستمر قول الحق سبحانه في وصف أُولي الألباب :

﴿ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ﴾ [الرعد]

والخشية تكون من الذي يمكن أن يُصيبَ بمكروه ؛ ولذلك جعل الحق هنا الخشية منه سبحانه ؛ أي : أنهم يخافون الله مالكهم وخالقهم ومُربِّيهم ؛ خوف إجلال وتعظيم .

---

(١) أخرج الإمام أحمد في مسنده (١/٢٦٨) عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : « لا أسألكم على ما آتيتكم من البينات والهدى أجراً إلا أن تُوادُّوا الله تعالى وأنْ تَقرَّبوا إليه بطاعته » قال ابن كثير في تفسيره (٤/١١٢) : « أي : إلا أن تعملوا بالطاعة التي تقربكم عند الله زلفى».

وجعل سبحانه المخاف من سوء العذاب ؛ وأنت تقول : خِفْتُ زيداً ، وتقول : خِفْتُ المرض ، ففيه شيء تخافه ؛ وشيء يُوقِع عليك ما تخافه .

وأولو الألباب يخافون سُوء حساب الحق سبحانه لهم ؛ فيدفعهم هذا الخوف على أَنْ يَصلوا ما أمر به سبحانه أَنْ يُوصَل ، وأنْ يبتعدوا عن أى شيء يغضبه .

ونحن نعلم أن سوء الحساب يكون بالمناقشة واستيفاء العبد لكل حقوقه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن ظلم أحد ، ولكن مَنْ يُناقش الحسابَ فهو مَنْ يَلْقى العذاب[1] ؛ ونعوذ بالله من ذلك ، فلا أحد بقادر على أن يتحمل عذابَ الحق له .

ويواصل الحق سبحانه وَصْف أُولى الألباب فيقول :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾

ونجد هذه الآية معطوفة على ما سبقها من صفات أولى الألباب الذين يتذكَّرون ويعرفون مَواطن الحق بعقولهم اهتداءً بالدليل ؛ الذين يُوفون بالعهد الإيمانى بمجرد إيمانهم بالله فى كُلِّيات العقيدة

(١) عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ حُوسب يوم القيامة عُذِّب . فقال عبدالله بن أبى مليكة : أليس قد قال الله عز وجل : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الانشقاق] فقال : ليس ذاك الحساب ، إنما ذاك العرض ، مَنْ نُوقش الحساب يوم القيامة عُذِّب » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٦) قال النووى فى شرحه : « معناه أن التقصير غالب فى العباد فمن استقصى عليه ولم يُسامح هلك ودخل النار ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء » .

الوحدانية ، ومُقْتضيات التشريع الذى تأتى به تلك العقيدة .

ولذلك جعلها سبحانه صفقة أوضحها فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا.. (١١١) ﴾ [التوبة]

وهى صفقة إيجاب وقَبُول ، والعهد إيجاب وقبول ؛ وهو ميثاق مُؤكَّد بالأدلة الفطْرِّية أولاً ، والأدلة العقلية ثانياً .

وهُمْ فى هذه الآية مَنْ صبروا ابتغاءَ وجه ربهم ، والصبر هو تحمُّل متاعب تطرأ على النفس الإنسانية لتخرجها عن وقار استقامتها ونعيمها وسعادتها ، وكل ما يُخرِج النفس الإنسانية عن صياغة الانسجام فى النفس يحتاج صبراً .

والصبر يحتاج صابراً هو الإنسان المؤمن ، ويحتاج مَصْبوراً عليه ؛ والمَصْبور عليه فى الأحداث قد يكون فى ذات النفس ؛ كأنْ يصبر الإنسان على مشقَّة التكليف الذى يقول « افعل » و « لا تفعل » .

فالتكليف يأمرك بترْك ما تحب ، وأنْ تنفذ بعض ما يصعب عليك ، وأن تمتثل بالابتعَاد عما ينهاك عنه ، وكُلُّ هذا يقتضى مُجَاهدة من النفس ، والصبر الذاتى على مشَاقِّ التكليف .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن الصلاة مثلاً :

﴿ وَإِنَّهَا[1] لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٨٧) : « الضمير فى قوله : ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ..(٤٥) ﴾ [البقرة] عائد إلى الصلاة نصٌّ عليه مجاهد ، واختاره ابن جرير . ويحتمل أن يكون عائداً على ما يدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك » .

وهذا صَبْـر الذَّات على الذَّات . ولكن هناك صَبْر آخر ؛ صـبر منك على شيء يقع من غيرك ؛ ويُخرِجك هذا الشيء عن استقامة نفسك وسعادتها .

وهو ينقسم إلى قسمين : قسم تجد فيه غريمـاً لك ؛ وقسم لا تجد فيه غريماً لك .

فالمـرض الذى يُخرِج الإنسـان عن حَيِّز الاسـتقامـة الصِّحـية ويُسـبِّب لك الألم ؛ ليس لك فيـه غريم ؛ لكنك تجـد الغريم حـين يعتدى عليك إنسانٌ بالضرب مـثلاً ؛ ويكون هذا الذى يعتدى عليك هو الغريم لك .

وكل صبـر له طاقة إيمانيـة تحتمله ؛ فـالذى يَقْدر على شيء ليس له فـيه غـريم ؛ يكون صَبْره مـعقـولاً بعض الشيء ؛ لأنه لا يوجد له غريم يهيج مشاعره .

أما صـبر الإنسـان على ألم أوقعه به مَنْ يـراه أمامه ؛ فـهذا يحتـاج إلى قوة ضَبْط كبيـرة ؛ كى لا يهيج الإنسـان ويُفكِّر فى الانتقام .

ولذلك تجـد الـحق يفـصل بين الأمـرين ؛ يفـصل بين شيء أصـابك ولا تجد لك غـريماً فـيـه ، وشيء أصابك ولك من مـثلك غريمٌ فيه .

ويقول سبحانه عن الصبر الذى ليس لك غريم فيه :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

ويقـول عن الصبـر الذى لك فيـه غـريم ، ويحتـاج إلى كَظْم الغيظ ، وضبط الغضب :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣) ﴾ [الشورى]

وحينما يريد الحق سبحانه منك أن تصبر ؛ فهو لا يطلب ذلك منك وحدك ؛ ولكن يطلب من المقابلين لك جميعاً أنْ يصبروا على إيذائك لهم ؛ فكأنه طلب منك أنْ تصبر على الإيذاء الواقع من الغير عليك ؛ وأنت فَرْد واحد .

وطلب من الغير أيضاً أنْ يصبر على إيذائك ، وهذا هو قمة التأمين الاجتماعى لحياة النفس الإنسانية ، فإذا كان سبحانه قد طلب منك أن تصبر على مَنْ آذاك ؛ فقد طلب من الناس جميعاً أن يصبروا على آذاك لهم .

فإذا بدرتْ منك بادرة من الأغيار ؛ وتخطىء فى حق إنسان آخر وتؤلمه ؛ فإن لك رصيداً من صبر الآخرين عليك ؛ لأن الحق سبحانه طلب من المقابل لك أنْ يصبر عليك وأن يعفو .

وإذا كان لك غريم ؛ فالصبر يحتاج منك إلى ثلاث مراحل : أنْ تصبر صبراً أولياً بأن تكظم فى نفسك ؛ ولكن الغيظ يبقى ، وإن منعت الحركة النُّزوعية من التعبير عن هذا الغيظ ؛ فلم تضرب ولم تَسُبّ ؛ ويسمى ذلك :

﴿ الْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. (١٣٤) ﴾ [آل عمران]

والكَظْم مأخوذ من عملية رَبْط القِرْبة التى نحمل فيها الماء ؛ فإنْ لم نُحْكِم ربطها انسكب منها الماء ؛ ويُقال « كظم القربة » أى : أحكم ربطها .

ثم يأتى الحق سبحانه بالمرحلة الثانية بعد كظم الغيظ فيقول :

وهنا تظهر المسألة الأرْقى ، وهى إخراج الغيظ من الصدر ؛ ثم التسامى فى مرتبة الصِّديقين ؛ فلا ينظر إلى مَنْ كظم غيظه عنه أولاً ؛ بل يعفو عنه ، ولا ينظر له بعداء ، بل بنظرة إيمانية .

والنظرة الإيمانية هى أن مَنْ آذاك إنما يعتدى على حَقٍّ الله فيك ؛ وبذلك جعل الله فى صَفِّك وجانبك ؛ وهكذا تجد أن مَنْ ظلمك وأساء إليك قد جعلك فى معية الله وحمايته ؛ وعليك أن تُحسن له.

والصبر له دوافع ؛ فهناك مَنْ يصبر كى يُقال عنه : إنه يملك الجلَد والصبر ؛ وليبين أنه فوق الأحداث ؛ وهذا صبر ليس ابتغاء لوجه الله ؛ بل صبر كيلا يَشْمت فيه أعداؤه .

وصبر لأنه قد توصل بعقله أن جزعه لن ينفعه ، ولو كان حصيفاً[1] لَصبر لوجه الله ، لأن الصبر لوجه الله يخفف من قَدَر الله .

ومَنْ يصبر لوجه الله إنما يعلم أن لله حكمة أعلى من الموضوع الذى صبر عليه ؛ ولو خُيِّر بين ما كان يجب أن يقع وبين ما وقع ؛ لاختار الذى وقع .

والذى يصبر لوجه الله إنما ينظر الحكمة فى مَوْرد القضاء الذى وقع عليه ، ويقول : أحمدُكَ ربى على كل قضائك وجميل قَدَرك ؛ حَمْدَ الرضى بحكمك لليقين بحكمتك .

فمَنْ يصبر على الفاقة[2] ؛ ويقول لنفسه : « اصبرى إلى أن

---

(١) الحصيف : جيد الرأى مُحْكم العقل . وإحصاف الأمر : إحكامه . [لسان العرب ـ مادة : حصف] .

(٢) الفاقة : الفقر والحاجة . وافتاق الرجل أى افتقر . [لسان العرب ـ مادة : فوق] .

يفرجها الله » ولا يسأل أحداً ؛ سيجد الفرج قد أتى له من الله .

انظر إلى الشاعر وهو يقول :

إذَا رُمْتَ أنْ تستخرِجَ المالَ مُنْفقاً
عَلى شَهَواتِ النفْسِ فى زَمَنِ العُسْرِ
فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ مِنْ كَنزِ صَبْرِها
عليْكَ وإنذاراً إلى سَاعةِ اليُسْرِ
فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنىَّ وإنْ أبيْتَ
فَكلُّ مُنوَّع بعدَها واسِعُ العُذْرِ

أى : إنْ راودتْك نفسك لتقترض مالاً لتنفقه على شهوات النفس ، ورفضتَ تلك المُرَاودة ، وطلبت من نفسك أنْ تعطيك من كَنْز الصبر الذى تملكه ؛ وإنْ فعلتَ ذلك كنت الغنىَّ ، لأنك قدرتَ على نفسك .

والذى يلتفت إلى الحدَث وحده يتعب ؛ والذى يلتفت إلى الحدث مقروناً بواقعه من ربه ؛ ويقول : « لا بد أن هناك حكمة من الله وراء ذلك » فهو الذي يصبر ابتغاء وجه الله . ويريد الله أنْ يخُصَّ مَنْ يصبر ابتغاء وجهه بمنزلة عالية ؛ لأنه يعلم أن الله له حكمة فيما يُجريه من أقدار .

ويتابع سبحانه وَصْف أُولى الألباب :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

وسبق أن قلنا فى الصلاة أقوالاً كثيرة ؛ وأن مَنْ يؤديها على

مطلوبها ؛ فهو مَنْ يعلم أنها جلْوة[1] بين العبد وربه ، ويكون العبد في ضيافة ربه .

وحين تُعْرَض الصَّنْعة على صانعها خمس مرات في اليوم ؛ فلا بد أنْ تنال الصَّنْعة رعاية وعناية مَنْ صمَّمها وخلقها ، وكما أن الله غَيْبٌ عنك ؛ فكذلك أسباب شفائك من الكروب يكون غيباً عنك .

وقد علَّمنا رسول الله ﷺ ذلك « فكان إذا حزبه[2] أمر قام إلى الصلاة »[3] .

ومن عظمة الإيمان أن الله هو الذي يدعوك إلى الصلاة ؛ وهو سبحانه لا يمنع عنك القُرْب في أيِّ وقت تشاء ؛ وأنت الذي تُحدِّد متى تقف بين يديه في أي وقت بعد أن تُلبِّي دعوته بالفروض ؛ لتؤدي ما تحب من النوافل ؛ ولا يُنهي سبحانه المقابلة معك كما يفعل عظماء الدنيا ؛ بل تُنهي أنت اللقاء وقتَ أنْ تريد .

ولقد تأدَّب رسول الله ﷺ بأدب ربه ؛ وتخلَّق بالخُلق السامي ؛ فكان إذا وضع أحد يده في يد الرسول ﷺ ؛ فهو لا ينزع يده من يد مَنْ يُسلِّم عليه ؛ إلا أنْ يكون هو النازع[4] .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

---

(١) اجتلى الشيء : نظر إليه . وجلَّى الشيء : كشفه . فالجلوة : الانكشاف والظهور وكأنه ينظر إليه . [لسان العرب ـ مادة : جلا] .

(٢) حزبه أمر : أصابه . أي نزل به مهمّ أو أصابه غَم واشتد عليه . وأمر حازب وحزيب : شديد . [لسان العرب ـ مادة : حزب] .

(٣) عن حذيفة رضي الله عنه قال : « كان النبي ﷺ إذا حزبه أمر صلى » أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٥/٣٨٨) ، وأبو داود في سننه (١٣١٩) .

(٤) عن أنس بن مالك قال : « إن كانت الأمة من أهل المدينة لتأخذ بيد رسول الله ﷺ ، فما ينزع يده من يدها حتى تذهب به حيث شاءت من المدينة ، في حاجتها » . أخرجه ابن ماجة في سننه (١٣٩٨) ، وأحمد في مسنده (٣/١٧٤ ، ٢١٦) .

يعنى : أنك لا يجب أن تنظر إلى ما يؤخذ منك ، ولكن انظر إلى أنك إنْ وصلتَ إلى أن تحتاج من الغير سيؤخذ لك ، وهذا هو التأمين الفعال ، ومَنْ يخاف أن يترك عيالاً دون قدرة ، ولو كان هذا الإنسان يحيا فى مجتمع إيمانى ، لوجد قول الحق مُطبَّقاً :

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً[1] ⑨ ﴾ [النساء]

وبذلك لا يشعر اليتيم باليُتْم ؛ ولا يخاف أحد على عياله ، ولا يسخط أحد على قَدَر الله فيه . وسبحانه يضع الميزان الاقتصادى حين يطلب منا الإنفاق ، والإنفاق يكون من مال زائد ؛ أو مال بلغ النصاب[2] ، ولذلك فعليك أنْ تتحرك حركة نافعة للحياة ، ويستفيد منها الغير ، كى يكون لك مال تُنفِق منه ، وعلى حركتك أن تَسعكَ وتسَعَ غيرك .

وهناك مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله بأن يأخذ لنفسه ما يكفيها ، وينفق الباقى لوجه الله ؛ لأنه يضمن أن له إلهاً قادراً على أن يرزقه ، والمضمون عند الله أكثر ممَّا فى يده .

وها هو رسول الله ﷺ يسأل أبا بكر فيما ناله من غنائم ويقول له : ماذا صنعتَ بها يا أبا بكر ؟ فيقول أبو بكر الصديق رضى الله

---

(١) السداد : الصواب وموافقة الحق والعدل . قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ⑳ ﴾ [الأحزاب] أى : موافقاً للعدل والحق والشرع لا خطأ فيه . [القاموس القويم : ٣٠٧/١] .

(٢) النصاب من المال : القَدْر الذى تجب فيه الزكاة إذا بلَغه . [لسان العرب ـ مادة : نصب] . ويُقدَّر هذا النصاب بما يساوى قيمة ٨٥ جراماً من الذهب بسعر اليوم الذى تُخرج فيه الزكاة ، إذا مرَّ عليه عام.

عنه وأرضاه : تصدَّقْتُ بها كلها . فيقول الرسول : وماذا أبقيت ؟ يقول أبو بكر : أبقيت الله ورسوله[(١)] .

وسأل رسول الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه : وماذا فعلتَ يا عمر ؟ فيقول ابن الخطاب : تصدقْتُ بنصفها ولله عندى نصفها . وكأنه يقول للرسول : « إن كان هناك مصرف تريدنى أن أصرف فيه النصف الباقى لله عندى ؛ فلسوف أفعل » .

وهكذا رأينا مَنْ يصرف ممَّا رزقه الله ؛ بكل ما رزقه سبحانه ، وهو أبو بكر الصديق ؛ ونجد مَنْ ينفق ممَّا رزقه الله ومستعد لأن ينفق الباقى إنْ رأى رسولُ الله مصرفاً يتطلب الإنفاق .

ونجد من توجيهات الإسلام أن مَنْ يرعى يتيماً ؛ فليستعفف فلا يأخذ شيئاً من مال اليتيم إنْ كان الولىُّ على اليتيم له مال ؛ وإن كان الولى فقيراً فليأكل بالمعروف[(٢)] .

ولقائل أنْ يسأل : ولماذا نأتى بالفقير لتكون له ولاية على مال اليتيم؟

وأقول : كى لا يحرم المجتمع من خبرة قادرة على الرعاية ؛ فيأتى بالفقير صاحب الخبرة ؛ وليأكل بالمعروف .

---

(١) ذكر القصة الكاندهلوى فى حياة الصحابة (١٣٧/٢) وعزاها لأبى داود والترمذى والدارمى والحاكم أن عمر رضى الله عنه قال : « أمرنا رسول الله ﷺ يوماً أن نتصدق ووافق ذلك مالاً عندى فقلت : اليوم أسبق أبا بكر إنْ سبقته يوماً ، فجئت بنصف مالى فقال ﷺ : ما أبقيت لأهلك ؟ قلت : مثله . وأتى أبو بكر بكل ما عنده . فقال : يا أبا بكر ، ما أبقيت لأهلك ؟ قال : أبقيت لهم الله ورسوله . قلت : لا أسبقه إلى شىء أبداً » .

(٢) يقول تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾ ﴾ [النساء] .

ونلحظ أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا .. ⑤ ﴾ [النساء]

ولم يَقُلْ « وارزقوهم منها » أى : خُذوا الرزق من المَطْمور فيما يملكون بالحركة فى هذا المال .

وهكذا نفهم كيف يُنفق لإنسان المؤمن ممَّا رزقه الله ؛ فهناك مَنْ ينفق كل ما عنده ؛ لأنه واثق من رصيده عند ربه ، وهناك مَنْ ينفق البعض مما رزقه الله ؛ وقد تأخذه الأريحية والكرم فيعطى كل مَنْ يسأله ، وقد ينفق كل ما عنده ؛ مثل مَنْ يجلس فى جُرْن القمح ويريد أن يُزكِّى يوم الحصاد ؛ فيعطى كل مَنْ يسأله ؛ إلى أن يفرغ ما عنده .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ⑭١ ﴾

[الأنعام]

وهنا نجد الحق سبحانه يصف هؤلاء المُنْفقين فى سبيله :

﴿ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ②② ﴾ [الرعد]

والسر هو الصَّدقة المندوبة ، أما الإنفاق فى العلانية ؛ فهى الصَّدقة الواضحة ؛ لأن الناس قد تراك غنياً أو يُشَاع عنك ذلك ، ولا يرونك وأنت تُخرِج الزكاة ، فتنالك ألسنتهم بالسوء ؛ وحين يَرَوْنَكَ وأنت تنفق وتتصدَّق ؛ فهم يعرفون أنك تؤدى حقَّ الله ، وتشجعهم أنت بأن يُنفقوا مما رزقهم الله .

وصدقة السِّر وصدقة العلَن أمرها متروك لتقدير الإنسان ؛ فهناك مَنْ يعطى الصدقة للدولة لتتصرف فيها هى ؛ ويعطى من بعد ذلك للفقراء سراً ؛ وهذا إنفاق فى العلَن وفى السر ؛ وجاء الحق بالسر والعلانية ؛ لأنه لا يريد أنْ يحجب الخير عن أىِّ أحد بأى سبب .

وقد يقول قائل : إن فلاناً يُخرِج الصدقة رياءً .

وأقول لِمَنْ يتفوَّه بمثل هذا القول : أَلَمْ يَسْتفِد الفقير من الصدقة ؟ إنه يستفيد ، ولا أحدَ يدخل فى النوايا .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والدَّرْء : هو الدَّفْع بشدة ؛ أى : يدفعون بالحسنة السيئة بشدة . وأول حسنة إيمانية هى أنْ تؤمن بالله ؛ وبذلك تدفع سيئة الشرك ، أو دفعتَ السيئة . أى : دفعتَ الذنب الذى ارتكبته وذلك بالتوبة عنه ؛ لأن التوبة حسنة ، وحين ترى مُنْكراً ، وهو سيئة ، فأنت تدفعه بحسنة النُّصْح .

أو : أن يكون معنى :

﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

هو إنْ فعلتَ سيئة فأنت تتبعها بحسنة ، والكمال المطلق لله وحده ولرسوله ؛ لنفترض أن واحداً لديه سيئة مُلِحّة فى ناحية من النواحى ؛ فالحقُّ سبحانه يأمره أن يدفع السيئة بأن يفعل بجانبها حسنة .

يقول سبحانه :

﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .. (١١٤)﴾ [هود]

وها هو رسول الله ﷺ يقول لمعاذ[1] رضى الله عنه :

« اتق الله أينما تكون ، وأتبع السيئة حسنة تَمْحُها ، وخالق الناس بخلق حسن »[2] .

ولذلك ، فأنت تجد أغلب أعمال الخير فى المجتمع لا تصدر من أىِّ رجل رقيق لا يرتكب السيئات ؛ فلا سيئةَ تطارده كى يفعل الحسنة التى يرجو أنْ تمحو السيئة .

فالسيئة ساعةَ تُلهِب ضمير مَن ارتكبها ؛ ولا يستطيع أن يدفعها ؛ لأنه ارتكبها ؛ فهو يقول لنفسه « فَلأبنِ مدرسة » أو « أبنى مسجداً » أو « أقيم مستشفى » أو « أتصدق على الفقراء » .

وهكذا نجد أن أغلب حركات الإحسان قد تكون من أصحاب السيئات ، فلا أحدَ بقادر على أنْ يأخذ شيئاً من وراء الله ؛ فمَنْ يرتكب سيئة لابُدَّ أنْ تُلِحّ عليه بأحاسيس الذَّنْب ؛ لتجده مدفوعاً من بعد ذلك إلى فعل الحسنات ؛ لعلَّ الحسنات تُعوِّض السيئات .

ومن دَرْء الحسنة بالسيئة أيضاً ؛ أنه إذا أساء إليك إنسان فأنت

---

(١) هو : معاذ بن جبل الأنصارى الإمام المقدم فى علم الحلال والحرام ، كان من أجمل الرجال وشهد المشاهد كلها ، أرسله رسول الله ﷺ إلى أهل اليمن معلماً ومُفقِّهاً ، توفى فى طاعون الشام عام ١٧ هـ وكان عمره ٣٤ عاماً . [الإصابة ٦/١٠٦] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٢٨ ، ٢٣٦) وأبو نعيم فى حلية الأولياء (٤/٣٧٦) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

تَكْظِم غيظك وتعفو ؛ وبذلك فأنت تحسن إليه .

وتجد الحق سبحانه يقول :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت]

وإذا أنت جرَّبْتَها فى حياتك ؛ وأخلصْتَ المودة لمن دخل فى العداوة معك ؛ ستجد أنه يستجيب لتلك المودة ويصبح صديقاً حميماً لك .

ولكن هناك مَنْ يقول : جرَّبْتُ ذلك ولم تنفع تلك المسألة .

وأقول لمن يقول ذلك : لقد ظننتَ أنك قد دفعتَ بالتى هى أحسن ، لكنك فى واقع الحال كنت تتربص بما يحدث منك تجاه مَنْ دخلتَ معه فى عداوة ، ولم تُخلص فى الدفع بالتى هى أحسن ، وأخذت تُجرِّب اختبار قول الله ؛ فذهبتْ منك طاقة الإخلاص فيما تفعل ؛ وظل الآخر العدو على عداوته .

لكنك لو دفعتَ بالتى هى أحسن ستجد أن الآية القرآنية فيها كل الصِّدْق ؛ لأن الله لا يقول قضية قرآنية ثم تأتى ظاهرة كونية تُكذِّب القرآن .

ولذلك يقول الشاعر :

يَا مَنْ تُضايِقه الفِعَالُ مِنَ التى ومِنَ الذى
دفع فِدْيتك بالتى حتَّى نَرى فإذَا الذِى

أى : يا مَنْ تضايقه أفعال الذى بينك وبينه عداوة ؛ عليك أن

تُحسِن الدَّفْع بالتى هى أحسن ، حتى ترى أن العداوة التى كانت بينك وبينَ ما ذكره الحق سبحانه فى قوله :

﴿ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) ﴾ [الرعد]

أى : أن المتقدمين أولى الألباب الذين اجتمعت لهم تلك الصفات التسعة ؛ بدايةً من أنهم يُوفُون بعهد الله ؛ ولا ينقضون الميثاق ؛ ويَصِلون ما أمر الله أنْ يُوصَل ويخشوْن ربهم ؛ ويخافون سُوء الحسَاب ؛ وصبروا ابتغاء وجه ربهم ؛ وأقاموا الصلاة ؛ وأنفقوا مما رزقهم الله سراً وعلانية ؛ ويَدْرءون بالحسنة السيئةَ ، هؤلاء هم الذين لهم عُقْبى الدار .

وعُقْبى مأخوذة من العقب ؛ فالقدم له مقدم وله عَقب ، وعقب هو ما يعقب الشىء ، ونقول فى أفراحنا « والعاقبة عندكم فى المسرات » أى : أننا نتمنى أن تتحقق لكم مَسرَّة مثل التى عندنا ، وتكون عقب المَسرَّة التى فرحنا نحن بها .

وهكذا تكون العُقْبى هى الشىء الذى يَعْقُب غيره ، والذى يعقب الدار الدنيا هى الدار الآخرة .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الآية التالية مُوضِّحاً العاقبة لهؤلاء :

﴿ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ (٢٣) ﴾

إذن : فالدار الآخـرة التى تعقب الدنيا بالنسبـة لأُولِى الألباب هى جنات عَدْن . و « العَدْن » هو الإقامة الدائمة ؛ وجنات عدن هى جنات الإقامة الدائمة ، لأن الدنيا ليست دار إقامة .

وكل نعـيم فى الدنيـا إمـا أن تفـوته بالمـوت أو يفوتك بأغـيـار الحياة . أما جنات عَدْن فهى دار إقـامة دائمة ؛ بما أن « عدن » تعنى مرافقة دائمة للجنات .

والجنات معناها كـما نفهم هى البساتين التى فـيها أشجار وفـيها ثمار ؛ وكل مـا تشتـهى الأنفس ، مع ملاحظة أن هذه الجنَّـات ليست هى المساكن ؛ بل فى تلك الجنات مسكن بدليل قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ..(٧٢) ﴾ [التوبة]

فالجنات هى الحـدائق ؛ وفيها مـساكن ، ونحن فى حيـاتنا الدنيا نجد الـفيلات فى وسط الحـدائق ، فمـا بالنا بما يَعِـد به الله من طيب المساكن وسط الجنات ؟

لا بد أن ينطـبق عليــه وصف الرســول ﷺ لـلجنة فى الحــديث القدسى عن رب العزة سبحانه :

« أعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن ســمعتْ ، ولا خَطر على قلب بشر »[1] .

وهكذا بيَّن الله سبحانه عقبى الدار ؛ فهى :

﴿ جَنَّاتُ عَــــدْنٍ يَدْخُلُونَهَــــا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِـــهِمْ

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٢/٤٦٦) وأبو نعيم فى الحلية (٢/٢٦٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

وَذُرِّيَّاتِهِمْ .. (٢٣) ﴾ [الرعد]

وآباء جمع « أب » أى : يدخلها مع أولى الألباب مَنْ كان صالحاً من الآباء مُتبعاً لمنهج الله .

وإنْ سأل سائل : وأين الأمهات ؟

أقول : نحن ساعة نثني المتماثلين نُغلِّب الذَّكر دائماً ، ولذلك فآباؤهم تعنى الأب والأم ، ألَمْ يقُلِ الحق سبحانه فى سورة يوسف :

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ .. (١٠٠) ﴾ [يوسف]

وهؤلاء هم الذين يدخلون الجنة من أُولى الألْباب الذين استوفَوْا الشروط التسعة التي تحدَّثنا عنها ؛ فهل استوفى الآباء والأزواج والأبناء الشروط التسعة ؟

ونقول : إن الحقَّ سبحانه وتعالى يعامل خَلْقه فى الدنيا بمقتضى العواطف الموجودة فى الذُّرية ؛ فالواحد منّا يُحب أولاده وأزواجه وآباءه ؛ وما دام يحبهم وقد صلحوا كُلٌّ حَسْبَ طاقته ؛ فالحق سبحانه يُلحقهم به .

ولذلك تأتى آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم[1] مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ[2] (٢١) ﴾ [الطور]

---

(١) لاته يليته حقَّه لَيْتاً : نقصه ولم يُؤدِّه كاملاً . قال تعالى : ﴿ لا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا .. (١٤) ﴾ [الحجرات] أى : لا ينقصكم شيئاً من ثوابها . [القاموس القويم ٢/٢٠٩] .

(٢) أى : مرهون عند الله حتى يُحاسَب على ما كسبه . [القاموس القويم ١/٢٧٨] .

وهنا يمسك القرآن القضية العقلية فى الإلحاق بمعنى أنْ تُلحِق ناقصاً بكامل ، فلو كان مُساوياً له فى العمل ما سُمِّى إلحاقاً ، فكل إنسان يأخذ حَقَّه ؛ وقد اشترط الحق سبحانه شرطاً واحداً فى إلحاق الذرية بالآباء ، أو إلحاق الآباء بالذرية فى الجنة ، وهو الإيمان فقط .

وأوضح لنا هنا أن الآباء قد تميَّزوا بعمل إيمانى بدليل قوله تعالى:

﴿ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ ..(٢١) ﴾ [الطور]

فلم يأخذ سبحانه عمل الأب الذى عمل ؛ والابن الذى لم يعمل ، ومزج الاثنين ، ليأخذ المتوسط ، لا ، وذلك كى لا يظلم مَنْ عمل من الآباء أو الأبناء .

ثم إن ذلك لو حدث ؛ لما اعتُبِر تواجدُ الآباء مع الأبناء فى الجنة إلحاقاً ؛ لأن الإلحاق يقتضى أن يبقى حَقُّ كل مَنْ عمل ؛ ثم يتكرم سبحانه من بعد ذلك بعملية الإلحاق ؛ بشرط واحد هو أن يكون الشخص المُلْحق مؤمناً .

وهكذا نفهم قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ ..(٢١) ﴾ [الطور]

أى : أن الذرية مؤمنة ؛ والأزواج مؤمنون ؛ والأهل مؤمنون ؛ والأبوين مؤمنان ، ولكن الذى يلحق به هو مَنْ يُكرمه الله بهذا الإلحاق ؛ كى يُدخل الفرح على قَلْب المؤمن حين يرى أولاده معه فى الجنة ما داموا مؤمنين ؛ وهذه قمة فى العدالة ، لماذا ؟

والمَثل الذى أضربه على ذلك : هَبْ أن أباً قد حرص على أنْ يطعَم أهلُه من حلال ؛ فقد يعيش أولاده فى ضيق وشَظَف ؛ بينما

نجد أبناء المنحرف يعيشون فى بُحْبُوحَةٍ[١] من العيش ؛ وهكذا يتنعَّم أبناء المنحرف الذى يأكل ويطعم أولاده من حرام ؛ بينما يعانى أبناء الأمين الذى قد يعتبره البعض مُتزمتاً ؛ لأنه يَرْعى حق الله ، ويرفض أكل الحرام .

وما دام أولاده الذين يأكلون من حلال قد يُعانون معه من عدم التنعُّم ؛ فالحق سبحانه يلحقهم فى الجنة بنعيم يعيشه الأب ؛ لا يفوتهم فيه شىء ؛ ولا يفوته شىء .

وبذلك تسعد الذرية ؛ لأنها جاءت من صُلْب رجل مؤمن قضى حياته على جَادة الصواب ؛ رغم أن بعض الناس قد اتهمتْه فى الدنيا بأنه مُتزمِّت[٢] .

ولقائل أنْ يقول : ألاَ يوجد تناقض بين هذا الإلحاق وبين قول الحق سبحانه :

﴿ لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً.. (٣٣) ﴾

[لقمان]

وأقول : لا يوجد تناقض ؛ لأننا نصلى على الميت صلاة شرَّعها المُشرِّع ؛ وفائدتها أنْ تصل الرحمة للميت المؤمن ؛ والإيمان من عمله .

ولذلك يضيف له الحقُّ سبحانه فوق رصيد الإيمان ما يشاؤه هو سبحانه من الرحمة بصلاة الجنازة التى أقامها المسلمون عليه :

---

(١) بحبوحة كل شىء : وسطه وخياره . وقال الفراء : البحبحيُّ الواسع فى النفقة ، الواسع فى المنزل . وتبحبح فى المجد أى أنه فى مجد واسع . [لسان العرب ـ مادة : بحح] .

(٢) الزَّميت والزِّمِّيت : الحليم الساكن القليل الكلام . [لسان العرب ـ مادة : زمت] .

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) ﴾ [الرعد]

وكلمة « زوج » تعنى المرأة التى يتزوجها الرجل ؛ وتعنى الرجل الذى تتزوجه المرأة ، ونحن نخطىء خطأ شائعاً حين نقول « زوجة » ؛ بل الصحيح أن نقول « زوج » عن المرأة المنسوبة لرجل بعلاقة الزواج(١) .

وسبحانه يقول :

﴿ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ .. (٦) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نعلم أن جنات عَدْنٍ هى مكان ينتظم كل شىء ؛ ولهذا المكان أبواب متعددة ؛ هى أبواب الطاعات التى أدَّتْ إلى خير الجَزَاءات ؛ فباب الصلاة يدخله أُناس ؛ وباب الزكاة يدخله أُناس ؛ وباب الصبر يدخله أُناس ؛ وهكذا تتعدد الأبواب ؛ وهى إمَّا أبواب الطاعات أو أبواب الجزاءات التى تدخل منها الطيبات :

﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ .. (٢٥) ﴾ [البقرة]

فالبابُ يكون مفتوحاً ؛ تأتى منه الفاكهة والثَّمَرات والخيرات على اختلاف ألوانها ؛ فمرَّةً تأتى ثمار المانجو من باب ؛ وبعد ذلك تأتى ثمار التفاح .

---

(١) كلمة « زوج » للذكر والأنثى هى لغة الحجازيين . أما « زوجة » فهى لغة بنى تميم ، فيقولون : هى زوجته . وأبَى الأصمعى فقال : زوج لا غير . واحتج بقول الله تعالى : ﴿ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ (٣٥) ﴾ [البقرة] فقيل له : نعم ، كذلك قال الله ، فهل قال الله : لا يُقال زوجة ؟ وكانت من الأصمعى فى هذا شدة وعُسْر . [لسان العرب ـ مادة : زوج] .

وتلك الأبواب كما قلت هى إمّا للجزاءات ؛ أو هى أبواب الطاعات التى أدّت إلى الجزاءات ، وتدخل عليهم الملائكة من كُلِّ باب ؛ فماذا تقول الملائكة ؟

يقول الملائكة لأهل الجنة :

﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى[1] ٱلدَّارِ ٢٤﴾

والسلام يعنى الاطمئنان والرضا الذى لا تأتى بعده الأغيار ؛ لأن السلام فى الدنيا قد تُعكِّر أمْنه أغيارُ الحياة ؛ فأنتم أيها المؤمنون الذين دخلتم الجنة بريئون من الأغيار .

وقال ﷺ عن لحظات ما بعد الحساب :

« الجنة أبداً ، أو النار أبداً »[2] .

ولذلك يقول سبحانه عن خيرات الجنة :

﴿لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ ٣٣﴾ [الواقعة]

والملائكة كما نعلم نوعان :

الملائكة المهيمون الذين يشغلهم ذكر الله تعالى عن أىِّ شىء ولا يدرون بِنَا ؛ ولا يعلمون قصة الخَلْق ؛ وليس لهم شَأنٌ بكُلِّ ما يجرى ؛ فليس فى بالهم إلا الله وهم الملائكة العَالُون ؛ الذين جاء ذكرهم فى قصة السجود لآدم حين سأل الحق سبحانه الشيطان :

---

(١) العاقبة والعُقْبى : آخر كل شىء وخاتمته . قال تعالى : ﴿هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ٤٤﴾ [الكهف] . [القاموس القويم ٢/٢٨] .

(٢) أخرج الطبرانى فى الكبير والأوسط والحاكم (١/٨٣) وصححه عن معاذ بن جبل أن رسول الله ﷺ بعثه إلى اليمن فلما قدم عليهم قال : « أيها الناس إن رسول الله ﷺ إليكم يخبركم أن المرد إلى الله وإلى جنة أو نار ، خلود بلا موت ، وإقامة بلا ظعن ، فى أجساد لا تموت » .

﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [ص]

أى : أن العالين هنا هم مَنْ لم يشملهم أَمْرُ السجود ، وليس لهم علاقة بالخلق ، وكُلُّ مهمتهم ذكر الله فقط .

أما النوع الثانى فهم الملائكة المُدبِّرات أمراً ، ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قد استدعى آدم إلى الوجود هو وذريته ، وأعدَّ له كل شىء فى الوجود قبل أن يجىء ؛ الأرض مخلوقة والسماء مرفوعة ؛ والجبال الرَّواسى بما فيها من قُوتٍ ؛ والشمس والقمر والنجوم والمياه والسحاب .

والملائكة المُدبِّرات هم مَنْ لهم علاقة بالإنسان الخليفة ، وهم مَنْ قال لهم[1] الحق سبحانه :

﴿اسْجُدُوا لآدَمَ.. ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]

وهم الذين يتولَّوْن أمر الإنسان تنفيذاً لأوامر الحق سبحانه لهم ، ومنهم الحفظة الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..﴿١١﴾﴾ [الرعد]

أى : أن الأمر صادر من الله سبحانه ، وهم بَعْد أنْ يفرغوا من

---

(١) ذهب ابن كثير فى تفسيره (١/ ٧٥) إلى أن الملائكة المأمورين بالسجود هنا هم هؤلاء الذين أرسلهم مع إبليس لمحاربة من أفسد فى الأرض وسفك الدماء قبل خلق آدم ، فألحقوهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ، فاغتر إبليس فى نفسه ، فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه ، واستدل ابن كثير بحديث طويل لابن عباس أخرجه ابن جرير الطبرى فى تفسيره .

مـهمـتـهم كـحفظة من رقـيب وعـتـيد على كل إنســان ، ولن يوجـد مـا يكتبـونه من بعـد الحســاب وتقـرير الجـزاء ؛ هنا سيـدخل هؤلاء الملائكة على أهل الجـنة ليحملوا ألطاف الله والهـدايا ؛ فهم مَنُوط بهم الإنسان الخليفة .

وسبحانه حـين يُورِد كلمة فى القرآن بموقعهـا البيانى الإعرابى ؛ فهى تُؤدِّى المعـنى الذى أراده سبحانه . والمَثَل هـو كلمة «سـلام » ؛ فضيف إبراهيم من الملائكة :

﴿ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ..(٦٩) ﴾ [هـود]

وكان القـياس يقتـضـى أن يقول هو « سلامـاً » ، ولكنها قضـية إيمانية ، لذلك قال :

﴿ سَلامٌ..(٦٩) ﴾ [هـود]

فـالسلام هنا لم يَأْتِ منصـوباً ؛ بل جـاء مرفـوعاً ؛ لأن الســلام للملائكة أمرٌ ثـابت لهم ؛ وبذلك حَيَّاهم إبراهيم بتحـية هى أحسن من التحية التى حَيُّوه بها .

فنحن نُسلِّم ســلاماً ؛ وهو يعنى أن نتـمنى حدوث الفـعل ، ولكن إبراهيم عليه السـلام فَطِنَ إلى أن السلام أمرٌ ثابت لهم .

وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة ، فَهُمْ يقولون :

﴿ سَلامٌ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وهى مرفوعـة إعرابياً ؛ لأن السلام أمر ثابت مُسـتقِر فى الجنة ،

وهم قالوا ذلك ؛ لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك ؛ لا يتغير بتغيُّر الأغيار ؛ كما فى أمر الدنيا .

والسلام فى الجنة لهؤلاء بسبب صبرهم ، كما قال الحق سبحانه على ألسنة الملائكة :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

وجاء الصبر فى صيغة الماضى ، وهى صيغة صادقة ؛ فهم قد صبروا فى الدنيا ؛ وانتهى زمن الصبر بانتهاء التكليف .

وهم هنا فى دار جزاء ؛ ولذلك يأتى التعبير بالماضى فى موقعه ؛ لأنهم قد صبروا فى دار التكليف على مشقَّات التكليف ؛ صبروا على الإيذاء ؛ وعلى الأقدار التى أجراها الحقُّ سبحانه عليهم .

وهكذا يكون قول الحق سبحانه :

﴿ سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ..(٢٤) ﴾ [الرعد]

في موقعه تماماً .

وكذلك قوله الحق عمَّنْ توفّرت فيهم التسع صفات ، وهم في الدنيا :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ ..(٢٢) ﴾ [الرعد]

وجاء بالصبر هنا فى الزمن الماضى ؛ رغم أنهم ما زالوا فى دار التكليف ؛ والذى جعل هذا المعنى مُتَّسعاً هو مَجِىء كل ما أمر به الله بصيغة المضارع ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ ..(٢٠) ﴾ [الرعد]

وهذه مسألة تحتاج إلى تجديد دائم ؛ وقوله :

﴿ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ﴾ [الرعد]

وقوله :

﴿ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢١) ﴾ [الرعد]

و ﴿ وَيَخْشَوْنَ ﴾ ، ﴿ وَيَخَافُونَ ﴾ [الرعد]

هكذا نرى كل تلك الأفعال تأتى فى صيغة المضارع ، ثم تختلف الصيغة إلى الماضى فى قوله :

﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا .. (٢٢) ﴾ [الرعد]

والمتأمل لكل ذلك يعلم أن كل تلك الأمور تقتضى الصبر ؛ وكأن الصبر يسبق كل هذه الأشياء ، وهو القاسم المشترك فى كل عهد من العهود السابقة .

وقد عبَّر الحق سبحانه ـ لأجل هذه اللفْتة ـ بالماضى حين جاء حديث الملائكة لهم وهم فى الجنة .

وهكذا تقع كلمة الصبر فى موقعها ؛ لأن الملائكة تخاطبهم بهذا القول وهم فى دار البقاء ؛ ولأن المتكلم هو الله ؛ فهو يُوضِّح لنا جمال ما يعيش فيه هؤلاء المؤمنون فى الدار الآخرة .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

وعلمنا أن « عُقْبى » تعنى الأمر الذى يجىء فى العَقِب ، وحين يعرض سبحانه للقضية الإيمانية وصفات المؤمنين المعايشين للقيم الإيمانية ؛ فذلك بهدف أن تستشرفَ النفس أن تكون منهم ، ولا بُدّ أن تنفِرَ النفس من الجانب المقابل لهم .

والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [الانفطار]

ويأتى بمقابلها بعدها :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الانفطار]

وساعة تقارن بأنهم لو لم يكونوا أبراراً ؛ لكَانوا فى جحيم ؛ هنا نعرف قَدْر نعمة توجيه الحق لهم ، ليكونوا من أهل الإيمان .

وهكذا نجد أنفسنا أمام أمرين : سلب مَضرَّة ؛ وجَلْب منفعة ، ولذلك يقول الحق سبحانه أيضاً عن النار :

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا[1] كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ﴾ [مريم]

أى : كلنا سنرى النار .

ويقول سبحانه :

﴿ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ﴿٧﴾ ﴾ [التكاثر]

وذلك لكى يعرف كل مسلم ماذا صنعتْ به نعمة الإيمان ؛ قبل أن

---

(١) ورد يرد : حضر أو أشرف على المكان دخله أو لم يدخله . [القاموس القويم ٢/ ٣٣٠] .
قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم : « ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها ، وورود المشركين أن يدخلوها » [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٣/ ١٣٣] .

يدخل الجنة ، وبذلك يعلم أن الله سلب منه مَضَرَّة ؛ وأنعم عليه بمنفعة ، سلب منه ما يُشقِى ؛ وأعطاه ما يُفيد .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ .. (١٨٥) ﴾ [آل عمران]

وإذا كان الحق سبحانه قد وصف أُولى الألباب بالأوصاف المذكورة من قبل ؛ فهو يُبيِّن لنا أيضاً خيبة المقابلين لهم ؛ فيقول سبحانه :

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ (١) وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ (٢٥) ﴾

ولقائل أنْ يسأل : وهل آمن هؤلاء وكان بينهم وبين الله عهد ونَقَضوه ؟

ونقول : يصح أنهم قد آمنوا ثم كفروا ، أو : أن الكلام هنا ينصرف إلى عهد الله الأزلى.

يقول سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وهنا يوضح سبحانه أن مَنْ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه وتأكيده بالآيات الكونية التى تدل على وجود الخالق الواحد :

---

(١) اللعنة : سخطه وغضبه وطرده من رحمته . [القاموس القويم ٢/١٩٥] .

﴿ يَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ ..(٢٥) ﴾ [الرعد]

والمقابل لهم هم أُولو الألباب الذين كانوا يَصِلُون ما أمر سبحانه أن يُوصل ـ وهؤلاء الكفرة نقضة العهد :

﴿ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ .. (٢٥) ﴾ [الرعد]

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالمقابل لكُلِّ عمل أدَّاه أولو الألباب ؛ فلم يَقُل : « ولا يخشون ربهم » ؛ لأنهم لا يؤمنون بإله ؛ ولم يَقُلْ : « لا يخافون سوء الحساب » لأنهم لا يؤمنون بالبعث .

وهكذا يتضح لنا أن كل شيء في القرآن جاء بِقَدرٍ ، وفي تمام موقعه .

ونحن نعلم أن الإفساد في الأرض هو إخراجُ الصَّالح عن صلاحه ، فأنت قد أقبلتَ على الكون ، وهو مُعَدٌّ لاستقبالك بكل مُقوِّمات الحياة من مأكل ومَشْرب وتنفس ؛ وغير ذلك من الرزق ، واستبقاء النوع بأن أحلَّ لنا سبحانه أن نتزاوج ذكراً وأنثى .

والفساد في الكون أن تأتي إلى صالح في ذاته فتفسده ؛ ونقول دائماً : إن كنت لا تعرف كيف تزيد الصالح صلاحاً ؛ فاتركه على حاله ؛ واسمع قول الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ..(٣٦) ﴾ [الإسراء]

فلا تنظر في أيِّ أمر إلى الخير العاجل منه ؛ بل انظر إلى ما يؤول إليه الأمر من بعد ذلك ؛ أيضرٌّ أم ينفع ؟

(١) قفاه قفواً : تبعه ، وهو أن يتبع الشيء ، والمعنى : لا تتبع ما لا تعلم . [لسان العرب ـ مادة : قفا] .

لأن الضُرَّ الآجل قد يتلصص ويتسلل ببطء وأَنَاة ؛ فلا تستطيع له دَفْعاً من بعد ذلك .

ويقول الحق سبحانه فى آخر الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾ [الرعد]

ونلحظ أن التعبير هنا جاء باللام ممَّا يدل على أن اللعنة عشقتهم عِشْق المالك للملوك :

﴿ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾ [الرعد]

أى : عذابها ، وهى النار والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ[1] وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَـٰعٌ (٢٦) ﴾

والبَسْط هو مَدُّ الشيء .

وقد أقام العلماء معركة عند تحديد ما هو الرزق ، فهل الرزق هو ما أحلَّه الله فقط ؟ أم أن الرزق هو كل ما ينتفع به الإنسان سواء أكان حلالاً أم حراماً ؟

---

(١) قدر الله الرزق : جعله ضيقاً على قدر الحاجة لا يزيد ومنه قوله : ﴿ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ ..(١٦) ﴾ [الفجر] أى : ضيَّقه وجعله على قدر الحاجات الضرورية لا يزيد عليها . [القاموس القويم ١٠٢/٢] .

فـمن العلمـاء مَنْ قـال : إن الرزق هو الحـلال فـقط ؛ ومنهم من قال : إن الرزق هو كل ما يُنتفع به سواء أكان حلالاً أم حراماً ؛ لأنك إنْ قُلْتَ إن الرزق محصور فى الحـلال فقط ؛ إذن : فَمنْ كفر بالله من أين يأكل ؟

ألم يخاطب الحق سبحانه المكابرين قائلاً :

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ..(٣١) ﴾ [يونس]

وقال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) ﴾ [الذاريات]

ويقول تعالى :

﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ [الذاريات]

إذن : فـالرزق هو من الله ؛ ومن بعد ذلك يأمـر « افعل كـذا » و « لا تفعل كذا » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

أى : أنه سبحانه يمُد الرزق لِمَن يشاء :

﴿ وَيَقْدِرُ ..(٢٦) ﴾ [الرعد]

من القَـدْر . أى : فى حـالة إقداره علـى المُقَـدَّر عليـه ؛ وهو مَنْ يعطيـه سبحـانه على قَدْر احـتيـاجه ؛ لأن القَـدْر هو قَطْع شىء على

مساحة شيء ، كأنْ يعطي الفقير ويبسط له الرزق على قَدْر احتياجه.

والحق سبحانه أمرنا أنْ نُعطي الزكاة للفقير ؛ ويظل الفقير عائشاً على فقره ؛ لأنه يعيش على الكفاف .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق ؛ وساعة يحدث ذلك إياك أنْ تظن أنَّ التضييق على الفقير ليس لصالحه ، فقد يكون رزقه بالمال الوفير دافعاً للمعصية ؛ ومن العفَّة ألا يجد .

أو : يقدر بمعنى يُضيِّق على إطلاقها ، يقول سبحانه :

﴿ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ[1] وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾ ﴾ [الطلاق]

ولأن الله قد آتاه فهذا يعني أنه بَسَط له بقدره .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرعد]

وطبعاً سيفرح بها مَنْ كان رزقه واسعاً ؛ والمؤمن هو مَنْ ينظر إلى الرزق ويقول : هو زينة الحياة الدنيا ؛ ولكن ما عند الله خَيْر وأبقى .

أما أهل الكفر فقد قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[2] عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾[الزخرف]

---

(١) السعة في المال : الغنى والثراء والرخاء واتساع الأرزاق . [القاموس القويم ٢/٣٣٧] .

(٢) المقصود بالقريتين : مكة والطائف . قاله ابن عباس وعكرمة ومحمد بن كعب القرظي وقتادة والسدي وابن زيد . واختلفوا في المقصود بهذين الرجلين . قال ابن كثير في تفسيره (٤/١٢٧) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أي البلدتين كان » .

ويردُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ .. (٣٢)﴾ [الزخرف]

وساعةَ تبحث فى تحديد هذا البعض المبسوط له الرزق ؛ والبعض المُقدَّر عليه فى الرزق ؛ لن تجد ثباتاً فى هذا الأمر ؛ لأن الأغيار قد تأخذ من الغنىّ فتجعله فقيراً ؛ وقد تنتقل الثروة من الغنىّ إلى الفقير .

وسبحانه قد ضمن أسباباً عُلْيا فى الرزق ؛ لكل من المؤمن والكافر ؛ والطائع والعاصى ؛ وكلنا قد دخل الحياة ليأخذ بيده من عطاء الربوبية ؛ فإنْ قصَّر واحد ؛ فليس لهذا المَرْء من سبب سوى أنه لم يأخذ بأسباب الربوبية وينتفع بها .

وقد يأخذ بها الكافر وينتفع بها .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠)﴾ [الشورى]

إذن : فليس هناك تضييق إلا فى الحدود التى يشاؤها الله ، مثل أن يزرع الإنسان الأرضَ ، ويتعب فى الرىِّ والحَرْث ؛ ثم تأتى صاعقة أو برد مصحوب بصقيع فيأكل الزرع ويُميته .

وفى هذا لَفْتٌ للإنسان ؛ بأنه سبحانه قد أخذ هذا الإنسان من

رزقه ؛ وهو العطاء منه ؛ كى لا يُفْتَنَ الإنسان بالأسباب ، وقد يأتى رزقه من بعد ذلك من منطقة أخرى ، وبسبب آخر .

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. (٢٦) ﴾ [الرعد]

والفرح فى حَدِّ ذاته ليس ممنوعاً ولا مُحرّماً ، ولكن الممنوع هو فرح البطر كفرح قارون :

﴿ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ[1] عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ[2] بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ .. (٧٦) ﴾ [القصص]

والحق سبحانه قد قال :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) ﴾ [القصص]

وهذا هو فرح البطر الذى لا يحبه الله ؛ لأنه سبحانه قال فى موقع آخر :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨) ﴾ [يونس]

(١) البغى : الظلم والكبر ومجاوزة الحد . والباغى : المتجاوز الحد . [القاموس القويم ١/٧٧] .

(٢) ناء الرجل بالحمل ينوء : نهض به متثاقلاً فى جهد ومشقة أى : تثقل عليهم مفاتيح كنوز قارون وتجهدهم . [القاموس القويم ٢/٢٩٠] .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يأتى بفرحهم ؛ وبسبب هذا الفرح وهو الحياة الدنيا ؛ أى : أنه سبب تافه للفرح ، لأنها قد تُؤخذ منهم وقد يُؤخَذون منها ، ولكن الفرح بالآخرة مختلف ، وهو الفرح الحق .

لذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (٥٨)﴾ [يونس]

ويقيس الحق سبحانه أمامنا فرح الحياة الدنيا بالآخرة ، فيقول :

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦)﴾ [الرعد]

ومتاع الرجل هو ما يعده إعداداً يُنفقه فى سفر قصير ، كالحقيبة الصغيرة التى تضع فيها بعضاً من الملابس والأدوات التى تخصُّك لسفر قصير .

والعاقل هو مَنْ ينظر إلى أقصى ما يمكن أن يفعله الإنسان فى الحياة ؛ فقد يتعلم إلى أنْ يصل إلى أرْقى درجات العلم ؛ ويسعى فى الأرض ما وَسِعه السَّعْى ؛ ثم أخيراً يموت .

والمؤمن هو مَن يَصِل عمل دُنْياه بالآخرة ؛ ليصلَ إلى النعيم الحقيقى ، والمؤمن هو مَنْ يبذل الجهد ليصلَ نفسه برحمة الله ؛ لأنها باقية ببقاء الله ، ولأن المؤمن الحق يعلم أن كل غاية لها بَعْد ؛ لا تعتبر غاية .

ولذلك فالدنيا فى حَدِّ ذاتها لا تصلح غايةً للمؤمن ، ولكن الغاية الحَقَّة هى : إمَّا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ[1] مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ[2] (٢٧) ﴾

ونعلم أن « لولا » إذا دخلت على جملة اسمية فلها وَضْع يختلف عنه وَضْعها إذا دخلتْ على جملة فعلية ، فحين نقول : « لولا زيد عندك لَزُرْتُكَ » يعنى امتناع حدوث شيء لوجود شيء آخر . وحين نقول : لولا تُذاكِر دروسك . فهذا يعنى حضاً على الفعل .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْلا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُوْلَـٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) ﴾ [النور]

والجملة التى دخلت عليها « لولا » فى هذه الآية هى جملة فعلية ، وكأن الحق سبحانه يحضُّنا هنا على أن نلتفتَ إلى الآية الكبرى التى نزلت عليه ﷺ ، وهى القرآن .

وقد تساءل الكافرون ـ كَذِباً ـ عن مجىء آية ؛ وكان تساؤلهم بعد مجىء القرآن ، وهذا كذب واقع ؛ يناقضون به أنفسهم ؛ فقد قالوا :

---

(١) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . وتجمع آية على « آىْ » و « آيات » قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (١١٨) ﴾ [البقرة] أى : المعجزات والعلامات الدالة المرشدة إلى الحق . [القاموس القويم : ١/٤٧] .

(٢) أناب العبد إلى ربه : رجع إليه وتاب وترك الذنوب . قال تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) ﴾ [هود] إليه أتوب وأرجع . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

وهم بذلك قد اعترفوا أن القرآن بلغ حَدَّ الإعجاز وتمنَّوْا لو أنه نزل على واحد من عظماء القريتين ـ مكة أو الطائف .

وهم مَنْ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ(١) إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر]

ثم يعودون هنا لينكروا الاعتراف بالقرآن كمعجزة ، على الرغم من أنه قد جاء من جنس ما نبغوا فيه ، فهم يتذوقون الأدب ، ويتذوقون البيان ، ويتذوقون الفصاحة ؛ ويقيمون الأسواق ليعرضوا إنتاجهم فى البلاغة والقصائد ، فهم أمة تطرَبُ فيها الأذن لما ينطقه اللسان .

ولكنهم هنا يطلبون آية كونية كالتى نزلت على الرسل السابقين عليهم السلام ، ونَسُوا أن الآية الكونية عمرها مَقْصور على وقت حدوثها ؛ ومَنْ رآها هو مَنْ يصدقها ، أو يصدقها مَنْ يُخبره بها مصدر موثوق به .

ولكن رسول الله ﷺ هو المبعوث لتنظيم حركة الحياة فى دنيا الناس إلى أنْ تقوم الساعة ؛ ولو أنه قد جاء بآية كونية ؛ لأخذتْ زمانها فقط .

ولذلك شاء الحق سبحانه أنْ يأتى بآية معجزة باقية إلى أنْ تقومَ الساعةُ ، فضلاً عن أنه ﷺ قد جاءتْ له معجزات حسِّية ؛ كتفجُّر

---

(١) الذِّكْر : الكتاب الذى فيه تفصيل الدين ، وكل كتاب من كتب الأنبياء عليهم السلام ذِكْر . [لسان العرب ـ مادة : ذكر] .

الماء من بين أصابعه[١] ؛ وحفنة الطعام التى أشبعتْ جيشاً ؛ وأظلَّتْه السحابة ؛ وحَنَّ[٢] جِذْع الشجرة حنيناً إليه ليقف من فوقه خطيباً ؛ وجاءه الضَّبُّ مسلماً[٣] .

كل تلك آيات كونية هى حُجَّة على مَنْ رآها ، وكذلك معجزات الرُّسل السابقين ، ولولا أنْ رواها لنا القرآن لَمَا آمنَّا بها ، وكانت الآيات الكونية التى جاءت مع الرسل هى مجرد إثبات لِمَنْ عاشوا فى أزمان الرسل السابقين على أن هؤلاء الرسل مُبلِّغون عن الله .

وقد شرح الحق سبحانه هذا الأمر بالنسبة لرسول الله ﷺ حين قال :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الإسراء]

---

(١) أخرجه البيهقى فى « دلائل النبوة » (٤/١١٦) من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه ، أن هذا كان يوم الحديبية ، أن الناس قالوا لرسول الله ﷺ : «ليس عندنا ماء نشرب ، ولا ماء نتوضأ ، إلا ما بين يديك . فوضع رسول الله ﷺ يده فى الركوة ، فجعل الماء يثور بين أصابعه مثل العيون » .

(٢) حَنَّ الجذع إليه : نزع واشتاق . وأصل الحنين ترجيع الناقة صوتها إثر ولدها . [لسان العرب ـ مادة : حنن] .

(٣) أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٦/٣٦) من حديث عمر بن الخطاب أن أعرابياً قال لرسول الله ﷺ : «واللات والعزى لا آمنت بك أو يؤمن بك هذا الضب ، وأخرج ضباً من كمه وطرحه بين يدى رسول الله ﷺ ، فقال ﷺ : « يا ضب ، فأجابه الضب بلسان عربى مبين يسمعه القوم جميعاً : لبيك وسعديك يا زين من وافى القيامة. قال : من تعبد يا ضب ؟ قال : الذى فى السماء عرشه ، وفى الأرض سلطانه ، وفى البحر سبيله ، وفى الجنة رحمته ، وفى النار عقابه . قال : فمن أنا يا ضب ؟ قال : رسول رب العالمين ، وخاتم النبيين ، وقد أفلح من صدقك ، وقد خاب من كذبك » .

أى : أن الرسل السابقين الذين نزلوا فى أقوامهم وصحبتْهم الآياتُ الكونية قابلوا أيضاً المُكذِّبين بتلك الآيات ، وقوم رسول الله ﷺ قالوا أيضاً :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً ﴿٩٢﴾ ﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً[2] مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ﴿١١١﴾ ﴾ [الأنعام]

وهكذا يُبيِّن لنا الحق سبحانه أنهم غارقون فى العِنَاد ولن يؤمنوا ، وأن أقوالهم تلك هى مجرد حُجَج يتلكئون بها .

وهم هنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقولون :

﴿ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرعد]

وهكذا نجد أنهم يعترفون أن له ربّاً ؛ على الرغم من أنهم قد اتهموه من قبل أنه ساحر ، وأنه ـ والعياذ بالله ـ كاذب ، وحين فَتَر[3]

---

(١) الكسفة : القطعة . وجمعها : كِسْف وكِسَف . وكسف الثوب : قطعه قطعاً . [القاموس القويم ٢/١٦١] .

(٢) القبل : المعاينة والمقابلة والمواجهة . وقيل : جمع قبيل ، أى : أصنافاً وأنواعاً . [القاموس القويم ٢/٩٨] .

(٣) فَتَر الشىءُ : سكن بعد حدّة ، ولان بعد شدة . والفترة : الانكسار والضعف . والفترة : ما بين كل نبيين من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

عنه الوحى قالوا : « إن ربَّ محمد قد قَلاَه »[1] .

وأنزل الحق سبحانه الوحى :

﴿ مَا ودَّعَكَ ربُّكَ ومَا قَلَىٰ ③ ولَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ ④ ولَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ⑤ ﴾ [الضحى]

أى : أن الوَحْى سوف يستمر ، وهكذا فضح الله كَذِبهم على مَرِّ سنوات الرسالة المحمدية .

وهم هنا يتعنتون فى طَلَبِ الآية الحسِّية الكونية ؛ وكلمة آية كما عرفنا من قبل هى : إما آية كونية تُلفت إلى وجود الخالق .

أو : آية من القرآن فيها تفصيلٌ للأحكام ؛ وليستْ تلك هى الآية التى كانوا يطلبونها .

أو : آية معجزة تدلُّ على صِدْق الرسالة .

وكأنَّ طلبَ الآيات إنما جاء لأنهم لم يقتنعوا بآية القرآن ؛ وهذا دليل غبائهم فى استقبال أدلَّة اليقين بصدق الرسول ﷺ ؛ لأن القرآن جاء معجزةً ، وجاء منهجاً .

والمعجزة ـ كما أوضحنا ـ إنما تأتى من جنس ما نبغ فيه القوم ، ولا يأتى سبحانه بمعجزة لقوم لم يُحْسِنوا شيئاً مثلها ، ولم ينبغُوا فيه .

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) أن جندباً بن عبد الله قال : « أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَالضُّحَىٰ ① وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ② مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى] » .

فالـذين كانوا يمـارسون السِّـحْرُ[١] جاءتْ المـعجـزة مع الرسول المرْسَل إليهم من نفس النوع ، والذين كانوا يعرفون الطبَّ ، جاء لهم رسول[٢] ، ومعه معجزة ممَّا نبغُوا فيه .

وقد جاءت معجزة رسول الله ﷺ من جنس ما نبغُوا فيه ؛ فضلاً عن أن القرآن معـجزة ومنهج فى آنٍ واحد ، بخلاف معجـزة التوقيت والتقيد فى زمن .

ومع ذلك ، فإن كـفار مكة تعنتُـوا ، ولم يكتفُوا بـالقرآن معـجزةً وآيات تدلُّهم إلى سواء السبيل ؛ بل اقترحوا هم الآية حسب أهوائهم ؛ ولذلكَ نجدهم قد ضلُّوا .

ونجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ﴾ [الرعد]

وهنا نقف وَقْـفـة ؛ لأن البـعض يحـاول أن يُسـقط عن الإنسـان مـسـئـوليـة التكليف ؛ ويـدَّعى أن الله هو الذى يمنـع هداية هؤلاء الكافرين . ونقول : إننا إن استقـرأنا آياتِ القرآن ؛ سنجد قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصـود بهم سحرة فرعـون ، وقد قصَّ علينا الحق سبـحانه قصة موسى علـيه السلام ومواجهته لسحرة فرعون ، إذ : ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ (٤٨)﴾ [الشعراء] .

(٢) هو عيسى بن مريم عليه السلام ، قال تعالى له : ﴿ وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني ... (١١٠)﴾ [المائدة] .

ونجد قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) ﴾ [المائدة]

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) ﴾ [المائدة]

ومن كل ذلك نفهم أن العمل السابق منهم هو الذي يجعله سبحانه لا يهديهم ، لأن الإنسان ما دام قد جاء له حُكْم أعلى ، ويؤمن بمصدر الحكم ؛ فمن أنزل هذا الحكم يُعطي للإنسان معونة ، لكن مَنْ يُكذِّب بمصدر الحُكْم الأعلى فسبحانه يتركه بلا معونة .

أما مَنْ يرجع إلى الله ؛ فسبحانه يهديه ويدلُّه ويعينه بكل المَدَد .

ويواصل الحق ما يمنحه سبحانه من اطمئنان لمن يُنيب إليه ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ (٢٨) ﴾

ومعنى الاطمئنان سكونُ القلب واستقراره وأُنْسُه إلى عقيدة لا تطفو إلى العقل ليناقشها من جديد .

ونعلم أن الإنسانَ له حواسٌ إدراكية يستقبل بها المُحسَّات ؛ وله عقل يأخذ هذه الأشياء ويهضمها ؛ بعد إدراكها ؛ ويفحصها جيداً ، ويتلمس مدى صِدْقها أو كَذِبها ؛ ويستخرج من كل ذلك قضية

واضحة يُبقيها فى قلبه لتصبح عقيدة ، لأنها وصلت إلى مرحلة الوجدان المحب لاختيار المحبوب .

وهكذا تمرُّ العقيدة بعدة مراحلَ ؛ فهى أولاً إدراك حِسِّى ؛ ثم مرحلة التفكّر العقلى ؛ ثم مرحلة الاستجلاء للحقيقة ؛ ثم الاستقرار فى القلب لتصبح عقيدة .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

فاطمئنان القلب هو النتيجة للإيمان بالعقيدة ؛ وقد يمرُّ على القلب بعضٌ من الأغيار التى تزلزل الإيمان ، ونقول لمن تمرُّ به تلك الهواجس من الأغيار : أنت لم تُعْطِ الربوبية حقَّها ؛ لأنك أنت الملُوم فى أىِّ شىء يَنَالُكَ .

فلو أحسنتَ استقبال القدر فيما يمرُّ بك من أحداث ، لَعلمْتَ تقصيرك فيما لك فيه دَخْل بأىِّ حادث وقع عليك نتيجة لعملك ، أما مَا وقع عليك ولا دَخْل لك فيه ؛ فهذا من أمر القَدَر الذى أراده الحقُّ لك لحكمة قد لا تعلمها ، وهى خَيْرٌ لك .

إذن : استقبال القدر إن كان من خارج النفس فهو لك ، وإن كان من داخل النفس فهو عليك .

ولو قُمْتَ بإحصاء ما ينفعك من وقوع القدر عليك لَوجدتَّه أكثرَ بكثير مما سلَبه منك . والمَثَل هو الشاب الذى استذكر دروسه واستعدَّ للامتحان ؛ لكن مرضاً داهمه قبل الامتحان ومنعه من أدائه .

هذا الشاب فعلَ ما عليه ؛ وشاءَ الله أن ينزل عليه هذا القدر لحكمة ما ؛ كأنْ يمنع عنه حسَد جيرانه ؛ أو حسدَ مَنْ يكرهون أمه أو أباه ، أو يحميه من الغرور والفتنة فى أنه مُعتمد على الأسباب لا على المُسبِّب . أو تأخير مرادك أمام مطلوب الله يكون خيراً .

وهكذا فَعلى الإنسان المؤمن أن يكون موصولاً بالمُسبِّب الأعلى ، وأنْ يتوكل عليه سبحانه وحده ، وأنْ يعلم أن التوكل على الله يعنى أن تعمل الجوارح ، وأنْ تتوكَّل القلوب ؛ لأن التوكل عملٌ قلبى ، وليس عملَ القوالب .

ولينتبه كُلٌّ منّا إلى أن الله قد يُغيب الأسباب كى لا نغتر بها ، وبذلك يعتدل إيمانك به ؛ ويعتدل إيمان غيرك .

وقد ترى شاباً ذكياً قادراً على الاستيعاب ، لكنه لا ينال المجموع المناسب للكلية التى كان يرغبها ؛ فيسجد لله شكراً ؛ مُتقبِّلاً قضاء الله وقَدَره ؛ فَيُوفِّقه الله إلى كلية أخرى وينبغ فيها ؛ ليكون أحدَ البارزين فى المجال الجديد .

لهذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾ [البقرة]

وهكذا نجد أن مَنْ يقبل قَدر الله فيه ، ويذكر أن له رباً فوق كل الأسباب ؛ فالاطمئنان يغمرُ قلبه أمام أىِّ حدَث مهْمَا كان .

وهكذا يطمئن القلب بذكر الله ؛ وتهون كُلّ الأسباب ؛ لأن الأسباب إنْ عجزتْ ؛ فلن يعجز المُسبِّب .

وقد جاء الحق سبحانه بهذه الآية فى مَعْرِض حديثه عن التشكيك

الذى يُثيره الكافرون ، وحين يسمع المسلمون هذا التشكيك ؛ فقد توجد بعض الخواطر والتساؤلات : لماذا لم يَأْتِ لنا رسول الله ﷺ بمعجزة حسِّية مثل الرُّسُل السابقين لتنفضّ هذه المشكلة ، وينتهى هذا العناد ؟

ولكن تلك الخواطر لا تنزع من المؤمنين إيمانهم ؛ ولذلك يُنزِل الحق سبحانه قوله الذى يُطمئن :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ .. (٢٨) ﴾ [الرعد]

والذِّكْر فى اللغة جاء لِمَعَانٍ شتّى ؛ فمرّةً يُطلق الذِّكر ، ويُرَاد به الكتاب أى : القرآن :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

ويأتى الذكر مرّة ، ويُرَاد به الصِّيت والشهرة والنباهة ، يقول تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شَرَفٌ عظيم لك فى التاريخ ، وكذلك لقومك أنْ تأتى المعجزة القرآنية من جنس لغتهم التى يتكلمون بها .

وقد يُطلَق الذكر على الاعتبار ؛ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا[1] (١٨) ﴾ [الفرقان]

---

(١) البوار : الهلاك . والبائر : الهالك . قال الجوهرى : البور الرجل الفاسد الهالك الذى لا خير فيه . ودار البوار : دار الهلاك . [لسان العرب ـ مادة : بور] .

أى : نسوا العبَر التى وقعتْ للأمم التى عاشتْ من قبلهم ؛ فنصرَ الله الدينَ رغم عنادَ هؤلاء .

وقد يُطلق الذِّكْر على كُلٍّ مـا يبعثه الحق سبـحانه على لسان أىٍّ رسـول :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣) ﴾ [النحل]

وقد يُطلَق الذِّكْر على العطاء الخيِّر من الله .

ويُطْلَق الذِّكْر على تذكُّر الله دائماً ؛ وهو سبحانه القائل :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

أى : اذكرونى بالطاعة أذكرْكُم بالخير والتجليّات ، فإذا كان الذِّكْر بهـذه المعانـى ؛ فنحن نجد الاطمـئنان فى أىٍّ منها ، فـالذكر بمـعنى القرآن يُورثِ الاطمئنان .

يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) ﴾ [الأحزاب]

فكُلُّ آية تأتى من القـرآن كـانت تُطمـئنُ الرسول ﷺ أنه صـادقُ البلاغِ عن الله ؛ فقـد كان المسلمون قلة مُـضطهدة ، ولا يقدرون على حمايةِ أنفسهم ، ولا على حماية ذَوِيهم .

ويقول الحق سبحانه فى هذا الظرف :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

ويتساءل عمر[١] رضى الله عنه : أىُّ جمع هذا ، ونحن لا نستطيع الدفاع عن أنفسنا ؛ وقد هاجر بعضنا إلى الحبشة خوفاً من الاضطهاد ؟

ولكن رسول الله ﷺ يسير إلى بدر ، ويُحدِّد أماكن مصارع كبار رموز الكفر من صناديد قريش ؛ ويقول : « هذا مصرع فلان ، وهذا مصرع فلان »[٢] ؛ بل ويأتى بالكيفية التى يقع بها القتل على صناديد قريش ؛ ويتلو قول الحق سبحانه :

﴿ سَنَسِمُهُ[٣] عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم]

وبعد ذلك يأتون برأس الرجل الذى قال عنه رسول الله ذلك؛ فيجدون الضربة قد جاءت على أنفه[٤] .

فمنْ ذَا الذى يتحكم فى مواقع الموت ؟

---

(١) أورد ابن كثير فى تفسيره وعزاه لابن أبى حاتم (٢٦٦/٤) عن عكرمة قال : « لما نزلت : ﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر] . قال عمر : أىَّ جمع يهزم ؟ أى أىّ جمع يغلب ؟ قال عمر : فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ يثب فى الدرع وهو يقول : « سيهزم الجمع ويولون الدبر» فعرفت تأويلها يومئذ » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٢١٩/٣ ، ٢٥٨) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٣) وسمه يسمه وَسْماً : جعل له علامة يُعْرف بها بالكىّ أو بقطع جزء من الجسم . قال تعالى : ﴿ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ ﴾ [القلم] . أى : سنجعل له علامة فوق أنفه بالكى أو بالجدع أو بالقطع ، وهذه العبارة كناية عن الإذلال أى سنذله . [القاموس القويم ٣٣٨/٢] .

(٤) قال ابن عباس فى تفسير الآية من تفسيره (٤٠٥/٤) : « يقاتل يوم بدر فيخطم بالسيف فى القتال » . وأخرج مسلم فى صحيحه (١٧٦٣) من حديث عمر بن الخطاب أنه بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد فى أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه . فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه ، وشُقَّ وجهه كضربة السوط» .

إن ذلك لا يتأتى إلاَّ من إله هو الله ؛ وهو الذى أخبر محمداً ﷺ بهذا الخبر :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [القمر]

وقد طمأنَ هذا القولُ القومَ الذين اتبعوا رسول الله ﷺ الذى لا يعلم الغيب ، ولا يعلم الكيفية التى يموت عليها أىُّ كافر وأىُّ جبار ؛ وهو ﷺ يخبرهم بها وهُمْ فى منتهى الضَّعْف .

وهذا الإخبار دليل على أن رصيده قوىّ عند علاَّم الغيوب .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد]

يعنى : أن القلوب تطمئن بالقرآن وما فيه من أخبار صادقة تمام الصدق ، لتؤكد أن محمداً ﷺ مُبلِّغ عن ربِّه ؛ وأن القرآن ليس من عند محمد ﷺ بل هو من عند الله .

وهكذا استقبل المؤمنون محمداً ﷺ وصَدَّقوا ما جاء به ؛ فهاهى خديجة ـ رضى الله عنها وأرضاها ـ لم تكُنْ قد سمعت القرآن ؛ وما أنْ أخبرها رسول الله ﷺ بمخاوفه من أنَّ ما يأتيه قد يكون جنّاً ، فقالت :

« إنك لتَصلُ الرَّحم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المعدوم ، وتَقْرى الضَّيْف ، وتُعينَ على نَوائب الحق ، والله ما يخزَيك الله أبداً »[1] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣) وستة مواضع أخرى من صحيحه ، وأخرجه أيضاً مسلم فى صحيحه (١٦٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

ومعنى « تحمل الكل » أى : تعين المثقل ومنه الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال . و « تكسب المعدوم » أى : تستفيد المال المعدوم وقد كان النبى ﷺ محظوظاً فى تجارته . « تقرى الضيف » أى : تطعمه طعام الأضياف . و « نوائب الحق » حادثات الأيام . انظر : شرح النووى على مسلم (٢/ ٥٦١) ، وفتح البارى للعسقلانى (١/ ٢٤) .

وها هو أبو بكر ـ رضى الله عنه وأرضاه ـ يصدق أن محمداً رسول من الله ، فَوْرَ أن يخبره بذلك .

وهكذا نجده ﷺ قد امتلك سمَاتاً ؛ وقد صاغ الله لرسوله أخلاقاً ، تجعل مَنْ حوله يُصدِّقون كُلَّ ما يقول فَوْر أنْ ينطق .

ونلحظ أن الذين آمنوا برسالته ﷺ ؛ لم يؤمنوا لأن القرآن أخذهم ؛ ولكنهم آمنوا لأن محمداً ﷺ لا يمكن أن يكْذبهم القول ، وسيرته قبل البعثة معجزة فى حَدِّ ذاتها ، وهى التى أدَّتْ إلى تصديق الأوَّلين لرسول الله ﷺ .

أما الكفار فقد أخذهم القرآن ؛ واستمال قلوبهم[1] ، وتمنَّوْا لو نزل على واحد آخر غير محمد ﷺ .

وحين يرى المؤمنون أن القرآن يُخبرهم بالمواقف التى يعيشونها ، ولا يعرفون لها تفسيراً ؛ ويخبرهم أيضاً بالأحداث التى سوف تقع ، ثم يجدون المستقبل وقد جاء بها وفْقاً لما جاء بالقرآن ، هنا يتأكد لهم أن القرآنَ ليس من عند محمد ، بل هو من عند رَبِّ محمد ﷺ .

---

(١) أورد ابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٣١٥) « أن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ ، وهو يصلى من الليل فى بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق فتلاوموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم فى نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا ، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرّقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .. » وحدث هذا الليلة الثالثة .

ولذلك فحين يُثير الكفار خزعبلاتهم للتشكيك فى محمد ﷺ يأتى القرآن مُطَمْئناً للمؤمنين ؛ فلا تؤثر فيهم خزعبلات الكفار .

والمؤمن يذكر الله بالخيرات ؛ ويعتبر من كل ما يمرُّ به ، وبكل ما جاء بكتاب الله ؛ وحين يقرأ القرآن فقلبه يطمئنٌّ بذكر الله ؛ لأنه قد آمن إيمانَ صِدْقٍ .

وقد لمس المؤمنون أن أخبار النبى التى يقولها لهم قد تعدَّتْ محيطهم البيئىّ المحدود إلى العالم الواسع بجناحَيْه الشرقى فى فارس ، والغربى فى الروم .

وقد أعلن لهم رسول الله ﷺ ـ على سبيل المثال ـ خبر انتصار الروم على الفرس ، حين أنزل الحق سبحانه قوله :

﴿ الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِى أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِى بِضْعِ سِنِينَ .. ۝٤ ﴾ [الروم]

فأرونى أىّ عبقرية فى العالم تستطيع أن تتحكم فى نتيجة معركة بين قوتين تصطرعان وتقتتلان ؛ وبعد ذلك يحدد مَن الذى سينتصر ، ومنِ الذى سيُهزم بعد فترة من الزمن تتراوح من خَمْس إلى تِسْع سنوات ؟

وأيضاً تأتى الأحداث العالمية التى لا يعلم عنها رسول الله ﷺ شيئاً ، وتوافق ما جاء بالقرآن .

وكُلُّ ذلك يجعل المؤمنين بالقرآن فى حالة اطمئنان إلى أن هذا القرآن صادق ، وأنه من عند الله ، ويُصدّق هذا قول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

ونعلم أن الكون قد استقبل الإنسان الأول ـ وهو آدم عليه السلام ـ استقبالاً ، وقد هُيِّىء له فيه كُلُّ شيء من مُقوِّمات الحياة ؛ وصار الإنسانُ يعيش في أسباب الله ، تلك الأسباب المَمْدودة من يَدِ الله ؛ فنأخذ بها وتترقَّى حياتنا بِقَدْر ما نبذل من جَهْد .

وما أنْ نموتَ حتى نصلَ إلى أرْقى حياة ؛ إنْ كان عملُنا صالحاً وحَسُنَ إيماننا بالله ؛ فبعد أنْ كُنّا نعيش في الدنيا بأسباب الله الممدودة ؛ فنحن نعيش في الآخرة بالمُسبِّب في جنته التي أعدَّها للمتقين .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

يعني : أن الاطمئنان مُسْتوعِب لكل القلوب ؛ فكل إنسان له زاوية يضطرب فيها قلبه ؛ وما أنْ يذكر الله حتى يجدَ الاطمئنان ويتثبتَ قلبه .

وقد حاول المستشرقون أن يقيموا ضَجَّة حول قوله تعالى :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ﴾ [الرعد]

وتساءلوا : كيف يقول القرآن هنا أن الذِّكْر يُطمِئن القلب ؛ ويقول في آية أخرى :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ[1] قُلُوبُهُمْ.. ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال]

فأىُّ المعنيَيْنِ هو المراد ؟

ولو أن المستشرقين قد استقبلوا القرآن بالمَلَكة العربية الصحيحة لَعلموا الفارق بين :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد]

وبين قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ.. ﴿٢﴾ ﴾ [الأنفال]

فكأنه إذا ذُكر الله أمام الناس ؛ وكان الإنسان فى غَفْلة عن الله ؛ هنا ينتبه الإنسانَ بوجَلٍ .

أو : أن الحق سبحانه يخاطب الخَلْق جميعاً بما فيهم من غرائز وعواطف ومواجيد ؛ فلا يوجد إنسان كامل ؛ ولكُلِّ إنسان هفوة إلا مَنْ عصم الله .

وحين يتذكر الإنسانُ إسرافه من جهة سيئة ؛ فهو يَوْجَل ؛ وحين يتذكر عَفْو الله وتوبته ومغفرته يطمئن .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ[2] لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ ﴾

---

(١) وجل يوجل : فزع وخاف . قال تعالى :﴿ قَالُوا لا تَوْجَلْ .. ﴿٥٣﴾ ﴾ [الحجر] . أى : لا تفزع ولا تخف . وهو وجل أى خائف . قال تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحجر] . [القاموس القويم ٢/٣٢١] .

(٢) طوبى : اسم تفضيل أى لهم أطيب عاقبة . وقيل : طوبى مصدر مثل بُشْرى : أى : لهم لذة وطيب وسعادة وخير . وقيل : علَم على الجنة أو على شجرة طيبة فيها . [القاموس القويم ١/٤١٢] .

وطُوبَى من الشىء الطيِّب ؛ أى : سيُلاقُونَ شيئاً طيباً فى كُلِّ مظاهره : شكلاً ولَوْناً وطَعْماً ومزاجاً وشهوة ، فكُلُّ ما يشتهيه الواحد منهم سيجده طيباً ؛ وكأن الأمر الطيب موجود لهم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَحُسْنُ مَئَابٍ (٢٩) ﴾ [الرعد]

أى : حَسُنَ مرجعهم إلى مَنْ خلقهم أولاً ، وأعاشهم بالأسباب ؛ ثم أخذهم ليعيشوا بالمُسبِّب الأعلى ؛ وبإمكانية « كُنْ فيكون » .

● ● ●

ويريد الحق سبحانه من بعد ذلك أنْ يُوضِّح لرسوله ﷺ أنه رسول من الرُّسُل ؛ وكان كل رسول إلى أىِّ أمة يصحب معه معجزة من صِنْف ما نبغ فيه قومه .

وقد أرسل الحق سبحانه محمداً ﷺ ومعه المعجزة التى تناسب قومه ؛ فَهُمْ قد نبغوا فى البلاغة والبيان وصناعة الكلام ، وقَوْل القصائد الطويلة وأشهرها المُعلَّقات السبع ؛ ولهم أسواقٌ أدبية مثل : سوق عكاظ ، وسوق ذى المجاز .

ولذلك جاءت معجزته ﷺ من جنس ما نبغُوا فيه ؛ كى تأتيهم الحُجَّة والتعجيز .

ولو كانت المعجزة فى مجال لم ينبغوا فيه ؛ لقالوا : « لم نعالج أمراً مثل هذا من قبل ؛ ولو كُنَّا قد عالجناه لَنبغْنَا فيه » .

وهكذا يتضح لنا أن إرسالَ الرسولِ بمعجزة فى مجال نبغَ فيه

قومه هو نَوْعٌ من إثبات التحدِّى وإظهـار تفوُّق المعجزة التى جاء بها الرسول .

وهكذا نرى أن إرسال محمد ﷺ بالقرآن - وإنْ لم يُقنِع الكفار - إنما كان مُطَابقاً لمنطق الوحى من السماء للرسالات كلها .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾

فكما أرسلك الله إلى أمـتك ؛ فقد سـبق أنْ ارسل سبحـانه رُسُلاً إلى الأمم التى سـبـقتْ ؛ ولم يُرسَـل مع أىٍّ منهم مـعـجـزة تناقض ما نبـغَ فيه قـومُه ؛ كَىْ لا يقـولَ واحدٌ أن المـعجزة التـى جاءتْ مع الرسول تتناولُ ضَرْباً لم يألفوه ؛ ولو كانوا قد ألِفوه لَمَا تفوَّق عليهم الرسول .

وقول الحق : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ [الرعد]

يعنى : كهذا الإرســال السابق للرسل جاء بَعْثُكَ إلـى أمتِك ، كتلك الأمم السابقة .

ويأتى الحق سبحـانه هنا بالاسم الذى كان يجب أن يَقْدروه حَقَّ قَدْره وهو « الرحمن » فلم يَقُلْ : وهم يكفرون بالله بل قال :

﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـنِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد]

فهم يعيشون - رغم كُفْرهم - فى رزقٍ من الله الرحمان ، وكُل ما حولهم وما يُقيتهم وما يَسْتمتعون به من نِعَم هى عطاءاتٌ من الله .

وهم لا يقومون بأداء أيٍّ من تكاليف الله ؛ فكان من اللياقة أن يذكروا فَضْل الله عليهم ؛ وأنْ يؤمنوا به ؛ لأن مطلوب الألوهية هو القيام بالعبادة .

وهو سبحانه هنا يأتى باسمه « الرحمٰن » ؛ والذى يفيد التطوع بالخير ؛ وكان من الواجب أنْ يقدرُوا هذا الخيْر الذى قدَّمه لهم سبحانه ، دون أن يكون لهم حَوْلٌ أو قوة .

وكان يجب أن يعتبروا ويعلنوا أنهم يتجهون إليه سبحانه بالعبادة ؛ وأنْ يُنفّذوا التكليف العبادىّ .

وفى صُلْح الحديبية دارتْ المفاوضات بين المسلمين وكفار قريش الذين منعوا رسول الله ﷺ من دخول مكة ، ولكنهم قَبِلوا التعاهد معه ، فكان ذلك اعترافاً منهم بمحمد ﷺ وصَحْبه الذين صاروا قوة تُعاهِدُ ؛ تأخذ وتعطى .

ولذلك نجد سيدنا أبا بكر - رضى الله عنه - يقول : « ما كان فى الإسلام نصرٌ أعظم من نَصْر الحديبية » .

فقد بدأتْ قريش فى الحديبية الاعترافَ برسول الله وأمة الإسلام ؛ وأخذوا هُدْنة طويلة تمكَّن خلالها محمد ﷺ وصحابته من أنْ يغزُوا القبائل التى تعيش حول قريش ؛ حيث كانت تذهب سَرِية ومعها مُبشِّر بدين الله ؛ فتُسلِم القبائل قبيلة من بَعْد قبيلة .

وهكذا كانت الحديبية هى أعظم نصْر فى الإسلام ؛ فقد سكنتْ قريش ؛ وتفرَّغ رسول الله ﷺ ومَنْ معه لدعوة القبائل المحيطة بها للإسلام .

ولكن الناس لم يتسع ظنُّهم لمَا بين محمد وربِّه . والعباد دائماً يَعْجلون ، والله لا يَعْجل بعَجلة العِباد حتَّى تبلغَ الأمورُ ما أراد[1] .

وحين جاءت لحظة التعاقد بين رسول الله ﷺ وبين قريش فى الحُدَيْبِية ، وبدأ علىٌّ بن أبى طالب فى كتابة صيغة المعاهدة ، كتب « هذا ما صَالح عليه محمد رسول الله » فاعترض سهيل بن عمرو وقال : لو شهدتُ أنك رسول الله لم أقاتلك ، ولكن اكتب : « هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو » .

وأصَرَّ صحابة رسول الله ﷺ على أن تُكتب صفة محمد كرسول ، لكن النبى ﷺ قال : « والله إنى لرسول الله وإن كذبتمونى . اكتب محمد بن عبد الله »[2] .

ولكن علياً ـ كرَّم الله وجهه ـ يُصِرُّ على أن يكتب صفة محمد كرسول من الله ؛ فيُنطق الحق سبحانه رسوله ﷺ ليقول لعلىّ : «ستُسَام[3] مثلها فتقبل » .

---

(١) وفى هذا يورد السيوطى فى الدر المنثور (٧/٥٠٩) آثاراً ، منها الأثر الذى عزاه للبيهقى عن عروة رضى الله عنه أن بعض الصحابة قالوا : والله ما هذا بفتح ، لقد صددنا عن البيت وصُدَّ هدينا .. فقال ﷺ : « بئس الكلام، هذا أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالراح عن بلادهم ويسألوكم القضية ويرغبون إليكم فى الإياب ، وقد أظفركم الله عليهم ، وردكم سالمين غانمين مأجورين ، فهذا أعظم الفتح » .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (٣/٣١٧) .

(٣) سامه الأمر يسومه : كلَّفه إياه . وأكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . والسَّوْم : التكليف . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

ولما تولَّى علىٌّ - كرَّم الله وجهه - بعد أبى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم أجمعين ، وقامت المعركة بين على ومعاوية ؛ ثم اتفق الطرفان على عَقْد معاهدة ؛ وكتب الكاتب « هذا ما قاضى عليه أمير المؤمنين على بن أبى طالب » فقال عمرو بن العاص مندوب معاوية : « اكتب اسمه واسم أبيه ، هو أميركم وليس أميرنا » .

وهنا تذكَّر على - كرم الله وجهه - ما قاله سيدنا رسول الله ﷺ : « سَتُسَام مثلها فتقبَّل » وقَبلها فقال : « امْحُ أمير المؤمنين ، واكتب هذا ما قاضى عليه على بن أبى طالب »[1] وتحققت مقولة الرسول ﷺ .

ومن الوقائع التى تُثبِّتُ الإيمانَ ؛ نجد قصة عمار بن ياسر ، وكان ضمن صُفوف على - كرَّم الله وجهه وأرضاه - فى المواجهة مع معاوية ؛ وقتله جُنود معاوية ؛ فصرخ المسلمون وقالوا : « وَيْحَ[2] عمار ، تقتله الفئة الباغية »[3] . وهكذا كان رسول الله ﷺ قد قال .

وبذلك فَهِم المسلمون أن الفئة الباغية هى فئة معاوية ، وانتقل كثير من المسلمين الذين كانوا فى صَفِّ معاوية إلى صَفِّ على بن أبى طالب ؛ فذهب عمرو بن العاص إلى معاوية وقال : تفشَّت فى

(١) أورده ابن كثير فى البداية والنهاية (٢٨٧/٧) طبعة دار الريان للتراث . الطبعة الأولى ١٩٨٨م . حوادث عام ٣٧ هجرية .

(٢) ويح : كلمة ترحُّم وتوجُّع . تُقال لمن تنزل به بليّة . [لسان العرب - مادة : ويح] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (٩١/٣) ، والبخارى فى صحيحه (٥٤١/١) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (٥٤٦/٢) من حديث أبى سعيد الخدرى .

الجيش فَاشيـة ، إنِ استمرتْ لن يبقى معنا أحد ؛ فقـد قتلنا عمار بن ياسر ؛ وذكر صحابة رسول الله ﷺ قوله : « وَيْحَ عمار ، تقتله الفئة البَاغية » ، وقد فَهم المقاتلون معنا أن الفئة الباغية هى فئتنا .

وكان مـعاوية من الدهاء بمنزلة ؛ فقـال : اسْعَ فى الجيش وقُلْ : « إنمـا قتله مَنْ أخـرجه » ويعنى عليّـاً . ولما وصل هذا القـول لعلىٍّ قـال : ومَنْ قـتل حـمـزة بن عـبـد المطلب ، وقـد أخـرجـه للقـتـال محمد ﷺ ؟!

وهنا فى قول الحق سبحانه :

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ.. ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد]

إنما يعنى أن الحق قـد أرسلك يا محمـد بمعجـزة تُناسب ما نبغَ فيه قـومك ، وطَلَبُ غير ذلك هو جَهْل بواقع الرسـالات وتعنُّتٌ يُقصَد منه مزيدٌ من ابتعادهم عن الإيمان .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَـٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّي .. ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد]

أى : أنهم حين يُعـلنون الكفر فأنتِ تصـادمهم بإعـلان الإيمان ، وتقول :

﴿هُوَ رَبِّي لَا إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ..﴿٣٠﴾﴾ [الرعد]

وكلمة « ربى » تنسـجم مع كلمة « الرحمـٰن » الذى يُنعم بالنعم كلهـا ؛ وهو المُتـولِّى تربيتى ؛ ولو لم يـفعل سِـوَى خَلْقى وتربيـتى ومَدِّى بالحياة ومُقوِّمـاتها ؛ لَـكانَ يكفى ذلك لأعبـده وحده ولا أشرك به أحداً .

ولو أن الإنسان قد أشرك بالله ؛ لالتفتَ مرة لذلك الإله ؛ ومرة أخرى للإله الآخر ؛ ومرة ثالثة للإله الثالث وهكذا ، وشاء الله سبحانه أن يريح الإنسان من هذا التشتت بعقيدة التوحيد .

ويأتى القرآن ليُطمئن القلوب أيضاً وليذكر :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَمًا[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩) ﴾ [الزمر]

وهكذا يعرض لنا القرآن صورتين :

الصورة الأولى : لرجل يملكه أكثر من سيد ، يعارضون بعضهم البعض .

والصورة الثانية : لرجل آخر ، يملكه سيد واحد .

ولا بُدَّ للعقل أن يعلمَ أن السيد الواحد أفضل من الأسياد المتعددين ؛ لأن تعدُّد الأسياد فساد وإفساد ، يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

والعاقل هو مَنْ لا يُسلِّم نفسه إلا لسيِّد واحد يثق أنه أمين عليه ، ونحن فى حياتنا نقول : ما يحكم به فلان أنا أرضى به ؛ وقد

---

(١) تشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى :﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ .. (٢٩)﴾ [الزمر] . ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٥٤] .

(٢) المعنى : أن مَنْ وَحَّد الله مَثَلُه مَثَلُ السالم لرجل لا يشركه فيه غيره . [لسان العرب - مادة : سلم] .

وكَلْته فى كذا . ولا أحد منّا يُسلِّم نفسه إلا لمَنْ يرى أنه أمين على هذا الإسلام ، ولا بُدَّ أن يكون أميناً وقوياً ، ويقدر على تنفيذ مطلوبه .

والرسول ﷺ فى المعركة العنيفة مع صناديد قريش قال : إنِّى متوكل على الله ، وهذه شهادة منه على أنه توكل على القوى الأمين الحكيم ؛ والرسول لم يَقُلْ توكلت عليه ؛ ولكنه قال :

﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ..(٣٠) ﴾ [الرعد]

والفارق بين القَوْلَيْنِ كبير ، فحين تقول « عليه توكلت » فأنت تَقْصر التوكُّل عليه وحده ؛ ولكن إنْ قُلت : « توكلت عليه » . فأنت تستطيع أن تضيف وتعطف عدداً آخر ممَّنْ يمكنك التوكل عليهم .

ولذلك نقول :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ..(٥) ﴾ [الفاتحة]

ونحصر العبادة فيه وله وحده سبحانه ؛ فلا تتعداه إلى غيره ؛ ولو أنها أُخرَتْ لَجازَ أن يعطف عليه . ويُقَال فى ذلك « اسم قصر » أى : أن العبادة مَقْصورة عليه ؛ وكذلك التوكُّل .

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّى لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ..(٣٠) ﴾ [الرعد]

أى : أننى لا آخذ أوامرى من أحد غيره ومَرْجعى إليه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ[1] أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ (٣١) ﴾

و (لو) حَرْف شَرْط يلزم لها جوابُ شَرْط ، وقد ترك الحق سبحانه جواب الشَّرْط هنا اعتماداً على يقظة المُسْتَمع . وإنْ كان مثل هذا القول ناقصاً حين ننطق نحن به ، فهو ليس كذلك حين يأتى من قَوْل الله سبحانه ؛ فهو كامل فيمن تكلَّم ، وقد تركها ليقظة المُسْتمِع للقرآن الذى يبتدر المعانى ، ويتذكَّر مع هذه الآية قوله الحق :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ[2] فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) ﴾ [الأنعام]

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

(١) القارعة : الداهية تفجؤهم بكفرهم وعتوّهم . ويقال : قرعه أمر إذا أصابه . قال ابن عباس : القارعة : النكبة . وقال أيضاً : القارعة : الطلائع والسرايا التى كان يُنفذها رسول الله ﷺ لهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٥٧] .

(٢) القرطاس : الصحيفة يكتب فيه من ورق أو نحوه . [القاموس القويم ٢/١١٣] . جمعها قراطيس ورد به قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا .. (٩١) ﴾ [الأنعام] .

شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) ﴾

[الأنعام]

إذن : من كل نظائر تلك الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نأخذ جواب الشرط المناسب لها من تلك الآيات ؛ فيكون المعنى : لو أن قُرآناً سُيِّرتْ به الجبال ، أو قُطِّعَتْ به الأرض ، أو كُلِّمَ به المَوْتى لَمَا آمنوا .

ويُرْوَى أن بعضاً من مُشْركى قريش مثل : أبى جهل وعبد الله ابن أبى أمية جلَسَا خلف الكعبة وأرسلا إلى رسول الله ﷺ ؛ وقال له عبد الله : إن سَرَّك أن نتبعك فَسَيِّر لنا جبال مكة بالقرآن ، فأذهبها عنَّا حتى تنفسح ، فإنها أرض ضيِّقة ، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً ، حتى نغرس ونزرع ، فلستَ ـ كما زعمْتَ ـ بأهْونَ على ربِّك من داود حين سخَّر له الجبال تسير معه ، وسَخِّر لنا الرِّيح فنركبها إلى الشام نقضى عليها مَيْرتنا وحوائجنا ، ثم نرجع من يومنا ، فقد سخِّرَتْ الريحُ لسليمانَ بن داود ، ولسْتَ بأهونَ على ربِّك من سليمان ، وأحْيِى لنا قَصَبَ[١] جَدِّك ، أو مَنْ شئتَ أنت من موتانا نسأله ، أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل ؟ فإن عيسى كان يُحيى المَوْتَى ، ولستَ بأهونَ على الله منه ، فأنزل الحق سبحانه هذه الآية وما قبلها للرد عليهم[٢] .

---

(١) القصب من العظام : كل عظم أجوف مستدير له مُخٌ . [لسان العرب ـ مادة : قصب] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٥٥) وقال : قال معناه الزبير بن العوام ومجاهد وقتادة والضحاك . وانظر : أسباب النزول (ص ١٥٧ ، ١٥٨) .

وكانت تلك كلها مسائل يتلكَّكُونَ بها ليبتعدوا عن الإيمان ؛ فالرسول ﷺ قد جاء بمعجزة من جنْس ما نَبغُوا فيه ؛ وجاء القرآن يَحْمِل منهج السماء إلى أنْ تقومَ الساعة .

وقد طلبوا أنْ تبتعد جبال مكة ليكونَ الوادى فسيحاً ؛ ليزرعوا ويحصدوا ؛ وطلبوا تقطيع الأرض ، أى : فَصْل بقعة عن بقعة ؛ وكان هذا يحدث بِحَفْر جداول من المياه ، وقد قال الكافرون :

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا ﴿٩٠﴾﴾ [الإسراء]

والمراد من تقطيع الأرض - حسب مطلوبهم - أن تقصُرَ المسافةُ بين مكان وآخر ، بحيث يستطيع السائر أنْ يستريح كل فَتْرة ؛ فالمسافر يترك فى كل خطوة من خطواته أرضاً ؛ ويصل إلى أرض أخرى ، وكُلٌّ يقطع الأرض على حَسْب قدرته ووسيلة المواصلات التى يستخدمها .

فالمُتْرَف يريد أن تكون المسافة كبيرة بين قطعة الأرض والأخرى ؛ لأنه يملك الجِيَاد التى يمكن أن يقطع بها المسافة بسهولة ، أما مَنْ ليس لديه مطية ؛ فهو يحب أن تكون المسافات قريبة ليستطيع أنْ يستريح .

ونلحظ نحن ذلك فى زماننا المعاصر ، فحين زادَ الترف صارتْ السيارات تقطَع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية دون توقُّف ؛ عكْس ما كان يحدث قديماً حينَ كانت السيارات تحتاج إلى راحة ومعها المسافرون بها ، فيتوقفون فى مُنتصَف الطريق .

ومثل ذلك قد حدث فى مملكة سبأ ، يقول الحق سبحانه :

﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ..(١٩)﴾ [سبأ]

أى : اجعل المسافة بين مكان وآخر بعيدة ، كى يتمتع المُسافِر القادرُ بالمناظر الطيبة[1] .

ولاحظنا أيضاً تمادى المشركين من قريش فى طلب المعجزات الخارقة ؛ بأنْ طلبوا إحياء المَوْتى فى قول الحق سبحانه :

﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ.. (٣١)﴾ [الرعد]

وبعضهم طلب إحياء قصى بن كلاب الجد الأكبر لرسول الله ولقريش ؛ ليسألوه : أحَقٌّ ما جاء به محمد ؟ ولكن القرآن لم يأْتِ لمثْل تلك الأمور ؛ وحتى لو كان قد جاء بها لَمَا آمنوا .

ومهمة القرآن تتركز فى أنه منهج خَاتَمٌ صالح لكل عصر ؛ وتلك معجزته .

ويقول سبحانه :

﴿بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا..(٣١)﴾ [الرعد]

وكلمة « أمر » تدلُّ على أنه شىء واحد ، وكلمة « جميعاً » تدل على مُتعدِّد ، وهكذا نجد أن تعدُّد الرسالات والمُعْجزات إنما يدلُّ على

---

(١) وذلك أن الله تعالى أنعم عليهم بأن جعل القرى ظاهرة والمسافات قريبة ، فقال تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨)﴾ [سبأ] . ولكنهم طلبوا من الله المباعدة بين أسفارهم فقالوا : ﴿رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩)﴾ [سبأ] .

أن كُلَّ أمر من أمر تلك الرسالات إنما صدرَ عن الحق سبحانه ؛ وهو الذى اختارَ كلَّ مُعْجزة لتناسب القومَ الذين ينزل فيهم الرسول .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ..(٣١) ﴾ [الرعد]

وكلمة « ييأس » يُقَال إنها هنا بمعنى « يعلم » ؛ فهى لغة بلهجة قريش[1] ، أى : ألَمْ يعلم الذين آمنوا أن هؤلاء الكفار لم يهتدوا ؛ لأن الله لم يَشَأ هدايتهم .

وكان المؤمنون يودُّون أن يؤمنَ صناديدُ قريش كى يَخفَّ الجهد عن الفئة المسلمة ؛ فلا يضطهدونهم ، ولا يضايقونهم فى أرزاقهم ولا فى عيالهم .

ويوضح الحق سبحانه هنا أن تلك المسألةَ ليست مُرتبطة برغبة المؤمن من هؤلاء ؛ بل الإيمان مسألة تتطلب أنْ يُخرِجَ الإنسان ما فى قلبه من عقيدة ، وينظر إلى القضايا بتجرُّد ، وما يقتنع به يُدخِله فى قلبه .

وبذلك يمتلىء الوعَاء العقدىّ بما يُفيد ؛ كى لا تدخل فى قلبك عقيدة ، وتأتى عقيدة أخرى تطردُ العقيدة ، أو تُزيغ قلبك عمَّا تعتقد ، يقول تعالى :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ..(٤) ﴾ [الأحزاب]

فالوعاء القلبى كالوعاء المادىّ تماماً ؛ لا يقبل أنْ يتداخل فيه

(١) قيل : هو لغة هوازن . أى : أفلم يعلموا . وحكاه القشيرى عن ابن عباس . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٥٦) .

جِرْمَان أبداً ، فإنْ دخل جِرْم على جِرْم ؛ إنْ كان أقوى فهو يطرد من القلب الأَدْنى منه .

والمـثَلُ على ذلك : لنفتـرض أن عندنا إناءً مـمتلئـاً عن آخـره ؛ ويحاول واحدٌ منا أنْ يضعَ فيه كُرةً صغـيرة من الحديد ؛ هنا سيجد أن الماءَ يفيضُ من حَوافِّ الإناء بمـا يُوازِى حجم كرة الحديد ، وهذا مَاْ يحدث فى الإناء المادىّ ، وكذلك الحال فى الإناء العَقَدىّ .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى الحديث القدسى :

« لا يجتمع حُبِّى وحبُّ الدنيا فى قلب »[1] .

وهكذا نرى أن هناك حَيِّزاً للمعانى أيضاً مثلما يوجد حَيِّز للمادة ، فإذا كنتَ تريد ـ حـقيقـةً ـ أن تُدخِل المعانى العَـقَدية الصحيـحة فى قلبك ؛ فلا بُدَّ لك من أنْ تطردَ أولاً المعانى المناقضة من حَيِّز القلب ، ثم ابحَثْ بالأدلة عن مدى صلاحية أىٍّ من المـعنيين ؛ وما تجده قوىَّ الدليل ؛ صحيحَ المنطق ؛ موفورَ القوة والحُجَّة ؛ فَأدخِلْه فى قلبك .

ولم يفـعل الكفـار هكذا ؛ بـل تمـادَوْا فـى الغَىِّ إصـراراً على ما يعتقدون من عقيدة فاسدة ؛ أما مَنْ أسلم منهم فقد أخرج من قلبه العقيـدة القديمة ؛ ولم يُصِر على المُعْـتَنق القديم ؛ بل درسَ وقارنَ ؛ فأسرع إلى الإسلام .

---

(١) أورد أبو حامد الغزالى فى الإحياء (٣/٢٠٨) آثاراً تـوضح عدم اجتماع حب الدنيا وحب الآخرة فى قلب عبد ، قال : « قال مالك بن دينار : بـقدر ما تحزن للدنيا يخرج هم الآخرة من قلبك ، وبقدر ما تحزن للآخرة يخرج هم الدنيا من قلبك » .

أما مَنْ كـان قلبه مـشغـولاً بالعقـيدة السابقـة ؛ ويريد أنْ يُدخل العقيدة الإسلامية فى قلبه ؛ فهو لم ينجح فى ذلك ؛ لأن قلبه مشغولٌ بالعقيدة القديمة .

وإذا كنت يا رسول الله ﷺ تريد من هؤلاء أن يؤمنوا ؛ فلا بد أن يعتمـد ذلك على إرادتهم ، وأنْ يُخرِجوا من قلوبهم العقيـدة الفاسدة ؛ وأنْ يبحثوا عن الأصحِّ والأفضل بين العقيدتين .

ولذلك يعلمنا الحق سـبحـانه كيف نصل إلى الحـقائق بســهولة ، فيقول لرسوله ﷺ :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ[1] .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

أى : قُلْ يا محمد لـمَنْ كفر بك : إنِّى أعظكم عظَة ، وأنت لا تَعظ إلا مَنْ تحب أن يكون على الحق ؛ وهذا يُفسر قول الحق سبحانه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[2] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

ولهذا يريد ﷺ أن تكونوا مؤمنين ؛ لذلك يدعوكم أن تقوموا لله ؛ لا لجاه أحد غيره ؛ لأن جاه أىِّ كائن سيزول مَهْمَا كان هذا الواحد ، ولا تقولن لنفسك : إن العبيد سيتساوون معك .

بل قُمْ لله إما مثنى أى أن تكون قائماً ومعك آخر ؛ أو يقوم غيرك

---

(١) الجنة : الجنون .

(٢) العنت : المشقة . واعنته : أوقعه فى العنت وشقَّ عليه . [القاموس القويم ٢/٣٩] .

اثنين اثنين ليتناقش كل منكم مع مَنْ يجلس معه ؛ ولا يتحيز أحد منكم لفكْر مُسْبق بل يُوجِّه فكره كله متجرداً لله .

وليتساءل كل واحد : محمد هذا ، صفته كذا وكذا ، وقد فعل كذا ، والقرآن الذى جاء به يقول كذا ، وسيجد الواحد منكم نفسه وقد اهتدى للحق بينه وبين نفسه ، وبينه وبين مَنْ جلس معه ليناقشه فيستعرضان معه تاريخ محمد ﷺ وما جاء به .

وحين يتناقش اثنان لن يخاف أىٌّ منهما أن يهزمه الآخر ، لكن لو انضمَّ إليهما ثالثٌ ؛ فكل واحد يريد أن يعتز برأيه ؛ ويرفض أن يقبل رأى إنسان غيره ، ويخشى أن يُعتبر مهزوماً فى المناقشة ؛ ويرفض لنفسه احتمال أنْ يستصغره أحد .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ .. (٤٦) ﴾ [سبأ]

و « الجِنَّة » هى اختلال العقل ؛ أى : أن مَنْ به جِنَّة إنما يتصرف ويسلُك بأعمال لا يرتضيها العقل .

ويقرن الحق سبحانه بين العقل وبين الخُلُق ، فيقول :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤) ﴾ [القلم]

ويُقَال : فلان على خُلق . أى : يملك من الصفات ما يجعله على الجَادَّة من الفضائل ؛ مثل الصِّدْق والأمانة ؛ وهذه صفاتٌ يَنْظمها فى مواقفها الفِكْر العقلىّ ؛ وهو الذى يُميِّز لنا أىَّ المواقف تحتاج إلى شِدّة ؛ أو لِين ؛ أو حكمة ، وكلُّ هذه أمور يُرتِّبها العقل .

والخُلُق الرفيع لا يصدر عن مجنون ؛ لأنه لا يعرف كيف يختار بين البدائل ؛ لذلك لا نحاسبه نحن ؛ ولا يحاسبه الله أيضاً .

وحين يأمرهم الحق سبحانه أن يبحثوا : هل محمد يعانى من جِنَّة ؟ فالحق سبحانه يعلم مُقدَّماً أن رسول الله ﷺ بشهادتهم يتمتَّع بكمال الخُلق ؛ بدليل أن أهمَّ ما كانوا يملكونه كانوا يستأمنون عليه رسول الله ﷺ .

وبدليل أنه ﷺ حينما دخل عليهم وكانوا مختلفين فى أمر بناء الكعبة ؛ ارتضوه حَكَماً[1] .

ولذلك يقول سبحانه :

﴿نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾

[القلم]

وهكذا رأينا أن هؤلاء الكفار ما كانوا ليؤمنوا ؛ ولم يكُنِ اللهُ لِيهديَهم ؛ لأنهم كانوا لا يملكون أدْنى استعداد للهداية ؛ وكأنهم أدمنُوا الكفر والعياذ بالله ؛ وقد طبع الله على قلوبهم فزادهم كفراً ؛

---

(١) كان عُمر رسول الله ﷺ حينئذ خمساً وثلاثين سنة ، أى : قبل البعثة بخمس سنين . وذلك أن قبائل قريش اختصمت فيما بينها من يضع الحجر الذى فى موضع الركن ، حتى انهم أعدوا للقتال ، ثم إنهم اجتمعوا فى البيت الحرام وتشاوروا ، فأشار ابو أمية بن المغيرة عليهم بأنْ يُحكِّموا أول داخل عليهم من باب بنى شيبة ، فكان أول من دخل عليهم رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قالوا : « هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد » فقال ﷺ : « هلم إلىَّ ثوباً » فأتى به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده . ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه ، وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه . انظر : السيرة النبوية لابن هشام (١/١٩٦ ، ١٩٧) .

فمـا فى تلك القلوب من كفر لا يخـرج منها ؛ وما بخارجـها لا يدخل فيها .

وقد ظَنَّ بعض من المسلمين أن كُفْر هؤلاء قد يُشقِى المؤمنين بزيادة العَنت من الكافرين ضدهم ؛ لذلك يوضح الحق سبحانه لأهل الإيمان أن نَصْره قريب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

أى : اطمئنوا يا أهل الإيمان ؛ فلن يظلَّ حال أهل الكفر على ما هو عليه ؛ بل ستصيبهم الكوارث وهم فى أماكنهم ، وسيشاهدون بأعينهم كيف ينتشر الإيمان فى المواقع التى يسودونها ؛ وتتسع رقعةُ أرض الإيمان ، وتضيق رقعة أهل الكفر ؛ ثم يأتى نَصْر الله وقد جاء نَصْر الله ولم يَبْقَ فى الجزيرة العربية إلا مَنْ يقول : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » .

وهكذا تنبأتْ الآية بمجىء الأمل بعد اليأس ، كى لا يظلَّ اليأس مُسيْطراً على حركة المسلمين وعلى نفوسهم ، واستجاب الحق سبحانه لدعوته ﷺ حين دعاه قائلاً : « اللهمَّ اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف »[1] .

وقُتِل صناديدُهم واحداً وراء الآخر ؛ ولكن عنادهم استمر ؛ وبلغ

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الآخرة يقول : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

العناد حَدًّ أن ابنتَيْ رسول الله ﷺ كانتا مُتزوِّجتيْنِ من ابنيْ أبى لَهَب ؛ فلما أعلن النبى ﷺ رسالته ؛ قال أبو لهب وزوجته : لا بد أن يُطلِّق ابناؤنا بنات محمد ؛ فلما طلَّق أوَّلهما بنت رسول الله ﷺ دعا رسول الله ﷺ قائلاً : « أما إنى أسأل الله أن يسلِّط عليه كَلْبه»[1].

وها هو أبو لهب الكافر يقول : « لا تزال دعوة محمد على ابنى تشغل بَالى وتُقلقنى ، وأخاف أن أبعث بولدى إلى رحلة الشام كى لا تستجيب السماءُ لدعوة محمد » .

وكان من المناسب ألاَّ يخاف ، وجاء ميعاد السفر لقافلة الشام . وسافر أبو لَهَبٍ مع ولديْه ، وحين جاء ميعاد النوم أمر أبو لهب الرجال أن يقيموا سياجاً حول ولده ـ وكأن الرجال حوله كخط بارليف الذى بنتْه إسرائيل على قناة السويس ليمنع عنها صَيْحة النصر التى حملت صرخة الله أكبر ـ ثم أصبح الصبح فوجدوا أن وحشاً قد نهش ابن أبى لَهَب .

وقال الناس : كان أبو لَهَب يخشى دعوة محمد ؛ ورغم ذلك فقد تحققت . فقال واحد : ولكن محمداً دعا أن ينهشَه كَلْب وقال له « أكلك كلب من كلاب الله » ولم يَقُلْ فلينهشْكَ سبع[2] ، فرد عليه مَنْ

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٣٨) ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/١٩) وعزاه للطبرانى مرسلاً وقال : فيه زهير بن العلاء ، وقد أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/٥٣٩) من حديث أبى عقرب وصححه . وحسَّنه ابن حجر فى الفتح (٤/٣٩) .

(٢) الكلب : كل سبع عقور ، ومنه الأسد . قال ابن سيده : غلب الكلب على هذا النوع النابح . وقد يكون التكليب واقعاً على الفهد وسباع الطير . [لسان العرب ـ مادة : كلب] . وانظر فتح البارى (٤/٣٩) .

سـمعـه : وهل إذا نُسب كلب الله أيكون كلبـاً ؟ لا بد أن يكون الكائن المنسوب لله كبيراً .

وهكذا دَقَّتْ القـارعة بيت الرجل الذى أصـرَّ على الكفر ، وتحـقق قول الله :

﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ..(٣١) ﴾ [الرعد]

نعـم ، فـهم قـد أسـرفـوا فى الـكُفْـر والعِـنـاد ؛ فـجـاءتْهم القارعـة ؛ والقارعة هى الشىء الذى يطرق بعنف على هادىء ساكن ، ومنهـا نأخذ قَرْع الـباب ، وهناك فَرْق بـين « نَقْر البـابِ » و « قَرْع الباب » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيباً مِّن دَارِهِمْ..(٣١) ﴾ [الرعد]

يُوضِّحـه أَمْر صُلْح الحديبـية الذى جاء بشـارةً للمسلمين ؛ فـقد صار كفـار قريش يفاوضـون رسـول الله ﷺ ، وكـان النبى ﷺ يبعث بالسرايا إلى المناطق المحيطة بمكة ؛ فتـأتى القبائل أفواجاً وهى تعلن إسلامهـا ؛ ويبلغ ذلك قريشاً بأن الإسلام يواصل زَحْـفه ؛ ثم تأتيهم القارعة بأن يدخل الرسول ﷺ مكة ؛ ويتحقق وعد الله بأن يدخلوا هم أيضاً إلى حظيرة الإسلام .

أو : أن يكون المقصود بـ :

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ..(٣١)﴾ [الرعد]

هو مجيء يوم القيامة الذى يحمل وَعْد الله بأن يحُلَّ عليهم ما يستحقونه من عذاب .

وفى هذا القول تطمين لِمَنْ قال لهم الحق سبحانه فى أول هذه الآية :

﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ ..(٣١)﴾ [الرعد]

ذلك أن الله لا يُخلف وعده ، وهو القائل فى تذييل هذه الآية :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١)﴾ [الرعد]

ونعلم أن كلمة « وَعْد » عادةً تأتى فى الخير ، أما كلمة « وعيد » فيه فتأتى غالباً فى الشر .

والشاعر يقول :

وَإِنِّى إِذَا أَوْعدْتُه أَوْ وَعَدْتُه لَمُنجِزٌ مِيعَادِى ومُخلِفٌ مَوْعِدى

فالإيعاد دائماً يكون بِشَرٍّ ؛ والوَعْد يعنى الخير ، إلا أن بعض العرب يستعمل الاثنين . أو نستطيع أن نقول : إن المسألة بتعبير المؤمنين ؛ أن الله سينصر المؤمنين بالقارعة التى تصيب أهل الكفر ؛ أو تأتى حَوْل ديارهم ، وفى ذلك وَعْد يُصبِّر به سبحانه المؤمنين ؛ وهو فى نفس الوقت وعيدٌ بالنسبة للكافرين .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

هو قضية قرآنية ستتحقق حَتْماً ؛ فى كل عصر وأوان ، إذا ما أخذ المسلمون بأسباب الإيمان ؛ وهي كقضية تختلف عن وَعْد أو وَعِيد البشر ؛ لأن الإنسان قد يَعِد أو يتوعَّد ؛ لكن أغيار الحياة تُصيبه ؛ فتُعطل قدرته على إنفاذ الوَعْد أو الوعيد .

أما حين يَعِدُ الله فالأمر يختلف ؛ لأن وَعْده هو وَعْد مُطْلق ؛ وهذا هو معنى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾ [الرعد]

يقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ (١) لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾

ويقال « هَزَأ بفلان » أى : سخر منه ، أما « استُهزِئ بفلان » أى : طُلِب من الغير أنْ يهزأ بشخص معين ، وهذا عليه إثمه وإثم مَنْ أوعز له بالسخرية من هذا الشخص .

(١) أملى له : أطال له ووسَّع له فيما هو فيه من خير أو شر . [القاموس القويم ٢/٢٣٦]
وأملى الله له : أمهله وطوَّل له . والإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . [لسان العرب ـ مادة : ملا] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ (٣٢) ﴾ [الرعد]

أى : لستَ بِدعاً يا محمد فى أن يقف بعض الكافرين منك هذا الموقف . والمثلُ هو الحَكَم بن أبى العاص أبو مروان[1] الذى كان يُقلِّد مشية النبى ﷺ ؛ وكان رسول الله يمشى كأنما يتحدَّر من صبب[2] ؛ وكان بصره دائماً فى الأرض .

ولم يكن الناس مُعْتادين على تلك المِشْية الخاشعة ؛ فقد كانوا يسيرون بغرور مستعرضين مناكبهم .

وحين قلَّد الحكَمُ رسول الله رآه ﷺ بنور البصيرة ، فقال له ﷺ : « كُنْ على هذا »[3] ، فصارت مِشْيته عاهة ، بينما كانت مِشْية رسول الله تطامناً إلى ربه ، وتواضعاً منه ﷺ .

ونفَى رسول الله ﷺ الحَكَم إلى الطائف ؛ وراح يَرْعى الغنم

(١) أسلم يوم فتح مكة ، وسكن المدينة، ثم نفاه النبى ﷺ إلى الطائف ، ثم أعيد إلى المدينة فى خلافة عثمان ومات بها عام ٣٢ هـ . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٢٨/٢ ، ٢٩] .

(٢) عن على رضى الله عنه قال : « كان رسول الله ﷺ إذا مشى تكفا تكفؤاً كأنما ينحط عن صبب لم أر قبله ولا بعده مثله ﷺ » أخرجه أحمد فى مسنده (٩٦/١ ، ١١٦) والترمذى فى سننه (٣٦٣٧) وقال : « هذا حديث حسن صحيح » .

(٣) راجع الإصابة فى تمييز الصحابة (٢٨/٢ ، ٢٩) فقد أورد العسقلانى من حديث عبد الرحمن بن أبى بكر قال : كان الحكم بن أبى العاص يجلس عند النبى ﷺ ، فإذا تكلم اختلج فبصر به النبى ﷺ فقال : « كن كذلك » فما زال يختلج حتى مات . قال العسقلانى : « فى إسناده نظر » .

هناك ، ولم يَعْفُ النبى ﷺ عنه ؛ وكذلك أبو بكر فى خلافته[١] ؛ ولا عمر بن الخطاب ؛ ولكن الذى عفا عنه هو عثمان بن عفان ، وكان قريباً له[٢] .

وشهد عثمان بن عفان وقال : « والله لقد استأذنتُ رسول الله فيه فقال لى : إن استطعت أن تعفوَ عنه فَاعْفُ ، وحين وَلِيتُ أمرَ المسلمين عَفَوْتُ عنه » .

وحدث من بعد ذلك أن تولّى عبد الملك بن مروان أمر المسلمين ؛ وكان لابنه الوليد خَيْل تتنافس مع خَيْل أولاد يزيد بن معاوية ؛ واحتال أولاد يزيد بالغش ، ووضعوا ما يُعرقل خَيْل الوليد .

وحدث خلاف بين الفريقين فشتم الوليدُ أبناء يزيد ؛ فذهب أولاد يزيد إلى عبد الملك يشكُون له ولده ؛ وكان الذى يشكو لا يتقن نُطْق العربية دون أخطاء ؛ فقال له عبد الملك : مَا لَكَ لا تقيم لسانك من اللحْن[٣] ؟ فردَّ الذى يشكو ساخراً : « والله لقد أعجبتْنى فصاحةُ الوليد » . ويعنى : أن حال لسان ابن عبد الملك لا يختلف عن حال

---

(١) روى الطبرانى من حديث حذيفة قال : لما ولى أبو بكر كُلّم فى الحكم أن يرده إلى المدينة فقال : ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ . أورده ابن حجر العسقلانى فى الإصابة (٢٨/٢) .

(٢) ذكر ابن حجر فى الإصابة (٢٨/٢) أنه عَمُّ عثمان بن عفان رضى الله عنه .

(٣) اللحن : الميل عن جهة الاستقامة . يقال : لحن فلان فى كلامه إذا مال عن صحيح المنطق . وقال ابن برى وغيره : للحن ستة معانٍ : الخطأ فى الإعراب واللغة والغناء والفطنة والتعريض والمعنى . [لسان العرب ـ مادة : لحن] .

لسان مَنْ يشكو ؛ فكلاهما لا ينطق بِسَلاسَة ، ويكثر اللحْنَ فى النُّطْق بالعربية .

فقال عبد الملك : أتُعيِّرنى بعبد الله ابنى الذى لا يُتقِن العربية دون لَحْن ؟ إن أخاه خالداً لا يلحن . وتبع ذلك بقوله : اسكُتْ يا هذا ، فلستَ فى العِير ولا فى النَّفِير .

وهذا مَثَلٌ نقوله حالياً ، وقد جاء إلينا عَبْر قريش ؛ حيث كانت السلطةُ فيها ذات مَصْدرين ؛ مصدر العِير ؛ أى : التجارة التى تأتى من القوافل عَبْر الشام وقائدها أبو سفيان ؛ والنَّفِير ؛ وهم القَوْم الذين نَفَرُوا لِنجْدة أبى سفيان فى موقعة بدر ؛ وكان يقودهم عتبة . فقال ابن يزيد : ومَنْ أَوْلَى بالعِير والنَّفِير منِّى ؟ ويعنى أنه حفيدُ أبى سفيان من ناحية الأب ؛ وحفيدُ عُتْبة من ناحية الأم .

وأضاف : لكن لو قُلْت شُوَيْهات وغُنَيْمات وذكرت الطائف لكنتَ على حق ؛ ورَحِم الله عثمان الذى عفَا عن جَدِّك ، وأرجعه من المَنْفى .

ونعلم أن الحق سبحانه وتعالى قال لرسوله ﷺ :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكان أىّ إنسان يسخر من رسول الله ﷺ يَلْقَى عقاباً إلهياً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الرعد]

فأنت يا رسول الله لستَ بِدْعاً فى الرسالة ، ولك أسوة فى الرسالة ، والحق سبحانه يَعدُكَ هنا فى مُحْكَم كتابه :

﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ..(٣٢) ﴾ [الرعد]

أى : أمهلتُ الذين كفروا ، والإملاء بمعنى الإمهال ليس معناه تَرْك العقوبة على الذَّنْب ، وإنما تأخير العقوبة لذنب قادم ، والمَثَل هو أن تترك مخطئاً ارتكبَ هَفْوة ؛ إلى أنْ يرتكب هَفْوة ثانية ؛ ثم ثالثة ، ثم تُنْزِل به العقاب من حيثُ لا يتوقع .

وإذا كان هذا ما يحدث فى عالم البشر ؛ فما بَالُنا بقوة الحق سبحانه اللامتناهية ، وهو القائل :

﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) ﴾ [الأعراف]

ويقول تعالى :

﴿ وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) ﴾ [آل عمران]

تماماً مِثْلما نجد مَنْ يصنع فَخاً لعدوه .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

وكلمة : ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾ [الرعد]

توضح أنه كان عقاباً صارماً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ إنَّ الَّذينَ أَجْرَمُوا كَانُوا منَ الَّذينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ (٢٩) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ (٣٠) وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ[1] (٣١) وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَـٰؤُلاءِ لَضَالُّونَ (٣٢) وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ (٣٣) فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٣٤) عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُونَ (٣٥) هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦) ﴾ [المطففين]

إذن : فلسوْفَ يَلْقَى الذين استهزءوا بالرسل العقاب الشديد .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾

ولقائل أنْ يتساءل : أَلَمْ يكُنْ من الواجب ما دام قد قال :

﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ (٣٣) ﴾ [الرعد]

أن يأتى بالمقابل ، ويقول : كـمَنْ ليس قائماً علـى كل نفس بما كسبت ؟

ولمثل هذا السائل نقول : إنها عظمة القرآن الذى يترك للعقل

---

(١) الفكه : كثير المزاح والاستهزاء بالآخرين . وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣١) ﴾ [المطففين] . يسخرون من المؤمنين ويتندَّرون بهم . [القاموس القويم ٢/٨٨] .

ما يمكن أن يستنبطه ؛ فيأتى بأشياء تتطلَّب التفكير والاستنباط ، كى يتنبَّه الإنسان أنه يستقبل كلام رَبٍّ حكيم ؛ وعليه أن يبحث فيه .

ولذلك يقول سيدنا عبد الله بن مسعود : « ثَوِّروا[1] القرآن » أى : أثيروه ، كى تكتشفوا ما فيه من كنوز .

ونحن نعلم أن كلمة « قائم على الأمر » تعنى أنه هو الذى يُديره ويُدبِّره ، ولا تَخْفَى عليه خافية . وجاء الحق سبحانه هنا بصيغة القيام ؛ كى نعلم أن الحق سبحانه لا يدير الأمر من حالة قعود ؛ بل يديره وهو قائم عليه ، فكل أمر هو واضح عنده غير خَفِىّ .

وهو سبحانه قائم على كل نفس بما كسبتْ إن خيراً فخيْر ؛ وإنْ شراً فشرّ ، ولكنكم أيها الكافرون المشركون لا تملكون لأنفسكم ضراً ولا نَفْعاً ؛ فهل يمكن لعاقل أنْ يساوى بين الذى يقوم على أمر كل نفس ، بغيره ممَّنْ ليس كذلك ؟

ولكن هناك مَنْ قال فيهم الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ .. (٣٣) ﴾ [الرعد]

أى : جعلوا للقائم على أمر كُلِّ نفس شركاء لا يقدر الواحد فيهم على أمر نَفْسه ؛ وبالتالى لا يقدر على أمر غيره ؛ بل قد يُصَابُ الصَّنم من هؤلاء بشَرْخ ؛ فيأتى مَنْ يعبدونه ليقوموا على أمره صارخين بأن إلههم قدْ انشرخَ ؛ ويحتاج إلى مسمارين لتثبيته ،

---

(١) تثوير القرآن : قراءته ومُفَاتشة العلماء به فى تفسيره ومعانيه . وقيل : ليُنقِّر عنه ويُفكر فى معانيه وتفسيره وقراءته . [لسان العرب ـ مادة : ثور] .

فكيف يُسوُّونَ ذلك الصنم بالله الذى لا يحدُّه شىء ولا يحُدُّ قدرته شىء ؟

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ .. (٣٣) ﴾ [الرعد]

دليل على النص المحذوف : « كمن هو غير قائم على كل نفس » ، فسبحانه ليس كهذه الأصنام العاجزة ؛ لأنه سبحانه قائم على كل نفس ؛ نفسك ونفس غيرك ونفس كل إنسان عاش أو سيعيش .

ولذلك يقول سبحانه بعدها :

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ .. (٣٣) ﴾ [الرعد]

وهنا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يقول للكافرين بالله : قُولوا أسماء مَنْ تعبدونهم من غير الله ؛ وهى أحجار ، والأحجار لا أسماءَ لها ؛ وهم قد سَمَّوْا الأصنام بأسماء كاللاّت والعُزَّى وهُبَل ؛ وهى أسماء لم تُضفْ لتلك الأصنام شيئاً ، فهى لا تقدر على شىء ؛ ولو سَمَّوْهَا لَنُسبت لعمرو بن لُحَىّ ، الذى أوجدهم[1] ؛ وهُمْ سَمَّوْها ساعة أنْ نحتُوها .

(١) قال ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٧٧) : « حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحىّ خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره ، فرأى العماليق يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟ قالوا له : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها فتمطرنا ، ونستنصرها فتنصرنا ، فقال لهم : أفلا تعطوننى منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ؟ فأعطوه صنماً يقال له هُبَل ، فقدم به مكة ، فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه » .

والإله الحق لا يسميه أحد ، بل يُسمِّى هو نفسه ، ولكن بما أن المسألة كَذب فى كَذِب ، لذلك يسألهم رسول الله ﷺ عن أسماء تلك الآلهة . ويقول لهم : هل تنبئون أنتم الله خالق كل الكون بما لا يعلم فى كونه الذى أوجده من عدم ؟

سبحانه يعلم كل ما خلق ؛ وأنتم لا تعبدون إلا أصناماً ينطبق عليها أنها من ظاهر القول ؛ أى : قول لا معنى له ؛ لأنهم أطلقوا أسماء على أشياء لا باطنَ لها ولا قدرة تستطيعها ، وهم اكتفَوْا بالظاهر والمُسمَّى غير موجود .

ويقول الحق سبحانه :

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ..(٣٣)﴾ [الرعد]

أى : أنهم ظنوا أنهم يمكرون على الله ، ويقولون إن تلك الأصنام آلهة ، وهى ليست كذلك .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ [الرعد]

أى : أن العذاب الذى يلْقونَه فى الحياة الدنيا هو لصيانة حركة المجتمع من الفساد ، ولا بد أنْ يقعَ لهم عذابٌ فى الحياة الدنيا ؛ ولأن مَنْ يؤجِّل عذابه للآخرة ؛ لا بد أن يرى فى نفسه آية العذاب قبل أن يلْقى عذابه فى الآخرة .

إذن : فعذاب الدنيا هو لحماية حركة الحياة ؛ ولذلك نجد القوانين وهى تُسَنُّ لِتُطبق على المنحرف ؛ ومَنْ يرتكب الجُرْم يخاف أن تقع

عليه العين ؛ وإنْ رآه أحد فهو يبلغ عنه ليلقى عقابه ؛ وبذلك تستقيم حركة الحياة .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول في سورة الكهف :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا[1] (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ[2] وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا (٨٦) قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) ﴾ [الكهف]

أي : أنه قد أخذ تفويضاً بأن يقيم الأمر في هؤلاء الناس ، فأقامه على أساس من الثواب والعقاب ؛ فمَنْ أحسنَ فلَهُ الجزاء الحسن ؛ ومَنْ أساء يَلْقى العقاب ، وهكذا نجد عذاب الدنيا ضرورياً لسلامة حركة الحياة من بَطْش مَنْ لا يؤمنون بالله .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول بعد ذلك :

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) ﴾

ولهؤلاء المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة عذابٌ في الدنيا بالقتل والأسْر والمصائب والكوارث التي لا يقدرون عليها ، وفوْق

---

(١) السبب : الوسيلة وكل ما يُتوصَّل به إلى شيء . [القاموس القويم ١/ ٢٩٩] .

(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/ ١٠٢) : « أي : رأى الشمس في منظره تغرب في البحر المحيط ، وهذا شأن كل من انتهى إلى ساحله يراها كأنها تغرب فيه » .

ذلك لهم عذاب فى الآخرة أكثر شدةً من عذابِ الدنيا ؛ فليس لهم مَنْ يحميهم ، أو يُقيم بينهم وبين عذاب الله وقاية أو عصْمة .

وفى المقابل يقول سبحانه بعد ذلك :

﴿مَثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

والمصدر الأساسى الذى وعدَ المتقين بالجنة هنا هو الله ، وقد بلَّغ عنه الرسل ـ عليهم السلام ـ هذا الوعد ، وتَلاهُمُ العلماء المُبلِّغون عن الرسل .

وأنت حين تنظر إلى فعل يشيع بين عدد من المصادر ، تستطيع أن تبحث عن المصدر الأساسى ، والمَثَل هو قول الحق سبحانه :

﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى[1] الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ..﴿٤٢﴾﴾ [الزمر]

ويقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. ﴿١١﴾﴾ [السجدة]

وهكذا تكون التَّوْفية قد آلتْ إلى الله ؛ وآلتْ إلى ملَكِ الموت ، وقد أخذ ملَكَ الموْت مسئولية التَّوفية من إسناد الحق له تلك المهمة ؛ ويكون نسبتها لملَكِ الموت هو نوع من إيضاح الطرف الذى يُوكِّل له الحق سبحانه تنفيذ المهمة .

---

(١) توفى الله فلاناً ، أو توفى الملك فلاناً : أماته وقبض روحه . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] .

ومرة يأتى الحق سبحانه بالمصدر الأصلى الذى يُصدِر الأمر لملَكِ الموْت بمباشرة مهمته .

وهنا فى الآية الكريمة نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

وهى مَبْنية لمَا لم يُسَمّ فاعله ؛ فالوعد منه سبحانه . ونعلم أن الرسول ﷺ يَعد أيضاً ، فها نحن قد جاء إلينا خبر بيعة العقبة ؛ حين أخذ البيعة من الأنصار ، وقالوا له : خُذْ لنفسك ، فأخذ لنفسه ما أراد ، ثم قالوا له : وماذا نأخذ نحن إنْ أدَّيْنَا هذا ؟ فقال لهم : « لكم الجنة »[1] .

وقد قال ﷺ ذلك ؛ لأن العمل الذى فعلوه ؛ لا يكفيه أجراً إلا الجنة ، ومن المعقول أن أىَّ واحد من الذين حضروا العقبة قد يتعرض للموت من بعد معاهدة رسول الله ﷺ ، فلو أنه وعدهم بِمَا فى الدنيا من متاع قد يأخذه البعض فيما بعد ؛ فالذى يموت قبل هذا لا بُدَّ أن يدرك شيئاً ممّا وعد الرسول مَنْ عاهدوه ؛ ولذلك أعطاهم ما لا ينفد ، وهو الوَعْد بالجنة .

والحق سبحانه هنا ـ فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ يقول :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١١٩ ، ١٢٠) من حديث أبى مسعود البدرى الأنصارى . وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٦/٤٨) . وانظر السيرة النبوية لابن هشام (٢/٤٣٣) .

أى : أنه يضرب لنا المَثَل فقط ؛ لأن الألفاظ التى نتخاطَبُ بها نحن قد وُضعتْ لمَعان نعرفها ؛ وإذا كانت فى الجنة أشياء لم تَرَهَا عَيْنٌ ، ولم تسمعها أُذنٌ ، ولم تخطر على بال بشر ؛ فمنَ المُمْكن أن نقول : إنه لا توجد ألفاظ عندنا تؤدى معنى ما هناك ، فيضرب الله الأمثال لنا بما نراه من الملذَّات ؛ ولكن يأخذ منها المُكدِّرات والمُعكِّرات[1].

وهكذا نعرف أن هناك فارقاً بين « مثل الجنة » وبين « الجنة » ، فالمَثَل يعطينى صورة أسمعها عن واقع لا أعلمه ؛ لأن معنى التمثيل أن تُلحِق مجهولاً بمعلوم لتأخذَ منه الحكم .

مثلما تقول لصديق : أتعرف فلاناً ؛ فيقول لك : « لا » . فتقول له : « إنه يشبه فلاناً الذى تعرفه » .

وأنت تفعل ذلك كى تشبه مجهولاً بمعلوم ؛ لتأتى الصورة فى ذهْن سامعك .

ويقول الرسول ﷺ شرحاً لما أجْمله القرآن :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويضيف ﷺ : « فيها ما لاَ عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خَطر على قَلْب بشر »[2].

---

(١) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد] وقال فى آية أخرى : ﴿ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ (٤٦) لا فِيهَا غَوْلٌ وَلا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ (٤٧) ﴾ [الصافات] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٣٣٤) ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٥) من حديث سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه .

وحين تُدقِّق فى هذا القول النبوىّ الكريم تجد الترقِّى كاملاً ؛ فقوله : « ما لا أذن سمعتْ » جاء لأنه يعلم أن مُدْركَات العيْنِ محدودة بالنسبة لمَا تعلمُ الأذن ؛ لأن الأذن تسمع ما لا تدركه العين ؛ فهى تسمع مَا يراه غيرُك بالإضافة إلى ما تراه أنت.

فالأذن تسمع القريب وتسمع البعيد وتنقل صوته وتستحضره ثم تميزه ، بخلاف العين فهى محدودة المسافة حسب قوة الإبصار ، ومع كل فنعيم الجنة فوق كل هذا الفوق .

ثم يأتى الترقِّى الأكبر فى قوله : « ولا خطر على قلب بشر » . والخواطر أوسَعُ من قدرة الأذن وقُدْرة العين ؛ فالخواطر تتخيَّل أشياء قد تكون غيرَ موجودة .

وهكذا نرى عَجْز اللغة عن أنْ تُوجد بها ألفاظ تعبر عن معنى ما هو موجود بالجنة ، ولا أحدَ فينا يعلم ما هى الأشياء الموجودة بالجنة ، وما دام أحد منا لم يرَ الجنة ؛ وما دام الرسول ﷺ قال : « فيها ما لا عَيْن رأتْ ، ولا أُذن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر ».

فلا بُدَّ أن نعلم قَدْر عَجْز اللغة عن التعبير عَمَّا فى الجنة ، فإذا أراد الله أنْ يُعبِّر عَمَّا فيها ؛ فهو يُوضِّح لنا بالمثَل ؛ لا بالوصف ، لأنه يعلم أن لغتنا تضع الألفاظ لمَا هو موجود فى حياتنا ؛ ولا توجد ألفاظ فى لغتنا تُؤدِّى معانى ما فى الجنة .

ولذلك قال لنا الحق سبحانه :

﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى .. (١٥) ﴾ [محمد]

ومع أن الحق سبحانه يضرب مثلاً ، إلا أنه خلَّص المَثَل من شوائبه التى نعرفها فى الدنيا ، فالمياه عندما تجرى ؛ تكون حُلْوة ورائقة وصافية ؛ وإنْ ركدتْ فهى تأسَنُ[1] وتكون عَطِنة .

ولذلك يُوضِّح لنا الحق سبحانه أن المياه فى الجنة غير آسنة ؛ وأنها تكون أنهاراً منزوعاً من مياهها ما يُكدِّرها .

وكذلك المثل بأنهار من لبن لم يتغير طَعْمه . واللبن كما نعرف هو غذاء البدو ؛ فَهُمْ يحلبون الماشية ، ويحتفظون بألبانها فى قِرَب لِمُدد طويلة ؛ فيتغير طَعْم اللبن ؛ ولذلك يضرب لهم المثَل بوجود أنهارٍ من لبن لم يتغير طَعْمه .

وأيضاً يضرب المثل بوجود أنهار من عَسَل مُصفًّى ، والعسل ـ كما نعرف ـ كان فى الأصل يأتى من النحْل الذى كان يسكن الجبال قبل استئناسه ؛ ووَضْعه فى مناحل فى الحدائق .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ هو القائل :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

وحين بحث علماء الحشرات عن تاريخ النحل ، وجدوا أن أقدمَ عسلٍ فى العالم هو الذى كان موجوداً فى الكهوف الجبليّة ؛ ثم يليه فى العمر العسل الذى جاء من خلايا النحل ؛ تلك الخلايا التى أقامها

(١) أسن الماء : تغيَّرت رائحته . والماء الآسن : هو الذى لا يشربه أحد من نَتْنِه . [لسان العرب ـ مادة : أسن] .

النحل بعد استئناسه ؛ ومن بعد ذلك يأتى العسل الذى أقمْنَا نحن له المنَاحل .

وقد ميَّزوا العسل القديم عن المتوسط عن الجديد ، بأن أحرقوا بعضاً من كل نوع من أنواع العسل ، فنتج من الاحتراق عنصر الكربون ؛ ومن هذا العنصر اكتشفوا عمر كل نوع من الثلاثة .

ويوضح الحق سبحانه أن بالجنة أنهاراً من عَسَل مُصفًّى ، وبذلك يُقدِّم لنا خَيْر ما كنا نُحبه من عسل الدنيا ، ولكن بدون ما يُكدِّره .

ويوضِّح سبحانه أيضاً أن فى الجنة أنهاراً من خمر ، ولكنها خَمْر تختلف عن خمر الدنيا ؛ فهى لا تؤثر على التكوين العُضْوى للعقل ، كما أن خمر الدنيا ليس فيها لذةٌ للشاربين ؛ لأنها من كحول يكْوى الفم ويلْسعه ؛ ولذلك تجد مَنْ يشربها وهو يسكْبها فى فمه لتمُرَّ بسرعة فلا يشعر بلسعها فى فمه ، فتذهب إلى معدته مباشرة فتلهبها .

ويختلف الحال لو كان المشروب هو شراب عصير المانجو أو البرتقال أو القصب ؛ حيث تستطيب النفس مذاقَ تلك الفواكه ؛ فنجد مَنْ يشربها يتمهَّل ليستبقى أثرها فى فمه .

ويقول الحق سبحانه عن خمر أنهار الجنة :

﴿ لا فِيهَا غَوْلٌ[1] .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الصافات]

---

(١) الغَوْل : الصداع . وقيل : السُّكْر . والغَوْل : أن تغتال عقولهم . [لسان العرب ـ مادة : غول] .

أى : أنه سبحانه ينفى عن خَمْر أنهار الجنة كُلَّ المُكدِّرات التى توجد فى خمر الدنيا .

إذن : فساعةَ تسمع مثلاً عن الجنة ؛ فاعلم أنه مَثَلٌ تقريبىّ ؛ لأنه لا يمكن أن تأتى الحقيقة ، حيث لا يوجد لفظ يُعبِّر عنها ؛ وهى لم توجد عندنا ؛ وسبحانه لا يخاطبنا إلا بما نعلم من اللغة ؛ لذلك يأتى لنا بالمثَل المضروب لنأخذ منه صورة تقريبية .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، يقول الحق سبحانه :

﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ..(٣٥)﴾ [الرعد]

ونعلم أن عَصَب حياة العرب أيام نزول القرآن كان هو الماء ؛ ألم يطلبوا من الرسول أن يُفجِّر لهم الأنهار تفجيراً[1] ؟

نجد الحق سبحانه قد جاء بالتعبير القرآنى عن أنهار الجنة بصورتين مختلفتين :

أولهما : ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ..(٣٥)﴾ [الرعد]

مثلما قال فى الآية التى نحن بصَدد خواطرنا عنها .

ومرَّة يقول سبحانه :

﴿تجرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ..(١٠٠)﴾ [التوبة]

والفارق بين العبارتين هو استيعاب الكمالية فى النص ، بمعنى أن :

(١) قال تعالى : ﴿وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيرًا (٩١)﴾ [الإسراء] .

﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣٥) ﴾ [الرعد]

تُوضِّح أن منابع تلك الأنهار تأتى من تحت تلك الجنة مباشرة ؛ فلا يَقِلّ الماء فى تلك الأنهار أبداً .

ويُقال : إن الفارق بين أنهار الدنيا وأنهار الجنة أن أنهار الدنيا عبارة عن شقوق فى الأرض لها شواطىء تحتضنها ؛ أما أنهار الآخرة فهى تسير على الأرض دون شواطىء تحجزها(١) .

وتجد أنهار الخمر تسير أيضاً فى الأرض ، ولا تتداخل مع أنهار الماء ، وكذلك أنهار اللبن ، وكُلُّ ذلك من صَنْعة رَبٍّ حكيم قادر .

أما قوله :

﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ ..(١٠٠) ﴾ [التوبة]

أى : أن منابعها ليست من تحتها مباشرة ؛ ولكنها تأتى دون نَقْصٍ من جهة أنت لا تعلمها ؛ وهو سبحانه قادر على كل شىء .

ويتابع سبحانه ، فيقول عن تلك الجنة :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

والأُكل هو ما يُؤكَل ، وسبحانه القائل :

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ..(٢٥) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أورد السيوطى فى هذا آثاراً فى كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » (١/٩٥) منها :

- أخرج ابن مردويه وأبو نعيم والضياء المقدسى كلاهما فى صفة الجنة عن أنس قال قال رسول الله ﷺ : « لعلكم تظنون أن أنهار الجنة أخدود فى الأرض ، لا والله إنها لسائحة على وجه الأرض ، حافتاها خيام اللؤلؤ ، وطينها المسك الأذفر . قلت : يا رسول الله ما الأذفر ؟ قال : الذى لا خلط معه » .

وقوله : ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : لا ينقطع ، ونعلم أن الإنسان حين يأكل ؛ فهو يفعل ذلك بهدف إشباع جُوعه ؛ وبعد أن يُشبِع جُوعَه ؛ قد يطلب أن يُرفعَ الطعام من أمامه ، إلى أنْ يجوع ، فيطلب الطعام من جديد .

ومنْ يحبون الطعام فى حياتنا الدنيا نرى الواحد منهم وهو يقول : « أشعر ببعض الضيق لأنِّى شبعتُ » ، فهو فى عراك بين نفس تشتهى وبين بطن لا تشبع ، وكأنه كان يريد أنْ يستمر فى تناول الطعام طوال الوقت .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

شغل هذا القول الرومان الذين كانوا أصحاب امبراطورية عُظْمى زَلْزلها الإسلام بحضارته الوليدة ، وأرسل امبراطورهم مَنْ يطلب من أحد الخلفاء إرسال رجل قادر على شرح قول الحق :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

فأرسل لهم أحدَ العلماء ؛ وسألوه : يقول قرآنكم إن أُكُل الجنة دائم ؛ ونحن وأنتم تعلمون أن كل شىء يُؤخذ منه لا بُدَّ له أن ينقص ؛ فكيف يكون أُكُل الجنة دائماً ؟

قال العالم لهم : هاتوا مصباحاً . فأحضروا له المصباح ، وأشعله أمامهم . وقال لكل منهم : فليأْتِ كل منكم بمصباحه . فأحضر كل منهم مصباحه . وقال لهم : فَلْيُشعِل كل منكم مِصْباحه .

وهنا سألهم : ما الذى أنقصه إشعال مـصابيحكم من هذا المصباح ؟ قالوا : لا شىء . فقال لهم : هكذا ضرب الله لنا المثَل بأُكُل الجنة .

وبطبيعة الحال كان يجب أن يلتفتوا إلى أن المصباح يعتمد فى اشتعاله على الزيت المخزون فيه ، ويأتيه منه المَدَد ، أما الجنة فمدَدُهَا من الله .

وهناك مَنْ قال : هل نتغوَّط فى الجنة ؟ فَردَّ عليه واحد من العارفين : لا . فتساءل : وأين تذهب بقايا ما نأكل من طعام الجنة ؟

فقال العارف بالله : مثلما تذهب بقايا ما يتغذى عليه الطفل فى بطن أمه ؛ حيث يحترق هذا الفائض فى مَشيمة[1] الطفل ؛ والطفل فى بطن أمه إنما ينمو بشكل مستمر ، مُعتمِداً على غذاء يأتيه من أمه عَبْر الحَبْل السُّرىّ .

وكل تلك الأمور تقريبية تجعلنا نعبر الفجوة بين ما نشهده فى حياتنا اليومية ، وبين ما أعدَّه الله للمتقين ، وهو القيُّوم على كُلِّ أمْرٍ .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ..(٣٥) ﴾ [الرعد]

يعنى : أن الطعام موجود ولا ينتهى وكذلك الظل . والظل حَجْب المضىء عن مكان ؛ أو حَجْب مكان عن المضىء ، ولا أحد يعلم أنه ستوجد هناك شمس أم لا ؛ والعقل البشرى قاصر عن تخيُّل ذلك ؛

---

(١) المشيمة للمرأة هى التى يكون فيها الولد . قال ابن الأعرابى : يُقال لما يكون فيه الولد المشيمة والكيس والحَوْران والقميص . [لسان العرب ـ مادة : شيم] .

فهو من فعل الله ، وهو سبحانه قادر على كل شيء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً (٥٧) ﴾

[النساء]

وهو القائل سبحانه :

﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقعة]

ويتابع سبحانه :

﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾ [الرعد]

أى : يا متقى الله ؛ ووضعتَ بينك وبين صفات جلاله وقاية ، ولم تقربْ محارمه واتبعتَ منهجه ؛ ستجد أنه سبحانه يُجازيك بصفات كَماله وجَماله ؛ فيُنزلك الجنة التى وعدكَ بها .

لذلك إنْ وجدتَ مشقَّة فى التكليف فعليك أن تعلمَ أن جزاء تلك المشقَّة هو الجزاء الجميل ؛ لأنك صدَّقْتَ رسولك ﷺ حين قال : « حُفَّتْ الجنة بالمكاره ؛ وحُفَّتْ النار بالشهوات »[1] .

والعاقل ساعةَ يرى تكليفاً يحُدُّ من حريته ؛ فهو يستحضر الجزاء على تلك المشقَّة ، وهو أيضاً حين يرى أمراً يبدو فى ظاهره شهوة

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٥٣ ، ٢٥٤) ، ومسلم فى صحيحه (٢٨٢٢) ، والترمذى فى سننه (٢٥٥٩) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه . قال الترمذى : « حديث حسن غريب من هذا الوجه صحيح » .

عاجلة ؛ فهو يستحضر العقاب على تلك الشهوة العاجلة فيستبعدها .

وأى من الجزاء الطيب أو العقاب قد يأتى فجأة ؛ لأن الموتَ لا ميعادَ له ؛ ونحن نُصدِّق قول رسولنا ﷺ :

« الموت القيامة ، فمن مات فقد قامت قيامته »[1] .

وهكذا يُضخِّم الحق سبحانه من جزاء المؤمن المُتقِّى فيعشق العمل ، ويتحمل مشاقّ التكليف ليكون مَوْصُولاً بالجزاء الطيب ، فهذا الجزاء هو عُقْبى العمل الحسن فى الدنيا ، فالغاية الحقيقية من كل مراحل الوجود هى ألاَّ يوجد بَعْد للغاية ؛ لأنها غاية الخلود لا تعرف البعدية .

وما دامت الجنة تضمن الخلود أبداً ، فهى تستحق أن تكون غايةَ المؤمن وعاقبةَ عمله ، والتزامه بالتكاليف الإيمانية .

تماماً كما تكون النار هى عاقبة الكافرين المُكذِّبين ؛ حيث يروْنَ الخير مصير المؤمنين ؛ ويروْنَ الشرَّ مصيرهم ؛ فيُجمع عليهم التنغيصُ ؛ مرة بوجود الخير عند أهل الإيمان ؛ ومرة بأن يَرَوْا ما أُعدَّ لهم من شرٍّ .

لذلك قال سبحانه :

﴿ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الرعد]

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، وتمامه : « أكثروا ذكر الموت ، فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدّره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسّعه عليكم » الحديث .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ[1] مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِۦ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

ونعلم أن الإسلام قد سُبِق بدينين ؛ دين النصارى قَوْم عيسى عليه السلام ؛ ومن قبله دين اليهود قوم موسى عليه السلام ؛ وكلاَ الدينين له كتاب ؛ الإنجيل كتاب المسيحية ؛ والتوراة كتاب اليهودية ؛ والقرآن هو كتاب الله المهيمن[2] الخاتم ؛ كتاب الإسلام ، وهناك كتب سماوية أخرى مثل : صحف إبراهيم ؛ وزبور[3] داود ، وغير ذلك .

وكان على مَنْ نزل عليهم التوراة والإنجيل أن يواصلوا الإيمان بمَدَد السماء ، والخير القادم منها إلى الأرض ، وقد سبق أن أخذ الله من أنبيائهم الميثاق على ذلك ، قال تعالى :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٦٢) : « يعنى مشركى مكة ، ومن لم يؤمن من اليهود والنصارى والمجوس . وقيل : هم العرب المتحزِّبون على النبى ﷺ » . وأطلقت « الأحزاب » فى القرآن على كل قوم تحزَّبوا ضد رسولهم . وقد وردت فى القرآن ١١ مرة .

(٢) هيمن عليه هيمنة : كان رقيباً عليه ، حافظاً له ، مسيطراً عليه . [القاموس القويم ٢/٣٠٨] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٦٥) جمعاً بين عبارات المفسرين : « هذه الأقوال كلها متقاربة المعنى ، فإن اسم المهيمن يتضمن هذا كله ، فهو أمين وشاهد وحاكم على كل كتاب قبله » .

(٣) الزبور : الكتاب المكتوب قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء] . أى : كتاباً . وجمعه زُبُر . قال تعالى : ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾﴾ [الشعراء] . أى : كتبهم . [القاموس القويم ١/٢٨٣] .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي[1] قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) ﴾[آل عمران]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد شاء أن يستقبل كُلٌّ دين سابق الدينَ الذى يَليه بالإيمان به ؛ وفى كل دين سابق لآخر كانت النصوص تؤكد ضرورة الإيمان بالرسول القادم ، كى لا يحدث اقتراع بين الأديان الناسخة والأديان المنسوخة .

فمنْ صميم مواد أىِّ دين سابق أن ينتظر الدين الذى يليه ، وإذا ما جاء الدين الجديد فهو يستقبله فَرْعاً وتكملة ، ولا يستقبله كدين يُضَادُّ الدين السابق .

وإذا كان الإسلام هو الدين الذى تُختم به مواكب الرُّسُل ؛ فلا بُدَّ أن الأديان السابقة عليه قد بَشَّرَتْ به ، وكل مؤمن بالأديان السابقة مُوصى بضرورة الإيمان به .

يقول الحق سبحانه :

﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ .. (١٣) ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

---

(١) الإصر : العهد الثقيل ، وما كان عن يمين وعهد فهو إصر . [لسان العرب ـ مادة : أصر] .

أى : أن أهل التوراة والإنجيل يفرحون بما جاءك يا محمد من القرآن ، والإنسان لا يفرح بشىء إلا إذا حقَّق له غايةً تُسْعده ، ولا بُدَّ أن تكون هذه الغاية منشورة ومعروفة .

وهم قد فرحوا بما نزل إلى رسول الله ﷺ ؛ لأنه حقق لهم ما جاء فى كتبهم من نبوءة به .

ومعنى ذلك أن كتبهم قد صدقتْ ، ومَنْ جاء بالرسالة الخاتم صادق ، وكان عليهم أن يكونوا أول المُبَادرين إلى الإيمان به .

ذلك أن الفرحة هى العملية التعبيرية أو النُّزوعية من مواجيد الحب ، والإنسان إنما يفرح بتحقيق أمر طيِّب كان ينتظره .

ولذلك كان يجب أن يُهرولوا للإيمان بالدين الجديد ، وأنْ يعلنوا الإيمان به مثلما فعل كعب الأحبار[1] ، وعبد الله بن سلام ، وسلمان الفارسى الذى جاب أغلب البلاد باحثاً عن الدين الحق .

وهؤلاء هم مجرد أمثلة لِمَنْ أرادوا أنْ يُعبِّروا بالفرحة واستقبال مَدَدِ السماء عَبْرَ مجىء النبى الخاتم محمد بن عبد الله ﷺ ، وأعلنوا البيعة للرسول الجديد كما بشَّرَتْ به الكتب السماوية السابقة على بعثته ، ثم وقفوا موقف العداء من الذين لم يفرحوا بِمقْدمِ الرسول ، ثم غيَّروا ما جاء فى كتبهم السماوية طمعاً فى السلطة الزمنية .

---

(١) هو : كعب بن ماتع الحميرى أبو إسحاق ، تابعى ، كان فى الجاهلية من كبار علماء اليهود فى اليمن ، أسلم فى زمن أبى بكر ، وقدم المدينة فى دولة عمر ، أخذ عنه الصحابة وغيرهم كثيراً من أخبار الأمم الماضية ، سكن حمص وتوفى بها عام ٣٢ هـ عن ١٠٤ عاماً . (الأعلام للزركلى ٥/٢٢٨) .

وعـرف مَنْ آمنوا برسـالة رسـول الله ﷺ أن الذين أنكروا نبـوة محـمد بن عـبد الله قـد دَلَّسوا[1] على أنفـسـهم وعلى غيـرهم ، وأتوْا بأشياء لم تكن مـوجودة فى كتبهم المُنزَّلة عـلى رسلهم كادعائهم أن لله أبناء ، وسبحانه مُنزَّه عن ذلك .

ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦)﴾ [الرعد]

تلك عـدالة مـن القـرآن ؛ لأن القـرآن لم ينكر الكـتب السـمـاوية السابقـة بأصولها ، ولكنه أنكر التـحريف فى العقـائد ، وأنكر مواقف مَنْ حرَّفوا وادَّعوْا كذباً أن هناك بنوة لله .

هذا التحريف لم يَنَلْ من القرآن إنكاراً لكل ما جاء بالكتب السابقة على القرآن ؛ ولكنه أنكر التّحريف فقط .

وقد أثبتَ القرآن ما لله وما للرسول ، وأنكر التحريف الذى أرادوا به السلطة الزمنيـة ؛ وادعاء القـداسة ، والتـجارة بصكوك الغـفران ، وبيع الجنة ، وتلقِّى الاعـترافات ، وغـير ذلك مـما لم يَنْزل به كـتاب سماوى .

وحين جاء الإسلام ليُحرِّم ذلك دافعوا عن سلطتهم التى يتاجرون بها فى أمور الدين ، وهى ليست من الدين .

---

(١) المـدالسة : المـخادعـة . وقـد دالس ودلَّس فى البيع وفى كل شىء إذا لم يبين عـيبـه . والتدليس فى البيع : كتمان عيب السلعة عن المشترى . [لسان العرب ـ مادة : دلس] .

وانظر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

وهذا القول دليلٌ على أن هؤلاء المُغيّرين فى الكتب السماوية أو الذين أنكروا وحدانية الله ؛ هؤلاء جاء لهم بالقول الفَصْل :

﴿ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

أى : أنه يُقرّ بأن هناك ديناً قد اُختير له من قبَل مُرَبٍّ ؛ ولم يَخْتَرْ محمد شيئاً أعجبه ليعبده ، ولكنه كرسول من الله يَشْرُف بالانتماء لما جاءه الأمر به من السماء ، وهو لا يشرك به أحداً .

ونجد الرسول ﷺ يتعصَّب لِمَا يتعلق بربه ؛ وقد يتهاون بما يتعلق بشخصه .

ولذلك وجدنا بعضَ الملاحدة وقد قالوا له : نحن نؤمن بالله وبالسماء والوحى وبكل شىء ، لكنّا لا نؤمن بك أنت ، ولم يغضب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، ولو كان يُدخِل ذاته أو أنانيته فى الأمر لَغضِب ، ولكنه لم يغضب .

والدليل على هذا هو أن مواجيده ﷺ كانت مع الروم المؤمنين بكتاب سماوى ضد المشركين الذين لا يؤمنون بدين سماوى وهم الفُرْس ؛ وحزن ﷺ حين غُلبت الروم ، فنزل إليه القول الحق بنبأ النصر القادم فى بِضْع سنين ؛ تسليةٌ له ﷺ :

﴿ الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) ﴾ [الروم]

وهؤلاء في قلب رسول الله كانوا أقربَ من غيرهم ؛ لأنهم يتبعون ديناً سماوياً ؛ وساعة يرى رائحة صاحب خير يرجحه على صاحب الشر ؛ فهو يطلب لهم النصر ويُبشِّره الله بخبر نصرهم في بِضْع سنين ، وهم يحملون رائحة الخير ، رغم أنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ .

ومعنى :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ .. (٣٦) ﴾ [الرعد]

أي : أنني سأعبد الله وحده ، ولن أعطف على عبادته شيئاً ؛ ويدعو لعبادته وحده ؛ لأنه يعلم أنه سيؤوب إليه ، كما سيؤوب إليه كُلُّ إنسان ؛ فلا أحدَ ينفلتُ من ربه وخالقه ، ولا بُدَّ لكل إنسان أن يُعِد عُدَّته لهذا المآب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ[1] وَلَا وَاقٍ (٣٧) ﴾

والمقصود بـ « كذلك » إشارة إلى إرسال الرسل المُتقدِّمين بمعجزات شاءها الحق سبحانه ، ولم يقترحها أحد .

وقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

ساعةَ نسمعه نرى أن هناك مكانة علِيّة يُنزل منها شيئاً لمكانة

(١) الولي : النصير والناصر . والموالاة : ضد المعاداة . والوليّ : ضد العدو . [لسان العرب ـ مادة : ولي] .

أدْنَى ، ومثل ذلك أمر معروف فى الحِسِّيات ، وهو معروف أيضاً فى المعنويات .

بل وقد يكون هذا الشىء لم يَصِل إلى السماء ؛ ولكنه فى الأرض ، ومع ذلك يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[1] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وهو إنزالٌ ، لأنه أمر من تدبير السماء ، حتى وإنْ كان فى الأرض :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

والحكم هو المَعْنى ، والمقصود بالإنزال هنا هو القرآن ، وهو كتاب ؛ والكتاب مَبْنى ومَعْنى ، وشاء الحق سبحانه هنا أن يأتى بوصف المبالغة ليأتى الوصف وكأنه الذات ، أى : أنه أنزل القرآن حُكْماً ؛ وهذا يعنى أن القرآن فى حَدِّ ذاته حُكْم .

وأنت حين تصف قاضياً يحكم تمام العدل ؛ لا تقول « قَاضٍ عادلٌ » بل تقول «قَاضٍ عَدْل » أى : كأن العدل قد تجسَّم فى القاضى ؛ وكأن كُلَّ تكوينه عَدْل .

والحق سبحانه هنا يوضح أن القرآن هو الحُكْم العدل ، ويصِفه بأنه :

﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

لأن اللسان الذى يخاطب به الرسول القوم الذين يستقبلون بآذانهم ما يقوله لهم لابُدَّ أن يكون عربياً .

---

(١) البأس : الشدة والقوة والصلابة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

ولذلك يقول فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ[١] لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ (٤٤) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه شرفٌ كبير لك ولقومك ، أن نزل القرآن بلغة العرب .

وقد حفظ القرآن لنا اللغة العربية سليمة صافيةً ؛ بينما نجد كل لغات العالم قد تشعَّبتْ إلى لهجات أولاً ، ثم استقلتْ كل لهجة فصارتْ لغة ، مثل اللغة اللاتينية التى خرجتْ منها أغلب لغات أوربا المعاصرة من : إنجليزية وفرنسية وإيطالية ، ووجدنا تلك اللغات تتفرَّق إلى لغات استقلالية ، وصار لكل منها قواعد مختلفة .

بل إن اللغة الإنجليزية على سبيل المثال صارت « إنجليزية - إنجليزية » يتكلم بها أهل بريطانيا ؛ و « إنجليزية - أمريكية » يتكلم بها أهل الولايات المتحدة .

ولو تركنا - نحن - لغة التخاطب بيننا كمسلمين وعرب إلى لغة التخاطب الدارجة فى مختلف بلادنا ؛ فلن يفهم بعضنا البعض ، ومرجع تفاهمنا مع بعضنا البعض - حين نتكلم - هو اللغة الفصحى.

ودليلنا ما رأينا فى مغربنا العربى ، فنجد إنساناً تربَّى على اللغة الفرنسية ، أو تكون لغة جَمْعاً بين لهجات متعددة من البربرية والفرنسية وبقايا لغة عربية ، فإذا حدثته باللغة العامية لا يفهم منك شيئاً ، وإن تحدثت معه باللغة العربية استجاب وأجاب ؛ لأن فطرته تستقبل الفصحى فهماً وإدراكاً .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٨/٤) : « معناه أنه شرف لهم من حيث إنه أنزل بلغتهم ، فهم أفهم الناس له فينبغى أن يكونوا أقوم الناس به وأعملهم بمقتضاه . وقيل معناه : أى التذكير لك ولقومك وتخصيصهم بالذكر لا ينفى من سواهم » .

وهكذا رأينا كيف صان القرآن الكريم اللغة العربية واللسان العربى .

ومن ضمن معانى قول الحق سبحانه :

﴿ حُكْمًا عَرَبِيًّا .. (٣٧) ﴾ [الرعد]

أى : أن الذى يصُون ويعصِم هذا اللسان العربى هو القرآن الكريم.

ويتابع سبحانه بقوله :

﴿ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم[1] بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾ [الرعد]

وهذا خطاب مُوجَّه منه سبحانه لرسوله ﷺ يكشف فيه الحق سبحانه أمام رسوله ﷺ مَضارّ وخطورة اتباع الهوى ؛ وهو خطاب يدل على أن الدين الذى نزل على موسى ثم عيسى ، وهما السابقان لرسول الله ؛ لم يَعُدْ كما كان على عهد الرسولين السابقين ؛ بل تدخَّل فيه الهوى ؛ ولم يَعُدْ الدين متماسكاً كما نزل من السماء .

ولذلك يقول سبحانه فى آية أخرى :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَـٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾ [المؤمنون]

ذلك أنه سبحانه لو اتبع أهواءهم لَضَاع نظام الكون ؛ ألم يقولوا لرسول الله ﷺ :

---

(١) الهوى : محبة الإنسان الشىء وغلبته على قلبه . جمعه أهواء . [لسان العرب ـ مادة : هوا] .

﴿أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[1] .. (٩٢)﴾ [الإسراء]

ولو استجاب الحق مثلاً لهذه الدعوة ، ألم تكن السماء لتفسد ؟

إذن : فبعد أن نزل القرآن من السماء حكماً وعلماً ومنهجاً يسهل عليهم فهمه ، لأنه بلُغتهم ، وهو يحمل كامل المنهج إلى أن تقوم الساعة ، وفيه دليل السعادة فى الدنيا والآخرة .

لذلك فليس لأحد أنْ يتبع هواه ؛ فالهوى ـ كما نعلم ـ يختلف من إنسان لآخر ، والخطاب المُوجَّه لرسول الله ﷺ يتضمن فى طيّاته الخطاب لأمته ﷺ .

ومَنْ يفعل ذلك فليس له من دون الله ولىّ يؤازره أو ينصره ، أو يقيه عذاب الحق : شقاءً فى الدنيا ، وإلقاءً فى الجحيم فى الآخرة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾

وأنت يا محمد لست بدْعاً من الرسل فى مسألة الزواج والإنجاب[2] . وهى تحمل الرد على مَنْ قالوا :

---

(١) كسَفاً : قطعاً . وهو جمع كسفة . وقال الجوهرى : الكسفة القطعة من الشىء . [تفسير القرطبى ٥/٤٠٥٩] .

(٢) ذكر النيسابورى فى « أسباب النزول » (ص ١٥٨) أن الكلبى قال : «عيرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت : ما نرى لهذا الرجل ـ يقصدون محمدًا ﷺ ـ همة إلا النساء والنكاح ، ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى هذه الآية » .

﴿مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ[١] .. ﴿٧﴾﴾[الفرقان]

ومنهم مَنْ قال : ما لهذا الرسول يتزوج النساء ؟ ألم يكن من اللائق أن يتفرغ لدعوته ؟

وهؤلاء الذين قالوا ذلك لم يستقرئوا الموكب الرسالى ، لأنهم لو فعلوا لوجدوا أن أغلب الرسل قد تزوَّجوا وأنجبوا .

وحين تكون حياة الرسول قريبةً ـ كمثال واضح ـ من حياة الناس الذين أُرسِل إليهم ؛ ليكون أُسْوة لهم ؛ فالأُسْوَة تتأتَّى بالجنس القابل للمقارنة ؛ وحين تكون حياة الرسول كحياة غيره من البشر فى إطارها العام ؛ كأبٍ وزوجٍ ، فالأسوة تكون واضحة للناس .

ونعلم أن هناك مَنْ جاء إلى رسول الله ؛ ليطلب الإذن بالتفرُّغ التامّ للعبادة من : صوم وصلاة وزُهْد عن النساء ، فنهى الرسول ﷺ عن ذلك وقال فى حديث شريف :

« إنى لأخشاكم لله ، وأتقاكم له ، لكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رَغِبَ عن سُنَّتى فليس منِّى »[٢] .

---

(١) وقد ردَّ عليهم رب العزة فقال : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ.. ﴿٢٠﴾﴾ [الفرقان] ويقول فى آية أخرى : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لاَّ يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء] .

(٢) عن أنس بن مالك قال : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبى ﷺ يسألون عن عبادة النبى ﷺ ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها فقالوا : وأين نحن من النبى ﷺ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر . فقال أحدهم : أما أنا فإنى أصلى الليل أبداً . وقال الآخر : إنى أصوم الدهر فلا أفطر . وقال الآخر : أنا أعتزل النساء فلا أتزوج ، فجاء رسول الله ﷺ فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ، أما والله إنى لأخشاكم لله... » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (٤/١٥١ ـ فتح البارى) .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ [الرعد]

أى : ما كان لأحد أن يقترح على الله الآية التى تأتى مع أىّ رسول من الرسل ، ولم يكُنْ لأىٍّ رسول حق فى اختيار الآية المصاحبة له .

وبهذا القول حسم الحق سبحانه قضية طلب المشركين لآيات من الرسول ﷺ ؛ لأن كل رسول جاء لزمنه ولقومه ؛ وكل معجزة كانت من اختيار الله ، وكل رسول يؤدى ما يُكلِّفه به الله ؛ وليس للرسول أن يقترح على الله آيةً ما ؛ لأن الخالق الأعلى هو الأعلم بما يصلح فى هذه البيئة على لسان هذا الرسول .

ونأخذ من قوله الحق :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ [الرعد]

أن لكل رسالة رسولها ، ولكل رسالة مكانها ، ولكل رسالة معجزتها ، فإذا كان الأمر كذلك فدعوا محمداً ﷺ وما اختاره الله له ؛ فى المكان الذى شاءه سبحانه ، وفى الزمان ؛ وفى المعجزة المصاحبة له ﷺ .

ولكن ، أهناك تغيير بعد أن يقول الحق سبحانه :

﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) ﴾ [الرعد]

نعم هناك تغيير ، وانظروا إلى قول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿يَمْحُواْ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ٣٩﴾

والمَحْو كما نعلم هو الإزالة ، والتثبيت أى : أن يُبقِى الحق ما يراه ثابتاً .

وقد يتوهم بعض الناس - خطأ - أن كل حُكْم فى القرآن قد جاء ليثْبُتَ وسيظلّ هكذا أبدَ الدهر ؛ ولكن عند التطبيق ظهر أن بعض الأحكام يقتضى تغييرها يغيرها الله لحكمة فيها خير البشرية .

ونقول : لا ، لم يحدث ذلك ، ولكن كانت هناك أحكام مَرْحلية ؛ ولها مُدَّة مُحدَّدة ؛ ولذلك جاء قول الحق سبحانه :

﴿وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ٣٩﴾ [الرعد]

أى : عنده اللوح المحفوظ الذى تحدَّدتْ فيه الأحكام التى لها مُدَّة مُحدّدة ؛ وما أن تنتهى إلا وينزل حُكْم آخر مكانها ، وعلى هذا المعنى يمكن أن نقول : إنه لم يوجد نَسْخٌ للأحكام ، لأن معنى النَّسْخ أن يُزحزِحَ حُكْماً عن زمانه ، وهنا لم نجد حُكْماً يتزحزحُ عن زمانه ؛ لأن كلَ حُكْم موقوتٌ بوقت محدود ؛ وما أن ينتهى الوقت حتى يبدأ حُكْم جديد .

أقول ذلك كى أنبِّه العلماء إلى ضرورة أنْ يجلسوا معاً لدراسة ذلك ، حتى لا يختلف العلماء : أهناك نَسْخ أم لا ، وأقول : فلْنُحدد النَّسْخ أولاً ، لأن البعض يظن أن هناك حكماً كان يجب أن ينسحب على كل الأزمنة ، ثم جاء حُكْم آخر ليحل محله لحكمة تقتضيها مصلحة البشرية والمراد لله منها .

ولا يوجد حُكْم أنهى حُكْماً وطرأ عليه ساعة الإنهاء ؛ بل كل

الأحكام كانت مُقدَّرة أزلاً ؛ وعلى ذلك فلا يوجد نَسْخ لأيِّ حُكْم ، ولكن هناك أحكام ينتهي وقتها الذي قدّره الله لها ؛ ويأتي حُكْم سبق تقديره أزلاً ليواصل الناسُ الأخذ به ؛ وما دام الأمر كذلك فلا يوجد نسخ .

ولننْظُر إلى قول الحق سبحانه :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا[1] نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾[البقرة]

ويتضح من منطوق الآية ومفهومها أن عند نسخ حكم يأتي الله بمثله أو خير منه . إذن : ليس هناك نسخ وإنما هناك أحكام تؤدي مهمتها في زمن ثم يأتي زمن يحتاج إلى حكم خير منه أو مثله في الحكم ، ولكنه يوافق المصالح المرسلة مع مراد الله .

ولقائل أنْ يقول : ما دام سيأتي بخير من الآية المنسوخة أو المُنْسَأة فذلك أفضل ، ولكن لماذا يأتي بالمثْل ؟

وأقول : لأنك إنْ جاءك ما هو خَيْر منها قد تَسْتسيغه ، ولكن حين ننتقل إلى مثْل ما جاءتْ به الآية ؛ فهذا مَحَكُّ الإيمانَ .

والمثْل هو التوجُّه في الصلاة إلى بيت المقدس في أول الدعوة ؛ ثم مَجِيء الأمر بتحويل القبلة إلى الكعبة ؛ فلا مشقَّة في ذلك .

ولكن هنا يتم اختبار الالتزام الإيماني بالتكليف ، وهنا الانصياعُ للحكم الذي يُنزِله الله ، وهو حُكْم مُقدَّر أزَلاً ؛ وفي هذا اختبار لليقين

---

(١) نسأ الشيء ينسؤه : أخَّره عن موعده . قال الجصاص في « أحكام القرآن » (١/ ٧١) : « أما : (أو ننسها) قيل : إنه من النسيان . وننسأها من التأخير ، يقال : نسأتُ الشيء أخَّرته بأن يؤخرها فلا ينزلها وينزل بدلاً منها ما يقوم مقامها في المصلحة أو يكون أصلح للعباد منها » .

الإيمانىّ فى إدارة توجيه المُدبِّر لهذا السير .

وكذلك فى الحج يأتى الرسول ﷺ ليُقبِّل الحجر الأسود ؛ ثم يرجم الحجر الذى يرمز لإبليس ، ونحن نفعل ذلك أُسْوة برسول الله ﷺ ، وكلاهما حجر ، ولكنَّنا نمتثل لأمره ﷺ . فتقبيل الحجر الأسود ورجم الحجر الذى يشير إلى رمزية إبليس ، كل هذا استجابة لأمر لآمر .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ [الرعد]

فهو يعنى أنه سبحانه يُنهِى زمن الحكم السابق الذى ينتهى زمنه فى أُمِّ الكتاب أى اللوح المحفوظ ؛ ثم يأتى الحكم الجديد .

والمثال : هو حكم الخمر ؛ وقد عالجها الحق سبحانه أولاً بما يتفق مع قدرة المجتمع ؛ وكان المطلب الأول هو تثبيت العقيدة ؛ ثم تجىء الأحكام من بعد ذلك .

وهناك فرق بين العقيدة ـ وهى الأصل ـ وبين الأحكام ، وهى تحمل أسلوب الالتزام العقدىّ ، وكان الحكم فى أمر العقيدة مُلزِماً ومستمراً .

أما الأحكام مثل حكم الخمر فقد تدرج فى تحريمها بما يتناسب مع إلْف الناس ؛ واعتيادهم ؛ فقلَّل الحق سبحانه زمن صُحْبة الخمر ؛ ثم جاء التحريم والأمر بالاجتناب ، وعدم القُرْب منها .

والمثل فى حياتنا ؛ حيث نجد مَنْ يريد أن يمتنع عن التدخين

وهو يُوسِّع من الفجوة الزمنية بين سيجارة وأخرى ، إلى أن يقلع عنها بلطف ، وينفيها من حياته تماماً .

ونجد القرآن يقول في الخمر :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا .. (٦٧) ﴾ [النحل]

وهنا يمتنُّ الله عليهم بما رزقهم به ؛ ولكن أهل الذَّوْق يلتفتون إلى أنه لم يَصِف الخمر بأنها من الرزق الحسن ؛ ووصف البلح والعنب بأنه رزق حسن ؛ لأن الإنسان يتناوله دون أن يفسده .

وهكذا يلتفت أهل الذوق إلى أن الخمر قد يأتي لها حكم من بعد ذلك ، ثم يُنزل الحق سبحانه عظة تقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا .. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه ميْل الخمر والميسر إلى الإثم أكثر من مَيْلهما إلى النفع ، ثم جاء من بعد ذلك قوله بحكم مبدئي :

﴿ لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء]

ومعنى ذلك أن تتباعد الفترات بين تناول الخمر ، فلا يحتسي أحدٌ الخمر طوال النهار وجزء من الليل ، وفي ذلك تدريب على الابتعاد عن الخمر .

---

(١) السَّكَر : بالفتح ، كل ما يسكر أي الخمر ، أو نقيع التمر وعصير العنب الذي لم تمسه النار ، وهو غير مسكر . والسكر هنا يحتمل أنه الخمر المسكر ، ويحتمل أنه عصير حلو غير مسكر ، أو الخل ، وإذا فُسِّر بأنه ما يُسكر يكون نزول الآية للامتنان بهذه النعمة قبل تحريم الخمر [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] .

ثم يأتى التحريم الكامل للخمر فى قوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) ﴾ [المائدة]

وهكذا أخذ الحكم بتحريم الخمر تدرّجه المناسب لعادات الناس ، وتمَّ تحريم الخمر بهوادة وعلى مراحل .

وهكذا نفهم النَّسْخ على أنه انتهاء الحكم السابق زمناً وبداية الحكم الجديد ، وهذا يعنى أن الحكم الأول لم يكن مُنْسحباً على كل الزمن ثم أزلناه وجئنا بحكم آخر ؛ ولكن توقيت الحكم الأول - أزلاً - قد انتهى ؛ وبدأ الحكم الجديد .

وهكذا لا يوجد مجال للاختلاف على معنى النسخ ، ذلك أن الحق سبحانه أرجع المَحْو والإثبات إلى أم الكتاب ؛ ففيها يتحدد ميعاد كل حكم وتوقيته ؛ وميعاد مجىء الحكم التالى له .

وما دام كل أمر مرسوم أزلاً ؛ فعلى مَنْ يقولون أن البَدَاء محرم على الله أن ينتبهوا إلى أن هذا المحو والإثبات ليس بَداءً ؛ لأن البداء يعنى أن تفعل شيئاً ، ثم يبدو لك فساده فتُغيِّره .

والحق سبحانه لم يظهر له فساد ما أنزل من أحكام أو آيات ؛ بل هو قدَّر كل شىء أزلاً فى أم الكتاب ، وجعل لكل حكم ميقاتاً وميلاداً ونهاية .

ويصح أن يتسع معنى قول الحق سبحانه :

﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩) ﴾ [الرعد]

ليشمل نسخ رسالة برسالة أخرى ؛ فيكون قد محا شيئاً وأثبت

شيئاً آخر ، وكل شىء فيه تغيير إلى الخير يصحّ فيه المَحْو والإثبات ، وهو من عند الرقيب العتيد :

﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق]

أى : أنه القادر على أن يأمر الرقيب والعتيد بأن يُثبتا الواجبات والمحرمات ، وأنْ يتركا الأمور المباحة ، وهو القادر على أنْ يمحوَ ما يشاء من الذنوب ، ويُثبت ما يشاء من التوبة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ[1] أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾﴾

هذه الآية تُحدِّد مهمة الرسول ﷺ فى أن يُبلِّغ منهج الله ، فمَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر ، إلا أن قول الحق سبحانه فى رسوله ﷺ :

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة]

جعله هذا القول متعلقاً بهداية قومه جميعاً ، وكان يرجو أن يكون الكل مهتدياً ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله فى موقع آخر :

---

(١) أى : نريهم بعض الذى نعدهم من العذاب ، مثل قوله تعالى : ﴿لَهُمْ عَذَابٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا..﴿٣٤﴾﴾ [الرعد] . وقوله تعالى : ﴿وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ .. ﴿٣١﴾﴾ [الرعد] .

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا[2] ﴿٦﴾ ﴾ [الكهف]

أى : أنك لستَ مسئولاً عن إيمانهم ، وعليك ألاّ تحزن إنْ لم ينضمُّوا إلى الموكب الإيمانى ، وكُلُّ ما عليك أن تدعوهم وتُبلِّغهم ضرورة الإيمان ؛ والحق سبحانه هو الذى سوف يحاسبهم إما فى الدنيا بالمحو والإذهاب ، أو فى الآخرة بأن يَلْقَوْا عذاب النار .

وحينَ يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

فنحن نعلم أن كل دعوة من دعوات الخير تكبُر يوماً بعد يوم ؛ ودعوات الشر تبهت يوماً بعد يوم . ومَنْ يدعو إلى الخير يُحب ويتشوق أنْ يرى ثمار دعوته وقد أينعت[3] ، ولكن الأمر فى بعض دعوات الخير قد يحتاج وَقْتاً يفوق عمر الداعى .

ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ .. ﴿٤٠﴾ ﴾ [الرعد]

أى : اغرس الدعوة ، ودَعْ مَنْ يقطف الثمرة إلى ما بعد ذلك ، وأنت حين تتفرَّغ للغَرْس فقط ؛ ستجد الخير والثمار تأتى حين يشاء الله ؛ سواء شاء ذلك إبَّان حياتك أو من بعد موتك .

وأنت إذا نظرتَ إلى الدعوات التى تستقبلها الحياة ستجد أن لكل

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

(٢) الأسف : هوَ الحزن مع الغضب . والأسيف والأسوف : السريع الحزن الرقيق . والأسِف : الغضبان المتلهف على الشىء . [لسان العرب ـ مادة : أسف] .

(٣) أينع الثمر : أدرك ونضج وحان قطافه . [القاموس القويم ٢/٣٧٣] .

دعوة أنصاراً أو مؤيدين ، وأن القائمين على تلك الدعوات قد تعجَّلوا الثمرة ؛ مع أنهم لو تمهَّلوا ليقطفها مَنْ يأتى بعدهم لنَجحتْ تلك الدعوات .

ونحن فى الريف نرى الفلاح يغرس ؛ ومن خلال غَرْسه نعرف مراداته ، هل يعمل لنفسه ، أو يعمل من أجل من يأتى بعده ؟

فَمنْ يغرس قمحاً يحصد بسرعة تفوق سرعة مَنْ يغرس نخلة أو شجرة من المانجو ، حيث لا تثمر النخلة أو شجرة المانجو إلا بعد سنين طويلة ، تبلغ سبع سنوات فى بعض الأحيان ، وهذا يزرع ليؤدى لِمَنْ يجىء ما أداه له مَنْ ذهبَ .

ونحن نأكل منْ تَمْر زَرَعه لنا غيرنا ممَّنْ ذهبوا ، ولكنهم فكّروا فيمَنْ سيأتى من بعدهم ، ومَنْ يفعل ذلك لابُدَّ وأن يكون عنده سعَة فى الأرض التى يزرعها ؛ لأن مَنْ لا يملك سعَة من الأرض فهو يفكر فقط فيمَنْ يعول وفى نفسه فقط ؛ لذلك يزرَع على قَدْر ما يمكن أن تعطيه الأرض الآن .

أما مَنْ يملك سعَة من الأرض وسعَة فى النفس ؛ فهو مَنْ وضع فى قلبه مسئولية الاهتمام بمَنْ سيأتون بعده . وأنْ يردّ الجميل الذى أسداه له مَنْ سبقوه ، بأن يزرع لغيره ممَّنْ سيأتون من بعده .

ودعوة محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ شهدتْ له بأنه لم يبحثْ لنفسه عن ثمرة عاجلة ؛ بل نجد الدعوة وهىَ تُقابل الصِّعاب تلْو الصعاب ، ويلْقى ﷺ ما تلقَّى من العنت والإرهاق والجهد ؛ بعد أَنْ جهر بالدعوة فى عشيرته الأقربين .

ثم ظلَّتْ الدعوة تتسع فى بعض العشائر والبطون إلى أن دالت[1]

---

(١) الإدالة : الغلبة . وأدالنا الله من عدونا : من الدولة . ويقال : أُديل لنا على أعدائنا أى نُصِرْنا عليهم . [لسان العرب ـ مادة : دول] .

عاصمة الكفر ؛ وصارت مكة بيت الله الحرام كما شاء الله ، وأسلمتْ الجزيرة كلها لمنهج الله . وأرسل ﷺ الكتب إلى الملوك والقياصرة ، وكلها تتضمن قوله ﷺ « أسلم تسلم » .

ودَلّتْ هذه الكتب على أن الدعوة الإسلامية هى دعوة مُمتدَّة لكل الناس ؛ تطبيقاً لمَا قاله الحق لرسوله ﷺ أنه : « رسول للناس كَافَّة » .

قال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيرًا ..(٢٨) ﴾ [سبأ]

وفَهم الناس الفَارق بين رسالته ﷺ وبين كَافَّة الرسالات السابقة ، فإلى قوم عاد أرسل هوداً عليه السلام .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أهل مَدْين :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن بَعْثَة موسى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا حدَّد الحق سبحانه زمان ومكان القوم فى أىّ رسالة سبقتْ رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

لكن الأمر يختلف حين أرسل سبحانه محمداً ﷺ رسولاً وجعله للناس كافَّة ، فقد علم سبحانه أزلاً أن هذا هو الدين الخاتم ؛ لذلك أرسل رسول الله إلى حُكَّام العالم ـ المعاصرين له ـ دعوةً لدخول الدين الخاتم .

وقد ترك الرسول ﷺ تلك المهمة لمَنْ يخلفونه ، ودعا ﷺ الجزيرة العربية تحت لواء « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » بعد أن كانت قبائل متعددة .

كل قبيلة كانت لا تُلزم نفسها بعبادة إله القبيلة الأخرى ؛ وكل قبيلة لا تلزم نفسها بتقنينَ القبيلة الأخرى ، ولم يجمعهم أبداً شَمْل ، ولا استيطانَ لهم إلا في بعض القُرَى ، ذلك أن أغلبهم من البَدْو الرُّحَّل ؛ كل واحد منهم يحمل بيته - الخيمة - على ظهر بعيره ، ويمشي بحثاً عن الكلأ والماء لأغنامه وماشيته .

فلم يكن عندهم انتماء وطني ؛ فضلاً عن القبائل التي كانت تتقاتل فيما بينها في تارات عنيفة ، وامتدت الحرب فيما بين بعض القبائل إلى أربعين عاماً في بعض الأحيان .

استطاع ﷺ أن يُوظِّف ما كانوا عليه من تدريب وعَتَاد وعُدَّة لنُصْرة دين الله ؛ فحين إعداده للغزوات أو اختياره السرايا[1] كان يجد المقاتلين في كامل لياقتهم .

وحين استدعاهم إلى الحرب لم يُجْر لهم تدريبات ؛ فقد كان الكل مُدرَّباً على القتال .

وهكذا صارتْ القبائل أمة واحدة بعد أن جمعهم محمد رسول الله ﷺ في وحدة التكامل العقدي تحت راية الإسلام ، وهذه الأمة الأمية ، قال فيها الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ[2] رَسُولاً مِّنْهُمْ.. ﴿٢﴾﴾ [الجمعة]

---

(١) السرايا : جمع سرية ، وهي القطعة من الجيش ، ما بين خمسة أنفس إلى ثلثمائة . سُميت سرية لأنها تسْرى ليلاً في خفية . [لسان العرب - مادة : سرا] .

(٢) الأميون : هم العرب . قال ابن منظور في اللسان (مادة : أمم) : « قيل للعرب الأميون ، لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة ، فهم على أصل ولادة أمهم لم يتعلموا الكتابة والحساب ، فهم على جبلتهم الأولى » .

وكانت هذه الأمية شرفاً لهم كَيْلا يُقَال : إنهم أصحاب قَفْزة حضارية من أمة مُتمدينة . وكانت هذه الأمية مُلْفتة ، لأن ما جاء في تلك الأمة من تشريعات وقفتْ أمامه الأمم الأخرى إلى زماننا هذا باندهاش وتقدير .

وشاء الحق سبحانه لهذه الأمة أن تحملَ رسالة السماء لكل الأرض ، وبعد أن نزل قول الحق سبحانه :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا .. ③ ﴾ [المائدة]

فَهِم بعض الناس أن الرسول ﷺ ينعي نفسه لأمته[1] .

ومن بعد رحيله ﷺ إلى الرفيق الأعلى انساح صحابته بالدين الخاتم في الدنيا كلها ، وخلال نصف قرن من الزمان صار للإسلام جناحان ؛ جناح في الشرق ، وجناح في الغرب . وهزم أكبر امبراطوريتين متعاصرتين له ؛ هما امبراطورية فارس بحضارتها وامبراطورية الروم .

وكانت البلاد تتخطَّف الإسلامَ كمنهج حياة ، حدث ذلك بعد أن حارب الإسلامُ الامبراطوريتين في آنٍ واحد ، وأقبل الناس على الإسلام ليتحقَّقوا من معجزته التي لَمَسُوها في خُلُق مَنْ سمعوا القرآن وحَملوا رسالته ؛ ثم في اكتشافهم لعدالة القرآن في إدارة حركة الحياة .

---

(١) أخرج ابن جرير عن السدي في قوله : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ .. ③﴾ [المائدة] . قال : « هذا نزل يوم عرفة ، فلم ينزل بعدها حرام ولا حلال ، ورجع رسول الله ﷺ فمات » . أورده السيوطي في الدر المنثور (٣/١٩) .

وهكذا اكتشفوا أن معجزة الإسلام عقلية ؛ وأن رسوله ﷺ هو الرسول الخاتم الذى لم يأتِ لهم بمعجزة حسِّية ، وإذا كان القرآن معجزة فى اللغة للقوم الذينَ نزل فيهم رسولَ الله ﷺ ؛ فالقرآن لِمَنْ لم يعرفوا لغة القرآن كان معجزة فى العدالة والقيم النابعة منه .

وكان الناس يندفعون إلى الإسلام بقوة دَفْع من المؤمنين به ، وبقوة جَذْب من غير المؤمنين ؛ حين يروْنَ ألاَّ فَرْق بين الأمير وأصغر فَرْد تحت رايته ، وحين يلمسون عدالته ومساواته بين البشر .

ولم يكن الإسلام معجزة لقومه فقط ؛ بل لكل الدنيا ، ويتحقق دائماً قول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ[1] وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ . (٥٣) ﴾ [فصلت]

ونجد مُفكّراً كبيراً من الغرب المعاصر يعلن إسلامه ، رغم أنه لم يقرأ القرآن ؛ بل نظر فقط فى المبادىء التى قَنَّنها الإسلام ، وكيف تحمل حلولاً لِمَا عجزتْ عنه الحضارات المتعاقبة وأهل القوانين فى كل بلاد الأرض .

ويعرف أن تلك القوانين قد جاءتْ لرسول ينتمى لأمة لم تبرعْ إلا فى البلاغة والأدب ، وتضع تلك القوانين حلولاً لمشاكل تعانى منها الدنيا كلها .

ورأينا كيف بحثَ رجل عن أعظم مائة فى تاريخ البشرية ، وكيف جعل محمداً ﷺ أوَّلهم ، وهذا الباحث لم يقرأ القرآن ؛ ولكنه درسَ

---

(١) الآفاق : جمع أفق ، وهو الناحية ، وخط التقاء السماء بالأرض فى رأى العين . [القاموس القويم ١/٢٢] .

آثار تطبيق القرآن ، وبعد أنْ يُعجبَ بالمنهج القرآنى نجده يُعجب بالنص القرآنى .

والمثل : هو دراسة الألمان لعملية إدراكات الحسِّ ؛ وكيف يشعر الإنسان بالألم ؟ وكيف يلمس الإنسان ببَشْرته بمَلْمسٍ ناعم فيُسَرّ منه ، ثم يلمس شيئاً خشناً فيتأذى منه .

واستمر الألمان يدرسون ذلك لسنوات ؛ كى يعرفوا مناطَ الإحساس وموقعه فى الإنسان ، هل هو فى المُخِّ أم أين ؛ إلى أن انتهوْا إلى أن مناطَ الإحساس فى كُلِّ إنسان هو فى الجلْد ، وأنها خلايا مُنبسطة تحت الجلْد مباشرة ؛ بدليل أن الإبرة حين نغرزها فى جسم الإنسان ؛ فهو يتألم فقط فى منطقة دخولها ؛ وليس أكثر .

ولفتَ ذلك نظر أحد العلماء ؛ فقال : لقد تحدث القرآن عن ذلك حين قال :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ[1] جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا (٥٦) ﴾ [النساء]

ولو أن تلك الجلود قد احترقتْ ؛ فالعذاب سينتهى ؛ لذلك يُبدِّل الله جلودهم ليستمر العذاب ، وهذا مَثَلٌ واحد من أمثلة ما كشف عنه القرآن .

ومن الأمثلة المعاصرة فى العلوم الجنائية قصة شاب مسلم من سوهاج سافر إلى ألمانيا ليُعد رسالة الدكتوراه فى القانون ، ووجدهم

---

(١) قال ابن عمر فى تفسير الآية : « إذا احترقت جلودهم بدلناهم جلوداً بيضاء أمثال القراطيس » أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/٥٦٨) .

يقفون عند قضية التعسُّف[1] فى استعمال الحق ، ويعتبرونها من أهم الإنجازات القانونية فى القرن العشرين .

فأوضح لـهم هذا الشاب أن الإسـلام قد سبـقهم فى تقـدير هذه المسألة ووضع الحكم المناسب فيها من أربعة عشر قرناً من الزمان .

وروى لهم أن رجـلاً جـاء إلى رسول الله ﷺ قـائلاً : إن لفـلان عندى فى ساحة بيتى نخلة ، وهو يدخل بيتى كل ساعة بحجة رعاية تلك النخلة ؛ مرة بدعـوى تأبيرها[2] ؛ وأخرى بدعـوى جَنْى ثمارها ، وثالثة بدعوى الاطمئنان عليها حتى جعل النخلة شُغله الشاغل .

وشكا الرجل للرسـول ﷺ أنه يتأذى هو وأهل بيتـه من اقتـحام الرجل للحياة الخاصـة له ، فأرسل ﷺ إلى صاحب النخلة وقال له : « أنت بالخيـار بين ثلاثة مواقف : إما أن تهبـه النخلة - وتلك منتهى الأريحية - ، وإما أنْ تبيعها له ، وإما قطعناها »[3] .

وهكذا وضـع ﷺ قـواعد لـلتعـامل فـيمـا يسمـى « التعـسُّف فى استعمال الحق » .

وفى انجلترا وجدوا أن القـانون التجارى ملىء بالثغـرات ، ومثال هذا أن التعامل فى السوق قد يتطلب بعـضاً من المرونة بين التجار ؛ فـهذا يرسل لذاك طـالباً من الآخـر ألفـاً من الجنيـهات ؛ وفـلان يردُّ ما أخذه أو يقايضه .

---

(١) التعسف : إساءة استعمال الحق مع ظلم وعدم رويّة أو دراية .

(٢) ابر النخلة والزرع : اصلحه . وتابير النخل : تلقيحه . [لسان العرب - مادة : ابر] .

(٣) عن بعض أصحاب النبى ﷺ قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن لفلان نخلة فى حائطى فمره فليبعنيها أو ليهبها لى قال : فابى الرجل فقال رسول الله ﷺ « افعل ولك بها نخلة فى الجنة فأبى فقال النبى ﷺ : « هذا أبخل الناس » .

واصطدم الواقع بأن بعض التجار لا يعترفون ببعض الديون التجارية التى عليهم ، وقديماً كان إذا أراد تاجر أن يقترض من زميل له ؛ فهو يكتب الدَّيْن فى كمبيالة أو إيصال أمانة ؛ وذلك لتوثيق الدَّيْن .

ولكن الأمر اليومى فى السوق قد يختلف ؛ فهذا يحتاج نقوداً لأمر عاجل ، وزميله يثق فى قدرته على الردِّ والتسديد ؛ لأنه قد يحتاج هو الآخر لنقود عاجلة ، ويثق أن مَنْ يقرضه الآن ، سيقرضه فيما بعد ؛ ولذلك أنشأوا ما يُسمَّى بالدَّيْن التجارى ، فيفتحون « دفتراً » يُسجِّلون فيه الديون التجارية ؛ لتحكم الدفاتر فيما يعجز عن تذكُّره الأشخاص .

وذهب شاب مسلم لبعثة دراسية هناك ؛ وأوضح لهم أن قضية الدَّين أخذت اهتمام الإسلام ؛ لدرجة أن أطول آية فى القرآن هى الآية التى تحدد التعامل مع الديون ؛ وأخذ يترجم لهم قول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلا يَبْخَسْ[1] مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا[2] أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن

(١) البخس : النقص . يقول تعالى : ﴿ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ .. ⦃٢٠⦄ ﴾ [يوسف] أى : ناقص دون ثمنه . [لسان العرب ـ مادة : بخس] .

(٢) السفيه : الناقص العقل السيىء التصرف . [القاموس القويم : ١/٣١٧] . وقال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٣٥) : « أى محجوراً عليه بتبذير ونحوه » .

تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ[١] إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ وَلا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلا تَسْأَمُوا[٢] أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ[٣] أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وظاهر الأمر أنه يحمى الدائن ، ولكن الحقيقة أنه يحمى المدين أيضاً ؛ لأن المدين إنْ علم أنَّ الدَّيْن مُوثَّق ؛ فهو سيسعى جاهداً أن يؤديه فى موعده ، وأيضاً كى لا يأخذ النصَّابون فرصة للهرب من السداد ، وبذلك حمى القرآنُ الدائن والمدين معاً كى لا تقف حركة التعامل بين الناس .

ومع هذا فإنه لم يمنع الأريحية الإيمانية والمروءة أن تسلك طريقها فى عالم الود والإخاء المؤمن ؛ فإنْ كان لك قريب أو إنسان لك به صلة ، وأنت تأمنه على ما اقترض منك ؛ يقول لك الحق سبحانه :

﴿ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِى اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ .. (٢٨٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) الضلال : النسيان . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) سئم الشيء : ملَّه وضجر منه وأحسَّ بفتور نحوه . قال تعالى : ﴿ وَلا تَسْأَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة] .

(٣) الجناح : الإثم والذنب . قال تعالى : ﴿ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا .. (١٥٨) ﴾ [البقرة] أى : لا إثم ولا حرج عليه بل له الثواب والأجر العظيم . [القاموس القويم ١/١٣١] .

وبهذا القـول يشعر مَنْ يحـمل أمانة من الغيـر بالخجل ؛ فيـعمل على رَدِّها . ثم يضيف الحق سبحانه :

﴿ إِلاَّ أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا .. (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

وهكذا جـاء الإسلام بقـوانين لا يمكن أن تخرج من أمـة أميَّـة ؛ لأنهـا قوانين تسـبق العصـور ، وهى قـوانين تنبع من دين سمـاوى خـاتم . ولذلك عندمـا سـألونى عن مـوقف الإسـلام من التـقـدمـيـة والرجعية ، قلت لهم :

إن القـياس خاطـىء ؛ لأنك لن تستطيع أن تقـيس فكْر بشر بـما أنزله رَبٌّ كل البشـر ، وإذا كان العالم بشَـرْقه وغَرْبه يهـتدى إلى أىِّ خير تـنتظم به حياته ؛ ويجد جـذوراً لذلك الخير فى الإسـلام ؛ فهذا دليل على أن العالم يتجه إلى الوسطية .

وكان المـثل فى الشـيوعيـة التى قامت ثورتـها الدمويـة فى عام ١٩١٧ ؛ وقالوا : إنها مُقـدِّمة للشيوعية ؛ وسقطتْ الشيـوعية من بعد أن أصيب المجـتمع الروسى بالتيبُّس والجـمود ، والخوف من أسلوب حُكْم الحزب الشيوعى .

ونجد الرأسمـالية الشرسة ، وهى تُهذِّب من شراسـتها ؛ وتعطى العامل حقَّـه وتُؤمِّن عليه ، وهكذا يتجه العالـم إلى الوسطية التى دعا لها الإسلام .

وقد نزل الإسلام من قِبَل عالمٍ عليمٍ بكل الأهواء وبكل المراحل .

ولذلك نجد الحق سبحانه وهو يُطمئنُ رسوله ﷺ إنْ آذاه أحدٌ فى المنهج الذى جاء به ؛ لأنه ﷺ لم يكن ليأبه بمَنْ يحاول أن يُؤذيَه فى شخصه ، وكان ﷺ لا يغضب لنفسه ؛ ولكن إنْ تعرَّض أحد للمنهج فغضبه ﷺ يظهر جليّاً .

ومَنْ وقفوا ضد الدين قابلهم الرسول ﷺ بالدعوة ؛ فمَنْ آمن منهم نال حلاوة الإيمان ؛ ومَنْ لم يؤمن فقد توالتْ عليه المصائب من كل جانب ، منهم مَنْ رأى النبى ﷺ مصارعه .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ (٤١) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ (٤٢) ﴾ [الزخرف]

أى : أنه جَلَّ وعلاَ إما أن يُلحق رسوله بالرفيق الأعلى ، وينتقم من الذين وقفوا ضده ؛ أو يُريه عذابهم رأى العين[1] .

وكأن هذا القول هو الذى يشرح قوله سبحانه هنا :

﴿ وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

وعذاب الدنيا ـ كما نؤمن ـ مَهْما بلغ فلن يصلَ إلى مرتبة عذاب الآخرة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٨) : « لم يقبض الله تعالى رسوله ﷺ حتى أقر عينه من أعدائه ، وحكّمه فى نواصيهم ، وملكه ما تضمنته صياصيهم (حصونهم) . هذا معنى قول السدى واختاره ابن جرير » .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ ﴾

و « يَرَوْا » هنا بمعنى « يعلمـوا » ، ولم يَقُلْ ذلك ؛ لأن العلم قد يكون علْماً بغيب ، ولكن « يروا » تعنى أنهم قـد علموا ما جاء بالآية علْم مشهد ورؤية واضحة ، وليس مع العين أيْن .

وإذا جاء قول الحق سـبحانه ليخبرنا بأمـر حدث فى الماضى أو سيـحدث فى المستـقبل ؛ ووجدنا فـيه فعل الرؤية ؛ فـهذا يعنى أننا يجب أن نؤمن به إيمان مَشْهدٍ ، لأن قـوله سبحانه أوثق من الرؤية ، وعلمه أوثق من عينيك .

وسبق[١] أنْ قال الحق سبحانه لرسوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ ﴾ [الفيل]

ونعلم أن النبى ﷺ قد وُلد فى عام الفيل ، ولا يمكن أن يكون قد رأى ما حـدث لأصحاب الفـيل ، ولكنه صدَّق ما جـاء به القول الحق وكأنه رؤيا مَشْهدية .

وقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [الفرقان]

(١) قول فضيلة الشيخ هنا « سبق » هو باعتبار زمان ومكان نزول سورتى الفيل والرعد ، وليس باعتبار ترتيبهما فى المصحف ، فسورة الفيل مكية ، أما سورة الرعد فهى مدنية . (ع) .

وحين يُعبِّر القرآن عن أمر غيبى يأتى بفعل « يرى » مثل قوله الحق :

﴿ ولَوْ ترَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا[1] رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ .. (١٢) ﴾[السجدة]

وحين يتكلم القرآن عن أمر معاصر يقول :

﴿ أَفَلا يَرَوْنَ .. (٤٤) ﴾ [الأنبياء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وهذا قول للحاضر المعاصر لهم .

وتعريف الأرض هنا يجعلها مجهولة ، لأننا حين نرغب فى أن نُعرِّف الأرض ؛ قد يتجه الفكر إلى الأرض التى نقف عليها ؛ وبالمعنى الأوسع يتجه الفكر إلى الكرة الأرضية التى يعيش عليها كل البشر .

وقد تُنسَبُ الأرض إلى بقعة خاصة وقع فيها حَدَثٌ ما ؛ مثل قول الحق سبحانه عن قارون :

﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. (٨١) ﴾ [القصص]

ويقول الحق سبحانه عن الأرض كلها :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٥٥) ﴾ [النور]

---

(١) نكّس رأسه : طأطأه ذلاً وانكساراً . [القاموس القويم : ٢/٢٨٦] .

وبطبيعة الحال هم لن يأخذوا كل الأرض ، ولكن ستكون لهم السيطرة عليها .

وسبحانه يقول أيضاً :

﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نفهم أن كلمة « الأرض » تطلق على بُقعة لها حَدث خاص ، أما إذا أُطلقتْ ؛ فهى تعنى كل الأرض ، مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ[1] (١٠) ﴾ [الرحمن]

ومثل قوله تعالى لبنى إسرائيل :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ[2] لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

مع أنه قد قال لهم فى آية أخرى :

﴿ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ .. (٢١) ﴾ [المائدة]

فبعد أنْ حَدَّد لهم الأرض بموقع معين عاد فأطلق الكلمة ، ليدل على أنه قد شاء ألاَّ يكون لهم وَطَن ، وأنْ يظلُّوا مُبعْثرين ، ذلك أنهم رفضوا دخول الموقع الذى سبق وأنْ حَدَّده لهم وقالوا :

﴿ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا .. (٢٤) ﴾ [المائدة]

---

(١) الأنام : ما ظهر على وجه الأرض من جميع الخلق . وقال المفسرون : هم الجن والإنس . [لسان العرب - مادة : أنم] .

(٢) أى : من بعد إغراق فرعون . المقصود بالأرض هنا أرض الشام ومصر . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٤٠٦٧) .

ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ[1] فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

أى : جعلنا كل قطعة بما تحويه من تماسك متفرقة عن القطعة الأخرى ، وهذا هو حال اليهود فى العالم ؛ حيث يُوجَدُونَ فى أحياء خاصة بكل بلد من بلاد العالم ؛ فلم يذوبوا فى مجتمع ما .

وقوله الحق هنا :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا[2] مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١) ﴾ [الرعد]

مُوجَّه إلى قريش ، فقد كانت لهم السيادة ومركزها مكة ، ثم من بعد ذلك وجدوا أن الموقف يتغيَّر فى كُلِّ يوم عن اليوم الآخَر ؛ ففى كل يوم تذهب قبيلة إلى رسول الله ﷺ فى المدينة لِتعلنَ إسلامها وتبايعه .

وهكذا تنقص أمام عيونهم دائرة الكفر ، إلى أن أعلنوا هم أنفسهم دخولهم فى الإسلام .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن نقصتْ أرضُ الكفر ، وازدادتْ أرض الإيمان ، ورَأَوْا ذلك بأنفسهم ولم يأخذوا عِبْرةً بما رَأَوْه أمام أعينهم

---

(١) قطعناهم : فرقناهم فى الأرض أمماً أى طوائف وفرقاً . [لسان العرب ـ مادة : قطع] .

(٢) اختُلِفَ فى النقصان هنا على أقوال :

– قال ابن عباس : أو لم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض .

– وقال مجاهد وعكرمة : خرابها ونقصان الأنفس والثمرات .

– وقال ابن عباس ومجاهد فى رواية : موت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها .

قاله ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٢٠) ثم قال : « والقول الأول أولى وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية . وهذا اختيار ابن جرير » .

من أن الدعوة مُمْتدة ، ولن تتراجع أبداً ، حيث لا تزداد أرض إلا بمكين فيها .

والمكين حين ينقص بموقعه من معسكر الكفر فهو يُزيد رُقْعة الإيمان ؛ إلى أنْ جاء ما قال فيه الحق سبحانه :

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر]

وهناك أناس مُخْلِصون لدين الله ، ويحاولون إثبات أن دين الله فيه أشياء تدلُّ على المعانى التى لم تُكتشَفْ بعد ، فقالوا على سبيل المثال فَوْر صعود الإنسان إلى القمر : لقد أوضح الحق ذلك حين قال :

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ ۝٣٣﴾ [الرحمن]

وقالوا : إنه سلطان العلم .

ولكن ماذا يقولون فى قوله بعدها :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ ۝٣٥﴾ [الرحمن]

فهل يعنى ذلك أنه أباح الصعود بسلطان العلم كما تقولون ؟

ولهؤلاء نقول : نحن نشكر لكم محاولة رَبْطكم للظواهر العلمية بما جاء بالقرآن ، ولكن أين القمر بالنسبة لأقطار السماوات

---

(١) الشواظ - بضم الشين وكسرها - : القطعة من اللهب ليس فيها دخان . [القاموس القويم: ٣٦١/١] .

والأرض ؟ إنه يبدو كمكان صغير للغاية بالنسبة لهذا الكون المتَّسع ، فأين هو من النجم المسمَّى بالشِّعْرى[1] ، أو بسلسلة الأجرام المُسمَّاة بالمرأة المُسلْسلَة ؟ بل أين هو من المَجَرَّات التى تملأ الفضاء ؟

وحين تنظر أنت إلى النجوم التى تعلوك تجد أن بينك وبينها مائة سنة ضوئية ، ولو كنت تقصد أن تربط بين سلطان العلم وبين القرآن ، فعليك أنْ تأخذ الاحتياط ، لأنك لو كنت تنفذُ بسلطان العلم لما قال الحق سبحانه بعدها :

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. (٣٥)﴾ [الرحمن]

وإنْ سألتَ : وما فائدة الآية التى تحكى عن هذا السلطان ؛ فهى قد جاءتْ لأن الرسول قد أخبر القوم أنه صعدَ إلى السماء وعُرِج به ، أى : أنه صُعِد وعُرِج به بسلطان الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

وكلمة « أطراف » تدلنا على أن لكل شىء طُولاً وعَرْضاً تتحدد به مساحته ؛ وكذلك له ارتفاع ليتحدد حجمه . ونحن نعرف أن أىَّ طول له طرفان ، وإنْ كان الشىء على شكل مساحى تكون أطرافه بعدد الأضلاع .

وما دام الحق سبحانه يقول هنا :

---

(١) الشعرى : نجم ثابت فى السماء عُبِد قديماً عند بعض قبائل العرب ، قال تعالى : ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩)﴾ [النجم] . [القاموس القويم : ١/ ٣٥٠] . وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة وابن زيد وغيرهم : هو هذا النجم الوقاد الذى يقال له « مرزم الجوزاء » [تفسير ابن كثير ٤/ ٢٥٩] .

﴿مِنْ أَطْرَافِهَا .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : من كل نقطة فى دائرة المحيط تعتبر طرفاً . ومعنى ذلك أنه سبحانه قد شاء أنْ تضيق أرض الكفار ، وأنْ يُوسِّع أرض المؤمنين من كل جهة تحيط بمعسكر الكفر ، وهذا القول يدل على أنه عملية مُحْدَثة. ، ولم تكن كذلك من قبل .

ويتابع سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١)﴾ [الرعد]

أى : أن الموضوع قد بُتَّ فيه وانتهى أمره .. ونحن فى حياتنا اليومية نقول : « هذا الموضوع قد انتهى ؛ لأن الرئيس الكبير قد عقَّب على الحكم فيه » .

ونحن فى القضاء نجد الحكم يصدر من محكمة الدرجة الابتدائية ، ثم يأتى الاستئناف ليؤيد الحكم أو يرفضه ، ولا يقال : إن الاستئناف قد عقَّب على الحكم الابتدائى ؛ بل يُقال : إنه حكم بكذا إما تأييداً أو رَفْضاً ؛ فما بالنا بحكم مَنْ لا يغفل ولا تخفى عنه خافية ، ولا يمكن أن يُعقِّب أحد عليه ؟

والمَثَلُ فى ذلك ما يقوله الحق سبحانه عن سليمان وداود عليهما السلام :

﴿وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ[1] إِذْ نَفَشَتْ[2] فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ

(١) الحرث الذى نفشت فيه الغنم إنما كان كرماً (عنباً) فلم تدع فيه ورقة ولا عنقوداً من عنب إلا أكلته . [تفسير ابن كثير : ١٨٦/٣] .

(٢) نفشت الغنم : إذا تفرقت فرعَتْ بالليل من غير علم راعيها ، ولا يكون النفش إلا بالليل . [لسان العرب ـ مادة : نفش] .

وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

وأصْل الحكاية أن خلافاً قد حدث بسبب أغنام يملكها إنسان ؛ واقتحمتْ الأغنامُ زراعةَ إنسانٍ آخر ؛ فتحاكموا إلى داود عليه السلام ؛ فقال داود : إن على صاحب الأغنام أن يتنازل عنها لصاحب الأرض .

وكان سيدنا سليمان - عليه السلام - جالساً يسمع أطراف الحديث فقال : لا ، بل على صاحب الأغنام أن يتنازل عن أغنامه لصاحب الأرض لفترة من الزمن يأخذ من لبنها ويستثمرها ، وينتفع بها إلى أن يزرع له صاحب الغنم مثلَ ما أكلتْ الأغنام من أرضه[1] .

وقال الحق سبحانه :

﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ .. (٧٩)﴾ [الأنبياء]

وهذا هو الاستئناف ، ولا يعنى الاستئناف طَعْنَ قاضٍ فى القاضى الأول ؛ لكنه بَحْثٌ عن جوهر العدل ؛ ولعل القضية إنْ أُعيدَتْ لنفس القاضى الأول لَحكَم نفس الحكم الذى حكم به الاستئناف بعد أن يستكشف كل الظروف التى أحاطتْ بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ.. (٤١)﴾ [الرعد]

---

(١) انظر فى هذا تفسير ابن كثير (٣/١٨٦) ، والدر المنثور للسيوطى (٥/٦٤٥) .

ولحظة أن يُصدِر الله حُكْماً ؛ فلن يأتى له استئناف ، وهذا معنى قوله الحق :

﴿ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ .. (٤١) ﴾ [الرعد]

وكأن هذا القول الحكيم يحمل التنبؤ بما أشار به القضاء بإنشاء الاستئناف ؛ ولا أحد يُعقِّب على حُكْم الله ؛ لأن المُعقِّب يفترض فيه أن يكون أيقظَ من المُعقَّب عليه ؛ وعنده قدرةُ التفات إلى ما لم يلتفت إليه القاضى الأول ، ولا يوجد قَيُّوم إلا الله ، ولا أحدَ بقادر على أن يعلم كل شىء إلا هو سبحانه .

وآفة كل حُكْم هو تنفيذه ؛ ففى واقعنا اليومى نجد مَن استصدر حُكْماً يُعانى من المتاعب كى يُنفِّذه ؛ لأن الذى يُصدِر الحكم يختلف عَمَّنْ ينفذه ، فهذا يتبع جهة ، وذاك يتبع جهة أخرى .

ولكن الحُكْم الصادر من الله ؛ إنما يُنفَّذ بقوته سبحانه ، ولا يوجد قوىٌّ على الإطلاق سواه ، ولذلك يأتى قوله الحق :

﴿ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١) ﴾ [الرعد]

فكأن الله ينُبِّهنا بهذا القول إلى أن الحكم بالعدل يحتاج إلى سرعة تنفيذ .

ونحن نرى فى حياتنا اليومية : كيف يُرْهق مَنْ له حكم بحقٌّ عادل ؛ ولو أننا نُسرِع بتنفيذ الأحكام لَسادَتْ الطمأنينةُ قلوبَ أفراد المجتمع .

ونحن نجد استشراء العصبيات فى الأخذ بالثأر إنما يحدث بسبب

الإبطاء فى نظر القضايا ؛ حيث يستغرق نظر القضية والحكم فيها سنوات ؛ ممَّا يجعل الحقدَ يزداد . لكن لو تَمَّ تنفيذ الحكم فَوْرَ معرفة القاتل ، وفى ظل الانفعال بشراسة الجريمة ؛ لَمَا ازدادتْ عمليات الثأر ولَهدأت النفوس .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ[1] (٤٢)﴾

وهنا يخبر الحق سبحانه رسوله ، وأىُّ سامع لهذا البلاغ يستقرىء موكب الرسالات السابقة ؛ وسيجد أن كُلَّ أمة أُرسِل لها رسول مكرتْ به وكادتْ له كى تبطل دعواه ، ولم ينفع أى أمة أىّ مكر مكرتْه أو أىّ كَيْدٍ كَادَتْهُ ، فكُلُّ الرسالات قد انتصرتْ .

فسبحانه القائل :

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١)﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣)﴾ [الصافات]

---

(١) عقبى الدار : أى عاقبة دار الدنيا ثواباً وعقاباً ، أو لمن الثواب والعقاب فى الدار الآخرة ، وهذا تهديد ووعيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٦٧٢] .

والحق سبحانه حين يُورد حُكْماً فبالقرآن ؛ وهو الذى حفظ هذا القرآن ؛ فلن تأتى أىُّ قضية كَونية لتنسخ الحكم القرآنى .

وأنت إذا استقرأتَ مواكب الرسل كلها تجد هذه القضية واضحة تماماً ؛ كما أثبتها الحق سبحانه فى القرآن المحفوظ ؛ وما حفظه سبحانه إلا لوثوقه بأن الكونيات لا يمكن أن تتجاوزه .

وبالفعل فقد مكرتْ كُلُّ أمة برسولها ؛ ولكن الحق سبحانه له المكر جميعاً ؛ ومكْر الله خَيْرٌ للبشرية من مكْر كل تلك الأمم ؛ ومكْره سبحانه هو الغالب ، وإذا كان ذلك قد حدث مع الرسل السابقين عليك يا رسول الله ؛ فالأمر معك لابُدَّ أنْ يختلفَ لأنك مُرْسَلٌ إلى الناس جميعاً ، ولا تعقيبَ يأتى من بعدك .

وكُلُّ تلك الأمور كانت تطمئنه ﷺ ؛ فلا بُدَّ من انتصاره وانتصار دعوته ؛ فسبحانه محيط بأىِّ مَكْر يمكره أىُّ كائن ؛ وهو جَلَّ وعلاَ قادر على أنْ يُحبِط كل ذلك .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ ﴾

[الرعد]

والحق سبحانه يعلم ما يخفى عن الأعين فى أعماق الكائنات ؛ خَيْر هو أو شَرٌّ ، ويحمى مَنْ شاءَ من عباده من مكْر الماكرين ، ويُنزِل العقاب على أصحاب المكْر السيء بالرسل والمؤمنين .

ولَسوفَ يعلم الكافرون أن مصيرهم جهنم ، وبئس الدار التى يدخلونها فى اليوم الآخر ؛ فَضْلاً عن نُصْرة رسوله ﷺ فى الدنيا وخِزْيهم فيها .

وهكذا يكونون قد أخذوا الخزْى كجزاء لهم فى الدنيا ؛ ويزدادون عِلْماً بواقع العذاب الذى سَيلقَوْنَهُ فى الدار الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه سورة الرعد بهذه الآية :

﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾

ونفهم من كلمة :

﴿ لَسْتَ مُرْسَلاً .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

أن الكافرين يتوقفون عند رَفْض الرسول ﷺ ؛ وكأن كُلَّ أمانيهم أن يَنْفُوا عنه أنه رسولٌ اصطفاه الحق سبحانه بالرسالة الخاتمة ؛ بدليل أنهم قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

ومن بعد ذلك قالوا :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الأنفال]

أى : أن فكرة الإرسال لرسول مقبولة عندهم ، وغير المقبول عندهم هو شخص الرسول ﷺ .

ولذلك يأمر الحق سبحانه رسوله ﷺ :

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

[الرعد]

والشهيد كما نعلم هو الذى يرجح حُكْم الحق ، فإذا ما ظهر أمر من الأمور فى حياتنا الدنيا التى نحتاج إلى حُكْم فيها ؛ فنحن نرفع الأمر الذى فيه خلاف إلى القاضى ، فيقول : « هاتوا الشهود » .

ويستجوب القاضى الشهود ليحكمَ على ضَوْء الشهادة ؛ فَما بالُنَا والشاهد هنا هو الحقُّ سبحانه ؟

ولكن ، هل الله سيشهد ، ولِمَنْ سيقول شهادته ؛ وهم غَيْرُ مُصدِّقين لكلام الله الذى نزل على رسوله ﷺ ؟

ونقول : لقد أرسله الحق سبحانه بالمعجزة الدَّالة على صِدْق رسالته فى البلاغ عن الله ، والمعجزة خَرْقٌ لنواميس الكون .

وقد جعلها الحق سبحانه رسالةً بين يدى رسوله وعلى لسانه ؛ فهذا يعنى أنه سبحانه قد شهد له بأنه صادق .

والمعجزة أَمْر خارق للعادة يُظهِرها الله على مَنْ بلغ أنه مُرْسَل منه سبحانه ، وتقوم مقام القول « صدق عبدى فيما بلغ عنِّى » .

وإرادة المعجزة ليست فى المعنى الجزئى ؛ بل فى المعنى الكُلِّىّ لها . والمثل فى المعجزات البارزة واضح ؛ فها هى النار التى أَلْقَوْا فيها إبراهيم عليه السلام ، ولو كان القَصْد هو نجاته من النار ؛ لكانت هناك ألفُ طريقة ووسيلة لذلك ؛ كأنْ تُمطِر الدنيا ؛ أو لا يستطيعون إلقاء القبض عليه .

ولكن الحق سبحانه يوضح لهم من بعد أن أمسكوا به ، ومن بعد أن كبَّلوه بالقيود ، ومن بعد أن ألقوْه في النار ؛ ويأتي أمره بأن تكون النار برداً وسلاماً عليه فلا تحرقه :

﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

وهكذا غيّر الحق سبحانه الناموس وخَرَقه ؛ وذلك كي يتضح لهم صدْق إبراهيم فيما يبلغ عن الله ؛ فقد خرقَ له الحق سبحانه النواميس دليلَ صحة بلاغه.

وإذا كان الحق سبحانه قد قال هنا في الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا[1] بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ.. ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

وشهادة الحق سبحانه لرسوله بصدق البلاغ عنه ؛ تتمثل في أنه ﷺ قد نشأ بينهم ، وأمضى أربعين عاماً قبل أن ينطق حرفاً يحمل بلاغة أو خطبة أو قصيدة ، ولا يمكن أن تتأخرَ عبقرياتُ النبوغ إلى الأربعين .

وشاء الحق سبحانه أن يجري القرآن على لسان رسوله في هذا العمر ليبلغ محمد ﷺ الناسَ جميعاً به ، وهذا في حَدِّ ذاته شهادة من الله .

---

(١) أي : حسبي الله ، هو الشاهد عليّ وعليكم ، شاهد عليّ فيما بلغت عنه من الرسالة ، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان . قاله ابن كثير في تفسيره (٥٢١/٢) .

ويضيف سبحانه هنا :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

والمقصود بالكتاب هنا القرآن ؛ ومَنْ يقرأ القرآن بإمعان يستطيع أن يرى الإعجاز فيه ؛ ومَنْ يتدبر ما فيه من مَعَانٍ ويتفحَّص أسلوبه ؛ يجده شهادة لرسول الله ﷺ

أو يكون المقصود بقوله الحق :

﴿ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الرعد]

أى : هؤلاء الذين يعلمون خبر مَقْدم رسول الله ﷺ من التوراة والإنجيل ؛ لأن نعت رسول الله ﷺ وصفته مذكورة فى تلك الكتب السابقة على القرآن ؛ لدرجة أن عبد الله بن سلام[1] ، وقد كان من أحبار اليهود قال : « لقد عرفتُ محمداً حين رأيته كمعرفتى لابنى ، ومعرفتى لِمُحمد أشد »[2] .

ولذلك ذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا رسول الله إن نفسى مالتْ إلى الإسلام ، ولكن اليهود قوم بُهْتٌ[3] ، فإذا أعلنتُ إسلامى ؛ سيسبُّوننى ؛ ويلعنوننى ، ويلصقون بى أوصافاً ليست فىّ . وأريد أنْ

---

(١) هو : عبدالله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى ، أبو يوسف : صحابى أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة ، وكان اسمه «الحصين » فسماه رسول الله ﷺ عبدالله . وشهد مع عمر فتح بيت المقدس . أقام بالمدينة إلى أن توفى عام ٤٣ هـ . (الأعلام للزركلى ٤/ ٩٠).

(٢) يقول تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. ﴿١٤٦﴾ ﴾ [البقرة] .

(٣) البُهْت : الكذب . وباهته : استقبله بأمر يقذفه به ، وهو منه برىء لا يعلمه . [لسان العرب ـ مادة : بهت] .

تسـألهم عنِّى أولاً . فأرسل لهـم رسول الله يدعـو صناديدهم وكبـار القوم فيهم ؛ وتوهموا أن محمداً قد يلين ويعدل عن دعوته ؛ فجاءوا ، وقال لهم ﷺ : « ما تقـولون فى ابن سلام ؟ »[1] فأخذوا يكيلون له المديح ؛ وقالوا فيه أحسن الكلام .

وهنا قـال ابن سلام : « الآن أقول أمـامكم ، أشهـد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ، فأخـذوا يسبُّون ابن سلام ؛ فقال ابن سلام لرسول الله ﷺ : ألم أَقُلْ إن يهود قوم بهت ؟

ونعلم أن الذين كـانوا يفـرحون من أهل الكتـاب بمـا ينزله الحق سبحانه على رسول الله ﷺ من وحى هم أربعون شخصاً من نصارى نجران ؛ واثنان وثلاثون من الحبشة ؛ وثمانية من اليمن .

ونعلم أن الذين أنكروا دعوة رسول الله ﷺ كانوا ينهوْنَ بعضـهم البعض عن سماع القرآن ؛ وينقل القرآن عنهم ذلك حين قالوا :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا[2] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

وهذا يعنى أنهم كـانوا متـأكدين من أن سـماع القـرآن يُؤثِّر فى النفس بيقظة الفطرة التى تهفو إلى الإيمان به .

أمـا مَنْ عندهم عِلْم بـالكتب السـابقـة على رسـول الله ﷺ فـهم يعلمون خبر بعثته وأوصافه من كتبهم .

---

(١) أخرجـه البخارى فى صحـيحه (٣٩٣٨) ، وأحمـد فى مسنده (١٠٨/٣ ، ٢٧١، ٢٧٢) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

(٢) الغوا فـيه : أى شوِّشوا على قـارئه باللغو من القول ، أو اطعنوا فـيه واختلقوا له العـيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم : ١٩٦/٢] .

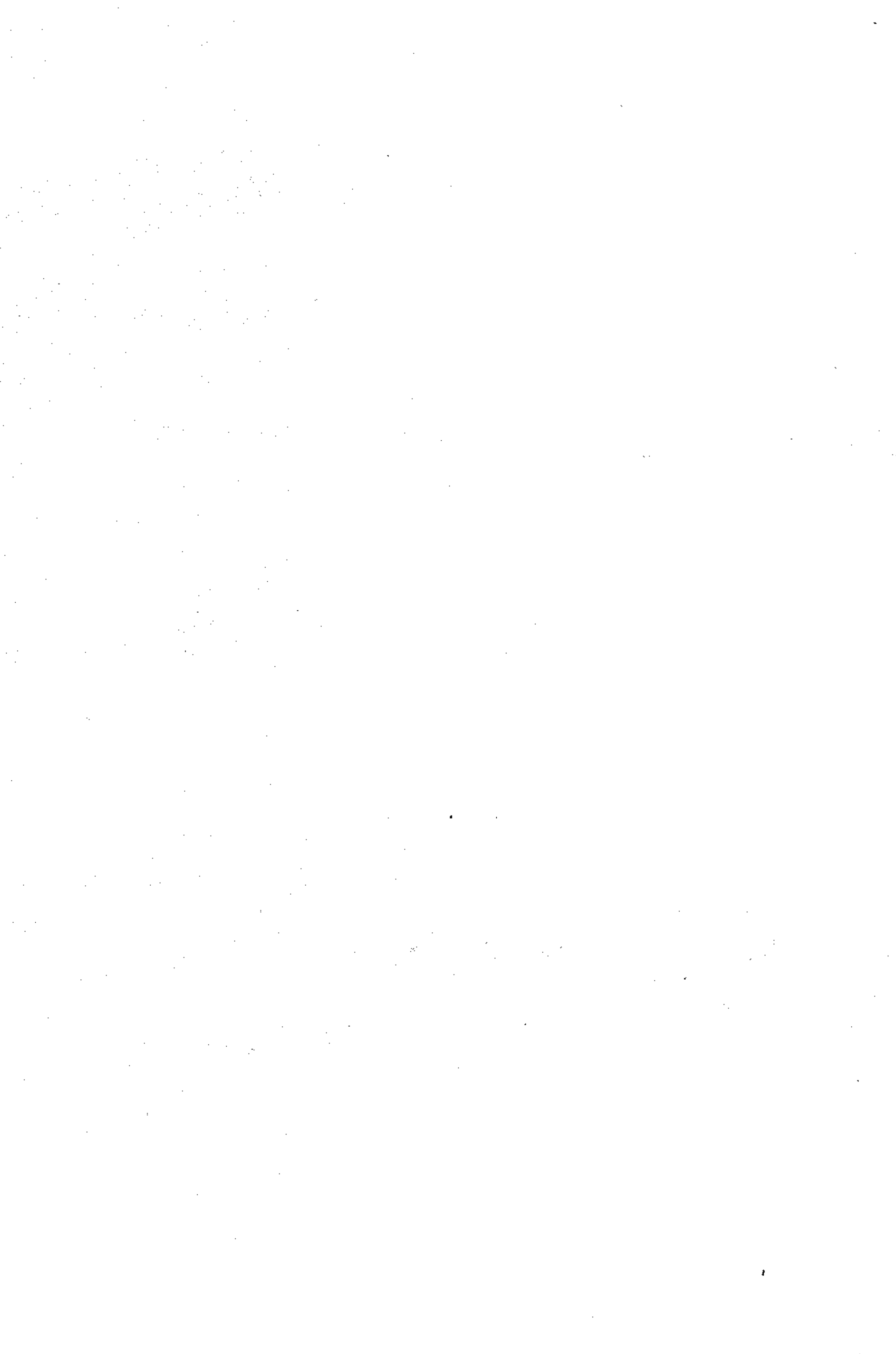
يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ .. (١٤٦) ﴾
[البقرة]

ويقول أيضاً :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) ﴾
[البقرة]

سُورَةُ إبْرَاهِيمَ



بسم الله الرحمن الرحيم (١)

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ① ﴾

هكذا يستهل الحق سبحانه هذه السورة بالحروف المقطعة « ألف » « لام » « راء » ، وسبق أن قلنا : إنها حروف توقيفية بلَّغها رسول الله لنا كما سمعها من جبريل عليه السلام .

إلا أن المُلاحَظ أن هذه الحروف التوقيفية المُقطَّعة لم تَأْتِ وحدها في هذه السورة كآية منفصلة ؛ مثل قوله في أول سورة ق :

﴿ قٓ ① ﴾ [ق]

وهي آية بمفردها ، وكما جاء في غير ذلك من السور بحروف مقطعة وأثبتها كآيات . وهنا تأتي الحروف التوقيفية المقطعة كجزء من الآية .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشرة في ترتيب المصحف ، عدد آياتها ٥٢ آية ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وجابر . وقال ابن عباس وقتادة : إلا آيتين منها مدنيتين . وقيل : ثلاث نزلت في الذين حاربوا الله ورسوله ، وهي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ㉘ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ㉙ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ㉚﴾ [إبراهيم] . [تفسير القرطبي ٥/٣٦٧٥].

﴿ الٓر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ① ﴾ [إبراهيم]

كلمة « كتاب » إذا أطلقت انصرف معناها إلى القرآن ؛ فهو يُسمَّى ـ كتاباً ؛ ويُسمَّى قرآناً ، ويُسمَّى تنزيلاً ، وله أسماء كثيرة .

وكلمة «كتاب » تدل على أنه مكتوب ، وكلمة «قرآن » تدل على أنه مقروء ، وهذان الاسمان هما العُمْدة فى أسماء القرآن ؛ لأنه كتاب مكتوب ومقروء .

فكان الصحابى[1] الذى يجمع القرآن لا يكتب آية إلا إذا وجدها مكتوبة ، ووجدها مَقْروءة عن اثنين من الصحابة ؛ فالقرآن كتاب يملك الدليل على كتابته من عهد رسول الله ﷺ ؛ وهو مَقْروء كما تدلُّ كلمة « قرآن » .

وقوله الحق :

﴿ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ .. ① ﴾ [إبراهيم]

يدلُّ على أنه جاء من عُلُوٍّ .

ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر عن القرآن :

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ⑧⑨ ﴾ [النحل]

ويقول فى موقع آخر :

---

(١) هو : زيد بن ثابت الأنصارى ، صحابى ، كان كاتب الوحى ، ولد فى المدينة ١١ ق هـ ، ونشأ بمكة . كان أحد الذين جمعوا القرآن فى عهد النبى ﷺ من الأنصار ، وعرضه عليه ، وهو الذى كتبه فى المصحف لأبى بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . (الأعلام للزركلى ٣/٥٧) .

﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ .. (١٠٥) ﴾ [الإسراء]

ومرة يسند النزول إلى مَنْ جاء به ؛ ومرة ينسب النزول إلى الكائن الذى أرسله الحق بالقرآن إلى محمد ﷺ ، وهو جبريل عليه السلام .

فقوله : ﴿ أَنزَلْنَاهُ.. (١) ﴾ [إبراهيم] للتعدى من منطقة اللوح المحفوظ ليباشر مهمته فى الوجود ، وعِلِّيّة إنزال القرآن إليك يا محمد هى :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١) ﴾ [إبراهيم]

ونلحظ هنا أن القرآن نزل للناس كافّة ، ولم يَقُلِ الحقُّ سبحانه ما قاله للرسُل السابقين على رسول الله ؛ حيث كانت رسالة أىٍّ منهم مُحدَّدة بقوم مُعيَّنين ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا .. (٦٥) ﴾ [الأعراف]

وقوله الحق :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وكذلك قوله سبحانه لموسى :

﴿ وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِى إِسْرَائِيلَ .. (٤٩) ﴾ [آل عمران]

وهكذا كان كُلُّ رسول إنما يبعثه الله إلى بُقْعة خاصة ، وإلى أُناسٍ بعينهم ، وفى زمن خاصٍّ ، إلا محمداً ﷺ ؛ فقد بعثه الله إلى الناس كَافَّة .

والمثل أمامنا حين حكم ﷺ بالحق بين مسلم ويهودى ؛ وأنصف اليهودى ؛ لأن الحق كان معه[1] ؛ والحق عند رسول الله ﷺ أعزُّ عليه ممَّنْ ينتسب إلى الإسلام .

وهكذا نرى أن قوله الحق :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. (١) ﴾ [إبراهيم]

دليل على عمومية الرسالة ، ويُعزِّزها قوله :

﴿ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا .. (١٥٨) ﴾ [الأعراف]

وبذلك تبطل حُجَّة مَنْ قالوا إنه مُرْسَلٌ للعرب فقط .

ونجد هنا اصطفاءين لرسول الله ﷺ .

الاصْطفاء الأول : أن الحق سبحانه قد اختاره رسولاً ؛ فمجرد الاختيار لتلك المهمة ؛ فهذه منزلة عالية .

والاصْطفاء الثانى : أنه رسولٌ للناس كَافَّة ؛ وهذه منزلة عالية

---

(١) أخرج ابن عساكر (٧/ ٣٥٤ تهذيب تاريخ دمشق) عن عبدالله بن أبى حدرد الأسلمى أنه كان ليهودى عليه أربعة دراهم فاستعدى عليه . فقال : يا محمد إن على هذا أربعة دراهم وقد غلبنى عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى بعثك بالحق ما أقدر عليها ، قال : أعطه حقه . قال : والذى نفسى بيده ما أقدر عليها ، قد أخبرته أنك تبعثنا إلى خيبر فارجو أن تغنمنا شيئاً فارجع فاقضيه . قال : أعطه حقه ، وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثاً لم يُراجع ، فخرج ابن أبى حدرد إلى السوق وعلى رأسه عصابة وهو متزر ببردة ، فنزع العمامة عن رأسه فاتزر بها ونزع البردة فقال : اشتر منى هذه البردة . فباعها منه بأربعة دراهم . فمرَّت عجوز فقالت : ما لك يا صاحب رسول الله ﷺ ؟ فأخبرها . فقالت : هادونك هذا البُرْد ـ لبرد عليها طرحته عليه . وكذا أخرجه أحمد فى مسنده (٣/ ٤٢٣) وأورده الكاندهلوى فى حياة الصحابة (٢/ ٨١) .

أخرى ؛ لأنها تستوعب المكان والزمان ، والألسنة والأقوام .

ثم يأتى الإعجاز فى قوله :

﴿ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ .. ① ﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ من الظلمات إلى الأنوار ، وشاء أنْ يأتى بالظلمات كجمْع ؛ وأنْ يأتى بالنور كمفرد ، لأن النور واحد لا يتعدد ؛ أما الظلمات فمتعددة بتعدُّد الأهواء ؛ ظُلْمة هنا وظُلْمة هناك .

وحين يُخرجنا الحقُّ سبحانه من الظلمات المتعددة حَسْب أهواء البشر ؛ فهذا فَضْلٌ منه ونعمة ؛ لأننا نخرج إلى النور الواحد .

وهكذا يشاء الحق سبحانه أن يُجلى المعانى بالمُحسَّات التى يدركها الجميع ، فلا شك أن الظُّلْمة تستر الأشياء التى قد يصطدم بها الإنسان فيمتنع عن السير مطمئناً ؛ لأنه إنِ اصطدم بشىء فقد يُحطِّم الشىء أو يُحطِّمه هذا الشىء ؛ وهكذا تمنع الظُّلْمة الإنسانَ من أن يهتدى إلى ما يريد .

أما النور فهو يوضح الأشياء ، ويستطيع الإنسان أن يُميِّز بين الطرق ويتجنب الضار ويتجه إلى النافع ؛ ويكون على بصيرة من الهداية ؛ ذلك هو الأمر الحِسيّ ؛ وكُلٌّ من النور والظلمة أمرٌ حِسى .

وهكذا يُجلِّى الله لنا المعانى ، والحياة لا تحتاج فقط إلى ما يُجلى المظاهر المادية بالنور ؛ بل تحتاج أيضاً إلى نور يُجلى المظاهر المعنوية ؛ من حقد وحسد ، وخوف وأمن ، واطمئنان ، وأمانة ووفاء ؛ وغير ذلك .

فالحياة كلها فيها الشيء وما يقابله ؛ لذلك لا بُدَّ أن تُجلّى المعانى أيضاً . والنور الذى جاء به رسول الله ﷺ يُجلى الحسّ والمعنى فى آنٍ واحد ؛ لنتجنب الأشياء التى تطمسها الظُّلْمة ؛ ولنسير على بينة من المعانى ، فلا نصطدم بالعقبات .

ولذلك يُفسِّر لنا الحق سبحانه الأمر المعنوى ، فيقول :

﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① ﴾ [إبراهيم]

وهذا هو الصراط المستقيم الذى يُخرجنا إليه محمد ﷺ من الظلمات إلى نوره .

ويريد الحق سبحانه أنْ يُجلى لنا الطريق إلى هذا الصراط ، لأنه قد يكون مُتعباً للبعض ؛ فيريد سبحانه أن يجمع لنا بين أمرين ؛ طريق متضح واضح يَصِل فيه الإنسان إلى الغاية بِيُسْر ؛ وطريق آخر غير واضح لا تتجلى فيه الأشياء .

وجاء بالظلمات والنور ليوضح لنا هذا المعنى ؛ حيث يكون الطريق المستقيم هو أقصر وسيلة للغاية المَرْجُوّة من الحياة الدنيا والآخرة ؛ ويكون طريق الظلمات هو الطريق غير الآمن .

وينسب الحق سبحانه الطريق الذى يُخرِجنا إليه الرسول ﷺ :

﴿ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ① ﴾ [إبراهيم]

والعزيز هو الذى يَغْلِب ولا يُغْلَب . والحميد هو مَنْ ثبتت له صفة الحمد من الغير ، وإنْ لم يصدر حَمْدٌ من الغير ؛ فهو حميد فى ذاته ، ويجب أن يُحمد رغم أنك إن حمدتَه أو لم تحمده فهو حميد .

ولله المَثلُ الأعلى ، وسبحانه مُنَزَّه عن كل مثيل أو شبيه ؛ نجد فى حياتنا الدنيا مَنْ يُقال عنه إنه حميد الخصال ؛ وإنْ لم يوجد مَنْ يمدحه ؛ لكنه فى كُلٍّ ما يصدر عنه يراعى أن يكون محموداً .

ولكن البشر يكون المحمود منهم حَدثاً ؛ أما المحمود من الحق فهو مُطْلق ، ولا تكون الذاتُ محمودة أو حميدة إلا إذا كان لها من الصفات ما يجعلها أهلاً للإنعام الذى يجب على الإنسان أن يحمده .

والفطرة السليمة فى الإنسان تستقبل هذا الكون المُعَدّ من قَبْل أنْ يوجد لاستقباله ، وتحب أن تحمد مَنْ صنع هذا الكون ، رغم أن حَمْد الإنسان أو عدم حَمْده لا يضيف شيئاً لِمَنْ أعدَّ هذا الكون وخلقه ؛ فهو محمود فى ذاته .

وإن حمدته فهذا لمصلحتك ؛ وفى هذا هداية إلى صراط العزيز الذى لا يُغْلب ، والحميد الذى يستحق الحمد ؛ وإنْ لم يوجد حامد له ؛ لأن صفاته سبحانه أزلية .

فالله خالق قبل أن يخلق الخلق ؛ وهو الرازق قبل أن يُخْلق المرزوق ، وهو مُعز قبل أن يوجد مَنْ يُعزه ؛ محمود قبل أنْ يوجد مَنْ يحمده ؛ توّاب قَبل أن يوجد مَنْ يتوب عليه .

فهو سبحانه بالصفة يفعل ؛ أما الإنسان فلا يفعل إلا إذا فعل الصفة ، فأنت لا تعرف أن فلاناً كريم ؛ إلا لأنك تراه يعطى عن جُودٍ وسَخاء ، أما الله فهو الكريم من قبل أن يوجد مَنْ يُكرمه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ[(1)] لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ﴾

وأنت إنْ قرأتَ هذه الآية موصولةً بما قبلها ؛ فستقرؤها :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ۝٢ ﴾ [إبراهيم]

وإن كنتَ ستقرؤها مَفْصُولة عمَّا قبلها ؛ فستقول :

﴿ اللَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ۝٢ ﴾ [إبراهيم]

وستنطق كلمة « الله » غير مُرقَّقة عكسَ إنْ قرأتَها موصولة ، حيث يجب أن تنطقها مُرقَّقة .

وتقتضى الأصول فى الكتاب أن يوجد الاسم العلَم على الذات أولاً ، ثم تأتى الصفة من بعده ، فتقول : « لقيت فلاناً الشاعر أو الكاتب أو العالم » ، لكن الأمر هنا جاء على غير هذا النَّسَق :

﴿ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ۝١ ﴾ [إبراهيم]

أى : قدَّم « العزيز الحميد » ثم جاء بلفظ الجلالة ، وهو العلَم على واجب الوجود « الله » ، وقد حدث ذلك لأن العلَم يدل على مُسمَّاه بصرف النظر عن الصفات ؛ ثم توجد الصفات له .

وهناك من العلماء مَنْ قال : إنه مُشْتق بمعنى أن « الله » تعنى

---

(١) الويل : كلمة عذاب ودعاء بالشر وإنذار به . [القاموس القويم : ٢/٣٦٢] والويل : الهلاك يُدعَى به لمن وقع فى عذاب أو هلكة يستحقها . [لسان العرب ـ مادة : ويل] .

المعبود بحقٍّ ؛ وصفة العزيز الحميد حيثية لأنْ يُعبدَ سبحانه بحقٍّ.

ومن العلماء من قال : إن كلمة « الله » هى علَم ، وليست اسماً مُشْتقاً ؛ فلَهُ الملكية المطلقة :

﴿ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ ..(٢) ﴾ [إبراهيم]

لا يقع فى هذا المُلْك إلا ما شاء هو ، فَمنْ آمن به أنصف نفسه وحياته وآخرته ، أما مَنْ لم يؤمن به فلَه المقابل ، وهو قوله الحق :

﴿ وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢) ﴾ [إبراهيم]

وهذا الوَيْل ليس فى الآخرة فقط ، بل فى الدنيا أيضاً ؛ لأن الإنسان حين تعترضه الصِّعَاب والعقبات والمصائب التى ليس له أسباب يدفعها بها ؛ هنا يستطيع المؤمن أن يذكر أن له رباً فوق الأسباب ؛ ويرتاح إلى معونة الحق سبحانه له ، وهكذا يشعر أن له رصيداً فى الدنيا يعتمد عليه فى مواجهة الأحداث الجِسَام .

أما غير المؤمن فليس أمامه سوى اليأس ؛ ولذلك نجد انتشار الانتحار بين غير المؤمنين ؛ لأن هناك أحداثاً فوق أسبابهم ، ولا يستطيعون دفعها ، وليس لهم إيمان بربٍّ يرجعون إليه .

ولذلك حين أقرأ للمفسرين مَنْ يشرح كلمة « الويل » بأنها عذابُ الآخرة ؛ فأجد نفسى قائلاً : بل والوَيْل يكون فى الدنيا أيضاً ؛ لأن الكثير من أحداث الحياة يكون فوق أسباب الإنسان ؛ فلو لم يؤمن الإنسان بالله لَفزِع من فَرْط اليأس .

ولذلك نجد بعضهم حين لا يجدون مَفَرّاً إلا أنْ يقولوا يارب ، وهم بذلك يعلنون صرخة الفطرة الأولى التى قاوموها بالإلحاد وعدم الإيمان ؛ وهذا الويل له امتداد بلون أشد فى الآخرة.

ويصف الحق سبحانه هؤلاء الذين لا يؤمنون ، فيقول :

﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا[1] أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ ﴾

وهنا نجد مادة الحاء والباء ؛ حب ؛ ومن عجائبها أن الفعل يكون رباعياً ؛ فنقول « أحبَّ فلان » ونقول لِمَنْ يحبه « محبوب » وهذا يعنى أن هناك تلاقياً بين الاثنين ؛ أما فى حالة عدم التلاقى فيقال « حَبَّ يُحِب فهو حَابٌّ ومُحِبٌّ » .

والفرق بين أحبَّ واستحبَّ ؛ ملحوظٌ فى مَجِىء السين والتاء ، وهما علامة على الطلب . وعلى هذا فاستحبَّ تعنى أنَ مَنْ يحب لم يكتَفِ بالأمر الطبيعى ، بل تكلَّف الحب وأوغلَ فيه .

والمثل على ذلك نجده فى الحياة اليومية ؛ فنرى مَنْ ينجرف إلى شىء من الانحراف ؛ ولكنه لا يُحِب أن يكون مُحِباً لهذا الانحراف فى نفس الوقت ؛ ويفعل الانحراف وهو كَارِهٌ له ، وقد يضرب نفسه ويلومها لأنها تنجرف إلى هذا الانحراف .

ونجد آخر ينحرف ؛ لأنه يحب هذا الانحراف وينغمس فيه ؛ وهو مُحِبٌّ لهذا الانغماس ويتحدث بهذا الانحراف ؛ ويُحب فى نفسه أنه

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٦٧٧/٥) : « أى : يطلبون لها زيغاً وميلاً لموافقة أهوائهم ، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم » .

أحب تلك المعصية ؛ لأنها تُحقِّق له شهوة عاجلة ؛ هذا هو مَنِ « استحبَّ » لأنه أزاد الحب عن حَدِّه الطبيعى .

وحين تُدقِّق فى الآية الكريمة تجد أنها لا تمنعك من حُبِّ الدنيا ؛ لكنها تتحدث أنْ تستحبَّها على الآخرة ، فهذا هو الأمر المذموم ؛ أما إذا أحببتَ الدنيا لأنها تُعينك على تكاليف دينك وجعلْتَها مزرعة للآخرة ؛ فهذا أمر مطلوب ؛ لأنك تفعل فيها ما يجعلك تسعد فى آخرتك ؛ فهذا طَلَب للدنيا من أجل الآخرة .

ولذلك تجد قوله الحق فى سورة « المؤمنون » :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون]

فهو لا يؤدى الزكاة فقط ؛ بل يعمل ليأتىَ لنفسه ولعياله بالقُوت ؛ ويبذل الجهد ليكون لديه فائضٌ يؤدى منه الزكاة ؛ ولذلك فهو لا يعمل قَدْر حاجته فقط بل على قَدْر طاقته ليحقق ما يمكن أنْ يُعطِيه لِمَنْ لا يقدر على العمل .

ولذلك لم يَقُل الحق سبحانه :

« والذين هم للزكاة مؤدون » بل قال :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ④ ﴾ [المؤمنون]

وهنا لا نجد هؤلاء الذين يستحِبّون الحياة من أجل أنْ يجعلوها مزرعة للآخرة ؛ بل هم يستحِبّون الحياة :

﴿ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ③ ﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم لم يكتفوا بحُبِّ الدنيا على الآخرة فقط ، ولم يكتفُوا بالسَّيْر فى طريق الشهوات والملذَّات وتخريب ذواتهم ، بل تمادَوْا فى الغى[1] وصَدُّوا غيرهم عن سبيل الله .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (٩٩) ﴾ [آل عمران]

كأنهم ضلُّوا فى ذواتهم ؛ ولم يكتفوا بذلك ، بل يحاولون إضلال غيرهم ويصدونهم عن الهداية .

ثم تأتى مرحلة جديدة :

﴿ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا .. (٣) ﴾ [إبراهيم]

أى : يبغون شريعة الله مُعْوجة لتحقق لهم نزواتهم . وهكذا نجد ثلاث مراتب للضلال ، استحباب الحياة الدنيا على الآخرة ؛ والصَّد عن سبيل الله ؛ وتشويه المنهج كى يُكرِّهوا الناس فيه .

ويصف الحق سبحانه هؤلاء :

﴿ أُوْلَـٰئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن أصحاب المرتبة الأولى فى الضلال هم مَن استحبُّوا الحياة الدنيا على الآخرة ، والذين توغَّلوا فى الضلال أكثر فهم الذين يصدون عن سبيل الله ؛ أما الذين توغَّلوا أكثر فَهُم الذين يُشوِّهون فى منهج الله لتنفير الناس منه ، أو ليحقق لهم نزواتهم ، وهكذا ساروا إلى أبعد منطقة فى الضلال.

---

(١) الغى : الضلال والخيبة والفساد . [لسان العرب ـ مادة : غوى] . وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . [القاموس القويم ٢/ ٦٤] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ④ ﴾

ونعلم أن الرسول ﷺ مُبلِّغ عن الله منهجه ؛ ومُؤيَّد بمعجزة تثبت صدقه فيما بلغ لمَنْ أرسل إليهم. وقد حدَّث الحق سبحانه من قبل عمَّا حدث للأمم السابقةَ على أمة محمد ﷺ ؛ فقد كان كل رسول يتكلم بلغة قومه .

وهناك فرق بين قوم الدعوة وهم أمة رسول الله ﷺ ؛ وقوم الاستقبال ؛ وهم الأمم السابقة على أمة محمد ﷺ .

فالأمم السابقة لم تكن مُطَالبةٌ بأن تُبلِّغ دعوة الرُّسل الذين نزلوا فيهم ، أما أمة محمد ﷺ فمُطَالبة بذلك ، لأن الحق سبحانه أرسل رسوله ﷺ ، وأبلغنا في القرآن أن من آياته سبحانه أن جعل الناس على ألسنة مختلفة[1] .

ولم يكنْ من المعقول أن يرسل رسولاً يتكلم كل اللغات ، فنزل ﷺ في أمة العرب ؛ وحين استقبلوه وأُشْرِبَتْ[2] قلوبهم حُبَّ الإيمان ؛ صار عليهم أن ينساحوا بالدعوة ؛ لينقلوا معنى القرآن حجة بعد أن استقبلوه معجزة .

---

(١) يقول تعالى : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ..(٢٢)﴾ [الروم] .

(٢) أشرب قلبه محبة هذا ، أي : حَلَّ محلَّ الشراب ، ومنه قوله تعالى : ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ .. (٩٣)﴾ [البقرة] . أي : حب العجل . وقد أشرب في قلبه حبه أي : خالطه . [لسان العرب ـ مادة : شرب] .

والقرآن حُجَّة لأنه يسوسُ حركة الحياة ؛ وحركاتُ الحياة لا تختلف فى الناس أجمعين ، كما أن كُلَّ حضارة تأخذ من الأخرى مُنجزاتها العلمية ، وتُترجمها إلى لسانها الذى تنطق به .

وترجمة المعانى من لسان إلى آخر مسألة معروفة فى كُلِّ حضارات العالم ؛ لأن المسألة فى جوهرها مسألة معانٍ ؛ والمعانى لا تختلف من أمة إلى أخرى .

والقرآن معانٍ ومنهج يصلح لكل البشر ؛ ونزل بالعربية ؛ لأن موهبة الأمة العربية هى النبوغ فى اللغة والكلام ؛ وهكذا صار على تلك الأمة مهمة الاستقبال لمنهج الله كمعجزة بلاغية ؛ وإرساله إلى بقية المجتمعات .

ولذلك تستطيع أن تَعقد مقارنة بين البلاد التى فُتحت بالسيف والقتال ؛ والبلاد التى فُتحت بالسِّلْم ورؤية القدوة المسلمة الصالحة ؛ ستجد أن الذين نشروا الإسلام فى كثير من أصقاع الأرض قد اعتمدوا على القدوة الصالحة .

ستجد أنهم نقلُوا الدين بالخصَال الحميدة ، وبتطبيق منهج الدين فى تعاملهم مع غيرهم ، ولذلك أقبل الناس على دين الله .

وهكذا نجد أن منهج الإسلام قد حمل معجزة من المعانى ، بجانب كونه معجزةً فى اللغة التى نزل بها ، وهى لغة العرب .

ونحن نجد أقواماً لا تستطيع أن تقرأ حرفاً عربياً إلا فى المصحف ، ذلك أنهم تعلَّموا القراءة فى المصحف ، واعتمدوا على

فَهْم المعانى الموجودة فيه عَبْر الترجمات التى قام بها مُسلمون أحبُّوا القرآن ، ونقلُوه إلى اللغات الأخرى .

ولذلك نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ١٧ ﴾ [القمر]

وهكذا نعلم أن الحق سبحانه قد يسَّر أُمَّ القرآن بلسان العرب أولاً ، ثم يسَّره بأن جعل من تلك الأمة التى نزل عليها القرآن أمة نَشْر البلاغ عنه سبحانه ، ذلك أن الرسالات تُريد تبليغاً ؛ والتبليغ وسيلتُه الأولى هى الكلام ؛ ووسيلته الثانية الاستقبالية هى الأذن ، فلابُدَّ من الكلام أولاً ، ثم لابُدَّ من أُذن تعرف مدلولاتِ الألفاظ لتسمعَ هذا الكلام ، ولتُطبِّقه سلوكاً .

كما أننا نعلم أن مَنْ يسمع المتكلم لا بُدَّ وأن يكون واعياً وعارفاً بمعانى الألفاظ ؛ فما تسمعه الأُذن يحكيه اللسان .

وعرفْنَا أن اللغة بِنْت السماع ، وكُلُّ فرد إنما يتكلم باللغة التى سمعها فى بيئته ؛ وإذا تتبعتَ سلسلة تعلُّم كل الكلام ستجد نفسك أمام الجِذْر الأصلى الذى تعلَّم منه البشر الكلام ؛ وهو آدم عليه السلام .

وقد قال سبحانه :

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا[1] ..٣١ ﴾ [البقرة]

---

(١) أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. ٣١ ﴾ [البقرة] . هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس . إنسان ، ودابة ، وأرض ، وبحر ، وسهل وجبل ، وحمار ، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١/١٢١] .

ونعلم أن اللغة بدأت توقيفية حين علَّمها الله لآدم ، ثم تكلَّمها آدم فسمعتْها بيئته ؛ فصارتْ وضعية من بعد ذلك ، واختلفت اللغة من مجتمع إلى آخر .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ .. ④ ﴾ [إبراهيم]

وجاء بعد ذلك مباشرة بالتعليل :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ .. ④ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا أوضح جَلَّ وعلاَ السبب فى إرسال كل رسول بلسان قومه ، وهناك آية يقول فيها سبحانه :

﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الأَعْجَمِينَ ⑱ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ⑲ ﴾ [الشعراء]

وقال أيضاً :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى .. ④④ ﴾ [فصلت]

فهناك مَنْ يستقبل القرآن كدليل هداية ويُنقِّى نفسه من الكَدَر ، وهناك مَنْ يستقبل القرآن فيكون عليه عمى وعلى سمعه غِشَاوة وخوف وعدم ارتياح ، ذلك أنه كافر .

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم : ٢/٣٥] .

والسبب ـ كما نعلم ـ أن حدوث الحادث مِن آمرٍ به يحتاج إلى فاعل وإلى قابل للفعل .

وسبق أن ضربتُ مثلاً بمَنْ يشرب الشاى ؛ فينفخ فيه ليُبرده قليلاً ؛ ونفس هذا الإنسان حين يخرج فى صباح شتوى فهو ينفخ فى يديه ليُدفئهما ، وهكذا ينفخ مرة ليبرد شيئاً ؛ وينفخ أخرى مُستدعياً الدفء .

والمسألة ليستْ فى أمر النفخ ؛ ولكن فى استقبال الشاى للهواء الخارج من فَمك ، الشاى أكثر حرارة من حرارة الجسم فيبرد بالنفخ ، بينما اليد فى الشتاء تكون أكثر برودة من الجسم ؛ فتستقبل النفخ لها برفع درجة حرارتها لتتساوى مع حرارة الجسم .

وهكذا تجد أن القرآن واحدٌ ؛ لكن المؤمن يسمعه فيفرح به ، والكافر يسمعه فيتعب ويرهق منه .

وسبحانه يقول :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا .. (١٦) ﴾ [محمد]

وهكذا نجد مَنْ يستقبل القرآن ، ولا ينصاع إلى معانيه ؛ ونجد مَن يستمع إلى القرآن فيخشع قلبه وينفعل بالاستجابة لِمَا يُوصِى به الحق سبحانه .

إذن : عرفنا الآن أن اللغةَ بدأتْ توقيفية وانتهتْ اصطلاحية ؛ فقد أخذنا من الله ما علَّمه لآدم من أسماء ؛ وتغيَّرت الألسن من جماعة

إلى أخرى ، وهكذا اختلفتْ ألسنة الرُّسُل حَسْب القوم المرسلين إليهم .

وكل رسول يُبيِّن للقوم منهجَ الله ؛ فإذا بيَّن هذا المنهج ، استقبله البعض بالإيمان بما جاء به والهداية ، واستقبله البعضُ الآخر بالكُفْر والضَّلال .

فالذى هداه الله استشرف قلبُه إلى هذا المنهج ؛ وأخرج من قلبه أىَّ عقيدة أخرى ، وبحثَ فيما جاء به الرسول ، وملأ قلبه بالمنهج الذى ارتاح له فهماً وطمأنينة .

وهو عكس مَنْ تسكن قلبه قضية مخالفة ، ويُصرُّ عليها ، لا عن قناعة ، ولكن عن عدم قدرة على التمحيص والدراسة والاستشراف . وكان عليه أنْ يُخرِج القضية المُضلة من قلبه ، وأن يبحث ويقارن ويستشف ويُحسن التدبر ؛ ثم يُدخِل إلى قلبه القضية الأكثر قبولاً ، ولكنه لا يفعل ، عكس مَنْ هداه الله .

ولا يقولن أحد « ما دام قد أضلنا الله فلم يعذبنا ؟» ولكن ليعلم كل إنسان أن المشيئة لقابلية الإيمان موجودة ، ولكنه لم يَسْتدعها إلى قلبه .

والحق سبحانه يقول :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ.. ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

ويقول :

﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

أى : أن الفسق قد صدر منهم ، لأنهم ملأوا أفئدتهم بقضايا باطلة ؛ فجاءت قضايا الحق فلم تجد مدخلاً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول سبحانه :

﴿ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤) ﴾

[إبراهيم]

فمَنْ يُقبل على الضلال يزيده الله ضلالاً ؛ فلن يزيد إيمانُه مُلْكَ الله شيئاً ، ومَنْ يؤمن فهو يضمن لنفسه سلامة الحياة وما بعد الموت ؛ وهو فى الحياة عنصر خَيْر ؛ وهو من بعد الموت يجد الحياة مع نِعَم المُنعِم سبحانه العزيز الذى لا يُغلَب ؛ والحكيم الذى قَدَّر لكلٍّ أمر ما يشاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥) ﴾

والآيات التى أرسلها الله مع - موسى عليه السلام - والمعجزات التى حدثت معه وبيَّنها وأظهرها لقومه كثيرة ، ورسولنا ﷺ نزل ومعه معجزة واحدة وهى القرآن ، أما بقية المعجزات الحسية التى حدثتْ مع رسول الله ؛ فهى قد جاءت لتثبيت فؤاد المؤمنين برسالته ،

ولم يَبْقَ لها أثر من بعد ذلك إلا الذكرى النافعة التى يأتنس بها الصالحون من عباد الله .

وكثرة المعجزات التى جاءت مع موسى ـ عليه السلام ـ تبين أن القوم الذين أرسل لهم قوم لَجج[1] وجدل ، وحين عَدَّد العلماء المعجزات التى جاءت مع موسى وجدها بعضٌ من العلماء تسع آيات ؛ ووجدها غيرهم ثلاث عشرة معجزة ؛ ووجدها بعضٌ ثالث أربع عشرة .

وفى التحقيق لمعرفة تلك الآيات علينا أن نُفرِّق بين الآيات التى صدرتْ بالنسبة لفرعون ؛ والآيات التى جاءتْ لبنى إسرائيل . فالعصا التى انقلبت حيَّة تسعى ، واليد التى تُضىء هى لفرعون ، وعدَّد القرآن الآيات التى جاءت مع موسى لفرعون بتسع آيات ، يقول الحق سبحانه :

﴿فِى تِسْعِ آيَاتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ[2] .. (١٢)﴾ [النمل]

ولم يكن موسى يطلب من فرعون أن يؤمن ؛ فهو لم يُرْسَل لهدايته ؛ ولكنه جاء ليُفحمه وليأخذ بنى إسرائيل المُرْسَلُ إليهم ، والآيات هى : العصا ووَضْع اليد فى الجيب لتخرج بيضاء ، ونَقْص الأنفس والثمرات ؛ والطوفان والجراد والقُمَّل والضفادع والدم ، هذه هى الآيات التسع الخاصة بفرعون .

أما بقية الآيات التى جاء بها موسى ـ عليه السلام ـ لبنى إسرائيل فهى كثيرة مثل :

---

(١) اللَّجة واللجلجة : اختلاط الأصوات . واللجة : الجلبة . وألجَّ القوم إذا صاحوا . [لسان العرب ـ مادة : لجج] .

(٢) المقصود بالقوم هنا هم قوم فرعون .

﴿ وَإِذْ نَتَقْنَا[1] الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ .. (١٧١) ﴾ [الأعراف]

وأيضاً :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ .. (٥٧) ﴾ [البقرة]

وكذلك قوله الحق :

﴿ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ[2] وَالسَّلْوَىٰ[3] .. (٥٧) ﴾ [البقرة]

ولذلك أجمل الحق سبحانه الآيات التى جاءت مع موسى لقومه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ[4] اللَّهِ .. (٥) ﴾ [إبراهيم]

أى : أعِدْ إلى بُؤْرة شعورهم ما كان فى الحاشية ؛ وأنْ يستدعوا من الذاكرة أيام الله ، والمراد ما حدث فى تلك الأيام ، مثلما نقول نحن « يوم بدر » أو « يوم ذى قار » أو « السادس من أكتوبر » أو « العاشر من رمضان » .

---

(١) نتقه : رفعه من مكانه وحرَّكه وجذبه . [القاموس القويم : ٢/٢٥٢] .

(٢) المن : ندى يشبه العسل كان الله ينزله على الأشجار غذاء طيباً لبنى إسرائيل فجحدوا فضل الله عليهم فى ذلك . [القاموس القويم ٢/٢٤٠] .

(٣) السلوى : السمانى ، وهو طائر صغير من رتبة الدجاج وجسمه ممتلىء وهو من الطيور المهاجرة من أوربا فى الشتاء إلى البلاد الدافئة كمصر والسودان ويعود ما سلم منه فى أوائل الصيف إلى مواطنه فى أوروبا . [القاموس القويم ١/٣٢٦] .

(٤) أيام الله : نعم الله . وأيام الله : وقائع الله فى الأمم السابقة . وقال الطبرى : وعظهم بما سلف فى الأيام الماضية لهم ، أى : بما كان فى أيام الله من النعمة والمحنة ، وقد كانوا عبيداً مستذلين ، واكتفى بذكر الأيام عنه لأنها كانت معلومة عندهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٧٨] .

وهنا فى القول الكريم إما أن يكون التذكير بتلك الأيام الخاصة بالوقائع التى حدثتْ للأقوام السابقين عليهم كقوم نوح وعاد وثمود ، ذلك أن الحق سبحانه قد أعلمهم بقصص الأقوام السابقة عليهم ؛ وما حدث من كل قوم تجاه الرسول المُرْسل إليه من الله .

أو أن يكون التذكير بالأيام التى أنعم الله فيها على بنى إسرائيل بنعمه ، أو ابتلاهم فيها بما يُؤلمهم ؛ ذلك أن الحق سبحانه قال :

﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ۝٥ ﴾

[إبراهيم]

والصبَّار هو مَنْ يُكثر الصبر على الأحداث ؛ وهى كلمة تُوحى بأن هناك أحداثاً مؤلمة وقعتْ ، وتحتاج إلى الصبر عليها ، كما تُوحى كلمة « شكور » بحوادث منعمة تستحق الشكر .

وهكذا نجد أن المؤمن يحتاج إلى أمرين ؛ صَبْر على ما يُؤلم ، وشُكْر على ما يُرضى ، وحين تجتمع هاتان الصفتان فى مؤمن ؛ يكون مُكتملَ الإيمان(١) .

وقد قال الحق سبحانه : إن تلك الآيات هى أدلة تُوضِّح الطريق أمام المؤمن ، وتُعطى له العبْرة ، لأنه حين يعلم تاريخ الأقوام السابقة ؛ ويجد أن مَنْ آمنَ منهم قد عانى من بعض الأحداث المؤلمة ؛ لكنه نال رضا الله ونعمه ؛ ومَنْ كفر منهم قد تمتع قليلاً ، ثم تلقَّى نقمة الله وغضبه .

---

(١) عن صهيب الرومى قال قال رسول الله ﷺ : « عجباً لأمر المؤمن ، إن أمره كله خير ، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن ، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٩٩) .

هنا يُقبِل المؤمن على تحمُّل مشاقِّ الإيمان ؛ لأنه يثق فى أن الحق سبحانه لا يُضيع أجْر مؤمنٍ ؛ ولا بُدَّ لموكب الإيمان أنْ ينتصر ؛ ولذلك فالمؤمن يصبر على المحن ، ويشكر على النِّعَم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ[1] سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ[2] نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾

وهكذا نجد الحق سبحانه وقد جاء بنموذج من أيام معاناتهم من جبروت فرعون ، وكيف خلَّصهم سبحانه من هذا الجبروت ، وكان فرعون يُسلِّط عليهم أقسى ألوان العذاب ، ف «سام » الشىء أى : طلبه ؛ و « سام سوء العذاب » أى : طلب العذاب السيء .

وقد ذَبَّح فرعون أبناءهم الذكور ، ولم يُذبِّح الإناث لتصبح النساء بلا عائل ويستبيحهُنَّ ، وفى هذا نِكَاية شديدة .

---

(١) سامه الأمر يسومه سوماً : كلَّفه إياه على غير إرادته . قال الزجاج : أكثر ما يستعمل فى العذاب والشر والظلم . [لسان العرب ـ مادة : سوم] .

(٢) استحياه : استبقاه حياً ولم يقتله . قال تعالى : ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ .. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة] . أى : أنهم يقتلون الذكور فقط، ويتركون البنات والنساء على قيد الحياة . [القاموس القويم ١/١٨٣] .

وقف بعض المستشرقين عند هذه الآية ، وقالوا : لقد تعرض القرآن من قبل لهذه الآية في سورة البقرة ؛ حين قال :

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

فهل هذه الآية في سورة إبراهيم هي البليغة ، أم الآية التي في سورة البقرة ؛ خصوصاً وأن الفرق بينهما هو مجيء « الواو » كحرف عطف على ذبح الأبناء باستباحة النساء ؟

وأضاف هذا المستشرق : ولسوف أتنازل عن النظر إلى ما جاء في سورة الأعراف حين قال القرآن :

﴿ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ﴾ [الأعراف]

وبطبيعة الحال ، فهذا المستشرق لم يأخذ فَهْم القرآن عن ملكة عربية ، ذلك أنه لو كان قد امتلك هذه القدرة على الفَهْم ؛ لَعرفَ أنَّ الكلام لم يصدر في الآيات عن مصدر واحد ، بل صدر عن مصدرين .

ففي آية سورة البقرة كان المصدر المتكلم هو الله سبحانه ، ولذلك قال :

﴿ نَجَّيْنَاكُم.. ﴿٤٩﴾ ﴾ [البقرة]

ولكن المصدر المتكلم في سورة إبراهيم هو موسى عليه السلام ؛ لم يَقُلْ أنه هو الذي أنجاهم بل يُعدِّد النعم التي مَنَّ الله بها

عليهم ؛ ويمتنّ بها عليهم . وعلّة ذلك أن العظيم حين يمتنُّ على غيره لا يمتنُّ إلا بالعظائم ، أما دون العظيم فقد يمتنُّ بما دون ذلك[1] .

واسوق هذا المَثل لمزيد من الإيضاح لا للتشبيه ؛ فسبحانه مُنزَّه عن التشبيه ، وأقول : هَبْ أن إنساناً غنياً له أخ رقيق الحال ، وقد يُمد الغنىُّ أخاه الفقير بأشياء كثيرة ، وقد يعتنى بأولاده ؛ ويقوم برعايته ورعاية أولاده رعاية كاملة . ويأتى ابن الفقير ليقول لابن الغنى : لماذا لا تسألون عنا ؟ فيقول ابن الغنى : ألم يَأْت أبى لك بهذا القلم وتلك البذلة ، بالإضافة إلى الشقة التى تسكون فيها ؟

ولكن العَمَّ الغنىَّ يكتفى بأنْ يقول : أنا أسأل عنكم ، بدليل أنِّى أحضرت لكم الشقة التى تسكنون فيها . إذن : فالكبير حقاً هو الذى يذكر الأمور الكبيرة ، أما الأقل فهو من يُعدِّد الأشياء .

وهنا يَصِفُ الحق سبحانه سوْم العذاب وذَبْح الأبناء بالبلاء العظيم فى قوله تعالى :

﴿ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى مظهرية الخير التى مَنَّ الله بها عليهم ، وهى الإنجاء من ذبح الأبناء واستباحة النساء ؛ وكان ذلك نوعاً من مظهرية الشر . وهذا ابتلاء صعب .

---

(١) قال أبو يحيى زكريا الانصارى فى كتابه « فتح الرحمن بكشف ما يلتبس فى القرآن » ص ٢٧ : « فإن قلت : ما الحكمة فى ترك العاطف هنا ، وذكره فى سورة إبراهيم ؟ قلت: لأن ما هنا من كلام الله تعالى ، فوقع تفسيراً لما قبله ، وما هناك من كلام موسى وكان مأموراً بتعداد المحن فى قوله : ﴿ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ .. ﴿٥﴾ ﴾ [إبراهيم] . فعدَّد المحن عليهم ، فناسب ذكر العاطف » .

وسبق أنْ أوضحنا أنَّ البلاء يكون بالخير أو بالشر ، فقد قال سبحانه :

﴿ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥) ﴾ [الأنبياء]

فلا الخيرَ دليلُ تكريم ، ولا الشرُّ دليلُ إهانة ؛ فهو القائل :

﴿ فَأَمَّا الإنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) ﴾ [الفجر]

فالابتلاء فى الأصل هو الامتحان ؛ إما أنْ تنجحَ فيه أو ترسبَ ؛ ولذلك فهو غَيْر مذموم إلا بالنتيجة التى يَؤُول إليها .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ(١) إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾

ونلحظ أن الآية تبدأ بكلمة « تأذَّن » وكل المادة الألف والذال والنون مأخوذة من الأذن . والأذن آلة السماع ، والأذانَ إعلام ، وآذنهم أى أعلمهم .

وتأذن أى : اعلم بتوكيد . وهكذا يكون معنى الآية : أنى أُعلمكم بتوكيد من ربكم أنكم إنْ شكرتم ليزيدنكم من نعمه وعطائه ؛ لأن

(١) الكفر هنا بمعنى جحود النعمة ، وهو ضد الشكر ورجل كافر : جاحد لأنعم الله . وتقول : كفر نعمة الله وبنعمة الله كفراً وكفراناً وكفوراً . [لسان العرب ـ مادة : كفر] .

الشكر دليلُ ارتباطِ بالواهب ؛ وأنكم سلختم أنفسكم من الاعتزاز بما أوتيتم ، وعلمتم أنه هو وحده الوهاب .

والحق سبحانه هو مَنْ قال :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

ولو كان الإنسان مربوطاً بالحق سبحانه ؛ لما فصل الحقَّ عن نعمه ؛ ولظل ذاكراً للحق الذى وهبه النِّعمَ .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تشغلك النعمة عن المُنعِم ؛ لأن النعمة موهوبة لك ؛ وليستْ ذاتية فيك .

وتأتى المقابلة من بعد ذلك مباشرة ؛ فيقول :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهنا يثور سؤال : هل الذى لا يشكر نعم الله يكون كافراً ؟

وهنا علينا أن نعلم أن هناك فارقاً بين الكفر والكفران ، ولكن لفظ الكفر جاء هنا ليغلظ من معنى عدم الشكر ، ولم يأت بكلمة كُفْران وجاء بقوله :

﴿ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

والمثل فى ذلك هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧) ﴾ [آل عمران]

ومَنْ لم يحج فهو عَاصٍ ؛ وكأن الله يريد أن يُصعِّب عدم القيام

بالحج . أو : أن الآية تريد حُكْمين : الحكم الأول : الإيمان بفرضية الحج ؛ والثانى : القيام بالحج فعلاً .

ذلك أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً.. (٩٧) ﴾[آل عمران]

فَمنْ يؤمن بأن هذا حُكْم صحيح واجب ويؤمن به ولكنه لا يُنفِّذه ؛ قد يدخل فى المعصية ؛ لأنه يستطيع أن يحُجَّ ولم يفعل . أما مَنْ يكفر بالحج نفسه وينكر القضية كلها ؛ فهو كافر والعياذ بالله.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ (٧) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا جاء الكفر مقابل الشكر ، ولابُدَّ من عذاب للكفر ؛ وعذابُ الله لابُدَّ أن يكون شديداً ؛ لأن العذاب يتناسب بقُدرة المعذب ، ولا أقدرَ من الله ، ونعوذ به سبحانه من عذابه ، فهو أمر لا يُطاَق .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓاْ أَنتُمْ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾ ﴾

وقد قال موسى ذلك كى لا يظنّ ظَانٌّ من قومه أن الله فى حاجة إلى شكرهم ؛ وأنه سيعاقبهم بالعذاب إنْ كفروا بشكره ؛ فأراد أنْ ينسخَ هذا الظنَّ من أذهان مَنْ يسمعونه .

وأوضح لهم أن الحق سبحانه لن يزيده إيمانكم شيئاً ؛ ولن يضيف هذا الإيمانُ منهم ومعهم أهل الأرض كلهم لمُلْكه شيئاً ؛ لأن مُلْك الله إنما أبرزه سبحانه بصفات الكمال فيه ، وهو ناشىء عن كمال موجود.

ولذلك يأتي قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾

وهذه الآية الكريمة أعطتْنا تفسيراً لقوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا[1] فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فاطر]

وكذلك قوله سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر]

ونعلم أن الحق سبحانه قد أوحى لموسى ـ عليه السلام ـ أن

---

(١) خلا : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضي . [لسان العرب ـ مادة : خلا] .

يُبلغ قومه بقصص بعض من الأنبياء السابقين عليه . وهذا واضح فى قوله الحق :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ .. (٩) ﴾
[إبراهيم]

ويقول سبحانه عن القوم الذين جاءوا من بعد ذلك :

﴿ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ .. (٩) ﴾
[إبراهيم]

أى : أن الرسل قد حملوا منهج الله ، وكذلك المعجزات الدالة على صدقهم لِمَنْ جاءوا من بعد ذلك . والبينات إما أن تكون المعجزات الدالة على صدقهم ؛ أو : هى الآيات المُشْتملة على الأحكام الواضحة التى تُنظِّم حركة حياتهم لِتُسْعدهم .

ولكن هل قَبِلَتْ تلك الأقوامُ تلك البيناتِ ؟

لا ، لأن الحق سبحانه يقول عنهم :

﴿ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. (٩) ﴾
[إبراهيم]

وهكذا نرى أن الكافرين هم مَنْ وضعوا أيديهم على أفواههم ، وإما أنهم عَضُّوا على الأيدى بالنواجذ لأنهم لم يُطِيقوا تطبيق منهج الله ؛ ولم يستطيعوا التحكُّم فى أنفسهم .

أو : أنهم رَدُّوا أيديهم إلى أفواههم بمعنى أن قالوا للرسل : « هس » ، أصمتوا ولا تتكلموا بما جِئْتم به من بلاغ . أو : أن بعضهم قال للرسل « لا فائدة من كلامكم فى هؤلاء » .

والثراء في القرآن يتحمَّل كل هذه المعاني ؛ والآية تتسق فيها كل تلك المعاني ؛ فالعبارة الواحدة في القرآن تكون شاملَة لخيرات تناسب كمالات الله ، وستظل كمالات القرآن موجودة يظهر بعضها لنا ؛ وقد لا ندرك البعض الآخر إلى أن يُعلمنا بها الله يوم القيامة .

ويأتي قولهم :

﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

ليكشف لنا غباءهم ، فَهُمْ يعترفون بأن هؤلاء رسل من السماء ، وفي نفس الوقت يُنكِرون المنهج ، ويُعلنون هذا الإنكار ، يكشف لنا ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

أي : أنهم أعلنوا رأيهم في المنهج ، وقالوا : إنهم مُحيَّرون ويشكُّون في هذا المنهج .

ويأتي القرآن بردِّ الرسل في قول الحق سبحانه :

﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ[1] السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾

---

(١) أصل الفَطْر : الشق . وفطر الله الخلق يفطرهم : خلقهم وبدأهم . قال ابن عباس : ما كنت أدري ما فاطر السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها أي أنا ابتدأت حفرها . [لسان العرب ـ مادة : فطر] .

وقـولـه : ﴿ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ.. (١٠) ﴾ [إبراهيم] هو لوْن من الخطاب الذى لا يتـرك لِمَنْ توجـه إليه الـكلام أنْ يُجيب إلا كـمـا تريد أنت . وأنت لا تفـعل ذلك إلا إذا كُنْـتَ واثقـاً من أن مَنْ تُوجِّـه إليـه الكلام سيجيب ـ إنِ استحضرَ الحق فى ذهنه ـ كما تريد أنت .

ولذلك لم يَأْتِ الخطاب هنا بقوله « لا شك فى الله » وبذلك يكون الكلام خـبرياً ، وقـد يقـول واحد : إن هذا كـلام كـاذب ، ولكن على الرغم من أن المستـمعين من الكفار ، إلاَّ أنه يأتى بالقـضية فى شكل تسـاؤل يسـتأمـنهم على أنهم سـوف يُديرون الكلام فى رؤوسـهم ، وسيعثـرون على الإجابة التى لا يمكن أنْ ينكرونها ؛ وهى « ليس فى الله شك » .

وهكذا نجد أن القائل قد سكتَ عن إعلانهم الكفرَ أولاً ؛ وجاء لهم بالتـساؤل الذى سيـجيـبون عليـه « ليس فى الله شك » ، ويأتى لهم بالدليل الذى لا يحتمل أىَّ شكٍّ ، وهو قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. (١٠) ﴾ [إبراهيم]

والفاطر هو الذى خـلق خَلْقاً على غيـر مثال سـابق ، مثلهـا مثل قوله الحق :

﴿ بَدِيعُ(١) السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(١١٧) ﴾ [البقرة]

فـلا أحـدَ قـادرٌ على أن يخلقَ مـثل السـمـاوات والأرض ؛ وهى مـخلوقة على غـيـر مثـال سابق . وسـبـحانه هو مَنْ شـاء أن يكون

(١) بدعه يبـدعه : أنشـاه على غير مـثال سابق . وبديع الـسماوات والأرض . أى : مـبدعهـما ومنشئهما على غير مثال سابق . [القاموس القويم ١/ ٥٧].

الإنسان سيداً لكل الكائنات المخلوقة ، وأن تكون تلك الكائنات مُسخَّرة لخدمته .

وقد يتخيّل الإنسان أن خَلْقه أكبر من خَلْق السماوات والأرض ؛ لذلك يُنبِّهه الحق سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [غافر]

ولو نظرتَ إلى الشمس وسألتَ نفسك : كم من الأجيال قد استمتعوا بدفْئها واستفادوا منها ؟ فمن المؤكَّد أنك لن تعرف عدد الأجيال ؛ لأن الشمس مخلوقة من قَبْل خَلْق البشر ، وكل إنسان يستمتع بالشمس ويستفيد منها عددَ سنوات حياته ، ثم يذهب إلى الموت .

ونجد المفسر الجليل الفخر الرازى[1] يضرب المَثل الذى لا يمكن أنْ يُنكره أحد ، ويدلُّ على الفطرة فى الإيمان ، ويُوضِّح أن الحق سبحانه لم يُمهل الإنسان إلى أنْ ينضجَ عقله ليشعر بضرورة الإيمان ، ويضرب المثل بطفل صغير تسلَّل ، وضرب شقيقه ؛ هنا لابُدَّ أن يلتفتَ الشقيق ليكتشف مَن الذى ضربه ؛ لأن الإنسان من البداية يعلم أنْ لا شيءَ يحدث إلا وله فاعل .

وهَبْ أن طفلاً جاء ليجد شقيقه جالساً على كرسى ، وهو يريد

(١) هو : محمد بن عمر بن الحسن أبو عبدالله ، الإمام المفسر ، أوحد زمانه فى المعقول والمنقول وعلوم الأوائل ، وهو قرشى النسب ، أصله من طبرستان . يقال له « ابن خطيب الرى » رحل إلى خوارزم وما وراء النهر وخراسان . وتوفى فى هراة عام ٦٠٦ هـ . (الأعلام للزركلى ٦/٣١٣) .

أن يجلس على نفس الكرسى ؛ هنا سيقوم الطفل بشدِّ وجَذْب أخيه من على الكرسى ليجلس هو ، وكأنه اكتشف بالفطرة أن اثنين لا يمكن أن يستوعبهما حَيِّز واحد .

وهكذا يتوصل الإنسان بالفطرة إلى معرفة أن هناك خالقاً أوحد . وهكذا نجد قوله الحق :

﴿ فَاطِرِ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ.. ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

هو الآية الكونية الواسعة .

ويأتى من بعد ذلك بالقول :

﴿ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ.. ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذا القول يدل على الرحمة والحكمة والقدرة والحنان ؛ وهو هنا يقول :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

ولم يَقُلْ : يغفر لكم ذنوبكم ؛ ذلك أنه يخاطب الكفار ؛ بينما يقول سبحانه حين يخاطب المؤمنين :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.. ﴿١٢﴾ ﴾ [الصف]

وهكذا لا يساوى الحقُّ سبحانه فى خطابه بين المؤمنين والكافرين .

أو : أن المقصود من قوله :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ.. ⑩ ﴾ [إبراهيم]

هو غفران الكبائر ؛ ذلك أن صغائر الذنوب إنما يغفرها أداء الفرائض والعبادات ؛ فنحن نعلم أن الرسول ﷺ قال : « الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تُغْشَ الكبائر »[1] .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى.. ⑩ ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نعرف أن الأجلَ هو الزمن المضروب والمُقرر للحدث . وإن شاء الحق سبحانه الإبادة فنجد ما يدل عليه قوله الحق :

﴿ فَخَسَفْنَا[2] بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ⑧١ ﴾ [القصص]

كما فعل مع قارون .

أو : أن قوله : ﴿ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى.. ⑩ ﴾ [إبراهيم] مقصود به يوم القيامة .

ولكن الكفار أهل لَدَد[3] وعناد ، لذلك نجد قولهم :

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٣٣) ، وأحمد في مسنده (٢/ ٤٨٤) وابن ماجة في سننه (١٠٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه .

(٢) خسف الله الأرض : جعلها تهبط وتَغُور . [القاموس القويم : ١/ ١٩٤] .

(٣) اللدد : الخصومة الشديدة . الألد : الشديد الخصومة الجدل. [لسان العرب ـ مادة : لدد].

﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾﴾ [إبراهيم]

وهكذا يعلن أهل الكفر لرسلهم أنهم يُفضِّلون أن يكونوا أهل تقليد للآباء ، ولو أنهم فكَّروا لَعلموا أن التقليد لو شاع في المجتمعات لَمَا ارتقى أحدٌ عن آبائه وأجداده ، فالعالم يتطور من تمرُّد جيل على جيل سابق ، فلماذا يُصِرّ هؤلاء الكافرون على أن يحتفظوا بتقليد الآباء والأجداد ؟

وإذا كان الأبناء يتطورون في كل شيء ، فلماذا يحتفظ هؤلاء الكفار بتقليد الآباء في العقائد ؟

ولا يكتفي أهل الكُفْر بذلك ، بل يطلبون أن يأتيَ لهم الرسل بسلطان مبين ، والسلطان يُطلق مرَّة على القهر على الفعل ، ويكون الفاعل المقهور كارهاً للفعل .

ومرّة يُطلق على الحجة التي تُقنع بالفعل ، ويكون الفاعل مُحباً لما يَقْدُم عليه ، والدين لا يمكن أن ينتشر قهراً ؛ بل لابُدَّ أن يُقبل الإنسان على الدين بقلبه ، وذلك لا يأتي قهراً .

لذلك نجد القول الحق :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ .. ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة]

وما دام الرُّشْد قد ظهر فالإكراه لا مجالَ له ؛ لأن الذي يُكْره على شيء لا يمكن له أن يعتنق ما يُكره عليه .

وإذا ما دخل الإنسان الدين فعليه أن يلتزمَ بما يُكلِّف به الدين ؛

ولذلك فالإنسان لا يمكن أن يدخل إلى الدين مُكْرهاً ، بل ، لا بُدَّ أن يدخله على بصيرة .

ويأتى الحق سبحانه بعد ذلك بما قاله الرسل رداً على قَوْل أهل الكفر :

﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ(١) عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ ﴾

وهكذا أوضح الرسل لأقوامهم : نحن بشر مثلكم ، والسلطان الذى نملكه هو المعجزة التى اختصَّ بها الحق سبحانه كُلَّ رسول ، والحق سبحانه هو الذى يتفضَّل على عباده ؛ فيختار منهم الرسول المناسب لكل قوم ؛ ويرسل معه المعجزة الدالة على تلك الرسالة ؛ ويقوم الرسول بتبليغ كل ما يأمر به الله .

وكل رسول إنما يفعل ذلك ويُقبل عليه بكل الثقة فى أن الحق سبحانه لن يخذله وسينصره ؛ فسبحانه هو القائل :

﴿ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

ويخبرنا سبحانه بطمأنة الرسول ومَنْ معه لحظةَ أن تزلزلهم

---

(١) يمن : ينعم ويحسن . وفى أسماء الله تعالى : الحنان المنان ، أى : الذى ينعم غير فاخر بالإنعام . وقال ابن الأثير : هو المنعم المعطى من المنِّ فى كلامهم بمعنى الإحسان إلى من لا يستثيبه ولا يطلب الجزاء عليه . [لسان العرب ـ مادة : منن] .

جِسَام الأحداث ؛ وتبلغ قلوبهم الحناجر ، ويتساءلون :

﴿ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ .. (٢١٤) ﴾ [البقرة]

فتأتى أخبار نَصْر الحق سبحانه لرسله السابقين لطمأنة المؤمنين ، ونجد الحق سبحانه هنا يقول :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) ﴾ [إبراهيم]

هكذا أعلن كل رسول لِمَنْ آمن به من قومه ، فعلَى الله وحده يتوكَّل المؤمنون ، ويُفوِّضون كل أمورهم إليه وحده ؛ صَبْراً على معاندة الكافرين ، وثقةً فى أنه سبحانه ينصر مَنْ أبلغوا رسالته ومنهجه ، وينصر معهم مَنْ آمنوا بالمنهج والرسالة .

وينقل لنا الحق سبحانه بقية ما قاله الرسل لأقوامهم :

﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَاۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) ﴾

ونلحظ أن الحق سبحانه قد وصف المُتوكِّلين فى نهاية الآية السابقة بأنهم المؤمنون ؛ وهنا يَصِفُهم فى نهاية هذه الآية بأنهم المتوكِّلون ؛ لأن صفة الإيمان تدخل فى صفة التوكل ضِمْناً .

ونعلم أن هناك فارقاً بين التوكل والتواكل ؛ فالتوكل يعنى أن تستنفد أسباب الله المَمْدودة ؛ لأن التوكل عمل القلوب ؛ بعد أن تُؤدِّى الجوارحُ ما عليها من عمل وأَخْذ بالأسباب ؛ فالجوارح تعمل والقلوب هى التى تتوكل .

ويأتى لنا الحق سبحانه ببقية الحوار بين الذين كفروا من أهل الأقوام السابقة وبين رسلهم ، فيقول :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا[1] فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾

وهكذا نرى أن فاشية الخير حين فَشَتْ فى الناس ؛ يغضب منها المستفيدون من الفساد والذين يعيشون عليه ؛ ويتجه تفكير المفسدين إلى ضرورة إخراج خمائر الخير من الأرض التى يعيش المفسدون على الاستفادة من أهلها .

وإنْ عَزَّتْ الأرض على خمائر الخير ، فعليهم أن يعلنوا عودتهم إلى ديانة الكافرين . ولا يقال : عُدْت إلى الشىء إلا إذا كنتُ فى الشىء ثم خرجتُ عنه وعُدْتُ إليه .

وهل كان الرسل الذين يُهدِّدهم أهل الكفر بالإخراج من البلاد ؛ يقبلون العودة إلى ديانة الكفر ؟

طبعاً لا ؛ ولذلك نفهم من قوله تعالى :

﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا .. ﴿١٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

بمعنى « أو لتصيرن فى ملتنا » .

ولم يقبل الرسل تلك المُساومة ؛ ذلك أن الحق سبحانه وتعالى يُنزِل جنود التثبيت والطمأنينة والسكينة على قلوب رُسُله والمؤمنين ؛

(١) الملة : الشريعة والدين . والملة : الدين حقاً كان أو باطلاً . [القاموس القويم : ٢/٢٣٦].

فلا يتأثر الرسل ومَنْ معهم بمثل هذا الكلام .

وهذا ما يُعبِّر عنه قَوْل الحق سبحانه فى آخر الآية :

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يأتى القانون السماوى بالعدل وهو إهلاك الظالمين ، وتلك قضية إيمانية باقية ودائمة أبداً .

ويكمل الحق سبحانه وعده لرسله ومَنْ معهم من المؤمنين :

﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤) ﴾

وهنا يؤكد الحق سبحانه أن مَنْ يثبت على الإيمان ، ويخاف مَقَام الحق سبحانه ، ويخشى يوم العَرْض على الحق ويوم الحساب ؛ ولم ينكص[1] عن منهج دعوة الحق ؛ سيُورثه الحق سبحانه أرض مَنْ كفر بالله ؛ فتلك سنة الله ؛ لأنه سبحانه قال :

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا .. (٢٧) ﴾

[الأحزاب]

ونعلم أن مَنْ يخاف الله ويخشاه ويؤمن أنه قائم على كُلِّ نفس ؛ فسبحانه يجزى مَنْ يعيش حياته فى ضَوْء الإيمان بأن يُورثه أرضَ مَنْ كفر ، وقد قال الحق سبحانه لرسوله :

---

(١) النكوص : الإحجام . ونكص على عقبيه : رجع عما كان عليه من الخير . والنكوص : الرجوع إلى وراء . [لسان العرب ـ مادة : نكص] .

﴿ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا .. (١٣٧) ﴾ [الأعراف]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا[1] وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ[2] (١٥) ﴾

و« استفتح » تعنى طلب الفتح ، وهناك فتح ، واستفتح . وكلمة « فتح » تدل على أن شيئاً مُغْلقاً ينفتح ، ومرّة يكون المقصود بالكلمة أمراً حسياً ؛ وأحياناً يكون الأمر معنوياً ، ومرة ثالثة يكون الفتح بمعنى الفَصْل والحُكْم .

والمثل على الأمر الحسيّ قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ .. (٦٥) ﴾ [يوسف]

ومرّة يكون الفَتْح معنوياً ؛ وبمعنى سابقة الخير والعلم ، كقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا خَلا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ .. (٧٦) ﴾ [البقرة]

---

(١) استفتحوا : استنصروا . أى : أذن للرسل فى الاستفتاح على قومهم ، والدعاء بهلاكهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٦٨٦] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٨٧) : «الجبار والعنيد فى الآية بمعنى واحد ، وإن كان اللفظ مختلفاً ، وكل متباعد عن الحق جبار وعنيد أى متكبر » .

وكذلك قول الحق سبحانه :

﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ .. ② ﴾ [فاطر]

أما المَثل على الفَتْح بمعنى الفَصْل فى الأمر ، فالمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ⑧⑨ ﴾ [الأعراف]

وهكذا نجد للفتْح معانى متعددة ، وكلها تدور حول المغاليق وهى تُفَضّ ، ويُطلَق الفتح آخر الأمر على النصر ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ① ﴾ [النصر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ①⑤ ﴾ [إبراهيم]

وهم طلبوا الفتح بمعنى طلبوا النصر ، وكانت تلك خيبةً من الكفار ؛ فَهُمْ طلبوا الفتح أى النصر ؛ وهم قد فعلوا ذلك مظنّة أن عندهم ما ينصرهم .

وكيف ينصرهم الله وهم كافرون ؟

لذلك يُخيِّب الله ظنهم ويحكم عليهم بمصير كل مَنْ عاش جباراً فى الأرض ، متكبراً عن عبادة ربه .

ويقول سبحانه :

﴿ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ﴾ [إبراهيم]

والجبار هو مَنْ يقهر الناس على ما يريده ؛ والمقصود هنا هم المُتكبِّرون عن عبادة الحق سبحانه وتعالى ، ويعاندون فى مسألة الإيمان به سبحانه .

وماذا ينتظرهم من بعد ذلك ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ (١٦) ﴾

أى : من خلف الجبار المُتعنِّت بالكفر جهنمُ ، وما فيها من عذاب . وفى العامية نسمع مَنْ يتوعد آخر ويقول له « وراك .. وراك » ويعنى بذلك أنه سيُوقع به أذىً لم يأتِ أوانه بَعْد .

وكلمة « وراء » فى اللغة لها استخدامات متعددة ؛ فمرَّة تأتى بمعنى « بَعْد » والمثل فى قوله تعالى عن امرأة إبراهيم عليه السلام :

﴿ وامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ[1] فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ (٧١) ﴾ [هود]

---

(١) أى : تعجبت من الضيوف الذين جاءوا بالبشرى . وقيل : كانت لا تحيض فحاضت . وفى اللغة : ضحكت المرأة أى حاضت . والراغب فى المفردات أنكر هذا التفسير وأرجع أن قوله تعالى : « ضحكت » معناه سُرَّتْ كثيراً . [القاموس القويم : ١/ ٣٩٠] .

أى : جاء يعقوب من بعد إسحق .

ومرّة تُطلق « وراء » بمعنى « غير » مثل قول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝ ﴾ [المؤمنون]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ مِّن وَرَائِهِ جَهَنَّمُ.. ۝ ﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن جهنم ستأتى مستقبلاً ، أى : أنها أمامه، ولكنها تنتظره ؛ وتلاحقه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَيُسْقَىٰ مِن مَّاءٍ صَدِيدٍ ۝ ﴾ [إبراهيم]

والصديد هو الماء الرقيق الذى يخرج من الجُرْح ، وهو القَيْح الذى يسيل من أجساد أهل النار حين تُشْوى جلودهم .

ولنا أن نتصورَ حجم الألم حين يحتاج أحدهم أن يشرب ؛ فيُقدَّم له الصديد الناتج من حَرْق جلده وجلُود أمثاله . والصديد أمر يُتأفَّفُ من رؤيته ؛ فما بَالُنَا وهو يشربه ، والعياذ بالله .

ويقول الحق سبحانه متابعاً لِمَا ينتظر الواحد من هؤلاء حين يشرب الصديد :

﴿ يَتَجَرَّعُهُۥ[1] وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ[2] وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾

ويتجرعه أى : يأخذه جَرْعة جَرْعة ، ومن فرط مرارته لا تكون له سيولة تُستساَغ ؛ فيكاد يقف فى الحلْق ؛ والإنسان لا يأخذ الشىء جَرْعة جَرْعة إلا إذا كان لا يقدر على استمرار الجرعة ؛ ولكن هذا المشروب من الصديد لا يكاد يستسيغه مَنْ يتجرعه . ويقال : استساغ الشىء . أى : ابتلعه بسهولة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ.. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لا يكاد يبلعه بسهولة فطعْمُه وشكله غير مقبولين .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ.. ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : ينظر حوله فيجد الموت يحيط به من كل اتجاه ، لكنه لا يموت ، ويُفَاجأ بأن العذاب يحيط به من كل اتجاه مُصدِّقاً لقول الحق سبحانه :

---

(١) تجرعه : بلعه فى تكلف وتكرُّه [القاموس القويم : ١/١٢٠] . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٦٨٩) : « أى : يتحساه جُرعاً لا مرة واحدة لمرارته وحرارته » .

(٢) ساغ الشراب فى الحلق إذا كان سلساً سهلاً . [لسان العرب ـ مادة : سوغ] .

﴿ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

هكذا يتعذب الجبار المتعنت فى أمر الإيمان . وإذا قسْنَا العذاب الغليظ بأهونِ عذاب يلقَاهُ إنسان من النار لوجدنا أنه عَذابٌ فوق الاحتمال ؛ فها هو ﷺ يقول : « إن أهون أهل النار عذاباً يوم القيامة لَرجلٌ يُوضَع فى أَخْمَص[1] قدميه جمرتان يغلى منهما دماغه »[2] .

فمَا بالُنا بالعذاب الغليظ ، وقانا الله وإياكم شرَّه ؟

ويقول سبحانه من بعد ذلك قضية كونية :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا۟ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ ﴾

وقد يأتى فى أذهان البعض ما يُشوِّه عقائد الإيمان ، فيقول : كيف يدخل فلانٌ النار وهو مَنْ أهدى البشريةَ تلك المخترعات الهائلة التى غيَّرت مسارات الحضارة ، وأسعدتْ الناس ؟ كيف يُعذِّب الله هؤلاء الذين بذلوا الجهد ليطوروا من العلوم والفنون ، أيعذبهم لمجرد أنهم كفار ؟

---

(١) الأخمص : باطن القدم وما رقَّ من أسفلها وتجافى عن الأرض . [لسان العرب ـ مادة : خمص] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٦١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢١٣) من حديث النعمان بن بشير رضى الله عنه .

وأقول : نعم ، يعذبهم الله على الرغم من أنه سبحانه لا يضيع عنده أَجْرُ مَنْ أحسنَ عملاً ؛ وهو قادر على أنْ يَجزيهم فى الدنيا بما ينالونه من مجد وشهرة وثروة ؛ وهم قد عملوا من أجل ذلك . وانطبق عليه قوله : « عملتَ ليُقال وقد قيل »[1] وأخذوا أجورهم مما عَملوا لهم ؛ ذلك أنهم عملوا ولم يكُنْ فى بالهم الله .

وهكذا يصور القرآن مسألة الجزاء ، فالواحد من هؤلاء الكفار إذا كان يَلْقى العذاب الغليظ على الكفر ؛ فالحق لا يغمطه[2] أجر ما فعل من خير ؛ فينال ذلك فى الدنيا ويستمتع بإطلاق اسمه على اختراعه أو اكتشافه .

ونعلم جميعاً قوله ﷺ : « مَنْ كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه »[3] أما فى الآخرة فالعذاب جزاؤه ؛ لأنه عاش كافراً بالله .

وهذه الأعمال التى صنعوها فى الدنيا ، وظنُّوا أنها أعمالٌ إنسانية وأعمالُ بِرٍّ تأتى يوم القيامة وهى رماد تهبُّ عليه الريح الشديدة فى يوم عاصف لتذره بعيداً :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) ، وأحمد فى مسنده (٢/٣٢٢) والنسائى فى سننه (٦/٢٣ ، ٢٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وقد شرحه فضيلة الشيخ الشعراوى فى كتاب « الأحاديث القدسية » (١/١٣٥ ـ ١٥١) بتحقيقى .

(٢) غمط الحق : جحده . والغمط : كفران النعمة وسترها . [لسان العرب ـ مادة : غمط] .

(٣) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأوله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء ما نوى » .

ولن تكون لديهم عندئذ فرصة لاستئناف الحياة ليستفيدوا من التجربة ؛ بل أمامهم وحولهم العذاب ؛ لسان حال كل منهم يقول :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا .. ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

لكنه لو رُدَّ إلى الحياة لَعَاد إلى ما نُهِي عنه ، مِصْداقًا لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

وهذا الكفر هو الضلال البعيد الذى جعل كل أعمالهم التى ظنُّوا أنها صالحة ؛ مجردَ أعمال مُحْبطة ؛ فضلُّوا بالكفر عن الطريق المُوصِّل إلى خير الآخرة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ ﴾

وسبحانه يُعلمنا هنا أنه خلق السماوات والأرض بميزان الحقّ ؛ فلا تأتى السماء وتنطبق على الأرض ، فسبحانه القائل :

﴿ يُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحج]

وأنت كلما سِرْتَ وجدتَ الشمس مِن فوقك ، وهى مرفوعة بنظام هندسىّ دقيق .

وهكذا أراد الحق سبحانه أن يُؤكِّد قضية كونية مُحسَّة مشهودة ؛ وبدأ بقوله :

﴿أَلَمْ تَرَ.. (١٩)﴾ [إبراهيم]

رغم أنه لا يوجد مع العَيْن أَيْن ؛ ذلك أن الشمس واضحةٌ أمام كُلِّ البشر ، وهكذا نجد أن معنى « ألم تَرَ » هنا تكون بمعنى « ألم تعلم » .

وجاء سبحانه بـ ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ هنا ليدلّنا على أن ما يُعلمنا الله به من حَقٍّ أصدق مما تُعلمنا به العين ؛ فإذا قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فهى تعنى : ألم تعلم علْماً مُؤكَّداً ؛ لأن عينيك ربما تَخُونك فى الرؤيا ، أو تخدعك بالإبصار ، ولكن إذا قال لك الله ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ فاعلم أنه علم موثوق به .

وحين يلفتنا الحق سبحانه هنا إلى رؤية السماوات والأرض ؛ فكان لابُدَّ لنا أن نعلم أنها لم تَكُنْ لتُوجَد إلا بخَلْق الله لها ؛ وهو الذى أخبرنا أنها من خَلْقه ؛ ولم يدّعها أحدٌ لنفسه ؛ وبذلك تثبت له قضية خَلْقها إلى أنْ يقولَ آخر أنه خلقها ؛ ولم يَقُلْ لنا أحدٌ ذلك أبداً .

وسبق أن قال سبحانه :

﴿لَخَلْقُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧)﴾ [غافر]

والبشر كما نعلم لا يعيش فرد منهم مثْلما تعيش السماء ؛ فالفرد يموت ويُولَد غيره ؛ وكُلُّ البشر يأتون ويذهبون ، والشمس باقية ، وكذلك الأرض .

ومن عجيب الخَلْق الرحماني أن الله خلق كُلّ ذلك تسخيراً لأمر الإنسان ؛ فلا يشذّ كائن من تلك المُسخرات عن أمر الإنسان . وما طُلب منك أيُّها الإنسان تكليفاً أنت مُخيَّر فيه إنْ شئتَ آمنتَ ، وإنْ شئْتَ كَفرتَ ؛ وإنْ شئتَ أطعتَ ، وإن شئتَ عصيتَ .

ولكن المخلوق المُسخَّر لخدمتك ليست له هذه المشيئة . وهو سبحانه الحق القائل :

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾

[الأحزاب]

وقد أعلمنا هذا القولُ الكريم بأن الرحمانية سبقتْ لنا نحن البشر من قبل خَلْقنا ، وأقدمتنا رحمانية الله على وجود مُهيَّأ لنا .

ومن العجيب أن الكونَ المخلوق لنا استبقاءً لحياتنا واستبقاءً لنوعنا يتركز في أشياء لا دَخْل لنا فيها ، ولا تتغير أبداً ؛ وهي الأشياء العليا كالشمس والقمر والأرض .

وهناك أشياء أخرى يكون التغيير فيها على نوعين : قسم يتغير ويأتي بدلاً منه شيء جديد ، كالنبات الذي يذهب ويصير حصيداً ، وكذلك الحيوانات التي نأكلها أو التي تموت .

وهناك خَلْق يتغير مع إبقاء عناصره ، وإنْ تغيَّرتْ مادته ، كالجمادات التي نراها ـ الجبال والأرض وعناصرها ـ ونكتشف منها كُلَّ يوم جديداً .

---

(١) أشفقن منها : ضقن من حمل الأمانة ، ومن نتائج عدم الوفاء بحقوقها . [القاموس القويم ٣٥١/١] .

إذن : فالمخلوقات التى استقبلتْ الوجود الإنسانى نوعان : نوع لا دَخْل للأغيار فيها ؛ ونوع آخر فيه دَخْل للأغيار مع بقاء مادتها وهى الجمادات ؛ ونوع تتغير أنواعه وأجناسه .

كُلٌّ هذه الأشياء تدلُّنا على أن الحقَّ سبحانه وتعالى له صِفَتان :

صفة القدرة والقهر ؛ وهو سبحانه يقهر ما يشاء على ما يشاء ؛ ولا يتغير .

وصفة الاختيار التى أوجدها فى الإنسان .

وأثبتت صفة القدرة التى سخَّر بها سبحانه لأشياء لخدمة الإنسان مُطْلَق سلطانه سبحانه على كُلِّ ما خلق ؛ فلا شىءَ يخرج عن مراده أبداً .

وأراد سبحانه بصفة الاختيار التى وهبها للإنسان أنْ يأتيه عبده الإنسان محباً متبعاً لتكاليفه الإيمانية ، فالذى يطيع الله وهو قادر على أنْ يعصيه إنما يدلُّ بذلك على أنه مُحِبٌّ لله ؛ ويُثْبِت له صفة المحبوبية .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ .. (١٩) ﴾ [إبراهيم]

ولنا أن نلحظ أن كلمة « بالحق » وردتْ فى مواقع كثيرة من القرآن الكريم .

وعلى سبيل المثال ، نجد فى القرآن الكريم قوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨٥) ﴾ [الحجر]

وقوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ[1] (٣٨) ﴾ [الدخان]

وهذا يدلُّ على أن السماوات والأرض مخلوقة على هيئة ثابتة ، وقد جعل ذلك مدارسَ الفلسفة تستقبل تلك القضية استقبالين ؛ استقبالَ مَنْ يريد أنْ يؤمن ؛ واستقبال مَنْ يريد أنْ يكفرَ . وانقسم مَنْ أرادوا الكفر إلى فريقين .

الفريق الأول : أخذ من ثبات قوانين الشمس والقمر والأرض دليلاً على أنه لا يوجد خالق لهذا الكون ، وقالوا : لو أن هناك خالقاً له لغيَّر من هيئة السماوات والأرض ، ولكن كُل من تلك الكواكب تدير نفسها بآلية ذاتية مُحْكمة .

والفريق الثانى ممَّنْ أرادوا الكفر قال : إن الشذوذ فى الكون ووجود خَلَلٍ وعيوب خَلقية فى بعض من المخلوقات والأنواع ؛ دليلٌ على أنه لا يوجد إله . فكيف يخلق إلهٌ مخلوقاً أعمى ؛ وآخر أعرجَ ؛ وثالثاً بعين واحدة ؟

وهكذا أخذ هذا الفريق من أهل الكفر وجود الشذوذ فى الكون كدليل على عدم وجود إله .

ومن العجيب أن الفريق الذى أراد التغيير فى هيئة السماوات والأرض ؛ أراد ذلك كدليلٍ على وجود خالق ، والفريق الذى رأى أن هناك شذوذاً فى بعض المخلوقات أخذ ثبات الخَلْق على هيئة واحدة كدليل على وجود إله .

---

(١) لعب : عمل عملاً لا يُجدى عليه نفعاً . لاعبون : عابثون غير جادين . [القاموس القويم : ٢/١٩٤] .

كل ذلك يدلُّنا على أن الفريقين قد أخذا من قضيتين متعارضتين دليلاً على الكفر ، ولم يتفق الفريقان على قضية واحدة ، وهذا يوضح التناقض بينهما .

ولو أمعن كل من الفريقين النظر لَعلم كلٌّ منهما أن الإيمان ضرورة أساسية لفهْم هذا الكون على ثبات ما فيه ؛ وعلى وجود بعضٍ من الشذوذ فيه .

فأنت يا مَنْ تنتظر ثباتاً فى الأكوان خُذْ ثبات آلية الحركة فى السماوات والأرض والشمس والقمر دليلاً على الإيمان بوجود خالق إله قادر .

وأنت يا مَنْ تأخذ التغيُّر فى الخلق دليلاً على وجود خالق ؛ فها أنت ترى اختلاف بعض المخلوقات ما يجعلك تعثر على عدم التماثل فى المخلوقات دليلاً على وجود إله خالق له طلاقة القدرة .

وأوضح الحق سبحانه لنا أنه لم يخلق السماوات والأرض لعبة ؛ بل خلقهما بالحق ، وهناك فارق بين اللعبة والحق ، فاللعبة قد يتوصل إليها مَنْ يعبث بشيء ؛ فتخرج له صُدْفة يستخدمها هو أو غيره كلُعبة .

يقول الحق :

﴿ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [النحل]

أما الخلق بالحق ؛ فهذا يعنى أن مَنْ يخلقها إنما يفعل ذلك بموازين دقيقة مُحْكمة ؛ ويصنعها على نظام ثابت له قضية تحكمه من الحكمة والحق .

وما دام الكون الأعلى ثابتاً ؛ فإن الحق سبحانه هو الذى خلق

السمـاوات والأرض ، وما دُمْتَ تريد ثبـاتاً فى حركـتك الاختـيارية ؛ فخُذ المنهج الذى أنزله الله بالحق ؛ فتثبت قـضاياك كما ثبتت القضايا العليا ؛ وأنت حين تخرج عن منهج الحق تجد فساداً .

وإذا أردتَ ألاَّ يوجد فـساد فى المـجتمع من أىِّ لَـوْنٍ فابحث عن حكم الله الذى ضَيّعه الإنسـان فى مخالفة منهجه تجـد أنَّ ضياعه هو السبب فى وجود الفساد ؛ واقرأ قوله الحق فى سورة الرحمن :

﴿ الرَّحْمَـٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ[1] (٤) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ (٥) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (٦) وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ[2] وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ [الرحمن]

وهكذا أنت ترى الشـمس ـ على سـبـيل المـثـال ـ منضـبطةٌ فى شروقها وغروبها وكُسُوفها ؛ وكذلك القمر فى سُطوعه أو مَحاقه[3] أو خسوفه .

وكمـا رفع الحق سبـحانه السـماء ووضـع المـيزان ؛ فـعليكم أنْ تَزِنوا كُلَّ أمـر بالمـيـزان الصـحيح لـتنصلح أمـوركم ، فإن اعـتـدال الموازين المادية والمعنوية والقيمية هى استقرار لحركة الحياة .

أما إنْ ظللتُم على العِوَج فاعلموا أنه سبحانه قادر على أنْ يُذهِبكم وأن يأتى بخَلْق جديد :

---

(١) البيان : النطق المعبِّر عما فى النفس من معان وأفكار . [القاموس القويم : ١/٩٢] .

(٢) القسط : العدل . وأقسط : عدل وأزال الظلم والجور . والقسطاس : الميزان والعدل . [القاموس القويم ٢/١١٦] .

(٣) المحاق : آخر الشهر إذا امّحق الهلال فلم يُرَ . وقال ابن الأعرابى : سُمِّى المحاق محاقاً لأنه طلع مع الشمس فمحقته فلم يرهُ أحد . [لسان العرب ـ مادة : محق] .

﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾﴾ [إبراهيم]

إن منطوق الآن ومفهومها ليس مراده سبحانه ؛ لأن الله خلقَ الخَلْق ، ووهبهم الاختيار لِيُقبِل الخلق على الله ، رغم أنه سبحانه قد ملّكهم ألاَّ يُقبلوا عليه .

وفي موقع آخر يقول سبحانه :

﴿هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٨﴾﴾ [محمد]

ويقول في قضية إنكار اليهود لطريقة ميلاد المسيح عيسى بن مريم :

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلائِكَةً فِي الأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [الزخرف]

إذن : فطلاقة قدرة الله التي خلقته بلا أب ، يمكن أن تفعل تلك القدرةُ المطلقة ما تشاء ، فلا شيء يتأبَّى على مرادات الحق ولا على قدراته .

ويقول في موقع آخر :

﴿فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المعارج]

فلا أحد يسبق إرادة الله أو مشيئته .

ويقول الحق سبحانه مؤكداً أن قدرته على المجيء بخلق جديد ليست مسألة مستحيلة :

﴿ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٢٠)

والشىء العزيز هو الشىء المُمْتنِع . والله سبحانه لا يُغْلَب . وقد بيَّن لنا فى جزئيات الحياة أنه يذهب بنبات ويأتى بنبات آخر ، ويذهب بحيوان ويأتى بحيوان آخر ؛ وكذلك يذهب بالجماعة من البشر ويأتى بغيرهم .

ويقول سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ(١) أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ(٢) ﴾ (٢١)

والبروز أن يظهر شىء كان خفياً . ويُقال « رجل بارز » أى : مرموق وقَيْد الأبصار ، ولا تُفتَح الدنيا إلا عليه ، ويُقال « امرأة بارزة » أى : امرأة تختلط بالرجال وغير مُستترة .

---

(١) الجزع : نقيض الصبر ، وهو ضعف النفس عن احتمال المكروه . [القاموس القويم ١٢٢/١] .

(٢) المحيص : المهرب والمفرّ . والمحايصة ، مفاعلة ، من الحيص العدول والهرب من الشىء [لسان العرب ـ مادة : حيص] .

ويقول سبحانه :

﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً .. (٤٧) ﴾ [الكهف]

أى : سيرى كُلٌّ منا كُلّ الأرض فى اليوم الآخر وهى مكتملة ؛ لا جزء منها فقط كما يحدث فى حياتنا الدنيوية ؛ ذلك أن الحق سبحانه قد قال لنا :

﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) ﴾ [ق]

ويُقال أيضاً « فرس بارز » وهو ما يطلق على الحصان الذى يفوز عند التسابق مع غيره ؛ ولا يستطيع فرس آخر أنْ يسبقه ؛ لذلك فهو فرس تراه العين أثناء السباق بوضوح .

ونعلم أن الخيْلَ فى لحظات السباق تثير أثناء تسابقها غباراً - أى : تراباً يُضبِّب المرئيات - فلا يرى أحد تفاصيل الموقع الذى تجرى فيه الخيول ؛ أما إذا ظهر فرس يسبق الجميعَ فلا خيول أخرى قريبة منه تثير غباراً يمنع رؤيته بارزاً واضحاً .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا .. (٢١) ﴾ [إبراهيم]

ولقائل أن يسأل : وهل كانت هناك أشياء خافية عنه سبحانه ثم برزت ؟

ونقول : إنه سبحانه مُنزَّه أن تَخْفى عنه خافية فى الأرض أو السماء أو الكون كله ، ولكن المقصود هنا أنهم يبرزون عند أنفسهم ، ويرون وجودهم واضحاً أمام الحق سبحانه .

وهم مِنْ قَبْل كانوا :

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا (١٠٨) ﴾ [النساء]

وكانوا قد ظَنُّوا أنهم قادرون على أن يخفوا عن ربهم ما كانوا يفعلون ؛ ويُبيِّتون ويمكرون ؛ ونجدهم يوم القيامة مفضوحين أمام خالقهم ؛ حُكْمهم فى ذلك حُكْم كل الخَلْق .

أو : برز كل واحد منهم أمام نفسه ، ورأى نفسه أمام الله .

ونعلم أنه سبحانه قد خلق الخَلْق على لونين ؛ لونٍ مقهور فيه الإنسان ، ولا إرادةَ له ؛ ولَوْنٍ مُخيَّر فيه الإنسان ، ونسبة ما منح فيه الإنسان الاختيار قليل ، إذا ما قيس بما ليس له فيه اختيار .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ؛ لأنه علم أزلاً أن الإنسان الذى تعوّد على أنْ يتمرّد على الله ؛ فهو يُوضِّح له : أنت قد ألفْتَ التمرد وقَوْل « لا » ، وقد تُجاهر بالكفر ، وتحارب من أجله ، وتريد أن تخرج عن مرادات الحق ؛ فإنْ كنت صادقاً فى أن هذا الخروج ذاتىّ فيك ؛ فتمرّد على القهريات التى تنتابك .

ويعلم الإنسان بالتجربة أنه غَيْرُ قادر على ذلك ؛ فلا الفقيرَ يستطيع أن يثْرَى دون مشيئة الله ؛ والمريض لا يستطيع أن يشفى دون مشيئة الله ؛ والضعيف لا يستطيع أن يقوى ضد إرادة الله .

وكل هذا يدل على أن ملكية الله لك لا تزال بالقهر فيك ؛ وسيأتى يوم يسلب منك الاختيار .

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ﴾ [غافر]

وأنت تبرز بكُلِّ تكوينك لحظتها أمام نفسك ، وتجد الحق سبحانه أمامك . وأنت إما أن تكون بارزاً بكل تكويناتك أمام نفسك لحظة وقوفك أمام خالقك ، أو يكون المقصود بقوله الحق وقوف كل الخَلْق أمامه بارزين ، سواء أكانوا تابعين أو متبوعين .

ولحظتها سنجد قوله الحق مُطبقاً :

﴿ فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهكذا نرى أن هناك حواراً بين اثنين من البشر ؛ نوع مستكبر ، وهم القادة السادة الذين يُلْقون أوامرهم ؛ ليُنفِّذها الضِّعاف ، ثم يُفاجأ الضعاف التابعون أن رؤوسهم تساوتْ في اليوم الآخر مع هؤلاء الأقوياء الجبابرة ؛ ويروْنَ ما ينتظرهم جميعاً من عذاب ؛ فيسأل الضعاف أهلَ الجبروت :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء المستكبرون سبق لهم أن استكبروا على هؤلاء الضِّعاف بما لهم من قوة وسيادة ، أو استكبروا على الرسل إيماناً كما أوضح الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن :

﴿ لَوْلَا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ [الزخرف]

وفى هذا القوْل استكبارٌ على الإيمان ، وكأنهم يُعدِّلون على الله ـ والعياذ بالله ـ مشيئته وواسع علمه الذى يختار به الرسل .

أو : أنهم قد استكبروا على أنفسهم فلم يؤمنوا ؛ أو : أنهم قد استكبروا على الأتباع بما لهم من جاه ونفوذ فلم يقدر الأتباع على مخالفتهم ؛ لذلك يقول لهم الأتباع لحظة تساوى الرؤوس :

﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهذا تقريع وخِزْى وفضيحة للتابع .

ونعلم أن الحق سبحانه قال فى موقع آخر من القرآن على لسان التابعين :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) ﴾ [الأحزاب]

وقد عرض الحق سبحانه هذه المسألة علينا لنتعلم من البداية كيف يكون ميزان التبعية ؟ وإياك أن تتبع فى أمر إلا إذا اقتنعتَ أنه يأتى لك بخير ، وأنه يدفع عنك الشر ، ولينتبه كل منا جيداً ولا يعطى زمام قيادة حركة الحياة إلا عن بينة .

وليتذكر كل منا قوله الحق :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر]

فحين يأتيك أمر مخالف لمنهج الله ؛ عليك أن تُعْلى منهج الله فوق كل أمر . وقد أوضح لنا الحق سبحانه ذلك كي ننتبه جيداً فلا نُلْقى زمام أمورنا لمن نتبع إلا برويّة وبحكمة ؛ أيدلُّنا على خير أم يدلُّنا على شر ؛ وهل يستطيع أن يدرأ عنا الشر ، وأن يُنجينا من الإصابة بمكروه ؟

فليكُنْ كُلٌّ منَّا على بـينة من أمره ، وقـد قال الحق سـبحـانه فى سورة الرحمن :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾ [الرحمن]

والآلاء هى النعم ؛ ومن أَرْقى النعم هى تلك القيم التى أوضحها لنا الحق سبحانه لنسيـر على هُدَاها فى الحياة الدنيا كى لا نُقبِل على الحياة بجهالة ؛ بل بتوضيح وتبيان لكل شىء .

وهكذا يجب أن يتصرف التابع مع المتبوع كى لا يقف فى موقف الخزى المشـترك بين الاثنين فى يوم الحساب ؛ حيث يقـول التابعون للمتبوعين :

﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذا القَوْل القرآنى يتكلم به ربٌّ العالمين ؛ وكُلٌّ حرف فيه لهدف ومعنى .

وقوله :

﴿ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِن شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى أنهم لن يقدروا أنْ يُخفِّفـوا ولو جزءً بسيطاً من عذاب الله ، وكأنهم يُسهّلونهـا عليهم ، فيطلبون منهم أن يتحمّـلوا ؛ أو أنْ يُخففوا عنهم ولو جزءً بسيطاً من العذاب .

والمثَلُ على ذلك حين يـطلب إنسان من آخر جنيهاً ؛ فـيقول له :

ليس معى غيره ، فيـردُّ الطالب : إذنْ اعطنى بعضاً منه ، وكأنه يطلب ولو رُبْعه أو عشرة قروش منه .

هكذا قال الذين اتبعوا لمن اتبـعوهم ؛ فماذا يكون الرد من هؤلاء الذين تأبَّوْا على الله إيـماناً بـه ؟ ها هم يردُّون على مَنْ سـألوهم أنْ يُخفِّفوا ولو جزء قليلاً من العذاب :

﴿ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١) ﴾ [إبراهيم]

وهكذا يتكشّف كذبهم ؛ فهم يدَّعُون أن معنى الهداية هو أنْ يهبَهُم اللهُ الإيمـان ؛ مُـتنَاسـين أن مـعنى الهـداية هـو الدلالة المُـوصِّلة إلى الغاية .

ولنَا فى قول الحق سبحانه ما يُوضِّح المعنى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ..(١٧) ﴾ [محمد]

فمَنْ يُقبِل على الإيمان بصدر مُنشرح يجد كُلّ سُبل الخير أمامه ؛ أما مَنْ كـفر فكيف يهديه الله ، وهو قـد استحبّ العـمى على الهُدى ؟ لن يجد بطبيعة الحال أيَّة هداية .

ويقول الكـافرون ذلك لمَن اتبعـوهم فى يوم الحشـر ؛ ذلك أنهم يروْنَ رأى العـين أن الجنة حَقٌّ ؛ والنار حَقٌّ ، والحسـاب حَقٌّ ؛ لذلك يعترفون أمام مَن اتبعوهم فى الدنيا بأن الحقَّ سبحانه لو أخذ بيدهم فى الحيـاة الدنيا إلى الإيمان لَقُـدناكم إلى هذا الإيمان ؛ وهم فى ذلك أصحاب رأى مغلوط .

وذلك قولهم :

﴿لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ..(٢١)﴾ [إبراهيم]

ونعلم أن الإنسان إذا ما وقع فى مأزق أقوى من قدراته ؛ ولا فَجْوة فيه للنجاة ؛ فهو يستقبل هذا المأزق بأحد استقبالين ؛ الاستقبال الأول : أن يجزعَ ويتضرعَ ؛ والاستقبال الثانى : أنْ يصمدَ ويصبرَ .

وهنا نجد الكافرين يقولون :

﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ (٢١)﴾ [إبراهيم]

أى : أنهم سواء جَزِعوا وتضرَّعوا ، أو صبروا وصمدوا فلن يُنجيهم الله مِمَّا هم فيه ؛ فلا مَهْرب ولا مَنْجى .

و « حاص » فى المكان أى : ذهب إلى هنا أو هناك ، ولا يجد راحة ؛ ونجد فى تعبيرنا العامىّ ما يُصوِّر ذلك وهو قولنا « فلان حايص » أى : لا يجد مكاناً يرتاح فيه .

ولذلك يقال « نَبَتْ بهم الأرض » ؛ أى : أن كُلَّ مكان فى الأرض يرفضهم ؛ ويشرح الحق سبحانه هذه القضية فيقول :

﴿حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ..(١١٨)﴾ [التوبة]

وهكذا نرى مَن نَبت بهم الأرض ؛ إنما لا تسعهم أنفسهم أيضاً بل تضيق عليهم ؛ ونسمع مِمَّنْ يُنكِّل بهم الحق فى الحياة الدنيا مَنْ يقول : « أنا لا أطيق نفسى » .

وهذا ما يحدث بالفعل لبعض من الناس في لحظات الضيق ؛ فتضيق ذات أيٍّ منهم عن حَمْل ذاته ، وكأن الواحدَ منهم له ذاتان ؛ وكأن الواحد منهم له صورتان ؛ الصورة التي تُزيِّن الشهوة ؛ وحين تزيد عن الحَدِّ يعود إلى صورة كَارِه الشهوة ؛ وهو لا يسعَدُ في الحالتين ؛ عشق الشهوة وكراهيتها .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ[1] وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ ۖ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

وهنا نجد تصعيداً للحوار ؛ فبعد أنْ كان من المتبوعين والتابعين ؛ نجد هذا الارتقاء في الحوار ليكون بين الشيطان وبين البشر . ونلحظ أن الحق سبحانه هنا بالحال الذي يدور فيه الحوار وهو انقضاء الأمر[2] ؛ حيث تقرَّر الوَضْع النهائي لكل شيء ؛

(١) المصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . والمصرخ : الذي يزيل سبب الصَّريخ وسبب الصُّراخ. [القاموس القويم ١/ ٣٧٣] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٦٩٣) : « معنى ﴿لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ .. ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم] أي : حَصَلَ أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار » .

ولا نقاشَ فى أىِّ أمر ، ولا فرصةَ للتراجع عما حدثَ .

وقضاءُ الأمـر يعنى أن يذهب كل إنسان إلى مصيـره ، فمَنْ كان من أهل الجنة دخلهـا ؛ ومَنْ كان من أهل النار دخلـها ؛ فقـد وصلتْ الأمور إلى حَدِّها النهائى الذى لا تتغير من بعده .

ويفضح الشيطان نفسه فيقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ووَعْـد الله حَقٌّ ، لأنه وَعْد مـمَّنْ يملك ؛ أمـا وَعْد الشـيطان فقـد اخـتلف ؛ لأنه وَعْـد بمـا لا يملك ؛ لذلك هو وَعْـد كـاذب ؛ لأن الحق سبحانه هو الأمر الثابت الذى لا يتغير .

وحين تَعد أنت ـ الإنسان ـ إنساناً آخـر بخير قادم ؛ فهل تضمن أنْ تُواتيك ظروفك على أن تُحقِّق له هذا الأمر ؟

ولذلك يوصينا الحق سـبحانه أن نقـول « إن شاء الله »[1] وبذلك نردّ الوَعْد لله ؛ فهو وحده الذى يمكنه أنْ يَعِدَ ويُنفِّذ ما يعِد به .

وعلى الواحـد منا أنْ يحـمىَ نفســه من الكذب ، وأن يقـول « إن شاء الله » فـإنْ لم تسـتطع أنْ تحققَ مـا وعدت به تكون قـد حميتَ نفسك من أنْ تُلقى اتهاماً بالكذب .

ونجد الشيطان وهو يقول فى الآخرة :

﴿ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ.. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) وذلك فى قولـه تعالى : ﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف] .

ذلك أن وَعْده باطل ؛ والباطل لَجْلج[1] ، وحين تحكم به الآن تُثبت لك الوقائع عكسه ، وتجعلك لا تصدق ما حكمتَ به .

ولذلك نجد الحق سبحانه يوضح لنا المسافة بين الحق والباطل فيقول :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً[2] وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد]

وهكذا يحاول الشيطان أن يُبرِّىء نفسه رغم علْمه أنه قد وعد ، وهو لا يملك إنفاذ ما وعد به ؛ ولذلك يحاول أن يلصق التهمة بِمَنْ اتبعوه مثله مثل أولئك الذين قالوا :

﴿ لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ.. ﴿٢١﴾ ﴾ [إبراهيم]

فيقول الشيطان من بعد ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

والسلطان ـ كما نعلم ـ إما سلطانَ قَهْر أو سلطانَ إقناع . وسلطان القَهْر يعنى أن يملك أحدٌ من القوة ما يقهر به غيره على أنْ يفعلَ ما يكره ، بينما يكون كارهاً للفعل .

---

(١) اللجلجة : أن يتكلم الرجل بلسان غير بيّن . واللجلجة والتلجلج : التردد فى الكلام . واللجلج : المختلط الذى ليس بمستقيم . والحق ابلج ، أى : مضىء مستقيم . [لسان العرب ـ مادة : لجج] .

(٢) جفا الوادى غثاءه : رمى بالزَّبَد والقذى . واسم الزبد : الجفاء . والجفاء : الباطل . [لسان العرب ـ مادة : جفا] .

أما سلطان الحجة فهو أن يملك منطقاً يجعلك تعمل وفق ما يطلبه منك وتحب ما تفعل ، وهكذا يعترف الشيطان للبشر يوم الحشر الأعظم ؛ ويقول : أريد أنْ أناقشكم ؛ هل كان لى سلطان قَهْرىّ أقهركم به ؟ هل كان لى سلطان إقناع أقنعكم به على اتباع طريقى ؟

لم يكن لى فى دنياكم هذه ولا تلك ، فلا تتهمونى ولا تجعلونى « شماعة » تُعلِّقون علىّ أخطاءكم ؛ فقد غويتُ من قبلكم وخالفتُ أمر ربى ؛ ولم يكن لى عليكم سلطان سوى أن دعوتُكم فاستجبتم لى .

وكل ما كان لى عندكم أنِّى حرَّكْتُ فيكم نوازع أنفسكم ، وتحرَّكت نوازع أنفسكم من بعد ذلك لِتُقبِلوا على المعصية .

إذن : فالشيطان إما أنْ يُحرِّك نوازع النفس ؛ أو يترك النفس تتحرك بنوازعها إلى المعصية ؛ وهى كافية لذلك .

وسبق أنْ أوضحتُ كيف تُعْرف المعصية ، إن كانت من الشيطان تسويلاً استقلالياً أو تسويلاً تبعياً ؛ فإنْ وقفتْ النفس عند معصية بعينها ؛ وكلما أبعدها الإنسان تُلِح عليه ؛ فهذا هو ما تريده النفس من الإنسان حيث تطلب معصية بعينها .

أما نَزْغ[1] الشيطان فهو أن ينتقل الشيطان من معصية إلى أخرى محاولاً غواية الإنسان ؛ إنْ وجده رافضاً لمعصية ما ؛ انتقل بالغواية إلى غيرها ؛ لأن الشيطان يريد الإنسان عاصياً على أىِّ لَوْن ؛ فالمهم أنْ يعصى فقط ؛ لذلك يحاول أن يدخل إلى الإنسان من نقطة

(١) نزغه الشيطان : وسوس له بالشر . ونزغ ما بين الرجلين : أفسد ما بينهما . [القاموس القويم ٢/ ٢٦٠] .

ضعفه ؛ فإنْ وجده قوياً فى ناحية اتجه إلى أخرى .

ويعلن الشيطان أنه ليس الملُوم على ذلك :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم..(٢٢) ﴾ [إبراهيم]

فالملُوم هنا هو مَنْ أقبل على المعصية ؛ لا مَنْ أغوى بها .

ويستمر الحق سبحانه فى فَضْح ما يقوله الشيطان لمَنْ أغواهم فى اليوم الآخر :

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ..(٢٢) ﴾ [إبراهيم]

هذا هو قَوْل الشيطان الذى سبق وأنْ تعالى على آدم لحظة أنْ طلب منه الحق سبحانه أن يسجدَ له مع الملائكة ؛ ولكن الموقف هنا هو التساوى بين الذين أغواهم وبينه ؛ فهو يعلن أنه لن ينفعهم وهم لن ينفعونه .

والمُصْرِخ من مادة الصُّراخ من صرخ ، وهو رَفْع الصوت بغرض أن يسمعه غيره ؛ ولا يطلب مَنْ يصرخ شيئاً آخر غير المعونة فلو أن أحداً عثر على كنز تحت قدميه فلن يصرخ ؛ بل يتلفَّت حوله ليرى : هل هناك مَنْ رآه أم لا ؟

أما إنْ هاجمه أسد فلا بُدَّ أن يصرخ طالباً النجاة ، وهكذا يكون الصراخ له مَأْرب طَلَبِ المعونة ؛ وهذا لا يتأتَّى إلا ممَّنْ يخاف من مُفزِع .

و « مُصرِخ » يدل على الفعل « أصرخ » ، وهو فعل دخلت عليه ما يُسمَّى فى اللغة « همزة الإزالة » . والمثل هو كلمة « معجم » أى : الذى يدلُّك على معنى لفظ ليُزيلَ إبهامه ؛ فيقال « أعجم الكتاب » أى : أزال إبهامه ، وهذه الهمزة التى دخلتْ تُوضِّح إزالة العُجْمة عن الكلمة .

والمثل أيضاً على هذه الهمزة ؛ هو كلمة « عتب » أى : لامه ، وحين تدخل عليها الهمزة تصبح « أعتب » أى : أزال ما به عَتَب .

ونجد فى دعائه ﷺ قوله الشريف : « لك العُتْبى حتى ترضى»[1] .

أى : إذا كُنتَ يا ربِّ تعتب علىَّ فى أىِّ شىء ؛ فأنا أدعوك أن تُزيل هذا العتب .

وهكذا نجد أن الإزالة تأتى مرة بإضافة الهمزة ؛ ومرة تأتى بالتضعيف ؛ مثل قولنا « مرَّض الطبيب مريضه » أى : أزال عنه ـ بإذن من الله ـ مرضه .

إذن : « مُصْرخ » هو مَنْ يُزيل صراخ آخر ؛ فكأن هناك مَن استغاث ؛ فجاءه مَنْ يُغيثه . وهكذا يعلن الشيطان فى اليوم الآخر أنه ومَنْ أغواهم فى مأزق ؛ وأنه غَيْر قادر على إزالة سبب هذا المأزق ؛ ولا هُمْ بقادرين على إزالة سبب مأزقه ؛ ولن يُغيث أحدهما الآخر .

---

(١) دعاء دعا به رسول الله ﷺ بعد إيذاء أهل الطائف له ، فقال : « اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى .. لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » أورده البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٤١٥) ، وابن هشام فى السيرة النبوية (٢/٤١٩ ، ٤٢٠) .

ويضيف :

﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ..(٢٢)﴾ [إبراهيم]

فأنتم أشركتمونى مع الله فى الطاعة ؛ حين استسلمتُم لغوايتى ؛ ولم تكونوا من عباد الله المُخْلصين الذين أقسمتُ أنا بعزة الله ألاَّ أُغويهم[1] ؛ وكل منكم نفذ ما أغويته به ؛ فناديتكم واستجبتُم ؛ وناداكم الله فعصيتُم أو كفرتم . وصرْتم مِثْلى ، فقد سبق لى أن أمرنى الله وعصيتُ .

ويقول الحق سبحانه ما يجىء على لسان الشيطان لمَنْ كفر وعصى :

﴿إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم]

وهذه قضية عامة ، قضية الكفر فى القمة ، فكمَا أطعتُم الشيطان وجعلتموه شريكاً لله ؛ فها هو الشيطان يُخبركم بتقدير هذا الموقف ؛ بأنهِ شِرْك بالله ؛ وهو يعلن الكفر بهذا ؛ لأن يوم الحشر قد جاء ؛ وتحقق فيه قول الله له :

﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ[2] (٣٧) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)﴾ [الحجر]

وكان الشيطان من قبل اليوم المعلوم ـ وهو اليوم الآخر ـ يندسُّ

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣)﴾ [ص] .

(٢) أنظره : أخَّره وأمهله وتأنَّى عليه . وقوله تعالى : ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤)﴾ [الأعراف] أى : أمهلنى وأخر حسابى وعقابى إلى يوم القيامة [القاموس القويم ٢/٢٧٣] .

ويُوسـوس وينزغ ؛ أمـا فى ذلك اليوم فـقـد برز كل شىء من إنس وجن وكل الكائنات أمام الواحـد القهار ، ولم يَعُدْ هناك مـا يَخْفى عن العين .

وهذا ما خدعـوا به أنفسهم ، وظنُّوا أنهم قادرون عـلى أن يُخفوا ما فعلوه عن أعْيُن الله ؛ ولذلك نجد الحديث القدسى يقول :

« يا بنى آدم ، إنْ كنـتم تعـتـقـدون أنِّى لا أراكم ، فـالخَلل فى إيمانكم ، وإن كنتم تعتقـدون أنِّى أراكم فلِم جَعَلْتمونى أهونَ الناظرين إليكم » .

وأنت فى حياتك اليومية لا تجد مَنْ يسرق من آخر وجهاً لوجه ؛ ولا أحد يـحرق بيت أحـدٍ أمام عينـيه ؛ فإنْ كـنتم يا معـشر البـشر لا تفعلون ذلك مع بعضكم البـعض ؛ فكيف تفعلون ذلك مع خالقكم ؛ فتعصونه .

وإنْ شككتُم أنه لا يراكم فالخلل فى إيمانكم ؛ وإنْ كنتم تعتقدون أنه يراكم فلا تجعلـوه أهونَ الناظرين إليكم ، لأنه لو نظر إليك إنسان فأنت لا تجرؤ على أن تصنع له ما يكرهه .

ولذلك يقول الشيطان معترفاً ومُقِراً بأن الظالمين لهم عذاب أليم ، والظلم فى القمة هو الشرك بالله :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

وحين نـقرأ ذلك إما أنْ نأخـذه على أنه إقرار من الشـيطان ؛ أو نفهمه على أن الشيطان قد قال :

﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِى مِن قَبْلُ..(٢٢) ﴾ [إبراهيم]

ويقول الحق سبحانه بعدها تلك القضية العامة :

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

فبعد أن تكلم سبحانه عن بروز الخَلْق والكائنات ؛ ثم الحوار بين الضعفاء والسادة ؛ ثم الحوار بين الشيطان وبين أهل الكفر والمعصية ؛ يأتى بالقضية النهائية فى الحكم :

﴿ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والمناسبات توحى بمقابلاتها ؛ لتكون النفس مُتشوِّقة ومُتقبِّلة لهذا المقابل ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ (١٣) ﴾ [الانفطار]

ويأتى بعدها بالمقابل لها :

﴿ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ (١٤) ﴾ [الانفطار]

فكما جاء بمقابل الأشقياء ؛ لا بُدّ أن يفتح القلوب لتنعم بسعادة مصير وجزاء الذين سُعِدوا بالإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣) ﴾

وهنا جاء الفعل ، ويمكن نسبته إلى ثلاث جهات . ولكل جهة مَلْحظ ؛ فمرّة يُسنَد الفعل لله سبحانه ، ومرّة يُنسب الفعل للملائكة الذين يتلقوْن الأمر من الله بإدخال المؤمنين الجنة ؛ ومرّة للمؤمنين الذين يدخلون الجنة بإذن الله .

فالله أدخلهم إذْناً ؛ والملائكة المُوكَّلون فتحوا أبواب الجنة لهم ؛ والمؤمنون دخلوا بالفعل .

وهكذا يكون لكُلٍّ مَلْحظ .

وهناك قراءة أخرى للآية توضح ذلك :

« وأُدْخِلُ[1] الذين آمنوا وعملوا الصالحات الجنة » والمتكلم هنا هو الله . ونلحظ أن الله قال هنا :

﴿ وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ .. ﴿٢٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

لكى تضم كلمة « أدخل » أنه سبحانه أذن بدخولهم ؛ لأنه قال فى نفس الآية :

﴿ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

وأن الملائكة المُكلّفين بذلك فتحوا لهم أبوابها . والمؤمنون دخلوها كل ذلك بإذن الله .

ونلحظ أن كُلَّ الكلام هنا عن الجنات ؛ فما هى الجنات ؟

---

(١) هذه قراءة الحسن « وأُدخِلُ » على الاستقبال والاستئناف . قاله القرطبى فى تفسيره (٣٩٩٦/٥) .

ونقول : إن الجنة فى أصل اللغة هى السَّتْر ، ومنها الجنون أى : سَتْر العقل ، والمادة هى : الجيم والنون ، والجنة تستر مَنْ فيها بما فيها من أشجار كثيرة بحيث مَنْ يمشى فيها لا يظهر ؛ لأن أشجارها تستره .

أو : أن مَنْ يدخلها يجلس فيها ولا يراه أحد ؛ لأن كل خير فيها لا يُلجئه أن يخرج منها .

وتُطلق الجنات على ما فى الدنيا أيضاً ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ..(٢٦٦) ﴾ [البقرة]

ولنا أن نعرف أن الجنةَ غَيْر المساكن التى فى الجنة ؛ لأن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ..(٧٢) ﴾ [التوبة]

والجنة - ولله المثل الأعلى - هى الحديقة الواسعة ؛ وهذا الاتساع مُوزّع على كل مَرْأى عَيْن . والإنسان - بعجائب تكوينه - يُحب أن يتخصص فى مكان مرة ؛ ويحب أن ينتشر فى مكان مرة أخرى ؛ فيستأجر شقة أو يبنى لنفسه بيتاً مستقلاً « فيللا » . وفى البيت أو الفيللا يحب الإنسان أن تكون له حجرة خاصة لا يدخلها غيره .

والإنسان يُقيِّم الأشياء على هذا الأساس ؛ فينظر مَنْ يرغب فى شراء قطعة أرض ليبنى عليها بيتاً : أهى تُطِلّ على حارة أم على شارع ؟ وهل سيستطيع أنْ يعلوَ بالبناء إلى عدة أدوار أم لا ؟ وهل

سيخصص قطعة من الأرض كحديقة أم لا ؟

فإنْ كانت الأرض تُطل على الفضاء ، فحساب المتر ليس بالثمن المدفوع فيه ؛ ولكن بقيمةَ ما يتيحه من اتساع أُفق وفضاء من مزارع أو على البحر مثلاً ، حيث لن يتطفلَ عليك أحدٌ فى هذا المكان .

والجنات بهذا الشكل التقريبى ؛ هى أماكن مُتسعة ، وكل مَنْ يدخلها له فيها مساكن طيبة ، تلك الجنات تجرى من تحتها الأنهار . ومَنْ يدخلونها :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ..(٢٣)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الإنسان يحب التنعُّم ؛ ولكن كل تنعُّم فى الدنيا هناك ما يُنغِّصه ، وهل يدوم أم لا يدوم ؟ وكل منَّا رأى أُناساً عاشت فى نعيم ؛ ثم نُزِع منها بحكم الأغيار ؛ أو تركوه بحكم الموت .

أما جنة الله ونعيمها فالأمر مختلف ؛ ذلك أن النعيم هناك لا يفوتُك ولا تفوته ؛ لأنه على قَدْر إمكانات ربِّك .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿خَالِدِينَ فِيهَا..(٢٣)﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح أن الخلودَ فى الجنة دائمٌ بإذن من الله .

ويتابع سبحانه :

﴿تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣)﴾ [إبراهيم]

والتحية هو ما يواجه به الإنسان أخاه إثباتاً لسروره بلقائه ؛

ولذلك تأتى التحية على مقدار السرور ؛ فمرّة تكون التحية بمجرد رَفْع اليد دون مُصَافحة ؛ وقد لا تكتفى بذلك فى حالة ازدياد المعزّة التى لصاحبك عندك ؛ فتصافحه ؛ وقد تأخذه فى أحضانك ، وهكذا ترتقى فى التحية ، وهى إعلانُ السرورِ باللقاء .

وتحيةُ الجنة هى السلام ؛ لأن السلام أمنُ كل إنسان ؛ سلامٌ مع نفسك ؛ فلا تُكدِّرها بحديث النفس الذى يندمٍ على ما فات ؛ أو الحُلْم بعمل قادم ، فالسلام فى الجنة لن تجد فيه مُنغِّصاتٍ من الماضى أو الحاضر أو المستقبل ؛ وتنسجم مع كل ما حولك فى الكون ؛ الجماد ؛ النبات ؛ البشر ؛ الملائكة .

ولذلك قال الحق سبحانه تذييلاً لهذه الآية :

﴿ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلامٌ (٢٣) ﴾ [إبراهيم]

وهذه أفضلُ نعمة ، وهى الحياة فى سلامٍ وأمْن ، وبعد ذلك تدخُل الملائكة عليهم مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم(١) مِّن كُلِّ بَابٍ(٢) (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤) ﴾ [الرعد]

ثم يُلقَّون السلام الأعلى من الله ؛ وهو القائل :

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

---

(١) قال سعيد بن جبير : يدخلون عليهم على مقدار كل يوم من أيام الدنيا ثلاث مرات ، معهم التحف من الله ما ليس لهم فى جنات عدن . [الدر المنثور ٤/٦٣٩] .

(٢) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ما منكم من أحد يتوضأ فيبلغ أو فيسبغ الوضوء ثم يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبد الله ورسوله إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٤) .

وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القُرْب والسعادة ، وأهل البُعْد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا[1] ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا[2] كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

والمَثَل هو الشيء الذى يوضح بالجلى الخفى . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيتَ فلاناً ؟ فيقول لك : لا لم أرَه ؛ فتقول له : إنه يُشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت مَنْ خَفِى عن مُخَيلة صديقك بمَنْ هو واضح الصورة فى مُخَيلته . .

والحق ـ سبحانه وتعالى ـ يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة ، كى ينقل المعانى إلى أذهاننا ؛ لأن الإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ ؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعانى بعد ذلك .

---

(١) أصل الشيء : أساسه وقاعدته التى يقوم عليها ويكون فى أسفله . [القاموس القويم ٢١/١] .

(٢) الأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يؤكل فهو أكل . [لسان العرب ـ مادة : أكل] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦) ﴾ [البقرة]

وقد قال الكافرون : أيضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كأىِّ كائن ؛ وتركيبها التشريحى يتشابه مع التركيب التشريحى لكل الأحياء فى التفاصيل ؛ ويؤدى كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحدَ غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها ؛ ولا كيفية وجود جهاز دمَوىّ فيها ؛ أو مكان الغُدد الخاصة بها ؛ وهى حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة لِيُوضِّح الأمر الخفىّ بأمر جلىّ . ومن بعد ذلك ينتشر المثَل بين الناس . ونقول : إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكِّلونها بقدْر وشكْل مُحدَّد لتدُل على قيمة ما ، وتصير بذلك عُملْة متداولة ، ويُقَال ـ أيضاً ـ « ضُرِب فى مصر » أى : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثَل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذى يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

أى : تعطيك طيباً تستريح له نفسك ؛ إما منظراً أو رائحة أو ثماراً ؛ أو كُل ذلك مجتمعاً ؛ فقوله :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُوحى بأن كُلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها ؛ وكلمة « طيبة » مأخوذة من الطِّيب فى جميع وسائل الإحساس .

فالخاصية الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهى أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها فى السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهى أن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أى : فيها عطاء المدد الذى لا يعرف الحد ولا العدد ، وهى تدل على صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهى كائن نباتىّ لا بُدّ لها من أن تتغذّى لتحفظ مُقوِّمات حياتها . ومُقوِّمات حياة النبات توجد فى الأرض ، فإنْ كانت الشجرة مُخَلْخَلة وغير ثابتة فهى لن تستطيع أن تأخذ غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عبْر

الجذور ؛ والباقى تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إنْ كانت البيئة غيرَ نظيفة وملَوّثة ؛ فالهواء يكون غيرَ نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو النمو المناسب ؛ فتمُرُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُبيِّن أنها تأخذ من أعلى .

ويتابع سبحانه :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ..(٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والأُكُل هو ما يُؤْكل ويُتمتَّع به ، ولكنّا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤْكَل بالفم فقط ؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة ؛ لأن مزاجَ الكون العام يتطلبها ؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه ؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير ؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل فى ذلك : الطفل البدوىّ الذى شاهد نخيل جيرانه مثمراً بالبلح ، ولكن النخلة التي يملكونها غير مثمرة ، وتساءل : لماذا ؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك» وقال له : إن نخلتنا هى الذكر الذى يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كى تثمر .

ولذلك فأنا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ؛ ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حَنْظل فهى طيبة بفائدتها التى أودعها الحق إياها ؛ فشجرة الحنظل نأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطَّعْم - لكنه يشفى بعضاً من الأمراض بإذن الله .

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيِّبة فى هذا الكون . وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

يدلُّنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله ؛ مثمراً بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نبَّهنا العلْم الحديث إلى أن كل خُضْرة إنما تُنَقِّى الجو بما تأخذ منه من ثانى أوكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين ؛ وتستمر الخضرة فى ذلك نهاراً ؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثانى أوكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مُبَرْمجة على فَهْم أن النهار يقتضى الحركة .

ويحتاج الكائن الحى فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ؛ والإنسان أثناء الحركة يستهلك كمية كبيرة من

الأوكسجين ؛ ونجد مَنْ يصعد سلّماً ينهج لأن رئتيه تحاولان امتصاص أكبر قَدْر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضْرة إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قِبَل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

فمنهم مَنْ قال : إن « الحين » يُطْلَق على اللحظة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ[1] (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة]

وقال مُفسِّر[2] آخر : إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .. (١٧) ﴾ [الروم]

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذى يحين فيه المقدور ؛ فإذا كان الحين هو لحظةَ بلوغ الرُّوح إلى الحُلْقوم ؛ فهذه اللحظة هى المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً

---

(١) الحلقوم : الحلق . وهو علمياً الآن : هو تجويف خلف تجويف الفم وفيه ست فتحات : فتحة الفم ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء ، أما النفَس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة . [القاموس القويم ١٦٧/١] .

(٢) ذكر القرطبى فى تفسيره (٣٦٩٨/٥) أقوالاً : « قال الربيع : « كل حين » غدوة وعشية . وقاله ابن عباس . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل فى جميع الأوقات » . ثم قال : « وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره » .

أطول من ذلك ؛ صباحاً أو مساء ؛ فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]

والبأس يعنى الحرب ؛ ومُدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف]

وهكذا يكون معنى « الحين » هنا هو الأجل غير المُسمّى الذى يمتد إلى أن تتبدّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماء غير السماء . إذن : فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى « حين » .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التى نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وضَرْب المثل معناه إيقاع شىء صغير ليدل على شىء كبير ؛ أو بشىء جلىّ ليدل على شىء خفىّ ؛ ليُقرِّب المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى ، وهى مُدْركات الحسّ من سمع وبصر وبقية وسائل الإدراك .

وحين تأتى المعانى التى تناسب الطموح العقلى ؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسّ إلى المعلومات المعنوية ؛ فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التى توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحى - كما قال - أنْ يضربَ مثلاً بالبعوضة وما فوقها[1] . والبعض من المستشرقين يقول : ولماذا لم يَقُلْ « وما تحتها » ؟ .

ونقول لِمَنْ يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية ؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالملَكة العربية ؛ ذلك أن المَثل يُضرَب بالشيء الدقيق ؛ وما فوق الدقيق هو الأدقُّ .

والحق سبحانه يضرب لنا المَثل للحياة الدنيا ، وهى الحياة التى من لَدُن خَلْق الله للإنسان ؛ ذلك أنه كانت هناك أجناسٌ أخرى قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يُوضِّح لنا بالمثَل ما يخص الحياة من لحظة خَلْق آدم إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهو يطويها - تلك الحياة الطويلة العريضة التى تستغرق أعمار أجيالٍ - ويعطيها لنا فى صورة مَثَلٍ موجز ، فيقول لنا :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[2] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٦٤) : « معنى الآية أنه تعالى لا يستنكف أن يضرب مثلاً ما أى مثل كان بأى شىء كان صغيراً أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل . وقال الربيع بن أنس : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياً أخذهم الله عند ذلك ».

(٢) الهشيم : النبت اليابس المتكسر . وهو ما يبس من الورق وتكسر وتحطم ، فبلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب - مادة : هشم] .

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة كلها فى هذا المثل من ماء ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه[1] الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ[2] أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ[3] فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة الدنيا بطُولها وعَرْضها فى هذا المَثل البسيط لنرى ما يُوضِّح لنا المعانى الخفية فى صورة مُحسَّة بحيث يستطيع العقل الفطرى أن يُدرِك ما يريده الله منها .

ونعلم أن المُحسَّات تدرك أولاً بعض الأشياء ؛ ثم ترتقى إلى مرتبة التخيُّل ؛ ثم يأتى التوهُّم ؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هى الحِس أولاً ؛ ثم التخيل ثانياً ؛ ثم التوهم ثالثاً .

والتخيُّل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود فى الخارج ؛ وإنْ كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة فى هذا الخارج . والمَثل على ذلك هو قول الشاعر الذى أراد أنْ يصف الوَشْم على يد حبيبته ، فقال :

---

(١) ذرا الهواء الشيء يذروه ذرواً : أطاره وبدده . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .

(٢) الغيث : المطر . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] يحتمل أنه كمثل مطر أعجب الكفار ما خرج بسببه من نبات ، ويحتمل أنه كزرع أعجب الكفار نموه ونباته . [القاموس القويم ٢/٦٥] .

(٣) أهاجت الريح النبت : أيبسته . أى جعلته جافاً قد ذهبت رطوبته . [لسان العرب - مادة : هيج] .

خــــوض كـأنَّ بَنـانَهـــا في نَقْشـه الوَشْم المُـزرد[1]
سَـمكٌ مـن البلّـور في شَـبَكٍ تكوَّن من زَبرجَـد[2]

وحـين تبحث فى الصـورة الكليـة لتلك الأبيـات من الشعـر ؛ لن تجـدها مـوجـودة فى الواقع ؛ ولكـن الشـاعـر أوجـدها من مُكوِّنات ومُفْـردات موجودة فى الواقع ؛ فالسـمك موجود ومـعروف ؛ والبلُّور موجود ومعروف ؛ وكذلك الشَّبك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير المـوجودة من أشياء موجودة بالفـعل ، وهذا هو الخيال الذى يُقرِّب المعنى .

والتوهُّم يختلف عـن الخيال ؛ فإذا كان التـخيُّل هو تكوين صورة غير موجودة في الواقع من مفردات موجودة فى هذا الواقع ؛ فالتوهُّم هو صـورة غـيـر موجـودة فى الواقع ، ومُـكوَّن من مـفردات غـيـر موجودة فى الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويشرح الرسول ﷺ ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : « فيها مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خَطَر على قَلْب بشر »[3] .

---

(١) الخوضـة : اللؤلؤة . والبنان : أطراف الأصابـع . والزَّرْد : هو تداخل حلق الدرع بعضـها فى بعض كالشبكة .

(٢) الزبرجد : الزمرد . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) أخرج مـسلم فى صـحـيحه (٢٨٢٤) من حـديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قـال الله عز وجل : وأعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عين رأت ، ولا أذن سـمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] » .

والعَيْن وسيلة إدراك وحسٍّ ؛ وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرحه الخيال أو الوَهْم .

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال ؛ ليُوجِز لنا ما يشرح ويُوضِّح بأشياء قريبة من الفهم البشرى .

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق ؛ فقد تُمسك الورقة والقلم وتُدبِّج رسالة طويلة ؛ ولكن إنْ كنتَ تملك وقتك فستَحاول أنْ تُركِّز كل المعانى فى كلمات قليلة .

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زغلول[1] زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطَّر له رسالة فى خمس صفحات ؛ وأنهاها : « إنى أعتذر عن الإطالة فى الخطاب ، فلم يكُنْ عندى وقت للإيجاز » وذلك لأن مَنْ يُوجِز إنما يضع معانى كثيرة فى كلمات قليلة .

وحين طلب أحد القادة المسلمين النُّصْرة من خالد بن الوليد ؛ وكان القائد الذى يطلب المساعدة مُحَاصَراً ؛ وأرسل لخالد بن الوليد كلمتين اثنتين « إياك أريد » ، وهكذا اختصر القائد المحاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد .

والشاعر يقول :

إذَا أرادَ الله نَشْرَ فَضِيلَة طُوِيَتْ أتاحَ لَهَا لسَانَ حَسُود
لَوْلاَ اشتعالُ النَّارِ فيمَا جَاوِرَتْ مَا كَانَ يُعْرَف طِيبُ عَرْفِ[2] العودِ

---

(١) هو : سعد إبراهيم زغلول ، ولد فى « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م تعلم فى كتّاب القرية ، ودخل الأزهر ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، تولى وزارة المعارف ووزارة الحقانية (العدل) ، أصبح رمزاً للثورة بعد نفيه إلى مالطة . توفى بالقاهرة عام (١٩٢٧م) . [الأعلام للزركلى ٨٣/٣] عن ٧٠ عاماً .

(٢) العرف : الريح : طيبة كانت أو خبيثة . وقال ابن سيده : العرف ، الرائحة الطيبة والمنتنة . [لسان العرب ـ مادة : عرف] .

أى : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ؛ فالحقُّ سبحانه يتيح لها لسانَ حاسدٍ حاقد ليثرثر وينبش ويُنقِّب ؛ لتظهر وتتجلى ؛ مثلما يُوضَعُ خشب العود ـ وهو من أرْقَى ألوان البخور ـ فى النار ، فينتشر عِطْره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المَثَل لِيُوضِّح أمراً ما للقارىء أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المَثَل أيضاً :

وإذَا امْرؤٌ مدحَ امْرءًا لِنَوالِه[1] وأطَالَ فِيهِ فَقدْ أطَالَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقدِّر فيه بُعْد المُسْتقَى عند الوُرودِ لَمَا أطالَ رِشَاءَهُ[2]

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعنى الرِّفْعة والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجَّب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً فى البئر ؛ لأخرجه العطشان بدلو مربوط بحبل قصير ؛ ولكن إنْ كان الماء على بُعْد مسافة فى البئر فهذا يقتضى حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعنى أن طول المدح إنما يُعبِّر عن فظاظة الممدوح الذى لا يستجيب إلا بالثناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين فى مدحه .

---

(١) النوال : العطاء . وأناله معروفه ونوَّله : أعطاه معروفه . [لسان العرب ـ مادة : نول] .

(٢) الورود : الحضور والوصول للماء لتشرب . والرشاء : الحبل . يُوصل به إلى الماء فى البئر كما يوصل بالرشوة إلى ما يطلب من الأشياء . [لسان العرب ـ مادة : رشو] .

وهكذا يكون ضَرْبُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة ؛ ولكن الغفلة طرأتْ ؛ فيأتى المَثَلُ ليُذكِّر بالأمر الفطرىّ .

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الطيبة بياناً لحال أهل القُرْب من الله والود معه واتباع منهجه ، أراد أنْ يذكُرَ لنا المقابل ، وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله ، وعن منهجه ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ[1] مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾

وحين نقارن الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة سنكتشف الفارق الشاسع ؛ فالكلمة الخبيثة مُجْتثَّة من فوق الأرض ؛ والجُثَّة كما نعلم هى الجسد الذى خرجتْ منه الروح ، ومن بعد أن يصبح جُثَّة يصير رِمَّة ؛ ثم يتحلَّل إلى عناصره الأولى .

إذن : فالاجتثاث هو استئصالُ الشىء من أصله وقلْعه من جذوره ، أما المقابل فى الشجرة الطيبة فأصلها ثابت لا تُخلخله ظروف أو أحداث ، والكلمة الخبيثة بلا جذور لأنها مُجْتثَّة ؛ وليس لها قَرار تستقر فيه .

---

(١) جثَّ الشىء : قطعه أو قلعه من جذوره . واجتثه : استأصله أو اقتلعه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وحين تكلَّم المُفسِّرون عن الشجرة الطيبة منهم مَنْ قال إنها النخلة لأن كُلَّ ما فيها خير ؛ فورقها لا يسقط ، ويبقى دائماً كَظِلٍّ وكل ما فيها يُنتفَع به .

فنحن ـ على سبيل المثال ـ نأخذ جذع النخلة ونصنع منه أعمدة في بيوت الرِّيف ، وجريد النخل نصنع منه الكراسي ؛ والليف الموجود بين الأفرع نأخذه لنصنع منه الحبال ؛ والخوص نصنع منه القُفف .

والذين حاولوا أن يُفسِّروا « الشجرة الخبيثة » بأنها شجرة الحَنْظل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرَّات ؛ لكل هؤلاء أقول : لقد خلقها الحق سبحانه لتكون شجرة طيبة في ظروف احتياجنا لها ؛ لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مزَاجه مُتنوِّع ؛ ومُقوِّمات الحياة ليستْ هي الأكل والشرب فقط ؛ بل هناك توازن بيئيّ قد صمَّمه الحق تعالى ، وهو الأعلم مِنّا جميعاً بما خلق ؛ ولم يخلق إلا طَيِّباً .

وكل شيء في الكون له عطاء مستمر يُشِع في الجو ، والمَثَل هو تساقط أوراق الشجر التي تُعيد الخصْب مرة أخرى إلى الأرض . وكلها أمور يُبديها الحق سبحانه ولا يبتديها ، أي : يُظهرها بعد أنْ كانت موجودة أزلاً ومَخْفية عَنَّا .

وهو جَلَّ وعلاَ يرفع قوماً ويَخفض قوماً ؛ وهو القائل عن ذاته :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

وكلُّنا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ في توقيت مُعيَّن ، وينتهي في توقيت مُعين ؛ وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها

بدايات أيِّ يوم من منطقة إلى أخرى ؛ فبعد لحظة من بداية يومك يبدأ يوم آخر فى منطقة أخرى ؛ وهكذا تتعدد الأيام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات .

ولذلك فحين نسمع قول الرسول ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

فمعنى ذلك أن يَد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليلَ يبدأ فى كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم فى نفس اللحظة ؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حَسْب دوران الشمس حول الأرض .

وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحَنْظل ، أو أى شجرة من مخلوقات الله ونَصِفَها بأنها شجرة خبيثة . فلا شىءَ خبيثٌ من مخلوقات الله .

ونحن حين نجد شاباً يقوم بثَنْى قطعة من الحديد قد يحسبه الجاهل أنه يُسىء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بِثَنْيها ليصنع منها مَا يفيده ؛ كخُطَّاف يشدُّ به شيئاً يلزمه .

وعمدة الكلمة الطيبة هى شهادة « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ومن هذه الشهادة يتفرَّع كل الخير . ومن هنا نعلم أن عُمْدة الكلمة الخبيثة هى الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله ﷺ وصَدٍّ عن سبيل الله ؛ ومن تكذيبٍ لمعْجزات الرسل ؛ وإنكارٍ لمنهج الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ولقائل أنْ يقول : مـا دام الحق سبحانه قد قـال إن هناك شجرةً خـبيـثة ؛ فـلابُدَّ أن تُوجَـد تلك الشجـرة ، وأقـول : إن كُلَّ ما يضـرُّ الإنسان فى وقت ما هـو خبيث ؛ فالسكر مثـلاً يكون خبيثـاً بالنسبة لمريض بالسكر ؛ وكل كائن فيه حسناتٌ مفيدة ؛ وله جانب ضَارٌ فى حالات معينة ؛ وعلى الإنسان المختار أن يُميِّز ما يضرُّه وما ينفعه .

ونلحظ هنا فى وَصْف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة ؛ أن الحق سبحانه لم يَقُـلْ إن تلك الشجرة الخبيثة لهـا فَرْع فى السماء ؛ ذلك أنهـا مُجْـتثـة مِن الأرض ؛ مُـخْلخلة الجـذور ؛ فلا سَند لهـا من الأرض ؛ ولا مددَ لها من السماء .

ولذلك يَصِفها الحق سبحانه :

﴿ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : ما لهـا من ثبات أو قـيام ، وكـذلك الكُفْر بالله ؛ ومَنْ يـكفر لا يصـعد له عمل طيّب ، فلا أسـاسَ يصـعد به العمل أو القول الطيب . ولـهذا وصـفت الشجرة الخبـيثة بصــفات ثلاث ، أولها : أنها شـجرة خبيـثة وثانيها : أنها عديمـة الأصل بغير ثبات ، وثالثهـا : ما لها من قرار لعدم ثبات الأصل .

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحالتين ، فالأولى : أمن وأمـان فى الدنيـا والآخرة . والحـالة الثـانيـة : ظلم بضــلال ، وقلق بضنك ، وفى الآخرة لهم عذاب أليم .

ويقول سبحانه وتعالى :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ[1] فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾

وتأتى هنا كلمة « التثبيت » طبيعية بعد قوله :

﴿ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

لأن الذى يُجتثُّ لا ثبوتَ له ولا استقرارَ ؛ فجاء بالمقابل بقوله :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

وتُوحِى كلمة التثبيت أيضاً بأن الإنسان ابنٌ للأغيار ، وتطرأ عليه الأحداث التى هى نتيجة لاختيار المُكلَّفين فى نفاذ حُكْم أو إبطاله ، فالمُكلَّف حين يأمره الله بحكم ؛ قد يُنفِّذه ، وقد لا ينفذه .

وكذلك قد يتعرض المكلّف لمخالف لمنهج الله ، فلا يُنفِّذ هذا المخالفُ تعاليمَ المنهج ؛ ويؤذى مَنْ يتبع التعاليم ، وهنا يثق المؤمن أن له إلهاً لن يخذله فى مواجهة تلك الظروف ، وسينصره إنْ قريبٌ أو بعيد على ذلك .

وهكذا لا تنال الأحداث من المؤمن ، ويصدق قوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهم قد آمنوا بوجوده وبقدرته ، وبأن له طلاقة مشيئة يُثبِّتهم بها

---

(١) قال ابن عباس : هو لا إله إلا الله . وروى النسائى عن البراء بن عازب أنه قال : نزلت فى عذاب القبر [تفسير القرطبى ٥/٣٧٠١] .

مهما كانت جسـامة الأحداث ؛ ذلك أن المؤمن يعلم عن يقين أن الحق سبحانه قد قال وصدق :

﴿ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرعد]

ومـا دام المؤمن قـد ثبت قلبـه بالإيمان وبالـقول الثـابت ؛ فهـو لا يتعرّض لزيغ[1] القلب ؛ ولا يتزعزع عن الحق .

والتـثبـيت يختلف فى أعـراف الناس باختـلاف المُـثـبِّت ؛ فحـين يُخلْخَل عمود فـى جدار البيت ؛ فصاحب البـيت يأتى بالمهندس الذى يقوم بعمل دعائمَ لتثبيت هذا العمود ؛ ويتبادل الناسُ الإعجابَ بقدرات هذا المهـندس ، ويتحاكى الـناس بقدرات هذا المـهندس على التثـبيت للأعمدة التى كادتْ أنْ تنهار ، وهذا ما يحـدث فى عُرْف البشر ؛ فما بَالُنا بما يمكن أنْ يفعله خالق البشر ؟

وقوله الحق :

﴿ يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

يردُّك إلى المُثـبِّت الذى لَنْ يطرأ على تثبـيته أدنـى خلَل . وكلمة « التثـبيت » دلَّتْنَا على أن الإنسـان ابنُ أغـيارٍ ؛ وقد تحدثُ له أشـياء غَيْر مطابقة لما يريده فى الحياة ؛ لذلك فالمؤمن يجب ألاّ يَخُور ؛ لأن له رباً لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

وسبحانه يُثبِّت الذين آمنوا :

﴿ بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الزيغ : الميل . زيغ القلب : الميل عن الهدى والقصد . [لسان العرب ـ مادة : زيغ] .

والقول ثابت ؛ لأنه من الحقِّ الذى لا يتغيَّر ؛ وهذا القَوْل مُوجَّه للمؤمنين الذين يواجههم قَوْم أشرار اختاروا أنْ يكونوا علىَ غير منهج الله .

وهذا القول يوضح للمؤمنين ضرورة أن يهدأوا ؛ وأنْ يجعلوا أنفسهم فى معيّة الله دائماً ، وأنْ يعلموا أنّ الظالمَ لو علم ما أعدَّه الله للمظلوم من ثواب وحُسْن جزاء لَضَنَّ الظالم بظُلْمه على المظلوم ولَقَال : ولماذا أجعل الله فى جانبه ؟

والذين اضْطهدوا فى دينهم ؛ وقام الكفار بتعذيبهم ؛ لم يُفْتَنوا فى الدين ؛ فكلما قَسَا عليهم الكفار ضَرْباً وتعذيباً كلما تذكروا حنانَ الحقِّ فتحمّلوا ما يذيقهم الكافرون من عذاب .

وحُسْن الجزاء قد يكون فى الدنيا التى يُثبِّت فيها المؤمن بمشيئة الله ؛ وهى بنت الأغيار وبنت الأسباب ، فأنت فى الدنيا تحوز على أىِّ شىء بأن تتعبَ من أجل أنْ تحصلَ عليه ، وتكدّ لتتعلم ؛ وتعثر على وظيفة أو مهنة ؛ ثم تتزوج لِتُكوِّن أُسْرة ؛ وتَخدُم غيرك ؛ ويخدُمك غيرك ، وتزاول كل أسبابك بغيرك ؛ فأنت تأكل مما تطبخ زوجتك ، أو أمك أو مَنْ تستخدمه ليؤدى لك هذا العمل .

باختصار كلما ارتقيتَ ؛ فأنت ترتقى بأثر مجهود ما . وكُلّ متعة تحصل عليها إنما هى نتيجة لمجهود جَادٍّ منك ؛ وأنت تحاول دائماً أن تُقلِّل المجهود والأسباب لتزيد من متعتك .

فَما بالُكَ بالآخرة التى لا تكليفَ ولا أسبابَ فيها ؛ وكل ما فيها قد جهَّزه الحق تعالى مقدّماً للإنسان ؛ ثواباً إنْ آمنَ ، وعذاباً إنْ كفر وعصى ، وإنْ كنتَ مؤمناً فالحق سبحانه يُجازيك بجنة عَرْضها السماوات والأرض ؛ فيها كُلُّ ما تشتهى الأنفس .

وإذا كان الحق سبحانه يُثَبِّت الذين آمنوا فى الدنيا بالقول الثابت الحق فتثبيتُه لهم فى الآخرة هو حياةٌ بدون أسباب .

ونجده سبحانه لم يَقُلْ هنا : الحياة الآخرة ، بل قال :

﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ ..(٢٧)﴾ [إبراهيم]

ذلك أن الارتقاءات الطُّموحية فى الحياة تكون مناسبة للمجهود المبذول فيها ، ولكن الأمرَ فى الآخرة يختلف تماماً ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى يُجازى على قَدْر طلاقة مشيئته ، وهو يُثَبِّتهم بدايةً من سؤال القبر ونهايةً إلى أنْ يلْقوا الثواب على حُسْن ما فعلوا من خير فى سبيل الله .

وما دام الحق سبحانه قد ذكر هنا التثبيتَ فى الحياة الدنيا والآخرة ؛ فلا بُدَّ أن يأتىَ بالمقابل ، ويقول :

﴿وَيُضِلُّ[1] اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)﴾ [إبراهيم]

وسبحانه يُضلّ الظالم لأنه اختار أنْ يظلم ؛ وهو سبحانه قد جعل للإنسان حَقَّ الاختيار ، فَمنَ اختار أن يظلمَ ؛ لا بُدَّ له من عقاب . وإذا كان سبحانه قد خلق الخَلْقَ وجعل الكون مُسخراً لهم ؛ وأعطى المؤمنَ والكافر من عطاء الربوبية ؛ فإن اختار الكافرُ كفره ؛ فهو لن يُنفِّذ تكاليف الألوهية التى أنزلها الله منهجاً لهداية الناس .

---

(١) أى : يضلهم عن حجتهم فى قبورهم . كما ضلُّوا فى الدنيا بكفرهم فلا يلقنهم كلمة الحق ، فإذا سئلوا فى قبورهم قالوا : لا ندرى . فيقول : لا دريت ولا تليت . وعند ذلك يُضرب بالمقامع على ما ثبت فى الأخبار . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٠٢] .

والكافر إنما يظلم نفسه ؛ ذلك أنه ما دام قد أنسَ إلى الكفر فالحق سبحانه يختم على قلبه ؛ فلا يخرج من القلب الكفر ، ولا يدخل إليه الإيمان ؛ وهو ربُّ العالمين يفعل ما يشاء .

وإذا كان الحق سبحانه يعطى كل إنسان ما يريد ؛ وما دام الكافر يطلب أن يكون كافراً ؛ فسبحانه يمدُّ له فى أسباب الكفر ليأخذه من بعد ذلك بها ، كما يمدُّ الله للمؤمنين كُلَّ أسباب الإيمان مِصْداقاً لقوله الحق :

﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً[1] ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء]

وهكذا تكون طلاقة قدرة الحق سبحانه وهو يفعل ما يشاء ، ذلك أنه لا يوجد إله غيره .

والحق سبحانه قد أكرمنا بالعبودية له وحده ، ذلك أننا رأينا جميعاً وشاهدنا أثر عبودية الإنسان للإنسان ؛ حين يأخذ السيد خَيْر العبد ؛ وقد ذاقتْ البشرية الكثيرَ من وَيْلاتها ، ولكن العبودية لله تختلف تماماً حيث يأخذ العبد خَيْر السيد ؛ ويُغدق السيد إحسانه على عباده.

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّواْ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ[2] ﴿٢٨﴾ ﴾

---

(١) الحظر : المنع . والمحظور : الممنوع . ومعنى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإسراء] أى : لا يمنع عطاء الله أحد . [القاموس القويم ١٦١/١] .

(٢) البوار : الهلاك . ودار البوار : دار الهلاك [لسان العرب ـ مادة : بور] . والمقصود بها جهنم . قاله ابن زيد . [ذكره القرطبى فى تفسيره : ٣٧٠٣/٥] . ويدل عليه قوله تعالى بعده : ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾ [إبراهيم] .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

فهذا يعنى أن المُخبِر وهو الحق إذا ما أخبرنا بشيء فهو أصدق مِنْ أنْ تراه أعيننا .

وتشير الآية إلى عملية مُبَادلة بين اعتراف بالنعمة ؛ ثم إنكارها . كأن هناك شيئاً قد استبعدناه ، وأتيْنا ببديل له . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

والحق سبحانه وتعالى قد أعطاك النعمة ولم يطلب منك أن تقومَ بأىِّ تكليف إيمانىٍّ قبل البلوغ . وهكذا نجد أن النعمة هى الأصل ، والتكليف إنما يأتى من بعد ذلك ، وكان من الواجب ألاَّ يعصى العبد مَنْ أنعم عليه بكل النعم ، وأن يتجه إلى التكليف بمحبة ؛ كى لا يقلب نعمة الله كفراً .

أو : أن المقصود هم قوم قريش الذين أفاء[1] الله عليهم الخير ، وجعل لهم الحرم آمناً :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

---

(١) أفاء الله عليه فيئاً : منحه غنيمة فى الحرب بالنصر أو بغير الحرب . [القاموس القويم ٩٢/٢] .

(٢) جبى الخراج والماء : جمعه . وقوله تعالى : ﴿ يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١١٧/١] .

وكذلك أنعم عليهم بأن يكون نبى الإسلام - الدين الخاتم - منهم ، وهو النبى الذى ستدين له الدنيا والعالم فى كل زمان ومكان ؛ فلماذا يُبدِّلون تلك النعمة كفراً ؟

أمَا كانت تلك النعمة وحدها كافية لمقابلتها بعميق الشكر وحُسْن العبادة ؟ فهذا النبى الذى قال الحق سبحانه عن رسالته :

﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف]

وهو سبحانه القائل عن نعمه عليهم :

﴿لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَـٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾﴾ [قريش]

فكيف يُبدِّلون نعمة الله كفراً ؟ وكيف يُسيئون معاملة الرسول ﷺ وصَحْبه حتى قال ﷺ : « اللهم اجعل سنينهم كسنين يوسف »[1] .

وخرج لقتالهم فى بدر ؛ وهم الذين صنعوا بأنفسهم ذلك نتيجة تبديلهم لنعمة الله كفراً ، ولماذا قَبِلوا عطاء الحق من خير ونعم ورفضوا منهجه ؟

ولو كانوا قوم صِدْق مع النفس ، وصدق مع ما يعتقدونه لَطلبوا من الأصنام أن تعطيهم ؛ أو لَرفضوا أن يأخذوا خَيْر المنعم ما داموا قد رفضوا منهجه ، وهو سبحانه قد أنعم عليهم بمُقوِّمات المادة ؛ وأضاف لذلك منهجه مُقوم الروح .

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأخيرة يقول : « اللهم اشدد وطأتك على مضر ، اللهم اجعلها سنين كسنى يوسف .. » الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) وأحمد فى مسنده (٢/٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) .

وحين نقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

نفهم أن الإحلال هو إيجاد حالٌّ فى مَحَلٍّ . ونعلم أن الظَّرف ينقسم إلى قسمين : ظرف مكان ، وظرف زمان ؛ فإذا أحللْتَ حدثا محلَّ حَدث ؛ فهذا يخصُّ ظرف الزمان ، وحين تحل شيئاً مكان شىء آخر ، فهذا أمر يخصُّ ظرف المكان .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) ﴾ [إبراهيم]

وهذا يعنى ظرف مكان . ولقائل أن يقول : وكيف يأخذون أهلهم وقومهم ليحلوهم إلى دار بَوَار ؟

ونقول : لقد حدث ذلك نتيجة أنهم قد غَشّوهم وخدعوهم ، ولم يستعمل هؤلاء الأهل عقولهم ؛ ولم يلتفتوا إلى أنّ قادتهم وأُولى الأمر منهم يسلكون السلوك السيء وعليهم ألاَّ يقلدوهم ؛ فَجرُّوا عليهم الفتن واحدة تِلْو أخرى ، وترين[1] الفتن على القلوب .

ولهذا أراد الحق سبحانه لأمة محمد ﷺ أن تكون بها مناعات من الفتن ؛ فتحثّ النفس اللوامة المؤمن ؛ فيكثر الحسنات ليبطل السيئات ، وإذا ما تحولت النفس اللوّامة إلى نفس أمّارة بالسوء وجدتْ فى المجتمع المسلم مَنْ يزجرها .

---

(١) الرين : الصدأ يعلو السيف فيذهب ببريقه ويستعار للغشاوة تغطى على القلب بسبب الذنوب . وران الصدأ عليه : غلب عليه وغطاه كله . [القاموس القويم ١/٢٨٢] .

وبهذا تصبح أمة محمد ﷺ محصَّنة ضد الفتن التى تُذهِب الإيمان .

ويقول الحق سبحانه :

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ.. (١١٠)﴾ [آل عمران]

ويُذكِّرنا الحق سبحانه بأن الرسولَ سيكون شهيداً علينا ، ونحن سنكون شهداء على الناس ، وهكذا ضمن الحق سبحانه أن يعلم كُلُّ واحد من أمة محمد جزئية من العلم ليكون امتداداً لرسالة رسول الله ﷺ .

ومثْلما شهد الرسول أنه قد بلَّغ الرسالة ؛ سيكون على كل واحد من أمَة محمد ﷺ أنْ يشهدَ بأنه قد بلَّغ ما علم من رسالة محمد ﷺ .

وكُلٌّ منا يعلم كيف حدثتْ الغفلة الأولى ؛ حيث حدثتْ الغفلة من الأسْوة ؛ فزاحمتهم الشهواتُ وارتكبوا السيئات ، فحين غفلتْ النفس ارتكبتْ المعصية ؛ وحين رأى الناسُ مَنْ يرتكب المعصية قلَّدوه .

وهكذا حمل مَنْ وقع فى الغفلة وِزْره ووِزْر مَن اتبعه بالأسْوة السيئة ؛ فصار ضَالاً فى ذاته ؛ ثم تحمَّل وِزْرَ مَنْ أضله أيضاً .

وهكذا صار مَنْ فعل ذلك هو مَنْ أحلَّ قومه دار البوار .

والبوار يعنى الهلاك ؛ ذلك أن الكبار من هؤلاء القوم حين تصرَّفوا وسلكُوا بما يخالف المنهج أورثوا مَنِ اتبعوهم الهلاك .

ونحن فى الريف نَصفُ الأرض التى لا تصلح للزراعة بأنها الأرض البُور[1] ؛ وكذلك يُقال « قُمْنا بتبوير الأرض » أى : أهلكنا ما فيها من زرع .

وحين نقرأ قول الحق :

﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]

نجد فى كلمة « قومهم » ما يُوحى بالخِسَّة لِمَنْ يرتكبون هذا الفعل الشائن ؛ فمَنْ يُهلك قومه لابُد أن يكون خسيساً ؛ ولابُد أن يكون محترف غِشٍّ وخديعة ؛ فالقوم هم مَنْ يقومون معهم ؛ وكان من اللائق أن تضرب على يد مَنْ يصيبهم بشرٍّ أو يغشّهم أو يخدعهم .

ويشرح الحق سبحانه دار البوار هذه ، فيقول :

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[2] وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ ﴾

وإذا قِسْنا جهنم بالمقرات ؛ فلن نجد مَنْ يرغب فى أن تكون جهنم هى مقرَّه ؛ لأن الإنسان يحب أن يستقر فى المكان الذى يجد فيه راحة ، ولو لم يجد فى هذا المكان راحة ؛ فهو يتركه .

وجهنم التى يَصلَوْنها لن تكون المقرَّ الذى يجدون فيه أدنى

(١) بور الأرض : ما بار منها ولم يُعمر بالزرع . وقال الزجاج : البائر فى اللغة الفاسد الذى لا خير فيه . قال : وكذلك أرض بائرة متروكة من أن يزرع فيها . [لسان العرب ـ مادة : بور] .

(٢) أصلاه النار : أدخله إياها وأثواه فيها . وصليت النار أى : قاسيت حرّها . وصلّى اللحم : شواه . والصِّلاء : الشواء ، لأنه يُصلى بالنار . [لسان العرب ـ مادة : صلى] .

راحة ؛ لأن العذاب مُقيم بها ؛ ولذلك يصفها الحق سبحانه بأنها :

﴿ بِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

فكأنهم ممسوكون بكلاليب[1] فلا يستطيعون منها فكاكاً . وهى تقول :

﴿ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

وكأنهم قد عَشقوا النار فعشقتهم النار ، ولو كانت لديهم قدرة على أنْ يفرُّوا منها لَفعلوا ، لكنهم مربوطون بها وهى مربوطة بهم ؛ وهى بئس القرار ؛ لأن أحداً لن يخرج منها إلا أنْ يشاء الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾

والنِّد هو : المِثْل والمُشَابه . وهم قد اتخذوا لله شركاء ؛ وأىّ شريك اتخذوه لم يَقُلْ لهم عن النعم التى أسبغها عليهم ولم يُنزل لهم منهجاً . وهؤلاء الشركاء كانوا أصناماً ، أو أشجاراً ، أو الشمس ، أو القمر ، أو النجوم ، ولم يَقُلْ كائن من هؤلاء : ماذا أعطى من نعم ليعبدوه ؟

ونعلم أن العبادة تقتضى أمراً وتقتضى نهياً ، ولم يُنزل أىٌّ من هؤلاء الشركاء منهجاً كى يتبعه مَنْ يعبدونهم ؛ ولا ثوابَ على العبادة ؛ ولا عقَاب على عدم العبادة .

---

(١) الكلاليب : جمع كُلاَّب ، حديدة معوجة الراس ، كالخطاف . [لسان العرب ـ مادة : كلب] .

ولذلك نجد أن مثل هؤلاء إنما اتجهوا إلى عبادة هؤلاء الشركاء ؛ لأنهم لم يأتوا بمنهج يلتزمون به .

ولذلك نجد الدجالين الذين يدَّعُون أنهم رأوا النبى ﷺ ؛ ويتصرفون مع مَنْ يُصدِّقونهم من الأتباع ، وكأنهم كائنات أرقى من النبى ﷺ - والعياذ بالله منهم - .

ومن العجيب أننا نجد بعضاً من المثقفين وهم يتبعون هؤلاء الدجالين . وقد يبتعد عنه بسطاء الناس ؛ ذلك أن النفس الفطرية تحب أن تعيش على فطرة الإيمان ؛ أما مَنْ يأتى ليُخفِّف من أحكام الدين ؛ فيهواه بعض ممَّنْ يتلمسون الفكَاك من المنهج .

وبذلك يجعل هؤلاء الأتباع مَنْ يخفف عنهم المنهج نِداً لله - والعياذ بالله - ويضلون بذلك عن الإيمان .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا عَن سَبِيلِهِ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : ليُضِلوا غيرهم عن سبيل الله .

وهناك قراءة أخرى[1] لنفس الآية « لِيَضلوا عن سبيل الله » ، وأنت ساعةَ تسمع حدثاً يوجد ليجىء حدث كنتيجة له ، فأنت تأتى بـ « لام التعليل » كقولك « ذاكر الطالب لينجح » هنا أنت لم تَأتِ بفعل ونقيضه . وهل كانوا يضلون أنفسهم ؟

(١)هى قراءة ابن كثير وأبى عمرو . قاله القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٣/٥) ثم قال : « أما من فتح (أى الياء) فعلى معنى أنهم هم يضلون عن سبيل الله على اللزوم . أى : عاقبتهم إلى الإضلال والضلال ، فهذه لام العاقبة » .

لا ، بل كانوا يتصوَّرون أنهم على هُدىً واستقامة ، وهذه تُسمَّى « لام العاقبة » وهى تعنى أنه قد يحدث بعد الفعل فعْل آخر كان وارداً . وهذه تُسمَّى « لام تعليلية » .

ولكن قد يأتى فعْل بعد الفعل ولم يكن صاحبُ الفعل يريده ؛ كما فعل فرعون حين التقط موسى عليه السلام من الماء ليكون ابناً له ؛ ولكن شاء الحق سبحانه أن يجعله عدواً .

وساعة التقاط فرعون لموسى لم يكن فرعون يريد أن يكبر موسى ليصبح عدواً له ؛ ولكنها مشيئة الله التى أرادتْ ذلك لتخطئة مَنْ ظنَّ نفسه قادراً على التحكُّم فى الأحداث ، بداية من ادعاء الألوهية ، ومروراً بذبح الأطفال الذكور ، ثم يأتى التقاطه لموسى ليكون قُرَّة عينٍ له ؛ فينشأ موسى ويكبر ليكون عدواً له !!

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾ [إبراهيم]

وهذا أمر من الله لمحمد أن يقول لهم : تمتعوا . وهذا أمر من الله . والعبادة أمر من الله ، فهل إن تمتعوا يكونون قد أطاعوا الله ؟

وهنا نقول : إن هذا أمر تهكمىّ ، ذلك أن الحق سبحانه قال من بعد ذلك :

﴿ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠) ﴾ [إبراهيم]

وعلى هذا نجد أن الأمر إما أنْ يُراد به إنفاذ طلب ، وإما أنْ يُراد به الصَّد عن الطلب بأسلوب تهكمىّ .

ونجد فى قول الإمام على - كرم الله وجهه - قولاً يشرح لنا هذا : « لا شرٌّ فى شر بعده الجنة ، ولا خير فى خير بعده النار » .

فَمَنْ يقول : إن التكاليف صعبة ؛ عليه أن يتذكَّر أن بعدها الجنة ، ومَنْ يرى المعاصى والكفر أمراً هيناً ، عليه أن يعرف أن بعد ذلك مصيره إلى النار ؛ فلا تعزل المقدمات عن الأسباب ، ولا تعزل السبب عن المُسبِّب أو المقدمة عن النتائج .

فالأب الذى يجد ابنه يُلاحِق المذاكرة فى الليل والنهار ليبنى مستقبله قد يشفق عليه ، ويسحب الكتاب من يده ، ويأمره أن يستريح كى لا يقع فى المرض ؛ فيصبح كالمُنْبَتّ[1] ؛ لا أرضاً قطع ، ولا ظهْراً[2] أبقى ، ولكن الولد يرغب فى مواصلة الجهد ليصلَ إلى مكانة مُشرِّفة .

وهنا نجد أن كلاً من الأب والابن قد نظرا إلى الخير من زوايا مختلفة ؛ ولذلك قد يكون اختلاف النظر إلى الأحداث وسيلة لالتقاءات الخير فى الأحداث .

وهم حين يسمعون قول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

قد يستبطئون الأحداث ؛ ويقول الواحد منهم إلى أن يأتى هذا المصير : قد نجد حلاً له .

ونقول : فليتذكر كُلّ إنسان أن الأمر المُعلَّق على غير ميعاد

---

(١) الانبتات : الانقطاع . ورجل مُنْبت أى مُنْقطع به . [لسان العرب - مادة : بتت] .

(٢) الظهر : الإبل التى يُحمل عليها ويُركب . [لسان العرب - مادة : ظهر] .

مُحدّد ؛ قد يأتي فجأة ؛ فَمَنْ يعيش في معصية إلى عمر التسعين ؛ هل يظن أنه سيفرّ من النار ؟

إنه وَاهِمٌ يخدع نفسه ، ذلك أن إبهام الله لميعاد الموت هو أعنفُ بيانٍ عنه . وما دام المصير إلى النار فلا مُتْعة في تلك الحياة .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خِلَٰلٌ[1] ﴿٣١﴾ ﴾

و « قُلْ » من الله لرسول الله ﷺ . وهل معنى هذا أن العباد الذين سيسمعون هذا الأمر سيقومون إلى الصلاة ؟ لقد سمعه بعضهم ولم يَقُم إلى الصلاة .

إذن : مَنْ يُطِع الأمر هو مَنْ حقَّق شَرْط الإيمان ، وعلينا أن ننظر إلى مُكْتنفات كلمة « عبادي » فعباد الله هم الذين آمنوا ، وحين يؤمنون فهم سيُعبِّرون عن هذا الإيمان بالطاعة . وهكذا نفهم معنى الألفاظ لتستقيمَ معانيها في أساليبها .

وكل خَلْق الله عبيد له ؛ ذلك أن هناك أموراً قد أرادها الله في طريقة خَلْقهم ، لا قدرةَ لهم على مخالفتها ؛ فهو سبحانه قد قهرهم في أشياء ؛ وخيَّرهم في أشياء .

---

(١) خلال : إما جمع خُلّة أو مصدر خالّه . والمعنى : إن يوم القيامة لا ينجي من عذابه شيء ، فلا يباع فيه شيء بمال يفتدي الكافر نفسه به ، ولا صداقة تفيده ، فلا صديق يُغني عن صديق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

ولذلك أقول دائماً للمُـتمرِّدين على الإيمان بالله ؛ لقد أَلِفْـتم التمرّد على الله ؛ ولم يَأْبَ طَبْع واحـد منكم على رفـض التمـرّد ، فـإنْ كنتم صـادقيـن مع أنفسكـم عليكم أنْ تتـمردوا علـى التنفس ؛ فـهو أمـر لا إرادى ، أو تمردوا ـ إن استطـعتُم ـ على المرض وميـعاد الموت ، ولن تستطيعوا ذلك أبداً .

ولكنهم ألِفُوا التمرّد على ما يمكنهم الاخـتيار فيه . ونسُوا أن الله يريد منهم أن يلتزموا بمنهجه ؛ فـإن اختار المؤمن أن يتبع منهجَ الله صار من « عبـاد الله » ، وإنْ لم يخضـع للمنهج فيـما له فيه اخـتيار فـهو من العبيد المقهورين على اتباع أوامر الله القهرية فقط .

وأنت حين تسـتقرىء كلمـة « عباد» وكلمـة « عبيـد » فى القرآن ستجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعِبَادُ الرَّحْمَـٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا[1] وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ[2] قَالُوا سَلامًا (٦٣) ﴾ [الفرقان]

وتتعدد هنا صفات العباد الذين اختاروا اتباع منهج الله ، وستجد كلمة العـبيد وهـى مُلْتصقـة بمَنْ يتمردون على مـنهج الله ؛ ولن تجد وَصْفاً لهم بأنهم « عباد » إلا فى آية واحدة ؛ حين يخاطب الحَقُّ جَلَّ وعلا الذين أضلوا الناس ؛ فيقول لهم :

---

(١) الهوْن : الرفق واللين والتـثبت . والهوْن : السكينة والـوقار والسهولة . [لسـان العرب ـ مادة : هون] .

(٢) جهل فلان على غيره : تعدَّى عليه وتسافه وقسا . والجهل : الطيش والسفه والتعدى بغير حق . والجهل أيضاً : ضد العلم وهو الخلو من المعرفة . [القاموس القويم ١/ ١٣٤] .

﴿ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الفرقان]

ونلحظ أن زمن هذا الخطاب هو فى اليوم الآخر ؛ حيث لا يوجد لأحد مُرْتاد مع الله ؛ وحيث يسلب الحق سبحانه كل حق الاختيار من كل الكائنات المختارة .

وهكذا لا يمكن لأحد أن يطعنَ فى أن كلمة « عباد » إنما تستخدم فى وَصْف الذين اختاروا عبادة الله والالتزام بمنهجه فى الحياة الدنيا ؛ ذلك أنهم قد سَلَّموا زِمَام اختيارهم لله ، وأطاعوه فى أوامره ونواهيه .

ونلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً .. ﴿٣١﴾ ﴾ [إبراهيم]

هو أمر صادر من الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، وأن المؤمنين فى انتظار هذا الأمر لِيُنفِّذوه فوراً ، ذلك أن المؤمن يحب أن يُنفِّذ كل أمر يأتيه من الله .

وما دُمْتَ قد أبلغتهم يا محمد هذا الأمر فسيُنفِّذونه على الفور ؛ وقد جاء قوله (يقيموا) محذوفاً منه لام الأمر ، تأكيداً على أنهم سيصدعون[1] لتنفيذ الأمر فوْر سماعه .

وعادة نجد أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى جَمْهرة آيات القرآن[2] تأتيان متتابعتين مع بعضهما ؛ لأن إقامةَ الصلاة تتطلب

(١) صدعت إلى الشىء : مِلْتُ إليه . [لسان العرب ـ مادة : صدع] .
(٢) جاء هذا فى أكثر من ٢٧ آية من القرآن . [المعجم المفهرس لألفاظ القرآن] .

حركـة ، تتطلب طاقة وتأخـذ وقوداً ؛ والوقـود يتطلب حركـة ويأخذ زمناً ، والزكاة تعنى أن تُخرِج بعضاً من ثمرة الزمن ، وبعضاً من أثر الحركة فى الوقت .

ونجد الكسالى عن الصلاة يقـولون : « إن العمل يأخذ كل الوقت والواحـد منّا يحـاول أن يجمع الصـلوات إلى آخر النـهار ، ويُؤدّيهـا جميعـها قضاءً » . وهم لا يلتفتـون إلى أن كُلَّ فرض حين يُؤدَّى فى ميعاده لن يأخذ الوقت الذى يتصورون أنه وقت كبير .

وظاهر الأمر أن الصلاة تُقلّل من ثمرة العمل ، لكن الـحقيقة أنها تُعطى شحنة وطاقة تحفز النفس على المزيد من إتقان العمل ؛ وكيف يُقبِل المـصلى على العملَ بنفس راضـية ؛ ذلك أنه بالصـلاة قد وقف فى حضرة مَنْ خلقه ، ومَنْ رزقه ، ومَنْ كفله .

ولذلك يخرج منها هادئاً مُطمئناً مُنتبهاً راضياً ؛ ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول : « أرحنا بها يا بلال »[1] .

والصـلاة فـى كل فـرض ؛ لن تأخـذ أكـثـر من ربع الســاعـة بالوضـوء ، وإذا نسبت وقت الصلوات كلها إلى وقت العمل ستجد أنها تأخذ نسبة بسيطة وتعطى بأكثر ممّا أخذت .

وكذلك الزكـاة قد تأخـذ منك بعضـاً من ثمرة الوقت لتعـطيه إلى غير القادر ، ولكنها تمنحك أماناً اجتماعياً فوق ما تتخيّل .

ولذلك تجد الصـلاة مُرتبطة بالزكاة فى آيات القـرآن ببعضـهـما ، وإقـامة الصـلاة هى جِمَـاع القيم كلهـا ؛ وإيتاء الزكـاة جِمَـاع قيـام الحركات العضلية كلها .

---

(١) أخرجـه الإمام أحـمد فى مـسنده (٥/٣٦٤) ، وأبو داود فى سننه (٤٩٨٥) عن رجل من الصحابة .

وتعالج الصلاة شيئاً ، وتعالج الزكاة شيئاً آخر ؛ وكلاهما تُصلِح مكونات ماهية الإنسان ؛ الروح ومقوماتها ، والجسد ومقوماته .

ولذلك قال ﷺ : « وجُعِلَتْ قُرة عينى فى الصلاة »[1] .

وحين تنظر إلى الصلاة والزكاة تجد مصالح الحياة مجتمعة وتتفرع منهما ؛ ذلك أن مصالح الحياة قد جمعها ﷺ فى الأركان الخمس للدين ، وهى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقامة الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحِجّ البيت لِمَنِ استطاع إليه سبيلاً[2] .

وعرفنا من قَبْل كيف أخذت الصلاة كُل هذه الأركان مجتمعة ؛ ففيها شهادة أن لا إله إلا الله ، وفيها تضحية وتزكية ببعض الوقت ؛ وفيها صَوْم عن كل ما تلتزم به وأنت صائم ؛ وأنت تتوجه خلالها إلى قبلة بيت الله الحرام .

وهكذا نرى كيف ترتبط حركة الحياة والقيم المُصْلِحة لها بالصلاة والزكاة .

ويأمرنا الحق سبحانه فى هذه الآية الكريمة بأن ننفق سراً وعلانية ، وهكذا يشيع الحق الإنفاق فى أمرين متقابلين ؛ فالإنفاق

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٣/١٢٨ ، ١٩٩ ، ٢٨٥) ، والنسائى فى سننه (٧/٦١) والحاكم فى مستدركه (٢/١٦٠) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال الحاكم : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ووافقه الذهبى ، وتمامه : « حبِّب إلىّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عينى فى الصلاة » .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦) كتاب الإيمان ، والبخارى فى صحيحه (٨) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما .

سراً كى لا يقع الإنسان فريسةَ المُباهاة ؛ والإنفاق علناً كى يعطى غيره من القادرين أُسْوة حسنة ، ولكى تمنع الآخرين من أنْ يتحدثوا عنك بلهجة فيها الحسد والغَيْرة مما أفاء الله عليك من خير .

ولذلك أقول : اجعل الصدقة التطوعية سراً ، واجعلها كما قال النبى ﷺ : « لا تعلم شمالك ما أعطتْ يمينك »[1] .

واجعل الزكاة علانية حتى يعلمَ الناس أنك تُؤدى ما عليك من حقوق الله وتكون بالنسبة لهم أُسْوة فعلية ، وعظَة عملية ، واجعلوا من أركان الإسلام عظَة سلُوكية ، فنحن نرى بعضاً من القرى والمدن لا يحجّ منها أحد ، لأن القادرين فيها قد أدَّوْا فريضة الحج .

ونجد أن القادر الذى يبنى مسجداً ؛ يعطى القادر غيره أُسْوة ليبنى مسجداً آخر ، وما أنْ يأتىَ رمضان حتى يصومَ القادرون عليه ؛ ويعطوا أُسْوة لصغارهم ، وتمنع الاستخذاء أمام الغير ، وهكذا نعلن كل تكاليف الإسلام بوضوح أمام المجتمعات كلها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿قُل لِّعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ (٣١)﴾ [إبراهيم]

ومن هنا نعلم أن هناك أعمالاً يمكن أن تؤجلها ، إلا الغايات التى

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٠٣١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ضمن حديث « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ، الإمام العادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجل قلبه معلق فى المساجد ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » .

لا توجد فيها أعواض ؛ فعليك أن تنتهز الفرصة وتُنفّذها على الفور ؛ ذلك أن اليوم الآخر لن يكون فيه بَيْع أو شراء ، ولن يستطيع أحد فيه أن يُزكّى أو يُصلّى ؛ فليست هناك صداقة أو شفاعة تُغنيك عمّا كان يجب أن تقوم به فى الحياة الدنيا .

والشفاعة فقط هى ما أذن له الرحمن بها[1] ، ولذلك يأتى الأمر هنا بسرعة القيام بالصلاة وإيتاء الزكاة والإنفاق سِراً وعلانية من قبل أن يأتىَ اليوم الذى لا بَيْع فيه ولا خِلاَل .

والبيع ـ كما نعلم ـ هو مُعَاوضة متقابلة ؛ فهناك مَنْ يدفع الثمن ؛ وهناك مَنْ يأخذ السلعة . والخِلاَل هو المُخَالّة ؛ أى : الصديق الوفىّ الذى تلزمه ويلزمك .

والشعر يُبيّن معنى كلمة « خليل » حين يقول :

لَمّا التقينَا قرَّب الشَّوْقُ جَهْده — خليلين ذَابَا لَوْعةً وعِتَابَا

كأنّ خليلاً فى خِلاَل خَلِيله — تَسرَّبَ أثناءَ العِنَاقِ وغَابَا

وهذا يوضح أن المُخالة تعنى أن يتخلل كُلٌّ منهما الآخر .

وفى الآخرة لن تستطيع أن تشترى جنة أو تفتدى نفسك من النار ؛ ولا مُخَالَّة هناك بحيث يفيض عليك صديق من حسناته . والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) يقول تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَـٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً ﴿١٠٩﴾﴾ [طه] ويقول أيضاً : ﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ .. ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ] . فالشفاعة ثابتة بنص القرآن بشرط إذن الله للشافع أن يشفع ، وللمشفوع فيه بعلم الله فيه ، أما الكافرون والمشركون والمنافقون فالشفاعة منفية عنهم .

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وبعض السطحيين يريدون أنْ يأخـذوا علي القرآن أنه أثبت الخُلَّة ونفاها ؛ فهو القائل :

﴿ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خِلالٌ (٣١) ﴾ [إبراهيم]

وهو القائل :

﴿ وَلاَ خُلَّةٌ .. (٢٥٤) ﴾ [البقرة]

ثم أثبت الخُلَّة للمتقين ؛ الذين لا يُزيِّن أحدهما للآخر معصية .

وهؤلاء السطحـيـون لا يُحسنون تدبُّر القـرآن ؛ ذلك أن الخُلَّة المَنْفية ـ أو الخِلاَل المنفـية ـ في الآيات هي الخِلال التي تحضُّ على المعاصي ؛ وهذه هي الخِلاَل السيئة .

ونعلم أن البيع في الحـياة الدنيا يكون مـقابلةَ سلعةٍ بثـمن ؛ أما المُخـالّة ففيهـا تكرُّم ممَّنْ يقدمهـا ؛ وهو أمرٌ ظاهريّ ؛ لأن في باطنه مُقايضة ؛ فـإذا قدَّم لك أحدٌ جميلاً فهذا يقـتضي أنْ تردّ له الجميل ؛ أما التكرُّم المجرّد فهو الذي يكون بغير سابق أو لاحق .

وبعد أن بيَّن لنا الحق سبحانه السـعداء وبيَّنَ الأشقياء ، وضرب المَثل بالكلمـة الطيبة ، وضرب المثـل بالكلمة الخبيثـة ، يأتي من بعد ذلك بمـا يهـيج في المـؤمن فـرحـةً في نفـسـه ؛ لأنه آمن بالله الذي صنع كل تلك النعم ، ويذكـر نعماً لا يشتـرك فيهـا مع الله أحد أبداً ، فيقول :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ[1] لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢) ﴾

والسماء والأرض ـ كما نعلم ـ هما ظَرْفَا الحياة لنا كلنا ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ .. (٥٧) ﴾ [غافر]

فإذا كان الله هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ فهذا لَفْتٌ لنا على الإجمال ؛ لأنه لم يَقُلْ لنا ما قاله فى مواضع أخرى من القرآن الكريم بأنها من غير عَمَد[2] ؛ وليس فيها فُطور ، ولم يذكر هنا أنه خلق فى الأرض رواسى كى لا تميد[3] بنا الأرض ، ولم يذكر كيف قَدَّر فى الأرض أقواتها[4] ، واكتفى هنا بلمحة عن خَلْق السماوات والأرض .

---

(١) الفُلْك : السفينة ، للمذكر والمؤنث والواحد والجمع . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) عَمَد : جمع عمود . وقال الفراء : فيه قولان :
– أحدهما : أنه خلقها مرفوعة بلا عمد ، ولا يحتاجون مع الرؤية إلى خبر .
– والقول الثانى : أنه خلقها بعمد لا ترون تلك العمد . [لسان العرب ـ مادة : عمد] .

(٣) ماد يميد : تحرَّك واهتزّ . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى الْأَرْضِ رَوَاسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] . لئلا تميل وتضطرب ، فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

(٤) القوت : الطعام يحفظ على البدن حياته . وجمعه أقوات . قال تعالى : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ .. (١٠) ﴾ [فصلت] أى : أقوات جميع سكان الأرض من إنسان وحيوان وكل شىء حى إلى آخر الدهر . [القاموس القويم ٢/١٣٦] .

وحين يتكلم سبحانه هنا عن خَلْق السماوات والأرض يأتى بشىء لم يدَّعه أحد على كثرة المُدَّعين من الملاحدة ؛ وذلك لتكون ألزم فى الحجة للخَصْم ، وبذلك كشف لهم حقيقة عدم إيمانهم ؛ وجعلهم يروْنَ أنهم كفروا نتيجة لَددٍ[1] غير خاضع لمنطق ؛ وهو كفر بلا أسباب .

وحين يحكم الله حُكْماً لا يوجد له معارض ولا منازع ؛ فهذا يعنى أن الحكم قد سلِم له سبحانه . ولم يجترىء أحد من الكافرين على ما قاله الله ؛ وكأن الكافر منهم قد أدار الأمر فى رأسه ، وعلم أن أحداً لم يَدَّعِ لنفسه خَلْق السماوات والأرض ؛ ولا يجد مفراً من التسليم بأن الله هو الذى خلق السماوات والأرض .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

يُوضِّح لنا أن كلمة « الله » هنا ؛ لأنها مناطُ الصعوبة فى التكليف ؛ فالتكليف يقف أمام الشهوات ؛ وقد تغضبون من التكليف ؛ ولكنه يحميكم من بعضكم البعض ، ويكفل لكم الأمان والحياة الطيبة.

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بكلمة « رب » هنا لأنها مناطُ العطاء الذى شاءه للبشر ، مؤمنهم وكافرهم .

وكلمة « الله » تعنى المعبود الذى يُنزل الأوامر والنواهى ؛ وتعنى أن هناك مشقات ؛ ولذلك ذكر لهم أنه خلق السماوات والأرض ، وأنزل من السماء ماء .

---

(١) اللدد : الخصومة الشديدة . وألده يلده : خصمه . [لسان العرب ـ مادة : لدد] .

ونحن حين نسمع كلمة « السماء » نفهم أنها السماء المقابلة للأرض ؛ ولكن التحقيق يؤكد أن السماء هى كُلُّ ما علاك فأظلَّك .

والمطر كما نعلم إنما ينزل من الغَيْم والسحاب . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا[2] فَتَرَى الْوَدْقَ[3] يَخْرُجُ مِنْ خِلالِهِ .. (٤٣) ﴾ [النور]

وقد عرفنا بالعلم التجريبى أن الطائرة - على سبيل المثال - تطير من فوق السحاب ، وعلى ذلك فالمطر لا ينزل من السماء ؛ بل ينزل ممَّا يعلونا من غَيْم وسحاب .

أو : أنك حين تنسب النزول من السماء ؛ فهذا يوضح لنا أن كل أمورنا تأتى من أعلى ؛ ولذلك نجد الحديد الذى تحتضنه الجبال وينضج فى داخلها ؛ يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[4] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

---

(١) زجه يزجه : دفعه بسرعة . وزجا الشىء يزجوه : ساقه برفق . [القاموس القويم ٢٨٤/١] .

(٢) قوله : ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا .. (٤٣) ﴾ [النور] .أى : متجمعاً فيه مطر كثير غزير . [القاموس القويم ٢٧٦/١] .

(٣) الودق : المطر كله شديده وهيِّنه . [لسان العرب - مادة : ودق] .

(٤) قال ابن كثير فى تفسيره : ﴿ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] يعنى : السلاح كالسيوف والحراب والسنان والنصال والدروع ونحوها ، و : ﴿ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أى : فى معايشهم كالسكة والفأس والقدوم والمنشار والأزميل والآلات التى يستعان بها فى الحراثة والحياكة .. وما لا قوام للناس بدونه وغير ذلك . [تفسير ابن كثير ٣١٥/٤] .

وهكذا نجد أنه إما أن يكون قد نزل كعناصر مع المطر ؛ أو لأن الأمر بتكوينه قد نزل من السماء .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يتحدث الحق سبحانه عن خَلْق السماوات والأرض ؛ وكيف أنزل الماء من السماء :

﴿ فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

والثمرات هى نتاج ما تعطيه الأرض من نباتات قد تأكل بعضاً منها ؛ وقد لا تأكل البعض الآخر ؛ فنحن نأكل العنب مثلاً ، ولكنا لا نأكل فروع شجرة العنب ، وكذلك نأكل البرتقال ؛ ولكنا لا نأكل أوراق وفروع شجرة البرتقال .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

والتسخير معناه قَهْر الشىء ليكون فى خدمة شىء آخر . وتسخير الفُلْك قد يثير فى الذهن سؤالاً : كيف يُسخِّر الله الفلك ، والإنسان هو الذى يصنعها ؟

ولكن لماذا لا يسأل صاحب السؤال نفسه : ومن أين نأتى بالأخشاب التى نصنع منها الألواح التى نصنع منها الفُلْك ؟ ثم مَن الذى جعل الماء سائلاً ؛ لتطفو فوقه السفينة ؟ ومَنِ الذى سيَّر الرياح لتدفع السفينة ؟

كل ذلك من بديع صُنْع الله سبحانه .

وكلمة « الفلك » تأتى مرة ويُرَاد بهـا الشـىء الواحد ؛ وتأتى مرة ويُراد بها أشياء ؛ فهى تصلح أن تكون مفرداً أو جمعاً .

والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ .. (١٦٤) ﴾ [البقرة]

وكذلك قال فى قصة نوح عليه السلام :

﴿ واصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا .. (٣٧) ﴾ [هود]

وبعض العلمـاء يقولون : إذا عـاد ضمـيـر التأنيث عليـه ؛ تكون جَمْعاً ؛ وإذا عاد عليها بالتذكير تكون مفرداً .

ولكنِّى أقول : إن هذا الـقول غَيْـر غالب ؛ فسـبحانه قـد قال عن سفينة نوح وهى مفرد :

﴿ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا .. (١٤) ﴾ [القمر]

ولم يَقُل : « يجرى بأعيننا » ، وهكـذا لا يكون التأنيث دليلاً على الجمع .

ويتابع سبحانه :

﴿ وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ..(٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ونفهم بطبـيعة الحال أن النهـر عَذْب الماء ؛ والبحـر ماؤه مالح . وسبحـانه قد سخَّـر لنا كل شـىء بأمره ، فهو الذى خلقَ النـهر عَذْب الماء ، وجعل له عُمْقاً يسمح فى بعض الأحيان بمسير الفلك ؛ وأحياناً أخرى لا يسمح العمق بذلك .

وجعل البحر عميقَ القاع لِتمرُق فيه السفن ، وكل ذلك مُسخَّر بأمره ، وهو القائل سبحانه :

﴿إن يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِ .. (٣٣)﴾ [الشورى]

أى : أنه سبحانه قد يشاء أن تقف الرياحُ ساكنة ؛ فتركد السفن فى البحار والأنهار .

ومن عجائب إنباءات القرآن أن الحق سبحانه حينما تكلم عن الريح التى تُسيِّر الفلك والسفن ؛ قال الشكليون والسطحيون « لم نعد نُسيِّر السفن بالرياح بل نُسيِّرها بالطاقة » .

ونقول : فلنقرأ قوله الحق :

﴿وَلا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ .. (٤٦)﴾ [الأنفال]

و « ريحكم » تعنى : قوتكم وطاقتكم ؛ فالمراد بالريح القوة المطلقة ؛ سواء جاءت من هواء ، أو من بخار ، أو من ماء .

وهذه الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ نزلت بعد أن أعلمنا الحق سبحانه بقصة السعداء من المؤمنين ؛ والأشقياء الكافرين ؛ فكانت تلك الآية بمثابة التكريم للمؤمنين الذين قدروا نعمة الله هذه ، فلمَّا علموا بها آمنوا به سبحانه .

وكرمتهم هذه الآية لصفاء فطرتهم التى لم تُضبَّب ، وتكريم للعقل الذى فكّر فى الكون ، ونظر فيه نظرةَ اعتبار وتدبُّر ليستنتج من ظواهر الكون أن هناك إلهاً خالقاً حكيماً .

وفى الآية تقريع للكافر الذى استقبل هذه النعم ، ولم يسمع من

أحد أنه خلقها له ؛ ولم يخلقها لنفسه ، ومع ذلك يكابر ويعاند ويكفر بربٍّ هذه النعم .

وأول تلك النعم خَلْق السماوات والأرض ؛ ثم إذا نظرتَ لبقية النعم فستجدها قد جاءتْ بعد خَلْق السماوات والأرض ؛ وشيء من تلك النعم مُتَّصل بالسماء ؛ مثل السحاب ، وشيء متصل بالأرض مثل الثمرات التى تخرجها .

إذن : فالاستقامة الأسلوبية موجودة بين النعمة الأولى وبين النعمة الثانية .

ثم قال بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

فما هى المناسبة التى جعلتْ هذا الأمر يأتى بعد هذين الأمرين ؟ لأن الفُلْك طريقها هو البحار ومسارها فى الماء .

وقد قال الحق سبحانه أنه خلق السماوات والأرض . ومدلول الأرض ينصرف على اليابسة كما ينصرف على المائية ، ومن العجيب أن المائية على سطح الكرة الأرضية تساوى ثلاثة أمثال اليابسة ؛ ورُقْعة الماء بذلك تكون أوسعَ من رقعة التراب فى الأرض .

وما دام الحق سبحانه قد قال إنه أخرج من الأرض ثمراً هى رِزْق لنا ، فلا بُدَّ من وجود علاقة ما بين ذلك وتلك ، فإذا كانت البحار تأخذ ثلاثة أرباع المساحة من الأرض ؛ فلا بُدَّ أن يكون فيها للإنسان شىء .

وقد شرح الحق سبحانه ذلك فى آيات أخرى ؛ وأوضح أنه سخَّر البحر لنأكل منه لحماً طرياً[1] ؛ وتلك مُقوِّمات حياة ، ونستخرج منه حلية نلبسها ؛ وذلك من تَرف الحياة .

ونرى الفلك مواخر[2] فيه لنبتغى من فضله سبحانه .

وبذلك تكون هناك خيرات أخرى غير السمك والحلى ؛ ولكنها جاءت بالإجمال لا بالتفصيل ؛ فربما لم يكُنِ الناس قادرين فى عصر نزول القرآن على أنْ يفهموا ويعرفوا كل ما فى البحار من خيرات ؛ ولا تزال الأبحاثُ العلمية تكشف لنا المزيدَ من خيرات البحار .

وحين نتأمل الآن خيرات البحار نتعجب من جمال المخلوقات التى فيه .

إذن : فقوله :

﴿لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء]

هو قَوْل إجمالى يُلخِّص وجود أشياء أخرى غير الأسماك وغير الزينة من اللؤلؤ والمرجان وغيرها ، ونحن حين نرى مخلوقات أعماق البحار نتعجَّب من ذلك الخلْق أكثر مما نتعجَّب من الخَلْق الذى على اليابسة ، ومن خَلْق ما فى السماء .

---

(١) وذلك قوله تعالى : ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢)﴾ [فاطر] .

(٢) مَخرت السفينة مَخْراً ومُخوراً : شقت الماء بصدرها وسُمع لها صوت . [القاموس القويم ٢/٢١٨] .

وهكذا يكون قوله الحق :

﴿ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٦٦) ﴾ [الإسراء]

من آيات الإجمال التى تُفصِّلها آيات الكون ؛ فبعضٌ من الآيات القرآنية تُفسرها الآيات الكونية ، ذلك أن الحق سبحانه لو أوضح كل التفاصيل لَمَا صدَّق الناس ـ على عهد نزول القرآن ـ ذلك .

وعلى سبيل المثال حين تكلَّم سبحانه عن وسائل المواصلات ؛ قال :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾

[النحل]

وقوله تعالى :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٨) ﴾ [النحل]

أدخل كُلّ ما اخترعنا نحن البشر من وسائل المواصلات ؛ حتى النقل بالأزرار كالفاكس وغير ذلك .

وحينما يتكلم سبحانه عن البحار ؛ إنما يُوضِّح لنا ما يُكمل الكلام عن الأرض :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ .. (٣٢) ﴾ [إبراهيم]

ولو فَطِن الناس لقالوا عن السفن « جمال البحار » ؛ ما داموا قد قالوا عن الجمل إنه « سفينة الصحراء » ؛ ولكنهم أخذوا بالمجهول لهم بالمعلوم لديهم .

وإياك أن تقـول : أنـا الذى صنعتُ الشـراع ؛ وأنـا الذى صنعتُ المركب من الألواح ، ذلك أنك صنعتَ كل ذلك بقواك المخلوقة لك من الله ، وبالفكر الموهوب لك من الله ؛ ومن المادة الموهوبة لك من الله ، فكلُّها أشياء جاءتْ بأمر من الله .

وهنا يقول سبحانه :

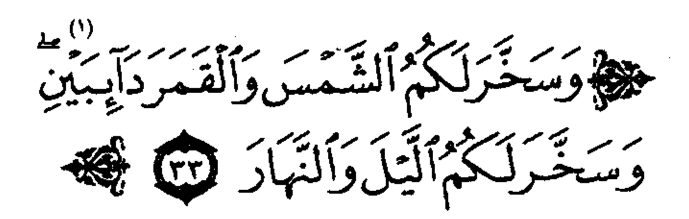
﴿ وسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

والنهر ماؤه عادة يكون عَذْباً ليـروى الأشجار التى تُنتِج الثمار . والأشجار عادة تحتاج ماء عَذْباً .

وهكذا شاء الله أن يكون مـاء البحـار والمحيطات مـخزناً ضخـماً للميـاه ؛ يحتل ثلاثة أربـاع مساحـة الكرة الأرضيـة ، وهى مسـاحة شـاسعـة تتيح فُـرْصة لعـمليات الـبَخْـر ؛ التى تُحوِّل المـاء بواسطة الحرارة إلى بخار يصعد إلى أعلى ويصير سـحاباً ؛ فيُسقط السحابُ الماءَ بعد أن تخلص أثناء البَخْر من الأملاح وصار ماء عَذْباً ؛ تروى منه الأشجار الـتى تحتاجه ، وتنتج لنا الثـمار التى نحتاجـها ، وكأن الأملاح التـى توجد فى مـياه البحـار تكون لِحـفْظها وصـيانتهـا من العطب .

ونعلم أن مـعظم مـيـاه الأنهار تكون مـن الأمطار ، وهكذا تكون دورة المـاء فى الكون ؛ مـيـاه فى البـحـر تـسطع عليـهـا الشـمس لتُبخِّرها ؛ لتصير سـحاباً ؛ ومن بعد ذلك تسقط مطراً يُغذى الأنهار ؛ ويصب الزائد مرة أخرى فى البحار .

ويتابع سبحانه :



والشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والماء الذى نشربه له علاقة بالشمس والتى تُبخِّره من مياه البحار ؛ ونروى به أيضاً الأرض التى تنتج لنا الثمار ؛ أما البحار فحساب كُلِّ ما يجرى فيها يتم حسب التقويم القمرى .

وهل كان رسول الله ﷺ يعلم كل ذلك وهو النبى الأمى ؟

طبعاً لم يكن ليعلم ، بل أنزل الحق سبحانه عليه القرآن ؛ يضمُّ حقائق الكون كلها .

وقول الحق سبحانه عن الشمس والقمر « دائبين » من الدَّأب ، والدُّؤوب هو مرور الشيء فى عمل رتيب ، ونقول « فلان دَءُوب على المذاكرة » أى : أنه يبذل جَهْداً مُنظّماً رتيباً لتحصيل مواده الدراسية ، ولا يُبدد وقته .

وكذلك الشمس والقمر اللذان أقام الحق سبحانه لهما نظاماً دقيقاً .

---

(١) دأب على الأمر : اعتاده . ودائبين : أى مستمرين فى الحركة دائبين فيها بلا انقطاع تشبيهاً لهما بالإنسان المجدّ . وقال تعالى : ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا .. (٤٧)﴾ [يوسف] . أى : مداومين مجتهدين ذوى دأب . [القاموس القويم ١/٢١٩] .

وعلى سبيل المثال نحن نحسب اليوم بأوله من الليل ثم النهار ؛ ونقسم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الرحمن]

وقال أيضاً :

﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا .. ﴿٩٦﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : أنك أيها الإنسان ستجعل من ظهور واختفاء أىٍّ منهما حساباً .

وقد جعلهما الحق سبحانه على دقة فى الحركة تُيسِّر علينا أن نحسبَ بهما الزمن ، فلا اصطدامَ بينهما ، ولكلٍّ منهما فلَكٌ[1] خاص وحركة محسوبة بدقة فلا يصطدمان . ولا يُشْبِهان بطبيعة الحال الساعاتِ التى نستخدمها وتحتاج إلى ضبط .

وكلما ارتقينا فى صناعة نجد اختراعاتنا فيها تُقرِّبنا من عُمْق الإيمان بالخالق الأعلى .

وفى نفس الآية يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ[2] لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

---

(١) الفلك : المدار يسبح فيه الجرم السماوى . قال تعالى : ﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنبياء] أى : فى مدار تدور فيه . [القاموس القويم ٢/٨٩] .

(٢) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الأعراف] أى : مسيرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو ، لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦].

وبما أن الشمس آية نهارية ؛ والقمر آية ليلية ، والنهار يسبق الليل فى الوجود بالنسبة لنا . كان مُقْتضى الكلام أن يقول : سخر لكم النهار والليل .

ولكن الحق سبحانه أراد أن يُعلمنا أن القمر وهو الآية الليلية ؛ ويسطع فى الليل ؛ والليل مخلوق للسكون ؛ لكن هذا السكون ليس سبباً لوجود الإنسان على الأرض ؛ بل السبب هو أن يتحرك الإنسان ويستعمر الأرض ويكِدّ ويكدح فيها .

لذلك جعل استهلال الشمس أولاً والقمر يستمد ضَوْءَه منها ؛ ثم جاء بخبر الليل وخبر النهار ، فكأن الله قد اكتنفَ هذه الآية بنورين .

النور الأول : من الشمس . والنور الثانى : من القمر ، كى يعلَم الإنسانُ أن حياته مُغلفة تغليفاً يتيح له الحركة على الأرض ، فلا تظننّ أيها الإنسانُ أن الأصل هو النوم ! ذلك أنه سبحانه قد خلق النوم لترتاح ؛ ثم تصحو لتكدح .

ونلحظ أن كلمة « التسخير » تأتى للأشياء الجوهرية ، وتأتى للمُسخَّرات أيضاً ، فالحيوان مُسخَّر لنا ، وكذلك النبات والسماء مُسخَّرة بما فيها لنا ، أما الليل والنهار فهما نتيجتان لجواهر ؛ هما الشمس والقمر ؛ والليل والنهار مُسبَّبان عن شيئين مُباشرين هما : الشمس والقمر .

والتسخير ـ كما نعلم ـ هو منع الاختيار . وإذا ما سَخَّر الحق سبحانه شيئاً فلنعلم أنه مُنضبط ولا يتأتّى فيه اختلال ، ولكن الكائن غير المُسخّر هو الذى يتأتى فيه الاختلال ؛ ذلك أنه قد يسير على جَادَّة الصواب ، أو قد يُخطيء .

وفى مسألة التسخير والاختيار تَعب الفلاسفة فى دراستها ؛ وذهبت المذاهب الفلسفية - وخصوصاً فى ألمانيا - إلى مذهبين اثنين ظاهرهما التعارض ؛ ولكنهما يسيرانِ إلى غايةٍ واحدة وهى تبريرُ الإلحاد .

وكان من المقبول أن يكونَ مذهبٌ منهما يُبرر الإلحاد ، وأنْ يبررَ الآخرُ الإيمانَ ، ولكن شاء فلاسفة المذهبين أنْ يُبرروا الإلحاد .

وقال فلاسفة أحد المذهبين : أنتم تقولون إن الكون تُديره قوة قادرة حكيمة ؛ وأن كُلّ ما فيه منضبط بتّصرفات محسوبة ودقيقة .

ولكن الواقع يقول : إن هناك بعضاً من المخالفات التى نراها فى الكائنات ، والمثل هو تلك الشذوذات التى فى الإنسان - على سبيل المثال - فهناك القصير أكثر من اللازم ؛ وهناك الطويل أكثر من اللازم ؛ وهناك مَنْ يولد بعين واحدة ؛ وهناك مَنْ يولد بذراع عاجز ؛ ولو أن القوة التى تدير الكون حكيمة لَمَا ظهرتْ أمثال تلك الشذوذات .

ونرد على صاحب تلك النظرية قائلين : وإذا لم يكُنْ هناك إله ، أتستطيع أن تقول لنا الحكمة من وراء وجود تلك الشذوذات ؟ فأنت تدفع الحكمة عن الخالق الذى نؤمن به ؛ فهل تستطيع أنت إثباتَ الحكمة لغيره ؟ طبعاً لن يستطيع أنْ يردَّ عليك ؛ لأن كلامه مردود .

ثم نأتى للمدرسة المقابلة التى تقول : إن النظام الموجود بالكون يدل على أنه لا يوجد له خالق ؛ فهو نظام ثابت آلىّ ؛ ولا يوجد إله قادر على أن يقلب آلية هذا الكون .

وهكذا كانت هاتان المدرستان مختلفتين ؛ ومتعارضتين ؛ ولكنهما يؤديان إلى الإلحاد .

ونرد على المدرستين قائلين : يا من تأخذ ثبات النظام دليلاً على وجود إله ؛ فهذا الثبات موجود فى الكون الأعلى . ويا من تأخذ الشذوذ دليلاً على وجود خالق ؛ فهو موجود فى الكائنات الأدنى ؛ ولو حدث الشذوذ فى الكائنات الأعلى لَفسدتِ السماوات والأرض .

وقد شاء الحق سبحانه أن يوجد الشذوذ لوجه فى الأفراد ؛ فواحد يكون شاذاً ، والباقى الغالب يكون سليماً .

وهكذا يكون الشذوذ فى الأفراد غيرَ مانع لقضية وجود خالق أعلى ، وإذا أردت ثبات النظام فانظر إلى الكون الأعلى ؛ كى تعلم أنه لا يوجد للإنسان مَدْخل فى هذا الأمر .

وهكذا نجد أن الحق سبحانه قد سخّر لنا الليل والنهار ؛ وهما من الأعراض الناتجة عن تسخير الشمس والقمر ؛ وكلاً من الشمس والقمر دائبين ، يمشى كل منهما فى حركته مشياً لا تنقطع فيه رتابة العادة . ونضبط أوقاتنا على هذا النظام الرتيب الدقيق ، فنحدد - على سبيل المثال - أوائل الفصول ومواسم الزراعة ؛ ومواقيت الصلاة .

وإذا نظرتَ إلى أىِّ اختلال قد ينشأ من بعض الظواهر ؛ فاعلم أن ذلك قد نشأ من تدخُّل الإنسان المُخْتار المُستْخلَف فى الأرض ؛ والمثال هو مشكلة ثُقْب طبقة الأوزون الموجودة فى الغلاف الجوى ، والتى قد نشأت من تجاربنا التى نلهث فيها من أجل تحسين حياتنا على الأرض .

ولكننا ننظر إلى التجـربة بأفْق محدود ، ونفصل النظـرة الجزئية عن النظرة الكلـية المطـلوب منا أنْ ننظرَ بهـا لكُل مـا يحـيط بنا فى الكون ؛ فنتسبب بهذا اللهْث فى التجـارب فى إفساد الكثير من أسرار حـيـاتنا على الأرض ؛ حـتى بِتْنَا نـشكو من اضطراب الجـو بَرْداً وصقيعاً ؛ وحراً فوق الاحتمال .

وذلك بتدخّل الإنسان المختار فيما لا يجب أنْ يتدخلَ فيه إلا بعد أن يدرسَ كل جوانبه . واقرأ إن شئت قول الحق سبحانه :

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١)﴾ [الروم]

ولذلك لابُدَّ من دراسة المُقدّمات والنتائج جيداً قبل أن نُضخِّم من تجاربنا التى قد تضر البشر ؛ ولذلك أيضاً أقول : إن علينا أن ندرس الآثار الجانبـية لكل اختـراع علمى كى نحمىَ البـشر من سيـئات تلك الآثار الجانبية .

ولنتذكر قول الحق سبحانه :

﴿وَلاَ تَقْفُ[1] مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء]

ولعل ما نعيش فيه من مُشْكلات تتعلق بالجو والصحة هو نتيجة تدخُّلنا بغيـر علم مكتمل ؛ وهذا يؤكد لنا حكمـة الخالق الأعلى ؛ ذلك

---

(١) قفاه يقفوه : مشى خلفه أو تبعه . وقوله تعالى : ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. (٣٦)﴾ [الإسراء] . أى : لا تتبع من العقائد ما ليس لك به علم ولا من الآراء ولا من الأحداث ما لا تعرف له دليلاً ، ولا تسترسل فى الحديث عمّا ليس لك به علم . [القاموس القويم ١٢٨/٢] .

أننا لمّا خرجنا بالمُخْترعات العلميـة وانبهرنا بفائدتها السطحية ؛ ظننا أن فى ذلك مكسباً كـبيراً ؛ ولكنه كان وبالاً فى بعض الأحيان نـتيجة الآثار الجانبية .

ولذلك لم يَقُلِ الحق سـبحانه : « بمـا اكتسـبت أيدى الناس » بل قال :

﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ .. (٤١) ﴾ [الروم]

وفى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣) ﴾

[إبراهيم]

وهكذا نعلم أن تعاقب ظهور الشمس والقمر ؛ يُسبِّب تعاقبَ مجىء الليل والنهار .

ولا يعنى ظهور الشـمس وسطوعها أن القمـر غير موجـود ؛ فهو موجود ، ولكن ضوء الشـمس المُبهِر يمنعك من أنْ تراه ، ولكن هناك أوقات يمكنك أن ترى فيها الشمس والقمر معاً .

أما الليل والنهـار فهمـا يتتابعـان كل منهمـا خَلْف الآخر . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً .. (٦٢) ﴾ [الفرقان]

أى : أنهما لا يأتيان معاً أبداً ؛ فالليل فى بلد ما يقابله نهار فى بلد آخر .

وهكذا أثبتَ لنا الدأبَ فى الحركة ؛ فكُلٌّ منهما يأتى عَقِب الآخر ؛ وقد جعل الحق سبحانه ذلك من أول لحظة فى الخَلْق ؛ وكانا لحظة الوجود خِلفةً ، كل منهما يأتى من بعد الآخر ؛ فكأن الكون حين خلقه الله ؛ وجعل الشمس فى مواجهة الأرض ، صار الجزء المواجه للشمس نهاراً ؛ والجزء غير المواجه لها صار ليلاً .

ثم دارت الأرض ؛ ليأتى الجزء الذى كان غير مُواجِه للشمس ؛ فى مواجهتها ؛ فصار ليلاً ، وذهب الجزء الذى كان فى مواجهتها ، ليكون مكان الجزء الآخر فصار ليلاً ، وهكذا شاء سبحانه أن يكون كل منهما خَلْف الآخر .

وهكذا تكلم الحق سبحانه عن حَصْر بعضٍ من نعمه الكلية علينا نحن العباد ، سماء ، وأرض ، وماء ينزل ، وثمرات تنبت من الأرض ، وكذلك سخَّر لنا الشمس والقمر ، والليل والنهار ، وهذا ما يُسمَّى تعديد لبعض النعم .

ونجد واحداً من الصالحين يقول عن نعم الله « أعد منها ولا أعددها » . فكأن الله ينبهنا إلى أصول النظام الكونى الأعلى ، ثم فتح المجال لِنعَمٍ أخرى لن يستطيع أحد أنْ يُحصِيها .

لذلك يقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾

نعم ، أعطانا الحق سبحانه مما نسأل وقبل أن نسأل ، وأعدَّ الكون لنَا من قبل أنْ نوجد . إذن : فسبحانه قد أعطانا من قبل أنْ نسألَ ؛ وسبقت النعمة وجود آدم عليه السلام ، واستقبل الكونُ آدم ، وهو مُعَدٌّ لاستقباله .

وإذا نظرتَ للفرد منّا ستجد أن نِعَم الله عليه قد سبقتْ من قبل أن نعرف كيف نسأله ، والمثل هو الجنين فى بطن أمه .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنه قد أعطاك ما تسأله وما لم تسأله ، نطقت به أو لم تنطق ، ولو بحديث النفس أو خواطر خافية ، وأنك قد تقترح وتطلب شيئاً فهو يعطيه لك .

وقد يسأل البعض من باب الرغبة فى التحدى ـ ولله المثل الأعلى ـ نجد بعض البشر ممَّنْ أفاء الله عليهم بجزيل نعمه ؛ ويقول الواحد منهم : قُلْ لى ماذا تطلب ؟

وقد حدث معى ذلك ونحن فى ضيافة واحد ممَّنْ أكرمهم الله بكريم عطائه ، وكنا فى رحلة صحراوية بالمملكة العربية السعودية ،

وقال لى : أطلب أى شىء وستجده بإذن الله حاضراً . وفكرتُ فى أن أطلب ما لا يمكن أن يوجدَ معه ، وقلت : أريد خيطاً وإبرة ، فما كان ردّه إلا « وهل تريدها فتلة بيضاء أم حمراء ؟ » .

وإذا كان هذا يحدث من البشر ؛ فما بالُنَا بقدرة الله على العطاء ؟

ومن حكمة الله سبحانه أنه قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ذلك أن وراء كل عطاءٍ حكمةً ، ووراء كل مَنْعٍ حكمة أيضاً ، فالمنع من الله عين العطاء ، فالحقّ سبحانه مُنزَّه عن أن يكون مُوظّفاً عندك ، كما أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ .. (١١) ﴾ [الإسراء]

ولذلك قال :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

أى : بعض ممّا سألتموه ، ذلك أن هناك أسئلةً حمقاء لا يُجيبكم الله عليها ؛ مثل قول أى امرأة يعاندها ابنها « يسقينى نارك » هذه السيدة ؛ لو أذاقها الله نارَ افتقاد ابنها ؛ ماذا سوف تفعل ؟

إذن : فمِنْ عظمته سبحانه أنْ أعطانا ما هو مُطابِق للحكمة ؛ ومنَع عنّا غَيْرَ المطابق لحكمته سبحانه ، فالعطاء نعمة ، والمَنْع نعمة أيضاً ، ولو نظر كُلٌّ منا لعطاء السَّلْب ؛ لَوجد فيه نعماً كثيرة .

ويقول سبحانه :

﴿ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) ﴾ [الأنبياء]

لذلك فلا يقولن أحدٌ : « قد دعوتُ ربى ولم يَستجب لى » وعلى الإنسان أن يتذكَّر قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ⑪ ﴾

[الإسراء]

فهو سبحانه مَنْ يملك حكمة العطاء وحكمة المنع . ولا أحدَ منّا يستطيع أنْ يعُدّ نعَم الله . والعَدُّ ـ كما نعلم ـ هو حَصْرٌ لمفردات جَمْع أو جزئيات كُلٍّ . ويعلم أهل العلم بالمنطق ـ ونسميهم المَنَاطقة ـ أن هناك « كُلِّىّ » يقابله « جُزئىّ » ، وهناك «كُل » يقابله « جزء » .

والمَثل على « الكُلِّىّ » الإنسان ؛ حيث إننا جميعاً مُكوّنين من عناصر متشابهة ؛ ومفرد البشر يختلف باختلاف الأسماء ؛ أما ما يُسمَّى « كل » فالمثَل عليه هو الكُرسى ، وهو مُكوّن من مواد مختلفة كالخشب والمسامير والغِرَاء ، ولا يمكن أن نطلق على الخشب فقط كلمة كرسى ؛ وكذلك لا نستطيع أن نُسمِّى « المسامير » بأنها كراسى .

وعلى هذا نكون قد عرفنا أن حقيقة الكُلِّىّ أن مفرداته متطابقة ، وإن اختلفت أسماؤها ، لكن حقيقة الكُلِّ أن مفرداته غير متشابهة ، وتختلف فى حقيقتها .

وإذا أردتَ أنْ تُحصى الكُلِّىّ فأنت تنطق أسماء الأفراد كأن تقول : محمد وأحمد وعلى ؛ وهذا ما يُسمَّى عداً ، وهكذا نفهم أن العَدَّ هو إحصاءُ جزئيات الكلى ، أو إحصاء أجزاء الكُلِّ .

ونعلم أنهم قد سَمَّوْا العَدَّ إحصاءً ؛ لأنهم كانوا يعدُّون الأشياء قديماً بالحصَى ؛ وأُطلقت كلمة الإحصاء على مُطْلق العَدِّ حساباً للأصل ، وعرف عدد أجزاء الكلى أو الكل .

وكان الإنسان فى العصور القديمة يَعُد - على سبيل المثال - إلى رقم « مائة » ، ثم يحسب كل مائة بحصاة واحدة ؛ فإذا تجمّع لديه عَشْر حصوات عرف أن العدد قد صار ألفاً ، ومن هنا جاءت كلمة الإحصاء ، وفى كثير من أمور عصرنا المتقدم ؛ ما زلْنا نُسمّى بعض الأشياء بمُسمّيات قديمة ؛ فنحسب قوة السيارة بقوة الحصان .

وأنت إذا نظرتَ إلى قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد الكثير من المعانى ، ولكن مَنْ يحاولون التصيُّد للقرآن يقولون : إن هذا أمر غَيْر دقيق ؛ فما دام قد حدث العَدّ ؛ فكيف لا يتم الإحصاء ؟ وهؤلاء ينسوْنَ أن المقصود هنا ليس العدّ فى ذاته ؛ ولكن المقصود هو إرادة العدِّ .

ولو وُجدت الإرادة فليس هناك قدرة على استيعاب نعم الله ، ومن هنا لا نرى تعارضاً فى آيات الله ، وإنما هو نسق متكامل ، فأنت لا تُقبل على عَدِّ أمر إلا إذا كان غالبُ الظن أنك قادرٌ على العَدِّ ، وذلك إذا كان فى إمكان البشر ، ولكن نعم الله فوق طاقة مقدور البشر .

والمثَل أيضاً على مسألة إرادة الفعل يمكن أن نجده فى قوله الحق :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة]

ونحن لا نغسل وجوهنا لحظة أن نقومَ بالصلاة ؛ ولكننا نغسلها ونستكمل خطوات الوضوء حين يُؤذّن المؤذن ونمتلك إرادة الصلاة ، فكأن القول هنا يعنى : إذا أردتمُ القيام إلى الصلاة فافعلوا كذا وكذا .

ونعلم أن ذِكْر الشيء بسببه كأنه هو ؛ ولذلك يُقال : إذا كان الآذان قد أذّن فى المسجد ؛ وأنت خارج من منزلك بقصد الصلاة ؛ فلا تجرى لتلحق بالإمام وتُدرك الصلاة[1] ؛ لأنك فى صلاة من لحظة أنْ توضأتَ وخرجتَ من بيتك للصلاة ؛ وإياك أنْ تفعلَ حركة تتناقض مع الصلاة ، وادخل المسجد بسكينة ووقار لتؤدى الصلاة مع الإمام[2] .

وحين نتأمل قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

ستجد أن العادة فى اللغة هى استعمال « إن » فى حالة الأمر المشكوك فيه ، أما الأمر المُتيقّن فنحن نستخدم « إذا » مثل قوله الحق :

(١) ويرشد إلى هذا حديث أبى بكرة رضى الله عنه أنه جاء ورسول الله ﷺ راكع ، فركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ، فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال : « أيكم الذى ركع دون الصف ثم مشى إلى الصف ؟ فقال أبو بكرة : أنا . فقال النبى ﷺ : زادك الله حرصاً ولا تعد » أخرجه أبو داود فى سننه (٦٧٩ ، ٦٨٠) ، والبخارى فى صحيحه (٢/١١٩ ، ٢٦٧ ـ فتح البارى) وأحمد فى مسنده (٥/٣٩ ، ٤٢) .

(٢) وهذا المعنى مأخوذ من الحديث الذى أخرجه مسلم فى صحيحه (٦٠٣ ـ المساجد) عن أبى قتادة قال : بينما نحن نصلى مع رسول الله ﷺ ، فسمع جلبة فقال : ما شأنكم ؟ قالوا : استعجلنا إلى الصلاة . قال : « فلا تفعلوا ، إذا أتيتم الصلاة ، فعليكم السكينة ، فما أدركتم فصلوا وما سبقكم فأتموا » .

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ①﴾ [النصر]

وقد جاء الحق سبحانه هنا بأسلوب الشك حين قال :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ㉞﴾ [إبراهيم]

ذلك أن العاقل يعلم مُقدّماً أنه سيعجز عن إحصاء نعَم الله . وكلنا يعلم أن هناك علماً اسمه « الإحصاء » وله أقسام جامعية متخصصة .

وعلى الرغم من التقدم وصناعة الحاسب الآلى « الكمبيوتر » لم يستطع أحدٌ ولم يُقبل أحدٌ على إحصاء نعَم الله فى الكون ، ذلك أن العدَّ والإحصاء يقتضى كُليًا له أفراد ، أو كُلاً له أجزاء .

وأنت إنْ نظرتَ إلى أىّ نعمة من نعم الله ؛ قد تظنها نعمة واحدة ؛ ولكنك إنْ فصَّلْتَ فيها ستجدها نعَماً مُتعدِّدة وشتّى ، وهكذا لا يوجد تناقض فى قوله الحق :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ㉞﴾ [إبراهيم]

وأنت إنْ أخذتَ نعمة المياه ستجدها نعَماً متعددة ؛ فهى مُكوّنة من عناصر ، كل عنصر فيها نعمة ؛ وإن أخذتَ نعمة الأرض ستجد فيها نعَماً كثيرة مطمورة ، وهكذا تكون كل نعمة من الله مطمور فيها نعَم متعددة ، ولا تُحْصَى .

وحين تنظر فى قول الحق سبحانه :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا .. ㉞﴾ [إبراهيم]

تجد ثلاثة عناصر ؛ هى المُنعِم ؛ والنعمة التى حكَم الحق سبحانه أنك لن تحصيها ، وأن خَلْقه لم يضعوا أنوفهم فى أنْ يعدّوا تلك النعمة ؛ فهى لا تحصى لأنها ليست مظنّة الإحصاء ؛ ولا يقبل عاقلٌ أن يحصيها .

والعنصر الثالث هو المُنْعَم عليه ، وهو الإنسان الذى قد يعجز عن إحصاء نعم رئيسه من البشر عليه ـ فما بالك بنعم الله التى لا تحصى ، وكمالاته التى لا تُحدّ ، وعطائه الذى لا ينفد ؟ ولله المثل الأعلى ، فهو المنزّه عن المثل .

ثم يأتى قول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وهنا فى سورة إبراهيم نجد قوله الحق مبيناً ظلم الإنسان لنفسه وكفره بالنعمة ، وفى كفره للنعمة كفر بالمنعم يقول سبحانه وتعالى:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا[1] وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) ﴾ [إبراهيم]

وهؤلاء هم مَن ارتكبوا مظالم بالنسبة لعقيدة الوحدانية والإيمان بالله ، والإنسان هو المُنْعَم عليه ؛ وما كان يصحّ أن يرى كل تلك النعم ثم يكفر بها ، وكان من العدل أن يعطى الحق لصاحبه ، ولكن بعضاً من البشر بدّلوا نعمة الله كفراً ؛ وهكذا صاروا ممَّنْ يُطلَق على كل منهم أنه ظلوم فى الحكم ؛ وأنه كفّار ؛ لجحوده بالنعمة ونكرانه عطاء الخالق للمخلوق .

---

(١) صلى اللحم وغيره يصليه صَلْياً : شواه ، والصلاء : الشواء والإحراق . وصلى بالنار : قاسى حرّها واحترق . [لسان العرب ـ مادة : صلا] .

والظلم كما نعرف هو أن تنقل الحق من صاحبه إلى غير صاحبه ؛ وإنْ لم تؤمن بالله تكون قد أخذتَ حق الإله فى الوجود ، وإنْ كنتَ تؤمن بشركاء ؛ فأنت تنقل بذلك حقاً من الله إلى غيره ، وهذا ظلم القمة .

وانظر إلى قول الحق سبحانه فى سورة النحل :

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ[1] لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣) وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ[2] فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[3] بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

فهل هناك إرادة أو قدرة تستطيع أن تحصى عطاءات الله التى فوق العَدِّ والحدِّ ؟ ففى الآيات السابقة وغيرها إعجاز وعجز ، وما دام هناك عجز فالكمال عنده لا يتناهى .

---

(١) ذرأ الله الخلق : خلقهم وبثهم وكثّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

(٢) مخرت السفينة تمخر : جرت تشق الماء مع صوت ، تدفع الماء بصدرها . [لسان العرب ـ مادة : مخر] .

(٣) مادت الأرض : اضطربت وزلزلت . ماد : تحرك واهتز . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ .. (١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

إن بعضاً ممَّنْ يستدركون على القرآن يقولون : كيف يقول القرآن مرة :

﴿إِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

ثم يقول فى آية أخرى :

﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾﴾ [النحل]

ونردُّ على هؤلاء : أنتم لم تنظروا إلى السياق الذى جاء فى كل آية ، وعَمِيَتْ بصيرتكم عن معرفة أن سياقَ الآية - التى نحن بصدد خواطرنا عنها - قد جاء فيها ذِكْر النِّعم وذكر الجحود والكفران بالنعم ؛ وهذا ناشىء عن ظُلْم الإنسان لنفسه بالظُّلْم العظيم .

وفى آية سورة النحل جاء بِذكْر النعم ، ورغم ظُلْمنا إلا أن رحمته سبحانه وَسِعَتْنا ، ولم يمنع عنَّا ما أسبغه[1] علينا من نِعَم ، وكأنه سبحانه يُوضِّح لنا : إياكم أنْ تستحُوا أنْ تسألونى شيئاً ؛ وإنْ كنتم قد ظلمتُم وكفرتُم فى أشياء ، فظُلْمكم يقابله غفران منِّى ، وكافريتكم يقابلها منى رحمة ، وهكذا لا يوجد تعارضٌ بين الآيتين ؛ بل كُل تذييل لكل آية مناسبٌ لها ، ففى الآية الأولى يعاملنا الله بعدله ، وفى الآية الثانية يعاملنا الله بفضله .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم]

---

(١) أسبغ الله النعمة : أكملها وأتمها ووسَّعها . وسبغت النعمة : اتسعت . والشيء السابغ : الكامل الوافى . [لسان العرب - مادة : سبغ] .

ونعلم أن هناك أناساً قد آمنوا بالله وبنعمه ، ويشكرون الله عليها ، فكيف يَصِف الحق سبحانه الإنسان بأنه ظَلوم كفَّار ؟

ونقول : إن كلمة « إنسان » إذا أُطلقتْ من غير استثناء فهى تنصرف إلى الخُسْران والحياة بلا منهج ؛ ودون التفات للتفكير فى الكون .

والحق سبحانه حين أراد أن يُوضِّح لنا ذلك قال :

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) ﴾ [العصر]

ولذلك جاء سبحانه بالاستثناء بعدها ، فقال :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣) ﴾ [العصر]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ(١) ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾

وحين يقول سبحانه (إذ) أى « اذكر » ويقول من بعد ذلك على لسان إبراهيم (رَبّ) ولم يَقُلْ « يا الله » ذلك أن إبراهيم كان يرفع دعاءه للخالق المربِّى ، لذلك قال « ربِّى » ولم يَقُل « يا الله » لأن عطاءَ الله تكليفٌ ، وأمام التكليف هناك تخيير فى أن تفعل ولا تفعل ، مثل قوله سبحانه :

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ .. (٤٣) ﴾ [البقرة]

---

(١) المقصود بالبلد هنا : مكة . [تفسير القرطبى ٣٧٠٦/٥] .

أما عطاء الربوبية فهو ما يقيم حياة المُصلِّين وغير المُصلِّين .

ولم تَأْتِ مسألة إبراهيم هنا قَفْزاً ؛ ولكنّا نعلم أن القرآن قد نزل ، وأول مَنْ سيسمعه هُم السادة من قريش ؛ الذين تمتَّعوا بالمهابة والسيادة على الجزيرة العربية ؛ ولا يجرؤ أحد على التعرُّض لقوافلها في رِحْلَتَيْ الشتاء والصيف ؛ لليمن والشام ؛ وهم قد أخذوا المهابة من البيت الحرام .

ولذلك تكلَّم الحق سبحانه عن النعمة العامة لكل كائن موجود تنتظر أُذنه نداء الإسلام ؛ وبعد ذلك يتكلم الحق سبحانه عن النعم التى تخصُّهم ؛ لذلك قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقد وردتْ هذه الجملة في سورة البقرة بأسلوب آخر ، وهو قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [البقرة]

والفرق بين « البلد » و « بلداً » يحتاج منّا أن نشرحه ، فـ « بلداً » تعنى أن المكان كان قَفْراً[1] ؛ ودعا إبراهيم أن يصبحَ هذا المكانُ بلداً آمناً أى : أن يجد مَن يقيمون فيه ، يُجدّدون حاجاتهم ومُتطلباتهم ؛ وتكون وسائل الرزق فيه مُيسَّرة ، ودعاؤه أيضاً شمل طلب الأمن ، أى : ألاّ يوجد به ما يُهدّد طمأنينة الناس على يومهم العادىّ ووسائل رزقهم .

---

(١) القفر والقفرة : الخلاء من الأرض . وقد أقفرت الأرض : خلت من الكلأ والناس . [لسان العرب ـ مادة : قفر] .

وأجاب الحق سبحانه دعاء إبراهيم فصار المكان بلداً ؛ وجعله سبحانه آمناً أماناً عاماً ؛ لأن الإنسان فى أىّ بُقْعة من بقاع الأرض لا يتخذ مكاناً يجلس فيه ويقيم ويتوطّن إلا إذا ضمن لنفسه أسباب الأمن من مُقوّمات حياة ومن عدم تفزيعه تفزيعاً قوياً ، وهذا الأمن مطلوب لكل إنسان فى أىّ أرض .

وقد دعا إبراهيم عليه السلام هذا الدعاء وقت أنْ نزلَ هذا المكان ، وكان وادياً غير ذى زرع ؛ ولا مُقوّمات للحياة فيه ؛ فكان دعاؤه هذا الذى جاء ذِكْره فى سورة البقرة .

أما هنا فقد صار المكان بلداً ؛ وكان الدعاء بالأمن لثانى مرة ؛ هى دعوة لأمن خاص ؛ ففى غير هذا المكان يمكن أن تُقطع شجرة ؛ أو يصْطاد صَيْد ؛ ولكن فى هذا المكان هناك أَمْنٌ خاصٌ جداً ؛ أمنٌ للنبات ولكُلّ شىء يوجد فيه ؛ فحتى الحيوان لا يُصَاد فيه ؛ وحتى فاعل الجريمة لا يُمَسّ(١) .

وهكذا اختلف الدعاء الأول بالأمن عن الدعاء الثانى ؛ فالدعاء الأول : هو دعاء بالأمن العام ؛ والدعاء الثانى : هو دعاء بالأمن الخاص ؛ ذلك أن كل بلد يوجد قد يتحقّق فيه الأمن العام ؛ ولكن بلد البيت الحرام يتمتع بأمنٍ يشمل كل الكائنات .

---

(١) عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة : « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار ، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يُعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يُختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال : « إلا الإذخر » . أخرجه مسلم فى صحيحه (١٣٥٣) .

ويقول بعض من السطحيين : ما دام الحق قد جعل البيت حَرَماً آمناً ؛ فلماذا حدث ما حدث من سنوات من اعتداء على الناس فى الحرم ؟

ونقول : وهل كان أَمْن الحرم أمراً « كونياً » ، أم تكليفاً شرعياً ؟ إنه تكليف شرعىّ عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرضة أنْ يُعصى .

وقوله سبحانه :

﴿ ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمنًا .. (٩٧) ﴾ [آل عمران]

يعنى أن عليكم أيُّها المُتبِّعون لدين الله أنْ تُؤمِّنوا مَنْ يدخل الحرم أنهم فى أمن وأمان ، وهناك فارق بين الأمر التكليفىّ والأمر الكونىّ .

ويقول سبحانه على لسان إبراهيم :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

وهو قَوْل يحمل التنبؤ بما حدث فى البيت الحرام على يد عمرو ابن لُحَيٍّ الذى أدخل عبادة الأصنام إلى الكعبة ، وهو قَوْل يحمل تنبؤاً من إبراهيم عليه السلام .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف يدعو إبراهيم بذلك ، وهو النبى المعصوم ؟ كيف يطلب من الحق أن يُجنِّبه عبادة الأصنام ؟

وأقول : وهل العصمة تمنع الإنسان أنْ يدعوَ ربه بدوام ما هو عليه ؟ إننا نتلقى على سبيل المثال الأمر التكليفى منه سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ..(١٣٦) ﴾ [النساء]

وهو أمْر بالمداومة .

والحق سبحانه قد قال على لسان رسوله شعيب ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَن نَّعُودَ فِيهَا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا .. ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأعراف]

وفى هذا القَوْل ضراعة إلى المُنعم علينا بنعمة الإيمان ؛ وفى هذا القول الكريم أيضاً إيضاحٌ لطلاقة قدرة الحق سبحانه .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد قال هنا :

﴿ وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

والصنم غير الوثن[1] ، فالمُشكَّل بشكل إنسان هو الصنم ؛ أما قطعة الحَجَر فقط والتى خَصَّها بعضٌ من أهل الجاهلية بالعبادة فهو الوثن .

وهناك مَنْ أراد أنْ يخرج بنَا من هذا المأزق ؛ فقال : إن الكفر نوعان . شرك جَلى ؛ وشرك خفىّ . والشرك الجلىّ أن يعبدَ الإنسانُ أىّ كائن غير الله ؛ والشرك الخفىّ أن يُقدّس الإنسانُ الوسائطَ بينه وبين الله ، ويعطيها فوق ما تستحق ، وينسب لها بعضاً من قدرات الله .

---

(١) قال ابن الأثير : الفرق بين الوثن والصنم أن الوثن كل ما له جثة معمولة من جواهر الأرض أو من الخشب والحجارة كصورة الآدمى تُعمل وتُنصب فتعبد ، والصنم الصورة بلا جثة . ومنهم من لم يفرق بينهما وأطلقهما على المعنيين [لسان العرب ـ مادة : وثن] .

ودعاء إبراهيم عليه السلام أن يُجنِّبه وبنيه أنْ يعبدوا الأصنامَ يقتضى منّا أن نفهم معنى كلمة أبناء ؛ ذلك أن إبراهيم قصد بالدعاء بنيه الذين يَصِلُون إلى مرتبة الرسالة والنبوة مثله ؛ ذلك أننا نعلم أن بعضاً من بنيه قد عبدوا الأصنام والأوثان .

ومعنى كلمة « أبناء » أوضحه سبحانه فى مواطن أخرى . ونبدأ من قوله :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ[1] فَأَتَمَّهُنَّ .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : بعد أن أخبر الله إبراهيم ، وكلّفه بالمهام التى كلفه الله سبحانه وتعالى بها على وجه التمام ؛ أمّنه الحق على أن يكون إماماً ؛ فقال سبحانه :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : أن حيثية الإمامة هى أداء إبراهيم عليه السلام لكل مهمة بتمامها وبدقّة وأمانة ، وإذا كان هذا هو دستورَ الله فى الخَلْق ؛ فلابُدّ لنا من أن نتخلَّقَ بأخلاق الله . وعلينا ألاّ نختار أىَّ إنسان لأية مهمة ليكون إمامها ، إلا إنْ كان كُفْءً لها ويُحسِن القيام بها .

ولنتذكر قوله ﷺ :

« إذا ضُيِّعَتِ الأمانةُ فانتظِر الساعة » . قال السائل له عن موعد

---

(١) الكلمات : جمع كلمة ، وهى هنا أحكام الدين وتكاليفه . [القاموس القويم ١٧٣/٢] وقال ابن كثير فى تفسيره (١٦٥/١) : « الكلمات : الشرائع والأوامر والنواهى » .

قيام الساعة : وكيف إضاعتها ؟ قال : « إذا وُسِّد[1] الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة »[2] .

ذلك أن إسناد أيّ أمر لغير أهله إنما هو إفساد فى الوجود ، لأن الأصل فى إسناد أيّ أمر لأى إنسان أن يكون بهدف أن يقومَ بالأمر كما يجب ، فإذا كان الاختيار سيئاً ؛ فسيكون هذا الإنسان أُسْوة فى السوء ؛ وتنتقل منه عدوى عدم الإتقان إلى غيره ؛ ويتفشَّى السوء فى المجتمع ، أما إذا تولى الأمر مَنْ هو أَهْلٌ له فالموقف يختلف تماماً ، فوضع الإنسان فى مكانه اللائق ، تعتدل به موازين العدل ، وفى اعتدال الميزان استقرار للزمان والمكان والإنسان .

والمَثَلُ على ذلك : أن الأولاد الذين تربَّوْا فى السعودية ؛ ورأَوْا أن يد السارق تُقطع ؛ لم نجد منهم مَنْ يسرق ؛ لأنهم تربَّوْا على أن السارق تُقطع يده ، وفهموا أن الحق سبحانه لحظة أنْ يضعَ عقوبةً قاسيةً ؛ فليس هذا إذْنٌ بأن تقعَ الجريمة ؛ بل ألاَّ تقعَ الجريمة .

وحين يتساءل مَنْ يدَّعُون التحضُّر : كيف يقول القرآن :

﴿ لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ .. (٢٥٦) ﴾ [البقرة]

وحين تجدون مَنْ يخرج عن الدين تقبضون عليه ، وينادى البعض بإعدامه ؟

---

(١) وُسِّد : أُسند ، وأصله من الوسادة . قال ابن منظور فى اللسان (مادة : وسد) : « يعنى إذا سُوِّد وشُرِّف غير المستحق للسيادة والشرف » .

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٩ ، ٦٤٩٦) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ولهؤلاء أقول : وهل هذا الأمر يُحسب على الإسلام أم لصالح الإسلام ؟

إنه لصالح الإسلام ، ذلك أن مثْل هذا الحرص على كرامة الدين يُهيِّب الناس أنْ يدخلوا الدين إلا بعد الإقناع المؤدى لليقين ، واليقين هو الوصول إلى الدين الحقّ مصحوباً بدليل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

بهذا نعلم أن دخول الإسلام سيُكلِّفه حياته لو أراد أنْ يخرجَ منه ، لأنه خرج من اليقين الذى دخله بالدليل .

وحين دعا إبراهيم - عليه السلام - ربه :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ (٣٥) ﴾ [إبراهيم]

كان قد نجح فى اختبار الله له ، ونجح فى أداء ما أُسند إليه تماماً ؛ وشاء له الحق سبحانه أن يكون إماماً ، واستشرف إبراهيم عليه السلام أن تكون الإمامة فى ذريته ؛ فقال :

﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِي .. (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فجاءه الجواب من الحق سبحانه :

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن بُنوة الأنبياء ليست بنوة لَحْم

ودمٍ ؛ بل بُنُوة اتباع واقـتداء ، وكلنا نعلم أن الحق سـبحانه قـد قال لنوح عن ابنه[1] :

﴿ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

ونعلم أن رسول الله ﷺ قـد قال عن سلمان الذى كان فـارسياً : « سلمان منا آل البيت »[2] .

وفى هذا تأكيد على أن بنُوّة الأنبياء هى بنُوّة اتباعٍ واقتداء .

ويستكمل الحق سـبحانه دعاء إبراهيم عليه الـسلام ؛ فنجد وَعْى خليل الرحمن بما تفعله عبادة الأصنام :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٤٦) : « هذا هو الابن الرابع ، واسمه يام وكان كافراً » قال تعالى : ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [هود] ثم سأل نوح ربه سـؤال استعلام وكشف عن حـال ولده الذى غرق فقال : ﴿رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود].

(٢) عن عمرو بن عوف المزنى قال : خط رسـول الله ﷺ الخندق عام الأحزاب من أجم السَّمُر طرف بنى حـارثة حـين بلغ المـداد ، ثم قطع أربعـين ذراعـاً بين كل عـشـرة ، فـاخـتلف المهـاجرون والأنصار فـى سلمان الفارسى ، وكـان رجلاً قوياً ، فـقالت الأنصـار : سلمان منا . وقالت المـهاجـرون : سلمان منا . فقـال رسول الله ﷺ : « سلمان مـنا أهل البيت » أخرجه البيـهقى فى دلائل النبوة (٣/٤١٨) والحاكم فى مسـتدركه (٣/٥٩٨) وضعَّف الذهبى إسناده من أجل كثير بن عبد الله .

ونعلم أن الأصنام بذاتها لا تُضل أحداً[1] ؛ ذلك أنها لا تتكلم ولا تتحدث إلى أحد ؛ ولكن القائمين عليها بدعْوى أن لتلك الأصنام ألوهية ؛ ولا تكليفَ يصدر منها ، هم الذين يضلون الناس ويتركونهم كما يقول المثل العامى « على حَلِّ شعورهم » .

ويرحب بهذا الضلال كل مَنْ يكره أن يتبع تعاليم الخالق الواحد الأحد .

ويتابع سبحانه ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام من بعد الدعاء :

﴿ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

وهذه تعقيباتٌ فى مسألة الغُفران والرحمة بعد العصيان ؛ فمرّة يعقُبها الحق سبحانه :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [المائدة]

ومرّة يعقبها :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر]

ذلك أن الجرائم تختلف درجاتها ، فهناك جريمة الخيانة العُظْمى أو جريمة القمّة ؛ مثل مَنْ يدّعى أنه إلهٌ ؛ أو مَنْ يقول عنه أتباعه أنه إله دون أنْ يقولَ لهم هو ذلك .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٠٦/٥) : « لما كانت ـ الأصنام ـ سبباً للإضلال أضاف الفعل إليهن مجازاً ، فإن الأصنام جمادات لا تفعل » .

وقد قال عيسى ـ عليه السلام ـ بسؤال الحق له :

﴿ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ .. (١١٦) ﴾ [المائدة]

فيأتى قَوْل عيسى عليه السلام :

﴿ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) ﴾ [المائدة]

ويتابع عيسى عليه السلام القَوْل :

﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

وهكذا تأتى العزّة والمغفرة بعد ذكْر العذاب ؛ فهناك مواقف تُناسبها العزّة والحكمة ؛ ومواقف تناسبها المغفرة والرحمة ، ولا أحدَ بقادرٍ على أنْ يردّ لله أمْرَ مغفرةٍ أو رحمةٍ ؛ لأنه عزيزٌ وحكيمٌ .

وقوله الحق :

﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِّنَ النَّاسِ .. (٣٦) ﴾ [إبراهيم]

يعكس صفات مناسبة للمُقدِّمات الصدرية فى الآية ، وتؤكد لنا أن القرآن من حكيم خبير ، وأن الله هو الذى أوحى إلى عبده القرآن :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ (٦) ﴾ [الأعلى]

فما الذى يجعله يقول فى آية :

﴿ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) ﴾ [الزمر]

وفى آية أخرى :

﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨) ﴾ [المائدة]

مع أن السياق المعنوىّ قد يُوحى من الظاهر بعكس ذلك ؟

وما الذى يجعله سبحانه يقول فى آية بعد أن يُذكّرنا أن نِعَم الله لا تُعَدّ ولا تُحْصَى :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [إبراهيم]

ويقول فى آية أخرى بعد أنْ يُذكّرنا بنِعَمِ الله بنفس اللفظ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾ [النحل]

وكذلك قوله :

﴿ كَلاَّ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ ﴾ [عبس]

ثم قوله فى آية أخرى :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً ﴿٢٩﴾ ﴾ [الإنسان]

كل ذلك يعطينا حكمة التنزيل ، فإن كل آية لها حكمة ، وتنزيلها يحمل أسرار المراد .

وكُلٌّ ذلك يأتى تصديقاً لقوله الحق :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

لأن الحق سبحانه وتعالى شاء أنْ يُنزل القرآن على رسوله ، ويضمن أنه سيحفظه ؛ ولن ينسى موقع أو مكان آيةٍ من الآيات أبداً ، ذلك أن الذى قال :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنسَىٰ ﴿٦﴾ ﴾ [الأعلى]

هو الحق الخالق القادر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما قاله إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ (١) رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾

ونفهم من التعبير فى هذه الآية أن المكانَ لا يصلح للزرع ؛ ذلك أنه أرض صَخْرية ؛ وليست أرضاً يمكن استصلاحها ؛ وقَوْل إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : لا أملَ فى زراعتها بمجهود إنسانى ، وليس أمام تواجد الرزق فى هذا المكان إلا العطاء الربانى . ولم يكُنْ اختيار المكان نتيجة بَحْثٍ من إبراهيم عليه السلام ؛ ولكن بتكليف إلهىّ ، فسبحانه هو الذى أمر بإقامة القواعد من البيت المحرم ، وهو مكان من اختيار الله ، وليس من اختيار إبراهيم عليه السلام.

وحين يقول إبراهيم عليه السلام :

﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٩) : « قوله تعالى : ﴿ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم] يدل على أن البيت كان قديماً على ما روى قبل الطوفان ، وأضاف البيت إليه لأنه لا يملكه غيره ، ووصفه بأنه محرم أى : يحرم فيه ما يستباح فى غيره من جماع واستحلال ، وقيل : محرم على الجبابرة ، وأن تُنتهك حرمته ، ويستخفّ بحقه » .

فهذا يعنى حيثية الرِّضا بالتكليف ، ومادام هذا أمراً تكليفياً يجب أنْ يُنفّذ بعشق ؛ فهو يأخذ ثوابين اثنين ؛ ثواب حُبِّ التكليف ؛ وثواب القيام بالتكليف .

ولنا المثل فى حكاية الرجل الذى قابله الأصمعى[1] عند البيت الحرام ، وكان يقول : « اللهم ، إنِّى قد عصيتُك ، ولكنى أحب مَنْ يطيعك ، فاجعلها قُرْبة لى » . فقال الأصمعى ما يعنى أن الله لا بُدَّ أن يغفر لهذا الرجل لِحُسْن مسألته ، ذلك أنه رجل قد فرح بحب التكليف ولو لم يَقُمْ به هو ؛ بل يقوم به غيره وهذا يُسعده .

فالتكليف عندما يقوم به أىُّ إنسان ؛ فذلك أمر فى صالح كل البشر ، وكلنا نقول حين نُصلى ونقرأ الفاتحة :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ ﴾ [الفاتحة]

أى : أن كُلاً منّا يحشر نفسه فى زمرة العابدين ؛ لعل الله يتقبّل من واحد فندخل كلنا فى الصفقة ؛ ولذلك أقول لِمَنْ يرتكب معصية : عليك ألاّ تغضب ، لأن هناك مَنْ يطيع الله ؛ بل افرح به ؛ لأن فرحك بالمطيع لله ؛ دليلٌ على أنك تحبُّ التكليف ، رغم أنك لا تقدر على نفسك ، وفى هذا الحُبِّ كرامة لك .

وقد قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ عن الوادى الذى أمره الحق سبحانه أن يقيم فيه القواعد للبيت الحرام أنه وادٍ غير ذى زَرْع ، وقد

---

(١) هو : عبدالملك بن قريب الباهلى ، أبو سعيد ، ولد بالبصرة (١٢٢ هـ) ، راوية العرب ، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان ، كان كثير التطواف فى البوادى . توفى بالبصرة (٢١٦ هـ) عن ٩٤ عاماً . [الأعلام للزركلى ١٦٢/٤] .

جاء هو إلى هذا المكان لِيُنفِّذ تكليف الحق سبحانه له ؛ لدرجة أن زوجته هاجر عندما علمت أن الاستقرار فى هذا المكان هو بتكليف من الله قالت : « إذنْ لن يضيعنا »[1] .

ويُقدِّم إبراهيم عليه السلام حيثيات الإقامة فى هذا المكان ، وأسباب إقامته للقواعد كما أراد الله ، فيقول :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن مجيء الناس إلى هذا المكان لن يكون شهوةَ سياحة ؛ ولكن إقامة عبادة ؛ فما دام المكان قد أُقيم فيه بيت لله باختيار الله ؛ فلابُدَّ أن يُعبدَ فيه سبحانه .

وهكذا تتضح تماماً حيثيات أَخْذ الأمر بالوجود فى مكان ليس فيه من أسباب الحياة ولا مُقوِّماتها شيء ؛ ولكن الحق سبحانه قد أمر بذلك ؛ فلابُدَّ للمقيم للصلاة من إقامة حياة ؛ والمُقوِّم الأول للحياة هو المأْكل والمَشْرب .

ولذلك دعا إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

والأفئدة جمع « فؤاد » ، وتُطلَق على الطائفة ؛ وعلاقة الفؤاد

---

(١) وذلك أن إبراهيم عليه السلام أتى بهاجر وابنه الرضيع إسماعيل إلى مكة . التى لم يكن فيها أحد وليس بها ماء ، فوضعهما هنالك ، ووضع عندهما جراباً فيه تمر ، وسقاء فيه ماء ، ثم تركهما وذهب ، فقالت هاجر : يا إبراهيم ، أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شيء ، قالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . فقالت له : آلله أمرك بهذا ؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يُضيِّعنا . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٠٧) .

بالحجيج علاقةٌ قوية ؛ لأن الهوى فى الحجيج هوى قلوب ؛ لا جيوب . وأنت تجد الإنسان يجمع النقود الخاصة بالحج ، وقد يحرم نفسه من أشياء كثيرة من أجل أن يحظَى بأداء تلك الفريضة[1] .

وكلمة « هوى » مُكوّنة من مادة « الهاء » و « الواو » و « الياء » ولها معَان متعددة ، فلك أنْ تقولَ « هَوَى » أو تقول « هَوِى » ، فإنْ قلت « هَوَى يهوي » من السقوط من مكان عالٍ ؛ دون إرادة منه فى السقوط ؛ وكأنه مقهورٌ عليه ، وإنْ قُلْت : « هَوِى يهوىَ » فهذا يعنى أحبّ ، وهو نتيجة لمِيْل القلوب ، لا مَيْل القوالب .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فهم فى مكان لا يمكن زراعته . وقد تقبَّل الحق سبحانه دعاءَ إبراهيم عليه السلام ؛ ووجدنا التطبيق العملى فى قوله الحق :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى[2] إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا .. (٥٧) ﴾ [القصص]

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد : لو قال : « أفئدة الناس » لازدحمت عليه فارس والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس ، ولكن قال : « من الناس » فهم المسلمون . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧١١) ، والسيوطى فى « الدر المنثور » (٥/٤٨) .

(٢) جبا يجبى المال والخراج جباية : جمعه . قال تعالى : ﴿ يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. (٥٧) ﴾ [القصص] تجمع إلى الحرم المكى وتُساق إليه ثمرات وخيرات كثيرة . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وذلك قبل أن يوجد بترول أو غير ذلك من الثروات. وكلمة « يُجْبى » تدل على أن الأمرَ في هذا الرزق القادم من الله كأنه جِبَاية ؛ وأمْر مفروض ، فتكون في الطائف مثلاً وفيها من الرمان والعنب وتحاول أنْ تشتريه ؛ فتجد مَنْ يقول لك : إن هذا يخصُّ مكة المكرمة ؛ إنْ أردتَ منه فاذهب إلى هناك .

وتجد في كلمة :

﴿ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ .. ﴿٥٧﴾ ﴾ [القصص]

ما يثير العجب والدهشة ؛ فأنت في مكة تجد بالفعل ثمرات كل شيء من زراعة أو صناعة ؛ ففيها ثمرات الفصول الأربعة قادمةً من كل البلاد ؛ نتيجة أن كل البيئات تُصدِّر بعضاً من إنتاجها إلى مكة .

وفي عصرنا الحالي نجد ثمرات النموِّ الحضاري والعقول المُفكِّرة وهي معروضة في سوق مكة أو جدة ؛ بل تجد ثمرات التخطيط والإمكانات وقد تمَّتْ ترجمتُها إلى واقع ملموس في كل أَوْجُه الحياة هناك .

وقديماً عندما كُنّا نؤدي فريضة الحج ؛ كُنّا نأخذ معنا إبرة الخيط ؛ ومِلْح الطعام ؛ ومن بعد أن توحَّدتْ غالبية أرض الجزيرة تحت حكم آل سعود واكتشاف البترول ؛ صِرْنا نذهب إلى هناك ، ونأتي بكماليات الحياة .

ولنلحظ قَوْل الحق سبحانه :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

فكلمة « من » تُوضِّح أن مَنْ تهـوي قلوبهم إلى المكان هم قطعةٌ من أفئـدة الناس ، وقال بعَضٌ من العـارفين بالله(١) : لو أن النصَّ قد جاء « فاجعل أفئدة الناس تهوى إليهم » لوجدنا أبناء الديانات الأخرى قد دخلت أيضاً فى الحجيج ، ومن رحمة الله سبحانه أن جاء النص :

﴿ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ .. (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

فاقتصر الحجيج على المسلمين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك مُـستْكملاً ما جاء على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ (٣٨) ﴾

وبعد أن اطمـأن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن لهذا البلد أمنـاً عاماً وأمناً خاصاً ، واطـمأن على مُقوِّمات الحـياة ؛ وأن كل شيء من عند الله ، بعد كل ذلك عـاودته المسألة التـى كانت تشغله ، وهى مـسألة تَرْكه لهاجر وإسماعيل فى هذا المكان .

وبعض المُفسِّرين قالوا : إن الضمير بالجمع فى قوله تعالى :

﴿ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ .. (٣٨) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) نقل السيـوطى فى الدر المنثور (٥/٤٨) عن السـدى معزواً لابن أبى حـاتم أنه قال فى تفسير هذه الآية : « خذ بقلوب الناس إليهم ، فـإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد ، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه مُعلّق بحب الكعبة » .

مقصود به ما يُكنّه من الحُبِّ لهاجر وإسماعيل ، وما يُعلنه من الجفاء الذى يُظهره لهما أمام سارة ، وكأن المعانى النفسية عاودتْه لحظةَ أنْ بدأ فى سلام الوداع لهاجر وابنه إسماعيل .

ونقول : لقد كانت هاجر هى الأخرى تعيش موقفاً صَعْباً ؛ ذلك أنها قد وُجِدت فى مكان ليس فيه زَرْع ولا ماء ، وكأنها كتمتْ نوازعها البشرية طوال تلك الفترة وصبرتْ .

ولحظة أنْ جاء إبراهيم ليُودّعها ؛ قالت له : أين تتركنا ؟ وهل تتركنا منْ رأيك أم من أمر ربك ؟ فقال لها إبراهيم عليه السلام : بل هو من أمر الله . فقالت : إذن لن يضيعنا .

وتأكدت هاجر من أن ما قالتْه قد تحقَّق ؛ ولم يُضيّعهما الله ، وحين يعطش وحيدها تجرى بين الصفا والمروة بَحْثاً عن مياه ؛ ولكنها ترى تفجُّر الماء تحت قَدَمَىْ ابنها فى المكان الذى تركته فيه ؛ ويبدأ بئر زمزم(١) فى عطاء البشر منذ ذلك التاريخ مياهه التى لا تنضب(٢) .

وهكذا يتحقق قول إبراهيم - عليه السلام - فى أن الله يعلم ما نُسرّ وما نُعلن ؛ ذلك أن كل مُعْلَن لا يكون إلا بعد أن كان مَخْفياً ، وعلى الرغم من أن الله غَيْبٌ إلا أن صلَته لا تقتصر على الغيب ؛ بل تشمل العالم الظاهر والباطن ؛ وكل مظروف فى السماء أو الأرض معلومٌ لله ؛ لأن ما تعتبره أنت غيباً فى ذهنك هو معلوم لله من قبل أن يتحركَ ذهنك إليه .

---

(١) يُقال : ماءٌ زمزمٌ : كثير بين الملح والعَذْب . [لسان العرب - مادة : زمزم] .

(٢) نضب الماء : ذهب فى الأرض وبَعُد . ونضب البئر : نزح ماؤه ونشف . [لسان العرب - مادة : نضب] .

ولذلك يقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ وَإن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى (٧) ﴾ [طه]

فإذا كان السِّر هو ما أسررْتَ به لغيرك ؛ وخرج منك لأنك استأمنتَ الغير على ألاَّ يقوله ، أو كان السر ما أخفيتَه أنت فى نفسك ؛ فالله هو العَالِم به فى الحالتين .

ويقول القرآن :

﴿ وَإذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا .. (٣) ﴾ [التحريم]

أى : أن السِّرَّ كان عند رسول الله ﷺ وانتقل إلى بعضٍ من أزواجه . والأَخْفَى هو ما قبل أنْ تبوحَ بالسرِّ ؛ وكتمته ولم تَبُحْ به .

وسبحانه يعلم هذا السر وما تخفيه . أى : السر الذى لم تَقُلْه لأحد ، بل ويعلمه قبل أنْ يكونَ سِراً .

ويقول سبحانه ما قاله إبراهيم ـ عليه السلام ـ ضراعةً وحَمْداً له سبحانه :

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ(١) إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٩) ﴾

والوَهْب هو عطاء من مُعْطٍ بلا مقابل منك . وكل الذرية هِبَة ،

---

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة عندما ولد له إسماعيل ، وجاءه إسحاق وهو ابن مائة واثنتى عشرة سنة . [تفسير القرطبى ٥/٣٧١٣] .

لو لم تكُنْ هبة لكانت رتيبة بين الزوجين ؛ وأينما يوجد زوجان توجد . ولذلك قال الله :

﴿ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الشورى]

والدليل على أن الذرية هبَة هو ما شاءه سبحانه مع زكريا عليه السلام ؛ وقد طلب من الله سبحانه أن يرزقه بغلام يرثه ، على الرغم من أنه قد بلغَ من الكبَر عتياً[1] وزوجه عاقر ؛ وقد تعجَّب زكريا من ذلك ؛ لأنه أنجب بقوة ، وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾ ﴾ [مريم]

وهذا يعنى ألاَّ يدخل زكريا فى الأسباب والمُسبِّبات والقوانين .

وقد سمَّى الحق سبحانه الذرية هبةً ؛ لذلك يجب أن نشكرَ الله على هبَته ؛ فلا تُرد هبَته ، إنْ وهبَ لك إناثاً فعلى العين والرأس ؛ لأن الذى يقبل هبة الله فى إنجاب الإناث برضاً يرزقه الله بشباب يتزوجون البنات ؛ ويصبحون أطوعَ له من أبنائه ، رغم أنه لم يَشْقَ فى تربيتهم .

وكل منّا يرى ذلك فى مُحيطه ، فمَنْ أنجب الأولاد الذكور يظل يرقب : هل يتزوج ابنه بمَنْ تخطفه وتجعله أطوعَ لغيره منه .

وإنْ وهب لك الذكور فعلى العين والرأس أيضاً ، وعليك أنْ تطلبَ

---

(١) عتا عتواً وعتياً : أسنَّ وكبر وذهبت نضارته وغضارته . قال تعالى عن زكريا : ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ ﴾ [مريم] . [القاموس القويم ٢/٦] .

من الله أن يكون ابنك من الذرية الصالحة ، وإنْ وهبكَ ذُكْراناً وإناثاً فلكَ أن تشكره ، وتطلب من الله أن يُعينك على تربيتهم .

وعلى مَنْ جعله الحق سبحانه عقيماً أن يشكرَ ربه ؛ لأن العُقْم أيضاً هبةٌ منه سبحانه ؛ فقد رأينا الابن الذى يقتل أباه وأمه ، ورأينا البنت التى تجحد أباها وأمها .

وإنْ قَبِل العاقر هبةَ الله فى ذلك ؛ وأعلن لنفسه ولمَنْ حوله هذا القبول ؛ فالحق سبحانه وتعالى يجعل نظرة الناس كلهم له نظرة أبناء لأب ، ويجعل كل مَنْ يراه من شباب يقول له : « أتريد شيئاً يا عم فلان ؟ » ويخدمه الجميع بمحبة صافية .

وإبراهيم ـ عليه السلام ـ قد قال للحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

والشكر على الهبة ـ كما عرفنا ـ يُشكِّل عطاءَ الذرية فى الشباب ، أو فى الشيخوخة .

وأهل التفسير يقولون فى :

﴿ عَلَى الْكِبَرِ ..(٣٩) ﴾ [إبراهيم]

أنه يشكر الحق سبحانه على وَهْبه إسماعيل وإسحق مع أنه كبير . ولماذا يستعمل الحق سبحانه (على) وهى من ثلاثة حروف ؛ بدلاً من « مع » ولم يَقُل : « الحمد لله الذى وهب لى مع الكِبَر إسماعيل وإسحاق » .

وأقول : إن (على) تفيد الاستعلاء ، فالكِبَر ضَعْف ، ولكن إرادة

الله أقوى من الضعف ؛ ولو قال « مع الكبر » فالمعيّة هنا لا تقتضى قوة ، أما قوله :

﴿ وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ .. ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

فيجعل قدرة الله فى العطاء فوق الشيخوخة .

وحين يقول إبراهيم عليه السلام ذلك ؛ فهو يشكر الله على استجابته لما قاله من قبل :

﴿ إِنِّى أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ .. ﴿٣٧﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : أنه دعا أن تكونَ له ذرية .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقول إبراهيم :

﴿ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ ﴾

وكأن إبراهيم عليه السلام حين دعا بأمر إقامة الصلاة فهذه قضية تخصُّ منهج الله ، وهو يسأل الله أنْ يقبلَ ، ذلك أن الطلبات الأخرى قد طلبها ببشريته ؛ وقد يكون ما طلبه شراً أو خيراً ؛ ولكن الطلب بأن يجعله مُقيماً للصلاة هو وذريته هو طَلَبٌ بالخير .

ويتتابع الدعاء فى قول الحق سبحانه على لسان إبراهيم عليه السلام :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾

ونعلم أن طلب الغُفْـران من المعصوم إيذانٌ بطلاقـة قدرة الله فى الكون ، ذلك أن اختيار الحق سبحانه للرسول - أىّ رسول - لا يُعفى الرسول المـختار من الحـذَر وطلب المغـفرة ، وها هو سيـدنا رسول الله ﷺ يقول : « إنى أستغفر الله فى اليوم والليلة مائة مرة »[(1)] .

وطلب المـغفـرة من الله إن لم يكُنْ لذنب - كـما فى حـال الرُّسل المعصـومين - فهو من الأدب مع الله ؛ لأن الخالق - سبـحانه وتعالى - يستـحق منّا فوق ما كلَّفنا به ، فإذا لـم نقدر على المندوبات وعلى التطوّعات ؛ فَلْندعُ الحق سبحانه أنْ يغفرَ لنا .

ومنّا مَنْ لا يقدر على الـفرائض ؛ فليْدعُ الله أنْ يغـفرَ له ؛ ولذلك يُقال : « حسنات الأبرار سيئات المقربين»[(2)] .

---

(١) أخـرجـه الدارمى فى سننه (٢/٢٠٣) ، والحـاكم فى مـسـتدركـه (٢/٤٥٧) وقـال : صحيح الإسناد ولم يخـرجاه ، وأحمد فى مسنده (٥/٣٩٤) من حـديث حذيفة رضى الله عنه أنه قال : كـان فى لسانى ذرب على أهلى ولم يكن يعـدوهم إلى غيرهم فـسألت النبى ﷺ فقال : « أين أنت من الاستغفار ، إنى لأستغفر الله كل يوم مائة مرة » .

(٢) الأبرار والمـقربـون كلاهمـا من أهل الجنة ، ولكن الأبرار أقـل منزلة من المـقربين ، وقـد تحدث الله عن الصنفين فقال عن المقربين : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) مُّتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) ﴾ [الواقعة] الآيات . أما الأبرار فـقد قال عنهم : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) ﴾ [الواقـعة] الآيات . فلعظم مـنزلة المقـربين قـيل : إن الحسنات التى يـعملهـا الأبرار والتى استحقوا بها النعيم فى الجنة هى سيئات فى جانب ما يعمله المقربون .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا (٢) ﴾ [الفتح]

ولذلك أقول دائماً : إن الحق - جَلَّ جلالُ ذاته - يستحق أن يُعبَد بفوق ما كُلِّف به ؛ فإذا اقتصرنا على أداء ما كَلَّف به سبحانه ؛ فكأننا لم نُؤدِّ كامل الشُّكْر ؛ وما بالنا إذا كان مثل هذا الحال هو سلوك الرُّسل ، خصوصاً وأن الحق سبحانه قد زادهم عن خَلْقه اصطفاءً ؛ أفلا يزيدنه شُكْراً وطلباً للمغفرة ؟

ونلحظ أن طلب المغفرة هنا قد شمل الوالدين والمؤمنين :

﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ(١) وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١) ﴾ [إبراهيم]

والإنسان كما نعلم له وجود أصليّ من آدم عليه السلام ؛ وله وجود مباشر من أبويْه ، وما دام الإنسان قد جاء إلى الدنيا بسبب من والديْه ، وصار مؤمناً فهو يدعو لهما بالمغفرة ، أو : أن الأُسْوة كانت منهما ؛ لذلك يدعو لهما بالمغفرة .

والإنسان يدعو للمؤمنين بالمغفرة ؛ لأنهم كانوا صُحْبة له وقُدْوة ، وتواصى معهم وتواصوا معه بالحق والصبر ، وكأن إبراهيم - عليه السلام - صاحب الدعاء يدعو للمؤمنين من ذريته ؛ وتلك دعوة وشفاعة منه لمَنْ آمن ؛ ويرجو الحقَّ سبحانه أنْ يتقبلها .

---

(١) ذكر القرطبي في تفسيره (٥/٣٧١٤) قراءتين أخريين لهذه الكلمة :
- (لِوالِدِي) يعني أباه . وهي قراءة سعيد بن جبير . وذلك قبل أن يثبت عنده أنه عدو لله .
- (لِوَلَدَيَّ) يعني ابنيه . وهي قراءة إبراهيم النخعي ، ويحيى بن يعمر . ولذلك قيل : إنه أراد ولديه : إسماعيل وإسحاق .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ[1] فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾

وبعد أن ذكر الحق سبحانه وأوضح النِّعم العامة على الكون ، والنعم الخاصة التى أنعم بها سبحانه على مَنْ توطَّنوا مكة ، ومن نسلهم مَنْ وقف ضد رسول الله ﷺ موقف العَنَت ، بعد ذلك جاء الحق سبحانه بهذه الآية تعزيةً وتسرية عن رسول الله ﷺ :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وأرضية التصوير التى سبقتْها تشتمل بدايةَ التكوين لهذا المكان الذى وُجدوا به ، وكيفية مَجىء النعم إلى مَنْ توطنوا هذا المكان ؛ حيث تجىء إليهم الثمرات ، ونعمة المَهَابة لهم حيث يعصف سبحانه بمَنْ يُعاديهم كأبرهة ومَنْ معه .

﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[2] مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الفيل]

حيث يقول سبحانه من بعد هذه الآية مباشرة :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلافِهِمْ[3] رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ

---

(١) شخص بصره : انفتحت عيناه فلا تطرف من الخوف والفزع والحيرة . [القاموس القويم ١/٣٤٣] .

(٢) العصف المأكول : التبن أو ورق الشجر الذى أصابه مرض الأكال فتآكلت منه أجزاء . [القاموس القويم ٢/٢٣] .

(٣) الإيلاف : الاعتياد والأنس بالشىء ومحبته . والإيلاف أيضاً : العهد يؤخذ لتأمين خروج التجارة من أرض إلى أرض . قال ابن الأعرابى : أصحاب الإيلاف أربعة إخوة بنى عبد مناف : هاشم أخذ عهداً من ملك الروم ، ونوفل أخذ عهداً من كسرى ، وعبد شمس أخذ عهداً من النجاشى ، والمطلب أخذ عهداً من ملوك حمْير باليمن . فكان تجار قريش يترددون على هذه الأمصار بعهود هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم أحد .[لسان العرب ـ مادة : ألف] .

هَـٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾ ﴾ [قريش]

ورغم ذلك وقفوا من دعوة رسول الله ﷺ موقف الإنكار والتعنُّت والتصدِّى والجُحُود ، وحاولوا الاستعانة بكل خُصوم الإسلام ؛ ليحاربوا هذا الدين ؛ ولذلك يوضح الحق سبحانه هنا تسريةً عن الرسول الكريم :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

لماذا ؟ وتأتى الإجابة فى النصف الثانى من الآية :

﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

وقوله الحق :

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : لا تظننّ ؛ فَحَسِب هنا ليست من الحساب والعدّ ، ولكنها من « حسب » « يحسب » ؛ وقوله الحق الذى يوضح هذه المسألة :

﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ[1] ﴿٢﴾ ﴾

[العنكبوت]

أى : أَظَنَّ الناس . فحسِب يحسَب ليستْ ـ إذن ـ من العَدِّ ؛ ولكن من الظنِّ . والحُسْبان نسبة كلامية غير مَجْزوم بها ؛ ولكنها راجحة .

---

(١) الفتنة : الاختبار والابتلاء بالشدائد والمصائب ونقص الأموال والأولاد والثمرات ليُعرف مدى صدق المؤمنين . [القاموس القويم ٢/٧١] .

والغفلة التى ينفيها سبحانه عنه ؛ هى السَّهْو عن أمر لعدم اليقظة أو الانتباه ، وطبعاً وبداهةً فهذا أَمرٌ لا يكون منه سبحانه ، فهو القيُّوم الذى لا تأخذه سِنَة ولا نوم .

وهنا يخاطب الحق سبحانه رسوله والمؤمنين معه تبعاً ؛ فحين يخاطب الحق سبحانه رسوله ﷺ فهو يخاطب فى نفس الوقت كلَّ مَنْ آمن به .

ولكن ، أكانَ الرسول يظنُّ الله غافلاً ؟

لا ، ولنلحظْ أن الله حين يُوجِّه بشىء فقد يحمل التوجيه أمراً يُنفِّذه الإنسانُ فعلاً ؛ ويطلب الله منه الاستدامة على هذا الفعل .

والمَثلُ : حين تقول لواحد لا يشرب الخمر « لا تشرب الخمر » وهو لا يشرب الخمر ؛ فأنت تطالبه بقولك هذا أنْ يستمرَّ فى عدم شُرْب الخمر ، أى : استمِرّ على ما أنت عليه ، فعلاً فى الأَمْر ، أو امتناعاً فى النهى .

وهل يمكن أن تأتى الغفلة لله ؟

وأقول : حين ترى صفةً توجد فى البشر ؛ ولا توجد فى الحق سبحانه فعليك أنْ تُفسِّر الأمر بالكمالات التى لله .

والذى يفعل ظلماً سيتلقى عقاباً عليه ، وحين يتأخر العقاب يتساءل الذين رَأَوْا فعْل الظُّلم فهم يتهامسون : تُرَى هل تَمَّ نسيان الظلم الذى ارتكبه فلاَن ؟ هل هناك غفلة فى الأمر ؟

وهم فى تساؤلاتهم هذه يريدون أن يعلنوا موقفهم من مرتكب الذنب ؛ وضرورة عقابه ، وعلى ذلك نفهم كلمة :

﴿ غَافِلاً ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

فى هذه الآية بمعنى « مُؤجِّل العقوبة » .

ولمن يتساءلون عليهم أنْ يتذكَّروا قول الحق سبحانه :

﴿ وَأُمْلِي[1] لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ ﴾ [الأعراف]

وعلى ذلك فليست هناك غفلة ؛ ولكن هناك تأجيل للعقوبة لهؤلاء الظالمين ؛ ذلك أن الظلم يعنى أَخْذ حقٍّ من صاحبه وإعطاءه للغير ؛ أو أَخْذه للنفس .

وإذا كان الظلم فى أمر عقدىّ فهو **الشرك** ؛ وهو الجريمة العظمى ، وإنْ ظلمتَ فى أمر كبيرة من الكبائر فهذا هو **الفِسْق** ، وإنْ ظلمتَ فى صغيرة فهو **الظلم** .

ولذلك نجد الحق - سبحانه وتعالى - يُورِد كل حكم يناسب الثلاثة مواقف ؛ فيقول عن الذى تغاضى عن تجريم الشرك :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول عن تجريم كبيرة من الكبائر :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة]

ويقول عمَّنْ يتغاضى عن تجريم صغيرة بما يناسبها من أحكام الدين :

﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة]

وإذا وُجِد محكوم عليه ، وهو واحد - بأحكام متعددة فالحكم مُتوقِّف على ما حكم به .

---

(١) الإملاء : الإمهال والتأخير وإطالة العمر . وأملى الله له : أمهله وطوّل له . [لسان العرب - مادة : ملا] .

وحين ننظر فى مسألة الظلم هذه نجد أن الظالم يقتضى مظلوماً ، فإنْ كان الظُّلْم ـ والعياذ بالله ـ هو ظُلم القمة وهو الشرك بالله ، فهذا الظلم ينقسم ـ عند العلماء ـ إلى ثلاثة أنواع :

النوع الأول : وهو إنكار وجود الله وألوهيته دون أن ينسبها لأحد آخر ؛ وهذا هو الإلحاد ، وهو ظُلْم فى واجب وجوديته سبحانه .

والنوع الثانى : هو الاعتراف بألوهية الله ، وإشراك آخرين معه فى الألوهية ، وهذا الشرك ظُلْم للحق فى ذاتية وواحدية تفرُّده .

والنوع الثالث : هو القول بأن الله مُكوَّن من أجزاء ؛ وهذا ظُلْم لله فى أحدية ذاته .

ويقول بعض العارفين : إن أول حقٍّ فى الوجود هو وجوده سبحانه .

ومنهم الشاعر الذى قال :

وأوَّل حَقٍّ فى الوُجُودِ وُجُوده   وكُلُّ حُقُوقِ الكوْنِ منه استمدَّت
فَلا هُو جَمْعٌ كمَا قال مُشْرِكٌ   ولاَ هُوَ فى الأَجْزاءِ يَا حُسْن مِلَّتى[1]

والظلم الذى ورد فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ، هو ظلم القمة ؛ ظُلْم فى العقيدة الإلهية ، ومعه ظلم آخر هو ظلم الرسول ﷺ . ويُلخِّص الشاعر ظُلْمهم للرسول ﷺ فيقول :

---

(١) أى : يا حُسْن ملة الإسلام التى جاءت من عند الله مثبتة وجوده دون شريك له فى الملك ودون أن يكون مكوناً من أجزاء ، فأثبتت له سبحانه وجوبية وجوده ، وواحدية تفرده ، وأحدية ذاته سبحانه . (ع)

لَقَّبتمُوه أمِيناً فى صِغَرِ وَمَا الأمينُ علَى قَوْل بِمُتَّهمِ

وهم قد سَمَّوا الرسول من قبل الرسالة بالأمين ؛ وبعد الرسالة نزعوا منه هذا الوصف ، وكانوا يَصفونه قبل الرسالة بالصادق ، ولم يقولوا عنه مرة قبل الرسالة إنه ساحر ، ولم يتهموه من قبل الرسالة بالجنون .

فكيف كانت له أوصاف الصِّدق والنطق بالحق ؛ والتحدث عن رجاحة قدرته فى الحكم ؟

كيف كانت له تلك الصفات قبل الرسالة ؛ وتنزعونها منه من بعد الرسالة ؟

إن هذا هو ظلم سلْب الكمال ، فقد كان للرسول ﷺ كمال قبل أن يُرسلَ ؛ فظلمتموه بعد الرسالة وأنكرتم عليه هذا الكمال ؛ وهو ظُلْم مُزْدَوج .

فقد سبق أن اعترفتم له من قبل الرسالة بالأمانة ؛ ولكن من بعد الرسالة أنكرتُم أمانته ، وكان صادقاً من قبل الرسالة ؛ وقلتم إنه غَيْر صادق بعدها .

ولم تكن له صفة نَقْص قبل الرسالة ؛ فجئتم أنتم له بصفة نقص ؛ كقولكم : ساحر ؛ كاهن ؛ مجنون ، وفى هذا ظُلْم للرسول ﷺ .

وهذا أيضاً ظُلْم للمجتمع الذى تعيشون فيه ، لأن مَنْ يريد استمرار الاستبداد بكلمة الكفر ، ويريد أن يستمرَّ فى السيادة

والاستغلال والتحكُّم فى الغير ؛ فكُلٌّ ذلك ظُلْم للمجتمع ؛ وفوق ذلك ظُلْم للنفس ؛ لأن مَنْ يفعل ذلك قد يأخذ متعة بسيطة ؛ ويحرِم نفسه من متعة كبيرة ؛ هى متعة الحياة فى ظلٍّ منهج الله ، وينطبق عليه قول الحق الرحمن :

﴿ومَا ظَلَمْنَاهُمْ ولَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [النحل]

وفوق ظُلْم النفس وظُلْم المجتمع هناك ظُلْم يمارسه هذا النوع من البشر ضد الكون كُلّه فيما دون الإنسان ؛ من جماد وحيوان ونبات ؛ ذلك أن الإنسانَ حين لا يكون على منهج خالقه ؛ والكون كله مُسخَّر لمنهج الخالق ؛ فلن يرعى الإنسانُ ذلك فى تعامله مع الكون ، وسبحانه القائل :

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ .. ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء]

حين يُسبِّح كل ما فى الكون يشذّ عن ذلك إنسانٌ لا يتبع منهج الله ؛ فالكون كله يكرهه ، وبذلك يظلم الإنسان نفسه ويظلم الكون أيضاً .

وهكذا عرفنا ظُلْم القمة فى إنكار الألوهية ، أو الشرك به سبحانه ، أو توهُّم أنه من أجزاء ، وظُلْم نزع الكمال عن الرسول ؛ وهو الواسطة التى جاءت بخبر الإيمان ؛ وظُلْم الكون كله ؛ لأن الكون بكل أجناسه مُسبِّح لله .

وقول الحق سبحانه :

﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ .. ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]

نجـد فيـه كلمة « يعـمل » . ونعلم أن هناك فَـرْقاً بين « عـمل » و « فـعل » ، والفعل هو أحـداث كل الجوارح ، مـا عدا اللسـان الذى يقال عن حدثه « القول » .

فكل الجوارح يأخذ الحادث منها اسماً ؛ وحدث اللسان يأخذ اسماً بمفرده ، ذلك أن الذى يكب[1] الناس على مناخرهـم فى النار إنما هو حصائد ألسنتهم[2] ، والفعل والقول يجمعهما كلمة « عمل » .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق سبحانه « يعمل » ، ذلك أن المشركين الذين استـقبلوا القرآن كانوا يُرْجفون[3] بالإسلام وبالرسول ﷺ بالكلام ؛ وكل الأفعـال التى قاموا بها نشأتْ عن طريق تحريض بالكلام .

وتأتى هذه الآية الكريمـة التى يُؤكّد فيـها سبحـانه أنه يُمكّن لهم الذنوب ليُمكِّن لهم العقوبة أيضاً ؛ ويأتى قوله :

﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾﴾ [إبراهيم]

ونعلم أنه قـد حــدثتْ لهم بعضٌ من الظواهـر التى تؤكـد قُـرْب انتصـار رسول الله ﷺ ؛ فَـقُتل صـناديدهم وبعض من سـادتهم فى

(١) كب الشيء يكبه : قلبه . وكبّه لوجه فانكب أى : صرعه .[لسان العرب ـ مادة : كبب] .

(٢) عن معاذ بن جبل أنه قال : يا نبى الله وإنا لمـؤاخذون بما نتكلم به ؟ فقال : « ثكلتك أمك يا معاذ ، وهل يكـب الناس فى النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصـائد ألسنتهم » أخـرجـه أحمـد فى مـسنده (٥/٢٣١ ، ٢٣٦) والتـرمـذى فى سننه (٢٦١٦) وقـال : « حسن صحيح » .

(٣) أرجف القوم إذا خـاضوا فى الأخبـار السيئـة وذكر الفتن . قـال تعالى : ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ .. ﴿٦٠﴾﴾ [الأحزاب] هم الذين يُولِّدون الأخبار الكاذبـة التى يكون معها اضطراب فى الناس . [لسان العرب ـ مادة : رجف] .

بدر ؛ وأسر كبراؤهم ، وهكذا شاء سبحانه أنْ يأتىَ بالوعد أو الوعيدَ ؛ جاء بالأمر الذى يدخل فيه كُلُّ السامعين ، وهو عذابُ الآخرة ؛ إنْ ظَلُّوا على الشرك ومقاومة الرسالة .

و : ﴿ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

يعنى : تفتح بصورة لا يتقلَّب بها يَمْنة أو يَسْرة من هَوْل ما يرى ؛ وقد يكون عدم تقلُّب البصر من فَرْط جمال ما يرى ، والذى يُفرِّق بينهما سِيَال خاص بخَلْق الله فقط ؛ وهو سبحانه الذى يخلقه .

فحين ترى إنساناً مذعوراً من فَرْط الخوف ؛ فسحْنته تتشكَّل بشكل هذا الخوف ، أما مَنْ نظر إلى شىء جميل وشَخصتْ عيناه له ، يصبح لملامحه انسجامُ ارتواء النظر إلى الجمال ؛ ولذلك يقول الشاعر :

جَمَالُ الذى أهْواهُ قَيْدُ نَاظِرىّ فَلَيْتَ لِشَىءٍ غيرِهِ يتحوَّلِ

ويمكننا أن نفرق بين الخائف وبين المستمتع بملامح الوجه المنبسطة أو المذعورة .

ونعلم أن البصر ابن للمرائى ؛ فساعة تتعدّد المرائى ؛ فالبصر يتنقّل بينها ؛ ولذلك فالشخص المُبصِر مُشتَّت المرائى دائماً ؛ ويتنقل ذهْنه من هنا إلى هناك .

أما مَنْ أنعم الله عليهم بنعمة حَجْز أبصارهم ـ المكفوفين ـ فلا تشغله المرائى ؛ ولذلك نجدهم أحرصَ الناس على العِلْم ؛ فأذهانهم غير مشغولة بأىِّ شىء آخر ، وبُؤْرة شعور كل منهم تستقبل عن طريق الأذن ما يثبت فيها .

ولذلك يقال عنهم « صناديق العلم » إنْ أرادوا أنْ يعلموا ؛ فلا أحدَ من الذين يتعلمون منهم يكون فارغاً أبداً ، مثله مثل الصندوق الذى لا يفرغ .

ولا أحد يتحكم فى العاطفة الناشئة عن الغرائز إلا الله ؛ فأنت لا تقول لنفسك « اغضب » أو « اضحك » ؛ لأنه هو سبحانه الذى يملك ذلك ، وهو القائل :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) ﴾ [النجم]

والضحك والبكاء مسائل قَسْرية لا دخلَ لأحد بها .

ونجد الحق سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن :

﴿ وَإِذْ زَاغَتِ[1] الأَبْصَارُ .. (١٠) ﴾ [الأحزاب]

فمرّة تشخص الأبصار ، ويستولى الرعب على أصحابها فلا يتحولون عن المشهد المُرْعِب ، ومرَّة تزوغ الأبصار لعله يبحث لنفسه عن مَنْفذ أو مَهْربٍ فلا يجد .

ويكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء الذين تزوغ أبصارهم ، فيقول :

﴿ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي[2] رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣) ﴾

---

(١) زاغ البصر : اضطرب ولم يحقق ما يرى ، أو انحرف عن القصد فلم يَرَ شيئاً . وزيغ الأبصار : اضطرابها لشدة الفزع . [القاموس القويم ١/٢٩٤] .

(٢) المقنع : الذى يرفع رأسه ينظر فى ذل . والإقناع : رفع الرأس والنظر فى ذل وخشوع . [لسان العرب ـ مادة : قنع] .

والمُهْطع هو مَنْ يظهر مـن فَرْط تسرُّعه وكأن رقبـته قد طالتْ ، لأن المُهْطع هو مَنْ فيـه طُول ، وكأن الجزاء بالعذاب يجـذب المَجْزِىّ ليقربه ، فَيُدفَع فى شدة وجفوة إلى العذاب ، يقول الحق سبحانه :

﴿ يُدَعُّونَ[1] إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ ﴾ [الطور]

وكأن هناك مَنْ يدفعهم دَفْعاً إلى مصيرهم المُؤْلم . وهـم :

﴿ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : رافـعـين رءوســهم من فَـرْط الدهشــة لِهـوْل العـذاب الذى ينتظرهم .

وفى موقع آخر يُصوِّرهم الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلالاً فَهِيَ إِلَى الأَذْقَانِ[2] فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [يس]

وهكذا تكون صورتهم مُـفْزِعة من فَرْط المـهانة ؛ فبصَـرُ الواحد منهم شَاخِص إلى العذاب مُنجذب إليه بسرعة لا يتحكَّم فيها ؛ ورأسه مرفوعة من فَرْط الهَوْل ؛ ومُقْمَح[3] بالأغلال .

---

(١) دعه يدعـه : دفعه فى جفـوة . والدَّعُّ : الطرد والدفع فى انتهار وزجر . [لســان العرب - مادة : دعع] .

(٢) الذقن : مجتـمع اللحيين أسفل الوجه ، ويُطلـق على ما ينبت عليه من الشعر مـجازاً ، وقد يُطلق على الوجه كله . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .

(٣) المقمح : الخاضع الذليل لا يكاد يرفع بصـره . قال الأزهرى : أراد عز وجل أن أيديهم لما غُلَّتْ عند أعناقهم رفعت الأغلال أذقانهم ورؤوسهم صعـداً كالإبل الرافعة رؤوسـها . [لسان العرب ـ مادة : قمح] .

ولا يستطيع الواحد منهم أن تجفل جفونه ، وكأنها مفتوحةٌ رَغْماً عنه ؛ وفؤاده هواء بمعنى : أنْ لا شيءَ قادرٌ على أن يدخله .

ونحن نلحظُ ذلك حين نضع زجاجة فارغة فى قلب الماء ؛ فتخرج فقاقيع الهواء مقابلَ دخولِ الماء من فُوهتها .

ونعلم أن قَلْب المؤمن يكون ممتلئاً بالإيمان ؛ أما الكافر المُلْحد فهو فى مثل تلك اللحظة يستعرض تاريخه مع الله ومع الدين ؛ فلا يجد فيها شيئاً يُطمئِن ، وهكذا يكتشف أن فؤاده خَالٍ فارغ ؛ لا يطمئن به إلى ما يُواجه به لحظة الحساب .

ونجد بعضاً ممَّنْ شاهدوا لحظات احتضار[1] غيرهم يقولون عن احتضار المؤمن « كان مُشرِق الوجه متلألىء الملامح » . أما ما يقولونه عن لحظة احتضار الكافر ؛ فهم يحكُونَ عن بشاعة ملامحه فى تلك اللحظة .

والسبب فى هذا أن الإنسان فى مثل هذه اللحظات يستعرض تاريخه مع الله ، ويرى شريط عمله كله ؛ فمَنْ قضى حياته وهو يُرضِى الله ؛ لابُدَّ أن يشعر بالراحة ، ومَنْ قضى حياته وهو كافر مُلْحد فلابُدَّ أن يشعرَ بالمصير المُرْعب الذى ينتظره .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

---

(١) حُضِر المريض واحتُضِر : إذا نزل به الموت ودنا منه أجله . [لسان العرب ـ مادة : حضر] .

﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ[1] (٢٤) تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ[2] (٢٥) ﴾ [القيامة]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾

وهذا خطاب من الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن يُنذرهم بضرورة الاستعداد ليوم القيامة ، وأنه قادمٌ لا محالةَ .

وكلمة « يوم » هى ظَرْف زمان ، وظرف الزمان لا بُدَّ له من حَدث يقع فيه ، ويوم القيامة ليس محلَّ إنذار أو تبشير ؛ لأن الإنذار أو البشارة لا بُدّ أنْ يكونا فى وقت التكليف فى الحياة الدنيا .

وهكذا يكون المُنْذر به هو تخويفهم ممّا يحدث لهم فى هذا اليوم ، فما سوف يحدث لهم هو العذاب ؛ وكأنه قنبلة موقوتة ما إنْ يأتى يوم القيامة حتى تنفجر فى وجوههم .

وهنا يقول أهل ظُلْم القمة فى العقيدة ، وظُلْم الرسالة بمقاومتها ؛ وظلم الكون المُسبِّح لله :

﴿ رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ .. (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

---

(١) باسرة : كالحة عابسة كناية عن الهم والغم والخوف الشديد . [القاموس القويم ١/٦٦].

(٢) الفاقرة : الداهية تكسر فقار الظهر . [القاموس القويم ٢/٨٦] .

وهم يطلبون تأجيل العذاب لمُهْلة بسيطة ، يُثبتون فيها أنهم سيُجيبون الدعوة ويطيعون الرسول ، وهم يطلبون بذلك تأجيل قيامتهم .

فيكون الجواب من الحق سبحانه :

﴿ أَوَ لَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ (٤٤) ﴾ [إبراهيم]

فأنتم قد سبق وأنْ أقسمتُم بأن الله لا يبعث مَنْ يموت ؛ وقد قال الحق سبحانه ما قلتم :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾

[النحل]

وساعة ترى كلمة « بلى » بعد نَدْب ، فهذا يعنى تكذيب ما جاء قبلها ، وهم فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ظَنُّوا أنهم لن يُبعثُوا ، وظنُّوا أنهم بعد الموت سيصيرون تراباً ؛ وهم الذين قالوا :

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) ﴾

[المؤمنون]

وهكذا أكَّدوا لأنفسهم أنه لا بَعْث من بَعْد الحياة ، ومن بعد البعث سنسمع من كل فرد فيهم :

﴿ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ [النبأ]

أو : أنهم ظَنُّوا أن الذين أنعَم الله عليهم فى الدنيا ؛ لن يحرمهم فى الآخرة ، كما أورد الحق سبحانه هذا المَثل ، فى قوله تعالى :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ[1] مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلالَهُمَا نَهَرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والذى يقول ذلك فَهِم أنه سوف يموت ؛ لكنه توهّم أن جنته تلك ستظل على ما هى عليه ، وأنكر قيام الساعة ، وقال : « حتى لو قامت الساعة ، ورُددتُ إلى الله فسأجد أفضل من جنتى تلك » .

وهو يدعى ذلك وهو لم يُقدّم إيماناً بالله ليجده فى الآخرة ، فهو إذن ممَّنْ أنكروا الزوال أى البعث من جديد ، ووقع فى دائرة مَنْ لم يُصدّقوا البعث ، وسبق أنْ قال الحق سبحانه ما أورده على ألسنتهم :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[2] فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٠) ﴾ [السجدة]

والذين أنكروا البعث يُورِد الحق سبحانه لنا حواراً بينه وبينهم ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ (١١) ﴾ [غافر]

---

(١) الجنة : حديقة ذات شجر كثير ملتف يستر الأرض . [القاموس القويم ١/ ١٣٣] .

(٢) ضل فى الأرض : مات وصار تراباً فَضَلَّ فلم يتبين شىء من خلقه . [لسان العرب - مادة : ضلل] .

فيرد الحق سبحانه عليهم :

﴿ ذَلِكُم بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ ﴾ [غافر]

وفى موقع آخر من القرآن نجد حواراً واستجداءً منهم لله ؛ يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا .. ﴿١٢﴾ ﴾ [السجدة]

ويأتى ردُّ الحق سبحانه عليهم :

﴿ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ..﴿١٤﴾ ﴾ [السجدة]

وفى موقع ثالث يقول الواحد منهم عند الموت :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. ﴿١٠٠﴾ ﴾

[المؤمنون]

فيأتى ردّ الحق سبحانه :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ..﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون]

وبعد دخولهم النار يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [المؤمنون]

فيقول الحق سبحانه :

﴿ قَالَ اخْسَئُوا[1] فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) اخسأوا : انزجروا وابعدوا عنى فى النار ولا تكلمونى . [القاموس القويم ١/١٩٢]
والخاسىء : الصاغر الذليل . [المعجم الوجيز ـ مادة : خسأ] .

وفى موضع آخر يقولون عند اصطراخهم[1] فى النار :

﴿ربَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ..(٣٧)﴾ [فاطر]

فيأتى الرد من الحق سبحانه :

﴿أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ (٣٧)﴾ [فاطر]

ونلحظ أنهم فى كل آيات التوسُّل لله كى يعودوا إلى الحياة الدنيا يقولون (ربنا) ، وتناسَوْا أنهم مأخوذون إلى العذاب بمخالفات الألوهية ؛ ذلك أن الربوبية عطاؤها كان لكم فى الدنيا ، ولم ينقصكم الحق سبحانه شيئاً على الرغم من كفركم .

هكذا يكون حال هؤلاء الذين أقسموا أن الحق سبحانه لن يبعثهم ، وأنكروا يوم القيامة ، وأنه لا زوال لهم . أى : لا بَعْث ولا نشور .

ويتابع الحق سبحانه القول الكريم :

﴿وَسَكَنتُمْ فِى مَسَـٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ[2] وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ (٤٥)﴾

والسكون هو الاطمئنان إلى الشىء من عدم الإزعاج ، ونعلم أن

---

(١) اصطرخ القوم وتصارخوا : استغاثوا . والاصطراخ : التصارخ . [لسان العرب ـ مادة : صرخ] .

(٢) قال قتادة : سكن الناس فى مساكن قوم نوح وعاد وثمود . وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم . [الدر المنثور ٥/٥٢] .

المـرأة فى الزواج تعـتبـر سكناً ، والبـيت سكن ، وهنـا يتكلم الحق سـبحـانه عن مسـاكن الذين ظلمـوا أنفسـهم ، أى : أنكم لم تتـعظُوا بالسوابق التى ما كان يجب أن تغيبَ عنكم ، فأنتم تمرون فى رحلات الصيف والشتاء على مدائن صـالح ، وترون آثار الذين ظلموا أنفسـهم بالكفر والشـرك ، وتمرون على الأحـقاف[1] ؛ وترون ماذا حـاقَ بقوم عاد .

وكُلٌّ أولئك نالـوا العـقـاب من الله ، سـواء بالريـح الصـرصـر[2] العاتية ، أو : أنه سبحانه قد أرسل عليهم حاصباً[3] من السماء ، أو : أنزل عليهم الصيـحة ؛ أو : أغرقهم كآل فرعـون ، وأخذ كل قوم من هؤلاء بذنبه .

وصدق الله وَعْـده فى عذاب الدنيا ؛ فلـماذا لم تأخذوا عـبْرة من ذلك ؛ وأنه سبحانه وتعالى صادق حين تحدَّث عن عذاب الآخرة ؟

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ..(٤٥) ﴾ [إبراهيم]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨) ﴾ [الصافات]

---

(١) الأحقاف : منازل قوم عـاد بظاهر بلاد اليمن . والحقف من الرمل : المتعـرج أو المستطيل أو المستدير من الرمل . [القاموس القويم ١/١٦٣] بزيادة .

(٢) الريح الصـرصـر : الشـديدة البرد . وقـيل : الشـديدة الصوت . [لسـان العرب ـ مـادة : صرر] .

(٣) حصبه : قذفه بالحصى . والحاصب : إعصار شديد يقذفكم بالحصى فيهلككم . [القاموس القويم ١/١٥٦] .

أى : أنكم تمرُّون على تلك الأماكن التى أقامها بعضٌ ممَّنْ سبقُوكم وظلمُوا أنفسهم بالكفر ؛ وأنزل الحق سبحانه عليهم العقاب ؛ ولذلك يقول فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

نعم ؛ فحين تمشى فى أرض قوم عاد ، وترى حضارتهم التى قال عنها الحق سبحانه :

﴿ إِرَمَ[1] ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ ﴿٨﴾ ﴾ [الفجر]

وهى حضارة لم نكتشف آثارها بعد ؛ وما زالت فى المطمورات ، وكل مطمور فى الأرض بفعل من غضب السماء ؛ تضع السماءُ ميعادَ كشف له ليتعظَ أهلُ الأرض ؛ ويحدث هذا الكشف كلما زاد الإلحاد واستشرى .

قد حدث أن اكتشفنا حضارة ثمود ، وكذلك حضارة الفراعنة ؛ وهى الحضارة التى سبقتْ كل الحضارات فى العلوم والتكنولوجيا ، ورغم ذلك لم يعرف أصحاب تلك الحضارة أن يصونوها من الاندثار الذى شاءه الله .

وما زال الناس يتساءلون : لماذا لم يترك المصريون القدماء خبرتهم الحضارية مكتوبة ومُسجّلة فى خطوات يمكن أن تفهمها البشرية من بعد ذلك ؟

---

(١) إرم : اسم قبيلة منها عاد ـ وقيل هى مدينة كبيرة لهم ـ وزعم الكندى فى كتابه فضائل مصر : أنها مدينة الإسكندرية . وقوله : (ذات العماد) يدل على أنها ذات حضارة ومبان عالية . [القاموس القويم ١/١٨] .

﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ (٤٥) ﴾ [إبراهيم]

أى : أن الحق سبحانه يوضح هنا أن مشيئته فى إنزال العقاب قد وَضُحَتْ أمام الذين عاصروا رسالة محمد ﷺ فى مساكن الأقوام التى سبقتهم ؛ وكفروا برسالات الرسل ، وسبق أن ضرب لهم الحق سبحانه الأمثال بهؤلاء القوم وبما حدث لهم . والمَثَلُ إنما يضربه الله لِيُقرِّب بالشىء الحسى ما يُقرِّب إلى الأذهانِ الشىءَ المعنوى .

ويستمر قوله الحق من بعد ذلك :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾

والمكْر ـ كما نعلم ـ هو تبييت الكَيْد فى خفاء مستور ، ومأخوذ من الشجرة المكمورة ؛ أى : الشجرة التى تُدارِى نفسها . ونحن نرى فى البساتين الكبيرة شجرةً فى حجم الإصْبَع ؛ وهى مجدولةٌ على شجرة أخرى كبيرة . ولا تستطيع أن تتعرف على ورقة منها ، أو أن تنسب تلك الورقة إلى مكان خروجها ، ومن أىّ فرع فى الشجرة المُلْتفة إلا إذا نزعتها من حول الشجرة التى تلتفّ من حولها .

ومَنْ يُبيِّت إنما يشهد على نفسه بالجُبْن والضعف وعدم القدرة على المواجهة ، قد يصلح أن تُبيِّت ضد مُساوٍ لك ؛ أما أنْ تُبيِّت على الحى القيوم الذى لا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ؛ فتلك هى الخيبة بعينها .

ولذلك يقول الحق سبحانه فى مواجهة ذلك :

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وقال عن مكْر هؤلاء :

﴿ وَلا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [فاطر]

ونعلم أننا حين ننسب صفةً لله فنحن نأخذها فى إطار :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. ﴿١١﴾ ﴾ [الشورى]

وعادة ما ننسب كل فعل من الله للخير ، كقوله سبحانه :

﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء]

﴿ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله هنا :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [إبراهيم]

أى : قاموا بالتبييت المناسب لحيلتهم ولتفكيرهم ولقوتهم ؛ فإذا ما قابل الحق سبحانه ذلك ؛ فلسوف يقابله بما يناسب قوته وقدرته المطلقة ، وهو سبحانه قد علم أزلاً بما سوف يمكرونه ، وتركهم فى مكْرهم .

فانتصارات الرسالات مرهونٌ بقوة المُرْسَل وأتباعه ، وهم

(١) حاق به الشيء : أصابه وأحاط به . وحاق به الأمر : لزمه ووجب عليه . والحيق : ما يصيب الإنسان من مكروه فعله . [المعجم الوجيز ـ مادة : حيق] .

يقابلون خصوماً هُم حيثية وجود الرسالة ؛ ذلك أنهم قد ملأوا الأرض بالفساد ، ويريدون الحفاظ على الفساد الذى يحفظ لهم السلطة ؛ والدين الجديد سيدُكُّ سيادتهم ويُزلزلها ؛ لذلك لا بُدَّ ألاَّ يدخروا وُسْعاً فى محاولة الكَيْد والإيقاع بالرسول للقضاء على الرسالة .

وقد حاولوا ذلك بالمواجهة وقت أنْ كان الإسلام فى بدايته ؛ فأخذوا الضعاف الذين أسلموا ، وبدءوا فى تعذيبهم ؛ ولم يرجع واحد من هؤلاء عن الدين .

وحاولوا بالحرب ؛ فنصر الله الذين آمنوا ، ولم يَبْق لهم إلا المكْر ، وسبحانه القائل :

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ[1] أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وحاولوا أن يفسدوا خليّة الإيمان الأولى ، وهى محمد بن عبد الله ﷺ ، وظنُّوا أنهم إنْ نجحوا فى ذلك ؛ فسوف تنفضُّ الرسالة . فحاولوا أن يشتروه بالمال ؛ فلم يُفلحوا .

وحاولوا أن يشتروه بالسيادة والمُلْك فلم ينجحوا ، وقال قولته المشهورة : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته »[2] .

---

(١) ليثبتوك . أى : يجرحوك جراحة لا تقوم معها . وأثبت فلان ، أى : اشتدت به علته ، أو أثبتته جراحة فلم يتحرك . [لسان العرب ـ مادة : ثبت] .

(٢) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية (١/٢٦٦) معزواً لابن إسحاق .

ثم قرروا أن يقتلوه وأن يُوزِّعوا دمه بين القبائل ، وأخذوا من كل قبيلة شاباً ليضربوا محمداً ﷺ بالسيوف ضَرْبة رجلٍ واحد ، ولكنه ﷺ يهاجر فى تلك الليلة ، وهكذا لم ينجح تبييتهم :

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ ..(٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : أنه سبحانه يعلم مكرهم .

ويتابع سبحانه قائلاً :

﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦) ﴾ [إبراهيم]

أى : اطمئن يا محمد ، فلو كان مكرهم يُزيل الجبال فلنْ ينالوك ، والجبال كانت أشد الكائنات بالنسبة للعرب ، فلو كان مكرهم شديداً تزول به الجبال ، فلن يُفلِحوا معك يا رسول الله ، ولن يُزَحزِحوك عن هدفك ومهمتك .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا[1] مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الحشر]

وإذا كان مكرهم يبلغ من الشدة ما تزول به الجبال ؛ فاعلم أن الله أشدُّ بأْساً .

ويُقدِّم سبحانه من بعد ذلك حَيْثية عدم فاعلية مكْرهم ، فيقول :

---

(١) التصديع : التفريق والتشقُّق . والصَّدْع : الشق فى الشيء الصُّلب . والتصدع : تكسُّر الصخور بقوة . [لسان العرب ، المعجم الوجيز ـ مادة : صدع] .

﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ[1] ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ[2] ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ ﴾

ولو كان لمكرهم مفعولٌ أو فائدة لَمَا قال الحق سبحانه أن وعده لرسله لن يُخْلفَ ، ولكن مكرَهم فاسدٌ من أوله وبلا مفعول ، وسبحانه هو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [الصافات]

إذن : فوَعْد الله لرُسله لا يمكن أن يُخْلفَ .

والوعود فى القرآن كثيرة ؛ فهناك وَعْد الشيطان لأوليائه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ[3] وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً .. ﴿٢٦٨﴾ ﴾ [البقرة]

وهناك وَعْد من الله للمؤمنين :

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النور]

---

(١) حسب الشيء حِسْباناً : ظنه . فلا تحسبن : أى : لا تظنن . [المعجم الوجيز ـ مادة : حسب] .

(٢) العزيز : من صفات الله عز وجل وأسمائه الحسنى . قال الزجاج : هو الممتنع فلا يغلبه شيء . وقال غيره : هو القوى الغالب كل شيء . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

(٣) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٣٢١) : « أى : يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله ، وهو مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق ، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق » .

فإذا كان الحق سبحانه لا يُخلِف وَعْده لأتباع الرسول ؛ أيُخلِف وَعْده للرسول ؟

طبعاً لا ؛ لأن الوعد على إطلاقه من الله ؛ مُوفىً ؛ فكيف إذا كان للرسل وللمؤمنين ؟ يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴿٥١﴾ ﴾ [غافر]

والنصر يقتضى هزيمة المقابل ، ويحتاج النصر لصفة تناسبه ؛ والصفة المناسبة هى صدوره من عزيز لا يُغلب ؛ والهزيمة لمن كفروا تحتاج إلى صفة ؛ والصفة المناسبة هى تحقُّق الهزيمة بأمر مُنتقِم جبّار .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُواْ[1] لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ ﴾

ويُخوّفهم الحق سبحانه هنا من يوم القيامة بعد أن صوّر لهم ما سوف يدّعونه ، بأن يُؤخّر الحق حسابهم ، وأنْ يُعيدهم إلى الدنيا لعلّهم يعملون عملاً صالحاً ، ويجيبوا دعوة الرسل .

ويوضح سبحانه هنا أن الكون الذى خلقه الله سبحانه ، وطرأ

---

(١) برزوا لله : خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله . [تفسير ابن كثير ٢/٥٤٤] والبروز : الظهور والخروج . وقوله تعالى : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الكهف] أى : ظاهرة بلا جبل ولا تل ولا رمل . [لسان العرب ـ مادة : برز] .

عليه آدم وخلفتْه من بعده ذريته ؛ قد أعدّه سبحانه وسخَّره فى خدمة آدم وذريته من بعده ؛ وهم يعيشــون فى الكون بأسباب الله المَمْدودة فى أنفســهم ، والمنثــورة فى هذا الكــون لكل مـخلوق لله ، مـؤمنهم وكافرهم ؛ فمَنْ يأخذ بتلك الأسباب هو مَنْ يغلب .

وسبحانه القائل :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ[1] الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

وهكذا شاء الله أنْ يهبَ عـباده الارتقاء فى الدنيا بالأســباب ؛ أما حيـاة الآخرة فنـحن نحيـاها بالمُسـبِّب ؛ وبمجـرد أنْ تخطرَ على بال المؤمن رغبةٌ فى شىء يجده قد تحقق .

وهذا أمر لا يحتاج إلى أرض قَدَّر فيها الحق أقواتها ، وجعل فيها رواسى ؛ وأنزل عليـهـا من السـمـاء مـاء ، إذن : فـهى أرض غـيـر الأرض ؛ وســماء غـير الســماء ؛ لأن الأرض التى نعـرفهـا هى أرض أسباب ؛ والسماء التى نعرفها هى سماء أسباب .

وفى جنة الآخرة لا أسبـابَ هناك ؛ لذلك لابُدَّ أن تتبدَّل الأرض ، وكذلك السماء .

وقوله الحق :

﴿ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

فهو يعنى ألا يكون هناك أحد معهم سِوى ربهم ؛ لأن البروز هو الخروج والمواجهة .

---

(١) الحرث : الثواب والنصيب . وحرث الدنيا : كسْبها . [لسان العرب ـ مادة : حرث] .

والمؤمن وجد ربه إيماناً بالغيب فى دُنْياه ؛ وهو مؤمن به وبكل ما جاء عنه ؛ كقيام الساعة ، ووجود الجنة والنار .

وكلنا يذكر حديث رسول الله ﷺ مع أحد الصحابة[1] حين سأله الرسول ﷺ : كيف أصبحتَ ؟ فقال الصحابى : أصبحتُ مؤمناً بالله حقاً . فقال له الرسول ﷺ : لكل حق حقيقة ؛ فما حقيقة إيمانك ؟ قال الصحابى : عزفتْ نفسى عن الدنيا ، فاستوى عندى ذهبها ومدرها ـ أى : تساوى الذهب بالتراب ـ وكأنى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون . فقال له الرسول الكريم ﷺ : « عرفت فالزم »[2] .

هذا هو حال المؤمن ، أما الكافر فحاله مختلف . فهو يبرز ليجد الله الذى أنكره ، وهى مواجهة لم يَكُنْ ينتظرها ، ولذلك قال الحق سبحانه فى وَصْف ذاته هنا :

﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

وليس هناك إله آخر سيقول له « اتركهم من أجل خاطرى » .

وفى آية أخرى يقول عن هؤلاء :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ[3] بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ .. (٣٩) ﴾ [النور]

---

(١) هو : الحارث بن مالك الأنصارى . ذكره ابن حجر العسقلانى فى « الإصابة فى تمييز الصحابة » (٣٤٣/١) وعزا الحديث لابن المبارك فى الزهد .

(٢) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (٥٧/١) وعزاه للطبرانى فى الكبير من حديث الحارث ابن مالك الأنصارى .

(٣) السراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء ، وليس بماء . [القاموس القويم ٣٠٨/١] والقيعة جمع قاع ، وهى الأرض المستوية المتسعة المنبسطة وفيه يكون السراب . [تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣] .

أى : أنه يُفَاجأ بمثل هذا الموقف الذى لم يستعِد له .

وقوله :

﴿ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) ﴾ [إبراهيم]

أى : القادر على قَهْر المخلوق على غير مُرَاده .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ مُّقَرَّنِينَ[1] فِي ٱلۡأَصۡفَادِ (٤٩) ﴾

والمجـرم هو مَن ارتكب ذنباً ، وهو هنا مَن ارتكب ذنب القـمّة ، وهو الكفـر بـالله ، ومن بعـده مَن ارتكب الذنوب الـتى دون الكفـر ، وتراهم جميعاً مجموعين بعضهم مع بعض فى « قَرَنٍ » وهو الحبل ، أو القَيْد الذى يُقيَّدون به .

والأصفاد جمع صَـفَد ، وهو القيد الذى يوضع فى الرِّجْل ؛ وهو مِـثْل الخُلْخال ؛ وهناك مَنْ يُـقيَّـدون فى الأصفـاد أى : من أرجلهم ، وهناك مَنْ يقــيـد بالأغـلال . أى : أنْ توضع أيديهـم فى سـلاسل ، وتُعلَّق تلك السلاسل فى رقابهم أيضاً .

وكلُّ أصحاب جريمة مُعيّنة يجمعهم رباط واحد ، ذلك أن أهل كل جريمة تجمعهم أثناء الحياة الدنيا ـ فى الغالب ـ مودَّة وتعاطف ، أما هنا فسنجدهم متنافـرين ، وعلى عداء ، ويلعن كل منهم الآخر ؛ وكل

---

(١) مقرنيـن : مشدودين مقيـدين بعضهم مع بعض . والأصـفاد : القيود . [القامـوس القويم ١/٣٧٨] .

منهم يناكف[1] الآخر ويضايقه ، ويعلن ضيقه منه ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ الأَخِلاَّءُ[2] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وكأن كلاً منهم يُعذّب الآخر من قبل أنْ يذوقوا جميعاً العذاب الكبير .

ولذلك نجدهم يقولون :

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [فصلت]

ويقولون :

﴿ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب]

ويستكمل الحق سبحانه صورة هؤلاء المُذْنبين ؛ فيقول :

﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ[3] وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾

---

(١) قال ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : نكف : « فى نوادر الأعراب : تناكف الرجلان الكلام إذا تعاوراه » أى : رد هذا على هذا وتبادلا التقاذف بالكلام .

(٢) الأخلاء : جمع خليل ، وهو الصديق المخلص . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

(٣) القطران : مادة سوداء سائلة لزجة ، تستخرج من الخشب والفحم ونحوهما بالتقطير الجاف ، وتستعمل لحفظ الخشب من التسوس ، والحديد من الصدأ . [المعجم الوجيز ـ مادة : قطر] .

و « السرابيل » جمع « سرْبال » وهو ما يلى الجسد ، وهو ما نسميه فى عصرنا « قميص » . وإذا كان السِّرْبال من قطران ؛ فهو أسود لاذع نتن الرائحة سريع الاشتعال ؛ وتلك صفات القطران ، وهو شىء يسيل من بعض أشجار البادية وتلك صفاته ، وهم يستخدمونه لعلاج الجمال من الجرب .

وعادة يضرب الحق سبحانه المثل من الصورة القريبة إلى الذِّهن من التى يراها العربى فى بيئته .

ويقول عنهم الحق سبحانه أيضاً :

﴿ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ ﴾ [إبراهيم]

والإنسان إذا ما تعرّض لأمر يصيبه بالعطب ، فأوَّل ما يحاول الحفاظ عليه هو وجهه ، ذلك أن الوجه هو أشرف شىء فى الإنسان ، فما بالنا حين تغشى وجوه الكفرةِ النارُ ؟ إن مجرد تخيُّل ذلك أمر مؤلم .

وسبحانه يقول فى آية أخرى :

﴿ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [الزمر]

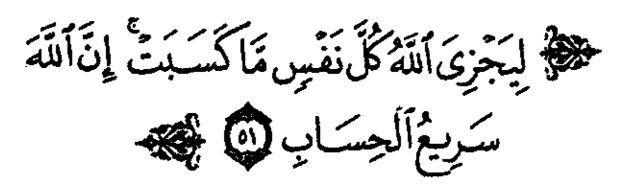
وكأن الواحد منهم من فَرْط شدة العذاب يحاول أن يدفَع هذا العذاب بوجهه ، وهكذا نجد أحاسيسَ شتَّى لهذا العذاب ؛ وهو مُؤلِم أشدّ الألم .

ويقول سبحانه فى موقع آخر :

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [القمر]

وهكذا نجد أن الوجه قد جاء فى أكثر من صورة ؛ من صور هذا العذاب .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



والجزاء أمر طبيعى فى الوجود ، وحتى الذين لا يؤمنون بإله ، ويديرون حركة حياتهم بتقنينات من عندهم قد وضعوا لأنفسهم قوانين جزاء تحدد كل جريمة والعقاب المناسب لها .

وبطبيعة الحال لا يكون أمراً غريباً أن يضع خالق الكون نظاماً للجزاء ثواباً وعقاباً ، ولو لم يَضَعْ الحق سبحانه نظاماً للجزاء بالثواب والعقاب ؛ لَنالَ كل مُفسد بُغْيته من فساده ؛ ولأحسّ أهل القيم أنهم قد خُدِعُوا فى هذه الحياة .

وما دام الجزاء أمراً طبيعياً ؛ فلا ظُلْم فيه إذن ؛ لأنه صادر عَمَّنْ قال :

﴿لا ظُلْمَ الْيَوْمَ .. (١٧)﴾ [غافر]

ولا يجازى الحق سبحانه الجزاء العنيف إلا على الجريمة العنيفة .

وقوله سبحانه :

﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ .. (٥١) ﴾ [إبراهيم]

يعنى أن المؤمن أو الكافر سَيلْقى جزاء ما فعل ؛ إنْ ثواباً أو عقاباً .

والكسب ـ كما نعلم ـ هو أن تأخذ زائداً عن الأصل ، فأنت حين تحرم نفسك من شيء فى الدنيا ؛ ستأخذ جزاء هو الثواب وما يزيد عن الأصل .

ومَنْ كسب سيئة سيأخذ عقاباً عليها ، ويُقَال « كسب السيئة » ولا يقال « اكتسبها » ذلك أن ارتكابه للسيئة صار دُرْبة سلوكية ؛ ويفرح بارتكابها ، ولابُدَّ إذن من الجزاء ؛ والجزاء يحتاج حساباً ، والحساب يحتاج ميزاناً .

وقد يقول المؤمن : إنِّى أُصدِّق ربى ، ولن يظلم ربِّى أحداً . ونقول : إن المقصود بالميزان هو إقامة الحجة ؛ ولذلك نجده سبحانه يقول :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) ﴾ [القارعة]

ويقول أيضاً :

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ [القارعة]

ونجد القسمة العقلية فى الميزان واضحة فهى مرة « ثَقُلَت »

---

(١) أى : أنه ساقط هاو بام رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقال قتادة : يهوى فى النار على رأسه . [تفسير ابن كثير ٤/٥٤٣] .

ومرة « خَفَّت » . أما مَنْ تساوت كفَّتا ميزانه ؛ فَفَسرت حالته سورة الأعراف التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ[1] رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ[2] .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

وما دام الحق سبحانه سيحاسب كل نَفْس بما كسبتْ ؛ فقد يظنُّ البعض أن ذلك سيستغرق وقتاً ؛ ولذلك يتابع سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) ﴾ [إبراهيم]

ليبين لنا أنه سبحانه سيُحاسب كل الخَلْق من لَدُن آدم إلى أنْ تقومَ الساعة بسرعة تناسب قدرته المطلقة .

وحين سأل الناسُ الإمام - علياً - كرَّم الله وجهه - : كيف سيحاسب الله الخلق كلهم دفعة واحدة ؟ أجاب الإجابة الدَّالة الشافية ، وقال : « كما يرزقهم جميعاً » .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ (٥٢) ﴾

---

(١) أصحاب الأعراف : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم حسناتهم عن النار ، فوقفوا هنالك على السور حتى يقضى الله فيهم . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ٢/٢١٦] .

(٢) السُّومة : بالضم العلامة . قال ابن عباس : يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه ، وأهل النار بسواد الوجوه . [تفسير ابن كثير ٢/٢١٨] .

وهذه الآية هى مِسْك الختام لسورة إبراهيم ، ذلك أنها ركَّزَتْ الدعوة ؛ بلاغاً صدر عن الله ليبلغه لرسوله الذى أُيِّد بالمعجزة ؛ ليحملَ منهج الحياة للإنسان الخليفة فى الأرض .

وإذا ما صدرتْ قوانينُ حركة الحياة للإنسان الخليفة فى الأرض المخلوق لله ، وجب ألاَّ يتزيَّد عليها أحدٌ بإكمال ولا بإتمام ؛ لأن الذى خلق هو الذى شرَّع ، وهذه مسألة يجب أن تكون على ذِكْر من بَالِ كل إنسان مُكلَّف .

وحين تقرأ هذا القَوْل الحكيم :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

تجد أنه يحمل إشارة إلى القرآن كله ؛ ذلك أن حدود البلاغ هو كل شىء نزل من عند الله .

وقول الحق سبحانه :

﴿ هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

قد أعطانا ما يعطيه النص القانونى الحديث ، ذلك أن النصَّ القانونى الحديث يوضح أنه لا عقوبةَ إلا بنصٍّ يُجرِّم الفعل ، ولابُدَّ من إعلان النصِّ لكافَّة الناس ؛ ولذلك تُنشَر القوانين فى الجريدة الرسمية للدولة ؛ كى لا يقولَ أحد : أنا أجهل صدور القانون .

وكلنا يعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (١٥) ﴾ [الإسراء]

فمهمة الرسول - إذنْ - هى البلاغ عن الله لمنهج الحياة الذى يصون حركة الحياة .

ويقول سبحانه عن مهمة الرسول :

﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) ﴾ [الرعد]

ويقول سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ .. (٣٩) ﴾ [الأحزاب]

ويقول الحق سبحانه على لسان الرسول[1] :

﴿ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى .. (٩٣) ﴾ [الأعراف]

ويقول أيضاً :

﴿ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ .. (٥٧) ﴾ [هود]

وهكذا لا توجد حُجّة لقائل : إنى أُخذْتُ بذنب لم أعرف أنه ذنبٌ وقْتَ التكليف . لا حُجّة لقائل مثل هذا القول ؛ لأن الحق سبحانه يقول فى نفس الآية :

﴿ وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

والإنذار : تخويف بشرٍّ سوف يقع من قبل زمنه ، ليوضح لك

---

(١) الرسول هنا هو شعيب عليه السلام ، فقد قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣) ﴾ [الأعراف] .

بشاعة المخالفة ، وكذلك التبشير هو تنبيه لخير قادم لم يَأتِ أوانه كي تستعدّ لاستقباله.

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿هَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢)﴾ [إبراهيم]

يتضمن البشارة أيضاً ؛ ولكنه يركز ويؤكد من بعد ذلك في قوله :

﴿وَلِيُنذَرُوا بِهِ .. (٥٢)﴾ [إبراهيم]

لأن الخيبة ستقع على مرتكب الذنوب .

وأقول : إن الإنذار هنا هو نعمة ؛ لأنه يُذكِّر الإنسان فلا يُقدِم على ارتكاب الذنب أو المعصية ، فساعةَ تُقدم للإنسان مغبة[1] العملَ السيء ؛ فكأنك تُقدم إليه نعمة ، وتُسدى إليه جميلاً ومعروفاً .

ويتابع سبحانه :

﴿وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ.. (٥٢)﴾ [إبراهيم]

وهذه هى القضية العقدية الأولى ، والتى تأتى فى قمّة كل القضايا ؛ فهو إله واحد نصدر جميعاً عن أمره ؛ لأن الأمر الهام فى هذه الحياة أن تتضافر حركة الأحياء وتتساند ؛ لا أن تتعاند . ولا يرتقى بنيان ، ما إذا كنتَ أنت تبنى يوماً ليأتى غيرك فيهدم ما بنيتَ .

---

(١) الغبّ من كل شيء : عاقبته وآخرته . وكذلك المغبة . [المعجم الوجيز ـ مادة : غبب] .

ومهمة حركة الحياة أن نُؤدِّى مهمتنا كخلفاء لله فى الأرض ؛ بأن تتعاضدَ مواهبنا ، لا أن تتعارضَ ، فيتحرك المجتمع الإنسانى كله فى اتجاه واحد ؛ لأنه من إله واحد وأمر واحد .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهَـٰذَا بَلاغٌ لِّلنَّاسِ ..(٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فهو يحدد لنا قوَام الدين بعد تلقِّيه من رسول الله ﷺ أنْ يُبلِّغه مَنْ سمعه لمن لم يسمعه .

ولذلك قال ﷺ : « نضَّر[1] الله امْرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى مَنْ لم يسمعها »[2] .

وذلك لتبقى سلسلة البلاغ متصلة ، وإنْ لم يُبلغ قوم فالوِزْر على مَنْ لم يُبلِّغ ، وبذلك يحرم نفسه من شرف التبعية لرسول الله ﷺ، فَمنْ يعلم حكماً من أحكام الدين ؛ فالمطلوب منه هو تبليغه للغير ؛ مثلما طلب الحق سبحانه من رسوله أن يُبلِّغ أحكامه .

والحق سبحانه هو القائل :

---

(١) نضر الله وجهه : نعَّمه . والنضرة : النَّعْمة والحُسْن والرونق . وقال الحسن المؤدِّب : ليس هذا من الحسن فى الوجه ، إنما معناه : حسَّن الله وجهه في خُلُقه . أى : جاهه وقدره . [لسان العرب ـ مادة : نضر] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤٣٧/١) ، والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) ، وابن ماجه في سننه (٢٣٢) والحميدى فى مسنده (٤٧/١) من حديث عبدالله بن مسعود رضى الله عنه .

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا[1] لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ..(١٤٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا شهد الرسول ﷺ أنه بلَّغكم وبَقِى على كل مسلم يعلم حُكْماً من أحكام الدين أن يُبلِّغه لِمَنْ لا يعرفه ؛ فقد ينتفع به أكثر منه ؛ وبعد أن سمع الحكم قد يعمل به ، بينما مَنْ أبلغه الحكم لا يعمل به .

ولذلك قال ﷺ : « رُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع »[2] .

ولذلك أقول دائماً : إياك أن تخلط بين المعلومة التى تُقال لك ؛ وبين سلوك مَنْ قالها لك ، ولنسمع الشاعر الذى قال :

خُذْ عِلْمى ولاَ تركَنْ إلى عَملِى وَاجْنِ الثمارَ وخَلِّ العُودَ للحطَبِ

وهكذا يتحمل المسلم مسئولية الإبلاغِ بما يعرف من أحكام الدين لمن لا عِلْمَ لهم بها ؛ لتظل الرسالة موصولة ، وكلنا نعلم أن الحق سبحانه قد قال :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

أى : أنكم يا أمة محمد ، قد أخذتم مهمة الأنبياء .

---

(١) أمة وسطاً : أى : أمة فاضلة خيِّرة ، فالوسط خير الطرفين . [القاموس القويم ٢/٣٣٦] .

(٢) تمام الحديث : « نضر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأداها إلى من لم يسمعها .. » الحديث ، وقد سبق تخريجه صفحة (٧٦٢٣) .

ولأن البلاغ قد جاء من الله على الرسول ﷺ ، والرسول أمين فى تبليغه ؛ لذلك لا يمكن أنْ يصدرَ عن الواحد الحكيم أوامر متضاربة ، ولكن التضارب إنما ينشأ من اختلاف الآمر ؛ أو من عدم حكمة الآمر ، ولْنُدقِّق جيداً فى قول الحق سبحانه :

﴿ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَـهٌ وَاحِدٌ .. (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

فكلمة « واحد » جاءت لتمنع مجرد تصوُّر الشراكة ؛ فلا أحدَ مثله ، وهو أحدٌ غير مُركَّب من أجزاء ؛ فليس له أجهزة تشبه أجهزة البشر مثلاً ؛ فلو كان له أجهزة لكانَ فى ذاته يحتاجُ لأبعاضه ، وهذا لا يصِحُّ ولا يمكن تخيُّله مع الله سبحانه وتعالى .

وتلك هى القضية الأساسية التى يعيها أولو الألباب الذين يستقبلون هذا البلاغ . وأولو الألباب هى جمع ، ومفرد « ألباب » هو « لُبّ » ، ولُبّ الشىء هو حقيقة جوهره ؛ لأن القشرةَ توجد لتحفظَ هذا اللُّب ، والمحفوظ دائماً هو أنفَسُ من الشىء الذى يُغلِّفه ليحفظه .

وهكذا يكون أولو الألباب هم البشر الذين يستقبلون القضية الإيمانية بعقولهم ؛ ويُحرِّكون عقولهم ليتذكروها دائماً ؛ ذلك أن مشاغل الحياة ومُتعتها وشهواتها قد تَصْرِف الإنسان عن المنهج ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٥٢) ﴾ [إبراهيم]

أى : يتذكر أصحاب العقول أن الله واحدٌ أحد ؛ فلا إلهَ إلا هو ؛ ولذلك شهد سبحانه لنفسه قبل أنْ يشهَد له أىُّ كائن آخر ، وقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ ..(١٨) ﴾ [آل عمران]

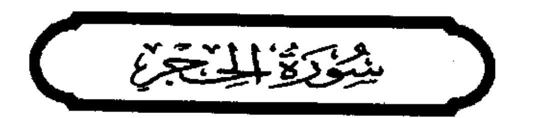
وهذه شهادةُ الذات للذاتِ ، ويُضيف سبحانه :

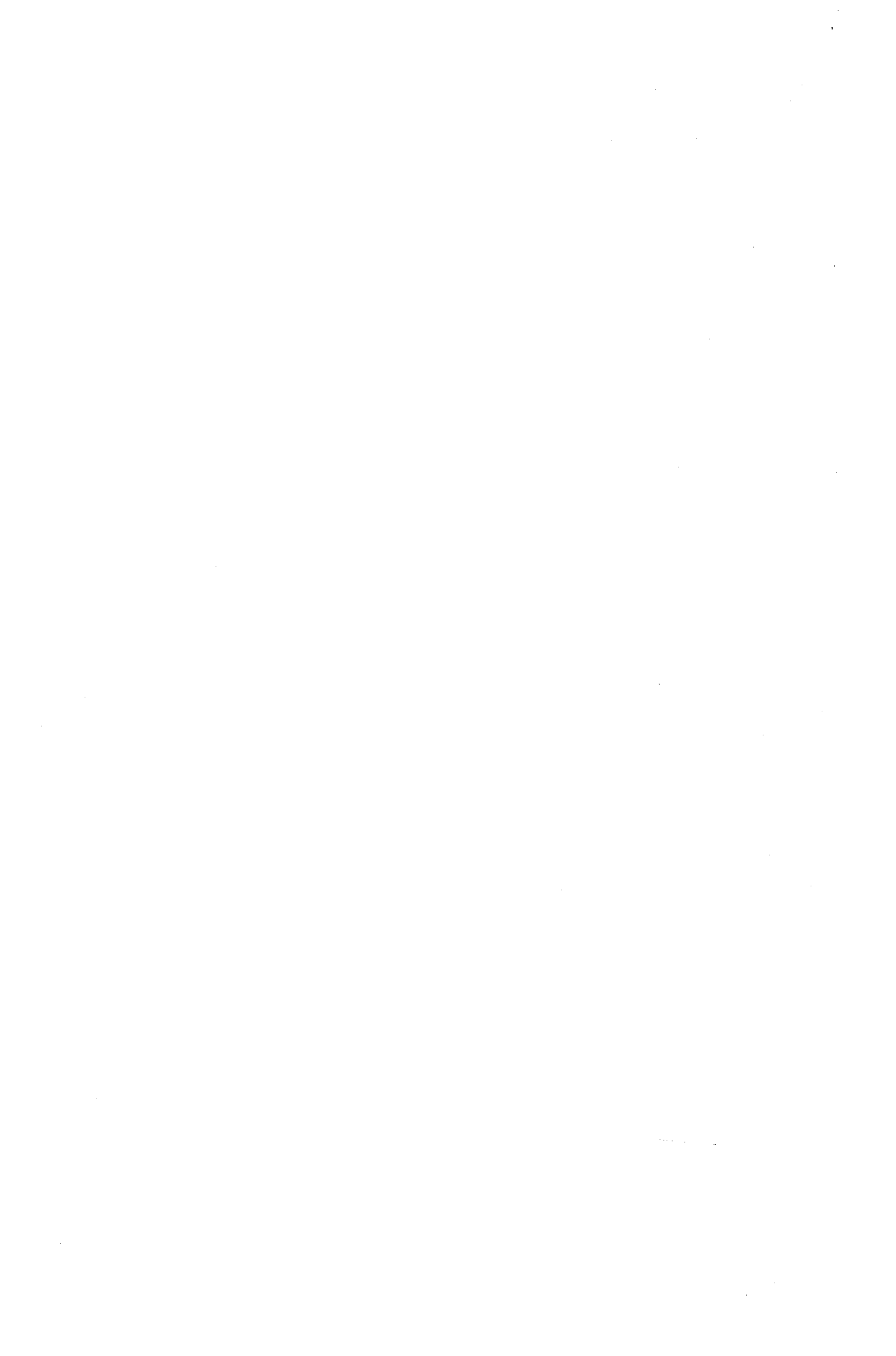
﴿ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾ [آل عمران]

وشهادة الملائكة هى شهادة المُواجهة التى عايشوها ، وشهادة أُولى الألبابِ هى شهادة الاستدلال .

وشهد الحق سبحانه أيضاً لرسوله محمد ﷺ أنه رسول ؛ وكذلك شهد الرسول لنفسه ، فهو يقول مثلنا جميعاً : « أشهد ألا إله إلا الله ، وأشهد أن محمداً رسول الله » .

وهكذا فعلى أُولى الألباب مهمة . أنْ يتذكَّروا ويُذكِّروا بأنه إله واحد أحدٌ .

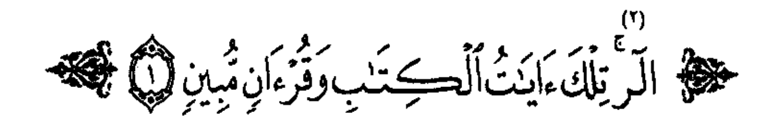

سورة الحجر



بسم الله الرحمن الرحيم

السورة التى نبدأ خواطرنا عنهـا هى سورة الحجر[1] تبدأ بالكلام عن جامع البـلاغ ، ومنهج لحياة الـحياة وهو القـرآن الكريم الذى قد جاء بالخبر اليقين فى قضـية الألوهية الواحدة ، والتى ذكرنا فى آخر السورة السابقة بأن أولى الألباب يستقبلونها بعقولهم .

ويقول الحق سبحانه فى مُسْتهل السورة :


﴿ الٓر[2] تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾

(١) هذه السورة هى السورة الخامسة عشـر من القرآن بترتيب المصحف ، وهى سورة مكية ، عدد آياتها ٩٩ آية ، بدايتها هى بداية الجزء ١٤ من القرآن . وقـد سميت سورة الحجر بهذا الاسم نسبة إلى أصحاب الحجـر المذكورين فى الآية (٨٠) من السورة ، وهم قوم ثمود أرسل لهم الله صالحاً رسولاً فكذبوه . والحجر : ديار ثمود ناحية الشام عند وادى القرى . والحجر أيضـاً فى معناه اللغوى : العقل . وقد أنزلت هذه السورة بعـد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام . على ما أورده السيوطى فى علوم القرآن (٢٧/١) .

(٢) قال السـيوطى فى الإتقان (٢١/٣) : « خاض فى مـعناها علماء ، فأخـرج ابن أبى حاتم وغـيـره من طريق أبى الضـحى عن ابن عـبـاس فى قـوله (الر) : أنا الله أرى . وأخـرج أبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظى ، قال : (الر) من الرحمن . وقيل : (الر) معناه : أنا الله أعلم وأرفع . حكاه الكرمـانى فى غـرائبه » . ثم قـال : « والمـختـار فيـها أنهـا من الأسرار التى لا يعلمـها إلا الله تعـالى . وقال الشعـبى : إن لكل كتاب سـراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور » .

والسورة كما نرى قد افْتُتِحَتْ بالحروف التوقيفية ؛ والتى قلنا : إن جبريل عليه السلام نزل وقرأها هكذا ؛ وحفظها رسول الله ﷺ وأبلغها لنا ﷺ هكذا ؛ وهى قد نزلتْ أوَّل ما نزلت على قوم برعوا فى اللغة ؛ وهم أهل فصاحة وبيان ، ولم نجد منهم مَنْ يستنكرها .

وهى حروف مُقطَّعة تُنطَق بأسماء الحروف لا مُسمَّياتها ، ونعلم أن لكل حرف اسماً ، وله مسمى ؛ فحين نقول أو نكتب كلمة « كتب » ؛ فنحن نضع حروفاً هى الكاف والباء والتاء بجانب بعضها البعض ، لِتكوّن الكلمة كما ننطقها أو نقرؤها .

ويقال عن ذلك إنها مُسمَّيات الحروف ، أما أسماء الحروف ؛ فهى « كاف » و « باء » و « تاء » . ولا يعرف أسماء الحروف إلا المُتعلِّم ؛ ولذلك حين تريد أن تختبر واحداً فى القراءة والكتابة تقول له : تَهَجَّ حروف الكلمة التى تكتبها ، فإن نطق أسماءَ الحروف ؛ عرفنا أنه يُجيد القراءة والكتابة .

وهذا القرآن ـ كما نعلم ـ نزل مُعجِزاً للعرب الذين نبغوا فى اللغة ، وكانوا يقيمون لها أسواقاً ؛ مثل المعارض التى نقيمها نحن لصناعاتنا المتقدمة .

ولذلك شاء الحق سبحانه أن تأتى معجزة الرسول الخاتم من جنس ما نبغوا فيه ؛ فلو كانت المعجزة من جنسٍ غير ما نبغوا فيه ولم يألفوه لَقَالوا : لو تعلمنا هذا الأمر لَصنعْنَا ما يفوقه .

وجاءتهم معجزة القرآن من نفس الجنس الذى نبغُوا فيه ،

وباللـغــة العـربيـة وبنفس المُــفْـردات المُكوّنة من الـحـروف التى تُكوِّنون منها كلماتكم ، والذى جعل القرآن مُعْجزاً أن المُتكلّم به خالق وليس مـخـلوقـاً . وفى « الر » نفس الخـامات التى تصـنعون منهـا لُغتكم .

وهذا بعض ما أمكن أن يلتـقطه العلماء من فـواتح السور . علينا أن نعلم أن الله فى كلماته أسراراً ؛ فهو القائل سبحانه :

﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَـابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّـحْكَمَـاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ[1] فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

أى : أن القرآن به آيات مُحْكمـات ، هى آيات الأحكام التى يترتب عليها الـثواب والعقاب ، أما الآيات المـتشابهات فـهى مثل تلك الآيات التى تبـدأ بهـا فـواتـح بعض من الســور ؛ ومَنْ فى قلـوبهم زَيْغ يتساءلون : ما معناها ؟

وهم يقولون ذلك لا بَحْثاً عن معنى ؛ ولكن رغبةً للفتنة .

ولهؤلاء نقول : أتريدون أنْ تفهموا كل شىء بعقولكم ؟ إن العقل ليس إلا وسيلةَ إدراك ؛ مِثْله مِثْل العين ، ومِثْل الأذن .

فـهل ترى عينـاك كل ما يمكن أن يُرَى ؟ طـبعـاً لا ؛ لأن للرؤية

(١) الزيغ : الميل . يقال : زاغ عن الطريق إذا عدل عنه . [لسان العرب ـ مادة : زيغ] .

بالعين قوانينَ وحدوداً ، فإنْ كنتَ بعيداً بمسافة كبيرة عن الشيء فلن تراه ؛ ذلك أن العين لا ترى أبعد من حدود الأفق .

وكل إنسان يختلف أُفْقه حَسْب قوة بصره ؛ فهناك مَنْ أنعم الله عليه ببصر قوى وحادٌّ ؛ وهناك مَنْ هو ضعيفُ البصرِ ؛ ويحتاج إلى نظارة طبية تساعده على دِقّة الإبصار .

فإذا كانت للعين - وهى وسيلة إدراك المرائى - حدود ، وإذا كانت للأذن ، وهى وسيلة إدراك الأصوات بحد المسافة الموجية للصوت ؛ فلابُدَّ أن تكون هناك حدود للعقل ، فهناك ما يمكن أن تفهمه ؛ وهناك مَا لا يمكن أن تفهمه .

والرسول ﷺ قال عن آيات القرآن : « ما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به »[1] .

وذلك حفاظاً على مواقيت ومواعيد ميلاد أىِّ سِرٍّ من الأسرار المكنونة فى القرآن الكريم ، فلو أن القرآن قد أعطى كل أسراره فى أول قَرْن نزل فيه ؛ فكيف يستقبل القرونَ الأخرى بدون سِرٍّ جديد ؟

إذن : فكُلَّما ارتقى العقل البشرى ؛ كلما أذن الله بكشف سِرٍّ من أسرار القرآن . ولا أحد بقادر على أن يجادل فى آيات الأحكام .

---

(١) تمام هذا الحديث : « إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه منه فآمنوا به » عزاه ابن كثير فى تفسيره (٣٤٦/١) لابن مردويه من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص ، وأورده السيوطى فى الدر المنثور (١٥٤/٢) وعزاه لنصر المقدسى فى الحجة .

ويقول الحق سبحانه عن الآيات المتشابهة :

﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ ـ وَالرَّاسِخُونَ[١] فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا .. (٧) ﴾ [آل عمران]

وهناك مَنْ يقرأ هذه الآية كالآتى : « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم ـ » وتناسى مَنْ يقرأ تلك القراءة[٢] أن مُنْتهى الرسوخ فى العلم أن تؤمن بتلك الآيات كما هى[٣] .

والحق سبحانه هنا يقول :

﴿ الَر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ (١) ﴾ [الحجر]

و (تلك) إشارة لما سبق ولمَا هو قادم من الكتاب ، و (آيات) جمع « آية » . وهى : الشىء العجيب الذى يُلْتفت إليه . والآيات إما أنْ تكونَ كونية كالليل والنهار والشمس والقمر لتثبت الوجود الأعلى ، وإما أنْ تكونَ الآيات المُعْجزة الدالة على صدْق البلاغ عن الله وهى معجزات الرسل ، وإما أن تكونَ آيات القرآن التى تحمل المنهج للناس كافّة .

---

(١) الراسخون فى العلم : المتمكنون فيه . وأورد السيوطى فى الدر المنثور (٢/١٥١) أن رسول الله ﷺ قال : « من برت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، وعف بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين فى العلم » عزاه لابن جرير الطبرى وابن أبى حاتم والطبرانى عن أنس وأبى أمامة وأبى الدرداء .

(٢) مقتضى هذه القراءة الوقف اللازم على كلمة العلم ، ويكون معنى الآية أن الراسخين فى العلم يعلمون تأويل الآيات المتشابهة . أما القراءة الأولى ، فالوقف على لفظ الجلالة (الله) معناه أن الله وحده هو عالم تأويل الآيات المتشابهة . (انظر : تفسير ابن كثير ١/٣٤٧) .

(٣) قالت عائشة رضى الله عنها : كان رسوخهم فى العلم أن آمنوا بمحكمه ومتشابهه ولم يعلموا تأويله . أورده السيوطى فى الدر المنثور (٢/١٥١) وعزاه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

ويضيف الحق سبحانه :

﴿ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ① ﴾ [الحجر]

فهل الكتاب هو شيء غير القرآن ؟ ونقول : إن الكتاب إذا أُطلق ؛ فهو ينصرف إلى كل ما نزل من الله على الرسل ؛ كصحف إبراهيم ، وزبور داود ، وتوراة موسى ، وإنجيل عيسى ؛ وكل تلك كتب ، ولذلك يسمونهم « أهل كتاب » .

أما إذا جاءت كلمة « الكتاب » مُعرَّفة بالألف واللام ؛ فلا ينصرف إلا للقرآن ، لأنه نزل كتاباً خاتماً ، ومُهيْمناً على الكتب الأخرى .

وبعد ذلك جاء بالوصف الخاص وهو (قرآن) ، وبذلك يكون قد عطف خاصاً على عَامٍّ ، فالكتاب هو القرآن ، ودلّ بهذا على أنه سيكتب كتاباً ، وكان مكتوباً من قبل فى اللوح المحفوظ .

وإن قيل : إن الكتب السابقة قد كُتبت أيضاً ؛ فالردّ هو أن تلك الكتب قد كُتبت بعد أن نزلتْ بفترة طَويلة ، ولم تُكتب مثْل القرآن ساعة التلقِّى من جبريل عليه السلام ، فالقرآن يتميز بأنه قد كُتب فى نفس زمن نُزوله ، ولم يُترك لقرون كبقية الكتب ثم بُدِىء فى كتابته .

والقرآن يُوصَف بأنه مُبِين فى ذاته ومُبِين لغيره ؛ وهو أيضاً مُحيط بكل شىء .

وسبحانه القائل :

﴿ مَّا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ .. ㊳ ﴾ [الأنعام]

وأىُّ أمر يحتاج لحكم ؛ فإما أن تجده مُفصَّلاً فى القرآن ، أو نسأل فيه أهل الذكر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ[1] إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧)﴾ [الأنبياء]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ (٢)﴾

و « رُبَّ » حرف يستعمل للتقليل ، ويُستعمل أيضاً للتكثير على حَسْب ما يأتى من بعده ، وهو حَرْفٌ الأصل فيه أن يدخلَ على المفرد . ونحن نقول « رُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمك » وذلك للتقليل ، مثلما نقول « ربما ينجح الكسول » .

ولكن لو قُلْنا « ربما ينجح الذكى » فهذا للتكثير ، وفى هذا استعمال للشىء فى نقيضه ، إيقاظاً للعقل كى ينتبه .

وهنا جاء الحق سبحانه :

بـ « رُب » ومعها حرف « مَا » ومن بعدهما فعل[2] . ومن العيب أن تقول : إن « ما » هنا زائدة ؛ ذلك أن المتكلم هو رَبُّ كل العباد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢)﴾ [الحجر]

---

(١) الذكر : القرآن والكتب المنزلة كلها . أى : اسألوا أهل العلم من الأمم كاليهود والنصارى وسائر الطوائف : هل كل الرسل الذين أتوهم بشراً أو ملائكة ؟ [تفسير ابن كثير ١ / ١٧٤].

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٢٥) : « رُبَّ لا تدخل على الفعل ، فإذا لحقتها « ما » هيأتها للدخول على الفعل » وقال ابن هشام فى « مغنى اللبيب » (١/ ١٢٠) : « إذا زيدت « ما » بعد « رب » ، فالغالب أن تكفها عن العمل ، وأن تهيئها للدخول على الجمل الفعلية ، وأن يكون الفعل ماضياً لفظاً ومعنى » .

فهل سيأتى وقت يتمنى فيه أهل الكفر أنْ يُسلموا ؟ إن « يودّ » تعنى « يحب » و « يميل » و « يتمنى » ، وكل شىء تميل إليه وتتمناه يسمى « طلب » .

ويقال فى اللغة : إن طلبت أمراً يمكن أن يتحقق ، ويمكن ألاّ يتحقق ؛ فإنْ قُلْتَ : « يا ليت الشبابَ يعود يوماً » فهذا طَلَبٌ لا يمكن أن يتحققَ ؛ لذلك يُقال إنه « تمنى » . وإنْ قلت « لعلِّى أزور فلاناً » فهذا يُسمَّى رجاء ؛ لأنه من الممكن أن تزور فلاناً . وقد تقول : « كم عندك ؟ » بهدف أن تعرف الصورة الذهنية لمَنْ يجلس إليه مَنْ تسأله هذا السؤال ، وهذا يُسمّى استفهاماً .

وهكذا إنْ كنت قد طلبتَ عزيزاً لا يُنال فهو تمنٍّ ؛ وإن كنت قد طلبتَ ما يمكن أن يُنَال فهو الترجىّ ، وإنْ كنتَ قد طلبتَ صورته لا حقيقته فهو استفهام ، ولكن إنْ طلبت حقيقة الشىء ؛ فأنت تطلبه كى لا تفعل الفعل .

والطلب هنا فى هذه الآية ؛ يقول :

﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ﴾ [الحجر]

فهل يتأتّى هذا الطلب ؟

ولْنَر متى يودُّون ذلك . إن ذلك التمنِّى سوف يحدث إنْ وقعتْ لهم أحداثٌ تنزع منهم العناد ؛ فيأخذون المسائل بالمقاييس الحقيقية .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَجَحَدُوا[1] بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

---

(١) جحد الحق : أنكره وهو يعلمه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وقد حدث لهم حين وقعت غزوة بدر ، ونال منهم المسلمون الغنائم أنْ قالوا : يا ليتنا كنا مسلمين ، وأخذنا تلك الغنائم[1] .

أى : أن هذا التمنِّى قد حدث فى الدنيا ، ولسوف يحدث هذا عند موت أحدهم .

يقول الحق سبحانه :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

ويعلق الحق سبحانه على هذا القول :

﴿ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

وسيتمنون أيضاً أن يكونوا مسلمين ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (١٢) ﴾ [السجدة]

إذن : فسيأتى وقت يتمنّى فيه الكفار أن يكونوا مسلمين ، إذَا مَا عاينوا شيئاً ينزع منهم جحودهم وعنادهم ، ويقول لهم : إن الحياة التى كنتم تتمسَّكون بها فانية ؛ ولكنكم تطلبون أن تكونوا مسلمين وقتَ أنْ زالَ التكليف ، وقد فات الأوان .

ويكفى المسلمين فَخْراً أنْ كانوا على دين الله ، واستمسكوا بالتكليف ، ويكفيكم عاراً أنْ خَسِرْتم هذا الخسران المبين ، وتتحسروا على أنكم لم تكونوا مسلمين .

---

(١) أورد السيوطى فى الدر المنثور (٥/٦١) عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا : « ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ » .

وفى اليوم الآخر يُعذِّب الحق سبحانه العصاة من المسلمين الذين لم يتوبوا من ذنوبهم ، ولم يستغفروا الحق سبحانه ، أو ممَّنْ لم يغفر لهم سبحانه وتعالى ذنوبهم ؛ لعدم إخلاص النية وحُسْن الطوية عند الاستغفار ، ويدخل فى ذلك أهل النفاق مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ.. (٨٠) ﴾ [التوبة]

فيدخلون النار ليأخذوا قدراً من العذاب على قدر ما عَصَوْا ، وينظر لهم الكفار قائلين :

ما أغنتْ عنكم لا إله إلا الله شيئاً ، فأنتم معنا فى النار .

ويطلع الحق سبحانه على ذلك فيغار على كل مَنْ قال لا إله إلا الله ؛ فيقول : أخرجوهم وطهِّروهم وعُودوا بهم إلى الجنة ، وحينئذ يقول الكافرون : يا ليتنا كنا مسلمين ، لنخرج من النار ، ونلحق بأهل الجنة[1] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣) ﴾

و (ذرهم) أمْر بأن يدعَهم ويتركهم . وسبحانه قال مرة (ذرهم) ، ومرة قال :

﴿ وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ[2] .. (١١) ﴾ [المزمل]

---

(١) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٦٢/٥) من حديث أبى موسى الأشعرى ، وعزاه لابن أبى عاصم فى السنة ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى البعث والنشور .

(٢) النعْمة : التنعيم ، والمسرة والفرح والترفُّه . [لسان العرب ـ مادة : نعم] .

أى : اتركهم لى ، فأنا الذى أعاقبهم ، وأنا الذى أعلم أجلَ الإمهال ، وأجلَ العقوبة .

ويستعمل من « ذَرْهم » فعل مضارع هو « يَذَر » ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ .. (١٢٧) ﴾ [الأعراف]

ولم يستعمل منها فى اللغة فعْل ماضٍ ، إلا فيما رُوِى من حديث رسول الله ﷺ « ذروا اليمنَ ما ذَروكم » ، أى : اتركوهم ما تركوكم .

ويشارك فى هذا الفعل فعل آخر هو « دَعْ » بمعنى « اترك » . وقيل : أهملت العرب ماضى « يدع » و « يذر » إلا فى قراءةٍ[1] فى قول الحق سبحانه :

﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) ﴾ [الضحى]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا .. (٣) ﴾ [الحجر]

ونحن أيضاً نأكل ، وهناك فرْق بين الأكل كوقود للحركة وبين الأكل كلذّة وتمتُّع ، والحيوانات تأكل لتأخذ الطاقة بدليل أنها حين تشبع ؛ لا يستطيع أحد أنْ يُجبرها على أكل عود برسيم زائد .

أما الإنسان فبعد أن يأكل ويغسل يديه ؛ ثم يرى صِنْفاً جديداً

---

(١) هى قراءة عروة بن الزبير . والمعنى فيهما واحد (ودَّعك ، ودَعك) . أى : ما تركك ربك . [لسان العرب ـ مادة : ودع] .

من الطعـام فهـو يمدُّ يده ليـأكلَ منه ؛ ذلك أن الإنسـان يأكل شهـوةً ومتعةً ، بجانب أنه يأكل كوقود للحركة .

والفرق بيننا وبينـهم أننا نأكل لتتكوَّن عندنا الطاقة ؛ فـإنْ جاءت اللذة مع الطعام فأهلاً بها ؛ ذلك أننا فى بعض الأحيان نأكل ونتلذذ ، لكن الطعام لا يمرى[1] علينا ؛ بل يُتعبِنا ؛ فنطلب المُهْـضِمات من مياه غازية وأدوية .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول : « بحسْب ابن آدم لُقيْمات يُقِمْنَ صُلْبه »[2] .

أى : أنه ﷺ ينهانا عن أن نأكل بالشهوة واللذة فقط .

ولنلحظ الفارق بين طعام الدنيـا وطعام الجنة فى الآخرة ؛ فهناك سوف نأكل الطعـام الذى نستلذّ به ويَمْرِى علينا ؛ بـينما نحن نُضطر فى الدنيا ـ فى بعض الأحيان ـ أن نأكـلَ الطعام بدون ملْح ومسلوقاً كى يحـفظ لنا الصحـة ؛ ولا يُتعِـبنا ؛ وهو أكل مَـرِىء وليس طعامـاً هنيئاً ، ولكن طعام الآخرة هَنِىءٌ ومَرِىءٌ .

وعلى ذلك نفهم قول الحق سبحانه :

﴿ ذَرْهُمْ يأْكُلُوا ويتمتَّعُوا ..۝٣ ﴾ [الحجر]

أى : أن يأكلوا أكْلاً مقصوداً لذات اللذَّة فقط .

---

(١) طعام مـرىء هنىء : حميـد المغبـة بيِّن المراءة . ومرُء الـطعام : سهل فى الحلق وحُـمدت عاقبته وخلا من التنغيص . [القاموس القويم ٢/ ٢٢٠] .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/ ١٣٢) وابن مـاجة فى سننه (٣٣٤٩) من حديث المقدام بن معـد يكرب ، وتمامـه : « ما مـلأ آدمى وعاء شـراً من بطن ، حسب الآدمى لقـيمات يـقمن صلبه ، فإن غلبت الآدمى نفسه : فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس » .

ويقول الحق سبحانه متابعاً :

﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ ③ ﴾ [الحجر]

أى : أن يَنصبوا لأنفسهم غايات سعيدة ؛ تُلهيهم عن وسيلة ينتفعون بها ؛ ولذلك يقول المثل العربى : « الأمل بدون عمل تلصُّص » فما دُمْت تأمل أملاً ؛ فلا بُدَّ أن تخدمه بالعمل لتحققه .

ولكن المثل على الأمل الخادع هو ما جاء به الحق سبحانه على لسان مَنْ غَرَّتْه النعمة ، فقال :

﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا ㉟ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ㊱ ﴾ [الكهف]

ولكن الساعة ستقوم رَغْماً عن أَنْف الآمال الكاذبة ، والسراب المخادع .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ ﴾ [الحجر]

وكلمة (سوف) تدل على أن الزمن مُتراخٍ قليلاً ؛ فالأفعال مثل « يعلم » تعنى أن الإنسان قد يعلم الآن ؛ ويعلم من بَعْد الآن بوقت قصير ، أما حين نقول « سوف يعلم » فتشمل كل الأزمنة .

فالنصر يتحقق للمؤمنين بإذن من الله دائماً ؛ أما غير المؤمنين فلسوف يتمنَّوْنَ الإيمان ؛ كما قُلْنا وأوضحنا من قبل .

وهكذا نرى أن قَوْله :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ③ ﴾ [الحجر]

يشمل كُلّ الأزمنة . وقد صنع الحق سبحانه فى الدنيا أشياء تُؤذن بصدْق وَعْده ، والذين يظنُّون أنهم يسيطرون على كُلِّ الحياة يُفاجِئهم زلزال ؛ فيهدم كل شىء ، على الرغم من التقدُّم فيما يُسمّى « الاستشعار عن بُعْد » وغير ذلك من فروع العلم التطبيقى .

وفى نفس الوقت نرى الحمير التى نتهمها بأنها لا تفهم شيئاً تهُبُّ - هى والماشية - من قبل الزلزال لتخرج إلى الخلاء بعيداً عن الحظائر التى قد تتهدم عليها ، وفى مثل هذا التصرُّف الغريزى عند الحيوانات تحطيمٌ وأدَب للغرور الإنسانى ، فمهما قاده الغرور ، وادعى أنه مالك لناصية العلم ، فهو ما زال جاهلاً وجهولاً .

وكذلك نجد مَنْ يقول عن البلاد المُمطرة : إنها بلاد لا ينقطع ماؤها ، لذلك لا تنقطع خُضْرتها . ثم يصيب تلك البلادَ جفافٌ لا تعرف له سبباً ، وفى كل ذلك تنبيهٌ للبشر كى لا يقعوا أسْرى للغرور .

ويقول سبحانه من بعد ذلك ضارباً لهم المثل :



أى : أنه سبحانه لا يأمر بهلاك أىّ قرية إلا فى الأجل المكتوب لها . ويجعلها من المُثل التى يراها مَنْ يأتى بعدها لعله يتعظ ويتعرَّف على حقيقة الإيمان .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[1] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ[2] بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

والمثَل القريب من الذاكرة « لبنان » التى عاشت إلى ما قبل الخمسينيات كبلد لا تجد فيه فندقاً لائقاً ، ثم ازدهرتْ وانتعشتْ فى الستينيات والسبعينيات ؛ واستشرى فيها الفساد ؛ فقال أهل المعرفة بالله : « لا بُدّ أن يصيبها ما يصيب القرى الكافرة بأنعُمِ الله » .

وقد حدث ذلك وقامت فيها الحرب الأهلية ، وانطبق عليها قول الحق سبحانه :

﴿ وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ .. (٦٥) ﴾ [الأنعام]

وهذا ما يحدث فى الدنيا ، وهى مُقدّمات تُؤكّد صدْق ما سوف يحدث فى الآخرة .

وسبحانه القائل :

﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلاَّ نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَاباً شَدِيداً كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨) ﴾ [الإسراء]

وبطبيعة الحال ؛ فهذا ما يحدث لأىِّ قرية ظالم أهلُها ؛ لأن الحق سبحانه لا يظلم مثْقال ذرّة .

وأذكر أن تفسير النسفى[3] قد صُودر فى عصر سابق ؛ لأن

---

(١) رغد العيش : اتسع وطاب . والرغْد : الكثير الواسع الذى لا يُعييك من مال أو ماء أو عيش أو كلأ . [لسان العرب ـ مادة : رغد] .

(٢) كُفْر النعمة : جحودها . كفر النعمة : جحدها ولم يشكرها ولم يشكر من قدمها له ، أو كان سبباً فيها بل أنكر فضله . [القاموس القويم ٢/١٦٤] .

(٣) هو : أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى ، فقيه حنفى ، مفسر من أهل إيذج ووفاته فيها . نسبته إلى « نسف » ببلاد السند ، بين جيحون وسمرقند . توفى عام (٧١٠ هـ) (الأعلام للزركلى ٤/٦٧) .

صاحب التفسير قال عند تفسيره لهذه الآية : « حدثنى فلان عن فلان أن البلد الفلانى سيحصل فيه كذا ؛ والبلد الآخر سوف يحدث فيه كذا إلى أن جاء إلى مصر وقال بالنص : ويدخل مصر رجل من جهينة ، فويْل لأهلها ، ووَيْل لأهل سوريا ، ووَيْل لأهل الرَّمْلة ، ووَيْل لأهل فلسطين ، ولا يدخل بيت المقدس » .

وما دام الحق سبحانه قد قال :

﴿ كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُوراً (٥٨) ﴾ [الإسراء]

فهو يُعلِّم بعضاً من خلقه بعضاً من أسراره ، فلا مانعَ من أن نرى بعضاً من تلك الأسرار على ألسنتهم . وحين ذاعت تلك الحكاية ، وقالوها للرئيس الذى كان موجوداً ، وقالوا له : أنت من جهينة وهم يقصدونك . صُودِر تفسير النسفى .

إذن : فقد ترك الحق سبحانه لنا فى الدنيا مثلاً يؤكد صدْقه فيما يحكيه عن الوعيد لبعض القرى حتى نُصدِّق ما يمكن أن يكون بعد يوم القيامة . وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلاَّ وَلَهَا كِتَابٌ مَّعْلُومٌ (٤) ﴾ [الحجر]

فليس لأحد أن يقول : « إن ذلك لم يحدث للبلد الفلانى » لأن كُلَّ أمْر له أجَل .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ (٥) ﴾

أى : أنه سبحانه قد جعل لكل أمة أجلاً ، وغاية ، فإذا ما انتهى الأجل المعلوم جاءتْ نهايتها ؛ فلا كائنَ يتقدّم على أجله ، ولا أحدَ يتأخر عن موعد نهايته .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ۝٦ ﴾

وهم هنا يسخرون من الرسول ومن القرآن ؛ ذلك أنهم لو كانوا يؤمنون بالقرآن وبالرسول ؛ لَمَا وصفوه ﷺ بالجنون . والذين قالوا ذلك هم أربعة من كبار الكفار : عبد الله بن أبى أمية ، والنضر بن الحارث ، ونوفل بن خويلد ، والوليد بن المغيرة . وقيل عن ابن عباس : إنهم الوليد بن المغيرة المخزومى ؛ وحبيب بن عمرو الثقفى . وقيل عن مجاهد : إنهم عتبة بن ربيعة ، وكنانة بن عبد ياليل .

والظاهر من قولهم هو التناقض الواضح ؛ فَهُمْ ـ شاؤا أم أَبَوْا ـ يعترفون بالقرآن بأنه « ذِكْر » ، والذِّكْر فى اللغة له عدة مَعَانٍ ، منها الشرف ، وقد أُطلق على القرآن ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ۝٤٤ ﴾ [الزخرف]

وسبق لهم أن تلمَّسُوا فى هذا القرآن هنات ؛ فلم يجدوا ، فكيف يَصِفون مَنْ نُزِّل عليه هذا القرآن بالجنون ؛ وهم الذين شهدوا له من قَبْلُ بالصدق والأمانة .

وقد شاء الحق سبحانه أن يُنصف رسوله ﷺ فقال :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ ﴾ [القلم]

وهم فى اتهامهم للرسول ﷺ لم يلتفتوا إلى أنهم قد خاطبوه بقولهم : (يـأيها) ، وهو خطاب يتطابق مع نفس الخطاب الذى يخاطبه به الله ؛ وهكذا أجرى الحق سبحانه على ألسنتهم توقيراً واحتراماً للرسول ﷺ دون أنْ يشعروا ، وذلك من مشيئته سبحانه حين يُنطِق أهلَ العناد بالحق دون أن يشعروا .

فقد قال الحق سبحانه عن المنافقين أنهم قالوا :

﴿ لا تُنفقُوا علَىٰ مَنْ عند رَسُولِ اللَّه حَتَّىٰ يَنفضُّوا ..(٧) ﴾ [المنافقون]

أى : لا تنفقوا على مَنْ عند النبى ﷺ ، حتى يجوعوا ، فينفضوا من حوله . هم يقولون عنه « رسول الله » ، فهل آمنوا بذلك ؟ أم أن هذا من غلبة الحق ؟

ويتابع سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (٧) ﴾

ونعلم أن فى اللغة ألفاظاً تدل على الحَثِّ وعلى رغبة المُتكلِّم فى أن يُوجِد السامع ما بعدها ، ومن هذه الألفاظ « لولا » و « لوما » . و « لولا » تجىء للتمنِّى ورغبة ما يكون بعدها ، وإن كان ما بعدها نفياً فهو رغبة منك ألا يكون ، مثل قولك « لو جاء زيد لأكرمته » لكن لمجىء لم يحدث ، وكذلك الإكرام .

وقد قال الكفار هنا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ ..(٧) ﴾ [الحجر]

وسبق لهم أنْ قالوا :

﴿ لَوْلا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا ۝٧ ﴾ [الفرقان]

وكأنهم يطلبون نزول ملَك مع الرسول ليُؤنسه وليُصدّقوا أنه رسول من عند الله ، فهل كان تصديقهم المُعلَّق على هذا الشرط ؛ تصديقاً للرسول ، أم تصديقاً للملَك ؟

وسبق أن تناول القرآنُ هذا الأمرَ في قول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ ﴾ [الإسراء]

وكأنهم علَّقوا الإيمان بالرسول على شَرْط أنه ليس ملكاً ؛ بل من صنف البشر ، وجاء الردّ عليهم :

﴿ لَّوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝٩٥ ﴾ [الإسراء]

إذن : فلو نزل رسول من السماء ملَكاً ؛ لَمَا استطاع أن يمشى فى الأرض مطمئناً ؛ فضلاً عن أنه لا يمكن أن يكون أُسْوة وقدوة للبشر ؛ لأنه من جنس آخر غير البشر .

ولو نزل عليهم ملك كما زعموا ، وقال لهم : افعل ولا تفعل ، واستقيموا واستغفروا ، وسبِّحوه بُكْرة وأصيلاً ، لَردُّوا عليه قائلين : أنت ملَك ينطبق عليك قول الحق :

﴿ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦ ﴾ [التحريم]

وأنت لا تصلح أُسْوة لنا . ثم كيف يتكلمون مع ملَك وهو من طبيعة مختلفة ، ولن يستطيع البشر أن يرتفعوا إلى مُستْواه ليأخذوا

منه ، وهو لن يستطيع أن ينزلَ إلى مستوى البشرية ليأخذوا منه ؛ ولذلك شاء الحق سبحانه أن يرسل الرسول من جنس البشر .

وهكذا أبطل الحق سبحانه حُجّتهم فى عدم الإيمان بالرسول ؛ لأنه لم يأتِ من جنس الملائكة ؛ وأبطل حُجّتهم فى طلبهم أن ينزل مع الرسول ملائكة ؛ ليُؤيّدوه فى صِدْق بلاغه عن الله .

ولذلك يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ[1] وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾

وهكذا يُعلِّمنا الحق سبحانه أنه لا يُنزِّل الملائكة إلا بمشيئة حكمته سبحانه ، ولو نزل الملَك ـ كما طلبوا ـ لمساعدة رسول الله ﷺ فى البلاغ عن الله ؛ فالملَك إما أن يكون على هيئة البشر ؛ فلن يستطيعوا تمييز الملَك من البشر ، وإما أن يكون على هيئة الملك ، فلا يستطيع البشر أنْ يروْه ؛ وإلاَّ هلكوا .

ذلك أن البشر لا تستطيع تحمُّل التواصل مع القوة التى أودعها الله فى الملائكة .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لا يُنظَرُونَ[2] ﴿٨﴾ ﴾ [الأنعام]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٢٨/٥) : « معنى : ﴿ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر] : إلا بالقرآن . وقيل : بالرسالة ، عن مجاهد . وقال الحسن : إلا بالعذاب إن لم يؤمنوا » .

(٢) أنظره : أخره وأمهله وتأنَّى عليه . [القاموس القويم ٢٧٣/٢] .

ولو جعله الحق سبحانه فى هيئة البشر وتواصلوا معه لالتبس عليهم الأمر ، ولَظنّوا أن الملَك بشرٌ مثلهم .

وفى هذا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ (٩) ﴾ [الأنعام]

لم يُنزِل الحق سبحانه الملائكة ؛ لأنه لم يَشَأْ أن يُهلكهم ورسولُ الله فيهم ، فالحق سبحانه قد قال :

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) ﴾ [الأنفال]

وقد آمن معظمهم ودخلوا فى دين الله من بعد ذلك واستغفروا لذنوبهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ؛ لأن الإسلام يجُبُّ[1] ما قبله .

وحين ننظر إلى صَدْر الآية نجد أنه سبحانه قال :

﴿ مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلاَّ بِالْحَقِّ .. (٨) ﴾ [الحجر]

فلو نزلت الملائكة لكان عذاباً لهم ، فالحق سبحانه إذا أعطى قوماً آية طلبوها ، فإما أن يؤمنوا ، وإما أن يهلكهم ، ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

---

(١) أى : يقطع ويمحو ما كان قبله من الكفر والمعاصى والذنوب . [قاله ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : جبب] .

فالحق سبحانه لم يُجبهم إلى الآيات والمعجزات التى طلبوها ؛ لأن السابقين لهم ، كذَّبوا بها قبل ذلك ، وهم يريدون أن يُكذِّبوا أيضاً ، فحتى لو نزلت الآية فسيكذبونها ، وحين يكذبون فى آية مقترحة من عندهم ، فلا بُدَّ أن نهلكهم . أما لو كذبوا فى آية مُنزَّلة من عند الله فإن الله يمهلهم .

إذن : فلو نزلنا الملائكة كما يريدون فسننزلهم بالحق ، والحق هو أن نهلكهم إذا كذَّبوا .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ [الحجر]

أى : ما كان أجَلُ المشركين قد حانَ ليُنزل الله لهم الملائكة لإهلاكهم ، كما سبق وأهلك الأمم السابقة التى طلبتْ الآيات ، فنزلت لهم كما طلبوها ، ولَمَّا لم يُصدِّقوا ويؤمنوا أهلكهم الله .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾

والقرآن قد جاء بعد كُتب متعددة ، وكان كل كتاب منها يحمل منهج الله ؛ إلا أن أىَّ كتاب منها لم يكُنْ معجزة ؛ بل كانت المُعْجزة تنزل مع أىِّ رسول سبق سيدنا رسول الله ﷺ ، وعادة ما تكون المعجزة من صنْف ما نبغ فيه القوم الذين نزل فيهم .

وما دام المنهج مفصولاً عن المعجزة ؛ فقد طلب الحق سبحانه من الحاملين لكتب المنهج تلك أنْ يحافظوا عليها ، وكان هذا تكليفاً

من الحق سبحانه لهم . والتكليف ـ كما نعلم ـ عُرْضة أنْ يُطَاع ، وعُرْضة أنْ يُعصَى ، ولم يلتزم أحد من الأقوام السابقة بحفظ الكُتب المنزّلة إليهم .

ونجد الحق ـ سبحانه وتعالى ـ يقول :

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا[1] وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ[2] بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ.. (٤٤)﴾ [المائدة]

أى : أن الحق ـ سبحانه وتعالى ـ قد كلّفهم وطلب منهم أنْ يحفظوا كتبهم التى تحمل منهجه ؛ وهذا التكليف عُرْضة أنْ يُطاع ، وعُرْضة أنْ يُعصى ؛ وهم قد عَصَوا أمر الحق سبحانه وتكليفه بالحفظ ؛ ذلك أنهم حرّفوا وبدّلوا وحذفوا من تلك الكتب الكثير .

وقال الحق سبحانه عنهم :

﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)﴾ [البقرة]

بل وأضافوا من عندهم كلاماً وقالوا : هو من عند الله ؛ لذلك قال فيهم الحق سبحانه :

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ (٧٩)﴾ [البقرة]

---

(١) الهَوْد : التوبة . وهاد يهود : تاب ورجع إلى الحق . هادوا : دخلوا فى اليهودية . [لسان العرب ـ مادة : هود] .

(٢) الحبر (بفتح الحاء وكسرها) : العالم . وجمعه : أحبار . [القاموس القويم ١/ ١٤٠] . وقال ابن منظور فى [اللسان مادة : حبر] : « معناه العالم بتحبير الكلام والعلم وتحسينه » .

وهكذا ارتكبوا ذنوب الكذب وعدم الأمانة ، ولم يحفظوا الكتب الحاملة لمنهج الله كما أنزلها الله على أنبيائه ورُسله السابقين على رسول الله ﷺ .

ولذلك لم يَشأ الحق سبحانه أن يترك مهمة حفظ القرآن كتكليف منه للبشر ؛ لأن التكليف عُرْضة أنْ يُطاع وعُرْضة أنْ يُعصى ؛ فضلاً عن أن القرآن يتميز عن الكتب السابقة فى أنه يحمل المنهج ، وهو المعجزة الدالة على صِدْق بلاغ رسول الله ﷺ فى نفس الوقت .

ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩) ﴾ [الحجر]

والذِّكْر إذا أُطلق انصرف المعنى إلى القرآن ؛ وهو الكتاب الذى يحمل المنهج ؛ وسبحانه قد شاء حِفْظه ؛ لأنه المعجزة الدائمة الدَّالة على صِدْق بلاغ رسوله ﷺ .

وكان الصحابة يكتبون القرآن فَوْرَ أن ينزل على رسول الله ﷺ ، ووجدنا فى عصرنا من هم غير مؤمنين بالقرآن ؛ ولكنهم يتفنّنون فى وسائل حفْظه ؛ فهناك مَنْ طبع المصحف فى صفحة واحدة ؛ وسخَّر لذلك مواهبَ أُناسٍ غير مؤمنين بالقرآن .

وحدث مثل ذلك حين تَمّ تسجيل المصحف بوسائل التسجيل المعاصرة . وفى ألمانيا - على سبيل المثال - توجد مكتبة يتم حفْظ كل ما يتعلق بكل آية من القرآن فى مكان مُعيّن مُحدّد .

وفى بلادنا المسلمة نجد مَنْ ينقطع لحفظ القرآن منذ الطفولة ، ويُنهى حِفْظه وعمره سبع سنوات ؛ وإنْ سألته عن معنى كلمة يقرؤها فقد لا يعرف هذا المعنى .

ومن أسرار عظمة القرآن أن البعض ممَّنْ يحفظونه لا يملكون أية ثقافة ، ولو وقف الواحد من هؤلاء عند كلمة ؛ فهو لا يستطيع أنْ يستكملها بكلمةٍ ذات معنى مُقَارب لها ؛ إلى أنْ يردّه حافظٌ آخر للقرآن .

ولكى نعرف دقّة حفْظ الحق سبحانه لكتابه الكريم ؛ نجد أن البعض قد حاول أنَ يُدخِل على القرآن ما ليس فيه ، وحاول تحريفه من مدخل ، يروْنَ أنه قريب من قلب كل مسلم ، وهو توقير الرسول ﷺ ؛ وجاءوا إلى قول الحق سبحانه :

﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

وأدخلوا فى هذه الآية كلمة ليست فيها ، وطبعوا مصحفاً غيَّروا فيه تلك الآية بكتابتها « محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم » وأرادوا بذلك أن يسرقوا عواطف المسلمين ، ولكن العلماء عندما أمسكوا بهذا المصحف أمروا بإعدامه وقالوا : « إن به شيئاً زائداً » ، فردَّ مَنْ طبع المصحف « ولكنها زيادة تحبونها وتُوقّرونها » ، فردَّ العلماء : « إن القرآن توقيفىّ ؛ نقرؤه ونطبعه كما نزل » .

وقامت ضَجَّة ؛ وحسمها العلماء بأن أىّ زيادة ـ حتى ولو كانت فى توقير رسول الله ﷺ ومحبته ـ لا تجوز فى القرآن ، لأن علينا أن نحفظ القرآن كما لقَّنه جبريل لمحمد ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ[(١)] الْأَوَّلِينَ ⑩ ﴾

وهنا يُسلِّى الحق سبحانه رسوله الكريم ، ويوضح له أن ما حدث له من إنكار ليس بِدعاً ، بل حدث مثله مع غيره من الرسل سواء من إنكار أو تجاهل أو سخرية .

وإذا كنت أنت سيد الرسل وخاتم الأنبياء ؛ فلا بُدَّ أن تكون مشقتك على قَدْر مهمتك ، ولا بُدَّ أن يكون تعبُك على قَدْر جسامة الرسالة الخاتمة .

و ﴿ شِيَعِ ⑩ ﴾ [الحجر]

تعنى الجماعة الذين اجتمعوا على مذهب واحد ؛ سواء كان ضلالاً أم حقاً . والمثَل على مَن اجتمعوا على باطل هو قوله الحق :

﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ[(٢)] شِيَعًا .. ⑥٥ ﴾ [الأنعام]

والمثَل على مَنْ اجتمعوا على الحق قوله سبحانه :

﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ[(٣)] لَإِبْرَاهِيمَ ⑧٣ ﴾ [الصافات]

وهكذا تكون كلمة (شِيَع) تعنى الجماعة التى اجتمعت على الحق أو الباطل .

---

(١) الشيع : جمع شيعة ، وهى الفرقة من الناس يتابع بعضهم بعضاً . وشيعة الرجل : أتباعه وأنصاره ، ومن على مذهبه ورأيه . [القاموس القويم ١/٣٦٣] .

(٢) يلبسكم شيعاً : أى : يُعمى الأمور عليكم فتصيرون فرقاً مختلفة . [القاموس القويم ٢/١٨٨] .

(٣) الضمير هنا عائد على نوح عليه السلام . قال ابن عباس : أى من أهل ذريته . وقال مجاهد : من شيعة نوح إبراهيم ، على منهاجه وسننه . وقال قتادة : على دينه . ذكر هذه الآثار السيوطى فى الدر المنثور (٧/١٠٠) .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى شِيَعِ الأَوَّلِين ﴿١٠﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى أنك لن تكون أقلّ من الرُّسل السابقين عليك ، بل قد تكون رحلتك فى الرسالة شاقّة بما يناسب مهمتك ، ويناسب إمامتك للرسل وختامك للأنبياء .

ويُكمل سبحانه ما حدث للرسل السابقين على رسالة رسول الله ﷺ ، فيقول :

﴿ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾

ونجد كلمة :

﴿ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ ﴾ [الحجر]

ونجد أن الحق سبحانه قد أوضح هذا الاستهزاء حين قالوا :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجر]

وكأن الحق سبحانه يُوضّح له أن الاستهزاء قد يزيد ، وذلك دليلٌ على أنك قد بلغتَ منهم مَبْلغ الكَيْد ، ولو كان كيدُك قليلاً لخفّفوا كَيْدهم ؛ ولكنك جئتَ بأمر قَاس عليهم ، وهدمْتَ لهم مذاهبهم ، وهدمْتَ حتى سيادتهم وكذلك سَطْوتهم ، ولم يجدوا غير الاستهزاء ليقاوموك به .

ومعنى ذلك أنهم عجزوا عن مقاومة منهجك ؛ ويحاولون بالاستهزاء أن يُحققوا لك الخَور[1] لتضعف ؛ معتمدين فى ذلك على

(١) الخَوَر : الضعف والانكسار . وقال الليث : الخوّار : الضعيف الذى لا بقاء له على الشدة . [لسان العرب ـ مادة : خور] .

أن كل إنسان يحب أن يكون كريماً فى قومه ومُعززاً مُكرّماً .

وهنا يريد الحق سبحانه من رسوله أن يُوطِّن نفسه على أنه سيُستهزأ به وسيُحارب ؛ وسيُؤْذَى ؛ لأن المهمةِ صعبة وشاقَّة ، وكلما اشتدت معاندتك وإيذاؤك ، فاعلم أن هذه من حيثيات ضرورة مهمتك .

ولذلك نجد الرسول ﷺ قبل أن يتأكد من مهمته ؛ أخذته زوْجه خديجة بنت خويلد ـ رضى الله عنها ـ عند ورقة بن نوفل ؛ وعرف ورقة أنه سَيُؤْذَى ، وقال ورقة لرسول الله ﷺ : ليتنى أكون حياً حين يُخرِجك قومك . فتساءل الرسول ﷺ : أمُخرِجِيّ هُم ؟ قال ورقة : نعم ، لم يأت رجل بمثل ما جئتَ به إلا عُودِىَ ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1] .

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يصحب نزول الرسالة أن يُحصِّنه ضد ما سيحصل له ، ليكون عنده المناعة التى تقابل الأحداث ؛ فما دام سيصير رسولاً ، فليعلم أن الطريق مَحْفوف بالإيذاء ، وبذلك لا يُفاجأ بوجود مَنْ يؤذيه .

ونحن نعلم أن المناعة تكون موجودة عند مَنْ وبها يستعد لمواجهة الحياة فى مكان به وباء يحتاج إلى مَصْل[2] مضاد من هذا الوباء ؛ ليقِىَ نفسه منه ، وهذا ما يحدث فى الماديات ، وكذلك الحال فى المعنويات .

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/١٣٩ ، ١٤٠) من حديث محمد بن النعمان بن بشير الأنصارى . وانظر دلائل النبوة لأبى نعيم (١٦٨) .

(٢) المصل : ما يتخذ من دم حيوان محصّن من الإصابة بمرض كالجدرى والدفتريا ثم يحقن به جسم آخر ليكسبه مناعة تقيه الإصابة بذلك المرض . [المعجم الوجيز ـ مادة : مصل] .

ولهذا يُوضِّح سبحانه هذا الأمر لرسوله ﷺ ، ولتزداد ثقته فى الحقِّ الذى بعثه به ربُّه ، ويشتدّ فى المحافظة على تنفيذ منهجه .

والاستهزاء - كما نعلم - لَوْنٌ من الحرب السلبية ؛ فهم لم يستطيعوا مواجهة ما جاء به رسول الله ﷺ بالجد ، ولا أنْ يردّوا منهجه الراقى ؛ لذلك لجئوا إلى السُّخْرية من رسول الله ﷺ ، ولم تنفعهم سخريتهم فى النَّيْل من الرسول ، أو النَّيْل من الإسلام ، وفى هذا المعنى ، يقول لنا الحق سبحانه عن مصير الذين يسخرون من الرسول ﷺ :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ[1] فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾

و « سلك الشىء » أى : أدخله ، كما نُدخِل الخيط فى ثقب الإبرة . والحق سبحانه يقول :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ[2] ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر]

أى : ما أدخلكم فى النار ؛ فتأتى إجابتهم :

﴿ لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [المدثر]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِى قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) أى : كذلك نسلك الضلال والكفر والاستهزاء والشرك فى قلوبهم . والسَّلْك : إدخال الشىء فى الشىء كإدخال الخيط فى المخيط . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٣١] .

(٢) سقر : اسم من أسماء جهنم . [القاموس القويم ١/٣١٧] . قال السيوطى فى الإتقان (٢/١١٣) : « ذكر الجواليقى أنها أعجمية » وقال ابن منظور فى اللسان (مادة : سقر) : « وقيل : سميت النار سقر لأنها تذيب الأجسام والأرواح ، والاسم عربى من قولهم : سقرته الشمس . أى : أذابته » .

أى : كما سلكنا الكفر والتكذيب والاستهزاء فى قلوب شيع الأولين ، كذلك نُدخِله فى قلوب المجرمين .

يعنى : مشركى مكّة ، لأنهم أدخلوا أنفسهم فى دائرة الشرك التى دعتهم إلى هذا الفعل ، فنالوا جزاءَ ما فعلوا مثل ما سبق من أقوام مثلهم ؛ وقد يجد من تلك القلوب تصديقاً يكذبونه بألسنتهم ، مثلما قال الحق سبحانه :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ..(١٤) ﴾ [النمل]

فهم أمة بلاغة ولغة وبيان ؛ وقد أثّر فيهم القرآن بحلاوته وطلاوته[1] ؛ ولكنه العناد ، وها هو واحد[2] منهم يقول :

« إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمُثمِر ، وإن أسفله لمغدق »[3] .

لقد قال ذلك كافر بالرسول والرسالة .

ونعلم أن الذين استمعوا إلى القرآن نوعان ؛ والحق سبحانه هو القائل عن أحدهما :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

أى : أن قوله لا يعجبهم وما يتلوه عليهم لا يستحق السماع ، فقال الحق سبحانه رداً عليهم :

---

(١) الطلاوة : الحُسْن والقبول والرّونق . [لسان العرب ـ مادة : طلى] .
(٢) هو الوليد بن المغيرة ، أبو عبد شمس ، وقد كان ذا سِنٍّ فيهم ، وكبيراً من كبرائهم .
(٣) ذكره ابن هشام فى السيرة النبوية (١/ ٢٧٠) .

﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى..(٤٤)﴾ [فصلت]

وهى مسألة - كما أقول دائماً - تتعلق بالقابل الذى يستقبل الحدث ؛ إما أنْ يُصفِّى قلبه ليستقبل القرآن ؛ وإما أنْ يكون قلبه - والعياذ بالله - مُمْتلئاً بالكفر ، فلا يستقبل شيئاً من كتاب الحق .

وقد حدث أن أدخل الحق سبحانه كتبه السماوية فى قلوب الأقوام السابقة على رسول الله ، ولكنهم لفساد ضمائرهم وظُلْمة عقولهم ؛ سَخِروا من تلك الكتب ، ولم يؤمنوا بها .

ويَصِف الحق سبحانه هؤلاء المجرمين بقوله :

﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ[2] سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ (١٣)﴾

وهكذا يوضح الحق سبحانه أن قلوب الكَفَرة لا تلين بالإيمان ؛ ولا تُحسن استقبال القرآن ، ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ، تماماً كما حدث منَ الأقوام السابقة ، فتلك سُنة مَنْ سبقوهم إلى الكفر .

والسُّنة هى الطريقة التى تأتى عليها قضايا النتائج للمُقدِّمات ، وهى أولاً وأخيراً قضايا واحدة .

ومرة نجد الحق سبحانه يقول :

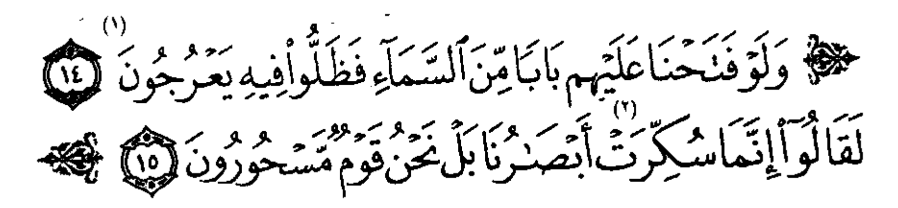
﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)﴾ [الأحزاب]

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] .
(٢) خلا الأمر يخلو : مضى وسبق . والقرون الخالية : هم المواضى . [لسان العرب - مادة : خلا] .

ونعلم أن الإضافة تختلف حَسْب ما يقتضيه التعبير . فـ (سنة الأولين) تعنى الأمور الكونية التى قدَّرها الله لعباده . و (سنة الله) تعنى سُنّة منسوبة لله ، ومن سُنَن الحق سبحانه أن يُهلك المُكذِّبين للرسل إنْ طلبوا آية فجاءتهم ، ثم واصلوا الكفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



وهم قد طلبوا أن ينزل إليهم ملَكٌ من السماء ؛ لذلك نجد الحق سبحانه هنا يأتيهم بدليل أقوى ممَّا طلبوا ، ذلك أن نزول ملَك من السماء هو أسهل بكثير من أن يُنزلَ من السماء سُلَّماً يصعدون عليه ، وفى هذا ارتقاء فى الدليل ؛ لكنهم يرتقون أيضاً فى الكفر ، وقالوا : إن حدث ذلك فلَسوفَ يكون من فعل السحر .

ولو كان محمد ﷺ ساحراً لَسحرهم ، وجعلهم جميعاً مؤمنين ، وعلى الرغم من أن مثْل هذا الأمر كان يجب أن يكون بدهياً بالنسبة لهم ، لكنهم يتمادونَ فى الكفر ، ويقولون : إنه لو نزَّل سُلَّماً من السماء وصعدوا عليه ؛ لكانَ ذلك بفعل السحر ؛ ولكانَ رسول الله هو الذى سحرهم ؛ وأعمى أبصارهم ، ولَجعلهم يتوهمون ذلك .

---

(١) عرج يعرج : صعد وعلا وارتفع . [القاموس القويم ٢/ ١٣] . والمعارج : المصاعد والدرَج . والمعراج : السُّلّم . [لسان العرب ـ مادة : عرج] .

(٢) سُكِّرت أبصارنا . أى : حبست عن النظر وحُيِّرت . وقال أبو عمرو بن العلاء : معناها غُطيت وغُشِّيت . أى : سُدّت بالسحر فيتخايل بأبصارنا غير ما نرى . [لسان العرب ـ مادة : سكر] .

وكأن معنى هذا القول الكريم : لو ارتقينا فى مطلبهم ، وأنزلنا لهم سُلَّماً يصعدون به إلى أعلى ؛ ليقولوا : إن الحق هو الذى بعث محمداً بالرسالة ، بدلاً من أن ينزل إليهم ملك حسب مطلبهم ؛ لَمَا آمنوا بل لقالوا : إن هذا من فعل سحر قام به محمد ضدهم . وهكذا يرتقون فى العناد والجحود .

ولا بُدَّ أن نلحظ أن الحق سبحانه قد جاء هنا بكلمة :

﴿ فَظَلُّوا (١٤) ﴾ [الحجر]

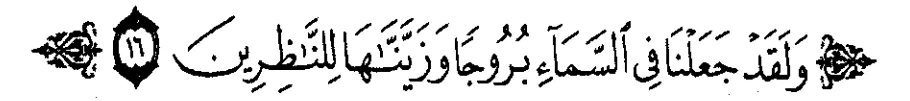
ولم يقل « وكانوا » ، ذلك أن « كان » تُستخدم لمُطْلق الزمن ، و « ظل » للعمل نهاراً ، و « أمسى » لـلعمل ليلاً ، أى : أن كل كلمة لها وَقْت مكتوب ، والمقصود من « ظَلُّوا » هنا أن الحق سبحانه لن ينزل لهم السُّلَّم الذى يعرجُون عليه إلا فى منتصف النهار ، ولكنهم أصرُّوا على الكفر .

لذلك قال سبحانه :

﴿ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) ﴾ [الحجر]

أى : لن نأخذهم بالليل ، حتى لا يقولوا إن الدنيا كانت مظلمة ولم نر شيئاً ، ولكنه سيكون فى وضح النهار . أى : أن الله حتى لو فتح باباً فى السماء يصعدون منه إلى الملأ الأعلى فى وضح النهار لكذَّبوا .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الكون لِيُرينَا عجيبَ آياته ، فيقول :


﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾

والبروج تعنى المبانى العالية ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ[1] (٧٨) ﴾

[النساء]

وهو سبحانه القائل : ﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ (١) ﴾ [البروج]

والمعنى الجامع لكل هـذا هو الزينة المُلْفتة بجِرْمها العالى ؛ وقد تكون مُلْفِتة بجمالها الأخَّاذ .

والبروج هى جمع بُرْج ؛ وهى منازل الشمس والقمر ؛ فكلما تحركت الشمس فى السماء تنتقل من برج إلى آخر ؛ وكذلك القمر ، مصداقاً لقول الحق سبحانه :

﴿ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣) ﴾ [الأنبياء]

وهو سبحانه القائل :

﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ (٥) ﴾ [يونس]

أى : لنضبط كل التوقيتات على ضَوْء تلك الحركة لكل من الشمس والقمر ، ونحن حين نفتح أىَّ جريدة نقرأ ما يُسمَّى بأبواب الطالع ، وفيه أسماء الأبراج : برج الحَمَل ، وبرج الجدى ، وبرج العذراء ؛ وغيرها ، وهى أسماء سريانية للمنازل التى تنزلها أبراج النجوم . ويقول الشاعر :

---

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وطلاه . [القاموس القويم : ١/٣٦٣] .

حَملَ الثورُ جَوْزَة السرطَان ورعَى الليْثُ[1] سُنبل الميزَان
عقربَ القوس جَدى دَلْو وحُوت ما عرفنَا من أُمة السَّريَان

وهم اثنا عشر برجاً ، ولكل برج مقاييس فى الجو والطقس . وحين نقرأ القرآن نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

والبعض يحاول أن يجد تأثيراً لكل برج على المواليد الذين يُولدون أثناء ظهور هذا البرج ، ولعل مَنْ يقول ذلك يصل إلى فَهْم لبعض من أسرار الله فى كونه ؛ ذلك أنه سبحانه قد أقسم بمواقع النجوم ، وقال :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

وهناك مَنْ يقول : إن لكل إنسان نجماً يُولَد معه ويموت معه ؛ لذلك يُقَال « هوى نجم فلان » ، ونحن لا نجزم بصحة أو عدم صحّة مثل هذه الأمور ؛ لأنه لم تثبُت علمياً ، والحق سبحانه أعلم بأسراره ، وقد يُعلمها لبعضٍ من خَلْقه .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها نجد قول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا .. (١٦) ﴾ [الحجر]

أى : أن هناك تأكيداً لوجود تلك البروج فى السماء ، وليس هذا

---

(١) الليث : الأسد ، والجمع ليوث . وهو مأخوذ من المعنى اللغوى ، فالليث : الشدة والقوة . [لسان العرب ـ مادة : ليث] .

الجَعْل لتأثيرها فى الجو ، أو لأنها علامات نهتدى بها ، فضلاً عن تأثيرها على الحرارة والرطوبة والنباتات ، ولكنها فوق كل ذلك تؤدى مُهمة جمالية كبيرة ، وهى أن تكون زينة لكل مَنْ ينظر إليها .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦) ﴾ [الحجر]

ذلك أن الشيء قد يكون نافعاً ؛ لكن ليس له قيمة جمالية ؛ وشاء الحق سبحانه أن يجعل للنجوم قيمة جمالية ، ذلك أنه قد خلق الإنسان ، ويعلم أن لنفسه ملَكاتٍ مُتعددة ، وكُلّ ملَكةٍ لها غذاء .

فغذاءُ العين المنظر الجميل ؛ والأذن غذاؤها الصوت الجميل ، والأنف غذاؤه الرائحة الطيبة ؛ واللسان يعجبه المذاق الطيب ، واليد يعجبها الملْمَس الناعم ؛ وهذا ما نعرفه من غذاء الملَكات للحواس الخمس التى نعرفها .

وهناك ملَكات أخرى فى النفس الإنسانية ؛ تحتاج كل منها إلى غذاء معين ، وقد يُسبّب أَخْذ ملَكة من ملَكات النفس لأكثر المطلوب لها من غذاء أن تَفْسد تلك الملَكة ؛ وكذلك قد يُسبِّب الحرمان لملَكة ما فساداً تكوينياً فى النفس البشرية .

والإنسان المتوازن هو مَنْ يُغذّى ملَكاته بشكل مُتوازن ، ويظهر المرض النفسى فى بعض الأحيان نتيجةً لنقص غذاء ملَكة ما من الملَكات النفسية ، ويتطلب علاجُ هذا المرض رحلةً من البحث عن الملَكة الجائعة فى النفس البشرية .

وهكذا نجد فى النفس الإنسانية ملَكة لرؤية الزينة ، وكيف

تستميل الزينة النفس البشرية ؟ ونجد المثَل الواضح على ذلك هو وجود مهندسى ديكور يقومون بتوزيع الإضاءة فى البيوت بأشكال فنية مختلفة .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن أبراج النجوم :

﴿ وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ ﴾ [الحجر]

ونجده سبحانه يقول عن بعض نِعَمه التى أنعم بها علينا :

﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً .. ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

وهكذا يمتنُّ علينا الحق سبحانه بجمال ما خلق وسخَّره لنا ، ولا يتوقف الأمر عند ذلك ، بل هى فى خدمة الإنسان فى أمور أخرى :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ(١) إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [النحل]

وهو سبحانه وتعالى الذى جعل تلك الدواب لها منظر جميل ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ(٢) ﴿٦﴾ ﴾ [النحل]

وهو سبحانه لم يخلق النعم لنستخدمها فقط فى أغراضها المُتَاحة ؛ ولكن بعضاً منها يروى أحاسيس الجمال التى خلقها فينا سبحانه . وكلما تأثرنا بالجمال وجدنا الجميل ، وفى توحيده تفريد لجلاله .

---

(١) الأثقال : الأحمال الثقيلة . والثقل : الحمل الثقيل . [القاموس القويم ١/١٠٨] .

(٢) سرحت الماشية . أى : أخرجتها بالغداة إلى المرعى . [لسان العرب ـ مادة : سرح] .

ويقول سبحانه عن السماء والبروج :

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ ﴾

ونعلم أن الشياطين كانوا يسترقون[1] السمع لبعض من منهج الله الذى نزل على الرسل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ وكانوا يحاولون أن يُضيفوا لها من عندهم ما يُفسد معناها ، وما أنْ جاء رسول الله ﷺ حتى منع كل هذا بأمر من الحق سبحانه ، يقول جل عُلاَه :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ.. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

ولذلك نجد الشياطين تقول ما ذكره الحق سبحانه على ألسنتهم فى كتابه العزيز :

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا[2] رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الجن]

وهكذا علمنا أنهم كانوا يسترقون السمع ؛ ويأخذون بِضْعاً من كلمات المنهج ويزيدون عليها ؛ فتبْدو بها حقيقة واحدة وألف

---

(١) استرق السمع : إذا سمعه مستخفياً كأنه يسرق الكلام المسموع كما يسرق المال ، وقوله : ﴿إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجر] أى : استمع فى خُفية . [القاموس القويم ١/٣١٢] .

(٢) الشهاب : الشعلة الساطعة من النار . وهو النجم المضىء اللامع . وهو جِرْم سماوى يسبح فى الفضاء ، فإذا دخل فى جو الأرض اشتعل ، وصار رماداً . [المعجم الوجيز : مادة : شهب] .

كـذبة[1] . وشاء الحق سبحانه أن يُكذِّب ذلك ؛ فقال :

﴿ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ[2] ﴿١٧﴾ ﴾ [الحجر]

والشيطان كما نعلم هو عاصى الجن .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ ﴾

وكلمة : ﴿ اسْتَرَقَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الحجر]

تُحدِّد المعنى بدقّة ، فهناك مَنْ سرق ؛ وهناك مَنْ استرق ؛ فالذى سرق هو مَنْ دخل بيتاً على سبيل المثال ، وأخذ يُعبّىء ما فيه فى حقائب ، ونزل من المنزل على راحته لينقلها حيث يريد .

لكن إنْ كان هناك أحد فى المنزل ؛ فاللص يتحرك فى استخفاء ؛ خوفاً من أن يضبطه مَنْ يوجد فى المنزل ليحفظه ؛ وهكذا يكون معنى « استرقَ » الحصول على السرقة مقرونة بالخوف .

وقد كان العاصون من الجنِّ قبل رسول الله ﷺ يسترقون السمع

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٥٧٦٢) ، وأحمد فى مسنده (٨٧/٦) ، ومسلم فى صحيحه (٢٢٢٨) من حديث عائشة رضى الله عنها قالت : « سأل ناس النبى ﷺ عن الكهان ، فقال : إنهم ليسوا بشيء . فقالوا : يا رسول الله إنهم يحدثون بالشيء يكون حقاً . فقال ﷺ : تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقرها فى أذن وليه كقرقرة الدجاجة فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة » .

(٢) الرجم : الرمى بالحجارة . والرجم : اللعن والإبعاد والطرد . ويكون الرجيم بمعنى المشتوم المسبوب من قوله تعالى : ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ .. ﴿٤٦﴾ ﴾ [مريم] أى : لأسبنك .[لسان العرب ـ مادة : رجم] .

للمنهج المُنزّل على الرُّسُل السابقين لرسول الله ﷺ ؛ واختلف الأمر بعد رسالته الكريمة ؛ حيث شاء الحق سبحانه أنْ يحرسَ السماء ؛ وما أنْ يقترب منها شيطان حتى يتبعه شهاب ثاقب[1] .

والشهاب هو النار المرتفعة ؛ وهو عبارة عن جَذْوة تشبه قطعة الفحم المشتعلة ؛ ويخرج منه اللهب . وهو ما يُسمّى بالشهاب .

أما إذا كان اللهب بلا ذؤابة[2] من دخان ؛ فهذا اسمه « السَّمُوم ». وإنْ كان الدخان مُلْتوياً ، ويخرج منه اللهب ، ويموج فى الجو فيُسمى « مارج » حيث قال الحق سبحانه :

﴿ مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ [الرحمن]

وهكذا نجد السماء محروسة بالشهب والسَّمُوم ومارج من نار .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْزُونٍ (١٩) ﴾

وحين نسمع كلمة الأرض فنحن نتعرف على المقصود منها ، ذلك أنه ليس مع العين أَيْن . والمَدُّ هو الامتداد الطبيعى لِمَا نسير عليه من أىِّ مكان فى الأرض .

وهذه هى اللفتة التى يلفتنا لها الحق سبحانه ؛ فلو كانت الأرض

---

(١) شهاب ثاقب : أى : مشتعل مضيء خارق لظلام الليل ، أو خارق ماحق لكل شيطان يخطف خطفة من السماء ، وسبب اشتعال الشهاب هو دخوله فى نطاق جاذبية الأرض واحتكاكه بالهواء . [القاموس القويم ١/١٠٧] .

(٢) ذؤابة كل شيء : أعلاه . ذؤابة الفرس : شعر فى الرأس . فى أعلى الناصية . وذؤابة القوم : أشرافهم وأعلاهم . [لسان العرب ـ مادة : ذأب] .

مُربعة ؛ أو مستطيلة ؛ أو مُثلثة ؛ لوجدنا لها نهاية وحَافّة ، لكنّا حين نسير فى الأرض نجدها مُمْتدة ، ولذلك فهى لا بُد وأن تكون مُدوَّرة .

وهم يستدلون فى العلم التجريبى على أن الأرض كُروية بأن الإنسان إذا ما سار فى خط مستقيم ؛ فلسوف يعود إلى النقطة التى بدأ منها ، ذلك أن مُنْحنى الأرض مصنوعٌ بدقة شديدة قد لا تدرك العين مقدارَ الانحناء فيه ويبدو مستقيماً .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ .. ⟨١٩⟩ ﴾ [الحجر]

يعنى أشياء تثبتها . ولقائل أنْ يتساءل : ما دامت الأرض مخلوقةً على هيئة الثبات فهل كانت تحتاج إلى مثبتات ؟

ونقول : لا بد أن الحق سبحانه قد خلقها مُتحركة وعُرْضة لأنْ تضطربَ ؛ فخلق لها المُثقّلات ، وهكذا نكون قد أخذنا من هذه الآية حقيقتين ؛ التكوير والدوران .

وهناك آية أخرى يقول فيها الحق سبحانه :

﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ⟨٨٨⟩ ﴾ [النمل]

ونفهم من هذا القول الكريم أن حركة الجبال ليست ذاتيةً بل تابعة لحركة الأرض ؛ كما يتحرك السحاب تبعاً لحركة الرياح .

وشاء سبحانه أن يجعل الجبال رواسى مُثبِّتات للأرض كى لا تميدَ بنا ؛ فلا تميل يَمْنة أو يَسْرة أثناء حركتها .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَنْبَتْنَا[1] فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ ﴾ [الحجر]

وأنبت سبحانه من الأرض كُلَّ شيء موزون بدقّة تناسب الجو والبيئة ، ويضم العناصر اللازمة لاستمرار الحياة .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ[2] وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

فى هذا القول يمتنُّ علينا سبحانه بأنه جعل لنا فى الأرض وسائل للعيش ؛ ولم يكتَفِ بذلك ، بل جعل فيها رزقَ ما نطعمه نحن من الكائنات التى تخدمنا ؛ من نبات وحيوان ، ووقود ، وما يلهمنا إياه لنطور حياتنا من أساليب الزراعة والصناعة ؛ وفوق ذلك أعطانا الذرية التى تَقَرُّ بها العين ، وكل ذلك خاضع لمشيئته وتصرُّفه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ ﴾

وقوله الحق :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الحجر]

أى : أنه لا يوجد جنس من الأجناس إلا وله خزائنُ عند الله

---

(١) المقصود من الإنبات: الإنشاء والإيجاد . قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٣٦) . ومنه قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ﴾ [نوح] .

(٢) المعايش : جمع معيشة ، وهو ما يقتات به ويعيش عليه الإنسان .

سبحانه ، فالشيء الذى قد تعتبره تافهاً له خزائن ؛ وكذلك الشيء النفيس ، وهو سبحانه يُنزِل كل شيء بقدَرٍ ؛ حتى الاكتشافات العلمية يُنزِلها بقدَرٍ .

وحين نحتاج إلى أىِّ شيء مخزون فى أسرار الكون ؛ فنحن نُعمل عقولنا الممنوحة لنا من الله لنكتشف هذا الشيء . والمثل هو الوقود . وكُنا قديماً نستخدم خشب الأشجار والحطب .

وسبحانه هو القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ[1] (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾ [الواقعة]

واتسعت احتياجات البشر فاكتشفوا الفحم الذى كان أصله نباتاً مطموراً أو حيواناً مطموراً فى الأرض ؛ ثم اكتُشِف البترول ، وهكذا .

أى : أنه سبحانه لن يُنشِيء فيها جديداً ، بل أعدَّ سبحانه كل شيء فى الأرض ، وقدَّر فيها الأقوات من قبل أنْ ينزِل آدم عليه السلام إلى الأرض من جنة التدريب ليعمُرَ الأرض ، ويكون خليفة لله فيها ، هو وذريته كلها إلى أن تقومَ الساعة .

فإذا شكوْنَا من شيء فهذا مَرْجعه إلى التكاسل وعدم حُسْن استثمار ما خلقه الله لنا وقدَّره من أرزاقنا فى الأرض . ونرى التعاسة فى كوكب الأرض رغم التقدُّم العلمى والتِّقنى ؛ ذلك أننا نستخدم ما كنزه الحق سبحانه ليكون مجال سعادة لنا فى الحروب والتنافر .

---

(١) أورى : أخرج النار من الشيء . ورى الزند : خرجت ناره ، وأوراه غيره إذا استخرج ناره ، والزند الوارى : الذى تظهر ناره سريعاً . [لسان العرب ـ مادة : ورى] .

ولو أن ما يُصرف على الحروب ؛ تم توجيهه إلى تنمية المجتمعات المختلفة لَعاشَ الجميع فى وفرة حقيقية . ولكن سوء التنظيم وسوء التوزيع الذى نقوم به نحن البشر هو المُسبِّب الأول لتعاسة الإنسان فى الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه قد جعل الأرض كلها للأنام ، فمن يجد ضِيقاً فى موقع ما من الأرض فليتجه إلى موقع آخر .

ولكن العوامل السياسية وغير ذلك من الخلافات بين الناس تجعل فى أماكن فى الأرض ؛ رجالاً بلا عمل ؛ وتجعل فى أماكن أخرى ثروة بلا استثمار ؛ ونتجاهل قوله سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ.. (٢١) ﴾ [الحجر]

فلكل شىء فى الأرض خزائن ؛ والخزينة هى المكان الذى تُدَّخر فيه الأشياء النفيسة ، والكون كله مخلوق على هيئة أن الحق سبحانه قدَّر فى الأرض أقْواتاً لكل الكائنات من لَدُن آدم إلى أن تقومَ الساعة .

فإنْ حدث تضييق فى الرزق فاعلموا أن حقاً من حقوق الله قد ضُيِّع ، إما لأنكم أهملتم استصلاحَ الأرض وإحياء مواتها[1] بقدر ما يزيد تعداد السكان فى الأرض ، وإما أنكم قد كنزتُم ما أخذتُم من الأرض ، وضننتُم بمَا اكتنزتموه على سواكم .

فإنْ رأيتَ فقيراً مُضيَّعاً فاعلم أن هناك غنياً قد ضَنَّ عليه بما

---

(١) إحياء الموات هو إعداد الأرض الميتة التى لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها فى السكنى والزرع ونحوها . ويشترط لاعتبار الأرض مواتاً أن تكون بعيدة عن العمران ، ويسقط حق محتجر الأرض للإحياء فيها إذا مرت ثلاث سنوات دون إعمارها . [فقه السنة ٣/٢٠١] بتصرف .

أفـاض الله على الغنى من رزق ، وإنْ رأيت عاجـزاً عن إدراك أسبـاب حيـاته فاعلم أن واحداً آخـر قد ضَنَّ عليه بقُـوته . وإنْ رأيت جاهلاً ؛ فـاعلم أن عالمـاً قـد ضَنَّ عليه بـعلمه . وإنْ رأيت أَخْـرقَ[1] فاعلم أن حكيمـاً قد ضَنَّ عليه بحكمتـه ؛ فكُلّ شيء مخزون فى الحيـاة ؛ حتى تسلم حـركة الحيـاة ؛ سلامـةٌ تؤدى إلى التسـانُد والتعـاضُد ؛ لا إلى التعانُد والتضارب .

ونعلم أنه سبحـانه قد أَعدَّ لنا الكون بكُل ما فـيه قبل أنْ يخلقنا ؛ ولم يُكلِّفنا قـبل البلوغ ؛ ذلك أنه علِم أزلاً أن التكـليف يُحدِّد اخـتيـار الإنســان لكثـيـر من الأشيـاء التى تـتعلق بـكل ملكات النفس ؛ قُـوتاً ومَشْرباً وملْبـساً ومسكناً وضَبْطاً للأهواء ، كـى لا ننساقَ فى إرضـاء الغرائز على حساب القِيمَ .

وشــاء سبـحانه ألاَّ يكون التكليـف إلا بعد البلوغ ؛ حـتى تستـوفى ملكاتُ النفس القوةَ والاقتدارَ ، ويكون قادراً على إنجاب مثيل له ، ولكى يكون هذا التكليف حُجَّـة على الإنسان ، هذا الذى طَمَر له الحق سـبحانه كل شىء إمَّا فى الأرض ؛ أو كان طمراً فى النوع ، أو فى الجنس .

وكُلُّ شىء فى الكون موزون ، إما أن يكون جِنْساً ، أو نَوْعاً ، أو أفراداً ؛ والميزان الذى توجـد به كل تلك العطاءات ؛ إنما شاء به الحق سبـحانه أن يهبَ الرب للكل ؛ وليـوافق الكثرة ؛ وليعـيش الإنسان فى حـضْن الإيمـان . وهكـذا يكون عطاء الله لنـا عطاءَ ربوبيــة ، وعطاءَ ألوهيةٍ ، والذكىّ حقاً هو مَنْ يأخذ العطاءين معاً لتستقيم حياتُه .

---

(١) الأخرق : الأحمق الجاهل الذى لا يُحسن عمله . [لسان العرب ـ مادة : خرق] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا[1] (١٠٠) ﴾ [الإسراء]

وذلك ليوضح لنا الحق سبحانه أن الإنسان يظنُّ أن ذاتيته هى الأصل ، وأن نفعيته هى الأصل ، وحتى فى قضايا الدين ؛ قد يتبع العبد قوله الحق :

﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ[2] (٩) ﴾ [الحشر]

ومَنْ يفعل ذلك إنما يفعله فى ظاهر الأمر أنه يُؤْثر الغيرَ على نفسه ؛ ولكن الواقع الحقيقى أنه يطمع فيما أعدَّه الله له من حُسْن جزاء فى الدنيا وفى الآخرة .

إذن : فأصْل العملية الدينية أيضاً هو الذات ؛ ولذلك نجد مَنْ يقول : أنا أُحب الإيمان ؛ لأن فيه الخيرية ، يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ (٨) ﴾ [العاديات]

وفيه أنانية ذكية تتيح لصاحبها أَخْذ الثواب على كل عمل يقوم به لغيره ، وهذا لون من الأنانية الذكية النافعة ؛ لأنها أنانية باقية ، ولها عائد إيمانى .

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيق عليهم فى النفقة . والقتر : ضيق العيش . والإقتار : التضييق على الإنسان فى الرزق . [لسان العرب ـ مادة : قتر] .

(٢) خصّ يخص خصاصة : افتقر واحتاج . والخصاصة : الفقر والاحتياج . [القاموس القويم ١/١٩٥] .

ونعلم أن الحق سبحانه لو شاء لجعل الناس كلهم أثرياء ؛ ولم يجعل يداً عليا ويداً سفلى ، لكنه سبحانه لم يشأ ذلك ؛ ليجعل الإنسان ابْنَ أغيار ؛ ويعدل فيه بميزان الإيمان ، وليدُكّ غرور الذات على الذات ، وليتعلم الإنسان أن غروره على ربِّه لن ينال من الله شيئاً ، ولن يأتى للإنسان بأى شىء .

وكل مظاهر القوة فى الإنسان ليست من عند الإنسان ، وليست ذاتية فيه ، بل هى موهوبة له من الله ؛ وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يُهذِّب الناس لِيُحسِنوا التعامل مع بعضهم البعض .

ولذلك أوضح سبحانه أن عنده خزائنَ كل شىء ، ولو شاء لألقى ما فيها عليهم مرة واحدة ؛ ولكنه لم يُرِد ذلك ليؤكد للإنسان أنه ابْنُ أغيارٍ ؛ ولِيلفتَهم إلى مُعْطى كل النعم .

كما أن رتابة النعمة قد تُنسِى الإنسانَ حلاوةَ الاستمتاع بها ، وعلى سبيل المثال أنت لا تجِدَ إنساناً يتذكّر عَيْنه إلا إذا آلمتْه ؛ وبذلك يتذكر نعمة البصر ، بل وقد يكون فَقْد النعمة هو المُلفِت للنعمة ، وذلك لكى لا ينسى أحد أنه سبحانه هو المُنعِم .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ[1] فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾

---

(١) لواقح : حوامل . لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع . قال الأزهرى : وجعل الريح لاقحاً لأنها تحمل السحاب ، أى : تُقله وتصرفه ثم تمر به فتستدره ، أى تنزله . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٣٩] .

والإرسال هو الدَّفْع للشيء من حَيِّز إلى حَيِّز آخر ، وحين يقول سبحانه إنه أرسل الرياح ؛ نجد أنها مُرْسلَة من كُلّ مكان إلى كُلّ مكان ؛ فهى مُرْسلَة من هنا إلى هناك ، ومن هناك إلى هنا .

وهكذا يكون كل مكان ؛ هو موقع لإرسال الرياح ؛ وكل مكان هو موقع لاستقبالها ؛ ولذلك نجد الرياح وهى تسير فى دَوْرة مستمرة ؛ ولو سكنتْ لمَا تحرَّك الهواء ، ولأُصيبتْ البشرية بالكثير من الأمراض ؛ ذلك أن الرياح تُجدِّد الهواء ، وتُنظِّف الأمكنة من الرُّكود الذى يُمكِن أن تصيرَ إليه .

ونعلم أن القرآن حين يتكلم عن الرياح بصيغة الجمع فهو حديث عن خير ، والمثل هو قول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ .. (٥٧) ﴾ [الأعراف]

أما إذا أُفرد وجاء بكلمة « ريح » فهى للعذاب ، مثل قوله :

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ[1] عَاتِيَةٍ (٦) ﴾ [الحاقة]

وهنا يقول الحق سبحانه : ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ (٢٢) ﴾ [الحجر]

ولواقح جمع لاقحة ، وتُطلَق فى اللغة مرَّة على الناقة التى فى بطنها جنين ؛ ومرة تُطلَق على اللاقح الذى يلقح الغير ليصير فيه جنين ؛ لأن الحق سبحانه شاء أن يتكاثر كل ما فى الكون ؛ وجعل

---

(١) ريح صرّ وصرصر : شديدة البرد . وقيل : شديدة الصوت . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

من كُلٍّ زوجين اثنين ؛ إما يتكاثر أو تتولد منه الطاقة ؛ كالسالب والموجب في الكهرباء .

وهو القائل سبحانه :

﴿ سبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

ثم عَدَّد لنا فقال :

﴿ مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦) ﴾ [يس]

وهناك أشياء لا يُدركها الإنسان مثل شجرة الجُمَّيز ؛ التى لا يعلم الشخص الذى لم يدرس علم النبات كيف تتكاثر لتنبت وتُثمِر ، ويعلم العالم أن هناك شجرةَ جُميز تلعب دور الأنثى ، وشجرةً أخرى تلعب دورَ الذَّكَر .

وكذلك شجرة التوت ؛ وهناك شجر لا تُعرَف فيه الأنثى من الذَّكر ؛ لأنه مكمور توجد به الأُنثى والذَّكَر ، وقد لا تعرف أنت ذلك ؛ لأن الحق سبحانه جعل اللُّقاحةَ خفيفةً للغاية ؛ لتحملَها الريحُ من مكان إلى مكان .

ونحن لم نَرَ كيف يتم لقاح شجرة الزيتون ؛ أو شجرة المانجو ، أو شجرة الجوافة ، وذلك لنأخذ من ذلك عبرةً على دِقّة صَنْعته سبحانه .

والمثَل الذى أضربه دائماً هو المياه التى تسقط على جبلٍ ما ؛ وبعد أيام قليلة تجد الجبل وقد امتلأ بالحشائش الخضراء ؛ ومعنى هذا أن الجبل كانت توجد به بذور تلك الحشائش التى انتظرتْ الماء لِتُنبت .

وتعرّف العلماء على أن الذكورة بعد أن تنضج فى النبات فهى تنكشف وتنتظر الرياح والجو المناسب والبيئة المناسبة لتنقلها من مكان إلى مكان .

ولهذا نجد بعضاً من الجبال وهى خضراء بعد هبوب الرياح وسقوط المطر ؛ ذلك أن حبوب اللقاح انتقلت بالرياح ، وجاء المطر لتجد النباتات فرصةً للنمو .

وقد تجد جبلاً من الجبال نصفه أخضر ونصفه جَدْب ؛ لأن الرياحَ نقلتْ للنصف الأخضر حبوبَ اللقاح ، ولم تنقل الحبوب للنصف الثانى من الجبل ؛ ولذلك نجد الحق سبحانه قد جعل للرياح دورةً تنتقل بها من مكان لمكان ، وتدور فيها بكل الأماكن .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٢٢) ﴾ [الحجر]

وقد تبيّن لنا أن المياه نفسها تنشأ من عملية تلقيح ؛ وبه ذكورة وأنوثة .

وفى هذا المعنى يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ[1] (٢٢) ﴾ [الحجر]

أى : أنكم لن تخزنوا المياه لأنكم غير مأمونين عليه ، وإذا كان الله قد هدانا إلى أن نخزنَ المياه ، فذلك من عطاء الله ؛ فلا يقولنّ أحد : لقد بنينا السدود ؛ بل قُلْ : هدانا الله لنبنيَها ؛ بعد أن يسقطَ المطر ؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا استطعنا تخزينَ المياه .

---

(١) أى : ليست خزائنه عندكم ، فنحن الخازنون لهذا الماء ، ننزله إذا شئنا ، ونمسكه إذا شئنا . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٤٢] .

وعلى هذا يكون سبحانه هو الذى خزنَ المياه حين أنزله من السماء بعد أنْ هدانا لنبنىَ السدود .

وأنت حين تريد كوباً من الماء المُقطّر ؛ تذهب إلى الصيدلى ليُسخِّن الماء فى جهاز مُعيّن ؛ ويُحوّله إلى بخار ، ثم يُكثّف هذا البخار ليصيرَ ماء مُقطّراً ، وكل ذلك يتمّ فى الكون ، وأنت لا تدرى به .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وفى ظاهر الأمر كان من المُمْكن أن يقول الحق : « إنّا نُميت ونُحيى » ؛ لأنه سبحانه يخاطبنا ونَحن أحياء ، ولكن الحق سبحانه أراد بهذا القول أن يلفتنا أن ننظر إلى الموت الأول ، وهو العدم المَحْض الذى أنشأنا منه ، وهو سبحانه القائل :

﴿ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾
[البقرة]

والكلام فى تفصيل الموت يجب أن نُفرّق فيه بين العدم المَحْض والعدم بعد وجود ؛ فالعدم المَحْض هو ما كان قبل أن نُخلَق ؛ ثم أوجدنا الله لنكون أحياء ؛ ثم يُميتنا من بعد ذلك ، ثم يبعثنا من بعد ذلك للحساب .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها يكون الكلام عن الموت الذى يحدث بعد أن يهبَنا اللهُ الحياةَ ، ثم نقضى ما كتبه لنا من أجَل .

ثم يُذيِّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣) ﴾ [الحجر]

وهذا القول يعنى أن هناك تركة كبيرة ؛ وهى هذا الكون الذى خلقه سبحانه ليستخلفنا فيه . ونحن لم نُضفْ شيئاً لهذا الكون الذى خلقه الله ؛ لأنك إنْ نظرتَ إلى كمية المياه أَو الغذاء التى فى الكون ، وكُل مقومات الحياة لَمَا وجدتَ شيئاً يزيد أو ينقص ؛ فالماء تشربه ليرويكَ ، ثم يخرج عرقاً وبولاً ؛ ومن بعد الموت يتحلّل الجسم لِيتبخرَ منه الماء ، وهذا يجرى على كل الكائنات .

وحين يتناول الحق سبحانه فى هذه الآية أَمْر الموت والحياة وعودة الكون فى النهاية إلى مُنْشئه سبحانه ؛ فهو يُحدّثنا عن أمرين يعتوران[1] حياة كل موجود ؛ همَا الحياة والموت ، وكلاهما يجرى على كُلِّ الكائنات ؛ فكُلّ شىء له مدة يَحْياها ، وأَجلٌ يقضيه .

وكل شىء يبدأ مهمة فى الحياة فهو يُولَد ؛ وكل شىء يُنهى مهمته فى الحياة ـ بحسب ما قدره الله له ـ فهو يموت ؛ وإنْ كنا نحن البشر بحدود إدراكنا لا نعى ذلك .

وهو سبحانه القائل :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ[2] (٨٨) ﴾ [القصص]

---

(١) التعاور والاعتوار أن يكون هذا مكان هذا ، وهذا مكان هذا . يقال : اعتوراه وابتدّاه هذا مرة وهذا مرة . قاله ابن الأعرابى فيما نقله عنه ابن منظور فى لسان العرب [مادة : عور] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٤٠٣) : « هذا إخبار بأنه الدائم الباقى الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يموت ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) ﴾ [الرحمن] فعبر بالوجه عن الذات ، وهكذا قوله هنا : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص] أى : إلا إياه .

ـ وقال مجاهد والثورى : أى إلا ما أريد به وجهه . وحكاه البخارى فى صحيحه كالمقرر له . وهذا القول لا ينافى القول الأول ، فإن هذا إخبار عن كل الأعمال بأنها باطلة إلا ما أريد به وجه الله تعالى من الأعمال الصالحة المطابقة للشريعة ، والقول الأول مقتضاه أن كل الذوات فانية وزائلة إلا ذاته تعالى وتقدس فإنه الأول الآخر الذى هو قبل كل شىء وبعد كل شىء » .

إذن : فكُلّ شيء يُطلَق عليه « شيء » مصيره إلى هلاك ؛ ومعنى ذلك أنه كان حياً ؛ ودليلنا على أنه كان حياً هو قول الحق :

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

وهكذا نعلم أن كل ما له مهمة فى الحياة له حياة تناسبه ؛ وفَوْر أن تنتهى المهمة فهو يهلك ويموت ، والحق سبحانه وتعالى يرث كل شىء بعد أن يهلك كل مَنْ له حياة ، وهو سبحانه القائل :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠) ﴾ [مريم]

وهو بذلك يرث التارك والمتروك ؛ وهو الخالق لكل شىء . ويختلف ميراث الحق سبحانه عن ميراث الخَلْق ؛ بأن المخلوق حين يرث آخر ؛ فهو يُودعه التراب أولاً ، ثم يرث ما ترك ؛ أما الحق سبحانه فهو يرث الاثنين معاً ، المخلوق وما ترك .

ولذلك نحن نرى مَنْ يعز عليهم ميت ؛ قد يُمسكون بالخشبة التى تحمل الجثة ، ويرفضون من فَرْط المحبة أن تخرج من منزله ؛ ولو تركناه لهم لمدة أسبوع ورمّت الجثة ؛ سيتوسّلون لِمَنْ يحمل الجثث أن يحملَه ليُوارِيه التراب ، ثم يبدأون فى مناقشة ما يرثونه من الفقيد .

وهم بذلك يَرِثون المتروك بعد أن أودعوا التارك للتراب ، وإذا كان التارك من الذين أحسنوا الإيمان والعمل فيدخل حياة جديدة هى أرغد بالتأكيد من حياته الدنيا ؛ ولَسوفَ يأكل ويشرب دون أن يتعبَ ، وكل ما تمر على ذهنه رغبة فهى تتحقّق له ، فهو فى ضيافة المُنعِم الأعلى .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ[(١)] وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

والمُستقدم هو مَنْ تقدّم بالحياة والموت ؛ وهم مَنْ قبلنا من بشر وأمَم . والمُسْتأخر هو مَنْ سيأتى من بعدنا . وسبحانه يعلَمُنَا بحكمٍ أنه علم من قَبْل كلّ مستأخر ؛ أى : أنه علم بنا من قبل أنْ نُوجد ؛ ويعلم بنا من بَعْد أن نرحلَ ؛ فعلْمه كامل وأزلىّ ؛ وفائدة هذا العلم أنه سيترتب عليه الجزاء ؛ فنحن حين أخذنا الحياة والرزق لم نُفلت بهما بعيداً ؛ بل نجد الله قد علم أزلاً بما فعل كل منّا .

وهناك مَنْ يقول إن هناك معنًى آخر ؛ بأن الحق سبحانه يكتب مَنْ يسرع إلى الصلاة ويتقدم إليها فوْر أن يسمع النداء لها ، ويعلم

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٤٢) : « فيه ثمان تاويلات :

١ - المستقدمين : فى الخلق إلى اليوم . والمستأخرين : الذين لم يخلقوا بعد . قاله قتادة وعكرمة وغيرهما .

٢ - المستقدمين : الأموات . والمستأخرين : الأحياء . قاله ابن عباس و الضحاك .

٣ - المستقدمين : من تقدم أمة محمد . والمستأخرين : أمة محمد . قاله مجاهد .

٤ - المستقدمين : فى الطاعة والخير . والمستأخرين : فى المعصية والشر . قاله الحسن وقتادة أيضاً .

٥ - المستقدمين : فى صفوف الحرب . والمستأخرين : فيها . قاله سعيد بن المسيب .

٦ - المستقدمين : من قتل فى الجهاد . والمستأخرين : من لم يقتل . قاله القرظى .

٧ - المستقدمين : أول الخلق . والمستأخرين : آخر الخلق قاله الشعبى .

٨ - المستقدمين : فى صفوف الصلاة . والمستأخرين : فيها بسبب النساء . ذكرها القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٤٢) .

مَنْ يتأخر عن القيام بأداء الصلاة ، ذلك أن تأثير كلمة « الله أكبر » فيها من اليقظة والانتباه ما يُذكّرنا بأن الله أكبر من كُلِّ ما يشغلك .

ونعلم أن من إعجازات الأذان أنه جعل النداء باسم « الله أكبر » ؛ ولم يَقُلْ : الله كبير ؛ وذلك احتراماً لما يشغلنا في الدنيا من موضوعات قد نراها كبيرة ؛ ذلك أن الدنيا لا يجب أن تُهَان ؛ لأنها المَعْبر إلى الجزاء القادم في الآخرة .

ولذلك أقول دائماً : إن الدنيا أهم من أنْ تُنسَى ؛ وفي نفس الوقت هي أتفه من أنْ تكون غاية ، فأنت في الدنيا تضرب في الأرض وتسعى لِقُوتك وقُوتِ مَنْ تعول ؛ وليُعينك هذا القوتُ على العبادة .

لذلك فلا يحتقر أحد الدنيا ؛ بل ليشكر الله ويدعوه أنْ يُوفّقه فيها ، وأن يبذلَ كل جَهْد في سبيل نجاحه في عمله ؛ فالعمل الطيب ينال عليه العبدُ حُسْن الجزاء ؛ وفَوْر أن يسمعَ المؤمن « الله أكبر » ؛ فعليه أن يتجهَ إلى مَنْ هو أكبر فعلاً ، وهو الحق سبحانه ، وأن يؤدي الصلاة . هذا هو المعنى المُسْتقى من المُسْتقدِم للصلاة والمُسْتأخِر عنها .

وهناك من العلماء مَنْ رأى ملاحظَ شتَّى في الآية الكريمة . فمعناها قد يكون عاماً يشمل الزمن كله ؛ وقد تكون بمعنًى خاص ؛ كمعنى المُستقدِم للصلاة والمستأخِر عنها .

وقد يكون المعنى أشدَّ خصوصية من ذلك ؛ فنحن حين نُصلّي نقف صفوفاً ، ويقف الرجال أولاً ؛ ثم الأطفال ؛ ثم النساء ؛ ومن

الرجال مَنْ يتقدّم الصفوف كَيْلا تقع عيونه على امرأة ؛ ومنهم مَنْ قد يتحايل ويقف فى الصفوف الأخيرة ليرى النساء ؛ فأوضح الحق سبحانه أن مثل هذه الأمور لا تفوت عليه[1] ، فهو العالم بالأسرار وأخفى منها .

أو : أن يكون المعنى هو المُستقدمين إلى الجهاد فى سبيل الله أو المتأخرين عن الجهاد فى سبيله . ومَنْ يموت حَتْف أنفه - أى : على فراشه لا دَخْلَ له بهذه المسألة .

أما إنْ دعا داعى الجهاد ، ويُقدِّم نفسه للحرب ويُقاتل وينال الشهادة ، فالحق - سبحانه وتعالى - يعلم مَنْ تقدّم إلى لقائه محبةً وجهاداً لِرفْعة شأن الدين .

وقد يكون فى ظاهر الأمر وفى عيون غيره ممَّنْ يكرهون الحياة ؛ ولكنه فى حقيقة الأمر مُحِبّ للحياة بأكثر ممَّنْ يدّعون حُبّها ؛ لأنه امتلك اليقين الإيمانى بأن خالقَ الدنيا يستحق أنْ ينالَ الجهاد فى سبيل القِيم التى أرادها منهاجاً ينعدل به ميزان الكون ؛ وإن استشهد فقد وعده سبحانه الخُلْد فى الجنة ونعيمها .

ونجد أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - وهو يقول لرسول

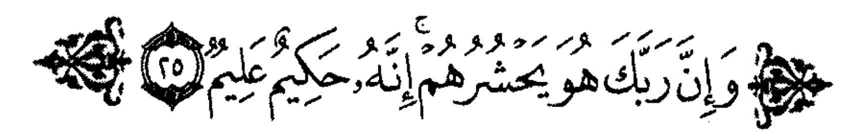
---

(١) ورد فى هذا حديث قال عنه ابن كثير (تفسير ابن كثير ٢/٥٥١) « حديث غريب جداً . فيه نكارة شديدة » . وقد ذكره الواحدى فى أسباب نزول هذه الآية (أسباب النزول ص ١٥٨) عن ابن عباس قال : « كانت تصلى خلف النبى ﷺ امرأة حسناء . قال ابن عباس : لا والله ما رأيت مثلها قط ، وكان بعض المسلمين إذا صلوا استقدموا يعنى لئلا يروها ، وبعض يستأخرون ، فإذا سجدوا نظروا إليها من تحت أيديهم » . والحديث مروى فى مسند أحمد وسنن النسائى والترمذى .

الله ﷺ : ادْعُ لى يا رسول الله أن أستشهد ؛ فيردّ عليه النبى الكريم : « متِّعنا بنفسك يا أبا بكر »[١] .

وعلى ذلك لا يكون المستأخر هنا محلَّ لَوْم ؛ لأن الإيمان يحتاج لمَنْ يصونه ويُثبِّته ؛ كما يحتاج إلى مَنْ يؤكد أن الإيمان بالله أعزُّ من الحياة نفسها ؛ وهو المُتقدّم للقتال ، وينال الشهادةَ فى سبيل الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



أى : أن المُتولّى تربيتك يا محمد لن يترك مَنْ خاصموك وعاندوك ، وأهانوك وآذوْكَ دون عقاب .

وكلمة : ﴿ يَحْشُرُهُمْ (٢٥) ﴾ [الحجر]

تكفى كدليل على أن الله يقفُ لهم بالمرصاد ، فهم قد أنكروا البعث ؛ ولم يجرؤ أحدهم أن يُنكِر الموت ، وإذا كان الحق سبحانه قد سبق وعبَّر عن البعث بقوله الحق :

﴿ ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦) ﴾ [المؤمنون]

---

(١) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٣/ ٤٧٤) أن عبدالرحمن بن أبى بكر الصديق لم يزل على دين قومه فى الشرك حتى شهد بدراً مع المشركين ودعا إلى البراز (المبارزة) فقام إليه أبوه أبو بكر ليبارزه ، فذكر أن رسول الله ﷺ قال لأبى بكر : « متعنا بنفسك » .

فهم كانوا قد غفلوا عن الإعداد لمَا بعد الموت ، وكأنهم يشكُّون فى أنه قادم ، وجاء لهم بخبر الموت كأمر حتمىّ ، وسبقتْه (هو) لتؤكد أنه سوف يحدث ، فالحشر منسوب لله سبحانه ، وهو قادر عليه ، كما قدر على الإحياء من عدم ، فلا وَجْهَ للشك أو الإنكار .

ثم جاء لهم بخبر البعث الذى يشكُّون فيه ؛ وهو أمر سبق وأنْ ساق عليه سبحانه الأدلة الواضحة .

ولذلك جاء بالخبر المصحوب بضمير الفصل :

﴿ يَحْشُرُهُمْ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الحجر]

وسبحانه يُجرى الأمور كلها بحكمة واقتدار ، فهو العليم بما تتطلبه الحكمة عِلْماً يحيط بكل الزوايا والجهات .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ[1] مَّسْنُونٍ[2] ﴿٢٦﴾ ﴾

وسبحانه يتكلّم هنا عن خَلْق الإنسان من بعد أن تكلَّم عن خَلْق الكون وما أعدَّه له فيه ، وليستقبل الكون الخليفةَ لله ؛ فيوضح أنه قد خلقه من الصَّلْصال ، وهو الطين اليابس .

وجاء سبحانه بخبر الخَلْق فى هذه السورة التى تضمنت خبر

---

(١) الحمأ والحَمْأة : الطين الأسود . والمسنون : المصبوب فى قالب إنسانى ، أو مصوّر بصورة إنسان أو طين كالفخار صالح للتصوير والصقل [القاموس القويم ١/٣٣١] .

(٢) نار السموم : النار الحارة التى تقتل . وقال ابن مسعود : نار السموم التى خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٧٤٦] .

مَدِّ الأرض ؛ ومَجِيء الرياح ، وكيفيـة إنزال الماء من السماء ؛ وكيف قَدَّر فى الأرض الرزق ، وجعل فى الأرض رواسى ، وجعل كُلّ شىء موزوناً .

وهو سبحانه قد استهلَّ السورة بقوله :

﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾ [الحجر]

أى : أنه افـتـتح الـسـورة بالكلام عن حـارس القـيـم للحـركـة الإنسانية ؛ ثم تكلّم عن المادة التى منها الحياة ؛ وبذلك شمل الحديثُ الكلامَ عن المُـقوِّم الأسـاسى للقـيم وهو القـرآن ، والكلام عن مُقـوِّم المـادة ؛ وكان ذلك أمـراً طبيـعيـاً ؛ ودَلّلْتُ عليه سـابقاً بحـديثى عن مُصمِّم أىّ جهاز من الأجهزة الحديثة ؛ حيث يحدد أولاً الغرض منه ؛ ثم يضع جدولاً وبرنامجاً لصيانة كل جهاز من تلك الأجهزة .

وهكذا كـان خَلْق الله للإنسـان الذى شـاء له سبـحـانه أن يكون خليفتـه فى الأرض ، ووضـع له مُقوِّمات مادة ومُقـوّمات قِيم ؛ وجاء بالحديث عن مُـقوِّمات القـيَم أولاً ؛ لأنها سـتـمدّ حيـاة الإنسان لتكون حياة لا تنتهى ، وهى الحياة فى الدنيا والآخرة .

وهذا القول يُوضِّح لنا أن آدم ليس هو أول من استعمر الأرض ؛ بل كـان هناك خَلْق من قَـبْل آدم ، فـإذا حـدَّثنا علمـاء الجـيولوجـيـا والحـفــريات عن أن هناك مـا يـدل على وجـود بعض من الـكائنات المطمـورة تثـبت أنه كانت هـناك حيـاة منذ خـمسـين ألف قـرن من الزمان .

فنحن نقول له : إن قولك صحيح .

وحين يسمع البعض قَوْل هؤلاء العلماء يقولون : لا بُدَّ أن تلك الحيوانات كانت موجودة فى زمن آدم عليه السلام ، وهؤلاء يتجاهلون أن الحق سبحانه لم يَقُلْ لنا أن آدم هو أول مَنْ عَمَر الأرض ، بل شاء سبحانه أن يخلقنا ويعطينا مهمة الاستخلاف فى الأرض .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧) ﴾ [فاطر]

أى : أن خَلْق غيرنا أمر وارد ، وكذلك الخَلْق من قبلنا أمرٌ وارد .

ونعلم أن خَلْق آدم قد أخذ لقطات متعددة فى القرآن الكريم ؛ تُؤدّى فى مجموعها إلى القصة بكل أحداثها وأركانها ، ولم يكُنْ ذلك تكراراً فى القرآن الكريم ، ولكن جاء القرآن بكل لَقْطة فى الموقع المناسب لها ؛ ذلك أنه ليس كتاب تاريخ للبشر ؛ بل كتاب قِيَم ومنهج ، ويريد أن يُؤسّس فى البشر القيم التى تحميهم وتصونهم من أىّ انحراف ، ويريد أن يُربِّىَ فيهم المهابة .

وقد تناول الحق سبحانه كيفية خَلْق الإنسان فى الكثير من سُور القرآن : البقرة ؛ الأعراف ؛ الحجر ؛ الإسراء ؛ الكهف ؛ وسورة ص .

قال سبحانه ـ على سبيل المثال ـ فى سورة البقرة :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّى أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ (٣٠) ﴾ [البقرة]

وجاء هذا القول من الله للملائكة ساعةَ خَلْق الله لآدم ، من قبل أن تبدأ مسألة نزول آدم للأرض .

وقد أخذتْ مسألة خَلْق الإنسان جدلاً طويلاً من الذين يريدون أن يستدركوا على القرآن متسائلين : كيف يقول مرة : إن الإنسان مخلوق من ماء ؛ ومرة من طين ؛ ومرة من صلصال كالفخار ؟

ونقول : إن ذلك كله حديث عن مراحل الخَلْق ، وهو سبحانه أعلم بمَنْ خلق ، كما خلق السماوات والأرض ، ولم يُشهِد الحق أحداً من الخلق كيف خلق المخلوقات :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا[1] (٥١) ﴾ [الكهف]

ومن رحمته سبحانه أنه ترك فى مُحسَّات الحياة وماديتها ما يُثبت صدْقه فى غيبيّاته ؛ فإذا قال مرّة : إنه خلق كل شىء من الماء ؛ فهو صادق فيما قال ؛ لأن الماء يُكوِّن أغلبَ الجسد البشرى على سبيل المثال .

وإذا أوضح أنه خلق الإنسان من طين ، فالتراب إذا اختلط بالماء صار طيناً ، وإذا مرّ على الطين وقتٌ صار صلصالاً ، وإذا قال :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ[2] وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

---

(١) عضداً : أعواناً مساعدين . [القاموس القويم ٢/ ٢٤] .

(٢) سوّى الشىء تسوية : عدَّله وجعله لا عوج فيه . [القاموس القويم ١/ ٣٣٧] .

وكُلٌّ هذا من الأمور الغيبية ؛ التى يشرحها لنا نقضُها فى الواقع المادى الملموس ، فحين يحدث الموت - وهو نَقْض الحياة - نجد الروح هى أول ما يخرج من الجسم ؛ وكانت هى آخر ما دخل الجسم أثناء الخَلْق .

ومن بعد ذلك تبدأ الحيوية فى الرحيل عن الجثمان ؛ فيتحول الجثمان إلى ما يشبه الصَّلْصال ؛ ثم يتبخّر الماء من الجثمان ؛ ليصير من بعد ذلك تراباً .

وهكذا نشهد فى الموت - نقض الحياة - كيفية بَدْء مراحل الخَلْق وهى معكوسة ؛ فالماء أولاً ثم التراب ؛ ثم الطين ؛ ثم الصلصال الذى يشبه الحمأ المسنون ؛ ثم نَفْخ الروح .

وقد صدق الحق سبحانه حين أوضح لنا فى النقيض المادى ، ما أبلغنا عنه فى عالم الغيب .

وعلى ذلك - أيضاً - نجد أن الذين يضعون التكهنات بأن الشمس خُلِقَتْ قبل الأرض ؛ وكانت الأرض جزءاً من الشمس ثم انفصلت عنها ؛ على هؤلاء أن يعلموا أن ما يقولونه هو أمر لم يشاهدوه ، وهى أمور لا يمكن أن يدرسها أحد فى معمل تجريبى ؛ وقد قال القرآن عن أهل هذا اللغو :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وهم قد أعانوا على تأكيد إعجازية القرآن الذى أسماهُم المُضلِّين ؛ لأنهم يغوون الناس عن الحق إلى الباطل .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ (٢٧) ﴾

ونعلم أن كلمة (السَّمُوم) هى اللهب الذى لا دُخانَ له ، ويُسمّونه « السَّموم » لأنه يتلصَّص فى الدخول إلى مسامِّ الإنسان .

وهكذا نرى أن للعنصر تأثيراً فى مُقوِّمات حياة الكائنات ، فالمخلوق من طين له صفات الطينية ، والمخلوق من نار له صفات النارية ؛ ولذلك كان قانون الجن أخفَّ وأشدَّ من قانون الإنس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ[1] مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ .. (٢٧) ﴾ [الأعراف]

وهكذا نعلم أن قانون خَلْق الجن من عنصر النار التى لا لهبَ لها يوضح لنا أن له قدرات تختلف عن قدرات الإنسان .

ذلك أن مهمته فى الحياة تختلف عن مهمة الإنسان ، ولا تصنع له خيريةً أو أفضلية ، لأن المهام حين تتعدد فى الأشياء ؛ تمنع المقارنة بين الكائنات .

والمَثلُ على ذلك هو غلبة مَنْ عنده علْم بالكتاب على عفريت الجن ؛ حين سأل سليمان عليه السلام عمَّن يأتيه بعرش بلقيس :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا[2] قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) ﴾ [النمل]

---

(١) القبيل : الجماعة أو العشيرة أو الكفلاء أو الأعوان المناصرون . [القاموس القويم ٢/٩٨].

(٢) العرش : سرير الملك . ذكر ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٣) : « كان من ذهب مفصص بالياقوت والزبرجد واللؤلؤ ، وقوائمه لؤلؤ وجوهر ، وكان مُستراً بالديباج والحرير » .

وقال عفريت من الجن : إنه قادر على أن يأتى بالعرش قبل أن يقومَ سليمان من مُقَامه ، ولكن مَنْ عنده علْم بالكتاب قال : إنه قادر أنْ يأتيَ بعرش بلقيس قبل أن يرتدَّ طَرْف سليمان ؛ وهكذا غلب مَنْ عنده علم بالكتاب قدرة عفريت الجن[1] .

وقد قصَّ علينا الحق سبحانه هذا فى كتابه الكريم ، فقال :

﴿ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِى عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى .. (٤٠) ﴾ [النمل]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٢٨) ﴾

وعرفنا فى مواقع متفرقة من خواطرنا كيف نفم هذه الآية . ونعلم أن البشر فى زماننا حين يريدون صُنْع تمثال ما ، فَهُم يَخْلطون التراب بالماء ليصير طيناً ؛ ثم يتركونه إلى أنْ يختمرَ ، ويصيرَ كالصَّلْصَال ، ومن بعد ذلك يُشكل المثَّالُ ملامح مَنْ يُريد أن يصنع له تمثالاً .

والتماثيل تكون على هيئة واحدة ، ولا قدرةَ لها ، عكْس الإنسان المخلوق بيد الله ، والذى يملك بفعل النفْخ فيه من روح الله ما لاَ

---

(١) عفريت الجن : أقوى الجن . والعفريت : النافذ فى الأمور مع دهاء . [المعجم الوجيز ـ مادة : عفرت] .

يملكه أيُّ كائن صنعتْــه مهارة الإنسان ؛ ذلك أن إعجــازَ وطلاقةَ قدرةِ الخالق لا يمكن أن تستوى مع قدرة المخلوق المحدودة .

وهناك حـديث يقـول فـيـه ﷺ : « خـلق الله عـز وجل آدم على صورته ، ستون ذراعاً »[(١)] .

واختلف العلمـاء فى مرجع الضمير فى هذا الـحديث ؛ أيعود إلى صورة آدم ؟ أم يعود إلى آدم ؟

فمن العلمـاء من قال : إن الضمير يعـود إلى آدم ؛ بمعنى أن الله لم يخلقه طفـلاً ، ثم كبر ؛ بل خلـقه على الصورة الناضـجة ؛ وتلفَّت آدم فوجـد نفسه على تلك الصــورة الناضجة ؛ وأنه لم يكُنْ مـوجوداً من قبل ذلك بساعة ؛ لذلك تلفَّت إلى المُوجِد له .

والذين قالوا : إن الحق سبحانه خلق الإنسان على صورته ، وأن الضمير يعود إلى الله ؛ فذلك لأن الحق قد جعل الإنسان خليفةً له فى الأرض ؛ وأعطاه من قـدرته قـدرةً ؛ ومن عِلْمـه علماً ؛ ومن حـكمتـه حكمة ، ومن قاهريته قهراً .

ولذلك يقول ﷺ : « تخلَّقوا بأخلاق الله » .

فخلق آدم داخلٌ فى كينونته . يقول الحق :

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحـه (٢٨٤١) قال النووى فى شرحه لهذا الحديث : « هذه الرواية ظاهرة فى أن الضمـير فى صورته عائد إلى آدم ، وأن المـراد أنه خُلِق فى أول نشأته على صورته التى كان عليها فى الأرض وتوفى عليها وهى طوله ستون ذراعاً ، ولم ينتقل أطواراً كذريته وكانت صورته فى الجنة هى صورته فى الأرض لم تتغير » .

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) ﴾ [آل عمران]

وأمام الكينونة ينتفى التعليل ، ولم يبق إلا الإيمان بالخالق .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾[1]

والتسوية تعنى جَعْل الشيء صالحاً للمهمة التى تُراد له . وشاء سبحانه أن يُسوِّىَ الإنسان فى صورة تسمح لنفخ الروح فيه . والنفخ من روح الله لا يعنى أن النفخ قد تَمَّ بدفع الحياة عن طريق الهواء فى فَمِ آدم ، ولكن الأمر تمثيلٌ لانتشار الروح فى جميع أجزاء الجسد .

وقد اختلف العلماء فى تعريف الروح ، وأرى أنه من الأسلم عدم الخوض فى ذلك الأمر ؛ لأن الحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥) ﴾ [الإسراء]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) « النفخ : إجراء الريح فى الشيء . والروح جسم لطيف ، أجرى الله العادة بأن يخلق الحياة فى البدن ، من ذلك الجسم ، وحقيقته إضافة خلق إلى خالق ، فالروح خلق من خَلْقه أضافه إلى نفسه تشريفاً وتكريماً » . قاله القرطبى فى تفسيره (٥ / ٣٧٤٧) .

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

وقد سجدوا جميعاً فى حركة واحدة ؛ ذلك أنه لا اختيارَ لهم فى تنفيذ ما يُؤمرون به ، فمن بَعْد أن خلق اللهُ آدمَ جاء تكريم الحق سبحانه له بقوله للملائكة : ﴿ اسْجُدُوا لآدَمَ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [طه]

وسجدت الملائكة التى كلَّفها الله برعاية وتدبير هذا المخلوق الجديد ، وهم المُدبِّرات أمراً والحَفظة ، ومَنْ لهم علاقة بهذا المخلوق الجديد .

وقوله الحق : ﴿ فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى أن عملية السجود قد حدثت بصورة مباشرة وحاسمة وسريعة ، وكان سجودهم هو طاعة للآمر الأعلى ؛ لا طاعة لآدم .

وقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى الملائكة الأعلى من البشر ، ذلك أن هناك ملائكةً أعلى منهم ؛ وهم الملائكة المُهيمون المتفرِّغون للتسبيح فقط .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ ﴾

وهكذا جاء الحديث هنا عن إبليس ؛ بالاستثناء وبالعقاب الذى

نزل عليه ؛ فكأن الأمرَ قد شَمله ، وقد أخذتْ هذه المسألة جدلاً طويلاً بين العلماء .

وكان من الواجب أن يحكمَ هذا الجدلَ أمران :

الأمر الأول : أن النصَّ سيد الأحكام .

والأمر الثانى : أن شيئاً لا نصَّ فيه ؛ فنحن نأخذه بالقياس والالتزام . وإذا تعارض نصٌّ مع التزام ؛ فنحن نُؤول الالتزام إلى ما يُؤول النص .

وإذا كان إبليس قد عُوقب ؛ فذلك لأنه استثنى من السجود امتناعاً وإباءً واستكباراً ؛ فهل هذا يعنى أن إبليس من الملائكة ؟

لا . ذلك أن هناك نصاً صريحاً يقول فيه الحق سبحانه :

﴿ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ .. (٥٠) ﴾[الكهف]

وهكذا حسم الحق سبحانه الأمر بأن إبليس ليس من الملائكة[1] ؛ بل هو من الجنّ ؛ والجن جنس مختار كالإنس ؛ يمكن أن يُطيع ، ويمكن أن يَعصِى .

وكونه سَمِع الأمر بالسجود ؛ فمعنى ذلك أنه كان فى نفس الحَضْرة للملائكة ؛ ومعنى هذا أنه كان من قبل ذلك قد التزم التزاماً

---

(١) قال الحسن البصرى : ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط ، وإنه لأصل الجن كما أن آدم عليه السلام أصل البشر ، رواه ابن جرير الطبرى بإسناد صحيح عنه . (ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٨٨) .

يرفعه إلى مستوى الحضور مع الملائكة[1] ؛ ذلك أنه مُخْتار يستطيع أن يطيع ، ويملك أن يعصى ، ولكن التزامه الذى اختاره جعله فى صفوف الملائكة .

وقالت كتب الأثر : إنهم كانوا يُسمُّونه طاووس الملائكة مختالاً بطاعته ، وهو الذى وهبه الله الاختيار ، لأنه قدر على نفسه وحمل نفسه على طاعة ربه ، لذلك كان مجلسه مع الملائكة تكريماً له ؛ لأنه يجلس مع الأطهار ، لكنه ليس مَلاكاً .

وبعض العلماء صَنَّفوه بمُسْتوًى أعلى من الملائكة[2] ؛ والبعض الآخر صَنَّفه بأنه أقلُّ من الملائكة ؛ لأنه من الجنِّ ؛ ولكن الأمر المُتفق عليه أنه لم يكُنْ ملاكاً بنصِّ القرآن ، وسواء أكان أعلى أم أدْنى ، فقد كان عليه الالتزام بما يصدر من الحق سبحانه .

ونجد الحق سبحانه وهو يعرض هذه المسألة ، يقول مرة (أبىَ) ، ومرة (استكبر) ، ومرة يجمع بين الإباء والاستكبار[3]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/ ٨٨) : « ذلك أنه كان قد توسم بأفعال الملائكة ، وتشبه بهم ، وتعبد وتنسك ، فلهذا دخل فى خطابهم وعصى بالمخالفة ، فعند الحاجة نضح كل وعاء بما فيه ، وخانه طبعه » . بتصرف فى العبارة بالتقديم والتأخير .

(٢) أورد ابن كثير عدة آثار فى تفسيره (١/ ٧٧) فى هذا ، فعن ابن عباس قال : « كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة ، من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد . وقال أيضاً : كان من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازناً على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان على الأرض » .

(٣) قوله (أبى) وحده جاء فى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الحجر] أما قوله (استكبر) وحده ، فجاء فى قوله تعالى : ﴿إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [ص] . أما الجمع بينهما فجاء فى قوله تعالى :﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة] .

والإباء يعنى أنه يرفض أن ينفذ الأمر بدون تعالٍ . والاستكبار هو التأبِّى بالكيفية ، وهنا كانت العقوبة تعليلاً لعملية الإباء والاستكبار ، وكيف ردّ أمر الحق الذى أورده سبحانه مرة بقول إبليس :

﴿ لَمْ أَكُن لأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَأٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾[الحجر]

وقوله :

﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) ﴾ [ص]

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّـٰجِدِينَ (٣٢) ﴾

وتقول « ما لك ؟» فى الشيء العجيب الذى تريد أن تعرف كيف وقع ، وكأن هذا تساؤلٌ عن أمر مخالف لمَا اختاره إبليس ؛ الذى وهبه الله خاصية الاختيار ، وقد اختار أن يكون على الطاعة .

ولنلحظ أن المتكلم هنا هو الله ؛ وهو الذى يعلم أنه خلق إبليس بخاصية الاختيار ؛ فله أن يطيعَ ، وله أنْ يعصيَ . وهو سبحانه هنا يُوضِّح ما علمه أزلاً عن إبليس ؛ وشاء سبحانه إبراز هذا ليكون حجة على إبليس يوم القيامة .

ويتابع سبحانه :

﴿ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ (٣٣) ﴾

وهكذا أفصح إبليس عما يُكِنّه من فَهْم خـاطئ لطبيعة العناصر ؛ فقـد توهَّم أن الطينَ والصلصال أقلُّ مـرتبة من النار التى خلقـه منها الله . وامتناع إبليس عن السجود ـ إذن ـ امـتناع مُعلَّل ؛ وكأن إبليس قد فَـهِم أن عنصر المـخلوقيـة هو الذى يعطى التمـايز ؛ وتجاهل أن الأمـر هو إرادة المُعنصِـر الذى يُرتِّب المـراتب بحكمتـه ، وليس على هَوى أحدٍ من المخلوقات .

ثم من قال : إن النارَ أفـضلُ من الطين ؟ ونحن نعلم أنه لا يُقال فى شيء إنه أفضل من الآخر إلا إذا استوتْ المـصلحة فيهما ؛ والنار لها جهة استخدام ، والطين له استخدام مختلف ؛ وأىٌّ منهما له مهمة تختلف عن مهمة الآخر .

ومن توجيـه الله فى فضـائل الخَلْق أن مَنْ يطلى الأشيـاء بالذهب لا يختلف عنده سـبحانه عن الذى يعـجن الطين ليصنعَ منه الفـخار ، فلا يفضُل أحدهما الآخرَ إلا بإتقان مهمته .

وهكذا أفصح إبليس أن الذى زَيَّن له عـدم الامتثال لأمـر السجود هو قناعته بأن هناك عنصراً أفضل من عنصر .

ويأتى الأمر بالعقاب من الحق سبحانه ؛ فيقول تعالى :



وهكذا صـدر الأمر بطـرْدِ إبليس من حضـرة الله بالمـلأ الأعلى ؛ وصدر العقـاب بأنه مطرود من كل خَيْر ، وأَصْل المسـألة أنها الرَّجْم بالحجارة .

وقد حدث ذلك لردِّه أمر الله سبحانه ، واستكباره ، ولقناعته أن النار التى خُلق منها أفضلُ من الطين الذى خُلق منه آدم ، ولم يلتفت إلى أن لكل مَخلوق مُهمة ، وكل كائن يؤدى مُهمته هو مُساوٍ للآخر .

وقد شاء الحق سبحانه ذلك ليزاول كل كائن الأسباب التى وُجِد من أجلها ؛ فآدم قد خلقه الله ليجعله خليفة فى الأرض ؛ ذلك أنه سبحانه يباشر الأمر فى السَّببيات بواسطة ما خلق .

فالنار - على سبيل المثال - تتسبَّب فى إنضاج الطعام ؛ لأنه سبحانه هو الذى شاء ذلك ، وجعلها سبباً فى إنضاج الطعام . ومزاولة الحق سبحانه لأشياء كثيرة فى المُسبِّبات معناه أن المخلوقات تُؤدِّى المهامَّ التى أرادها سبحانه لها فى الوجود .

والمؤمن الحق هو مَنْ يرى فى الأسباب التى فى الكون ؛ أنها عطاء من الله ، وأن يده مَمْدودة له بتلك الأسباب .

وبعد أن طرد الحق سبحانه إبليس من حضرته[1] سيُقرر سبحانه الحكم الذى أصدره عليه فى قوله :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ[2] إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ ﴾

وفى هذا القول ما يؤكد أن الجن أيضاً يموتون ؛ ولهم آجَال مثلنا ، وفى هذا الحكم بالطرد تأكيدٌ على أنه سبحانه لن يُوفِّقه إلى توبة ، ولا يعفو عنه فى النهاية .

---

(١) قوله تعالى : ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا .. ﴿٣٤﴾﴾ [الحجر] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٥١) : « أى : من المنزلة التى كان فيها من الملأ الأعلى » . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٥٠) : « أى : من السماوات ، أو من جنة عدن ، أو من جملة الملائكة » .

(٢) اللعن : الإبعاد والطرد من الخير . واللعين : الشيطان ، صفة غالبة لأنه طرد من السماء ، وقيل : لأنه أبعد من رحمة الله . [لسان العرب - مادة : لعن] .

ولكن إبليس يحاول الالتفاف ؛ فيأتى ما جاء على لسانه :



وكأن إبليس بهذا القول أراد أن يُفْلتَ من الموت ، ولكن مثل هذا المكْر لا يجوز على الله أو معه ، فإذا كان إبليس قد أراد أنْ يظلَّ فى الدنيا إلى يوم بَعْث البشر ؛ فذلك دليلٌ على أمنيته بالهروب من الموت .

ويقول الحق سبحانه رداً على دعاء إبليس :



ولحظةَ أنْ يسمعَ إبليسُ ذلك يظن أنه قد أفلتَ من الموت ؛ إذ لا موْتَ بعد البعث ، ويتوهم أن دعوته قد أُجيبت ، وكأنه قد أفلتَ بغروره الذى ظَنَّ به أن يتسع له الوقت ليأخذ الثأر من بنى آدم ؛ فعدم سجوده لآدم هو الذى وضعه فى هذا الموقف العصيب .

ولو كان إبليس يملك ذرة من وَعْى لَعلم أن الاستكبار والتوهم بأن عنصر النار أفضل من الطين هما السبب وراء ما حاق به من الطرد .

ولكن تأتى من بعد ذلك مباشرة الآية التى تتضمن عدم إفلاته من الموت ؛ فيقول سبحانه :

---

(١) أنظرنى : أمهلنى وأخرنى . وقال القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٧٥٠) : « أراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يُبعثون : ألا يموت ، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده » .

﴿ إِلَىٰ يَوْمِ(١) ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾

أى : أن إبليس سيذوق الموت أيضاً ؛ لأن كل المخلوقات ستذوق الموت من قبل أن تقوم القيامة ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِى الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ .. ﴿٦٨﴾ ﴾ [الزمر]

وكذلك قوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [الرحمن]

وهكذا لم يُفلتْ إبليس من الموت .

ولقائل أنْ يسألَ : وكيف كلَّمه الله ؟

ونقول : لم يُكلِّمه الله تشريفاً أو تكريماً ؛ بل غلَّظ له العقاب ، كما أن للحق سبحانه ملائكة يمكنهم أن يُبلِّغوا ما شاء لمَنْ شاء .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِى لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِى ٱلأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

---

(١) قال ابن عباس : أراد بهذا اليوم ـ النفخة الأولى ، أى : حين تموت الخلائق . وقيل : الوقت المعلوم الذى استأثر الله بعلمه ، ويجهله إبليس ، فيموت إبليس ثم يبعث . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٥٠] .

وقول الشيطان : ﴿ رَبِّ.. (٣٩) ﴾ [الحجر]

هو إقرار بالربوبية ؛ ولكن هذا الإقرار متبوع بعد الاعتراف بأنه قد سبّب لنفسه الطَّرد واللعنة ؛ فقد قال :

﴿ بِمَا أَغْوَيْتَنِي .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

والحق سبحانه لم يُغوه ؛ بل أعطاه الاختيار الذى كان له به أن يؤمن ويطيع ، أو يعصى ويُعاقب ، فسبحانه قد مكّن إبليس من الاختيار بين الفعل وعدم الفعل ؛ فخالف إبليسُ أمرَ الله وعصاه .

ويتابع إبليس : ﴿ لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ .. (٣٩) ﴾ [الحجر]

وفى هذا إيضاح أن كُلّ وسوسة للشيطان تقتصر فقط على الحياة المترفة . وفى الأشياء التى تُدمّر العافية ، كمَنْ يشرب الخمر ، أو يتناول المخدرات ، أو يتجه إلى كل ما يُغضب الله بالانحراف .

ولذلك نجد أن مَنْ يحيا بدخْل يكفيه الضرورات ؛ فهو يَأْمن على نفسه من الانحراف . ونقول أيضاً لمَنْ يحاولون أن يضبطوا موازينهم المالية : إن الاستقامة لا تُكلّف ؛ ولن تتجه بك إلى الانحراف .

وتزيين الشيطان لن يكون فى الأمور الحلال ؛ لأن كل الضرورات لم يُحرِّمها الحق سبحانه ؛ بل يكون التزيين دائماً فى غير الضرورات ، ولذلك فالاستقامة عملية اقتصادية ، تُوفّر على الإنسان مشقة التكلفة العالية لبعض من ألوان الانحرافات .

ولذلك نجد المسرفين على أنفسهم يحسدون مَنْ هم على

الاستقامة ، ويحـاولون أخْذهم إلى طريق الانحراف ؛ لأن كل منحرف إنما يلوم نفســه متسائلاً : لماذا أخيب وحدى ؛ ولا يخـيب معى مثل هذا المستقيم ؟ وتمتلىء نفسه بالاحتقار لنفسه .

وكذلك كان إبليس فى حُمْق ردِّه على الله ، ولكنه ينتبه إلى مكانته ومكانة ربه ؛ أيدخل فى مـعركة مع الله ، أم مع أبنـاء آدم الذى خلقه سبحانه كخليفة ليعمر الأرض ؟

لقد حدّد إبليس موقعه من الصراع ، فقال :

﴿ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ .. (٣٦) ﴾ [الحجر]

وهذا يعنى أن مجالَ معركته مع الخَلْق لا مع الخالق ؛ لذلك قال :

﴿ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ[١] أَجْمَعِينَ (٣٩) ﴾ [الحجر]

وكلمة (أجمـعين) تفيد الإحاطةَ لكل الأفـراد ، وهذا فوق قدرته بعـد أنْ عرف مُـقَامـه من نفســه ومن ربه ، فقـال ما جـاء به الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾

فهؤلاء العـباد الذين خلَّصتهم لنفسـك يا ربّ ؛ فلن أقدر عليهم ؛ لأنك أخذتهم من طريق الغواية ؛ لأنهم أحـسنوا الإيمان ، وقد وصلوا

---

(١) عن أبى سـعيد الخدرى ـ رضى الله عـنه ـ قال قـال رسول الله ﷺ : « إن إبليس قـال : يا رب وعزتك وجلالك لا أزال أغوى بنى آدم ما دامت أرواحهم فى أجسامهم . فقال الرب : وعزتى وجـلالى لا أزال أغفر لهم ما اسـتغفـرونى » . أخرجه أحمـد فى مسنده (٣/ ٢٩ ، ٤١) وفى إسناده ابن لهيعة . وانظر مجمع الزوائد (١٠/ ٢٠٧) .

إلى مرتبة من الإخلاص التعبُّدى درجةً يصعب بها على الشيطان غوايتهم .

ويقول أهل المعرفة والإشراق : « أنت تصل بطاعة الله إلى كرامة الله » .

ولو شاء الله أن يكون جميع خَلْقه مهديين ما استطاع أحد أنْ يُضلّهم ، ولكن عِزَّة الله[1] عن خَلْقه هى التى أفسحتِ المجالَ للإغواء ، ولذلك نجد إبليس يُقرّ بعجزه عن غواية مَنْ أخلصوا لله العبادة .

ونجد رد الحق سبحانه على إبليس واضحاً لا لَبْس فيه ، ولا قبول لِمَا قد يظنُّه إبليس مجاملةً منه لله ، فيقول سبحانه فى الآية التالية :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾

وهكذا أوضح الحق سبحانه أن صراطه المستقيم هو الذى يقود العباد إلى الطاعة ؛ فليس فى الأمر تفضُّل من إبليس الذى سبق له أنْ حدَّد المواقع والاتجاهات التى سيأتى منها لغواية البشر ، حيث قال الحق سبحانه ما جاء على لسان إبليس :

﴿ ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ[2] وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ [الأعراف]

---

(١) عزة الله عن خلقه : أى استغناؤه سبحانه عنهم .

(٢) قال قتادة : « أتاهم من بين أيديهم فأخبرهم أنه لا بعث ولا جنة ولا نار . ومن خلفهم من أمر الدنيا ، فزيَّنها لهم ودعاهم إليها . وعن أيمانهم من قبل حسناتهم بطاهم عنها . وعن شمائلهم زين لهم السيئات والمعاصى ودعاهم إليها وأمرهم بها . اتاك يا بن آدم من كل وجه ، غير أنه لم يأتك من فوقك ، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمة الله » . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٠٤) .

في ذلك القـول حدَّد إبليس جهـات الغواية التى يأتى مـنها وترك « الفَوْق » و « التَّحْت » ، لذلك نقول: إن العبد إذا استحضر دائماً عُلُوّ عِزّة الربوبية ، وذُلّ العبودية ؛ فالشيطان لا يدخل له أبداً .

ويواصل الحق سبحانه قوله المُبلَّغ عنه لنا :

﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

وهكذا أصدر الحق سبحـانه حُكْمه بألاَّ يكون لإبليس سلطان على مَنْ أخلص لله عـبادة ، وأمر إبليس ألاَّ يتـعرض لهم ؛ فـسبـحانه هو الذى يَصُـونهم منه ؛ إلا مَنْ ضلَّ عن هـدى الله سبـحـانه ، وهم مَنْ يستطيع إبليس غوايتهم .

وهكذا نجـد أن « الغـاوين » هى ضـد « عـبـادى » ، وهم الذين اصطفـاهم الله من الـوقـوع تحت سلطان الشـيطـان ؛ لأنهم أخلصـوا وخلَّصـوا نفوسهم لله ، وسنـجد إبليس وهو ينطق يوم القـيامـة أمام الغاوين :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ[1] إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[2] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ..﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم]

(١) السلطان : الملك والقوة والقهر والحجة ، والبرهان . [القاموس القويم ١/٣٢٣] .

(٢) المصرخ : المـغيث الذى يُغيث غيره . والاستـصراخ : الاستغاثة والإغاثة . والمـستصرخ : المستغيث . [لسان العرب ـ مادة : صرخ] .

ومن نعَم الله علينا أن أخبرنا الحق سبحانه بكلّ ذلك فى الدنيا ، ولسوف يُقِر الشيطان بهذا كله فى اليوم الآخر ؛ ذلك أنه لم يملك سلطاناً يقهرنا به فى الدنيا ، بل مجرد إشارة ونَزْغ ؛ ولا يملك سلطانَ إقناع ليجعلنا نفعل ما ينزغ به إلينا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك ما يُؤكّد أن جزاء الغاوين قَاسٍ أليم :

﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

ولأن المصير لهؤلاء هو جهنم ؛ فعلى العبد الذكيّ أن يستحضرَ هذا الجزاء وقتَ الاختيار للفعل ؛ كى لا يرتكب حماقةَ الفعل الذى يُزيّنه له الشيطان ، أو تُلِح عليه به نفسه . ولو أن المُسرِف على نفسه استحضر العقوبة لحظةَ ارتكاب المعصية لَماَ أقدم عليها ، ولكن المُسْرف على نفسه لا يقرِن المعصية بالعقوبة ؛ لأنه يغفل النتائج عن المقدمات .

ولذلك أقول دائماً : هَبْ أن إنساناً قد استولتْ عليه شراسة الغريزة الجنسية ، وعرفَ عنه الناس ذلك ، وأعدّوا له مَا يشاء من رغبات ، وأحضروا له أجملَ النساء ؛ وسهّلوا له المكان المناسب للمعصية بما فيه من طعام وشراب .

وقالوا : هذا كله لك ، شَرْط أن تعرف أيضاً ماذا ينتظرك . وأضاءوا له من بعد ذلك قَبْواً فى المنزل ؛ به فرن مشتعل . ويقولون له : بعد أنْ تَفْرُغ من لَذّتك ستدخل فى هذا الفرن المشتعل . ماذا سيصنع هذا الإنسان ؟

لا بُدّ أنه سيرفض الإقدام على المعصية التى تقودهم إلى الجحيم .

وهكذا نعلم أن مَنْ يرتكب المعاصى إنما يستبطىء العقوبة ، والذكىّ حقاً هو مَنْ يُصدِّق حديث النبى ﷺ الذى يقول فيه « الموت القيامة ، فَمَنْ ماتَ فقد قامتْ قيَامتُه »[1] . ولا أحدَ يعلم متى يموت .

ويُبيِّن الحق سبحانه من بعد ذلك مراتبَ الجحيم ، فيقول :

﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ[2] لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾ ﴾

وفى جهنمَ يكون مَوْعِد هؤلاء الغاوين ، ومعهم إبليس الذى أَبَى واستكبر ، وصَمَّم على غواية البشر ، وألوان العذاب ستختلف ، ولكل جماعة لهم جريمة يُقْرنون[3] بها معاً . فمَنْ يشربون الخمر سيكونون معاً ؛ ومَنْ يلعبون الميسر يكونون معاً .

ولكُلّ باب من أبواب جهنم جماعة تدخل منه ربطَتْ بينهم فى الدنيا معصيةٌ ما ؛ وجمعهم فى الدنيا وَلاءٌ ما ، وتكوّنتْ من بينهم

---

(١) ذكره العجلونى فى كشف الخفاء (حديث رقم ٢٦١٨) عن أنس بن مالك رضى الله عنه وتمامه : « أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه فى غنى كدره عليكم ، وإن ذكرتموه فى ضيق وسعه عليكم » .

(٢) قال على بن أبى طالب رضى الله عنه : هل تدرون كيف أبواب جهنم ؟ قيل : هى مثل أبوابنا . قال : لا ، هى هكذا بعضها فوق بعض . زاد الثعلبى ، ووضع إحدى يديه على الأخرى . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٧٥٣/٥) .

(٣) وهو قوله تعالى : ﴿وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾﴾ [إبراهيم] أى : مُسلْسلين فى القيود والأغلال . كل واحد مع قرينه وشبيهه .

صداقاتٌ فى الدنيا ، واشتركوا بالمخالطة ؛ ولذلك فعليهم الاشتراك فى العقوبة والنكال .

وهكذا يتحقق قول الحق سبحانه :

﴿ الأَخِلاَّءُ[1] يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (٦٧) ﴾ [الزخرف]

وفى الجحيم أماكن تَأويهم ؛ فقسْم يذهب إلى اللظى ؛ وآخر إلى الحُطَمة ؛ وثالث إلى سَقَر ، ورابع إلى السَّعير ، وخامس إلى الهاوية .

وكل جُزْء له قِسْم مُعيَّن به ؛ وفى كل قسم دَركَات ، لأن الجنة درجات ، والنار دركات تنزل إلى أسفل .

ويأتى الحق سبحانه بالمقابل ؛ لأن ذِكْر المقابل كما نعلم يُعطى الكافر حَسْرة ؛ ويعطى المؤمن بشارةً بأنه لم يكُنْ من العاصين ، ويقول :

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ﴾

والمُتقى هو الذى يحولُ بين ما يُحبّ وما يكره ؛ ويحاول ألاَّ يصيب مَنْ يحب ما يكره . وتتعدى التقوى إلى متقابلات ، فنجد الحق سبحانه يقول : ﴿ اتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ (٢٨٢) ﴾ [البقرة]

ويقول أيضاً :

---

(١) الخليل : الصديق المخلص ، وجمعه أخلاء . وخالَّه مُخالّة : صادقه مصادقة قوية . [القاموس القويم ١/٢٠٨]

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ .. (٢٤)﴾ [البقرة]

وقلنا من قَبْل : إن الحقَّ سبحانه له صفاتُ جلال ، وصفات كمال وجمال . يَهَبُ بصفات الكمال والجمال العطايا ، ويهَبُ بصفات الجلال البَلايا ؛ فهو غفّار ، وهو قهار ، وهو عَفُو ، وهو مُنْتقِم .

وعلينا أن نجعلَ بيننا وبين صفات الجلال وقاية ؛ وأن نجعل بيننا وبين صفات الجمال قُرْبى ؛ والطريق أن نتبعَ منهجه ؛ فلا ندخل النار التى هى جُنْد من جنود الله .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)﴾ [الحجر]

وهم الذين لم يرتكبوا المعاصى بعد أن آمنوا بالله ورسوله واتبعوا منهجه . وإنْ كانت المعصية قد غلبتْ بعضهم ، وتابوا عنها واستغفروا الله ؛ فقد يغفر الله لهم ، وقد يُبدِّل سيئاتِهم حسناتٍ .

ومَنْ يدخل الجنة سيجد فيها العيون والمقصود بها الأنهار ؛ والحق سبحانه هو القائل : ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ[1] وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ.. (١٥)﴾ [محمد]

ولعل هناك عيوناً ومنابعَ لا يعلمها إلا الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) أسن الماء : تغيرت رائحته . وهو الذى لا يشربه أحد من نتنه . [لسان العرب ـ مادة : أسن] .

﴿ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

وهنا يدعوهم الحق سبحانه بالدخول إلى الجنة فى سلام الأمن والاطمئنان . ونحن نعلم أن سلامَ الدنيا والاطمئنان فيها مُختلف عن سلام الجنة ؛ فسلامُ الدنيا يعكره خوف افتقاد النعمة ، أو أنَ يفوت الإنسانُ تلك النعمة بالموت . ونعلم أن كل نعيم فى الدنيا إلى زوال . أما نعيم الآخرة فهو نعيم مقيم .

ويتابع سبحانه ما ينتظر أهل الجنة :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ[1] إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾

وهكذا يُخرِج الحق سبحانه من صدورهم أىَّ حقد وعداوة . ويرون أخلاء الدنيا فى المعاصى وهم مُمْتلئون بالغلّ ، بينما هم قد طهَّرهم الحق سبحانه من كل ما كان يكرهه فى الآخرة ، ويحيا كل منهم مع أزواج مُطهَّرة . ويجمعهم الحق بلا تنافس ، ولا يشعر أىٌّ منهم بحسد لغيره .

والغلُّ كما نعلم هو الحقد الذى يسكُن النفوس ، ونعلم أن البعض من المسلمين قد تختلف وُجهات نظرهم فى الحياة ، ولكنهم على إيمان بالله ورسوله ﷺ .

والمثل أن علياً كرم الله وجهه وأرضاه دخل موقعة الجمل ، وكان

(١) الغِل : الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد . قال الزجاج فى تفسير الآية : « حقيقته والله أعلم أنه لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً فى علو المرتبة لأن الحسد غل ، وهو أيضاً كدر ، والجنة مُبرأة من ذلك » ذكره ابن منظور فى اللسان « مادة : غلل » .

في المعسكر المقابل طلحة[1] والزبير رضى الله عنهما ؛ وكلاهما مُبشَّر بالجنة ، وكان لكل جانب دليل يُغلّبه .

ولحظةَ أنْ قامت المعركة جاء وَجْه على ـ كرَّم الله وجهه ـ فى وَجْه الزبير ؛ فيقول على رضى الله عنه : تذكر قول رسول الله ﷺ وأنتما تمرّان عليَّ ، سلَّم النبى وقلْتَ أنت : لا يفارق ابنَ أبى طالب زَهْوُه ، فنظر إليك رسول الله ﷺ وقال لك : « إنك تقاتل علياً وأنتَ ظَالِم له » . فرمى الزبير[2] بالسلاح ، وانتهى من الحرب .

ودخل طلحة بن عبيد الله على عليٍّ ـ كرم الله وجهه ـ ؛ فقال عليٌّ رضوان الله عليه : يجعل لى الله ولأبيك فى هذه الآية نصيباً . فقال أحد الجالسين : إن الله أعدل من أنْ يجمعَ بينك وبين طلحة فى الجنة . فقال عليٌّ : وفيما نزل إذنْ قوله الحق :

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الحجر]

وكلمة « نزعنا » تدل على أن تغلغل العمليات الحقْدية فى النفوس يكون عميقاً ، وأن خَلْعها فى اليوم الآخر يكون خَلْعاً من الجذور ، وينظر المؤمن إلى المؤمن مثله ؛ والذى عاداه فى الدنيا نظرتُه إلى مُحسن له ؛ لأنه بالعداوة والمنافسة جعله يخاف أن يقع عَيْب منه .

---

(١) هو : طلحة بن عبيد الله القرشى ، أحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام ، وأحد الخمسة الذين اسلموا على يد أبى بكر ، وأحد الستة أصحاب الشورى . مات عام ٣٦ هجرية بيد مروان بن الحكم فى موقعة الجمل . [الإصابة فى تمييز الصحابة ٣/٢٩١] .

(٢) هو : الزبير بن العوام ، ابن عمة النبى ﷺ ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة أصحاب الشورى ، زوج أسماء بنت أبى بكر الصديق . قتل فى موقعة الجمل عام ٣٦ هجرية على يد عمرو بن جرموز . [الإصابة ٣/٥ ـ ٧] وقد أورد ابن حجر هذا الحديث فى الإصابة وعزاه لأبى يعلى من طريق أبى جرو المازنى .

ذلك أن المؤمن فى الآخرة يذكر مُعْطيات الأشياء ، ويجعلهم الحق سبحانه إخواناً ؛ فَرُبَّ أخٍ لك لم تَلِدْه أمُّك ، والحق سبحانه هو القائل فى موقع آخر :

﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا[1] حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا .. (١٠٣) ﴾

[آل عمران]

وقد يكون لك أخ لا تكرهه ولا تحقد عليه ؛ ولكنك لا تُجالسه ولا تُسامره ؛ لأن الأخوة أنواع[2] . وقد تكون أخوة طيبة ممتلئة بالاحترام لكن أياً منكما لا يسعى إلى الآخر ، ويجمعكم الحق سبحانه فى الآخرة على سُرُر متقابلين .

وسأل سائل : وماذا لو كانت منزلة أحدهما فى الجنة أعلى من منزلة الآخر ؟ ونقول : إن فَضْل الحق المطلق يرفع منزلة الأَدْنى إلى منزلة الأعلى ، وهما يتزاوران .

وهكذا يختلف حال الآخرة عن حال الدنيا ، فالإنسان فى الدنيا يعيش ما قال عنه الحق سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ[3] إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ (٦) ﴾ [الانشقاق]

---

(١) شفا الشىء : حَرْفه وطَرَفه . شفا كل شىء : حَرْفه . وأشفى على الشىء : أشرف عليه . [لسان العرب ـ مادة : شفى] .

(٢) يفهم من خواطر الإمام أن الأخوة إما أخوة نسبية ، وإما أخوة إيمانية ، وأخوة الإيمان أقوى من أخوة النسب حيث يقول الحق : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ .. (١٠) ﴾ [الحجرات] فكل مؤمن أخ ، وليس كل أخ مؤمناً .

(٣) الكَدْح : هو السعى والحرص والدؤوب فى العمل . كدح الرجل : جَدَّ وكَدَّ فى العمل وبذل فيه جهداً كبيراً . [القاموس القويم ٢/١٥٥]

ولكن الحال فى الآخرة يختلف ، وينطبق عليه قول الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ[1] وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾

وحياتُكَ فى الآخرة - إنْ أصلحتَ عملك وكنتَ من المؤمنين - تختلف عن حياتك فى الدنيا ؛ فأنت تعلم أنك فى الدنيا تَحْيا مع أسباب الله المَمْدودة لك ؛ وتضرب فى الأرض من أجل الرزق ، وتجتهد وتتعب من أجل أنْ يهبكَ اللهُ ما فى الأسباب من عطاء .

وحينئذ تصبح من المُفْلحين الذين يهديهم الله جنته . يقول الحق جل عُلاَه :

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَـئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ ﴾

[البقرة]

وشاء الحق سبحانه أن يأتى بلفظ المُفْلِح كصفة للمؤمن فى الجنة ، لأن المؤمن قد حرثَ الدنيا بالعمل الصالح وبذل جهده ليقيمَ منهج الله فى الأرض ، ونصَبَ قامته ، ونعلم أن نَصْب القَامَة يدلُّ على أن مَنْ يعمل قد أصابه التعب ، وذلك فى الحياة الدنيا .

أما فى الجنة ، فيقول الحق :

﴿ لا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) النصب : الإعياء والتعب والمشقة والأذى . ذكره ابن كثير فى تفسيره (٥٥٣/٢) .

أى : لا يصيبهم فيها تعب ، ولا يُخْرَجون من الجنة ، ذلك أنهم قد نَالُوا فيها الخلود .

وهكذا تكلَّم سبحانه عن الغَاوين ، وقد كانوا أخلاَّء فى الدنيا يمرحُون فيها بالمعاصى ؛ وهم مَنْ ينتظرهم عقابُ الجحيم . وتكلَّم عن العباد المُخلصين الذين سيدخلون الجنة ؛ ومنهم مَنِ اختلفتْ رُؤَاه فى الدنيا ، ولم يربط بينهم تآلفٌ أو محبّة ؛ لكنهم يدخلون الجنة ، وتتصافَى قلوبهم من أىِّ خلاف قد سبق فى الدنيا .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ ﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . والإنباء هو الإخبار بأمر له خطورته وعظمته ؛ ولا يقال (نبىء) فى خبر بسيط . وسبق أن قال الحق سبحانه عن هذا النبأ :

﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ① عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ② ﴾ [النبأ]

وقال سبحانه أيضاً عن هذا النبأ :

﴿ قُلْ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [ص]

ونفهم من القول الكريم أنه الإخبار بنبأ الآخرة وما سوف يحدثُ فيها ، وهنا يأتى سبحانه بخبر غُفْرانه ورحمته الذى يختصُّ به عباده المخلصين المُتقين الذين يدخلون الجنة ، ويتمتَّعون بخيْراتها خالدين فيها .

ولقائل أنْ يسأل : أليستْ المغفرة تقتضى ذَنْباً ؟

ونقـول : إن الحق سـبحـانه خلقنا ويعلم أن للـنفس هواجسَ ؛ ولا يمكن أنْ تسلمَ الـنفس من بعض الأخطاء والذنوب والوسـوسـة ؛ بدليل أنه سبحانه قد حَرَّم الكثير من الأفـعال على المسلم ؛ حـمايةً للفرد وحمايةً للمجتمع أيضاً ، ليعيش المجتمع فى الاستقرار الآمن .

فـقد حَرَّم الحق سـبحـانه على المـسلم السـرقة والزِّنَا وشُـرْب الخمر ، وغيرها من المُوبِقات[1] والخطايا ، والهواجس التى تقوده إلى الإفساد فى الأرض ، وما دام قد حرَّم كل ذلك فهذا يعنى أنها سوف تقع ، ونزل منهجه سبحانه مُحرِّماً ومُجَرِّماً لمن يفعل ذلك ، كما يُلزِم كل المؤمنين به بضرورة تجنُّب هذه الخطايا .

وهنا يُوضِّح سبحانه أن مَنْ يغفل من المـؤمنين ويرتكب معصية ثم يتوب عنها ، عليه ألاَّ يُؤرِّق نفسه بتلك الـغفلات ؛ فسبحانه رءوفٌ رحيم .

ونحن حين نقـرأ العربية الـتى قد شرَّف اللهُ أهلَهـا بنزول القرآن بها ، نجد أقسامَ الكلام إما شِعْـراً أو نَثْراً ، والشعر له وَزْن وقافية ، وله نَغَم وموسـيقى ، أما النثـر فليس له تلك الصِّفـات ، بل قد يكون مَسْجوعاً أو غَيْرَ مسجوع .

وإنْ تكلمتَ بكلام نـثرىٍّ وجِـئْتَ فى وسطه ببيت من الشـعـر ، فالذى يسمـعك يُمكنه أن يلحظ هذا الفارقَ بين الشعـر والنثر . ولكن القـرآن كلامُ ربٍّ قـادر ؛ لذلك أنت تجـد هذه الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنها وتقرؤها وكأنها بَيْتٌ من الشعر فهى موزونة مُقفَّاة :

---

(١) الموبقات : الذنوب المهلكات . وأوبقه : أهلكه . [لسان العرب ـ مادة : وبق] .

« نَبِّىء عِبَادِى أنِّى   أنَا الغفورُ الرَّحِيمُ »

ووزنها من بَحْـر المُجْتث[١] . ولكنها تأتى وَسْط آيات من قـبلها ومن بعدها فـلا تشعـر بالفارق ، ولا تشـعر أنك انتقلتَ مـن نثرٍ إلى شعر ، ومن شـعر إلى نثر ؛ لأن تضامن المعـانى مع جمال الأسلوب يعطينا جلال التأثير المعجز ، وتلك من أسرار عظمة القرآن .

ثم يقول الحق سبحانه فيما يخص الكافرين أهل الغواية :

﴿ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ ﴾

وهكذا يكتـمل النبأ بالمـغفرة لمَـن آمنوا ؛ والعذاب لمَنْ كـفروا ، وكـانوا من أهل الغـواية . ونلـحظ أنه سبـحـانه لم يُشـدِّد فى تأكيـد العذاب ، ذلك أن رحمته سبقتْ غضبه ، مصداقاً لقوله ﷺ :

« إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائةَ رحمة ، فأمسك عنده تسعـاً وتسعيـن رحمةً ، وأرسل فى خَلْقـه كلِّهم رحمـةً واحدةً ، فلو يعلم الكـافـر بكل الذى عند الله من الـرحـمـة لم ييئـس من الجنة ؛ ولو يـعلم المـسلـم بكل الذى عـند الله من العــذاب ؛ لم يأمـن من النار »[٢] .

ونلحظ أن الآيتين السابقتين يشرحهما قَوْل الحق سبحانه :

---

(١) سمى هذا البحر بـالمجتث ؛ لأنه مجتث أى مقتطـع من بحر الخفيف بتقديم (مـستفعلن) على (فاعلاتن) ، ولم يستعمل إلا مجزوءاً ، وله عروض واحدة صحيحة تقطيعه : مستفع لن فاعلاتن مسـتفع لن فاعلاتن انظر كتاب (فى علمى العروض والقـافية) ـ د. أمين على السيد ـ طبعة دار المعارف ١٩٨٢م .

(٢) أخرجه البـخارى فى صحيحه (٦٤٦٩) ، وأخـرج مسلم بعضه فى صحـيحه (٢٧٥٥) كتاب التوبة ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦﴾ ﴾
[الرعد]

ولذلك نرى أن الآيتين قد نبَّهتا إلى مقَامى الرجاء والخوف ، وعلى المؤمن أنْ يجمعَ بينهما ، وألاَّ يُؤجِّل العمل الصالح وتكاليف الإيمان ، وأن يستغفر من المعاصى ؛ لأن الله سبحانه وتعالى يعامل الناس بالفضل لمن أخلص النية وأحسنِ الطوية . لذلك يقول الحديث :

« لمَّا قضى الله الخَلْق كتب فى كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتى سبقت غضبى »[1] .

ثم ينقلنا الحق سبحانه من بعد الحديث عن الصفات الجلالية والجمالية فى الغفران والرحمة والانتقام إلى مسألة حسِّية واقعية تُوضِّح كل تلك الصفات ، فيتكلم عن إبراهيم - عليه السلام - ويعطيه البُشْرى ، ثم ينتقل لابن أخيه لوط فيعطيه النجاة ، ويُنزِل بأهله العقاب .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥١﴾ ﴾

وكلمة (ضيف) تدلُّ على المائل لغيره لقِرَىً[2] أو استئناس ، ويُسمونه « المُنْضوى » لأنه ينضوى إلى غيره لطلب القِرَى ، ولطلب

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥١) ، والبخارى فى صحيحه (٣١٩٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . وفى لفظ : « غلبت » .

(٢) قرى الضيف قِرىً وقراء : أضاف . واستقرانى : طلب منى القِرى . والقِرى : طعام الأضياف . [لسان العرب - مادة : قرى] .

الأمن . ومن معانى المُنْضوى أنه مالَ ناحية الضَّوْء .

وكان الكرماء من العرب من أهل السماحة ؛ لا تقتصر سماحتهم على مَنْ يطرقون بابهم ، ولكنهم يُعلنون عن أنفسهم بالنار ليراها مَنْ يسير فى الطريق ليهتدى إليهم .

وكلنا قرأنا ما قاله حاتم الطائى للعبد الذى يخدمه :

أوْقد النارَ فإنَّ الليْلَ لَيْل قُرّ[1]
والريحُ يَا غُلامُ رِيحُ صِرّ[2]
إنْ جلبت لنَا ضَيْفاً فأنت حُر

وهكذا نعرف أصلَ كلمة انضوى . أى : تَبِع الضوء .

وكلمة (ضيف) لفظ مُفْرد يُطلَق على المفرد والمُثنّى والجمع ، إناثاً أو ذكوراً ، فيُقال : جاءنى ضيف فأكرمته ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتها ، ويقال : جاءنى ضيف فأكرمتهما ، وجاءنى ضيف فأكرمتهم ، وجاءنى ضيف فأكرمتهُنَّ .

وكلُّ ذلك لأن كلمة « ضيف » قامت مقام المصدر . ولكن هناك من أهل العربية مَنْ يجمعون « ضيف » على « أضياف » ؛ ويجمعون « ضيف » على « ضيوف » ، أو يجمعون « ضيف » على « ضِيفان » .

ولننتبه إلى أن الضيفَ إذا أُطلِق على جَمْع ؛ فمعناه أن فرداً قد

---

(١) القر : البرد . والقَرُّ : اليوم البارد . وكل بارد : قَر . [لسان العرب ـ مادة : قرر] .
(٢) الريح الصر والصرصر : الشديدة البرد ، والشديدة الصوت العاصفة . [لسان العرب ـ مادة : صرر] .

جاء ومعه غيره ، وإذا جاءت جماعة ، ثم تبعتْهَا جماعة أخرى نقول : وجاءت ضيف أخرى .

وهنا فى الآية التى نحن بصـدد خواطرنا عنهـا نعلم أنهم ليـسوا ضيفاً من الآية التى تليها ؛ التى قال فيها الحق سبحانه :

﴿ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

ونلحظ أن كلمة (سـلاماً) جاءت هنا بالنَّصْـب ، ومعناها نُسلِّم سلاماً ، وتعنى سلاماً متجدداً . ولكنه فى آية أخرى يقول :

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [الذاريات]

ونعلم أن القرآن يـأتى بالقصة عَبْر لقطات مُـوزّعة بين الآيات ؛ فإذا جمعتَها رسمَتْ لك ملامح القصة كاملة .

ولذلك نجـد الحق سـبحـانه هنا لا يذكـر أن إبراهـيم قـد رَدَّ سلامهم ؛ وأيضاً لم يذكر تقديمه للعجل المَشْوىّ لهم ؛ لأنه ذكر ذلك فى موقع آخر من القرآن[1] .

إذن : فمنْ تلك الآية نعلم أن إبراهيم عليه السلام قد ردَّ السلام ، وجاء هذا الـسلام مرفـوعاً ، فلمـاذا جاء السـلام فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها منصوباً ؟

أى : قالوا هم : ﴿ سَلامًا ﴿٥٢﴾ ﴾ [الحجر]

وكان لا بُدَّ من رَدٍّ ، وهو ما جاءتْ به الآية الثانية :

---

(١) وذلك فى قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ ﴾ [هود] .

﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات]

والسلام الذى صدر من الملائكة لإبراهيم هو سلام مُتجدّد ؛ بينما السلام الذى صدر منه جاء فى صيغة جملة اسمية مُثْبتة ؛ ويدلُّ على الثبوت .

إذن كان رَدّ إبراهيم عليه السلام أقوى من سلام الملائكة ؛ لأنه يُوضح أن أخلاق المنهج أنْ يردَّ المؤمنُ التحيةَ بأحسنَ منها ؛ لا أنْ يردّها فقط ، فجاء رَدُّه يحمل سلاماً استمرارياً ، بينما سلامُهم كان سلاماً تجددياً ، والفرق بين سلام إبراهيم - عليه السلام - وسلام الملائكة : أن سلام الملائكة يتحدد بمقتضى الحال ، أما سلام إبراهيم فهو منهج لدعوته ودعوة الرسل .

ويأتى من بعد ذلك كلام إبراهيم عليه السلام :

﴿قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر]

وجاء فى آية أخرى أنه :

﴿وَأَوْجَسَ[1] مِنْهُمْ خِيفَةً ..﴿٧٠﴾﴾ [هود]

وفى موقع آخر من القرآن يقول :

﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الذاريات]

فلماذا أوجسَ منهم خِيفةً ؟ ولماذا قال لهم : إنهم قوْم مُنْكَرون ؟ ولماذا قال :

---

(١) أوجس فى نفسه : أضمر الخوف فى نفسه . وأحس بالفزع . [القاموس القويم ٣٢١/٢] .

﴿ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ۝٥٢ ﴾ [الحجر]

لقد جاءوا له دون أن يتعرّف عليهم ، وقدَّم لهم الطعام فرأى أيديهم لا تصل إليه ولا تقربه كما قال الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ[1] وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ ﴾ [هود]

ذلك أن إبراهيم عليه السلام يعلم أنه إذا قَدم ضَيْفاً وقُدِّم إليه الطعام ، ورفض أن يأكل فعلَى المرء ألاّ يتوقع منه الخير ؛ وأن ينتظر المكاره .

وحين علِم أنهم قد أرسلوا إلى قوم لوط ؛ وطمأنوه بالخبر الطيب الذى أرسلهم به الله اطمأنتْ نفسه ؛ وفى ذلك تأتى الآية القادمة :

﴿ قَالُوا لَا تَوْجَلْ[2] إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣ ﴾

هكذا طمأنت الملائكة إبراهيم عليه السلام ، وهدَّأتْ من رَوْعه ، وأزالتْ مخاوفه ، وقد حملوا له البشارة بأن الحق سبحانه سيرزقه بغلام[3] سيصير إلى مرتبة أن يكون كثير العِلْم .

---

(١) نكر الشىء نكْراً ونُكْراً : جهله . نكره : جهله واستوحش منه ونفر منه ولم يأنس به . قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .. ۝٧٠ ﴾ [هود] أى : استوحش منهم لأنه لم يعرف حقيقتهم . [القاموس القويم ٢/٢٨٥] .

(٢) الوجَل : الفزع والخوف . [لسان العرب ـ مادة : وجل] .

(٣) المقصود بالغلام هنا هو إسحاق عليه السلام ، قال تعالى : ﴿ قَالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ۝٧٠ وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ۝٧١ ﴾ [هود] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٥٢) : « من ههنا استدل من استدل بهذه الآية على أن الذبيح إنما هو إسماعيل ، وأنه يمتنع أن يكون هو إسحاق ؛ لأنه وقعت البشارة به ، وأنه سيولد له يعقوب فكيف يؤمر إبراهيم بذبحه وهو طفل صغير ولم يُولَد له بعد يعقوب الموعود بوجوده » .

ويستقبل إبراهيم عليه السلام الخبر بطريقة تحمل من الاندهاش الكثيرَ ، فيقول ما ذكره الحق سبحانه :

﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

ونعلم أن الحق - سبحانه وتعالى - يخلق الخَلْق على أنحاء مُتعدّدة ؛ حتى يعلمَ المخلوق أن خَلْقه لا ضرورة أن يكونَ بطريقة محددة ؛ بل طلاقة القدرة أن يأتى المخلوق كما يشاء الله .

والشائع أن يُولَد الولد من أَبٍ وأم ؛ ذكر وأنثى . أو بدون الأمرين معاً مثل آدم عليه السلام ، ثُمَّ خلق حواء من ذكر فقط ، وكما خلق عيسى من أم فقط ، وخلق محمداً ﷺ من ذكر وأنثى .

وفى الآية التى نحن بصددها نجد إبراهيم عليه السلام يتعجب كيف يُبشِّرونه بغلام ، وهو على هذه الدرجة من الكِبَر ، فى قوله تعالى :

﴿ عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ .. ﴿٥٤﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى أن « على » هنا جاءت بمعنى « مع » أى : أنه يعيش مع الكِبَر ؛ ويرى أنه من الصعب أنْ يجتمعَ الكِبَر مع القدرة على الإنجاب .

وأقول دائماً : إن كلمة (على) لها عطاءاتٌ واسعة فى القرآن الكريم ، فهى تترك مرة ويأتى الحق سبحانه بغيرها لتؤدى معنًى مُعيناً ؛ مثل قوله تعالى :

﴿ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴿٧١﴾ ﴾ [طه]

والصَّلْب إنما يكون على جذوع النخل ؛ ولكن الحق سبحانه جاء بـ (فى) بدلاً من (على) ليدلَّ على أن الصَّلْبَ سيكون عنيفاً ، بحيث تتداخل الأيدى والأرجُل المَصلُوبة فى جذوع النخل .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ..(٥٤)﴾ [الحجر]

أى : أتُبشِّروننى بالغلام العليم مع أنِّى كبير فى العمر ؛ والمفهوم أن الكِبَر والتقدُّم فى العمر لا يتأتَّى معه القدرة على الإنجاب .

وهكذا تأتى « على » بمعنى « مع » . أى : كيف تُبشِّروننى بالغلام مع أنِّى كبير فى العمر ، وقد قال قولته هذه مُؤمناً بقدرة الله ؛ فإبراهيم أيضاً هو الذى أورد الحق سبحانه قَوْلاً له :

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩)﴾ [إبراهيم]

وكأن الكِبَر لا يتناسب مع الإنجاب ، ويأتى رَدُّ الملائكة على إبراهيم خليل الرحمن :

﴿قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥)﴾

وكأن الملائكة تقول له : لسنا نحن الذين صنعنا ذلك ، ولكنَّا نُبلغك ببشارة شاءها الله لك ؛ فلا تكُنْ من اليائسين .

ونفس القصة تكررتْ من بعد إبراهيم مع زكريا ـ عليه السلام ـ فى إنجابه ليحيى ، حين دعا زكريا ربَّه أن يهبَه غلاماً :

﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝ ﴾ [مريم]

وجاءته البشارة بيحيى ، وقد قال زكريا لربه :

﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝ ﴾ [مريم]

وإن شئت أن تعرفَ سِرَّ عطاءات الأسلوب القرآنى فاقرأ قَوْل الحق سبحانه رداً على زكريا :

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا(١) لَهُ زَوْجَهُ .. ۝ ﴾ [الأنبياء]

ولم يَقُلِ الحق سبحانه أصلحناكم أنتم الاثنين ؛ وفى ذلك إشارة إلى أن العطبَ كان فى الزوجة ؛ وقد أثبت العلم من بعد ذلك أن قدرة الرجل على الإخصاب لا يُحدِّدها عمر ، ولكن قدرةَ المرأة على أن تحملَ مُحدّدة بعمر مُعين .

ثم إذا تأملنا قوله الحق : ﴿ وَوَهَبْنَا .. ۝ ﴾ [الأنبياء]

نجد أنها تُثبت طلاقةَ قدرة الله سبحانه فيما وَهَب ؛ وفى إصلاح مَا فسد ؛ فسبحانه لا يُعْوزه شىء ؛ قادر جَلَّ شأنه على الوَهْب ؛ وقادر على أن يُهيىءَ الأسباب ليتحققَ ما يَهبه .

وهنا تقول الملائكة لإبراهيم :

---

(١) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير : كانت عاقراً لا تلد ، فولدت . [تفسير ابن كثير ١٩٣/٣] وأصلح الأمر إصلاحاً : أزال فساده . [القاموس القويم ٣٨١/١] .

﴿ بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ ..(٥٥) ﴾ [الحجر]

أى : أنهم ليسوا المسئولين عن البشارة ، بل عن صدق البشارة ؛ ولذلك قالوا له من بعد ذلك :

﴿ فَلا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ (٥٥) ﴾ [الحجر]

ويأتى الحق سبحانه بما رَدَّ به إبراهيم عليه السلام :

﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ(١) مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ (٥٦) ﴾

وهنا يعلن إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنه لم يقنط من رحمة ربه ؛ ولكنه التعجب من طلاقة القدرة التى توحى بالوحدانية القادرة ، لا لذاتِ وقوع الحَدث ؛ ولكن لكيفية الوقوع ، ففى كيفية الوقوع إعجاب فيه تأمل ، ذلك أن إبراهيم ـ عليه السلام ـ يعلم عِلْم اليقين طلاقة قدرة الله ؛ فقد سبق أن قال له :

﴿ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ (٢٦٠) ﴾ [البقرة]

ولنلحظ أنه لم يسأله « أتحيى الموتى » ، بل كان سؤاله عن الكيفية التى يُحْيِى بها الله المَوْتى ؛ ولذلك يسأله الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ..(٢٦٠) ﴾ [البقرة]

وكان رَدّ إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ..(٢٦٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) القنوط : اليأس . وفى التهذيب : اليأس من الخير . [لسان العرب ـ مادة : قنط] .

وحدثتْ تجربة عندما أُمر إبراهيم بأن يأخذ[1] أربعة من الطير ثم يقطعهن ويلقى على كل جبل جزءاً ، ثم يدعوهن فيأتينه سعياً ، لذلك فلم يكُنْ إبراهيم قانطاً من رحمة ربه ، بل كان متسائلاً عن الكيفية التى يُجرِى الله بها رحمته .

ولم تكن تلك المحادثة بين إبراهيم والملائكة فقط ، بل اشتركت فيه زَوْجه سارة ؛ إذ إن الحق سبحانه قد قال فى سورة هود :

﴿ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى[2] شَيْخًا إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ (٧٢) قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ (٧٣) ﴾ [هود]

وهكذا نجد أن القرآن يُكمل بعضُه بعضاً ؛ وكل لَقْطة تأتى فى موقعها ؛ وحين نجمع اللقطات تكتمل لنا القصة .

وهنا فى سورة الحجر نجد سؤالاً من إبراهيم ـ عليه السلام ـ للملائكة التى حملتْ له بُشْرى الإنجاب عن المُهِمّة الأساسية لمجيئهم ، الذى تسبَّب فى أن يتوجَّس منهم خيفةً ؛ فقد نظر إليهم ، وشعر أنهم قد جاءوا بأمر آخر غير البشارة بالغلام ؛ لأن البشارةَ يكفى فيها ملَكٌ واحد .

---

(١) قال تعالى : ﴿ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) ﴾ [البقرة] فعمد إبراهيم إلى أربعة من الطير ، فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً ، وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عز وجل أن يدعوهن فدعاهنّ ، كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً . [ذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ٣١٥] .

(٢) البعل : الزوج والزوجة . قال الأزهرى : سمى زوج المرأة بعلاً لأنه سيدها ومالكها . باعل القوم قوماً آخرين مباعلة : تزوّج بعضهم إلى بعض . [لسان العرب ـ مادة : بعل] .

أما هؤلاء فهم كثيرون على تلك المُهِمة ، فيقول سبحانه هذا السؤال الذى سأله إبراهيم ـ عليه السلام ـ :

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أى : ما هو الأمر العظيم الذى جِئْتم من أجله ؛ لأن الخَطْب هو الحَدث الجَلل الذى ينتاب الإنسان ؟ وسُمِّى خَطْباً لأنه يشغل بال الناس جميعاً فيتخاطبون به ، وكلما التقتْ جماعة من البشر بجماعة أخرى فَهُمْ يتحدثون فى هذا الأمر .

ولذلك سُمِّيتْ رغبة الزواج بين رجل وامرأة وتَقدّمه لأهلها طلباً ليَدها « خطْبة » ؛ لأنه أمر جلَل وهَامّ ؛ ذلك أن أحداً لو نظر إلى المرأة ؛ ورآه واحدٌ من أهلها لثَار من الغَيْرة ؛ ولكن ما أن يدقَّ البابَ طالباً يدَها ، فالأمر يختلف ؛ لأن أهلها يستقبلون مَنْ يتقدّم للزواج الاستقبالَ الحسن ؛ ويقال : « جدعَ[1] الحلالُ أنْفَ الغَيْرة » .

وهنا قال إبراهيم ـ عليه السلام ـ للملائكة : ما خَطْبكم أيها المُرْسلون ؟ أى : لأىّ أمر جلَلٍ أتيتُم ؟

ويأتى الجواب من الملائكة فى قول الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾

ونعلم أن كلمة « القوم » مأخوذةٌ من القيام ، وهُم القوم الذين يقومون للأحداث ؛ ويُقصد بهم الرجال ، دون النساء لأن النساء لا يَقُمْنَ للأحداث ؛ والحق سبحانه هو الذى يُفصِّل هذا الأمر فى قوله :

---

(١) الجدع : القطع . وقيل : هو القطع البائن فى الأنف والأذن والشفة واليد ونحوها . [لسان العرب ـ مادة : جدع] .

﴿لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ..(١١)﴾ [الحجرات]

فلو أن كلمة « القوم » تُطلَق على النساء ؛ لَوصفَ بها الحق سبحانه النساء أيضاً ؛ وذلك كى نعلم أن الرجال فقط هم الذين يقومون للأحداث ؛ ولنعلم أن للمرأة منزلتها فى رعاية أسرتها ؛ فلا تقوم إلا بما يخصُّ هذا البيت .

وهنا أخبرتْ الملائكة إبراهيم ـ عليه السلام ـ أنهم مُرْسَلون إلى قوم مُجرمين[(١)] ؛ وهم قوم لوط الذين أرهقوا لوطاً بالتكذيب وبالمعاصى التى أدمنوها .

ولكن الحق سبحانه يستثنى آل لوط من جريمة قوم لوط ، فقد كانت أغلبية قوم لوط من الفاسدين ، فيقول سبحانه :

﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩)﴾

وهذا استثناءٌ لآل لُوطٍ من المجرمين[(٢)] . والمُجرِم هو المُنقطِع عن الحق ، والجريمة هى الانقطاع عن الحق لانتصار الباطل ، وغلب اسم

---

(١) جرم الشىء جرماً : قطعه وغلب على فعل الشر . وأجرم الرجل : أذنب وعصى وكفر وعاند فهو مجرم . [القاموس القويم ١/١٢١] .

(٢) يقول الفخر الرازى متسائلاً : هل هذا استثناء متصل أو منقطع ؟ يقول صاحب الكشاف : إذا كان هذا الاستثناء من قوم كان منقطعاً ؛ لأن القوم موصوفون بالإجرام وآل لوط ليسوا مجرمين ، فاختلف الجنسان ، وهنا يكون الاستثناء منقطعاً ، وإن كان الاستثناء من الضمير فى مجرمين كان متصلاً كأنه قيل : إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل لوط وحدهم (راجع الفخر الرازى فى تفسير الآية) .

القـوم على الجمـاعـة المُجْـرمـين ، وهكذا كان الاسـتـثناء من هؤلاء المجـرمين . الذين أجـرموا فى حق منهج الله ، والقيـم التى نادى بها لوط عليه السلام .

وهكذا كان الإرسال للإنجـاء لمن آمن والإهلاك لمن أعرض ونأى بجانبه فى مهمة واحدة .

ثم يأتى استثناء جديد ؛ حيث يقـرر الحق سبحانه أن امرأة لوط سيشملها الإهلاك ، فيقول سبحانه :

﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ[1] ﴿٦٠﴾ ﴾

ونعلم فى اللغة أنه إذا توالتْ استثناءات على مُستثنى منه ؛ نأخذ المُسْتثنى الأول من المُستْـثنى منه ، والمسـتثنى الثانـى نأخذه من المستثنى الأول ، والمستثنى الثالث نأخذه من المستثنى الثانى .

والمثل أن يقـول لك من تدينه « لك عشـرة جنيهـات إلا أربعة » أى : أنه أقرَّ بأن لك ستـة جنيهات ؛ ولكنك تنظر إليه لـعلَّه يتذكر كم سدَّد إليك ؟ فـيقول : « لك إلا درهماً » وهـكذا يكون قد أقرَّ بسبـعة دراهم كَدَيْن ؛ بعد أنْ كان قد أقرَّ بـستة ؛ ذلك أنه قال : « لك عشرة جنيهات إلا أربعة » ، ثم أضـاف : « إلا درهماً » .

وهكذا يكون قد استثنى من الأربعة الجنيهات التى قال إنه سَدَّدها لك جنيهاً آخر ؛ وبذلك يكون ما سدده من دين ثلاثة جنيهات ، وبقى عنده سبعة جنيهات .

والحق سبـحانه هنا يستـثنى امرأة لوط من الذين اسـتثناهم من

---

(١) الغابرون : الباقـون المتخلفون فى القـرية للهلاك ، أو كانت من الماضـين الذاهبين أى من الهالكين . [القاموس القويم ٢/٤٧] .

قبل للنجاة[1] ، وهم آل لوط ، والملائكة التى تقول ذلك لم تُقدِّر الأمر بإهلاك امرأة لوط ؛ بل هى تُـنفّذ التقـدير الأعلى ؛ فسبـحانه هو مَنْ قدَّر وأمر :

﴿ إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ ٦٠ ﴾ [الحجر]

والغابر هنا بمـعنى داخل ؛ أو هو من أسمـاء الأضداد ؛ وهى لن تنجو ؛ لأن مَنْ تقررتْ نجـاتهم سيتركون القرية ؛ وسـيهلك مَنْ يبقى فيها ، وامرأة لُوط من الباقين فى العذاب والاستثناء من النفى إثبات ؛ ومن الإثبات نفى ، فاستثناء امرأة لُوط من الناجين يلحقها بالهالكين .

وتنتقل السورة من إبراهيم إلى لوط ـ عليه السلام ـ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ٦١ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ٦٢ ﴾

وهكذا قال لوط ـ عليه السلام ـ للملائكة عندما وصلوا إليه ، فقد كـان مـشـهـدهم غـايةً فى الجـمـال ؛ ويعلم أن قـومـه يُعَـانُون من الغلمانية[2] ، ويحتـرفون الفاحشـة الشاذة ؛ لذلك نجد الحق سبـحانه يقول عن معاملته للملائكة فى موقع آخر من القرآن :

﴿ سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا .. ٧٧ ﴾ [هود]

---

(١) قال صاحب الكشاف : هذا استثناء من الضمير المجرور فى قوله (لمنجوهم) وليس ذلك من باب الاستثناء من الاستثناء (راجع الفخر الرازى) .

(٢) الغلمانية : حب إتيان الغلمان والذكران من العالمين . والغُلْمة : شدة الشهوة .

ذلك أن لوطاً علم أن قومه سيطمعون فى هؤلاء المُرْد[1] ، لذلك ما أنْ جاءوه حتى أعلن لهم أنه غَيْر مرغوب فيهم ؛ ولم يرحب بهم ، ذلك أنهم قد دخلوا عليه فى صورة شبان تضىء ملامحهم بالحُسْن الشديد ؛ مما قد يُسبِّب غواية لقومه .

كما أنهم قد دخلوا عليه ، وليس على ملامحهم أىّ أثر للسفر ؛ كما أنهم ليسوا من أهل المنطقة التى يعيش فيها ؛ لذلك أنكرهم .

ويقول سبحانه ما جاء على لسان الملائكة لحظةَ أنْ طمأنوا لوطاً كشفوا له عن مهمتهم :

﴿ قَالُوا۟ بَلْ جِئْنَـٰكَ بِمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَمْتَرُونَ[2] ﴿٦٣﴾ ﴾

وهكذا أعلنوا للوط سبب قدومهم إليه ؛ كى يُنزِلوا العقابَ بالقوم الذين أرهقوه ، وكانوا يشكُّون فى قدرة الحق سبحانه أنْ يأخذهم أَخْذَ عزيز مُقْتدر ، وفى هذا تَسْرية عنه .

ثم يُؤكِّدون ذلك بما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿ وَأَتَيْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

أى : جِئْنا لك بأمر عذابهم الصادر من الحقِّ سبحانه ؛ فلا مجالَ للشكِّ أو الامتراء ، ونحن صادقون فيما نُبلِّغك به .

---

(١) غلام أمرد . والمرْد : التمليس . وقال ابن الأعرابى : المرَد : نقاء الخدَّيْن من الشعر ونقاء الغصن من الورق . والأمرد : الشاب الذى بلغ خروج لحيته وطَرّ شاربه ولم تبد لحيته . [لسان العرب ـ مادة : مرد] .

(٢) امترى فى الشىء : شكّ فيه ولم يستيقن . وتمارى فى الشىء : تشكك فيه . والمرية : الجدل والشك . [القاموس القويم ٢/٢٢٤] .

ويقولون له من بعد ذلك :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُوا۟ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾

أى : سِرْ أنت وأهلك فى جزء من الليل . ومرة يُقَال « سرى » ، ومرة يُقال « أسرى » ؛ ويلتقيان فى المعنى . ولكن « أسرى » تأتى فى موقع آخر من القرآن ، وتكون مُتعدِّية مثل قول الحق :

﴿ سُبْحَانَ الَّذى أَسْرَىٰ بِعَبْدِه لَيْلاً .. ﴿١﴾ ﴾ [الإسراء]

وقولهم هنا (اسر بأهلك[1]) هو تعبير مُهذَّب عن صُحْبَة النساء والأبناء . ونجد فى ريفنا المصرى مَنْ لا يتكلم أبداً فى حديثه عن المرأة أو البنات ؛ فيقول الواحد منهم « قال الأولاد كذا » ، فكأن اسم المرأة مبنىٌّ على السَّتْر دائماً ، وكذلك نجد كثيراً من الأحكام تكون المرأة مَطْمورة فى حكم الرجل إلا فى الأمر المُتعلِّق بها .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ .. ﴿٦٥﴾ ﴾ [الحجر]

وكلمة « قِطع » هى اسم جمع[2] ، والمقصود هو أن يخرج لوطٌ

---

(١) الأهل هم الذين اتبعوا لوطاً فى منهج الله ، ويخرج من الأهلية امرأته لعصيانها كما نُفيت الأهلية عن ابن نوح بعصيانه . قال الله تعالى : ﴿ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴿٤٦﴾ ﴾ [هود]

(٢) اسم الجمع هو اسم يدل على الجمع ، ولكنه ليس جمعاً سالماً سلمت فيه بنية المفرد من التغيير ، وليس جمع تكسير ، تغيرت فيه بنية المفرد ، ويفرق بينه وبين مفرده بالتاء ، مثل (تمر) فهذا اسم جمع مفرده (تمرة) ، و (عنب) مفرده (عنبة) ، كذلك قطع هنا اسم يدل على الجمع مفرده (قطعة) ، وليس من أنواع الجموع المعروفة .

بأهله فى جُزْء من الليل ، أو من آخر الليل ، فهذا هو منهج الإنجاء الذى أخبر به الملائكة لوطاً ، ليتبعه هو وأهله والمؤمنون به ، وأوصوْه أن يتبعَ أدبار قومه بقولهم :

﴿ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

أى : أن يكون فى المؤَخّرة ، وفى ذلك حَثٌّ لهم على السُّرعة .

وكان من طبيعة العرب أنهم إذا كانوا فى مكان ويرحلون منه ؛ فكل منهم يحمل رَحْلَه على ناقته ؛ وأهله فيها ـ فوق الناقة ـ ويبتدئون السير ، ويتخلف رئيس القوم ، واسمه « مُعقِّب » كى يرقُب إنْ كان أحد من القوم قد تخلَّف أو تعثَّر أو ترك شيئاً من متاعه ، ويُسمُّون هذا الشخص « مُعقِّب » .

وهنا تأمر الملائكة لوطاً أن يكون مُعقّباً لأهله والمؤمنين به ؛ لِيحثّهم على السير بسرعة ؛ ثم لِينفذ أمراً آخرَ يأمره به الحق سبحانه :

﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ .. (٦٥) ﴾ [الحجر]

وتنفيذ الأمر بعدم الالتفات يقتضى أن يكون لوط فى مُؤخّرة القوم ؛ ذلك أن الالتفاتَ يأخذ وَقْتاً ، ويُقلّل من سرعة مَنْ يلتفت ؛ كما أن الالتفاتَ إلى موقع انتمائهم من الأرض قد يُثير الحنين إلى مواقع التَّذكار وأرض المَنْشأ ، وكل ذلك قد يُعطّل حركة القوم جميعهم ؛ لذلك جاء الأمر الإلهى :

﴿ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥) ﴾ [الحجر]

أو : أن الحق سبحانه يريد ألاَّ يلتفت أحدٌ خَلْفه حتى لا يشهدَ العذاب ، أو مقدمة العذاب الذى يقع على القوم ، فتأخذه بهم شفقة .

ونحن نعلم قول الحق سبحانه فى إقامة أىِّ حدٍّ من الحدود التى أنزلها :

﴿ وَلا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ .. (٢) ﴾ [النور]

فلو أن أحداً قد التفتَ إلى العذاب ، أو مُقدِّمة العذاب ؛ فقد يحِنّ إليهم ، أو يعطف عليهم رغم أن عذابهم بسبب ذنبٍ كبير ، فقد ارتكبوا جريمة كبيرة ؛ ونعلم أن بشاعة الجريمة تبهت ؛ وقد يبقى فى النفس عِظَم أَلَمِ العقوبة لحظةَ توقيعها على المُجرم .

أو : أن الحق سبحانه يريد أن يعجل بالقوم الناجين قبل أنْ يوجد ، ولو التفزيع الذى هو مقدمة تعذيب القوم الذين كفروا من هَوْل هذا العذاب القادم .

وهكذا كان الأمر بالإسراء بالقوم الذين قرر الحق سبحانه نجاتهم ، والكيفية هى أن يكون الخروجُ فى جزء من الليل ، وأنْ يتبعَ لوطٌ أدبارهم ، وألاَّ يلتفتَ أحد من الناجين خَلْفه ؛ ليمضى هؤلاء الناجون حيث يأمرهم الحق سبحانه . وقيل : إن الجهة هى الشام .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ[1] هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ (٦٦) ﴾

---

(١) دابر الشىء : آخره . وقطع الله دابرهم أى آخر من بقى منهم . [لسان العرب - مادة : دبر] والتعبير كناية عن استئصالهم وإهلاكهم عن آخرهم ، فالدابر التابع ، وقطع التابع قَطْع لهم جميعاً . [القاموس القويم ١/ ٢٢٠] .

وقوله الحق : ﴿ وَقَضَيْنَا .. (٦٦) ﴾ [الحجر]

أى : أوحينا . وسبحانه تكلَّم من قَبْل عن الإنجاء للمؤمنين من آل لوط ؛ ثم تكلَّم عن عذاب الكافرين المنحرفين ؛ والأمر الذى قضى به الحق سبحانه أنْ يُبيدَ هؤلاء المنحرفين . وقَطْع الدَّابر هو الخَلْع من الجذور .

ولذلك يقول القرآن :

﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا .. (٤٥) ﴾ [الأنعام]

وهكذا نفهم أن قَطْع الدابر هو أنْ يأخذَهم الحق سبحانه أَخْذ عزيز مقتدر فلا يُبقِى منهم أحداً . وموعد ذلك هو الصباح ، فبعد أنْ خرج لوط ومَنْ معه بجزء من الليل وتمَّتْ نجاتهم يأتى الأمر بإهلاك المنحرفين فى الصباح .

والأَخْذ بالصُّبح هو مبدأ من مبادىء الحروب ؛ ويُقال : إن أغلب الحروب تبدأ عند أول خيط من خيوط الشمس .

والحق سبحانه يقول :

﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ[1] فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) ﴾ [الصافات]

وهكذا شاء الحق سبحانه أنْ يأخذَهم وهُمْ فى استرخاء ؛ ولا يملكون قُدْرة على المقاومة .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

---

(١) الساحة : الناحية والفضاء بين الدُّور . جمعها : سَاحٍ وسُوح وساحات . [القاموس القويم ١/٣٣٤] .

﴿أَنَّ دَابِرَ هَـٰؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الحجر]

لا يتناقض مع قوله عنهم فى موقع آخر :

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ[1] ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر]

فكأن بَدْء الصيحة كان صُبْحاً ، ونهايتهم كانت فى الشروق . وهكذا رسم الحق سبحانه الصورة واضحة أمام لُوطٍ من قبل أنْ يبدأ التنفيذ ؛ فهكذا أخبرتْ الملائكة لوطاً بما سوف يجرى .

ويعود الحق سبحانه بعد ذلك إلى قوم لوط الذين لا يعرفون ما سوف يحدث لهم ، فيقول سبحانه :

﴿وَجَآءَ أَهۡلُ ٱلۡمَدِينَةِ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾

وعندما علم أهل المدينة من قوم لُوطٍ بوصول وَفْد من الشبان الحِسَان المُرْد عند لوط جاءوا مُستبشرين فَرِحين . وكان حُسْنهم مضربَ الأمثال ؛ وكأن كُلاً منهم ينطبق عليه قَوْله الحق عن يوسف عليه السلام :

﴿مَا هَـٰذَا بَشَرًا إِنْ هَـٰذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف]

وقوله سبحانه :

﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الحجر]

---

(١) مشرقين : وقت شروق الشمس . يقال : أشرقت الشمس : أى : أضاءت . وأشرق القوم : أى دخلوا فى وقت شروق الشمس . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٦٥] .

يجمع لقطات مُركّبة عن الأمر الفاحش الشائع فيما بينهم ، وكانوا يستبشرون بفعله ويَفْرحون به ؛ فهم مَنْ ينطبق عليهم قوله الحق :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ[1] عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) ﴾

[المائدة]

وكان لوط يعلم هذا الأمر فيهم ، ويعلم ما سوف يَحيق بهم ؛ وأراد أنْ يجعلَ بينهم وبين فعل الفاحشة مع الملائكة سَدّاً ؛ فهم فى ضيافته وفى جواره ، والتقاليد تقضى أنْ يأخذَ الضيف كرامة المُضيف ، وأىّ إهانة تلحق بالضيف هى إهانة للمُضيف ، فيقول الحق سبحانه ما جاء على لسان لوط :

﴿ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨) ﴾

والفضيحة هى هَتْك المساتير التى يستحيى منها الإنسان ، فالإنسان قد يفعل أشياءَ يستحى أنْ يعلمها عنه غيره . والحق ـ سبحانه وتعالى ـ حين يطلب منا أن نتخلَّق بخُلُقه ؛ جعل من كُلِّ صفات الجمال والجلال نصيباً يعطيه لخَلْقه .

ولكن هناك بعضاً من صفاته يذكرها ولا يأتى بمقابل لها ؛ فهو قد قال مثلاً « الضَّارّ » ومقابلها « النافع » . وقال « الباسط » ومقابلها « القابض » وقال « المُعِزّ » ومقابلها « المُذِلّ » . ومن

(١) تناهوا عن الأمر وعن المنكر : نهى بعضهم بعضاً . فكان بنو إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضاً عن منكر فعلوه ، فاستحقوا اللعنة . [القاموس القويم ٢/ ٢٩٠] .

أسمائه « الستار »[1] ولم يَأتِ بالمقابل وهو « الفاضح » ؛ لماذا لم يَأتِ بهذا المقابل ؟

لأنه سبحانه شاء أنْ يحميَ الكون ؛ لكي يستمتع كُلّ فَرْد بحسنات المُسِيء ؛ لأنك لو علمتَ سيئاته قد تبصُق عليه ؛ لذلك شاء الحق سبحانه أن يستر المُسيء ، ويُظهِر حسناته فقط .

وقد قال لوط لقومه بعد أن نهاهم عن الاقتراب الشائن من ضيوفه :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ ﴾

أي : ضَعُوا بينكم وبين عقاب الحق لكم وقاية ؛ ولا تكونوا سبباً في إحساسي بالخِزى والعار أمام ضيوفي بسبب ما ترغبُون فيه من الفاحشة .

والاتقاء من الوقاية ، والوقاية هي الاحتراس والبعد من الشر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، واحترسوا من أن تقعوا فيها ، بالابتعاد عن المحظورات ، فإن فِعْل المحذور طريق إلى النار ،

---

(١) قال القرطبي في « الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى » (١/١٦٧) : « من أسماء الله الستار والساتر ، هذان الاسمان لم أر من ذكرهما ، ولا من جعلهما في عداد الأسماء ، إلا أن الفعل منهما وارد في غير ما حديث ، منها حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ : « من ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة » خرجه مسلم » .

والابتعاد عنه وقاية منها ، ومن عجيب أمر هذه التقوى أنك تجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى القرآن الكريم ـ والقرآن كله كلام الله .

يقول : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ ..(١٩٤) ﴾ [البقرة]

ويقول : ﴿ وَاتَّقُوا النَّارَ ..(١٣١) ﴾ [آل عمران]

كيف نأخذ سلوكاً واحداً تجاه الحق سبحانه وتعالى وتجاه النار التى سيعذب فيها الكافرون ؟

والمعنى : لا تفعلوا ما يغضب الله حتى لا تُعذَّبوا فى النار ، فكأنك قد جعلت بينك وبين النار وقاية بأن تركت المعاصى ، وإن فعلتَ المأمورات ، ورضيتَ بالمقدورات ، وابتعدت عن المحذورات ، فقد اتقيت الله .

ولكنهم لم يستجيبوا له ، بدليل أنهم تَمادَوْا فى غيِّهم وقالوا ما أورده الحق سبحانه :

﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٠ ﴾

أى : ألَمْ نُحذِّرك من قَبْل من ضيافة الشبان الذين يتميَّزون بالحُسْن ، ولأنك قُمْتَ باستضافة هؤلاء الشباب ؛ فلا بُد لنا من أنْ نفعلَ معهم ما نحب من الفاحشة ، وكانوا يتعرَّضون لكل غريب بالسوء .

وحاول لوط أن ينهاهم قَدْر استطاعته ؛ ولكنهم رفضوا أنْ يُجير ضيوفه من عدوانهم الفاحش ، وطلبوا منه أن يتركهم وشأنهم ، ليفسدوا فى الكون كما يشاءون ، فلا تتكلم ولا تعترض على شىء مما نفعل ، وهذه لغة أهل الضلال والفساد .

وحاول لوط عليه السلام أنْ يُثنيهم عن ذلك بأن قال لهم ، ما جاء به الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١ ﴾

أى : أنكم إنْ كُنتم مُصرِّين على ارتكاب الفاحشة ؛ فلماذا لا تتزوجون من بناتى ؟ ولقد حاول البعضُ أن يقولوا : إنه عرض بناته عليهم ليرتكبوا معهنَّ الفاحشة ؛ وحاشا لله أن يصدر مثل هذا الفعل عن رسول ، بل هو قد عرض عليهم أن يتزوجوا النساء .

ثم إن لوطاً كانت له ابنتان اثنتان ، وهو قد قال :

﴿ هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِى .. ٧١ ﴾ [الحجر]

أى : أنه تحدث عن جمع كثير ؛ ذلك أن ابنتيه لا تصلحان إلا للزواج من اثنين من هذا الجمع الكثيف من رجال تلك المدينة ، ونعلم أن بنات كل القوم الذين يوجد فيهم رسول يُعتبرْنَ من بناته[1] .

ولذلك يقول الحق سبحانه ما يُوضّح ذلك فى آية أخرى :

﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ١٦٥ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ١٦٦ ﴾ [الشعراء]

أى : أن لوطاً أراد أنْ يردَّ هؤلاء الشواذ إلى دائرة الصواب ، والفعل الطيب . وذيَّل كلامه :

(١) أخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله : ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ هَـٰؤُلاءِ بَنَاتِى .. ٧٨ ﴾ [هود] قال : ما عرض لوط عليه السلام بناته على قومه لا سفاحاً ولا نكاحاً إنما قال : هؤلاء بناتى نساؤكم ، لأن النبى إذا كان بين ظهرى قوم فهو أبوهم . [أورده السيوطى فى الدر المنثور ٤/٤٥٧] .

﴿إن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)﴾ [الحجر]

ليوحى لهم بالشكِّ فى أنهم سيُهينون ضيوفه بهذا الأسلوب المَمْجوج والمرفوض .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ(١) يَعْمَهُونَ (٧٢)﴾

والخطاب هنا لرسول الله ﷺ . و « عَمْرُك » معناها السنُّ المُحدّد للإنسان لاستقامة الحياة ، ومرة تنطق « عُمْرك » ومرة تنطق « عَمْرك » ، ولكنهم فى القَسَم يختارون كلمة « عَمْرك » ، وهذا يماثل قولنا فى الحياة اليومية « وحياتك » .

ومن هذا القول الكريم الذى يُحدِّث به الحق سبحانه رسوله استدلَّ أهل الإشراق والمعرفة أن الحق سبحانه قد كرَّم سيدنا رسول الله ﷺ ؛ بأنه حين ناداه لم يُنَاده باسمه العلنىّ « يا محمد » أو « يا أحمد » كما نادى كل رُسُله ، ولكنه لم يُنَادِ الرسول ﷺ إلا بقوله :

﴿يَـٰأَيُّهَا الرَّسُولُ ..(٦٧)﴾ [المائدة]

أو : ﴿يَـٰأَيُّهَا النَّبِيُّ ..(١٢)﴾ [الممتحنة]

وفى هذا تكريمٌ عظيم ، وهنا فى هذه الآية نجد تكريماً آخر ، فسبحانه يُقسِم بحياة رسوله ﷺ . ونعلم أن الحق سبحانه يُقسِم

(١) السكرة : الغشية . أى كانوا فى غشية شهواتهم على عقولهم وغفلتهم واغترارهم بالدنيا اغتراراً يُضلهم فيعمون عن الحق . [القاموس القويم ١/ ٣٢٠] والعمه : التحيُّر والتردد ، أى : يتردد متحيراً لا يهتدى لطريقه ومذهبه . [لسان العرب ـ مادة : عمه] .

بما شاء على مـا شاء ، أقسم بالشمس وبمـواقع النجوم وبالنجم إذا هَوَى .

فهـو الخالق العليم بكل مـا خلق ؛ ولا يعرف عظمـة المخلوق إلا خالقـه ، وهو العالم بمُهمـة كل كائن خلقه ، لكنه أمـرنا ألاَّ نُقسِم إلاَّ به ؛ لأننا نجهل حقائق الأشياء مُكْتملةً .

وقد أقسم سبحـانه بكل شيء في الوجود ، إلا أنه لم يُقسِم أبداً بأيِّ إنسـان إلا بمحمد ﷺ ؛ فقال هنا :

﴿ لَعَمْرُكَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر]

بحياتك يا محمد إنهم في سكْرة يعمهون .

والسَّكْرة هي التـخديرة الـعقليـة التي تحـدث لمن يختلّ إدراكـهم بفعل عقيدة فاسـدة ، أو عادة شاذة ، أو بتناول مادة تثير الاضطراب في الوعي .

و ﴿ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الحجر]

أي : يضطربون باختيارهم .

ويأتي العقاب ؛ فيقول الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ[1] مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾

وسبق أنْ أخبـرنا سبحانه أنه سـيقطع دابرهم وهم مصـبحون ،

---

(١) الصيحة : العذاب ، وأصله من الصياح ، والصـيحة : الغارة إذا فوجيء الحيّ بها . [لسان العرب ـ مادة : صيح] . قال في القاموس القويم (١/٣٨٦) : « الصيحة : العذاب الذى يصحبه صوت شديد » .

وهنا يخبرنا أن الصيحةَ أخذتهم وهم مُشْرِقون ، ونحن نرى هذه الأيام بعضاً من الألعاب كلعبة « الكاراتيه » تصدر صيحة من اللاعب فى مواجهة خَصْمه ليُزيد من رُعْبه .

كما نرى فى تدريبات الصاعقة العسكرية ؛ نوعاً من الصرخات ، هدفها أنْ يُدخِل المقاتل الرُّعْب فى قلب عدوه .

وكل ما يتطلب إرهاب الخَصْم يبدأ بصيحة تُفقده توازنه الفكرى ؛ ولذلك قال الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ[1] الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ [القمر]

ومرّة يُسمّيها الحق سبحانه بالطاغية ؛ فيقول :

﴿ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ[2] (٥) ﴾ [الحاقة]

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ[3] (٧٤) ﴾

---

(١) الهشيم المحتظر : أى كالحطب والخشب المحطّم فى يد المحتظر صانع الحظيرة أو حامل الحطب فيها . [القاموس القويم ٢/٣٠٢] .

(٢) الطاغية : طغيانهم . أى : أُهلكوا بطغيانهم . [لسان العرب ـ مادة : طغا] . قال قتادة : هى الصيحة التى أسكتتهم والزلزلة التى أسكنتهم . وقال السدى : فأهلكوا بالطاغية يعنى عاقر الناقة . [تفسير ابن كثير ٤/٤١٢] .

(٣) السجيل : الطين المتحجر . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٤٥٤) : « هى بالفارسية حجارة من طين . قاله ابن عباس وغيره . وقال بعضهم : أى : من سنك وهو الحجر وكل وهو الطين » .

وما دام عاليها قد صار أسفلها ، فهذا لَوْنٌ من الانتقام المُنظَّم المُوجَّه ؛ ولو لم يكن انتقاماً مُنظّماً ؛ لانقلب بعضُ ما فى تلك المدينة على الجانب الأيمن أو الأيسر .

ولكن شاء الحق سبحانه أن يأتى لنا بصورة ما حدث ، ليدلّنا على قدرته على أنْ يفعلَ ما شاء كما يشاء . وأمطرهم الحق سبحانه بحجارة من سجيل ؛ كتلك التى أمطر بها مَنْ هاجموا الكعبة فى عام ميلاد رسول الله ﷺ .

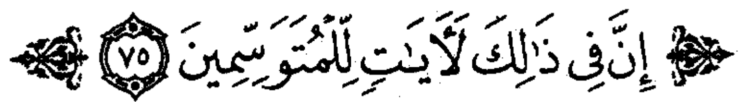
وهى حجارة صُنعَتْ من طين لا يعلم كُنْهَه إلا الحق سبحانه ، والطين إذا تحجَّر سُمِّىَ « سجيلاً » .

والحق سبحانه هو القائل عن نفس هذا الموقف فى سورة الذاريات :

﴿ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ (٣٣) ﴾ [الذاريات]

وقد أرسل الحق سبحانه تلك الحجارة عليهم ليُبيدهم ، فلا يُبقِى منهم أحداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



وهكذا كان العذاب الذى أنزله الحق سبحانه بقوم لوط آية واضحة للمُتوسِّمين . والمُتوسّم هو الذى يُدرك حقائق المَسْتور بمكْشُوف المظهور . ويُقال « توسَّمْتُ فى فلان كذا » أى : أخذ من الظاهر حقيقة الباطن .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ .. (٢٩) ﴾ [الفتح]

أى : ساعةَ تراهم ترى أن الملامح تُوَضِّح ما فى الأعماق من إيمان .

ويقول سبحانه أيضاً :

﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا[1] .. (٢٧٣) ﴾ [البقرة]

وهكذا نعرف أن المُتوسِّم[2] هو صاحب الفَراسة التى تكشف مكنون الأعماق . وها هو ﷺ يقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله »[3] .

وتحمل الذاكرة العربية حكاية الأعرابى الذى فقد جمله ، فذهب إلى قَيِّم الناحية - أى : عمدة المكان - وقال له : « ضاع جملى ، وأخشى أن يكون قد سرقه أحد » . وبينما هو يُحدِّث القيِّم جاء واحد ، وقال له : أجملك أعور ؟ أجاب صاحب الجمل : نعم ، وقال له : أجملك أبتَر ؟ أى : لا ذَيْل له ، أجاب صاحب الجمل : نعم .

---

(١) ألحف السائل فى سؤاله : ألحَّ وأكثر الإلحاح . أى : لا يلحون فى طلب الصدقات . [القاموس القويم ٢/١٩٠] .

(٢) قال ثعلب : « الواسم الناظر إليك من فرقك إلى قدمك . وأصل التوسم : التثبت والتفكر ، وذلك يكون بجودة القريحة وحدة الخاطر وصفاء الفكر . زاد غيره : وتفريغ القلب من حشو الدنيا ، وتطهيره من أدناس المعاصى ، وكدورة الأخلاق ، وفضول الدنيا » نقله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٦٦) .

(٣) أخرجه الترمذى فى سننه (٣١٢٧) وقال : حديث غريب ، وفيه مصعب بن سلام . قال المناوى فى « فيض القدير » (١/١٤٢) : « أورده الذهبى فى الضعفاء . وقال ابن حبان : كثير الغلط فلا يحتج به » . والحديث عن أبى سعيد الخدرى .

فســأل الرجل سؤالاً ثالثـاً : أجملك أشــول ؟ أى : يعرج قليـلاً عندما يسير ؛ فأجاب الرجل : نعم ، والله هو جَمَلِى .

وأراد قيِّم الحى أن يعلـم كيف عرف الرجل الذى حـضـر كل هذه العلامات التى فى الجمل ، فسأله : وما أدراك بكل تلك العلامات ؟

قال الرجل : لقـد رأيتُه فى الطريق ، وعـرفتُ أنه أعورُ ، ذلك أنه كان يأكل العُشْب الجاف من جهة ، ولا يلتفت إلى العُشْب الأخضر فى الجهة الأخرى ، ولو كان يرى بعينيه الاثنتين لرأى العُشْب الأخضر .

وعرفت أنه أبتر مقطوع الذَّيْل نتيجة أن بَعْره لم يتبعثر مثل غيره من الجمال التى لها ذَيْل غير مقطوع .

وعرفت أنه أشــول ؛ لأن أثر ساقه اليـمنى أكثر عُمْـقاً فى الأرض من أثر ســاقــه اليســرى . وهكذا شرحت الذاكرة العـربية مـعنى كلمة « المتوسم » .

ثم يُبيِّن الحق ســبـحانه مكان مدينة قـوم لوط ، فيقـول من بعد ذلك :

﴿ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

أى : أنهـا على طريق ثابت تمـرُّون عليـه إنْ ذهبـتُم ناحـيـة هذا المكان ، وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ [الصافات]

فهذه المـدينة إذنْ فى طريق ثابت ؛ لن تُضيّعه عـوامل التَّعْرية أو الأغيـار ، ولن تُضيِّـعه تلك العوامل إلا إذا شـاء الحق سبـحانه له أن

يكون مُحْكَمَ التكوين ومُحكمَ التثبيت . وهو ما يُسمَّى « سدوم » .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

وقد قال من قبل :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحجر]

فكأن من مسئوليات المؤمن أنْ يتفحَّص فى أدبار الأشياء ، وأنْ يتعرّفَ على الأشياء بسيماها ، وأن يمتلكَ فراسة الإيمان التى قال عنها ﷺ : « اتقوا فراسةَ المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله » .

وهكذا يُنهِى الحق سبحانه هنا قصة قوم لوط ؛ وما وقع عليهم من عذاب يجب أنْ يتعظَ به المؤمنون ؛ فقد نالوا جزاءَ ما فعلوا من فاحشة .

وينقلنا الحق سبحانه من بعد ذلك نَقْلة أخرى ؛ إلى أهل مَدْين ، وهم قوم شُعَيب . وهم أصحاب الأيكة ، يقول سبحانه :

﴿ وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾

و «الأيْك » هو الشجر المُلْتف الكثير الأغصان . ونعلم أن شعيباً ـ عليه السلام ـ قد بُعث لأهل مدين وأصحاب الأيكة ، وهى مكان قريب من مدين ، وكان أهل مدين[1] قد ظلموا أنفسهم بالشرك .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٢٣١) : « مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهى التى بقرب معان من طريق الحجاز » وقال أيضاً (٢/٤٥٥) : « هم قبيلة من العرب كانوا يسكنون بين الحجاز والشام قريباً من معان » .

وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا .. (٨٥) ﴾ [الأعراف]

وقال عن أصحاب الأيكة :

﴿ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) ﴾ [الشعراء]

وهكذا نعلم أن شعيباً قد بُعث لأمتين مُتجاورتين[1] .

ويقول سبحانه عن هاتين الأُمتين :

﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾

ويُقال : إن ما كان يفصل بين مدين وأصحاب الأيكة هو هذا الشجر المُلْتف الكثيف القريب من البحر . ولذلك نجد هنا الدليل على أن شعيباً عليه السلام قد بُعث إلى أُمتين هو قوله الحق :

﴿ وَإِنَّهُمَا .. (٧٩) ﴾ [الحجر]

وقد انتقم الله من الأُمتين الظالمتين ؛ مَدْين وأصحاب الأيكة .

ويقول الحق سبحانه :

---

(١) مضمون كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ أن مدين وأصحاب الأيكة هما أمتان مختلفتان بُعث إليهما شعيب عليه السلام ، ويدل لهذا حديث مرفوع إلى رسول الله ﷺ أورده السيوطي في الدر المنثور (٥/٩١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص قال قال رسول الله ﷺ : « إن مدين وأصحاب الأيكة أمتان ، بعث الله إليهما شعيباً » وعزاه لابن مردويه وابن عساكر . ولذلك فقد أرجع الشيخ الضمير في قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر] إلى هاتين الأمتين ، أما القرطبي وابن كثير فقد عادا بالضمير إلى قوم لوط ، وقوم مدين على اعتبار أن أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة . راجع القرطبي (٥/٣٧٦٨) وابن كثير (٢/٥٥٦) .

﴿ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ (٧٩) ﴾ [الحجر]

والإمام هو ما يُؤتَم به فى الرأى والفتيا ؛ أو فى الحركات والسَّكنات ؛ أو : فى الطريق المُوصّل إلى الغايات ، ويُسمّى « إمام » لأنه يدلُّ على الأماكن أو الغايات التى نريد أن نصل إليها ، ذلك أنه يعلم كل جزئية من هذا الطريق .

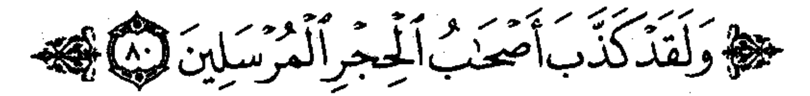
وفيما يبدو أن أصحاب الأيْكة قد تَمادَوْا فى الظُّلْم والكفر[1] ، وإذا كان سبحانه قد أخذ أهل مَدْين بالصيحة والرجفة ؛ فقد أخذ أصحاب الأيكة بأن سلط عليهم الحَرَّ سبعة أيام لا يُظِلهم منه ظلٌّ ؛ ثم أرسل سحابة وتمنَّوْا أن تُمطر ، وأمطرتْ ناراً فأكلتهم ، كما قالت كتب الأثر[2] .

وهذا هو العذاب الذى قال فيه الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٨٩) ﴾ [الشعراء]

وهكذا تكون تلك العِبَر بمثابة الإمام الذى يقود إلى التبصُّر بعواقب الظلم والشرك .

وينقلنا الحق سبحانه إلى خبر قوم آخرين ، فيقول تعالى :



وأصحاب الحِجْر هم قوم صالح ، وكانت المنطقة التى يقيمون فيها

(١) كان ظلم قوم شعيب بشركهم بالله وقطعهم الطريق ونقصهم المكيال والميزان . [تفسير ابن كثير ٥٥٦/٢] .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٩٢/٥) من قول قتادة ، وعزاه لعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم .

كلها من الحجارة ؛ ولا يزال مُقَامهم معروفاً فى المسافة بين خيبر وتبوك . وقال فيهم الحق سبحانه :

﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ[1] آيَةً تَعْبَثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ[2] لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) ﴾ [الشعراء]

وهم قد كذَّبوا نبيهم « صالح » وكان تكذيبهم له يتضمن تكذيب كل الرسل ؛ ذلك أن الرسل يتواردون على وحدانية الله ، ويتفقون فى الأحكام العامة الشاملة ، ولا يختلف الأنبياء إلا فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة من البيئات التى يعيشون فيها .

فبيئة ؛ تعبد الأصنام ، فيُثبِت لهم نبيُّهم أن الأصنام لا تستحق أن تُعبد .

وبيئة أخرى : تُطفِّف الكيْل والميزان ؛ فيأتى رسولهم بما ينهاهم عن ذلك .

وبيئة ثالثة : ترتكب الفواحش فيُحذّرهم نبيهم من تلك الفواحش .

وهكذا اختلف الرسل فى الجزئيات المناسبة لكل بيئة ؛ لكنهم لم يختلفوا فى المنهج الكُلِّىِّ الخاص بالتوحيد والمنهج ، وقد قال الحق سبحانه عن قوم صالح أنهم كذَّبوا المُرْسلين ؛ بمعنى أنهم كذّبوا صالحاً فيما جاء به من دعوة التوحيد التى جاء بها كل الرسل .

---

(١) الريع : الجبل أو ما يشبهه من المبانى المرتفعة أو المكان المرتفع . [القاموس القويم ١/ ٢٨٢] .

(٢) المصانع : أبنية عالية وقصور متينة تحسنون صنعها راجين أن تخلدوا فيها ولستم بخالدين . [القاموس القويم ١/ ٣٨٤] .

ويقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

وهنا يُوجِز الحق ـ سبحانه وتعالى ـ ما أرسل به نبيهم صالح من آيات تدعوهم إلى التوحيد بالله ، وصدْق بلاغ صالح عليه السلام الذى تمثّل فى الناقة ، التى حذّرهم صالح أنْ يقربوها بسوء كَيْلا يأخذهم العذاب الأليم(١) .

لكنهم كذّبوا وأعرضوا عنه ، ولم يلتفتوا إلى الآيات التى خلقها الحق سبحانه فى الكون من ليل ونهار ، وشمس وقمر ، واختلاف الألْسُن والألوان بين البشر .

ونعلم أن الآيات تأتى دائماً بمعنى المُعْجزات الدَّالة على صدْق الرسول ، أو : آيات الكون ، أو : آيات المنهج المُبلّغ عن الله ، تكون آية الرسول من نوع ما نبَغ فيه القوم المُرْسَل إليهم ؛ لكنهم لا يستطيعون أن يأتوا بمثلها .

وعادةً ما تثير هذه الآية خاصيّة التحدّى الموجودة فى الإنسان ، ولكن أحداً من قوم الرسل ـ أىّ رسول ـ لا يُفلِح فى أن يأتى بمثل آية الرسول المرسل إليهم .

ويقول الحق سبحانه عن قوم صالح :

﴿ وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [الحجر]

---

(١) قال تعالى : ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَٰذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف] .

أى : تكبَّــروا وأعــرضــوا عن المنـهج الذى جـاءهـم به صَــالِح ، والإعراض هو أنْ تُعطى الشىء عَرْضك بأن تبتعدَ عنه ولا تُقبِل عليه ، ولو أنك أقبلتَ عليه لوجدتَ فيه الخير لك .

وأنت حـ ـ تُقبِل على آيات الله ستجد أنـها تدعوك للتفكُّر ، فتؤمن أن لها ـ ـقاً فتلتزم بتعاليم المنهج الذى جاء به الرسول .

وأنت حــين تُفكّر فى الحكمة من الطاعــة ســتجد أنهــا تُريحك من قلق الاعتماد على أحد غير خالقك ، لكن لو أخذتَ المسائل بسطحية ؛ فلن تنتهى إلى الإيمان .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر من القرآن الكريم :

﴿ وَكَـأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُـرُّونَ عَلَيْـهَـا وَهُمْ عَنْهَـا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

وفى هذا تكليفٌ للمـؤمن ـ كُل مؤمن ـ أن يُمـعِنَ النظر فى آيات الكون لعلَّه يستنبط منها ما يفيد غيره .

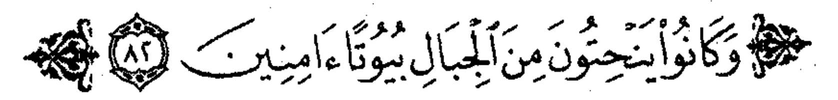
وأنت لو نظرتَ إلى كل المُخْترعات التى فى الكون لوجدتَّها نتيجةً للإقبال عليها من قِبَل عالم أراد أنْ يكتشفَ فيها ما يُريح غيره به .

والمثل فى اكـتشاف قُـوّة البخار التـى بدأ بها عَصْــر من الطاقة واخـتـراع المُـعـدات التـى تعـمل بتلك الطاقـة ، وحــرّك بهـا القطار والسفينة ؛ مثلما سبقها إنسان آخر واخترع العجلة لِيُسهّل على البشر حَمْل الأثقال .

وإذا كـان هذا فى أمـر الكَوْنيّـات ؛ فـأنـت أيضـاً إذا تأملتَ آيات

الأحكام فى « افـعل » و « لا تفعل » ستـجدها تفـيدُك فى حـياتك ، ومستقبلك ، والمثَل على ذلك هـو الزكاة ؛ فأنت تدفع جزءً يسيراً من عائد عملك لغيرك ممَّنْ لا يَقْوَى على العمل ، وستجد أن غيرك يعطيك إنْ حدث لك احتياج ؛ ذلك أنك من الأغيار .

ويتابع الحق سبحانه قوله عن قوم صالح :



وهنا يمـتنُّ عليهم بأن مـنحهم حـضارةً ، ووهبـهم مهـارة البناء والتـقدُّم فى العـمارة ؛ وأخـذوا فى بناء بيـوتهم فى الأحجـار ، ومن الأحجـار التى كانت توجـد بالوادى الذى يقيمـون فيه ، وقـطعوا تلك الأحـجار بطريقـة تُتيح لهم بـناء البيـوت والقُصـور الآمنة من أغيـار التقلُّبات الجوية وغيرها .

ونعلم أن مَنْ يعـيش فى خَيْمـة يعانى من قـلَّة الأمن ؛ أمـا مَنْ يبنى بيتـه من الطوب اللَّبن ؛ فهو أكـثر أَمْنـاً ممَّنْ فى الخيـمة ، وإنْ كـان أقلّ أمـاناً من الذى يبنى بيـتـه من الأسـمنت المُـسلَّح ، وهكذا يكون أَمْن النفس البـشرية فى سكنهـا واستـقرارها من قـوة الشىء الذى يحيطه .

وإذا كان قوم صالح قد أقاموا بيـوتهم من الحجارة فهى بالتأكيد أكثر أَمْنـاً من غيرهم ، ونجد نبـيهم صالحاً ، وقد قـال لهم ما أورده الحق سبحانه فى كتابه الكريم :

﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ[1] فِي الأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلاءَ[2] اللَّهِ وَلا تَعْثَوْا[3] فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) ﴾ [الأعراف]

ولكنهم طَغَوْا وبَغَوْا وأنكروا ما جاء به صالح ـ عليه السلام ـ فما كان من الحق سبحانه إلا أنْ أرسلَ عليهم صيحةً تأخذهم .

وقال الحق سبحانه :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ (٨٣) ﴾

وهم إذا كانوا قد اتخذوا من جبليّة الموقع أمْناً لهم ؛ فقد جاءت الصيحة من الحق سبحانه لتدكَّ فوق رؤوسهم ما صنعوا ، وقد قال الحق سبحانه عنهم من قبل في سورة هود :

﴿ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود]

وقال سبحانه عنهم أيضاً :

﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ[4] (٧٨) ﴾ [الأعراف]

والرَّجْفة هي الزلزلة ، والصَّيْحة هي بعض من توابع الزلزلة ،

---

(١) بوأه في الأرض : مكّن له فيها . وأباءه منزلاً وبوّأه إياه : هيأه له وأنزله ومكّن له فيه . [لسان العرب ـ مادة : بوأ] .

(٢) الآلاء : النعم . مفردها : إلىً ، أو ألى بكسر الهمزة وبفتحها . [القاموس القويم ١/٢٧] .

(٣) عثا عُثواً : أفسد أشد الإفساد . [لسان العرب ـ مادة : عثا] .

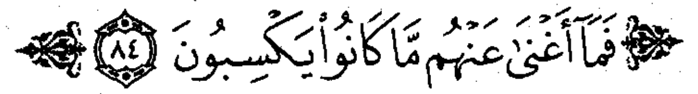
(٤) جثم : لزم مكانه لاصقاً بالأرض ، قال تعالى : ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٦٧) ﴾ [هود] .

ذلك أن الزلزلة تُحدث تموجاً فى الهواء يؤدى إلى حدوث أصوات قوية تعصف بمَنْ يسمعها .

وهم حسب قَوْل الحق سبحانه قد تمتَّعوا ثلاثة أيام قبل أنْ تأخذهم الصَّيْحة كوَعْد نبيهم صالح ـ عليه السلام ـ لهم :

﴿فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ (٦٥)﴾ [هود]

ويقول الحق سبحانه عن حالهم بعد أنْ أخذتهم الصَّيْحة :



وهكذا لم تنفعهم الحصون فى حمايتهم من قَدَرِ الله ، ونعلم أن قدر الله أو عقابه لا يمكن أنْ يمنعه مانعٌ مهما كان ؛ فهو القائل :

﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ[1] .. (٧٨)﴾ [النساء]

وهكذا لا يمكن أن يحمىَ الإنسانُ نفسَه مما قَدَّره الله له ، أو ممّا يشاء الحق أن يُنزِله على الإنسان كعقاب .

وسبحانه القائل :

﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ .. (١٥٤)﴾ [آل عمران]

وهكذا خَرُّوا جميعاً فى قاع الهلاك ، ولم تَحْمِهم حصونهم من العذاب الذى قدَّره سبحانه .

(١) شيد البناء : رفعه وأحكمه وطلاه . [القاموس القويم ١/٣٦٣] .

وبعد ذلك ينقلنا الحق سبحانه إلى الآيات الكونية ؛ فيقول :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾

والحقُّ هو الشيء الثابت الذى لا تَعْتوره الأغيار ، والمثَل هو نظام المجرَّات وحركة الشمس والقمر ؛ تجدها مُنْضبِطة ؛ ذلك أن الإنسان لا يتدخَّل فيها ، وليس للإنسان ـ صاحب الأغيار ـ معه أىُّ اختيار .

ولذلك نجد أن الفسادَ لا ينشأ فى الكون من النواميس العُلْيا ، ولكن من الأمور التى يتدخَّل فيها الإنسان ، وليس معنى ذلك أنْ يتوقفَ الإنسانُ عن الحركة فى الأرض ؛ ولكن عليه أنْ يرعى منهج الله ، ويمتنع عمَّا نهى عنه وأنْ يطيعَ ما أمره به .

وأنت لو طبَّقْتَ أوامر الحق سبحانه فى « افعل » و « لا تفعل » لاستقامتْ الدنيا فى الأمور التى لكَ دَخْل فيها كانتظام الأمور التى ليس لك دَخْل فيها .

واقرأ إنْ شئْتَ قَوْله الحق :

﴿ الرَّحْمَـٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ[1] الْبَيَانَ ﴿٤﴾

(١) البيان : النطق . قاله الحسن . وقال الضحاك وقتادة وغيرهما : يعنى الخير والشر ، قال ابن كثير فى تفسيره (٤/ ٢٧٠) : « قول الحسن ههنا أحسن وأقوى ، لأن السياق فى تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته ، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين على اختلاف مخارجها وأنواعها » .

الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ ﴾ [الرحمن]

فإن كنتم تريدون أن تنتظمَ أموركم فى الحياة الدنيا ؛ فلا تطغَوْا فى ميزان أىِّ شىء .

وهنا يُذكِّرنا الحق سبحانه ألاّ نقعَ فى خطأ الوهم بأننا سنأخذ نعَم الدنيا دون ضابط أو رابط ؛ فالحساب قادم لا محالةَ ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِى وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الزخرف]

أى : مَا قدَّره الله سيقع دون أنْ يَصُدَّه شىء مهما كان ، وإمَّا ترى ذلك فى حياتك ، أو تراه لحظة البَعْث .

والدليل هو ما حاق بمَنْ كفروا وظلموا وكذَّبوا الرسل ، وعاثوا فى الأرض مُفْسدين . وأهلكهم الحق سبحانه بعذابه تطهيراً للأرض منْ فسادهم ، هذا جزاؤهم فى الدنيا ، وهناك جزاء آخر فى اليوم الآخر .

وفى هذا القول تَسْلية لرسول الله ﷺ ، فهو حين يُعْلمه الله ما حاقَ بالأمم السابقة التى كذَّبت الرسل ؛ هانتْ عليه المتاعب والمشاقّ التى عاناها من قومه ، وليسهُلَ عليه من بعد ذلك أن يتذرَّع[1] بالصبر الجميل ، حتى يأتى وَعْدُه سبحانه ، وليس عليك يا محمد أنْ تُحمّل نفسك ما لاَ تطيق .

---

(١) الذريعة : الوسيلة والسبب إلى الشىء . وقد تذرع فلان بذريعة أى : توسل . [لسان العرب ـ مادة : ذرع] .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ ﴾

وقد جاء سبحانه هنا بالاسم الذى خلق به من عَدَم ، وأمدَّ من عُدْم . وقيُّومية الربوبية هى التى تمدُّ كل الكون برزقه وترعاه ؛ فسبحانه هو الذى استدعى الإنسان إلى الكون ، وهو الذى يرعاه .

وكلمة : ﴿ رَبَّكَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر]

تُوحِى بأنه إنْ أصابك شىءٌ بسبب دعوتك ، وبسبب كنود[1] قومك أمامك وعدائهم لك ، فربُّكَ يا محمد لن يتركهم .

والربُّ ـ كما نعلم ـ هو مَنْ يتولَّى تربية الشىء إلى ما يعطيه مناط الكمال ، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط ، ولكنه ينطبق على الدنيا والآخرة .

وقوله : ﴿ الْخَلَّاقُ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الحجر]

مبالغة فى الخَلْق ، وهى امتداد صفة الخَلْق فى كل ما يمكن أنْ يخلق ، لأنه سبحانه هو الذى أعدَّ كل مادة يكون منها أىّ خَلْق ، وأعدّ العقل الذى يُفكِّر فى أىِّ خلق ، وأعدَّ الطاقة التى تفعل ، وأعدَّ التفاعل بين الطاقة والمادة والعقل المُخطِّط لذلك .

وما يفعله الإنسان المخلوق هو التوليف بين ما خلقه الله من

---

(١) الكنود : الجحود . كند النعمة : جحدها ولم يشكرها . قال تعالى : ﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ ﴾ [العاديات] أى : كفور شديد الجحود . [القاموس القويم ٢/١٧٥] .

مواد ، وإنْ وُجـد خلاق من البشـر ؛ فهو وحـده سبـحانه الذى يهب إنساناً ما أفكاراً لينفذها ، ثم يأتى مَنْ هو أذكى منه لِيُطوّرها .

ولذلك قال الحق سبحانه :

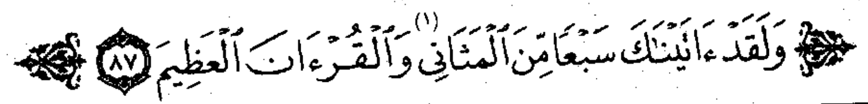
﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦) ﴾ [يوسف]

وهكذا رأينا كل المخترعـات البشرية تتطوّر ؛ والمثَل على ذلك هو آلة الحيـاكة التى صـارت تعمل الآن آليـاً بعد أن كانت المـرأة تجلس عليهـا لِتكِدَّ فى ضَبْطهـا ، وكذلك غسّـالة الملابس ، وغسـالة الأطباق والسيارات والطائرات .

ونلحظ أن كل ما خلقه الله يمكن أن يُستـفاد من عادمه مثل رَوَث البهائم ؛ الذى يُسـتخدم كسمـاد ، أما عادم السيارات مثـلاً فهو يُلوّث الجو . وشاشة التلفزيون تُصدِر من الإشـعاعات مَا يضر العين ، وتَمَّ بحْثُ ذلك لتـلافى الآثار الجـانبيـة فى مـثل تلك الأدوات التى يسـهل الإنسـان بها حياته .

أما ما يخلقه الله فلا توجد له آثار جانبية ؛ فسبحانه ليس صاحب عِلْم مُكْتسب أو ممنوح ؛ بل العلم صفة ذاتية فيه .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :



﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى[1] وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ (٨٧) ﴾

(١) المثانى من القرآن : مـا ثُنّى مرة بعد مرة . قال أبو عبيد : سُمى الـقرآن مثانى لأن الأنباء والقصص ثنيت فيـه ، ويسمى جميع القرآن مـثانى أيضاً لاقتران آية الرحـمة بآية العذاب . [لسان العرب ـ مادة : ثنى] .

وهنا يمتنُّ الحق سبحانه على رسوله ﷺ بأنه يكفيه أنْ أنزلَ عليه القرآن الكتاب المعجزة ، والمنهج الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلْفه . فالقرآن يضمُّ كمالات الحق التى لا تنتهى ؛ فإذا كان سبحانه قد أعطاك ذلك ، فهو أيضاً يتحمَّل عنك كُلَّ ما يُؤلمك .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ ولَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ[1] ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر]

ويقول له الحق أيضاً :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ .. ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

وأزاح الحق سبحانه عنه هموم اتهامهم له بأنه ساحر أو مجنون ؛ وقال له سبحانه :

﴿ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

ويكشف له سبحانه : إنهم يؤمنون أنك يا محمد صادق ، ولكنهم يتظاهرون بتكذيبك .

ويتمثَّل امتنانُ الحق سبحانه على رسوله أنه أنزل عليه السَّبْع المثانى ، واتفق العلماء على أن كلمة « المثانى » تعنى فاتحة الكتاب ، فلا يُثنَّى فى الصلاة إلا فاتحة الكتاب .

---

(١) أى : بما تسمعه من تكذيبك وردّ قولك ، وتناله وينال أصحابك من أعدائك . [تفسير القرطبى ٣٧٨٦/٥] .

ونجده سبحانه يَصف القرآنَ بالعظيم ؛ وهو سبحانه يحكم بعظمة القرآن على ضَوْء مقاييسه المُطْلقة ؛ وهى مقاييس العظمة عنده سبحانه .

والمثَل الآخر على ذلك وَصْفه سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ④ ﴾ [القلم]

وهذا حُكْم بالمقاييس العُلْيا للعظمة ، وهكذا يصبح كُلّ متاع الدنيا أقلَّ مِمّا وهبه الحق سبحانه لرسوله ﷺ ، فلا ينظرَنَّ أحدٌ إلى ما أُعطِى غيره ؛ فقد وهبه سبحانه لرسوله ﷺ .

ونلحظ أن الحق سبحانه قد عطف القرآن على السَّبْع المثانى ، وهو عَطْف عام على خَاصٍّ ؛ كما قال الحق سبحانه :

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاةِ الْوُسْطَىٰ[1] .. ②③⑧ ﴾ [البقرة]

ونفهم من هذا القول أن الصلاة تضمُّ الصلاة الوُسْطى أيضاً ، وكذلك مثل قول الحق ما جاء على لسان رسوله ﷺ :

﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ .. ②⑧ ﴾ [نوح]

---

(١) اختلف العلماء فى تحديد الصلاة الوسطى على ثلاثة أقوال :
القول الأول : الصبح ، حكاه مالك فى الموطأ بلاغاً عن على وابن عباس .
القول الثانى : الظهر ، قاله زيد بن ثابت وابن عمر وعائشة .
القول الثالث : العصر ، قال الترمذى والبغوى : هو قول أكثر علماء الصحابة . [انظر تفسير ابن كثير ١/ ٢٩٠ - ٢٩٢] قال الشيخ سيد سابق فى فقه السنة (١/ ٧٧) : « قد جاءت الأحاديث الصحيحة مصرحة بأن صلاة العصر هى الصلاة الوسطى » . وقيل : إن كل صلاة من الصلوات الخمس تعتبر وسطى ، وذلك لدوام المحافظة على الصلوات الخمس ، وفى الكل خير .

وهكذا نرى عَطْف عام على خاص ، وعَطْف خاص على عام .

أو : أنْ نقولَ : إن كلمة « قرآن » تُطلَق على الكتاب الكريم المُنزَّل على رسول الله ﷺ من أول آية فى القرآن إلى آخر آية فيهُ ، ويُطلق أيضاً على الآية الواحدة من القرآن ؛ فقول الحق سبحانه :

﴿ مُدْهَامَّتَانِ[1] (٦٤) ﴾ [الرحمن]

هى آية من القرآن ؛ وتُسمَّى أيضاً قرآناً .

ونجده سبحانه يقول :

﴿ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا[2] (٧٨) ﴾ [الإسراء]

ونحن فى الفجر لا نقرأ كل القرآن ، بل بعضاً منه ، ولكن ما نقرؤه يُسمَّى قرآناً ، وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا[3] مَّسْتُورًا (٤٥) ﴾ [الإسراء]

وهو لا يقرأ كُلّ القرآن بل بعضه ، إذن : فكلُّ آية من القرآن قرآن .

---

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة الخضرة وكثرة الظلال ، وهذا كناية عن النعيم التام . والدُّهْمة : السواد . [القاموس القويم ١/٢٣٥] .

(٢) أخرج أحمد فى مسنده (٢/٤٧٤) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ فى قوله : ﴿ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) ﴾ [الإسراء] قال : « تشهده ملائكة الليل وملائكة النهار » .

(٣) الحجاب المستور : طبع الله على قلوبهم حتى لا يفقهوه ولا يدركوا ما فيه من الحكمة . وقيل : نزلت فى قوم كانوا يؤذون رسول الله ﷺ إذا قرأ القرآن ، وهم أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث وأم جميل امرأة أبى لهب وحويطب ، فحجب الله سبحانه رسوله ﷺ عن أبصارهم عند قراءة القرآن . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٩٨] .

وقد أعطى الحق سبحانه رسوله ﷺ السَّبْع المثانى والقرآن العظيم ، وتلك هى قمَّة العطايا ؛ فلله عطاءاتٌ متعددة ؛ عطاءات تشمل الكافر والمؤمن ، وتشمل الطائع والعاصى ، وعطاءات خاصة بمَنْ آمن به ؛ وتلك عطاءات الألوهية لمَنْ سمع كلام ربِّه فى « افعل » و « لا تفعل » .

وسبحانه يمتد عطاؤه من الخَلْق إلى شَرْبة الماء ، إلى وجبة الطعام ، وإلى الملابس ، وإلى المَسْكن ، وكل عطاء له عُمْر ، ويسمو العطاء عند الإنسان بسُمو عمر العطاء ، فكل عطاء يمتدُّ عمره يكون هو العطاء السعيد .

فإذا كان عطاء الربوبية يتعلَّق بمُعْطيات المادة وقوام الحياة ؛ فإن عطاءات القرآن تشمل الدنيا والآخرة ؛ وإذا كان ما يُنغِّص أىَّ عطاء فى الدنيا أن الإنسانَ يُفارقه بالموت ، أو أن يذوى هذا العطاء فى ذاته ؛ فعطاء القرآن لا ينفد فى الدنيا والآخرة .

ونعلم أن الآخرة لا نهايةَ لها على عكس الدنيا التى لا يطول عمرك فيها بعمرها ، بل بالأجل المُحدَّد لك فيها .

وإذا كانت عطاءاتُ القرآن تحرس القيم التى تهبُك عطاءات الحياة التى لا تفنَى وهى الحياة الآخرة ؛ فهذا هو أسْمى عطاء ، وإياك أن تتطلعَ إلى نعمة موقوتة عند أحد منهم من نعَم الدنيا الفانية ؛ لأن مَنْ أُعطِى القرآن وظنَّ أن غيره قد أُعْطِى خيراً منه ؛ فقد حقر ما عَظَّم الله .

وما دام الحق سبحانه قد أعطاك هذا العطاء العظيم ، فيترتب عليه قوله :

﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ[1] لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾

والمَدُّ : هو مَطُّ الشيء وزيادته . وللعيْن مسافات تُرَى فيها المرائى ؛ كُل عَيْن حَسْب قدرتها ، فهناك مَنْ يتمتع ببصر قوى وحادّ ، وهناك مَنْ ليس كذلك .

ويتراوح الناس فى قدرة إبصارهم حسب توصيف وضعه الأطباء ؛ ليعالجوا ذلك على قَدْر استطاعتهم العلمية . وفى المثَل اليومى نسمع مَنْ يقول « فلان عنده بُعْد نظر » أى : يملك قدرة على أن يقيسَ رُدود الأفعال ، ويتوقّع ما سوف يحدث ، وما يترتَّب على نتائج أىِّ فعل .

والمراد بمَدِّ العين ليس إخراج حبة العين ومدّها ؛ ولكن المراد إدامة النظر والإمعان ، ولكن الحق سبحانه عبّر فى القرآن هذا التعبير ، وكأن الإنسان سيخرج حبَّة عينه ليجرى بها ، وليُمعِن النظر ، وهذا ما يفهم من منطوق الآية ، والمنطوق يشير إلى المفهوم المراد ، وهذا عين الإعجاز .

وكلمة « متاع » تفيد أن شيئاً يُتمتَّع به وينتهى ، ولذلك يُوصَف متاع الدنيا فى القرآن بأنه متَاعُ الغرور ، أى : أنه متاع موقوت بلحظة .

---

(١) خفضه : هبط به . قال تعالى : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الحجر] كناية عن الرحمة والتواضع لهم ولين الجانب معهم [القاموس القويم ١/١٩٩] .

وقول الحق سبحانه :

﴿ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

هى جَمْع زَوْج ، وسبق أنْ أوضحنا أن كلمة « زوج » هى مفرد ، والذكَر والأنثى حين يتلاقيان يصبح اسمهما زوجين ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ سُبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا .. (٣٦) ﴾ [يس]

والأزواج كلُّها تعنى الفرد ، ومعه الفرد من كل صنف من الأصناف . والمراد بكلمة أزواج هنا أن المخالفين لرسول الله ﷺ كانوا شِلَلاً شِللاً ؛ ضال ومضل ؛ وضال آخر معه مُضِل .

ولحظة الحساب سيقول كل منهم :

﴿ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ[1] (٥١) ﴾ [الصافات]

وهكذا كانت كلمة « أزواج » تدل على أصناف متعددة من الذين يقفون معاندين لرسول الله ﷺ ومُنكِرين لمنهجه .

وفى موقع آخر من القرآن يكشف سبحانه عَمَّنْ أغوتْهم الشياطين ، ويحشرهم الحق سبحانه مع الشياطين فى نار جهنم :

﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم[2] مِّنَ الإِنسِ .. (١٢٨) ﴾ [الأنعام]

---

(١) قارن الشىءُ الشىءَ : اقترن به وصاحبه . والقرين : المصاحب . والقرين يكون فى الخير والشر . [لسان العرب ـ مادة : قرن] .

(٢) استكثرتم : أغويتم كثيرين منهم وسيطرتم عليهم . [القاموس القويم ٢/١٥٥] .

أى : يا معشرَ الجنِّ قد استطعتُم أنْ تُوحوا لكثير من الإنس بالغواية والمعصية ، ليكونوا أولياءكم ، وهكذا نجد أن كل جماعة تتفق على شيء نُسمِّيهم أزواجاً .

وهنا يُوضّح الحق سبحانه : إياك أنْ تَمُدَّ عينيك إلى ما متَّعنا به أزواجاً منهم ، لأننا أعطيناك أعلى عطاءٍ ، وهو معجزة القرآن حارس القيم ، والذى يضمُّ النَّهْج القويم .

ويتابع سبحانه :

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. (٨٨) ﴾ [الحجر]

ويُقال : حزنت منه ، وحَزِنت عليه ، وحَزِنت له ؛ فمَنْ ناله ما يُحزن ، ولم يَصْدُر عنك هذا السبب فى حزنه ؛ فأنت تقول له « حَزِنت لك » .

وآخر ارتكب فعْلاً يُسيء إلى نفسه ؛ فأنت تحزن عليه . ورسول الله ﷺ حَزِن عليهم ؛ فقد كان يُحِبّ أنْ يؤمنوا ، وأنْ يتمتعوا بالنعمة التى يتمتع هو بها .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن رسوله ﷺ :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ[1] حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨) ﴾ [التوبة]

فمنْ رأفته ﷺ صَعُبَ على نفسه أنْ ينَال قومه مشقةٌ ؛ فالرحمة

---

(١) العنت : دخول المشقة على الإنسان ولقاء الشدة . قال ابن الأثير : العنت : المشقة والفساد والهلاك والإثم والغلط والخطأ . [لسان العرب ـ مادة : عنت] .

والرأفة مصدرها ما وهبه الله إياه من فَهْم لقيمة نعمة الإيمان .

وفى آية أخرى يقول سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ⑥ ﴾ [الكهف]

أى : أنه لن ينقصَ منك شىء فى حالة عدم إيمانهم ، ولن يزيدك إيمانهم أجراً ؛ ذلك أن عليك البلاغَ فقط ؛ فلماذا تحزن على عدم إيمانهم ؟

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ .. ⑧⑧ ﴾ [الحجر]

دليل على أن رسول الله ﷺ كان حريصاً على أنْ يُؤمن قومه ، محبةً فيهم ، وليتعرَّفوا على حلاوة الإيمان بالله . وكان ﷺ يتألم ، ويحز فى نفسه عدم إيمانهم ، لدرجة أن الحق سبحانه قال له فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ③ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً[2] فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ④ ﴾ [الشعراء]

وهنا يُوضّح الحق سبحانه لرسوله ﷺ أن إيمانهم ليس أمراً

---

(١) بخع نفسه : قتلها غيظاً أو غماً . باخع : أى مهلك نفسك بحزنك عليهم . أى : لا تأسف عليهم بل أبلغهم رسالة الله فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عليها . [تفسير ابن كثير ٣/ ٧٢] .

(٢) الآية : العلامة الواضحة والمعجزة لأنها علامة على صدق الرسول . [القاموس القويم ١/ ٤٧] .

صعباً عليه سبحانه ؛ ذلك أنه قادر أنْ ينزّل آية من السماء تجعلهم خاضعين ؛ مؤمنين ؛ لكنه سبحانه يحب أن يأتيه خَلْقُه محبةً ، وأنْ يُحسنوا استخدام ما وهبهم من خاصية الاختيار .

فسبحانه لا يقهر أحداً على الإيمان به ؛ فالإيمان عَمَل قلوبٍ ، وسبحانه لا يريد قوالب ، وإنما يريد قلوباً خاشعة ، ولو شاء سبحانه من خَلْقه أنْ يأتوه طواعية ؛ فالقهر من القاهر يُثبِت له القدرة ، ولكن أنْ يأتىَ الخَلْق إلى خالقهم طواعية ؛ فهذا يُثبت له المحبوبية .

والحق سبحانه يريد أن يكون الإيمان نابعاً من محبوبية العابد للمعبود ؛ ولذلك يقول الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ..(٨٨) ﴾ [الحجر]

ثم يُوجِّه له الأمر بأنْ يُوجِّه طاقة الحنان والمودّة التى فى قلبه إلى مَنْ يستحقها ، وهم المؤمنون برسالته ﷺ ؛ وعليه أنْ يخفضَ جناحه للمؤمنين .

فكُلُّ حركة من الإنسان هى نزوع يتحرّك من بعد وُجْدان ، والوُجْدان يُولِّد طاقة داخلية تُهيىء للنزوع وتدفع إليه ، فإن حزن الرسول ﷺ لعدم إيمان صناديد قريش برسالته ؛ فهذا الحُزْن إنما يخصم ويأخذ من طاقته ؛ فيأتيه الأمر من الحق سبحانه أن يُوفّر طاقته ، وأنْ يُوجِّهها لمَنْ آمن به ؛ وأن يخفضَ جناحه لهم .

وخَفْض الجناح هو التواضُع ؛ ذلك أن الجناحَ هو الجانب ، فحين

يأتيك إنسانٌ تريد أنْ تتكبَّر عليه ؛ فهو يقول « فلان لَوَى عنِّى جانبه » .

وهكذا يأمر الحق سبحانه رسوله أن يتواضع مع المؤمنين ؛ وأنْ يتوجه إليهم لا باستقامة قالبه ، بل أن ينزل هذا القالب قليلاً .

وكلمة : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ ..(٨٨) ﴾ [الحجر]

مأخوذة من خَفْض جناح الطائر ، فالطائر يرفع جناحه عند الطيران ، ولكن ما أنْ يلمسَ هذا الطائر فَرْخَه الصغير حتى يَخفِض جناحه له ليضمه إليه .

إذن : فالطاقة التى كنتَ تُوجِّهها يا رسول الله إلى مَنْ لا يستحق ؛ عليك أنْ تُوجِّهها لِمَنْ يستحقها ، فيكفيك أن تُبلِّغ الناس جميعاً برسالتك ؛ ومَنْ يؤمن منهم هو مَنْ يستحق طاقةَ حنانك ورحمتك .

وخَفْض الجناح لِمَنْ آمن برسالتك لا يورثه كِبْراً عليك ؛ بل يزيده أدباً معك .

وقد جاء فى الأثر : « إذا عَزَّ أخوك فَهُنْه » أى : أنك إذا رأيتَ أخاك فى وضع يعِزّ عليك ، فَهُنْ له أنت .

ومن قبل الإسلام قال الشاعر العربى[1] :

---

(١) هو : الفند الزمانى ، واسمه شَهْل بن شيبان . شاعر جاهلى ، من أهل اليمامة ، سُمى الفند لعظم خلقته ، تشبيهاً بفند الجبل ، وهو القطعة منه . توفى نحو ٧٠ قبل الهجرة . [الأعلام للزركلى ٣/١٧٩] .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْلٍ ... وقُلْنـا القَـوْمُ إخْـوانُ
عَسَى الأيـامُ أنْ يَرْجِعْـ ... ـنَ قَـوْماً كَالذى كَانُـوا
فَلمّا صَرَّح الشَّـر ... فَـأمسَى وَهْـوَ عُـرْيَانُ
مَشيْنَا مِشْيَةَ الليْث ... غَـدا والليْـثُ غَـضْبـان
بضَرْب فيـه تَوْهِـينٌ ... وتَخْضِيعٌ[1] وإقـرانُ
وطَعْـنٍ كَفَمِ الـزِّقِّ ... غَـدَا والـزِّقّ[2] مَـلآنُ
وفِى الـشَّر نجاة حِيـ ... ـنَ لاَ يُنجيك إحسَانُ
وبعضُ الحلمِ عنْدَ الجهـ ... ـل لِلْـذلة إذْعَـانُ[3]

ونجد القرآن حـينما يطبع خلق المؤمن بالله وبالمنهـج ؛ لا يطبعه بطابع واحد يتعامل به مع كل الناس ، بل يجـعل طَبْعه الخُلقى مطابقاً لموقف الناس منه ، فيقول :

﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ..(٥٤)﴾ [المائدة]

ويقول أيضاً فى وصف المؤمنين :

﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ..(٢٩)﴾ [الفتح]

وهكذا لم يطبـع المـؤمن على الشـدة والعـزة ، بل جعله يتـفاعل مع المـواقف ؛ فالمـوقف الذى يحتـاج إلى الشدة فـهو يشـتد فـيه ؛

---

(١) التخضيع : تقطيع اللحم . والإقران : قوة الرجل على الرجل .
(٢) الزق : السـقاء ، وهو كل وعـاء اتخذ لشـراب ونحوه . وتزقـيقه سلـخه من قبـل رأسه . [لسان العرب ـ مادة : زقق] . والسلخ : الكشط .
(٣) أورد الأبيات أبو على القالى فى أماليه (١/٣٠٩ ، ٣١٠) .

والموقف الذى يحتاج إلى لِينٍ فهو يلين فيه[١] .

والحكمة الشاعرة تقول :

وَوَضْعُ النَّدى فى مَوْضِع السَّيف بالعلى مضر
كَوضْعِ السَّيْفِ فى مَوْضِعِ النَّدَى

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ ﴾

ونعلم أن الرسل مُبشِّرين ومُنذرين ؛ ولسائل أنْ يقولَ : ولماذا تأتى صيغة الإنذار دائماً ؟ وأقول : إن مَنْ يؤمن هو مَنْ يتلقَّى البشارة ؛ أما مَنْ عليه أنْ يتوقَّع النِّذارة فهو الكافر المُنكِر .

وفى الإنذار تخويفٌ بشىء ينالُ منك فى المستقبل ؛ وعليك أنْ تَعُد العُدَّة لتبتعد بنفسك أن تكون فيه ، والتبشير يكون بأمر تتمناه النَّفْس . وبالإنذار والتبشير يتضح الموقف بجلاء ، ويُحاط الإنسان بكل قضايا الحياة ؛ ويتضح مسَار كُل أمرٍ من الأُمورِ .

بذلك يكون الحق سبحانه فى الآيتين السابقتين قد امتنَّ على رسوله ﷺ بأنه قد آتاه السبع المثانى والقرآن العظيم ؛ ولذلك يوصيه ألاَّ تطمح نفسه إلى ما أوتى بعضٌ من الكفار من جاه ومال ، فالقرآن عزٌّ الدنيا والآخرة .

ويوصيه كذلك بألا يحزنَ عليهم نتيجة انصرافهم عن دعوته ، فليس عليه إلا البلاغ ، وأن يتواضعَ ﷺ للمؤمنين ليزداد ارتباطهم به ،

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٧٠) : « هذه صفات المؤمنين الكمل أن يكون أحدهم متواضعاً لأخيه ووليه ، مُتعزّزاً على خَصْمه وعدوه » .

فهم خير من كل الكافرين برسالته ﷺ .

ثم يُوصيه الحق سبحانه أن يُبلغ الجميع أنه نذير وبشير ، يوضح ما جاء في القرآن من خير يعُمّ على المؤمنين ، وعقاب ينزل على الكافرين .

وقد قال ﷺ : « إنما مثَلى ومثَل ما بعثنى اللهُ به كمثَلِ رجلٍ أتى قوماً فقال : يا قوم ، إنى رأيتُ الجيشَ بعينىَّ ، وإنى أنا النذير العُرْيان[1] ، فالنجاء النجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدْلجوا[2] فانطلقوا على مهلهم فنجَوْا ، وكذَّبت طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم فصبَّحهم الجيش ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثَل مَنْ أطاعنى فاتَّبع ما جئْتُ به ، ومثَل مَنْ عصانى وكذَّب بما جئتُ به من الحقِّ »[3] .

ويقول سبحانه من بعْد ذلك :

﴿ كَمَآ أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

ونعلم أنه سبحانه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ ، واستقبله الناس استقبالَيْن : فمنهم مَن استمع إلى القرآن فتبصَّر قول الحق وآمن ، وفي هؤلاء قال الحق سبحانه :

---

(١) خص العريان لأنه أبين للعين وأغرب وأشنع عند المبصر ، وذلك أن ربيئة القوم وعينهم يكون على مكان عالٍ ، فإذا رأى العدو وقد أقبل نزع ثوبه وألاح به لينذر قومه ويبقى عُرياناً . [لسان العرب ـ مادة : عرا] .

(٢) أدلجوا : ساروا من آخر الليل . والدُّلْجة : سير الليل . [لسان العرب ـ مادة : دلج] .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٤٨٢ ، ٧٢٨٣) ، ومسلم في صحيحه (٢٢٨٣) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه .

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) ﴾ [المائدة]

والصنف الآخر استمع إلى القرآن ، فكانت قلوبهم كالحجارة ، وفيهم قال الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا[1] أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (١٦) ﴾ [محمد]

ذلك أن قلوبهم مُمْتلئة بالكفر ؛ وقد دخلوا ومعهم حكم مُسْبق ، فلم يقيموا ميزانَ العدل ليقيسوا به فائدة ما يسمعون .

ولذلك أوضح الحق سبحانه لرسوله ﷺ ألاّ يحزن ، فالمسألة لها سوابق مع غيرك من الرسل ؛ فقد نزل كل رسول بكتاب يحمل المنهج ، ولكن الناس استقبلوا تلك الكتب كاستقبال قومك لمَا نزل إليك بين كافر ومؤمن ، واختلفوا في أمور الكُتب المنزَّلة إلى رسلهم .

وكان انقسامهم كانقسام قومك حول الكتاب المُنزّل إليك ، فلا تحزنْ إنِ اتهموك بأنك ساحرٌ ، أو أن ما نزل إليك كتابٌ شعر ؛ أو أنك تمارس الكهانة ؛ أو فقدوا القدرة على الحكم عليك واتهموك بالجنون .

وهكذا قَسَّموا القرآن المُنزَّل من الله سبحانه إلى أقسام هي : السِّحْر ، والكهانة ، والشعر ، والجنون ، كما فعل من قبلهم أقوام أخرى :

---

(١) أي : سابقاً في الوقت القريب . [القاموس القويم ١/ ٣٨] .

فمنهم[1] مَنْ قال ، وأثبته القرآن عليهم :

﴿ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء]

وهكذا تعلم يا رسول الله أنك لست بِدْعاً من الرسل[2] ، ذلك أن الرسل لا يأتون أقوامهم إلا وقد طَمَّ الفساد والبلاء ، ولا يوجد فساد إلا بانتفاع واحد بالفساد بينما يضرُّ بالآخرين .

وإذا ما جاء رسول ليصلح هذا الفساد يهُبُّ أهل الاستفادة من الفساد ليقاوموه ويضعوا أمامه العراقيل ؛ مثلما حدث معك يا رسول الله حين قال بعضهم :

﴿ لا تَسْمَعُوا لِهَـٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ .. (٢٦) ﴾ [فصلت]

ومثل هذا القول إنما يدلُّ على أنهم لو صَفُّوا نفوسهم ، واستمعوا للقرآن لاهتدوا ؛ لذلك يقول لهم سادتهم :

﴿ وَالْغَوْا[3] فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) ﴾ [فصلت]

أى : شَوِّشوا[4] عليه .

---

(١) هم قوم فرعون ، والقول لفرعون عندما واجهه موسى عليه السلام بأنه ليس إلهاً ولا رباً ، وذلك فى محاورة ذكرها القرآن فى قوله : ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلا تَسْتَمِعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِى أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) ﴾ [الشعراء] .

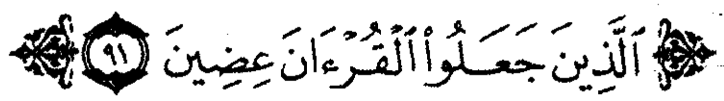
(٢) قال تعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ وَمَا أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٩) ﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

(٣) اللغو : اللغط . أى : شوشوا على قارئه باللغو من القول ، أو : اطعنوا فيه واختلقوا له العيوب لتصرفوا الناس عنه . [القاموس القويم ٢/١٩٦] .

(٤) التشويش : التخليط ، وقد تشوش عليه الأمر . قاله الجوهرى فى مادة شيش . وقال أبو منصور : لا أصل له فى العربية ، وإنه من كلام المولدين ، وأصله التهويش وهو التخليط . [لسان العرب ـ مادة : شوش] .

وهكذا فالاقتسام الذى استقبل به الكفار القرآن سبق وأنْ حدث مع الرسل الذين سبقوك[(١)] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



وكلمة (عضين) تعنى القطع ؛ فيُقال للجزار حين يذبح الشاة أو العجل أنه قد جعله عضين . أى : فصَل كُلَّ ذراع عن الآخر ، وكذلك قطع الفخذ ؛ أى : أنه جعل الذبيحة قِطَعاً قِطَعاً بعد أنْ كانت أعضاء مُتصلة .

وكذلك كان القرآن حينما نزل كياناً واحداً ؛ فأراد بعض من الكفار أن يُقطِّعوه إلى أجزاء . والمقصود هنا هم جماعة من اليهود

---

(١) اختلف فى المقتسمين على سبعة أقوال :

الأول : هم ستة عشر رجلاً بعثهم الوليد بن المغيرة أيام الموسم ، فاقتسموا الطرق المؤدية إلى مكة يقولون لمن سلكها : لا تغتروا بهذا الخارج فينا يدعى النبوة ، فإنه مجنون . قاله مقاتل والفراء .

الثانى : قوم من كفار قريش اقتسموا كتاب الله ، فجعلوا بعضه شعراً ، وبعضه سحراً ، وبعضه كهانة ، وبعضه أساطير الأولين . قاله قتادة .

الثالث : هم أهل الكتاب آمنوا ببعضه وكفروا ببعضه . قاله ابن عباس .

الرابع : أهل الكتاب ـ أيضاً ـ سموا مقتسمين لأنهم كانوا مستهزئين ، فيقول بعضهم : هذه السورة لى وهذه السورة لك . قاله عكرمة .

الخامس : أهل الكتاب ـ أيضاً ـ قسموا كتابهم ففرقوه وبددوه وحرفوه . قاله قتادة .

السادس : المراد قوم صالح ، تقاسموا على قتله فسموا مقتسمين . قاله زيد بن أسلم .

السابع : هم قوم اقتسموا أيماناً تحالفوا عليه . قاله الأخفش .

[ذكر هذه الأقوال القرطبى فى التفسير ٥/٣٧٨٢] .

وجماعة من النصارى الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وأرادوا أنْ يُقطِّعوا القرآن كما فعلوا مع الكتابين اللذين نـزلا على موسى ، وهما التوراة ؛ والإنجيل الذى جاء به عيسى .

وقد قال الحق سبحانه فيهما :

﴿ وَنَسُوا حَظًّا[1] مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ..(١٣) ﴾ [المائدة]

أى : أن بعضاً من اليهود قد نَسُوا بعضاً من التوراة ، وكذلك نسى البعض من أتباع عيسى بعضاً من الإنجيل الذى نزل عليه .

وإنْ وجدنا لهم العذر فى النسيان ؛ فماذا عن الذى كتموه من تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى بدَّلوه وحرَّفوه من كلمات تلك الكتب ؟ وماذا عن الذى أضافوه عليه ، ولم ينزل من عند الله ؟ وقد فضح سبحانه كل ذلك فى القرآن[2] .

أو : أن اليهود استقبلوا القرآن استقبالَ مَنْ يُصدّق بعضه مِمّا

---

(١) الحظ : النصيب ، والمقدار المخصص من الخير . [القاموس القويم ١/١٦١] .

(٢) تعامل أهل الكتاب مع القرآن بطرق مختلفة :

١ - الكتمان : يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) ﴾ [البقرة] .

٢ - التبديل والتحريف : يقول تعالى : ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ (٥٩) ﴾[البقرة] . وقال تعالى : ﴿ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [البقرة] .

٣ - لَىّ اللسان : يقول تعالى : ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨) ﴾ [آل عمران] .

٤ - الإضافة : يقول تعالى : ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ .. (٧٩) ﴾ [البقرة] .

لا يتعبهم ، وكذَّبوه فى البعض الذى يتعبهم ، فقد كذَّبوا مثلاً أن كتابهم قد بشَّرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام .

وهكذا نرى كيف حاولوا أن يجعلوا القرآن عِضين ، أى : قطعاً مفصولة عن بعضها البعض . وقد حاولوا ذلك بعد أن تبيّن لهم أن القرآن مُؤثِّر وفاعل .

وشاء الحق سبحانه للقرآن أن يحمل النذارة والبشارة ؛ فالرسول نذير بالقرآن المبين الواضح لِمَن اقتسموا الأمر بالنسبة لمحمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ فقسْم منهم تفرَّغ للاستهزاء بمحمد ومَنْ آمنوا معه ؛ وجماعة أخرى قسَّمتْ أعضاءها ليجلسوا على أبواب مكة أثناء موسم الحج ، ويستقبلون القادمين للحج من البلاد المختلفة ليحذروهم من الاستماع لمحمد عليه الصلاة والسلام .

ومن هؤلاء مَنْ وصف الرسولَ ﷺ بالجنون ؛ ومنهم مَنْ وصف القرآن بأنه شِعْر ؛ ومنهم مَنْ وصفَ الرسول بأنه ساحر .

ثم يقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾

وهنا يُقسِم الحق سبحانه بصفة الربوبية التى تعهدتْ رسوله بالتربية والرعاية ليكون أهلاً للرسالة أنه لن يُسلِمه لأحد ، وهو سبحانه مَنْ قال :

﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِى ﴿٣٩﴾ ﴾ [طه]

أى : أن كل رسول هو مصنوع ومَحْمىّ بإرادته سبحانه ؛ وتلك

عناية الحماية للمنهجية الخاصة ، وعناية المصطفين الذين يحملونَ رسالته إلى الخَلْق ؛ فقد رزق سبحانه خَلْقه جميعاً ؛ والرسل إنما يأتون لمهمة تبليغ المنهج الذى يُدير حركة الحياة ؛ لذلك لا بد أن يُوفّر لهم الحق سبحانه عناية من نوع خاص .

وقَوْل الحق سبحانه هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر]

يُبيّن لنا أنه سيسألهم سبحانه عن أدقّ التفاصيل ؛ ومجرد توجيه السؤال إليهم فيه لَوْن من العذاب .

ويحاول البعض ممَّنْ يريدون أنْ يعثروا على تعارض فى القرآن أن يقولوا : كيف يقول الله مرة :

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَانٌّ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الرحمن]

ويقول فى أكثر من موقع بالقرآن أنه سيسأل هؤلاء المُكذِّبين ؛ فكيف يُثبت السؤالَ مرة ، وينفيه مرة أخرى ؟

ونقول لهؤلاء : أنتم تستقبلون القرآن بسطحية شديدة ، فهذا الذى تقولون إنه تعارض إنما هو مجرد ظاهر من الأمر ، وليس تعارضاً فى حقيقة الأمر .

ونحن نعلم أن السؤال - أىّ سؤال - له مُهمتان ، **المُهِمة الأولى** : أن تعلم ما تجهل . **والمهمة الثانية** : لتقرَّ بما تعلم .

والحق سبحانه حين ينفى سؤالاً فهو ينفى أن أحداً سيُخبره بما لا يعلم سبحانه ؛ وحين يثبت السؤال ؛ فهذا يعنى أنه سيسألهم سؤالَ الإقرار .

وهكذا نعلم أن القرآن إذا أثبت حدثاً مرة ونفاهُ مرة أخرى ، فاعلم أن الجهة مُنفكّة ، أى : أن جهة النفى غَيْر جهة الإثبات ، وكُلٌّ منهما لها معنًى مختلف .

وقوله هنا :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ ﴾ [الحجر]

يعنى أن الضَّال والمُضلّ ، والتابع والمتبوع سَيُسألون عَمَّا عملوا . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾

والعمل كما نعلم هو اتجاه جارحة إلى مُتعلّقها ؛ فجارحةُ العين مُتعلِّقها أنْ ترى ؛ وجارحةُ اللسان مُتعلِّقها أن تتكلم ، وجارحةُ اليد إما أنْ تُربّت ، وإما أنْ تبطشَ .

وهكذا فكُلُّ ما تصنعه ملكَاتُ الإدراك فى النفس البشرية نُسمِّيه عملاً . وسبق أن علمنا أن العمل ينقسم إلى قول وفعل .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ﴾ [البقرة]

أى : تذكَّروا أن الله سبحانه وتعالى لا يغيب عنه شىء ، وأن كل ما تعملونه يعلمه ، وأنكم ملاقونه يوم القيامة ومحتاجون إلى رحمته ومغفرته .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ فَٱصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾

---

(١) صدع بالأمر : جهر به فى قوة كأنه يشق جدار الصمت والسكون . والصدع : الشق فى الشىء الصلب أو فى غيره كالأرض مثلاً . [القاموس القويم ١/ ٣٧٠] .

أى : افرغ لمُهمتك ؛ فالصّدع تصنع شقاً فى متماسك ، كما نشق زجاجاً بالمشرط الخاص بذلك ، أو ونحن نصنع شقاً فى حائط . والرسول ﷺ قد جاء ليشقَّ الكفر ويهدم الفساد القوى المتماسك الذى يَقْوى بقوة صناديد قريش .

وقد شاع ذلك المصطلح « الصدع » فى الزجاج ؛ لأن أىَّ شقٍّ فى أىِّ شىء من الممكن أنْ يلتئمَ إلا فى الزجاج ؛ لأنه يصعب أن يجمع الإنسان الفتافيت والقطع الصغيرة التى تنتج من صدعه ، وقد جاء الإيمان ليصدع بنيان الكفر والفساد المتماسك .

وقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (٩٤) ﴾ [الحجر]

أى : أعْطِهم عرض كتفيك ، ولا تسأل عنهم ؛ فَهُم لن يُسلموا لك ، ذلك أنهم مستفيدون من الفساد الذى جئْتَ أنت لتهدمه ، ولكنهم سيأتون لك تباعاً بعد أن تتثبت دعوتُك ، وتصل قلوبهم إلى تيقُّن أن ما جئتَ به هو الحق .

والمثَل هو إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ؛ فقد قالا : « لقد استقر الأمر لمحمد ، ولم تَعُدْ معارضتنا له تفيد أحداً »[1] ، ودخلاَ الإسلام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

---

(١) أورد الكاندهلوى معنى هذا فى كتابه « حياة الصحابة » (١/ ١٤٠) فى قصة إسلام خالد بن الوليد أنه قال : « إنما نحن كأضراس وقد ظهر محمد على العرب والعجم ، فلو قدمنا على محمد واتبعناه ، فإن شرف محمد لنا شرف » .

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ ﴾

فبعد أنْ قال له :

﴿ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الحجر]

وبعد أن ثبت لكل مَنْ عاش تلك الفترة أن كل مُسْتهزىء بمحمد ﷺ قد ناله عقاب من السماء . فها هو ذا الوليد بن المغيرة الذى يتبختَّر فى ثيابه ؛ فيسير على قطعة من الحديد ، فيأنَفُ أنْ ينحنىَ ليُخلّص ثوبه الذى اشتبك بقطعة الحديد ؛ فتُجرح قدمه وتُصابَ بالغرغرينا ويقطعونها له ، ثم تنتشر الغرغرينا فى كُلِّ جسده إلى أنْ يموتَ .

وها هو الثانى الأسود بن عبد يغوث يُصاب بمرض فى عينيه ؛ ويُصاب بالعمَى ، وكذلك الحارث بن الطلاطلة ، والعاص بن وائل[1] .

وكل مُسْتهزىء برسول الله ﷺ قد ناله عقابٌ ما ، ومَنْ لم تُصبْه عاهة أو آفة صرعتْه سيوف المسلمين فى بدر ، لدرجة أن رسول الله ﷺ قد حدد المواقع التى سيلْقَى فيها كل واحد من صناديد قريش حَتْفه ؛ فقال : هنا مصرع فلان ، وهناك مصرع فلان[2] .

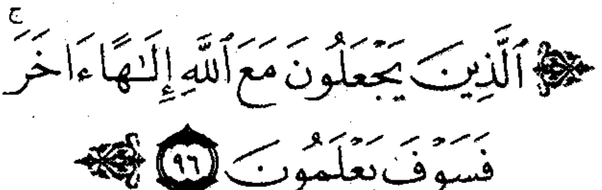
وقد أوضح ﷺ تلك المواقع من قبل أن تبدأ المعركة ، ونعلم أن الحرب تتطلب كَراً وفَراً ، ولكن ما تنبأ به رسول الله ﷺ قد حدث بالضبط .

---

(١) ذكر القرطبى فى تفسيره (٥/٢٧٨٥) بعض هذه الوقائع عن عاقبة هؤلاء المستهزئين برسول الله ﷺ .

(٢) عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : إن رسول الله ﷺ كان يرينا مصارع أهل بدر بالأمس يقول : « هذا مصرع فلان غداً إن شاء الله » قال عمر : فو الذى بعثه بالحق ما أخطأوا الحدود التى حَدَّ رسول الله ﷺ » أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٨٧٣) ، وأحمد فى مسنده (٣/٢١٩) .

ويُحدِّد الحق سبحانه نوعية هؤلاء المستهزئين بقوله :



أى : أن هؤلاء المشركين الذين يَهْزءون بك لهم عذابهم ؛ ذلك أنهم أشركوا بالله سبحانه ، وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٩٦) ﴾ [الحجر]

ففى هذا القول استيعاب لكل الأزمنة ، أى : سيعلمون الآن ومن بعد الآن ، فكلمة « سوف » تتسع لكل المراحل ، فالحق سبحانه لم يأخذهم جميعاً فى مرحلة واحدة ، بل أخذهم على فترات .

فحين يأخذ المُتطرِّف فى الإيذاء ؛ قد يرتدع مَنْ يُؤذى ، ويتراجع عن الاستمرار فى الإيذاء ، وقد يتحوّل بعضهم إلى الإيمان ؛ فمَنْ كانت شدّته على رسول الله ﷺ تصبح تلك الشدة فى جانب الرسول ﷺ .

وها هو المثَلُ واضح فى عكرمة بن أبى جهل[(١)] ؛ يُصَاب فى موقعة اليرموك ؛ فيضع رأسه على فَخذ خالد بن الوليد ويسأله : يا خالد ، أهذه ميتة تُرضى عنى رسول الله ﷺ ؟ فيرد خالد : « نعم » . فيُسلِم الروح مُطْمئناً .

---

(١) قال ابن حجر فى الإصابة (٢٥٨/٤) : « كان كأبيه من أشد الناس على رسول الله ﷺ ثم أسلم عكرمة عام الفتح وخرج إلى المدينة ثم إلى قتال أهل الردة ووجهه أبو بكر الصديق إلى جيش نعمان فظهر عليهم ثم رجع فخرج إلى الجهاد عام وفاته فاستشهد يوم اليرموك » .

وهؤلاء المستهزئون ؛ قد أشركوا بالله ؛ فلم تنفعهم الآلهة التى أشركوها مع الله شيئاً ، وحين يتأكد لهم ذلك ؛ فَهُمْ يتأكدون من صدق رسول الله ﷺ فيما أبلغ عن الحق سبحانه .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾

وفى هذا القول الكريم يتجلَّى تقدير الحق سبحانه لمشاعر النبوة ، فالحق يُكلِّفه أنْ يفعلَ كذا وكذا ، وسبحانه يعلم أيضاً ما يعانيه ﷺ فى تنفيذ أوامر الحق سبحانه .

وقد ورد هذا المعنى أيضاً فى قوله سبحانه :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنعام]

فأنت يا رسولَ الله أكرم من أنْ تكذبَ ، فقد شهدوا لك بحُسْن الصدق عبر معايشتهم لك من قبل الرسالة .

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [الحجر]

ومعنى ضيق الصدر أنْ يقلّ الهواء الداخل عَبْر عملية التنفُّس إلى الرئتين ؛ فمن هذا الهواء تستخلص الرئتان الأوكسجين ؛ وتطرد ثانى أوكسيد الكربون ؛ ويعمل الأكسجين على أنْ يُؤكسدَ الغذاء لِينتجَ الطاقة ؛ فإنْ ضاق الصَّدْر صارت الطاقة قليلة .

والمثَل يتضح لمَنْ يصعدون السُّلَّم العالى لأىّ منزل أو أىّ مكان ؛ ويجدون أنفسهم ينهجون[1] ؛ والسبب فى هذا النهَج هو أن الرئة تريد أنْ تُسرع بالتقاط كمية من الهواء أكبر من تلك التى تصل إليها ، فيعما القلب بشدة أكثر كى يُتيح للرئة أن تسحبَ كميةً أكبر من الهوا!

ما مَنْ يكون صدره واسعاً فهو يسحب ما شاء من الهواء الذى يتيح للرئة أن تأخذَ الكمية التى تحتاجها من الهواء ، فلا ينهج صاحب الصدر الواسع .

فكأن رسول الله ﷺ حين كان يُكذّبه أحد ، أو يستهزىء به أحد كان يضيق صَدْره فتضيق كمية الهواء اللازمة للحركة ؛ ولذلك يُطمئنه الحق سبحانه أن مَدَده له لا ينتهى .

وأنت تلحظ عملية ضيق الصدر فى نفسك حين يُضايقك أحد فتثور عليه ؛ فيقول لك : لماذا يضيق صدرك ؟ وَسِّع صدرك قليلاً .

والحق سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ..(١٢٥)﴾ [الأنعام]

أى : يُوسّع صدره ، وتزداد قدرته على فَهْم المعانى التى جاء بها الدين الحنيف .

ويقول أيضاً :

---

(١) نهج الرجل نهجاً فى النفس : هو تواتر النفس من شدة الحركة . [لسان العرب ـ مادة : نهج] .

﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا[١] كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ[٢] فِي السَّمَاءِ ..(١٢٥) ﴾ [الأنعام]

وهنا نجد أن الحق سبحانه يشرح عملية الصعود وكأن فيها مجاهدةً ومكابدةً ، وهذا يخالف المسألة المعروفة بأنك إذا صعدتَ إلى أعلى وجدتَ الهواء أكثرَ نقاءً .

وقد ثبت أن الإنسان كلما صعد إلى أعلى فى الفضاء فلن يجد هواء .

ويدلُّ الحق سبحانه رسوله ﷺ على علاج لمسألة ضيق الصدر حين يُحزنه أو يؤلمه مُكذِّب ، أو مُسْتهزِىء ؛ فيقول سبحانه :

﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ (٩٨) ﴾

وهكذا يمكن أن تُذْهب عنك أىَّ ضيق ، أن تسبح الله . وإذا ما جافاكَ البشْر أو ضايقك الخَلْق ؛ فاعلم أنك قادر على الأُنْس بالله عن طريق التسبيح ؛ ولن تجد أرحم منه سبحانه ، وأنت حين تُسبِّح ربك فأنت تُنزِّهه عن كُلّ شىء وتحمده ، لتعيش فى كَنَف رحمته .

ولذلك نجده سبحانه يقول فى موقع آخر :

﴿ فَلَوْلا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ﴾ [الصافات]

ولذلك إذا ضاق صدرك فى الأسباب فاذهب إلى المُسبِّب .

---

(١) الحرج : الضيق . وحرج صدره : ضاق فلم ينشرح لخير . [لسان العرب ـ مادة : حرج] .

(٢) يصعد : أى يتصعد يرتفع فى السماء . والصَّعَد : المشقة . ويقال : تصعَّده الأمر إذا شق عليه وصعب . [لسان العرب ـ مادة : صعد] .

ونحن دائماً نقرن التسبيح بالحمد ، فالتنزيه يكون عن النقائص فى الذات أو فى الصفات أو فى الأفعال ، وسبحانه كاملٌ فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فذاتُه لا تُشْبِه أىَّ ذات ، وصفاته أزلية مُطْلقة ، أما صفات الخَلْق فهى موهبة منه وحادثة .

وأفعال الحق لا حاكمَ لها إلا مشيئته سبحانه ، ولذلك نجده جَلَّ وعَلا يقول فى مسألة التسبيح :

﴿ سبْحَانَ الَّذِى خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا.. (٣٦) ﴾ [يس]

وهو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) ﴾ [الروم]

وكُلٌّ من المساء والصباح آية منه سبحانه ؛ فحين تغيب الشمس ، فهذا إذْنٌ بالراحة ، وحين تصبح الشمس فهذا إذْنٌ بالانطلاق إلى العمل ، وتسبيح المخلوق للخالق هو الأمر الذى لا يشارك اللهَ فيه أحدٌ من خَلْقه أبداً .

فكأن سَلْوى المؤمن حين تضيق به أسباب الحياة أنْ يفزعَ إلى ربه من قسوة الخَلْق ؛ ليجد الراحة النفسية ؛ لأنه يأوى إلى رُكْن شديد .

ونجد بعضاً من العارفين بالله وهم يشرحون هذه القضية ليوجدوا عند النفس الإيمانية عزاءً عن جَفْوة الخَلْق لهم ؛ فيقولون : إذا أوحشك من خَلْقه فاعلم أنه يريد أن يُؤنسك به » .

وأنت حين تُسبِّح الله فأنت تُقِرّ بأن ذاته ليستْ كذاتك ، وصفاته

ليست كصفاتك ، وأفعاله ليست كأفعالك ؛ وكل ذلك لصالحك أنت ؛ فقدرتك وقدرة غيرك من البشر هى قدرة عَجْز وأغيار ؛ أما قدرته سبحانه فهى ذاتية فيه ومُطْلقة وأزلية ، وهو الذى يأتيك بكُل النِّعم .

ولهذا فعليك أنْ تصحبَ التنزيه بالحمد ، فأنت تحمد ربك لأنه مُنزَّه عن أنْ يكونَ مثلك ، والحمد لله واجب فى كل وقت ؛ فسبحانه الذى خلق المواهب كلها لتخدُمَك ، وحين ترى صاحب موهبة وتغبطه عليها ، وتحمد الله أنه سبحانه قد وهبه تلك الموهبة ؛ فخَيْرُ تلك النعمة يصِل إليك .

وحين تُسبِّح بحمدِ الله ؛ فسبحانه لا يُخلف وَعْده لك بكل الخير ؛ فكلُّنا قد نُخلف الوعد رغماً عنَّا ، لأننا أغيار ؛ أما سبحانه فلا يُخلف وعده أبداً ؛ ولذلك تغمرك النعمة كلما سبَّحْتَ الله وحمدته .

وزِدْ خضوعاً للمُنْعِم ، فاسجُدْ امتثالاً لأمره تعالى :

﴿وَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الحجر]

فالسجود هو المَظْهر الواسع للخضوع ، ووجه الإنسان ـ كما نعلم ـ هو ما تظهر به الوجاهة ؛ وبه تَلْقَى الناس ؛ وهو أول ما تدفع عنه أىَّ شىء يُلوِّثه أو ينال من رضاك عنه .

ومَنْ يسجد بأرقى ما فيه[1] ؛ فهذا خضوع يُعطى عزّة ، ومَنْ يخضع لله شكراً له على نعمه فسبحانه يعطيه من العزة ما يكفيه كل

---

(١) عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال : « لا صلاة لمن لم يضع أنفه على الأرض » أخرجه الدارقطنى فى سننه (١/٣٤٨) والحاكم فى مستدركه (١/٢٧٠) وقال : « صحيح على شرط البخارى ولم يخرجاه » . وأخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير (١١/٣٣٣) من طريق آخر بلفظ : « من لم يلزق أنفه مع جبهته بالأرض إذا سجد لم تجز صلاته » .

أَوْجُه السجود ، وكُلُّنا نذكر قَوْل الشاعر :

وَالسُّجود الذِى تَجْتويه[1] فيهِ مِــنْ أُلـوفِ السُّجودِ نَجَاةٌ

والسجود هو قمة الخضوع للحق سبحانه . والإنسان يكره لفظ العبودية ؛ لأن تاريخ البشرية حمل كثيراً من المظالم نتيجة عبودية البشر للبشر . وهذا النوع من العبودية يعطى ـ كما نعلم ـ خَيْر العبد للسيد ؛ ولكن العبوديةَ لله تعطى خَيْره سبحانه للعباد ، وفى ذلك قِمّة التكريم للإنسان .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾

ونعرف أن العبادة هى إطاعة العابد لأوامر المعبود إيجاباً أو سَلْباً ، وتطبيق « افعل » و « لا تفعل » ، وكثيرٌ من الناس يظنون أن العبادة هى الأمور الظاهرية فى الأركان الخمسة من شهادة أن لا إله إلا الله ، وإقامة الصلاة ؛ وإيتاء الزكاة ؛ وصوم رمضان ، وحِجِّ البيت لِمَن استطاع إليه سبيلاً .

ونقول : لا ، فهذه هى الأُسس التى تقوم عليها العبادة . أى : أنها البِنْية التى تقوم عليها بقية العبادة ، وهكذا تصبح العبادة هى ، كُل ما لا يقوم الواجب إلا به فهو واجب ، أى : أن حركة الحياة كلها ـ حتى كَنْس الشوارع ، وإماطة[2] الأذى عن الطريق ـ هى عبادة ،

---

(١) يُقال : اجتويت المكان : إذا كرهت المقام فيه وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوا] .

(٢) إماطة الأذى : إبعاده وتنحيته جانباً . [المعجم الوجيز ـ مادة : ميط] .

وكل ما يُقصد به نَفْع الناس عبادة ، كى لا يصبح المسلمون عالةً على غيرهم .

وفى إقامة الأركان إظهارٌ لقوة المسلمين ، حين يُظهرون كامل الولاء لله بإقامة الصلاة خمس مرات فى اليوم الواحد ، فيترك المسلم عمله فَوْر أنْ يسمعَ النداء بـ « الله أكبر » فيخرج المسلم من صراعات الحياة ، ويعلن الولاء للخالق المنعم .

وحين يصوم المسلم شهراً فى السنة ؛ فهو يُعلن الولاء للخالق الأكرم ، ويصوم عن أشياء كثيرة كانت مُباحة ؛ وأوَّل ما يأتى موعد الإمساك من قَبْل صلاة الفجر بقليل ؛ فهو يمتنع فوراً .

وهذا الامتثال لأوامر الحق سبحانه يُذكّرك بنعمه عليك ؛ فأنت فى يومك العادى لا تقرب المُحرَّمات التى أخذتْ وقتاً أثناء بدايات الدين إلى أن امتنع عنها المسلمون ، فلا أحدَ من المسلمين يُفكّر فى شُرْب الخمر ؛ ولا أحدَ منهم يُفكِّر فى لعب المَيْسر ، وانطبعتْ تلك الأمور ؛ وصارتْ عادة سلوكية فى إلْف ورتَابة عند غالبية المسلمين ممَّنْ يُنفّذون شريعة الله ، ويُطبّقون « افعل » و « لا تفعل » .

وعندما يأتى الصوم فأنت تمتنع عن أشياء هى حلال لك طوال العام ، وتقضى أى نهار فى رمضان ونفسُك تستشرف سماع أذان المغرب لتُفطر .

وهكذا تمتثل للأمر بالامتناع والإمساك والأمر بالإفطار ، وذلك ليعُوّدك على الكثير من الطاعات التى تصير عند المؤمنين عادةً ؛ وسبحانه يريد أنْ يُديم عليك لذَّة التكليف العبادى .

وبعْضٌ من الناس يذهبون مذاهب الخطأ عندما يفسرون بأهوائهم قوله الحق :

﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾ [الحجر]

ويقول الواحد من هؤلاء مخادعاً الغير « لقد وصلت إلى مرتبة اليقين » ، ويمتنع عن أداء الفروض من صلاة وصوم وزكاة وحجٍ إلى بيت الله الحرام رغم استطاعته ، ويدَّعِي أن التكليف قد سقط عنه ؛ لأن اليقين قد وصله .

ونقول لمن يدعى ذلك : أتُخادع الله ورسوله ؟ وكُلُّنا يعلم أن رسول الله ﷺ ظَلَّ يُؤدِّى الفرائض حتى آخر يوم فى حياته . وكُلُّنا يعلم أن اليقين المُتفق عليه والمُتيقن من كل البشر ، ولا خلافَ عليه أبداً هو الموت .

أما اليقين بالغيبيات فهو من خُصوصيات المؤمن ؛ فما أنْ بلغه أمرها من القرآن فقد صدَّقها ، ولم يسأل كيف يتأتَّى أمرُها . والمثَلُ الواضح هو أبو بكر الصديق حينما كانوا يُحدِّثونه بالأمر الغريب من رسول الله ﷺ ، فكان يقول « ما دام قد قال فقد صدق » .

أما الكافر - والعياذ بالله - فهو يشكُّ فى كل شىء غيبىّ أو حتى مادىّ ما لم يكن محسوساً لديه ، ولكن ما أنْ يأتيه الموت حتى يعلمَ أنه اليقين الوحيد .

ولذلك نجد عمر بن عبد العزيز يقول : « ما رأيت يقيناً أشبه بالشكِّ من يقين الناس بالموت »[١] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٣٧٨٧/٥) وتمام الأثر : « ثم لا يستعدون له » .

وكلنا نتيقن أننا سوف نموت ؛ لكنّا نُزحزح مسألة اليقين هذه بعيداً عنّا رَغْم أنها واقعةٌ لا محالةَ . فإذا ما جاء الموت ، نقول : ها هى اللحظة التى لا ينفع فيها شىء إلا عمل الإنسان إنْ كان مؤمناً مُؤدّياً لحقوق الله .

ولذلك أقول دائماً : إن اليقين هو تصديق الأمر تصديقاً مؤكداً ، بحيث لا يطفو إلى الذهن ليُناقش من جديد ، بعد أن تكون قد علمته من مصادر تثق بصدق ما تبلغك به .

أما عَيْن اليقين ؛ فهى التى ترى الحدث فتتيقّنه ، أو هو أمر حقيقىّ يدخل إلى قلبك فتُصدقه ، وهكذا يكون لليقين مراحل : أمر تُصدِّقه تصديقاً جازماً فلا يطفو إلى الذِّهْن ليُناقَش من جديد ، وله مصادر علْم ممَّنْ تثق بصدقه ، أو : إجماع من أناس لا يجتمعون على الكذبَ أبداً ؛ وهذا هو « علم اليقين » ؛ فإنْ رأيتَ الأمر بعينيك فهذا هو حق اليقين .

والمؤمن يُرتِّب تصديقه وتيقّنه على ما بلغه من رسول الله ﷺ .

وها هو الإمام علىّ ـ كَرَّم الله وجهه وأرضاه ـ يقول : « ولو أن الحجاب قد انكشف عن الأمور التى حدَّثنا بها رسول الله غيباً ما ازددتُ يقيناً » .

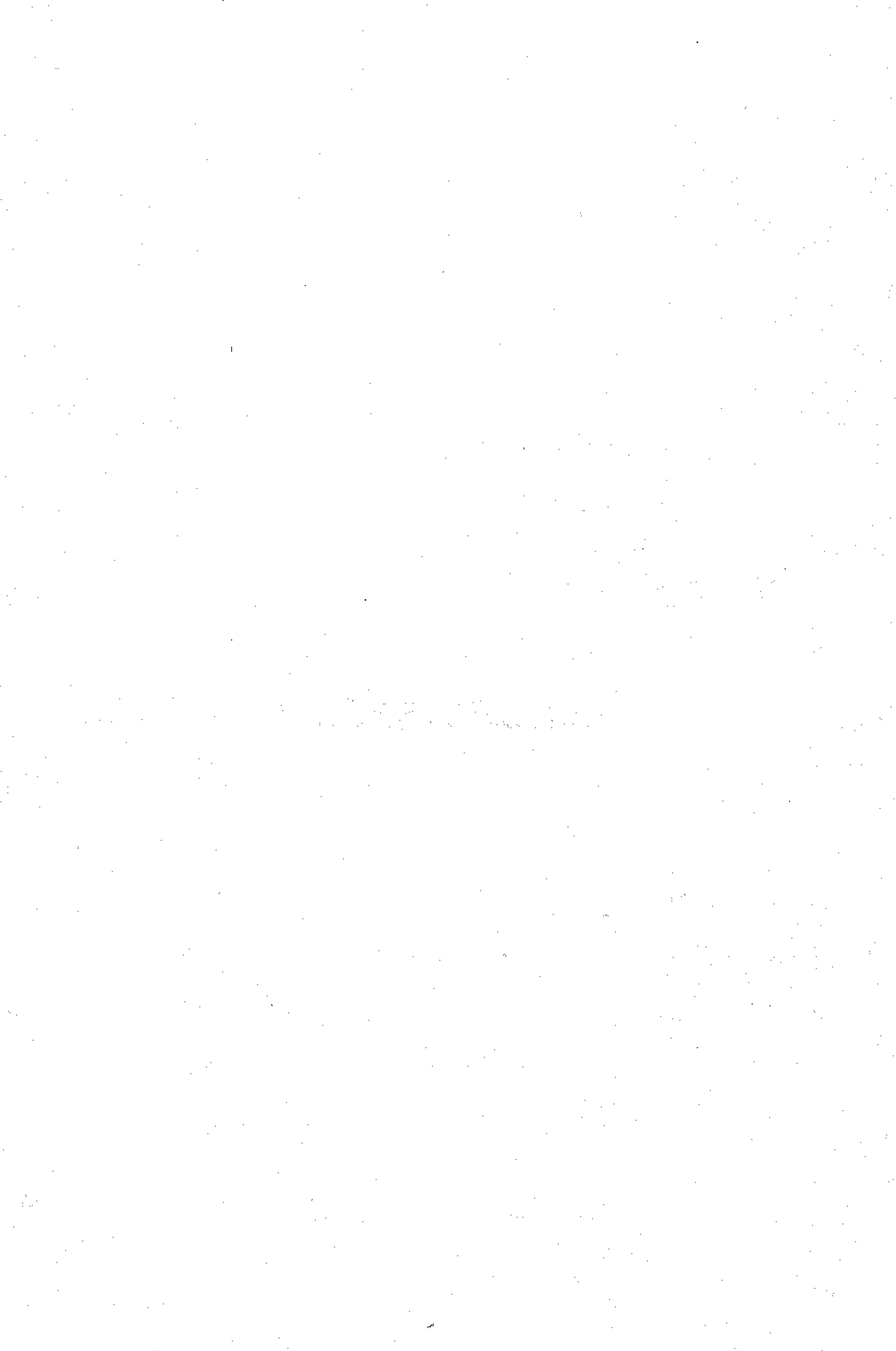
وها هو سيدنا حارثة ـ رضى الله عنه ـ يقول : « كأنِّى أنظر إلى أهل الجنة فى الجنة يُنعَّمون ، وإلى أهل النار فى النار يُعذَّبون ، فيقول له رسول الله ﷺ : « عرفت فالزم »[١] .

وذلك هو اليقين كما آمنَ به صحابة رسول الله ﷺ .

---

(١) أورده ابن حبان فى المجروحين (١/١٥٠) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، فى ترجمة أحمد بن الحسن بن أبان المصرى . قال ابن حبان : لا يجوز الاحتجاج به .


سورة النحل



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝١ ﴾

هكذا تبدأ السورة(١) الجليلة ؛ مُوضِّحةً أن قضاءَ الله وحُكْمه بنصر الرسول والمؤمنين لا شكَّ فيه ولا محَالة ؛ وأن هزيمة أهل الكفر قادمة ، ولا مَفرَّ منها إنْ هُم استمرُّوا على الكفر .

---

(١) سورة النحل هي السورة السادسة عشرة في ترتيب المصحف ، وهي سورة مكية في قول الحسن وعكرمة وعطاء وجابر . وقال ابن عباس : هي مكية إلا ثلاث آيات منها نزلت بالمدينة بعد قتل حمزة ، وهي قوله تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۝١٢٦ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾ [النحل] قال القرطبي في تفسيره (٥/٣٧٨٩) : « وتسمى سورة النعم بسبب ما عدد الله فيها من نعمه على عباده » . جاء في تفسير أبي السعود بتصرف في قوله تعالى : ﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١﴾ [النحل] قال : إنها الساعة وما يعمها وغيرها من العذاب الموعود للكفرة ، فقد عبر عن ذلك بأمر الله للتفخيم والتهويل ولابد أن يحققه في نفسه وإثباته منوط بحكمه النافذ وقضائه الغالب وإتيانه عبارة تدل عن دنوه واقترابه بدليل قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١﴾ [النحل] وفيه بلاغة . كلمة ﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ۝١﴾ [النحل] فعل ماض يدل على زمن مضى ولكن قوله : ﴿ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١﴾ [النحل] يشير إلى أن أمر الله سابق وواقع لا محالة وله وقته المحدد ، والتعبير بالماضي عن المضارع والعكس ضرب من بلاغة القول في الاستعارة التبعية في الأفعال « المنهاج الواضح في البلاغة » .

وقد سبق أنْ أنذرهم الرسول ﷺ بما نَزل عليه من آيات الكتاب ؛ أنذرهم فى السورة السابقة ببعض العذاب الدنيوى ، كنصر الإيمان على الكفر ، وأنذرهم مِنْ قَبْل أيضاً ببعض العذاب فى الآخرة ، كقوْل الحق سبحانه :

﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ[1] فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٧٧) ﴾ [غافر]

وكذلك قوله الحق :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ [القمر]

وهكذا وعد الحق سبحانه رسوله ﷺ أنْ يهزم معسكر الكفر ، وأنْ ينصرَ معسكر الإيمان ؛ وإما أنْ يرى ذلك بعينيه أو إنْ قبض الحق أجلَه فسيراها فى الآخرة .

وعن حال الرسول ﷺ قال سبحانه :

﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ (٩٥) ﴾ [الحجر]

وأنذر الحق سبحانه أهل الشرك بأنهم فى جهنم فى اليوم الآخر ، وهنا يقول سبحانه :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. (١) ﴾ [النحل]

وهذا إيضاحٌ بمرحلة من مراحل الإخبار بما يُنذرون به ، كما قال مرة :

---

(١) توفى الله فلاناً : أماته وقبض روحه . ويسند التوفى لله عز وجل ، أو يسند للملَك : ﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة] وقد يُسند التوفِّى إلى الموت نفسه . قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ .. (١٥) ﴾ [النساء] . [القاموس القويم ٢/٣٤٧] .

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ[1] الْقَمَرُ ۝١﴾ [القمر]

أي : اقتربتْ ساعة القيامة التي يكون من بعدها حسابُ الآخرة والعذاب لمَنْ كفر ، والجنة لمَنْ آمنَ وعمل صالحاً ، فاقترابُ الساعة غَيْر مُخيف في ذاته ، بل مُخيف لمَا فيه من الحساب والعقاب .

وقيل : إن أهلَ الكُفْر لحظة أنْ سَمِعوا قَوْل الحق سبحانه :

﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ۝١﴾ [القمر]

قالوا : « فلننتظر قليلاً ؛ فقد يكون ما يُبلِّغ به محمد صحيحاً » وبعد أن انتظروا بعضاً من الوقت ، ولم تَأْتِ الساعة كما بَشَّر الرسول الكريم ﷺ قالوا : انتظرنا ولم تَأْتِ الساعة ، فنزل قول الحق سبحانه :

﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ۝١﴾ [الأنبياء]

وهذا حديث عن الأمر الذي سيحدث فوْرَ قيام الساعة ، فَهَادنُوا وانتظروا قليلاً ، ثم قالوا : أيْنَ الحساب إذن ؟ فنزل قوله تعالى :

﴿أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ .. ۝١﴾ [النحل]

وساعة سَمِع الكُلُّ ذلك فَزِعوا ؛ بمن فيهم من المسلمين ؛ وجاء الإسعاف في قوله من بعد ذلك :

﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ۝١﴾ [النحل]

---

(١) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما . أخرجه البخاري في صحيحه (٣٦٢٧) وكذا مسلم في صحيحه (٢٨٠٢) كتاب المنافقين .

أى : أن الأمر الذى يُعلنه محمد ﷺ لا يعلم ميعادَه إلا اللهُ سبحانه ؛ واطمأنّ المسلمون[١] .

وكُلُّ حدث من الأحداث ـ كما نعلم ـ يحتاج كُلٌّ منها لظرفيْن ؛ ظرف زمانٍ ؛ وظرْف مكان . والأفعال التى تدلُّ على هذه الظروف إما فعْل مَاضٍ ؛ فظرْفُه كان قبل أن نتكلَم ، وفعلٌ مضارع . أى : أنه حَلَّ ، إلا إنْ كان مقروناً بـ « س » أو بـ « سوف » .

أى : أن الفعل سيقع فى مستقبل قريب إنْ كان مقروناً بـ « س » أو في المستقبل غير المحدد والبعيد إن كان مسبوقاً بـ « سوف » ، وهكذا تكون الأفعال ماضياً ، وحاضراً ، ومستقبلاً .

وكلمة (أتى) تدلُّ على أن الذى يُخبرك به ـ وهو الله سبحانه ـ إنما يُخبِرك بشىء قد حدث قبل الكلام ، وهو يُخبر به ، والبشر قد يتكلَّمون عن أشياءَ وقعتْ ؛ ويُخبِرون بها بعضَهم البَعض .

ولكن المتكلِّم هنا هو الحقُّ سبحانه ؛ وهو حين يتكلَّم بالقرآن فهو سبحانه لا ينقص علْمه أبداً ، وهو علم أزَلىٌّ ، وهو قادر على أنْ يأتىَ المستقبل وَفْق مَا قال ، وقد أعدَّ توقيت ومكان كُل شىء من قبل أنْ يخلقَ ؛ وهو سبحانه خالق من قبل أن يخلق أى شىء ؛ فالخلْق صفة ذاتية فيه ؛ وهو مُنزَّه فى كل شىء ؛ ولذلك قال :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ .. ۝١ ﴾ [النحل]

أى : أنه العليمُ بزمن وقوع كُلِّ حدَث ، وقد ثبت التسبيح له ذاتاً من قَبْل أنْ يوجد الخَلْق ؛ فهو القائل :

---

(١) أورده الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٥٩) ، والقرطبى فى تفسيره (٥/٣٧٩٠) وعزواه لابن عباس رضى الله عنهما .

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ[(١)] ⟨٢٠⟩ ﴾ [الأنبياء]

ثم خلق السماوات وخلق الأرض وغيرهما .

أى : أنه مُسبَّح به من قَبْل خَلْق السماوات والأرض ، وهو القائل سبحانه :

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ⟨١⟩ ﴾ [الحشر]

ولكن هل انتهى التسبيح ؟ لا ، بل التسبيح مُستمِرّ أبداً ، فهو القائل :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ⟨١⟩ ﴾ [الجمعة]

إذن : فقد ثبتتْ له « السُّبْحانية » فى ذاته ، ثم وجد الملائكة يُسبِّحون الليلَ والنهارَ ولا يفترُون ، ثم خلق السماء والأرض ، فسبَّح ما فيهما وما بينهما ؛ وجاء خَلْقه يُسبِّحون أيضاً ـ فيا مَنْ آمنتَ بالله إلهاً سَبِّح كما سبَّح كُلُّ الكون .

ولقائل أنْ يسألَ : وما علاقة « سبحانه وتعالى » بما يُشركون ؟ ونعلم أنهم أشركوا بالله آلهةً لا تُكلّفهم بتكليف تعبُّدى ، ولم تُنزِل منهجاً ؛ بل تُحلّل لهم كُلَّ مُحرَّم ، وتنهاهم عن بعض من الحلال ، وتخلوْا بذلك عن اتباع ما جاء به الرُّسل مُبلِّغين عن الله من تكليف يحمل مشقَّة الإيمان .

وهؤلاء هم مَنْ سيلقوْنَ الله ، وتسألهم الملائكة : أين هم الشركاء الذين عبدتموهم مع الله ؟ ولن يدفَع عنهم أحدٌ هَوْلَ ما يلاقونه من العذاب .

---

(١) لا يفترون : لا ينقطعون عن التسبيح . والفترة : الانكسار والضعف . وفتر الشىء : سكن بعد حدة ولان بعد شدة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

وهكذا تعرَّفْنا على أن تنزيه الله سبحانه وتعالى ذاتاً وصفاتاً وأفعالاً هو أمر ثابتٌ له قَبْل انْ يُوجَد شيء ، وأمرٌ قد ثبتَ له بعد الملائكة ، وثبتَ له بعد وجود السماوات والأرض . وهو أمر طلب الله من العبد المُخيَّر أن يفعله ؛ وانقسم العبادُ قسمين ، قسْم آمن وسبَّح ، وقسْم لم يُسبِّح فتعالى عنهم الحق سبحانه لأنهم مُشْركون .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ[1] مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾

وساعة نقرأ قوله ﴿ يُنزِّلُ ﴾ فالكلمة تُوحي وتُوضِّح أن هناك عُلواً يمكن أن ينزلَ منه شيء على أسفل . والمَثلُ الذى أُحبّ أنْ أضربه هنا لأوضحَ هذا الأمر هو قَوْل الحق سبحانه :

﴿ قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ .. ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام]

أى : أقبلوا لتسمعوا منِّى التكليفَ الذى نزل لكم ممَّنْ هو أعلى منكم ، ولا تظلُّوا فى حضيض الأرض وتشريعاتها ، بل تَساموا وخُذوا الأمر ممَّنْ لا هَوىَ له فى أموركم ، وهو الحق الأعلى .

أما مَنْ ينزلون فَهُم الملائكة ، ونعلم أن الملائكة خَلْق غيبىّ آمنَّا به ؛ لأن الله سبحانه قد أخبرنا بوجودهم . وكُلّ ما غاب عن الذِّهْن

(١) بالروح . أى : بالوحى وهو النبوة . وقيل : أرواح الخلق . قاله مجاهد ، لا ينزل ملك وإلا ومعه روح . وقيل : بالرحمة . قاله الحسن وقتادة وقيل : بالهداية ؛ لأنها تحيا بها القلوب كما تحيا بالأرواح والأبدان . وقال أبو عبيدة : الروح هنا جبريل . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٩١] .

ودليله السمـاع ممَّنْ تثق بصـدقه ، وقد أبلغنا ﷺ مـا نزلَ به القرآن وأنبأنا بوجـود الملائكة ، وأن الحق سـبحانه قد خـلقهم ؛ ورغم أننا لا نراهم إلا أننا نُصـدِّق مـا جـاء به الـبـلاغ عن الحق من الصـادق الصَّدُوق محمد ﷺ .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ .. (٢) ﴾ [النحل]

فنحن نـعلم أنه لا يمكـن أنْ ينزلَ شـيءٌ من أعلـى إلى الأدْنى إلا بواسطة المُقربات .

وقد اختار الحق سـبحانه ملكاً[1] من الملائكة لِيُبلِّغ رُسُله بالوحى من الله ، والملائكة كما أخبرنا الحق سبحانه :

﴿ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) ﴾ [الأنبياء]

ويقول فى آية أخرى :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

وهم من نور ، ولا تصـيبـهم الأغـيـار ، ولا شـهـوةَ لهم فـلا يتناكحـون ولا يتناسلون ؛ وهم أقربُ إلى الصَّفَـاء . وهـم مَنْ يُمكِنهم التلقِّى من الأعلى ويبلغون الأدْنى .

---

(١) المقصود هنا جبريل عليه السلام . قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء] قال ابن كثير فى تفسيره (٢/٣٤٧) : « هو جبريل عليه السلام ، قاله غير واحد من السلف ، وهذا مما لا نزاع فيه » .

ولذلك نجد الحق سبحانه يقول عن القرآن :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) ﴾ [الشعراء]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ .. (٢) ﴾ [النحل]

والآية الإجمالية التى تشرح ذلك هو قَوْلُ الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي[1] مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) ﴾ [الحج]

أى : أنه سبحانه يختار ملائكة قادرين على التلقّى منه ليُعْطوا المصطفين من الناس ؛ ليُبلّغ هؤلاء المُصْطفين عن الله لبقية الناس .

ذلك أن العُلْويات العالية لا يملك الكائن الأدْنى طاقة ليتحمّل ما تتنزّل به الأمور العُلْوية مباشرة من الحق سبحانه .

وسبق أنْ شبَّهْت ذلك بالمُحَوّل الذى نستخدمه فى الكهرباء لينقل من الطاقة العالية إلى الأدْنى من المصابيح ، وكُلّنا يعلم ما حدث للرسول ﷺ حين تلقّى الوحى عبر جبريل عليه السلام « فَضمَّنى حتى بلغ منّى الجهد » وتفصد[2] جبينه الطاهر عرقاً ، وعاد إلى بيته ليقول « زملونى زملونى » و « دثرونى دثرونى »[3] .

(١) اصطفاه : اختاره وآثره وفضّله . قال تعالى : ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) ﴾ [آل عمران] . [القاموس القويم ١/ ٣٨٠] .

(٢) تفصد عرقاً : سال عرقاً . [لسان العرب ـ مادة : فصد] .

(٣) زمله بالثوب : لفّه به فتزمل به وتلفّف به . ومنه قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) ﴾ [المزمل] نداء يذكر الرسول بقوله « زملونى » عند بدء الوحى ، ذكره الله تعالى للإيناس والملاطفة ، وفيه توجيه إلى ترك النوم وترك الراحة والقيام بواجبات الرسالة . [القاموس القويم ١/ ٢٩٠] . وحديث بدء الوحى أخرجه البخارى فى كتاب « بدء الوحى » من صحيحه « حديث رقم ٣ » من حديث عائشة رضى الله عنها .

ذلك أن طاقةً عُلْوية نزلت على طاقة بشرية ، على الرغم من أن طاقة رسول الله هى طاقة مُصْطفاة . ثم يألف الرسول الوحى وتخفّ عنه مثْل تلك الأعباء ، وينزل عليه قوله الحق :

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ[1] (٢) الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٦)﴾ [الشرح]

ثم يفتر[2] الوحى لبعض من الوقت لدرجة أن النبى ﷺ يشتاق إليه ، فلماذا اشتاق للوحى وهو مَنْ قال « دثّرونى دثّرونى » ؟

لقد كان فُتور الوحى بسبب أنْ يتعوّد محمد ﷺ على متاعب نُزول المَلَك ؛ فتزولُ متاعب الالتقاء وتبقى حلاوة ما يبلغ به .

وقال بعض من الأغبياء : « إن ربَّ محمد قد قلاه[3] » .

فينزل قوله سبحانه :

﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣) وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ (٥)﴾ [الضحى]

---

(١) الوزر : همّك الذى أتعبك ، وهو همّ البحث عن الدين الحق . أو : يكون الوزر هو الذنب الذى كنت تراه ذنباً لشدة حبك لله . [القاموس القويم ٢/٣٣٣] .

(٢) الفترة : الانكسار والضعف . فتر الشيء : سكن بعد حدّة ولان بعد شدة . والفتر : الضعف . والفترة : ما بين كل نبيين ، وفى الصحاح : ما بين كل رسولين من رسل الله عز وجل من الزمان الذى انقطعت فيه الرسالة . [لسان العرب ـ مادة : فتر] .

(٣) قلى فلاناً يقليه : أبغضه وجفاه . قال تعالى : ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ (٣)﴾ [الضحى] ما أبغضك ولا جفاك . [القاموس القويم ٢/١٣٢] . وعن جندب بن عبدالله البجلى أنه قال : أبطأ جبريل على رسول الله ﷺ فقال المشركون : ودع محمداً ربه . أورده ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٢) .

وكلمة الروح وردتْ فى القـرآن بمعَانٍ متعـددة ، فهى مرّة الروح التى بها الحياة فى المادة ليحدث بها الحسّ والحركة :

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩) ﴾ [الحجر]

وهذا النفْخ فى المادة يحدثُ للمؤمن والكافر ، وهناك رُوح أُخْرى تعطى حياةً أعلى من الحياة الموقوتة :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

إذن : فـالملائكة تنزل بالبـلاغ عن الله بمـا فيـه حيـاة أَرْقى من الحـيـاة التى نعـيش بهـا ونتـحرَّك علـى الأرض . وهكذا تكون هناك رُوحـان لا روحٌ واحدة ؛ رُوح للحسِّ والحـركة ؛ وروح تُعطى القِـيم التى تقـودنا إلى حيـاة أخرى أَرْقَى من الحـياة التى نحـياها ؛ حـياةٌ لا فناءَ فيها .

ولذلك يُسمِّى الحق سبحانه القرآن روحاً ؛ فيقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلا الإِيمَانُ .. (٥٢) ﴾ [الشورى]

ويُسمِّى الحق سبحانه المَلَك الذى نزل بالقرآن روحاً ، فيقول :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) ﴾

[الشعراء]

ويشرح الحق سبحانه أن القرآن روحٌ تعطينا حياةً أَرْقى ، فيقول :

﴿ يَـٰأَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا اسْـتَجِـيبُـوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَـاكُمْ لِمَـا يُحْيِيـكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

أى : يدخل بكم إلى الحياة الأبدية التى لا موْتَ فيها ولا خَوْف أنْ تفقد النعمة أو تذهب عنك النعمةُ .

وهنا يُبلِّغنا سبحانه أن القرآن نزل مع الملائكة :

﴿ يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ .. (٢) ﴾ [النحل]

أى : تنزيلاً صادراً بأمره سبحانه ، ويقول الحق سبحانه فى موقع آخر :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ(1) مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ..(١١) ﴾

[الرعد]

والسَّطْحيون لا يلتفتون إلى أنَّ معنى :

﴿ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

هنا تعنى أنهم يحفظُونه بأمر من الله .

والأمر هنا فى الآية ـ التى نحن بصدد خواطرنا عنها ـ هو ما جاء فى الآية الأولى منها :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. (١) ﴾ [النحل]

وهذا الأمر هو نتيجة لمَا يشاؤه الله من حياة للناس على الأرض ، ونعلم أن الحق سبحانه له أوامر مُتعدّدة يجمعها إبراز المعدوم إلى الوجود ؛ فهو سبحانه القائل :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾ [النحل]

---

(١) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعمالهم . أو : المعنى : تتعاقب الملائكة ليلاً ونهاراً . [القاموس القويم ٢/٢٩] .

فإذا شاء أمراً جزئياً فهو يقول له : كُنْ فيكون ، وإذا أراد منهجاً ؛ فهو يُنزله ، وإذا أراد حساباً وعقاباً وساعةً ؛ فهو القائل ﴿ أتَى أمْرُ اللهِ ﴾ .

وهكذا نفهم أن معنى ﴿ أمْر اللهِ ﴾ هو ﴿ كُنْ فيكون ﴾ أى : إخراج المعدوم إلى حَيِّز الوجود ؛ سواء أكان معدوماً جزئياً ، أو معدوماً كلياً ، أو معدوماً أزلياً .

وكُلّ ذلك اسمه أمر ، ولحظةَ أنْ يأمرَ الله ؛ فنحن نَثِقُ أن مأمور الله يبرز ؛ ولذلك قال سبحانه :

﴿ إذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ① وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ[1] ② ﴾ [الانشقاق]

أى : أنها لم تسمع الأمر فقط ؛ بل نفّذتْه فَوْر صدوره ؛ دون أدْنى ذرة من تخلُّف ، فأمْر الله يُنفّذ فَوْر صدوره من الحق سبحانه ، أما أمْر البشر فهو عُرْضَة لأنْ يُطَاع ، وعُرْضَة لأنْ يُعصَى .

وسبحانه يُنزِّل الملائكة بالرُّوح على مَنْ يشاء ليُنذروا ؛ ولم يَأْتِ الحق سبحانه بالبشارة هنا ؛ لأن الحديث مُوجّه للكفار في قوله :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ① ﴾ [النحل]

وينزّه ذاته قائلاً :

﴿ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ① ﴾ [النحل]

[illegible] يُنبّه رسوله ، إنْ دخلتَ عليهم فَفسِّرْ لهم مُبْهَم [illegible] لا يعرفون كيفية الاصطفاء . وهو الحق الأعلم [illegible]

---

(1) [illegible] حقاً ثابتاً عليها أن تخضع لأمر الله . [القاموس القويم [illegible]

ومشيئة الاصطفاء والاجتباء والاختيار إنما تتمّ بمواصفات الحق سبحانه ؛ فهو القائل :

﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ .. (١٢٤) ﴾ [الأنعام]

وعلِم أن الكافرين قد قالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾[الزخرف]

وقال الحق سبحانه فى ردِّه عليهم :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ .. (٣٢) ﴾ [الزخرف]

فإذا كان الحق سبحانه قد قسَّم بين الخَلْق أرزاقهم فى معيشتهم المادية ؛ وإذا كان سبحانه قد رفع بعضهم فوق بَعْض درجات ؛ وهو مَنْ يجعل المرفوعَ مخفوضاً ؛ ويجعل المخفوضَ مرفوعاً ، فكيف يأتى هؤلاء فى الأمور القيَميّة المُتعلّقة بالروح وبالمنهج ، ويحاولون التعديل على الله ؛ ويقولون « نريد فلاناً ولا نريد فلاناً » ؟

أو : أن الحق سبحانه يوضّح لرسوله : بعد أنْ شرحتَ لهؤلاء أمر الوحى ، فعليك أنْ تُبلّغهم كلمة الله :

﴿ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ (٢) ﴾ [النحل]

وما دام لا يوجد إلهٌ آخر فعلى الرسول أن يُسْدِى لهم النصيحة ؛ بأن يقصروا على أنفسهم حَيْرة البحث عن إله ، ويُوضّح لهم أنْ لا إله إلا هو ؛ وعليهم أنْ يتقوه .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١٢٦/٤) : « يعنون مكة والطائف . قاله ابن عباس رضى الله عنهما وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى وقتادة والسدى وابن زيد . (واختلفوا فى المقصود بهذين الرجلين) . والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

وفى هذا حنان من الحق على الخَلْق ، وهو الحق الذى منع الكائنات التى تعجبتْ ورفضتْ كُفْر بَعْضٍ من البشر بالله ؛ وطلبتْ أن تنتقمَ من الإنسان ، وقال لهم : « لو خلقتموهم لرحمتموهم ، دَعُونى وخَلْقى ؛ إنْ تابوا إلىَّ فأنا حبيبُهم ؛ وإنْ لم يتوبوا فأنا طبيبهم » .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل]

هو جماعُ عقائد السماء للأرض ؛ وجماعُ التعبُّدات التى طلبها الله من خَلْقه لِيُنظِّم لهمَ حركة الحياة مُتساندةً لا مُتعاندةً .

فكأن :

﴿أَنْ أَنذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ أَنَا فَاتَّقُونِ ۝٢﴾ [النحل]

هى تفسيرٌ لمَا أنزله الله على الملائكة من الرُّوح التى قُلْنا من قبل : إنها الروح الثانية التى يَجِىء بها الوَحْى ؛ وتحملُ منهجَ الله ليضمن لِلْمُعتنق حياة لا يزول نَعيمها ولا المُتنعِّم بها ؛ وهى غَيْر الروح الأوَلى التى إذا نفخها الحق فى الإنسان ، فالحياة تدبّ فيه حركةً وحِسّاً ولكنها إلى الفناء .

وكأن الحق سبحانه من رحمته بخَلْقه أنْ أنزلَ لهم المنهج الذى يهديهم الحياة الباقية بدلاً من أنْ يظلُّوا أسْرى الحياة الفانية وحدها .

ومن رحمته أيضاً أن حذرهم من المصير السيىء الذى ينتظر مَنْ يكفر به ؛ ومثل هذا التحذير لا يصدر إلا منْ مُحبٍّ ؛ فسبحانه يُحب خَلْقه ، ويُحب منهم أنْ يكونوا إليه مخلصينَ مؤمنين ، ويحب لهم أَنْ ينعموا فى آخرة لا أسبابَ فيها ؛ لأنهم سيعيشون فيها بكلمة « كُنْ » من المُسبِّب .

فإذا قال لهم ﴿أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ أَنَا .. ②﴾ [النحل] فهو يُوضّح أنه لا إله غيره ، فلا تشركوا بى شيئاً ، ولا تكذبوا الرسل وعليكم بتطبيق منهجى الذى يُنظّم حياتكم وأُجازى عليه فى الآخرة .

وإياكم أنْ تغترُّوا بأنّى خلقتُ الأسباب مُسخرة لكم ؛ فأنا أستطيع أن أقبض هذه الأسباب ؛ فقد أردتُ الدنيا بلاءً واختباراً ؛ وفى الآخرة لا سُلْطان للأسباب أبداً :

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ⑯﴾ [غافر]

وظاهر الأمر أن المُلْك لله فى الآخرة ، والحقيقة أن المُلْك لله دائماً فى الدنيا وفى الآخرة ؛ ولكنه شاء أنْ يجعلَ الأسباب - المخلوقة بمشيئته - تستجيب للإنسان ؛ فإياك أنْ تظنَّ أنك أصبحتَ قادراً ؛ فأنت فى الحياة تملك أشياء ، ويملكك مَلِك أو حاكم مثلك ؛ فسُنّة الكون أنْ يوجدَ نظامٌ يحكم الجميع .

ولكن الآخرة يختلف الأمر فيها ؛ فلا مُلْكَ لأحد غير الله ، بل إن الأعضاء نفسها لا تسير بإرادة أصحابها بل بإرادة الحق ، تلك الأعضاء التى كانت تخضع لمشيئتك فى الدنيا ؛ لا حُكْمَ لك عليها فى الآخرة ، بل ستكون شاهدة عليك .

فإن كان الله قد أعطاك القدرة على تحريك الأعضاء فى الدنيا ، فإنْ وجَّهتها إلى مأمور الله ؛ فأنت من عباده[1] ، وإنْ لم تُوجهها إلى مطلوب الله ، فأنت من عبيده .

وبعد ذلك يُقدّم لك سبحانه الحيثية التى تُعزّز أمره بعبادته

(١) العباد : هم عباد الرحمن ، والعبيد كل الناس ، فكل عابد عَبْد وليس كل عبد عابداً ، وقد يَرْقى العبيد إلى مقامات العباد بالعمل الصالح .

وحده ، وأنْ لا إله غيره ؛ فإنه لم يطلب أن نعبده إلا بعد أنْ خلق لنا السماوات والأرض ؛ وكل الكون المُعَد لاستقبال الإنسان بالحق ؛ أى بالشيء الثابت ؛ والقانون الذى ليس فى اختيار أحد سواه سبحانه ، ويقول سبحانه :

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ[1] تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٣ ﴾

أى : تنزَّه سبحانه عمَّا يشركون معه من آلهة ، فلا أحدَ قد ساعده فى خَلْق الكون وإعداده ؛ فكيف تجعلون أنتم معه آلهة غيره ؟ وسبحانه مُنزَّه عن أنْ يكون معه آلهة أخرى ، وسبحانه قد خلق لنَا من قبل أن يخلقنا ؛ خلق السماوات والأرض وقدَّر الأرزاق ، ولو نظرتَ إلى خَلْقك أنت لوجدت العَالَم الكبير قد انطوى فيك ؛ وهو القائل :

﴿ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١ ﴾ [الذاريات]

وأنت مخلوق من ماذا ؟

ها هو الحق سبحانه يقول :

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ[2] مُّبِينٌ ۝٤ ﴾

(١) بالحق : أى للدلالة على قدرته سبحانه : وأن له أن يتعبد العباد بالطاعة ، وأن يُحى الخلق بعد الموت . [تفسير القرطبى ٥/٣٧٩٢] .

(٢) الخصيم : أى شديد الخصام . أى : مخاصم لله ولرسوله مبالغ فى إظهار خصومته وعداوته . [القاموس القويم ١/١٩٦] .

والنطفة التى نجىء منها ، وهى الحيوان المَنَوىّ الذى يتزاوج مع البويضة الموجودة فى رَحم المرأة فتنتج العلقة ، وسبحانه القائل :

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى[1] (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ (٣٩) ﴾ [القيامة]

بل إن القَذْفة الواحدة من الرجل قد يوجد فيها من الأنسال ما يكفى خَلْقَ الملايين ؛ ولا يمكن للعين المُجرَّدة أنْ ترى الحيوان المنوىّ الواحد نظراً لدقَّته المتناهية .

وهذه الدقّة المُتناهية لا يمكن أنْ تُرى إلا بالمجاهر المُكبِّرة ، ومطمور فى هذا الحيوان المنوىّ كُل الخصائص التى تتحد مع الخصائص المَطْمورة فى بُويْضة المرأة ليتكوّن الإنسان .

وقد صدق العقاد ـ يرحمه الله ـ حين قال : « إن نصف كستبان الخياطة لو مُلِىء بالحيوانات المنوية لَوُلِد منه أنسال تتساوى مع تعداد البشر كلهم » .

وقد شاء الحق سبحانه ألا ينفُذَ إلى البويضة إلا الحيوانُ المنوىّ القوى ؛ ليُؤكّد لنا أنْ لا بقاءَ إلا للأصلح ، فإنْ كان الحيوان المنوىّ يحمل الصفات الوراثية لميلاد أنثى جاء المولود أنثى ؛ وإنْ كان يحمل الصفات الوراثية لميلاد الذَّكَر جاء المولود ذكراً .

وأنت ترى مثْل ذلك فى النبات ؛ فأوَّل حبّة قمح كانت مثل آدم كأول إنسان بالطريقة التى نعرفها ؛ وفى تلك الحبّة الأولى أوجد

---

(١) أى : أيحسب الإنسان أن يترك مهملاً غير مأمور وغير منهىّ . [لسان العرب ـ مادة : سدا] .

الحق سبحانه مضمون كل حبوب القمح من بعد ذلك ، وإلى أنْ تقومَ الساعة ، وتلك عظمةُ الحق سبحانه فى الخَلْق .

وقد أوضح لنا الحق سبحانه فى أكثر من موضع بالقرآن الكريم مراحل خَلْق الإنسان ؛ فهو :

﴿ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة]

وهو من نطفة ، ومن علقة ، ثم مضغة مُخلَّقة وغير مُخلَّقة[1] .

والحيوان المنوىّ المُسمّى « نُطْفة » هو الذى يحمل خصائص الأنوثة أو الذكورة كما أثبت العلم الحديث ، وليس للمرأة شَأْنٌ بهذا التحديد ، وكأن فى ذلك إشارةً إلى مهمة المرأة كسكَن ؛ لأن البُويْضة تتلقّى الحيوان المنوىّ وتحتضنه ؛ ليكتمل النمو إلى أنْ يصيرَ كائناً بشرياً :

﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون]

وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ أَيَحْسَبُ الإنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً .. ۝٣٨ ﴾ [القيامة]

والعلقة جاء اسمها من مهمتها ، حيث تتعلق بجدار الرِّحِم كما أثبت العِلْم المعاصر ، ويقول سبحانه :

﴿ فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً .. ۝١٤ ﴾ [المؤمنون]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. ۝٥ ﴾ [الحج] .

والمُضْغة هى الشىء المَمْضُوغ ؛ ثم يَصِف سبحانه المضغة بأنها :

﴿ مُّخَلَّقَةٍ[١] وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ .. (٥) ﴾ [الحج]

ولقائل أن يتساءل : نحن نفهم أن المُضْغة المُخلّقة فيها ما يمكن أن يصير عيناً أو ذراعاً ؛ ولكن ماذا عن غير المُخلّقة ؟

ونقول : إنها رصيد احتياطىّ لصيانة الجسم ، فإذا كنتَ أيها المخلوق حين تقوم ببناء بَيْت فأنت تشترى بعضاً من الأشياء الزائدة من الأدوات الصحية ـ على سبيل المثال ـ تحسُّباً لما قد يطرأ من أحداث تحتاج فيها إلى قطع غيار ؛ فما بالنا بالحق الذى خلق الإنسان ؟

لقد جعل الله تلك المُضْغة غير المُخلّقة[٢] رصيداً لصيانة ، أو تجديداً لما قد يطرأ على الإنسان من ظروف ؛ وتكون زائدة فى الجسم وكأنها مخزنٌ لقطع الغيار .

والمثل هو الجروح التى تصيب الإنسان ، ثم يتركها ليعالجها الجسمُ بنفسه ، نجدها تلتئم دون أنْ تتركَ نَدْبة[٣] أو علامة ، ذلك أنه قد تَمَّ علاجها من الصيدلية الداخلية التى أودعها الحق سبحانه فى الجسم نفسه .

---

(١) مخلقة : أى مُشكَّلة ومُصوّرة على هيئة طفل . وغير مخلقة أى : غير مشكّلة ، أى غير تامة التصوير . [القاموس القويم ١/٢٠٧] .

(٢) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٢٠٦) : « إذا استقرت النطفة فى رحم المرأة مكثت أربعين يوماً كذلك ، يضاف إليه ما يجتمع إليها ، ثم تنقلب علقة حمراء بإذن الله فتمكث كذلك أربعين يوماً ، ثم تستحيل فتصير مضغة قطعة من لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ، ثم يشرع فى التشكيل والتخطيط ، وتارة تلقيها وقد صارت ذات شكل وتخطيط » .

(٣) الندبة : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد . [لسان العرب ـ مادة : ندب] .

والمفاجأة هى أن هذا الإنسانَ المخلوق لله :

﴿ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ④ ﴾ [النحل]

ويتمرَّد على خالقه ، بل وينكر بعضٌ من الخَلْق أن هناك إلهاً ؛ متجاهلين أنهم بقوة الله فيهم يجادلونه . والخصيم هو الذى يُجادل ويُنكِر الحقائق ؛ فإذا حُدِّث بشىء غيبى ، يحاول أنْ يدحضَ معقوليته .

ويقول سبحانه فى سورة يس :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ⑦⑦ ﴾ [يس]

وقد يكون من المقبول أن تكون خَصْماً لمساويك ؛ ولكن من غير المقبول أن تكون خصيماً لِمَنْ خلقك فسوَّاك فعَدلك ، وفى أىِّ صورة ما شاء ركَّبك .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ⑤ ﴾

والدِّفْءُ هو الحرارة للمبرود ، تماماً مثلما نعطى المحرور برودة، وهذا ما يفعله تكييف الهواء فى المنازل الحديثة . ونجد الحق سبحانه هنا قد تكلَّم عن الدفء ولم يتكلم عن البرد ، ذلك أن المقابل معلوم ، وهو فى آية أخرى يقول :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ[1] تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. ⑧① ﴾ [النحل]

(١) السرابيل : جمع سربال ، وهو ما يُلبس من قميص أو درع . [القاموس القويم ١/٣٠٨].

وهذا ما يحدث عندما نسير فى الشمس الحارة ؛ فنضع مظلة فوق رؤوسنا لتقينا حرارة الشمس الزاعقة الشديدة . ونحن فى الشتاء نلبس قلنسوة أى : نلفّ شيئاً حول رؤوسنا ، وهكذا نعلم أن اللباس يفعل الشيء ومقابله ، بشرط أن يختار الإنسانُ اللباسَ المناسب للجوِّ المناسب .

وفى الأنعام منافع كثيرة ؛ فنحن نشرب لبنها ، ونصنع منه الجُبْن والسمن ؛ ونجزّ الصوف لنغزل وننسج منه ملابس صوفية ، وتحمل الأثقال ، ونستفيد من ذريتها ؛ وكذلك نأكل لحومها .

و نحن نعلم أن الأنعام قد جاء تفصيلها فى موقع آخر حين قال الحق سبحانه :

﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ .. (١٤٣) ﴾ [الأنعام]

وهى الضَّأن والمَعْز والإبل والبقر .

ونعلم أن الدِّفْءَ يأتى من الصُّوف والوَبَر والشَّعْر ، ومَنْ يلاحظ شعر المَعْز يجد كل شَعْرة بمفردها ؛ لكن الوبر الذى نجزه من الجمل يكون مُلبداً ؛ وهذا دليل على دقّة فَتْلته ، أما الصوف فكل شعرة منه أنبوبة أسطوانية قلْبُها فارغ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :



﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ[1] حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) ﴾

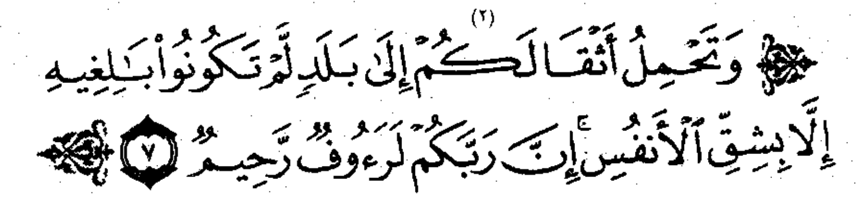
(١) الجمال : الحُسْن ، وما يُتجمّل به ويتزين . قال القرطبى فى تفسيره (٣٧٩٥/٥) : « جمال الأنعام والدواب من جمال الخلقة ، وهو مرئى بالأبصار موافق للبصائر . ومن جمالها كثرتها » .

وهنا نجد أن الحق سبحانه قد أعطانا الترف أيضاً بجانب الضروريات ، فالدِّفْء والمنافع والأكل ضروريات للحياة ، أما الجَمال فهو من تَرَف الحياة ، والجمال هو ما تراه العين ، فيتحقق السرور في النفس . والدِّفْء والمنافع والأكل هي أمور خاصة لمَنْ يملك الأنعام ؛ أما الجمال فمشاع عَامٌّ للناس ، فحين ترى حصاناً جميلاً ؛ أو البقرة المَزْهُوة بالصحة ؛ فأنت ترى نعمة الله التي خلقها لتسُرّ الناظر إليها .

ونلحظ هذا الجمال في لحظات سروح البهائم ولحظات رواحها . ونقول في الريف « سرحت البهائم » أي : خرجتْ من الحظائر لترعى وتأكل . ونلحظ أن الحق سبحانه قد قدَّم الرَّواح أي العودة إلى الحظائر عن السُّروح ؛ لأن البهائم حين تعود إلى حظائرها بعد أنْ ترعى تكون بطونُها ممتلئةً وضُروعها رابِية[1] حافلة باللبن ؛ فيسعد مَنْ يراها حتى قبل أنْ يطعمَ من ألبانها .

ومَنْ يخرج ببهائمه في الصباح من بيته ، ويصحبها من زرائبها إلى الحقل ، يجد جمالاً مع هيبة ومنعة مع أصوات تحقق للرجل المالك الهيبة ، ومَنْ لا يملك يمكن أنْ يشاهدَ جمال تلك الأنعام .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :


﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ[2] إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾

(١) ربا الشيء يربو : زاد ونما . وأربيته : نميته . [لسان العرب ـ مادة : ربا] .

(٢) الثقل : الحمل الثقيل ، والجمع أثقال مثل حِمْل وأحمال . [لسان العرب ـ مادة : ثقل] . فالأثقال : الأحمال الثقيلة .

ونعلم أن الإنسانَ فى حياته بين أمرين ؛ إما ظَاعن أى : مسافر . وإما مقيم . وفى حالة المقيم ، فالأنعام تُحقق له الدِّفْء والطعام والملْبس . وعادةً ما يكتفى متوسطُ الحال بأنْ يستقرّ فى مكان إقامته وكذلك الفقير .

أما المقتدر الغنىّ ؛ فأنت تجده يوماً فى القاهرة ، وآخر فى الإسكندرية ، أو طنطا ، وقد يسافر إلى الخارج ، وكلٌّ ذلك ميسور فى زمن المواصلات الحديثة . وقديماً كانت وسائل المواصلات شاقة ، ولا يقدر على السفر إلا مَنْ كانت لديه إبل صحيحة أو خيول قوية ، أما مَنْ لم يكن يملك إلا حماراً أعجف[1] فهو لا يفكر إلا فى المسافات القصيرة .

ولذلك نجد القرآن حين تكلم عن أهل سبأ يقول :

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ[2] .. ﴿١٩﴾ ﴾ [سبأ]

وهم قد قالوا ذلك اعتزازاً بما يملكونه من خَيْل ووسائل سفر من دوابّ سليمة وقوية ، تُهيِّىء السفر المريح الذى ينمُّ عن العزّ والقوة والثراء .

وقوله الحق :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ .. ﴿٧﴾ ﴾ [النحل]

يعنى وضع ما يَثْقل على ما يُثَقّل ؛ ولذلك فنحن لا نجد إنساناً

(١) الأعجف : الهزيل من سوء التغذية . والعجف : غلَظ العظام وعراؤها من اللحم . [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(٢) وذلك أن الله تعالى قال : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ ﴾ [سبأ] .

يحمل دابتـه ؛ بل نجد مَنْ يحمل أثقـاله على الدابة ليُخفّف عن نفـسه حَمْل أوزانٍ لا يقدر عليها .

ونعلم أن الوزن يتـبع الكثافة ؛ كـما أن الحجمَ يـتبع المسـاحة ؛ فحـين تنظر إلى كيلوجرام من الـحديد وكيلوجـرام من القطن ، فأنت تجد أن حجم كيلوجرام القطن أكـبرُ من حجم كيلوجرام الحديد ؛ لأن كثافة الحديد مطمورة فيه ، أما نفاشات القطن فهى التى تجعله يحتاج حيزاً أكبر من المساحة .

ويتابع الحق سبحانه قوله فى الآية الكريمة :

﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ .. ⑦ ﴾ [النحل]

ومَنْ يفتش فى أساليب القـرآن من المستشرقـين قد يقول : « إن عَجُزَ الآية غَيْر متفق مع صَدْرها » .

ونقول لمثل صاحب هـذا القول : أنت لم تفطن إلى المنّة التى يمتنُّ بها الله على خَلْقه ، فهم لم يكونوا بالغين لهذا البلد دون أثقالَ إلا بمشقّة ؛ فما بالنا بثِقَل المشقة حين تكون معهم أثقال من بضائع ومتاع ؟

إنها نـعمة كـبيـرة أنْ يجدوا ما يـحملون عليـه أثقالهم وأنفـسهم ليصلوا إلى حيث يريدون .

وكلمـة ﴿ بِشِقِّ ﴾ [النحل] مـصـــدرها شَق وهو الصـّـدْع بين شيئين ؛ ويعنى عَزْل متصلين ؛ وسبحانه هو القائل :

﴿ فَاصْدَعْ[1] بِمَا تُؤْمَرُ .. ⑨④ ﴾ [الحجر]

---

(١) صدع بالأمـر : جهـر به فى قوة كـأنه يشق جدار الصـمت والسكون . [القامـوس القويم ٣٧١/١] .

وهناك « شَق » وهو الجهد ، و« شقَّة » . والإنسان كما نعلم هو بين ثلاث حالات : إمّا نائم ؛ لذلك لا يحتاج إلى طاقة كبيرة تحفظ له حياته ؛ وأيضاً وهو مُتيقّظ فأجهزته لا تحتاج إلى طاقة كبيرة ؛ بل تحتاج إلى طاقة مُتوسِّطة لتعملَ ؛ أما إنْ كان يحمل أشياءَ ثقيلةً فالإنسان يحتاج إلى طاقة أكبر لتعمل أجهزته .

وكذلك نجد الحق سبحانه يقول :

﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا[1] قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا[2] لَّاتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ .. (٤٢) ﴾ [التوبة]

والمعنىّ هنا بالشُّقة هى المسافة التى يشقُّ قطعُها ، ويُنهى الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٧) ﴾ [النحل]

والصفتان هنا هما الرأفة والرحمة ، وكل منهما مناسب لمَا جاء بالآية ؛ فالربُّ هو المُتولِّى التربية والمَدَد ، وأىُّ رحلة لها مَقْصِد ، وأىُّ رحلة هى للاستثمار ، أو الاعتبار ، أو للاثنين معاً .

فإن كانت رحلةَ استثمار فدابّتُك يجب أن تكون قويةً لتحمل ما معك من أثقال ، وتحمل عليها ما سوف تعود به من بضائع .

وإنْ كانت الرحلةُ للاعتبار فأنت تزيل بهذا السفر ألم عدم المعرفة

---

(١) عرض الدنيا : ما كان من مال ، قل أو كثر . والعرض : متاع الدنيا وحطامها . [لسان العرب ـ مادة : عرض] .

(٢) السفر القاصد : السهل الواضح المعروف هدفه ، قال تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ .. (٤٢) ﴾ [التوبة] لكن السفر إلى تبوك كان عسيراً فى وقت العسرة ، وكان شاقاً وغير معروف الهدف ، ولهذا تخلف المنافقون . [القاموس القويم ٢/١١٨] .

والرغبة فى الوصول إلى المكان الذى قصدته .

وهكذا تجد الرأفةَ مناسبةً لقضاء النفع وتحقيق الحاجة وإزالة الألم . وكلمة رحيم مناسبة لمنع الألم بتحقيق الوصول إلى الغاية .

وتوقَّفَ بعضٌ من العلماء عند مَقْصد الرحلة ؛ كأن تكون مسافراً للاتجار أو أن تكونَ مسافراً للاعتبار . ولكن هذا سفرٌ بالاختيار ؛ وهناك سفر اضطرارى ؛ كالسفر الضرورى إلى الحج مرة فى العمر .

والحق سبحانه يزيل ألم الحَمْل الثقيل ، وبذلك تتحقق رأفته ؛ وهو رحيم لأنه حقَّق لكم أُمنية السفر .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ[1] وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وبعد أن ذكر لنا الحق سبحانه الأنعام التى نأخذ منها المأكولات ، يذكر لنا فى هذه الآية الأنعام التى نستخدمها للتنقّل أو للزينة ؛ ولا نأكل لحومها[2] وهى الخَيْل والبغَال والحمير ؛ ويُذكِّرنا بأنها للركوب والمنفعة مع الزينة ؛ ذلك أن الناس تتزيَّن بما تَرْكب ؛

---

(١) البغال : جمع بغْل . وهو ابن الفرس من الحمار وهو لا يلد ، فالشأن في البغل العقم . وذكرها القرآن بين الخيل والحمير إشارة إلى تولُّدها منهما . [القاموس القويم ١/٧٦] .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٠٠) : « سئل ابن عباس عن لحوم الخيل فكرهها ، وتلا هذه الآية وقال : هذه للركوب ، وقرأ الآية التى قبلها : ﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ .. ﴿٥﴾ ﴾ [النحل] ثم قال : هذه للأكل . وبه قال مالك وأبو حنيفة وأصحابهما . وقال الجمهور من الفقهاء والمحدثين : هى مباحة . قلت : الصحيح الذى يدل عليه النظر والخبر جواز أكل لحوم الخيل » .

تماماً كما يفخر أبناءُ عصرِنا بالتزيُّن بالسيارات الفارهة .

ونَسَقُ الآية يدلُّ على تفاوت الناس في المراتب ؛ فكلٌّ مرتبة من الناس لها ما يناسبها لتركبه ؛ فالخَيْل للسادة والفرْسان والأغنياء ؛ ومَنْ هم أقلُّ يركبون البَغال ، ومَنْ لا يملك ما يكفى لشراء الحصان أو البَغْل ؛ فيمكنه أنْ يشترىَ لنفسه حماراً .

وقد يملك إنسانٌ الثلاثةَ ركائب ، وقد يملك آخرُ اثنتين منها ؛ وقد يملك ثالثٌ رُكوبة واحدة ، وهناك مَنْ لا يملك من المال ما يُمكِنه أنْ يستأجرَ ولو رُكوبة من أىّ نوع .

وشاء الحق سبحانه أن يقسم للناس أرزاق كل واحد منهم قلّةً أو كثرةً ، وإلا لو تساوى الناس في الرزق ، فَمن الذى يقوم بالأعمال التى نُسمِّيها نحن - بالخطأ - أعمالاً دُونية ، مَنْ يكنس الشوارع ، ومَنْ يحمل الطُّوب للبناء ، ومَنْ يقف بالشَّحْم وسط ورش إصلاح السيارات ؟

وكما نرى فكلٌّ تلك الأعمال ضرورية ، ولولا رغبةُ الناس في الرزق لَمَا حلَتْ مثل تلك الأعمال ، وراقتْ في عُيون مَنْ يُمارِسونها ، ذلك أنها تَقِيهم شرَّ السُّؤال .

ولَوْلا أن مَنْ يعمل في تلك الأعمال له بطنٌ تريد أنْ تمتلىءَ بالطعام ، وأولاد يريدون أنْ يأكلوا ؛ لَمَا ذهب إلى مشقَّات تلك الأعمال . ولو نظرتَ إلى أفقر إنسان في الكون لوجدتَ في حياته فترة حقَّق فيها بعضاً من أحلامه .

وقد نجد إنساناً يكدُّ عَشْر سنين ؛ ويرتاح بقية عمره ؛ ونجد مَنْ يكدّ عشرين عاماً فيُرِيح نفسه وأولاده من بعده ، وهناك مَنْ يتعب ثلاثين عاماً ، فيُريح أولاده وأحفاده من بعده . والمهم هو قيمة

ما يُتقِنه ، وأن يرضَى بقدر الله فيه ، فيعطيه الله ما دام قد قَبِل قدره فيه .

وأنت إنْ نظرتَ إلى مَنْ فاء الله عليهم بالغِنَى والتَّرف ستجدهم فى بدايةِ حياتهم قد كَدُّوا وتَعِبوا ورَضُوا بقدر الله فيهم ، ولم يحقدوا على أحد ، نجده سبحانه يهديهم طمأنينةً وراحةَ بالٍ .

وشاء سبحانَه أنْ يُنوِّع فى مُسْتويات حياة البشر كَيْلا يستنكفَ أحدٌ من خدمة أحد ما دام يحتاج خدماته .

ونجد النصّ التعبيرى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها هو خَيْل وبِغَال وحمير ؛ وقد جعل الحق سبحانه البغال فى الوسط ؛ لأنها ليست جنساً بل تأتى من جنسين مختلفين .

ويُنبِّهنا الحق سبحانه فى آخر الآية إلى أن ذلك ليس نهاية المَطَاف ؛ بل هناك ما هو أكثر ، فقال :

﴿ وَيَخْلُقُ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [النحل]

وجعل الحق سبحانه البُراق خادماً لسيدنا رسول الله ﷺ ، وجعل بساط الريح خادماً لسليمان عليه السلام ، وإذا كانت مثل تلك المُعْجزات قد حدثتْ لأنبياء ؛ فقد هدى البشر إلى أنْ يبتكروا من وسائل المواصلات الكثير من عربات تجرُّها الجِيَاد إلى سيارات وقطارات وطائرات .

وما زال العلم يُطوِّر من تلك الوسائل ، ورغم ذلك فهناك مَنْ يقتنى الخيْل ويُربّيها ويُروِّضها ويجريّها لجمال منظرها .

وإذا كانت تلك الوسائلُ من المواصلات التى كانت تحمل عنّا

الأثقال ؛ وتلك المُخْترعات التى هدانا الله إياها ؛ فما بالُنَا بالمواصلات فى الآخرة ؟ لابد أن هناك وسائلَ تناسب فى رفاهيتها ما فى الآخرة من متاعٍ غير موجود فى الدنيا ؛ ولذلك يقول فى الآية التالية :

﴿ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ(1) وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ ﴾

والسبيل هو الطريق ؛ والقَصْد هو الغاية ، وهو مصدر يأخذون منه القول (طريق قاصد) أى : طريق لا دورانَ فيه ولا التفاف . والحق سبحانه يريد لنا أنْ نصلَ إلى الغاية بأقلِّ مجهود .

ونحن فى لغتنا العاميّة نسأل جندى المرور « هل هذا الطريق ماشى ؟» رغم أن الطريق لا يمشى ، بل أنت الذى تسير فيه ، ولكنك تقصد أن يكون الطريق مُوصّلاً إلى الغاية . وأنت حين تُعجِزك الأسباب تقول « خلِّيها على الله » أى : أنك ترجع بما تعجزك أسبابه إلى المُسبِّب الأعلى .

وهكذا يريد المؤمن الوصول إلى قَصْده ، وهو عبادة الله وُصولاً إلى الغاية ، وهى الجنة ، جزاءً على الإيمان وحُسْن العمل فى الدنيا .

وأنت حين تقارن مَجْرى نهر النيل تجد فيه التفافاتٍ وتعرُّجات ؛ لأن الماء هو الذى حفر طريقه ؛ بينما تنظر إلى الرِّياح التوفيقى مثلاً فتجده مستقيماً ؛ ذلك أن البشر هم الذين حفروه إلى مَقْصد معين .

---

(١) الجائر : المائل عن الحق المنحرف عنه ، فلا يصل سالكه إلى ما يريد . [القاموس القويم ١/١٣٧] .

وحين يكون قَصْد السبيل على الله ؛ فالله لا هَوى له ولا صاحبَ ، ولا ولدَ له ، ولا يحابى أحداً ، وكلُّ الخَلْق بالنسبة له سواء ؛ ولذلك فهو حين يضع طريقاً فهو يضعُه مستقيماً لا عِوجَ فيه ؛ وهو الحق سبحانه القائل :

﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾ [الفاتحة]

أى : الطريق الذى لا التواءَ فيه لأىِّ غَرَض ، بل الغرض منه هو الغاية بأيسرِ طريق .

وقول الحق سبحانه هنا :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ﴿٩﴾ ﴾ [النحل]

يجعلنا نعود بالذاكرة إلى ما قاله الشيطان فى حواره مع الله قال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ(1) أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

وردَّ الحق سبحانه :

﴿ قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ ﴾ [الحجر]

والحق أيضاً هو القائل :

﴿ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ ﴾ [الليل]

أى : أنه حين خلق الإنسان أوضح له طريق الهداية ، وكذلك يقول سبحانه :

﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ(2) ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد]

---

(١) أغواه : أضلّه وأوقعه فى الغى والضلال . وغوى : بمعنى خاب وضل لأنه انهمك فى الجهل . [القاموس القويم ٢/ ٦٤] .

(٢) النجدان : طريق الخير وطريق الشر . والنجد : المرتفع من الأرض ، فالمعنى : ألم نعرفه طريق الخير والشر بينين كبيان الطريقين العاليين ، وقيل : النجدان : الثديان .[لسان العرب ـ مادة : نجد] .

أى : أن الحق سبحانه أوضح للإنسان طُرق الحق من الباطل ، وهكذا يكون قوله هنا :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ⑨ ﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الطريق المرسوم غايتُه موضوعة من الله سبحانه ، والطريق إلى تلك الغاية موزونٌ من الحق الذى لا هَوى له ، والخَلْق كلهم سواء أمامه .

وهكذا .. فعلى المُفكِّرين ألاَّ يُرهقوا أنفسهم بمحاولة وَضْع تقنين من عندهم لحركة الحياة ، لأن واجدَ الحياة قد وضع لها قانون صيانتها ، وليس أدلّ على عَجْز المفكرين عن وضع قوانين تنظم حياة البشر إلا أنهم يُغيّرون من القوانين كل فَتْرة ؛ أما قانون الله فخالد باقٍ أبداً ، ولا استدراكَ عليه .

ولذلك فمِنَ المُريح للبشر أنْ يسيروا على منهج الله والذى قال فيه الحق سبحانه حكماً عليهم أنْ يُطبّقوه ؛ وما تركه الله لنا نجتهد فيه نحن .

وقوله الحق :

﴿ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .. ⑨ ﴾ [النحل]

أى : أنه هو الذى جعل سبيلَ الإيمان قاصداً للغاية التى وضعها سبحانه ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر ؛ ولذلك قال :

﴿ وَمِنْهَا جَائِرٌ .. ⑨ ﴾ [النحل]

ولكى يمنع الجَوْر جعل سبيلَ الإيمان قاصداً ، فهو القائل :

﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَٰوَاتُ وَالأَرْضُ .. (٧١) ﴾[المؤمنون]

بينما السبيل العادلة المستقيمة هى السبيل المُتكفّل بها سبحانه ، وهى سبيل الإيمان ، ذلك أن من السُّبل ما هو جائر أى : يُطيل المسافة عليك ، أو يُعرِّضك للمخاطر ، أو توجد بها مُنْحنيات تُضل الإنسانَ ، فلا يسيرُ إلى الطريق المستقيم .

ونعلم أن السبيل تُوصّل بين طرفين (من وإلى) وكل نقطة تصل إليها لها أيضاً (من وإلى) وقد شاء الحق سبحانه ألاّ يقهرَ الإنسانَ على سبيل واحد ، بل أراد له أنْ يختار ، ذلك أن التسخير قد أراده الله لغير الإنسان ممَّا يخدم الإنسان .

أما الإنسان فقد خلق له قدرة الاختيار ، ليعلم مَنْ يأتيه طائعاً ومَنْ يعصى أوامره ، وكل البشر مَجْموعون إلى حساب ، ومَن اختار طريق الطاعة فهو مَنْ يذهب إلى الله مُحباً ، ويُثبت له المحبوبية التى هى مراد الحق من خَلْق الاختيار ، لكن لو شاء أنْ يُثبتَ لنفسه طلاقة القَهْر لخلقَ البشر مقهورين على الطاعة كما سخَّر الكائنات الأخرى .

والحق سبحانه يريد قلوباً لا قوالب ؛ ولذلك يقول فى آخر الآية :

﴿ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) ﴾ [النحل]

وكل أجناس الوجود كما نعلم تسجد لله :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

وفى آية أخرى يقول :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ[1] كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : لو شاء الحق سبحانه لهدى الثقلين أى : الإنس والجن ، كما هدى كُلَّ الكائنات الأخرى ، ولكنه يريد قلوباً لا قوالبَ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ[2] (١٠) ﴾

وقوله :

﴿ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (١٠) ﴾ [النحل]

يبدو قولاً بسيطاً ؛ ولكن إنْ نظرنا إلى المعامل التى تُقطّر المياه وتُخلّصها من الشوائب لَعلمْنَا قَدْر العمل المبذول لنزول الماء الصافى من المطر .

والسماء ـ كما نعلم ـ هى كل ما يعلونا ، ونحن نرى السحاب الذى يجىء نتيجة تبخير الشمس للمياه من المحيطات والبحار ، فيتكوّن البخار الذى يتصاعد ، ثم يتكثّف ليصيرَ مطراً من بعد ذلك ؛ وينزل المطر على الأرض .

---

(١) الطير صافات : أى باسطات أجنحتها . وصفَّت الطير فى السماء تصف : أى صفَّت أجنحتها ولم تحركها . [لسان العرب ـ مادة : صفف] .

(٢) تسيمون : ترعون إبلكم . أسام الدواب : أرسلها للرعى . [القاموس القويم ١/٣٣٧] .

ونعلم أن الكرة الأرضية مُكوّنة من محيطات وبحار تُغطّى ثلاثة أرباع مساحتها ، بينما تبلغ مساحة اليابسة رُبُع الكرة الأرضية ؛ فكأنه جعل ثلاثة أرباع مساحة الكرة الأرضية لخدمة رُبْع الكرة الأرضية .

ومن العجيب أن المطر يسقط فى مواقع قد لا تنتفع به ، مثل هضاب الحبشة التى تسقط عليها الأمطار وتصحب من تلك الهضاب مادة الطمى لِتُكوِّن نهر النيل لنستفيد نحن منه .

ونجد الحق سبحانه يقول :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي[1] سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ[2] يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ[3] فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ .. (٤٣)﴾ [النور]

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠)﴾ [النحل]

ولولا عملية البَخْر وإعادة تكثيف البخار بعد أن يصير سحاباً ؛ لَمَا استطاع الإنسانُ أنْ يشربَ الماء المالح الموجود فى البحار ، ومن حكمة الحق سبحانه أنْ جعل مياه البحار والمحيطات مالحةً ؛ فالملْح يحفظ المياه من الفساد .

(١) أزجى الشىء : ساقه برفق . قال تعالى : ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ .. (٦٦)﴾ [الإسراء] . أى : يدفعها ويُسيرها برفق فوق الماء . [القاموس القويم ١ / ٢٨٤] .

(٢) الودق : المطر شديده وهيّنه . ودقت السماء : أمطرت . [القاموس القويم ٢/ ٣٢٧] .

(٣) البَرَد : حبّات صغار من الثلج تسقط مع المطر أحياناً .

وبعد أن تُبخِّر الشمسُ المياه لتصير سحاباً ، ويسقط المطر يشرب الإنسانُ هذا الماء الذى يُغذِّى الأنهار والآبار ، وكذلك ينبت الماء الزرع الذى نأكل منه .

وكلمة ﴿ شجر ﴾ تدلُّ على النبات الذى يلتفُّ مع بعضه . ومنها كلمة « مشاجرة » والتى تعنى التداخل من الذين يتشاجرون معاً .

والشجر أنواع ؛ فيه مغروس بمالك وهو مِلْك لِمَنْ يغرسه ويُشرف على إنباته ، وفيه ما يخرج من الأرض دون أَنْ يزرعه أحد وهو مِلْكية مشاعة ، وعادة ما نترك فيه الدَّواب لترعى ، فتأكل منه دون أَنْ يردَّها أحد .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل]

من سَام الدابة التى تَرْعى فى المِلْك العام ، وساعة ترعى الدابة فى المِلْك العام فهى تترك آثارها من مَسَارب[1] وعلامات . ويُسَمُّون الأرضَ التى يوجد بها نبات ولا يقربها حيوان بأنها « روضة أُنُف»[2] بمعنى أن أحداً لم يَأتِ إليها أو يَقربها ؛ كأنها أنفت أنْ يقطف منها شىء .

---

(١) المسارب : مواضع الآثار . ومنها مسارب الحيات : مواضع آثارها إذا انسابت فى الأرض على بطونها . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٢) يقال : روضة أنف وكأس أنف : لم يُشرب بها قبل ذلك ، كأنه استؤنف شربها مثل روضة أنف . والأنف : الكلأ الذى لم يُرْع ولم تطأه الماشية . [لسان العرب ـ مادة : أنف] .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١ ﴾

وهكذا يُعلمنا الله أن النبات لا ينبت وحده ، بل يحتاج إلى مَنْ يُنبته ، وهنا يخصُّ الحق سبحانه ألواناً من الزراعة التى لها أثر فى الحياة ، ويذكر الزيتون والنخيل والأعناب وغيرها من كل الثمرات .

والزيتون - كما نعلم - يحتوى على مواد دُهْنية ؛ والعنب يحتوى على مواد سكرية ، وكذلك النخيل الذى يعطى البلح وهو يحتوى على مواد سُكرية ، وغذاء الإنسان يأتى من النشويات والبروتينات .

وما ذكره الحق سبحانه أولاً عن الأنعام ، وما ذكره عن النباتات يُوضِّح أنه قد أعطى الإنسان مُكوّنات الغذاء ؛ فهو القائل :

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ① وَطُورِ سِينِينَ ② وَهَـٰذَا الْبَلَدِ[1] الأَمِينِ ③ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ④ ﴾ [التين]

أى : أنه جعل للإنسان فى قُوته البروتينات والدُّهنيات والنشويات والفيتامينات التى تصون حياته .

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٥٢٦) : « قال بعض الأئمة : هذه محال ثلاثة ، بعث الله فى كل واحد منها نبياً مرسلاً من أولى العزم أصحاب الشرائع الكبار . فالأول : محلة التين والزيتون وهى بيت المقدس التى بعث الله فيها عيسى ابن مريم عليه السلام . والثانى : طور سينين ، وهو طور سيناء الذى كلم الله عليه موسى بن عمران . والثالث : مكة وهو البلد الأمين وهو الذى أرسل فيه محمداً ﷺ » .

وحين يرغب الأطباء فى تغذية إنسان أثناء المرض ؛ فهم يُذيبون العناصر التى يحتاجها للغذاء فى السوائل التى يُقطّرونها فى أوردته بالحَقْن ، ولكنهم يخافون من طول التغذية بهذه الطريقة ؛ لأن الأمعاء قد تنكمش .

ومَنْ يقومون بتغذية البهائم يعلمون أن التغذية تتكوّن من نوعين ؛ غذاء يملأ البطن ؛ وغذاء يمدُّ بالعناصر اللازمة ، فالتبن مثلاً يملأ البطن ، ويمدُّها بالألياف التى تساعد على حركة الأمعاء ، ولكن الكُسْب يُغذِّى ويضمن السِّمنة والوَفْرة فى اللحم .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ.. (١١) ﴾ [النحل]

فعليك أنْ تستقبلَ هذا القول فى ضَوْء قَوْل الحق سبحانه :

﴿ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ[(١)] أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) ﴾ [الواقعة]

ذلك أنك تحرثُ الأرض فقط ، أما الذى يزرع فهو الحق سبحانه ؛ وأنت قد حرثتَ بالحديد الذى أودعه الله فى الأرض فاستخرجْتَه أنت ؛ وبالخشب الذى أنبته الله ؛ وصنعتَ أنت منهما المحراث الذى تحرث به فى الأرض المخلوقة لله ، والطاقة التى حرثتّ بها ممنوحة لك من الله .

---

(١) الزرع : الإنبات . يقال : زرعه الله . أى : أنبته ونماه حتى يبلغ غايته .. [لسان العرب ـ مادة : زرع] .

ثم يُذكِّرك الله بأن كُلَّ الثمرات هى من عطائه ، فيعطف العام على الخاص ؛ ويقول :

﴿ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ .. ⑪ ﴾ [النحل]

أى : أن ما تأخذه هو جزء من كل الثمرات ؛ ذلك أن الثمرات كثيرة ، وهى أكثر من أن تُعَد .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ⑪ ﴾ [النحل]

أى : على الإنسان أنْ يُعملَ فكره فى مُعْطيات الكون ، ثم يبحث عن موقفه من تلك المُعْطيات ، ويُحدِّد وَضْعه ليجد نفسه غير فاعل ؛ وهو قابل لأنْ يفعَل .

وشاء الحق سبحانه أن يُذكّرنا أن التفكُّر ليس مهمةَ إنسان واحد بل مهمة الجميع ، وكأن الحق سبحانه يريد لنا أنْ تتسانَد أفكارنا ؛ فَمْن عنده لَقْطة فكرية تؤدى إلى الله لابُدَّ أنْ يقولها لغيره .

ونجد فى القرآن آيات تنتهى بالتذكُّر[1] والتفكُّر[2] وبالتدبُّر[3] وبالتفقُّه[4] ، وكُلٌّ منها تؤدى إلى العلم اليقينى ؛ فحين يقول « يتذكرون » فالمعنى أنه سبق الإلمام بها ؛ ولكن النسيان محاها ؛ فكأن مِنْ مهمتك أنْ تتذكّر .

(١) ذكر الشيء ذكراً وذُكْراً ، وذكرى ، وتذكاراً : حفظه . وتذكره : استحضره ، وتذكّره . وتذكر : جرى على لسانه بعد نسيانه . [المعجم الوجيز ص ٢٤٥] .

(٢) تفكر فى الأمر : افتكر . التفكير : إعمال العقل فى مشكلة للتوصل إلى حلها . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

(٣) تدبر الأمر : نظر فيه وفكّر . [المعجم الوجيز ص ٢٢٠] .

(٤) تفقه : صار فقيهاً . وتفقه الأمر : تفهّمه وتفطّنه . [المعجم الوجيز ص ٤٧٨] .

أما كلمة « يتفكرون » فهى أُمّ كل تلك المعانى ؛ لأنك حين تشغل فكرك تحتاج إلى أمرين ، أنْ تنظرَ إلى مُعْطيات ظواهرها ومُعْطيات أدبارها .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ .. (٨٢) ﴾ [النساء]

وهذا يعنى ألاَّ تأخذ الواجهة فقط ، بل عليك أنْ تنظرَ إلى المعطيات الخلفية كى تفهم ، وحين تفهم تكون قد عرفتَ ، فالمهمة مُكوَّنة من أربع مراحل ؛ تفكُّر ، فتدبُّر ؛ فتفقُّه ؛ فمعرفة وعِلْم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَسَخَّرَ(١) لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٢ ﴾

ونعلم أن الليل والنهار آيتان واضحتان ؛ والليل يناسبه القمر ، والنهار تناسبه الشمس ، وهم جميعاً متعلقون بفعل واحد ، وهم نَسَق واحد ، والتسخير يعنى قَهْر مخلوق لمخلوق ؛ ليُؤدّى كُلٌّ مهمته . وتسخير الليل والنهار والشمس والقمر ؛ كُلٌّ له مهمة ، فالليل مُهمته الراحة .

---

(١) سخَّره : أخضعه وقهره لينفذ ما يريد منه بدون إرادة ولا اختيار من المسخَّر . وقوله (مُسخَّرات) أى : مُسيَّرات خاضعات مقهورات بأمر الله وبإرادته هو لا بإرادتها ولا باختيارها . [القاموس القويم ١/٣٠٦] .

قال الحق سبحانه :

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) ﴾ [القصص]

والنهار له مهمة أنْ تكدحَ في الأرض لتبتغي رزْقاً من الله وفَضْلاً ، والشمس جعلها مصدراً للطاقة والدِّفْء ، وهي تعطيك دون أنْ تسألَ ، ولا تستطيع هي أيضاً أن تمتنعَ عن عطاء قَدَّره الله .

وهي ليست ملْكاً لأحد غير الله ؛ بل هي من نظام الكون الذي لم يجعل الحق سبحانه لأحد قدرةً عليه ، حتى لا يتحكّم أحدٌ في أحدٍ ، وكذلك القمر جعل له الحق مهمة أخرى .

وإياك أنْ تتوهَم أن هناك مهمة تعارض مهمة أخرى ، بل هي مهام متكاملة . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ[1] (١) وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ (٢) وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٣) إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ (٤) ﴾ [الليل]

أي : أن الليل والنهار وإنْ تقابلا فليسا متعارضين ؛ كما أن الذكر والأنثى يتقابلان لا لتتعارض مهمة كل منهما بل لتتكامل .

ويضرب الحق سبحانه المثل ليُوضّح لنا هذا التكامل فيقول :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا[2] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) ﴾ [القصص]

---

(١) الغشاء : الغطاء . غشّيت الشيء تغشية إذا غطيته . [لسان العرب ـ مادة : غشى] . فالليل يغشى الناس بظلمته ويغطي على ضوء النهار .

(٢) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . وليل سرمد : طويل . والسرمد : الدائم الذي لا ينقطع. [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

وأىُّ إنسان إنْ سهر يومين متتابعين لا يستطيع أنْ يقاومَ النوم ؛ وإن أدَّى مهمة فى هذين اليومين ؛ فقد يحتاج لراحة من بعد ذلك تمتدُّ أسبوعاً ؛ ولذلك قال الله :

﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً[1] (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) ﴾ [النبأ]

والإنسان إذا ما صلَّى العشاء وذهب إلى فراشه سيستيقظ حَتْماً من قبل الفجر وهو فى قمّة النشاط ؛ بعد أنْ قضى ليلاً مريحاً فى سُبَاتٍ عميق ؛ لا قلقَ فيه .

ولكن الإنسان فى بلادنا استورد من الغرب حثالة الحضارة من أجهزة تجعله يقضى الليل ساهراً ، ليتابع التليفزيون أو أفلام الفيديو أو القنوات الفضائية ، فيقوم فى الصباح مُنْهكاً ، رغم أن أهل تلك البلاد التى قدَّمتْ تلك المخترعات ؛ نجدهم وهم يستخدمون تلك المخترعات يضعونها فى موضعها الصحيح ، وفى وقتها المناسب ؛ لذلك نجدهم ينامون مُبكّرين ، ليستيقظوا فى الفجر بهمّة ونشاط .

ويبدأ الحق سبحانه جملة جديدة تقول :

﴿ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ .. (١٢) ﴾ [النحل]

نلحظ أنه لم يَأتِ بالنجوم معطوفةً على ما قبلها ، بل خَصَّها الحق سبحانه بجملة جديدة على الرغم من أنها أقلُّ الأجرام ، وقد لا نتبيّنها لكثرتها وتعدُّد مواقعها ولكنّا نجد الحق يُقسِم بها فهو القائل :

---

(١) يُشبّه الليل باللباس لأنه ساتر . [القاموس القويم ٢/١٨٨] . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٤٦٢) : « أى يغشى الناس ظلامه وسواده . وقال قتادة : (لباساً) أى : سكناً . وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً (١١) ﴾ [النبأ] أى : جعلناه مشرقاً نيراً مضيئاً ليتمكن الناس من التصرف فيه والذهاب والمجىء للمعاش والتكسب والتجارات » .

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾

[الواقعة]

فكلٌّ نجم من تلك النجوم البعيدة له مُهمة ، وإذا كنتَ أنت فى حياتك اليومية حين ينطفىء النور تذهب لترى : ماذا حدث فى صندوق الأكباس الذى فى منزلك ؛ ولكنك لا تعرف كيف تأتيك الكهرباء إلى منزلك ، وكيف تقدَّم العلم ليصنعَ لك المصباح الكهربائى . وكيف مدَّتْ الدولة الكهرباء من مواقع توليدها إلى بيتك .

وإذا كنتَ تجهل ما خَلْف الأثر الواحد الذى يصلك فى منزلك ، فما بالك بقول الحق سبحانه :

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) ﴾ [الواقعة]

وهو القائل :

﴿ وَعَلامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) ﴾ [النحل]

وقد خصَّها الحق سبحانه هنا بجملة جديدة مستقلة أعاد فيها خبر التسخير ، ذلك أن لكلٍّ منها منازلَ ، وهى كثيرة على العَدِّ والإحصاء ، وبعضها بعيد لا يصلنا ضوؤه إلا بعد ملايين السنين .

وقد خصَّها الحق سبحانه بهذا الخبر من التسخير حتى نتبينَ أن لله سراً فى كل ما خلق بين السماء والأرض .

ويريد لنا أن نلتفتَ إلى أن تركيبات الأشياء التى تنفعنا مواجهةً وراءها أشياء أخرى تخدمها .

ونجد الحق سبحانه وهو يُذيِّل الآية الكريمة بقوله :

﴿ إِنَّ فِي ذَ ٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ [النحل]

ونعلم أن الآياتِ هى الأمورُ العجيبة التى يجب ألاَّ يمرَّ عليها الإنسان مراً مُعرضاً ؛ بل عليه أنْ يتأملَها ، ففى هذا التأمل فائدة له ؛ ويمكنه أنْ يستنبطَ منها المجاهيل التى تُنعِّم البشر وتُسعدهم .

وكلمة ﴿ يَعْقِلُونَ ﴾ تعنى إعمالَ العقل ، ونعلم أن للعقل تركيبةً خاصة ؛ وهو يستنبط من المُحسّات الأمورَ المعنوية ، وبهذا يأخذ من المعلوم نتيجةً كانت مجهولةً بالنسبة له ؛ فيَسعد بها ويُسعد بها مَنْ حوله ، ثم يجعل من هذا المجهول مقدمةً يصل بها إلى نتيجة جديدة .

وهكذا يستنبط الإنسان من أسرار الكون ما شاء له الله أنْ يستنبطَ ويكتشف من أسرار الكون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ[1] مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۗ إِنَّ فِي ذَ ٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

وكلمة ﴿ ذَرَأَ ﴾ تعنى أنه خلق خَلْقاً يتكاثر بذاته ؛ إما بالحَمْل للأنثى من الذَّكَر ؛ فى الإنسان أو الحيوان والنبات ؛ وإما بواسطة تفريخ البيض كما فى الطيور .

وهكذا نفهم الذَّرْءَ بمعنى أنه ليس مطلقَ خَلْق ؛ بل خلق بذاته فى

(١) ذرأ الله الخلق يذرؤهم : خلقهم وبثَّهم وكثَّرهم . [القاموس القويم ١/٢٤٢] .

التكاثر بذاته ، والحق سبحانه قد خلق آدم أولاً ، ثم أخرج منه النسل ليتكاثر النسلُ بذاته حين يجتمع زوجان ونتجا مثيلاً لهما ؛ ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ فَتَبَارَكَ[1] اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ﴾ [المؤمنون]

وهكذا شاء الحق سبحانه أن يفيض على عباده بأن يُعطيهم صفة أنهم يخلقون ، ولكنهم لا يخلقون كخَلْقه ؛ فهو قد خلق آدم ثم أوجدهم من نسله . والبشر قد يخلقون بعضاً من مُعدات وأدوات حياتهم ، لكنهم لا يخلقون كخَلْق الله ؛ فهم لا يخلقون من معدوم ؛ بل من موجود ، والحق سبحانه يخلق من المعدوم مَنْ لا وجودَ له ؛ وهو بذلك أحسَنُ الخالقين .

والمَثَل الذى أضربه دائماً هو الحبة التى تُنبت سبْعَ سنابل وفى كل سُنْبلة مائة حَبّة ؛ وقد أوردها الحق سبحانه ليشوِّق للإنسان عملية الإنفاق فى سبيل الله[2] ، وهذا هو الخَلْق المادىّ الملموس ؛ فمن حَبَّة واحدة أنبت سبحانه كل ذلك .

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ .. (١٣) ﴾ [النحل]

أى : ما خلق لنا من خَلْق متكاثر بذاته تختلف ألوانه . واختلاف الألوان وتعدُّدها دليل على طلاقة قدرة الله فى أن الكائنات لا تخلق على نَمَط واحد .

---

(١) تبارك الله : تقدّس وتنزّه عن كل نقص ، أو كَثُر خيره على عباده . [القاموس القويم ١/٦٥] .

(٢) قال تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة] .

ويعطينا الحق سبحانه الصورة على هذا الأمر فى قوله سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ(١) بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ(٢) سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) ﴾ [فاطر]

وأنت تمشى بين الجبال ؛ فتجدها من ألوان مختلفة ؛ وعلى الجبل الواحد تجد خطوطاً تفصل بين طبقات مُتعدِّدة ، وهكذا تختلف الألوان بين الجمادات وبعضها ، وبين النباتات وبعضها البعض ، وبين البشر أيضاً .

وإذا ما قال الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ .. (٢٨) ﴾ [فاطر]

فلَنا أن نعرفَ أن العلماء هنا مقصودٌ بهم كُلّ عالم يقف على قضية كونية مَرْكوزة فى الكون أو نزلتْ من المُكوِّن مباشرة .

ولم يقصد الحق سبحانه بهذا القول علماء الدين فقط ، فالمقصود هو كل عالم يبحث بحثاً ليستنبط به معلوماً من مجهول ، ويُجلّى أسرار الله فى خلقه . وقد أراد ﷺ أن يفرق فَرْقاً واضحاً فى هذا الأمر ، كى لا يتدخَّل علماء الدين فى البحث العلمىّ التجريبىّ الذى

(١) الجدد : الطرائق تكون فى الجبال جمع جدة . وهى الطريقة فى السماء والجبل . وقوله عز وجل : ﴿ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ ... (٢٧) ﴾ [فاطر] أى طرائق تخالف لون الجبل . [لسان العرب - مادة : جدد] .

(٢) غربيب : شديد السواد وجمعه غرابيب . [القاموس القويم ٢/ ٥٠] .

يُفيد الناس ، ووجد ﷺ الناس تُؤبّر[1] النخيل ؛ بمعنى أنهم يأتون بطَلْع الذُّكورة ؛ ويُلقِّحون النخيل التى تتصف بالأنوثة ، وقال : لو لم تفعلوا لأثمرتْ . ولما لم تثمر النخيل ، قَبل رسول الله ﷺ الأمر ؛ وأمر بإصلاحه وقال القولة الفصل « أنتم أعلَمُ بشئون دنياكم »[2] .

أى : أنتم أعلم بالأمور التجريبية المعملية ، ونلحظ أن الذى حجز الحضارة والتطوُّر عن أوربا لقرون طويلة ؛ هو محاولة رجال الدين أنْ يحجُروا على البحث العلمى ؛ ويتهموا كُلّ عالم تجريبىّ بالكفر .

ويتميز الإسلام بأنه الدين الذى لم يَحُلْ دون بَحْث أى آية من آيات الله فى الكون ، ومن حنان الله أنْ يُوضِّح لخَلْقه أهمية البحث فى أسرار الكون ، فهو القائل :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥) ﴾ [يوسف]

أى : عليك أيُّها المؤمن ألاَّ تُعرض عن أىِّ آية من آيات الله التى فى الكون ؛ بل على المؤمن أنْ يُعمِلَ عقله وفكْره بالتأمُّل ليستفيد منها فى اعتقاده وحياته . يقول الحق :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣) ﴾ [فصلت]

---

(١) أبر النخل والزرع يأبره : أصلحه . وتأبير النخل : تلقيحه . [لسان العرب ـ مادة : أبر] .

(٢) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك « أن النبى ﷺ مر بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً (التمر الردىء) فمرَّ بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

أما الأمور التى يتعلّق بها حساب الآخرة ؛ فهى من اختصاص العلماء الفقهاء .

ويذيل الحق سبحانه الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ [النحل]

أى : يتذكَّرون شيئاً مجهولاً بشىء معلوم .

وبعد ذلك يعود الحق سبحانه إلى التسخير ، فيقول :

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً(١) تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ(٢) فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

والتسخير كما علمنا من قَبْل هو إيجاد الكائن لمهمة لا يستطيع الكائن أنْ يتخلَّف عنها ، ولا اختيارَ له فى أنْ يؤدّيها أو لا يُؤدّيها . ونعلم أن الكون كله مُسخَّر للإنسان قبل أنْ يُوجدَ ؛ ثم خلق الله الإنسان مُخْتاراً .

وقد يظن البعض أن الكائنات المُسخَّرة ليس لها اختيار ، وهذا خطأ ؛ لأن تلك الكائنات لها اختيار حَسمتْه فى بداية وجودها ، ولنقرأْ قوله الحق :

---

(١) الحلية : يعنى بها اللؤلؤ والمرجان . قاله القرطبى فى تفسيره (٣٨١١/٥) .

(٢) مخرت السفينة : شقّت الماء بصدرها وسُمِع لها صوت . [القاموس القويم ٢١٨/٢] .

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَٰوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ[1] مِنْهَا ..(٧٢) ﴾ [الأحزاب]

وهكذا نفهم أن الحق سبحانه خيَّر خلقه بين التسخير وبين الاختيار ، إلا أن الكائنات التى هى ما دون الإنسان أخذتْ اختيارها مرَّة واحدة ؛ لذلك لا يجب أنْ يُقال : إن الحق سبحانه هو الذى قهرها ، بل هى التى اختارتْ من أول الأمر ؛ لأنها قدرتْ وقت الأداء ، ولم تقدر فقط وقت التحمل كما فعل الإنسان ، وكأنها قالت لنفسها : فلأخرج من باب الجَمال ؛ قبل أن ينفتحَ أمامى باب ظلم النفس .

ونجد الحق سبحانه يصف الإنسان :

﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) ﴾ [الأحزاب]

فقد ظلم الإنسانُ نفسَه حين اختار أنْ يحملَ الأمانة ؛ لأنه قدر وقت التحمُّل ولم يقدر وقت الأداء ، وهو جَهُول لأنه لم يعرف كيف يُفرِّق بين الأداء والتحمُّل ، بينما منعت الكائنات الأخرى نفسها من أن تتحمَّل مسئولية الأمانة ، فلم تظلم نفسها بذلك .

وهكذا نصل إلى تأكيد معنى التسخير وتوضيحه بشكل دقيق ، ونعرف أنه إيجاد الكائن لمهمة لا يملك أنْ يتخلَّف عنها ؛ أما الاختيار فهو إيجاد الكائن لمُهمة له أنْ يُؤدِّيها أو يتخلَّف عنها .

وأوضحنا أن المُسخَّرات كان لها أنْ تختارَ من البداية ، فاختارتْ أن تُسخَّر وألاَّ تتحملَ الأمانة ، بينما أخذ الإنسانُ المهمةَ ، واعتمد على عقله وفِكْره ، وقَبِل أن يُرتِّب أمور حياته على ضوء ذلك .

---

(١) الشَّفق : الخوف . والشفقة : رقة من نصح أو حب يؤدى إلى خوف . [لسان العرب ـ مادة : شفق] .

ومع ذلك أعطاه الله بعضاً من التسخير كى يجعل الكون كله فيه بعض من التسخير وبعض من الاختيار ؛ ولذلك نجد بعضاً من الأحداث تجرى على الإنسان ولا اختيارَ له فيها ؛ كأن يمرضَ أو تقع له حادثة أو يُفلس .

ولذلك أقول : إن الكافر مُغفّل لاختياره ؛ لأنه ينكر وجود الله ويتمرَّد على الإيمان ، رغم أنه لا يقدر أن يصُدَّ عن نفسه المرض أو الموت .

وفى الآية التى نحن بصددها الآن يقول الحق سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ .. (١٤) ﴾ [النحل]

فهذا يعنى أنه هو الذى خلق البحر ، لأنه هو الذى خلق السماوات والأرض ؛ وجعل اليابسة ربع مساحة الأرض ؛ بينما البحار والمحيطات تحتل ثلاثة أرباع مساحة الأرض .

أى : أنه يُحدِّثنا هنا عن ثلاثة أرباع الأرض ، وأوجد البحار والمحيطات على هيئة نستطيع أن نأخذَ منها بعضاً من الطعام فيقول :

﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾

[النحل]

ومن بعض عطاءات الحق سبحانه أن يأتى المَدُّ أحياناً ثم يَعْقبه الجَزْر ؛ فيبقى بعض من السمك على الشاطىء ، أو قد تحمل موجة عفيّة بعضاً من السمك وتلقيه على الشاطىء .

وهكذا يكون العطاء بلا جَهْد من الإنسان ، بل إن وجودَ بعض من الأسماك على الشاطىء هو الذى نبَّه الإنسان إلى أهمية أنْ يحتالَ

ويصنع السِّنارة ؛ ويغزل الشبكة ؛ ثم ينتقل من تلك الوسائل البدائية إلى التقنيّات الحديثة فى صيد الأسماك .

لكن الحلية التى يتم استخراجها من البحر فهى اللؤلؤ ، وهى تقتضى أن يغوصَ الإنسان فى القاع ليلتقطها . ويلفتنا الحق سبحانه إلى أسرار كنوزه فيقول :

﴿لَهُ مَا فِي السَّمَٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ[1] ⦗٦⦘﴾ [طه]

وكل كنوز الأمم توجد تحت الثَّرى . ونحن إنْ قسمنا الكرة الأرضية كما نقسم البطيخة إلى قِطَع كالتى نُسمّيها « شقة البطيخ » سنجد أن كنوز كل قطعة تتساوى مع كنوز القطعة الأخرى فى القيمة النفعية ؛ ولكن كُلّ عطاء يوجد بجزء من الأرض له ميعاد ميلاد يحدده الحق سبحانه .

فهناك مكان فى الأرض جعل الله العطاء فيه من الزراعة ؛ وهناك مكان آخر صحراوى يخاله الناس بلا أىِّ نفع ؛ ثم تتفجَّر فيه آبار البترول ، وهكذا .

وتسخير الحق سبحانه للبحر ليس بإيجاده فقط على الهيئة التى هو عليها ؛ بل قد تجد له أشياء ومهام أخرى مثل انشقاق البحر بعصا موسى عليه السلام ؛ وصار كل فِرْق كالطَّوْد[2] العظيم.

---

(١) الثرى : التراب الندى أو التراب مطلقاً . قال تعالى : ﴿وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ⦗٦⦘﴾ [طه] . أى : ما تحت جميع طبقات الأرض . [القاموس القويم ١/١٠٧] .

(٢) يقول تعالى : ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ⦗٦٣⦘﴾ [الشعراء] . والطود العظيم : الجبل الكبير . قال عطاء الخراسانى : هو الفج بين الجبلين . [تفسير ابن كثير ٣/٣٣٦] .

ومن قبل ذلك حين حمل اليَمّ[1] موسى عليه السلام بعد أن ألقتْه أمه فيه بإلهام من الله :

﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ .. (٣٩) ﴾ [طه]

وهكذا نجد أن أمراً من الله قد صدر للبحر بأن يحملَ موسى إلى الشاطىء فَوْر أنْ تُلقيَه أمه فيه .

وهكذا يتضح لنا معنى التسخير للبحر فى مهام أخرى ، غير أنه يوجد به السمك ونستخرج منه الحُلىّ . ونعلم أن ماءَ البحر مالح ؛ عكس ماء النهر وماء المطر ؛ فالمائيّة تنقسم إلى قِسْمين ؛ مائية عَذْبة ، ومائية ملْحية .

وقوله الحق عن ذلك :

﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ[2] سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ[3] وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٢) ﴾

[فاطر]

ويسمُّونهم الاثنين على التغليب فى قوله الحق :

﴿ مَرَجَ[4] الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) ﴾ [الرحمن]

والمقصود هنا الماء العَذْب والماء المالح ، وكيف يختلطان ، ولكن

---

(١) اليم : البحر أو النهر العذب . قال تعالى : ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ .. (١٣٦) ﴾ [الأعراف] وهو خليج السويس وماؤه ملح وهو امتداد البحر الأحمر . وقوله تعالى : ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٣٩) ﴾ [طه] هو نهر النيل العذب . [القاموس القويم ٢/ ٣٧٢] .

(٢) الفرات : أشد الماء عذوبة . وقد فَرُتَ الماء : عَذُب . [لسان العرب - مادة : فرت] .
وشراب سائغ : عَذْب يسهل مدخله فى الحلق . [لسان العرب - مادة : سوغ] .

(٣) الملح الأجاج : الشديد الملوحة والمرارة . [لسان العرب - مادة : أجج] .

(٤) مرج الشىء : خلطه . أى خلطهما حالة كونهما يلتقيان . [القاموس القويم ٢/ ٢٢١] .

الماء العَذْب يتسرَّب إلى بطن الأرض ، وأنت لو حفرتَ في قاع البحر لوجدتَ ماء عَذْباً ، فالحق سبحانه هو الذى شاء ذلك وبيَّنه فى قوله :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ .. (٢١) ﴾ [الزمر]

وهنا يقول سبحانه :

﴿ وَهُوَ الَّذِى سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. (١٤) ﴾ [النحل]

واللحم إذا أُطلق يكون المقصود به اللحم المأخوذ من الأنعام ، أما إذا قُيِّد بـ « لَحم طرى » فالمقصود هو السمك ، وهذه مسألة من إعجازية التعبير القرآنى ؛ لأن السمك الصالح للأكل يكون طَرّياً دائماً .

ونجد مَنْ يشترى السمك وهو يَثْنى السمكة ، فإنْ كانت طريّة فتلك علامةٌ على أنها صالحةٌ للأكل ، وإنْ كانت لا تنثنى فهذا يعنى أنها فاسدة ، وأنت إنْ أخرجتَ سمكة من البحر تجد لحمها طَرّياً ؛ فإنْ ألقيتَها فى الماء فهى تعود إلى السباحة والحركة تحت الماء ؛ أما إنْ كانت ميتة فهى تنتفخ وتطفو .

لذلك نهى النبى ﷺ عن أكْل السمك الطَّافى لأنه المَيْتة ، وتقييد اللحم هنا بأنه طرىّ كى يخرجَ عن اللحم العادى وهو لَحْم الأنعام ؛ ولذلك نجد العلماء يقولون : مَنْ حلفَ ألاّ يأكل لَحْماً ؛ ثم أكل سمكاً فهو لا يحنث ؛ لأن العُرْف جرى على أن اللحم هو لَحْم الأنعام .

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية عن تسخير البحر :

﴿ وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. (١٤) ﴾ [النحل]

وهكذا نجد أن هذه المسألة تأخذ جهداً ؛ لأنها رفاهية ؛ أما السمك فقال عنه مباشرة :

﴿ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل]

والأكْل أمر ضروري لذلك تكفّله الله وأعطى التسهيلات فى صَيْده ، أما الزينة فلكَ أنْ تتعبَ لتستخرجه ، فهو تَرَفٌ . وضروريات الحياة مَجْزولة ؛ أما تَرَف الحياة فيقتضى منك أنْ تغطسَ فى الماء وتتعبَ من أجله .

وفى هذا إشارة إلى أن مَنْ يريد أنْ يرتقىَ فى معيشته ؛ فَلْيُكثِر من دخله ببذل عرقه ؛ لا أنْ يُترِف معيشته من عرق غيره .

ويقول سبحانه :

﴿ تَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل]

والحِلْية كما نعلم تلبسها المرأة . والمَلْحظ الأدنى هنا أن زينةَ المرأة هى من أجْل الرجل ؛ فكأن الرجلَ هو الذى يستمتع بتلك الزينة ، وكأنه هو الذى يتزيّن . أو : أن هذه المُسْتخرجات من البحر ليست مُحرّمة على الرجال مثْل الذهب والحرير ؛ فالذهب والحرير نَقْد ؛ أما اللؤلؤ فليس نَقْداً .

واللبس هو الغالب الشائع ، وقد يصحّ أنْ تُصنعَ من تلك الحلية عَصاً أو أى شىء مما تستخدمه .

ويتابع سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النحل]

ولم تكُن هناك بواخر كبيرة كالتى فى عصرنا هذا بل فُلْك صغيرة . ونعلم أن نوحاً عليه السلام هو أول مَنْ صنع الفُلْك ، وسَخِر منه قومه ؛ ولو كان ما يصنعه أمراً عادياً لَمَا سَخِروا منه .

وبطبيعة الحال لم يكُنْ هناك مسامير لذلك ربطها بالحبال ؛ ولذلك قال الحق سبحانه عنه :

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ[1] (١٣) ﴾ [القمر]

وكان جَرْى مركب نوح بإرادة الله ، ولم يكُنْ العِلْم قد تقدَّم ليصنع البشر المراكب الضخمة التى تنبّأ بها القرآن فى قوله الحق :

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ[2] (٢٤) ﴾ [الرحمن]

ونحن حين نقرؤها الآن نتعجَّب من قدرة القرآن على التنبؤ بما اخترعه البشر ؛ فالقرآن عالم بما يَجِدّ ؛ لا بقهريات الاقتدار فقط ؛ بل باختيارات البشر أيضاً .

وقوله الحق :

﴿ وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

والمَاخر هو الذى يشق حلزومه الماء ، والحُلْزوم هو الصدر . ونجد مَنْ يصنعون المراكب يجعلون المقدمة حادةً لتكون رأس الحربة التى تشق المياه بخرير .

---

(١) الدسار : المسمار أو حبل من ليف تشد به ألواح السفينة ، وجمعه دسر . [القاموس القويم ١/٢٢٧] .

(٢) الأعلام جمع علم وهو الجبل . فهو يصف السفن بالجبال فى كبرها . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٢٧٢) : « أى : كالجبال فى كبرها وما فيها من المتاجر والمكاسب المنقولة من قطر إلى قطر وإقليم إلى إقليم مما فيه صلاح للناس فى جلب ما يحتاجون إليه من سائر أنواع البضائع » .

وفى هذه الآية امتنَّ الحق سبحانه على عباده بثلاثة أمور : صيد السمك ، واستخراج الحُلىّ ، وسَيْر الفلْك فى البحر ؛ ثم يعطف عليهم ما يمكن أن يستجدّ ؛ فيقول :

﴿ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (١٤) ﴾ [النحل]

وكل البواخر وهى تشقّ الماء ويرى الإنسان الماءَ اللين ، وهو يد الجسم الصَّلْب للباخرة فيجد فيه متعة ، فضلاً عن أن هذه البواخر تحمل الإنسانَ من مكان إلى مكان .

ويُذيّل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) ﴾ [النحل]

ولا يُقال ذلك إلا فى سَرْد نعمة آثارُها واضحة ملحوظة تستحقّ الشكر من العقل العادى والفطرة العادية ، وشاء سبحانه أنْ يتركَ الشُّكر للبشر على تلك النعم ، ولم يُسخرهم شاكرين .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ[1] بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) ﴾

وهكذا يدلُّنا الحق سبحانه على أن الأرض قد خُلِقت على مراحل ، ويشرح ذلك قوله سبحانه :

---

(١) ماد يميد : تحرك واهتز . ومادت الأرض : اضطربت وزلزلت . قال تعالى : ﴿ وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ ..(١٠) ﴾ [لقمان] لئلا تميل وتضطرب فالجبال العالية توازن البحار العميقة . [القاموس القويم ٢/٢٤٦] .

﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا[1] ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[2] فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ۝١٠﴾ [فصلت]

وهكذا علِمنا أن جِرْم الأرض العام قد خُلق أولاً ؛ وهو مخلوق على هيئة الحركة ؛ ولأن الحركة هى التى تأتى بالمَيدان ـ التأرجُح يميناً وشمالاً ـ وعدم استقرار الجِرْم على وَضْع ، لذلك شاء سبحانه أن يخلق فى الأرض الرواسى لتجعلها تبدو ثابتة غير مُقلقة ، والرَّاسى هو الذى يَثبت .

ولو كانت الأرض مخلوقة على هيئة الاستقرار لما خلق الله الجبال ، ولكنه خلقَ الأرض على هيئة الحركة ، ومنع أنْ تميدَ بخَلْق الجبال ليجعلَ الجبال رواسيَ للأرض .

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ..۝٨٨﴾ [النمل]

وكلمة ﴿أَلْقَى﴾ تدلُّ على أن الجبال شىء متماسك وُضِع ليستقر .

ثم يعطف سبحانه على الجبال :

﴿وَأَنْهَارًا وَسُبُلاً .. ۝١٥﴾ [النحل]

---

(١) الأنداد : جمع نِدّ . وهو الضد والشبيه . ويريد بها ما كانوا يتخذونه آلهة من دون الله . [لسان العرب ـ مادة : ندد] .

(٢) الأقوات جمع قوت ، وهو الرزق . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/٩٣) : « هو ما يحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس » .

ولم يَأْتِ الحق سبحانه بفعل يناسب الأنهار ، ومن العجيب أن الأسلوب يجمع جماداً فى الجبال ، وسيولة فى الأنهار ، وسبلاً أى طرقاً ، وكُلٌّ ذلك :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن الجَعْل كلّه لعلنا نهتدى .

ونعلم أن العرب كانوا يهتدون بالجبال ، ويجعلون منها علامات ، والمثل هو جبل « هرشا » الذى يقول فيه الشاعر :

خُذُوا بَطْن هرشا أو قَفَاهَا فإنَّهُ كلاَ جَانِبى هرشا لَهُنَّ طَرِيقُ

وأيضاً جبل التوباد كان يُعتبر علامة .

وكذلك قَوْل الحق سبحانه :

﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الأَيْمَنِ ..﴿٥٢﴾ ﴾ [مريم]

وهكذا نجد من ضمن فوائد الجبال أنها علاماتٌ نهتدى بها إلى الطرق وإلى الأماكن ، وتلك من المهام الجانبية للجبال .

أو :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ [النحل]

باتعاظكم بالأشياء المخلوقة لكم ، كى تهتدوا لِمَنْ أوجدها لكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

أى : أن ما تقدم من خَلْق الله هو علامات تدلُّ على ضرورة أنْ تروا المنافع التى أودعها الله فيما خلق لكم ؛ وتهتدوا إلى الإيمان بإله موُجِد لهذه الأشياء لصالحكم .

وما سبق من علامات مَقرُّه الأرض ، سواء الجبال أو الأنهار أو السُّبل ؛ وأضاف الحق سبحانه لها فى هذه الآية علامةً توجد فى السماء ، وهى النجوم .

ونعلم أن كلَّ مَنْ يسير فى البحر إنما يهتدى بالنجم . وتكلم عنها الحق سبحانه هنا كتسخير مُخْتص ؛ ولم يُدخلها فى التسخيرات المتعددة ؛ ولأن نجماً يقود لنجم آخر ، وهناك نجوم لم يصلنا ضوؤها بعد ، وننتفع بآثارها من خلال غيرها[(١)] .

ونعلم أن قريشاً كانت لها رحلتان فى العام : رحلة الشتاء ، ورحلة الصيف . وكانت تسلك سبلاً متعددة ، فتهتدى بالنجوم فى طريقها ، ولذلك لابد أن يكون عندها خبرة بمواقع النجوم .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٨١٦/٥) : « قال ابن العربى : أما جميع النجوم فلا يهتدى بها إلا العارف بمطالعها ومغاربها ، والفرق بين الجنوبى والشمالى منها ، وذلك قليل فى الآخرين . وأما الثريا فلا يهتدى بها إلا من يهتدى بجميع النجوم . وإنما الهدى لكل أحد بالجَدْى والفرقدين ، لأنهما من النجوم المنحصرة المطالع الظاهرة السمت الثابتة فى المكان ، فإنها تدور على القطب الثابت دوراناً محصلاً ، فهى أبداً هَدْىُ الخلق فى البر إذا عميت الطرق ، وفى البحر عند مجرى السفن ، وفى القبلة إذا جُهل السَّمْت ، وذلك على الجملة بأن تجعل القطب على ظهر منكبك الأيسر فما استقبلت فهو سَمْت الجهة » .

قد فضَّل الحق هذا الأسلوب من بين ثلاثة أساليب يمكن أنْ تُؤدى المعنى ؛ هى : « يهتدون بالنجم » و « بالنجم يهتدون » والثالث : هو الذى استخدمه الحق فقال :

﴿ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [النحل]

وذلك تأكيد على خبرة قريش بمواقع النجوم ؛ لأنها تسافر كل عام رحلتين ، ولم يكن هناك آخرون يملكون تلك الخبرة .

والضمير « هم » جاء ليعطى خصوصيتين ؛ الأولى : أنهم يهتدون بالنجم لا بغيره ؛ والثانية : أن قريشاً تهتدى بالنجم ، بينما غيرُها من القبائل لا تستطيع أن تهتدى به .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

ونعلم أن الكلام الذى يلقيه المتكلم للسامع يأخذ صوراً متعددة ؛ فمرَّة يأخذ صورة الخبر ، كأن يقول : مَنْ لا يخلق ليس كَمَنْ يخلق . وهذا كلام خبرىّ ، يصح أنْ تُصدّقه ، ويصحّ ألاّ تُصدّقه .

أما إذا أراد المتكلم أن يأتى منك أنت التصديق ، ويجعلك تنطق به ؛ فهو يأتى لك بصيغة سؤال ، لا تستطيع إلا أنْ تجيبَ عليه بالتأكيد لمِا يرغبه المتكلِّم .

ونعلم أن قريشاً كانت تعبد الأصنام ؛ وجعلوها آلهة ؛ وهى لم تكلمهم ، ولم تُنزِل منهجاً ، وقالوا ما أورده الحق سبحانه على ألسنتهم :

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى[١] .. ③﴾ [الزمر]

فلماذا إذن لا يعبدون الله مباشرة دون وساطة ؟ ولماذا لا يرفعون عن أنفسهم مشقة العبادة ، ويتجهون إلى الله مباشرة ؟

ثم لنسأل : ما هى العبادة ؟

نعلم أن العبادة تعنى الطاعة فى « افعل » و « لا تفعل » التى تصدر من المعبود . وبطبيعة الحال لا توجد أوامر أو تكاليف من الأصنام لِمَنْ يعبدونها ، فهى معبودات بلا منهج ، وبلا جزاء لِمَن خالف ، وبلا ثواب لِمَنْ أطاع ، وبالتالى لا تصلح تلك الأصنام للعبادة .

ولنناقش المسألة من زاوية أخرى ، لقد أوضح الحق سبحانه أنه هو الذى خلق السماوات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وسخر كل الكائنات لخدمة الإنسان الذى أوكل إليه مهمة خلافته فى الأرض[٢] .

وكلُّ تلك الأمور لا يدعيها أحد غير الله ، بل إنك إنْ سألتَ الكفار والمشركين عمَّن خلقهم ليقولن الله .

قال الحق سبحانه :

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ⑧⑦﴾ [الزخرف]

---

(١) الزلفى : القرب والمنزلة والدرجة . زلف إليه : قرب ودنا . [القاموس القويم ٢٨٨/١] .
والمعنى كما قاله قتادة والسدى : أى ليشفعوا لنا ويقربونا عنده منزلة ولهذا كانوا يقولون فى تلبيتهم إذا حجوا فى جاهليتهم : لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤٥/٤) .

(٢) قال تعالى فى قرآنه : ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً .. ③⓪﴾ [البقرة] .

ذلك أن عملية الإيجاد والخَلْق لا يجرؤ أحدٌ أنْ يدَّعيَها إنْ لم يكُنْ هو الذى أبدعها ، وحين تسألهم : مَنْ خلق السماوات والأرض لقالوا : إنه الله[1] .

وقد أبلغهم محمد ﷺ أن الله هو الذى خلق السماوات والأرض ، وأن منهجه لإدارة الكون يبدأ من عبادته سبحانه .

وما دام قد ادَّعى الحق سبحانه ذلك ، ولم يوجد مَنْ ينازعه ؛ فالدعوة تثبُت له إلى أنْ يوجد معارض ، ولم يوجد هذا المُعَارض أبداً .

وهنا فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها ؛ لم يَقُل الحق سبحانه « أتجعلون مَنْ لا يخلق مثْل من يخلق » . بل قال :

﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لاَّ يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (١٧) ﴾ [النحل]

ووراء ذلك حكمة ؛ فهؤلاء الذين نزل إليهم الحديث تعاملوا مع الأصنام وكأنها الله ؛ وتوهَّموا أن الله مخلوق مثل تلك الأصنام ؛ ولذلك جاء القول الذى يناسب هذا التصوُّر .

والحق سبحانه يريد أنْ يبطل هذا التصوُّر من الأساس ؛ فأوضح أن مَنْ تعبدونهم هم أصنام من الحجارة وهى مادة ولها صورة ، وأنتم صنعتموها على حَسْب تصوُّركم وقدراتكم .

وفى هذه الحالة يكون المعبود أقلَّ درجةً من العابد وأدنى منه ؛ فضلاً عن أن تلك الأصنام لا تملك لِمَنْ يعبدها ضراً ولا نفعاً .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. (٦١) ﴾ [العنكبوت]

ثم : لماذا تدعون الله إنْ مسَّكُم ضُرٌّ ؟

إن الإنسان يدعو الله فى موقف الضر ؛ لأنه لحظتها لا يجرؤ على خداع نفسه ، أما الآلهة التى صنعوها وعبدوها فهى لا تسمع الدعاء :

﴿ إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) ﴾ [فاطر]

فكيف إذن تساوون بين مَنْ لا يخلق ، ومن يخلق ؟ إن عليكم أنْ تتذكّروا ، وأنْ تتفكَّروا ، وأن تُعْمِلوا عقولكم فيما ينفعكم .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ(١) إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾

وهذه الآية سبقتْ فى سورة إبراهيم ؛ فقال الحق سبحانه هناك :

﴿ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

وكان الحديث فى مجال مَنْ لم يعطوا الألوهية الخالقة ، والربوبية الموجِدة ، والمُمِدّة حقَّها ، وجحدوا كل ذلك . ونفس الموقف هنا حديث عن نفس القوم ، فيُوضِّح الحق سبحانه :

---

(١) لا تحصوها : لا تطيقوا عدّها ، ولا تقوموا بحصرها لكثرتها ، كالسمع والبصر وتقويم الصور إلى غير ذلك من العافية والرزق . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥/٣٧٠٥] .

أنتم لو استعرضتم نِعَم الله فلن تحصوها ، ذلك أن المعدود دائماً يكون مكرر الأفراد ؛ ولكن النعمة الواحدة فى نظرك تشتمل على نِعَم لا تُحصَى ولا تُعَد ؛ فما يالك بالنِّعم مجتمعة ؟

أو : أن الحق سبحانه لا يمتنُّ إلا بشيء واحد ، هو أنه قد جاء لكم بنعمة ، وتلك النعمة أفرادها كثير جداً .

ويُنهِى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٨) ﴾ [النحل]

أى : أنكم رغم كُفْركم سيزيدكم من النعم ، ويعطيكم من مناط الرحمة ، فمنكم الظلم ، ومن الله الغفران ، ومنكم الكفر ومن الله الرحمة .

وكأنَّ تذييل الآية هنا يرتبط بتذييل الآية التى فى سورة إبراهيم حيث قال هناك :

﴿ إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤) ﴾ [إبراهيم]

فهو سبحانه غفور لجحدكم ونُكْرانكم لجميل الله ، وهو رحيم ، فيوالى عليكم النِّعَم رغم أنكم ظالمون وكافرون .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ (١٩) ﴾

والسِّر ـ كما نعلم ـ هو ما حبْسته فى نفسك ، أو ما أسررْتَ به لغيرك ، وطلبتَ منه ألاَّ يُعلِمه لأحد . والحق سبحانه يعلم السِّر ، بل يعلم ما هو أَخْفى فهو القائل :

﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ۝٧﴾ [طه]

أى : أنه يعلم ما نُسره فى أنفسنا ، ويعلم أيضاً ما يمكن أن يكون سراً قبل أن نُسِرَّه فى أنفسنا ، وهو سبحانه لا يعلم السِّر فقط ؛ بل يعلم العلَن أيضاً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝٢٠﴾

أى : أنهم لا يستطيعون أنْ يخلقوا شيئاً ؛ بل هم يُخْلقون ، والأصنام كما قُلْنا من قبل هى أدنى ممَّنْ يخلقونها ، فكيف يستوى أنْ يكونَ المعبود أدْنى من العابد ؟ وذلك تسفيهٌ لعبادتهم .

ولذلك يقول الحق سبحانه على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام لحظةَ أنْ حطَّم الأصنام ، وسأله أهله : مَنْ فعل ذلك بآلهتنا ؟ وأجاب :

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا .. ۝٦٣﴾ [الأنبياء]

فقالوا له : إن الكبير مجرَّد صنم ، وأنت تعلم أنه لا يقدر على شىء .

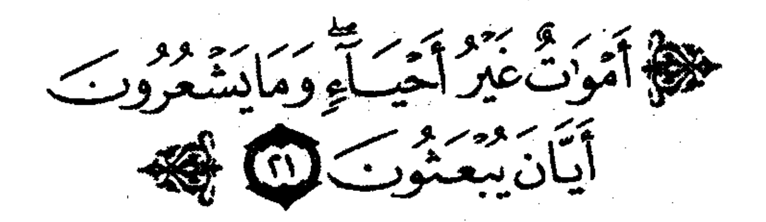
ونجد القرآن يقول لأمثال هؤلاء :

﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ[(١)] (٩٥) ﴾ [الصافات]

فهذه الآلهة ـ إذن ـ لا تخلق بل تُخلق ، لكن الله هو خالق كل شيء ، وسبحانه القائل :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

ويذكر الحق سبحانه من بعد ذلك أوصاف تلك الأصنام :



وهم بالفعل أموات ؛ لأنهم بلا حِسٍّ ولا حركة ، وقوله :

﴿ غَيْرُ أَحْيَاءٍ .. (٢١) ﴾ [النحل]

تفيد أنه لم تكُنْ لهم حياة من قَبْل ، ولم تثبت لهم الحياة فى دورة من دورات الماضى أو الحاضر أو المستقبل .

وهكذا تكتمل أوصاف تلك الأصنام ، فهم لا يخلقون شيئاً ، بل هم مخلوقون بواسطة مَنْ نحتُوهم ، وتلك الأصنام والأوثان لن تكون لها حياة فى الآخرة ، بل ستكون وَقُوداً للنار .

---

(١) نحته : براه واقتطع منه أجزاء ، ويكون ذلك فى الأشياء الصلبة كالحجر والخشب . [القاموس القويم ٢/٢٥٥] .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ[١] وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢) ﴾ [الصافات]

وبطبيعة الحال لن تشعرَ تلك الحجارةُ ببعْث مَنْ عبدوها .

ويُصفِّي الحق سبحانه من بعد ذلك المسألة العقدية ، فيقول :

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ[٢] وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ (٢٢) ﴾

وقَوْله الحق :

﴿ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. (٢٢) ﴾ [النحل]

تمنع أنْ يكونَ هناك أفراد غيره مثله ، وقد يتصوَّر البعض أنها تُساوى كلمة « أحد » . وأقول : إن كلمة « أحد » هى منع أن يكونَ له أجزاء ؛ فهو مُنزَّه عن التَّكْرار أو التجزىء .

وفى هذا القول طَمْأنةٌ للمؤمنين بأنهم قد وصلوا إلى قِمَّة الفهم والاعتقاد بأن الله واحد .

أو : هو يُوضِّح للكافرين أن الله واحدٌ رغم أنوفكم ، وستعودون

---

(١) أزواجهم : نظراءهم وأضرابهم وقرناءهم . [لسان العرب ـ مادة : زوج] . « قال عمر ابن الخطاب : أزواجهم : أشباههم يجىء أصحاب الزنا مع أصحاب الزنا ، وأصحاب الربا مع أصحاب الربا ، وأصحاب الخمر مع أصحاب الخمر » . نقله ابن كثير فى تفسيره (٤/٤) .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨١٩) : « أى : لا تقبل الوعظ ، ولا ينجع فيها الذكر » .

إليه غَضْباً ، وبهذا القول يكشف الحق سبحانه عن الفطرة الموجودة فى النفس البشرية التى شهدتْ فى عالم الذَّرِّ أن الله واحد لا شريك له ، وأن القيامة والبعث حَقٌّ .

ولكن الذين لا يؤمنون بالله وبالآخرة هم مَنْ ستروا عن أنفسهم فطرتهم ، فكلمة الكفر كما سبق أنْ قلنا هى ستر يقتضى مستوراً ، والكفر يستر إيمانَ الفطرة الأولى .

والذين يُنكرون الآخرة إنما يَحْرِمون أنفسهم من تصوُّر ما سوف يحدث حَتْماً ؛ وهو الحساب الذى سيجازى بالثواب والحسنات على الأفعال الطيبة ، ولعل سيئاتهم تكون قليلة ؛ فيجبُرها الحق سبحانه لهم وينالون الجنة .

والمُسْرِفون على أنفسهم ؛ يأملون أن تكون قضيةُ الدين كاذبة ، لأنهم يريدون أن يبتعدوا عن تصوُّر الحساب ، ويتمنَّوْنَ ألاَّ يوجدَ حساب .

ويَصفُهم الحق سبحانه :

﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [النحل]

أى : أنهم لا يكتفُون بإنكار الآخرة فقط ؛ بل يتعاظمون بدون وجه للعظمة .

و « استكبر » أى : نصَّب من نفسه كبيراً دون أنْ يملكَ مُقوّمات الكبر ، ذلك أن « الكبير » يجب أن يستندَ لِمُقوِّمات الكِبَر ؛ ويضمن لنفسه أنْ تظلَّ تلك المُقوِّمات ذاتيةً فيه .

ولكنّا نحن البشر أبناءُ أغيارٍ ؛ لذلك لا يصِحُّ لنا أنْ نتكبَّر ؛

فالواحد منّا قد يمرض ، أو تزول عنه أعراض الثروة أو الجاه ، فصفات وكمالات الكبر ليست ذاتية فى أىٍّ منّا ؛ وقد تُسلب ممَّنْ فاء الله عليه بها ؛ ولذلك يصبح من اللائق أن يتواضعَ كُلٌّ منَّا ، وأنْ يستحضرَ ربّه ، وأنْ يتضاءلَ أمام خالقه .

فالحق سبحانه وحده هو صاحب الحق فى التكبُّر ؛ وهو سبحانه الذى تبلغ صفاته ومُقوّماته منتهى الكمال ، وهى لا تزول عنه أبداً .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡتَكۡبِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾

وساعة نرى ﴿ لا جرم[1] ﴾ فمعناها أنَّ ما يأتى بعدها هو حَقٌّ ثابت ، فـ « لا » نافية ، و « جرم » مأخوذة من « الجريمة » ، وهى كَسْر شىء مُؤْمَن به لسلامة المجموع . وحين نقول « لا جرم » أى : أن ما بعدها حَقٌّ ثابت .

وما بعد ﴿ لا جرم ﴾ هنا هو : أن الله يعلم ما يُسِرون وما يُعلِنون .

وكُلُّ آيات القرآن التى ورد فيها قوله الحق ﴿ لا جرم ﴾ تُؤدّى هذا المعنى ، مثل قوله الحق :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ[2] ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) لا جرم : قال الفراء : هي في الأصل بمعنى لابُد ولا محالة ، ثم كثرت فحولت إلى معنى القسم وصارت بمعنى حقاً [المصباح المنير ص٥٤] .

(٢) مُفْرَطُون : متروكون منسيون فى النار قاله مجاهد . وقال مجاهد : مبعدون . وقال قتادة والحسن : معجلون إلى النار مقدمون إليها . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٤٦] .

وكذلك قوله الحق :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾ [النحل]

وقد قال بعض العلماء : إن قوله الحق ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ يحمل معنى « لا بُدَّ » ، وهذا يعنى أن قوله الحق :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ .. (٢٣) ﴾ [النحل]

لا بُدَّ أن يعلم الله ما يُسرون وما يُعلنون ، ولا مناصَ من أن الذين كفروا هم الخاسرون . وقد حلَّلَ العلماء اللفظ لِيصلوا إلى أدقِّ أسراره .

وعِلْم الله لا ينطبق على الجَهْر فقط ، بل على السِّر أيضاً ؛ ذلك أنه سيحاسبهم على كُلِّ الأعمال . ويُنهِي الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣) ﴾ [النحل]

وإذا سألنا : وما علاقةُ عِلْم الله بالعقوبة ؟ ونقول : ألم يقولوا فى أنفسهم :

﴿ لَوْلا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ .. (٨) ﴾ [المجادلة]

وإذا ما نزل قول الحق سبحانه لِيُخبرهم بما قالوه فى أنفسهم ؛ فهذا دليل على أن مَنْ يُبلغهم صادقٌ فى البلاغ عن الله ، ورغم ذلك فقد استكبروا ؛ وتأبَّوْا وعاندوا ، وأخذتهم العزة بالإثم ، وأرادوا بالاستكبار الهرب من الالتزام بالمنهج الذى جاءهم به الرسول ﷺ .

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوٓاْ أَسَـٰطِيرُ[1] ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾

وقوله الحق :

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

يُوضِّح الاستدراك الذى أجراه الله على لسان المُتكلِّم ؛ ليعرفوا أن لهم رباً . ولو لم يكونوا مؤمنين برَبٍّ ، لأعلنوا ذلك ، ولكنهم من غفلتهم اعترضوا على الإنزال ، ولم يعترضوا على أن لهم رباً .

وهذا دليل على إيمانهم بربٍّ خالق ؛ ولكنهم يعترضون على محمد ﷺ وما أُنزِل إليه من الله .

و :

﴿ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [النحل]

والأساطير : هى الأكاذيب ، ولو كانوا صادقين مع أنفسهم لَمَا أقرُّوا بالألوهية ، ورفضوا أيضاً القول المُنْزل إليهم .

ومنهم من قال :

﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٥﴾ ﴾

[الفرقان]

---

(١) الأساطير : جمع أسطورة وهى الأحاديث التى لا أصل لها . أو هى جمع أسطار أو جمع سطر : أى كتابات وغلبت على الباطل منها . [القاموس القويم ١/٣١٣] .

ولكن هناك جانب آخر كان له موقف مختلف سيأتى تبيانه من بعد ذلك ، وهم الجانب المُضَادّ لهؤلاء ؛ حيث يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠) ﴾ [النحل]

ووراء ذلك قصة تُوضّح جوانب الخلاف بين فريق مؤمن ، وفريق كافر .

فحين دعا رسول الله ﷺ قومه وعشيرته إلى الإيمان بالله الواحد الذى أنزل عليه منهجاً فى كتاب مُعجز ، بدأت أخبار رسول الله ﷺ تنتشر بين قبائل الجزيرة العربية كلها ، وأرسلت كُلّ قبيلة وفداً منها لتتعرف وتستطلع مسألة هذا الرسول .

ولكن كُفّار قريش أرادوا أن يصدُّوا عن سبيل الله ؛ فقسَّموا أنفسهم على مداخل مكة الأربعة ، فإذا سألهم سائل من وفود القبائل « ماذا قال ربكم الذى أرسل لكم رسولاً ؟» .

هنا يرد عليهم قسم الكفار الذى يستقبلهم : « إنه رسول كاذب ، يُحرِّف ويُجدِّف[1] » . والهدف طبعاً أنْ يصدَّ الكفار وفود القبائل .

ويخبر الحق سبحانه رسوله ﷺ بما حدث ، وإذا قيل للواقفين على أبواب مكة من الوفود التى جاءت تستطلع أخبار الرسول : ماذا أنزل ربُّكم ؟ يردُّون « إنه يُردِّد أساطير الأولين » .

(١) التجديف : هو الكفر بالنعم . جدَّف الرجل بنعمة الله : كفرها ولم يقنع بها . قال أبو عبيد : يعنى كفر النعمة واستقلال ما أنعم الله عليك . [لسان العرب ـ مادة : جدف] .

وهذا الجواب الواحد من الواقفين على أبواب مكة الأربعة يدلُّ على أنها إجابة مُتفق عليها ، وسبق الإعداد لها ، وقد أرادوا بذلك أنْ يَصرفوا وفود القبائل عن الاستماع لرسول الله ﷺ فشبَّهوا الذِّكْر المُنزَّل من الله بمثل ما كان يرويه لهم - على سبيل المثال - النضر ابن الحارث من قصص القدماء التي تتشابه مع قصص عنترة ، وأبي زيد الهلالي التي تُروى في قُرَانا . وهذه هي الموقعة الأولى في الأخذ والرد .

ويُعقِّب الحق سبحانه على قوله هذا :

﴿ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

وانظر إلى قوله سبحانه :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [النحل]

لترى كيف يُوضِّح الحق سبحانه أن النفس البشرية لها أحوال متعددة ؛ وإذا أسرفتْ على نفسها في تلك الجوانب ؛ فهي قد تُسرف في الجانب الأخلاقي ؛ والجانب الاجتماعي ؛ وغير ذلك ، فتأخذ وِزْر كُلِّ ما تفعل .

ويُوضِّح هنا الحق سبحانه أيضاً أن تلك النفس التي ترتكب الأوزار حين تُضل نفساً غيرها فهي لا تتحمل من أوزار النفس التي أضلَّتها إلا ما نتجَ عن الإضلال ؛ فيقول :

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

ذلك أن النفس التى تَمَّ إضلالها قد ترتكب من الأوزار فى مجالات أخرى ما لا يرتبط بعملية الإضلال .

والحق سبحانه أعدل من أنْ يُحمّل حتى المُضِل أوزاراً لم يكُنْ هو السبب فيها ؛ ولذلك قال الحق سبحانه هنا :

﴿ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

أى : أن المُضِلّ يحمل أوزار نفسه ، وكذلك يحمل بعضاً من أوزار الذين أضلّهم ؛ تلك الأوزار الناتجة عن الإضلال .

وفى هذا مُطْلق العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، فالذين تَمَّ إضلالهم يرتكبون نوعين من الأوزار والسيئات ؛ أوزار وسيئات نتيجة الإضلال ؛ وتلك يحملها معهم مَنْ أضلوهم .

أما الأوزار والسيئات التى ارتكبوها بأنفسهم دون أنْ يدفعهم لذلك مَنْ أضلُّوهم ؛ فهم يتحمَّلون تَبِعاتها وحدهم ، وبذلك يحمل كُلُّ إنسان أحمال الذنوب التى ارتكبها .

وقد حسم رسول الله ﷺ ذلك حين قال : « والذى نفس محمد بيده ، لا ينال أحد منكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، بعير له رُغَاء ، أو بقرة لها خُوَار ، أو شاة تَيْعَر[1] » .

وقِسْ على ذلك من سرق فى الطوب والأسمنت والحديد وخدع الناس .

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٣٢) ، والبخارى فى صحيحه (٢٥٩٧) حديث أبى حميد الساعدى . ومعنى تيعر أى : تصيح ، والخوار صوت البقرة .

وحين يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ .. (٢٥) ﴾ [النحل]

إنما يلفتنا إلى ضرورة ألاَّ تُلهينا الدنيـا عن أهمِّ قضية تشغل بال الخليـقـة ، وهى البحث عن الـخالق الذى أكـرم الخَلْق ، وأعـدَّ الكون لاستقبالهم .

وكان يجب على هؤلاء الذين سمـعوا من كفار قريش أن يبـحثوا عن الرســول ، وأن يسمـعوا منه ؛ فـهم أُميـون لم يسبق أنْ جـاءهم رسول ؛ وقد قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (٧٨) ﴾

[البقرة]

فإذا ما جاءهم الرسول كان عليهـم أنْ يبحثوا ، وأنْ يسمعوا منه لا نقلاً عن الكفار ؛ ولذلك سيعاقبهم الله ؛ لأنهم أهملوا قضية الدين ، ولكن العقوبةَ الشديدة ستكون لِمَنْ كان عندهم عِلْم بالكتاب .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً .. (٧٩) ﴾ [البقرة]

ويَصِف الحق سبحانه مَنْ يحملون أوزارهم وبعضاً من أوزار مَنْ أضلوهم :

﴿ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) ﴾ [النحل]

أى : ساء مـا يحملون من آثام ؛ فـهم لَمْ يكتفـوا بأوزارهم ، بل

صَدُّوا عن سبيل الله ، ومنعُوا الغير أنْ يستمعَ إلى قضية الإيمان .

ومن نتيجة ذلك أنْ يبيح مَنْ لم يسمع لنفسه بعضاً ممَّا حرم الله ؛ فيتحمل مَنْ صدَّهم عن السبيل وِزْر هذا الإضلال .

ولذلك نجد رسول الله ﷺ يقول :

« شَرُّكم مَنْ باع دينه بِدُنْياه ، وشَرٌّ منه مَنْ باع دينه بِدُنْيا غيره »[1] .

فمَنْ باع الدين ليتمتع قليلاً ؛ يستحق العقاب ؛ أما مَنْ باع دينه ليتمتعَ غيرُه فهو الذى سيجد العقاب الأشدَّ من الله .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ[2] عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ[3] وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

ويأتى الحق سبحانه هنا بسيرة الأولين والسُّنن التى أجراها سبحانه عليهم ، ليسلى رسوله ﷺ ؛ ويُوضِّح له أن ما حدث معه ليس بِدْعاً ؛ بل سبق أنْ حدث مع مَنْ سبق من الرسل . ويُبلغه أنه

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١١٨) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل مؤمناً ويمسى كافراً ، أو يمسى مؤمناً ويصبح كافراً ، يبيع دينه بعرض من الدنيا » وقد أخرج ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » أن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال : « الخاسر من عمَّر دنياه بخراب آخرته ، والخاسر من استصلح معاشه بفساد دينه ، والمغبون حظاً من رضى بالدنيا من الآخرة » .

(٢) خَرَّ : سقط من علوّ إلى سفل بصوت . وخرَّ البناء : سقط . [لسان العرب ـ مادة : خرر] .

(٣) من فوقهم : أى عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا وما أفلتوا . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٢] .

لم يبعث أىَّ رسول إلا بعد تَعُمّ البَلْوى ويَطم الفساد ، ويفقد البشر المناعة الإيمانية ، نتيجة افتقاد مَنْ يؤمنون ويعملون الصالحات ، ويتواصون بالحقِّ وبالصبر .

والمَثَلُ الواضح على ذلك ما حدث لبني إسرائيل : الذين قال فيهم الحق سبحانه :

﴿ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ .. (٧٩) ﴾ [المائدة]

فانصبَّ عليهم العذاب من الله ، وهذا مصير كُلِّ أمة لا تتناهى عن المنكر الظاهر أمامها .

ويقول سبحانه هنا :

﴿ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٢٦) ﴾ [النحل]

والمكر تبييت خفيّ يُبيِّته الماكر بما يستر عن المَمْكُور به . ولكن حين يمكر أحد بالرسل ؛ فهو يمكر بمَنْ يُؤيِّده الله العالم العليم .

وإذا ما أعلم اللهُ رسولَه بالمكر ؛ فهو يُلغِى كل أثر لهذا التبييت ؛ فقد علمه مَنْ يقدر على إبطاله . والحق سبحانه هو القائل :

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. (٢١) ﴾ [المجادلة]

وهو القائل :

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) ﴾ [الصافات]

وطبَّق الحق سبحانه ذلك على رسوله ﷺ ؛ حين مكر به كفار قريش وجمعوا شباب القبائل ليقتلوه ؛ فأغشاهم الله ولم يبصروا

خروجه للهجرة[(١)] ولم ينتصر عليه معسكر الكفر بأىِّ وسيلة ؛ لا باعتداءات اللسان ، ولا باعتداءات الجوارح .

وهؤلاء الذين يمكرون بالرسل لم يتركهم الحق سبحانه دون عقاب :

﴿ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل]

أى : أنهم إنْ جعلوا مكرهم كالبناية العالية ؛ فالحقُّ سبحانه يتركهم لإحساس الأمن المُزيف ، ويحفر لهم منْ تحتها ، فيخرّ عليهم السقف الذى من فوقهم . وهكذا يضرب الله المثَل المعنوى بأمرٍ مُحَسٍّ .

وقوله الحق :

﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل]

يُوضِّح أنهم موجودون داخل هذا البيت ، وأن الفوقية هنا للسقف ، وهى فوقية شاءها الله ليأتيهم :

﴿ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النحل]

وهكذا يأتى عذاب الله بَغْتة ؛ ذلك أنهم قد بيَّتوا ، وظنوا أن هذا التبييت بخفاء يَخْفَى عن الحَىِّ القيوم .

ولَيْتَ الأمرَ يقتصر على ذلك ؛ لا بل يُعذِّبهم الله فى الآخرة أيضاً :

---

(١) اجتمعت قريش على قتل رسول الله ﷺ فأخذوا من كل قبيلة شاباً فتياً ليضربوه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه فى القبائل فلا يستطيع بنو هاشم الأخذ بثأره ، فأتاه جبريل قائلاً : لا تبت هذه الليلة على فراشك . ولزم المشركون بابه ينتظرون نومه ليقتلوه ، ولكنه ﷺ خرج عليهم وفى يده حفنة من التراب فنثرها على رؤوسهم وهو يتلو قوله تعالى : ﴿ يسٓ ﴿١﴾ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ إلى قوله : ﴿ فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [يس] . فلم يبق منهم رجل إلا وقد وضع على رأسه تراباً ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب [السيرة النبوية لابن هشام ٤٨٣/٢] بتصرف .

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ[1] وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ[2] فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

وهكذا يكون العذاب فى الدنيا وفى الآخرة ، ويلْقوْن الخزْى يوم القيامة . والخزْى هو الهوان والمَذلَّة ، وهو أقوى من الضرب والإيذاء ؛ ولا يتجلَّد أمامه أحدٌ ؛ فالخزْى قشعريرة تَغْشَى البدن ؛ فلا يُفلت منها مَنْ تصيبه .

وإنْ كان الإنسان قادراً على أنْ يكتمَ الإيلام ؛ فالخزْى معنى نفسى ، والمعانى النفسية تنضح على البشرة ؛ ولا يقدر أحد أنْ يكتمَ أثرها ؛ لأنه يقتل خميرة الاستكبار التى عاش بها ذلك الذى بيَّت ومكرَ .

ويُوضِّح الحق سبحانه هذا المعنى فى قوله عن القرية التى كان يأتيها الرزق من عند الله ثم كفرت بأنعم الله ؛ فيقول :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً[3] كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً[4] مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) أخزاه : أهانه وفضحه . [القاموس القويم ١/١٩٢] . « يخزيهم : أى يفضحهم بالعذاب ويذلهم به ويهينهم » قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٢) .

(٢) تشاقون : تخالفون وتعادون وتحاربون . [لسان العرب ـ مادة : شقق] .

(٣) المقصود بالقرية هنا مكة على أرجح الأقوال التى نقلها ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٩) والقرطبى (٥/٣٩٢١) وساق القرطبى قولاً عاماً أنها أى قرية كانت على هذه الصفة .

(٤) رَغُد العيش : اتسع وطاب . وقال تعالى : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا .. ﴿٣٥﴾ ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً مُوسَّعاً عليكم فيه . [القاموس القويم ١/٢٦٩] .

أى : كأن الجسد كله قد سار مُمتلكاً لحاسة التذوق ، وكأن الجوع قد أصبح لباساً ؛ يعانى منه صاحبه ؛ فيجوع بقفاه ، ويجوع بوجهه ، ويجوع بذراعه وجلده وخطواته ، وبكل ما فيه .

وساعة يحدث هذا الخزى فكُلُّ خلايا الاستكبار تنتهى ، خصوصاً أمام مَنْ كان يدَّعى عليهم الإنسان أن عظمته وتجبّره وغروره باقٍ ، وله ما يسنده .

ويتابع سبحانه متحدياً :

﴿ أَيْنَ شُرَكَائِىَ الَّذِينَ كُنتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ .. ﴿٢٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : أين الشركاء الذين كنتم تعبدونهم ؛ فجعلتم من أنفسكم شُقَّة ، وجعلتم من المؤمنين شُقَّة أخرى ، وكلمة ﴿ تُشَاقُّونَ ﴾ مأخوذة من « الشق » ويقال : « شَقَّ الجدار أو شَقَّ الخشب » والمقصود هنا أنْ جعلتم المؤمنين ، ومَنْ مع الرسول فى شُقَّة تُعادونها ، وأخذتُم جانب الباطل ، وتركتُم جانب الحق .

وهنا يقول مَنْ آتاهم الله العلم :

﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

[النحل]

وكان هذا الأمر سيصير مشهداً بمحضر الحق سبحانه بين مَنْ مكروا برسول الله ﷺ ، وسيحضره الذين أتاهم الله العلم .

والعلم ـ كما نعلم ـ يأتى من الله مباشرة ؛ ثم يُنقل إلى الملائكة ؛ ثم يُنقَل من الملائكة إلى الرُّسل ، ثم يُنقل من الرُّسُل إلى الأمم التى كلّفَ الحق سبحانه رسله أنْ يُبلّغوهم منهجه .

وكَمـا شـهـدتْ الدنيا سقـوط المناهج التى اتبعـوها من أهوائهم ، وسقوط مَنْ عبدوهم من دون الله سيشهد اليوم الآخر الخزْى والسوء وهو يحيط بهم ، وقد يكون الخِزْى من هَوْل الموقف العظيم ، ويحمى الله مَنْ آمنوا به بالاطمئنان .

ونعـلم أن الرسـول ﷺ قـد قـال : « ألا هل بـلغت ، اللـهم فاشهد »[١] .

وكما بلَّغَ رسولُ الله أمته واستجابتْ له ؛ فقد طلب منهم أيضاً أن يكونوا امتداداً لرسـالته ، وأنْ يُبلِّغوها للناس ، ذلك أن الحق سـبحانه قد منع الرسالات من بعد رسالة محمد عليه الصلاة والسلام . وصار من مـسـئولـية الأمـة المـحـمـدية أنْ تُبلِّغ كل مَنْ لم تبلغـه رسـالة الرسول ﷺ .

وقد قال ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعاها ، وأدَّاها إلى مَنْ لم يسمعها ، فَرُبَّ مُبلَّغ أَوْعَى من سامع »[٢] .

والحق سبحانه هو القائل[٣] :

---

(١) ورد هذا القول فى أحـاديث كثيرة منهـا حديث عبدالله بن مـسعود الذى أخرجـه مسلم فى صـحيـحه (٣٧٨) قـال : خطبنا رسول الله ﷺ فـأسند ظهـره إلى قبـة آدم ، فقـال : ألا لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة ، اللهم هل بلغت ؟ اللهم اشهد .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) عن عبـدالله بن مسـعود رضى الله عنه قال قـال لى رسول الله ﷺ : « اقرأ علـيَّ . فقلت : يا رسول الله ، أقرأ عليك وعليك أنزل . قال : نعم ، إنى أحب أن أسمعه من غيرى » فقرأت سـورة النساء حـتى أتيت إلى هذه الآية : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء] فقال : « حسبك الآن » . فإذا عيناه تذرفان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠٥٠) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٨٠٠) كتاب صلاة المسافرين ولفظه « رفعت رأسى أو غمزنى رجل إلى جنبى فرفعت رأسى فرأيت دموعه ﷺ تسيل » .

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا (٤١) يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ .. (٤٢) ﴾ [النساء]

أى : يتمنونَ أنْ يصيروا تُراباً ، كما قال تعالى فى موقع آخر :

﴿ إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَابًا (٤٠) ﴾ [النبأ]

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ [1] مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾

يقول تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

أى : تتوفّاهم فى حالة كَوْنهم ظالمين لأنفسهم ، وفى آية أخرى قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ومعلوم أن الإنسان قد يظلم غيره لحَظِّ نفسه ولصالحها .. فكيف يظلم هو نفسه ، وهذا يسمونه الظلم الأحمق حين تظلم نفسك التى بين جنبيك .. ولكن كيف ذلك ؟

---

(١) أى : الاستسلام . أى : اقروا لله بالربوبية وانقادوا عند الموت . [تفسير القرطبى ٣٨٢٢/٥] .

نعرف أن العدو إذا كان من الخارج فسهْلٌ التصدى له ، بخلاف إذا جاءك من نفسك التى بين جَنْبَيْك ، فهذا عدو خطير صَعْب التصدِّى له ، والتخلّص منه .

وهنا نطرح سؤالاً : ما الظلم ؟ الظلم أنْ تمنعَ صاحب حَقٍّ حَقَّه ، إذن : ماذا كان لنفسك عليك حتى يقال : إنك ظلمتها بمنعها حقّها ؟

نقول : حين تجوع ، ألاَ تأكل ؟ وحين تعطش ألاَ تشرب ؟ وحين تُرْهق من العمل ألاَ تنام ؟

إذن : أنت تعطى نفسك مطلوباتها التى تُريحها وتسارع إليها ، وكذلك إذا نِمْتَ وحاولوا إيقاظك للعمل فلم تستيقظ ، أو حاولوا إيقاظك للصلاة فتكاسلت ، وفى النهاية كانت النتيجة فشلاً فى العمل أو خسارة فى التجارة .... الخ .

إذن : هذه خسارة مُجمعة ، والخاسر هو النفس ، وبهذا فقد ظلم الإنسانُ نفسه بما فاتها من منافع فى الدنيا ، وقِسْ على ذلك أمور الآخرة .

وانظر هنا إلى جُزْئيات الدنيا حينما تكتمل لك ، هل هى نهاية كل شىء ، أم بنهايتها يبتدىء شىء ؟ بنهايتها يبتدىء شىء ، ونسأل : الشىء الذى سوف يبدأ ، هل هو صورة مكرورة لما انتهى فى الدنيا ؟

ليس كذلك ، لأن المنتهى فى الدنيا مُنقطع ، وقد أخذت حَظِّى منه على قَدْر قدراتى ، وقدراتى لها إمكانات محدودة .. أما الذى سيبدأ ـ أى فى الآخرة ـ ليس بمُنْتهٍ بل خالد لا انقطاع له ، وما فيه من

نعيم يأتى على قَدْر إمكانات المنعِم ربك سبحانه وتعالى .

إذن : أنت حينما تُعطى نفسك متعةً فى الدنيا الزائلة المنقطعة ، تُفوّت عليها المتعة الباقية فى الآخرة .. وهذا مُنتهى الظلم للنفس .

نعود إلى قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

أثبتت هذه الآية التوفِّى للملائكة .. والتوفِّى حقيقةٌ لله تعالى ، كما جاء فى قوله :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

لكن لما كان الملائكة مأمورين ، فكأن الله تعالى هو الذى يتوفّى الأنفُسَ رغم أنه سبحانه وتعالى قال :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

وقال :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ .. (١١) ﴾ [السجدة]

وقال :

﴿ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا .. (٦١) ﴾ [الأنعام]

إذن : جاء الحَدثُ من الله تعالى مرة ، ومن رئيس الملائكة عزرائيل مرة ، ومن مُساعديه من الملائكة مرة أخرى ، إذن : الأمر إما للمزاولة مباشرة ، وإما للواسطة ، وإما للأصل الآمر .

وقوله تعالى :

﴿ تتوفاهم .. (٢٨) ﴾ [النحل]

معنى التوفّى من وفَّاه حقَّه أى : وفّاه أجله ، ولم ينقص منه شيئاً ، كما تقول للرجل وَفَّيتُك دَيْنك .. أى : أخذت ما لك عندى .

﴿ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨)﴾ [النحل]

نلاحظ أنها جاءت بصيغة الجمع ، و ﴿ ظَالِمِي ﴾ يعنى ظالمين و ﴿ أَنْفُسِهِم ﴾ جمع ، وحين يُقَابَل الجمع بالجمع تقتضى القسمة آحاداً أى : أن كلاً منهم يظلم نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَأَلْقَوُا السَّلَمَ .. (٢٨)﴾ [النحل]

أى : خضعوا واستسلموا ولم يَعُدْ ينفعهم تكبّرهم وعجرفتهم فى الدنيا .. ذهب عنهم كل هذا بذَهَاب الدنيا التى راحتْ من بين أيديهم .

وما داموا ألقوا السَّلم الآن ، إذن : فقد كانوا فى حرب قبل ذلك كانوا فى حرب مع أنفسهم وهم أصحاب الشّقاق فى قوله تعالى :

﴿تُشَاقُّونَ .. (٢٧)﴾ [النحل]

أى : تجعلون هذا فى شقٍّ ، وهذا فى شقٍّ ، وكأن الآية تقول : لقد رفعوا الراية البيضاء وقالوا : لا جَلَد[1] لنا على الحرب .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨)﴾ [النحل]

هذا كقوله تعالى فى آية أخرى :

(١) الجلد : القوة والشدة . والجلد : الصلابة والجلادة . [لسان العرب ـ مادة : جلد] .

﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ[1] إِلاَّ أَن قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام]

والواقع أنهم بعد أنْ ألقَوا السلم ورفعوا الراية البيضاء واستسلموا ، أخذهم موقف العذاب فقالوا محاولين الدفاعَ عن أنفسهم :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

وتعجب من كَذِب هؤلاء على الله فى مثل هذا الموقف ، على مَنْ تكذبون الآن ؟!

فيرد عليهم الحق سبحانه :

﴿ بَلَىٰ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

وهى أداةُ نفى للنفى السابق عليها ، ومعلومٌ أن نَفْى النفى إثبات ، فـ ﴿ بلى ﴾ تنفى :

﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوءٍ (٢٨) ﴾ [النحل]

إذن : معناها .. لا .. بل عملتم السوء . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) ﴾ [النحل]

ومن رحمة الله تعالى أنه لم يكتَفِ بالعلم فقط ، بل دوَّن ذلك عليهم وسَجّله فى كتاب سَيُعرض عليهم يوم القيامة ، كما قال تعالى :

---

(١) قال ابن عباس معنيين فى تأويل كلمة (فتنتهم) : الأول : معذرتهم . الثانى : حجتهم . نقلهما السيوطى فى الدر المنثور (٣/٢٥٨) .

﴿ وكفىٰ بنا حاسبين ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأنبياء]

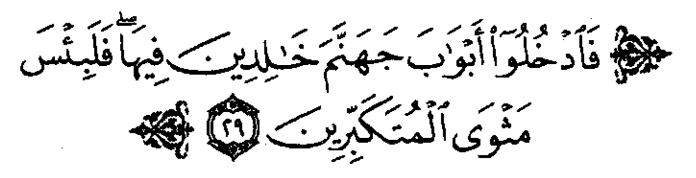
وقال :

﴿ وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ[1] فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ ﴾ [الإسراء]

ويحلو للبعض أنْ ينكر إمكانية تسجيل الأعمال وكتابتها .. ونقول لهؤلاء : تعالوا إلى ما توصل إليه العقل البشريّ الآن من تسجيل الصور والأصوات والبصمات وغيرها .. وهذا كله يُسهِّل علينا هذه المسألة عندما نرقى إمكانات العقل البشرى إلى الإمكانات الإلهية التى لا حدود لها .

فلا وجه ـ إذن ـ لأنْ ننكر قدرة الملائكة « رقيب وعتيد»[2] فى تسجيل الأعمال فى كتاب يحفظ أعماله ويُحصى عليه كل كبيرة وصغيرة .

ثم يقول تعالى :



﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

سبق أنْ قُلْنا فى شرح قوله تعالى فى وصف جهنم :

---

(١) طائره : عمله وما قُدِّر عليه من خير وشر ، وهو ملازمه أينما كان . وقال الحسن : أى شقاوته وسعادته وما كتب له من خير وشر وما طار له من التقدير ، أى : صار له عند القسمة فى الأزل [تفسير القرطبى ٥/٣٩٥٧] .

(٢) يقول تعالى فى سورة ق : ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾ [ق] .

﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ (٤٤)﴾ [الحجر]

أى : أن لكل جماعة من أهل المعصية باباً معلوماً .. فبابٌ لأهل الربا .. وبابٌ لأهل الرِّشوة .. وباب لأهل النفاق وهكذا .. ولك أن تتصور ما يُلاقيه مَنْ يجمع بين هذه المعاصى !! إنه يدخل هذا الباب ثم يخرج منه ليدخل باباً آخر .. حقاً ما أتعس هؤلاء !

وهنا يقول تعالى :

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ .. (٢٩)﴾ [النحل]

فجاءت أيضاً بصورة الجمع . إذن : كل واحد منكم يدخل من بابه الذى خُصِّص له .

ثم يقول سبحانه :

﴿فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)﴾ [النحل]

والمثوى هو مكان الإقامة ، وقال تعالى فى موضع آخر :

﴿لا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)﴾ [النحل]

فتكبَّر واستكبر وكل ما جاء على وزن (تفعَّل) يدل على أن كِبْرهم هذا غير ذاتىّ ؛ لأن الذى يتكبر حقاً يتكبَّر بما فيه ذاتيّاً لا يسلُبُه منه أحد ، إنما مَنْ يتكبر بشىء لا يملكه فتكبّره غيرُ حقيقىّ ، وسرعان ما يزول ويتصاغر هؤلاء بما تكبَّروا به فى الدنيا ، وبذلك لا يكون لأحد أنْ يتكبّر لأن الكبرياءَ الحقيقى لله عزَّ وجل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ (٣٠) ﴾

وقد سبق أنْ تحدثنا عن قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ[(١)] الْأَوَّلِينَ (٢٤) ﴾ [النحل]

فهـذه مشـاهد ولقطات تُبيِّن الموقف الذى انتـهى بأنْ أقروا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين .

وهذه الآياتُ نزلتْ فى جمـاعة كانوا داخليـن مكة .. وعلى أبوابها التى يأتى منها أهل البوادى ، وقد قسَّم الكافرون أنفسهم على مداخل مكة ليصدوا الداخلين إليها عن سماع خبر أهل الإيمان بالنبى الجديد.

وكان أهل الإيمان من المسلمين يتحيَّنون الفرصة ويخرجون على مشارف مكة بحجة رَعْى الغنم مثلاً ليقابلوا هؤلاء السائلين ليخبروهم خبر النبى ﷺ وخبر دعوته[(٢)] .

مـمـا يدلُّ على أن الذى يسـأل عن شـىء لا يكتـفى بأول عـابر يسـأله ، بل يُجدّد السـؤال ليقف عـلى المتناقـضات .. فـحين سـألوا الكافرين قالوا :

---

(١) الأساطير : جـمع أسطار أو أسطورة ، فهى الأحاديث لا نظام لها أو لا أصل لها ، أو هى حكايات عن الأولين كـتبـوها ولا أساس لها فهى أكـاذيب لا تصدّق بزعـمهم . [القـاموس القويم ١/٣١٣] .

(٢) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٢٤) ، والسيوطي فى الدر المنثور (٥/١٢٥) .

﴿قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل]

فلم يكتفوا بذلك ، بل سألوا أهل الإيمان فكان جوابهم :

﴿قَالُوا خَيْرًا .. ﴿٣٠﴾﴾ [النحل]

هذا لنفهم أن الإنسانَ إذا صادف شيئاً له وجهتان متضادتان فلا يكتفى بوجهة واحدة ، بل يجب أن يستمع للثانية ، ثم بعد ذلك للعقل أن يختار بين البدائل .

إذن : حينما سأل الداخلون مكة أهل الكفر :

﴿مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [النحل]

وحينما سألوا أهلَ الإيمان والتقوى :

﴿مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. ﴿٣٠﴾﴾ [النحل]

ونلاحظ هنا فى ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴿٣٠﴾﴾ [النحل]

أن الحق سبحانه لم يوضح لنا مَنْ هم ، ولم يُبيّن هُويّتهم ، وهذا يدلُّنا على أنهم كانوا غير قادرين على المواجهة ، ويُدارون أنفسهم لأنهم ما زالوا ضعافاً لا يقدرون على المواجهة .

وقد تكرر هذا الموقف ـ موقف السؤال إلى أنْ تصل إلى الوجهة الصواب ـ حينما عَتَب الحق تبارك وتعالى على نبى من أنبيائه هو سيدنا داوود ـ عليه السلام ـ فى قوله تعالى :

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا

---

(١) تسور السور : تسلّقه وعلاه . [القاموس القويم ١/ ٣٣٥] .

بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ[1] وَاهْدنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَـٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي[2] فِي الْخِطَابِ (٢٣) ﴾ [ص]

فماذا قال داود عليه السلام ؟

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ .. (٢٤) ﴾ [ص]

وواضحٌ فى حكم داود عليه السلام تأثُّره بقوله (له تسع وتسعون) ولنفرض أنه لم يكُنْ عنده شىء ، ألم يظلم أخاه بأخْذ نعجته ؟! إذن : تأثر داود بدعوى الخصم ، وأدخل فيه حيثية أخرى ، وهذا خطأ إجرائى فى عَرْض القضية ؛ لأن (تسع وتسعون) هذه لا دَخْل لها فى القضية .. بل هى لاستمالة القاضى وللتأثير على عواطفه ومنافذه ، ولبيان أن الخَصْم غنى ومع ذلك فهو طماع ظالم .

وسرعان ما اكتشف داود ـ عليه السلام ـ خطأه فى هذه الحكومة ، وأنها كانت فتنة واختباراً من الله :

﴿ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ .. (٢٤) ﴾ [ص]

أى : اختبرناه كى نُعلّمه الدرس تطبيقاً .. أيحكم بالحق ويُراعى جميع نواحى القضية أم لا ؟

وانظر هنا إلى فطنة النبوة ، فسرعان ما عرف داود ما وقع فيه واعترف به ، واستغفر ربّه وخَرَّ له راكعاً مُنيباً .

---

(١) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء . وأشط فى حكمه : جار وظلم . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٢) أكفلنيها : معناه اجعلنى أنا أكفلها وانزل أنت عنها . قاله الزجاج . [لسان العرب ـ مادة : كفل] . وعزنى فى الخطاب : أى غلبنى فى الاحتجاج . [لسان العرب ـ مادة : عزز] .

قال تعالى :

﴿ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص]

إذن : الشاهد هنا أنه كان على داود ـ عليه السلام ـ أن يستمع إلى الجانب الآخر والطرف الثانى فى الخصومة قبل الحكم فيها .

وقوله تعالى :

﴿ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠) ﴾ [النحل]

ما هو الخير ؟ الخير كُلُّ ما تستطيبه النفس بكل ملَكَاتها .. لكن الاستطابة قد تكون موقوتة بزمن ، ثم تُورِث حَسْرة وندامة .. إذن : هذا ليس خيراً ؛ لأنه لا خيرَ فى خير بعده النارُ ، وكذلك لا شَرَّ فى شر بعده الجنة .

إذن : يجب أن نعرف أن الخير يظل خَيْراً دائماً فى الدنيا ، وكذلك فى الآخرة ، فلو أخذنا مثلاً متعاطى المخدرات نجده يأخذ متعة وقتية ونشوة زائفة سرعان ما تزول ، ثم سرعان ما ينقلب هذا الخير فى نظره إلى شر عاجل فى الدنيا وآجل فى الآخرة .

إذن : انظر إلى عمر الخير فى نفسك وكيفيته وعاقبته .. وهذا هو الخير فى قوله تعالى :

﴿ قَالُوا خَيْرًا .. (٣٠) ﴾ [النحل]

إذن : هو خير تستطيبه النفس ، ويظل خيراً فى الدنيا ، ويترتب عليه خير فى الآخرة ، أو هو موصول بخير الآخرة .. ثم فسَّره الحق تبارك وتعالى فى قوله سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. ۝٣٠ ﴾ [النحل]

ونفهم من هذه الآية أنه على المؤمن ألاَّ يترك الدنيا وأسبابها ، فربما أخذها منك الكافر وتغلَّب عليك بها ، أو يفتنك فى دينك بسببها ، فمَنْ يعبد الله أَوْلى بسرِّه فى الوجود ، وأسرارُ الله فى الوجود هى للمؤمنين ، ولا ينبغى لهم أن يتركوا الأخذ بأسباب الدنيا للكافرين .

اجتهد أنت أيها المؤمن فى أسباب الدنيا حتى تأمنَ الفتنة من الكافرين فى دُنْياك .. ولا يَخْفى ما نحن فيه الآن من حاجتنا لغيرنا ، مما أعطاهم الفرصة ليسيطروا على سياساتنا ومقدراتنا .

لذلك يقول سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَـٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ۝٣٠ ﴾ [النحل]

أى : يأخذون حسناتهم ، وتكون لهم اليَدُ العليا بما اجتهدوا ، وبما عَملوا فى دنياهم ، وبذلك ينفع الإنسانُ نفسه وينفع غيره ، وكلما اتسعت دائرة النفع منك للناس كانت يدك هى العليا ، وكان ثوابك وخَيْرك موصولاً بخير الآخرة .

لذلك يقول النبى ﷺ :

« ما من مسلم يغرس غرساً ، أو يزرع زرعاً ، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة »[1] .

ومن هذه الآية أيضاً يتضح لنا جانب آخر ، هو ثمرة من ثمرات

---

(١) متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٢٣٢٠) ومسلم فى صحيحه (١٥٥٣) كتاب المساقاة من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

الإحسان فى الدنيا وهى الأمن .. فمَنْ عاش فى الدنيا مستقيماً لم يقترف ما يُعَاقب عليه تجدْه آمناً مطمئناً ، حتى إذا داهمه شر أو مكروه تجده آمناً لا يخاف ، لأنه لم يرتكب شيئاً يدعو للخوف .

خُذْ مثلاً اللص تراه دائماً مُتوجِّساً[1] خائفاً ، تدور عَيْنه يميناً وشمالاً ، فإذا رأى شرطياً هلع وترقّب وراح يقول فى نفسه : لعله يقصدنى .. أما المستقيم فهو آمن مطمئن .

ومن ثمرات هذا الإحسان وهذه الاستقامة فى الدنيا أن يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته ولا يُرهق نفسه بما لا يقدر عليه ، وقديماً قالوا لأحدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أَرْخِصوه ، قالوا : وكيف لنا ذلك ؟ قال : ازهدوا فيه .

وقد نظم ذلك الشاعرُ فقال :

وَإذَا غَلاَ شَىءٌ عَلَىَّ تَركْتُه فيكونُ أرخصَ ما يكونُ إذَا غَلاَ

ولا تَقُلْ : النفس توّاقة إليه راغبة فيه ، فهى كما قال الشاعر :

وَالنفْسُ رَاغِبةٌ إذَا رغَّبْتَها وَإذَا تُردّ إلى قَليل تَقْنَعُ

وفى حياتنا العملية ، قد يعود الإنسان من عمله ولمَّا ينضج الطعام ، ولم تُعَد المائدة وهو جائع ، فيأكل أىَّ شىء موجود وتنتهى المشكلة ، ويقوم هذا محل هذا ، وتقنعُ النفسُ بما نالتْه .

ولكى يعيش الإنسان على قَدْر إمكاناته لا بُدَّ له أنْ يوازن بين

---

(١) أوجس : وقع فى نفسه الخوف . والوجْس : الفزع يقع فى القلب أو فى السمع من صوت أو غير ذلك . والتوجس : التسمع إلىّ الصوت الخفى . [لسان العرب ـ مادة : وجس] .

دَخْله ونفقاته ، فمَنْ كان عنده عُسْر فى دَخْله ، أو ضاقت عليه منافذ الرزق لا بُدّ له من عُسْر فى مصروفه ، ولا بُدّ له أنْ يُضيِّق على النفس شهواتها ، وبذلك يعيش مستوراً ميسوراً ، راضى النفس ، قرير العين .

والبعض فى مثل هذه المواقف يلجأ إلى الاستقراض للإنفاق على شهوات نفسه ، وربما اقترض ما يتمتع به شهراً ، ويعيش فى ذلة دَهْراً ؛ لذا من الحكمة إذن قبل أن تسأل الناس القرض سَلْ نفسك أولاً ، واطلب منها أن تصبر عليك ، وأن تُنظرك[1] إلى ساعة اليُسْر ، ولا تُلجئك إلى مذلّة السؤال .. وقبل أن تلوم مَنْ منعك لُمْ نفسك التى تأبَّتْ عليك أولاً .

وما أبدع شاعرنا الذى صاغ هذه القيم فى قوله :

إذَا رُمْتَ أنْ تستقرضَ المالَ مُنفقاً ... على شَهَواتِ النفسِ فى زَمَنِ العُسْر

فَسَلْ نفسكَ الإنفاقَ من كَنْزِ صَبْرِها ... عليْكَ وإنظاراً إلى سَاعةِ اليُسْر

فَإنْ فعلْتَ كنتَ الغنى ، وإنْ أبَتْ ... فكُل مَنُوع بعدها واسعُ العُذْر

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ .. (٣٠)﴾ [النحل]

والخير فى الآخرة من الله ، والنعيم فيها على قَدْر المنعم تبارك وتعالى ، دون تعب ولا كَدٍّ ولا عمل .

---

(١) الإنظار : الإمهال والتأخير . واستنظره : طلب منه النظرة واستمهله . [لسان العرب ـ مادة : نظر] .

ومعلوم أن كلمة : ﴿ قَالُوا خَيْرًا .. ﴾ [النحل: ٣٠]

التى فسّرها الحق تبارك وتعالى بقوله :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴾ [النحل: ٣٠]

تقابلها كلمة « شر » ، هذا الشر هو ما جاء فى قول الكافرين :

﴿ مَّاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [النحل: ٢٤]

فهؤلاء قالوا خيراً ، وأولئك قالوا شراً .

ولكن إذا قيل : ذلك خير من ذلك ، فقد توفر الخير فى الاثنين ، إلا أن أحدهما زاد فى الخيرية عن الآخر ، وهذا معنى قوله ﷺ :

« المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف ، وفى كل خير »[1] .

لذلك لما قال :

﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ .. ﴾ [النحل: ٣٠]

قال : ﴿ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ .. ﴾ [النحل: ٣٠]

أى : خير من حسنة الدنيا ، فحسنة الدنيا خير ، وأخير منها حسنة الآخرة .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

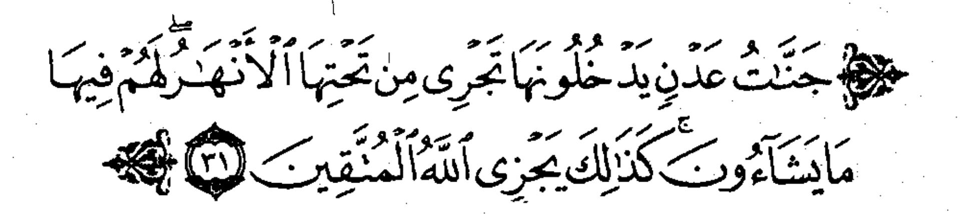
﴿ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل: ٣٠]

أى : دار الآخرة .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٦٤) كتاب القدر . من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

ثم أراد الحق تبارك وتعالى أن يعطينا صورة موجزة عن دار المتقين كأنها برقية ، فقال سبحانه :



والجنات : تعنى البساتين التى بها الأشجار والأزهار والثمار والخضرة ، مما لا عَيْن رأتْ ، ولا أذُن سمعتْ ، ولا خطر على قلب بشر .. ليس هذا وفقط .. هذه الجنة العمومية التى يراها كل مَنْ يدخلها .. بل هناك لكل واحد قصر خاص به ، بدليل قوله تعالى :

﴿ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ [الصف]

إذن : هنا قَدْر مشترك للجميع :

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ..(٣١) ﴾ [النحل]

ومعنى قوله تعالى : ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ..(٣١) ﴾ [النحل]

أى : جنات إقامة دائمة ؛ لأن فيها كل ما يحتاجه الإنسان ، فلا حاجة له إلى غيرها .. هَبْ أنك دخلْتَ أعظم حدائق وبساتين العالم ـ هايد بارك مثلاً ـ فقصارى الأمر أنْ تتنزَّه به بعض الوقت ، ثم يعتريك التعب ويصيبك الملَل والإرهاق فتطلب الراحة من هذه النزهة .. أما الجنة فهى جنة عدن ، تحب أن تقيم فيها إقامة دائمة .

ويصف الحق سبحانه هذه الجنات فيقول :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣١) ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ تَجْرِى تَحْتَهَا الأَنْهَارُ .. (١٠٠) ﴾ [التوبة]

ومعنى « تجرى تحتها » أى : أنها تجرى تحتها ، وربما تأتى من مكان آخر .. وقد يقول هنا قائل : يمكن أن يُمنع عنك جريان هذه الأنهار ؛ لذلك جاءت الآية :

﴿ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ .. (٣١) ﴾ [النحل]

أى : ذاتية فى الجنة لا يمنعها عنك مانع .

ثم يقول تعالى :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. (٣١) ﴾ [النحل]

والمشيئة هنا ليست بإرادة الدنيا ومشيئتها ، وإنما مشيئة بالمزاج الخصب الذى يتناسب مع الآخرة ونعيمها .. فمثلاً : إذا دخلتَ على إنسان رقيق الحال فلَكَ مشيئة على قدر حالته ، وإذا دخلتَ على أحد العظماء أو الأثرياء كانت لكَ مشيئة أعلى .. وهكذا .

إذن : المشيئات النفسية تختلف باختلاف المشاء منه ، فإذا كان المشَاء منه هو الله الذى لا يُعجزه شىء تكون مشيئتُك مُطلقة ، فالمشيئة فى الآية ليستْ كمشيئة الدنيا ؛ لأن مشيئة الدنيا تتحدّد ببيئة الدنيا .. أما مشيئة الآخرة فهى المشيئة المتفتحة المتصاعدة المرتقية كما تترقى المشيئات عند البشر فى البشر حَسْب مراتبهم ومراكزهم .

ويُرْوى أنه لما أُسِرَتْ بنت أحد ملوك فارس عند رجل ، وأرادوا

شراءها منه وعرضوا عليه ما يريد ، فقال : أريد فيها ألف دينار ، فأعطوه الألف دينار وأخذوها منه .. فقال له أحدهم : إنها ابنةُ الملك ، ولو كنت طلبتَ منه كذا وكذا لم يبخل عليك فقال : والله لو علمتُ أن وراء الألف عدداً لَطلبْته .. فقد طلب قصارى ما وصل إليه علمه .

لذلك لما أراد النبى ﷺ أن يشرح لنا هذا النص القرآنى :

﴿ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ .. ﴿٣١﴾ ﴾ [النحل]

وكذلك قوله تعالى :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾ [الزخرف]

قال : « فيها ما لا عَيْن رأت ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خطر على قَلْب بشر »[1] .

إذن : تحديد الإطار للآية بقدر ما هم فيه عند ربهم .

﴿ كَذَلِكَ يَجْزِى اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النحل]

أى : هكذا الجزاء الذى يستحقونه بما قدموا فى الدنيا ، وبما حَرَموا منه أنفسهم من مُتَع حرام .. وقد جاء الآن وقْتُ الجزاء ، وهو جزاءٌ أطول وأدْوم ؛ لذلك قال الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى :

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ[2] فِى الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الحاقة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٢٨٢٤) وأحمد فى مسنده (٤٦٦/٢) وأبو نعيم فى الحلية (٢٦٢/٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قال الله عز وجل : أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

(٢) أسلف : قدّم أو فعل من قبْل . قال تعالى : ﴿ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ .. ﴿٣٠﴾ ﴾ [يونس] أى : ما قدمت وما عملت فى الزمن الماضى فى الدنيا . [القاموس القويم ٣٢٣/١] .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ[1] يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾

أى : المتقون هم الذين تتوفاهم الملائكة طيبين .

ومعنى :

﴿ تَتَوَفَّاهُمُ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

أى : تأتى لقبْض أرواحهم ، وهنا نَسَب التوفّى إلى جملة الملائكة ، كأنهم جنود ملك الموت الأصيل عزرائيل ، وقد سبق أنْ قُلْنا : إن الحق تبارك وتعالى مرةً ينسب التوفّى إلى الملائكة ، ومرة ينسبه إلى مَلك الموت :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ .. (١١) ﴾ [السجدة]

ومرّة ينسبه إلى نفسه سبحانه :

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى .. (٤٢) ﴾ [الزمر]

ذلك لأن الله سبحانه هو الآمر الأعلى ، وعزرائيل مَلَكُ الموت الأصيل ، والملائكة هم جنوده الذين يُنفّذون أوامره .

وقوله : ﴿ طَيِّبِينَ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

تقابل الآية السابقة :

---

(١) ذكر المفسرون فى معنى قوله : ﴿طَيِّبِينَ .. (٣٢)﴾ [النحل] بستة أقوال : **الأول** : طاهرين من الشرك . **الثانى** : صالحين . **الثالث** : زاكية أفعالهم وأقوالهم . **الرابع** : طيبى الأنفس ثقة بما يلقونه من ثواب الله تعالى . **الخامس** : طيبة نفوسهم بالرجوع إلى الله . **السادس** : أن تكون وفاتهم طيبة سهلة لا صعوبة فيها ولا ألم ، بخلاف ما تقبض به روح الكافر والمخلّط . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٦] .

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ .. (٢٨) ﴾ [النحل]

والطيّب هو الشيء الذى يوجد له خيرٌ دائم لا ينقطع ولا ينقلب خَيْره هذا شراً ، وهو الشيء الذى تستريح له النفس راحة تنسجم منها كل مَلكاتها ، بشرط أن يكون مستمراً إلى خَيْرٍ منه ، ولا يستمر إلى خَيْرٍ منه وأحسن إلا طَيِّب القيم وطَيِّب الدين ، أما غير ذلك فهو طيب موقوتٌ سرعان ما يُهجر .

ولذلك حينما يدَّعى اثنان المحبة فى الله نقول : هذه كلمة تُقال ، ومِصْداقها أنْ ينمو الودُّ بينكما كل يوم عن اليوم الذى قبله ؛ لأن الحب للدنيا تشوبه الأطماع والأهواء ، فترى الحب ينقص يوماً بعد يوم ، حَسْب ما يأخذ أحدهما من الآخر ، أما المتحابان فى الله فيأخذان من عطاء لا ينفد ، هو عطاء الحق تبارك وتعالى ، فإنْ رأيت اثنين يزداد وُدّهما فاعلم أنه وُدٌّ لله وفى الله ، على خلاف الوُد لأغراض الدنيا فهو وُدٌّ سرعان ما ينقطع .

هل هناك أطيب من أنهم طهَّروا أنفسهم من دَنَس الشرك ؟ وهل هناك أطيبُ من أنهم أخلصوا عملهم لله ، وهل هناك أطيب من أنهم لم يُسْرفوا على أنفسهم فى شيء ؟

وحَسْب هؤلاء من الطيب أنهم ساعة يأتى مَلَكُ الموت يمرُّ عليهم شريط أعمالهم ، ومُلَخّص ما قدّموه فى الدنيا ، فيرْون خَيْراً ، فتراهم مُستبشرين فرحين ، يبدو ذلك على وجوههم ساعة الاحتضار ، فتراه أبيضَ الوجه مُشْرقاً مبتسماً ، عليه خاتمة الخير والطيب والسعادة ؛

ذلك لما عاينه من طيب عمله ، ولما يستبشر به من الجزاء عند الله تبارك وتعالى .

وعلى عكس هذه الحالة تماماً نرى أهل الشقاوة ، وما هُمْ عليه ساعةَ الغرغرة من سواد الوجه ، وسُوء الخاتمة ، والعياذ بالله .

﴿ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ .. (٣٢) ﴾ [النحل]

أى : حينما تتوفّاهم الملائكة يقولون لهم سلام ؛ لأنكم خرجتم من الدنيا بسلام ، وستُقبلون على الآخرة بسلام ، إذن : سلام الطيبين سلامٌ موصول من الدنيا إلى الآخرة ، سلامٌ مُترتّب على سلامة دينكم فى الدنيا ، وسلامة إقبالكم على الله ، دون خوف فى الآخرة .

وهناك سلام آخر جاء فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا[1] حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) ﴾ [الزمر]

ثم يأتى السلام الأعلى عليهم من الله تبارك وتعالى ؛ لأن كل هذه السلامات لهؤلاء الطيبين مأخوذة من السلام الأعلى :

﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ (٥٨) ﴾ [يس]

وهل هناك أفضل وأطيب من هذا السلام الذى جاء من الحق تبارك وتعالى مباشرة .

وتعجب هنا من سلام أهل الأعراف على المؤمنين الطيبين وهم

(١) الزمر : جمع زمرة ، وهى الفوج والجماعة. [القاموس القويم ١/٢٨٩] .

فى الجنة ، ونحن نعرف أن أهل الأعراف هم قوم تساوتْ حسناتهم وسيئاتهم فحُجزوا على الأعراف ، وهو مكان بين الجنة والنار ، والقسمة الطبيعية تقتضى أن للميزان كفتين ذكرهما الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ (٦) فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ (٨) فَأُمُّهُ[1] هَاوِيَةٌ (٩) ﴾ [القارعة]

هاتان حالتان للميزان ، فأين حالة التساوى بين الكفتين ؟ جاءت فى قوله تعالى :

﴿ وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ .. (٤٦) ﴾ [الأعراف]

أى : يعرفون أهل الجنة وأهل النار :

﴿ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) ﴾ [الأعراف]

ووجه العجب هنا أن أهل الأعراف فى مأزق وشدّة وانشغال بما هم فيه من شدة الموقف ، ومع ذلك نراهم يفرحون بأهل الجنة الطيبين ، ويُبادرونهم بالسلام .

إذن : لأهل الجنة سلامٌ من الملائكة عند الوفاة ، وسلام عندما يدخلون الجنة ، وسلام أعلى من الله تبارك وتعالى ، وسلام حتى من أهل الأعراف المنشغلين بحالهم .

---

(١) معناه : فهو ساقط هاوٍ بأم رأسه فى نار جهنم ، وعبر عنه بأمه يعنى دماغه . وقيل معناه : فأمه التى يرجع إليها ويصير فى المعاد إليها هاوية ، وهى اسم من أسماء النار . [تفسير ابن كثير ٤/٥٤٣] .

﴿ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢) ﴾ [النحل]

أى : لأنكم دفعتم الثمن ؛ والثمن هو عملكم الصالح فى الدنيا ، واتباعكم لمنهج الحق تبارك وتعالى .

وقد يرى البعض تعارضاً بين هذه الآية وبين الحديث الشريف :

« لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته»[1] .

والحقيقة أنه لا يوجد تعارضٌ بينهما ، ولكن كيف نُوفِّق بين الآية والحديث؟

الله تعالى يُوحى لرسوله ﷺ الحديث كما يُوحى له الآية ، فكلاهما يصدر عن مشْكاة واحدة ومصدر واحد[2] .. على حَدِّ قوله تعالى :

﴿ وَمَا نَقَمُوا[3] إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ .. (٧٤) ﴾ [التوبة]

فالحَدثُ هنا واحد ، فلم يُغْنهم الله بما يناسبه والرسول بما يناسبه ، بل هو غناء واحد وحَدث واحد ، وكذلك ليس ثمة تعارضٌ بين الآية والحديث .. كيف ؟

الحق تبارك وتعالى كلّف الإنسانَ بعد سنِّ الرُّشْد والعقل ، وأخذ يُوالى عليه النعم منذ صِغَره ، وحينما كلّفه كلّفه بشىء يعود على

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٤٦٣) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٢٨١٦) كتاب صفات المنافقين ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٤٥٩١) من حديث المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألا إنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرِّموه » .

(٣) نقم منه : عاقبه . ونقم الشىء : أنكره وعابه وكرهه . [القاموس القويم : مادة نقم] .

الإنسان بالنفع والخير ، ولا يعود على الله منه شيء ، ثم بعد ذلك يُجازيه على هذا التكليف بالجنة .

إذن : التكليف كله لمصلحة العبد فى الدنيا والآخرة . إذن : تشريع الجزاء من الله فى الآخرة هو مَحْضُ الفضل من الله ، ولو أطاع العبدُ رَبّه الطاعة المطلوبة منه فى الأفعال الاختيارية التكليفية لما وَفّى نِعَم الله عليه ، وبذلك يكون الجزاء فى الجنة فَضْلاً من الله ومنَّة .

أو : أنهم حينما قالوا :

﴿ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النحل]

يريدون أن عملهم سبب عادىّ لدخول الجنة ، ثم يكتسبونها بفضل الله .. فتجمع الآية بين العمل والفضل معاً ؛ لذلك فإن الحق تبارك وتعالى يُقوّى هذا بقوله تعالى :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [يونس]

فهم لم يفرحوا بالعمل لأنه لا يَفِى بما هم فيه من نعمة ، بل الفرحة الحقيقية تكون بفضل الله ورحمته ، وفى الدعاء : « اللهم عاملنا بالفضل لا بالعدل » .

وأخيراً .. هل كانوا يعملون هكذا من عند أنفسهم ؟ لا .. بل بمنهج وضعه لهم ربّهم تبارك وتعالى .. إذن : بالفضل لا بمجرد العمل .. ومثال ذلك : الوالد عندما يقول لولده : لو اجتهدت هذا العام وتفوقت سأعطيك كذا وكذا .. فإذا تفوّق الولد كان كل شىء لصالحه : النجاح والهدية .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

بعد أن عرضتْ الآيات جزاء المتقين الذين قالوا خيراً ، عادتْ لهؤلاء الذين قالوا ﴿ أَسَاطِير الأوَّلِينَ ﴾ الذين يُصادمون الدعوة إلى الله ، ويقفون منها موقف العداء والكَيْد والتربُّص والإيذاء .

وهذا استفهام من الحق تبارك وتعالى لهؤلاء : ماذا تنتظرون ؟! بعدما فعلتم بأمر الدعوة وما صَدَدْتُم الناس عنها ، ماذا تنتظرون ؟ أتنتظرون أنْ تَرَوْا بأعينكم ، ليس أمامكم إلا أمران : سيَحُلاّن بكم لا محالة :

إما أنْ تأتيكم الملائكة فتتوفاكم ، أو يأتى أمرُ ربِّك ، وهو يوم القيامة ولا ينجيكم منها إلا أنْ تؤمنوا ، أم أنكم تنتظرون خيْراً ؟! فلن يأتيكم خير أبداً .. كما قال تعالى فى آيات أخرى :

﴿ أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلا تَسْتَعْجِلُوهُ .. ①﴾ [النحل]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ .. ①﴾ [القمر]

وقال :

﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ .. ①﴾ [الأنبياء]

إذن : إنما ينتظرون أحداثاً تأتى لهم بشَرٍّ : تأتيهم الملائكة لقبْض أرواحهم فى حالة هم بها ظالمون لأنفسهم ، ثم يُلْقون السَّلَم رَغْماً عنهم ، أو : تأتيهم الطامة[1] الكبرى وهى القيامة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٣٣) ﴾ [النحل]

أى : ممَّن كذَّب الرسل قبلهم .. يعنى هذه مسألة معروفة عنهم من قبل :

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ .. (٣٣) ﴾ [النحل]

أى : وما ظلمهم الله حين قدَّر أنْ يُجازيهم بكذا وكذا ، وليس المراد هنا ظلمهم بالعذاب ؛ لأن العذاب لم يحُلّ بهم بعد .

﴿ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٣٣) ﴾ [النحل]

وهذا ما نُسمّيه بالظلم الأحمق ؛ لأن ظلم الغير قد يعود على الظالم بنوع من النفع ، أما ظُلْم النفس فلا يعود عليها بشىء ؛ وذلك لأنهم أسرفوا على أنفسهم فى الدنيا فيما يخالف منهج الله ، وبذلك فَوَّتوا على أنفسهم نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وهذا هو ظلمهم لأنفسهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) طم الأمر : اشتد . وسمى يوم القيامة بالطامة لشدته وعظم هوله . [القاموس القويم ١/٤٠٧] .

﴿ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ[1] بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٤) ﴾

أى : أنهم لما ظلموا أنفسهم أصابهم جزاء ذلك ، وسُمِّى ما يُفعل بهم سيئة ؛ لأن الحق تبارك وتعالى يُسمّى جزاء السيئة سيئة فى قوله :

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا .. (٤٠) ﴾ [الشورى]

ويقول تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وهذه تُسمّى المشاكلة[2] ، أى : أن هذه من جنس هذه .

وقوله تعالى : ﴿ مَا عَمِلُوا ﴾ العمل هو مُزَاولة أىِّ جارحة من الإنسان لمهمتها ، فكُلُّ جارحة لها مهمة . الرِّجْل واليد والعَيْن والأذن .. الخ . فاللسان مهمته أن يقول ، وبقية الجوارح مهمتها أنْ تفعل . إذن : فاللسان وحده أخذ النصف ، وباقى الجوارح أخذتْ النصف الآخر ؛ ذلك لأن حصائد الألسنة عليها المعوّل الأساسى .

فكلمة الشهادة : لا إله إلا الله لابُدَّ من النطق بها لنعرف أنه

---

(١) حاق به الشىء : نزل به وأحاط به . قال الزجاج فى معني الآية : أى : أحاط بهم العذاب الذى هو جزاء ما كانوا يستهزئون به . [لسان العرب - مادة : حيق] .

(٢) المشاكلة : مصطلح فى بديع القرآن ومعناه : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً ، والأول كقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ .. (١١٦) ﴾ [المائدة] ، فإن إطلاق النفس والمكر فى جانب البارىء تعالى إنما هو لمشاكلة ما معه . [الإتقان فى علوم القرآن ٣/ ٢٨١] .

مؤمن ، ثم يأتى دَوْر الفعل ليُساند هذا القول ؛ لذا قال تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ (٣) ﴾ [الصف]

وبالقول تبلُغ المناهج للآذان .. فكيف تعمل الجوارح دون منهج ؟ ولذلك فقد جعل الحق تبارك وتعالى للأذن وَضْعاً خاصاً بين باقى الحواس ، فهى أول جارحة فى الإنسان تؤدى عملها ، وهى الجارحة التى لا تنقضى مهمتها أبداً .. كل الجوارح لا تعمل مثلاً أثناء النوم إلا الأذن ، وبها يتم الاستدعاء والاستيقاظ من النوم .

وإذا استقرأت آيات القرآن الكريم ، ونظرت فى آيات الخلق ترى الحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) ﴾ [النحل]

ثم هى آلة الشهادة يوم القيامة :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ .. (٢٠) ﴾ [فصلت]

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ﴾ [الكهف]

ومعنى : ضربنا على آذانهم ، أى : عطلنا الأذن التى لا تعطل حتى يطمئن نومهم ويستطيعوا الاستقرار فى كهفهم ، فلو لم يجعل الله تعالى فى تكوينهم الجارحى شيئاً معيناً لما استقر لهم نوم طوال ٣٠٩ أعوام .

ويقول الحق تعالى :

﴿ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) ﴾ [النحل]

بماذا استهزأ الكافرون ؟ استهزأوا بالبعث والحساب وما ينتظرهم من العذاب ، فقالوا كما حكى القرآن :

﴿ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) ﴾ [الصافات]

وقالوا :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا[1] فِي الْأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ..(١٠) ﴾ [السجدة]

ثم بلغ بهم الاستهزاء أن تعجَّلوا العذاب فقالوا :

﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) ﴾ [الأعراف]

وقالوا :

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا[2] .. (٩٢) ﴾ [الإسراء]

وهل يطلب أحد من عدوه أن يُنزِل به العذاب إلا إذا كان مستهزئاً ؟

فقال لهم الحق تبارك وتعالى : إنكم لن تقدروا على هذا العذاب الذى تستهزئون به . فقال :

---

(١) معناه : أئذا متْنا وصرْنا تراباً وعظاماً فضللْنَا فى الأرض فلم يتبين شىء من خلقنا . [لسان العرب ـ مادة : ضلل] .

(٢) الكسفة : القطعة من الشيء . يقال : أعطنى كسفة من ثوبك . [تفسير القرطبى ٥/٤٠٥٩] .

﴿ وحَاقَ بِهِم .. (٣٤) ﴾ [النحل]

أى : أحاط ونزل بهم ، فـلا يستطيعون منه فـراراً ، ولا يجدون معه منفذاً للفكاك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَاللَّهُ مِن وَرَائِهِم مُّحِيطٌ (٢٠) ﴾ [البروج]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (٣٥) ﴾

نلاحظ أنه ساعة أنْ يأتىَ الفعل نصاً فى مطلوبه لا يُذكر المتعلق به .. فلم يَقُلْ : أشـركـوا بالله .. لأن ذلك مـعلوم ، والإشـراك مـعناه الإشراك بالله ، لذلك قال تعالى هنا :

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

ثم يورد الحق سبحانه قولهم :

﴿ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٣٥) ﴾ [النحل]

إنهم هنا يدافـعون عن أنفـسهم ، وهذه هى الشـماعـة التى يُعلّق عليها الكفار خطاياهم ـ شماعة أن الله كتب علينا وقضى بكذا وكذا .

فيـقول المسـرف على نفسه : ربُّنـا هو الذى أراد لى كذا ، وهو

الذى يهـدى ، وهو الذى يُضل ، وهو الـذى جعلـنى أرتكب الذنوب ، إلى آخر هذه المـقولات الفارغـة من الحق ـ والنهاية : فلمـاذا يعذبنى إذن ؟

وتعالوا نناقش صاحب هذه المقـولات ، لأن عنده تناقضاً عقلياً ، والقضـية غيـر واضحة أمامـه .. ولكى نزيل عنه هذا الغمـوض نقول له : ولمـاذا لم تقُل : إذا كان الله قـد أراد لى الطاعـة وكتـبها علىَّ ، فلماذا يـثيبنى عليـها .. هكذا المـقابل .. فلمـاذا قُلْت بالأُولى ولم تقُلْ بالثانية ؟!

واضح أن الأولى تجرُّ عليك الشـر والعذاب ، فوقـفتْ فى عقلك .. أما الثانية فتجرُّ عليك الخير ، لذلك تغاضيت عن ذِكْرها .

ونقول له : هل أنت حينما تعمل أعمالك .. هل كلها خير ؟ أم هل كلها شَرّ ؟ أمَا منها ما هو خير ، ومنها ما هو شر ؟

والإجابة هنا واضـحة . إذن : لا أنت مطبـوع على الخيـر دائماً ، ولا أنت مطبوع على الشرّ دائماً ، لذلك فأنت صـالح للخير ، كما أنت صالح للشر .

إذن : هناك فَرْق بين أن يخلـقك صالحاً للفـعل وضِدّه ، وبين أنْ يخلقك مـقصـوراً على الفـعل لا ضـده ، ولما خلقك صـالحـاً للخيـر وصـالحاً للشـر أوضح لك منهـجه وبيَّنَ لـك الجزاء ، فـقال : اعـمل الخـيـر .. والجـزاء كذا ، واعـمل الشـر .. والجـزاء كـذا .. وهذا هو المنهج .

ويحلو للمسـرف على نفسه أنْ يقولَ : إن الله كتـبه علىَّ .. وهذا عجيب ، وكأنَّى به قـد اطَّلع على اللوح المحفوظ[١] ونظر فيه ، فوجد أن الله كتب عليه أن يشرب الخمر مثلاً فـراحَ فشربها ؛ لأن الله كتبها عليه .

ولو أن الأمـر هكذا لكنتَ طائعاً بشُـرْبك هذا ، لكن الأمـر خلاف ما تتصور ، فأنت لا تعرف أنها كُتبت عليك إلا بعد أنْ فعلتَ ، والفعل منك مسبـوق بالعزم على أنْ تفعلَ ، فهل اطلعتَ على اللوح المـحفوظ كى تعرف ما كتبه الله عليك ؟

وانتبـه هنا واعلم أن الله تعـالى كـتب أزلاً ؛ لأنه علم أنك تفـعل أجلاً ، وعِلْم الله مُطْلق لا حدودَ له .

ونضرب مـثلاً ـ ولله المـثل الأعلى ـ الوالد الذى يلاحظ ولده فى دراسته ، فيـجده مُهملاً غيـر مُجدٍّ فيتوقع فشلـه فى الامتحان .. هل دخل الوالد مع ولـده وجـعله يكتب خطأ ؟ لا .. بل تـوقّع له الفـشل لعلمه بحال ولده ، وعدم استحقاقه للنجاح .

إذن : كتب الله مُـسْبقاً وأزلاً ؛ لأنه يعلـم ما يفعله العبـد أصلاً .. وقد أعطانا الحق تبارك وتعالى صورة أخـرى لهذا المنهج حينما وجَّه المؤمنين إلى الكعـبة بعد أنْ كانت وجْـهتهم إلى بيت المقـدس ، فقال تعالى :

---

(١) اللوح المحفوظ : شىء لا يعلمه إلا الله . فيه ما قدَّره الله وقضاه على الخلائق .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ(١) فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة]

ثم أخبر نبيه ﷺ بقوله :

﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا .. (١٤٢) ﴾ [البقرة]

جاء الفعل هكذا في المستقبل : سيقول .. إنهم لم يقولوا بَعْد هذا القول ، وهذا قرآن يُتلَى على مسامع الجميع غير خاف على أحد من هؤلاء السفهاء ، فلو كان عند هؤلاء عقل لَسكتُوا ولم يُبادروا بهذه المقولة ، ويُفوِّتوا الفرصة بذلك على محمد ﷺ وعلى صِدْق القرآن الكريم .

كان باستطاعتهم أن يسكتوا ويُوجِّهوا للقرآن تهمة الكذب ، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث .

وبذلك تمَّتْ إرادة الله وأمره حتى على الكافرين الذين يبحثون عن مناقضة في القرآن الكريم .

---

(١) أخرج ابن ماجه في سننه (١٠١٠) عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : صلينا مع رسول الله ﷺ نحو بيت المقدس ثمانية عشر شهراً ، وصرفت القبلة إلى الكعبة بعد دخوله إلى المدينة بشهرين ، وكان رسول الله ﷺ إذا صلى إلى بيت المقدس أكثر تقلب وجهه في السماء . وعلم الله من قلب نبيه ﷺ أنه يهوى الكعبة ، فصعد جبريل ، فجعل رسول الله ﷺ يتبعه بصره وهو يصعد بين السماء والأرض ، ينظر ما يأتيه به ، فأنزل الله : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ .. (١٤٤) ﴾ [البقرة] ، فأتانا آت فقال : إن القبلة قد صرفت إلى الكعبة ، وقد صلينا ركعتين إلى بيت المقدس ونحن ركوع فتحوّلنا . فبنينا على ما مضى من صلاتنا ، فقال رسول الله ﷺ : يا جبريل ، كيف حالنا في صلاتنا إلى بيت المقدس ؟ فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ .. (١٤٣) ﴾ [البقرة] .

وهذه الآية : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

تشرح وتُفسِّر قول الله تعالى :

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا من شَيْءٍ .. (١٤٨) ﴾ [الأنعام]

فهنا ﴿ سَيَقُولُ ﴾ وفي الآية الأخرى ﴿ قَالَ ﴾ ؛ لنعلم أنه لا يستطيع أحد معارضة قَوْل الله تعالى ، أو تغيير حكمه .

ثم يقول تعالى :

﴿ نَّحْنُ وَلا آبَاؤُنَا .. (٣٥) ﴾ [النحل]

لماذا لم يتحدث هؤلاء عن أنفسهم فقط ؟ ما الحكمة في دفاعهم عن آبائهم هنا ؟ الحكمة أنهم سيحتاجون لهذه القضية فيما بعد ، وسوف يجعلونها حُجَّة حينما يقولون :

﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم[1] مُّهْتَدُونَ (٢٢) ﴾ [الزخرف]

إذن : لا حُجَّة لهؤلاء الذين يُعلّقون إسرافهم على أنفسهم على شماعة القدر ، وأن الله تعالى كتب عليهم المعصية ؛ لأننا نرى حتى من المسلمين مَنْ يتكلم بهذا الكلام ، ويميل إلى هذه الأباطيل ، ومنهم مَنْ تأخذه الجرْأة على الله عز وجل فيُشبّه هذه القضية بقول الشاعر :

أَلْقَاهُ في اليَمِّ مكتُوفاً وقَالَ لَهُ   إيَّاكَ إيَّاكَ أنْ تبتلَّ بالماء

---

(١) أي : وراءهم سائرون متخذين إياهم قدوة ، ومهتدين بهديهم .

وما يفعل هذا إلا ظالم !! تعالى الله وتنزَّه عن قَوْل الجُهَّال والكافرين ، وأيضاً هناك مَنْ يقول : إن الإنسان هو الذى يخلق الفعل ، ويعارضهم آخرون يقولون : لا بل ربَّنا هو الذى يخلق الفعْل .

نقول لهم جميعاً : افهموا ، ليس هناك فى الحقيقة خلافٌ .. ونسأل : ما هو الفعل ؟ الفعل توجيه جارحة لحدث ، فأنت حينما تُوجِّه جارحة لحدث ، ما الذى فعلته أنت ؟ هل أعطيتَ لليد مثلاً قوة الحركة بذاتها ؟ أم أن إرادتك هى التى وجَّهَتْ حركتها ؟

والجارحة مخلوقة لله تعالى ، وكذلك الإرادة التى حكمتْ على الجارحة مخلوقة لله أيضاً .. إذن : ما فعلته أنت ما هو إلا أن وجَّهْتَ المخلوق لله إلى مَا لا يحب الله - فى حالة المعصية - وإلى ما يحبه الله فى حالة الطاعة .

كذلك لا بُدَّ أنْ نلاحظ أن لله تعالى مرادات كونية ومرادات شرعية .. فالمراد الكونىّ هو ما يكون فعلاً ، كُلُّ ما تراه فى الكون أراد الله أن يكون . والمراد الشرعى : هو طَلَبُ الشىء لمحبوبيته .

ولنأخذ مثلاً لتوضيح ذلك : كُفْر الكافر ، أراد الله كَوْنياً أن يكون ، لأنه خلقه مختاراً وقال :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩) ﴾ [الكهف]

وطالما خلقك الله مختاراً تستطيع أن تتوجه إلى الإيمان ، أو تتوجه إلى الكفر ، ثم كفرتَ . إذن : فهل كفرتَ غَصْباً عنه وعلى

غيـر مُراده سبـحانه وتعـالى ؟ حاشا لله ومـعنى ذلك أن كُفْـر الكافر مُراد كونىّ ، وليس مراداً شرعياً .

وبنفس المقياس يكون إيمان المؤمن مُـراداً كونياً ومُراداً شرعياً ، أما كـفر المؤمن ، المـؤمن حقيـقة لم يكفر . إذن : هو مـراد شرعى وكـذلك مـراد كونى ، وهـكذا ، فلا بُدَّ أن نُـفرّق بيـن المراد كـونيـاً والمراد شرعياً .

ولذلك لمـا حدثت ضجـة فى الحرم المكى منـذ سنوات ، وحدث فيه إطلاق للنار وترويع للآمنين ، قال بعضـهم : كيف يحدث هذا وقد قال تعالى : ﴿ومَن دَخَلَهُ كَانَ آمنًا (٩٧)﴾ [آل عمران]

وها هو الحال قَتْل وإزعاج للآمنين فيه ؟!

والحـقـيقـة أن هؤلاء خلطـوا بين مراد كـونى ومـراد شـرعى ، فالمقصود بالآية : فَمنْ دخله فأمِّنوه . أى : اجعلوه آمناً ، فهذا مطلَب من الله تبارك وتعالى ، وهو مراد شـرعى قد يحدث وقد لا يحدث .. أما المراد الكونى فـهو الذى يحدث فعـلاً . وبذلك يكون ما حدث فى الحرم مراداً كونياً ، وليس مراداً شرعياً .

ثم يقول تعالى على لسانهم :

﴿وَلا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ .. (٣٥)﴾ [النحل]

وقد ورد توضيح هذه الآية فى قوله تعالى :

﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَائِبَةٍ وَلا وَصِيلَةٍ وَلا حَامٍ[1] وَلَـٰكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ [المائدة]

ثم يقول تعالى مقرراً :

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ .. (٣٥)﴾ [النحل]

أى : هذه سُنَّة السابقين المعاندين .

﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥)﴾ [النحل]

البلاغ هو ما بين عباد الله وبين الله ، وهو بلاغ الرسل ، والمراد به المنهج « افعل أو لا تفعل » . ولا يقول الله لك ذلك إلا وأنت قادر على الفعْل وقادر على التَّرْك .

لذلك نرى الحق تبارك وتعالى يرفع التكليف عن المكْره فلا يتعلق به حكم ؛ لأنه فى حالة الإكراه قد يفعل ما لا يريده ولا يُحبه ، وكذلك المجنون والصغير الذى لم يبلغ التعقل ، كُلُّ هؤلاء لا يتعلق بهم حكْم .. لماذا ؟ لأن الله تعالى يريد أن يضمن السلامة لآلة الترجيح فى الاختيار .. وهى العقل .

وحينما يكون الإنسان محلَّ تكليف عليه أنْ يجعلَ الفيصل فى :

---

(١) البَحيرة : الناقة إذا ولدت خمسة أبطن بحروا أذنها أى : شقوها وأعفوها أن ينتفع بها ، ولم يمنعوها من ماء ولا مرعى .

السائبة : الناقة التى تُسيَّب فتترك مهملة لنذر ونحوه .

الوصيلة : الناقة تبكر بأنثى ثم تثنى بأنثى فتعد مباركة لا تُذبح . [القاموس القويم ٢/٣٤٠].

الحامى : من الإبل الذى طال مُكثه عند أصحابه حتى صار له عشرة أبطن فحموا ظهره وتركوه. [المعجم ـ مادة : حما] .

﴿ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (٣٥) ﴾ [النحل]

بلاغ المنهج بافعل ولا تفعل ؛ لذلك استنكر القرآن الكريم على هؤلاء الذين جاءوا بقول من عند أنفسهم دون رصيد من المبلّغ ﷺ ، فقال تعالى فى حَقِّ هؤلاء :

﴿ وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (١٩) وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم . . (٢٠) ﴾ [الزخرف]

فأنكر عليهم سبحانه ذلك ، وسألهم :

﴿ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (٢١) ﴾ [الزخرف]

وخاطبهم سبحانه فى آية أخرى :

﴿ أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ (٣٧) ﴾ [القلم]

وكلمة ﴿ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ ﴾ أى : لا بُدّ أن يُبلَّغ المكلَّف ، فإنْ حصل تقصير فى ألاّ يُبلَّغ المكلَّف يُنسَب التقصير إلى أهل الدين الحق ، المنتسبين إليه ، والمُنَاط بهم تبليغ هذا المنهج لمنْ لَمْ يصلْه . وقد وردت الأحاديث الكثيرة فى الحَثِّ على تبليغ دين الله لمن لم يصلْه الدين .

كما قال ﷺ : « بلِّغُوا عنّى ولو آية »[1] وقوله ﷺ : « نَضَّر الله امرءاً سمع مقالتى فوعَاهَا ثم أدّاها إلى من لم يسمعها ، فرُبَّ مُبلَّغٍ أوْعَى من سامع »[2] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٤٦١) ، وأحمد فى مسنده (٢/١٥٩ ، ٢٠٢) ، والدارمى (١/١٣٦) والترمذى فى سننه (٢٦٦٩) وقال : حديث حسن صحيح .

(٢) أخرجه أحمد فى مسنده (١/٤٣٧) والترمذى فى سننه (٢٦٥٧ ، ٢٦٥٨) وابن ماجة فى سننه (٢٣٢) والحميدى (١/٤٧) من حديث عبدالله بن مسعود .

قال تعالى :

﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾

فالحق سبحانه يقول هنا :

﴿ ولَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وفى آية أخرى يقول سبحانه :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

فهذه لها معنى ، وهذه لها معنى .. فقوله :

﴿ مِن كُلِّ أُمَّةٍ .. (٨٤) ﴾ [النحل]

أى : من أنفسهم ، منهم خرج ، وبينهم تربَّى ودَرَج ، يعرفون خصاله وصدْقه ومكانته فى قومه .

أما قوله تعالى :

﴿ فِى كُلِّ أُمَّةٍ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

فـ « فى » هنا تفيد الظرفية . أى : فى الأمة كلها ، وهذه تفيد التغلغل فى جميع الأمة .. فلا يصل البلاغ منه إلى جماعة دون أخرى ، بل لا بُدّ من عموم البلاغ لجميع الأمة .

وكذلك يقول تعالى مرة :

﴿ أَرْسَلْنَا .. ﴿٢٦﴾ ﴾ [الحديد]

ومرة أخرى يقول :

﴿ بَعَثْنَا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]

وهناك فرق بين المعنيين فـ ﴿ أَرْسَلْنَا ﴾ تفيد الإرسال ، وهو : أن يتوسط مُرْسَل إلى مُرْسَل إليه . أما ﴿ بَعَثْنَا ﴾ فتفيد وجود شيء سابق اندثر ، ونريد بعثه من جديد .

ولتوضيح هذه القضية نرجع إلى قصة آدم ـ عليه السلام ـ حيث علّمه الله الأسماء كلها ، ثم أهبطه من الجنة إلى الأرض . وقال :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [البقرة]

وقال في آية أخرى :

﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ [طه]

إذن : هذا منهج من الله تعالى لآدم ـ عليه السلام ـ والمفروض أن يُبلّغ آدم هذا المنهج لأبنائه ، والمفروض في أبنائه أن يُبلّغوا هذا المنهج لأبنائهم ، وهكذا ، إلا أن الغفلة قد تستحوذ على المبلّغ للمنهج ، أو عدم رعاية المبلّغ للمنهج فتنطمس المناهج ، ومن هنا يبعثها الله من جديد ، فمسألة الرسالات لا تأتي هكذا فجأة لجماعة من الجماعات ، بل هي موجودة منذ أول الخلق .

فالرسالات إذن بَعْثٌ لمنهج إلهى ، كان يجب أنْ يظلَّ على ذكر من الناس ، يتناقله الأبناء عن الآباء ، إلا أن الغفلة قد تصيب المبلّغ فلا يُبلّغ ، وقد تصيب المبلَّغ فلا يلتزم بالبلاغ ؛ لذلك يجدد الله الرسل .

وقد وردت آياتٌ كثيرة فى هذا المعنى ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا(1) فِيهَا نَذِيرٌ (24) ﴾ [فاطر]

وقوله : ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (131) ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً (15) ﴾ [الإسراء]

لذلك نرى غير المؤمنين بمنهج السماء يَضعُون لأنفسهم القوانين التى تُنظّم حياتهم ، أليس لديهم قانون يُحدّد الجرائم ويُعاقب عليها ؟ فلا عقوبة إلا بتجريم ، ولا تجريمَ إلا بنصٍّ ، ولا نصَّ إلا بإبلاغ .

ومن هنا تأتى أهمية وَضْع القوانين ونشرها فى الصحف والجرائد العامة ليعلمها الجميع ، فلا يصح أنْ نعاقبَ إنساناً على جريمة هو لا يعلم أنها جريمة ، فلا بُدَّ من إبلاغه بها أولاً ، ليعلم أن هذا العمل عقوبته كذا وكذا ، ومن هنا تُقام عليه الحُجة .

وهنا أيضاً نلاحظ أنه قد يتعاصر الرسولان ، ألم يكُنْ إبراهيم ولوط متعاصريْن ؟ ألم يكُنْ شعيب وموسى متعاصريْن ؟ فما علّة ذلك ؟

---

(1) خلا : مضى وذهب وسبق . [القاموس القويم ١/٢٠٨] .

نقول : لأن العالَم كان قديماً على هيئة الانعزال ، فكُلّ جماعة منعزلة فى مكانها عن الأخرى لعدم وجود وسائل للمواصلات ، فكانت كل جماعة فى أرض لا تدرى بالأخرى ، ولا تعلم عنها شيئاً .

ومن هنا كان لكُلِّ جماعة بيئتُها الخاصة بما فيها من عادات وتقاليد ومُنكَرات تناسبها ، فهؤلاء يعبدون الأصنام ، وهؤلاء يُطفِّفون[1] الكيل والميزان ، وهؤلاء يأتون الذكْران دون النساء .

إذن : لكل بيئة جريمة تناسبها ، ولا بُدَّ أن نرسل الرسل لمعالجة هذه الجرائم ، كُلّ فى بلد على حدَة .

لكن رسالة محمد ﷺ كانت على موعد مع التقاءات الأمكنة مع وجود وسائل المواصلات ، لدرجة أن المعصية تحدث مثلاً فى أمريكا فنعلم بها فى نفس اليوم .. إذن : أصبحتْ الأجواء والبيئات واحدة ، ومن هنا كان منطقياً أنْ يُرْسلَ ﷺ للناس كافة ، وللأزمنة كافة .

وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه الشمولية بقوله :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [سبأ]

أى : للجميع لم يترك أحداً ، كما يقول الخياط : كفَفْتُ القماش أى : جمعتُ بعضه على بعض ، حتى لا يذهبَ منه شىءٌ .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) طفف المكيال : بخسه ونقصه . [المعجم الوجيز ـ مادة : طفف] .

هذه هى مهمة الرسل :

﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٣٦)﴾ [النحل]

والعبادة معناها التزامٌ بأمر فيُفعل ، ويُنهى عن أمر فلا يُفعل ؛ لذلك إذا جاء مَنْ يدَّعى الألوهية وليس معه منهج نقول له : كيف نعبدك ؟ وما المنهج الذى جِئْتَ به ؟ بماذا تأمرنا ؟ وعن أىِّ شىءٍ تنهانا ؟

فهنا أَمْر بالعبادة ونَهْى عن الطاغوت ، وهذا يُسمُّونه تَحْلِيةً وتَخْلِيةً : التحلية فى أنْ تعبدَ الله ، والتخلية فى أنْ تبتعدَ عن الشيطان .

وعلى هذين العنصرين تُبنَى قضية الإيمان حيث نَفْى فى : « أشهد أن لا إلهَ » .. وإثبات فى « إلا الله » ، وكأن الناطق بالشهادة ينفى التعدُّد ، ويُثبت الوحدانية لله تعالى ، وبهذا تكون قد خلَّيْتَ نفسك عن الشرك ، وحلَّيْتَ نفسك بالوحدانية .

ولذلك سيكون الجزاء عليها فى الآخرة من جنس هذه التحلية والتخلية ؛ ولذلك نجد فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ ..(١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : خُلِّى عن العذاب .

﴿وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ .. (١٨٥)﴾ [آل عمران]

أى : حُلِّى بالنعيم .

وقوله سبحانه :

﴿ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

أى : ابتعدوا عن الطاغوت .. فيكون المقابل لها : تقرَّبوا إلى الله و ﴿ الطَّاغُوت ﴾ فيها مبالغة تدل على مَنْ وصل الذِّرْوة فى الطغيان وزادَ فيه .. وفَرْق بين الحدث المجرَّد مثل طغى ، وبين المبالغة فيه مثل (طاغوت) ، وهو الذى يَزيده الخضوعُ لباطله طُغْياناً إلى باطل أعلى .

ومثال ذلك : شاب تمرَّد على مجتمعه ، وأخذ يسرق الشيء التافه القليل ، فوجد الناس يتقرَّبون إليه ويُداهنونه اتقاء شره ، فإذا به يترقّى فى باطله فيشترى لنفسه سلاحاً يعتدى به على الأرواح ، ويسرق الغالى من الأموال ، ويصل إلى الذروة فى الظلم والاعتداء ، ولو أخذ الناس على يده منذ أول حادثة لما وصل إلى هذه الحال .

ومن هنا وجدنا الديات تتحملها العاقلة[1] وتقوم بها عن الفاعل الجانى ، ذلك لما وقع عليها منْ مسئولية تَرْك هذا الجانى ، وعدم الأخذ على يده وكَفِّه عن الأذى .

ونلاحظ فى هذا اللفظ (الطاغوت) أنه لما جمعَ كلَّ مبالغة فى الفعل نجده يتأبَّى على المطاوعة ، وكأنه طاغوت فى لفظه ومعناه ، فتراه يدخل على المفرد والمثنى والجمع ، وعلى المذكر والمؤنث ، فنقول : رجل طاغوت ، وامرأة طاغوت ، ورجلان طاغوت ، وامرأتان

---

(١) العاقلة : هم العصبة ، وهم القرابة من قبل الأب الذين يعطون دية قتل الخطأ . [لسان العرب ـ مادة : عقل] .

طاغوت ، ورجال طاغوت ، ونساء طاغوت ، وكأنه طغى بلفظه على جميع الصِّيغ .

إذن : الطاغوت هو الذى إذا ما خضع الناس لِظُلْمه ازداد ظلماً .

ومنه قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَخَفَّ[1] قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ .. (٥٤) ﴾ [الزخرف]

فقد وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية ، وقال :

﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى .. (٣٨) ﴾ [القصص]

ويُحكَى فى قصص المتنبِّئين أن أحد الخلفاء جاءه خبر مُدَّعٍ للنبوة ، فأمرهم ألاّ يهتموا بشأنه ، وأن يتركوه ، ولا يعطوا لأمره بالاً لعله ينتهى ، ثم بعد فترة ظهر آخر يدَّعى النبوة ، فجاءوا بالأول ليرى رأيه فى النبى الجديد : ما رأيك فى هذا الذى يدعى النبوة ؟! أيُّكم النبى ؟ فقال : إنه كذاب فإنى لم أرسل أحداً !! ظن أنهم صدقوه فى ادعائه النبوة ، فتجاوز هذا إلى ادعاء الألوهية ، وهكذا الطاغوت .

وقد وردت هذه الكلمة ﴿ الطاغوت ﴾ فى القرآن ثمانى مرات ، منها ستة تصلح للتذكير والتأنيث ، ومرة وردتْ للمؤنث فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا .. (١٧) ﴾ [الزمر]

ومرة وردتْ للمذكر فى قوله تعالى :

---

(١) استخفه : استضعف عقله وسخَّره وسيَّره على هواه وحمله على الطيش والحُمْق . [القاموس القويم ١/ ٢٠٠] . والمقصود به فى الآية فرعون .

﴿ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النساء]

وفى اللغة كلمات يستوى فيها المذكر والمؤنث ، مثل قَوْل الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً .. ﴿١٤٦﴾ ﴾ [الأعراف]

وقوله :

﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي .. ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف]

فكلمة « سبيل » جاءت مرَّة للمذكّر ، ومرّة للمؤنث .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل]

وقد أخذ بعضهم هذه الآية على أنها حُجّة يقول من خلالها : إن الهداية بيد الله ، وليس لنا دَخْل فى أننا غير مهتدين .. إلى آخر هذه المقولات .

نقول : تعالوا نقرأ القرآن .. يقول تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

لو كانت الهداية بالمعنى الذى تقصدون لَمَا استحبُّوا العَمى وفضَّلوه ، لكن « هديناهم » هنا بمعنى : دَلَلْناهم وأرشدناهم فقط ،

ولهم حَقّ الاختيار ، وهم صالحون لهذه ولهذه ، والدلالة تأتى للمؤمن وللكافر ، دلَّ الله الجميع ، فالذى أقبل على الله بإيمان به زاده هُدىً وآتاه تقواه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ومن هذا ما يراه البعض تناقضاً بين قوله تعالى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ .. (٥٦) ﴾ [القصص]

وقوله :

﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٥٢) ﴾ [الشورى]

حيث نفى الحق سبحانه عن الرسول ﷺ الهداية فى الأولى ، وأثبتها له فى الثانية . نلاحظ أن الحدث هنا واحد وهو الهداية ، والمتحدَّث عنه واحد هو الرسول ﷺ ، فكيف يثبت حَدَثٌ واحد لمُحْدِث واحد مرّة ، وينفيه عنه مرّة ؟!

لا بد أن تكون الجهة مُنفكّة .. فى :

﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِى .. (٥٦) ﴾ [القصص]

أى : لا تستطيع أنْ تُدخل الإيمان فى قلب مَنْ تحب ، ولكن تدلُّ وترشد فقط ، أما هداية الإيمان فبيد الله تعالى يهدى إليه مَنْ عنده استعداد للإيمان ، ويَصْرف عنها مَنْ أعرض عنه ورفضهُ .

وكأن الله تعالى فى خدمة عبيده ، مَنْ أحب شيئاً أعطاه إياه ويسَّره له ، وبذلك هدى المؤمن للإيمان ، وختم على قَلْب الكافر بالكفر .

إذن : تأتى الهداية بمعنيين : بمعنى الدلالة والإرشاد كما فى الآية السابقة ، وبمعنى المعونة وشَرْح الصدر للإيمان كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَاءُ .. ⦗٥٦⦘ ﴾ [القصص]

وقوله : ﴿ زَادَهُمْ هُدًى .. ⦗١٧⦘ ﴾ [محمد]

فقوله تعالى :

﴿ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ .. ⦗٣٦⦘ ﴾ [النحل]

أى : هداية إيمان ومعونةٍ بأن مكّن المنهج فى نفسه ، ويسَّره له ، وشرح به صدره .

﴿ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ .. ⦗٣٦⦘ ﴾ [النحل]

حقَّتْ : أى أصبحتْ حقاً له ، ووجبتْ له بما قدَّم من أعمال ، لا يستحق معها إلا الضلالة ، فما حقَّتْ عليهم ، وما وجبتْ لهم إلا بما عملوا .

وهذه كقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ⦗١٤٤⦘ ﴾ [الأنعام]

أيُّهما أسبق : عدم الهداية من الله لهم ، أم الظلم منهم ؟

واضح أن الظلم حدث منهم أولاً ، فسمَّاهم الله ظالمين ، ثم كانت النتيجة أنْ حُرموا الهداية .

ونذكر هنا مثالاً كثيراً ما كررناه ليرسخَ فى الأذهان ـ ولله المثل

الأعلى - هَبْ أنك سائر فى طريق تقصد بلداً ما ، فصادفك مُفْترق لطرق متعددة ، وعلامات لاتجاهات مختلفة ، عندها لجأتَ لرجل المرور : من فضلك أريدُ بلدة كذا ، فقال لك : من هنا . فقلت : الحمد لله ، لقد كدْتُ أضلّ الطريق ، وجزاكَ الله خَيْراً .

فلمّا وجدك استقبلتَ كلامه بالرضا والحب ، وشكرْتَ له صنيعه أراد أنْ يُزيد لك العطاء . فقال لك : لكن فى هذا الطريق عقبةٌ صعبة ، وسوف أصحبُك حتى تمرَّ منها بسلام .

هكذا كانت الأولى منه مُجرّد دلالة ، أما الثانية فهى المعونة ، فلمَّا صدَّقْته فى الدلالة أعانكَ على المدلول .. هكذا أمْرُ الرسل فى الدلالة على الحق ، وكيفية قبول الناس لها .

ولك أنْ تتصور الحال لو قُلْتَ لرجل المرور هذا : يبدو أنك لا تعرف الطريق .. فسيقول لك : إذن اتجه كما تُحِب وسِرْ كما تريد .

وكلمة « الضلالة » مبالغة من الضلال وكأنها ضلال كبير ، ففيها تضخيمٌ للفعل ، ومنها قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَن كَانَ فِى الضَّلالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا .. (٧٥) ﴾ [مريم]

ثم يُقيم لنا الحق - تبارك وتعالى - الدليلَ على بَعْثة الرسل فى الأمم السابقة لنتأكد من إخباره تعالى ، وأن الناسَ انقسموا أقساماً بين مُكذِّب ومُصدّق ، قال تعالى :

﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٣٦) ﴾ [النحل]

فهناك شواهد وأدلة تدل على أن هنا كان ناس ، وكانت لهم حضارة اندكتْ واندثرتْ ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ (١٣٧) ﴾ [الصافات]

فأمر الله تعالى بالسياحة فى الأرض للنظر والاعتبار بالأمم السابقة ، مثل : عاد وثمود وقوم صالح وقوم لوط وغيرهم .

والحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ .. (٣٦) ﴾ [النحل]

وهل نحن نسير فى الأرض ، أم على الأرض ؟

نحن نسير على الأرض .. وكذلك كان فهْمُنا للآية الكريمة ، لكن المتكلم بالقرآن هو ربُّنا تبارك وتعالى ، وعطاؤه سبحانه سيظل إلى أنْ تقومَ الساعة ، ومع الزمن تتكشف لنا الحقائق ويُثبت العلم صِدْق القرآن وإعجازه .

فمنذ أعوام كنا نظنُّ أن الأرض هى هذه اليابسة التى نعيش عليها ، ثم أثبت لنا العلم أن الهواء المحيط بالأرض (الغلاف الجوى) هو إكسير الحياة على الأرض ، وبدونه لا تقوم عليها حياة ، فالغلاف الجوى جزء من الأرض .

وبذلك نحن نسير فى الأرض ، كما نطق بذلك الحق - تبارك وتعالى - فى كتابه العزيز .

ونقف أمام مَلْحظ آخر فى هذه الآية :

﴿فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا .. (١٣٧)﴾ [آل عمران]

وفى آية أخرى يقول :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا .. (١١)﴾ [الأنعام]

ليس هذا مجرد تفنُّن فى العبارة ، بل لكل منهما مدلول خاص ، فالعطف بالفاء يفيد الترتيب مع التعقيب .

أى : يأتى النظر بعد السَّيْر مباشرة .. أما فى العطف بثُم فإنها تفيد الترتيب مع التراخى . أى : مرور وقت بين الحدثَيْن ، وذلك كقوله تعالى :

﴿ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ[1] (٢٢)﴾ [عبس]

وقول الحق سبحانه :

﴿فَانظُرُوا .. (٣٦)﴾ [النحل]

فكأن الغرض من السَّيْر الاعتبار والاتعاظ ، ولا بُدَّ - إذن - من وجود بقايا وأطلال تدلُّ على هؤلاء السابقين المكذبين ، أصحاب الحضارات التى أصبحتْ أثراً بعد عَيْنٍ .

وها نحن الآن نفخر بما لدينا من أبنية حجرية مثل الأهرامات مثلاً ، حيث يفد إليها السُّياح من شتى دول العالم المتقدم ؛ ليَروْا ما عليها هذه الحضارة القديمة من تطوُّر وتقدُّم يُعجزهم ويُحيِّرهم ، ولم يستطيعوا فَكّ طلاسمه حتى الآن .

---

(١) أنشره : أحياه وأوجده . قال تعالى : ﴿ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ (٢٢)﴾ [عبس] بعثه من قبره . [القاموس القويم ٢/٢٦٦] .

ومع ذلك لم يترك الفراعنة ما يدل على كيفية بناء الأهرامات ، أو ما يدل على كيفية تحنيط الموتى ؛ مما يدل على أن هؤلاء القوم أُخذوا أَخْذة قوية اندثرتْ معها هذه المراجع وهذه المعلومات ، كما قال تعالى :

﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا[1] (٩٨) ﴾ [مريم]

وقد ذكر لنا القرآن من قَصَص هؤلاء السابقين الكثير كما فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ (٦) إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (٧) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ (٨) ﴾ [الفجر]

وقال :

﴿ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا[2] الصَّخْرَ بِالْوَادِ (٩) وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ[3] عَذَابٍ (١٣) ﴾ [الفجر]

هذا ما حدث للمكذِّبين فى الماضى ، وإياكم أنْ تظنُّوا أن الذى يأتى بعد ذلك بمنجىً عن هذا المصير .. كلا :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤) ﴾ [الفجر]

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) الركز : الحسّ والصوت الخفىّ تسمعه من بعيد . [لسان العرب ـ مادة : ركز] .

(٢) يعنى : يقطعون الصخر بالوادى . قال ابن عباس : ينحتونها ويخرقونها . [تفسير ابن كثير ٤/٥٠٨] .

(٣) قال الفراء : هذه الكلمة تقولها العرب لكل نوع من العذاب يدخل فيه السوط جرى به الكلام والمثل . وهو عندهم غاية العذاب . [لسان العرب ـ مادة : سوط] .

﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ۝٣٧ ﴾

يُسلِّى الحق تبارك وتعالى رسوله ﷺ ، ويثبت له حِرْصَه على أمته ، وأنه يُحمِّل نفسه فى سبيل هدايتهم فوق ما حَمَّله الله ، كما قال له فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [الشعراء]

ويقول تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ ﴾ [التوبة]

ثم بعد ذلك يقطع الحق سبحانه الأمل أمام المكذبين المعاندين ، فيقول تعالى :

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى مَن يُضِلُّ .. ۝٣٧ ﴾ [النحل]

أى : لا يضل إلا مَنْ لم يقبل الإيمان به فَيَدعُه إلى كفره ، بل ويطمس على قلبه غيْر مأسُوف عليه ، فهذه إرادته ، وقد أجابه الله إلى ما يريد .

﴿ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ۝٣٧ ﴾ [النحل]

---

(١) باخع : مهلك . بخع نفسه : قتلها هماً وغَيْظاً وحُزْناً .

إذن : المسألة ليستْ مجرد عدم الهداية ، بل هناك معركة لا يجدون لهم فيها ناصراً أو معيناً يُخلِّصهم منها ، كما قال تعالى :

﴿ فَمَا لَنَا مِن شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) ﴾ [الشعراء]

إذن : لا يهدى الله مَن اختار لنفسه الضلال ، بل سيُعذّبه عذاباً لا يجد مَنْ ينصُره فيه .

ثم يقول الحق سبحانه عنهم :

﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ[1] بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

سبحان الله !! كيف تُقسمون بالله وأنتم لا تؤمنون به ؟! وما مدلول كلمة الله عندكم ؟.. هذه علامة غباء عند الكفار ودليل على أن موضوع الإيمان غير واضح فى عقولهم ؛ لأن كلمة الله نفسها دليلٌ على الإيمان به سبحانه ، ولا توجد الكلمة فى اللغة إلا بعد وجود ما تدل عليه أولاً .. فالتلفزيون مثلاً قبل أن يوجد لم يكن له اسم ، ثم بعد أن وُجد أوجدوا له اسماً .

---

(١) ذكر الواحدى فى سبب نزول هذه الآية أنه كان لرجل من المسلمين على مشرك دَيْن فتقاضاه ، فكان فيما تكلم به المسلم : والذى أرجوه بعد الموت إنه لكذا ، فأقسم المشرك بالله : لا يبعث الله من يموت . فنزلت الآية [أسباب النزول للواحدى ص ١٦٠] ، [تفسير القرطبى ٥/٣٨٢٩] .

إذن : توجد المعانى أولاً ، ثم توضع للمعانى أسماء ، فإذا رأيت اسماً يكون معناه قبله أم بعده ؟ يكون قبله .. فإذا قالوا : الله غير موجود نقول لهم : كذبتم ؛ لأن كلمة الله لفظ موجود فى اللغة ، ولا بُدّ أن لها معنىً سبق وجودها .

إذن : فالإيمان سابقٌ للكفر .. وجاء الكفر منطقياً ؛ لأن معنى الكفر : السَّتْر .. والسؤال إذن : ماذا ستر ؟ ستر الإيمان ، ولا يستر إلا موجوداً ، وبذلك نقول : إن الكفر دليل على الإيمان .

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

أى : مبالغين فى اليمين مُؤكّدينه ، وما أقربَ غباءَهم هنا بما قالوه فى آية أخرى :

﴿ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) ﴾ [الأنفال]

فليس هذا بكلام العقلاء . وكان ما أقسموا عليه بالله أنه :

﴿ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

وهذا إنكار للبعث ، كما سبق وأنْ قالوا :

﴿ قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) ﴾ [المؤمنون]

فيرد عليهم الحق سبحانه ﴿ بَلَىٰ ﴾ .

وهى أداة لنفى النفى السابق عليها ، وأهل اللغة يقولون : نفى النفى إثبات ، إذاً « بلى » تنفى النفى قبلها وهو قولهم :

﴿ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

فيكون المعنى : بل يبعث الله مَنْ يموت .

﴿ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا .. (٣٨) ﴾ [النحل]

والوَعْد هو الإخبار بشيء لم يأت زمنه بعد ، فإذا جاء وَعْدٌ بحدَث يأتى بَعْد ننظر فيمَنْ وعد : أقادرٌ على إيجاد ما وعد به ؟ أم غير قادر ؟

فإن كان غيرَ قادر على إنفاذ ما وعد به لأنه لا يضمن جميع الأسباب التى تعينه على إنفاذ وعده ، قُلْنا له قُلْ : إنْ شاء الله .. حتى إذا جاء موعد التنفيذ فلم تَفِ بوعدك التمسْنا لك عُذْراً ، وحتى لا تُوصف ساعتها بالكذب ، فقد نسبتَ الأمر إلى مشيئة الله .

والحق - تبارك وتعالى - لا يمنعنا أن نُخطِّط للمستقبل ونعمل كذا ونبنى كذا .. خَطِّط كما تحب ، واعْدُدْ للمستقبل عدَته ، لكن أردف هذا بقولك : إنْ شاء الله ؛ لأنك لا تملك جميع الأسباب التى تمكِّن من عمل ما تريد مستقبلاً ، وقد قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا (٢٣) إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ .. (٢٤) ﴾ [الكهف]

ونضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك أردتَ أن تذهب غداً إلى فلان لتكلمه فى أمر ما .. هل ضمنت لنفسك أن تعيش لغد ؟ وهل ضمنت أن هذا الشخص سيكون موجوداً غداً ؟ وهل ضمنتَ ألاَّ يتغير الداعى الذى تريده ؟ وربما توفرت لك هذه الظروف كلها ، وعند الذهاب أَلَمَّ بك

عائق منعك من الذهاب . إذن : يجب أن نُردف العمل فى المستقبل بقولنا : إن شاء الله .

أما إذا كان الوعد من الله تعالى فهو قادر سبحانه على إنفاذ ما يَعد به ؛ لأنه لا قوة تستطيع أن تقفَ أمام مُراده ، ولا شيءَ يُعجزه فى الأرض ولا فى السماء ، كان الوعد منه سبحانه (حقاً) أنْ يُوفّيه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [النحل]

أى : لا يعلمون أن الله قادر على البعث ، كما قال تعالى :

﴿ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. (١٠) ﴾ [السجدة]

وقال : ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا[1] أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) ﴾ [الإسراء]

فقد استبعد الكفار أمر البعث ؛ لأنهم لا يتصورون كيف يبعث الله الخلْق من لَدُن آدم ـ عليه السلام ـ حتى تقوم الساعة .. ولكن لِمَ تستبعدون ذلك ؟ وقد قال تعالى :

﴿ مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ (٢٨) ﴾ [لقمان]

فالأمر ليس مزاولة يجمع الله سبحانه بها جزئيات البشر كل على حدة .. لا .. ليس فى الأمر مزاولة أو معالجة تستغرق وقتاً .

(١) رفت الشيء ، جعله رفاتاً : أى دقّه وكسّره وجعله قطعاً صغيرة . [القاموس القويم ١/ ٢٧٠] .

﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس]

ونضرب لذلك مثلاً ـ ولله المثل الأعلى ـ فنحن نرى مثل هذه الأوامر فى عالم البشر عندما يأتى المعلّم أو المدرب الذى يُدرِّب الجنود نراه يعلِّم ويُدرِّب أولاً ، ثم إذا ما أراد تطبيق هذه الأوامر فإنه يقف أمام الجنود جميعاً وبكلمة واحدة يقولها يمتثل الجميع ، ويقفون على الهيئة المطلوبة ، هل أمسك المدرب بكل جندى وأوقفه كما يريد ؟! لا .. بل بكلمة واحدة تَمَّ له ما يريد .

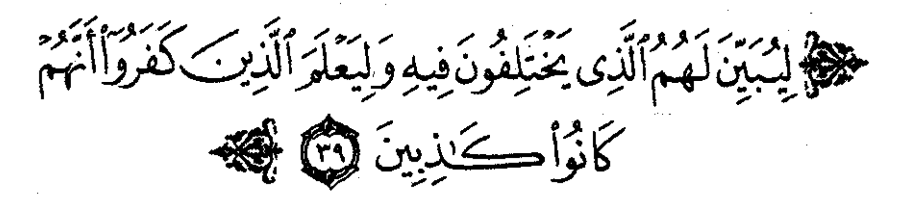
وكأن انضباط المأمور وطاعته للأمر هو الأصل ، كذلك كل الجزئيات فى الكون منضبطة لأمره سبحانه وتعالى .. هى كلمة واحدة بها يتم كل شىء .. فليس فى الأمر مُعَالجة ، لأن المعالجة أنْ يُباشر الفاعل بجزئيات قدرته جزئيات الكائن ، وليس البعث هكذا .. بل بالأمر الانضباطى : كن .

ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٨) ﴾ [النحل]

نقول : الحمد لله أن هناك قليلاً من الناس يعلمون أمر البعث ويؤمنون به .

ثم يقول الحق سبحانه :



فمعنى قوله تعالى :

﴿ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى يَخْتَلِفُونَ فِيهِ .. (٣٩) ﴾ [النحل]

أى : من أمر البعث ؛ لأن القضية لا تستقيم بدون البعث والجزاء ؛ ولذلك كنت فى جدالى للشيوعيين أقول لهم : لقد أدركتم رأسماليين شرسين ومفترين ، شربوا دم الناس وعملوا كذا وكذا .. فماذا فعلتُم بهم ؟ يقولون : فعلنا بهم كيت وكيت ، فقلت : ومن قبل وجود الشيوعية سنة ١٩١٧ ، ألم يكن هناك ظلمة مثل هؤلاء ؟ قالوا : بلى .

قلت : إذن من مصلحتكم أن يوجد بعث وحساب وعقاب لا يفلت منه هؤلاء الذين سبقوكم ، ولم تستطيعوا تعذيبهم .

ثم يأتى فَصْل الخطاب فى قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) ﴾ [النحل]

أى : كاذبين فى قولهم :

﴿ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾ [النحل]

وذلك علم يقين ومعاينة ، ولكن بعد فوات الأوان ، فالوقت وقت حساب وجزاء لا ينفع فيه الاعتراف ولا يُجدى التصديق ، فالآن يعترفون بأنهم كانوا كاذبين فى قَسَمهم : لا يبعث الله مَنْ يموت وبالغوا فى الأيْمان وأكَّدوها ؛ ولذلك يقول تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ[1] الْعَظِيمِ (٤٦) ﴾ [الواقعة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٠) ﴾

إذن : أمر البعث ليس علاجاً لجزئيات كل شخص وضمِّ أجزائه وتسويته من آدم حتى قيام الساعة ، بل المسألة منضبطة تماماً مع الأمر الإلهى (كُنْ) .

وبمجرد صدوره ، ودون حاجة لوقت ومُزاولة يكون الجميع ماثلاً طائعاً ، كل واحد منتظرٌ دورَه ، منتظر الإشارة ؛ ولذلك جاء فى الخبر : « أمور يبديها ولا يبتديها » .

فالأمر يتوقف على الإذن : اظهر يظهر .

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - من يعد القنبلة الزمنية مثلاً ، ويضبطها على وقت معين .. تظل القنبلة هذه إلى وقت الانفجار الذى وُضع فيها ، ثم تنفجر دون تدخُّل من صانعها .. مجرد الإذن لها بالانفجار تنفجر .

وحتى كلمة (كُنْ) نفسها تحتاج لزمن ، ولكن ليس هناك أقرب منها فى الإذن .. وإن كان الأمر فى حقِّه تعالى لا يحتاج إلى كُنْ ولا غيره .

---

(١) الحنث : الخُلْف فى اليمين . وهو أيضاً الذنب العظيم والإثم . وقيل : هو الشرك . [لسان العرب - مادة : حنث] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ[(١)] فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) ﴾

المهاجرون قوم آمنوا بالله إيماناً صار إلى مرتبة من مراتب اليقين جعلتهم يتحمَّلون الأذى والظلم والاضطهاد فى سبيل إيمانهم ، فلا يمكن أن يُضحِّى الإنسان بماله وأهله ونفسه إلا إذا كان لأمر يقينىّ .

وقد جاءت هذه الآية بعد آية إثبات البعث الذى أنكره الكافرون والحُّوا فى إنكاره وبالغوا فيه ، بل وأقسموا على ذلك :

﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ .. (٣٨) ﴾[النحل]

وهم يعلمون أن من الخلقَ مَنْ يُسىء ، ومنهم من يُحسِن ، فهل يعتقدون ـ فى عُرْف العقل ـ أن يتركَ الله مَنْ أساء ليُعربد فى خَلْق الله دون أن يُجازيه ؟

ذلك يعنى أنهم خائفون من البعث ، فلو أنهم كانوا محسنين لَتَمنَّوا البعث ، أمَا وقد أسرفوا على أنفسهم إسرافاً يُشفقون معه على أنفسهم من الحساب والجزاء ، فمن الطبيعى أنْ يُنكِروا البعث ،

---

(١) بوأه : أسكنه . وبوأه فى الأرض : مكَّن له فيها . والمعنى : أى ننزلهم منزلة حسنة بالنصر وإغداق النعم عليهم فى الدنيا . [القاموس القويم ١/٨٨] .

ويلجأوا إلى تمنية أنفسهم بالأمانى الكاذبة ، ليطمئنوا على أن ما أخذوه من مظالم الناس ودمائهم وكرامتهم وأمنهم أمرٌ لا يُحاسبون عليه .

وإذا كانوا قد أنكروا البعث ، ويوجد رسول ومعه مؤمنون به يؤمنون بالبعث والجزاء إيماناً يصل إلى درجة اليقين الذى يدفعهم إلى التضحية فى سبيل هذا الإيمان .. إذن : لا بُدَّ من وجود معركة شرسة بين أهل الإيمان وأهل الكفر ، معركة بين الحق والباطل .

ومن حكمة الله أن ينتشر الإسلام فى بدايته بين الضعفاء ، حتى لا يظن ظَانٌّ أن المؤمنين فرضوا إيمانهم بالقوة ، لا .. هؤلاء هم الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، والكفار هم السادة .. إذن : جاء الإسلام ليعاند الكبارَ الصناديدَ العتاة .

وكان من الممكن أن ينصرَ الله هؤلاء الضعفاء ويُعلى كلمة الدين من البداية ، ولكن أراد الحق تبارك وتعالى أن تكون الصيحةُ الإيمانية فى مكَّة أولاً ؛ لأن مكة مركز السيادة فى جزيرة العرب ، وقريش هم أصحاب المهابة وأصحاب النفوذ والسلطان ، ولا تقوى أىّ قبيلة فى الجزيرة أن تعارضها ، ومعلوم أنهم أخذوا هذه المكانة من رعايتهم لبيت الله الحرام وخدمتهم للوافدين إليه[1] .

فلو أن الإسلام اختار بقعة غير مكة لَقَالوا : إن الإسلام استضعفَ جماعة من الناس ، وأغراهم بالقول حتى آمنوا به . لا ،

---

(١) يدل على هذا قوله تعالى : ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ .. (١٩) ﴾ [التوبة] .

فالصيحة الإسلاميةُ جاءت فى أُذن سادة قريش وسادة الجزيرة الذين أمَّنهم الله فى رحلة الشتاء والصيف ، وهم أصحاب القوة وأصحاب المال .

وإذا كان الأمر كذلك ، فلماذا لم ينصر الله دينه فى بلد السادة ؟ نقول : لا .. الصيحة فى أذن الباطل تكون فى بلد السادة فى مكة ، لكن نُصْرة الدين لا تأتى على يد هؤلاء السادة ، وإنما تأتى فى المدينة .

وهذا من حكمة الله تعالى حتى لا يقول قائل فيما بعد : إن العصبية لمحمد فى مكة فرضتْ الإيمان بمحمد .. لا بل يريد أن يكون الإيمان بمحمد ﷺ هو الذى خلق العصبية لمحمد ، فجاء له بعصبية بعيدة عن قريش ، وبعد ذلك دانتْ لها قريش نفسها .

وما دامت هناك معركة ، فمَن المطحون فيها ؟ المطحون فيها هو الضعيف الذى لا يستطيع أنْ يحمىَ نفسه .. وهؤلاء هم الذين ظُلموا .. ظُلموا فى المكان الذى يعيشون فيه ؛ ولذلك كان ولا بُدَّ أن يرفع الله عنهم هذا الظلم .

وقد جاء رَفْع الظلم عن هؤلاء الضعفاء على مراحل .. فكانت المرحلة الأولى أن ينتقلَ المستضعفون من مكة ، لا إلى دار إيمان تحميهم وتساعدهم على نَشْر دينهم ، بل إلى دار أَمْن فقط يأمنون فيها على دينهم .. مجرد أَمْن يتيح لهم فرصة أداء أوامر الدين .

ولذلك استعرض رسول الله ﷺ البلاد كلها لينظر أىُّ الأماكن تصلح دار أَمْن يهاجر إليها المؤمنون بدعوته فلا يعارضهم أحد ، فلم

يجد إلا الحبشة ؛ ولذلك قال عنها : « إن بأرض الحبشة ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه »[(١)] .

وتكفى هذه الصفة فى ملك الحبشة ليهاجر إليه المؤمنون ، ففى هذه المرحلة من نُصْرة الدين لا نريد أكثر من ذلك ، وهكذا تمت الهجرة الأولى إلى الحبشة .

ثم يسَّر الله لدينه أتباعاً وأنصاراً التقوْا برسول الله ﷺ وبايعوه على النُّصْرة والتأييد ، ذلكم هم الأنصار من أهل المدينة الذين بايعوا رسول الله ﷺ عند العقبة ومَهَّدوا للهجرة الثانية إلى المدينة ، وهى هجرةٌ ـ هذه المرة ـ إلى دار أَمْن وإيمان ، يأمن فيها المسلمون على دينهم ، ويجدون الفرصة لنشره فى رُبُوع المعمورة .

ونقف هنا عند قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا.. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

ومادة هذا الفعل : هجر .. وهناك فَرْق بين هجر وبين هاجر :

هجر : أن يكره الإنسانُ الإقامةَ فى مكان ، فيتركه إلى مكان آخر يرى أنه خَيْرٌ منه ، إنما المكان نفسه لم يُكرهه على الهجرة .. أى المعنى : ترك المكان مختاراً .

أما هاجر : وهى تدل على المفاعلة من الجانبين ، فالفاعل هنا

---

(١) أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (٢/٣٠١) ، وأورده ابن هشام فى السيرة النبوية بنحوه (١/٣٢١) .

ليس كارهاً للمكان ، ولكن المفاعلة التى حدثتْ من القوم هى التى اضطرتْه للهجرة .. وهذا ما حدث فى هجرة المؤمنين من مكة ؛ لأنهم لم يتركوها إلى غيرها إلاَّ بعد أن تعرضوا للاضطهاد والظُّلْم ، فكأنهم بذلك شاركوا فى الفعل ، فلو لم يتعرَّضوا لهم ويظلموهم لما هاجروا ..

ولذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٤١)﴾ [النحل]

وينطبق هذا المعنى على قول المتنبى[١] :

إذَا ترحلْتَ عن قومٍ وقَدْ قَدَرُوا ... ألاَّ تُفارِقهم فَالراحِلُون هُمُوا

يعنى : إذا كنت فى جماعة وأردْتَ الرحيل عنهم ، وفى إمكانهم أن يقدموا لك من المساعدة ما يُيسِّر لك الإقامة بينهم ولكنهم لم يفعلوا ، وتركوك ترحل مع مقدرتهم ، فالراحلون فى الحقيقة هم ، لأنهم لم يساعدوك على الإقامة .

كذلك كانت الحال عندما هاجر المؤمنون من مكة ؛ لأنه أيضاً لا يعقل أن يكره هؤلاء مكة وفيها البيت الحرام الذى يتمنى كل مسلم الإقامة فى جواره .

إذن : لم يترك المهاجرون مكة ، بل اضطروا إلى تركها وأجبروا

---

(١) هو : أحمد بن الحسين ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة (٣٠٣ هـ) . قال الشعر صبياً ، ادعى النبوة فى بادية السماوة وسجنه أمير حمص حتى تاب ورجع عن دعواه . وفد على الحكام والولاة فمدحهم شعراً وحظى عندهم ، زار حلب ومصر وبغداد وفارس وقتل بالنعمانية على يد فاتك بن أبى جهل عام (٣٥٤ هـ) عن ٥١ عاماً . (الإعلام ١/١١٥) .

عليه ، وطبيعى إذن أن يلجأوا إلى دار أخرى حتى تقوى شوكتهم ، ثم يعودون للإقامة ثانية فى مكة إقامة طبيعية صحيحة .

ثم إن الحق تبارك وتعالى قال :

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. ﴿٤١﴾﴾ [النحل]

ونلاحظ فى الحديث الشريف الذى يوضح معنى هذه الآية :

« فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها[1] فهجرته إلى ما هاجر إليه »[2] .

فما الفرق هنا بين : هاجر فى الله ، وهاجر إلى الله ؟

هاجر إلى مكان تدل على أن المكان الذى هاجر إليه أفضل من الذى تركه ، وكأن الذى هاجر منه ليس مناسباً له .

أما هاجر فى الله فتدل على أن الإقامة السابقة كانت أيضاً فى الله .. إقامتهم نفسها فى مكة وتحمُّلهم الأذى والظلم والاضطهاد كانت أيضاً فى الله .

أما لو قالت الآية « هاجروا إلى الله » لدلَّ ذلك على أن إقامتهم الأولى لم تكن لله .. إذن : معنى الآية :

---

(١) أخرج سعيد بن منصور من قول ابن مسعود أن رجلاً هاجر ليتزوج امرأة يقال لها أم قيس ، فكان يقال له : مهاجر أم قيس . [أورده ابن حجر فى فتح البارى ١/ ١٠] .

(٢) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (١) ، وكذا مسلم فى صحيحه (١٩٠٧) من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

﴿هَاجَرُوا فِي اللَّهِ .. ﴿٤١﴾﴾ [النحل]

أى : أن إقامتهم كانت لله ؛ وهجرتهم كانت لله .

ومثل هذا قوله تعالى :

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ .. ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران]

أى : إذا لم تكونوا فى مغفرة فسارعوا إلى المغفرة ، وفى الآية الأخرى :

﴿يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ .. ﴿٦١﴾﴾ [المؤمنون]

ذلك لأنهم كانوا فى خير سابق ، وسوف يسارعون إلى خير آخر .. أى : أنتم فى خير ولكن سارعوا إلى خير منه .

وهناك ملمح آخر فى قوله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا .. ﴿٤١﴾﴾ [النحل]

نلاحظ أن كلمة « الذين » جمع .. لكن هل هى خاصة بمَنْ نزلت فيهم الآية ؟ أم هى عامة فى كُلِّ مَنْ ظُلِم فى أىِّ مكان ـ فى الله ـ ثم هاجر منه ؟

الحقيقة أن العبرة هنا بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهى عامة فى كل مَنْ انطبقت عليه هذه الظروف ، فإن كانت هذه الآية نزلت[1] فى نفر من الصحابة منهم : صُهيب ، وعمار ، وخباب ، وبلال ، إلا أنها تنتظم غيرهم مِمّن اضطروا إلى الهجرة فراراً بدينهم .

---

(١) ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٠) ، والقرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٣١) .

ونعلم قصة صهيب رضى الله عنه ـ وكان رجلاً حداداً ـ لما أراد أنْ يهاجر بدينه ، عرض الأمر على قريش : والله أنا رجل كبير السِّنِّ ، إنْ كنت معكم فلن أنفعكم ، وإنْ كنت مع المسلمين فلن أضايقكم ، وعندى مال .. خذوه واتركونى أهاجر ، فرضَوْا بذلك ، وأخذوا مال صُهَيب وتركوه لهجرته .

ولذلك قال له ﷺ : « ربح البيع يا صُهَيْب »(1) أى : بيعة رابحة .

ويقول له عمر ـ رضى الله عنه : « نِعْم العبدُ صُهيب ، لو لم يخَفِ الله لم يَعْصِه » .

وكأن عدم عصيانه ليس خوفاً من العقاب ، بل حُباً فى الله تعالى ، فهو سبحانه لا يستحق أنْ يُعصى .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً .. (41) ﴾ [النحل]

نُبوِّىء ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ .. (26) ﴾ [الحج]

أى : بيَّنا له مكانه ، ونقول : باء الإنسان إلى بيته إذا رجع إليه ، فالإنسان يخرج للسعى فى مناكب الأرض فى زراعة أو تجارة ، ثم يأوى ويبوء إلى بيته ، إذن : باء بمعنى رجع ، أو هو مسكن الإنسان ، وما أعدَّه الله له .

---

(1) أخرجه أبو نعيم فى حلية الأولياء (١/١٥١ ، ١٥٣) من حديث صهيب رضى الله عنه ، وكذا الحاكم فى مستدركه (٣/٣٩٨) .

فإنْ كان المؤمنون سيخرجون الآن من مكة مغلوبين مضطهدين فسوف نعطيهم ونُحلهم ونُنزلهم منزلةً أحسن من التي كانوا فيها ، فقد كانوا مُضطهدين فى مكة ، فأصبحوا آمنين فى المدينة ، وإنْ كانوا تركوا بلدهم فسوف نُمهِّد لهم الدنيا كلها ينتشرون فيها بمنهج الله ، ويجنُون خير الدنيا كلها ، ثم بعد ذلك نُرجعهم إلى بلدهم سادة أعزّة بعد أن تكون مكة بلداً لله خالصة من عبادة الأوثان والأصنام .. هذه هى الحسنة فى الدنيا .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

ما ذكرناه من حسنة الدنيا وخيرها للمؤمنين هذا من المعجّلات للعمل ، ولكن حسنات الدنيا مهما كانت ستؤول إلى زوال ، إما أنْ تفارقها ، وإما أن تُفارقك ، وقد أنجز الله وَعْده للمؤمنين فى الدنيا ، فعادوا منتصرين إلى مكة ، بل دانتْ لهم الجزيرة العربية كلها بل العالم كله ، وانساحوا فى الشرق فى فارس ، وفى الغرب فى الرومان ، وفى نصف قرن كانوا سادة العالم أجمع .

وإنْ كانت هذه هى حسنة الدنيا المعَجّلة ، فهناك حسنة الآخرة المؤجلة :

﴿ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن ما أعدّ لهم من نعيم الآخرة أعظم مما وجدوه فى الدنيا .

ولذلك كان سيدنا عمر ـ رضى الله عنه ـ إذا أعطى أحد الصحابة

نصيب المهاجرين من العطاء يقول له : « بارك الله لك فيه .. هذا ما وعدك الله فى الدنيا ، وما ادخر لك فى الآخرة أكبر من هذا »[1]

فهذه حسنة الدنيا .

﴿ وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ .. ﴿٤١﴾ ﴾ [النحل]

وساعة أنْ تسمعَ كلمة (أكبر) فاعلم أن مقابلها ليس أصغر أو صغير ، بل مقابلها (كبير) فتكون حسنة الدنيا التى بوّأهم الله إياها هى (الكبيرة) ، لكن ما ينتظرهم فى الآخرة (أكبر) .

وكذلك قد تكون صيغةُ أفعل التفضيل أقلَّ فى المدح من غير أفعل التفضيل .. فمن أسماء الله الحسنى (الكبير) فى حين أن الأكبر صفةٌ من صفاته تعالى ، وليس اسماً من أسمائه ، وفى شعار ندائنا لله نقول : الله أكبر ولا نقول : الله كبير .. ذلك لأن كبير ما عداه يكون صغيراً .. إنما أكبر ، ما عداه يكون كبيراً ، فنقول فى الأذان : الله أكبر لأن أمور الدنيا فى حَقِّ المؤمن كبيرة من حيث هى وسيلة للآخرة .

فإياك أنْ تظنَّ أن حركةَ الدنيا التى تتركها من أجل الصلاة أنها صغيرة ، بل هى كبيرة بما فيها من وسائل تُعينك على طاعة الله ، فبها تأكل وتشرب وتتقوّى ، وبها تجمع المال لتسُدَّ به حاجتك ، وتُؤدِّى الزكاة إلى غير ذلك ، ومن هنا كانت حركة الدنيا كبيرة ، وكانت الصلاة والوقوف بين يدى الله أكبر .

---

(١) أورد هذا الأثر القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٣٢) ، وابن كثير فى تفسيره (٢/٥٧٠) ، والسيوطى فى الدر المنثور (٥/١٣٢) وعزاه لابن جرير الطبرى ولابن المنذر .

ولذلك حينما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ۝ ﴾ [الجمعة]

أخرجنا بهذا النداء من عمل الدنيا وحركتها ، ثم قال :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. ۝ ﴾ [الجمعة]

فأمرنا بالعودة إلى حركة الحياة ؛ لأنها الوسيلةُ للدار الآخرة ، والمزرعة التى نُعد فيها الزاد للقاء الله تعالى .. إذن : الدنيا أهم من أنْ تُنسَى من حيث هى معونة للآخرة ، ولكنها أتفَهُ من أن تكونَ غاية فى حَدِّ ذاتها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [النحل]

الخطاب هنا عن مَنْ ؟ الخطاب هنا يمكن أن يتجه إلى ثلاثة أشياء :

يمكن أنْ يُراد به الكافرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون عاقبة الإيمان وجزاء المؤمنين لآثروه على الكفر .

ويمكن أنْ يُراد به المهاجرون .. ويكون المعنى : لو كانوا يعلمون لازدادوا فى عمل الخير .

وأخيراً قد يُرَاد به المؤمن الذى لم يهاجر .. ويكون المعنى : لو كان يعلم نتيجة الهجرة لسارع إليها .

وهذه الأوْجه التى يحتملها التعبير القرآنى دليل على ثراء الأداء وبلاغة القرآن الكريم ، وهذا ما يسمونه تربيب الفوائد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يريد أن يعطينا تشريحاً لحال المهاجرين ، فقد ظُلموا واضْطهِدوا وأوذُوا فى سبيل الله ، ولم يفتنهم هذا كله عن دينهم ، بل صبروا وتحمَّلوا ، بل خرجوا من أموالهم وأولادهم ، وتركوا بلدهم وأرضهم فى سبيل دينهم وعقيدتهم ، حدث هذا منهم اتكالاً على أن الله تعالى لن يُضيِّعهم .

ولذلك جاء التعبير القرآنى هكذا ﴿ صَبَرُوا ﴾ بصيغة الماضى ، فقد حدث منهم الصبر فعلاً ، كأن الإيذاء الذى صبروا عليه فترة مضتْ وانتهت ، والباقى لهم عزّة ومنَعة وقوة لا يستطيع أحد أنْ يضطهدهم بعد ذلك ، وهذه من البشارات فى الأداء القرآنى .

أما فى التوكل ، فقال تعالى فى حقهم :

﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل]

بصيغة المضارع ؛ لأن التوكُّل على الله حدث منهم فى الماضى ، ومستمرون فيه فى الحاضر والمستقبل ، وهكذا يكون حال المؤمن .

وبعد ذلك تكلَّم القرآن الكريم عن قضية وقف منها الكافرون أيضاً موقف العناد والمكابرة والتكذيب ، وهى مسألة إرسال الرسل ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

وقد اعترض المعاندون من الكفار على كون الرسول بشراً . وقالوا : إذا أراد الله أن يرسل رسولاً فينبغى أن يكون ملكاً فقالوا :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

وكأنهم استقلُّوا الرسالة عن طريق بشر ؛ وهذا أيضاً من غباء الكفر وحماقة الكافرين ؛ لأن الرسول حين يُبلّغ رسالة الله تقع على عاتقه مسئوليتان : مسئولية البلاغ بالعلم ، ومسئولية التطبيق بالعمل ونموذجية السلوك .. فيأمر بالصلاة ويُصلّى ، وبالزكاة ويُزكّى ، وبالصبر ويصبر ، فليس البلاغ بالقول وفقط ، لا بل بالسلوك العملىّ النموذجىّ .

ولذلك كانت السيدة عائشة رضى الله عنها تقول عن رسول الله ﷺ : « كان خُلقه القرآن »(١)

وكان قرآناً يمشى على الأرض ، والمعنى : كان تطبيقاً كاملاً للمنهج الذى جاء به من الحق تبارك وتعالى .

ويقول تعالى فى حقّه ﷺ :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الأحزاب]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٦/٩١ ، ١٦٣) ، والبيهقى فى دلائل النبوة (١/٣١٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

فكيف نتصور أن يكون الرسول ملَكاً ؟ وكيف يقوم بهذه الرسالة بين البشـر ؟ قد يؤدى الملك مهمـة البلاغ ، ولكن كيف يُؤدِّى مـهمة القدوة والتطبيق العملى النموذجى ؟ كيف ونحن نعلم أن الملائكة خلْق جُبِلوا على طاعة الله :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [التحريم]

ومن أين تـأتيــه منافــذ الشـــهــوة وهو لا يـأكل ولا يشـــرب ولا يتناسل ؟

فلو جـاء ملَك برسالة السـماء ، وأراد أن ينهى قـومه عـن إحدى المعـاصى ، ماذا نتـوقع ؟ نتوقع أن يقـول قائلهم : لا .. لا أسـتطيع ذلك ، فأنت ملَك ذو طبيعة علوية تستطيع ترْك هذا الفعل ، أما أنا فلا أستطيع .

إذن : طبيعـة الأُسْوة تقتضى أن يكون الرســول بشراً ، حتى إذا ما أمر كان هو أول المؤتمرين ، وإذا ما نهى كان هو أول المنتهين .

ومن هنا كان من امـتنان الله على العرب ، ومن فـضله عليهم أنْ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

فهـو أولاً من أنفسكم ، وهـذه تعطيه المـباشرة ، ثم هـو بشر ، ومن العرب وليس من أمة أعجمية .. بل من بيئتكم ، ومن نفس بلدكم مكة ومن قـريش ؛ ذلك لتـكونوا على علم كـامل بتـاريخـه وأخـلاقـه وسلوكه ، تعرفون حركاته وسكناتـه ، وقد كنتم تعترفون له بالصدق

والأمانة ، وتأتمنونه على كل غال ونفيس لديكم لعلمكم بأمانته ، فكيف تكفرون به الآن وتتهمونه بالكّذب ؟!

لذلك رَدَّ عليهم الحق تبارك وتعالى فى آية أخرى فقال :

﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَّسُولاً (٩٤) ﴾ [الإسراء]

فالذى صَدّكم عن الإيمان به كَوْنه بشراً !!

ثم نأخذ على هؤلاء مأخذاً آخر : لأنهم تنازلوا عن دعواهم هذه بأنْ يأتىَ الرسول من الملائكة وقالوا :

﴿ لَوْلا نُزِّلَ هَـٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ[1] عَظِيمٍ (٣١) ﴾[الزخرف]

فهذا تردُّد عجيب من الكفار ، وعدم ثبات على رأى .. مجرد لَجَاجة وإنكار ، وقديماً قالوا : إنْ كنتَ كذوباً فكُنْ ذَكُوراً .

ويرد عليهم القرآن :

﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ [الإسراء]

فلو كان فى الأرض ملائكة لنزَّلنا لهم ملكاً حتى تتحقَّق الأُسْوة .

إذن : لا بُدَّ فى القدوة من اتحاد الجنس .. ولنضرب لذلك مثلاً : هَبْ أنك رأيتَ أسداً يثور ويجول فى الغابة مثلاً يفترس كُلَّ ما أمامه ،

---

(١) يقصدون مكة والطائف ، وقد ذكر غير واحد أنهم أرادوا بذلك الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفى . قال ابن كثير فى تفسيره (٤/١٢٧) : « والظاهر أن مرادهم رجل كبير من أى البلدتين كان » .

ولا يستطيع أحد أنْ يتعرَّض له .. هل تفكر ساعتها أن تصير أسداً ؟ لا .. إنما لو رأيتَ فارساً يمسك بسيفه ، ويطيح به رقاب الأعداء .. ألاَ تحب أن تكون فارساً ؟ بلى أحب .

فهذه هى القدوة الحقيقية النافعة ، فإذا ما اختلف الجنس فلا تصلح القدوة .

وهنا يردُّ الحق تبارك وتعالى على افتراءات الكفار بقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

أى : أنك يا محمد لَسْتَ بدْعاً[1] في الرسل ، فَمَنْ سبقوك كانوا رجالاً طيلة القرون الماضية ، وفى موكب الرسالات جميعاً .

وجاءتْ هنا كلمة ﴿ رجالاً ﴾ لتفيد البشرية أولاً كجنس ، ثم لتفيد النوع المذكَّر ثانياً ؛ ذلك لأن طبيعة الرسول قائمة على المخالطة والمعاشرة لقومه .. يظهر للجميع ويتحدث إلى الجميع .. أما المرأة فمبنية على التستُّر ، ولا تستطيع أن تقوم بدور الأُسْوة للناس ، ولو نظرنا لطبيعة المرأة لوجدنا فى طبيعتها أموراً كثيرة لا تناسب دور النبوة ، ولا تتمشَّى مع مهمة النبى ، مثل انقطاعها عن الصلاة والتعبد لأنها حائض أو نُفَساء .

كذلك جاءت كلمة ﴿ رِجَالاً ﴾ مُقيَّدة بقوله :

﴿ نُّوحِي إِلَيْهِمْ .. (٤٣) ﴾ [النحل]

---

(١) بدع : بديع أو عجيب . قال تعالى : ﴿ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ .. (٩) ﴾ [الأحقاف] أى : ما كنت غريباً ولا عجيباً ، ولا كنت على غير مثال سابق ، فأنا مثل الرسل السابقين . [القاموس القويم ١/٥٧] .

فالرسول رجل ، ولكن إياك أنْ تقول : هو رجل مِثْلى وبشر مِثْلى .. لا هناك مَيْزة أخرى أنه يُوحَى إليه ، وهذه منزلة عالية يجب أن نحفظها للأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

أى : إذا غابتْ عنكم هذه القضية ، قضية إرسال الرسل من البشر ـ ولا أظنها تغيب ـ لأنها عامة فى الرسالات كلها . وما كانت لتخفَى عليكم خصوصاً وعندكم أهل العلم بالأديان السابقة ، مثل ورقة بن نوفل وغيره ، وعندكم أهل السِّيَر والتاريخ ، وعندكم اليهود والنصارى .. فاسألوا هؤلاء جميعاً عن بشرية الرسل .

فهذه قضية واضحة لا تُنكر ، ولا يمكن المخالفة فيها .. وماذا سيقول اليهود والنصارى ؟ .. موسى وعيسى .. إذنْ بشر .

وقوله تعالى :

﴿إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٤٣)﴾ [النحل]

يوحى بأنهم يعلمون ، وليس لديهم شكٌّ فى هذه القضية .. مثل لو قلتَ لمخاطَبك : اسأل عن كذا إنْ كنتَ لا تعرف .. هذا يعنى أنه يعرف ، أما إذا كان فى القضية شكٌّ فنقول : اسأل عن كذا دون أداة الشرط .. إذن : هم يعرفون ، ولكنه الجدال والعناد والاستكبار عن قبول الحق .

﴿ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ[1] وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾

استهل الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ .. ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]

ويقول أهل اللغة : إن الجار والمجرور لا بُدَّ له من متعلق .. فبماذا يتعلق الجار والمجرور هنا ؟ قالوا : يجوز أنْ يتعلّق بالفعل (نُوحِي) ويكون السياق : وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نُوحِي إليهم بالبينات والزبر .

وقد يتعلق الجار والمجرور بأهل الذكر .. فيكون المعنى : فاسألوا أهل الذكر بالبينات والزبر ، فهذان وجهان لعودة الجار والمجرور .

والبينات : هى الأمر البيِّن الواضح الذى لا يشكُّ فيه أحد .. وهو إما أن يكون أمارة ثُبوت صِدْق الرسالة كالمعجزة التى تتحدى المكذِّبين أنْ يأتوا بمثلها .. أو : هى الآيات الكونية التى تلفتُ الخَلْق إلى وجود الخالق سبحانه وتعالى ، مثل آيات الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم .

---

(١) الزُّبُر : الكتب . والزَّبْر : الكتابة . وقد غلب الزبور على صحف داود عليه السلام . قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ .. ﴿١٠٥﴾ ﴾ [الأنبياء] قال أبو هريرة : الزبور ما أنزل على داود من بعد التوراة .

أما الزُّبُر ، فمعناها : الكتب المكتوبة .. ولا يُكتب عادة إلا الشيء النفيس مخافة أنْ يضيعَ ، وليس هنا أنفَسُ مما يأتينا من منهج الله لِيُنظِّم لَنا حركة حياتنا .

ونعرف أن العرب ـ قديماً ـ كانوا يسألون عن كُلِّ شيء مهما كان حقيراً ، فكان عندهم عِلمٌ بالسهم ومَنْ أول صانع لها ، وعن القوس والرَّحْل ، ومثل هذه الأشياء البسيطة .. ألاَ يسألون عن آيات الله فى الكون وما فيها من أسرار وعجائب فى خَلْقها تدلُّ على الخالق سبحانه وتعالى ؟

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾ [النحل]

كلمة الذكر وردتْ كثيراً فى القرآن الكريم بمعانٍ متعددة ، وأصلْ الذكر أنْ يظلَّ الشيءُ على البال بحيث لا يغيب ، وبذلك يكون ضدّه النسيان .. إذن : عندنا ذِكْر ونسيان .. فكلمة « ذكر » هنا معناها وجود شيء لا ينبغى لنا نسيانه .. فما هو ؟

الحق سبحانه وتعالى حينما خلق آدم ـ عليه السلام ـ أخذ العهد على كُلِّ ذرَّة فيه ، فقال تعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

وأَخْذ العهد على آدم هو عَهْد على جميع ذريته ، ذلك لأن فى كُلِّ واحد من بنى آدم ذَرَّة من أبيه آدم .. وجـزءاً حياً منه نتيـجة التوالُد والتناسُل منْ لَدُن آدم حتى قيام الساعة ، ومـا دُمْنا كذلك فقد شهدنا أخذ العهد : ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ .

وكأن كلمة (ذكر) جاءت لتُـذكِّرنا بالعهد المطمور فى تكويننا ، والذى ما كان لنا أنْ ننساه ، فلما حدث النسيان اقتضى الأمرُ إرسالَ الرسل وإنزالَ الكتب لتذكِّرنا بعهد الله لنا :

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ .. (١٧٢) ﴾ [الأعراف]

ومن هنا سَمَّينا الكتب المـنزلة ذكراً ، لكن الذكْـر يأتى تدريجيـاً وعلى مراحل .. كلٌّ رسول يأتى ليُذكِّر قومه على حَسْب ما لديهم من غفلة .. أما الرسـول الخاتم ﷺ الذى جاء للناس كافّة إلى قيـام الساعة ، فقد جاء بالذكر الحقيقى الذى لا ذِكْر بعده ، وهو القرآن الكريم .

وقد تأتى كلمـة (الذكْر) بمعنى الشّـرَف والرِّفْعة كمـا فى قوله تعالى للعرب :

﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ .. (١٠) ﴾ [الأنبياء]

وقـد أصـبح للعرب مـكانة بالقـرآن ، وعاشت لـغتـهم بالقـرآن ، وتبوءوا مكان الصدارة بين الأمم بالقرآن .

وقد يأتى الذكْر من الله للعبد ، وقد يـأتى من العبد لله تعالى كما فى قوله سبحانه :

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ .. (١٥٢) ﴾ [البقرة]

والمعنى : فاذكرونى بالطاعة والإيمان أذكركم بالفيوضات والبركة والخير والإمداد وبثوابى .

وإذا أُطلقت كلمة الذكر انصرفت إلى ما نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأنه الكتاب الجامع لكُلِّ ما نزل على الرسُل السابقين ، ولكل ما تحتاج إليه البشرية إلى أنْ تقومَ الساعة .

كما أن كلمة كتاب تطلق على أى كتاب ، لكنها إذا جاءت بالتعريف (الكتاب) انصرفت إلى القرآن الكريم ، وهذا ما نسميه (علَم بالغلبة) .

والذكْر هو القرآن الذى نزل على محمد ﷺ ، وهو معجزته الخالدة فى الوقت نفسه ، فهو منهج ومعجزة ، وقد جاء الرسُل السابقون بمعجزات لحالها ، وكتب لحالها ، فالكتاب منفصل عن المعجزة .

فموسى كتابه التوراة ومعجزته العصا ، وعيسى كتابه ومنهجه الإنجيل ومعجزته إبراء الأكمه والأبرص[1] وإحياء الموتى بإذن الله .

أما محمد ﷺ فمعجزته هى نفس كتاب منهجه ، لا ينفصل أحدهما عن الآخر لتظلّ المعجزة مُسَاندة للمنهج إلى قيام الساعة .

وهذا هو السِّر فى أن الحق تبارك وتعالى تكفل بحفظ القرآن وحمايته ، فقال تعالى :

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ⑨﴾ [الحجر]

أما الكتب السابقة فقد عُهد إلى التابعين لكل رسول منهم بحفْظ كتابه ، كما قال تعالى :

---

(١) الأكمه : المولود أعمى . وقد يكون حادثاً بعد بصر . والأبرص : من أصابه مرض البرص ، وهو مرض جلدى يُحدث بُقعاً بيضاء فى الجلد تشوهه . [القاموس القويم مادتا : كمه ، برص] .

﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ .. (٤٤) ﴾

[المائدة]

ومعنى استُحفظوا : أى طلبَ الله منهم أنْ يحفظوا التوراة ، وهذا أمْرُ تكليف قد يُطاع وقد يُعصى ، والذى حدث أن اليهود عَصَوْا وبدّلوا وحَرَّفوا فى التوراة .. أما القرآن فقد تعهَّد الله تعالى بحفْظه ولم يترك هذا لأحد ؛ لأنه الكتاب الخاتَم الذى سيصاحب البشرية إلى قيام الساعة .

ومن الذِّكْر أيضاً ما جاء به الرسول ﷺ مع القرآن ، وهو الحديث الشريف ، فللرسول مُهمة أخرى ، وهى منهجه الكلامىّ وحديثه الشريف الذى جاء من مشْكاة القرآن مبيّنا له ومُوضِّحا له .. كما قال ﷺ :

« ألاَ وإنّى قد أُوتيتُ القرآن ومِثْله معه ، يُوشك رجل شبعان يتكيء على أريكته يُحدَّث بالحديث عنِّى فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حلَّلْناه ، وما وجدنا فيه من حرام حَرَّمناه ، ألاَ وإنَّه ليس كذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ .. (٤٤) ﴾

[النحل]

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٤/١٣١) ، وأبو داود فى سننه (٤٥٩١) ، وابن حبان (٩٧ - موارد الظمآن) من حديث المقدام بن معديكرب .

إذن : جاء القرآن كتابَ معجزة ، وجاء كتابَ منهج ، إلا أنه ذكر أصول هذا المنهج فقط ، ولم يذكر التعريفات المنهجية والشروح اللازمة لتوضيح هذا المنهج ، وإلاّ لَطالتْ المسألة ، وتضخَّم القرآن وربما بَعُد عن مُرَاده .

فجاء القرآن بالأصول الثابتة ، وترك للرسول ﷺ مهمة أنْ يُبيِّنه للناس ، ويشرحه ويُوضِّح ما فيه .

وقد يظن البعض أن كُلَّ ما جاءتْ به السُّنة لا يلزمنا القيام به ؛ لأنه سنة يُثَاب مَنْ فعلها ولا يُعاقب مَنْ تركها .. نقول : لا .. لابُدَّ أن نُفرِّق هنا بين سُنِّية الدليل وسُنِّية الحكم ، حتى لا يلتبس الأمر على الناس .

فسُنِّية الدليل تعني وجود فَرْض ، إلا أن دليله ثابت من السنة .. وذلك كبيان عدد ركعات الفرائض : الصبح والظهر والعصر والمغرب والعشاء ، فهذه ثابتة بالسنة وهي فَرْض .

أما سُنيّة الحكم : فهي أمور وأحكام فقهية وردت عن رسول الله ﷺ ، يُثَاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها .. فحين يُبيِّن لنا الرسول بسلوكه وأُسْوته حُكْماً ننظر : هل هي سُنِّية الدليل فيكون فَرْضاً ، أم سُنِّية الحكم فيكون سُنة ؟ ويظهر لنا هذا أيضاً من مواظبة الرسول على هذا الأمر ، فإنْ واظب عليه والتزمه فهو فَرْض ، وإنْ لم يواظب عليه فهو سُنة .

إذن : مهمة الرسول ليست مجرد مُنَاولة القرآن وإبلاغه للناس ، بل وبيان ما جاء فيه من المنهج الإلهي ، فلا يستقيم هنا البلاغ دون

بيـــان .. ولابُدّ أن نفـرّق بيـن العطائين : الـعطاء القـرآنـى ، والعطاء النبوى .

ويجب أن نعلم هنا أن من الـمَيْزات التى مُيِّـز بهـا النبى ﷺ عن ســائر إخــوانه من الرُّسُل ، أنه الـرســول الوحـيـد الذى أمنه الله على التشريع ، فقد كان الرسل السابقون يُبلِّغون أوامر السماء فقط وانتهتْ المسألة ، أما محمد ﷺ فقد قال الحق تبارك وتعالى فى حقِّه :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ﴿٧﴾ ﴾ [الحشر]

إذن : أخذ مَيْـزة التشريع ، فأصـبحت سُنّته هى التشـريع الثانى بعد القرآن الكريم .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [النحل]

يتـفكرون .. فى أى شىء ؟ يتفكرون فى حـال الرسول ﷺ قـبل البعثة ، حيث لم يُؤْثَر عنه أنه كـان خطيباً أو أديباً شاعراً ، ولم يُؤْثَر عنه أنه كان كاتبـاً مُتعلّماً .. لم يُعرف عنه هذا أبداً طيلة أربعـين عاماً من عمره الشريف ، لذلك أمرهم بالتفكُّر والتدبُّر فى هذا الأمر .

فليس مـا جاء به مـحمـد عبقـرية تفجَّـرت هكذا مرَّة واحـدة فى الأربعين من عمره ، فالعمر الطبيـعى للعبقريات يأتى فى أواخر العقْد الثانى وأوائل العِقْد الثالث من العمر .

ولا يُعـقل أنْ تُؤجّل العبـقرية عند رســول الله إلى هذا السن وهو يرى القـوم يُصْرعون حـوله .. فيـموت أبوه وهو فى بطـن أمه ، ثم

تموت أمه وما يزال طفلاً صغيراً ، ثم يموت جَدُّه ، فمَنْ يضمن له الحياة إلى سِنِّ الأربعين ، حيث تتفجّر عنده هذه العبقرية ؟!

إذن : تفكّروا ، فليستْ هذه عبقرية من محمد ، بل هى أمْر من السماء ؛ ولذلك أمره ربُّه تبارك وتعالى أن يقول لهم :

﴿قُل لَّوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلا أَدْرَاكُم بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (١٦)﴾ [يونس]

فكان عليكم أنْ تفكّروا فى هذه المسألة .. ولو فكرتُمْ فيها كان يجب عليكم أنْ تتهافتوا على الإسلام ، فأنتم أعلم الناس بمحمد ، وما جرَّبتم عليه لا كذباً ولا خيانةً ، ولا اشتغالاً بالشعر أو الخطابة ، فما كان لِيْصدق عندكم ويكذب على الله .

ولا بُدَّ أن نُفرّق بين العقل والفكر . فالعقل هو الأداة التى تستقبل المحسَّات وتُميّزها ، وتخرج منها القضايا العامة التى ستكون هى المبادىء التى يعيش الإنسان عليها ، والتى ستكون عبارة عن معلومات مُخْتزنة ، أما الفكر فهو أن تفكر فى هذه الأشياء لكى تستنبط منها الحكم .

والله سبحانه وتعالى ترك لنا حُرية التفكير وحرية العقل فى أمور دنيانا ، لكنه ضبطنا بأمور قَسْرية يفسَد العالم بدونها ، فالذى يفسد العالم أن نترك ما شرعه الله لنا .. والباقى الذى لا يترتب عليه ضرر يترك لنا فيه مجالاً للتفكير والتجربة ؛ لأن الفشل فيه لا يضر .

فما أراده الله حُكْماً قسْرياً فرضه بنصٍّ صريح لا خلافَ فيه ، وما أراده على وجوه متعددة يتركه للاجتهاد حيث يحتمل الفعل فيه

أوجهاً متعددة ، ولا يؤدى الخطأ فيه إلى فساد .

فالمسألة ميزان فكرى يتحكم فى المحسَّات ويُنظم القضايا ، لنرى أولاً ما يريده الله بتّاً وما يريده اجتهاداً ، وما دام اجتهاداً فما وصل إليه المجتهد يصح أنْ يعبد الله به ، ولكن آفة الناس فى الأمور الاجتهادية أن منهم مَنْ يتهم مخالفه ، وقد تصل الحال بهؤلاء إلى رَمْى مخالفيهم بالكفر والعياذ بالله .

ونقول لمثل هذا : اتق الله ، فهذا اجتهادٌ مَنْ أصاب فيه فَلَهُ أجران ، ومَنْ أخطأ فله أجر[1] .. ولذلك نجد من العلماء مَنْ يعرف طبيعة الأمور الاجتهادية فنراه يقول : رأيى صواب يحتمل الخطأ ، ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب . وهكذا يتعايش الجميع وتُحترَم الآراء .

ومن رحمة الله بعباده أن يأمرهم بالتفكُّر والتدبُّر والنظر ؛ ذلك لأنهم خَلْقه سبحانه ، وهم أكرم عليه من أنْ يتركهم للضلال والكفر ، بعد أن أكرمهم بالخَلْق والعقل ، فأراد سبحانه أن يكرمهم إكراماً آخر بالطاعة والإيمان .

وكأنه سبحانه يقول لهم : رُدُّوا عقولكم ونفوسكم عن كبرياء الجدل ولَجَج الخصومة ، وإنْ كنتم لا تؤمنون بالبعث فى الآخرة ، وبما أُعدّ للظالمين فيها من عقاب ، فانظروا إلى ما حدث لهم وما عُجِّل لهم من عذاب فى الدنيا .

---

(١) عن عمرو بن العاص رضى الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ قال : « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٧١٦) ، والبخارى فى صحيحه (٧٣٥٢) .

انظروا للذين سبقوكم من الأمم المكذِّبة وما آلَ إليه مصيرهم ، أم أنتم آمنون من العذاب ، بعيدون عنه ؟!

ثم يقول تبارك وتعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَفَأَمِنَ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل]

عبارة عن همزة الاستفهام التى تستفهم عن مضمون الجملة بعدها .. أما الفاء بعدها فهى حَرْف عَطْف يعطف جملة على جملة .. إذنْ : هنا جملة قبل الفاء تقديرها : أجهلوا ما وقع لمخالفى الأنبياء السابقين من العذاب ، فأمِنُوا مكر الله ؟

أى : أن أَمْنهم لمكر الله ناشىءٌ عن جهلهم بما وقع للمكَذِّبين من الأمم السابقة .

ثم يقول تعالى :

﴿ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [النحل]

المكر : هو التبييت الخفىّ للنيْل ممَّنْ لا تستطيع مجابهته بالحق ومجاهرته به ، فأنت لا تُبيِّت لأحد إلا إذا كانت قدرتُك عاجزة عن مُصَارحته مباشرة ، فكوْنُك تُبيِّت له وتمكر به دليل على عَجْزك ؛ ولذلك جعلوا المكر أول مراتب الجُبْن ؛ لأن الماكر ما مكر إلا لعجزه

عن المواجهة ، وعلى قَدْر ما يكون المكْر عظيماً يكون الضعف كذلك .

وهذا ما نلحظه من قوله تعالى فى حَقّ النساء :

﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف]

وقال فى حَقِّ الشيطان :

﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء]

فالمكر دليل على الضعف ، وما دام كَيْدهُن عظيماً إذن : ضَعْفُهن أيضاً عظيم ، وكذلك فى كيد الشيطان .

وقديماً قالوا : إياك أنْ يملكَك الضعيف ؛ ذلك لأنه إذا تمكّن منك وواتَتْه الفرصة فلن يدعكَ تُفلت منه ؛ لأنه يعلم ضعفه ، ولا يضمن أن تُتاحَ له الفرصة مرة أخرى ؛ لذلك لا يضيعها على عكس القوىّ ، فهو لا يحرص على الانتقام إذا أُتيحَتْ له الفرصة وربما فَوَّتها لقُوته وقُدرته على خَصْمه ، وتمكّنه منه فى أىّ وقت يريد ، وفى نفس المعنى جاء قول الشاعر :

وَضَعِيفةٍ فإذَا أصَابتْ فُرْصةً قتلَتْ كذلكَ قُدرةُ الضُّعَفاءِ

إذن : قدرة الضعفاءِ قد تقتل ، أما قدرة القوىّ فليستْ كذلك .

ثم لنا وقْفة أخرى مع المكْر ، من حيث إن المكر قد ينصرك على مُساويك وعلى مثلك من بنى الإنسان ، فإذا ما تعرضْتَ لمن هو أقوى منك وأكثر منك حيْطة ، وأحكم منك مكْراً ، فربما لا يُجدى مكرُك به ، بل ربما غلبك هو بمكْره واحتياطه ، فكيف الحال إذا كان الماكر بك هو ربّ العالمين تبارك وتعالى ؟

وصدق الله العظيم حيث قال :

﴿ ويَمْكُرُونَ ويَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿ وَلا يَحِيقُ[1] الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِه .. (٤٣) ﴾ [فاطر]

فمكْر العباد مكشوف عند الله ، أما مكْرُه سبحانه فلا يقدر عليه أحد ، ولا يحتاط منه أحد ؛ لذلك كان الحق سبحانه خَيْر الماكرين .

والمكْر السَّيء هو المكْر البطَّال الذى لا يكون إلا فى الشر ، كما حدث من مكْر المكذِّبين للرسل على مَرِّ العصور ، وهو أن تكيد للغير كيْداً يُبطل حقّاً .

وكل رسول قابله قومه المنكرون له بالمكْر والخديعة ، دليل على أنهم لا يستطيعون مواجهته مباشرة ، وقد تعرَّض الرسول ﷺ لمراحل متعددة من الكَيْد والمكْر والخديعة ، وذلك لحكمة أرادها الحق تبارك وتعالى وهى أن يُوئس الكفار من الانتصار عليه ﷺ ، فقد بيَّتوا له ودَبَّروا لقتله ، وحَاكُوا فى سبيل ذلك الخطط ، وقد باءتْ خُطتهم ليلة الهجرة بالفشل .

وفى مكيدة أخرى حاولوا أن يَسْحروه[2] ﷺ ، ولكن كشف الله أمرهم وخيَّب سَعْيهم .. إذن : فأىّ وسيلة من وسائل دَحْض هذه الدعوة لم تنجحوا فيها ، ونصره الله عليكم ؛ كما قال تعالى :

---

(١) حاق به الشيء : نزل به وأصابه وأحاط به . [القاموس القويم ١/١٨١] .

(٢) عن عائشة رضى الله عنها قالت « سُحِر النبى ﷺ حتى كان يخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله » سحره لبيد بن الأعصم فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر فى بئر ذروان . أخرجه البخارى فى صحيحه (٣٢٦٨) وأحمد فى مسنده (٦/٥٠ ، ٩٦) .

﴿كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي .. ﴿٢١﴾﴾ [المجادلة]

وقوله تعالى :

﴿أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الأَرْضَ .. ﴿٤٥﴾﴾ [النحل]

الخْسف : هو تغييب الأرض ما على ظهرها .. فانخسفَ الشيء أيْ : غاب في باطن الأرض ، ومنه خُسوف القمر أي : غياب ضَوْئه .

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى عن قارون :

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ .. ﴿٨١﴾﴾ [القصص]

وهذا نوع من العذاب الذي جاء على صُور متعددة كما ذكرها القرآن الكريم :

﴿فَكُلاًّ أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا .. ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت]

هذه ألوان من العذاب الذي حاقَ بالمكذبين ، وكان يجب على هؤلاء أن يأخذوا من سابقيهم عبرة وعظة ، وأنْ يحتاطوا أن يحدث لهم كما حدث لسابقيهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النحل]

والمراد أنهم إذا احتاطوا لمكْر الله وللعذاب الواقع بهم ، أتاهم الله من وجهة لا يشعرون بها ، ولم تخطُر لهم على بال ، وطالما لم تخطُرْ لهم على بال ، إذن : فلم يحتاطوا لها ، فيكون أخْذهم يسيراً ، كما قال تعالى :

﴿ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا .. ②﴾ [الحشر]

ويتابع الحق سبحانه ، فيقول :

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ[1] ﴿٤٦﴾ ﴾

التـقلُّب : الانتـقال من حـال إلى حـال ، أو من مكان إلى مكان ، والانتقال من مكان الإقامة إلى مكان آخـر دليلُ القوة والمقدرة ، حيث ينتـقل الإنسان من مكانه حـامـلاً متـاعه وعَـتَاده وجـميع مـا يملك ؛ لينشيء له حركةَ حياة جديدة فى مكانه الجديد .

إذن : التقلُّب فى الحـياة مظهر من مظاهر القوة ، بحـيث يستطيع أن يقيم حياة جديدة ، ويحفظ ماله فى رحلة تقلُّبه .. ولا شكَّ أن هذا مظهر من مظاهر العزة والجاه والثراء لا يقوم به إلا القوى .

ولذلك نرى فى قول الحق تبارك وتعالى عن أهل سبأ :

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا[2] فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ⑱ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا .. ⑲﴾ [سبأ]

فهـؤلاء قوم جـمع الله لهم ألواناً شتى من النعـيم ، وأمَّن بلادهم وأسفارهم ، وجعل لهم محطات للراحة أثناء سفرهم ، ولكنهم وللعجب طلبوا من الله أن يُبـاعد بين أسفـارهم ، كأنهم أرادوا أنْ يتمـيزوا عن

---

(١) أى : ليسوا ببعيدين عن الله ولن يفلتوا من عقابه سبحانه .

(٢) قدر كل شيء ومقداره : مقياسه . وقـدر الشيء قدَّره : قاسه . [لسـان العرب ـ مادة : قـدر] . قال ابن كـثـير فى تفسـيره (٣/٥٣٣) : « أى : جـعلناها بحـسب مـا يحتـاج المسافرون إليه » .

الضعفاء غير القادرين على مشقة السفر والترحال ، فقالوا :

﴿ بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ..(١٩) ﴾ [سبأ]

حتى لا يقدر الضعفاء منهم على خَوْض هذه المسافات .

إذن : الذى يتقلّب فى الأرض دليل على أن له من الحال حال إقامة وحال ظَعْن[1] وقدرة على أن ينقل ما لديه ليقيم به فى مكان آخر ؛ ولذلك قالوا : المال فى الغربة وطن .. ومَنْ كان قادراً يفعل ما يريد .

والحق سبحانه يقول لرسوله ﷺ :

﴿ لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ (١٩٦) ﴾ [آل عمران]

فلا يخيفنك انتقالهم بين رحلتى الشتاء والصَّيْف ، فالله تعالى قادر أن يأخذَهم فى تقلُّبهم .

وقد يُراد تقلّبهم فى الأفكار والمكْر السيء بالرسول ﷺ وصحابته كما فى قوله تعالى :

﴿ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ .. (٤٨) ﴾ [التوبة]

فقد قعدوا يُخطّطون ويمكُرون ويُدبِّرون للقضاء على الدعوة فى مَهْدها .

ويقول تعالى :

﴿ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) ﴾ [النحل]

المعجز : هو الذى لا يمكّنك من أنْ تغلبه ، وهؤلاء لن يُعجِزوا الله

(١) الظعن : السير والترحال .

تعالى ، ولن يستطيعوا الإفلاتَ من عذابه ؛ لأنهم مهما بيَّتوا فتبييتهم وكَيْدهم عند الله .. أما كيْد الله إذا أراد أنْ يكيد لهم فلن يشعروا به :

﴿ وَيَمْكُرُونَ ويمكُرُ اللَّهُ .. (٣٠) ﴾ [الأنفال]

وقال :

﴿ إنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا (١٥) وأَكِيدُ كَيْدًا (١٦) فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (١٧) ﴾ [الطارق]

فمَنْ لا يستطيع أن يغلبك يخضع لك ، وما دام يخضع لك يسيطر عليه المنهج الذى جِئْتَ به .

وقد يكون العجز أمام القوىّ دليلَ قوة ، كما عجز العرب أمام تحدِّى القرآن لهم ، فكان عجزهم أمام كتاب الله دليلَ قوتهم فى المجال الذى تحدّاهم القرآن فيه ؛ لأن الله تعالى حين يتحدّى وحين يُنازل لا ينازل الضعيف ، لا بل ينازل القوى فى مجال هذا التحدّى .

﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾

التخوُّف : هو الفزع من شىء لم يحدث بعد ، فيذهب فيه الخيال مذاهبَ شتَّى ، ويتوقع الإنسان ألواناً متعددة من الشر ، فى حين أن الواقع يحدث على وجه واحد .

هَبْ أنك فى انتظار حبيب تأخَّر عن موعد وصوله ، فيذهب بك الخيال والاحتمال إلى أمور كثيرة .. يا تُرى حدث كذا أو حدث كذا ، وكل خيال من هذه الخيالات له أثر ولذعة فى النفس ، وبذلك تكثر المخاوف ، أما إن انتظرتَ لتعرفَ الواقع فإنْ كان هناك فزع كان مرة واحدة .

ولذلك يقولون فى الأمثـال : (نزول البلا ولا انتظاره) ذلك لأنه إنْ نزل سينزل بلون واحد ، أما انتظاره فيُشيع فى النفس ألواناً متعددة من الفزع والخوف .. إذن : التخوُّف أشدُّ وأعظم من وقوع الحَدث نفسه .

وكان هذا الفزع يعترى الكفار إذا ما علموا أن رسول الله ﷺ بعث سرية من السَّرايا ، فيتوقع كل جماعة منهم أنها تقصدهم ، وبذلك يُشيع الله الفزع فى نفوسهم جميعاً ، فى حين أنها خرجتْ لناحية معينة[1] .

وبعض المفسرين قال : التخوُّف يعنى التنقُّص بأنْ ينقص الله من رُقْعة الكفر بدخول القبائل فـى الإسلام قبيلةً بعد أخرى ، فكلٌّ واحدة منها تنقص من رقعة الكفر .. كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ .. (١٥٥) ﴾ [البقرة]

ثم يقول الحق تبارك وتعالى فى تذييل هذه الآية :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧) ﴾ [النحل]

وهل هذا التذييل مناسب للآية وما قبلها من التهديد والوعيد ؟ فالعقل يقول : إن التذييل المناسب لها : إن ربكم لشديد العقاب مثلاً .

لكن يجب هنا أنْ نعلمَ أن هذا هو عطاء الربوبية الذى يشمل العباد جميعاً مؤمنهم وكافرهم ، فالله تعالى استدعى الجميع للدنيا ، وتكفّل للجميع بما يحفظ حياتهم من شمس وهواء وأرض وسماء ،

---

(١) أخرج البخارى فى صحيحه (٣٣٥ ، ٤٣٨) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٥٢١) كتاب المساجد من حديث جابر بن عبدالله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى » وفيه « ونصرت بالرعب بين يدى مسيرة شهر » .

لم تُخلَق هذه الأشياء لواحد دون الآخر ، وقد قال تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الشورى]

وكأن فى الآية لَوْناً من ألوان رحمته سبحانه بخَلْقه وحِرْصه سبحانه على نجاتهم ؛ لأنه يُنبِّههم إلى ما يمكن أن يحدث لهم إذا أصرُّوا على كفرهم ، ويُبصِّرهم بعاقبة كفرهم ، والتبصرة عِظَة ، والعِظَة رأفة بهم ورحمة حتى لا ينالهم هذا التهديد وهذا الوعيد .

ومثال هذا التذييل كثير فى سورة الرحمن ، يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة ناسبت قوله تعالى :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾ [الرحمن]

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَرَجَ(١) الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ(٢) لاَّ يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [الرحمن]

فهذه نعمة من نعم الله ناسبت تذييل الآية :

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الرحمن]

---

(١) مرج : خلط البحر الملح والبحر العذب . ومعنى لا يبغيان أى : لا يبغى الملح على العذب فيختلطان . [لسان العرب ـ مادة : مرج] .

(٢) البرزخ : هو الحاجز من الأرض لئلا يبغى هذا على هذا وهذا على هذا فيفسد كل واحد منهما الآخر ويزيله عن صفته التى هى مقصودة منه . [تفسير ابن كثير ٤/٢٧٢] .

أما فى قوله تعالى :

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ [الرحمن]

فما النعمة فى ﴿ كل مَنْ عليها فانٍ ﴾ ؟ هل الموت نعمة ؟!

نعم ، يكون الموت نعمة من نِعَم الله على عباده ؛ لأنه يقول للمحسن : سيأتى الموت لتلقَّى جزاء إحسانك وثواب عملك ، ويقول أيضاً للكافر : انتبه واحذر .. الموت قادم ، كأنه سبحانه يُوقظ الكفار ويَعِظهم لينتهوا عما هم فيه .. أليست هذه نعمة من نعم الله ورحمة منه سبحانه بعباده ؟

وكذلك انظر إلى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ[1] مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٦) ﴾ [الرحمن]

فأىّ نعمة فى :

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ .. (٣٥) ﴾ [الرحمن]

أىُّ نعمة فى هذا العذاب ؟

نعم المتدبّر لهذه الآية يجد فيها نعمة عظيمة ؛ لأن فيها تهديداً ووعيداً بالعذاب إذا استمروا على ما هُم فيه من الكفر .. ففى طيّاتها تحذير وحِرْص على نجاتهم كما تتوعد ولدك : إذا أهملتَ دروسك

---

(١) الشواظ : اللهب الذى لا دخان فيه . [لسان العرب ـ مادة : شوظ] .

ستفشل وأفعل بك كذا وكذا . وأنت ما قلت ذلك إلا لحرصك على نجاحه وفلاحه .

إذن : فتذييل الآية بقوله :

﴿ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النحل]

تذييل مناسب لما قبلها من التهديد والوعيد ، وفيها بيان لرحمة الله التي يدعو إليها كلاً من المؤمن والكافر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ[1] ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

المعنى : أعَمُوا ولم يَرَوْا ولم يتدبروا فيما خلق الله ؟

﴿ مِن شَيْءٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

كلمة شيء يسمونها جنس الأجناس ، و ﴿ مِنْ ﴾ تفيد ابتداء ما يُقال له شيء ، أي : أتفه شيء موجود ، وهذا يسمونه أدنى الأجناس .. وتفيد أيضاً العموم فيكون :

﴿ مِن شَيْءٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

أي : كل شيء .

---

(١) تفيأ فيه : تظلل ، وتفيؤ الظلال : رجوعها بعد انتصاف النهار وابتعاث الأشياء ظلالها . [لسان العرب ـ مادة : فيأ].

فانظر إلى أىّ شىء فى الوجود مهما كان هذا الشىء تافهاً ستجد له ظلاً :

﴿يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ .. ﴿٤٨﴾﴾ [النحل]

يتفيأ : من فاءَ أى : رجع ، والمراد عودة الظل مرة أخرى إلى الشمس ، أو عودة الشمس إلى الظل .

فلو نظرنا إلى الظل نجده على نوعين : ظل ثابت مستمر ، وظل مُتغيّر ، فالظل الثابت دائماً فى الأماكن التى لا تصل إليها أشعة الشمس ، كقاع البحار وباطن الأرض ، فهذا ظِلٌّ ثابت لا تأتيه أشعة الشمس فى أى وقت من الأوقات .

والظلّ المتحرك الذى يُسمّى الفَيْء لأنه يعود من الظل إلى الشمس ، أو من الشمس إلى الظل ، إذن : لا يُسمَّى الظل فَيْئاً إلا إذا كان يرجع إلى ما كان عليه .

ولكن .. كيف يتكوّن الظل ؟ يتكوّن الظل إذا مَا استعرض الشمسَ جسم كثيف يحجب شعاع الشمس ، فيكون ظلاً له فى الناحية المقابلة للشمس ، هذا الظل له طُولان وله استواء واحد .

طول عند الشروق إلى أنْ يبلغَ المغرب ، ثم يأخذ فى التناقص مع ارتفاع الشمس ، فإذا ما استوتْ الشمس فى السماء يصبح ظلّ الشىء فى نفسه ، وهذه حالة الاستواء ، ثم تميل الشمس إلى الغروب ، وينعكس طول الظلّ الأول من ناحية المغرب إلى ناحية المشرق .

ويلفتنا الحق تبارك وتعالى إلى هذه الآية الكونية فى قوله تعالى :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦)﴾ [الفرقان]

ذلك لأنك لو نظرتَ إلى الظلِّ وكيف يمتدُّ ، وكيف ينقبض وينحسر لوجدتَ شيئاً عجيباً حقاً .. ذلك لأنك تلاحظ الظل فى الحالتين يسير سَيْراً انسيابياً .

ما معنى : (انسيابى) ؟ هو نوع من أنواع الحركة ، فالحركة إما حركة انسيابية ، أو حركة عن توالى سكونات بين الحركات .

وهذه الأخيرة نلاحظها فى حركة عقارب الساعة ، وهى أوضح فى عقرب الثوانى منها فى عقرب الدقائق ، ولا تكاد تشعر بها فى عقرب الساعات .. فلو لاحظت عقرب الثوانى لوجدتَه يسير عن طريق قفزات منتظمة ، تكون حركة فسكوناً فحركة ، وهكذا ..

ومعنى ذلك أنه يجمع الحركة فى حال سكونه ، ثم ينطلق بها ، وبذلك تمرُّ عليه لحظة لم يكن مُتحركاً فيها ، وهذا ما نسميه بالحركة القفزية .. هذه الحركة لا تستطيع رَصْدها فى عقرب الساعات ؛ لأن القفزة فيه دقيقة لدرجة أن العين المجردة تعجز عن رَصْدها وملاحظتها ، هذه هى الحركة القفزية .

أما الحركة الانسيابية ، فتعنى أن كل جزء من الزمن فيه جزء من الحركة .. اى : حركة مستمرة ومُوزّعة بانتظام على الزمن .

ونضرب لذلك مثلاً بنمو الطفل .. الطفل الوليد ينمو باستمرار ، لكن أمه لملازمتها له لا تلاحظ هذا النمو ؛ لأن نظرها عليه دائماً .. فكيف تكون حركة النمو فى الطفل ؟ هل حركة قفزية يتجمع فيها نمو الطفل كل أسبوع أو كل شهر مثلاً ، ثم ينمو طَفْرة واحدة ؟

لو كان نموه هكذا لَلاَحظنا نمو الطفل ، لكنه ليس كذلك ، بل ينمو بحركة انسيابية تُوزِّع المِلِّى الواحد من النمو على طول الزمن ، فلا نكاد نشعر بنموه .

وهكذا حركة الشمس حركة انسيابية ، بحيث تُوزع جزئيات الحركة على جُزئيات الزمن ، فالشمس ليست مركونة إلى ميكانيكا تتحرك عن التروس كالساعة مثلاً ، لا .. بل مركونة إلى أمر الله ، موصولة بكُنْ الدائمة .

وكأن الحق تبارك وتعالى يريد أن يلفتَ خَلْقه إلى ظاهرة كونية فى الوجود مُحسّة ، يدركها كلٌّ منّا فى ذاته ، وفيما يرى من المرائى ، ومن هذه المظاهر ظاهرة الظلّ التى يعجز الإنسان عن إدراك حركته .

وفى آية آخرى يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

فالحق سبحانه يريد أن يُعمم الفكرة التسبيحية فى الكون كله ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

فكل ما يُطلَق عليه شيء فهو يُسبّح مهما كان صغيراً .

وقوله تعالى :

﴿ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

لنا هنا وقفة مع الأداء القرآنى ، حيث أتى باليمين مُفْرداً ، فى حين أتى بالشمائل على صورة الجمع ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى لما قال :

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

أتى بأقلّ ما يُتصوّر من مخلوقاته سبحانه ﴿ مِنْ شَيْءٍ ﴾ وهو مفرد ، ثم قال سبحانه :

﴿ ظِلالُهُ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

بصيغة الجمع . أى : مجموع هذه الأشياء ، فالإنسان لا يتفيأ ظِلّ شىء واحد ، لا .. بل ظلّ أشياء متعددة .

و ﴿ مِنْ ﴾ هنا أفادت العموم :

﴿ مِن شَيْءٍ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

أى : كل شىء . فليناسب المفرد جاء باليمين ، وليناسب الجمع جاء بالشمائل .

ثم يقول تعالى :

﴿ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

فما العلاقة بين حركة الظلّ وبين السجود ؟

معنى : سُجّداً أى : خضوعاً لله ، وكأن حركة الظل وامتداده على امتداد الزمن دليلٌ على أنه موصول بالمحرك الأعلى له ، والقائل

الأعلى لـ « كُنْ » ، والظل آية من آياته سبحانه مُسخّرة له ساجدة خاضعة لقوله : كُنْ فيكون .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الشيء تُعده إعداداً كوْنياً ، والشيء تُعده إعداداً قدرياً .. فصانع القنبلة الزمنية يُعدُّها لأنْ تنفجرَ فى الزمن الذى يريده ، وليس الأمر كذلك فى إعداد الكون .

الكون أعدّه الله إعداداً قدرياً قائماً على قوله كُنْ ، وفى انتظار لهذا الأمر الإلهى باستمرار (كن فيكون) . وهكذا .. فليست المسألة مضبوطة ميكانيكياً ، لا .. بل مضبوطة قَدرياً .

لذلك يحلو لبعض الناس أن يقول : باقٍ للشمس كذا من السنين ثم ينتهى ضوؤها ، ويُرتّب على هذا الحكمِ أشياء أخرى .. نقول : لا .. ليس الأمر كذلك .. فالشمس خاضعة للإعداد القدرىّ منضبطةٌ به ومنتظرة لـ « كُنْ » التى يُصغى لها الكون كله ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الرحمن]

هكذا بيَّنت الآية الكريمة أن كل ما يُقال له « شىء » يسجد لله عز وجل ، وكلمة « شىء » جاءت مُفْردة دالّة على العموم .. وقد عرفنا السجود فيما كلّفنا الله به من ركن فى الصلاة ، وهو مُنْتَهى الخضوع ، خضوع الذات من العابد للمعبود ، فنحن نخضع واقفين ، ونخضع راكعين ، ونخضع قاعدين ، ولكن أتمّ الخضوع يكون بأنْ نسجدَ لله .. ولماذا كان أتمّ الخضوع أن نسجدَ لله ؟

نقول : لأن الإنسان له ذات عامة ، وفى هذه الذات سيد للذات ، بحيث إذا أُطلق انصرف إلى الذات ، والمراد به الوجه ؛ لذلك حينما يعبّر الحق تبارك وتعالى عن فَنَاء الوجود يقول :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

وكذلك فى قوله :

﴿ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَىٰ (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ (٢١) ﴾ . [الليل]

فيُطلَق الوجه ويُراد به الذات ، فإذا ما سجد الوجه لله تعالى دلَّ ذلك على خضوع الذات كلها ؛ لأن أشرف ما فى الإنسان وجهه ، فإذا ما ألصقه بالأرض فقد جاء بمنتهى الخضوع بكل ذاته للمعبود عز وجل .

كما دلَّتْ الآية على أن الظل أيضاً يسجد لربه وخالقه سبحانه ، والظلال قد تكون لجمادات كالشجر مثلاً ، أو بناية أو جبل ، وهذه الأشياء الثابتة يكون ظلّها أيضاً ثابتاً لا يتحرك ، أما ظلّ الإنسان أو الحيوان فهو ظل متحرك ، وقد ضرب لنا الحق تبارك وتعالى مثلاً فى الخضوع التام بالظلال ؛ لأن ظل كل شىء لا يفارق الأرض أبداً ، وهذا مثال للخضوع الكامل .

ثم يرتفع الحق تبارك وتعالى بمسألة السجود من الجمادات فى الظلال فى قوله :

﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾ [الرعد]

يعنى الذوات تسجد ، وكذلك الظلال تسجد ؛ ولذلك يتعجب بعض العارفين من الكافر .. يقول : أيها الكافر ظلُّك ساجد وأنت جاحد .. جاء هذا الترقِّى فى قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَالْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) ﴾

فأجناس الكون التى يعرفها الإنسان أربعة : إما جماد ، فإذا وجدتَ خاصية النمو كان النبات ، وإذا وجدتَ خاصية الحركة والحسِّ كان الحيوان ، فإذا وجدتَ خاصية الفكْر كان الإنسان ، وإذا وجدتَ خاصية العلم الذاتى النورانى كان الملَك .. هذه هى الأجناس التى نعرفها .

الحق تبارك وتعالى ينقلُنا هنا نَقْلة من الظلال الساجدة ، للجمادات الثابتة ، إلى الشىء الذى يتحرك ، وهو وإنْ كان مُتحركاً إلا أن ظلّه أيضاً على الأرض ، فإذا كان الحق سبحانه قد قال :

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

فقد فصَّل هذا الإجمال بقوله :

﴿ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلائِكَةُ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

أى : من أقلّ الأشياء المتحركة وهى الدابة ، إلى أعلى الأشياء وهى الملائكة ..

وقد يقول قائل : وهل ما فى السموات وما فى الأرض يسجد لله ؟

نقول له : نعم .. لأنك فسرتَ السجود فيك أنت بوضْع جبهتك على الأرض ، ليدلّ على أن الذات بعلُوّها ودنُوّها ساجدة لله خاضعة تمام الخضوع ، حيث جعلتَ الجبهة مع القدم .

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أن نعرف استطراق العبودية فى الوجود كله ؛ لأن الكافر وإنْ كانَ مُتمرِّداً على الله فيما جعل الله له فيه اختيارا ، فى أنْ يؤمن أو يكفر ، فى أن يطيع أو يعصى ، ولكن الله أعطاه الاختيار .

نقول له : إنك قد ألفْتَ التمرّد على الله ، فطلب منك أن تؤمن لكنك كفرتَ ، وطلبَ منك يا مؤمن أنْ تطيعَ فعصيتَ ، إذن : فلكَ إلْفٌ بالتمرّد على الحق .. ولكن لا تعتقد أنك خرجتَ من السجود والخضوع لله ؛ لأن الله يُجرى عليك أشياء تكرهها ، ولكنها تقع عليك رغم أنفك وأنت خاضع .

وهذا معنى قوله تعالى فى الآية السابقة :

﴿ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [النحل]

أى : صاغرون مُستذلُّون مُنقَادُونَ مع أنهم ألِفُوا التمرُّد على الحق سبحانه .

وإلا فهذا الذى ألف الخروج عن مُرادات الله فيما له فيه اختيار ، هل يستطيع أنْ يتأبّى على الله إذا أراد أنْ يُمرضه ، أو يُفقره ، أو يميته ؟

لا ، لا يستطيع ، بل هو داخر صاغر فى كل ما يُجريه عليه من مقادير ، وإنْ كان يأباها ، وإنْ كان قد ألِف الخروج عن مُرادات الله .

إذن : ليس فى كون الله شىء يستطيع الخروج عن مرادات الله ؛ لأنه ما خرج عن مرادات الله الشرعية فى التكليف إلا بما أعطاه الله من اختيار ، وإلا لو لم يُعْطه الاختيار لما استطاع التمرّد ، كما فى المرادات الكونية التى لا اختيارَ فيها .

لذلك نقول للكافر الذى تمرّد على الحق سبحانه : تمرّد إذا أصابك مرض ، وقُلْ : لن أمرض ، تمرّد على الفقر وقُلْ : لن أفتقر ..

وما دُمْتَ لا تقدر وسوف تخضع راغماً فلتخضعْ راضياً وتكسب الأمر ، وتنتهى مشكلة حياتك ، وتستقبل حياة أخرى أنظف من هذه الحياة .

وقوله تعالى :

﴿ مِن دَابَّةٍ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

هو كل ما يدبّ على الأرض ، والدَّبُّ على الأرض معناه الحركة والمشى .. وقوله :

﴿ وَالْمَلائِكَةُ .. (٤٩) ﴾ [النحل]

أى : أن الملائكة لا يُقال لها دابة ؛ لأن الله جعل سَعْيها فى الأمور بأجنحة فقال تعالى :

﴿ أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلاثَ وَرُبَاعَ .. (١) ﴾ [فاطر]

وقال فى آية أخرى :

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم .. (٣٨) ﴾ [الأنعام]

فخلق الله الطائر يطير بجناحيه مقابلاً للدابة التى تدب على الأرض ، فاستحوذ على الأمرين : الدابة والملائكة .

و ﴿ مَا ﴾ فى الآية تُطلق على غير العالمين وغير العاقلين ؛ ذلك لأن أغلبَ الأشياء الموجودة فى الكون ليس لها عِلْم أو معرفة ؛ ولذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا .. (٧٢)﴾ [الأحزاب]

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩)﴾ [النحل]

أى : أن الملائكة الذين هم أعلى شىء فى خَلْقِ الله لا يستكبرون؛ لأن علوّهم فى الخَلْقِ من نورانية وكذا وكذا لا يعطيهم إدلالاً[1] على خالقهم سبحانه ؛ لأن الذى أعطاهم هذا التكريم هو الله سبحانه وتعالى .

وما دام الله هو الذى أعطاهم هذا التكريم فلا يجوز الإدلال به ؛ لأن الذى يُدلُّ إنما يُدلُّ بالذاتيات غير الموهوبة ، أما الشىء الموهوب من الغير فلا يجوز أن تُدلَّ به على مَنْ وهبه لك .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَن يَسْتَنكِفَ[2] الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ ..(١٧٢)﴾ [النساء]

فلن يمتنعوا عن عبادة الله والسجود له رغم أن الله كرَّمهم ورفعهم .

ثم يقول تعالى :

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ (٥٠)﴾

ما هو الخوف ؟ الخوف هو الفزع والوجَلَ ، والخوف والفزع

---

(١) دَلَّ : افتخر . والدلة : المنة . وفلان يُدل عليك بصحبته إدلالاً : أى يجترىء عليك . [لسان العرب ـ مادة : دلل] .

(٢) لن يستنكف : لن يمتنع ولن يأنف ولن يكره ولن يستكبر عن أن يكون عبداً لله قائماً بواجب العبد نحو ربه . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

والوجل لا يكون إلا من ترقب شيء من أعلى منك لا تقدر أنت على رَفْعه ، ولو أمكنك رَفْعه لما كان هناك داعٍ للخوف منه ؛ لذلك فالأمور التي تدخل في مقدوراتك لا تخاف منها ، تقول : إنْ حصل كذا أفعل كذا .. الخ :

وإذا كان الملائكة الكرام :

﴿ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) ﴾ [التحريم]

فما داعي الخوف إذن ؟ نقول : إن الخوف قد يكون من تقصير حدث منك تخاف عاقبته ، وقد يكون الخوف عن مهابة للمخُوف وإجلاله وتعظيمه دون ذنب ودون تقصير ، ولذلك نجد الشاعر العربي يقول في تبرير هذا الخوف :

أَهَابُكَ إجْلاَلاً ومَا بِكَ قُدْرة عليَّ ولكِنْ مِلْءُ عَيْنٍ حَبِيبُها

إذن : مرّة يأتي الخوف لتوقُّع أذى لتقصير منك ، ومرّة يأتي لمجرد المهابة والإجلال والتعظيم .

وقوله تعالى :

﴿ مِّن فَوْقِهِمْ .. (٥٠) ﴾ [النحل]

ما المراد بالفوْقية هنا ؟ نحن نعرف أن الجهات ستّ : فوق ، وتحت ، ويمين ، وشمال ، وأمام ، وخلف .. بقيتْ جهة الفَوْقية لتكون هي المسيطرة ؛ ولذلك حتى في بناء الحصون يُشيّدونها على الأماكن العالية لتتحكم بعلُوّها في متابعة جميع الجهات .

إذن : فالفوقية هي محلّ العُلو ، وهذه الفوقية قد تكون فوقية مكان ، أو فوقية مكانة .

فالذى يقول : إنها فوقية مكان ، يرى أن الله فى السماء ، بدليل أن الجارية التى سُئلت : أين الله ؟ أشارتْ إلى السماء ، وقالت : فى السماء[1] .

فأشارت إلى جهة العلُو ؛ لأنه لا يصح أن نقول : إن الله تحت ، فالله سبحانه مُنزَّه عن المكان ، وما نُزّه عن المكان نُزّه عن الزمان ، فالله عز وجل مُنزَّه عن أنْ تُحيِّزه ، لا بمكان ولا بزمان ؛ لأن المكان والزمان به خُلقا .. فمَن الذى خلق الزمان والمكان ؟

إذن : ما داما به خُلقا فهو سبحانه مُنزَّه عن الزمان والمكان .

وهم قالوا بأن الفوقية هنا فوقية حقيقية .. فوقية مكان ، أى : أنه تعالى أعلى منّا .. ونقول لمن يقول بهذه الفوقية : الله أعْلَى منّا .. من أىّ ناحية ؟ من هذه أم من هذه ؟

إذن : الفوقية هنا فوقية مكانة ، بدليل أننا نرى الحرس الذين يحرسون القصور ويحرسون الحصون يكون الحارس أعلى من المحروس .. فوقه ، فهو فوقه مكاناً ، إنما هل هو فوقه مكانة ؟ بالطبع لا .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) أخرج أحمد فى مسنده (٥/٤٤٨) وأبو داود الطيالسى فى مسنده (١١٠٥) وابن أبى عاصم فى كتاب « السنة » (١/٢١٥) والبيهقى فى الأسماء والصفات (ص٤٢٢) من حديث معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يا رسول الله إنه كانت لى جارية ترعى قبل أحد والجوانية ، وإنى أطلعها يوماً إطلاعة ، فوجدت الذئب قد ذهب منها بشاة وأنا من بنى آدم آسف لما يأسفون فصككتها صكاً ، فعظم ذلك على النبى ﷺ قال : قلت يا رسول الله أعتقها ؟ قال : ادعها إلىّ . فقال لها : أين الله ؟ قالت : فى السماء . قال : ومن أنا ؟ قالت : رسول الله . قال : اعتقها فإنها مؤمنة .

وهذه هى الطاعة ، وهى أن تفعلَ ما أُمِرْت به ، وأنْ تجتنبَ ما نُهيتَ عنه ، ولكن الآية هنا ذكرت جانباً واحداً من الطاعة ، وهو :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾ [النحل]

ولم تقُلْ الآية مثلاً : ويجتنبون ما ينهوْنَ عنه ، لماذا ؟.. نقول : لأن فى الآية ما يسمونه بالتلازم المنطقى ، والمراد بالتلازم المنطقى أن كلَّ نهى عن شىء فيه أمر بما يقابله ، فكل نهى يؤول إلى أمر بمقابله .

فقوله سبحانه :

﴿ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠) ﴾ [النحل]

تستلزم منطقياً « ويجتنبون ما يُنهَوْن عنه » وكأن الآية جمعت الجانبين .

والحق سبحانه وتعالى خلق الملائكة لا عمل لهم إلا أنهم هُيِّموا[1] فى ذات الله ، ومنهم ملائكة مُوكّلون بالخلق ، وهم :

﴿ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا (٥) ﴾ [النازعات]

ويقول تعالى :

﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ[2] مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ .. (١١) ﴾ [الرعد]

---

(١) الهُيام : شدة الحب والوله المؤدى إلى الخضوع بدون إرادة .

(٢) أى : ملائكة حفظة يتتبعونه يحفظونه ويحصون أعماله . [القاموس القويم ٢/ ٢٩] .

ومنهم :

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ⑩ كِرَامًا كَاتِبِينَ ⑪ ﴾ [الانفطار]

إذن : فهناك ملائكة لها علاقة بِنَا ، وهم الذين أمرهم الحق سبحانه أن يسجدوا لآدم حينما خلقه الله ، وصوَّره بيده ، ونفخ فيه من رُوحه .. وكأن الله سبحانه يقول لهم : هذا هو الإنسان الذى ستكونون فى خدمته ، فالسجود له بأمر الله إعلانٌ بأنهم يحفظونه من أمر الله ، ويكتبون له كذا ، ويعملون له كذا ، ويُدبِّرون له الأمور .. الخ .

أما الملائكة الذين لا علاقة لهم بالإنسان ، ولا يدرون به ، ولا يعرفون عنه شيئاً ، هؤلاء المعْنِيون فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ⑦⑤ ﴾ [ص]

أى : أستكبرتَ أنْ تسجدَ ؟ أم كنتَ من الصِّنْف الملَكى العالى ؟.. هذا الصنف من الملائكة ليس لهم علاقة بالإنسان ، وكُلُّ مهمتهم التسبيح والذكْر ، وهم المعنيون بقوله تعالى :

﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ⑳ ﴾ [الأنبياء]

كلُّ شىء - إذن - فى الوجود خاضع لمرادات الحق سبحانه منه ، إلا ما استثنى الله فيه الإنسان بالاختيار ، فالله سبحانه لم يقهر أحداً ، لا الإنسان ولا الكون الذى يعيش فيه ، فقد عرض الله سبحانه الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبيْنَ أن يحملنها وأشفقْنَ منها .. وكأنها قالت : لا نريد أن نكون مختارين ، بل نريد أن نكون مُسخَّرين ، ولا دَخْلَ لنا فى موضوع الأمانة والتكليف !!

لماذا ـ إذن ـ يأبى الكون بسمائه وأرضه تحمُّل هذه المسئولية ؟

نقول : لأن هناك فَرْقاً بين تقبُّل الشيء وقت تحمُّله ، والقدرة على الشيء وقت أدائه .. هناك فَرْق .. عندنا تحمُّل وعندنا أداء .. وقد سبق أنْ ضربنا مثلاً لتحمُّل الأمانة وقُلْنا : هَبْ أن إنساناً أراد أن يُودع عندك مبلغاً من المال مخافة تبديده لتحفظه له لحين الحاجة إليه ، وأنت فى هذا الوقت قادر على التحمل وتنوى أداء أمانته إليه عند طلبها وذمّتك قوية ، ونيتك صادقة .

هذا وقت تحمُّل الأمانة ، فإذا ما جاء وقت الأداء ، فربما تضطرك الظروف إلى إنفاق هذا المال ، أو يعرض لك عارضٌ يمنعك من الأداء أو تتغيّر ذمتك .

إذن : وقت الأداء شيء آخر .

لذلك ، فالذى يريد أنْ يُبرىء ذمته لا يضمن وقت الأداء ويمتنع عن تحمُّل الأمانة ويقول لنفسه : لا ، إن كنت أضمن نفسى وقت التحمل فلا أضمن نفسى وقت الأداء .

هذا مثال لما حدثَ من السماء والأرض والجبال حينما رفضت تحمُّل الأمانة ، ذلك لأنها تُقدِّر مسئوليتها وثقلها وعدم ضمان القيام بحقّها ، لذلك رفضت تحمُّلها من بداية الأمر .

وكذلك يجب أن يكون الإنسان عاقلاً عند تحمُّل الأمانات ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴿٧٢﴾ ﴾ [الأحزاب]

ما الذى جهله الإنسان ؟ جهل تقدير حاله وقت أداء الأمانة ، فظلم نفسه ، ولو أنه خرج من باب الجمال كما يقولون لَقالَ : يا ربِّ اجعلنى مثل السماء والأرض والجبال ، وما تُجريه علىَّ ، فأنا طَوْع أمرك .

ولذلك ، فمن عباد الله مَنْ قَبل الاختيار وتحمَّل التكليف ، ولكنه خرج عن اختياره ومراده لمراد ربِّه وخالقه ، فقال : يارب أنت خلقْتَ فينا اختياراً ، ونحن به قادرون أن نفعل أو لا نفعل ، ولكنّا تنازلنا عن اختيارنا لاختيارك ، وعن مرادنا لمرادك ، ونحن طَوْع أمرك .. هؤلاء هم عباد الله الذين استحقوا هذه النسبة إليه سبحانه وتعالى .

إذن : هناك فَرْق بين مَنْ يفعل اختياراً مع قدرته على ألاَّ يفعل ، وبين مَنْ يفعل بالقهر والتسخير .. فالأول مع أنه قادر ألاَّ يفعل ، فقد غلّب مُراد ربّه فى التكليف على مراد نفسه فى الاختيار .

ثم ينتقل الحق ـ تبارك وتعالى ـ إلى قمة القضايا العقدية بالنسبة للإنسان ، فيقول تعالى :

﴿ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَـٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾

وقد جاء النهى فى الآية نتيجةَ خروج الإنسان عن مُراد ربِّه سبحانه ، فالعجيب أن البشر والجن أيضاً ـ يعنى الثقلين ـ هم المختارون فى الكون كله ، اختيار فى أشياء وقَهْر فى أشياء أخرى .. ومع ذلك لم يشذّ من خَلْق الله غيرهما .

فالسموات والأرض والجبال كان لها اختيار ، وقد اختارت التسخير ، وانتهت المسألة فى بداية الأمر ، ومع ذلك فهى مُسخَّرة وتُؤدّى مهمتها لخدمة الإنسان ، فالشمس لم تعترض يوماً ولم ترفض .. فهى تشرق على المؤمن كما تشرق على الكافر .. وكذلك الهواء والأرض والدابة الحلوب ، وكُلٌّ ما فى كون الله مُسخَّر للجميع .. إذن : كل هذه الأشياء لها مهمة ، وتؤدى مُهمتها على أكمل وجه .

ولذلك يقول تعالى فى حقِّ هذه الأشياء :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا بالإجماع ، لا يتخلّف منها شىء عن مُراد ربه .

فما الحال فى الإنسان ؟ يقول تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ .. (١٨) ﴾ [الحج]

ولم يَقُلْ : والناس . ثم قال :

﴿ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هذا هو الحال فى الإنسان المكرّم الذى اختاره الله وترك له الاختيار .. إنما كل الأجناس مُؤدّية واجبها ؛ لأنها أخذتْ حظّها من الاختيار الأول ، فاختارت أن تكون مُسخّرة ، وأن تكون مقهورة .

فالإنسان .. واحد يقول : لا إلهَ فى الوجود .. العالم خُلِق هكذا بطبيعته ، وآخر يقول : بل هناك آلهة متعددة ؛ لأن العالم به مصالح كثيرة وأشياء لا ينهض بها إله واحد .. يعنى : إله للسماء ، وإله للأرض ، وإله للشمس .. الخ .

إذن : هذا رأى فى العالم أشياء كثيرة بحيث لا ينهض بها فى نظره إله واحد ، ونقول له : أنت أخذتَ قدرة الإله من قدرة الفردية فيك .. لا .. خُذها من قدرة من :

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ .. (١١)﴾ [الشورى]

لأن القدرة الإلهية لا تعالج الأشياء كما تفعل أنت ، وتحتاج إلى مجهود وعملٍ .. بل فى حقّه تعالى يتم هذا كله بكلمة كُنْ .. كُنْ كذا وانتهت المسألة .

ونعجب من تناقض هؤلاء ، واحد يقول : الكون خُلِق هكذا لحاله دون إله . والآخر يقول : بل له آلهة متعددة .. نقول لهم : أنتم متناقضون ، فتعالَوْا إلى دين الله ، وإلى الوسطية التى تقول بإله واحد ، لا تنفى الألوهية ولا تثبت التعددية .

فإنْ كنتَ تظنُّ أن دولابَ الكون يقتضى أجهزة كثيرة لإدارته ، فاعلم أن الله تعالى لا يباشر تدبير أمر الكون بعلاج .. يفعل هذه ويفعل هذه ، كما يُزاول البشر أعمالهم ، بل يفعلها بـ « كُنْ » ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم ، وحيَّكم وميتكم ، ورطبكم ويابسكم اجتمعوا فى صعيد واحد ، فسأل كل إنسان منكم ما بلغت أمنيته ، فأعطيت كل سائل منكم ما سأل ما نقص ذلك من مُلْكى إلا كما لو أن أحدكم مر بالبحر فغمس فيه إبرة ثم رفعها إليه ، ذلك بأنِّى جواد ماجد ، أفعل ما أريد ، عطائى كلام ، وعذابى كلام ، إنما

أمرى بشىء إذا أردته أن أقول له كن فيكون »[1] .

فيا مَنْ تُشْفق على الإله الواحد أن يتعبَ من إدارته للكون بشتى نواحيه ، ارتفع بمستوى الألوهية عن أمثال البشر ؛ لأن الله تعالى لا يباشر سلطانه علاجاً فى الكون ، وإنما يباشره بكلمة « كُنْ » .

إذن : إله واحد يكفى ، وما دُمْنا سلَّمنا بإله واحد ، فإياك أن تقول بتعدُّد الآلهة .. وإذا كان الحق تبارك وتعالى نفى إلهين اثنين ، فنَفْى ما هو أكثر من ذلك أَوْلَى .. واثنان أقل صُور التعدد .

ومعنى ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ أى : معبودين ، فيكون لهما أوامر ونواه ، والأوامر والنواهى تحتاج إلى طاعة ، والكون يحتاج إلى تدبير ، فأىٌّ الإلهين يقوم بتدبير أمور الكون ؟ أم أنه يحتاج إلى مُساعد ؟ إنْ كان يحتاج إلى مساعد فهذا نقْص فيه ، ولا يصلح أن يكون إلهاً .

وكذلك إنْ تخصَّص كُلٌّ منهما فى عمل ما ، هذا لكذا وهذا لكذا ، فقد أصبح أحدهما عاجزاً فيما يقوم به الآخر .. وأى ناحية إذن من نواحى الحياة تكون هى المسيطرة ؟ ومعلوم أن نواحى الحياة مشتركة ومتشابكة .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [المؤمنون]

(١) أخرجه الترمذى فى سننه (٢٤٩٥) ، وأحمد فى مسنده (٥/٧٧ ، ١٥٤) من حديث أبى ذر رضى الله عنه . قال الترمذى : حديث حسن . فى إسناده شهر بن حوشب ، ضعفه بعضهم وقد حسَّن البخارى حديثه وقوَّى أمره .

وقــال :

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا .. (٢٢)﴾ [الأنبياء]

فكيف الحــال إذا أراد الأول شــيـئـاً ، وأراد الآخــر ألاَّ يكون هذا الشـىء ؟ فـإنْ كان الشـىء كـان عجـزاً فى الثانى ، وإن لم يكُن كـان عجزاً فى الأول .. إذن : فقوة أحدهما عَجْز فى الآخر .

ونلحظ فى قوله تعالى :

﴿وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١)﴾ [النحل]

عظة بليغـة ، كأنه سبـحانه حينمـا دعانا إلى توحيـده يقول لنا : أريحوا أنـفسكم بالتـوحيد ، وقـد أوضـح الحق سبـحانه وتعـالى هذه الراحة فى قوله :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

يعنى رجل خُلِّص لسـيد واحـد ، ورجل أسيـاده كثـيرون ، وهم شركاء مختلفون ، فإنْ أرضى هـذا أغضب ذاك ، وإن احتاجه أحدهما تنازعه الآخر . فـهو دائماً مُتْعبٌ مُـثقَلٌ ، أما المملوك لسيـد واحد فلا يخفى ما فيه من راحة .

ففى أمره سبحانه بتوحيده راحةٌ لنا ، وكأنه سبحانه يقول : لكم وِجْهة واحدة تكفيكم كُلَّ الجهات ، وتضمن لكم أن الرضا واحد ، وأن البُغْض واحد .

إذن : فطلبُه سبحانه راحةٌ لنا ؛ لذلك قبل أن يطلبها منّا شهد بها لذاته تعالى ، فقال :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ .. ⦗١٨⦘ ﴾ [آل عمران]

فلو قال معترض : كيف يشهد لذاته ؟ نقول : نعم ، يشهد لذاته سبحانه ؛ لأنه لا أحدَ غيره .. لا أحد معه ، فشهادة الذات للذات هنا شيء طبيعي .. وكأنه سبحانه يقول : لا أحدَ غيرى ، وإنْ كان هناك إله غيرى فَلْيُرنى نفسه ، وليُفصِح عن وجوده .

أنا الله خلقت الكون وأخذته وفعلتُ كذا وكذا ، فإما أنْ أكون صادقاً فيما قلت وتنتهى المسألة ، وإما أنْ أكون غير صادق ، وهناك إله آخر هو الذى خلق .. فأين هو ؟ لماذا لا يعارضنى ؟

وهذا لم يحدث ولم ينازع الله فى خَلْقه أحد ، وحين تأتى الدعوى بلا معاند ولا معارض تَسْلَم لصاحبها .

فإنْ قال قائل : لعل الآلهة الأخرى لم تَدْرِ بأن أحداً قد أخذ منهم الألوهية ، فإنْ كان الأمر كذلك فهم لا يصلُحون للألوهية لعدم درايتهم ، وإنْ دَرَوْا ولم يعارضوا فهُمْ جُبناء لا يستحقون هذه المكانة .

وبشهادته سبحانه لذاته بأنه لا إله إلا هو أقبل على خَلْق الخَلْق ؛ لأنه ما دام يعرف أنه لا إله غيره ، فإذا قال : « كن » فهو واثق أنه سيكون .

ولذلك ساعة يحكم الله حُكْماً غيبياً يقول : أنا حكمت هذا الحكم

مع أنكم مختارون فى أنْ تفعلوا أو لا تفعلوا ، ولكنى حكمتُ بأنكم لا تفعلون ، وما دُمْتُ حكمت بأنكم لا تفعلون ولكم قدرة أن تفعلوا ، ولكن ما فعلتم ، فهذا دليل على أنه لا إله غيرى يُعينكم على أنْ تفعلوا .

ثم شهدتْ الملائكة على شهادة الذات ، وشهد أولو العلم شهادةَ الاستدلال ، كما قال تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ .. (١٨) ﴾

[آل عمران]

لنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. (٥١) ﴾ [النحل]

فعندنا العدد ، وعندنا المعدود ، فإذا قُلْنا مثلاً : قابلت ثلاثة رجال ، فكلمة « ثلاثة » دلتْ على العدد ، وكلمة « رجال » دلَّتْ على جنس المعدود ، وهكذا فى جميع الأعداد ما عدا المفرد والمثنى ، فلفظ كل منهما يدل على العدد والمعدود معاً .

كما لو قلت : إله . فقد دلَّتْ على الوحدة ، ودلتْ على الجنس ، وكذلك « إلهين » دلَّتْ على المثنى وعلى جنس المعدود .

ولذلك كان يكفى فى الآية الكريمة أن يقول تعالى : لا تتخذوا إلهين ؛ لأنها دلَّتْ على العدد وعلى المعدود معاً ، ولكن الحق تبارك وتعالى أراد هذا تأكيداً للأمر العقدىّ لأهميته .

ومن أساليب العرب إذا أحبُّوا تأكيد الكلام أن يأتوا بعده بالمراد .

فيقولون : فلان قسيم وسيم ، وفلان حَسن بَسَن[1] ، وفلان شيطان ليطان ، يريدون تأكيد الصفة .. وكذلك فى قوله : ﴿ إِلَـٰهَيْنِ ﴾ فقط تثبت الألوهية ، ولتأكيد هذه القضية العقدية لأنها أهمّ القضايا بالنسبة للإنسان ، وهى قضية القمة ، فقال تعالى :

﴿ إِلَـٰهَيْنِ اثْنَيْنِ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

وكذلك أيضاً فى قوله :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

فجاء بقوله تعالى ﴿ وَاحِدٌ ﴾ لتأكيد وحدانية الله تعالى .

وفى الآية ملْحظ آخر يجب تأمّله ، وهو أن الكلام هنا فى حالة الغيبة :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

فكان القياس فى اللغة هنا أن يقول : « فإياه فارهبون » .

ولكن وراء تحويل السياق من الغيبة إلى المجابهة للمتكلم قال :

﴿ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

وهذا وراءه حكمة ، وملْحظ بلاغى ، فبعد أنْ أكّد الألوهية بقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا هُوَ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ .. ﴿٥١﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قال ابن منظور فى [اللسان ـ مادة : بسن] : « حسن بسن إتْباع . قال ابن الأعرابى : أبسن الرجل إذا حَسُنت سَحْنته » .

صَحَّ أنْ يُجابِهَهم بذاته ؛ لأن المسألة ما دامتْ مسألة رَهْبة ، فالرهبة من المتكلم خير من الرهبة من الغائب .. وكأن السياق يقول : ها هو سبحانه أمامك ، وهذا أدْعى للرهْبة .

وكذلك فى فاتحة الكتاب نقرأ :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَـٰنِ الرَّحِيمِ ۝ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ۝ ﴾ . [الفاتحة]

ولم يَقُلْ : إياه نعبد . متابعة للغيبة ، بل تحوَّل إلى ضمير الخطاب فقال :

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝ ﴾ [الفاتحة]

ذلك لأن العبد بعد أن استحضر صفة الجلال والعظمة أصبح أهْلاً للمواجهة والخطاب المباشر مع الله عز وجل .

فقوله :

﴿ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ ۝ ﴾ [النحل]

بعد ما استحضر العبد عظمة ربه ، وأقرّ له بالوحدانية وعلم أنه إله واحد ، وليس إلهين . واحد يقول : نُعذّبه . والآخر يقول : لا .

ليس الأمر كذلك ، بل إله واحد بيده أنْ يُعذّب ، وبيده أنْ يعفو ، فناسب السياق هنا أنْ يُواجههم فيقول :

﴿ فَإِيَّاىَ فَارْهَبُونِ ۝ ﴾ [النحل]

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًا(١) أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ۝٥٢ ﴾

عندنا هنا اللام .. وقد تكون (اللام) للملْك كما فى الآية . وكما فى : المال لـزيد ، وقد تكون للتـخصيص إذا دخلتْ الـلام على ما لا يملك ، كما نقول : اللجام للفرس ، والمـفتاح للباب ، فالفرس لا يملك اللجام ، والباب لا يملك المفتاح . فهذه للتخصيص .

والحق سبحانه يقول هنا :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝٥٢ ﴾ [النحل]

وفى موضع آخر يقول :

﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ۝٦٨ ﴾ [يونس]

وكذلك فى :

﴿ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ۝٢٤ ﴾ [الحشر]

ومرة يقول :

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ۝١ ﴾ [الجمعة]

حينما تكون اللام للملكية قد يكون المملوك مختلفاً ففى قوله :

---

(١) وصب الشىء يصب وصوباً : دام ولزم فهو واصب : دائم لازم . أى : لا يتغير ولا يتبدّل . [القاموس القويم ٢/٣٣٩] .

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ﴿٥٢﴾﴾ [النحل]

يعنى : القدر المشترك الموجود فيهما . أى : الأشياء الموجودة فى السماء وفى الأرض .

أما فى قوله :

﴿مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ .. ﴿٦٨﴾﴾ [يونس]

أى : الأشياء الموجودة فى السماء وليست فى الأرض ، والأشياء الموجودة فى الأرض وليست فى السماء ، أى : المخصّص للسماء والمخصّص للأرض ، وهذا ما يُسمُّونه استيعاب الملكية .

وما دام سبحانه له ما فى السموات وما فى الأرض ، فليس لأحَد غيره ملْكية مستقلة ، وما دام ليس لأحد غيره ملكية مستقلة . إذن : فليس له ذاتية وجود ؛ لأن وجوده الأول موهوبٌ له ، وما به قيام وجوده موهوب له .. ولذلك يقولون : مَنْ أراد أن يعاند فى الألوهية يجب أن تكون له ذاتية وجود .. وليست هذه إلا لله تعالى .

ونضرب لذلك مثلاً بالولد الصغير الذى يعاند أباه ، وهو ما يزال عَالةٌ عليه . فيقول له : انتظر إلى أن تكبر وتستقلّ بأمرك .. فإذا ما شَبَّ الولد وبلغ وبدأ فى الكَسْب أمكن له الاعتماد على نفسه ، والاستغناء عن أبيه .

لذلك نقول لمن يعاند فى الألوهية : أنت لا تقدر ؛ لأن وجودك هِبَة ، وقيام وجودك هِبَة ، كل شىء يمكن أنْ يُنزع منك .

ولذلك ، فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهنا إلى هذه المسألة فى قوله تعالى :

﴿ كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

فهذا الذى رأى نفسه استغنى عن غيره ـ من وجهة نظره ـ إنما هل استغنى حقاً ؟.. لا . لم يستغن ، بدليل أنه لا يستطيع أنْ يحتفظَ بما يملك .

قوله تعالى :

﴿ وَلَهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٥٢) ﴾ [النحل]

الذى له ما فى السموات والأرض ، وبه قيام وجوده بقيوميته[1] ، فهو سبحانه يُطمئنك ويقول لك : أنا قيُّوم ـ يعنى : قائم على أمرك .. ليس قائماً فقط .. بل قيُّوم بالمبالغة فى الفعْل ، وما دام هو سبحانه القائم على أمرك إيجاداً من عَدَم ، وإمداداً من عُدم . إذن : يجب أنَ تكون طاعتُك له سبحانه لا لغيره .

وفى الأمثال يقولون « اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى » فإذا كنتَ أنت عالة فى الوجود .. وجودك من الله ، وإمدادك من الله ، وإبقاء مُقوِّمات حياتك من الله ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا .. (٥٢) ﴾ [النحل]

أى : هذه نتيجة ؛ لأن لله ما فى السموات والأرض ، فلَه الدين واصباً ، أى : له الطاعة والخضوع دائماً مستمراً ، ومُلْك الله دائم ، وهو سبحانه لا يُسلم مُلْكَه لأحد ، ولا تزال يد الله فى مُلْكه .. وما دام الأمر هكذا فالحق سبحانه يسألهم :

---

(١) القيوم : صيغة مبالغة من أسماء الله الحسنى لا يُوصف بها سواه . أى : دائماً شديد القيام والحفاظ على مخلوقاته . [القاموس القويم ٢/١٤٢] .

﴿ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) ﴾ [النحل]

والهمزة هنا استفهام للإنكار والتوبيخ ، فلا يجوز أنْ تتقىَ غير الله ، لأنه حُمْق لا يليق بك ، وقد علمتَ أن لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وله الطاعة الدائمة والانقياد الدائم ، وبه سبحانه قامت السماوات والأرض ومنه سبحانه الإيجاد من عَدَم والإمداد من عُدم .

إذن : فمن الحُمْق أنْ تتقى غيره ، وهو أوْلى بالتقوى ، فإنِ اتقيتُم غيره فذلك حُمْق فى التصرّف يؤدّى إلى العطَب والهلاك ، إنِ اغتررتم بأن الله تعالى أعطاكم نِعَماً لا تُعَدُّ ولا تُحصَى .

ومن نعم الله أن يضمن لعباده سلامة الملكَات وما حولها ، فلو سلِم العَقل مثلاً سلِمت وصَحَّتْ الأمور التى تتعلق به ، فيصحّ النظامَ ، وتصحّ التصرُّفاتَ ، ويصحّ الاقتصاد .. وهذه نعمة .

فالنعمة تكون للقلب وتكون للقالب ، فللقالب المتعة المادية ، وللقلب المتعة المعنوية .. وأهم المتَع المعنوية التى تريح القالب أن يكون للإنسان دينٌ يُوجّهه .. أن يكون له ربٌّ قادر ، لا يُعجِزه شىء ، فإنْ ضاقتْ به الدنيا ، وضاقتْ به الأسباب فإن له رباً يلجأ إليه فيُسعفه ويكفيه ، وهذه هى الراحة الحقيقية .

وقد ضمن لنا الحق ـ سبحانه وتعالى ـ سلامة القالب بما أودع فى الكون من مُقوّمات الحياة فى قوله :

﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا[1] .. (١٠) ﴾ [فصلت]

أى : اطمئنوا إلى هذا الأمر ، فالله سبحانه لا يريد منكم إلا أنْ

---

(١) أقواتها : هو ما يحتاج أهلها إليه من الأرزاق والأماكن التى تزرع وتغرس . قاله ابن كثير فى تفسيره (٤/٩٣) .

تُعملوا عقولكم المخلوقة لله لتُفكِّروا فى المادة المخلوقة لله ، وتنفعلوا لها بالطاقة المخلوقة لله فى جوارحكم ، وسوف تجدون كلَّ شىء مُيسَّراً لكم .. فالله تعالى ما أراد منكم أنْ تُوجِدوا رزقاً ، وإنما أراد أنْ تُعمِلوا العقل ، وتتفاعلوا مع مُعْطيات الكون .

ولكن كيف يتفاعل الإنسان فى الحياة ؟

هناك أشياء فى الوجود خلقها الله سبحانه برحمته وفضله ، فهى تفعل لك وإنْ لم تطلب منها أن تفعل ، فأنت لا تطلب من الشمس أنْ تطلُع عليك ، ولا من الهواء أنْ يَهُبَّ عليك .. الخ .

وهناك أشياء أخرى تفعل لك إنْ طلبتَ منها ، وتفاعلتَ معها ، كالأرض إنْ فعلتَ بيدك فحرثْتَ وزرعْتَ ورويْتَ تعطيك ما تريد .

وفى هذا المجال من التفاعل يتفاضل الناس ، لا يتفاضلون فيما يُفعل لهم دون انفعال منهم .. لا بل ارتقاء الناس وتفاضُلهم يكون بالأشياء التى تنفعل لهم إنْ فعلوا .. أما الأخرى فتَفعل لكل الناس ، فالشمس والهواء والمياه للجميع ، للمؤمن وللكافر فى أىّ مكان .

إذن : يترقَّى الإنسان بالأشياء التى خلقها الله له ، فإذا انفعل معها انفعلتْ له ، وإذا تكاسل وتخاذل لم تُعْطه شيئاً ، ولا يستفيد منها بشىء .. ولذلك قد يقول قائل : الكافر عنده كذا وكذا ، ويملك كذا وكذا ، وهو كافر .. ويتعجّب من القدر الذى أعطَى هذا ، وحرَم المؤمن الموحد منه .

نقول له : نعم أخذ ما أخذ ؛ لأنه يشترك معك فيما يُفعل لك وإنْ لم تطلب ، ويزيد عليك أنه يعمل ويكدّ وينفعل مع الكون

وما أعطاه الله من مُقوِّمات وطاقة ، فتنفعل معه وتعطيه ، فى حين أنك قاعد لا همَّة لك .

وكذلك قد يتسامى الارتقاء فى الإنسان ، فيجعل الشىء الذى يُفعل له دون أن يطلب منه - أى : الشىء المسخَّر له - يجعله ينفعل له ، كما نرى فيما توصَّل إليه العلم من استخدام الطاقة الشمسية مثلاً فى تسخين المياه .. هذه الطاقة مُسخَّرة لنا دون جَهْد منّا ، ولكن ترقِّى الإنسان وطموحه أوصله إلى هذا الارتقاء .. وكُلُّ هذه نِعَم من الله ؛ ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ﴾[1]

أمدَّنا الله سبحانه بهذه النعم رحمة منه وفضلاً .. نعَم تترى لا تُعَد ولا تُحْصَى ، ولكن لرتابة[2] النعمة وحلولها فى وقتها يتعوّدها الإنسان ، ثم يذهل عن المنعم سبحانه .

ونستطيع أن نضرب لذلك مثلاً بالولد الذى تعطيه مصروفه مثلاً كل أول شهر ، تجده لا يحرص على أنْ يلقاك بعد ذلك إلا كل أول شهر ، إنما إذا عوَّدته أن يأخذ مصروفه كل يوم تراه فى الصباح يحوم حولك ، ويُظهر لك نفسه ليُذكِّرك بالمعلوم .

إذن : رتابة النعمة قد تُذهلك عن المُنعِم ، فلا تتذكره إلا حين

(١) جأر إلى الله عز وجل : تضرع بالدعاء . فيرفع صوته بالدعاء متضرعاً جزعاً . [لسان العرب - مادة : جأر] .

(٢) الأمر الراتب : الثابت الدائم . [لسان العرب - مادة : رتب] .

الحاجة إليه ؛ لذا يُنبِّهنا الحق تبارك وتعالى : إذا أعطيتُ لكم نعمة فإياكم أنْ تغتروا بها .. إياكم أن تُذهلكم النعمة عن المنعم ؛ لأنكم سوف تحكمون على أنفسكم أنه لا مُنعِم غيرى ، بدليل أننى إذا سلبْتُ النعمة منكم فلن تجدوا غيرى تلجأون إليه فستقولون : ياربّ ياربّ .

فأنت ستكون شاهداً على نفسك ، لن تكذب عليها ، فلِمَنْ تتوجّه إذا أصابك فقر ؟ ولمن تتوجَّه إذا أصابك مرض ؟ لن تتوجّه إلا إلى الله تقول : يارب .

﴿ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [النحل]

فترة الضُّر التى تمرُّ بالإنسان هى التى تلفته إلى الله ، والحاجة هى التى تُلجئه إلى المصدر الحقيقى للإمداد ، فإذا كانت النعمة قد تُذهِله وتُنسيه ، فالضر يُذكِّره بربّه الذى يملك وحده كَشْف الضر عنه .

ولذلك ، فالناس أصحاب اليقين فى الله تعالى ساعةَ أنْ يصيبهم ضُرٌّ ، يقول : ذكَّرتنى بك ياربِّ ، يأخذها على أنها نعمة .. كأنها نجدة نجدتْه مما هو فيه من غفلة .. يا ربِّ أنت ذكّرتنى بك .. أنا كنتُ ناسياً ذاهلاً .. كنت فى غفلة .

وساعةَ أنْ يعودَ ويشعر بالتقصير يرفع الله عنه البلاء ؛ ولذلك يُرفع القضاء عن العبد إنْ رضى به وعلم أن فيه خيراً له .

ولذلك ، فالرسول ﷺ يُنبّهنا لهذه الأحداث التى تصيبنا ، فإياكم أن تستقبلوها بالجزع والفزع .. ولكن استقبلوها بالإيمان والرضا ، واعلموا أن ربكم يغار عليكم ، وهو بهذه الأحداث يلفتكم إليه قهراً عنكم ؛ لكى تعودوا إليه وتلجأوا إليه .. لكى تقولوا يارب .

يقول رسول الله ﷺ عن رب العزة فى الحديث القدسى :

« مِنْ عبادى مِنْ أحبهم فأنا أبتليهم ليقولوا يارب... »[١] .

ويقول تعالى فى الآية الأخرى :

﴿ فَلَوْلا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا[٢] تَضَرَّعُوا .. (٤٣) ﴾ [الأنعام]

اى : أنه سبحانه يريد منا إذا نزل بنا بلاء وبأس أنْ نتضرّع إليه سبحانه ؛ لأن الضراعة إلى الله لَفْتة وتذكير به .. والنبى ﷺ يُرشدنا إلى هذه الحقيقة ، فالمصاب الحقيقى ليس مَنْ نزل به ضُرٌّ أو أصابه بلاء .. لا .. بل المصاب الحقيقى مَنْ حُرِم الثواب .

إذن : نقول لمن عنده نعمة : احذر أن تُنسيك النعمة وتُذهلك عن المنعم ، أما صاحب البلاء والضر ، فسوف يردُّك هذا البلاء ، ويُذكّرك هذا الضرّ بالله تعالى ، ولن تجدَ غيره تلجأ إليه .

فقوله تعالى :

﴿ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ﴾ [النحل]

اى : تضْرَعون بصراخ وصوت عالٍ كخُوار البقر ، لا يُسِرّه أحد ولا يستحى منه أنْ يُفتضح أمره امامَ مَنْ تكبّر عليهم .. ويا ليتكم حين ينتابكم مثل ذلك تعتبرون به وتتعظُون ، وتقولون فى لحظة من

---

(١) اورد المنذرى فى الترغيب (٤/٥٢٦) أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أحب الله عبداً أو أراد أن يصافيه صب عليه البلاء صباً ، وثجه عليه ثجاً ، فإذا دعا العبد قال : يا رباه . قال الله : لبيك يا عبدى لا تسالنى شيئاً إلا أعطيتك ، إما أن أعجله لك ، وإما أن أدخره لك » . ورمز الحافظ المنذرى له بالضعف .

(٢) البأس : العذاب والشدة فى الحرب والمشقة . [لسان العرب ـ مادة : بأس] .

اللحظات : سوف تلجئنا الأحداث إلى ربنا .. بل بالعكس حينما نكشف عنكم الضر سوف تعودون إلى ما كنتم عليه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

فمن الناس مَنْ إذا أصابه الله بضُرٌّ أو نزل به بأسٌ تضرّع وصرخ ولجأ إلى الله ودعاه ، وربما سالتْ دموعه ، وأخذ يُصلّى ويقول : يا فلان ادْعُ لى الله وكذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه ضُرّه عاود الكَرّة من جديد ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ .. ﴿١٢﴾ ﴾ [يونس]

ومن لُطْف الأداء القرآنى هنا أن يقول :

﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [النحل]

أى : جماعة منكم وليس كلكم ، أما الباقى فيمكن أنْ يثبتُوا على الحق ، ويعتبروا بما نزل بهم فلا يعودون .. فالناس - إذن - مختلفون فى هذه القضية : فواحد يتضرّع ويلتفت إلى الله من ضُرٍّ واحد أصابه ، وآخر يلتفت إلى الله من ضُرّيْن ، وهكذا .

وقد وجدنا فى الأحداث التى مرَّتْ ببلادنا على أكابر القوم أحداثاً عظاماً تلفتهم إلى الله ، فرأينا مَنْ لا يعرف طريق المسجد يُصلّى ، ومَنْ لا يفكر فى حج بيت الله ، يسرع إليه ويطوف به ويبكى هناك

عند الملتزم[(١)] ، وما ألجأهم إلى الله ولفتهم إليه سبحانه إلا ما مرَّت بهم من أحداث .

أليست هذه الأحداث ، وهذه الأزمات والمصائب خيراً في حقهم ؟.. بلى إنها خير .

وأيضاً قد يُصاب الإنسان بمرض يُلِمّ به ، وربما يطول عليه ، فيذهب إلى الأطباء ، ويدعو الله ويلجأ إليه ، ويطلب من الناس الدعاء له بالشفاء ، ويعمل كذا وكذا .. فإذا ما كشف الله عنه المرض وأذن له بالشفاء قال : أنا اخترتُ الطبيب الحاذق ، الطبيب النافع ، وعملتُ وعملتُ .. سبحان الله !

لماذا لا تترك الأمر لله ، وتُعفِى نفسك من هذه العملية ؟

وفي قوله تعالى :

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾﴾
[النحل]

صمام أمْن اجتماعي في الكون ، يقول للناس : إياكم أن تأخذوا على غيركم حين تُقدمون إليهم جميلاً فيُنكرونه .. إياكم أنْ تكفُّوا عن عمل الجميل على غيركم ؛ لأن هذا الإنكار للجميل قد فعلوه مع أعلى منكم ، فعلوه مع الله سبحانه ، فلا يُزهدك إنكارهم للجميل في فعْله ، بل تمسَّك به لتكون من أهله .

---

(١) يستحب الدعاء عند الملتزم بعد الشرب من ماء زمزم . قال عبدالله بن عمرو بن العاص : « رأيت رسول الله ﷺ يلزق وجهه وصدره بالملتزم » . أخرجه ابن عدى فى الكامل (٢٤١٨/٦) .

والحق تبارك وتعالى يضرب لنا مثلاً لإنكار الجميل فى قصة سيدنا موسى عليه السلام :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا[1] مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا (٦٩) ﴾ [الأحزاب]

فقد اتهمه قومه وقعدوا يقولون فيه كذباً وبُهْتاناً ، فقال موسى : يا ربِّ أسألك ألاَّ يُقَال فيَّ ما ليس فيَّ .. فقال تعالى لموسى : أنا لم أفعل ذلك لنفسى ، فكيف أفعلها لك ؟

ولماذا لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ؟.. لم يفعلها الحق سبحانه لنفسه ليعطينا نحن أُسْوة فى تحمُّل هذا الإنكار ، فقد خلق الله الخَلْق ورزقهم ووَسعهم ، ومع ذلك كفروا به ، ومع ذلك ما يزال الحق سبحانه خالقاً رازقاً واسعاً لهم .

إذن : فى الآية تقنين وأمان للمجتمع أن يتفشى فيه مرض الزُّهْد فى عمل الخير .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) ﴾ [النحل]

تشمل الآية مَنْ أنكر الجميل من المؤمنين ، ومن الكافرين .

ولكن لماذا يشركون ؟

---

(١) وذلك أن موسى عليه السلام كان رجلاً حيياً ، فآذاه قوم من بنى إسرائيل وقالوا : ما يستتر هذا الستر إلا من عيب بجلده ببرص أو غيره ، فأراد الحق أن يبرئه مما قالوا ، فبعد اغتساله أراد أن يرتدى ثيابه ، فذهب بها الحجر بعيداً حتى جاء على ملأ من بنى إسرائيل فرأوه عرياناً أحسن ما خلق الله ، أخرجه البخارى فى صحيحه والترمذى فى سننه من حديث أبى هريرة . ذكره السيوطى فى الدر المنثور (٦/ ٦٦٥) .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

أى : مُسْتعظمين كقارون الذى قال :

﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِى .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص]

أخذتُ هذا بَجْهدى وعملى .. ومثله مَنْ تقول له : الحمد لله الذى وفَّقك فى الامتحان ، فيقول : أنا كنت مُجداً .. ذاكرتُ وسهرتُ .. نعم أنت ذاكرتَ ، وأيضاً غيرك ذاكر وجَدَّ واجتهد ، ولكن أصابه مرض ليلة الامتحان فأقعده ، وربما كنت مثله .

فهذه نغمة مَنْ أنكر الفضل ، وتكبَّر على صاحب النعمة سبحانه .

وقوله :

﴿ لِيَكْفُرُوا .. ﴿٥٥﴾ ﴾ [النحل]

هل فعلوا ذلك ليكفروا ، فتكون اللام للتعليل ؟ لا بل قالوا : اللام هنا لام العاقبة .. ومعناها أنك قد تفعل شيئاً لا لشىء ، ولكن الشىء يحدث هكذا ، وليس فى بالك أنت .. إنما حصل هكذا .

ومثال هذه اللام فى قوله تعالى فى قصة موسى وفرعون :

﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا .. ﴿٨﴾ ﴾ [القصص]

ففرعون حينما أخذ موسى من البحر وتبنَّاه وربَّاه ، هل كان يتبنَّاه ليكونَ له عدواً ؟ لا .. إنما هكذا كانت النهاية ، لكى يثبت الحق سبحانه أنهم كانوا مُغفَّلين ، وأن الله حالَ بين قلوبهم وبين

ما يريدون .. إذن : المسألة ليستْ مرادة .. فقد أخذْته وربَّيته فى الوقت الذى تقتل فيه الأطفال .. ألم يخطر ببالك أن أحداً خاف عليه ، فألقاه فى البحر ؟!

لذا يقول تعالى :

﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ[1] بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال]

وكذلك أم موسى :

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ .. (٧)﴾ [القصص]

كيف يقبل هذا الكلام ؟ وأنَّى للأم أن ترمى ولدها فى البحر إنْ خافت عليه ؟! كيف يتأتَّى ذلك ؟! ولكن حالَ الله بين أم موسى وبين قلبها ، فذهب الخوف عليه ، وذهب الحنان ، وذهبت الرأفة ، ولم تكذِّب الأمر الموجَّه إليها ، واعتقدت أن نجاة وليدها فى هذا فألقتْه .

وقوله : ﴿فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)﴾ [النحل]

أى : اكفروا بما آتيناكم من النعم ، وبما كشفنا عنكم من الضر ، وتمتعوا فى الدنيا ؛ لأننى لم أجعل الدنيا دار جزاء ، إنما الجزاء فى الآخرة .

---

(١) حال بينهما يحول : حجز وفصل . ومعنى قوله تعالى : ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ .. (٢٤)﴾ [الأنفال] أى : أن الله يملك أن يعرف قلب الإنسان ويغيِّر نيته كما يريد ، فالمرء لا يملك قلبه ، وإنما الله هو الذى يملكه . [القاموس القويم ١/١٧٩] .

وكلمـة ﴿ تَمَتَّعُوا ﴾ هنا تدل على أن الله تعـالى قد يُوالى نعـمه حتى علـى مَنْ يكفر بنعـمته ، وإلاَّ فلو حَـجَب عنهم نِعَمـه فلن يكون هناك تمتُّع .

ويقول تعالى :

﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥) ﴾ [النحل]

ى : سوف ترونَ نتيجة أعمالكم ، ففيها تهديد ووعيد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾

أى : الذين يكفرون بالله ويتـخذون الأصنام والشركـاء ، يجعلون لها نصيباً

وقول الحق سبحانه :

﴿ لا يَعْلَمُونَ .. (٥٦) ﴾ [النحل]

مـا العـلم ؟

العلم أن تعرفَ قـضية ، هذه القـضية صـدْق أى : مطابقة للواقع وتسـتطيع أن تُدلِّل عليـهـا ، فإذا اخـتلّ واحـد منهـا لم تكُنْ علمـاً .. وهؤلاء حينما جعـلوا للأصنام نصيباً ، فقد أتَوْا بأشـياء لا وجودَ لها فى الواقع ولا فى العلم ، وليـست حـقائق .. وهل للأصنام وجـود ؟ وهل عليها دليل ؟

قال تعالى :

﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٢٣)﴾ [النجم]

هذه الأصنام ليست لها وجود في الحقيقة ، وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦)﴾ [الأنعام]

حتى لمَّا جعلوا للأصنام نصيباً جعلوه مما رزقهم الله ، ألاَ جعلتم نصيب الأصنام مما تعطيكم الأصنام ؟ ونصيب الله مما رزقكم الله ؟ فهذا اعتراف منكم بعجز أصنامكم ، وأنكم أخذتم رزق الله وجعلتموه لأصنامكم .

وهذا دليل على أن الأصنام لا تعطيكم شيئاً ، وشهادة منكم عليهم .. وهل درت الأصنام بهذا ؟

إذن :

﴿لِمَا لا يَعْلَمُونَ .. (٥٦)﴾ [النحل]

أى : للأصنام ؛ لأنها لا وجودَ لها فى الحقيقة ، وهم يأخذون ما رزقناهم ، ويجعلونه لأصنامهم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) ﴾ [النحل]

التاء هنا فى ﴿ تالله ﴾ للقسم : أى : والله لَتُسْألُنَّ عما افتريتم من أمر الأصنام . والافتراء : هو الكذب المتعمد .

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ[1] سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ (٥٧) ﴾

ساعة أنْ تسمع كلمة ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ فاعلم أنها تنزيهٌ لله تعالى عمَّا لا يليق ، فهى هنا تنزيهٌ لله سبحانه وتعالى عما سبق من نسبة البنات له .. تعالى الله عن ذلك عُلواً كبيراً .. أى : تنزيهاً لله عن أن يكونَ له بنات .

فهل يمكن أن يكون له أولاد ذكور ؟

إنهم جعلوا لله البنات ، وجعلوا لأنفسهم الذكور ، وهذه قسمة قال عنها القرآن الكريم :

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ [النجم]

أى : جائرة .

لم تجعلوها عادلة ، يعنى لى ولد ولكم ولد ، ولى بنت ولكم بنت ، إنما تجعلون لله مَا تكرهون وهى البنات لله ، وتجعلون لكم ما تحبون .. لذلك كان في جَعْلهم لله البنات عيبان :

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٤١) : « نزلت فى خزاعة وكنانة ، فإنهم زعموا أن الملائكة بنات الله » .

الأول : أنهم نَسبُوا لله الولد ـ ولو كان ذكراً فهو افتراء باطل يتنزه الله عنه .

الثانى : أنهم اختاروا أخسَّ الأنواع فى نظرهم .. ولا يستطيع أحد أن يقول : إن البنات أخسُّ الأنواع .. لماذا ؟

لأن بالبنات يكون بقاء النوع ؛ ولذلك قال العباس : لو سمع الله ما قال الناس فى الناس لما كان الناس .. أى : لو استجاب الله لرغبة الناس فى أنهم لا يريدون البنات فاستجاب ولم يُعْطهم .. ماذا سيحدث ؟ سينقطع النسل ، فهذا مطْلَب غبىّ ، فالبنت هى التى تَلِد الولد ، وبها بقاء النوع واستمرار النسل .

وقوله تعالى :

﴿سُبْحَانَهُ .. ﴿٥٧﴾﴾ [النحل]

أى : تنزيهاً له أن يكون له ولد ، وتنزيهاً له سبحانه أن يكون له أخسّ النوعين فى نظرهم وعرفهم ، وقد قال عنهم القرآن فى الآية التالية :

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ﴿٥٩﴾﴾ [النحل]

ولذلك فالحق ـ تبارك وتعالى ـ حينما يُحدّثنا عن الإنجاب يقول :

﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا .. ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى]

أول ما بدأ الحق سبحانه بدأ بالإناث .. ثم أعطانا هذه الصور من الخَلْق : إناث ، ذكور ، ذكور وإناث ، عقيم .. إذن : هِبَات الله تعالى

لها أربعة أنواع ، ومن هنا كان العُقْم أيضاً هبةً من الله لحكمة أرادها سبحانه .. لكن الناس لا تأخذ العُقْم على أنه هبَة .. لكن تأخذه على أنه نِقْمة وغضب .

لماذا ؟ لماذا تأخذه على أنه نِقْمة وبلاء ؟ فربما وهبك الولد ، وجاء عاقّاً ، كالولد الذي جاء فتنة لأبويْه ، يدعوهما إلى الكفر[1] .

ولو أن صاحب العقم رضى بما قسمه الله له من هبة العقم واعتبره هبة ورضى به لرأى كل ولد فى المجتمع ولده من غير تعب فى حَمْله وولادته وتربيته . فيرى جميع الأولاد من حوله أولاده ويعطف الله قلوبهم إليه كأنه والدهم .. وكأن الحق تبارك وتعالى يقول له : ما دُمْتَ رضيتَ بهبة الله لك فى العقم لأجعلنَّ كل ولدٍ ولداً لك .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : من الذّكْران ؛ لأن الولد عِزْوة لأبيه ينفعه فى الحرب والقتال وينفعه فى المكاثرة .. الخ إنما البنت تكون عالةً عليه ؛ ولذلك قال تعالى بعد هذا :

---

(١) وذلك فى قصة موسى والخضر ، قال تعالى : ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف] وقد علل الخضر هذا بقوله : ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف] .

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ ﴾

نعرف أن البشارة تكون بخير ، فكان يجب عليهم أن يستقبلوها استقبالَ البشارة ، ولكنهم استقبلوها استقبال الناقمين الكارهين لما بُشّروا به ، فتجد وجه الواحد منهم .

﴿ مُسْوَدًّا .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

ومعنى اسوداد الوجه انقباضه من الغيظ ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ كَظِيمٌ .. ﴿٥٨﴾ ﴾ [النحل]

الكظم هو كَتْم الشيء .

ولذلك يقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ .. ﴿١٣٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وهو مأخوذ من كَظْم القِرْبة حين تمتلىء بالماء ، ثم يكظمها أى : يربطها ، فتراها ممتلئة كأنها ستنفجر .. هكذا الغضبان تنتفخ عروقه ، ويتوارد الدم فى وجهه ، ويحدث له احتقان ، فهو مكظوم ممنوع أنْ ينفجر .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً حاله :

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ[1] أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : يتخفّى منهم مخافَة أنْ يُقال : أنجب بنتاً .

﴿ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

نلاحظ إعادة البشارة فى هذه الآية أيضاً ، وكأنه سبحانه وتعالى يُحنِّن قلبه عليها ، ويدعوه إلى الرِّفْق بها .

فهو متردد لا يدرى ماذا يفعل ؛ لذلك يقول تعالى :

﴿ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ .. ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : ماذا يفعل فيما وُلد له . أيحتفظ به على هُونٍ ـ أى : هوان ومذلة ـ أم يدسُّه فى التراب ـ أى : يدفنها فيه حية ؟

﴿ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [النحل]

أى : ساء ما يحكمون فى الحالتين . حالة الإمساك على هُون ومذلّة ، أو حالة دَسِّها فى التراب ، فكلاهما إساءة . وكان بعض هؤلاء إذا وُلدتْ له بنت كرهها ، فإنْ أمسكها أمسكها على حال كونها ذليلةً عنده ، مُحتقرة مُهَانة ، وهى مسكينة لا ذنبَ لها .

---

(١) الهُون والهوان : الذل الشديد والخزى . [لسان العرب ـ مادة : هون] .

ولذلك ، فإن المرأة العربيـة التى عاصرتْ هذه الأحداث فطنَتْ إلى مـا لم نعرفـه نحن إلا قريباً ، حيـث اكتـشف العلم الحديث أن أمـر إنجاب الـولد أو البنت راجع إلى الرجل وليس إلى المـرأة .. وكان أبو حمزة كثيراً ما يتـرك زوجته ويغضب منها ، لأنها لا تلد إلا البنات .. فماذا قالت هذه المرأة العربية التى هجرها زوجها ؟ قالت :

مَا لأبى حمزةَ لاَ يأتِينَا غَضْـبانَ ألاَّ نَلِـدَ البَنِينـا
تَاللَّهِ مَا ذَلكَ فِى أيْدِينا فَنَحنُ كَالأرْضِ لغارسينا
نُعطِى لَهُم مِثْل الذِى أُعْطِينَا

والحق سبـحانه وتعـالى حينمـا يريد توازناً فى الكون يصنع هذا التوازن من خـلال مقتـضيات النفس البـشرية ، ومن مقـتضيـاتها أن يكون للإنسـان جـاهٌ ، وأن يكون له عـزّ ، لكن الإنسـان يخطىء فى تكوين هذا الجاه والعـِزّ ، فيظن أنه قادر على صُنْع ما يريد بـأسبابه وحدها .

إنما لو علم أن تكوين الجاه والعِزّ بشىء فوق أسبابه هو ، بشىء مخلوق لله تعالى ، بقدر مخلوق لله تعـالى ، لو علم هذه الحقيقة لجاء المسألة من بابها .

ذلك لأن العـزة ليـست بمـا تُـنجب .. العـزة هنا لله ولـلرسـول وللمؤمنـين ، اعتزّ هنا بعُـصْبـة الإيمان ، اعتـز بأنك فى بيئـة مؤمنة متكافلة ، إذا أصابك فيها ضَيْم[1] فزِع إليك الجميع .

---

(١) الضيم : الظلم أو الإذلال ونحوهمـا . ضامه : ظلمـه وأذله . [المعـجم الوجيـز ـ مادة : ضام] .

ولا تعتزّ بالأنسال والأنجال ، فقد يأتي الولد عاقاً لا يُسعف أبويْه في شدة ، ولا يعينهما في حاجة ؛ ذلك لأنك لجأتَ إلى عَصَبية الدم وعَصَبيّة الدم قد تتخلّف ، أما عَصبيّة العقيدة وعَصَبية الإيمان والدين فلا .

ولنأخذ على ذلك مثالاً .. ما حدث بين الأنصار والمهاجرين من تكافل وتعاون فاق كُل ما يتصوره البشر ، ولم يكُنْ بينهم سوى رابطة العقيدة وعصبية الإيمان .. ماذا حدث بين هؤلاء الأفذاذ ؟

وجدنا أن العصبية الإيمانية جعلت الرجل يُضحّى بأنفَس شيء يضنُّ به على الغير .. نتصور فى هذا الموقف أن يعود الأنصار بفضل ما عندهم من نعم على إخوانهم المهاجرين ، فَمنْ كانت عنده ركوبة أو منزل مثلاً يقول لأخيه المهاجر : تفضل اركب هذه الركوبة ، أو اجلس فى هذا المنزل .. هذا كله أمر طبيعى .

أما نعيم المرأة ، فقد طُبِع فى النفس البشرية أن الإنسان لا يحب أنْ تتعدّى نعمته فيها إلى غيره .. لكن انظر إلى الإيمان ، ماذا صنع بالنفوس ؟.. فقد كان الأنصارى[1] يقول للمهاجر : انظر لزوجاتى ، أيّهن أعجبتْك أُطلّقها لتتزوجها أنت ، وما حمله على ذلك ليس عصبية الدم أو عَصبيّة الجنس ، بل عَصبيّة اليقين والإيمان .

---

(١) أخرج الإمام أحمد عن أنس أن عبد الرحمن بن عوف قدم المدينة ، فآخى رسول الله ﷺ بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فقال له سعد : أى أخى ، أنا أكثر أهل المدينة مالاً ، فانظر شطر مالى فخذه ، وتحتى امرأتان فانظر أيتهما أعجب إليك حتى أطلقها . فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلّونى على السوق ، فدلوه فذهب فاشترى وباع فربح . أورده ابن كثير فى « البداية والنهاية » (٣/٢٢٨) والكاندهلوى فى « حياة الصحابة » (١/٣٦٣) .

ولذلك تنتفى جميع العصبيات فى قصة نوح ـ عليه السلام ـ وولده الكافر ، حينما ناداه نوح ـ عليه السلام ـ :

﴿ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ (٤٢) قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلاَّ مَن رَّحِمَ .. (٤٣) ﴾ [هود]

ويتمسّك نوح بولده ، ويحرص كل الحرص على نجاته فيقول :

﴿ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ .. (٤٥) ﴾ [هود]

فيأتى فَصْلُ الخطاب فى هذه القضية :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٤٦) ﴾ [هود]

إذن : هذا الولد ليس من أهلك ؛ لأن البُنُوة هنا بُنُوة العمل ، لا بُنُوة الدم والنَّسَب .

صحيح أن الإنسان يحب الغزة ويطلبها لنفسه ، ولكن يجب أن تنظر كيف تكون العزة الحقيقية ؟ وما أسبابها ؟

خُذْ العزة بالله وبالرسول وبالبيئة الإيمانية ، يصبح كل الأولاد أولادك ؛ لأنهم معك فى يقينك بالله وإيمانك به سبحانه .. أما أن تعتز بطريقتك أنت ، فتطلب العزة فى الولد الذكَر ، فمَنْ يُدرِيك أن تجد فيه العزة والعِزْوة والمكاثرة ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ مَثَلُ السَّوْءِ .. ﴿٦٠﴾ ﴾ [النحل]

صفة السوء أى : الصفات السيئة الخسيسة من الكفر والجحود والنكْران ، ومن عَمى البصيرة ، وغيرها من صفات السوء .

لماذا كان للذين لا يؤمنون بالآخرة مثَلُ السوء ؟ لأن المعادلة التى أجْرَوْها معادلة خاطئة ؛ لأن الذى لا يؤمن بالآخرة قصَّر عمره .. فعُمْر الدنيا بالنسبة له قصير ، وقد قلنا : إياك أن تقيسَ الدنيا بعمرها .. ولكن قِسْ الدنيا بعمرك أنت ، فعمر الدنيا مدة بقائكَ أنت فيها .. إنما هى باقية من بعدك لغيرك ، وليس لك أنت فيها نصيب بعد انقضاء عمرك .

إذن : عمر الدنيا عمرك أنت فيها .. عمرك : شهر ، سنة ، عشر سنوات ، مائة .. هذا هو عمر الدنيا الحقيقى بالنسبة لك أنت .

ومع ذلك ، فعمر الدنيا مهما طال مُنْتَهٍ إلى زوال ، فَمنْ لا يؤمن بالله ولا يؤمن بالآخرة قد اختار الخاسرة ؛ لأنه لا يضمن أن يعيش فى الدنيا حتى متوسط الأعمار .. وهَبْ أنك عِشْتَ فى الدنيا إلى متوسط الأعمار ، بل إلى أرذل العمر .. وهَبْ أنك استمتعتَ فى دنياك بكل أنواع المعاصى ، ماذا ستكون النهاية ؟ أنْ تفوتَ هذا كله إلى الموت .

قارِنْ ـ إذن ـ حال هذا بمَنْ آمن بالله وآمن بالآخرة .. نقول لمَنْ لا يؤمن بالآخرة : دنياك مظنونة ، يمكن أن تعيش فيها ، أو يعاجلك الموت .. حتى مَنْ عاش إلى متوسط الأعمار ، فالنهاية إلى زوال .

وما نِلْتَ من مُتَع فى دنياك أخذتها على قَدْر إمكاناتك أنت .

إذن : أنت أخذت صفقة محدودة غير مُتيقّنة ، وتركتَ صفقة غير محدودة ومُتيقّنة .. أليستْ هذه الصفقة خاسرة ؟

أما مَنْ آمن بالآخرة فقد ربحتَ صفقتـه ، حيث اختار حياة ممتدة يجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات المنعِم سبحانه وتعالى .

إذن :

﴿مَثَلُ السَّوْءِ .. ⟨٦٠⟩﴾ [النحل]

أى : الصفة شديدة السوء ، ذلك لأنهم خاسرون لا محالة .

وقوله تعالى :

﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَى .. ⟨٦٠⟩﴾ [النحل]

لله الصفة العليا ، وكأن الآية تقول لك : اترك صفة السوء ، وخُذ الصفة الأعلى التى تجد المتعة فيها على قَدْر إمكانات الحق سبحانه وتعالى .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ⟨٦٠⟩﴾ [النحل]

العزيز أى : الذى لا يُغلَب على أمره ، فإذا قيل : قد يوجد مَنْ لا يُغلب على أمره .. نعم ، لكنه سبحانه عزيز حكيم يستعمل القهر والغلبة بحكمة .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٦١) ﴾

قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ولَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. (٦١) ﴾ [النحل]

عندنا هنا : الأخْذ والمؤاخذة .. الأخْذ : هو تحصيل الشيء واحتواؤه ، ويدل هذا على أن الآخذ له قدرةٌ على المستمسك بنفسه أو بغيره ، فمثلاً تستطيع حَمْل حصاة ، لكن لا تستطيع حمل حجر كبير ، وقد يكون شيئاً بسيطاً إلا أنه مربوط بغيره ومستمسك به فيُؤخَذ منه قوة .

فمعنى الأخذ : أن تحتوى الشيء ، واحتواؤك له معناه أنك أقوى من تماسكه فى ذاته ، أو استمساك غيره به ، وقد يكون الأَخْذ بلا ذنب .

أما المؤاخذة فتعنى : هو أخذَ منك فأنت تأخذُ منه .. ومنه قَوْل أحدنا لأخيه « لا مؤاخذة » فى موقف من المواقف .. والمعنى : أننى فعلتُ شيئاً أستحق عليه الجزاء والمؤاخذة ، فأقول : لا تؤاخذنى .. لم أقصد .

لذلك ؛ فالحق تبارك وتعالى يقول هنا :

﴿ ولَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ .. (٦١) ﴾ [النحل]

ولم يَقُلْ : يأخذ الناس .

وفى آية أخرى قال تعالى :

﴿ وَكَـذَٰلِكَ أَخْـذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَـذَ الْقُـرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَـةٌ إِنَّ أَخْـذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود]

لماذا أخذها الله ؟ أخذها لأنها أخذتْ منه حقوقه فى أن يكون إلهاً واحداً فأنكرتها ، وحقوقه فى تشريع الصالح فأنكرنها .

ويُبيِّن الحق سبحانه أن هذه المؤاخذة لو حدثت ستكون بسبب من الناس أنفسهم ، فيقول سبحانه :

﴿ بِظُلْمِهِم .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

أول الظلم أنهم أنكروا الوحدانية ، يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

فكأنهم أخذوا من الله تعالى حقَّه فى الوحدانية ، وأخذوا من الرسول ﷺ ، فقالوا كذاب ، وأخذوا من الكتاب فقالوا « سحر مبين » .

كل هذا ظلم ..

فالحق تبارك وتعالى لو آخذهم بما أخذوا ، أخذوا شيئاً فأخذ الله شيئاً ، لو عاملهم هذه المعاملة ما ترك على ظهرها من دابة .

لذلك نجد فى آيات الدعاء :

﴿ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .. ﴿٢٨٦﴾ ﴾ [البقرة]

أى : أننا أخذنا منك يا ربِّ الكثير بما حدث منّا من إسراف وتقصير وعمل على غير مقتضى أمرك ، فلا تؤاخذنا بما بدر منا .

فلو آخذ الله الناس بما اقترفوا من ظلم ..

﴿ مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

قد يقول قائل : الله عز وجل سيُؤاخذ الناس بظلمهم ، فما ذنب الدابة ؟ ماذا فعلت ؟ نقول : لأن الدابة خُلقَتْ من أجلهم ، وسُخِّرتْ لهم ، وهى من نعم الله عليهم ، فليست المسألة إذن نكايةً فى الدابة ، بل فيمَنْ ينتفع بها ، وقد يُراد العموم لكل الخلق .

فإذا لم يؤاخذ الله الناس بظلمهم فى الدنيا فهل يتركهم هكذا ؟ لا بل :

﴿ وَلَـٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .. ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

هذا الأجل انقضاء دُنيا ، وقيام آخرة ، حتى لو لم يؤمنوا بالآخرة ، فإن الله تعالى يُمهلهم فى الدنيا ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ .. ﴿٤٧﴾ ﴾ [الطور]

وقد يكون فى هذا الأجل المسمى خير للحق ، فكثير من الصحابة كانوا يدخلون المعارك ، ويُحبون أنْ يقتلوا أهل الكفر فلاناً وفلاناً ، ثم لا يتمكنون من ذلك ولا يصيبونهم ، فيحزنون لذلك .

ولكن أجَل هؤلاء لم يأت بَعْد ، وفى علم الله تعالى أن هؤلاء الكفار سيؤمنون ، وأن إيمانهم سينفع المسلمين ، وكأن القدر يدّخرهم : إما أنْ يؤمنوا ، وإما أن تؤمنَ ذرياتهم .

وقد آمن عمرو بن العاص ، وعكرمة بن أبى جهل وغيرهم . ومن هؤلاء الذين نَجَوْا كان خالد بن الوليد سيف الله المسلول .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

أى : إذا جاءت النهاية فلا تُؤَخّر ، وهذا شىء معقول ، ولكن كيف : ولا يستقدمون ؟ إذا جاء الأجل كيف لا يستقدمون ؟ المسألة - إذن - ممتنعة مستحيلة .. كيف إذا جاء الأجل يكون قد أتى قبل ذلك ؟ .. هذا لا يستقيم ، لكن يستقيم المعنى تماماً على أن :

﴿ وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [النحل]

ليست من جواب إذا ، بل تم الجواب عند (ساعة) ، فيكون المعنى : إذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ، وإذا لم يجىء لا يستقدمون . والله أعلم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ[(١)] أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

(١) لا جرم : لا محالة ولا بُدَّ وتحولت إلى معنى القسم ، فصارت بمنزلة قولنا « حقاً » . [القاموس القويم ١/١٢١] .

الأليق أن الذى يُخرج لله يجب أن يكون من أطيب ما أعطاه الله ، فإذا أردت أن تتصدقَ تصدَّقْ بأحسن ما عندك ، أو على الأقل من أوسط ما عندك .. لكن أنْ تتصدَّق بأخسِّ الأشياء وأرذلها .. أن تتصدق مما تكرهه ، كالذى يتصدق بخبز غير جيد أوْ لحم تغيَّر ، أو ملابس مُهَلْهَلَة ، فهذا يجعل لله ما يكره[1] .

والحقيقة أن الناس إذا وثقوا بجزاء الله على ما يعطيه العبد لأعطَوْا ربهم أفضل ما يُحبونَ .. لماذا ؟ لأن ذلك دليلٌ على حبّك للآخرة ، وأنك من أهلها ، فأنت تعمرها بما تحب ، أما صاحب الدنيا المحبّ لها فيعطى أقل ما عنده ؛ لأن الدنيا فى نظره أهمّ من الآخرة .

وبهذا يستطيع الإنسان أنْ يقيسَ نفسه : أهو من أهل الآخرة ، أم من أهل الدنيا بما يعطى لله عز وجل ؟

قوله تعالى :

﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ .. (٦٢) ﴾ [النحل]

أى : مما ذكر فى الآيات السابقة من قولهم :

﴿ لِلَّهِ الْبَنَاتِ .. (٥٧) ﴾ [النحل]

وأن الملائكة بنات الله ، وجعلوا بينه وبين الجنَّة نسباً ، إلى غير ذلك من أقوالهم ، وجعلوا لله البنات وهم يكرهون البنات ؛ لذلك :

﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) ﴾ [النحل]

والمسألة هنا ليستْ مسألة جَعْل البنات لله ، بل مُطْلق الجَعْل

---

(١) يقول تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَلا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) ﴾[البقرة] .

منهم مردود عليهم ، فلو جعلوا لله ما يحبون من الذكْران ما تُقبَل منهم أيضاً ؛ لأنهم جعلوا لله ما لم يجعل لنفسه .

فالذين قالوا : عزير ابن الله . والذين قالوا : المسيح ابن الله . لا يُقبَل منهم ؛ لأنهم جعلوا لله سبحانه ما لم يجعلْه لنفسه ، فهذا مرفوض ، وذلك مرفوض ؛ لأننا لا نجعل لله إلا ما جعله الله لنفسه سبحانه .

فنحن نجعل لله ما نحب مما أباح الله ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

وقوله :

﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ .. (٨)﴾ [الإنسان]

ولذلك قال الحق سبحانه لرسوله ﷺ :

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (٨١)﴾ [الزخرف]

فلو كان له ولد لآمنتُ بذلك ، لكن الحقيقة أنه ليس له ولد .. إذن : ليست المسألة في جَعْل ما يكرهون لله بل في مُطْلَق الجعْل ، ذلك لأننا عبيد نتقرّب إلى الله بالعبادة ، والعابد يتقرّب إلى المعبود بما يحب المعبود أن يتقرّب به إليه ، فلو جعل الله لنفسه شيئاً فهو على العين والرأس ، كما في أمره أن ننفق مما نُحب ، ومن أجود ما نملك .

ولذلك قوله تعالى :

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ .. (٩٢)﴾ [آل عمران]

رَاعِ حق الفقير وضرورة أنْ تجعله كنفسك ، لا يكُنْ هيِّناً عليك فتعطيه أردأ ما عندك .. والحق تبارك وتعالى لما أراد أن نتقرَّب إليه بالنُّسُك وذَبْح الهَدْى والأضاحى قال :

﴿ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحج]

لأنك إذا علمتَ أنك ستأكل منها سوف تختار أجود ما عندك .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

الكذب : قضية ينطق بها اللسان ليس لها واقع فى الوجود ، أى مخالفة للواقع المشهود به من القلب .. ولماذا يشهد عليه القلب ؟

قالوا : لأنه قد يطابق الكلام الواقع ، ونحكم عليه مع ذلك بالكذب ، كما جاء فى قوله تعالى :

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ ﴾ [المنافقون]

بالله ، أهذه القضية صدْق أم لا ؟ إنها قضية صادقة .. أنت رسول الله وقد وافق كلامهم ما يعلمه الله .. فلماذا شهد عليهم الحق تبارك وتعالى أنهم (كاذبون) ؟

وفى أىِّ شىء هم كاذبون ؟

قالوا : الحقيقة أنهم صادقون فى قولهم : إنك لرسول الله ، ولكنهم كذبوا فى شهادتهم :

﴿ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ .. ۝١ ﴾ [المنافقون]

لأنهم لا يشهدون فعلاً ؛ لأن الشهادة تحتاج أنْ يُواطئَ القلبُ اللسانَ ويسانده ، وهذه الشهادة منهم من اللسان فقط لا يساندها القلب .

الإنسان عُرْضة لأنْ يقول الصدق مرة والكذب مرة ، لكن هؤلاء بمجرد أن يقولوا (نشهد) فهم كاذبون ، وهذا معنى :

﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ .. ۝٦٢ ﴾ [النحل]

لأنهم حينما يقولون مثلاً : العزير ابن الله ، المسيح ابن الله ، الملائكة بنات الله . هذه كلها قضايا باطلة ليس لها واقع يوافق منطوق اللسان .. فألسنتهم تصف الكذب .

وإنْ أردتَ أن تعرف الكذب الذى لا يطابق الواقع فاستمع إليه فبمجرد أنْ يُقال تعلم أنه كذب .. مثل ما حدث مع مُسْيلمة الذى ادَّعى النبوة ، مجرد أنْ قال : أنا نبى قلنا : مسيلمة الكذاب .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ .. ۝٦٢ ﴾ [النحل]

أى : أن الكذب فى قولهم (لهم الحسنى) فهذا اغترار وتمنٍّ على الله دون حق ، ومثل هذه المقولة فى سورة الكهف ، فى قصة أصحاب الجنتين ، يقول تعالى :

﴿ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۝٣٥ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ۝٣٦ ﴾

[الكهف]

فهذه مقولات ثلاث كاذبة .

قوله :

﴿ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَـٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الكهف]

هذه الأولى ، فكم من أشياء تغيَّرت ، ومَنْ يضمن لك بقاء ما أنت فيه ، والحق تبارك وتعالى يقول فى آية أخرى :

﴿ إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا[1] مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ[2] ﴿٢٠﴾ ﴾ [القلم]

الكذبة الثانية :

﴿ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

فقد أنكر الساعة .

الكذبة الثالثة :

﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الكهف]

وهذا هو الشاهد فى الآية هنا ، ففيها اغترار وتمنٍّ على الله دون حقٍّ ، كمن ادعوْا أن لهم الحسنى ، وهم ليسوا أهلاً لها .

وفى موضع آخر تأتى نفس المقولة :

---

(١) الصَّرم : القطع مادياً ، كقطع الثمار . ويكون القطع معنوياً بمعنى الهجر وقطع صلة المودة . [القاموس القويم ١/٣٧٥] .

(٢) أى : احترقت فصارت سوداء مثل الليل . وقيل : الصريم أرض سوداء لا تنبت شيئاً . [لسان العرب ـ مادة : صرم] .

﴿ لا يَسْأَمُ الإِنسَانُ مِن دُعَاءِ الْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت]

وهكذا الإنسان فى طَبْعه أنه لا يسأم من طلب الخير ، وكلما وصل فيه إلى مرتبة تمنّى أعلى منها ، يقنط إنْ مسَّه شر ، وإنْ رفع الله عنه ورحمه قال : هذا لى .. أنا أستحقه ، وأنا جدير به .. ألاَ قلتَ : هذا فضل من الله ونعمة ، ثم بعد ذلك هو يتمنى على الله الأمانى ويقول :

﴿ إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ .. ﴿٥٠﴾ ﴾ [فصلت]

ويُرْوى أن سيدنا داود ـ عليه السلام ـ مع ما أعطاه الله من الملْك والعظمة أنه صعد يوماً سطح منزله ، فابتلاه الله بسِرْب من الجراد الذهب ، فحينما رآه داود جعل يجمع منه فى ثوبه ، فقال له ربه : ألم أُغْنك يا داود ؟ قال : نعم ولكن لا غِنَى لى عن فضلك[1] .

وقوله تعالى :

﴿ لا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ .. ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

لا جرم : أى حقاً أن لهم النار على ما تقدم منهم أن جعلوا لله ما يكرهون ، وتصف ألسنتهم الكذب ، وهذه أفعال يستحقّون النار عليها .

وكلمة ﴿ لاَ جَرَمَ ﴾ منها جارم بمعنى مجرم ، فالمعنى : لا جريمة فى عقاب هؤلاء ، لأنه لا يُقال على عقوبة الجريمة أنها

(١) أورده البخارى فى صحيحه (٢٧٩) ، وأحمد فى مسنده (٢/٤١٣) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، ولكن فى حق أيوب عليه السلام وليس داود . والله أعلم .

جريمة .. إذن : لها معنيان ، لا بُدّ أن لهم النار ، أو لا جريمة فى أن لهم النار جزاء أعمالهم .

﴿ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النحل]

جاءت فى كلمة مُفْرطون عدة قراءات[1] : مفرَطون ، مفرِطون ، مفرِّطون ، مفرَّطون . وجميعها تلتقى فى المعنى .

نحن حينما نصلى على جنازة مثلاً ، إذا كان الميت مكلّفاً نقول فى الدعاء له : « اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه .. اللهم إنْ كان مُحسناً فزِدْ فى إحسانه ، وإنْ كان مُسيئاً فتجاوز عن سيئاته » . فإنْ كان صغيراً غير مُكلَّف قُلْنا فى الدعاء له « اللهم اجعله فرَطاً وذخراً »[2] . فما معنى فرَطاً هنا ؟

معناه : أن يكون الطفل فَرَطاً لأبويه ومُقدّمة لهما إلى الجنة .. يمرُّ بين يدىْ والديْه ويسبقهما إلى الجنة ، وكأنه يقدم عليهما ليُمهد لهما الطريق ليغفر الله لهما .. إذن : معنى مُفْرطون أى مُقدَّمون . ولكن إلى النار .

---

(١) قراءة (مُفْرَطون) : قراءة أبى عبيدة والكسائى والفراء ، وهو قول سعيد بن جبير ومجاهد . ومعناه : متروكون منسيون فى النار .
– قراءة (مفرطون) : قراءة نافع فى رواية ورش ، وهى قراءة ابن مسعود وابن عباس ، ومعناه : مسرفون فى الذنوب والمعصية أى : أفرطوا فيها .
– قراءة (مفرِّطون) : قراءة أبى جعفر القارىء . أى : مضيعون أمر الله ، فهو من التفريط فى الواجب . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٨٤٦] .

(٢) أورد البخارى فى صحيحه (٣/٢٠٣ ـ فتح البارى) كتاب الجنائز ـ باب قراءة فاتحة الكتاب على الجنازة من قول الحسن البصرى : « يقرأ على الطفل بفاتحة الكتاب ، ويقول : اللهم اجعله لنا فرطاً وسلفاً وأجراً » .

ومنه قوله تعالى عن فرعون :

﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. (٩٨) ﴾ [هود]

أى : يتقدمهم إلى النار .. كما كنتَ مُقدّماً عليهم ، وإماماً لهم فى الدنيا ، فسوف تتقدمهم هنا وتسبقهم إلى النار .

﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) ﴾

نعلم أن الحق سبحانه وتعالى يُقسِم بما يشاء على ما يشاء ، أما نحن فلا نقسم إلا بالله ، وفى الحديث الشريف : « مَنْ كان حالفاً ، فليحلف بالله أو ليصمت »(١) .

والحق تبارك وتعالى هنا يحلف بذاته سبحانه ﴿ تَاللَّهِ ﴾ ، مثل : والله وبالله .

وقد جاء القسم لتأكيد المعنى ؛ ولذلك يقول أحد الصالحين : من أغضب الكريم حتى ألجأه أن يقسم ؟!

وقد يؤكد الحق سبحانه القسم بذاته ، أو القسم ببعض خَلْقه ، وقد ينفى القسم وهو يُقسِم ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لا أُقْسِمُ بِهَـٰذَا الْبَلَدِ (١) ﴾ [البلد]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٤٦) كتاب الأيمان - رواية (٣) عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه أدرك عمر بن الخطاب فى ركب وعمر يحلف بأبيه ، فناداهم رسول الله ﷺ : « ألا إن الله عز وجل ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ، فمن كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » .

وقوله : ﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

ومعنى : لا أقسم أن هذا الأمر واضح جَلِيّ وضوحاً لا يحتاج إلى القسم ، ولو كنت مُقسماً لأقسمتُ به ، بدليل قوله :

﴿ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) ﴾ [الواقعة]

إذن : الحق سبحانه يُقسم بذاته ليؤكد لنا الأمر تأكيداً ، وتأكيد الأمر عند الحكم فى القضاء مثلاً : إما بالإقرار ، وإما باليمين .. فإذا ما أقسمت له وحلفتَ فقد سددْتَ عليه منافذ التكذيب .

والحق سبحانه يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ .. (٦٣) ﴾ [النحل]

أى : لستَ بِدْعاً فى أنْ تُكذَّب من قومك ، فهذه طبيعة الذين يستقبلون الدعوة من الله على ألسنة الرسل ؛ لأن الرسل لا يرسلهم الله إلا حينما يطمّ الفساد ويعُم .

ومعنى إرسال الرسل ـ إذن ـ أنه لا حَلَّ إلا أنْ تتدخلَ السماء ؛ ذلك لأن الإنسان فيه مناعات يقينية فى ذاته ، وهى نفسه اللوامة التى تلومه إذا أخطأ وتُعدِّل من سلوكه ، فهى رادع له من نفسه .

فإذا ما تبلَّدتْ هذه النفس ، وتعوَّدتْ على الخطأ قام المجتمع من حولها بهذه المهمة ، فمَنْ لا تُردعه نفسه اللوامة يُردعه المجتمع من حوله .. فإذا ما فسدَ المجتمع أيضاً ، فماذا يكون الحل ؟ الحل أن تتدخل السماء لإنقاذ هؤلاء .

إذن : تتدخل السماء بإرسال الرسل حينما يعُمّ الفسادُ المجتمعَ

كله ؛ ولذلك فأمة محمد ﷺ من شرفها عند ربها أنْ قال لهم : أنتم مأمونون على رعاية منهجي في ذواتكم ، لوّامون لأنفسكم ، آمرون بالمعروف ، ناهون عن المنكر في غيركم ؛ لذلك لن أرسل فيكم رسولاً آخر ، فأنتم سوف تقومون بهذه المهمة .

لذلك قال الحق سبحانه :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ .. (١١٠) ﴾ [آل عمران]

فقد أمن أمة محمد ﷺ على أن تكون حارسة لمنهجه ، إما بالنفس اللوامة ، وإما بالمجتمع الآمر بالمعروف الناهي عن المنكر ، وهذا شرف عظيم لهذه الأمة .

إذن : يأتي الرسول حينما يعُمُّ الفساد .. فما معنى الفساد ؟ .. الفساد : أن تُوجد مصالح طائفة على حساب طائفة أخرى ، فأهل الفساد والمنتفعون به إذا جاءهم رسول ليُخلِّص الناس من فسادهم ، كيف يقابلونه ؟ أيقابلونه بالترحاب ؟ بالطبع لا .. لا بُدَّ وأن يقابلوه بالكراهية والإنكار ، ويعلنوا عليه الحرب دفاعاً عن مصالحهم .

ويُتبع الحق سبحانه هذا بقوله :

﴿ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ .. (٦٣) ﴾ [النحل]

هنا يتدخل الشيطان ، ويُزيِّن لأهل الفساد أعمالهم ، ويحثّهم على محاربة الرسل ؛ فهؤلاء الذين سيقضون على نفوذكم ، سوف يأخذون ما في أيديكم من مُتَع الدنيا ، سوف يهزُّون مراكزكم ،

ويحطُّون من مكانتكم بين الناس .. هؤلاء سوف يرفعون عليكم السِّفْلَة[1] والعبيد ..

وهكذا يتمسَّك أهل الفساد والظلم بظلمهم ، ويعضون عليه بالنواجذ ، ويقفون من الرسل موقف العداء ، فوطِّنْ نفسك على هذا ، فلن تُقابلَ من السادة إلا بالجحود وبالإنكار وبالمحاربة .

ثم يقول تعالى :

﴿ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ .. (٦٣) ﴾ [النحل]

أى : فى الآخرة ، فما دام الشيطان تولاَّهم فى الدنيا ، وزيَّن لهم ، وأغراهم بعداء الرسل ، فلْيتولَّهم الآن ، وليدافع عنهم يوم القيامة .. وقد عرض لنا القرآن الكريم هذا الموقف فى قوله تعالى :

﴿ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (١٦) ﴾ [الحشر]

وفى جدالهم يوم القيامة مع الشيطان يقولون له : أنت أغويتَنا وزيَّنْتَ لنا .. ماذا يقول ؟ يقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

والسلطان هنا : إمّا بالحجة التى تُقنع ، وإما بالقهر والغلبة والقوة التى تفرض ما تريد ، وليس للشيطان شىء من ذلك .. لا يملك حُجة يُقنعك بها لتفعل ، ولا يملك قوة يُجبركَ بها أنْ تفعل وأنت كاره .

---

(١) السفلة : نقيض العِلْية . وهم أراذل الناس وغوغاؤهم . [لسان العرب ـ مادة : سفل] .

وهكذا يجادلهم الشيطان ويردُّ عليهم دعواهم ، فليس له عليكم سلطان ، بل مجرد الإشارة أوقعتْكم فى المعصية .

وفى آية أخرى يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ[1] عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ .. ﴿٤٨﴾ ﴾ [الأنفال]

وقوله :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾ [النحل]

يَصف العذاب هنا بأنه أليم شديد مُهلك ، وقد وصف الله العذاب بأنه أليم ، عظيم ، مُهين ، شديد .. والعذاب شعور بالألم وإحساسٌ به ، وقد توصّل العلماء إلى أن الإحساس كله فى الجلد ؛ لذلك قال الحق سبحانه ليُديمَ على هؤلاء العذاب :

﴿ كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء]

وهكذا يستمر العذاب باستمرار الجلود وتبديلها .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾

(١) نكص : رجع وأحجم بعد إقدام . أى : رجع الشيطان متقهقراً إلى الوراء معلناً براءته من المشركين فى بدر بعد أن أغراهم بالقتال . [القاموس القويم ٢/٢٨٧] .

فالكتاب هو القرآن الكريم .

وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِى اخْتَلَفُوا فِيهِ .. (٦٤) ﴾ [النحل]

دليل على أن أتباع الرسل السابقين نشأ بينهم خلاف ، فأىٌّ خلاف هذا طالما أنهم تابعون لنبى واحد ؟ ما سببه ؟

قالوا : سبب هذا الخلاف ما يُسمُّونه بالسلطة الزمنية .. ولتوضيح معنى السلطة الزمنية نضرب مثلاً بواحد كان شيخاً لطريقة مثلاً ، فلما مات تنازع الخلافة أبناؤه من بعده .. كُلٌّ يريدها له ، وأخذ يجمع حوله مجموعة من أتباع أبيه .. فلو كانت مسألة الخلافة هذه واضحة فى أذهانهم ما حدث هذا الخلاف .

وكذلك السلطة الزمنية حدثت فى أتباع الرسل الذين أخذوا يكتبون الصكوك ، ويذكرون ما يحبون وما يرونه صواباً من وجهة نظرهم ، كل هؤلاء كان لهم نفوذ بما نُسميه السلطة الزمنية .

فكيف - إذن - يتركون محمداً ﷺ يأخذ منهم هذه السلطة ، ويُضيع عليهم ما هم فيه من سيادة ، فقد جاء الرسول ﷺ ليُبيِّن لهم . أى : يردّهم إلى جَادّة الحق ، وإلى الطريق المستقيم .

وقوله تعالى :

﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً .. (٦٤) ﴾ [النحل]

الهدى : معناه بيان الطريق الواضح للغاية النافعة ، والطريق

لا يكون واضحاً إلا إذا خَلا من الصِّعاب والعقبات ، وخلا أيضاً من المخاوف ، فهو طريق واضح مأمون سهل ، وأيضاً يكون قصيراً يُوصِّلك إلى غايتك من أقصر الطرق .

وضد الهدى : الضلال . وهو أنْ يُضلّك ، فإنْ أردتَ طريقاً وجَّهك إلى غيره ، ودلّك على سواه ، أو دلّك على طريق به مخاوف وعقبات .

أما الرحمة ، فقد وصف الحق تبارك وتعالى القرآن بأنه رحمة فقال :

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ..(٨٢) ﴾ [الإسراء]

فكيف يكون القرآن شفاءً ؟ وكيف يكون رحمة ؟

الشفاء : إذا أصابنا داء ربنا سبحانه وتعالى يقول : طبّبوا داءكم وداووا أمراضكم بكذا وكذا ، ورُدُّوا الحكم إلى الله .. هذا شفاء .

أما الرحمة : فهى أن يمنع أن يأتى الداء مرة أخرى ، فتكون وقاية تقتلع الداء من أصله فلا يعود .

ومِثْل هذا يحدث فى عالم الطب ، فقد تذهب إلى طبيب ليُعالجك من داء معين .. بثور فى الجلد مثلاً ، فلا يهتم إلا بما يراه ظاهراً ، ويصف لك ما يداوى هذه البثور .. ثم بعد ذلك تُعاودك مرة أخرى .

أما الطبيب الحاذق الماهر فلا ينظر إلى الظاهر فقط ، بل يبحث عن سببه فى الباطن ، ويحاول أن يقتلع أسباب المرض من جذورها ، فلا تُعاودك مرة أخرى .

ولذلك ، لو نظرنا إلى قصة أيوب ـ عليه السلام ـ وما ابتلاه الله به نرى فيها مثالاً رائعاً لعلاج الظاهر والباطن معاً ، فقد ابتلاه ربُّه ببلاء ظهر أثره على جسمه واضحاً ، ولما أذن له سبحانه بالشفاء قال له :

﴿ارْكُضْ[1] بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص]

(مُغْتَسَلٌ) : أى . يغسل ويُزيل ما عندك من آثار هذا البلاء .

(وَشَرَابٌ) : أى . شراب يشفيك من أسباب هذا البلاء فلا يعود .

وكذلك الحال فى علاج المجتمع ، فقد جاء القرآن الكريم وفى العَالَم فساد كبير ، وداءاتٌ متعددة ، لا بُدَّ لها من منهج لشفاء هذه الداءاتِ ، ثم نعطيها مناعاتٍ تمنع عودة هذه الداءات مرة أخرى .

وقوله تعالى :

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [النحل]

أى : أن هذا القرآن فيه هدى ورحمة لمَنْ آمن بك وبرسالتك ؛ لأن الطبيب الذى ضربناه مثلاً هنا لا يعالج كل مريض ، بل يعالج مَنْ وثق به ، وذهب إليه وعرض عليه نفسه ففحصه الطبيب وعرف علّته .

وهكذا القرآن الكريم يسمعه المؤمن به ، فيكون له هدًى ورحمة ،

---

(١) الركض : الضرب بالرجل وتحريكها . قال تعالى : ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ .. ﴿٤٢﴾﴾ [ص] أى : اضرب بها . [لسان العرب ـ مادة : ركض ، والقاموس القويم ١/ ٢٧٥] .

ويترك فى نفسه إشراقات نورانية تتسامى به وترتفع إلى أعلى الدرجات ، فى حين يسمعه آخر فلا يَعى منه شيئاً ، ويقول كما حكى القرآن الكريم :

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِندِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا (١٦) ﴾ [محمد]

وقال : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ ..(٤٤) ﴾ [فصلت]

﴿ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ[1] وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ..(٤٤) ﴾ [فصلت]

إذن : فالقرآن واحد ، ولكن الاستقبال مختلف .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ينقلنا إلى آية مادية مُحسّة لا ينكرها أحد ، وهى إنزال المطر من السماء ، وإحياء الأرض الميتة بهذا المطر ؛ ليكون ذلك دليلاً محسوساً على قدرته تعالى ، وأنه مأمون على خَلْقه .

وكأنه سبحانه يقول لهم : إذا كنتُ أنا أعطيكم كذا وكذا ، وأوفّر لكم الأمر المادى الذى يفيد عنايتى بكم ، فإذا أنزلتُ لكم منهجاً ينفعكم ويُصلح أحوالكم فصدّقوه .

---

(١) الوقر : ثقل فى السمع أو صمم . [القاموس القويم ٢/٣٥٠] ومعناه فى الآية أنهم لا يفهمون ما فيه كأن فى آذانهم صمماً أو ثقلاً فى السمع . [انظر ابن كثير ٤/١٠٣] .

فهذا دليل مادىّ مُحَسّ يُوصِّلهم إلى تصديق المنهج المعنوى الذى جاء على يد الرسول ﷺ فى قوله تعالى :

﴿ ونُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ .. (٨٢) ﴾ [الإسراء]

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. (٦٥) ﴾ [النحل]

.. آية كونية مُحسَّة لا ينكرها أحد .

ثم يقول : ﴿ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا (٦٥) ﴾ [النحل]

موت الأرض ، أى حالة كَوْنها جدباء مُقفرة لا زرعَ فيها ولا نبات ، وهذا هو الهلاك بعينه بالنسبة لهم ، فإذا ما أجدبتْ الأرض استشرفوا لسحابة ، لغمامة ، وانتظروا منها المطر الذى يُحيى هذه الأرض الميتة .. يُحييها بالنبات والعُشْب بعد أنْ كانت هامدة ميتة .

فلو قبض ماء السماء عن الأرض لَمُتُّمْ جوعاً ، فخذوا من هذه الآية المحسَّة دليلاً على صدق الآية المعنوية التى هى منهج الله إليكم على يد رسوله ﷺ ، فكما أمنْتَنى على الأولى فأمِّنِّى على الثانية .

وقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾ [النحل]

مع أن هذه الآية تُرَى بالعين ولا تُسْمع ، قال القرآن :

﴿ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥) ﴾ [النحل]

.. لماذا ؟

قالوا : لأن الله سبحانه أتى بهذه الآية ليلْفتَهم إلى المنهج الذى سيأتيهم على يد الرسول ﷺ ، وهذا المنهجَ سَيُسمع من الرسول المبلّغ لمنهج الله .

ومثال ذلك أيضاً فى قوله تعالى :

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا[١] إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلا تَسْمَعُونَ (٧١) ﴾ [القصص]

فالضياء يُرى لا يُسمع .. لكنه قال : ﴿ أَفَلا تَسْمَعُونَ ﴾ لأنه يتكلم عن الليل ، ووسيلة الإدراك فى الليل هى السمع .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ[٢] وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦) ﴾

الكون الذى خلقه الله تعالى فيه أجناس متعددة ، أدناها الجماد المتمثل فى الأرض والجبال والمياه وغيرها ، ثم النبات ، ثم الحيوان ، ثم الإنسان .

وفى الآية السابقة أعطانا الحق ـ تبارك وتعالى ـ نموذجاً للجماد الذى اهتزّ بالمطر وأعطانا النبات ، وهنا تنقلنا هذه الآية إلى جنس أعلى وهو الحيوان .

﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ..(٦٦) ﴾ [النحل]

---

(١) السرمد : دوام الزمان من ليل أو نهار . والسرمد : الدائم الذى لا ينقطع . [لسان العرب ـ مادة : سرمد] .

(٢) الفرث : ما فى الكرش من طعام مهضوم متغير كريه الرائحة . [القاموس القويم ٢/٧٤] .

المقصود بالأنعام : الإبل والبقر والغنم والماعز ، وقد ذُكِرتْ فى سورة الأنعام فى قوله تعالى :

﴿ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَمِنَ الإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ..(١٤٤)﴾ [الأنعام]

هذه هى الأنعام .

وقوله سبحانه : ﴿لَعِبْرَةً﴾ العِبْرة : الشىء الذى تعتبرون به ، وتستنتجون منه ما يدلكم على قدرة الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وتأخذون من هذه الأشياء دليلاً على صِدْق منهجه سبحانه فتصدقونه .

ومن معانى العبرة : العبور والانتقال من شىء لآخر .. أى : أن تأخذ من شىء عبرة تفيد فى شىء آخر . ومنها العَبْرة (الدمعة) ، وهى : شىء دفين نبهْتَ عنه وأظهرتَهُ .

والمراد بالعبرة فى خلق الأنعام :

﴿ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ (٦٦)﴾ [النحل]

مادة : سقى جاءت فى القرآن مرة « سقىٰ » . ومرة « أسْقى » ، وبعضهم[1] قال : إن معناهما واحد ، ولكن التحقيق أن لكل منهما

---

(١) من هؤلاء ابن منظور فى لسان العرب ـ مادة : سقى . قال : وفى القرآن : ﴿وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا .. (٤٩)﴾ [الفرقان] من سقى ، ونُسقيه من أسْقى . وهما لغتان بمعنى واحد .

معنًى ، وإن اتفقا في المعنى العام[1] .

سقى : كما في قوله تعالى :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان]

أي : أعطاهم ما يشربونه .. ومضارعه يَسقى . ومنها قوله تعالى في قصة موسى عليه السلام :

﴿ فَسَقَىٰ لَهُمَا .. ﴿٢٤﴾ ﴾ [القصص]

أما أسقى : كما في قوله تعالى :

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الحجر]

فمعناه أنه سبحانه أنزل الماء من السماء لا يشربه الناس في حال نزوله ، ولكن ليكون في الأرض لمن أراد أنْ يشربَ .. فالحق تبارك وتعالى لم يفتح أفواه الناس أثناء نزول المطر ليشربوا منه .. لا .. بل هو مخزون في الأرض لمن أراده . والمضارع من أسْقى : يُسقى .

إذن : هناك فَرْق بين الكلمتين ، وإنِ اتفقتا في المعنى العام .. وفرْق بين أن تُعطى ما يُستفَادُ منه في ساعته ، مثل قوله :

﴿ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الإنسان]

وبين أنْ تعطى ما يمكن الاستفادة منه فيما بعد كما في قوله :

---

(١) قاله الفراء فيما نقله عنه ابن منظور في اللسان : العرب تقول لكل ما كان من بطون الأنعام ومن السماء أو نهر يجري لقوم « أسقيت » ، فإذا سقاك ماء لشفتك قالوا « سقاه » ولم يقولوا : أسقاه . [لسان العرب ـ مادة : سقى] .

﴿ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ..(٢٢) ﴾ [الحجر]

لذلك يقولون : إن الذى يصنع الخير قد يصنعه عاجلاً ، فيعطى المحتاج مثلاً رغيفاً يأكله ، وقد يصنعه مُؤجّلاً فيعطيه ما يساعده على الكسْب الدائم ليأكل هو متى يشاء من كسْبه .

والحق ـ تبارك وتعالى ـ أعطانا هذه الفكرة فى سورة الكهف ، فى قصة ذى القرنين ، قال تعالى :

﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً (٩٣) ﴾ [الكهف]

فما داموا لا يفقهون قَوْلاً .. فكيف تفاهم معهم ذو القرنين ، وكيف قالوا :

﴿ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا[1] عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) ﴾ [الكهف]

نقول : الذى يريد أن يفعل الخير والمعروف يسعى إليه ويحتال للوصول إليه وكأنه احتال أنْ يفهمهم ، وصبر عليهم حتى توصّل إلى طريقة للتفاهم معهم ، فى حين أنه كان قادراً على ترْكهم والانصراف عنهم ، وحُجّته أنهم لا يفقهون ولا يتكلمون .

فلما أراد ذو القرنين أن يبنى لهم السد لم يَبْنِ هو بنفسه ، بل علَّمهم كيف يكون البناء ، حتى يقوموا به بأنفسهم متى أرادوا ، ولا يحتاجون إليه .. فقال :

---

(١) الخَرْج والخراج : ما يخرجه صاحب المال للعامل عنده من الأجر جزاء عمله أو ما يُخرجه من الزكاة للإمام . [القاموس القويم ١/١٨٩] .

﴿آتُونِي زُبَرَ[1] الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾﴾ [الكهف]

إذن : علَّمهم وأحسن إليهم إحساناً دائماً لا ينتهى .

وقوله : ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ ..﴿٦٦﴾﴾ [النحل]

أى : مما فى بطون الأنعام ، فقد ذكَّر الضمير فى (بطونه) باعتبار إرادة الجنس .

وقد أراد الحق سبحانه أن يخرج هذا اللبن :

﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا ..﴿٦٦﴾﴾ [النحل]

والفَرْث فى كرش الحيوان من فضلات طعامه .

فالعبرة هنا أن الله تعالى أعطانا من بين الفَرْث ، وهو رَوَثُ الأنعام وبقايا الطعام فى كرشها ، وهذا له رائحة كريهة ، وشكل قذر مُنفِّر ، ومن بين دم ، والدم له لونه الأحمر ، وهو أيضاً غير مُسْتساغ ؛ ومنهما يُخرِج لنا الخالق سبحانه لبناً خالصاً من الشوائب نقياً سليماً من لون الدم ورائحة الفَرْث .

ومَنْ يقدر على ذلك إلا الخالق سبحانه ؟

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله واصفاً هذا اللبن :

﴿لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [النحل]

---

(١) زُبر الحديد : قطعه . الصدفان : الجبلان وقيل : ما بينهما . أى : وضع بعضه على بعضه من الأساس حتى إذا حاذى به رءوس الجبلين طولاً وعرضاً قال انفخوا . والقطر : النحاس المذاب . [قاله فى تفسير ابن كثير ٣/١٠٤] .

أى : يسيغه شاربه ويستلذّ به ، ولا يُغَصّ به شاربه ، بل هو مُستْساغ سَهْل الانزلاق أثناء الشُّرْب ؛ لأن من الطعام أو الشراب ما يحلو لك ويسُوغ وتهنأ به ، ولكنه قد لا يكون مريئاً .

ولذلك ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾ ﴾ [النساء]

هنيئاً أى : تستلذّون به ، ومريئاً : أى نافعاً للجسم ، يمرى عليك ؛ لأنك قد تجد لذة فى شىء أثناء أكْله أو شُرْبه ، ثم يسبِّب لك متاعب فيما بَعْد ، فهو هَنِىءٌ ولكنه غير مَرِىء .

فاللبن من نعَم الله الدالة على قدرته سبحانه ، وفى إخراجه من بين فَرْث ودم عبرة وعظَة ، وكأن الحق سبحانه يعطينا هذه العبرة لينقلنا من المعنى الحسىِّ الذى نشاهده إلى المعنى القيمىّ فى المنهج ، فالذى صنع لنا هذه العبرة لإصلاح قالبنا قادرٌ على أن يصنعَ لنا من المنهج ما يُصلِح قلوبنا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾

ثمرات النخيل هى : البلح . والأعناب هو : العنب الذى نُسمّيه الكَرْم . والتعبير القرآنى هنا وإن امتنَّ على عباده بالرزق الحسن ، فإنه لا يمتنّ عليهم بأن يتخذوا من الأعناب سكراً : أى مُسْكراً ، ولكن يعطينا الحق سبحانه هنا عبرةً فقد نزلتْ هذه الآيات قبل تحريم الخمر .

وكأن الآية تحمل مُقدّمة لتحريم الخمر الذى يستحسنونه الآن ويمتدحونه ؛ ولذلك يقول العلماء : إن الذى يقرأ هذه الآية بفطنة المستقْبِل عن الله يعلم أن لله حُكْماً فى السكّر سيأتى .

كيف توصّلوا إلى أن لله تعالى حُكْماً سيأتى فى السكّر ؟

قالوا : لأنه قال فى وصف الرزق بأنه حسن ، فى حين لم يَصِفْ السكّر بأنه حسن ، فمعنى ذلك أنه ليس حسناً ؛ ذلك لأننا نأكل ثمرات النخيل (البلح) كما هو ، وكذلك نأكل العنب مباشرة دون تدخُّل مِنّا فيما خلق الله لنا .

أما أنْ نُغيّر من طبيعته حتى يصير خمراً مُسْكراً ، فهذا إفساد فى الطبيعة التى اختارها الله لنا لتكون رزقاً حَسناً .

وكأنه سبحانه يُنبّه عباده ، أنا لا أمتنُّ عليكم بما حرَّمْتُ ، فأنا لم أُحرِّمه بَعْد ، فاجعلوا هذا السكّر ـ كما ترونه ـ متعةً لكم ، ولكن خذوا منه عبرة أنِّى لم أصفْه بالحُسْن ؛ لأنه إنْ لم يكُنْ حَسَناً فهو قبيح ، فإذا ما جاء التحريم فقد نبهتكم من بداية الأمر .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [النحل]

لأن العقل يقتضى أنْ نُوازنَ بين الشيئين ، وأن نسأل : لماذا لم يوصف السكّر بأنه حَسَن ؟ .. أليس معناه أن الله تعالى لا يحب هذا الأمر ولا يرضاه لكم ؟

إذن : كأن فى الآية نِيّة التحريم ، فإذا ما أنزل الله تحريم الخمر كان هذا تمهيداً له .

والآية هى : الأمر العجيب الذى يُنبئكم أن الله الذى خلق لكم هذه الأشياء لسلامة مبانيكم وقوالبكم المادية ، قادر ومأمون على أن يُشرِّع لكم ما يضمن سلامة معانيكم وقلوبكم القيمية الروحية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾

النحل خَلْق من خَلْق الله ، وكل خَلْق لله أودع الله فيه وفى غرائزه ما يُقيم مصالحه ، يشرح ذلك قوله تعالى :

﴿ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعلى]

أى : خلق هذه كذا ، وهذه كذا حَسْب ما يتناسب مع طبيعته ؛ ولذلك تجد ما دون الإنسان يسير على منهج لا يختلف .. فالإنسان مثلاً قد يأكل فوق طاقته ، وقد يصل إلى حَدِّ التُّخْمة ، ثم بعد ذلك يشتكى مرضاً ويطلب له الدواء .

أما الحيوان فإذا ما أكل وجبته ، وأخذ ما يكفيه فلا يزيد عليه أبداً ، وإنْ أجبرته على الأكل ؛ ذلك لأنه محكوم بالغريزة الميكانيكية ، وليس له عقل يختار به .

وضربنا مثلاً للغريزة فى الحيوان بالحمار الذى يتهمونه دائماً ويأخذونه مثلاً للغباء ، إذا سُقْتَه ليتخطى قناة ماء مثلاً وجدته ينظر إليها وكأنه يقيس المسافة بدقة .. فإذا ما وجدها فى مقدوره قفزها دون تردد ، وإذا وجدها فوق طاقته ، وأكبر من قدرته تراجع

ولم يُقدِم عليها ، وإنْ ضربتَه وصِحْتَ به .. فلا تستطيع أبداً إجباره على شيء فوق قدرته .

ذلك لأنه محكوم بالغريزة الآلية التى جعلها الله سبحانه فيه ، على خلاف الإنسان الذى يفكر فى مثل هذه الأمور ليختار منها ما يناسبه ، فهذه تكون كذا ، وهذه تكون كذا ، فنستطيع أن نُشبِّه هذه الغريزة فى الحيوان بالعقل الألكترونى الذى لا يعطيك إلا ما غذَّيْته به من معلومات .. أما العقل البشرى الربانى فهو قادر على التفكير والاختيار والمفاضلة بين البدائل .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ.. ﴿٦٨﴾ ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى قد يمتنّ على بعض عباده ويُعلِّمهم لغة الطير والحيوان ، فيستطيعون التفاهم معه ومخاطبته كما فى قصة سليمان عليه السلام(١) .. والله سبحانه الذى خلقها وأبدعها يُوحِى إليها ما يشاء .. فما هو الوحى ؟

الوحى : إعلام من مُعْلِم أعلى لمُعْلَم أدنى بطريق خفىّ لا نعلمه نحن ، فلو أعلمه بطريق صريح فلا يكون وَحْياً .

فالوَحْى إذنْ يقتضى : مُوحِياً وهو الأعلى ، ومُوحَىً إليه وهو الأدْنى ، ومُوحًى به وهو المعنىّ المراد من الوَحْى

---

(١) يقول الحق سبحانه : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ .. ﴿١٦﴾ ﴾ [النمل] وقد قال تعالى عن سليمان وجنوده : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل].

والحق ـ تبارك وتعالى ـ له طلاقة القدرة فى أنْ يُوحى ما يشاء لما يشاء من خَلْقه .. وقد أوحى الحق سبحانه وتعالى إلى الجماد فى قوله تعالى :

﴿ إذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ② وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا ③ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ④ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ⑤ ﴾ [الزلزلة]

أعلمها بطريق خفىّ خاص بقدرة الخالق فى مخلوقه .

وهنا أوحى سبحانه إلى النحل .

وأوحى الله إلى الملائكة :

﴿ إذْ يُوحِى رَبُّكَ إلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا .. ⑫ ﴾ [الأنفال]

وأوحى إلى الرسل :

﴿ إنَّا أَوْحَيْنَا إلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِه وَأَوْحَيْنَا إلَىٰ إبْرَاهِيمَ وَإسْمَاعِيلَ وَإسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ .. ⑯③ ﴾ [النساء]

وأوحى إلى المقربين من عباده :

﴿ وَإذْ أَوْحَيْتُ إلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِى وَبِرَسُولِى .. ⑪① ﴾ [المائدة]

وقد أوحى إليهم بخواطر نورانية تمرُّ بقلوبهم

وأوحى سبحانه إلى أم موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ..(٧) ﴾ [القصص]

هذا هو وَحْى الله إلى ما يشاء من خَلْقه : إلى الملائكة ، إلى الأرض ، إلى الرسل ، إلى عباده المقرّبين ، إلى أم موسى ، إلى النحل .. إلخ .

وقد يكون الوحى من غيره سبحانه ، ويُسمَّى وَحْياً أيضاً ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ ..(١٢١) ﴾ [الأنعام]

وقوله : ﴿ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ..(١١٢) ﴾ [الأنعام]

لكن إذا أُطلقَتْ كلمة (الوَحْى) مُطْلقاً بدون تقييد انصرفتْ إلى الوحى من الله إلى الرسل ؛ لذلك يقول علماء الفقه : الوحى هو إعلامُ الله نبيه بمنهجه ، ويتركون الأنواع الأخرى : وَحْى الغرائز ، وَحْى التكوين ، وَحْى الفطرة .. إلخ .

وقوله : ﴿ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ﴾ [النحل]

كثير من الباحثين شغوفون بدراسة النحل ومراحل حياته منذ القدَم ، ومن هؤلاء باحث تتبّع المراحل التاريخية للنحل ، فتوصّل إلى أنَ النحل أول ما وُجد عاش فى الجبال ، ثم اتخذ الشجر ، وجعل فيها أعشاشه ، ثم اتخذ العرائش التى صنعها له البشر ، وهى ما نعرفه الآن باسم الخلية الصناعية أو المنحل ، ووَجْه العجب هنا أن هذا الباحث لا يعرف القرآن الكريم ، ومع ذلك فقد تطابق ما ذهب إليه مع القرآن تمام التطابق .

وكذلك توصَّل إلى أن أقدمَ أنواع العسل ما وُجِد فى كهوف الجبال ، وقد تَوصَّلوا إلى هذه الحقيقة عن طريق حَرْق العسل وتحويله إلى كربون ، ثم عن طريق قياس إشعاع الكربون يتم التوصّل إلى عمره .. وهكذا وجدوا أن عسل الكهوف أقدم أنواع العسل ، ثم عسل الشجر ، ثم عسل الخلايا والمناحل .

إذن : أوحى الله تعالى إلى النحل بطريق خفىّ لا نعلمه نحن ، وعملية الوحى تختلف باختلاف الموحِى والموحَى إليه ، ويمكن أنْ نُمثّل هذه العملية بالخادم الفَطِن الذى ينظر إليه سيده مُجرد نظرة فيفهم منها كل شىء : أهو يريد الشراب ؟ أم يريد الطعام ؟ أم يريد كذا ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا(١) يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾

علّة كَوْن العسل فيه شفاء للناس أنْ يأكلَ النحل من كُلّ الثمرات ؛ ذلك لأن تنوُّع الثمرات يجعل العسل غنيّاً بالعناصر النافعة ، فإذا ما تناوله الإنسان ينصرف كل عنصر منه إلى شىء فى الجسم ، فيكون فيه الشفاء بإذن الله .

ولكن الآن ماذا حدث ؟ نرى بعض الناس يقول : أكلتُ كثيراً من

(١) ذللاً : أى ممهدة للنحل ليجمع العسل منها . [القاموس القويم ١/٢٤٥] .

العسل ، ولم أشعر له بفائدة .. نقول : لأننا تدخّلنا فى هذه العملية ، وأفسـدنا الطبيعة الـتى خلقها الله لنا .. فـالأصل أن نتركَ النحل يأكل من كُلّ الثـمَرات .. ولكن الحـاصل أننا نضع له السكر مثـلاً بدلاً من الزَّهْر والنوار الطبيعى ، ولذلك تغيّـر طَعْم العسل ، ولم تَعُدْ له مَيْزته التى ذكرها القرآن الكريم .

لذلك ؛ فالمتتبع لأسعار عسل النحل يجد تفاوتاً واضحاً فى سعره بين نوع وآخـر ، ذلك حَسْب جـودته ومـدى مطابقتـه للطبـيعـة التى حكاها القرآن الكريم .

والحق سبحانه يقول :

﴿فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً.. (٦٩)﴾ [النحل]

أى : تنقّلى حُـرّة بين الأزهار هنا وهناك ؛ ولذلك لا نسـتطيع أنْ نبنىَ للنحل بيـوتاً يقيم فيـها ، لا بُدّ له من التنقُّل من بستـان لآخر ، فإذا مـا جَفَّتْ الـزراعات يتـغذّى النحل من عـسله ، ولكن الناس الآن يأخـذون العسل كله لا يتـركـون له شيـئاً ، ويضـعـون مكانه السكر ليتغذّى منه طوال هذه الفترة .

وقوله تعالى : ﴿ذُلُلاً.. (٦٩)﴾ [النحل]

أى : مُذلَّلة مُمهّدة طيِّعـة ، فتخرج النحلة تسعى فى هذه السُّبل ، فـلا يردها شىء ، ولا يمنعـهـا مـانع ، تطـير هـنا وهناك من زهرة لأخرى ، وهل رأيت شـجرة مثلاً رَدَّتْ نحلة ؟!.. لا .. قـد ذَلَّلَ الله لها حياتها ويسَّرها .

ومن حكمته تعالى ورحمته بنا أنْ ذلَّلَ لنا سُبُل الحياة .. وذلَّل لنَا ما ننتفع به ، ولولا تذليله هذه الأشياء ما انتفعنا بها .. فنرى الجمل الضخم يسوقه الصبى الصغير ، ويتحكّم فيه يُنيخه ، ويُحمّله الأثقال ، ويسير به كما أراد ، فى حين أنه إذا ثار الجمل أو غضب لا يستطيع أحدٌ التحكم فيه .. وما تحكّم فيه الصبى الصغير بقوته ، ولكن بتذليل الله له .

أما الثعبان مثلاً فهو على صِغَر حجمه يمثّل خطراً يفزع منه الجميع ويهابون الاقتراب منه ، ذلك لأن الله سبحانه لم يُذلّله لنا ، فأفزعنا على صِغَر حجمه .. كذلك لو تأملنا البرغوث مثلاً .. كم هو صغير حقير ، ومع ذلك يقضّ مضاجعنا ، ويحرمنا لذة النوم فى هدوء .. فهل يستطيع أحدٌ أنْ يُذلّل له البرغوث ؟!

وفى ذلك حكمة بالغة وكأن الحق سبحانه يقول لنا : إذا ذللتُ لكم شيئاً ، ولو كان أكبر المخلوقات كالجمل والفيل تستطيعون الانتفاع به ، وإنْ لم أُذلّله لكم فلا قدرة لكم على تذليله مهما كان حقيراً صغيراً .. إذن : الأمور ليست بقدرتك ، ولكن خُذْها كما خلقها الله لك .

﴿ يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا ..(٦٩) ﴾ [النحل]

ذلك أن النحلة تمتصّ الرحيق من هنا ومن هنا ، ثم تتم فى بطنها عملية طَهْى ربانية تجعل من هذا الرحيق شَهْداً مُصفًّى ؛ لأنه قد يظن أحدهم أنها تأخذ الرحيق ، ثم تتقيؤه كما هو .. فلم يَقُلْ القرآن : من أفواهها ، بل قال : من بطونها .. هذا المعمل الإلهى الذى يعطينا عسلاً فيه شفاء للناس .

﴿ شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ .. (٦٩) ﴾ [النحل]

ما دام النحل يأكل من كُلِّ الثمرات ، والثمرات لها عطاءاتٌ مختلفة باختلاف مادتها ، واختلاف ألوانها ، واختلاف طُعُومها وروائحها .. إذن : لا بُدَّ أن يكون شراباً مختلفاً ألوانه .

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ .. (٦٩) ﴾ [النحل]

لذلك وجدنا كثيراً من الأطباء ، جزاهم الله خيراً يهتمون بعسل النحل ، ويُجرْون عليه كثيراً من التجارب لمعرفة قيمته الطبية ، لكن يعوق هذه الجهود أنهم لا يجدون العسل الطبيعى كما خلقه الله .

ومع ذلك ومع تدخّل الإنسان فى غذاء النحل بقيت فيه فائدة ، وبقيت فيه صفة الشفاء ، وأهمها امتصاص المائية من الجسم ، وأىّ ميكروب تريد أنْ تقضىَ عليه قُمْ بامتصاص المائية منه يموت فوراً .

فإذا ما توفَّر لنا العسل الطبيعى الذى خلقه الله تجلَّتْ حكمة خالقه فيه بالشفاء ، ولكن إذا تدخّل الإنسان فى هذه العملية أفسدها .. فالكون كله الذى لا دَخْلَ للإنسان فيه يسير سَيْراً مستقيماً لا يتخلّف ، كالشمس والقمر والكواكب .. إلخ إلا الإنسان فهو المخلوق الوحيد الذى يخرج عن منهج الله .

فالشىء الذى لك دَخْلٌ فيه ، إما أنْ تتدخّل فيه بمنهج خالقه أو تتركه ؛ لأنك إذا تدخلْتَ فيه بمنهج خالقه يعطيك السلامة والخير ، وإنْ تدخلْتَ فيه بمنهجك أنت أفسدتَه .

والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١) ﴾ [البقرة]

إنهم لا يعرفون .. لا يُفرِّقون بين الفساد والصلاح .

وفى القرآن أمثلة للناس الذين يُفسِدون فى الأرض ويحسَبون أنهم يُحسِنون صُنْعاً ، يقول تعالى :

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) ﴾ [الكهف]

فالذى اخترع السيارة وهذه الآلات التى تنفث سمومها وتُلوِّث البيئة التى خلقها الله .. صحيح وفَّر لنا الوقت والمجهود فى الحمل والتنقُّل ، ولكن انظر إلى ما أصاب الناس من عَطَبٍ بسبب هذه الآلات .. انظر إلى عوادم السيارات وآثارها على صحة الإنسان .

كان يجب على مخترع هذه الآلات أنْ يوازنَ بين ما تؤديه من منفعة وما تُسبِّبه من ضرر ، وأضف إلى الأضرار الصحية ما يحدث من تصادمات وحوادث مُروِّعة تزهق بسببها الأرواح .. وبالله هل رأيت أن تصادمَ جملان فى يوم من الأيام .. فلا بُدَّ إذن أن نقيسَ المنافع والأضرار قبل أنْ نُقدِم على الشيء حتى لا نُفسِد الطبيعة التى خلقها الله لنا .

وقوله تعالى :

﴿ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ .. (٦٩) ﴾ [النحل]

الناس : جَمْعٌ مختلفُ الداءات باختلاف الأفراد وتعاطيهم لأسباب

الداءات ، فكيف يكون فى هذا الشراب شفاءٌ لجميع الداءات على اختلاف أنواعها ؟.. نقول : لأن هذا الشراب الذى أعدَّه الله لنا بقدرته سبحانه جاء مختلفاً ألوانه .. من رحيق مُتعدِّد الأنواع والأشكال والطُّعوم والعناصر .. ليس مزيجاً واحداً يشربه كل الناس ، بل جاء مختلفاً متنوعاً باختلاف الناس ، وتنوّع الداءات عندهم .. وكأن كل عنصر منه يُداوى داءً من هذه الدَّاءات .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ [النحل]

التفكّر : أنْ تُفكّر فيما أنت بصدده لتستنبطَ منه شيئاً لستَ بصدده ، وبذلك تُثرى المعلومات ؛ لأن المعلومات إذا لم تتلاقح ، إذا لم يحدث فيها توالد تقف وتتجمّد ، ويُصاب الإنسان بالجمود الطموحى ، وإذا أصيب الإنسان بهذا الجمود توقّف الارتقاء ؛ لأن الارتقاءات التى نراها فى الكون هى نتيجة التفكُّر وإعمال العقل .

لذلك فالحق سبحانه يُنبِّهنا حينما نمرُّ على ظاهرة من ظواهر الكون ، ألاّ نمر عليها غافلين مُعرضين ، بل نفكر فيها ونأخذها بعين الاعتبار .. يقول تعالى :

﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [يوسف]

ففى الآية حَثٌّ على التفكّر فى ظواهر الكون ، وفيها تحذير من الإعراض والغفلة عن آيات الله ، فبالفكر نستنبط من الكون ما نستفيد به .

ولو أخذنا مثلاً الذى اخترع الآلة البخارية .. كيف توصل إلى هذا الاختراع الذى أفاد البشرية ؟ نجد أنه توصل إليه حينما رأى القِدْر الذى يغلى على النار يرتفع غطاؤه مع بخار الماء المتصاعد أثناء الغليان .. فسأل نفسه : لماذا يرتفع الغطاء ؟ واستعمل عقله وأعمل تفكيره حتى توصّل إلى قوة البخار المتصاعد ، واستطاع توظيف هذه القوة فى تسيير ودفع العربات .

وكذلك أرشميدس - وغيره كثيرون - توصلوا بالاعتبار والتفكُّر فى ظواهر الكون ، إلى قوانين فى الطبيعة أدت إلى اختراعات نافعة نتمتع نحن بها الآن ، فالذى اخترع العجلة ، كم كانت مشقة الإنسان فى حَمْل الأثقال ؟ وما أقصى ما يمكن أنْ يحمله ؟ فبعد أنْ اخترعوا العجلات واستُخدِمت فى الحمل تمكّن الإنسان من حَمْل وتحريك أضعاف أضعاف ما كان يحمله .

الذى اخترع خزانات المياه .. كم كانت المشقة فى استخراج الماء من البئر ؟ أو من النهر ؟ فبعد عمل الخزانات وضَخِّ المياه أصبحنا نجد الماء فى المنازل بمجرد فَتْح الصنبور .

هذه كلها ثمرات العقل حينما يتدبّر ، وحينما يُفكّر فى ظواهر الكون ، ويستخدم المادة الخام التى خلقها الله وحثّنا على التفكّر فيها والاستنباط منها .. وكأن الحق سبحانه يقول لنا : لقد أعطيتكم ضروريات الحياة ، فإنْ أردتُم ترفَ الحياة وكمالياتها فاستخدموا نعمة العقل والتفكير والتدبّر لتصلوا إلى هذه الكماليات .

وهنا الحق سبحانه يلفتنا لَفْتةً أخرى .. وهى أنه سبحانه يجعل

من المحسّات ما يُقرّب لنا المعنويّات ليلفتنا إلى منهجه سبحانه ؛ ولذلك ينقلنا هذه النَّقْلة من المحسوس إلى المعنوى ، فيقول تعالى :

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ[1] لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ ﴾

قوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل]

هذه حقيقة لا يُنكرها أحد ، ولم يَدّعها أحدٌ لنفسه ، وقد أمدّكم بمقوِّمات حياتكم فى الأرض والنبات والحيوان ، الأنعام التى تعطينا اللبن صافياً سليماً سائغاً للشاربين ، ثم النحل الذى فيه شفاء للناس .

فالحق سبحانه أعطانا الحياة ، وأعطانا مُقوِّمات الحياة ، وأعطانا ما يُزيل معاطبَ الحياة .. وما دُمْتم صدَّقتم بهذه المحسَّات فاسمعوا :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .. ﴿٧٠﴾ ﴾ [النحل]

وساعة أن نسمع (خلقكم) ، فنحن نعترف أن الله خلقنا ، ولكنْ كيف خلقنا ؟ هذه لا نعرفها نحن ؛ لأنها ليستْ عملية معملية .. فالذى

---

(١) أرذل العمر : هو الذى يَخْرف من الكِبَر حتى لا يعقل ، وبيَّنه بقوله : ﴿ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا .. ﴿٥﴾ ﴾ [الحج] . [لسان العرب - مادة : رذل] . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : أرذل العمر : خمس وسبعون سنة [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ١٤٦/٥] .

خلق هو الحق سبحانه وحده ، وهـو الذى يُخبرنا كيف خلق .. أما أنْ يتدخَّل الإنسان ويُقحِمَ نفسه فى مسألة لا يعرفُها ، فنرى مَنْ يقول : إن الإنســان أَصلْه قـرد .. إلى آخـر هذا الهُـراء الذى لا أَصْـلَ له فى الحقيقة .

ولذلك ، فـالحق سبـحانه يـقول لنا : إذا أردتُمْ أنْ تعـرفوا كـيف خُلِقْـتُم فاسـمعـوا مِمَّنْ خلقكم .. إياكم أنْ تسـمعـوا من غيـره ؛ ذلك لأنني :

﴿ مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَـٰوَاتِ والأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ ..(٥١) ﴾
[الكهف]

هذه عملية لم يُطلع الله عليها أحداً :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

أى : ما اتخذتُ مساعداً يعاونني فى مسألة الخَلْق .

ومـا هو المـضلّ ؟ المـضِلّ هو الذى يـقول لـك الكلام على أنه حقيقة ، وهو يُضلُّك .

إذن : ربنا سـبحانه وتعـالى هنا يعطينا فكرة مُـقدّمـاً : احذروا ، فسـوف يأتى أناس يُضلونكم فى موضـوع الخَلْق ، وسوف يُغـيِّرون الحقيقة ، فإياكم أنْ تُصدِّقوهم ؛ لأنهم ما كانوا معى وقت أنْ خلقتكم فيدَّعُون العلم بهذه المسألة .

ونفس هذه القـضيـة فى مـسألة خَلْق السـموات والأرض ، فـالله سبحانه هو الذى خلقهما ، وهو سبحانه الذى يُخبرنا كيف خلق .

فحين يقول سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ..(٧٠) ﴾ [النحل]

فعلينا أن نقولَ : سَمْعاً وطاعة ، وعلى العين والرأس .. يا ربِّ أنت خلقتنا ، وأنت تعلم كيف خلقتنا ، ولا نسأل فى هذا غيرك ، ولا نُصدِّق فى هذا غير قَوْلك سبحانك .

ثم يقول تعالى :

﴿ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ..(٧٠) ﴾ [النحل]

أى : منه سبحانه كان المبدأ ، وإليه سبحانه يعود المرجع .. وما دام المبدأ من عنده والمرجع إليه ، وحياتك بين هذين القوسين ؛ فلا تتمرد على الله فيما بين القوسين ؛ لأنه لا يليق بك ذلك ، فأنت منه وإليه .. فلماذا التمرد ؟

ربُّنا سبحانه وتعالى هنا يُعطينا دليلاً على طلاقة قدرته سبحانه فى أمر الموت ، فالموت ليس له قاعدة ، بل قد يموت الجنين فى بطن أمه ، وقد يموت وهو طفل ، وقد يموت شاباً أو شيخاً ، وقد يُرَدُّ إلى أرذلِ العُمر ، أى : يعيش عمراً طويلاً .. وماذا فى أرذل العمر ؟!

يُرَدُّ الإنسان بعد القوة والشباب ، بعد المهابة والمكان ، بعد أنْ كان يأمر وينهى ويسير على الأرض مُخْتالاً ، يُرَدُّ إلى الضَّعْف فى كل شىء ، حتى فى أَمْيز شىء فى تكوينه ، فى فكره ، فبعد العِلْم والحفْظ وقوة الذاكرة يعود كالطفل الصغير ، لا يذكر شيئاً ولا يقدر على شىء .

ذلك لتعلم أن المسألة ليست ذاتيةً فيك ، بل موهوبة لك من خالقك سبحانه ، ولتعلم أنه سبحانه حينما يقضى علينا بالموت فهذا رحمة بنا وستْر لنا من الضعف والشيخوخة ، قبل أن نحتاج لمن يساعدنا ويُعينُنا على أبسط أمور الحياة ويأمر فينا مَنْ كُنّا نأمره .

ومن هنا كان التوفّى نعمةً من نِعَم الله علينا ، ولكى تتأكد من هذه الحقيقة انظر إلى مَنْ أمدّ الله فى أعمارهم حتى بلغوا ما سماه القرآن « أرذل العمر » وما يعانونه من ضعف وما يعانيه ذووهم فى خدمتهم حتى يتمنى له الوفاة أقرب الناس إليه .

الوفاة إذن نعمة ، خاصة عند المؤمن الذى قدّم صالحاً يرجو جزاءه من الله ، فتراه مُستبشراً بالموت ؛ لأنه عمّر آخرته فهو يُحب القدوم عليها ، على عكس المسرف على نفسه الذى لم يُعِدّ العُدّة لهذا اليوم ، فتراه خائفاً جَزِعاً لعلمه بما هو قادم عليه .

و (ثُمَّ) حَرْف للعطف يفيد الترتيب مع التراخى .. أى : مرور وقت بين الحدثين .. فهو سبحانه خلقكم ، ثم بعد وقت وتراخٍ يحدث الحدَث الثانى (يتوفّاكم) . على خلاف حرف (الفاء) ، فهو حرف عطف يفيد الترتيب مع التعقيب أى : تتابع الحدثين ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ﴾ [عبس]

فبعد الموتِ يكون الإقبار دون تأخير .

وقوله تعالى :

﴿ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ ..(٧٠) ﴾ [النحل]

وأرذل العمر : أردؤه وأقلّه وأخسُّه ؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخرج الإنسان من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، فقال : .

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ..(٧٨) ﴾ [النحل]

وهذه هى وسائل العلم فى الإنسان ، فإذا رُدَّ إلى أرذل العمر فقدتْ هذه الحواسّ قدرتها ، وضَعُفَ عملها ، وعاد الإنسان كما بدأ لا يعلم شيئاً بعد ما أصابه من الخَرف والهرم ، فقد توقفتْ آلات المعرفة ، وبدأ الإنسان ينسى ، وتضعف ذاكرته عن استرجاع ما كان يعلمه .

وقوله : ﴿ لِكَيْ لا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا ..(٧٠) ﴾ [النحل]

لذلك يُسمُّون هذه الحواس الوارث[1] .

ويُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) ﴾ [النحل]

لأنه سبحانه بيده الخَلْق من بدايته ، وبيده سبحانه الوفاة والمرجع ، وهذا يتطلَّب علْماً ، كما قال سبحانه :

﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ .. (١٤) ﴾ [الملك]

---

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يدعو فيقول : « اللهم أمتعنى بسمعى وبصرى ، واجعلهما الوارث منى » قال ابن شميل : أى أبقهما معى صحيحين سليمين حتى أموت . [لسان العرب - مادة : ورث] .

فــلا بُدَّ مـن علم ، لأن الذى يصـنع صَنْعـة لا بُـدَّ أنْ يعـرفَ ما يُصلحهـا وما يُفسِدها ، وذلك يتطلّب قـدرة للإدراك ، فالعلم وحده لا يكفى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ ﴾

لو نظرنا إلى الـكون من حـولنا لوجـدنا أننا لا نتـسـاوى إلا فى شىء واحد فـقط ، هو أننا عبيـدٌ لله .. نحن سواسيـة فى هذه فقط ، ومـا دون ذلك فنحن مــخـتلفـون فـيـه ، تخـتلف ألوانـنا ، تخـتلف أجسامنا .. صورنا .. مواهبنا .. أرزاقنا .

والعجيـب أن هذا الاختلاف هو عَيْنُ الاتفـاق ؛ ذلك لأن الاختلاف قد ينشأ عنه الاتفاق ، والاتفاق قد ينشأ عنه الاختلاف .

مثـلاً : إذا دخلتَ أنت وصديقك أحد المطاعم وطلـبتما دجـاجة .. أنت بطبيـعتك تحب صدر الدجـاجة وصديقك يحب جزءاً آخـر منها .. هذا خلاف .. فساعة أن يأتى الطعام تجد هذا الخلاف هو عين الوفاق حيث تأخـذ أنت ما تحب ، وهو كذلك .. هذا خـلاف أدى إلى وفاق .. فلو فـرضنا أن كلانـا يحب الصدر مـثـلاً .. هذا وفاق قـد يؤدى إلى خلاف إذا ما حضر الطعام وجلسنا : أيُّنا يأخذ الصدر ؟!

فالحق سبحانه وتعالى خلقنا مختلفين فى أشياء ، وأراد أن يكون

هذا الاختلاف تكاملاً فيما بيننا .. فكيف يكون التكامل إذن ؟

هل نتصور مثلاً أن يُوجَد إنسان مجمعاً للمواهب ، بحيث إذا أراد بناء بيت مثلاً كان هو المهندس الذى يرسم ، والبنّاء الذى يبنى ، والعامل الذى يحمل ، والنجار والحداد والسباك .. الخ . هل نتصور أن يكون إنسان هكذا ؟ .. لا ..

ولكن الخالق سبحانه نثَر هذه المواهب بين الناس نَثْراً لكى يظل كل منهم محتاجاً إلى غيره فيما ليس عنده من مواهب ، وبهذا يتم التكامل فى الكون .

إذن : الخلاف بيننا هو عَيْن الوفاق ، وهو آية من آياته سبحانه وحكمة أرادها الخالق جَلَّ وعَلا ، فقال :

﴿ وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) ﴾ [هود]

فقد خلقنا هكذا .

وإلاَّ فلو اتحدنا واتفقنا فى المواهب ، فهل يعقل أن نكون جميعاً فلاسفة ، أطباء ، علماء ، فمَنْ يبنى ؟ ومَنْ يزرع ؟ومَنْ يصنع ؟.. الخ

إذن : من رحمة الله أنْ جعلنا مختلفين متكاملين .

فالحق سبحانه يقول :

﴿ فِي الرِّزْقِ .. (٧١) ﴾ [النحل]

ينظر الناس إلى الرزق من ناحية واحدة ، فهو عندهم المال ، فهذا غنىّ وهذا فقير .. والحقيقة أن الرزق ليس المال فقط ، بل كُلّ

شىء تنتفع به فهو رِزْقك .. فهذا رِزْقه عقله ، وهذا رِزْقه قوته العضلية .. هذا يفكر وهذا يعمل .

إذن : يجب ألاّ ننظر إلى الرزق على أنه لَوْن واحد ، بل ننظر إلى كل ما خلق الله لخَلْقه من مواهب مختلفة : صحة ، قدرة ، ذكاء ، حِلْم ، شجاعة .. كل هذا من الرزق الذى يحدث فيه التفاضل بين الناس .

والحق سبحانه وتعالى حينما تعرَّض لقضية الرزق جعل التفاضل هنا مُبْهماً ، ولم تحدد الآية مَنِ الفاضل ومَنِ المفضول ، فكلمة ـ بَعْضٍ ـ مُبْهمة لنفهم منها أن كل بعض من الأبعاض فاضل فى ناحية ، ومفضول فى ناحية أخرى .. فالقوى فاضل على الضعيف بقوته ، وهو أيضاً مفضول ، فربما كان الضعيف فاضلاً بما لديه من علم أو حكمة .. وهكذا .

إذن : فكلٌّ واحد من خَلْق الله رَزَقه الله موهبة ، هذه الموهبة لا تتكرر فى الناس حتى يتكامل الخَلْق ولا يتكررون .. وإذا وجدت موهبة فى واحد وكانت مفقودة فى الآخر فالمصلحة تقتضى أن يرتبط الطرفان ، لا ارتباط تفضُّل ، وإنما ارتباط حاجة .. كيف ؟

القوىُّ يعمل للضعيف الذى لا قوةَ له يعمل بها ، فهو إذن فاضل فى قوته ، والضعيف فاضل بما يعطيه للقوى من مال وأجر يحتاجه القوى ليقُوتَ نفسه وعياله ، فلم يشأ الحق سبحانه أنْ يجعلَ الأمر تفضُّلاً من أحدهما على الآخر ، وإنما جعله تبادلاً مرتبطاً بالحاجة التى يستبقى بها الإنسان حياته .

وهكذا يأتى هذا الأمر ضرورة ، وليس تفضّلاً من أحد على أحد ؛ لأن التفضُّل غير مُلْزَم به - فليس كل واحد قادراً على أن يعطى دون مقابل ، أو يعمل دون أجر .. إنما الحاجة هى التى تحكم هذه القضية .

إذن : ما الذى ربط المجتمع ؟ هى الحاجة لا التفضُّل ، وما دام العالم سيرتبط بالحاجة ، فكل إنسان يرى نفسه فاضلاً فى ناحية لا يغترّ بفاضليته ، بل ينظر إلى فاضلية الآخرين عليه ؛ وبذلك تندكُّ سِمَة الكبرياء فى الناس ، فكلٌّ منهما يُكمل الآخر .

وقد ضربنا لذلك مثلاً بالباشا الغنى صاحب العظمة والجاه .. والذى قد تُلْجِئه الظروف وتُحوجه لعامل بسيط يُصلح له عُطْلاً فى مرافق بيته ، وربما لم يجده أو وجده مشغولاً ، فيظل هذا الباشا العظيم نَكداً مُؤرّقاً حتى يُسعفه هذا العامل البسيط ، ويقضى له ما يحتاج إليه .

هكذا احتاج صاحب الغنى والجاه إلى إنسان ليس له من مواهب الحياة إلا أنْ يقضى مثل هذه المهام البسيطة فى المنزل .. وهو فى نفس الوقت فاضل على الباشا فى هذا الشىء .

فالجميع - إذن - فى الكون سواسية ، ليس فينا مَنْ بينه وبين الله سبحانه نسب أو قرابة فيجامله .. كلنا عبيد لله ، وقد نثر الله المواهبَ فى الناس جميعاً ليتكاملوا فيما بينهم ، وليظل كُلٌّ منهم محتاجاً إلى الآخر ، وبهذا يتم الترابط فى المجتمع .

وقد عُرِضَتْ هذه القضية فى آية أخرى فى قوله تعالى :

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

البعض يفهم أن الفقير مُسخَّر للغنىّ ، لكن الحقيقة أن كلاً منهما مُسخَّر للآخر .. فالفقير مُسخَّر للغنى حينما يعمل له العمل ، والغنى مُسخَّر للفقير حينما يعطى له أجره ..

ولذلك فالشاعر العربى يقول :

النَّاسُ لِلْناسِ مِنْ بَدْوٍ وحاضرة بَعْضٌ لبعضٍ وإن لم يشعروا خَدَمُ

ونضرب هنا مثلاً بأخسِّ الحرف فى عُرْف الناس - وإنْ كانت الحرف كلها شريفة ، وليس فيها خسَّة طالما يقوت الإنسان منها نفسه وعياله من الحلال .. فالخِسَّة فى العاطل الأخرق الذى لا يُتقِن عملاً .

هذا العامل البسيط ماسح الأحذية ينظر إليه الناس على أنهم أفضل منه ، وأنه أقل منهم ، ولو نظروا إلى علبة الورنيش التى يستخدمها لوجدوا كثيرين من العمال والعلماء والمهندسين والأغنياء يعملون له هذه العلبة ، وهو فاضل عليهم جميعاً حينما يشترى علبة الورنيش هذه .. لكن الناس لا ينظرون إلى تسخير كل هؤلاء لهذا العامل البسيط .

فقوله تعالى :

﴿ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا .. ﴿٣٢﴾﴾ [الزخرف]

مَنْ منّا يُسخّر الآخر ؟! كُلٌّ منا مُسخَّر للآخر ، أنت مُسخّر لى فيما تتقنه ، وأنا مُسخّر لك فيما أتقنه .. هذه حكمة الله فى خَلْقه ليتم التوازن والتكامل بين أفراد المجتمع .

وربُّنا سبحانه وتعالى لم يجعل هذه المهن طبيعيةً فينا .. يعنى هذا لكذا وهذا لكذا .. لا .. الذى يرضى بقدر الله فيما يُناسبه من عمل مهما كان حقيراً فى نظر الناس ، ثم يُتقن هذا العمل ويجتهد فيه ويبذل فيه وُسْعه يقول له الحق سبحانه : ما دُمْتَ رضيتَ بقدرى فى هذا العمل لأرفعنّك به رِفْعة يتعجَّب لها الخَلْق ..

وفعلاً تراهم ينظرون إلى أحدهم ويشيرون إليه : كان شيالاً .. كان أجيراً .. نعم كان .. لكنه رَضِى بما قسم الله وأتقن وأجاد ، فعوَّضه الله ورفعه وأعلى مكانته .

ولذلك يقولون : مَنْ عمل بإخلاص فى أىّ عمل عشر سنين يُسيّده الله بقية عمره ، ومَنْ عمل بإخلاص عشرين سنة يُسيِّد الله أبناءه ، ومَنْ عمل ثلاثين سنة سيَّد الله أحفاده .. لا شىء يضيع عند الله سبحانه .

فليس فينا أعْلى وأدْنى ، وإياك أنْ تظنَّ أنك أعلى من الناس ، نحن سواسية ، ولكن منَّا من يُتْقن عمله ، ومنَّا مَنْ لا يتقن عمله ؛ ولذلك قالوا : قيمة كل امرىء ما يُحسنه .

ولا تنظر إلى زاوية واحدة فى الإنسان ، ولكن انظر إلى مجموع الزوايا ، وسوف تجد أن الحق سبحانه عادلٌ فى تقسيم المواهب على الناس .

وقد ذكرنا أنك لو أجريتَ معادلة بين الناس لوجدتَ مجموع كل إنسان يساوى مجموع كُلِّ إنسان ، بمعنى أنك لو أخذتَ مثلاً : الصحة والمال والأولاد والقوة والشجاعة وراحة البال والزوجة الصالحة والجاه والمنزلة .. الخ لوجدت نصيب كُلٍّ منّا فى نهاية المعادلة يساوى نصيب الآخر ، فأنت تزيد عنى فى القوة ، وأنا أزيد عنك فى العلم ، وهكذا .. لأننا جميعاً عبيدٌ لله ، ليس مِنّا مَنْ بينه وبين الله نسب أو قرابة .

وقوله تعالى :

﴿ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ..(٧١) ﴾ [النحل]

فما ملكت أيمانهم : هم العبيد المماليك .. والمعنى : أننا لم نَرَ أحداً منكم فضّله الله بالرزق ، فأخذه ووزّعه على عبيده ومماليكه ، أبداً .. لم يحدث ذلك منكم .. والله سبحانه لا يعيب عليهم هذا التصرف ، ولا يطلب منهم أنْ يُوزّعوا رزق الله على عبيدهم ، ولكن فى الآية إقامةٌ للحجة عليهم ، واستدلال على سُوء فعلهم مع الله سبحانه وتعالى[1]

وكأن القرآن يقول لهم : إذا كان الله قد فَضَّل بعضكم فى

---

(١) عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى نصارى نجران حين قالوا : عيسى ابن الله .. فقال الله لهم : ﴿فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ.. (٧١)﴾ [النحل] قال القرطبى فى تفسيره (٣٨٦٨/٥) : « أى : لا يرد المولى على ما ملكت يمينه مما رزق حتى يكون المولى والعبد فى المال شرعاً سواء ، فكيف ترضون لى ما لا ترضون لأنفسكم ، فتجعلون لى ولداً من عبيدى » .

الرزق ، فهل منكم مَنْ تطوع برزق الله له ، ووزَّعه على عبيده ؟ .. أبداً .. لم يحدث منكم هذا .. فكيف تأخذون حق الله فى العبودية والألوهية وحقَّه فى الطاعة والعبادة والنذر والذبح ، وتجعلونه للأصنام والأوثان ؟!

فأنتم لم تفعلوا ذلك فيما تملكون .. فكيف تسمحون لأنفسكم أنْ تأخذوا حقَّ الله ، وتعطوه للأصنام والأوثان ؟

ويقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ .. (٢٨)﴾ [الروم]

أى : أنكم لم تفعلوا هذا مع أنفسكم ، فكيف تفعلونه مع الله ؟ فهذه لَقْطة : أنكم تُعاملون الله بغير ما تُعاملون به أنفسكم :

﴿ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : أنكم سوَّيتُم بين الله سبحانه وبين أصنامكم ، وجعلتموهم شركاء له سبحانه وتعالى وتعبدونهم مع الله .

والحق سبحانه وإنْ رزقنا وفضَّلَنا فقد حفظ لنا المال ، وحفظ لنا الملكية ، ولم يأمرنا أن نعطى أموالنا للناس دون عمل وتبادل منافع ، فإذا ما طلب منك أن تعطى أخاك المحتاج فوق ما افترض عليك من زكاة يقول لك :

﴿مَن ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ .. (٢٤٥)﴾ [البقرة]

مع أن الحق سبحانه واهب الرزق والنِّعَم ، يطلب منك أنْ

تُقرضه ، وكأنه سبحانه يحترم عملك ومجهودك ، ويحترم ملكيتك الخَاصة التى وهبها لَك .. فيقول : أقرضنى . لعلمه سبحانه بمكانة المال فى النفوس ، وحرْص المقرض على التأكد من إمكانية الأداء عند المقترض ، فجعل القرض له سبحانه لتثقَ أنت أيها المقرض أن الأداء مضمون من الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) ﴾ [النحل]

أى : بعد أنْ أنعم الله عليهم بالرزق ، ولم يطلب منهم أنْ ينثروه على الغير ، جحدوا هذه النعمة ، وأنكروا فَضْل الله ، وجعلوا له شركاء من الأصنام والأوثان ، وأخذوا حَقَّ الله فى العبودية والألوهية وأعطوْهُ للأصنام والأوثان ، وهذا عَيْنُ الجحود وإنكار الجميل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾

الحق سبحانه فى الآية السابقة قنَّن لنا قضية القمة ـ قضية العقيدة ـ فى أننا لا نعطى شيئاً جعله الله لنفسه سبحانه من العبودية والألوهية والطاعة وغيرها ، لا نعطيها لغيره سبحانه .. وإذا صَحَّتْ هذه القضية العَقدية صَحّتْ كل قضايا الكون .

ثم بيَّن سبحانه أنه خلقنا من واحد ، ثم خلق من الواحد زوجةً له ، ليتم التناسل والتكاثر .. إذ إن استمرارَ بقائكم خاضعٌ لأمرين :

الأمر الأول : استبقاء الحياة ، وقد ضمنه سبحانه بما أنعم به علينا من الأرزاق ، فنأكل ونشرب فنستبقى الحياة ، فبعد أنْ تحدّث عن استبقاء الحياة بالرزق فى الآية السابقة ذكر :

الأمر الثانى : وهو استبقاء الحياة ببقاء النوع ، فقال سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٧٢) ﴾ [النحل]

والأزواج : جمع زوج ، والزوج لا يعنى الرجل فقط ، بل يعنى الرجل والمرأة ؛ لأن كلمة (زوج) تُطلَق على واحد له نظير من مثله ، فكلٌّ واحد منهما زَوْج .. الرجل زوج ، والمرأة زوج ، فتُطلق ـ إذن ـ على مُفْرد ، لكن له نظير من مثله .

و ﴿ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (٧٢) ﴾ [النحل]

أى : من نَفْس واحدة ، كما قال فى آية أخرى :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا .. (٦) ﴾ [الزمر]

يعنى : أخذ قطعة من الزوج ، وخلق منها الزوجة ، كما خلق سبحانه حواء من آدم ـ عليهما السلام .

أو : ﴿ وَخَلَقَ مِنْهَا .. (١) ﴾ [النساء]

أى : من جنسها ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ .. (١٢٨) ﴾ [التوبة]

أى : من جنسكم .

فالمسألة تحتمل المعنيين .. مَن اتسع ظنُّه إلى أن الله خلق حواء من ضلع آدم أى : منه ، من بعضه فلا مانع ، ومَنْ قال : خلق الله حواء كما خلق آدم خَلْقاً مستقلاً ، ثم زَاوَج بينهما بالزواج فلا مانع .. فالأول على معنى البَعْضية ، والثانى على معنى من جنسكم .

قلنا : إن الجمع إذا قابل الجمع اقتضت القسمةُ آحاداً .. كما لو قال المعلم لتلاميذه : أَخْرجوا كتبكم ، فهو يخاطب التلاميذ وهم جَمْع . وكتبهم جمع ، فهل سيُخرِج كل تلميذ كُتب الآخرين ؟! .. لا .. بل كل منهم سيُخرج كتابه هو فقط .. إذن : القسمة هنا تقتضى آحاداً .. وكذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا .. (٢١) ﴾ [الروم]

أى : خلق لكل منكم زَوْجاً .

ولكى نتأكد من هذه الحقيقة ، وأن الخَلْق بدأ بآدم عليه السلام ـ نردُّ الأشياء إلى الماضى ، وسوف نجد أن كُلَّ متكاثر فى المستقبل يتناقص فى الماضى .. فمثلاً سُكّان العالم اليوم أكثر من العام الماضى .. وهكذا تتناقص الأعداد كلما أوغلنا فى الماضى ، إلى أن نصلَ إلى إنسان واحد هو آدم عليه السلام ـ ومعه زوجه حواء ، لأن أقلَّ التكاثر من اثنين .

إذن : قوله سبحانه :

﴿ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ..(١) ﴾ [النساء]

كلام صحيح يؤيّده الاستقراء والإحصاء .

لذلك يمتنُّ ربّنا سبحانه علينا أنْ خلقَ لنا أزواجاً ، ويمتنُّ علينا أن جعل هذا الزوج من أنفسنا ، وليس من جنس آخر ، لأن إلْفَ الإنسان وأنْسه لا يتم إلا بجنسه ، وهذه من أعظم نعم الله علينا ، ولك أن تتصوَّر الحال إذا جعل الله لنا أزواجاً من غير جنسنا !! كيف يكون ؟!

هذا الزوج اشترك معنا فى أشياء ، واختلف عنّا فى شىء واحد ، اتفقنا فى أشياء : فالشكل واحد ، والقالب واحد ، والعقل واحد ، والأجزاء واحدة : عينان وأذنان .. يدان ورجْلان .. الخ . وهذا الاشتراك يُعين على الارتقاء والمودة والأنْس والألْفة .

واختلفنا فى شىء واحد هو النوع : فهذا ذكر ، وهذه أنثى . إذن : جمعنا جنس ، وفرَّقنا النوع لِيتمّ بذلك التكامل الذى أراده سبحانه لعمارة الأرض .

وهناك احتمال أن يتحوّل الذكر إلى أنثى أو الأنثى إلى ذكر ، لذلك خلق الله الاحتياط لهذه الظاهرة ، كأنْ يكونَ للرجل ثَدْى صغير ، أو غيره من الأعضاء القابلة للتحويل ، إذا ما دَعَتْ الحاجة لتغيير النوع .. فهذا تركيب حكيم وقدرة عالية .

إذن :

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ.. (٧٢)﴾ [النحل]

ليزداد الإلْف والمحبة والأُنْس والمودّة بينكم ؛ ولذلك نجد فى

قصة سيدنا سليمان عليه السلام ـ والهدهد ، حينما تفقَّد الطير وعرف غياب الهدهد قال :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) ﴾ [النمل]

وهذا سلطان الملْك الذى أعطاه الله لسليمان .. قالوا فى :

﴿ لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا .. (٢١) ﴾ [النمل]

أى : يضعه فى غير جنْسه .. إذن : وَضْعه فى غير جنسه نوع من العذاب[1] .. وتكون (من أنفسكم) نعمة ورحمة من الله .

وفى الآية الأخرى يذكر سبحانه عناصر ثلاثة لاستبقاء العلاقة الزوجية ، فيقول تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾ [الروم]

ولو تأملنا هذه المراحل الثلاث لوجدنا السكن بين الزوجين ، حيث يرتاح كُلٌّ منهما إلى الآخر ، ويطمئن له ويسعد به ، ويجد لديه حاجته .. فإذا ما اهتزتْ هذه الدرجة ونفرَ أحدهما من الآخر جاء دور المودّة والمحبة التى تُمسك بزمام الحياة الزوجية وتوفر لكليهما قَدْراً كافياً من القبول .

فإذا ما ضعف أحدهما عن القيام بواجبه نحو الآخر جاء دور الرحمة، فيرحم كل منهما صاحبه .. يرحم ضَعْفه .. يرحم مرضه .. وبذلك تستمر الحياة الزوجية ، ولا تكون عُرْضة للعواصف فى رحلة الحياة .

---

(١) ومن أنواع العذاب أيضاً ما ذكره ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٦٠) والسيوطى فى الدّر المنثور (٦/٣٤٩) أن ينتف ريشه ويتركه للنمل يأكله .

فإذا ما استنفدنا هذه المراحل ، فلم يَعُدْ بينهما سكَن ولا مودّة ، ولا حتى يرحم أحدهما صاحبه فقد استحالتْ بينهما العِشرة ، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما للآخر .

وهنا شرع الحق سبحانه الطلاق ليكون حلاً لمثل هذه الحالات ، ومع ذلك جعله ربنا سبحانه أبغض الحلال(١)، حتى لا نقدم عليه إلا مُضطرِّين مُجْبرين .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢) ﴾ [النحل]

البنون هم الحلقة الأولى لاستبقاء الحياة ، والحفَدة وهم وَلَدُ الولد ، هم الحلقة الثانية لاستبقاء الحياة ؛ ذلك لأن الإنسان بطبْعه يحب الحياة ويكره الموت ، وهو يراه كل يوم يحصد النفوس من حَوْله .. فإيمانه بالموت مسألة محققة ، فإذا ما تيقَّن أن الحياة تفوته في نفسه أراد أنْ يستبقيَها في وَلَده .. ومن هنا جاء حُبُّ الكثيرين منّا ، للذكور الذين يُمثّلون امتداداً للآباء .

فإذا ما رزقه الله الأبناء ، وضمن له الجيل الأول تطلّع إلى أنْ يرى أبناء الأبناء ؛ ليستبقى الحياة له ولولده من بعده ؛ ولذلك فالشاعر الذى يخاطب ابنه يقول له :

أبُنَيّ .. يَا أنَا بَعْدَمَا أقْضِى(٢)

---

(١) عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « أبغض الحلال إلى الله عز وجل الطلاق » . أخرجه أبو داود فى سننه (٢١٧٨) وابن ماجة فى سننه (٢٠١٨) .

(٢) قضى الرجل نحبه : استوفى أجله ومات . قال تعالى : ﴿ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ .. (٢٣) ﴾ [الأحزاب] مات أو استشهد . [القاموس القويم ٢/١٢٢] .

وهذه هى نظرة الناس إلى الأولاد ، أنهم ذِكْر لهم بعد موتهم .. وكأن اسمه موصولٌ لا ينتهى .

ويقول الله تبارك وتعالى :

﴿ بَنِينَ وَحَفَدَةً .. (٧٢) ﴾ [النحل]

تدلُّنا على ضرورة الحِرص على اندماج الأجيال .. زوجين ، ثم أبناء وحفدة .. فما فائدة اندماج الأجيال ؟ ما فائدة المعاصرة والمخالطة بين الجدِّ وحفيده ؟

نلاحظ أن الوليد الصغير يبدأ عنده الإدراك بمجرد أنْ تعملَ وسائل الإدراك عنده ، فيبدأ يلتقط ممَّنْ حوله ويتعلّم منهم .. فإذا كان له إخوة أكبر منه تعلّم منهم مثلاً بابا .. ماما .. فإذا لم يكُنْ له إخوة نُعلّمه نحن هذه الكلمات .

ولذلك نرى الطفل الثانى أذكى من الأول ، والثالث أذكى من الثانى .. وهكذا لأنه يأخذ ممَّنْ قبله وممَّنْ حوله ، فيزداد بذلك إدراكه ، وتزداد خبراته ومعلوماته .

ولنتصور أن هذا الابن أصبح أباً ، وجاء الحفيد الذى يعاصر الجيلين ؛ جيل الأب وجيل الجدِّ ، يشبّ الصغير فى أحضانهما ، فتراه يأخذ من أبيه نشاطه فى حركة الحياة وسَعْيه للرزق .

فى حين أنه يأخذ من جَدِّه القيم الدينية حيث الجد فى البيت باستمرار بعد أن تقدَّم به العمر فأقبل على الطاعة والعبادة .. فيسمع منه الصغير قراءة القرآن .. متى يؤذن للظهر .. يا ولد هات

المصحف .. يا ولد هات السجادة لأصلى ، إلى غير هذه من الكلمات التى يأخذ منها الصغير هذه القيم .

إذن : الحفيد يلتقط لوناً من النشاط والحركة فى جيل أبيه ، ويلتقط لوناً من القيم فى جيل جَدِّه ؛ ولذلك فإن ابتعاد الأجيال يُسبِّب نقصاً فى تكوين الأطفال ، والحق سبحانه يريد أنْ تلتحمَ الأجيال لتكتمل للطفل عناصر التربية بين القيم المعنوية والحركة والنشاط .

وقوله تعالى :

﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ..(٧٢) ﴾ [النحل]

الطيبات فى الرزق الذى جعله الله لاستبقاء الحياة ، وفى الزواج الذى جعله الله لاستبقاء النوع .

ثم يقول تعالى :

﴿ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢) ﴾ [النحل]

الباطل : هو الأصنام التى اتخذوها من دون الله .

وفى الآية استفهام للتعجُّب والإنكار .. كيف تكفرون بنعمة الله وقد خلقكم فى البَدْء من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها .. وجعل لكم من أنفسكم أزواجاً .. وجعل بينكم سكناً ومودة ورحمة ، ثم جعل لكم البنين والحفدة ، ورزقكم من نِعم الحياة ما يستبقى حياتكم ، ومن نِعَم الأزواج ما يستبقى نوعكم ، وجعلكم فى نعمة ورفاهية .. خلقكم من عدَم ، وأمدّكم من عُدم .

أبعد ذلك كله تجحدون نعمته وتكفرونها ، وبدل أنْ تُقبلوا عليه وتلتفتوا إليه تنصرفون إلى عبادة الأصنام التى لا تضرُّ ولا تنفع .. وهل عملتْ لكم الأصنامُ شيئاً من ذلك ؟! هل أنعمتْ عليكم بنعمة من هذه النعم ؟!

هذه الأصنام محتاجة إليكم .. تأخذ منكم ولا تعطيكم .. فهذا مائل يريد مَنْ يقيمه .. وهذا كُسِر يحتاج لمن يُصلحه .. انقل الإله .. ضَع الإله فى مكان كذا .. الخ .

ولذلك يقول تعالى فى الآية بعدها :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾

والعبادة أن يطيع العابد معبوده ، وهذه الطاعة تقتضى تنفيذ الأمر واجتناب النهى .. فهل العبادة تنفيذ الأمر واجتناب النهى فقط ؟ نقول : لا بل كل حركة فى الحياة تُعين على عبادة فهى عبادة ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب ، ولتوضيح هذه القضية نضرب هذا المثل :

إذا أردتَ أن تُؤدّى فرض الله فى الصلاة مثلاً ، فأنت تحتاج إلى قوة لتؤدى هذه الفريضة ، ولن تجد هذه القوة إلا بالطعام والشراب ، ولنأخذ أبسط ما يمكن تصوّره من الطعام .. رغيف العيش .. فانظر كم يَدٌ شاركتْ فيه منذ كان حبةَ قمح تلقى فى الأرض إلى أنْ أصبحَ رغيفاً شهياً .

إن هؤلاء جميعاً الذين أداروا دولاب هذه العملية يُؤدّون حركة إيجابية فى الحياة هى فى حَدّ ذاتها عبادة لأنها أعانتْك على عبادة .

أيضاً إذا أردت أنْ تُصلّى ، فواجب عليك أنْ تستر عورتك .. انظر إلى هذا القماش الذى لا تتم الصلاة إلا به .. كُلّ مَنْ أسهم فى زراعته وصناعته حتى وصل إليك .. جميعهم يؤدون عبادة بحركتهم في صناعة هذا القماش .

إذن : كل شىء يُعينك على عبادة الله فهو عبادة ، وكل حركة فى الكون تؤدى إلى شىء من هذا فهى عبادة .

والحق سبحانه وتعالى حينما استدعى المؤمنين لصلاة الجمعة ، قال سبحانه :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ .. ﴿٩﴾ ﴾ [الجمعة]

لم يأخذهم من فراغ ، بل من عمل ، ولكن لماذا قال سبحانه : (وَذَرُوا البَيْعَ) .. لماذا البيع بالذات ؟

قالوا : لأن البيع هو غاية كل حركات الحياة ، فهو واسطة بين مُنتج ومُستْهلك .. ولم يَقُل القرآن : اتركوا المصانع أو الحقول ، لأن هناك أشياء لا تأتى ثمرتها فى ساعتها .. فمَنْ يزرع ينتظر شهوراً ليحصد ما زرع ، والصانع ينتظر إلى أن يبيعَ صناعته .. لكن البيع صفقة حاضرة ، فهى محلّ الاهتمام .. وكذلك لم يَقُلْ : ذروا الشراء ، قالوا : لأن البائع يحب أن يبيعَ ، ولكن المشترى قد يشترى وهو

كاره .. فأتى القرآن بأدقِّ شىء يمكن أن يربطك بالزمن ، وهو البيع .

فإذا ما انقضتْ الصلاة أُمرنا بالعودة إلى العمل والسعى فى مناكب[1] الأرض :

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِى الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

فقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ .. (٧٣) ﴾ [النحل]

أراد الحق سبحانه أن يتكلم عن الجهة التى يُؤْثِرونها على الله .. وهى الأصنام .. فالله سبحانه الذى خلقهم ورزقهم من الطيبات ، وجعل لهم من أنفسهم أزواجاً ، وجعل لهم بنين وحفدة .. كان يجب أن يعبدوه لنعمته وفَضْله .. فالذى لا يعبد الله لذاته سبحانه يعبده لنعمه وحاجته إليه .. فعندنا عبادة للذات لأنه سبحانه يستحق العبادة لذاته ، وعبادة لصفات الذات فى معطياتها ، فَمنْ لم يعبده لذاته عبده لنعمته .

وطالما أن العبادة تقتضى تنفيذ الأوامر واجتناب النواهى .. فكيف تكون العبادة إذن فى حق هذه الأصنام التى اتخذوها ؟! كيف تعبدونها وهى لم تأمركم بشىء ولم تنهكُمْ عن شىء ؟! .

---

(١) مناكب الأرض : جبالها . وقيل : طرقها . وقيل : جوانبها . قال الأزهرى : أشبه التفسير والله أعلم تفسير من قال : فى جبالها . لأن قوله : ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً .. (١٥) ﴾ [الملك] معناه : سهَّل لكم السلوك فيها ، فأمكنكم السلوك فى جبالها ، فهو أبلغ فى التذليل . [لسان العرب ـ مادة : نكب] .

وهذا أول نَقْد لعبادة غير الله من شمس أو قمر أو صنم أو شجر .

وكذلك .. ماذا تُعطى الأصنام ـ أو غيرها من معبوداتكم ـ لمن عبدها ، وماذا أعدَّتْ لهم من ثواب ؟! وبماذا تعاقب مَنْ كفر بها ؟ .. إذن : فهو إله بلا منهج .

والتديّن غريزة فى النفس يلجأ إليها الإنسان فى وقت ضعفه وحاجته .. والله سبحانه هو الذى يحب أن نلجأ إليه وندعو ونطلب منه قضاء الحاجات .. وله منهج يقتضى مطلوبات تدكُّ السيادة والطغيان في النفوس ويقتضى تكليفات شاقة على النفس .

إذن : لجأ الكفار إلى عبادة الأصنام والأوثان لأنها آلهة بلا تكليف ، ومعبودات بلا مطلوبات .

ما أسهل أن يتمحّك إنسان فى إله ويقول : أنا أعبده دون أن يأمر بشىء أو ينهى عن شىء ! ما أسهل أن يُرضى فى نفسه غريزة التدين بعبادة مثل هذا الإله .

لكن يجب ألاّ تنسوا أن هذا الإله الذى ليس له تكليف لن تستطيعوا أنْ تطلبوا منه شيئاً ، أو تلجأوا إليه فى شدة .. فهذا غير معقول فكما أنهم لا يطلبون منكم شيئاً ، كذلك لا يملكون لكم نَفْعاً ولا ضراً .

لذلك وجدنا الذين يدَّعُون النبوة .. هؤلاء الكذابون يُيسِّرون على الناس سُبُل العبادة ، ويُبيحون لهم ما حرَّمه الدين مثل اختلاط الرجال والنساء وغيره ؛ ذلك لاستقطاب أكبر عدد ممكن من الأتباع .

فجاء مسيلمة الكذاب وأراد أن يُسهِّل على الناس التكليف فقال بإسقاط الصلاة ، وجاء الآخر فقال بإسقاط الزكاة .. وقد جذب هذا التسهيل كثيراً من المغفلين الذين يَضِيقون بالتكليف ، ويميلون لدين سَهْل يناسب هِمَمهم الدَّنية .

وهكذا وجدنا لهؤلاء الكذابين أنصاراً يُؤيِّدونهم ويُناصرونهم .. ولكن سرعان ما تتكشف الحقائق ، ويقف هؤلاء المخدوعون على حقيقة أنبيائهم .

وقوله تعالى :

﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا .. (٧٣) ﴾ [النحل]

نلاحظ في هذه الآية نَوْعاً من الارتقاء في الاستدلال على بطلان عبادة الأصنام ؛ ذلك لأن الحق تبارك وتعالى قال عنهم في آية أخرى :

﴿ لا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) ﴾ [النحل]

فنفى عنهم القدرة على الخَلْق ، بل إنهم هم المخلوقون .. يذهب الواحد منهم فيُعجبه حجر ، فيأخذه ويُعمل فيه مِعْوله حتى يُصوِّره على صورة ما ، ثم يتخذه إلهاً يعبده من دون الله .

فلما نفى عنهم القدرة على الخَلْق أراد هنا أنْ يترقّى في الاستدلال ، فنفى عنهم مجرد أنْ يملكوا ، فقد يملك الواحد ما لا يخلقه ، فتُقرِّر الآية هنا أنهم لا يملكون .. مجرد الملك .

وقوله تعالى :

﴿ مِّنَ السَّمَـٰوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا ..(٧٣) ﴾ [النحل]

فالرزق من السماء بالمطر ، ومن الأرض بالنبات ، ومن المصدرين يأتى رزق الله ، وبذلك يضمن لنا الحق تبارك وتعالى مُقوِّمات الحياة وضرورياتها من ماء السماء ونبات الأرض .

فإنْ أردتُمْ ترفَ الحياة فاجتهدوا فيما أعطاكم الله من مُقوّمات الحياة لِتصلوا إلى هذا الترف .

فالرزق الحقيقى المباشر ما أنزله الله لنا من مطر السماء فأنبت لنا نبات الأرض ..

ونُوضّح ذلك فنقول : هَبْ أنَ عندك جبلاً من ذهب ، أو جبلاً من فضة ، وقد عضَّك الجوع فى يوم من الأيام .. هل تستطيع أنْ تأكلَ من الذهب أو الفضة ؟

إنك الآن فى حاجة لرغيف عيش ، لا لجبل من ذهب أو فضة .. رغيف العيش الذى يحفظ لك حياتك فى هذا الموقف أفضل من هذا كله .

وهذا هو الرزق المباشر الذى رزقه الله لعباده ، أما المال فهو رِزْق غير مباشر ، لا تستطيع أن تأكل منه أو تعيش عليه .

وكلمة : (شَيْئًا) أى : أقلّ ما يُقَال له شىء ، فالأصنام والأوثان لا تملك لهم رزقاً مهما قَلَّ ؛ لأنه قد يقول قائل : لا يملكون رِزْقاً يكفيهم .. لا .. بل لا يملكون شيئاً .

ثم يعطينا الحق سبحانه لمحة أخرى فى قوله تعالى :

﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

أى : لا يملكون لهم رِزْقاً فى الحاضر ، ولن يملكوا فى المستقبل ، وهذا يقطع الأمل عندهم ، فهُمْ لا يملكون اليوم ، ولن يملكوا غداً ؛ ذلك لأن هناك أشياء ينقطع الحكم فيها وَقْتاً .. وأشياء مُعلَّقة يمكن أن تُستْأنفَ فيما بعد ، فهذه الكلمة :

﴿ وَلاَ يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) ﴾ [النحل]

حُكْم قاطع لا استئناف له فيما بَعْد .

ولذلك ؛ نجد هؤلاء الذين يُحِبّون أنْ يجدوا فى القرآن مَأْخذاً يجادلون فى قوله تعالى[1] :

﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَاأَعْبُدُ (٣) وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ (٤) وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) ﴾

[الكافرون]

فهؤلاء يروْن فى السورة تكراراً يتنافى وبلاغةَ القرآن الكريم .. نقول : ليس فى السورة تكرار لو تأملتُم .. ففى السورة قَطْع علاقات على سبيل التأبيد والاستمرار ، فالحق سبحانه يقول :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦) ﴾ [الكافرون]

---

(١) ذكر الواحدى فى « أسباب النزول » ص ٢٦١ فى سبب نزول هذه السورة أن رهطاً من قريش قالوا : يا محمد هلم اتبع ديننا ونتبع دينك ، تعبد آلهتنا سنة ونعبد إلهك سنة ، فإن كان الذى جئت به خيراً مما بأيدينا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه ، وإن كان الذى بأيدينا خيراً مما فى يدك قد شركت فى أمرنا وأخذت بحظك . فقال : معاذ الله أن أشرك به غيره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَـٰأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) ﴾ [الكافرون] .

فى الحاضر ، وفى المستقبل ، وإلى يوم القيامة .

فقوله : ﴿ لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ② وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ③ ﴾

[الكافرون]

هذا قَطْع علاقات فى الوقت الحاضر .. ولكن مَنْ يُدرِينا لعلّنا نستأنف علاقات أخرى فيما بعد .. فجاء قوله تعالى :

﴿ وَلا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ④ وَلا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ⑤ ﴾

[الكافرون]

لا للتكرار ، ولكن لقطع الأمل فى إعادة العلاقات فى المستقبل ، فالقضية - إذن - منتهية من الآن على سبيل القَطْع .

كذلك المعنى فى قوله تعالى :

﴿ وَلا يَسْتَطِيعُونَ ⑦③ ﴾ [النحل]

أى : لا يستطيعون الآن ، ولا فى المستقبل .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ⑦④ ﴾

الأمثال : جمع مِثْل ، وهو النِّد والنظير .

وفى الآية نَهْى عن أن نُشبِّه الله سبحانه بشىء آخر ؛ لأن الحق تبارك وتعالى واحدٌ فى ذاته ، واحد فى صفاته ، واحد فى أفعاله .. إياك أن تقول عن ذات : إنها تشبه ذاته سبحانه ، أو صفات تشبه صفاته سبحانه ، فإنْ وجدت صفة لله تعالى يُوجد مثلها فى البشر فاعلم أنها على مقياس :

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ (١١) ﴾ [الشورى]

فالحق سبحانه ينهانا أنْ نضرب له الأمثال ، إنما هو سبحانه يضرب الأمثال ؛ لأنه حكيم يضرب المثَل فى محلّه ليُوضّح القضية الغامضة بالقضية المشاهدة ؛ ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ..(٦٠) ﴾ [النحل]

أى : الصفة العليا فى كل شىء ، فإذا وجدتَ صفات مشتركةً بينكم وبين الحق سبحانه فنزِّه الله عن الشبيه والنظير والنِّد والمثيل وقل : (ليس كمثله شىء) .

فأنت موجود والله موجود ، ولكن وجودك مسبوقٌ بعدم ويلحقه العدم ، ووجوده سبحانه لا يسبقه عدم ولا يلحقه العدم .

وقد ضرب الله لنا مثلاً لنفسه سبحانه ليُوضّح لنا تنويره سبحانه للكون ، وليس مثَلاً لنوره كما نظنّ .. بل هو مثَل لتنويره لا لنوره .

يقول تعالى فى سورة النور :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ[1] فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ[2] يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلاَ غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾ [النور]

نور السماوات والأرض ؛ لأنه بالنور تكون الهداية حسّية أو معنوية .. فالنور الحسيُّ مثل نور الشمس والقمر وغيرهما من مصادر الضوء .. هذا النور الحسيّ هو الذى يُبيّن لك الأشياء لتسير فى الكون على بصيرة وهدى .. فلو حاولتَ السَّيْر ليلاً دون ضَوْء يهديك فسوف تصطدم بالأشياء من حولك : إما أقوى منك يُحطّمك ويُؤذيك ، وإما تكون أنت أقوى منه فتُحطّمه أنت .. فالذى يهدى خُطَاك هو النور الحسيُّ .

وقد يكون النور معنوياً ، وهو نور القِيَم والأخلاق ، وهذا النور يجعلك أيضاً تسير فى الحياة على بصيرة وهُدىً ، ويحميك من التخبّط فى مجاهل الأفكار والنظريات ، هذا هو النور القِيَمى الذى أنزله الله لنا فى كتابه الكريم ، وقال عنه :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ

---

(١) المشكاة : هى الكُوَّة « الطاقة » التى ليست بنافذة . [لسان العرب ـ مادة : شكا] .

(٢) الكوكب الدرى : هو الكوكب الشديد البريق واللمعان . [القاموس القويم ١/٢٢٦] .

رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٦)﴾ [المائدة]

فهو نور لكن معنوى .. بالقيم والأخلاق والفضائل .. ولا تقُلْ فى هذا المثل : إنه مَثَلٌ لنور الله .. بل مَثَلٌ لسلطان تنويره للكون ، ولو تأمّلنا بقية الآية لأدركنا ذلك .

﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

البعض يقولون : المشكاة هى المصباح .. لا .. المشكاة هى الكُوّة أو الطاقة المسدودة فى الجدار يعرفها أهل الريف فى بِنَاياتهم القديمة ، وهى تجويف غير نافذ فى الجدار يُوضَع فيه المصباح .

﴿الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

أى : ليس مصباحاً عادياً بل فى زجاجة ، وهى تحمى ضَوْء المصباح أنْ يبعثره الهواء من كل ناحية ، وفى نفس الوقت تسمح له بالقدر الكافى من الهواء لاستمرار الاشتعال ، وبذلك يكون الضوء ثابتاً صافياً لا يصدر عنه دُخان يُعكّر صَفْو الزجاجة .

وأهل الريف يعرفون شعلة الجاز التى ليس لها زجاجة ، وما يصدر عنها من دُخان أسود ضارّ .. إذن : المصباح هنا فى غاية الصفاء والقوة ؛ لأن الزجاجة أيضاً ليستْ زجاجة عادية ، بل زجاجة كأنها كوكب دُرىٌّ ، وكَوْنها كالكوكب الدرىّ يعنى أنها تُضِيء بنفسها .

﴿الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ..(٣٥)﴾ [النور]

هذا المصباح يُوقـد بزيت ليس عادياً ، بل هو زيت من زيتونة .. شجرة زيتون معتدلة المناخ .

﴿ لاَّ شَرْقِيَّةٍ وَلا غَرْبِيَّةٍ ..(٣٥) ﴾ [النور]

هذا الزيت وصل من الصفاء والنقـاء أنه يُضـىء ، ولو لم تمسسه نار ؛ ولذلك أعطانا منتهى القوة :

﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ..(٣٥) ﴾ [النور]

ولذلك قال تعالى فى وصف هذا المصباح :

﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ..(٣٥) ﴾ [النور]

وبعد أنْ وقفتَ على أوصاف هذا المصباح ، وأنه يُوضَع فى كُوّة صغيرة ، بالله عليك هل يمكن وجود نقطة مظلمة فى هذه الكُوّة ؟

إذن : فهذا مَثَلٌ ليس لنوره سبحانه .. فنُوره لا يُدرَكُ ، وإنما هو مثَلٌ لتنويره للكون ، الذى هو كالكُوّة والطاقة فى هذا المثل .. فمعنى قوله تعالى :

﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٣٥) ﴾ [النور]

أى : مُنوِّرهمـا ، فكمـا أنه لا يُعقل وجـود نقطة مظلمـة فى هذه الكُوّة ، فكذلك نوره سبحانه وتنويره للكون .. وهذا هو النور الحسىّ الذى أمدَّ الله به الكون .

ثم تحدَّث القرآن بعد ذلك عن النور المعنوى الذى يُنزِل على عباد الله الصالحـين تجليّاتٍ نورانية ، وفيُوضاتٍ ربانية نتلقّـاها فى بيوت الله :

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ ..(٣٧)﴾ [النور]

وهكذا نجمع بين النور الحسىّ والنور المعنوى ﷺ

ولذلك ، فأبو تمام[١] حينما أراد أن يمدح الخليفة شبَّهه بمشاهير العرب فى الشجاعة والكرم والحلْم والذكاء ، فقال :

إقْدام عَمْرٍو فى سَمَاحَةِ حَاتِمٍ   فى حِلْم أَحْنَفَ فى ذَكَاءِ إيَاسِ

فاعترض على هذا التشبيه أحد حُسَّاد أبى تمام ، وقال له : كيف تُشبِّه الخليفة بأجلاف العرب ؟ ففى جيشه ألف واحد كعمرو ، ومن خَزَنته ألف واحد كحاتم .. ولكى يخرج أبو تمام من هذا المأزق ، ويُفلت من هذا الفخ الذى نصبه له حاسده ، قال على البديهة :

لاَ تُنكرُوا ضَرْبِى لَهُ مَنْ دُونَهُ   مَثَلاً شَرُوداً فى النَّدى والبَاسِ[٢]
فَاللَّهُ قَدْ ضربَ الأقَلَّ لِنُوره   مثَلاً مِنَ المشْكَاةِ والنِّبْراسِ[٣]

والحق سبحانه وتعالى وإنْ نهانا نحن أن نضربَ له مثلاً لقلّة علْمنا ، فهو سبحانه القادر على ضَرْب الأمثال حتى بأقلّ المخلوقات ، وأتفهها فى نظرنا .. فيقول تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا.. (٢٦)﴾ [البقرة]

---

(١) هو حبيب بن أوس الطائى ، ولد بقرية من قرى الشام (١٨٠هـ) ، نشأ نشأة متواضعة ، حيث كان يعمل صبياً لحائك ، توفى ٢٣١ هـ عن ٥١ عاماً .

(٢) المثل الشرود : الخارج عن المألوف والعادة . والندى : السخاء والكرم . والباس : القوة والحرب .

(٣) النبراس : المصباح والسراج . والمشكاة : كوة فى جدار البيت ليست بنافذة وتعرف فى قرانا بـ « الطاقة » مع نطق القاف همزة .

فلا تستقلّ أمر هذه البعوضة ، ولا تستحقر أنْ يجعلها الله مثلاً ؛ لأنه سبحانه لا يستحى أن يضرب بها المثل ؛ لأن فى هذه البعوضة كل أجهزة تكوين الحياة التى فيك ، وفى أضخم الحيوانات مثل الفيل والجمل ؛ ولأن هذه البعوضة التى تستحقرها قد تكون أقوى منك ، قد تُعجِزك أنت على قوتك وحيلتك وجبروتك .

يقول تعالى :

﴿ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لاَّ يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

بالله عليك ، هل تستطيع على قوتك وإمكاناتك أنْ تستردّ من الذبابة ما أخذتْه من طعامك ؟ هل تقدر على هذه العملية ؟

إذن : حينما يضرب الله لك مَثَلاً يجب أن تحترم ضَرْب الله للمثل ، وأنْ تبحثَ فيما وراء المثل من الحكمة .. وأنه سبحانه جاء بهذا المثل لهذا المخلوق الحقير فى نظرك لِيُوضّح لك قضية غامضة يُنبّهك إليها .

ولأهمية ضَرْب المثَل فى توضيح الغامض يلجأ إليه الشعراء ليُقرِّبوا المعنى من الأفهام ، فقد يقف الشاعر أمام قضية معقدة لا يدركها إلا العقلاء ، ويريد الشاعر الوصول بها إلى أفهام العامة .. مثل قضية الحاسد الذى يُظهر بحسده مزايا محسوده ومكارمه ، فقد يتهم البرىء بتهمة ظلماً ، فتكون سبباً فى رِفْعته بين قومه .

أخذ الشاعر العربى هذا المعنى ، وصاغه شعراً ، وضرب له مثلاً توضيحياً ، فقال :

وإذَا أرادَ اللهُ نَشْرَ فَضِيلةٍ طُوِيَتْ   أتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَوْلاَ اشْتِعالُ النَّارِ فِيمَا جَاوِرَتْ   مَا كَانَ يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ[1] العُودِ

فانظر كيف وصل بالقضية المعنوية إلى قضية عامة يعرفها الرجل العادى ، فقد يكون لديك فضيلة مكتومة مغمورة لا يعرفها أحد ، حتى تتعرض لحاسد يتهمك ويُشوِّه صورتك ، فإذا بالحقيقة تتكشّف للجميع ويُظهر ما عندك من مواهب ، وما لديك من فضائل .. وما أشبه ذلك بالعود طيب الرائحة الذى لا نشمُّ رائحته إلا إذا حرقناه .

وقد كان سبب هذا المثل الشِّعرىّ أن أحد أهل الخير كان يتردد من حين لآخر على أحد بُيوت البلدة وبها عجوز مُقْعدة فى حاجة إلى مساعدة ، فكان يساعدها بما يستطيع ، وكان بجوارها منزل إحدى الجميلات التى قد تكون مطمعاً .. فاستغل أحد الحُسَّاد هذه الجيرة ، واتهم الرجل الصالح بأنه يذهب إلى هذه الحسناء .. وفعلاً تتبعه الناس ، فإذا به يذهب لبيت العجوز المقعدة .. ومن هنا عرف الناس عنه فضيلةً لم يكن يعرفها أحد .

وقد رأينا على مَرِّ التاريخ مَنِ اتهمُوا ظلماً ، وقيل فى حقهم ما يندى له الجبين .. ثم أنصفهم القضاء العادل ، وأظهر أنهم أبطال يستحقون التكريم ، ولولا ما تعرضوا له من اتهام ما عرفنا مزاياهم ومكارمهم .

---

(١) العَرْف : الريح ، طيبة كانت أو خبيثة . والعود : هو الذى يُتبخَّر به . والعود : خشبة كل شجرة ، دق أو غلظ . [لسان العرب ـ مادتا : عرف ، عود] .

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧٤) ﴾ [النحل]

وهذه علّة النهى عن ضَرْب الأمثال لأننا لا نعلم ، أما الحق سبحانه وتعالى فيضرب لنا الأمثال ؛ لأنه سبحانه يعلم ، ويأتى بالمثَل فى محلّه .

وبعد أنْ هيّأنا ربنا سبحانه لتلقِّى الأمثال ، وأعدَّ أذهاننا لاستقبال الأمثال منه سبحانه .. أتى بهذا المثل .

فيقول الحق سبحانه :

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلاً له طرفان :

الطرف الأول : عبد : أى مَوْلى ، وصفه بأنه مملوك التصرّف ، وأنه لا يقدر على شىء من العمل ؛ ذلك لأن العبد قد يكون عَبْداً ولكنه يعمل ، كمَنْ تسمح له بالعمل في التجارة مثلاً وهو عبد ، وهناك العبد المكاتب الذى يتفق مع سيده على مال يُؤدّيه إليه لينال حريته ، فيتركه سيده يعمل بحريته حتى يجمعَ المال المتفق عليه .. فهذا عَبْد ، ومملوك ، ولا يقدر على شىء من السَّعْى والعمل .

والطرف الثانى : سيد حُرٌّ ، رزقه الله وأعطاه رِزْقاً حَسَناً أى :

حلالاً طيّباً .. ثم وفّقه الله للإنفاق منه بشتى أنواع الإنفاق : سراً وجَهْراً .. وهذه منزلة عالية : رِزْق من الله وصفه بأنه حلال طيب لا شُبْهة فيه ، بعد ذلك وفّقه الله للإنفاق منه .. كُلٌّ حَسْب ما يناسبه ، فمن الإنفاق ما يناسبه السِّرّ ، ومنه ما يُناسبه الجَهْر :

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ..(٢٧١)﴾ [البقرة]

هذان هما طَرَفا المثَل المضروب لَنَا .. ويترك لنا السياق القرآنى الحكْم بينهما .. وكأن الحق سبحانه يقول : أنا أرتضى حكمكم أنتم : هل يستوون ؟

والحق سبحانه لا يترك لنا الجواب ، إلا إذا كان الجواب سيأتى على وَفْق ما يريد .. ولا جوابَ يُعقل لهذا السؤال إلا أن نقولَ : لا يستوون .. وكأن الحق سبحانه جعلنا ننطق نحن بهذا الحكم .

وقد ضرب الله هذا المثل لعبدة الأصنام ، الذين أكلوا رزق الله وعبدوا غيره ، فمثَّل الحق سبحانه الأصنامَ بالعبد المملوك الذى لا يقدر على شىء .

وضرب المثَل الآخر للسيد الذى رزقه الله رزقاً حسناً ، فهو ينفق منه سراً وجَهْراً ، ألم تَرَ إلى قوله تعالى فى آية أخرى :

﴿وَأَسْبَغَ[1] عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً (٢٠)﴾ [لقمان]

---

(١) أسبغ الله النعمة : أتمّها ووسَّعها . [القاموس القويم ـ مادة : سبغ] . وشىء سابغ : كامل وافٍ . وسبغت النعمة : اتسعت . [لسان العرب ـ مادة : سبغ] .

ليُبين لهم خطأهم فى الانصراف عن عبادة الله مع ما أعطاهم من رزق إلى عبادة الأصنام التى لا تعطيهم شيئاً .

ومن هنا تتضح الحكمة فى أن الله تعالى ترك الحكم بنفسه فى هذا المثَل ، وأتى به على صورة سؤال ليأخذ الحكم من أفواههم ويشهدوا هم على أنفسهم ؛ ليقطع عليهم سبيل الإنكار والجدال .

ولنا هنا وَقْفة مع قوله تعالى :

﴿ هَلْ يَسْتَوُونَ .. (٧٥) ﴾ [النحل]

فالحديث عن مُثنّى ، وكان القياس أن يقول : هل يستويان ، فلماذا عدل عن المثنى إلى الجمع ؟

نقول : لأن المثل وإنْ ضُرِب بمفرد مقابل مفرد إلا أنه ينطبق على عديدين .. مفرد شائع فى عديد مملوكين ، وفى عديد من السادة أصحاب الرزق الحسن ، ذلك ليُعمّم ضَرْب المثل .

إذن : ليس فى اختلاف الضمير هنا ما يتعارض وبلاغةَ القرآن الكريم ، بل هى دقّة أداء ؛ لأن المتكلّم هو الحق سبحانه وتعالى .

وكذلك فى قوله تعالى :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا .. (٩) ﴾ [الحجرات]

بعضهم يرى فى الآية مَأخذاً ، حيث تتحدث عن المثنى ، ثم بضمير الجمع فى (اقْتَتَلُوا) ، ثم تعود للمثنى فى (بَيْنَهُمَا) .

نقول لهؤلاء : لو تدبرتُم المعنى لَعرفتم أن ما تتخذونه مأخذاً ،

وتعتبرونه اختلافاً فى الأسلوب هو منتهى الدقة فى التعبير القرآنى .. ذلك أن الحديث عن طائفتين : مُثنّى .. نعم .. فلو تقاتلا ، هل ستمسك كل طائفة سَيْفاً لتقاتل الأخرى ؟

لا .. بل سيُمسك كُلُّ جندى منها سَيْفاً .. فالقتال هناك بالمجموع .. مجموع كل طائفة لمجموع الطائفة الأخرى ، فناسب أن يقول : اقتتلوا ؛ لأن القتال حركة ذاتية من كُلّ فرد فى الطائفتين .

فإذا ما جاء وقت الصُّلْح ، هل نصالح كل جندى من هذه على كل جندى من هذه ؟ لا .. بل الصُّلْح شأنُ السادة والزعماء والقادة لكل طائفة ، ففى الصُّلْح نعود للمثنى ، حيث ينوب هؤلاء عن طائفة ، وهؤلاء عن طائفة ، ويتم الصُّلْح بينهما .

إذن : اختلاف الضمير هنا آية من آيات الإعجاز البيانى ؛ لأن المتكلم هو الحق سبحانه وتعالى .

وقوله : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ .. (٧٥) ﴾ [النحل]

كأن الحق سبحانه يقول : الحمد لله أنْ وافقَ حُكْمكم ما أريد ، فقد نطقتُم أنتم وحكمتُمْ .

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٧٥) ﴾ [النحل]

قوله : أكثرهم لا يعلمون يدل على أن الأقلية تعلم ، وهذا ما يُسمُّونه « صيانة الاحتمال » ؛ لأنه لما نزلَ القرآن الكريم كان هناك جماعة من الكفار ومن أهل الكتاب يُفكّرون فى الإيمان واعتناق هذا الدين ، فلو نفى القرآن العلم عن الجميع فسوف يُصدَم هؤلاء ،

وربما صرفهم عمّا يُفكّرون فيه من أمر الإيمان ، فالقرآن يصون الاحتمال فى أن أُناساً منهم عندهم عِلْم ، ويرغبون فى الإيمان .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ[1] لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ[2] عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ ﴾

وهذا مَثَلٌ آخر لرجلين أحدهما أبكم ، والأبكم هو الذى لا يتكلم .. ولا بُدّ أن يسبق البكم صَمَمٌ ؛ لأن الكلام وليد السَّمْع ، فإذا أخذنا طفلاً عربياً وربَّيناه فى بيئة إنجليزية نجده يتكلم الإنجليزية ، والعكس صحيح ؛ ذلك لأن الكلام ليس جنساً أو دماً أو لحماً ، بل هو وليد البيئة ، وما تسمعه الأذن ينطق به اللسان .. فإذا لم يسمع شيئاً فكيف يتكلم ؟

لذلك ، فربنا سبحانه تعالى يقول عن الكفار :

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ .. ﴿١٨﴾ ﴾ [البقرة]

هذا الأبكم لا يقدر على شىء من العمل والنفع لك ، يقول تعالى :

---

(١) البكم : أن يُولد الإنسان لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر . وهو أخرس بيِّن الخرس . [لسان العرب ـ مادة : بكم] .

(٢) الكَلّ : العاجز الثقيل لا خير فيه . كقوله تعالى : ﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ .. ﴿٧٦﴾ ﴾ [النحل] وهو عبء ثقيل على سيده لا خير فيه ولا انتفاع منه . [القاموس القويم ٢/١٦٩] .

﴿ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلاهُ ..(٧٦) ﴾ [النحل]

أى : عَالَة على سيده ، لا ينفع حتى نفسه ، ومع ذلك قد يكون عنده حكمة يقضى بها شيئاً لسيده ، حتى هذه ليست عنده .

﴿أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لا يَأْتِ بِخَيْرٍ ..(٧٦) ﴾ [النحل]

إذن : لا خيرَ فيه ، ولا منفعةَ ألبتة ، لا له ولا لغيره ، هذه صفات الرجل الأول .

فماذا عن مقابله ؟

﴿هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٧٦) ﴾ [النحل]

وهذه أول صفات الرجل الآخر ، أنه يأمر بالعدل ، وصفة الأمر بالعدل تقتضى أنه سمع منهجاً ، ووعتْهُ أذنه ، وانطلق به لسانه آمراً بالعدل ، وهذه الصفة تقابل : الأبكم الذى لا يقدر على شىء .

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٦) ﴾ [النحل]

أى : أنه يذهب إلى الهدف مباشرة ، ومن أقصر الطرق ، وهذه تقابل : أينما يوجهه لا يَأْتِ بخير .

والسؤال هنا أيضاً : هل يستويان ؟ والإجابة التى يقول بها العقل : لا .

وهذا مَثَلٌ آخر للأصنام .. فهى لا تسمع ، ولا تتكلم ، ولا تُفصح ، وهى لا تقدر على شىء لا لَهَا ولا لعابديها .. بل هى عَالَة عليهم ، فهم الذين يأتون بها من حجارة الجبال ، وينحتونها

وينصبونها ، ويُصلحون كَسْرها ، وهكذا هم الذين يخدمونها ولا ينتفعون منها بشيء .

فإذا كنتم لا تُسوُّون بين الرجل الأول والرجل الآخر الذى يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، فكيف تسوون بين إله له صفة الكمال المطلق ، وأصنام لا تملك لكم نفعاً ولا ضراً ؟!

أو نقول : إن هذا مثَلٌ للمؤمن والكافر ، بدليل أن الحق سبحانه فى المثل السابق قال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْدًا مَّمْلُوكًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

وفى مقابله قال :

﴿وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا ..(٧٥)﴾ [النحل]

ولم يقُلْ عبد أو رجل .

إنما هنا قال : ﴿رَّجُلَيْنِ.. (٧٦)﴾ [النحل]

فيمكن أن نفهم منه أنه مَثَلٌ للرجل الكافر الذى يمثله الأبكم ، وللرجل المؤمن الذى يمثله مَنْ يأمر بالعدل ، وهو على صراط مستقيم .

والحق سبحانه يقول :

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)﴾

أراد الحق سبحانه أنْ يُعلمنا أن العالم منه عالم المُلْك ، ومنه عالم الملكوت .. عالم المُلْك هو العالم المحسّ لنا ، وعالم الملكوت المخفىّ عنَّا فلا نراه .

ولذلك ، فربنا سبحانه وتعالى لما تكرّم على سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ قال :

﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الأنعام]

إذن : لله تعالى فى كونه ظاهر وغَيْب .. الظاهر له نواميس كونية يراها كل الناس ، وله أشياء غيبيّة لا يراها أحد ، ولا يطّلع عليها .. حتى فى ذاتك أنت أشياء غَيْب لا يعلمها أحد من الناس ، وكذلك عند الناس أشياء غَيْب لا تعرفها أنت .. وهذا الغيب نُسمّيه : غَيْب الإنسان .

إذن : فأنا غائب عنّى أشياء ، وغيرى غائب عنه أشياء .. هذا الغيب الذى لا نعرفه يَعُدّه بعض الناس نَقْصاً فينا ، وهو فى الحقيقة نوع من الكمال فى النفس البشرية ؛ لأنك إنْ أردتَ أنْ تعلمَ غَيْبَ الناس فاسمح لهم أنْ يعلموا غَيْبك .

ولو خُيّرت فى هذه القضية لاخترتَ أنْ يحتفظ كلٌّ منكم بغَيْبه لا يطلع عليه أحد .. لا أعرف غَيْب الناس ، ولا يعرفون غَيْبى ؛ ولذلك يقولون : « المغطى مليح » .

فسَتْر الغيب كمال فى الكون ؛ لأنه يُربِّى ويُثرى الفائدة فيه .. كيف ؟

هَبْ أنك تعرف رجلاً مستقيماً كثير الحسنات ، ثم اطلعتَ على

سيئة واحدة عنده كانت مستورة ، فسوف ترى هذه السيئة كفيلة بأنْ تُزهِّدك فى كل حسناته وتُكرِّهك فيه ، وتدعوك إلى النُّفْرة منه ، فلا تستفيد منه بشىء ، فى حين لو سُترتْ عنك هذه السيئةُ لاستطعتَ الانتفاع بحسناته .. وهكذا يُنمى الغيبُ الفائدةَ فى الكون .

وفى بعض الآثار الواردة يقول الحق سبحانه :

« يابْنَ آدمَ سترْتُ عنك وسترْتُ منك ، فإنْ شئتَ فضحْنَا لك وفضحناك ، وإنْ شئت أسبلنَا عليك سِبالَ السِّتر إلى يوم القيامة»(١)

فاجعل نفسك الآن المخاطب بهذا الحديث ، فماذا تختار ؟

أعتقد أن الجميع سيختار السِتْر .. فما دُمْتَ تحب الستر وتكره أنْ يطلعَ الناس على غَيْبك فإياك أنْ تتطاول لتعرفَ غَيْب الآخرين .

والغيب : هو ما غاب عن المدركات المحسَّة من السمع والبصر والشَّمِّ والذَّوْق ، وما غاب عن العقول من الإدراكات المعنوية .

وهناك غيْب وضع الله فى كونه مقدمات تُوصِّل إليه وأسباباً لئلاً يكونَ غَيْباً .. كالكهرباء والجاذبية وغيرها .. كانت غَيْباً قبل أنْ تُكتشفَ .. وهكذا كل الاكتشافات والأسرار التى يكشفها لنا العلم ، كانت غَيْباً عنّا فى وقت ، ثم صارت مُشَاهدة فى وقت آخر .

ذلك ، لأن الحق سبحانه لا ينثر لنا كُلَّ أسرار كَوْنه مرة واحدة ، بل يُنزله بقَدرٍ ويكشفه لنا بحساب ، فيقول سبحانه :

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلاَّ بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ (٢١) ﴾
[الحجر]

---

(١) لم أقف على هذا الأثر رغم طول البحث ، ولكن قد أخرج الحكيم الترمذى عن الحسن مرسلاً والعقيلى عنه عن أنس : « قال الله تعالى : أنا أكرم وأعظم عفواً من أن أستر على عبد مسلم فى الدنيا ثم أفضحه إذ سترته ، ولا أزال أغفر لعبدى ما استغفرنى » وذكره الألبانى فى ضعيف الجامع الصغير (٤/٤٠٥٠) وضعفه .

فالذى كان غَيْباً فى الماضى أصبح ظاهراً مُشَاهداً اليوم ؛ لأن الله سبحانه كشف لنا أسبابه فتوصَّلْنا إليه .. فهذا غَيْب جعل الله له مُقدّمات يصل إليها مَنْ يبحث فى الكون ، فإذا ما أذن الله به ، وحان وقت ميلاده وَفَّق الله أحد الباحثين إلى اكتشافه ، إما عن طريق البحث ، أو حتى الخطأ فى المحاولة ، أو عن طريق المصادفة .

ولذلك إذا بحثتَ فى كُلّ المخترعات والمكتشفات لوجدتَ ٩٠٪ منها جاءت مصادفة ، لم يكونوا بصدد البحث عنها أو التوصل إليها ، وهذا ما نسميه « غيب الأكوان » .

ومثال هذا الغيب : إذا كلفتَ ولدك بِحلٍّ تمرين هندسيٍّ .. ومعنى حَلِّ التمرين أنْ يصلَ الولدُ إلى نقطة تريد أنت أنْ يصلَ إليها .. ماذا يفعل الولد ؟ يأخذ ما تعطيه من مُعْطيات ، ثم يستخدم ما لديْه من نظريات ، وما يملكه من ذكاء ويستخرج منها المطلوب .

فالولد هنا لم يَأْتِ بجديد ، بل استخدم المعطيات ، وهكذا الأشياء الموجودة فى الكون هى المعطيات مَنْ بحثَ فيها توصّل إلى غيبيّات الكون وأسراره .

وهذا النوع من الغيب يقول عنه الحق سبحانه :

﴿ اللَّهُ لا إِلَـٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ .. (٢٥٥) ﴾

[البقرة]

فـإذا أَذِنَ الله لهم تكشـفتْ لـهم الأسـرار : إمـا بالبـحث ، وإمـا بالخطأ ، أو حـتى بالمصادفـة .. فطالما حـان وقت ميلاد هـذا الغيْب واكتـشافه ؛ فإن صـادف بَحْثاً من البـشر التقيـا ، وإلاّ أظهره الله لنَا دون بَحْث ودون سَعْى منّا .

وهناك نوع آخر من الـغيب ، وهو الغَيْب المطلـق ، وهو غَيْب عن كل البشـر استأثر الله به ، وليس له مُـقدّمات وأسبـاب تُوصّل إليه ، كما فى النوع الأول .. هذا الغَيْب ، قال تعالى فى شأنه :

﴿ عَـالِمُ الْغَـيْبِ فَلا يُظْهِـرُ عَلَىٰ غَـيْـبِـهِ أَحَـدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ .. (٢٧) ﴾ [الجن]

فإذا ما أعلمنـا الرسـول غَـيْباً من الغيبيـات فلا نقول : إنه يعـلم الغـيب .. لأنه لا يعلم إلا مـا أعلمه الله من الـغيب .. إذنْ : هذا غَـيْب لا يدركه أحد بذاته أبداً .

ومن هذا الغَيْب المطلق غَيْبٌ اسـتأثر الله به ، ولا يُطلع عليه أحداً حـتى الرسل .. ولمـا سُـئِل الرسـول ﷺ عن السـاعة ، قـال : « مـا المسئول عنها بأعلمَ من السائل »[1] .

وفى الإسراء والمعراج يحـدثنا ﷺ أن الله قد أعطاه ثلاثة أوعية : وعاء أمره بتبليغه وهو وعاء الرسالة ، ووعاء خَيَّره فيه فلا يعطيه إلا

---

(١) أخرجـه البخارى فى صحـيحه (٥٠) ، وكـذا مسلم فى صحـيحه (١٠) كتـاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عـنه فى حديث جبـريل أنه قال لرسول الله ﷺ وهو فى هيـئة رجل : يا رسول الله متى تقوم الساعة ؟ قال ﷺ : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .

لأهل الاستعداد السلوكى الذين يتقبلون أسرار الله ولا تنكرها عقولهم ، ووعاء منعه فهو خصوصية لرسول الله ﷺ .

ولذلك يقول راوى الحديث : إن رسول الله ﷺ أعطانى وعاءين ، أما أحدهما فقد بثثْتُه أى رويْته وقُلْته للناس ، وأما الآخر فلو بُحْت به لَقُطِع حلقومى هذا ، فهذا من الأسرار التى يختار الرسول ﷺ لها مَنْ يحفظها .

قوله تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (٧٧) ﴾ [النحل]

هذا يُسمُّونه أسلوب قَصْر بتقديم الجار والمجرور ، أى قصر غيب السموات والأرض عليه سبحانه ، فلو قلنا مثلاً : غيب السموات والأرض لله ، فيحتمل أن يقول قائل : ولغير الله ، أما :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ..(٧٧) ﴾ [النحل]

أى : له وحده لا شريك له .

ومعنى السموات والأرض ، أى : وما بينهما وما وراءهما ، ولكن المشهور من مخلوقات الله : السماء ، والأرض .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ..(٧٧) ﴾ [النحل]

جاءت الآية بهذا الغَيْب الوحيد ؛ لأنه الغيب الذى استأثر الله به ..

ولا يُجلّيها لوقتها إلا هو .. فناسب الحديث عن الغيب أنْ يأتيَ بهذا الغَيْب المطلق الذى لا يعلمه إلا الله .

وما هو لَمْح البصر ؟

عندنا أفعال متعددة تدلّ كلّها على الرؤية العامة ، وإنْ كان لكل منها معنًى خاصٌ بها نقول : رأى ونظر ورَمق ولحظ ولمح .. فرأى مثلاً أى بجُمع عينه ، ورمق بأعلى ، ولحظَ بجانب ، فكلُّها مرتبطة بحركة الحدقة ، هذه الحركة ما نسميه باللمح .

إذن : لمح البصر هو تحرُّك حَدقة العين إلى ناحية الشيء المرئى .. فإنْ أردتَ أنْ ترى ما فوقك تحركتْ الحدقة إلى أعلى ، وإنْ أردتَ أن ترى ما هو أسفل تحركتْ الحدقة إلى أسفل وهكذا .

هذه الحركة هى لَمْح البصر ، انتقال الحدقة من وضع إلى وضع .

إذن : شبَّه الحق تبارك وتعالى أمر الساعة عنده سبحانه بلمح البصر ، ولكن اللمح حدث ، والأحداث تحتاج إلى أزمان ، وقد تطول الأزمان فى ذاتها ولكنها تقصر عند الرائى .

وقد قرَّب إلينا العلم الحديث هذه القضية بما توصّل إليه من إعادة المشاهد المصوَّرة على البطيء ليعطيك فرصة متابعتها بدقة ، فنراهم مثلاً يُعيدون لك مَشْهداً كروياً لترى كل تفاصيله ، فتجد المشهد الذى مَرّ كلمح البصر يُعرَض أمامك بطيئاً فى زمن أطول ،

فى حـين أن الزمن فى الســرعة يتـجمع تجـمّـعاً لا تدركـه أنت بأىّ معيار ، لا بالدقيقة ولا بالثانية .

إذن : فهى جزئيات حركة فى جـزئيات زمان ، فلَمْح البصر الذى هو تحرُّك حَدقة العين تحـتاج لوقت ولزمن متداخل ، وليس هكذا أمْر الساعة ، بل هذا أقـرب ما يعرفه الإنســان ، وأقرب تشبيـه لِفَهْم أمْر الساعة بالنسبة له سبحانه .

إذا قـيل لك : مـا أمـر فـلان ؟ ومـا شـأنه ؟ . تأخـذ فى سَـرْد الأحداث .. حدث كيت وكيت .. فإذا قلنا : مـا أمْر الساعة ؟ ما شأنها ساعةَ تقوم ، حيث يموت الأحـياء أولاً ، ثم يحيا الجميع من لَدُنْ آدم عليه السلام ثم حَشْر وحساب وثواب وعقاب .

أحداث كثـيرة وعظيمة لخلْق متـعددين من الإنس والجن .. يحدث هذا كله كلمح البـصـر بالنسـبة لنا ، ولكـن إياك أنْ تتصـوّر أن هذا يحتاج إلى وقت بالنسبة لله سبحانه .

فـالأشـيـاء بالنسـبـة لـه سـبـحـانه لا تعـالـج ، وإنمـا هى كُنْ فيكون ، حـتى كُنْ مكوّنة من حرفـين : الكاف لفظ وله زمن ، والنون لفظ وله زمن ، إنما أَمْر الســاعة أقرب من الكاف والنون ، ولكن ليس هناك أقلّ من هذا فى فَهْمنا .

والحق سبحانه وتعالى حينما تكلَّم عن أهل القبور ، قال :

﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

في حين أننا نرى أنهم غابوا كثيراً في قبورهم .. إذن : كيف يُقَاسُ الزمن ؟ .. يُقاس بتتبُّعك للأحداث ، فحينما لا يُوجد حَدَث لا يُوجَد زمن .. وهذا ما نراه في حال النائم الذي لا يستطيع تحديد الزمن الذي نامه إلا على غالب ما يكون في البشر .

ولذلك ، في قصة أهل الكهف الذين ناموا ثلاث مائة عام وتسعة أعوام قالوا :

﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ..﴿١١٣﴾﴾ [المؤمنون]

فهذا هو الغالب في عُرْف الناس ؛ ذلك لأنهم استيقظوا فلم يجدوا شيئاً حولهم يدل على زمن طويل .. الحال كما هو لم يتغيَّر فيهم شيء .. فلو استيقظوا فوجدوا أنفسهم شيوخاً بعد أن كانوا فتية لَعلموا بمرور الزمن .. إذن : الزمن بالنسبة لعدم الحدث زمن مَلْغيّ .

أو نقول : إن أَمْر الساعة في أن الحق سبحانه يجعلها جامعة للناس إلا كلمْح البصر ، فكلّ ما يحدث فيها لا تقيسه بزمن ، لأن الذي يُقاسُ بالزمن إنما هي الأحداث الناشئة من فاعل له قدرة وقوة تتوزع على الزمن .

فلو أردْتَ نَقْل هذا الشيء من هنا إلى هنا فسوف يحتاج منك وقتاً ومجهوداً ، أما لو كلفتَ طفلاً بنقل هذا الشيء فسوف يأخذ وقتاً أكثر ويحتاج مجهوداً أكثر .. إذن : فالزمن يتناسب مع قدرة الفاعل تناسباً عكسياً .

ولذلك فالرسول ﷺ حينما حدَّث الناس بالإسراء والمعراج[1] قالوا : أتدّعى أنك أتيتها فى ليلة ، ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً .. هذا لأن انتقالهم يحتاج لعلاج ومُزَاولة ، تأخذ وَقْتاً يتناسب وقدراتهم فى الانتقال بالإبل من مكة إلى بيت المقدس .. ومحمد ﷺ لم يقل : أسريْتُ ، بل قال : أُسْرِى بى ، الذى أَسْرى به هو الله سبحانه ، فالزمن يُقاس بالنسبة للحق سبحانه وتعالى .

وكذلك إذا قِيسَ زَمن أمْر الساعة بالنسبة لقدرته سبحانه فإنه يكون كلمح البصر ، أو هو أقرب من ذلك .. إنما هو تشبيه لِنُقرّب لكم الفهم .

وقوله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [النحل]

أى : يكون أمر الساعة كذلك ؛ لأن الله قادر على كل شىء ، وما دامت الأحداث تختلف باختلاف القدرات ، فقدرة الله هى القدرة العُلْيا التى لا تحتاج لزمن لفعل الأحداث .

ثم يقول الحق سبحانه :

---

(١) حديث الإسراء أخرجه مسلم فى صحيحه (١٦٢) كتاب الإيمان من حديث أنس بن مالك . وقد أخرج البيهقى فى « دلائل النبوة » (٢/٣٦٣) من حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال : « إنى أسرى بى الليلة . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى بيت المقدس . قالوا : ثم أصبحت بين ظهرانينا ؟ قال : فقال رسول الله ﷺ : نعم . قال : فمن بين مصفق وواحد واضع يده على رأسه مستعجب للكذب ، زعم . قال : وفى القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد فقال : هل تستطيع أن تنعت لنا المسجد ؟ » الحديث بطوله .

﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾

(مِنْ بُطُونِ أُمهَاتكُم) المراد الأرحام ؛ لأنها فى البطون ، والمظروف فى مظروف يعتبر مظروفاً ، كما لو قلت : فى جيبى كذا من النقود أو فى حافظتى كذا من النقود .. العبارتان معناهما واحد .

وأمهاتكم : جمع أم ، والقياس يقتضى أن نقول فى جمع أم : أمَّات ولكنه قال :

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

بزيادة الهاء .

وساعةَ يكون الجنين فى بطن أمه تكون حياته حياة تبعية ، فكل أجهزته تابعة لأمه .. فإذا شاء الله أن يولد جعل له حياة ذاتية مستقلة .. وعند الولادة نرى أطباء التوليد يقولون : الجنين فى الوضع الطبيعى أو فى غير الوضع الطبيعى .. فما معنى الوضع الطبيعى للجنين عند الولادة ؟

الوضع الطبيعى أن يكون رأس الجنين عند الولادة إلى أسفل ، هذا هو الوضع الطبيعى ؛ لأنِ الحق سبحانه أراد أن يُخرجه خَلْقاً آخر :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ..﴿١٤﴾ ﴾ [المؤمنون]

كأنه كان خلقاً لكنه كان تابعاً لأمه فيُخرجه الله خَلْقاً آخر مُسْتقلاً بذاته .. فتكون الرأس إلى أسفل ، وهى أول ما ينزل من المولود ، وبمجرد نزوله تبدأ عملية التنفس .

ومن هذه اللحظة ينفصل الجنين عن أمه ، وبالتنفس تكون له ذاتية ، فإذا ما تعسَّر خروج باقى جسمه فتكون له فرصة التنفس ، وهذا من لُطْف الله سبحانه ؛ لأن الجنين فى هذه الحالة لا يختنق أثناء معالجة باقى جسمه .

أما إذا حدث العكس فكان الرأس إلى أعلى ، ونزل الجنين بقدميْه ، فبمجرد نزول الرِّجْلَيْن ينفصل عن أمه ، ويحتاج إلى حياة ذاتية ويحتاج إلى تنفس ، فإذا ما تعسّرت الولادة حدث اختناق ، ربما يؤدى إلى موت الجنين .

العلم أَخَذ قضية من قضايا الكون مجزوم بها وعليها دليل ؛ وقوله تعالى :

﴿ لا تَعْلَمُونَ[1] شَيْئًا .. (٧٨) ﴾ [النحل]

ذلك لأن وسائل العلم والإدراك لم تعمل بَعْد ، فإذا أراد الله له أنْ يعلم يخلق له وسائل العلم ، وهى الحواس الخمس : السمع والبصر والشَّم واللمس والتذوّق ، هذه هى الحواس الظاهرة التى بها يكتسب الإنسان العلوم والمعارف ، وبها يُدرِك ما حوله .

وإنْ كان العلم الحديث قد أظهر لنا بعض الحواسّ الأخرى ، ففى علم وظائف الأعضاء يقولون : إنك إذا حملتَ قطعتين من الحديد مثلاً فبأىّ حاسة تُميّز بينهما من حيث الثقل ؟

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٧٧) : « فيه ثلاثة أقاويل :
أحدها : لا تعلمون شيئاً مما أخذ عليكم من الميثاق فى أصلاب آبائكم .
الثانى : لا تعلمون شيئاً مما قضى عليكم من السعادة والشقاء .
الثالث : لا تعلمون شيئاً من منافعكم .

هذه لا تُعرف باللمس أو السمع أو البصر أو التذوّق أو الشّم .. إذن : هناك حاسة جديدة تُميّز الثقَل هى حاسة العضَل .

وكذلك تُوجَد حاسة البَيْن ، التى تتمكن بها من معرفة سُمْك القماش مثلاً وأنت فى محل الأقمشة ، حيث تفركُ القماش بين أصابعك ، وتستطيع أن تُميّز بين الرقيق والسّميك .

فالطفل المولود إذن لا يعلم شيئاً ، فهذا أمر طبيعى لأن وسائل العلم والإدراك لديه لم تُؤدِّ مهمتها بَعْد .

وقوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ[1] .. ⦗٧٨⦘ ﴾ [النحل]

وقد بيَّن لنا علماء وظائف الأعضاء أن هذا الترتيب القرآنى للأعضاء هو الترتيب الطبيعىّ ، فالطفل بعد الولادة يسمع أولاً ، ثم بعد حوالى عشرة أيام يُبصر .. وتستطيع تجربة ذلك ، فترى الطفل يفزع من الصوت العالى بعد أيام من ولادته ، ولكن إذا وضعت أصبعك أمام عينيه لا يطرف ؛ لأنه لم يَرَ بعد .

ومن السمع والبصر ـ وهما السادة على جميع الحواس ـ تتكون المعلومات التى فى الأفئدة ، هذا الترتيب القرآنى الوجودى ، وهو الترتيب الطبيعى الذى وافق العلمَ الحديث .

ونلاحظ في الآية إفراد السمع ، وجمع الأبصار والأفئدة :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ .. ⦗٧٨⦘ ﴾ [النحل]

---

(١) أى : وجعل لكم السمع لتسمعوا به الأمر والنهى . والأبصار لتبصروا بها آثار صنعه . والأفئدة لتصلوا بها إلى معرفته . [قاله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٧٧)] .

فلماذا لم يأتِ السمع جَمْعاً ؟

المتحدث هنا هو الحق سبحانه ؛ لذلك تأتى الألفاظ دقيقة معجزة .. ولننظر لماذا السمع هنا مفرد ؟

فَرْقٌ بين السمع وغيره من الحواس ، فحين يوجد صوت فى هذا المكان يسمعه الجميع ، فليس فى الأذن ما يمنع السمع ، وليس عليها قُفْل نقفله إذا أردنا ألاّ نسمع ، فكأن السمع واحد عند الجميع ، أما المرئى فمختلف ؛ لأننا لا ننظر جميعاً إلى شىء واحد .. بل المرائى عندنا مختلفة فهذا ينظر للسقف ، وهذا ينظر للأعمدة .. إلى آخره .

إذن : المرائى لدينا مختلفة .. كما أن للعين قُفْلاً طبيعياً يمكن إسْداله على العين فلا ترى ، فكأن الأبصار لدينا مختلفة متعددة .

وكذلك الحال فى الأفئدة ، جاءت جَمْعاً ؛ لأنها متعددة مختلفة ، فواحد يَعِى ويُدرك ، وآخر لا يعى ولا يدرك ، وقد يعى واحد أكثر من الآخر .

إذن : إفراد السمع هنا آيةٌ من آيات الدقة فى التعبير القرآنى المعجز ؛ لأن المتكلمَ هو ربّ العزة سبحانه .

ونلاحظ أيضاً تقديم السمع على باقى الحواس ؛ لأنه أول الإدراكات ويصاحب الإنسان منذ أنْ يُولدَ إلى أنْ يفارق الحياة ، ولا يغيب عنه حتى لو كان نائماً ؛ لأن بالسمع يتم الاستدعاء من النوم .

وقد قُلْنا فى قصة أهل الكهف أنهم ما كان لهم أن يناموا فى سُبات(١) عميق ثلاثمائة وتسع سنين إلا إذا حجب الله عنهم هذه

---

(١) السبات : النوم . قال الزجاج : هو أن ينقطع عن الحركة ، والروح فى بدنه . والسبت : القطع ، فكأنه إذا نام فقد انقطع عن الناس . [لسان العرب ـ مادة : سبت] .

الحاسة ، فلا تزعجهم الأصوات . فقال تعالى :

﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الكهف]

أى : قُلْنا للأذن تعطّلى هذه المدة حتى لا تزعجهم أصوات الصحراء ، وتقلق مضاجعهم ، والله تعالى يريد لهم السُّبات والنوم العميق .

وفى قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

هل توجد هذه الإدراكات بعد الإخراج (الميلاد) أم هى موجودة قبله ؟.. يجب أنْ نُفرّق بين السمع وآلته ، فقبل الإخراج تتكون للجنين آلات البصر والسمع والتذوّق وغيرها .. لكنها آلات لا تعمل ، فالجنين فى بطن أمه تابع لها ، وليست له حياة ذاتية ، فإذا ما نزل إلى الدنيا واستقلّ بحياته يجعل الله له هذه الآلات تعمل عملها .

إذن : فمعنى :

﴿ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ .. ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

أى : جعل لكم الاستماع ، لا آلة السمع .

وقوله :

﴿ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [النحل]

تُوحى الآية بأن السمع والأبصار والأفئدة ستعطى لنا كثيراً من المعلومات الجديدة والإدراكات التى تنفعنا فى حياتنا وفى مُقوّمات وجودنا ، وننفع بها غيرنا ، وهذه النعم تستحقّ منا الشكر .

فكلما سمعتَ صَوْتاً أو حكمة تحمد الله أن جعل لك أُذناً تسمع ، وكلما أبصرتَ منظراً بديعاً تحمد الله أنْ جعلَ لِكِ عيناً ترى ، وكلما شممتَ رائحة زكية تحمد الله أنْ جعل لك أنفاً تشمُّ .. وهكذا تستوجب النعم شُكْر المنعم سبحانه .

ولكى تقف على نِعَم الله عليك انظر إلى مَنْ حُرموا منها ، وتأمّل حالك وحالهم ، وما أنت فيه من نعم الحياة ولذّاتها ، وما هُمْ فيه من حِرْمَان .

ثم ينقلنا الحق سبحانه نقلة أخرى فى قوله تعالى :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

فالحق سبحانه ينقلنا هنا إلى صورة أخرى من صُوَر الكون .. بعد أن حدّثنا عن الإنسان وما حوله .. فالإنسان قبل أنْ يخلقه الله فى هذا الوجود أعدَّ له مُقوّمات حياته ، فالشمس والقمر والنجوم والأرض والسماء والمياه والهواء ، كل هذه أشياء وُجِدتْ قبل الإنسان ، لِتُهيىء له الوجود فى هذا الكون .

والله سبحانه يريد منّا بعد أنْ كفلَ لنا استبقاء الحياة بالرزق ، واستبقاء النوع بالزواج والتكاثر ، يريد منّا إثراء عقائدنا بالنظر فى ملكوت الله وما فيه من العجائب ؛ لنستدل على أنه سبحانه هندسَ كَوْنه هندسة بديعة متداخلة ، وأحكمه إحكاماً لا تصادم فيه .

﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠)﴾ [يس]

فالنظر إلى كَوْن الله الفسيح ، كم فيه من كواكب ونجوم وأجرام . كم هو ملِيءٌ بالحركة والسكون والاستدارة . ومع ذلك لم يحدث فيه تصادم ، ولم تحدث منه مضرة أبداً في يوم من الأيام .. الكون كله يسير بنظام دقيق وتناسق عجيب ؛ ولكي تتجلى لك هذه الحقيقة انظر إلى صَنْعة الإنسان ، كم فيها من تصادمات وحوادث يروح ضحيتها الآلاف .

هذا مَثَلٌ مُشَاهَد للجميع ، الطير في السماء .. ما الذي يُمسكها أنْ تقعَ على الأرض ؟ وكأن الحق سبحانه يجب أنْ يُلفتنا إلى قضية أكبر :

﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِن بَعْدِهِ .. (٤١)﴾ [فاطر]

فعلينا أن نُصدِّق هذه القضية .. فنحن لا ندرك بأعيننا جِرْم الأرض ، ولا جِرْم الشمس والنجوم والكواكب .. نحن لا نقدر على معرفة كل ما في الكون .. إذن : يجب علينا أن نُصدِّق قوْل ربنا ، ولا نجادل فيه .

وإليكم هذا المثل الذي تشاهدونه كل يوم :

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ .. (٧٩)﴾ [النحل]

إياك أنْ تقول إنها رَفْرفة الأجنحة ، فنحن نرى الطائر يُثبّت أجنحته في الهواء ، ومع ذلك لا يقع إلى الأرض ، فهناك إذن ما يمسكه من الوقوع ؛ لذلك قال تعالى في آية أخرى :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ[1] وَيَقْبِضْنَ .. ١٩ ﴾ [الملك]

أي : أنها في حالة بَسْط الأجنحة ، وفي حالة قبْضِها تظل مُعلّقة لا تسقط .

وكذلك نجد من الطيور ما له أجنحة طويلة ، لكنه لا يطير مثل الأوز وغيره من الطيور .

إذن : ليست المسألة مسألة أجنحة ، بل هي آية من آيات الله تمسك هذا الطير في جَوِّ السماء .. فتراه حُراً طليقاً لا يجذبه شيء إلى الأرض ، ولا يجذبه شيء إلى السماء ، بل هو حُرٌّ يرتفع إنْ أراد الارتفاع ، وينزل إنْ أراد النزول .

فهذه آية مُحسَّة لنستدلّ بها على قدرة الله غير المحسَّة إلا بإخبار الله عنها ، فإذا ما قال سبحانه :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ أَن تَزُولا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ .. ٤١ ﴾ [فاطر]

آمنا وصدّقنا .

---

(١) أي : باسطات أجنحتها . قال ابن كثير في تفسيره (٤/٣٩٨) : « أي : تارة يصففن أجنحتهن في الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً » .

وقوله تعالى :

﴿ فِي جَوِّ السَّمَاءِ .. (٧٩) ﴾ [النحل]

أى : فى الهواء المحيط بالأرض ، والمتأمل فى الكون يجد أن الهواء هو العامل الأساسى فى ثبات الأشياء فى الكون ، فالجبال والعمارات وغيرها .. ما الذى يمسكها أنْ تقع ؟

إياك أن تظن أنه الأسمنت والحديد وهندسة البناء .. لا .. بل يمسكها الهواء الذى يحيط بها من كل جانب ، بدليل أنك لو فَرَّغتَ جانباً منها من الهواء لانهارتْ فوراً نحو هذا الجانب ؛ لأن للهواء ضغطاً ، فإذا ما فرَّغْتَ جانباً منها قَلَّ فيه الضغط فانهارتْ .

فالهواء - إذن - هو الضابط لهذه المسألة ، وبالهواء يتوازن الطير فى السماء ، ويسير كما يهوى ، ويتحرك كما يحب .

ثم يقول تعالى :

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾ [النحل]

أى : أن الطير الذى يطير فى السماء فيه آيات أى عجائب ، عجائب صَنْعة وعجائب خَلْق ، يجب أنْ تتفكَّرُوا فيها وتعتبروا بها .

ولكى نقف على هذه الآية فى الطير نرى ما حدث لأول إنسان حاول الطيران .. إنه العربى عباس بن فرناس[1] ، أول مَنْ حاول

(١) مخترع أندلسى ، من أهل قرطبة ، كان فى عصر الخليفة عبد الرحمن الثانى فى القرن التاسع للميلاد ، كان فيلسوفاً شاعراً ، له علم بالفلك ، وهو أول من صنع الميقاتة لمعرفة الأوقات . مثَّل فى بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها توفى عام ٢٧٤ هـ . [الأعلام للزركلى ٣/ ٢٦٤] .

الطيران فى الأندلس ، فعمل لنفسه جناحين ، وألقى بنفسه من مكان مرتفع .. فماذا حدث لأول طائر بشرى ؟

طار مسافة قصيرة ، ثم هبط على مُؤخرته فكُسرت ؛ لأنه نسى أن المسألة ليست مجرد الطيران ، فهناك الهبوط الذى نسى الاستعداد له ، وفاته أن يعمل له (زِمكّى)[1] ، وهو الذيل الذى يحفظ التوازن عند الهبوط .

وكذلك الذين يصنعون الطائرات كم تتكلف ؟ وكم فيها من أجهزة ومُعدات قياس وانضباط ؟ وبعد ذلك تحتاج لقائد يقودها أو مُوجّه يُوجِّهها ، وحينما أرادوا صناعة الطائرة جعلوها على شكل الطير فى السماء له جناحان ومقدمة وذيل ، ومع ذلك ماذا يحدث لو تعطّل محركها .. أو اختلّ توازنها ؟!

إذن : الطير فى السماء آية تستحق النظر والتدبُّر ؛ لنعلمَ منها قدرة الخالق سبحانه .

ويقول تعالى :

﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) ﴾ [النحل]

يؤمنون بوجود واجب الوجود ، يؤمنون بحكمته ودقّة صُنْعه ، وأنها لا مثيلَ لها من صنعة البشر مهما بلغتْ من الدقة والإحكام .

---

(١) الزَّمك : إدخال الشىء بعضه فى بعض . والزِّمكى : أصل ذَنَب الطائر ، وقيل : هو منبته ، وقيل : هو ذنبه كله . [لسان العرب ـ مادة : زمك] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ[(١)] وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا[(٢)] وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾

قوله :

﴿ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

كلمة سكن مأخوذة من السكون ، والسكون ضد الحركة ، فالبيت نُسمِّيه سكناً ؛ لأن الإنسان يلجأ إليه ليرتاح فيه من حركة الحياة خارج البيت ، إذن : فى الخارج حركة ، وفى البيت سكن .

والسكن قد يكون مادياً كالبيت وهو سكن القالب ، وقد يكون معنوياً ، كما قال تعالى فى حَقِّ الأزواج :

﴿ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا .. ﴿٢١﴾ ﴾ [الروم]

فالزوجة سَكَنٌ معنوىٌ لزوجها ، وهذا يُسمّونه سكن القلب .

فإنْ قال قائل :

﴿ مِّنْ بُيُوتِكُمْ .. ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) الظعن : الانتقال من مكان إلى مكان . أى : السفر . [القاموس القويم ١/ ٤١٥] .

(٢) الأثاث : المال كله والمتاع ، ما كان من لباس أو حشو لفراش أو دثار . [لسان العرب ـ مادة : أثث] .

يعنى : نحن الذين صنعناها وأقمناها . فكيف جعلها الله لنا ؟.

نقول : وأنت كيف صنعتها ؟ وممّ بنيْتها ؟ صنعتَها من غابٍ أو خشب ، أو بنيْتها من طين أو طوب .. كل هذه المواد من مادة الأرض من عطاء الله لك ، وكذلك العقل الذى يُفكّر ويرسم ، والقوة التى تبنى وتُشيّد كلها من الله .

إذن : ﴿ جَعَلَ لَكُمْ ﴾ إما أنْ يكون جَعْلاً مباشراً ، وإما أنْ يكون غير مباشر .. فالله سبحانه جعل لنا هذه المواد .. هذا جَعْل مباشر ، وأعاننا وقوّانا على البناء .. هذا جَعْلٌ غير مباشر .

لكن فى أىّ الأماكن تُبنى البيوت ؟

البيوت لا تُبنَى إلا فى أماكن الاستقرار ، التى تتوفّر لها مُقوّمات الحياة .. فقبل أن نُنظّم مدينة سكنية نبحث أولاً عن مُقوّمات الاستقرار فيها من مأكل ومشرب ومرافق وخدمات ومياه وصرف .. إلى آخره .

فإن وجدت هذه المقوّمات فلا مانعَ من البناء هنا .. فإذا لم توجد المرافق فى الصحراء ومناطق البدو ، هنا لا يناسبها البيوت والبناء الدائم ، بل يناسبها :

﴿ وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ .. ⦗٨٠⦘ ﴾ [النحل]

فنرى أهل البدو يتخذون من الجلود بُيُوتاً مثل الخيمة والفسطاط .. حيث نراهم كثيرى التنقُّل يبتغون مواطن الكلأ والعشب ، ويرحلون طَلَباً للمرعى والماء ، وهكذا حياتُهم دائمة التنقّل من مكان

لآخر .. فيناسبهم بيت من جلد أو من صوف أو من وَبَر خفيف الحَمْل ، يضعونه أيْنما حَطُّوا رحالهم ، ويرفعونه أينما ساروا .. والظَّعْن هو التنقُّل من مكان لآخر .

إذن : كلمة (سكن) تفيد الاستقرار ، وتُوفّر كل مُقوّمات الحياة ؛ ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول لآدم :

﴿اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ .. (٣٥)﴾ [البقرة]

أى : المكان الذى فيه راحتكم ، وفيه نعيمكم ، فحدّد له مكان إقامة وسكَن ..

ومكان الإقامة هذا قد يكون عَامّاً ، وقد يكون خاصاً ، مثل لو قُلْت : أسكن الأسكندرية .. هذا سكَنٌ عام ، فلو أردتَ السكن الحقيقى الخاص بك لَقُلْتَ : أسكن فى شارع كذا ، وفى عمارة رقم كذا ، وفى شقة رقم كذا ، وربما كان لك حجرة خاصة من الشقة هذه .

إذن : هذا سكَنٌ خاص بك .. سكنُك الحقيقى الذى تشعر فيه بالهدوء والراحة والخصوصية ، فالسكن يحتاج إلى استقرار ذاتىٌ لا يشاركك فيه أحد ؛ ولذلك نرى بعض سكان العمارات يشكُون من الإزعاج والضوضاء ، ويتمنوْنَ أن يعيشوا فى بيوت مستقلة تُحقّق لهم الراحة الكافية التى لا يضايقهم فيها أحد .

إذن : حينما ننظر إلى السكون .. إلى السكن ، نحتاج المكان الضيق الذى يُحقّق لنا الخصوصية التامة التى تصل إلى حجرة ، مجرد حجرة ، ولكنها تعنى السكن الحقيقى الخاص بى ، وقد تصل

الخصوصية أنْ نجعلَ لكل ولد من الأولاد سريراً خاصاً به فى نفس الحجرة .

فإذا ما نظرنا إلى الحركة فى الحياة وجدنا الإنسان على العكس يطلب السعة ؛ لأن الحركة تقتضى السعة فى المكان ، فمَنْ كان عنده مزرعة يطلب عزبة ، ومَنْ كان عنده عزبة يتمنى ثانية وثالثة وهكذا ؛ لأن حركة الحياة تحتاج مجالاً واسعاً فسيحاً .

هذا عن النوع الأول ، وهو السكن المادى سكن القالب ، وهو من أعظم نِعَم الله على عباده .. أن يكون لهم سِكَن يأوون إليه ، ويرتاحون فيه من عناء وحركة الحياة .

ولذلك حينما أراد الحق سبحانه أن يُعذِّب بنى إسرائيل ، أشاع سكنهم فى الأرض كلها ، وحرمهم من نعمة السكن الحقيقى الخاص ، فقال تعالى :

﴿ وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الأَرْضَ .. (١٠٤) ﴾ [الإسراء]

فالأرض هى المكان العام الذى يسكن فيه كل الناس .. فليس لهم بلد تجمعهم ، بل بدَّدهم الله فى الأرض ولم يجعل لهم وطناً ، كما قال فى آية أخرى :

﴿ وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الأَرْضِ أُمَمًا .. (١٦٨) ﴾ [الأعراف]

حتى فى البلاد التى يعيشون فيها تراهم معزولين عن الناس فى أماكن خاصة بهم لا يذوبون فى غيرهم ، وهكذا سكنوا الأرض ، ولم تحدد لهم بلد .

أمـا النـوع الثـانى من السكـن ، وهو السكن المـعـنوى أو سكن القلب ، فهـو سكن الزوج إلى زوجتـه الصالحة التى تُخـفّف عنه عناء الحيـاة وهمومـها ، تبتـسم فى وجهه إنْ كـان مسـروراً وتُهدِّىء من غضبه إنْ كان مُغْضَباً ، تحتويه بما لديها من حُب وحنان وإخلاص .. هذا هو السكن المعنوى ، سكن القلب .

وقوله :

﴿ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

الأصواف للغنم ، والأوبار لـلإبل ، والشعر للمـاعز .. فمـا الفرْق بين هذه الثلاث فى الاستعمال ؟

يستـعمل الناس كـلاً من الصوف والوبر ؛ لأن الشُّـعيـرات فيـها دقيـقة جـداً يمكن نَدْفها وغَـزْلها والانتـفاع بها فى الـفُرش والأبسطة والألحفة والملابس وغيرها مما يحتاجه الناس .

أما شعر الماعـز فالشعيرات فيه ثخينة لا يمكـن نَدْفها أو غَزْلها ، فلا يمكن الانتفاع به فى هذه المنسوجات ، وقوله تعالى :

﴿ أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

الأثاث : هو مـا يوجـد فى البـيت ممـا تتطلبـه حـركة الـحيـاة كالأبسطة والمفارش والملابس والستائر .

والمتاع : هو ما يُستمتع ويُنتفع به .. والفرْق بينهما أن الأثاث قد يكون ثابتاً لا يتغير كثيراً ، أما المتاع فقد يتغير حسب الحاجة .

فأنت مثلاً قد تحتاج إلى تغيير التلفاز القديم لتأتى بآخر حديث ، مُلوّن مثلاً ، لكن قلّما تُغير الثلاجة أو الغسالة مثلاً .

وقوله : ﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

لأن الإنسان قد يغتر حين يستوفى متطلبات حياته ، وقد تلهيه هذه النعم عن مطلوب المنعم سبحانه ، فينشغل بالنعمة التى هو فيها عن المنعم الذى أنعم عليه بها .. فتأتى هذه الآية مُحذِّرة .

إياك أنْ تغترّ بالمتاع والأثاث ؛ لأنها متاع إلى حين .. متاعٌ موقوت لا يدوم ، ومهما استوفيت حظّك منها فى الدنيا فإنها صائرة إلى أمرين :

إما أن تفوتها بالموت ، وإما أنْ تفوتك بالفقر والحاجة .. إذن : هى ذاهبة ذاهبة .. فتذكّروا دائماً قوله تعالى :

﴿ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ ﴾ [النحل]

فمتاع النعمة موقوت ، لكن متاع المنعِم سبحانه خالد .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا(١) وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ(٢) تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

---

(١) الكِنُّ : ما يُصان أو يستتر فيه الشيء . والبيوت أكنان لأصحابها . [القاموس القويم ١٧٥/٢] .

(٢) السربال : القميص يقى الحر والبرد . أما قوله تعالى : ﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل] فهى الدروع . [لسان العرب ـ مادة : سربل] .

بعد أن تكلم الحق سبحانه عن أصحاب البيوت الذين يناسبهم الاستقرار ، ويجدون مُقوّمات الحياة ، وتكلم عن أهل الترحال والتنقُّل وما يناسبهم من بيوت خفيفة يحملونها عند ترحالهم . ثم تحدث هنا عن هؤلاء الذين لا يملكون شيئاً ، ولا حتى جلود الأنعام .. ماذا يفعل هؤلاء ؟

الحق سبحانه جعل لهم الظل يستظلّون به من وهج الشمس ، وجعل لهم من الكهوف والسراديب فى الجبال ما يأوون إليه ويسكنون فيه . وهكذا استوعبتْ الآيات جميع الحالات التى يمكن أن يكون عليها بشر ، فقد نثر الحق سبحانه نعمه على الناس ، بحيث يأخذ كل واحد منهم ما يناسبه من نعم الله .

أما مَنْ لا يملك بيتاً يأويه ، وليس عنده من الأنعام ما يتخذ من جلودها بيتاً ، فقد جعل الله له الأشجار يستظل بها من حَرِّ الشمس ، وجعل له كهوف الجبال تُكنّه وتأويه .

ونلاحظ هنا أن الآية ذكرتْ الظل الذى يقينا حَرَّ الشمس ، ولم تذكر مثلاً البرد ؛ ذلك لأن القرآن الكريم نزل بجزيرة العرب وهى بلاد حارة ، وحاجتها إلى الظل أكثر من حاجتها إلى الدِّفء .

وقوله :

﴿ ظِلالاً .. ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل]

الظلال جمع ظل ، وهو الواقى من الشمس ومن إشعاعاتها ، وقد يُوصَف الظل بأنه ظل ظليل .. أى : الظل نفسه مُظلل ، وهذا ما نراه فى صناعة الخيام مثلاً ، حيث يجعلون لها سقفاً من طبقة واحدة

تتلقّى حرارة الشمس ، وإنْ حجبت أشعة الشمس فلا تحجب الحرارة ، وهنا يلجأون إلى جَعْل السقف من طبقتين بينهما مسافة لتقليل حرارة الشمس .

وهنا نقول : إن الظلّ نفسه مُظلّل ، وكذلك الحال فى ظل الأشجار حيث يظلّل الورق بعضه بعضاً ، فتشعر تحت ظلّ الأشجار بجوٍّ لطيف بارد حيث يغطيك ظلٌّ ظليل يحجب عنك ضوء الشمس ، ويسمح بمرور الهواء فلا تشعر بالضيق .

لذلك فالشاعر يقول فى وصف روضة :

وَقَانَا لَفْحةَ الرمْضَاءِ وَادٍ سَقَاهُ مضاعف الغيْثِ العَمِيمِ
يَصُدُّ الشمسَ أنَّى وَاجهتْنا فيحجُبها ويأذنُ للنسِيمِ

وهكذا الأشجار تحجب عنا الضارّ ، وتسمح بالنافع .

وقوله : ﴿ أَكْنَانًا .. (٨١) ﴾ [النحل]

جمع كِنّ ، وهو الكهف أو المغارة فى الجبل تكون سكناً وساتراً لمن يلجأ إليها ويحتمى بها ، والكِنّ من الستر ؛ لأنها تستر الناس ونحن نقول مثلاً للولد : انكنْ يعنى : اسكُنْ وانستر .

ويقول تعالى :

﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١) ﴾ [النحل]

السرابيل : هى ما يُلبس من الثياب أو الدروع :

﴿ تَقِيكُمُ الْحَرَّ .. (٨١) ﴾ [النحل]

أى : تحميكم من الحر .. فقال هنا الحر أيضاً ؛ لذلك وجدنا بعض العلماء يحاول أن يجد مخرجاً لهذه الآية فقال : المعنى تقيكم الحر وتقيكم البرد ، ففى الآية اكتفاءٌ بالحر عن البرد ؛ لأن الشىء إذا جاء يأتى مقابله .. فليس بالضرورة ذِكر الحالتين ، فإحداهما تعنى الأخرى .

هذا دفاع مشكور منهم ، ومعنى مقبول حول هذه الآية .. لكن لو فَطنَّا إلى باقى الآيات التى تحدثتْ فى هذا الموضوع لوجدناها : واحدة تتكلم عن الحر ، وهى هذه الآية ، وأخرى تتكلّم عن البرد فى فى قوله تعالى :

﴿ وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ .. ۝٥ ﴾ [النحل]

أى : من جلود الأنعام وأصوافها نتخذ ما يقينا البرد ، وما نستدفىء به .. وهكذا تتكامل الآيات وينسجم المعنى .

والمتأمل فى تدفئة الإنسان يجد أن ما يرتديه من ملبوسات لا يعطى للإنسان حرارة تُدفئه ، بل تحفظ للإنسان حرارة جسمه فقط ، فحرارة الإنسان ذاتية من داخله ، وبهذه الحرارة يحفظ الخالق سبحانه الإنسان .

والأطباء يقولون : إن الجسم السليم حرارته ٣٧° لا تختلف إنْ عاش عند خط الاستواء أو عاش فى بلاد الاسكيمو فى القطب الشمالى ، فهذه هى الحرارة العامة للجسم .

فى حين أن أجهزة الجسم المختلفة ربما اختلفتْ درجة حرارتها ، كُلٌّ حَسب ما يناسبه : فالكبد مثلاً درجة حرارته ٤٠° ، وتختلّ

وظيفتـه إذا نقصت عن هذه الدرجة ، فى حين أن درجـة حرارة جَفْن العين مثلا ٩° ، ولو ارتفعت درجة حرارتها تذوب حبّة العين ، ويفقد الإنسان البـصر .. فسـبحان الله الـذى حفظ حرارة هذه الأعـضاء فى الجسم لا يطغى أحدها على الآخر .

لذلك حـينمـا سافـرنا إلى أمـريكا ، وفى إحـدى مناطق البـرودة الشـديدة كانت أول نصـائحهم لنا ألاّ نـمسك آذاننا بأيدينا .. لمـاذا ؟ قالـوا : لأن درجة حرارة اليـد أقلّ من درجة حـرارة الأذن ، ووَضْع اليد الباردة على الأذن قد تُسبِّب كثيراً من الأضرار .

إذن : كل مـا نستـخدمـه من ملابس وأغـطية تقـينا برد الشتـاء لا تعطينا حـرارة ، بل تحفظ علينا حـرارتنا الطبيـعيـة فلا تتـسرب ، وبذلك تتم التدفئة .. وتستطيع أنْ تضـعَ يدك على فراشك قبل أن تنام فسوف تجده بارداً ، أما فى الصباح فتـجده دافئاً .. فالفراش اكتسب الحرارة من حرارة جسمك ، وليس العكس .

وقوله :

﴿ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ .. (٨١) ﴾ [النحل]

البـأس هنا : أى الحـرب ، والسـرابيل الـتى تقى من البـأس هى الدروع التى يلبسـها الجنود فى الحرب لتقيهم الضربات .

ولكن هذه الآية فى سـيـاق الحـديث عن بعض نِعَـم الله علينا فى الاستقرار والسكن وما جعله لنا من بيوت وظلال .. حياة دَعَة وسلام ونعمة ، فما الداعى لذكر الحرب هنا ؟

ذلك لأن الحـياةَ لهـا منطق سـلامة للجـمـيع ، فإن اخـتلّ منطق

السلامة فعلى الناس أنْ يقفوا فى وجه مَنْ يُخلّ بسلامة المجتمع .. وأن يكون على استعداد لذلك فى كل وقت ، لابُدّ فى وقت السِّلْم أنْ نَعُدَّ العُدّة للحرب ؛ لذلك تحدث عن الحرب وعُدتها ، وهو يتحدث عن السكون والاستقرار والنعمة .

والحق سبحانه وتعالى حين يُنزِل الآيات البينات التى تحمل لنا منهج السماء يقول :

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

هذا هو المنهج الذى يعتمد على الحجة والإقناع .. فإن لم يصلح هذا المنهج لبعض الناس وتمردوا عليه أتى إذن دور القوة والقهر ، يقول تعالى :

﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ[1] شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ .. (٢٥) ﴾ [الحديد]

وقوله :

﴿ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ .. (٨١) ﴾ [النحل]

كأن من تمام نعمة الله أنْ نحفظها ممنْ يُفسدها علينا ، ونقف له بالمرصاد ونضرب على يده ؛ لأنه لو تركنا هؤلاء المفسدين فى مجتمعنا فسوف يُفسدون علينا هذه النِّعم ، وسنظل مُهددّين ، لا نشعر بلذة الحياة ومُتعها .

---

(١) البأس : الشدة والقوة . قوله تعالى : ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ .. (٢٥) ﴾ [الحديد] أى : قوة وصلابة . [القاموس القويم ١/٥٢] .

إذن : لا تتم النعمة إلا بحفظ السلامة العامة للمجتمع .

وقوله : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [النحل]

تُسلمون : أى تُلْقون زمام الاستسلام إلى الله الذى أسلمتَ له ، وأنت لاَ تُلقى زمامك إلا لمنْ تثق فيه .. والإنسان قد يُلقى زمامه فى أمر لا يجيده إلى إنسان مثله يُجيد هذا الأمر ، فإذا كنتَ فى حاجات نفسك تُلقى زمامك لمن هو مثلك ، ويساويك فى قلّة المعلومات ، ويساويك فى قلّة الحكمة ، ومع ذلك تُسلم إليه أمرك لمجرد أنه يجيد شيئاً لا تجيده أنت ، أفلا تُلقى زمامك وتُسلم أمرك إلى ربك وخالقك ، وخالق كُلّ هذه النعم من أجلك ؟

إذن : جاء ذكْر هذه النعم ، ثم الأمر بإسلام الوجه لله والتسليم له سبحانه حتى نُسلمَ عن يقين واقتناع ، فالحق تبارك وتعالى ليس له مصلحة فى طاعتنا ، ولا تضره معصيتنا ، إنْ أطعناه فلن نزيد فى مُلْكه سبحانه ، وإنْ عصيناه فلن ننقصَ من مُلْكه سبحانه .

إذن : تسليمنا الأمر والزمام لله من مصلحتنا نحن .. فالإنسان حينما يُسلم زمامه إلى غيره قد يكون للغير مصلحة تَلْوى رأيه فى المسألة ، إنَما ربُّنا سبحانه حينما يُوجِّه إلينا حُكْماً فليس له مصلحة فيه فلا يُلْوَى ، لا يكون إلاّ لصالحك .

وبعد أنْ عدّد هذه النعم فى الذات والمحيطات وفى السكن وفى الانطباعات . قال : إياك بعد ذلك أنْ تُسلمَ زمامك لغيرى ، وإنْ أجريتُ عليك ما يُخرجك عن نفع السلامة ؛ لأننى لا أجرى عليك ما يُخرجك عن نفس السلامة إلا لغرض أسلم منه .

لذلك نقول : لا عبادة كالتسليم ؛ لأن التسليم لحُكْمه تسليمٌ

لحكيم ، تسليمٌ لغير منتفع .. وما دُمْتَ قد سلمْتَ زمامك لربك عز وجل يُجلِّى لك الحكمة فيما جرى لك من الأحداث لتعلمَ رضاك عن حُكْمه لحكمته ، فتقول : أنا رضيتُ بحكمك يا رب .

ولذلك نقول فى الدعاء : أحمدك على كُلِّ قضائك ، وجميع قَدرِك حَمْد الرِّضا بحكمك لليقين بحكمتك .

أى : لك حكمة يارب فيما أجريتَ علىَّ من أحداث ، ولكنى لا أراها .

والذى يعلم مكانة التسليم لله تعالى فيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء لا يضجر ولا يسخط ؛ لأنه بذلك يُطيل على نفسه أمدَ القضاء ؛ لأن الله لا يرفع قضاءه عن عبده حتى يرضى به ، فالله تعالى لا مُجبر له .

فإن أردت رَفْع القضاء فارْضَ به أولاً ، وإذا لم يرفع عنك القضاء فاعلم أن مكان الرضى من نفسك لم يكُنْ مقبولاً ، قد ترضى بلسانك ولكن قلبك لا يزال ساخطاً ضَجِراً .

فالذى يُسلِم زَمامه إلى الله ويردّ كل حدث وقع أو بلاء نزل به يردُّه إلى الله ، وإلى حكمة مُجريه ، الله تعالى يقول له : لقد فهمتَ عنى ، ويرفع عنه البلاء .

وفى مقام التسليم لله دائماً نذكر قصة سيدنا إبراهيم حينما أمره ربه بذبح ولده إسماعيل ـ عليهما السلام .. وهل هناك بلاء أكثر من أن يُبتلَى الرجل بذبح ولده الذى رُزِقه على كِبَر ، ويذبحه هو بيده .

إنه ابتلاء من مراتب مُتعدِّدة ، ومن نَواحٍ مختلفة ، وليْتَ الأمر بوحى ظاهر ، ولكنه بمنام كان يستطيع أن يتأوّل فيه ، ولكن رؤيا الأنبياء حق .

ونرى إبراهيم ـ عليه السلام ـ يقصُّ على ولده المسألة حِرْصاً عليه أنْ يتحوّل قلبه عن أبيه ساعةَ يأخذه ليذبحه ، وأيضاً لكى يشاركه ولده فى الرضا بقدر الله ، ولا يحرم ثواب هذا الابتلاء .. فقال له :

﴿ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

فليس الغرض هنا أنْ يزعجه أو يُخيفه ، ولكن ليقول له : هذه مسألة تعبدية أمرنا بها الخالق سبحانه ليكون على بصيرة هو أيضاً ، ولا يتغير قلبه على أبيه .

ولذلك كان الولد حكيماً فى الرد ، فقال :

﴿ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ .. (١٠٢) ﴾ [الصافات]

ما دام الأمر من الله فافعل ، وهكذا سلّم إسماعيلُ كما سلَّم إبراهيم ، فقال تعالى :

﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ[1] لِلْجَبِينِ (١٠٣) ﴾ [الصافات]

أسلما : أى الأب والابن ، ورَضيا بقضاء الله ، جاء الفرج ورُفِع القضاء ، فقد فهم كل منهما الأمر عن الله ، فلم يرفع القضاء وفقط ، بل وفديناه بذبح عظيم ، ليس هذا وفقط ، بل ومنّنا عليه بولد آخر :

﴿ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ .. (١١٢) ﴾ [الصافات]

إذن : لعلكم تُسلمون زمامكم إلى الله ، وتعلمون أنه خلق لكم الكون قبل أن يُوجِدكم فيه ، وأمدّكم بكل متطلبات الحياة ضماناً لبقاء

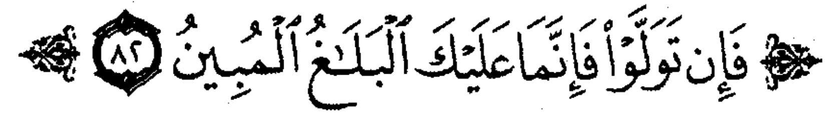
---

(١) تله : ألقاه على عنقه وخده . كما تقول كبّه لوجهه . [لسان العرب ـ مادة : تلل] .

حياتكم ، وضماناً لبقاء نوعكم ، ومتَّعكم هذه المتع .

فالذى أنعم عليكم بهذا كله عن غير حاجة له عندكم جديرٌ أنْ تُسلموا له زمام أمركم وتُسلموا له .

ثم يقول الحق سبحانه :



أى : لا تحزن يا محمد إذا أعرض قومك ، فلستَ مأموراً إلا بالبلاغ ، ويخاطبه الحق سبحانه فى آية أخرى :

﴿ لَعَلَّكَ بَاخِعٌ[1] نَّفْسَكَ أَلاَّ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝٣ ﴾ [الشعراء]

أى : مهلكها . وقال تعالى :

﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ۝٤ ﴾ [الشعراء]

لكن الدين لا يقوم على السيطرة على القالب ، وفَرْق بين السيطرة على القالب والسيطرة على القلب ، فيمكنك بمسدس فى يدك أنْ تُرغمنى على ما تريد ، لكنك لا تستطيع أبداً أن تُرغم قلبى على شىء لا يؤمن به ، والله يريد منّا القلوب لا القوالب ، ولو أراد منّا القوالب لجعلها راغمة خاضعة لا يشذّ منها واحد عن مراده سبحانه .

ولذلك حينما أرسل الله سليمان ـ عليه السلام ـ وجعله ملكاً رسولاً لم يقدر أحد أن يقف فى وجهه ، أو يعارضه لما له من

---

(١) بخع نفسه : قتلها هماً وغيظاً وحزناً . [القاموس القويم ١/٥٦] .

السلطان والقوة إلى جانب الرسالة .. أمّا الأمر فى دعوته ﷺ فقائم على البلاغ فقط دون إجبار .

وقوله : ﴿ الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : البلاغ التام الكامل الذى يشمل كل جزئيات الحياة وحركاتها ، فقد جاء المنهج الإلهى شاملاً للحياة بداية بقول : لا إله إلا الله حتى إماطة الأذى عن الطريق ، فلم يترك شيئاً إلا حدّثنا فيه ، فهذا بلاغ مبين محيط لمصالح الناس .. فلا يأتى الآن مَنْ يتمحّك ويقول : ربنا ترك كذا أو كذا .. فمنهج الله كامل ، فلو لم تأخذوه ديناً لوجب عليكم أن تأخذوه نظاماً .

ونرى الآن الأمم التى تُعادى الإسلام تتعرّض لمشاكل فى حركة الحياة لا يجدون لها حَلاً فى قوانينهم ، فيضطرون لحلول أخرى تتوافق تماماً أو قريباً من حلّ القرآن ومنهج الحق سبحانه وتعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾ ﴾

وقد حكى القرآن عنهم فى آيات أخرى :

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقال عنهم :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ .. ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

ذلك لأنهم يعلمون تماماً أن الله خلقهم ، وأنه خلق السموات والأرض .. يعلمون كل نِعَم الله عليهم ، ومع ذلك يُنكرونها ويجحدونها .. لماذا ؟

لأن الإيمان بالله والاعتراف بنعمه مسألة شاقة عليهم ، ولو كانت مجرد كلمة تُقال لقالوها .. ما أسهل أنْ يقولوا « لا إله إلا الله » لكنهم يعلمون أن : لا إله إلا الله لها مطلوبات ، فما دام لا إله إلا الله ، فلا يُشرِّع إلا الله ، ولا يأمر إلا الله ، ولا يَنْهى إلا الله ، ولا يُحِلُّ إلا الله ، ولا يُحرِّم إلا الله .

إذن : مطلوبات لا إله إلا الله جعلتهم فى قالب من حديد ، منضبطين بمنهج يهدم سيادتهم ، ويمنع الطغيان والجبروت ، منهج يُسوِّى بين السادة والعبيد .

إذن : الدين الحق يُقيِّد حركتهم ، وهم لا يريدون ذلك ، فتراهم يعرفون الله ولا يؤمنون به ؛ لأنهم يعلمون مطلوبات لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وإلا لو كانت مجرد كلمة لقالوها .

وقوله :

﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣) ﴾ [النحل]

بعض العلماء يقولون : أكثرهم يعنى كلهم .. لا .. بل هذا أسلوب قرآنى لصيانة الاحتمال وللاحتياط للقلة التى تفكر فى الإسلام ويراودها أمر هذا الدين الجديد من هؤلاء الكفار ، لابدّ أنْ نُراعى أمر هذه القلة ، ونترك لهم الباب مفتوحاً ، فالاحتمال هنا قائم ..

فلو قال القرآن : كلهم كافرون لتعارض ذلك مع هؤلاء الذين

يفكرون فى أنْ يُسلموا .. وكذلك مراعاة لهؤلاء الذين لم يبلغوا حَدَّ التكليف من أبناء الكفار .

إذن : قوله ﴿ وأكْثرهُمْ ﴾ تعبير دقيق ، فيه ما نُسمّيه صيانة الاحتمال .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى يُنبّهنا هنا إلى أن المسألة ليست ديناً ، وتنتهى القضية آمن مَنْ آمن ، وكفر مَنْ كفر .. إنما ينتظرنا بعث وحساب وثواب وعقاب .. مرجع إلى الله تعالى ووقوف بين يديه ، فإنْ لم تذكر الله بما أنعم عليك سابقاً فاحتط للقائك به لاحقاً .

والشهيد : هو نبىٌّ الأمة الذى يشهد عليهم بما بلّغهم من منهج الله .

وقال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا .. ﴿١٤٣﴾ ﴾ [البقرة]

فكأن أمة محمد ﷺ أعطاها الله أمانة الشهادة على الخَلْق لأنها بلغتهم ، فكل مَنْ آمن برسول الله ﷺ مطلوب منه أن يُبلّغ ما بلَّغه الرسول ، ليكون شاهداً على مَنْ بلغه أنه بلَّغه :

﴿ ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا .. (٨٤) ﴾ [النحل]

فحينما يشهد عليهم الشهيد لا يُؤْذَن لهم فى الاعتذار ، كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ (٣٦) ﴾ [المرسلات]

أو حينما يقول أحدهم :

﴿ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ .. (١٠٠) ﴾ [المؤمنون]

فلا يُجَاب لذلك ؛ لأنه لو عاد إلى الدنيا لفعل كما كان يفعل من قبل ، فيقول تعالى :

﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .. (٢٨) ﴾ [الأنعام]

وقوله :

﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) ﴾ [النحل]

يستعتبون : مادة استعتب من العتاب ، والعتاب مأخوذ من العَتْب ، وأصله الغضب والموجدة تجدها على شخص آخر صدر منه نحوك ما لم يكن مُتوقّعاً منه .. فتجد فى نفسك موجدة وغضباً على مَنْ أساء إليك .

فإن استقرّ العَتْب الذى هو الغضب والموجدة فى النفس ، فأنت إمّا أنْ تعتب على مَنْ أساء إليك وتُوضّح له ما أغضبك ، فربما كان له عُذْر ، أو أساء عن غير قصد منه ، فإن أوضح لك المسألة وأرضاك وأذهب غضبك فقد أعتبك .. فنقول : عتَب فلان على فلان فأعتبه ، أى : أزال عَتْبه .

والإنسان لا يُعاتب إلا عزيزاً عليه يحرص على علاقته به ، ويضعه موضعاً لا تتأتى منه الإساءة ، ومن حقه عليك أن تعاتبه ولا تدعْ هذه الإساءة تهدم ما بينكما .

إذن : معنى :

﴿ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) ﴾ [النحل]

أى : لا يطلب أحد منهم أنْ يرجعوا عما أوجب العَتْب وهو كفرهم .. فلم يَعُد هناك وقت لعتاب ؛ لأن الآخرة دار حساب ، وليست دار عمل أو توبة .. لم تَعُدْ دارَ تكليف .

ويقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) ﴾

﴿ رأى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ .. (٨٥) ﴾ [النحل]

كأن العذاب سيُنصب أمامهم ، فيرونه قبل أن يباشروه ، وهكذا يجمع الله عليهم ألواناً من العذاب ؛ لأن إدراكات النفس تتأذى بالمشاهدة قبل أنْ تألم الأحاسيس بالعذاب ؛ لذلك قال :

﴿ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ .. (٨٥) ﴾ [النحل]

وقوله : ﴿ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ .. (٨٥) ﴾ [النحل]

أى : لا يُمْهَلُون ولا يُؤَجّلون .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا رَءَا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) ﴾

ذلك حينما يجمع الله المشركين وشركاءهم من شياطين الإنس والجن والأصنام ، وكل مَنْ أشركوه مع الله وَجْهاً لوجه يوم القيامة ، وتكون بينهما هذه المواجهة .. حينما يرى المشركون شركاءهم الذين أضلّوهم وزيّنوا لهم المعصية ، وزيّنوا لهم الشرك والكفر بالله .. يقولون : هؤلاء هم سببُ ضلالنا وكُفْرنا .. كما قال تعالى عنهم فى آية أخرى :

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ (١٦٦) ﴾ [البقرة]

ويقول تعالى :

﴿ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) ﴾ [سبأ]

وقوله :

﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ .. (٨٦) ﴾ [النحل]

أى : ردُّوا عليهم بالمثل ، وناقشوهم بالحجة ، كما قال تعالى فى حَقّ الشيطان .

﴿ ومَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي ولُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[1] ومَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

إذن : ردّوا عليهم القول : مـا كان عليكم سلطان . نحن دعوناكم فاستجبتم لنا ، ولم يكن لنا قوة تُرغمكم على الفعل ، ولا حُجّة تُقنعكم بالكفر ؛ ولذلك يتهمونهم بالكذب :

﴿ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) ﴾ [النحل]

أى : كاذبون فى هذه الدعوى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَلْقَوْا إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ[2] وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾

السَّلَم : أى الاستسلام .. فقد انتهى وقت الاختيار ومضى زمن المهْلة ، تعمل أو لا تعمل . إنما الآن ﴿ لمن الملك اليوم ﴾ ؟ الأمر والملك لله ، وما داموا لم يُسلّموا طواعية واختياراً ، فلْيُسلّموا له قَهْراً ورَغْماً عن أنوفهم .

وهنا تتضح لنا مَيْزة من مَيْزات الإيمان ، فقد جعلنى أستسلم لله

(١) المُصرخ : المغيث المنقذ من يستصرخه . واستصرخه : استغاث به . [القاموس القويم ١/٣٧٣] .

(٢) أى : استسلم المشركون لعذابه وخضعوا لعزه . وقيل : استسلم العابد والمعبود وانقادوا لحكمه فيهم . [تفسير القرطبى ٥/٣٨٩٠] .

عز وجل مختاراً ، بدل أنْ أستسلمَ قَـهْراً يوم أنْ تتكشّف الحقيقة على أنه لا إله إلا الله ، وسوف يُواجهنى سبحانه وتعالى فى يوم لا اختيار لى فيه .

وقوله :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [النحل]

كلمة : الضـلال تردُ بمعانٍ مـتعددة ، منهـا : ضلَّ أى غاب عنهم شفـعاؤهم ، فـأخذوا يبـحثـون عنهم فلم يجدوهم ، ومن هذا المـعنى قوله تعالى :

﴿ أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ .. ﴿١٠﴾ ﴾ [السجدة]

أى : يغيـبوا فى الأرض ، حـيث تأكل الأرض ذرّاتهم ، وتُغيِّـبهم فى بطنهـا .. وكذلك نقـول : الضالة أى الدابة التى ضلّتْ أى : غـابتْ عن صـاحبها .

ومن معانى الضلال : النسيان ، ومنه قوله تعالى :

﴿ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَىٰ ..﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة]

ومن معانيه : التردد ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ [الضحى]

فلم يكُنْ لرسول الله ﷺ مـنهج ثم تركه وانصرف عنه وفـارقه ، ثم هداه الله .. بل كان ﷺ مُتحيّراً مُتردّداً فيما عليه سادة القوم وأهل العقـول الراجحة من أفـعال تتنافى مع العقل السلـيم والفطرة النَّيرة ،

فكانت حيرة الرسول ﷺ فيما يراه من أفعال هؤلاء وهو لا يعرف حقيقتها .

فقوله :

﴿ وَضَلَّ عَنْهُم .. (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : غاب عنهم :

﴿ مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) ﴾ [النحل]

أى : يكذبون من ادعائهم آلهةً وشفعاءَ من دون الله .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾

هنا فرْق بين الكفر والصَّدِّ عن سبيل الله ، فالكفر ذنب ذاتىّ يتعلق بالإنسان نفسه ، لا يتعدّاه إلى غيره .. فاكفُرْ كما شئت ـ والعياذ بالله ـ أنت حر !!

أما الصدُّ عن سبيل الله فذنبٌ مُتعدٍّ ، يتعدّى الإنسان إلى غيره ، حيث يدعو غيره إلى الكفر ، ويحمله عليه ويُزيّنه له .. فالذنب هنا مضاعف ، ذنب لكفره فى ذاته ، وذنب لصدّه غيره عن الإيمان ، لذلك يقول تعالى فى آية أخرى :

﴿ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ .. (١٣) ﴾ [العنكبوت]

فإنْ قال قائل : كيف وقد قال تعالى :

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ .. (١٦٤) ﴾ [الأنعام]

نقول : لا تعارضَ بين الآيتين ، فكل واحد سيحمل وزْره ، فالذى صَدَّ عن سبيل الله يحمل وِزْريْن ، أما مَنْ صدَّه عن سبيل الله فيحمل وِزْر كفره هو .

وقوله :

﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ .. (٨٨) ﴾ [النحل]

العذاب الأول على كفرهم ، وزِدْناهم عذاباً على كفر غيرهم مِمَّنْ صدُّوهم عن سبيل الله .

ولذلك فالنبى ﷺ يقول : « مَنْ سَنَّ سُنة حسنة فله أجرها وأجر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة ، ومَنْ سَنَّ سنة سيئة فعليه وزرها ووزر مَنْ عمل بها إلى يوم القيامة »[1] .

فإياك أنْ تقعَ عليك عيْن المجتمع أو أُذنه وأنت فى حال مخالفة لمنهج الله ؛ لأن هذه المخالفة ستؤثر فى الآخرين ، وستكون سبباً فى مخالفة أخرى بل مخالفات ، وسوف تحمل أنتَ قِسْطاً من هذا .. فأنت مسكين تحمل سيئاتك وسيئات الآخرين .

وقوله :

﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) ﴾ [النحل]

والإفساد : أنْ تعمدَ إلى شىء صالح أو قريب من الصلاح

(١) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٣٦١/٤ ، ٣٦٢) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٧) والترمذى فى سننه (٢٦٧٥) عن جرير بن عبد الله ، قال الترمذى : حديث حسن صحيح .

فتُفسده ، ولو تركتَه وشأنه لربما يهتدى إلى منهج الله .. إذن : أنت أفسدتَ الصالح ومنعت القابل للصلاح أن يُصلح .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩) ﴾

قوله :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

يعنى من جنسهم . والمراد : أهل الدعوة إلى الله من الدُّعَاة والوعاظ والأئمة الذين بلّغوا الناس منهج الله ، هؤلاء سوف يشهدون أمام الله سبحانه على مَنْ قصّر فى منهج الله .

وقد يكون معنى :

﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

أى : جزء من أجزائهم وعضواً من أعضائهم ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ [النور]

وقوله : ﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا .. (٢١) ﴾ [فصلت]

والشهيد إذا كان من ذات الإنسان وبعض من أبعاضه فلا شكَّ أن حجته قوية وبيِّنته واضحة .

وقوله :

﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَـٰؤُلاءِ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

أى : شهيداً على أمتك كأنه ﷺ شهيد على الشهداء .

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ .. (٨٩) ﴾ [النحل]

الكتاب : القرآن الكريم .. تبياناً : أى بياناً تاماً لكل ما يحتاجه الإنسان ، وكلمة (شىء) تُسمَّى جنس الأجناس . أى : كل ما يُسمَّى « شىء » فبيانُه فى كتاب الله تعالى .

فإنْ قال قائل : إنْ كان الأمر كذلك ، فلماذا نطلب من العلماء أن يجتهدوا ليُخرجوا لنا حكْماً مُعيّناً ؟

نقول : القرآن جاء معجزة ، وجاء منهجاً فى الأصول ، وقد أعطى الحق تبارك وتعالى لرسوله ﷺ حقَّ التشريع ، فقال تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

إذن : فسُنّة الرسول ﷺ قَوْلاً أو فعْلاً أو تقريراً ثابتة بالكتاب ، وهى شارحة له ومُوضّحة ، فصلاة المغرب مثلاً ثلاث ركعات ، فأين هذا فى كتاب الله ؟ نقول فى قوله تعالى :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ .. (٧) ﴾ [الحشر]

وقد بيَّن الرسول ﷺ هذه القضية حينما أرسل معاذ بن جبل

رضى الله عنه ـ قاضياً لأهل اليمن ، وأراد أن يستوثق من إمكانياته فى القضاء . فسأله : « بِمَ تقضى ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : فبُسنة رسول الله ، قال : فإنْ لم تجد ؟ قال : أجتهد رأيى[1] ولا آلو ـ أى لا أُقصّر فى الاجتهاد .

فقال ﷺ : « الحمد لله الذى وفَّق رسولَ رسولِ الله لما يُرضى الله ورسوله »[2] .

إذن : فالاجتهاد مأخوذ من كتاب الله ، وكل ما يستجد أمامنا من قضايا لا نصّ فيها ، لا فى الكتاب ولا فى السنة ، فقد أبيح لنا الاجتهادُ فيها .

ونذكر هنا أن الإمام محمد عبده[3] ـ رحمه الله ـ حُدِّث عنه وهو فى باريس أن أحد المستشرقين قال له : أليس فى آيات القرآن :

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

قال : بلى ، قال له : فهات لى من القرآن : كم رغيفاً يوجد فى أردب القمح ؟

---

(١) قال الخطابى فى « معالم السنن » : « يريد الاجتهاد فى رد القضية من طريق القياس إلى معنى الكتاب والسنة ، ولم يرد الرأى الذى يسنح له من قبل نفسه أو يخطر بباله من غير أصل من كتاب أو سنة ، وفى هذا إثبات القياس وإيجاب الحكم به » . نقله شمس الحق العظيم آبادى فى « عون المعبود شرح سنن أبى داود » (٩/٣٦٩) .

(٢) أخرجه الإمام أحمد فى مسنده (٥/٢٣٠ ، ٢٣٦ ، ٢٤٢) ، وأبو داود فى سننه (٣٥٨٧) ، والترمذى فى سننه (١٣٢٧) من حديث معاذ بن جبل رضى الله عنه .

(٣) مفتى الديار المصرية ، من كبار رجال الإصلاح والتجديد فى الإسلام ، ولد ١٨٤٩ م فى قرية من قرى الغربية بمصر ، تعلم بالجامع الأحمدى بطنطا ثم الأزهر ، له « تفسير القرآن الكريم » ورسالة التوحيد . أصدر مع الأفغانى جريدة « العروة الوثقى » فى باريس ، توفى بالأسكندرية عام ١٩٠٥ عن ٥٦ عاماً . [الأعلام للزركلى ٦/٢٥٢] .

فقال الشيخ : نسأل الخباز فعنده إجابة هذا السؤال .. فقال المستشرق : أريد الجواب من القرآن الذى ما فرط فى شىء ، فقال الشيخ : هذا القرآن هو الذى علَّمنا فيما لا نعلم أن نسأل أهل الذكر ، فقال :

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٧) ﴾ [الأنبياء]

إذن : القرآن أعطانى الحجة ، وأعطانى ما أستند إليه حينما لا أجد نصاً فى كتاب الله ، فالقرآن ذكر القواعد والأصول ، وأعطانى حَقَّ الاجتهاد فيما يعِنّ لى من الفروع ، وما يستجدّ من قضايا ، وإذا وُجد فى القرآن حكم عام وجب أن يُؤخذ فى طيّه ما يُؤخذ منه من أحكام صدرت عن رسول الله ﷺ ؛ لأن الله وكله.

فقال :

﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. (٧) ﴾ [الحشر]

وكذلك الإجماع من الأمة ؛ لأن الله تعالى قال :

﴿ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ[1] مَا تَوَلَّىٰ .. (١١٥) ﴾ [النساء]

وكل اجتهاد يُرَدُّ إلى أهل الاجتهاد :

﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ .. (٨٣) ﴾ [النساء]

---

(١) نوله ما تولى : أى نوجهه إلى ما أحب ، أى : نيسره إلى ما فضله ، فنتركه فى ضلاله الذى آثره وأحبه ، أو نمكنه من السير فى ضلاله حتى يلقى جزاءه . [القاموس القويم ٣٥٩/٢] .

إذن : فكلّ مـا صدر عن الرسـول ﷺ وعن الإجماع وعـن الأئمة المجتهدين موجود فى القرآن ، فهو إذن صادق .

ويجب هنا أن نُفرّق بين الأشياء والقضايا فـهى كثيرة ، فما الذى يتعـرّض له القرآن ؟ يتـعرض القرآن للأحكـام التكليفيـة المطلوبة من العبد الذى آمن بالله ، وهناك أمور كونيـة لا يتأثر انتفاع الإنسان بها بأنْ يعلمهـا ، فهو ينتـفع بها سـواء علمها أو جـهلها ، فكوْنُ الأرض كُروية الشكل ، وكَـوْنها تدور حـول الشمس ، وغيـر هذه الأمور من الكونيـات إنْ علمهـا فـبها ونعمتْ ، وإنْ جـهلهـا لا يمنعه جـهله من الانتفاع بها .

فالأمىّ الذى يعيش فى الريف مثلاً ينتفع بالكهرباء ، وهو لا يعلم شيـئاً عن طبيعـتها وكيـفية عملـها ، ومع ذلك ينتفع بها ، مـجرد أن يضع أصبعه على زِرّ الكهرباء تُضىء له .

فلو أن الحق تبارك وتعالى أبان الآيات الكونية إبانةً واضحة ربما صدَّ العرب الذين لا يعرفون شيئاً عن حركة الكون ، وليس لديهم من الثقـافة ما يفـهمـون به مقاصـد القرآن حول الآيات الكـونية ؛ ولذلك سـألوا رسول الله ﷺ عن الأهلّة ، كما حكى القرآن الكريم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ .. (١٨٩) ﴾ [البقرة]

والأهلة : جمع هـلال ، وهو ما يظهر من القـمر فى بداية الشـهر حيث يـبدو مثل قـلامة الظفـر ، ثم يزداد تدريجيـاً إلى أنْ يصل إلى مرحلة البـدر عند تمام استـدارته ، ثم يتناقص تدريجيـاً أيضاً إلى أنْ يعودَ إلى ما كان عليه ، هذه عجيبة يرونها بأعينهم ، ويسألون عنها .

ولكن ، كيف رَدَّ عليهم القرآن ؟ لم يُوضح لهَم القرآن الكريم كيف يحدث الهلال ، وأن الأرض إذا حالَتْ بين الشمس والقمر وحجبت عنه ضوء الشمس نتج عن ذلك وجود الهلال ومراحله المختلفة .

فهذا التفصيل لا تستوعبه عقولهم ، وليس لديهم من الثقافة ما يفهمون به مثل هذه القضايا الكونية ؛ لذلك يقول لهم : اصرفوا نظركم عن هذه ، وانظروا إلى حكمة الخالق سبحانه فى الأهلة :

﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]

فردّهم إلى أمر يتعلق بدينهم التقليدى ، فاهتمّ ببيان الحكمة منها ، وفى نفس الوقت ترك هذه المسألة للزمن يشرحها لهم ، حيث سيجدون فى القرآن ما يُعينهم على فَهمْ هذا الموضوع .

إذن : قوله تعالى :

﴿مِن شَيْءٍ .. (٣٨)﴾ [الأنعام]

أى : من كل شىء تكليفىّ ، إنْ فعله المؤمن أثيب ، وإنْ لم يفعله يُعاقب ، أما الأمور الكونية فيعطيهم منها على قدر وَعْيهم لها ، ويترك للزمن مهمة الإبانة بما يحدث فيه من فكر جديد .

لذلك نرى القرآن الكريم لم يفرغ عطاءه كله فى القرن الذى نزل فيه ، فلو فعل ذلك لاستقبل القرون الأخرى بغير عطاء ، فالعقول تتفتّح على مَرِّ العصور وتتفتّق عن فكر جديد ، ولا يصح أنْ يظلّ العطاء الأول هو نفسه لا يتجدد ، لابُدّ أن يكون لكل قرن عطاء جديد يناسب ارتقاءات البشر فى علومه الكونية .

والرسول ﷺ حينما رأى الناس يُؤبّرون النخل ، أى : يُلقّحونه . وهو ما يُعرف بعملية الإخصاب ، حيث يأخذون من الذكر ويضعون فى الأنثى ، فماذا قال لهم ؟ قال : لو لم تفعلوا لأثمر ، ففى الموسم القادم تركوا هذه العملية فلم يُثمر النخل ، فلما سئل ﷺ فى ذلك قال : « أنتم أعلم بشئون دنياكم »(١) .

فهذا أمر دنيوى خاضع للتجربة ووليد بَحْث معملىّ ، وليس من مهمة الرسول ﷺ توضيح هذه الأمور التى يتفق فيها الناس وتتفق فيها الأهواء ، إنما الأحكام التكليفية التى تختلف فيها الأهواء ، فحسمها الحق بالحكم .

فمثلاً فى العالم موجاتٌ مادية تهتم بالاكتشافات والاختراعات والاستنباطات التى تُسخر أسرار الكون لخدمة الإنسان ، فهل يختلف الناس حول مُعْطيات هذه الموجة المادية ؟ هل نقول مثلاً : هذه كهرباء أمريكانى ، وهذه كهرباء روسى ؟ هل نقول : هذه كيمياء إنجليزى ، وهذه كيمياء ألمانى ؟

فهذه مسألة وليدة المعمل والتجربة يتفق فيها كل الناس ، فى حين نجدهم يختلفون فى أشياء نظرية ويتحاربون من أجلها ، فهذه اشتراكية ، وهذه رأسمالية ، وهذه وجودية ، وتلك علمانية .. الخ ، فجاء الدين ليحسمَ ما تختلف فيه الأهواء .

لذلك نرى كل معسكر يحاول أنْ يسرقَ ما توصّل إليه المعسكر الآخر من اكتشافات واختراعات ، ويرسل جواسيسه ليتابعوا أحدث

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٣٦٣) من حديث أنس بن مالك أن النبى ﷺ مرَّ بقوم يلقحون . فقال : لو لم تفعلوا لصلح . قال : فخرج شيصاً فمر بهم فقال : ما لنخلكم ؟ قالوا : قلت كذا وكذا . قال : « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

ما توصّل إليه غيرهم ، فهل يسرقون الأمور النظرية أيضاً ؟ لا .. بل على العكس تجدهم يضعون الحواجز والاحتياطات لكى لا تنتقل هذه المبادىء إلى بلادهم وإلى أفكار مواطنيهم .

وقد جعل الرسول ﷺ من نفسه مثالاً ونموذجاً لتوضيح هذه المسألة ، مع أنه قد يقول قائل : لا يصح فى حَقّ رسول الله أن يُشير على الناس بشىء ويتضح خطأ مشورته ، إنما الرسول هنا يريد أنْ يُوصّل قاعدة فى نفوس المتكلمين فى شئون الدين : إياكم أنْ تُقحموا أنفسكم فى الأمور المادية المعملية التطبيقية ، فهذه أمور يستوى فيها المؤمن والكافر .

ولذلك عندما اكتشف العلماء كُروية الأرض ، وأنها تدور حول الشمس اعترض على ذلك بعض رجال الدين ووضعوا أنوفهم فى قضية لا دَخْل للدين فيها ، وقد حذرهم رسول الله ﷺ من ذلك .

وما قولكم بعد أن صعد العلماء إلى كواكب أخرى ، وصوروا الأرض ، وجاءت صورتها كُروية فعلاً ؟ فلا تفتحوا على أنفسكم باسم الدين باباً لا تستطيعون غَلْقه .

وقوله تعالى :

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى وصف القرآن هنا بأنه (هُدىً) ، فإذا كان القرآن قد نزل تبياناً فكان التوافق يقتضى أن يقول : وهادياً ، لكن لم يَصف القرآن بأنه هاد ، بل هُدىً ، وكأنه نفس الهدى ؛ لأن هادياً ذاتٌ ثبت لها الهداية ، إنما هُدى : يعنى هو جوهر الهدى ، كما

نقول : فـلان عادل . وفى المـبالغـة نقول : فـلان عَدْل . كـأن العَدْل مجسّم فيه ، وليس مجرد واحد ثبتت له صفة العدل .

وكذلك مثل قولنا عالم وعليم ، وقد قال تعالى :

﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [يوسف]

فـما مـعنى الهدى ؟ هو الدلالة على الـطريق الموصّل للغـاية من أقرب الطرق .

﴿ ورَحْمَةً ﴾ مرّة يُوصَـف القرآن بأنه رحمة ، ومرة بأنه :

﴿ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ .. ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء]

والشفـاء : أن يُوجد داء يعالجـه القرآن ، والرحمـة : هى الوقاية التى تمنع وجود الداء ، وما دام القـرآن كذلك فَمنْ عمل بمنهجـه فقد بُشِّر بالثواب العظيم من الله تعالى ، الثواب الخالد فى نعيم دائم .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾

للحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ثلاثة أوامر : العدل ، والإحسان ، وإيتاء ذى القُـرْبى . وثلاثة نَواهٍ : عن الفحـشاء والمنكر والبـغى . ولما نزلت هذه الآية قـال ابن مَـسـعَـود : أجـمعُ آيات القـرآن للخـيـر هـذه

الآية[1] لأنها جمعتْ كل الفضائل التى يمكن أن تكون فى القرآن الكريم .

ولذلك سيدنا عثمان بن مظعون[2] كان رسول الله ﷺ يحب له أن يُسلم ، وكان يعرض عليه الإسلام دائماً ، ورسول الله ﷺ لا يحب عَرْض الإسَلام على أحد إلا إذا كان يرى فيه مخايل وشيَماً تحسن فى الإسلام .

وكأنه - ﷺ - ضَنَّ بهذه المخايل أن تكون فى غير مسلم ، لذلك كان حريصاً على إسلامه وكثيراً ما يعرضه عليه ، إلا أن سيدنا عثمان بن مظعون تريَّث فى الأمر ، إلى أن جلس مع الرسول ﷺ فى مجلس ، فرآه رفع بصره إلى السماء ثم تنبه ، فقال له ابن مظعون : ما حدث يا رسول الله ؟ فقال : إن جبريل - عليه السلام - قد نزل علىَّ الساعة بقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]

قال ابن مظعون - رضى الله عنه : فاستقر حبُّ الإيمان فى قلبى بهذه الآية الجامعة لكل خصال الخير[3] .

ثم ذهب فأخبر أبا طالب ، فلما سمع أبو طالب ما قاله ابن مظعون فى هذه الآية قال : يا معشر قريش آمنُوا بالذى جاء به محمد ، فإنه قد جاءكم بأحسن الأخلاق[4] .

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) .

(٢) هو : عثمان بن مظعون الجمحى ، أبو السائب ، صحابى ، كان من حكماء العرب فى الجاهلية ، أسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً ، هاجر إلى أرض الحبشة مرتين ، شهد بدراً ، لما مات جاءه النبى ﷺ فقبله ميتاً ، حتى رؤيت دموعه تسيل على خد عثمان . [الأعلام للزركلى ٤/٢١٤] .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٥٩) وعزاه لأحمد والبخارى فى الأدب وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وكذا أورده الواحدى فى أسباب النزول (١٦١) .

(٤) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩١) أن أبا طالب قال : اتبعوا ابن أخى ، فوالله إنه لا يأمر إلا بمحاسن الأخلاق.

ويُروى أن رسول الله ﷺ وهو يعرض نفسه على قبائل العرب ، وكان معه أبو بكر وعلى ، قال على : فإذا بمجلس عليه وقار ومَهَابة ، فأقبل عليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقام إليه مقرون بن عمرو وكان من شيبان ابن ثعلبة فقال : إلى أى شىء تدعونا يا أخا قريش ؟ فقال ﷺ :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠) ﴾ [النحل]

فقال مقرون : إنك دعوت إلى مكارم الأخلاق وأحسن الأعمال ، أُفِكتْ[1] قريش إن خاصمتْك وظاهرتْ عليك .

أخذ عثمان بن مظعون هذه الآية ونقلها إلى عكرمة بن أبى جهل ، فأخذها عكرمة ونقلها إلى الوليد بن المغيرة ، وقال له : إن آية نزلت على محمد تقول كذا وكذا ، فأفكر[2] الوليد بن المغيرة - أى : فكَّر فيما سمع - وقال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يُعْلَى عليه ، وما هو بقول بشر[3] .

ومع شهادته هذه إلا أنه لم يؤمن ، فقالوا : حَسْبُه أنه شهد للقرآن وهو كافر .

---

(١) الإفك : الكذب والإثم . والأفاك : الذى يأفك الناس أى يصدهم عن الحق بباطله . والمأفوك : المأفون وهو ضعيف العقل والرأى . [لسان العرب - مادة : أفك] .

(٢) فكرَ فى الشىء وأفكر فيه وتفكّر . بمعنى واحد . [لسان العرب - مادة : فكر] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) .

وهكذا دخلتْ هذه الآيةُ قلوبَ هؤلاء القوم ، واستقرتْ فى أفئدتهم ؛ لأنها آيةٌ جامعةٌ مانعةٌ ، دعَتْ لكل خير ، ونَهتْ عن كل شر .

قوله : ﴿ إنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

ما العدل ؟ العدل هو الإنصاف والمساواة وعدم الميْل ؛ لأنه لا يكون إلا بين شيئين متناقضين ، لذلك سُمِّى الحاكم العادل مُنْصفاً ؛ لأنه إذا مَثَلَ الخصمان أمامه جعل لكل منهما نصفَ تكوينه ، وكأنَه قسَم نفسه نصفين لا يميل لأحدهما ولا قَيْد شعرة ، هذا هو الإنصاف .

ومن أجل الإنصاف جُعل الميزان ، والميزان تختلف دقّته حَسْب الموزون ، فحساسية ميزان البُرّ غير حساسية ميزان الجواهر مثلاً ، وتتناهى دقّة الميزان عند أصحاب صناعة العقاقير الطبية ، حيث أقلّ زيادة فى الميزان يمكن أن تحوّل الدواء إلى سُمٍّ ، وقد شاهدنا تطوراً كبيراً فى الموازين ، حتى أصبحنا نزن أقلّ ما يمكن تصوّره .

والعدل دائر فى كل أقضية الحياة من القمة فى شهادة ألا إله إلا الله إلى إماطة الأذى عن الطريق ، فالعدل مطلوب فى أمور التكليف كلها ، فى الأمور العقدية التى هى عمل القلب ، وكذلك مطلوب فى الأمور العملية التى هى أعمال الجوارح فى حركة الحياة .

فكيف يكون العدل فى الأمور العقدية ؟

لو نظرنا إلى معتقدات الكفار لوجدنا بعضهم يقول بعدم وجود

إله فى الكون ، فأنكروا وجوده سبحانه مطلقاً ، وآخرون يقولون بتعدُّد الآلهة ، هكذا تناقضتْ الأقوال وتباعدتْ الآراء ، فجاء العدل فى الإسلام ، فالإله واحد لا شريك له ، مُنزَّه عمّا يُشبه الحوادث ، كما وقف موقفَ العدل فى صفاته سبحانه وتعالى .

فلله سَمْع ، ولكن ليس كأسماع المحدثات ، لا ننفى عنه سبحانه مثل هذه الصفات فنكون من المعطِّلة ، ولا نُشبِّهه سبحانه بغيره فنكون من المشبِّهة ، بل نقول : ليس كمثله شىء ، ونقف موقف العَدْل والوسطية .

كذلك من الأمور العقدية التى تجلَّى فيها عدل الإسلام قضية الجبر والاختيار ، حيث اختار موقفاً وسطاً بين مَنْ يقول إن الإنسان يفعل أفعاله باختياره دون دَخْل لله سبحانه فى أعمال العبد ؛ ولذلك رتَّبَ عليها ثواباً وعقاباً . ومن يقول : لا ؛ بل كل الأعمال من الله والعبد مُجْبَر عليها .

فيأتى الإسلام بالعدالة والوسطية فى هذه القضية فيقول : بل الإنسان يعمل أعماله الاختيارية بالقوة التى خلقها الله فيه للاختيار .

وفى التشريع والأحكام حدث تبايُن كبير بين شريعة موسى عليه السلام وبين شريعة عيسى عليه السلام - فى القصاص مثلاً : فى شريعة موسى حيث طغتْ المادية على بنى إسرائيل حتى قالوا لموسى عليه السلام :

﴿ أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً (١٥٣) ﴾ [النساء]

فهم لا يفهمون الغيب ولا يقتنعون به ، فكان المناسب لهم

القصَاص ولابُدّ ، ولو تركهم الحق سبحانه لَكَثُر فيهم القتل ، فهم لا ينتهون إلا بهذا الحُكْم الرادع : مَنْ قتَل يُقتلُ ، والقتل أنْفى للقتل .

وقد تعدّى بنو إسرائيل فى طلبهم رؤية الله ، فكوْنُك ترى الإله تناقض فى الألوهية ؛ لأنك حين تراه عينُك فقد حددّتَه فى حيّز .

إذن : كونه لا يرى عَيْن الكمال فيه سبحانه وتعالى . وكيف نطمع فى رؤيته جَلَّ وعلاَ ، ونحن لا نستطيع رؤية حتى بعض مخلوقاته ، فالروح التى بين جَنْبى كل منّا ماذا نعرف عن طبيعتها وعن مكانها من الجسم ، وبها نتحرك ونزاول أعمالنا ، وبها نفكّر ، وبها نعيش ، أين هى ؟!

فإذا ما فارقتْ الروح الجسم وأخذ الله سره تحول إلى جيفة يسارع الناس فى مواراتها التراب . هل رأيت هذه الروح ؟ هل سمعتها ؟ هل أدركتها بأى حاسّة من حواسك ؟!

فإذا كانت الروح وهى مخلوقة لله يعجز العقل عن إدراكها ، فكيف بمَنْ خلق هذه الروح ؟ فمن عظمته سبحانه أنه لا تُدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار .

كذلك هناك أشياء مما يتطلبها الدين كالحق مثلاً ، وهو معنىً من المعانى التى يدّعيها كل الناس ، ويطلبون العمل بها ، هذا الحق ما شكْله ؟ ما لونه ؟ طويل أم قصير ؟! فإذا كُنّا لا نستطيع أن نتصوّر الحق وهو مخلوق لله سبحانه ، فكيف نتصور الله ونطمع فى رؤيته ؟!

ومن إسـراف بنى إسـرائيل فى المـادية أن جـعلوا لله تعـالى فى التلمود جماعـة من النقباء ، وجعلوه سبحانه قـاعداً على صخرة يُدلى رِجْليْه فى قـصعة من المـرمر ، ثم أتى حوت .. الخ .. سبـحان الله ؛ ألهذا الحدِّ وصلتْ بهم المادية ؟

ومن هنا كان الكون فى حاجة إلى طاقة روحية ، تكون هى أيضاً مُسـرفة فى الروحـانية ليحـدث نوع من التوازن فى الكون ، فـجاءت شـريعة عـيسى ـ عـليه السـلام ـ بعد مـادية مُـفْرطة وإسـراف فى المـوسَوية ، فكـيف يكون حُكْم القـصاص فـيـها وهى تهـدف إلى أنْ تسموَ بروحانيات الناس ؟

جـاءت شريعـة عـيسى عليـه السلام تُهـدّىء الموقف إذا حـدث قتل ، فيكفى أن قُتِل واحـد ولنستبقى الآخر ولا نثيـر ضجّة ، ونهيج الأحـقـاد والترة بين الـنـاس ، فدَعَتْ هـذه الشـريعـة إلى العفـو عن القاتل .

ثم جاء الإسـلام ووقف موقف العدل والوسطـية فى هذا الحكم ، فأقرّ القصاص ودعا إلى العفـو ، فأعطى ولىَّ المقتول حَقّ القصاص ، ودعاه فى نفس الوقت إلى العفو فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ .. (١٧٨) ﴾ [البقرة]

ونلاحظ هنـا أن القـرآن جـعلهـم إخـوة لِيُـرقّق القـلوب ويُزيل الضغائن .

وللقصاص فى الإسلام حكَم عـالية ، فليس الهدف منه أن يُضخّم هذه الجريمة ، بل يهدف إلى حفظ حياة الناس كما قال تعالى :

﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَـٰأُولِي الأَلْبَابِ .. ﴿١٧٩﴾ ﴾ [البقرة]

فمن أراد أنْ يحافظَ على حياته فلا يُهدد حياة الآخرين .

وحينمـا يُعطى ربُّنا تبارك وتعـالى حقَّ القصـاص لولىِّ المقـتول ويُمكّنه منه تبردُ ناره ، وتهدأ ثورته ، فيفكر فى العفو وهو قادر على الانتقام ، وهكذا ينزع هذا الحكمُ الـغِلَّ من الصدور ويُطفِىء نار الثأر بين الناس .

ولذلك نرى فى بعض البلاد الـتى تنتشر فيـها عمليـة الثأر يأتى القاتل حاملاً كفنه على يده إلى ولىِّ المـقتول ، ويضـع نفسه بين يديه مُعترفاً بجريمته : ها أنا بين يديْك اقتلنى وهذا كفنِى .

مـا حدث ذلك أبداً إلا وعـفا صـاحب الحق وولىّ الدم ، وهذا هو العدل الذى جاء به الإسلام ، دين الوسطية والاعتدال .

هذا العفو من ولىّ الدم أداةُ بِـنَاء ، ووسيلة محبة ، فـحين نعطيه حَقّ القصاص ، ثم هو يعفو ، فقد أصـبحتْ حياة القاتل هبةً من ولىّ الدم ، فكأنه استـأثره واستبقـاه بعفوه عنه ، وهذا جمـيل يحفظه أهل القاتل ، ويقولون : هذا حقَن دم ابننا .

مـوقف آخـر لعدالة الإسـلام ووسطيـتـه نراها فى حُكْم الحـيض مثلاً ، فـفى شريعة موسى ـ عليه السلام ـ يُخـرج الزوج زوجته من البيت طوال مدة الحيض لا يجمعهما بيت واحد .

وفى شريعة عيسى ـ عليه السلام ـ لا مانع من وجودها فى البيت ، ولا مانع من معاشرتها والاستمتاع بها .

فجاء الإسلام بالعدل فى هذه القضية فقال : تبقى المرأة الحائض فى بيتها لا تخرج منه ، ولكن لا يقربها الزوج طوال مدة الحيض ، فقال تعالى :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) ﴾ [البقرة]

وكذلك لو أخذنا الناحية الاقتصادية فى حياتنا ، والتى هى عصب الحياة ، والتى بها يتم استبقاء الحياة بالطعام والشراب والملْبس وغيره ، وبها يتم استبقاء النوع بالزواج ، وكُل هذا يحتاج إلى حركة إنتاج ، وإلى حركة استهلاك ، وبالإنتاج والاستهلاك تستمر الحياة ، ولو توقف أحدهما لحدث فى المجتمع بطالة وفساد .

وبناء عليه وزّع الحق سبحانه وتعالى المواهب بين العباد ، فما أعرفه أنا أخدم به الكل ، وما يعرفه الكل يَخدمنى به ، وهكذا تستمر حركة الحياة .

والكون الذى تعيش فيه أنت لك فيه مصالح وتُراودك فيه آمال ، فإنْ شاركتَ فى حركة الحياة واكتسبتَ المال الذى هو عصبُ الحياة فعليك أن تُوازنَ بين متطلباتك العاجلة وآمالك فى المستقبل .

فلو أنفقتَ جميع ما اكتسبت فى نفقاتك الحاضرة فقد ضيَّعتَ على نفسك تحقيق الآمال فى المستقبل ، فلن تجد ما تبنى به بيتاً مثلاً ، أو تشترى به سيارة ، أو ترتقى بمستواك ببعض كماليات الحياة .

وهذا ما نسميه الإسراف .

وفى المقابل ، كما لا يليق بك الإسراف حتى لا يبقى عندك شيء ، وكذلك لا يليق بك التقتير والبخل والإمساك فتكنز كل ما تكتسب ، ولا تنفق إلا ما يُمسك الرمَق ؛ لأنك فى هذه الحالة لن تساهم فى عملية الاستهلاك ، فتكون سبباً فى بطالة المجتمع وفساد حاله .

وقد عالج القرآن هذه القضية علاجاً دقيقاً فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا (٢٩) ﴾ [الإسراء]

أى : لا تُمسك يدك بُخْلاً وتقتيراً ، فتكون ملُوماً من أهلك وأولادك ، ومن الدنيا من حولك ، فيكرهك الجميع ، وكذلك لا تبسط يدك بالإنفاق بَسْطاً يصل إلى حَدّ الإسراف والتبذير ، فيفوتك تحقيق الآمال وتتحسَّر حينما ترى المقتصد قد حقَّق ما لم تستطع أنت تحقيقه من آمال الحياة ، وترقّى هو فى حياته وأنت مُعْدم لا تملك شيئاً ، فكان عليك أن تدّخر جُزْءاً من كَسْبك يمكنك أن ترتقى به حينما تريد .

ولذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ (٢٧) ﴾ [الإسراء]

وقال : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا[1] وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ

---

(١) قتر الرجل على عياله : ضيَّق عليهم فى النفقة . [القاموس القويم ٢/ ٩٩] .

قَوَامًا ﴿٦٧﴾ [الفرقان]

إذن : فالعَدْل أمر دائر فى كل حركات التكليف ، سواء كان تكليفاً عَقَدياً ، أو تكليفاً بواسطة الأعمال فى حركة الحياة ، فالأمر قائم على الوسطية والاعتدال ، ومن هنا قالوا : خَيْر الأمور الوسط .

وقوله : ﴿ وَالإِحْسَانِ.. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

ما الإحسان ؟

إذا كان العدل أن تأخذ حقَّك ، وأنْ تُعاقب بمثل ما عُوقبت به كما قال تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ..﴿١٩٤﴾ ﴾

[البقرة]

وقوله : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. ﴿١٢٦﴾ ﴾ [النحل]

فالإحسان أنْ تتركَ هذا الحق ، وأنْ تتنازلَ عنه ابتغاءَ وجه الله ، عملاً بقوله تعالى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ ﴾

[آل عمران]

والناس فى الإحسان على مراتب مختلفة حسب قدرة الإنسان واستِعداده الخُلقى .

وأول هذه المراتب كظم الغيظ ، من كَظْم القِرْبة المملوءة ،

فالإنسان يكظم غَيْظه فى نفسه ، ويحتمل ما يَعتلج بداخله على المذنب دون أن يتعدَّى ذلك إلى الانفعال والردّ بالمثل ، ولكنه يظل يعانى ألم الغيظ بداخله وتتأجج ناره فى قلبه .

لذلك يحسُن الترقى إلى المرتبة الأعلى ، وهى مرتبة العفو ، فيأتِى الإنسان ويقول : لماذا أدَعُ نفسى فريسة لهذا الغيظ ؟ لماذا أشغل به نفسى ، وأُقَاسى ألمه ومرارته ؟ فيميل إلى أنْ يُريح نفسه ويقتلع جذور الغيظ من قلبه ، فيعفو عمَّنْ أساء إليه ، ويُخرِج المسألة كلها من قلبه .

فإنِ ارتقى الإنسان فى العفو ، سعى إلى المرتبة الثالثة ، وهى مرتبة أن تُحسن إلى مَنْ أساء إليك ، وتزيد عما فرضَ لك حيث تنازلتَ عن الردِّ بالمثل ، وارتقيتَ إلى درجة العارفين بالله ، فالذى اعتدى اعتدى بقدرته ، وانتقم بما يناسبه ، والذى ترقَّى فى درجات الإحسان ترك الأمر لقدرة الله تعالى ، وأيْن قدرتُك من قدرة ربك سبحانه وتعالى ؟

إذن : فالإحسان أجمل بالمؤمن ، وأفضل من الانتقام .

لكن كيف يصل الأمر إلى أنْ تعفوَ عمَّنْ أساء ، بل إلى أنْ تُحسِن إليه ؟

نقول : هَبْ أن لك ولديْن اعتدى أحدهما على الآخر وأساء إليه ، فماذا يكون موقفك منهما ؟ وإلى أيِّهما يميل قلبك ؟

لا شكَّ أن القلب هنا يميل إلى المعتدى عليه ، وقد يتعدّى الأمر

إلى أنْ تُرضـيـه بهـدية وتُريه من حنانـك وألطافك مـا يُـذهب عنه ما يُـعانى ، والسـبب في ذلك إساءة أخـيه له فـهى التى عطفتْ قلبك إليه ، وعادتْ عليه بالهدايا والألطاف .

إذن : من الطبيـعى أنْ يُحسنَ المعـتَدى عليه إلى المعـتدِى ، وأنْ يشكرَ له أنْ تسبَّب له فى هذه النعم ؛ ولذلك يقول الحسن البصرى ـ رحمه الله : أفلا أُحسِن لمن جعل الله فى جانبى ؟

فالإحسـان : أنْ تصنع فـوق ما فرض الله عليك ، بشرط أن يكونَ من جنس ما فـرض الله عليك ، ومن جنس ما تعـبَّدنا الله به ، فمـثلاً تعبّدنا الله بخمس صلوات فى اليوم والليـلة فلا مانعَ من الزيادة عليها من جنسـها ، وكذلك الأمر فى الزكاة والصيام والحج . والإحسان هنا يكون بزيادة ما فرضه الله علينا .

وقد يكون الإحسـان فى الكيفية دون زيادة فى الـعمل ، فلا أزيد مثـلاً عن خـمس صلوات ، ولكن أُحسِن مـا أنا بصدده من الـفرْض ، وأُتقِن ما أنـا فيه من العـمل ، وأُخلِص فى ذلك عمـلاً بحديث جـبريل عليه السلام ـ حـيـنما سـأل رسـول الله ﷺ عن الإحسـان ، فقال : « الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

فعليك أن تسـتحضـر فى عبادتـك ربك عز وجل بجلاله وجـماله وكماله ، فإنْ لم تصل إلى هذه المرتبة فلا أقلّ من أن تؤمن أنه يراك ويطلع عليك ، وهذه كافيـة لأنْ تُعطى العبادة حقّهـا ولا تسرق منها ،

(١) أخرجـه البخـارى فى صحـيحه (٥٠) من حـديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وأخـرجه مسلم فى صحيحه (٨) كتاب الإيمان من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

فاللصُّ لا يجرؤ على سرقة البيت وهو يعلم أن صاحبه يراه ، فإذا كنا نفعل ذلك مع بعضنا البعض فيخشى أحدنا نظر الآخرين ، أيليق بنا أنْ نتجرأ على الله ونحن نعلم نظره إلينا ؟!

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى فى الحديث القدسى :

« يا عبادى ، إنْ كنتم تعتقدون أنِّى لا أراكم فالخلَل فى إيمانكم ، وإنْ كنتم تعتقدون أنى أراكم ، فلِمَ جعلتمونى أهونَ الناظرين إليكم ؟ »

وقال بعضهم[1] فى معنى العدل والإحسان :

العدل : أن تستوى السريرة مع العلانية .

والإحسان : أن تعلو السريرة وتكون أفضل من العلانية .

والمنكر : إنْ علَتْ العلانية على السريرة .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ .. ﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

إيتاء : أى إعطاء .

قالوا : لأن العالم حلَقات مقترنة ، فكل قادر حوله أقرباء ضُعَفاء محتاجون ، فلو أعطاهم من خيْره ، وأفاض عليهم مِمّا أفاض الله عليه

---

(١) قاله سفيان بن عيينة فيما نقله القرطبى عنه فى تفسيره (٥/٣٨٩٢) وقال ابن العربى :
- العدل بين العبد وبين ربه إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، والاجتناب للزواجر ، والامتثال للأوامر .
- وأما العدل بينه وبين نفسه فمنعها مما فيه هلاكها ، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى .
- وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة ، وترك الخيانة فيما قلّ وكثر ، والإنصاف من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل ، لا فى سر ولا فى علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى .

لَعَمّ الخير كل المجتمع ، وما وجدنا مُعْوزاً محتاجاً ؛ ذلك لأن هذه الدوائر ستشمل المجتمع كله ، كل قادر يُعطى مَنْ حوله .

وقد تتداخل هذه الدوائر فتلتحم العطاءات وتتكامل ، فلا نرى فى مجتمعنا فقيراً ، وقد حثتْ الآية على القريب ، وحنَّنَتْ عليه القلوب ؛ لأن البعيد عنك قريب لغيرك ، وداخل فى دائرة عطاء أخرى .

وقد يكون الفقير قريباً لعدة أطراف يأخذ من هذا ويأخذ من هذا ، وبذلك تتكامل الحياة وتستطرق موارد العيش لكل الناس .

وقالوا : المراد هنا قرابة النبى ﷺ ؛ لأن قرابة النبى ﷺ حرِّمتْ عليهم الزكاة التى أُحلّت لغيرهم من الفقراء ، وأصبح لهم مَيْزة يمتازون بها عن قرابة الرسول ، ولا يليق بنا أن نجعل قرابة رسول الله ﷺ فى حاجة إلى الزكاة ، وإنْ كان أقرباؤكم أصحابَ رحم ، فلا تنسوا أن قرابة رسول الله ﷺ أوْلى من أرحامكم ، كما قال تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ .. ۝ ﴾ [الأحزاب]

هذه هى مجموعة الأوامر الواردة فى هذه الآية ، وإنَّ مجتمعاً يُنفِّذ مثل هذه الأوامر ويتحلّى بها أفراده ، مجتمع ترتقى فيه الاستعدادات الخُلقية ، إلى أن يترك الإنسان العقوبة والانتقام ويتعالى عن الاعتداء إلى العفو ، بل إلى الإحسان ، مجتمع تعمُّ فيه النعمة ، ويستطرق فيه الخير إلى كل إنسان .

إن مجتمعاً فيه هذه الصفات لَمجتمعٌ سعيد آمِنٌ يسوده الحب والإيمان والإحسان ، إنه لجدير بالصدارة بين أمم الأرض كلها .

وقوله :

﴿ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ..(٩٠) ﴾ [النحل]

وهذه مجموعة من النواهى تمثل مع الأوامر السابقة منهجاً قرآنياً قويماً يضمن سلامة المجتمع ، وأولى هذه النواهى النهى عن الفحشاء أو الفاحشة ، والمتتبع لآيات القرآن الكريم سيجد أن الزنا هو الذنب الوحيد الذى سماه القرآن فاحشة ، فهى إذن الزنا ، أو كل شىء يخدش حُكْماً من أحكام الله تعالى ، ولكن لماذا الزنا بالذات ؟

نقول : لأن كل الذنوب الأخرى غير الزنا إنما تتعلق بمحيطات النفس الإنسانية ، أما الزنا فيتعلّق بالنفس الإنسانية ذاتها ، ويترتب عليه اختلاط الأنساب وبه تدنَسُ الأعراض ، وبه يشكُّ الرجل فى أهله وأولاده ، ويحدث بسبب هذا من الفساد ما لا يعلمه إلا الله ؛ لذلك نصَّ عليه القرآن صراحة فى قوله تعالى :

﴿ وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً (٣٢) ﴾ [الإسراء]

ومن أقوال العلماء فى الفاحشة : أنها الذنب العظيم الذى يخجل صاحبه منه ويستره عن الناس ، فلا يستطيع أنْ يُجاهر به ، كأنه هو نفسه حينما يقع فيه يعلم أنه لا يصحّ ، ولا ينبغى لأحد أن يطلع عليه .

(والمنكر) هو الذنب الذى يتجرّأ عليه صاحبه ، ويُجاهر به ، ويستنكره الناس .

إذن : لدينا هنا مرتبتان من الذنب :

الأولى : أن صاحبه يتحرّج أن يعرفه المجتمع فيستره فى نفسه ، وهذا هو الفحشاء .

والثانية: ما تعالم به صاحبه وأنكره المجتمع ، وهذا هو المنكر .

(والبغْي) هو الظلم فى أىِّ لوْن من ألوانه ، وهو داخل فى أشياء كثيرة أعظمها ما يقع فى العقيدةً من الشرك بالله ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

والظلم هنا أنْ تسلبَ الحق ـ تبارك وتعالى ـ صفة من صفاته ، وتشرك معه غيره وهو خلقك ورزقك ، ومنه ظلم الرسول ﷺ حيث لم يُجرَّب عليه فى يوم من الأيام أنْ قال خطبة أو ألقى قصيدة ، كما لم يُجرَّب عليه الكذب أو غيره من الصفات الذميمة ، ومع هذا كله قالوا عنه حينما نزل عليه القرآن كذاب وساحر ومجنون ، وأىٌّ ظلم أعظم من هذا ؟

ومن الظلم ظُلْم الإنسان لنفسه حينما يُحقِّق لها شهوة عاجلة ومُتعةً زائفة ، تُورثه ندماً وحَسْرة وألماً آجلاً ، وبذلك يكون قد ظلم نفسه ظلماً كبيراً وجَرَّ عليها ما لا تطيق ، ذلك فَضْلاً عن ظلم الإنسان لغيره بشتى أنواع الظلم وأشكاله .

إذن : الآية انتظمتْ مجموعة من الأوامر والنواهى التى تضمن سلامة المجتمع بما جمعتْ من مكارم الأخلاق ، والأخلاق أعمٌّ من أن تكون فى الاعتقادات ، وأعمٌّ من أن تكون فى المعجزة إيماناً بها ، وأعمٌّ من أن تكون فى التكاليف ، وأعمٌّ من أن تكون فى أمر لا حَدَّ فيه ولا حُكْمَ ولا إثم .

وقوله :

﴿ يَعِظُكُمْ ..﴿٩٠﴾ ﴾ [النحل]

الوعظ : تذكير بالحكم ، فعندنا أولاً إعلام بالحكم لكى نعرفه ، ولكنه عُرْضة لأنْ نغفلَ عنه ، فيكون الوعظ والتذكير به ، ونحتاج إلى تكرار ذلك حتى لا نغفل .

وعادة لا تكون العظَة إلا فيما له قيمة ، ومادام الشيء له قيمة فلا تصطفى له إلا مَنْ تحب ، كذلك الحق - تبارك وتعالى - يحب خَلْقه وصَنْعته ؛ لذلك يَعظهم ويُذكِّرهم باستمرار لكى يكونوا دائماً على الجادة ليتمتعوا بنعم المسبِّب فى الآخرة ، كما تمتعوا بنعمة الأسباب فى الدنيا .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

الوفاء : أنْ تفىَ بما تعاهدتَ عليه ، والعهود لا تكون فى المفروض عليك ، إنما تكون فى المباحات ، فأنت حُرٌّ أنْ تلقانى غداً وأنا كذلك ، لكن إذا اتفقنا وتعاهدنا على اللقاء غداً فى الساعة كذا ومكان كذا فقد تحوَّل الأمر من المباح إلى المفروض ، وأصبح كُلٌّ منّا ملزماً بأن يفى بعهده ؛ لأن كل واحد منّا عطَّل مصالحه ورتَّب أموره على هذا اللقاء ، فلا يصح أنْ يفىَ أحدنا ويُخلف الآخر ، لأن ذلك يتسبب فى عدم تكافؤ الفُرص ، ومعلوم أن مصالح العبادِ فى الدنيا قائمة على الوفاء بالعهد .

وقد ينظر البعض إلى الوفاء بالعهد على أنه مُلْزَمٌ به وحده ، أو أنه عبءٌ عليه دون غيره ، لكنه فى الحقيقة عليك وعلى غيرك ، فكما طَلب منك الوفاء طلبه كذلك من الآخرين ، فكلّ تكليف لك لا تنظر إليه هذه النظرة ، بل تنظر إليه على أنه لصالحك .

فمن أخذ التكاليف وأحكام الله من جانبه فقط يتعب ، فالحق - تبارك وتعالى - كما كلفك لصالح الناس فقد كلّف الناس جميعاً لصالحك ، فحين نهاك عن السرقة مثلاً إياك أنْ تظنّ أنه قيّد حريتك أمام الآخرين ؛ لأنه سبحانه نهى جميع الناس أن يسرقوا منك ، فمَن الفائز إذن ؟ أنا قيَّدت حريتك بالحكم ، وأنت فرْد واحد ، ولكنى قيَّدتُ جميع الخلق من أجلك .

كذلك حين أمرك الشرع بغضٍّ بصرك عن محارم الناس ، أمر الناس جميعاً بغضِّ أبصارهم عن محارمك[1] . إذن : لا تأخذ التكليف على أنه عليك ، بل هو لك ، وفى صالحك أنت .

كثيرون من الأغنياء يتبرّمون من الإنفاق ، ويضيقون بالبذْل ، ومنهم مَنْ يَعُد ذلك مَغْرماً لأنه لا يدرى الحكمة من تكليف الأغنياء بمساعدة الفقراء ، لا يدرى أننا نُؤمّن له حياته .

وها نحن نرى الدنيا دُوَلاً وأغياراً ، فكم من غنىٌّ صار فقيراً ، وكم من قوى صار ضعيفاً .

إذن : فحينما يأخذ منك وأنت غنىّ نُطمئنك : لا تخَفْ إذا ضاقتْ

---

(١) قال تعالى : ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ .. ﴿٣١﴾﴾ [النور] .

بك الحال ، وإذا تبدّل غنَاك فقراً ، فكما أخذنا منك فى حال الغنى سنُعطيك فى حال الفقر ، وهكذا يجب أن تكون نظرتنا إلى الأمور التكليفية .

وقوله تعالى :

﴿ بِعَهْدِ اللَّهِ ..(٩١) ﴾ [النحل]

عهد الله : هو الشيء الذى تعاهد الله عليه ، وأول عَهْد لك مع الله تعالى هو الإيمان به ، وما دُمْتَ قد آمنتَ بالله فانظر إلى ما طلبه منك وما كلّفك به ، وإياك أن تُخلّ بأمر من أموره ؛ لأن الاختلالَ فى أىّ أمر تكليفى من الله يُعَدُّ نَقْصاً فى إيمانك ؛ لأنك حينما آمنت بالله شهدتَ بما شهد الله به لنفسه سبحانه فى قوله تعالى :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ (١٨) ﴾ [آل عمران]

فأوّل مَنْ شهد الله سبحانه لنفسه ، وهذه شهادة الذات للذات (والملاَئكة) أى : شهادة المشاهدة (وأُولُوا العِلْم) أى : بالدليل والحجة .

إذن : فأوّل عَهْد بينك وبين الله تعالى أنك آمنتَ به إلهاً حكيماً قادراً خالقاً مُربِّياً ، فاستمع إلى ما يطلبه منك ، فإنْ لم تستمع وتُنفّذ فاعلم أن العهد الإيمانى الأول قد اختلّ .

ولذلك ، فالحق ـ تبارك وتعالى ـ لم يُكلِّف الكافر ، لأنه ليس بينه وبينه عهد ، إنما يُكلِّف مَنْ آمن ، فتجد كل آية من آيات الأحكام تبدأ بهذا النداء الإيمانى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا .. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

كما فى قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ.. (١٨٣) ﴾ [البقرة]

فيا مَنْ آمنتَ بى رَبّاً ، ورضيتنى إلهاً اسمع منِّى ؛ لأنى سأعطيك قانون الصيانة لحياتك ، هذا القانون الذى يُسعدك بالمسبِّب فى الآخرة بعد أن أسعدك بالأسباب فى الدنيا .

وقوله :

﴿ وَلاَ تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا.. (٩١) ﴾ [النحل]

الأَيْمان : جمع يمين ، وهو الحلف الذى نحلفه ونُؤكِّد عليه فنقول : والله ، وعهد الله .. الخ . إذن : فلا يليق بك أنْ تنقضَ ما أكَّدته من الأَيْمان ، بل يلزمك أنْ تُوفِّى بها ؛ لأنك إنْ وفَّيت بها وُفِّى لك بها أيضاً ، فلا تأخذ الأمر من جانبك وحدك ، ولكن انظر إلى المقابل .

وكذلك العهد بين الناس بعضهم البعض مأخوذ من باطن العهد الإيمانى بالله تعالى ؛ لأننا حينما نتعاهد نُشهد الله على هذا العهد ، فنقول : بينى وبينك عَهْد الله ، فنُدخل بيننا الحق سبحانه وتعالى لنُوثِّق ما تعاهدنا عليه ، وربنا سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً.. (٩١) ﴾ [النحل]

أى : شاهداً ورقيباً وضامناً .

وقوله :

﴿ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) ﴾ [النحل]

أى : اعلم أن الله مُطَّلع عليك ، يعلم خفايا الضمائر وما تُكنّه الصدور ، فاحذر حينما تعطى العهد أن تعطيه وأنت تنوى أن تخالفه ، إياك أنْ تُعطى العهد خِداعاً ، فربُّك سبحانه وتعالى يعلم ما تفعل .

ثم يُعقِّب الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا[1] تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا[2] بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾

الحق تبارك وتعالى يضرب لنا فى هذه الآية مثلاً توضيحياً للذين ينقضون العهد والأيْمان ، ولا يُوفون بها ، بهذه المرأة القرشية الحمقاء ريْطة بنت عامر ، وكانت تأمر جواريها بغزل الصوف من الصبح إلى الظهر ، ثم تأمرهُنَّ بنقض ما غزلنه من الظهر حتى العصر[3] ، والمتأمل فى هذا المثل يجد فيه دروساً متعددة .

أولاً : ما الغزل ؟

---

(١) الأنكاث : جمع نكْث ، وهو الغزل يُحَلُّ بعد فتله وإحكامه . [القاموس القويم ٢/ ٢٨٤] .

(٢) الدَّخَل : المكر والخديعة والغدر وما يفعله من فسد باطنه وساءت سريرته . [القاموس القويم ١/ ٢٢٤] .

(٣) أورده القرطبى فى تفسيره (٥/ ٣٨٩٧) وعزاه للفراء . قال القرطبى : حكاه عبد الله بن كثير والسدى ولم يسميا المرأة . وقال مجاهد وقتادة : ذلك ضرْب مثل لا على امرأة معينة .

الغَزْل عملية كان يقوم بها النساء قديماً ، فكُنَّ يُحضِرْن المادة التي تصلح للغزل مثل الصوف أو الوبر ومثل القطن الآن ، وهذه الأشياء عبارة عن شعيرات دقيقة تختلف في طولها من نوع لآخر يُسمُّونها التيلة ، فيقولون « هذه تيلة قصيرة » « وهذه طويلة » .

والغَزْل هو أن نُكوِّن من هذه الشعيرات خَيْطاً طويلاً ممتداً وانسيابياً دون عُقَد فيه لكي يصلح للنسْج بعد ذلك ، وتتم هذه العملية بآلة بدائية تسمى المغزل . تقوم المرأة بخلط هذه الشعيرات الدقيقة ثم بَرْمها بالمغزل ، ليخرج في النهاية خيطٌ طويلٌ مُنْسابٌ متناسق لا عُقَد فيه .

والآية هنا ذكرتْ المرأة في هذا العمل ؛ لأنه عمل خاص بالنساء في هذا الوقت دون الرجال ، فكانت المرأة تكنّ في بيتها وتمارس مثل هذه الصناعات البسيطة التي تكوِّن منها أثاث بيتها من فَرْش وملابس وغيره .

وإلى الآن نرى المرأة التي تحافظ على كرامتها من زحمة الحياة ومُعْترك الاختلاط ، نراها تقوم بمثل هذا العمل النسائي .

وقد تطورْ المغزل الآن إلى ماكينة تريكو أو ماكينة خياطة ، مما يُيسِّر للنساء هذه الأعمال ، ويحفظهُنَّ في بيوتهن ، وينشر في البيت جَواً من التعاون بين الأم وأولادها ، وأمامنا مثلاً مشروع الأسر المنتجة حيث تشارك المرأة بجزء كبير في رُقيِّ المجتمع ، فلا مانع إذن من عمل المرأة إذا كان عملاً شريفاً يحفظ عليها كرامتها ويصُون حرمتها .

فالقرآن ضرب لنا مثلاً بعمل المرأة الجاهلية ، هذا العمل الذى يحتاج إلى جَهْد ووقت فى الغزل ، ويحتاج إلى أكثر منه فى نَقْضه وفكِّه ، فهذه عملية شاقة جداً ، وربما أمرت الجوارى بفكِّ الغزل والنسيج أيضاً ؛ ولذلك أطلقوا عليها حمقاء قريش .

وقوله :

﴿ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ .. (٩٢) ﴾ [النحل]

كلمة قوة هنا تدلُّنا على المراحل التى تمرُّ بها عملية الغَزْل ، وكم هى شاقة ، بداية من جَزِّ الصوف من الغنم أو الوبر من الجمال ، ثم خَلْط أطراف كل تيلة من هذه الشعيرات ، بحيث تكون طرف كل تيلة منها فى وسط الأخرى لكى يتم التلاحم بينها بهذا المزج ، ثم تدير المرأة المغزل بين أصابعها لتخرج لنا فى النهاية بضعة سنتيمترات من الخيط ، ولو قارنَّا بين هذه العملية اليدوية ، وبين ما توصلتْ إليه صناعة الغزل الآن لَتبيَّن لنا كم كانت شاقة عليهم .

فكأن القرآن الكريم شبَّه الذى يُعطى العهد ويُوثِّقه بالأيْمان المؤكدة ، ويجعل الله وكيلاً وشاهداً على ما يقول بالتى غزلتْ هذا الغزل ، وتحملت مشقته ، ثم راحتْ فنقضت ما أنجزته ، وفكَّتْ ما غزلته .

وكذلك كلمة (قوة) تدلُّنا على أن كل عمل يحتاج إلى قوة ، هذه القوة إما أنْ تُحرِّك الساكن أو تُسكِّن المتحرِّك ؛ لذلك قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ ..(٦٣) ﴾ [البقرة]

لأن ساكن الخير نريد أن نحركك إليه ، ومتحرك الشر نريد أن نكفك عنه .

وهذه يسمونها في علم الحركة (قانون العطالة) المتحرك يظل مُتحرِّكاً إلى أنْ يعرضَ له شيء يُسكنه ، والساكن يظل ساكناً إلى أنْ يعرِضَ له شيء يُحرِّكه .

ومن هنا يتعجَّب الكثيرون من الأقمار الصناعية التي تدور أعواماً عدة في الفضاء : ما الوقود الذي يُحرِّك هذه الأقمار طوال هذه الأعوام ؟

والواقع أنه لا يوجد وقود يحركها ، الوقود في مرحلة الانطلاق فقط ، إلى أن يخرج من منطقة الهواء والجذْب ، فإذا ما استقرّ القمر أو السفينة الفضائية في منطقة عدم الجذب تدور وتتحرك بنفسها دون وقود ، فهناك الشيء المتحرك يظل متحركاً ، والساكن يظل ساكناً .

والحق - تبارك وتعالى - بهذا المثَل المشَاهد يُحذرنا من إخلاف العهد ونقْضه ؛ لأنه سبحانه يريد أن يصونَ مصالح الخلق ؛ لأنها قائمة على التعاقد والتعاهد والأيْمان التي تبرم بينهم ، فمَنْ خان العهد أو نقضَ الأيْمان لا يُوثق فيه ، ولا يُطْمأنُّ إلى حركته في الحياة ، ويُسقطه المجتمع من نظره ، ويعزله عن حركة التعامل التي تقوم على الثقة المتبادلة بين الناس .

وقوله : ﴿ أَنكَاثًا ..(٩٢) ﴾ [النحل]

جمع نِكْث ، وهو ما نُقِض وحُلَّ فَتْله من الغزل .

وقوله :

﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ..(٩٢) ﴾ [النحل]

الدَّخَل : أنْ تدخل فى الشىء شيئاً أدنى منه من جنسه على سبيل الغشِّ والخداع ، كأن تدخل فى الذهب عيار ٢٤ قيراطاً مثلاً ذهباً من عيار ١٨ قيراطاً ، أو كأن تُدخلَ فى اللوز مثلاً نَوى المشمش على أنه منه . فكأن الأيْمان القائمة على الصدق والوفاء يعطيها صاحبها وهو ينوى بها الخداع والغش ، فيحلف لصاحبه وهو يقصد تنويمه والتغرير به .

وقوله :

﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ[1] ..(٩٢) ﴾ [النحل]

هذه هى العلة فى أنْ نتخذَ الأيْمان دَخَلاً فيما بيننا ، الأيْمان الزائفة الخادعة ؛ ذلك لأن الذى باع نوى المشمش مثلاً على أنه لوز ، فقد أرْبى أى : أخذ أزيْد من حقه ونقص حَقَّ الآخرين ، فالعلة إذن فى الخداع بالأيْمان الطمع وطلب الزيادة على حساب الآخرين .

وقد تأتى الزيادة بصورة أخرى ، كأن تُعاهد شخصاً على شىء ما ، وأدَّيْتَ له بالعهود والأيْمان والمواثيق ، ثم عنَّ لك مَنْ هو أقوى منه سواء كان بالقهر والسلطان أو بالإغراء ، فنقضت العهد الأول لأن الثانى أرْبى منه وأزيد .

---

(١) قال مجاهد فى سبب نزول هذه الآية : نزلت فى العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى ، ثم جاءت إحداهما قبيلة كثيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت عهدها ورجعت إلى هذه الكبرى [تفسير القرطبى ٣٨٩٨/٥] .

وفى مثل هذه المواقف يجب أن يأخذ الإنسان حذْره ، فمَنْ يُدريك لعله يُفعل بك كما فعلت ، ويُكال لك بنفس المكيال الذى كلْتَ به لغيرك ، فاحذر إذا تجرأتَ على خلْق الله أن يُجَرِّىء الله عليك مَنْ يسقيك من نفس الكأس .

وإذا كنت صاحب حرفة أو صناعة ، فإياك أنْ تغُشَّ الناس ، وتذكَّر أن لك عندهم مصالح ، وفى أيديهم لك حرف وصناعات ، فإذا تجرأتَ عليهم جرَّأهم الله عليك ؛ لأنه سبحانه يقول : أنا القيُّوم ، أى : القائم على أمركم ، فناموا أنتم فأنا لا أنام ، فهذه مسألة يجب أن نلحظها جيداً .

مَنْ تَجرَّأ على الناس جرَّأهم الله عليه ، ومَنْ أخلص عمله وأتقنه قذف الله فى قلوب الخلق أنْ يُتقنوا له حاجته .

وقوله :

﴿ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ.. (٩٢) ﴾ [النحل]

أى : يختبركم الله تعالى بهذا العهد ، فهو سبحانه يعلم ما أنتم عليه ساعة أنْ عقدتم العهد ، أَفِى نيتكم الوفاء ، أم فى نيتكم الغدر والخداع ؟

وهَبْ أنك تنوى الوفاء ثم عرضَ لك ما حال بينك وبينه ، فالله سبحانه يعلم حقائق الأمور ولا يخفَى عليه شىء .

إذن : الابتلاء هنا لا يعنى النكبة والبلاء ، بل يعنى مجرد الاختبار والنكبة والبلاء على الذى يفشل فى الاختبار ، فالعبرة هنا بالنتيجة .

وقوله :

﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾ [النحل]

فيوم القيامة تجتمع الخصوم ، وتتكشّف الحقائق ، ويأتى القضاء فيما اختلفنا فيه فى الدنيا ، وهَبْ أن إنساناً عمّى على قضاء الأرض فى أشياء ، نقول له : إن عَمَّيْتَ على قضاء الأرض فلن تُعمىَ على قضاء السماء ، وانتظر يوماً نجتمع فيه ونحكم هذه المسائل[1] .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾

لو حرف امتناع لامتناع . أى : امتناع وجود الجواب لامتناع وجود الشرط ، كما فى قوله تعالى :

﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا (٢٢) ﴾ [الأنبياء]

فقد امتنع الفساد لامتناع تعدّد الآلهة .

فلو شاء الله لجعلَ العالم كله أمةً واحدة على الحق ، لا على

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (١٧١٣) كتاب الأقضية (٤) من حديث أم سلمة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ : « إنكم تختصمون إلىَّ ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض ، فأقضى له على نحو ما أسمع منه ، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه ، فإنما أقطع له به قطعة من النار » .

الضلال ، أمةً واحدة فى الإيمان والهداية ، كما جعل الأجناس الأخرى أمةً واحدة فى الانصياع لمرادات الله منها .

ذلك لأن كل أجناس الوجود المخلوقة للإنسان قبل أن يفدَ إلى الحياة مخلوقة بالحق خَلْقاً تسخيرياً ، فلا يوجد جنس من الأجناس تأبّى عما قصد منه ، لا الجماد ولا النبات ولا الحيوان .

كل هذه الأكوان تسير سَيْراً سليماً كما أراد الله منها ، والعجيب أن يكون الإنسان هو المخلوق الوحيد المختلّ فى الكون ، ذلك لما له من حرية الاختيار ، يفعل أو لا يفعل .

لذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

هكذا تسجد كل هذه المخلوقات لله دون استثناء ، إلا فى الإنسان فقال تعالى :

﴿ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨) ﴾ [الحج]

فلماذا حدث هذا الاختلاف عند الناس ؟ لأنهم أصحاب الاختيار ، فيستطيع الواحد منهم أن يفعلَ أو لا يفعل ، هل هذه المسألة خرجت عن إرادة الله ، أم أرادها الله سبحانه وتعالى ؟

قالوا بأن الله زاول قدرته المطلقة فى خَلْق الأشياء المُسخرة ، بحيث لا يخرج شيء عما أريد منه ، وكان من الممكن أنْ يأتيَ

الإنسان على هذه الصورة من التسخير ، لكنه فى هذه الحالة لن يزيد شيئاً ، ولن يضيف جديداً فى الكون ، أليستْ الملائكة قائمة على التسخير ؟

فالتسخير يُثبت القدرة لله تعالى ، فلا يخرج عن قدرته ولا عن مراده شىء ، لكن الاختيار يثبت المحبوبية لله تعالى ، وهذا فَرْقٌ يجب أنْ نتدبّره .

فمثلاً لو كان عندك عبدان أو خادمان أحدهما سعيد ، والآخر مسعود ، فأخذت سعيداً وقيَّدته إليك فى حبل ، فى حين تركت مسعوداً حراً طليقاً ، وحين أمرت كلاً منهما لَبَّى وأطاع ، فأىّ طاعة ستكون أحبّ إليك : طاعة القهر والتسخير ، أم الطاعة بالاختيار ؟

فكأن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وكرَّمه بأنْ جعلَه مختاراً فى أنْ يطيعَ أو أنْ يعصىَ ، فإذا ما أتى طائعاً مختاراً ، وهو قادر على المعصية ، فقد أثبتَ المحبوبية لربه سبحانه وتعالى .

ولا بُدّ أنْ تتوافرَ للاختيار شروطٌ . أولها : العقل ، فهو آلة الاختيار ، كذلك لا يُكلّف المجنون ، فإذا توفّر العقل فلا بُدّ له من النُّضْج والبلوغ ، ويتمّ ذلك حينما يكون الإنسان قادراً على إنجاب مثْله ، وأصبحتْ له ذاتية مولده .

وهذه سمَة اكتمال الذات ؛ فهو قبل هذا الاكتمال ناقص التكوين ، وليس أهْلاً للتكليف ، فإذا كان عاقلاً ناضجاً بالبلوغ واكتمال الذات ، فلا بُدّ له أن يكون مختاراً غَيْرَ مُكْره ، فإنْ أُكْرِه على الشىء فلن يسأل عنه ، فإن اختلّ شَرْط من هذه الثلاثة فلا معنى للاختيار ، وبذلك يضمن الحق تبارك وتعالى للإنسان السلامة فى الاختيار .

والحق تبارك وتعالى وإن كرَّم الإنسان بالاختيار ، فمن رحمته به أنْ يجعلَ فيه بعض الأعضاء اضطرارية مُسخَّرة لا دَخْلَ له فيها .

ولو تأملنا هذه الأعضاء لوجدناها جوهرية ، وتتوقف عليها حياة الإنسان ، فكان من رحمة الله بنا أنْ جعل هذه الأعضاء تعمل وتُؤدِّى وظيفتها دون أنْ نشعرَ .

فالقلب مثلاً يعمل بانتظام فى اليقظة والمنام دون أن نشعرَ به ، وكذلك التنفس والكُلَى والكبد والأمعاء وغيرها تعمل بقدرته سبحانه مُسخَّرة ، كالجماد والنبات والحيوان .

ومن لُطْفِ الله بخَلْقه أنْ جعلَ هذه الأعضاء مُسخَّرة ، لأنه بالله لو أنت مختار فى عمل هذه الأعضاء ، كيف تتنفس مثلاً وأنت نائم ؟!

إذن : من رحمة الله أنْ جعلكَ مختاراً فى الأعمال التى تعرِضُ لك ، وتحتاج فيها إلى النظر فى البدائل ؛ ولذلك يقولون : الإنسان أبو البدائل . فالحيوان مثلاً وهو أقرب الأجناس إلى الإنسان ليس لديْه هذه البدائل ولا يعرفها ، فإذا آذيتَ حيواناً فإنه يُؤذيك ، وليس لديه بديل آخر .

ولكن إذا آذيْت إنساناً ، فيحتمل أن يردّ عليك بالمثل ، أو بأكثر مما فعلتَ ، أو أقلّ ، أو يعفو ويصفح ، والعقل هو الذى يُرجِّح أحد هذه البدائل .

إذن : لو شاء الحق سبحانه وتعالى أن يجعل الناس أمة واحدة لجعلها ، كما قال تعالى :

﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ﴿٣١﴾ ﴾ [الرعد]

ولكنه سبحانه وتعالى لم يشأْ ذلك ، بدليل قوله :

﴿ وَلَـٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ..(٩٣)﴾ [النحل]

وهذه الآية يقف عندها المتمحّكون ، والذين قَصُرَتْ أنظارهم فى فهْم كتاب الله ، فيقولون : طالما أن الله هو الذى يضلّ الناس ، فلماذا يُعذّبهم ؟ ونتعجَّب من هذا الفهم لكتاب الله ونقول لهؤلاء : لماذا أخذتُمْ جانب الضلال وتركتُم جانب الهدى ؟ لماذا لم تقولوا : طالما أن الله بيده الهداية ، وهو الذى يهدى ، فلماذا يُدخلنا الجنة ؟

إذن : هذه كلمة يقولها المسرفون ؛ لأن معنى :

﴿ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى مَن يَشَاءُ ..(٩٣)﴾ [النحل]

أى : يحكم على هذا من خلال عمله بالضلال ، ويحكم على هذا من خلال عمله بالهداية ، مثل ما يحدث عندنا فى لجان الامتحان ، فلا نقول : اللجنة أنجحت فلاناً وأرسبت فلاناً ، فليست هذه مهمتها ، بل مهمتها أن تنظر أوراق الإجابة ، ومن خلالها تحكم اللجنة بنجاح هذا وإخفاق ذاك .

وكذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ لا يجعل العبد ضالاً ، بل يحكم على عمله أنه ضلال وأنه ضَالّ ؛ فالمعنى إذن : يحكم بضلال مَنْ يشاء ، ويحكم بهُدَى مَنْ يشاء ، وليس لأحد أن ينقلَ الأمر إلى عكس هذا الفهم ، بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣)﴾ [النحل]

فالعبد لا يُسأل إلا عَمَّا عملتْ يداه ، والسؤال هنا معناه حرية الاختيار فى العمل ، وكيف تسأل عن شىء لا دَخْل لك فيه ؟ فلنفهم ـ إذن ـ عن الحق تبارك وتعالى مُرَادَهُ من الآية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعۡدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلَكُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٩٤﴾ ﴾

وردتْ كلمة الدّخَل فى الآية قبل السابقة وقلنا : إن معناها : أن تُدخِلَ فى الشىء شيئاً أدْنى منه من جنسه على سبيل الغشِّ والخداع ، وإن كان المعنى واحداً فى الآيتين فإن الآية السابقة جاءت لتوضيح سبب الدَّخَل وعلّته ، وهى ان تكون أُمة أَرْبى من أمة ، ويكسب أحد الأطراف على حساب الآخر . أما فى هذه الآية فجاءت لتوضيح النتيجة من وجود الدَّخَل ، وهى :

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل]

ففى الآية نَهْىٌ عن اتخاذ الأيْمان للغش والخداع والتدليس ؛ لأن نتيجة هذا الفعل فساد يأتى على المجتمع من أساسه ، وفَقْد للثقة المتبادلة بين الناس والتى عليها يقوم التعامل ، وتُبنَى حركة الحياة ، فالذى يُعطى عهداً ويُخْلفه ، ويحلف يميناً ويحنث[1] فيه يشتهر عنه أنه مُخلِف للعهد ناقض للميثاق .

وبناءً عليه يسحب الناس منه الثقة فيه ، ولا يجرؤ أحد على

(١) حنث فى يمينه : لم يَفِ باليمين . [القاموس القويم ١/١٧٥] .

الصَّفَق[١] معه ، فيصبح مَهيناً ينفضُ الناس أيديهم منه ، بعد أنْ كان أميناً وأهلاً للثقة ومَحَلاً للتقدير[٢] .

هذا معنى قوله تعالى :

﴿ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ..(٩٤) ﴾ [النحل]

وبذلك يسقط حقُّه مع المجتمع ، ويحيق به سوء فعْله ، ويجنى بيده ثمار ما أفسده فى المجتمع ، وبانتشار هذا الخلُق السيىء تتعطّل حركة الحياة ، وتضيع الثقة والأمانة .

إذن : هذه زَلَّة وكَبْوة بعد ثبات وقوة ، بعد أنْ كان أهْلاً للثقة صاحب وفاء بالعهود والمواثيق يُقبِل عليه الناس ، ويُحبُّون التعامل معه بما لديْه من شرف الكلمة وصدْق الوعد ، فإذا به يتراجع للوراء ، ويتقهقر للخلف ، ويفقد هذه المكانة .

ولذلك نجد أهل المال والتجارة يقولون : فلان اهتزَّ مركزه فى السوق أى : زَلَّتْ قدمه بما حدث منه من نقْضٍ للعهود ، وحِنْث فى

(١) تصافقوا : تبايعوا . وصفق يده بالبيعة والبيع وعلى يده صفقاً : ضرب بيده على يده ، وذلك عند وجوب البيع . [لسان العرب ـ مادة : صفق] .

(٢) أخرج أبو داود فى سننه (٣٣٨١) والبيهقى فى السنن الكبرى (٦/٧٨) وكذا فى السنن الصغرى (٢٢٠١) والحاكم فى مستدركه (٢/٥٢) من حديث أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ : « يقول الله عز وجل : أنا ثالث الشريكين ما لم يخن أحدهما صاحبه ، فإذا خانه خرجت من بينهما » .

قال الطيبى رحمه الله : « الشركة عبارة عن اختلاط أموال بعضهم ببعض بحيث لا يتميز ، وشركة الله تعالى إياهما على الاستعارة ، كأنه تعالى جعل البركة والفضل والربح بمنزلة المال المخلوط ، فسمى ذاته تعالى ثالثهما » . نقله شمس الدين العظيم آبادى فى عون المعبود (٥/١٧٠) .

الأيمان وغير ذلك مما لا يليق بأهل الثقة فى السوق ، ومثل هذا ينتهى به الأمر إلى أنْ يعلنَ إفلاسه فى دنيا التعامل مع الناس

أما الوفاء بالعهود والمواثيق والأيْمان فيجعل قدمك فى حركة الحياة ثابتة لا تتزحزح ولا تهتزّ ، فترى مال الناس جميعاً مالَه ، وتجد أصحاب الأموال مقبلين عليك يضعون أموالهم بين يديك ، بما تتمتع به من سمعة طيبة ونزاهة وأمانة فى التعامل .

ولذلك ، فالتشريع الإسلامى حينما شرع لنا الشركة راعى هذا النوع من الناس الذى لا يملك إلا سمعة طيبة وأمانة ونزاهة ووفاء ، هذا هو رأس مالهم ، فإنْ دخل شريك بما لدْيه من رأس المال ، فهذا شريك بما لديْه من شرف الكلمة وشرف السلوك ، ووجاهة بين الناس ، وماضٍ مُشرِّف من التعامل .

وهذه يسمونها « شركة الوجوه والأعيان » وهذا الوجيه فى دنيا المال والتجارة لم يأخذ هذه الوجاهة إلا بما اكتسبه من احترام الناس وثقتهم ، وبما له من سوابق فضائل ومكارم .

وكذلك ، قد نرى هذه الثقة لا فى شخص من الأشخاص ، بل نراها فى ماركة من الماركات أو العلامات التجارية ، فنراها تُبَاع وتُشْترى ، ولها قيمة غالية فى السوق بما نالتْه من احترام الناس وتقديرهم ، وهذا أيضاً نتيجة الصدق والالتزام والأمانة وشرف الكلمة .

وقوله تعالى :

﴿ وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل]

السوء : أي العذاب الذي يسُوء صاحبه في الدنيا من مهانة واحتقار بين الناس ، وكسَاد في الحال ، بعد أنْ سقط من نظر المجتمع ، وهدم جِسْر الثقة بينه وبين مجتمعه .

وقوله تعالى :

﴿ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ .. ﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل]

الحديث هنا عن الذين ينقضون العهود والأيْمان ولا يُوفُونَ بها ، فهل في هذا صدٌّ عن سبيل الله ؟

نقولُ : أولاً إن معنى سبيل الله : كل شيء يجعل حركة الحياة منتظمة تُدَار بشرف وأمانة وصِدْق ونفاذ عهد .

ومن هنا ، فالذي يُخلف العهد ، ولا يفي بالمواثيق يعطي للمجتمع قدوة سيئة تجعل صاحب المال يضنُّ بماله ، وصاحب المعروف يتراجع ، فلو اقرضتَ إنساناً وغدرَ بكَ فلا أظنُّك مُقرِضاً لآخر .

إذن : لا شكَّ أن في هذا صداً عن سبيل الله ، وتزهيداً للناس في فعْل الخير .

وقوله تعالى :

﴿ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ ﴾ [النحل]

فبالإضافة إلى ما حاقَ بهم من خسارة في الدنيا ، وبعد أنْ زلَّتْ بهم القدم ، ونزل بهم من عذاب الدنيا ألوانٌ ما زال ينتظرهم عذاب عظيم أي في الآخرة .

ثم يقولُ الحق سبحانه :

﴿ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية ينهانا ويُحذِّرنا : إياك أنْ تجعلَ عَهْدَ الله الذى أكدته للناس ، وجعلت الله عليه كفيلاً ، فبعد أن كنت حُراً فى أن تعاهد أو لا تعاهد ، فبمجرد العهد أصبح نفاذه واجباً ومفروضاً عليك .

أو : عهد الله - أى - شرعه الذى تعاهدتَ - على العمل به والحفاظ عليه ، وهو العهد الإيمانى الأعلى ، وهو أن تؤمنَ بالله وبصدق الرسول فى البلاغ عن الله ، وتلتزم بكل ما جاء به الرسول من أحكام ، إياك أنْ تقابله بشىء آخر تجعله أغْلى منه ؛ لأنك إنْ نقضْتَ عهد الله لشىء آخر من متاع الدنيا الزائل فقد جعلتَ هذا الشىء أغلى من عهد الله ؛ لأن الثمن مهما كان سيكون قليلاً .

ثم يأتى تعليل ذلك فى قوله :

﴿ إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل]

فالخير فى الحقيقة ليس فى متاع الدنيا مهما كَثُر ، بل فيما عند الله تعالى ، وقد أوضح ذلك فى قوله تعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿٩٦﴾ ﴾ [النحل]

ولنا وقفة مع قوله تعالى :

﴿ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ .. ﴿٩٥﴾ ﴾ [النحل]

فهـذا أسلوب توكيـد بالقصر بإعـادة الضميـر (هو) ، فلم يَقُلِ الحق سبحانه إنمـا عند الله خير لكم ، فيحتمل أن مـا عند غيره أيضاً خيرٌ لكم ، أمـا فى تعبير القـرآن ﴿ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ أى : الخير فـيما عند الله على سبيل القَصْر ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الشعراء]

فجاء بالضميـر « هو » ليؤكد أن الشافى هو الله لوجود مَظنّة أن يكون الشفاء من الطبيب ، أما فى الأشيـاء التى لا يُظَنّ فيها المشاركة فتأتى دون هذا التوكيد كما فى قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ ﴾ [الشعراء]

فلم يقل : هو يميتنى هو يُحيين ؛ لأنه لا يميت ولا يُحيى إلا الله ، فلا حاجةَ للتوكيد هنا .

ما الذى يُخرج الإنسان عن الوفاء بالعهد ؟

الذى يُخرج الإنسـان عن الوفاء بالعهـد أنْ يرى مصلحة سطحـية فوق ما تعاقـد عليه تجعله يخرج عما تعاهد عـليه إلى هذه السطحية ، ولكنه لو عـقل وتدبَّر الأمـر لعلـم أنّ مـا يسـعى إليـه ثمن بَخْسٌ ، ومكسب قليل زائل إذا مـا قارنـه بما ادخـر له فى حالة الوفـاء ؛ لأن ما أخذه حظاً من دنياه لابُدّ له من زوال .

والعـقل يقـول : إن الشـىء ، إذا كـان قليـلاً باقـياً يفضـل الكثيـر الـذى لا يبقى ، فـما بالك إذا كان القليل هو الذى يفنى ، والكثـير هو الذى يبقى .

ومثال ذلك : لو أعطيتُك فاكهة تكفيك أسبوعاً أو شهراً فأكلتها فى يوم واحد ، فقد تمتعْتَ بها مرة واحدة ، وفاتكَ منها مُتَعٌ وأكلاتٌ متعددة لو أكلتَها فى وقتها .

لذلك ؛ فالحق سبحانه وتعالى يُنبِّهك أنَّ ما عند الله هو الخير الحقيقى ، فجعل موازينك الإيمانية دقيقة ، فمن الحُمْق أن تبيع الكثير الباقى بالقليل الفانى :

﴿ إن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) ﴾ [النحل]

فى الآية دِقَّة الحساب ، ودِقّة المقارنة ، ودقّة حَلِّ المعادلات الاقتصادية .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾

يُوضِّح الحق تبارك وتعالى أن حظَّ الإنسان من دُنْياه عَرَضٌ زائل ، فإمَّا أنْ تفوته بالموت ، أو يفوتك هو بما يجرى عليك من أحداث ، أما ما عند الله فهو بَاق لا نفاد له .

﴿ ولَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦) ﴾ [النحل]

كلمة ﴿ صَبَرُوا ﴾ تدلُّ على أن الإنسان سيتعرّض لهزَّات نفسية نتيجة ما يقع فيه من التردد بين الوفاء بالعهد أو نَقْضه ، حينمَا يلوح

له بريق المال وتتحرك بين جنباته شهوات النفس ، فيقول له الحق تبارك وتعالى : اصبر .. اصبر لا تكُنْ عَجُولاً ، وقارن المسائل مقارنة هادئة ، وتحمَّل كل مشقة نفسية ، وتغلَّب على شهوة النفس ؛ لتصل إلى النتيجة المحمودة .

فالتلميذ الذى يجتهد ويتعب ويتحمّل مشقة الدرس والتحصيل يصبر على الشهوات العاجلة لما ينتظره من شهوات باقية آجلة ، فوراء الدرس والتحصيل غايةٌ أكبر وهَدَفٌ أسْمى .

ولذلك يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا .. (٩٦) ﴾ [النحل]

أى : على مشقَّات الوفاء بالعهود .

﴿ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾ [النحل]

أى : أجراً بالزيادة فى الجزاء على أحسن ما يكون ؛ فالإنسان حين يعمل مفروضاً أو مندوباً فله الجزاء ، أما المباح فالمفروض ألا جزاء له ، ولكنّ فضل الله يجزى عليه أيضاً .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾

الحق تبارك وتعالى يُعطينا قضية عامة ، هى قضية المساواة بين الرجل والمرأة ، فالعهود كانت عادةً تقع بين الرجال ، وليس للمرأة

تدخُّل فى إعطاء العهود ، حتى إنهـا لما دخلتْ فى عهد مع النبى ﷺ يوم بيعة العقبة جعل واحداً من الصحابة يبايع النساء نيابة عنه(١)

إذن : المرأة بعيـدة عن هذا المعتَرك نظراً لأن هـذا من خصائص الرجال عـادةً ، أراد سبحـانه وتعالى أن يقـول لنا : نحن لا نمنع أن يكونَ للأنثى عملٌ صالح .

ولا تظنّ أن المسألة منـسحبة على الرجال دون النسـاء ، فالعمل الصالح مقبول منْ الذكر والأنثى على حدٍّ سواء ، شريطة أنْ يتوفَّر له الإيمان ، ولذلك يقول تعالى :

﴿ وَهُوَ مُؤْمِنٌ.. (٩٧) ﴾ [النحل]

وبذلك يكون العمل له جَدْوى ويكون مقبولاً عند الله ؛ ولذلك نرى كثـيراً من الناس الذين يُقدِّمـون أعمالاً صالحـةً ، ويخدمون البـشرية بالاختراعات والاكتشافات ، ويداوون المـرضى ، ويبنون المستشفيات والمدارس ، ولكن لا يتوفر لهم شرط الإيمان بالله .

فنرى الحق تبارك وتعـالى لا يبخس هؤلاء حقـهم ، ولكن يُعجِّله لهم فى الدنيا ؛ لأنه لا حَظَّ لهم فى أجر الآخرة ، يقول تعالى :

﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾ [الشورى]

ويقول الحق سبحانه وتعالى :

---

(١) ذكر ابن هشام فى السيرة (٤٦٦/٢) أن رسول الله ﷺ كـان لا يصافح النسـاء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررْنَ ، قال : اذهبن فقد بايعتكن .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝ ﴾ [الزلزلة]

وهذا كله خاصٌّ بأمور الدنيا ، فالذى يحسن شيئاً ينال ثمرته ، لكن فى جزاء الآخرة نقول لهؤلاء : لا حَظٌّ لكم اليوم ، وخذوا أجركم ممَّنْ عملتُم له فقد عملتُم الخير للإنسانية للشهرة وخلود الذكْر ، وقد أخذتم ذلك فى الدنيا فقد خلَّدوا ذكْراكم ، ورفعوا شأنكم ، وصنعوا لكم التماثيل ، ولم يبخسوكم حقَّكم فى الشُّهْرة والتكريم .

ويوم القيامة يواجههم الحق سبحانه وتعالى : فعلتم ليقال .. وقد قيل ، فاذهبوا وخذوا ممَّنْ عملتم لهم[1] .

هؤلاء الذين قال الله فى حقهم :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ[2] يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ ﴾ [النور]

---

(١) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استُشهد فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت فيك حتى استشهدت . قال : كذبت ، ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل . ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقى فى النار . ورجل تعلم العلم وعلمه ، وقرأ القرآن فأتى به فعرَّفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت العلم ليقال : عالم ، وقرأت القرآن ليقال : هو قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، حتى ألقى فى النار » الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩٠٥) وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٢٢) .

(٢) القاع والقيعة : ما استوى من الأرض وانخفض عما يحيط به من الجبال والأكمات . [القاموس القويم ٢/ ١٣٧] والسراب : ما تراه فى نصف النهار فى الأرض الفضاء كأنه ماء وليس بماء . [القاموس القويم ١/ ٣٠٨] .

يُفاجأ يوم القيامة أن له إلهاً كان ينبغى أنْ يؤمن به ويعمل ابتغاء وجهه ومرضاته .

إذن : فالإيمان شَرْطٌ لقبول العمل الصالح ، فإذا ما توفر الإيمان فقد استوى الذَّكَر والأنثى فى الثواب والجزاء .

يقول تعالى :

﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً .. (٩٧) ﴾ [النحل]

هذه هى النتيجة الطبيعية للعمل الصالح الذى يبتغى صاحبه وجه الله والدار الآخرة ، فيجمع الله له حظين من الجزاء ، حظاً فى الدنيا بالحياة الطيبة الهانئة[1] ، وحظاً فى الآخرة :

﴿ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾ [النحل]

ويقول الحق سبحانه :

﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) ﴾

الاستعاذة : اللجوء والاعتصام بالله من شىء تخافُه ، فأنت لا تلجأ ولا تعتصم ، ولا تستجير ولا تستنجد إلا إذا استشعرتَ فى نفسك أنك ضعيف عن مقاومة عدوك .

فإذا كان عدوك الشيطان بما جعل الله له من قوة وسلطان ،

---

(١) نقل القرطبى فى تفسيره خمسة أقوال فى تأويل الحياة الطيبة :
الأول : الرزق الحلال ، قاله ابن عباس وسعيد بن جبير وعطاء .
الثانى : القناعة ، قاله الحسن البصرى وعلى بن أبى طالب .
الثالث : توفيقه إلى الطاعات ، فإنها تؤديه إلى رضوان الله . قال معناه الضحاك .
الرابع : الجنة ، قاله مجاهد وقتادة وابن زيد . قال الحسن البصرى : لا تطيب الحياة لأحد إلا فى الجنة .
الخامس : حلاوة الطاعة ، قاله أبو بكر الوراق .

وما له من مداخل للنفس البشرية فلا حَوْلَ لك ولا قُوّة فى مقاومته إلا أنْ تلجأ إلى الله القوى الذى خلقك وخلق هذا الشيطان ، وهو القادر وحده على رَدّه عنك ؛ لأن الشيطان فى معركة مع الإنسان تدور رحاها إلى يوم القيامة .

وقد أقسم الشيطان للحق تبارك وتعالى ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

فما عليك إلا أن تكون من هؤلاء ، ما عليك إلا أنْ ترتمى فى حضن ربك عز وجل وتعتصم به ، فهو سبحانه القوى القادر على أنْ يدفعَ عنك ما لم تستطع أنت دَفْعه عن نفسك ، فلا تقاومه بقوتك أنت ؛ لأنه لا طاقة لك به ، ولا تدعه ينفرد بك ؛ لأنه إن انفرد بك وأبعدك عن الله فسوف تكون له الغلبة .

ولذلك نقول دائماً : لا حَوْلَ ولا قوةَ إلا بالله ، أى : لا حول : لا تحوُّل عن المعصية . ولا قوة . أى : على الطاعة إلا بالله .

ونحن نرى الصبى الصغير الذى يسير فى الشارع مثلاً قد يتعرَّض لمَنْ يعتدى عليه من أمثاله من الصبية ، أما إذا كان فى صُحْبة والده فلا يجرؤ أحد منهم أنْ يتعرضَ له ، فما بالك بمَنْ يسير فى صُحْبة ربه تبارك وتعالى ، ويُلْقى بنفسه فى حماية الله سبحانه ؟!

وفى مقام الاستعاذة بالله نذكر قاعدة إيمانية علَّمنا إياها

الرسول ﷺ فى حديثه الشريف : « من استعاذ بالله فأعيذوه »[١] .

فيلزم المؤمن أنْ يعيذ من استعاذ بالله ، وإنْ كان فى أحب الأشياء إليه ، والرسول ﷺ يعطينا القدوة فى ذلك ، حينما تزوج من فتاة[٢] على قدر كبير من الحسن والجمال لدرجة أن نساءه غِرْنَ منها ، وأخذْنَ فى الكَيْد لها وزحزحتها من أمامهن حتى لا تغلبهن على قلب النبى ﷺ ، ولكن كيف لهُنَّ ذلك ؟

حاولْنَ استغلال أن هذه الفتاة ما تزال صغيرة غِرة ، تتمتع بسلامة النية وصفاء السريرة ، ليس لديها من تجارب الحياة ما تتعلم منه لُؤْماً أو مكْراً ، وهى أيضاً ما تزال فى نشوة فرحتها بأنْ أصبحت أماً للمؤمنين ، وتحرص كل الحرص على إرضاء النبى ﷺ فاستغل نساء النبى ﷺ هذا كله ، وقالت لها إحداهن : إذا دخلتِ على رسول الله فقولى له : أعوذ بالله منك ، فإنه يحب هذه الكلمة .

أخذت الفتاة هذه الكلمة بما لديها من سلامة النية ، ومحبة لرسول الله ، وحرص على إرضائه ، وقالت له : أعوذ بالله منك ، وهى لا تدرى معنى هذه العبارة فقال ﷺ : « لقد عُذْت بمعاذ ، الحقى بأهلك »[٣] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٢٥٠/١) ، وأبو داود فى سننه (٥١٠٨) والنسائى فى سننه (٨٢/٥) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « من استعاذ بالله فأعيذوه ، ومن سألكم بوجه الله فأعطوه » .

(٢) هى ابنة الجون . قال ابن حجر العسقلانى فى الفتح (٣٥٧/٩) : « الصحيح أن اسمها أميمة بنت النعمان بن شراحيل الكندية » .

(٣) أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٢٥٤ ـ ٥٢٥٧) ، وابن ماجة فى سننه (٢٠٥٠) من حديث عائشة رضى الله عنها .

أى : ما دُمْت استعذت بالله فأنا قبلت هذه الاستعاذة ؛ لأنكِ استعذت بمعاذ أى : بمن يجب علينا أن نتركك من أجله ، ثم طلقها النبى ﷺ امتثالاً لهذه الاستعاذة .

إذن : مَن استعاذ بالله لا بُدَّ للمؤمن أنْ يُعيذه ، ومن استجار بالله لا بُدَّ للمؤمن أن يكون جندياً من جنود الله ، ويجيره حتى يبلغ مأمنه .

وفى الآية الكريمة أسلوب شرط ، اقترن جوابه بالفاء فى قوله تعالى :

﴿ فَاسْتَعِذْ .. (٩٨) ﴾ [النحل]

فإذا رأيت الفاء فاعلم أن ما بعدها مترتبٌ على ما قبلها ، كما لو قُلْتَ : إذا قابلت محمداً فقُلْ له كذا .. فلا يتم القول إلا بعد المقابلة . أما فى الآية الكريمة فالمراد : إذا أردت قراءة القرآن فاستعذْ ؛ لأن الاستعاذة هنا تكون سابقة على القراءة ، كما جاء فى قوَل الحق تبارك وتعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ .. (٦) ﴾ [المائدة]

فالمعنى : إذا أردتُمْ إقامة الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، وكذلك إذا أردتَ قراءة القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ؛ لأن القرآن كلام الله .

ولو آمنّا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يتكلم لعلمنا أن قراءة القرآن تختلف عن أى قراءة أخرى ، فأنت كى تقرأ القرآن تقوم بعمليات متعددة :

أولها : استحضار قداسة المُنْزِل سبحانه الذى آمنتَ به وأقبلتَ على كلامه .

ثانيها : استحضار صدق الرسول فى بلاغ القرآن المنزّل عليه .

ثالثها : استحضار عظمة القرآن الكريم ، بما فيه من أوجه الإعجاز ، وما يحويه من الآداب والأحكام .

إذن : لديك ثلاث عمليات تستعد بها لقراءة كلام الله فى قرآنه الكريم ، وكل منها عمل صالح لن يدعكَ الشيطانُ تؤديه دون أنْ يتعرَّض لك ، ويُوسوس لك ، ويصرفك عما أنت مُقبِلٌ عليه .

وساعتها لن تستطيع منعه إلا إذا استعنتَ عليه بالله ، واستعذتَ منه بالله ، وبذلك تكون فى معية الله منزل القرآن سبحانه وتعالى ، وفى رحاب عظمة المنزل عليه محمد صدقاً ، ومع استقبال ما فى القرآن من إعجاز وآداب وأحكام .

ومن هنا وجب علينا الاستعاذة بالله من الشيطان قبل قراءة القرآن .

ومع ذلك لا مانع من حَمْل المعنى على الاستعاذة أيضاً بعد قراءة القرآن ، فيكون المراد : إذا قرأتَ القرآن فاستعذ بالله .. أى : بعد القراءة ؛ لأنك بعد أن قرأتَ كتاب الله خرجتَ منه بزاد إيمانى وتجليّات ربانية ، وتعرَّضْتَ لآداب وأحكام طُلبت منك ، فعليك - إذن - أن تستعيذ بالله من الشيطان أن يفسِد عليك هذا الزاد وتلك التجليات ، أو يصرفك عن أداء هذه الآداب والأحكام .

وقوله تعالى :

﴿مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل]

أى : الملعون المطرود من رحمة الله ؛ لأن الشيطان ليس مخلوقاً جديداً يحتاج أنْ نُجرّبه لنعرف طبيعته وكيفية التعامل معه ، بل له معنا سوابق عداء منذ أبينا آدم عليه السلام .

وقد حذر الله تعالى آدم منه فقال :

﴿يَـٰآدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ..﴿١١٧﴾﴾ [طه]

وسبق أنْ رُجم ولُعِن وأُبعِد من رحمة الله ، فقد هددنا بقوله :

﴿لأَحْتَنِكَنَّ(١) ذُرِّيَّتَهُ..﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء]

إذن : هناك عداوة مسبقة بيننا وبينه منذ خَلْق الإنسان ، وإلى قيام الساعة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَـٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾﴾

لحكمة أرادها الخالق سبحانه أنْ جعل للشيطان سلطاناً . أى : تسلطاً .

---

(١) احتنك فلاناً : استولى عليه واستماله إليه فلا يخرج عن طوعه على المجاز ، كأنه وضعه فى حنكه فلا يفلت منه . وقوله معناه : أى لأملكن أمرهم وأستولى عليهم فلا يعصون أمرى . [القاموس القويم ١/ ١٧٥] .

وكلمة (السلطان) مأخوذة من السَّليط ، وهو الزيت[1] الذى كانوا يُوقِدون به السُّرج والمصابيح قبل اكتشاف الكهرباء ، فكانوا يضعون هذا الزيت فى إناء مغلق مثل السلطانية يخرج منه فتيلة ، وعندما توقد تمتصّ من هذا الزيت وتُضىء ؛ ولذلك سُمِّيتْ الحجة سُلْطاناً ؛ لأنها تنير لصاحبها وَجْه الحق .

والسلطان ، إما سلطان حجة تقنعك بالفعل ، فتفعل وأنت راضٍ مقتنع به . وإما سلطان قَهْر وغلبة يجبرك على الفعل ويحملك عليه قَهْراً دون اقتناع به .

إذن : تنفيذ المطلوب له قوتان : قوة الحجة التى تُضىء لك وتُوضّح أمامك معالم الحق ، وقوة القهر التى تُجبرك على تنفيذ المطلوب عن غير اقتناع وإنْ لم ترهَا .

والحقيقة أن الشيطان لا يملك أيّاً من هاتين القوتين ، لا قوة الحجة والإقناع ، ولا قوة القهر . وهذا واضح فى قول الحق تبارك وتعالى على لسان الشيطان يوم القيامة :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ[2] وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ

---

(١) قال ابن الأعرابى : السليط عند عامة العرب الزيت . وعند أهل اليمن : دُهْن السمسم . وقال الزجاج : اشْتقاق السلطان من السليط . والسليط ما يُضاء به . [لسان العرب ـ مادة : سلط] .

(٢) أى : بمغيثكم . والصارخ والمستصرخ هو الذى يطلب النصرة والمعاونة . والمصرخ هو المغيث . [تفسير القرطبى ٥/ ٣٦٩٤] .

بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

هذا حوار يدور يوم القيامة بعد أن انتهتْ المسألة وتكشفتْ الحقيقة ، وجاء وقت المصارحة والمواجهة . يقول الشيطان لأوليائه مُتنصلاً من المسئولية : ما كان عندى من سلطان عليكم ، لا سلطان حجة تقنعكم أنْ تفعلوا عن رضاً ، ولا سلطان قَهْر أجبركم به أن تفعلوا وأنتم كارهون ، أنا فقط أشرتُ ووسوستُ فأتيتمونى طائعين .

﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. (٢٢) ﴾ [إبراهيم]

أى : نحن فى الخيبة سواء ، فلا أستطيع نجدتكم ، ولا تستطيعون نجدتى ؛ لأن الصُّراخَ يكون من شخص وقع فى ضائقة أو شدة لا يستطيع الخلاص منها بنفسه ، فيصرخ بصوت عالٍ لعله يجد مَنْ يُغيثه ويُخلّصه ، فإذا ما استجاب له القوم فقد أصرخوه . أى : أزالوا سبب صُرَاخه .

إذن : فالمعنى : لا أنا أستطيع إزالة سبب صراخكم ، ولا أنتم تستطيعون إزالة سبب صُرَاخى .

وكذلك فى حوار آخر دار بين أهل الباطل الذين تكاتفوا عليه فى الدنيا ، وها هى المواجهة يوم القيامة :

﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ (٢٤) مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

والمراد بقوله : (عَنِ الْيَمِينِ) أن الإنسان يزاول أعماله بكلتا

يديه ، لكن اليـد اليمنى هى العُمْـدة فى العمل ، فأتـيته عن اليـمين . أى : من ناحية اليد الفاعلة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ (٣٠) ﴾ [الصافات]

أى : فى انتظار إشـارة منّا ، مجرد إشـارة ، فسـارعتم ووقـعتم فيما وقعتُم فيه .

فعلى مَنْ يكون تسلط الشيطان وتلك الغلبة والقهر ؟

يُوضّح الحق تبـارك وتعـالى أن تسلّط الشـيطان لا يقع على مَنْ آمن به ربا ، ولجـأ إليه واعتـصم به ، وما دُمْت آمنتَ بـالله فأنت فى مَـعيّتـه وحفْظه ، ولا يـستطيع الـشيطان وهو مـخلوق لله تعـالى أنْ يتسلّط عليك أو يغلبك .

إذن : الحصن الذى يقـينا كيْدَ الشيطان هو الإيمـان بالله والتوكّل عليه سبحانه .

فعلىَ مَنْ إذن يتسلّط الشيطان ؟

يُوضّح الحق تبارك وتعالى الجانب المقابل ، فيقول :

﴿ إِنَّمَا سُلْطَـٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾

معنى يـتولونه : أى يتخـذونه وَليًا يطيـعون أمـره ، ويخضـعون لوسوسته ، ويتبعون خطواته :

﴿ الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾ [النحل]

أى : مشركون بالله ، أو يكون المعنى : وهُمْ به أى بسببه أشركوا ؛ لأنه أصبح له أوامر ونواهٍ وهم يطيعونه ، وهذه هى العبادة بعينها ، فكأنهم عبدوه من دون الله بما قدّموه من طاعته فى أمره ونَهْيه .

وقد سَمَّى الله طريقة الشيطان فى الإضلال والغواية وَسْوسةً ، والوسوسة فى الحقيقة هى صَوْت الحُلِىّ حينما يتحرك فى أيدى النساء ، فيُحدث صوتاً رقيقاً فيه جاذبية وإغراء تهيج له النفس ، وكذلك الشيطان يدخل إليك عن طريق الإغراء والتزيين ، فإذا ما هاجتْ عليك نفسُك وحدّثتْك بالمعصية تركك لها ، فعند هذه النقطة تنتهى مُهمته .

ولكن ، هل النفس لا تفعل المعصية إلا بوسوسة الشيطان ؟

قالوا : لا ، فالنفس ـ والمراد هنا النفس الأمّارة بالسوء ـ قد تفعل المعصية من نفسها دون وسوسة من الشيطان ، وقد يُوسْوِسُ الشيطان لها ، وينزغها نَزغاً ويُؤلّبها ، ويُزيّن لها معصية ما كانت على بالها .

فكيف ـ إذن ـ يُفرّق بين هاتين المعصيتين ؟

النفس حينما ترغب فى معصية أو شهوة تراها تقف عند معصية بعينها لا تتزحزح عنها ، وإذا قاومتَ نفسك ، وحاولتَ صَرْفها عن هذه الشهوة ألحّتْ عليك بها ، وطلبتها بعينها ، فشهوة النفس إذن ثابتة ؛ لأنها تشتهى شيئاً واحداً تُلح عليه .

ولكن حينما يُوسوسُ الشيطان لك بشهوة فوجد منك مقاومة وقدرة على مجابهته صرف نظرك إلى أخرى ؛ لأنه يريدك عاصياً بأىٍّ شكل من الأشكال ، فتراه يُزيِّن لك معصية أخرى وأخرى ، إلى أنْ ينال منك ما يريد .

ومن ذلك ما نراه فى الرشوة مثلاً - والعياذ بالله - فإنْ رفضتَ رشوة المال زيَّن لك رشوة الهدية ، وإنْ رفضتَ رشوة الهدية زيَّنَ لك الرشوة بقضاء مصلحة مقابلة .

وهكذا يظل هذا اللعين وراءك حتى يصل إلى نقطة ضَعْف فيك ، إذن : فهو ليس كالنفس يقف بك عند شهوة واحدة ، ولكنه يريد أن يُوقِع بك على أىِّ صورة من الصور .

ولكى نقفَ على مداخل الشيطان ونكون منه على حَذر يجب أنْ نعلم أن الشيطان على علم كبير وصل به إلى صفوف الملائكة ، بل سَمَّوه « طاووس الملائكة » ، ويمكن أن نقف على شىء من علم الشيطان فى دقّة قَسَمه ، حينما أقسم للحق تبارك وتعالى أن يُغوى بنى آدم ، فقال :

﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص]

هكذا عرف الشيطان أنْ يُقسِم القسَم المناسب ، فلم يَقُلْ : بقوتى ولا بحجتى سأغوى الخَلْق ، بل عرف لله تعالى صفة العزة ، فهو سبحانه عزيز لا يُغلب ؛ لذلك ترك لخلْقه حرية الإيمان به ، فقال :

﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

فالمعنى : فبعزتك عن خَلْقك : يؤمن مَنْ يؤمن ، ويكفر مَنْ يكفر ، سوف أدخل من هذا الباب لإغواء البشر ، ولكننى لا أجرؤ على الاقتراب ممَّنْ اخترتَهم واصطفيتَهم ، لن أتعرَّضَ لعبادك المخلصين ، ولا دَخْلَ لى بهم ، ولا سلطان لى عليهم .

كذلك يجب أن نعلم أن الشيطان دقيق فى تخطيطه ، وهذا مِن مداخله وتلبيسه الذى يدعونا إلى الحذر من هذا اللعين . فالشيطان لا حاجة له فى أن يذهب إلى الخمارات مثلاً ، فقد كفاه أهلُها مشقة الوَسْوسة ، ووفّروا عليه المجهود ، هؤلاء هم أولياؤه وأحبابه ومُريحوه بما هم عليه من معصية الله ، ولكنه فى حاجة إلى أن يكون فى المساجد ليُفسد على أهل الطاعة طاعتهم .

وقد أوضح هذه القضية وفطن إليها الإمام الجليل أبو حنيفة النعمان ، وكان مشهوراً بالفطْنة ، وعلى دراية بمداخل الشيطان وتلبيسه ، وكل هذا جعل له باعاً طويلاً فى الإفتاء ، وقد عرض عليه أحدهم هذه المسألة :

قال : يا إمام كان لدىَّ مال دفنته فى مكان كذا ، وجعلتُ عليه علامة ، فجاء السَّيْل وطمس هذه العلامة ، فلم أهتدِ إليه ، فماذا أفعل ؟

فتبسَّم أبو حنيفة وقال : يا بُنى ليس فى هذا علم ، ففى أىّ باب من أبواب الفقه سيجد أبو حنيفة هذه القضية ؟! ولكنى سأحتال لك .

وفعلاً تفتقتْ قريحة الإمام عن هذه الحيلة التى تدل على علْمه وفقهه ، قال له : إذا جئتَ فى الليل فتوضّأ ، وقُمْ بين يدى ربِّك

مُتهجِّداً . وفى الصباح أخبرنى خبرك .

وفى صلاة الفجر قابله الرجل مُبتسماً . يقول : لقد وجدتُ المال ، فقال : كيف ؟ قال الرجل : حينما وقفتُ بين يدىْ ربى فى الصلاة تذكرت المكان وذهبتُ فوجدت مالى ، فضحك الإمام وقال : والله لقد علمت أن الشيطان لن يدعَك تُتِم ليلتك مع ربك .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾

قوله : ﴿ بَدَّلْنَا ﴾ ومنها : أبدلت واستبدلْتُ ، أى : رفعتُ آية وطرحتُها . وجئت بأخرى بدلاً منها ، وقد تدخل الباء على الشىء المتروك ، كما فى قوله تعالى :

﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِى هُوَ خَيْرٌ ..﴿٦١﴾ ﴾ [البقرة]

أى : تتركون ما هو خير ، وتستبدلون به ما هو أدنى .

وما معنى الآية ؟ كلمة آية لها معَانٍ متعددة منها :

- الشىء العجيب الذى يُلفت الأنظار ، ويُبهر العقول ، كما نقول : هذا آية فى الجمال ، أو فى الشجاعة ، أو فى الذكاء ، أى : وصل فيه إلى حَدٍّ يدعو إلى التعجُّب والانبهار .

– ومنها الآيات الكونية ، حينما تتأمل فى كون الله من حولك تجد آياتٍ تدلُّ على إبداع الخالق سبحانه وعجيب صنعته ، وتجد تناسقاً وانسجاماً بين هذه الآيات الكونية .

يقول تعالى عن هذا النوع من الآيات :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [فصلت]

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ ﴿٣٢﴾ ﴾ [الشورى]

ونلاحظ أن هذه الآيات الكونية ثابتة دائمة لا تتبدّل ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ..﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح]

– ومن معانى الآية : المعجزة ، وهى الأمر العجيب الخارق للعادة ، وتأتى المعجزة على أيدى الأنبياء لتكون حُجّة لهم ، ودليلاً على صدق ما جاءوا به من عند الله .

ونلاحظ فى هذا النوع من الآيات أنه يتبدّل ويتغيّر من نبى لآخر ؛ لأن المعجزة لا يكون لها أثرها إلا إذا كان فى شىء نبغ فيه القوم ؛ لأن هذا هو مجال الإعجاز ، فلو أتيناهم بمعجزة فى مجال لا عِلْمَ لهم به لقالوا : لو أن لنا علْماً بهذا لأتينا بمثله ؛ لذلك تأتى المعجزة فيما نبغُوا فيه ، وعلموه جيداً حتى اشتهروا به .

فلما نبغَ قوم موسى عليه السلام فى السحر كانت معجزته من

نوع السحر الذى يتحدى سحرهم ، فلما جاء عيسى ـ عليه السلام ـ ونبغ قومه فى الطب والحكمة كانت معجزته من نفس النوع ، فكان ـ عليه السلام ـ يبرىء الأكمه والأبرص ويحي الموتى بإذن الله .

فلما بُعث محمد ﷺ ، ونبغ قومه فى البلاغة والفصاحة والبيان ، وكانوا يقيمون لها الأسواق ، ويُعلِّقون قصائدهم على أستار الكعبة اعتزازاً بها ، فكان لا بُدَّ أنْ يتحدّاهم بمعجزة من جنس ما نبغوا فيه وهى القرآن الكريم ، وهكذا تتبدّل المعجزات لتناسب كُلٌّ منها حال القوم ، وتتحدّاهم بما اشتهروا به ، لتكون أدْعى للتصديق وأثبت للحجة .

– ومن معانى كلمة آية : آيات القرآن الكريم التى نُسمّيها حاملة الأحكام ، فإذا كانت الآية هى الأمر العجيب ، فما وجه العجب فى آيات القرآن ؟

وجه العجب فى آيات القرآن أن تجدَ هذه الآيات فى أمّة أُمية ، وأنزلتْ على نبى أُمىٍّ فى قوم من البدو الرُّحل الذين لا يجيدون شيئاً غير صناعة القول والكلام الفصيح ، ثم تجد هذه الآيات تحمل من القوانين والأحكام والآداب ما يُرهب أقوى حضارتين معاصرتين ، هما حضارة فارس فى الشرق ، وحضارة الرومان فى الغرب ، فنراهم يتطلّعون للإسلام ، ويبتغون فى أحكامه ما ينقذهم ، أليس هذا عجيباً ؟

وهذا النوع الأخير من الآيات التى هى آيات الكتاب الكريم ، والتى نُسمّيها حاملة الأحكام ، هل تتبدّل هى الأخرى كسابقتها ؟

نقـول : آيات الكتـاب لا تتـبـدّل ؛ لأن أحكام الله الـمطلوبة مـمَّن عاصر رسول الله ﷺ كالأحكام المطلوبة ممَّنْ تقوم عليه الساعة .

وقد سُبق الإسلام باليـهودية والمسـيحيـة ، فعندنا أمـر رسول الله ﷺ بتحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعـبة المشرفة . اعترض على ذلك اليهود[1] وقالوا : ما بال محمـد لا يثـبتُ على حال ، فيأمر بالشيء اليـوم ، ويأمر بخـلافه غـداً ، فإنْ كان البـيت الصـحـيح هو الكعـبة فصـلاتكم لبيت المـقدس باطلـة ، وإنْ كان بيت المـقدس هو الصحيح فصلاتكم للكعبة باطلة .

لذلك قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَـا يُنَزِّلُ قَـالُوا إِنَّمَـا أَنتَ مُفْتَرٍ ..(١٠١) ﴾ [النحل]

فالمراد بقول الحق سبحانه :

﴿ آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ..(١٠١) ﴾ [النحل]

أى : جئْنا بآيـة تدلُّ على حكم يخالف ما جـاء فى التوراة ، فـقد كان استقبال الكعبة فى القرآن بدل استقبال بيت المقدس فى التوراة .

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ..(١٠١) ﴾ [النحل]

---

(١) أخرج البـيهقى فى دلائل النبوة (٢/ ٥٧٤) مـرسلاً من حديث الزهرى أن القـبلة صرفت نحو المسـجد الحرام فى رجب على رأس ستـة عشر شهراً من مـخرج رسول الله ﷺ من مكة ، وأن اليهـود أنشأت تقـول : قد اشتـاق الرجل إلى بلده ، وبيت أبيه ، ومـا لهم حتى تركوا قبلتهم يصلون مرة وجهاً ، ومرة وجهاً آخر .

أى : يُنزل كل آية حَسْب ظروفها : أمةً وبيئةً ومكاناً وزماناً .

وقوله : ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١) ﴾ [النحل]

أى : اتهموا رسـول الله ﷺ بالكذب المتعمد ، وأن هـذا التحويل من عنده ، وليس وَحْـياً من الله تعـالى ؛ لأن أحكام الله لا تتناقض . ونقول : نعم أحكام الله سبحانه وتعالى لا تتناقض فى الدين الواحد ، أما إذا اختلفتْ الأديان فلا مانعَ من اختلاف الأحكام .

إذن : فآيات القـرآن الكريم لا تتبـدّل ، ولكن يحدث فيـها نَسْخ ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة]

وإليك أمثلة للنسْخ فى القرآن الكريم :

حينما قال الحق سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

جعل الاستطاعـة ميزاناً للعمل ، فـالمشرّع سبـحانه حين يرى أن الاستطاعـةَ لا تكفى يُخفّف عنّا الحـكم ، حتى لا يُكلّفنا فـوق طاقتنا ، كما فى صيام المريض والمسافر مثلاً ، وقد قال تعالى :

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا (٢٨٦) ﴾ [البقرة]

وقال : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ مَا آتَاهَا (٧) ﴾ [الطلاق]

فليس لنا بـعد ذلك أنْ نـلوىَ الآيات ونقـول : إن الحكم الفـلانى لم تَعُدْ النفس تُطيـقه ولم يَعُد فى وُسْـعنا ، فالحق سبـحانه هو الذى يعلم الوُسْع ويُكلّف على قَـدْره ، فإنْ كان قد كلّف فـقد علم الوُسْع ، بدليل أنه سـبـحانـه إذا وجد مـشـقة خـفّف عنكـم من تلقاء نـفسـه سبحانه ، كما قال تعالى :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا .. (٦٦) ﴾ [الأنفال]

ففى بداية الإسلام حيث شجاعة المسلمين وقوتهم ، قال تعالى :

﴿ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ .. (٦٥) ﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى عشرة ، فحينما علم الحق سبحانه فيهم ضَعْفاً ، قال :

﴿ الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ .. (٦٦) ﴾ [الأنفال]

أى : نسبة واحد إلى اثنين . فالله تعالى هو الذى يعلم حقيقة وُسْعنا ، ويُكلّفنا بما نقدر عليه ، ويُخفِّف عَنَّا عند الحاجة إلى التخفيف ، فلا يصح أنْ نُقحِم أنفسنا فى هذه القضية ، ونُقدِّر نحن الوُسْع بأهوائنا .

ومن أمثلة النسخ أن العرب كانوا قديماً لا يعطون الآباء شيئاً من المال على اعتبار أن الوالد مُنْته ذاهب ، ويجعلون الحظ كله للأبناء على اعتبار أنهم المقبلون على الحياة .

وحينما أراد الحق سبحانه أن يجعل نصيباً للوالدين جعلها وصية فقال :

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ[1] لِلْوَالِدَيْنِ .. (١٨٠) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن كثير فى تفسيره (١/٢١١) : « اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين ، وقد كان ذلك واجباً على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتماً من غير وصية ولا تحمل منة الموصى » .

فلما استقر الإيمان فى النفوس جعلها ميراثاً ثابتاً ، وغَيَّر الحكم من الوصية إلى خير منها وهو الميراث ، فقال تعالى :

﴿ وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ.. (١١) ﴾ [النساء]

إذن : الحق تبارك وتعالى حينما يُغيِّر آية ينسخها بأفضل منها .

وهذا واضح فى تحريم الخمر مثلاً ، حيث نرى هذا التدريج المحكم الذى يراعى طبيعة النفس البشرية ، وأن هذا الأمر من العادات التى تمكَّنَتْ من النفوس ، ولا بُدَّ لها من هذا التدرُّج ، فهذا ليس أمراً عَقَدياً يحتاج إلى حُكْم قاطع لا جدال فيه .

فانظر إلى هذا التدريج فى تحريم الخمر : قال تعالى :

﴿ وَمِن ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا[1] وَرِزْقًا حَسَنًا (٦٧) ﴾ [النحل]

أهل التذوق والفهم عن الله حينما سمعوا هذه الآية قالوا : لقد بيَّت الله للخمر أمراً فى هذه الآية ؛ ذلك لأنه وصف الرزق بأنه حَسَن ، وسكت عن السَّكَر فلم يصفه بالحُسْن ، فدلَّ ذلك على أن الخمر سيأتى فيه كلام فيما بعد .

وحينما سُئل ﷺ عن الخمر ردَّ القرآن عليهم :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا.. (٢١٩) ﴾ [البقرة]

---

(١) قال ابن عباس : السَّكَر : الخمر . والرزق الحسن : جميع ما يُؤكل ويُشرب حلالاً من هاتين الشجرتين . قال ابن العربى : الصحيح أن ذلك كان قبل تحريم الخمر فتكون منسوخة ، فإن هذه الآية مكية باتفاق من العلماء ، وتحريم الخمر مدنى.. نقله القرطبى فى تفسيره (٥/٣٨٥٣ ، ٣٨٥٤) .

جاء هذا على سبيل النصح والإرشاد ، لا على سبيل الحكم والتشريع ، فعلى كل مؤمن يثق بكلام ربه أن يرى له مَخْرجاً من أسْر هذه العادة السيئة .

ثم لُوحِظ أن بعض الناس يُصلى وهو مخمور ، حتى قال بعضهم في صلاته : أعبد ما تعبدون[1] ، فجاء الحكم :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ..(٤٣) ﴾ [النساء]

ومقتضى هذا الحكم أنْ يصرفهم عن الخمر معظم الوقت ، فلا تتأتى لهم الصلاة دون سُكْر إلا إذا امتنعوا عنها قبل الصلاة بوقت كاف ، وهكذا عوَّدهم على تركها معظم الوقت ، كما يحدث الآن مع الطبيب الذى يعالج مريضه من التدخين مثلاً ، فينصحه بتقليل الكمية تدريجياً حتى يتمكّن من التغلب على هذه العادة .

وبذلك وصل الشارع الحكيم سبحانه بالنفوس إلى مرحلة ألفَتْ فيها تَرْك الخمر ، وبدأت تنصرف عنها ، وأصبحت النفوس مُهيّئة لتقبُّل التحريم المطلق ، فقال تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ..(٩٠) ﴾ [المائدة]

---

(١) ذكر ابن كثير فى تفسيره (١/٥٠٠) سبب نزول هذه الآية أن على بن أبى طالب قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاماً فدعانا وسقانا من الخمر فأخذت الخمر منا وحضرت الصلاة فقدموا فلاناً ، قال فقرأ : « قل يا أيها الكافرون ما أعبد ما تعبدون ونحن نعبد ما تعبدون » فأنزل الله تعالى : ﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ .. (٤٣) ﴾ [النساء] .

إذن : الحق سبحانه وتعالى نسخ آية وحُكْماً بما هو أحسن منه .

والعجيب أنْ نرى من علمائنا مَنْ يتعصّب للقرآن ، فلا يقبل القول بالنسخ فيه ، كيف والقرآن نفسه يقول :

﴿ مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة]

قالوا : لأن هناك شيئاً يُسمَّى البداء[1] .. ففى النسخ كأن الله تعالى أعطى حُكْماً ثم تبيّن له خطؤه ، فعدل عنه إلى حُكْم آخر .

ونقول لهؤلاء : لقد جانبكم الصواب فى هذا القول ، فمعنى النسخ إعلان انتهاء الحكم السابق بحكم جديد أفضل منه ، وبهذا المعنى يقع النسخ فى القرآن الكريم .

ومنهم مَنْ يقف عند قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا .. (١٠٦) ﴾ [البقرة]

فيقول : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ فيها علّة للتبديل ، وضرورة تقتضى النسخ وهى الخيرية ، فما علّة التبديل فى قوله : ﴿ أَوْ مِثْلِهَا ﴾ ؟

أولاً : فى قوله تعالى : ﴿ نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ﴾ قد يقول قائل : ولماذا لم يَأْتِ بالخيرية من البداية ؟

نقول : لأن الحق سبحانه حينما قال :

(١) قال السيوطى فى الإتقان (٣/٦٠) : « أجمع المسلمون على جوازه ، وأنكره اليهود ظناً منهم أنه بداء ، كالذى يرى الرأى ثم يبدو له ، وهو باطل لأنه بيان مدة الحكم كالإحياء بعد الإماتة وعكسه . والمرض بعد الصحة وعكسه ، وذلك لا يكون بداء ، فكذا الأمر والنهى » وقال ابن كثير فى تفسيره (١/١٥١) : « المسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه » .

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ.. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وهذه منزلة عالية فى التقوى ، لا يقوم بها إلا الخواصّ من عباد الله ، شَقَّتْ[1] هذه الآية على الصحابة وقالوا : ومَنْ يستطيع ذلك يا رسول الله ؟

فنزلت :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

وجعل الله تعالى التقوى على قدر الاستطاعة ، وهكذا نسخت الآية الأولى مطلوباً ، ولكنها بقيت ارتقاء ، فَمنْ أراد أنْ يرتقى بتقواه إلى (حَقّ تُقَاته) فبها ونعْمت ، وأكثر الله من أمثاله وجزاه خيراً ، ومَنْ لم يستطع أخذ بالثانية .

ولو نظرنا إلى هاتين الآيتين نظرة أخرى لوجدنا الأولى :

﴿ اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ .. (١٠٢) ﴾ [آل عمران]

وإنْ كانت تدعو إلى كثير من التقوى إلا أن العاملين بها قِلّة ، فى حين أن الثانية :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن]

وإنْ جعلتَ التقوى على قَدْر الاستطاعة إلا أن العاملين بها كثير ،

---

(١) قال سعيد بن جبير : لما نزلت هذه الآية اشتد على القوم العمل ، فقاموا حتى ورمت عراقيبهم وتقرحت جباههم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية تخفيفاً على المسلمين : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ .. (١٦) ﴾ [التغابن] فنسخت الآية الأولى ، ذكره ابن كثير فى تفسيره (٤/٣٧٧) .

ومن هنا كانت الثانية خَيْراً من الأولى ، كما نقول : قليل دائم خير من كثير منقطع .

أما فى قوله تعالى : ﴿ أَوْ مِثْلِها ﴾ أى : أن الأولى مِثْل الثانية ، فما وَجْه التغيير هنا ، وما سبب التَبديل ؟

نقول : سببه هنا اختبار المكلَّف فى مدى طاعته وانصياعه ، إنْ نُقِل من أمر إلى مثله ، حيث لا مشقَّة فى هذا ، ولا تيسيرَ فى ذاك ، هلَ سيمتثل ويطيع ، أم سيجادل ويناقش ؟

مثل هذه القضية واضحة فى حادث تحويل القبلة ، حيث لا مشقة على الناس فى الاتجاه نحو بيت المقدس ، ولا تيسير عليهم فى الاتجاه نحو الكعبة ، الأمر اختبار للطاعة والانصياع لأمر الله[1] ، فكان من الناس مَنْ قال : سمعاً وطاعة ونفّذوا أمر الله فوراً دون جدال ، وكان منهم مَن اعترض وأنكر واتهم رسول الله بالكذب على الله .

ومن ذلك أيضاً ما نراه فى مناسك الحج مما سنَّه لنا رسول الله ﷺ حيث نُقبل الحجر الأسعد وهو حجر ، ونرمى الجمرات وهى أيضاً حجر ، إذن : هذه أمور لا مجال للعقل فيها ، بل هى لاختبار الطاعة والانقياد للمشرع سبحانه وتعالى .

ثم يقول تعالى :

﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل]

بل : حرف يفيد الإضراب عن الكلام السابق وتقرير كلام جديد ،

---

(١) وقد قال تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ .. ﴿١٤٣﴾﴾ [البقرة] .

فالحق سبحانه وتعالى يُلغى كلامهم السابق :

﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. (١٠١)﴾ [النحل]

ويقول لهم : لا ليس بمفتر ولا كذاب ، فهذا اتهام باطل ، بل أكثرهم لا يعلمون .

وكلمة ﴿ أَكْثَرُهُمْ ﴾ هنا ليس بالضرورة أنْ تقابل بالأقل ، فيمكن أن نقول : أكثرهم لا يعلمون . وأيضاً : أكثرهم يعلمون كما جاء فى قول الحق سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَـٰوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ .. (١٨)﴾ [الحج]

هكذا بالإجماع ، تسجد لله تعالى جميع المخلوقات إلا الإنسان ، فمنه كثير يسجد ، يقابله أيضاً كثير حَقَّ عليه العذاب ، فلم يقُلْ القرآن : وقليل حَقَّ عليه العذاب .

وعلى فَرْض أن :

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٠١)﴾ [النحل]

إذن : هناك أقلية تعلم صِدْق رسول الله ﷺ فى البلاغ عن ربه ، وتعلم كذبهم وافتراءهم على رسول الله حينما اتهموه بالكذب ، ويعلمون صِدْق كل آية فى مكانها ، وحكمة الله المرادة من هذه الآية .

فَمنْ هم هؤلاء الذين يعلمون فى صفوف الكفار والمشركين ؟

قالوا : لقد كان بين هؤلاء قَوْم أصحاب عقول راجحة ، وفَهْم للأمور ، ويعلمون وجه الحق والصواب فى هذه المسألة ، ولكنهم أنكروها ، كما قال الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴿١٤﴾ ﴾ [النمل]

وايضاً من هؤلاء أصحاب عقول يفكرون فى الهدى ، ويُراودهم الإسلام ، وكأن لديهم مشروعَ إسلام يُعدون أنفسهم له ، وهم على علم أن كلام الكفار واتهامهم لرسول الله باطل وافتراء .

وأيضاً من هؤلاء مؤمنون فعلاً ، ولكن تنقصهم القوة الذاتية التى تدفع عنهم ، والعصبية التى تردّ عنهم كَيْد الكفار ، وليس عندهم أيضاً طاقة أنْ يهاجروا ، فهم ما يزالون بين أهل مكة إلا أنهم مؤمنون ويعلمون صدْق رسول الله وافتراء الكفار عليه ، لكن لا قدرةَ لهم على إعلان إيمانهم .

وفى هؤلاء يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ[1] مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح]

أى : تدخلوا على أهل مكة وقد اختلط الحابل بالنابل ، والمؤمن

---

(١) الهدى : هى الذبيحة تُهْدى إلى الحرم فى الحج . [القاموس القويم ٢/٣٠١] ومعكوفاً : محبوساً عن ان يبلغ أماكن نحْره . [القاموس القويم ٢/٣٢] .

بالكافر ، فتقتلوا إخوانكم المؤمنين دون علم .

﴿ لِّيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [الفتح]

أى : لو كانوا مُمَيَّزين ، الكفار فى جانب ، والمؤمنون فى جانب لَعذَّبْنَا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .

إذن : فإن كان أكثرهم لا يعلمون ويتهمونك بالكذب والافتراء فإنَّ غير الأكثرية يعلم أنهم كاذبون فى قولهم :

﴿ إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ .. ﴿١٠١﴾ ﴾ [النحل]

وما داموا اتهموك بالافتراء فقُلْ رداً عليهم :

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى فى هذه الآية يرد على الكفار افتراءهم على رسول الله ، واتهامهم له بالكذب المتعمد ، وأنه جاء بهذه الآيات من نفسه ، فقال له : يا محمد قُلْ لهؤلاء : بل نزَّله روح القُدس .

والقدس : أى المطهّر ، من إضافة الموصوف للصفة ، كما نقول : حاتم الجود مثلاً . والمراد بـ « روح القُدُس » سفير الوحى جبريل عليه السلام ، وقد قال عنه فى آية أخرى :

﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ ﴾ [الشعراء]

وقال عنه :

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ ﴾ [التكوير]

وقول الحق سبحانه :

﴿ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ .. ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن جبريل لم يأت بهذا القرآن من عنده هو ، بل من عند الله بالحق ، فمُحمد ﷺ لم يَأتِ بالقرآن من عنده ، وكذلك جبريل ، فالقرآن من عند الله ، ليس افتراءً على الله ، لا من محمد ، ولا من جبريل عليهما السلام .

وقوله تعالى :

﴿ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [النحل]

أى : ليُثبِّتَ الذين آمنوا على تصديق ما جاء به الرسول من الآيات ، أن الله تعالى أعلمُ بما يُنزل من الآيات ، وأن كل آية منها مُناسبة لزمانها ومكانها وبيئتها ، وفى هذا دليلٌ على أن المؤمنين طائعون مُنصَاعون لله تعالى مُصدِّقون للرسول ﷺ فى كُلٍّ ما بلغ عن ربه تعالى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ(١) إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

وفى هذه الآية اتهام آخر لرسول الله ﷺ وافتراء جديد عليه ، لا يانف القرآن من إذاعته ، فمَنْ سمع الاتهام والافتراء يجب أنْ يسمع الجواب ، فالقرآن يريد أنْ يفضحَ أمر هؤلاء ، وأنْ يُظهِر إفلاس حُججهم وما هم فيه من تخبُّط .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

وقد سبق أنْ قالوا عن رسول الله « مجنون » وبرَّأه الله بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]

والخلقُ العظيم لا يكون فى مجنون ؛ لأن الخلُق الفاضل لا يُوضع إلا فى مكانه ، بدليل قوله تعالى :

﴿ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ ﴾ [القلم]

وسبق أنْ قالوا : ساحر وهذا دليل على أنهم مغفلون يتخبّطون فى ضلالهم ، فلو كان محمد ساحراً ، فلِمَ لم يسحركم كما سحر المؤمنين به وتنتهى المسألة ؟

---

(١) الإلحاد : الميل . يقال : لحد وألحد ، أى : مال عن القصد [تفسير القرطبى ٥/٣٩٠٥] .

وسبق أنْ قالوا « شاعر » مع أنهم أدْرى الناس بفنون القول شِعْراً ونثراً وخطابة ، ولم يُجرِّبوا على محمد ﷺ شيئاً من ذلك ، لكنه الباطل حينما يَلَجّ فى عناده ، ويتكبّر عن قبول الحق .

وهنا جاءوا بشىء جديد يُكذِّبون به رسول الله ، فقالوا :

﴿ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ .. ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

أى : أن رسول الله ﷺ يتردد على أحد أصحاب العلم ليعلمه القرآن فقالوا[1] : إنه غلام لبنى عامر بن لؤى اسمه (يعيش) ، وكان يعرف القراءة والكتابة ، وكان يجلب الكتب من الأسواق ، ويقرأ قصص السابقين مثل عنترة وذات الهمة وغيرها من كتب التاريخ .

وقد تضاربتْ أقوالهم فى تحديد هذا الشخص الذى يزعمون أن رسول الله ﷺ تعلّم على يديه ، فقالوا : اسمه « عداس » وقال آخرون : سلمان الفارسى . وقال آخرون : بلْعام وكان حداداً رومياً نصرانياً يعلَم كثيراً عن أهل الكتاب .. الخ .

والحق تبارك وتعالى يردُّ على هؤلاء ، ويُظهِر إفلاسهم الفكرى ، وإصرارهم على تكذيب رسول الله ﷺ فيقول :

﴿ لِّسَانُ الَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾

[النحل]

(١) قاله المهدوى عن عكرمة . [ذكره القرطبى فى تفسيره ٥/٣٩٠٤] . وذُكرتْ أقوال أخرى : أنه غلام للفاكه بن المغيرة واسمه جبر وكان نصرانياً . ومنها : أنه غلام عتبة بن ربيعة واسمه عداس . وقيل : عابس غلام حويطب بن عبد العُزَّى . ويسار أبو فُكيْهة مولى ابن الحضرمى ، وكانا قد أسلما :

اللسان هنا : اللغة التى يُتحدَّث بها .

ويُلحِدون إليه : يميلون إليه وينسبون إليه أنه يُعلِّم رسول الله ﷺ .

أعجمى : أى لغته خفية ، لا يُفصح ولا يُبين الكلام ، كما نرى الأجانب يتحدثون العربية مثلاً .

ونلاحظ هنا أن القرآن الكريم لم يقُلْ (عجمى) ، لأن العجم جنس يقابل العرب ، وقد يكون من العجم مَنْ يجيد العربية الفصيحة ، كما رأينا سيبوَيْه[1] صاحب (الكتاب) أعظم مراجع النحو حتى الآن وهو عَجمى .

أما الأعجمى فهو الذى لا يُفصِح ولا يُبين ، حتى وإنْ كان عربياً . وقد كان فى قبيلة لؤى رجل اسمه زياد يُقال له « زياد الأعجمى » لأنه لا يُفصح ولا يُبين ، مع أنه من أصل عربى .

إذن : كيف يتأتَّى لهؤلاء الأعاجم الذين لا يُفصحون ، ولا يكادون ينطقون اللغة العربية ، كيف لهؤلاء أنْ يُعلِّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزة فى الفصاحة والبلاغة والبيان ؟

كيف يتعلم من هؤلاء ، ولم يثبت أنه ﷺ التقى بأحد منهم إلا (عداس) يُقال : إنه قابله مرة واحدة ، ولم يثبت أنه ﷺ تردَّد إلى معلم ، لا من هؤلاء ، ولا من غيرهم ؟

---

(١) سيبويه : هو عمرو بن عثمان الحارثى بالولاء ، أبو بشر ، إمام النحاة ، ولد فى إحدى قرى شيراز (١٤٨م) ، قدم البصرة فلزم الخليل بن أحمد ففاقه ، وسيبويه بالفارسية رائحة التفاح ، توفى بشيراز ١٨٠ هـ عن ٣٣ عاماً (الأعلام - للزركلى ٥/٨١) .

كما أن ما يحويه القرآن الكريم من آيات وأحكام ومعجزات ومعلومات يحتاج فى تعلُّمه إلى وقت طويل يتتلمذ فيه محمد على يد هؤلاء ، وما جرّبْتم على محمد شيئاً من هذا كله .

وهل يُعقل أن ما فى القرآن يمكن أن يطويه صَدْرُ واحدٍ من هؤلاء ؟! لو حدث لكان له من المكانة والمنزلة بين قومه ما كان للنبى ﷺ من منزلة ، ولأشاروا إليه بالبنان ولذَاع صيتُه ، واشتُهر أمره ، وشىء من ذلك لم يحدث .

وقوله تعالى :

﴿ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [النحل]

أى : لغته ﷺ ، ولغة القرآن الكريم عربية واضحة مُبِينة ، لا لَبْسَ فيها ولا غموض .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾

الحق تبارك وتعالى فى قوله :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النحل]

ينفى عن هؤلاء صفة الإيمان ، فكيف يقول بعدها :

﴿ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النحل]

أليسوا غير مؤمنين ، وغير مُهْتدين ؟

قُلْنا : إن الهداية نوعان :

– هداية دلالة وإرشاد ، وهذه يستوى فيها المؤمن والكافر ، فقد دَلَّ الله الجميع ، وأوضح الطريق للجميع ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ .. (١٧) ﴾ [فصلت]

أى : أرشدناهم ودَلَلْنَاهم .

– وهداية المعونة والتوفيق ، وهذه لا تكون إلا للمؤمن ، ومنها قوله تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن : معنى :

﴿ لا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ .. (١٠٤) ﴾ [النحل]

أى : هداية معونة وتوفيق .

ويصح أن نقول أيضاً : إن الجهة هنا مُنفكّة إلى شىء آخر ، فيكون المعنى : لا يهديهم إلى طريق الجنة ، بل إلى طريق النار ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا (١٦٨) إِلاَّ طَرِيقَ جَهَنَّمَ .. (١٦٩) ﴾ [النساء]

بدليل قوله تعالى بعدها :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [النحل]

ولأنه سبحانه فى المقابل عندما تحدَّث عن المؤمنين قال :

﴿ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾ [محمد]

أى : هداهم لها وعرَّفهم طريقها .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾

كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : وإن افتريتم على رسول الله واتهمتموه بالكذب فإن الكذب الحقيقى أنْ تُكذِّبوا بآيات الله ، ولا تؤمنوا بها .

ونلاحظ فى تذييل هذه الآية أن الحق سبحانه لم يَقُلْ : وأولئك هم الكافرون . بل قال : الكاذبون . ليدل على شناعة الكذب ، وأنه صفة لا تليق بمؤمن .

ولذلك حينما سُئل رسول الله ﷺ : أيسرق المؤمن ؟ قال : « نعم » . لأن الله قال :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ .. ﴿٣٨﴾ ﴾ [المائدة]

فما دام قد شرَّع حُكْماً ، وجعل عليه عقوبة فقد أصبح الأمر وارداً ومحتمل الحدوث .

وسُئِل : أيزنى المؤمن ؟ قال : « نعم » ، لأن الله قال :

﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي .. ② ﴾ [النور]

وسُئِل : أيكذب المؤمن ؟ قال : لا[1] .

والحديث يُوضّح لنا فظاعة الكذب وشناعته ، وكيف أنه أعظم من كل هذه المنكرات ، فقد جعل الله لكل منها عقوبة معلومة في حين ترك عقوبة الكذب ليدل على أنها جريمة أعلى من العقوبة وأعظم .

إذن : الكذب صفة لا تليق بالمؤمن ، ولا تُتصوّر فى حَقِّه ؛ ذلك لأنه إذا اشتُهر عن واحد أنه كذاب لما اعتاده الناس من كذبه ، فنخشى أن يقول مرة : أشهد ألاَّ إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله فيقول قائل : إنه كذاب وهذه كذبة من أكاذيبه .

ثم يقول الحق سبحانه[2] :

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾

---

(١) أخرجه الإمام مالك فى موطئه (ص٩٩٠) من حديث صفوان بن سليم مرسلاً .

(٢) **سبب نزول الآية** : قال ابن عباس : نزلت فى عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسراً وأمه سمية وصهيباً وبلالاً وخباباً وسالماً ، فأما سمية فإنها رُبطت بين بعيرين ، ووُجىء قُبُلها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمتِ من أجل الرجال ، فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين قتلا فى الإسلام .

وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرهاً ، فأخبر النبى ﷺ بأن عماراً كفر ، فقال كلا ، إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكى ، فجعل رسول الله ﷺ يمسح عينيه ، وقال : إنْ عادوا لك فعُدْ لهم بما قلت . فأنزل الله تعالى هذه الآية . ذكره الواحدى فى أسباب النزول (ص ١٦٢) وتفسير القرطبى (٥/٣٩٠٧) .

الحق سبحانه وتعالى سبق وأنْ تحدث عن حكم المؤمنين وحكم الكافرين ، ثم تحدَّث عن الذين يخلفون العهد ولا يُوفون به ، ثم تحدث عن الذين افترَوْا على رسول الله والذين كذَّبوا بآيات الله ، وهذه كلها قضايا إيمانية كان لابد أنْ تُثار .

وفى هذه الآية الكريمة يوضح لنا الحق سبحانه وتعالى أن الإيمان ليس مجرد أن تقول : لا إله إلا الله محمد رسول الله . فالقول وحده لا يكفى ولا بُدَّ وأنْ تشهدَ بذلك ، ومعنى تشهد أنْ يُواطِىء القلب واللسان كل منهما الآخر فى هذه المقولة .

والمتأمل لهذه القضية يجد أن القسمة المنطقية تقتضى أن يكون لدينا أربع حالات :

الأولى : أنْ يُواطىء القلب اللسان إيجاباً بالإيمان ؛ ولذلك نقول : إن المؤمن منطقىّ فى إيمانه ؛ لأنه يقول ما يُضمره قلبه .

الثانية : أنْ يُواطِىءَ القلب اللسان سلباً أى : بالكفر ، وكذلك الكافر منطقى فى كفره بالمعنى السابق .

الثالثة : أنْ يؤمن بلسانه ويُضمرَ الكفر فى قلبه ، وهذه حالة المنافق ، وهو غير منطقى فى إيمانه حيث أظهر خلاف ما يبطن ليستفيد من مزايا الإيمان .

الرابعة : أن يؤمن بقلبه ، وينطق كلمة الكفر بلسانه .

وهذه الحالة الرابعة هى المرادة فى هذه الآية . فالحق تبارك وتعالى يعطينا هنا تفصيلاً لمن كفر بعد إيمان ، وما سبب هذا الكفر ؟ وما جزاؤه ؟

قوله :

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل]

هذه جملة الشرط تأخَّر جوابها إلى آخر الآية الكريمة ، لنقف أولاً على تفصيل هذا الكفر ، فإما أن يكون عن إكراه لا دَخْلَ للإنسان فيه ، فيُجبر على كلمة الكفر ، فى حين قلبه مطمئن بالإيمان .

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ .. ﴿١٠٦﴾﴾ [النحل]

ثم سكت عنه القرآن الكريم ليدلّنا على أنه لا شيءَ عليه ، ولا بأسَ أن يأخذ المؤمن بالتقية ، وهى رخصة تقى الإنسان موارد الهلاك فى مثل هذه الأحوال .

وفى تاريخ الإسلام نماذج متعددة أخذت بهذه الرخصة ، ونطقتْ كلمة الكفر وهى مطمئنة بالإيمان .

وفى الحديث الشريف : « رفع عن أمتى : الخطأ ، والنسيان ، وما استكرهوا عليه »[(١)] .

ويذكر التاريخ أن ياسر أبا عمار وزوجه سُمية أول شهيدين فى الإسلام ، فكيف استشهدا ؟ كانا من المسلمين الأوائل ، وتعرَّضوا لكثير من التعذيب حتى عرض عليهم الكفار النطق بكلمة الكفر مقابل

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٣٩٠٩/٥٠) : « والخبر وإن لم يصح سنده فإن معناه صحيح باتفاق من العلماء ، قاله القاضى أبو بكر بن العربى . وذكر أبو محمد عبد الحق أن إسناده صحيح . قال : وقد ذكره أبو بكر الأصيلى فى الفوائد ، وابن المنذر فى كتاب الإقناع » .

العفو عنهما ، فماذا حدث من هذين الشهيدين ؟ صدَعا بالحق وأصرّا على الإيمان حتى نالا الشهادة فى سبيل الله ، ولم يأخذا برخصة التقية .

وكان ولدهما عمار أول مَنْ أخذ بها ، حينما تعرّض لتعذيب المشركين .

وقد بلغ رسول الله ﷺ أن عمار بن ياسر كفر ، فأنكر ﷺ هذا ، وقال :

« إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه ، وإن الإيمان فى عمار قد اختلط بلحمه ودمه »[(١)] .

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله وهو يبكى ، ثم قص عليه ما تعرَّض له من أذى المشركين ، وقال : والله يا رسول الله ما خلّصنى من أيديهم إلا أنّى تناولتك[(٢)] وذكرت آلهتهم بخير ، فما كان من النبى ﷺ إلا أن مسح دموع عمار بيده الشريفة وقال له « إنْ عادوا إليك فقُلْ لهم ما قلت »[(٣)] .

وقد أثارت هذه الرخصة غضب بعض الصحابة ، فراجعوا فيها

(١) أخرج أبو نعيم فى الحلية (١/١٣٩) عن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ قال : « إن عماراً ملىء إيماناً من قرنه إلى قدمه » . وأورده الواحدى فى أسباب النزول (ص١٦٢) .

(٢) أى : أنه تناول رسول الله ﷺ بالسب والشتم وذكره بالشر .

(٣) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٧٠) وعزاه لعبد الرزاق وابن سعد وابن جرير والحاكم وصححه والبيهقى فى الدلائل أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر فلم يتركوه حتى سبَّ النبى ﷺ وذكر آلهتهم بخير ، ثم تركوه ، فلما أتى رسول الله ﷺ قال : ما وراءك شىء ؟ قال : شر ، ما تُرِكْت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير . قال : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئن بالإيمان ، قال : إن عادوا فعُدْ .

رسول الله ﷺ وقالوا : فما بال بلال[١] ؟ فقال : « عمار استعمل رخصة ، وبلال صدع بالحق » .

ولا شكّ أن هاتين منزلتان فى مواجهة الباطل وأهله ، وأن الصَّدْع بالحق والصبر على البلاء أعْلَى منزلةً ، وأسْمَى درجة من الأَخْذ بالرخصة ؛ لأن الأول آمن بقلبه ولسانه ، والآخر آمن بقلبه فقط ونطق لسانه الكفر .

لذلك ، ففى حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منهم شهادة بصدق نُبوّته ، فقال لرجل : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسُول الله ، قال : فما تقول فىَّ ؟ فقال الرجل فى لباقة : وأنت كذلك ، يعنى أخرج نفسه من هذا المأزق دون أن يعترف صراحة بنبوة هذا الكذاب .

فقابل آخر وسأله : ما تقول فى محمد ؟ قال : رسول الله ، قال : وما تقول فىَّ ؟ فقال الرجل متهكماً : اجهر لأنى أصبحت أصمَّ الآن ، وأنكر على مسيلمة ما يدعيه فكان جزاؤه القتل . فلما علم رسول الله ﷺ خبرهما قال : « أحدهما استعمل الرخصة ، والآخر صدع بالحق »[٢] .

---

(١) وذلك أن بلالاً هانت عليه نفسه فى الله ، فجعلوا يُعذِّبونه ويقولون له : ارجع عن دينك ، وهو يقول : أحَدٌ أحدٌ ، حتى ملّوه ، ثم كتفوه وجعلوا فى عنقه حبلاً من ليف ، ودفعوه إلى صبيانهم يلعبون به بين أخشبى مكة . ذكره القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٠٨) .

(٢) أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/١٧٢) وعزاه لابن أبى شيبة عن الحسن أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوه بهما ، فقال لأحدهما : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ فأهوى إلى أذنيه فقال : إنى أصمّ . فأمر به فقتل . وقال للآخر : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم . فارسله . فأتى النبى ﷺ فاخبره فقال : « أما صاحبك فمضى على إيمانه ، وأما أنت فأخذت بالرخصة » وذكر ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٨٨) رواية تفيد أن الأول منهما هو حبيب بن زيد الأنصارى .

وقد تحدَّث العلماء عن الإكراه فى قوله تعالى :

﴿ إلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمَانِ .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

وأوضحوا وجوه الإكراه وحكم كل منها ، على النحو التالى :

– إذا أكره الإنسان على أمر ذاتىٍّ فيه . كأن قيل له : اشرب الخمر وإلاَّ قتلتُك أو عذبتُك قالوا : يجب عليه فى هذه الحالة أنْ يشربها وينجو بنفسه ؛ لأنه أمر يتعلق به ، ومن الناس مَنْ يعصون الله بشربها . فإنْ قيل له : اكفر بالله وإلاّ قتلتُك أو عذبتُك ، قالوا : هو مُخيَّر بين أن يأخذ بالتقيّة هنا ، ويستخدم الرخصة التى شرعها الله له ، أو يصدع بالحق ويصمد .

– أما إذا تعلّق الإكراه بحقٍّ من حقوق الغير ، كأنْ قيل لك : اقتل فلاناً وإلا قتلتك ، ففى هذه الحالة لا يجوز لك قَتْله ؛ لأنك لو قتلتهُ لقُتِلْت قصاصاً ، فما الفائدة إذن ؟ .

وبعد أن تحدَّث الحق تبارك وتعالى عن حكم مَنْ أكرهَ وقلبه مطمئن بالإيمان ، يتحدث عن النوع الآخر :

﴿ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا .. (١٠٦) ﴾ [النحل]

أى : نطق كلمة الكفر راضياً بها ، بل سعيدة بها نفسه ، مُنْشرِحاً بها صدره ، وهذا النوع هو المقصود فى جواب الشرط .

﴿ فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ﴾ [النحل]

فإنْ كانت الآيات قد سكتت عمَّنْ أُكرِهَ ، ولم تجعل له عقوبة لأنه مكره ، فقد بيَّنت أن من شرح بالكفر صدراً عليه غضب من الله أى : فى الدنيا . ولهم عذاب عظيم أى : فى الآخرة .

وكما رأينا فى تاريخ الإسلام نماذج للنوع الأول الذى أُكْره وقلبه مطمئن بالإيمان ، كذلك رأينا نماذج لمن شرح بالكفر صَدْراً ، وهم المنافقون ، ومنهم مَنْ أسلم بعد ذلك وحَسُن إسلامه ، ومنهم عبد الله ابن سعد بن أبى السرح من عامر بن لؤى .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ ﴾

﴿ ذَلِكَ ﴾ أى : ما استحقوه من العذاب السابق .

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ ..﴿١٠٧﴾ ﴾ [النحل]

استحب : أى آثر وتكلَّف الحب ؛ لأن العاقل لو نظر إلى الدنيا بالنسبة لعمره فيها لوجدها قصيرة أحقر من أنْ تُحبَّ لذاتها ، ولَوجدَ الأغيار بها كثيرة تتقلّب بأهلها فلا يدوم لها حال ، ينظر فإذا الأحوال تتبدّل من الغنى إلى الفقر ، ومن الصحة إلى السَّقَم ، ومن القوة إلى الضعف ، فكيف إذن تستحب الدنيا على الآخرة ؟!

والحق تبارك وتعالى يريد منّا أنْ نعطى كلاً من الدنيا والآخرة ما يستحقه من الحب ، فنحب الدنيا دون مبالغة فى حبها ، نحبها على أنها مزرعة للآخرة ، وإلاَّ ، فكيف نطلب الجزاء والثواب من الله ؟

لذلك نقول : إن الدنيا أهمّ من أنْ تُنسى ، وأتفه من أن تكون غاية ، وقد قال الحق سبحانه :

﴿ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ..﴿٧٧﴾ ﴾ [القصص]

ففهم البعض الآية على أنها دعوة للعمل للدنيا وأَخْذ الحظوظ منها ، ولكن المتأمل لمعنى الآية يجد أن الحق سبحانه يجعل الدنيا شيئاً هيّناً مُعرَّضاً للنسيان والإهمال ، فيُذكّرنا بها ، ويحثُّنا على أن نأخذ منها بنصيب ، فأنا لا أقول لك : لا تنسَ الشيء الفلانى إلا إذا كنتُ أعلم أنه عُرْضَة للنسيان ، وهذا جانب من جوانب الوسطية والاعتدال فى الإسلام .

ويكفينا وَصْف هذه الحياة بالدنيا ، فليس هناك وَصْفٌ أقلّ من هذا الوصف ، والمقابل لها يقتضى أن نقول : العُلْيا وهى الآخرة ، نعم نحن لا ننكر قَدْر الحياة الدنيا ولا نبخسها حقها ، ففيها الحياة والحسّ والحركة ، وفيها العمل الصالح والذكْرى الطيبة .. إلخ .

ولكنها مع ذلك إلى زوال وفناء ، فى حين أن الآخرة هى الحياة الحقيقية الدائمة الباقية التى لا يعتريها زوال ، ولا يهددها موت ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) ﴾ [العنكبوت]

أى : الحياة الحقيقية التى يجب أن نحرص عليها ونحبها .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ .. (٢٤) ﴾ [الأنفال]

ما معنى (لِمَا يُحْيِيكُمْ) والقرآن يخاطبهم وهم أحياء يُرزَقُون ؟ قالوا : يُحييكم أى : الحياة الحقيقية الباقية التى لا تزول .

وقوله :

﴿عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

لقائل أن يقول : إن الآية تتحدث عن غير المؤمنين بالآخرة ، فكيف يُقَال عنهم :

﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الآخِرَةِ..(١٠٧)﴾ [النحل]

نقول : من غير المؤمنين بالآخرة مَنْ قال الله فيهم :

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ(٣٨)﴾ [النحل]

وأيضاً منهم مَنْ قال :

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦)﴾ [الكهف]

إذن : من هؤلاء مَنْ يؤمن بالآخرة ، ولكنه يُفضّل عليها الدنيا .

وقوله تعالى :

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾ [النحل]

أى : لا يهديهم هداية معونة وتوفيق . وسبق أنْ قُلْنا : إن الهداية نوعان : هداية دلالة ، ويستوى فيها المؤمن والكافر ، وهداية معونة خاصة بالمؤمن .

إذن : إذا نفيتَ الهداية ، فالمراد هداية المعونة ، فعدم هداية الله انصبتْ على الكافر لكونه كافراً ، فكأن كُفْره سبق عدم هدايته ، أو نقول : لكونه كافراً لم يَهْدِه الله .

ولذلك يحكم الله على هؤلاء بقوله سبحانه :

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾

طبـع : أى ختم عليها ، وإذا تأملتَ الختْم وجدتَ المقصود منه أن الشىء الداخـــل يظلّ داخـلاً لا يخـرج ، وأن الخـارج يـظل خـارجاً لا يدخل .

وفَرْقٌ بين ختم البشر وختم ربِّنا سبحانه ، فقصارى ما نفعله أن نختم الأشـياء المهـمة كالرســائل السرية مثـلاً ، أو نريد إغلاق مكان ما نخـتم عليه بالشـمع الأحمر لنتـأكد من غلقـه ، ومع ذلك نجد مَنْ يحتال على هذا الختم ويستطيع فضّه وربما أعاده كما كان .

أما إذا خـتم الحق سبـحانه وتعـالى على شىء فلا يستـطيع أحد التحايل عليه سبحانه .

فالمراد ـ إذن ـ بقوله تعالى :

﴿ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ..﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]

أن ما فـيها من الكفـر لا يخرج منهـا ، وما هو خارجـها من الإيمان لا يدخل فيهـا ؛ ذلك لأن القلب هو الوعاء الذى تصبّ فيه الحواس التـى هى وسائل الإدراكات المـعلوميـة ، وأهمهـا السمع والبصر .

فبالسمع تسمع الوحى والتبليغ عن الله ، وبالبصر ترى دلائل قدرة الله فى كونه وعجيب صُنْعه مما يلفتك إلى قدرة الله ، ويدعوك للإيمان به سبحانه ، فإذا ما انحرفتْ هذه الحواسّ عما أراده الله منها ، وبدل أن تمدّ القلب بدلائل الإيمان تعطَّلتْ وظيفتها .

فالسمع موجود كآلة تسمع ولكنها تسمع الفارغ من الكلام ، فلا يوجد سَمْع اعتبارىّ ، وكذلك البصر موجود كآلة تُبصر ما حرم الله فلا يوجد بصر اعتبارى ، فما الذى سيصل إلى القلب - إذن - من خلال هذه الحواس ؟

فما دام القلب لا يسمع الهداية ، ولا يرى دلائل قدرة الله فى كونه فلن نجد فيه غير الكفر ، فإذا أراد الإيمان قُلْنا له : لا بُدَّ أن تُخرج الكفر من قلبك أولاً ، فلا يمكن أن يجتمع كفر وإيمان فى قلبٍ واحد ؛ لذلك عندنا قانون موجود حتى فى الماديات يسمونه (عدم التداخل) يمكن أن تشاهده حينما تملأ زجاجة فارغة بالماء ، فترى أن الماء لا يدخل إلا بقدر ما يخرج من الهواء .

فكذلك الحال في الأوعية المعنوية .

فإنْ أردتَ الإيمان - أيها الكافر - فأخرجْ أولاً ما فى قلبك من الكفر ، واجعله مُجرّداً من كل هوى ، ثم ابحث بعقلك فى أدلة الكفر وأدلة الإيمان ، وما تصل إليه وتقتنع به أدْخله فى قلبك ، لكن أنْ تبحث أدلة الإيمان وفى جوفك الكفر فهذا لا يصحّ ، لا بُدّ من إخلاء القلب أولاً وتجعل الأمريْن على السواء .

لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴿٤﴾ ﴾ [الأحزاب]

وفى الأثر : « لا يجتمع حب الدنيا وحب الله فى قلب واحد »[(١)]

لأن للإنسان قلباً واحداً لا يجتمع فيه نقيضان ، هكذا شاءت قدرة الله أن يكون القلب على هذه الصورة ، فلا تجعلْه مزدحماً بالمظروف فيه .

كما أن طَبْع الله على قلوب الكفار فيه إشارة إلى أن الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده مراده ، حتى وإنْ كان مراده الكفر ، وكأنه سبحانه يقول لهؤلاء : إنْ كنتم تريدون الكفر وتحبونه وتنشرح له صدوركم فسوف أطبع عليها ، فلا يخرج منها الكفر ولا يدخلها الإيمان ، بل وأزيدكم منه إنْ أحببتُمْ ، كما قال تعالى :

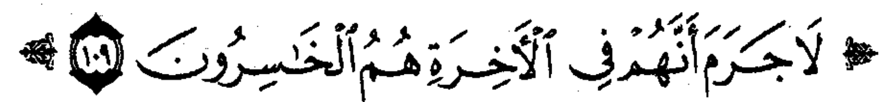
﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا .. ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة]

فهنيئاً لكم بالكفر ، واذهبوا غَيْرَ مأسوف عليكم .

وقوله : ﴿ وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النحل]

الغافل : مَنْ كان لديه أمر يجب أن يتنبه إليه ، لكنه غفل عنه ، وكأنه كان فى انتظار إشارة تُنبّه عقله ليصل إلى الحق .

ثم يُنهى الحق سبحانه الكلام عن هؤلاء بقوله تعالى :



(١) ورد فى معنى هذا عدة آثار :

– قال عيسى بن مريم : « كما لا يستقيم النار والماء فى إناء ، كذلك لا يستقيم حب الآخرة والدنيا فى قلب المؤمن » . أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص٣٤) .

– وقيل ليونس بن متى : « يا يونس إذا أحب العالم الدنيا نزعت مناجاتى من قلبه » أخرجه ابن أبى الدنيا فى « ذم الدنيا » (ص ١٥٦) .

فقوله تعالى :

﴿ لا جَرَمَ..(١٠٩) ﴾ [النحل]

أى : حقاً ولا بُدَّ ، أولا جريمة فى أن يكون هؤلاء خاسرين فى الآخرة ، بما اقترفوه من مُوجبات الخسارة ، وبما أتَوْا به من حيثيّات ترتَّبَ عليها الحكم بخسارتهم فى الآخرة ، فقد حقَّ لهم وثبت لهم ذلك .

والمتتبع للآيات السابقة يجد فيها هذه الحيثيات ، بدايةً من قَوْلهم عن رسول الله :

﴿ إنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ..(١٠١) ﴾ [النحل]

وقولهم : ﴿ إنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ..(١٠٣) ﴾ [النحل]

وعدم إيمانهم بآيات الله ، وكونهم كاذبين مفترين على الله ، واطمئنانهم بالكفر ، وانشراح صدورهم به ، واستحبابهم الحياة الدنيا على الآخرة .

هذه كلها حيثيات وأسباب أوجبتْ لهم الخسران فى الآخرة يوم تُصفّى الحسابات ، وتنكشف الأرباح والخسائر ، وكيف لا يكون عاقبته خُسْراناً مَن اقترف كل هذه الجرائم ؟!

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾

قوله تعالى : ﴿ فُتِنُوا..(١١٠) ﴾ [النحل]

أى : ابتلوا وعُذِّبوا عذاباً أليماً ؛ لأنهم أسلموا .

وقوله : ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل]

من رحمة الله تعالى أن يفتح باب التوبة لعباده الذين أسرفوا على أنفسهم ، ومن رحمته أيضاً أن يقبل توبة مَنْ يتوب ؛ لأنه لو لم يفتح الله باب التوبة للمذنب ليئسَ من رحمة الله ، ولتحوّل - وإن أذنب ولو ذنباً واحداً - إلى مجرم يشقَى به المجتمع ، فلم يَرَ أمامه بارقة أمل تدعوه إلى الصلاح ، ولا دافعاً يدفعه إلى الإقلاع .

أما إذا رأى باب ربه مفتوحاً ليل نهار يقبل توبة التائب ، ويغفر ذنب المسىء ، كما جاء فى الحديث الشريف :

« إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل ، حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

بل ويزيده ربنا سبحانه وتعالى من فضله إنْ أحسن التوبة ، وندم على ما كان منه ، بأن يُبدّل سيئاته حسناتٍ ، كما قال سبحانه :

﴿ إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَـٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان]

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى . قال النووى فى شرح مسلم : « قال المازرى : المراد به قبول التوبة ، وإنما ورد لفظ بسط اليد لأن العرب إذا رضى أحدهم الشىء بسط يده لقبوله ، وإذا كرهه قبضها عنه ، فخوطبوا بأمر حسى يفهمونه ، وهو مجاز ، فإن يد الجارحة مستحيلة فى حق الله تعالى » .

لو رأى المذنب ذلك كان أدْعى لإصلاحه ، وأجْدَى فى انتشاله من الوَهْدة التى تردَّى فيها .

إذن : تشريع التوبة من الحق سبحانه رحمة ، وقبولها من المذنب رحمة أخرى ؛ لذلك قال سبحانه :

﴿ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا . . (١١٨) ﴾ [التوبة]

أى : شرع لهم التوبة ودلَّهم عليها ، ليتوبوا هم .

فإنْ اغترَّ مُغْترٌّ برحمة الله وفضله فقال : سأعمل سيئات كثيرة حتى يُبدِّلها الله لى حسنات . نقول له : ومَنْ يدريك لعله لا تنطبق عليك شروط الذين يُبدِّل الله سيئاتهم حسنات ، وهل تضمن أنْ يُمهلك الأجل إلى أن تتوب ، وأنت تعلم أن الموت يأتى بغتة ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾

قد يكون المعنى فى هذه الآية على اتصال بالآية السابقة ، ومتعلق بها ، فيكون المراد :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ﴾ [النحل]

يحدث هذا :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا . . (١١١) ﴾ [النحل]

أى : يوم القيامة . أو يكون المعنى : اذكر يا محمد :

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا (١١١) ﴾ [النحل]

وهل للإنسان أكثر من نفس ، فتجادل إحداهما عن الأخرى ؟

الحقيقة أن للإنسان نفساً واحدة في الدنيا والآخرة ، ولكنها تختلف في الدنيا عنها يوم القيامة ؛ لأن الحق سبحانه منحها في الدنيا الاختيار ، وجعلها حرة في أن تفعل أو لا تفعل ، فكان من النفوس : الطائعة ، والعاصية ، والمنصاعة ، والمكابرة .

فإذا ما وقفت النفس في موقف القيامة ، وواجهتْ الحق الذي كانت تخالفه علمت أن الموقف لا تفيد فيه مكابرة ، ولا حيلة لها إلا أن تجادل وتدافع عن نفسها ، فكأن نفس القيامة تجادل عن نفس الدنيا في موقف ينادي فيه الحق تبارك وتعالى :

﴿ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) ﴾ [غافر]

وقد حكى القرآن الكريم نماذج من جدال النفس يوم القيامة ، فقال تعالى :

﴿ وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) ﴾ [الأنعام]

﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ .. (٣) ﴾ [الزمر]

﴿ رَبَّنَا أَرِنَا اللَّذَيْنِ أَضَلاَّنَا مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا .. (٢٩) ﴾ [فصلت]

إذن : هي نفس واحدة ، تجادل عن نفسها في يوم لا تجزي فيه نفس عن نفس ، فكلٌّ مشغول بكَرْبه ، مُحاسَب بذنبه ، كما قال تعالى :

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ (٣٧) ﴾ [عبس]

وقوله تعالى :

﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١) ﴾ [النحل]

الحق سبحانه يعطينا لقطة سريعة للحساب والجزاء يوم القيامة ، فالميزان ميزان عَدْل وقسطاس مستقيم لا يظلم أحداً .

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]

وقوله تعالى : ﴿ وَتُوَفَّىٰ .. (١١١) ﴾ [النحل]

يدلُّ على أن الجزاء من الله يكون وافياً ، لا نقص فيه ولا جَوْر ، فالجميع عبيد لله ، لا يتفاضلون إلا بأعمالهم ، فإنْ رحمهم فبفضله ، وإنْ عذَّبهم فبعدْله ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا(١) مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾

(١) رَغُد العيش : اتسع وطاب . وقوله : ﴿ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا (٣٥) ﴾ [البقرة] أى : أكلاً طيباً موسّعاً عليكم فيه .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ تكلّم عن الإيمان بالله والإيمان بصدق رسوله فى البلاغ عنه ، واستقبال منهج الله فى الكتاب والسنة ، وتكلم عن المقابل لذلك من الكفر واللجاج والعناد لله وللرسول وللمنهج . أراد سبحانه أنْ يعطينا واقعاً ملموساً فى الحياة لكل ذلك ، فضرب لنا هذا المثل .

ومعنى المثل : أن يتشابه أمران تشابهاً تاماً فى ناحية معينة بحيث تستطيع أن تقول : هذا مثل هذا تماماً .

والهدف من ضرب الأمثال أنْ يُوضّح لك مجهولاً بمعلوم ، فإذا كنتَ مثلاً لا تعرف شخصاً نتحدث عنه فيمكن أن نقول لك : هو مثل فلان - المعلوم لك - فى الطول ومثل فلان فى اللون .. إلخ من الصور المعلومة لك ، وبعد أن تجمع هذه الصور تُكوِّن صورة كاملة لهذا الشخص الذى لا تعرفه .

لذلك ، فالشىء الذى لا مثيلَ له إياك أن تضرب له مثلاً ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ فَلا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الأَمْثَالَ (٧٤) ﴾ [النحل]

لأنه سبحانه لا مثيل له ، ولا نظير له ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، وهو سبحانه الذى يضرب المثل لنفسه ، أما نحن فلا نضرب المثل إلا للكائنات المخلوقة له سبحانه .

لذلك نجد فى القرآن الكريم أمثالاً كثيرة توضح لنا المجهول بمعلوم لنا ، وتوضح الأمر المعنوى بالأمر الحسىِّ الملموس لنا .

ومن ذلك ما ضــربه الله لنا مثلاً فى الإنفاق فى سـبيل الله ، وأن الله يضاعف النفقـة ، ويُخلف على صاحبها أضـعافاً مضاعـفة ، فانظر كيف صوَّر لنا القرآن هذه المسألة :

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) ﴾ [البقرة]

وهكذا أوضح لنا المـثل الأمـر الغيـبى المجـهـول بالأمر المـحسّ المُشَاهد الذى يعلمـه الجميع ، حتى استقرَّ هذا الـمجهول فى الذهن ، بل أصبح أمراً مُتيقّناً شاخصاً أمامنا .

والمتـأمل فى هذا المثل التـوضيحى يـجد أن الأمر الذى وضّحه الحق سبـحانه أقوى فى العطاء من الأمر الذى أوضح به ، فـإنْ كانت هذه الأضعاف المضاعـفة هى عطاء الأرض ، وهى مخلوقة لله تعالى ، فما بالك بعطاء الخالق سبحانه وتعالى ؟

وكلمـة (ضَرَبَ) مـأخوذة من ضَـرْب العـملة ، حيث كـانت فى المـاضى من الذهب أو الفـضـة ، ولخـوف الغش فـيهـا حـيث كـانوا يخلطون الذهب مثـلاً بالنحاس ، فكان النقاد أى : الـخبراء فى تمييـز العملة يضربونـها أى : يختمون عليـها فتصيـر مُعتمدة مـوثوقاً بها ، ونافذة وصالحة للتداول .

كذلك إذا ضرب الله مـثلاً لشىء مجهول بشىء معلوم اسـتقرَّ فى الذهن واعتُمِد .

فقال تعالى فى هذا المثل :

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً.. (١١٢) ﴾ [النحل]

الهدف من ضرب هذا المثل أن الحق سبحانه وتعالى يريد أن يوضح لنا أن الإنسان إذا أنعم الله عليه بشتى أنواع النعم فجحدها ، ولم يشكره عليها ، ولم يُؤدِّ حقَّ الله فيها ، واستعمل نعمة الله فى معصيته فقد عرَّضها للزوال ، وعرّض نفسه لعاقبة وخيمة ونهاية سيئة ، فقيِّد النعمة بشكرها وأداء حق الله فيها ، لذلك قال الشاعر :

إذَا كُنْتَ فى نعمةٍ فَارْعَها فَإنَّ المعَاصِى تُزيلُ النِّعم
وحَافِظْ عليها بشُكْرِ الإله فإنَّ الإلَه شَدِيدُ النِّقَم

ولكن ، القرية التى ضربها الله لنا مثلاً هنا ، هل هى قرية معينة أم المعنى على الإطلاق ؟ قد يُراد بالقرية قرية معينة كما قال البعض إنها مكة[1] ، أو غيرها من القرى ، وعلى كلٍّ فتحديدها أمر لا فائدة منه ، ولا يُؤثِّر فى الهدف من ضَرْب المثل بها .

والقرية : اسم للبلد التى يكون بها قرىً لمن يمرُّ بها ، أى : بلد استقرار . وهى اسم للمكان فإذا حُدِّث عنها يراد المكين فيها ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِى كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِى أَقْبَلْنَا فِيهَا.. (٨٢) ﴾ [يوسف]

فالمراد : اسأل أهل القرية ؛ لأن القرية كمكان لا تُسأل .. هكذا

(١) قاله ابن عباس ومجاهد . وقالت عائشة وحفصة رضى الله عنهما : هى المدينة . [ذكره السيوطى فى الدر المنثور ٥/١٧٤] وقال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢١) : « قيل إنه مثل مضروب بأى قرية كانت على هذه الصفة من سائر القرى » .

قال علماء التفسير ، على اعتبار أن فى الآية مجازاً مرسلاً علاقته المحلية .

ولكن مع تقدُّم العلم الحديث يعطينا الحق تبارك وتعالى مدداً جديداً ، كما قال سبحانه :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ ..(٥٣) ﴾ [فصلت]

والآن تطالعنا الاكتشافات بإمكانية التقاط صور وتسجيل أصوات السابقين ، فمثلاً يمكنهم بعد انصرافنا من هذا المكان أن يُسجِّلوا جلستنا هذه بالصوت والصورة .

ومعنى ذلك أن المكان يعي ويحتفظ لنا بالصور والأصوات منذ سنوات طويلة ، وعلى هذا يمكن أن نقول : إن القرية يمكن أنْ تُسأل ، ويمكن أن تجيب ، فلديها ذاكرة واعية تسجِّل وتحتفظ بما سجَّلته ، بل وأكثر من ذلك يتطلعون لإعادة الصور والأصوات من بَدْء الخليقة على اعتبار أنها موجودة فى الجو ، مُودعة فيه على شكل موجات لم تُفقد ولم تَضِع .

وما أشبه هذه الموجات بانداياح الماء إذا ألقيتَ فيه بحجر ، فينتج عنه عدة دوائر تبتعد عن مركزها إلى أنْ تتلاشى بالتدريج.

إذن : يمكن أن يكون سؤال القرية على الحقيقة ، ولا شك أن سؤال القرية سيكون أبلغ من سؤال أهلها ؛ لأن أهلها قد يكذبون ، أما هى فلا تعرف الكذب .

وبهذا الفهم للآية الكريمة يكون فيها إعجاز من إعجازات الأداء القرآنى .

وقوله تعالى : ﴿ كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً ..(١١٢) ﴾ [النحل]

آمنةً : أى فى مأْمَن من الإغارة عليها من خارجها ، والأمن من أعظم نِعَم الله تعالى على البلاد والعباد .

وقوله : ﴿ مُّطْمَئِنَّةً ..(١١٢) ﴾ [النحل]

أى : لديها مُقوّمات الحياة ، فلا تحتاج إلى غيرها ، فالحياة فيها مُستقرّة مريحة ، والإنسان لا يطمئن إلا فى المكان الخالى من المنغِّصات ، والذى يجد فيه كل مقومات الحياة ، فالأمن والطمأنينة هما سِرُّ سعادة الحياة واستقرارها .

وحينما امتنَّ الله تعالى على قريش قال :

﴿ لإِيلافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ (٤) ﴾ [قريش]

فطالما شبعت البطن ، وأمنتْ النفس استقرت بالإنسان الحياة .

والرسول ﷺ يعطينا صورة مُثْلى للحياة الدنيا ، فيقول :

« مَنْ أصبح معافىً فى بدنه ، آمناً فى سربه[1]، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[2]

ويصف الحق سبحانه هذه القرية بأنها :

﴿ يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

---

(١) السرب : النفس والمذهب . وقال ابن درستويه : وإنما المعنى آمن فى أهله وولده . وقيل : السرب هنا القلب ، أى : آمنْ القلب . [لسان العرب ـ مادة : سرب] .

(٢) أخرجه أبو نعيم فى الحلية (٥/٢٤٩) ، وابن حبان (٢٥٠٣ ـ موارد الظمآن) من حديث أبى الدرداء رضى الله عنه ، وأورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (١٠/٢٨٩) وعزاه للطبرانى وقال : « رجاله وُثقوا على ضعف فى بعضهم » .

معلـوم أن الناس هم الذين يخرجـون لطلب الرزق ، لكن فى هذه القرية يأتى إليها الرزق ، وهذا يُرجّح القول بأنها مكة ؛ لأن الله تعالى قال عنها :

﴿ أَوَ لَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٥٧) ﴾ [القصص]

ومن تيسَّر له العـيش فى مكة يرى فيها الثمـرات والمنتجات من كل أنحاء العالم ، وبذلك تمَّتْ لهم النعمة واكـتملتْ لديهم وسـائل الحياة الكريمة الآمنة الهـانئة ، فمـاذا كان منهم ؟ هل استـقبلوها بشكر الله ؟ هل استخدموا نعمة الله عليهم فى طاعته ومَرْضاته ؟ لا .. بل :

﴿ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

أى : جـحدت بهـذه النعم ، واسـتـعملتـهـا فى مصـادمـة منهج الله وشريعته ، فكانت النتيجة :

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

وكأن فى الآية تحـذيراً من الحـق سـبحانه لكل مجـتمع كفر بنـعمة الله ، واستـعمل النعمـة فى مصادمـة منهجه سـبحانه ، فـسوف تكون عاقبته كعاقبة هؤلاء .

﴿ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ .. (١١٢) ﴾ [النحل]

من الذوق ، نقـول : ذاق وتذوّق الطـعـام إذا وضـعـه على لسـانه وتذوَّقه . والذَّوْق لا يتجاوز حلمـات اللسان . إذن : الذوْق خاصٌّ بطعْم الأشياء ، لكن الله سبحانه لم يقُلْ : أذاقها طعم الجوع ، بل قال :

﴿لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ..(١١٢)﴾ [النحل]

فجعل الجوع والخوف وكأنهما لباسٌ يلبسه الإنسان ، والمتأمل فى الآية يطالع دقّة التعبير القرآنى ، فقد يتحول الجوع والخوف إلى لباس يرتديه الجائع والخائف ، كيف ذلك ؟

الجوع يظهر أولاً كإحساس فى البطن ، فإذا لم يجد طعاماً عوّض من المخزون فى الجسم من شحوم ، فإذا ما انتهتْ الشحوم تغذّى الجسم على اللحم ، ثم بدأ ينحت العظام ، ومع شدة الجوع نلاحظ على البشرة شحوباً ، وعلى الجلد هُزَالاً وذبولاً ، ثم ينكمش ويجفّ ، وبذلك يتحول الجوع إلى شكل خارجى على الجلد ، وكأنه لباس يرتديه الجائع .

وتستطيع أن تتعرف على الجوع ليس من بطن الجائع ، ولكن من هيئته وشُحوب لونه وتغيُّر بشرته ، كما قال تعالى عن الفقراء الذين لا يستطيعون ضرباً فى الأرض :

﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا .. (٢٧٣)﴾ [البقرة]

وكذلك الخوف وإنْ كان موضعه القلب ، إلا أنه يظهر على الجسم كذلك ، فإذا زاد الخوف ترتعد الفرائص ، فإذا زاد الخوف يرتعش الجسم كله ، فيظهر الخوف عليه كثوب يرتديه .

. وهكذا جَسَّد لنا التعبير القرآنى هذه الأحاسيس الداخلية ، وجعلها محسوسة تراها العيون ، ولكنه أدخلها تحت حاسَّة التذوق ؛ لأنها أقوى الحواسّ .

وفى تشبيه الجوع والخوف باللباس ما يُوحى بشمولهما الجسم

كله ، كما يلفّه اللباس فليس الجوع في المعدة فقط ، وليس الخوف في القلب فقط .

ومن ذلك ما اشتُهِر بين المحبين والمتحدثين عن الحب أن محله القلب ، فنراهم يتحدثون عن القلوب ، كما قال الشاعر :

خَطَرَاتُ ذِكْرِكَ تَسْتَسِيغُ مَوَدَّتى فَأُحِسُّ مِنْهَا فِى الفُؤَادِ دَبِيبَا

فإذا ما زاد الحب وتسامى ، وارتقت هذه المشاعر ، تحوّل الحب من القلب ، وسكَن جميع الجوارح ، وخالط كل الأعضاء ، على حَدِّ قول الشاعر :

لاَ عُضْوَ لِى إلاَّ وَفِيهِ صَبَابَةٌ فَكَأَنَّ أَعْضَائِى خُلِقْنَ قُلُوبَا

وقوله : ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾ [النحل]

أى : أن الحق سبحانه ما ظلمهم وما تجنَّى عليهم ، بل ما أصابهم هو نتيجة عملهم وصدودهم عن سبيل الله ، وكفرهم بأنعمه ، فحبسها الله عنهم ، فهم الذين قابلوا رسول الله ﷺ بالصُّدود والجحود والنكران ، وتعرَّضوا له ولأصحابه بالإيذاء وبيَّتوا لقتله ، حتى دعا عليهم قائلاً :

« اللهم اشْدُدْ وطأتك على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف »[1] .

فاستجاب الحق سبحانه لنبيه ، وألبسهم لباس الجوع والخوف ،

(١) الحديث أخرجه البخارى فى صحيحه (١٠٠٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٤٧٠ ، ٥٠٢ ، ٥٢١) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

حتى إنهم كانوا يأكلون الجيف ، ويخلطون الشعر والوبر بالدم فيأكلوه .

وظلوا على هذا الحال سبع سنين حتى ضَجُّوا ، وبلغ بهم الجَهْد والضَّنْك مُنْتهاه ، فأرسلوا وفداً منهم لرسول الله ، فقالوا : هذا عملك برجال مكة ، فما بال صبيانها ونسائها ؟ فكان ﷺ يرسل لهم ما يأكلونه من الحلال الطيب .

أما لباس الخوف فتمثّل في السرايا التي كان يبعثها رسول الله ﷺ من المدينة لترهبهم وتزعجهم ؛ ليعلموا أن المسلمين أصبحتْ لهم قوة وشوكة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

رأينا كيف كانت النعمة تامة على أهل مكة ، وقد تمثلت هذه النعمة فى كَوْنها آمنة مطمئنة ، وهذه نعمة مادية يحفظ الله بها القالب الإنسانى ، لكنه ما يزال فى حاجة إلى ما يحفظ قِيَمه وأخلاقه .

وهذه هى نعمة النعم ، وقد امتنَّ الله عليهم بها حينما أرسل فيهم رسولاً منهم ، فما فائدة النعم المادية فى بلد مهزوزة القيم ، مُنْحلة الأخلاق ، فجاءهم رسول الله ﷺ ليُقوِّم ما اعوجّ من سلوكهم ، ويُصلح ما فسد من قِيَمِهم ومبادئهم .

وقوله : ﴿ مِّنْهُمْ.. ﴿١١٣﴾ ﴾ [النحل]

أى : من جنسهم ، وليس غريباً عنهم ، وليس من مُطْلق العرب ، بل من قريش أفضل العرب وأوسطها .

يقول تعالى : ﴿ فَكَذَّبُوهُ .. (١١٣) ﴾ [النحل]

وكان المفترض فيهم أن يستقبلوه بما علموا عنه من صفات الخير والكمال ، وبما اشتهر به بينهم من الصدق والأمانة ، ولكنهم كما كفروا بالنعم المادية كفروا أيضاً بالنعم القيمية متمثلة فى رسول الله ﷺ .

وقوله : ﴿ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ (١١٣) ﴾ [النحل]

مَن الذى أخذهم ؟

لم تقُلْ الآية : أخذهم الله بالعذاب ، بل : أخذهم العذاب ، كأن العذابَ نفسه يشتاق لهم ، وينقضُّ عليهم ، ويسارع لأخذهم ، ففى الآية تشخيص يُوحى بشدة عذابهم .

كما قال تعالى فى آية أخرى :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ (٣٠) ﴾ [ق]

ثم يقول تعالى :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ[1] حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾

---

(١) الضمير فى (فَكُلوا) هنا يحتمل أمرين :

١ ـ أن يكون الخطاب للمؤمنين ، ليأكلوا من الرزق الحلال الطيب ، ومن الغنائم .

٢ ـ أن يكون الخطاب للمشركين ، لأن النبى ﷺ بعث إليهم بطعام ، بعد أن أكلوا الجيف والكلاب الميتة والجلود . [تفسير القرطبى ٣٩٢٢/٥] بتصرف .

قُلْنا : إن الرسول ﷺ حينما اشتد الحال بأهل مكة حتى أكلوا الجيف ، كان يرسل إليهم ما يأكلونه من الحلال الطيب رحمة منه ﷺ بهم فيقول :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ..(١١٤) ﴾ [النحل]

أى : أن هذا الرزق ليس من عندى ، بل من عند الله .

﴿ حَلالاً طَيِّبًا ..(١١٤) ﴾ [النحل]

ذلك لأنهم كانوا قبل ذلك لا يتورّعون عن أكل ما حرم الله ، ولا عن أكل الخبيث ، فأراد أن يُنبِّههم أن رِزْق الله لهم من الحلال الطيب الهنيء ، فيبدلهم الحلال بدل الحرام ، والطيب بدل الخبيث .

وقوله تعالى : ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ..(١١٤) ﴾ [النحل]

وهنا إشارة تحذير لهم أنْ يقعوا فيما وقعوا فيه من قَبْل من جُحود النعمة ونكْرانها والكفر بها ، فقد جَرَّبوا عاقبة ذلك ، فنزع الله منهم الأمْنَ ، وألبسهم لباسَ الخوف ، ونزع منهم الشِّبَع ورَغَد العيش ، وألبسهم لباس الجوع ، فخذوا إذن عبرة مما سلف :

﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ[1] لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) ﴾

---

(١) الإهلال : الصياح ورفع الصوت . وأهلَّ بالذبيحة : ذكر اسم من ذبحها له . [القاموس القويم ٢/٣٠٥] .

الحق سبحانه وتعالى بعد أنْ قال :

﴿ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا .. (١١٤) ﴾ [النحل]

أراد أن يُكرِّر معنًى من المعانى سبق ذكره فى البقرة والمائدة ، فقال فى البقرة :

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ[1] وَلا عَادٍ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٧٣) ﴾ [البقرة]

وقال تعالى فى سورة المائدة :

﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. (٣) ﴾ [المائدة]

وهذه الأشياء كنتم تأكلونها وهى مُحرّمة عليكم ، والآن ما دُمْنَا ننقذكم ، ونجعل لكم معونة إيمانية من رسول الله ، فكلوا هذه الأشياء حلالاً طيباً .

ولكن ، لماذا كرَّر هذا المعنى هنا ؟

التكرار هنا لأمرين :

الأول : أنه سبحانه لا يريد أنْ يعطيهم صورة عامة بالحكم ، بل صورة مُشخَّصة بالحالة ؛ لأنهم كانوا جَوْعى يريدون ما يأكلونه ، حتى وإنْ كانت الجيف ، ولكن الإسلام يُحرِّم الميتة ، فأوضح لهم أنكم بعد ذلك ستأكلون الحلال الطيب .

---

(١) أى : فى غير بغى ولا عدوان ، وهو مجاوزة الحد فلا إثم عليه فى أكل ذلك . وقال مقاتل ابن حيان : غير باغ ، يعنى : غير مستحله . وقال السدى : غير باغ . يبتغى فيه شهوته . [تفسير ابن كثير ٢/٢٠٥] .

ثانياً : أن النص يختلف ، ففى البقرة :

﴿ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ .. (١٧٣) ﴾ [البقرة]

وهنا : ﴿ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ .. (١١٥) ﴾ [النحل]

وليس هذا من قبيل التفنُّن فى الأسلوب ، بل المعنى مختلف تماماً ؛ ذلك لأن الإهلال هو رَفْع الصوت عند الذبح ، فكانوا يرفعون أصواتهم عند الذبح ، ولكن والعياذ بالله يقولون : باسم اللات ، أو باسم العُزّى ، فيُهلون بأسماء الشركاء الباطلين ، ولا يذكرون اسم الله الوهاب .

فمرَّة يُهلُّون به لغير الله ، ومرة يُهلُّون لغير الله به . كيف ذلك ؟

قالوا : لأن الذبْح كان على نوعين : مرة يذبحون للتقرُّب للأصنام ، فيكون الأصل فى الذبح أنه أُهِلَّ لغير الله به . أى : للأصنام .

ومرَّة يذبحون ليأكلوا دون تقرُّب لأحد ، فالأصل فيه أنه أُهِلَّ به لغير الله .

إذن : تكرار الآية لحكمة ، وسبحان مَنْ هذا كلامه .

وقوله : ﴿ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ .. (١١٥) ﴾ [النحل]

الاضطرار : ألاَّ تجد ما تأكله ، ولا ما يقيم حياتك .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا هنا رخصة عندما تُلجئنا الضرورة أن نأكل من هذه الأشياء المحرَّمة بقدر ما يحفظ الحياة ويسُدُّ الجوع ، فمعنى (غَيْرَ بَاغٍ) غير مُتجاوزٍ للحدِّ ، فلو اضطررْتَ وعندك ميْتة

وعندك طعام حلال ، فلا يصحّ أن تأكل الميتة فى وجود الحلال .

﴿ولا عَادٍ (١١٥)﴾ [النحل]

أى : ولا مُعْتَد على القدر المرخّص به ، وهو ما يمسك الحياة ، ويسُدُّ جوعك فقط ، دون شِبَع منها .

ويقول تعالى :

﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥)﴾ [النحل]

وفى البقرة :

﴿ فَلا إِثْمَ عَلَيْهِ..(١٧٣)﴾ [البقرة]

فالمعنى واحد ، ولكن هنا ذكر المغفرة والرحمة ، وهناك ذكر سببهما .

وتجدر الإشارة هنا إلى ما يتشدّق به البعض من الملاحدة الذين يبحثون فى القرآن عن مَغْمز ، فيقولون : طالما أن الله حرَّم هذه الأشياء ، فما فائدتها فى الكون ؟

نقول : أتظنون أن كل موجود فى الكون وُجد ليُؤكل ، أليس له مهمة أخرى ؟ ومن ورائه مصلحة أخرى غير الأَكْل ، فإنْ حرَّم الإسلام أكْله فقد أباح الانتفاع به من وجه آخر .

فالخنزير مثلاً حَرَّم الله أَكْله ، ولكن خلَقه لمهمة أخرى ، وجعل له دَوْراً فى نظافة البيئة ، حيث يلتهم القاذورات ، فهو بذلك يُؤدّى مهمة فى الحياة .

وكذلك الثعابين لا نأكلها ، ولها مهمة فى الحياة أيضاً ، وهى أنْ تُجهِّز لنا السُّم فى جوفها ، وبهذا السم تعالج بعض الداءات والأمراض ، وغير ذلك من الأمثلة كثير .

وكذلك يجب أنْ نعلمَ أن الحق سبحانه ما حرَّم علينا هذه الأشياء إلا لحكمة ، وعلى الإنسان أن يأخذ من واقع تكوينه المادى وتجاربه ما يُقرِّب له المعانى القيمية الدينية ، فلو نظر إلى الآلات التى تُدار من حوله من ماكينات وسيارات وطائرات وخلافه لوجد لكل منها وقوداً ، ربما لا يناسب غيرها ، حتى فى النوع الواحد نرى أن وقود السيارات وهو البنزين مثلاً لا يناسب الطائرات التى تستخدم نفس الوقود ، ولكن بدرجة نقاء أعلى .

إذن : لكل شىء وقود مناسب ، وكذلك أنت أيها الإنسان لك وقودك المناسب لك ، وبه تستطيع أداء حركتك فى الحياة ، وأنت صَنْعة ربك سبحانه ، وهو الذى يُحدِّد لك ما تأكله وما لا تأكله ، ويعلم ما يُصلحك وما يضرُّك .

والشىء المحرَّم قد يكون مُحرَّماً فى ذاته كالميتة لما فيها من ضرر ، وقد يكون حلالاً فى ذاته ، ولكنه مُحرَّم بالنسبة لشخص معين ، كأن يُمنعَ المريض من تناول طعام ما ؛ لأنه يضرُّ بصحته أو يُؤخِّر شفاءه ، وهو تحريم طارىء لحين زوال سببه .

وصورة أخرى للتحريم ، وهى أن يكون الشىء حلالاً فى ذاته ولا ضررَ فى تناوله ، ومع ذلك تحرمه عقوبةً ، كما تفعل فى معاقبة الطفل إذا أساء فنحرمه من قطعة الحلوى مثلاً .

إذن : للتحريم أسباب كثيرة ، سوف نرى أمثلة منها قريباً .

ثم يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

معنى ﴿ تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ﴾ : تُظهره على أوضح وجوهه ، فليس كلامهم كذباً فقط ، بل يصفه ، فمَنْ لا يعرف الكذب فليعرفه من كلام هؤلاء .

والمراد بالكذب هنا قولهم :

﴿ هَـٰذَا حَلالٌ وَهَـٰذَا حَرَامٌ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]

فهذا كذب وافتراء على الله سبحانه ؛ لأنه وحده صاحب التحليل والتحريم ، فإياك أنْ تُحلِّل شيئاً من عند نفسك ، أو تُحرِّم شيئاً حَسْب هواك ؛ لأن هذا افتراءٌ على الله[1] :

﴿ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ .. ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾ [النحل]

---

(١) قال القرطبي في تفسيره (٥/ ٣٩٢٤) : « قال مالك : لم يكن من فتيا الناس أن يقولوا هذا حلال وهذا حرام ، ولكن يقولوا : إياكم كذا وكذا ، ولم أكن لأصنع هذا . ومعنى هذا : أن التحليل والتحريم إنما هو لله عز وجل ، وليس لأحد أن يقول أو يصرح بهذا في عين من الأعيان ، إلا أن يكون البارىء تعالى يخبر بذلك عنه » .

فإن انطلى كذبهم على بعض الناس ، فأخذوا من ورائه منفعة عاجلة ، فعمَّا قليل سيُفتضح أمرهم ، وينكشف كذبهم ، وتنقطع مصالحهم بين الخلق .

ويصف الحق سبحانه ما يأخذه هؤلاء من دنياهم بأنه :

﴿ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾

أى : ما أخذتموه بكذبكم وافترائكم على الله متاعٌ قليل زائل ، سيحرمكم من المتاع الكثير الباقى الذى قال الله عنه :

﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴿٩٦﴾﴾ [النحل]

ليس هذا فقط بل :

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ[(١)] وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾

---

(١) وذلك فى سورة الأنعام ، فى قوله تعالى : ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [الأنعام] . فاليهود لا تأكل الإبل والنعام والأوز ولا كل شىء غير مشقوق الأصابع ، وكذلك حرم عليهم الدهن إلا ما كان مختلطاً بعظم . (من تفسير ابن كثير ٢/١٨٥) بتصرف كثير .

بعد أن تكلمت الآيات فيما أحلَّ الله وفيما حرَّم ، وبيَّنتْ أن التحليل أو التحريم لله تعالى ، جاءت لنا بصورة من التحريم ، لا لأن الشيء ذاته مُحرَّم ، بل هو مُحرَّم تحريم عقوبة ، كالذى مثَّلْناً له سابقاً بحرمان الطفل من الحلوى عقاباً له على سُوء فِعْله .

والذين هادوا هم : اليهود عاقبهم الله بتحريم هذه الأشياء ، مع أنها حلال فى ذاتها ، وهذا تحريم خاصٌّ بهم كعقوبة لهم .

وقوله تعالى :

﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ..(١١٨)﴾ [النحل]

المراد ما ذُكر فى سورة الأنعام من قوله تعالى :

﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦)﴾ [الأنعام]

كل ذى ظفر : الحيوان ليس منفرجَ الأصابع ، والحوايا : هى المصارين والأمعاء ، ونرى أن كل هذه الأشياء المذكورة فى الآية حلال فى ذاتها ، ومُحلَّلة لغير اليهود ، ولكن الله حرَّمها عليهم عقوبةً لهم على ظلمهم وبغيهم ، كما قال تعالى :

﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيراً (١٦٠) وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ .. (١٦١)﴾ [النساء]

أى : بسبب ظلمهم حَرَّمنا عليهم هذه الطيبات .

ذلك لأن مَنْ أخذ حكماً افتراءً على الله فحـرّم ما أحلَّ الله . أو حلَّل ما حـرّم الله لا بد أنْ يُعاقبَ بمثله فـيُحرِّم عليـه ما أحِلّ لغيـره ، وقد وقع الظلم من اليـهود لأنهم اجـترأوا على حـدود الله وتعاليـمه ، وأول الظلم وقمته الشرك بالله تعالى :

﴿ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [لقمان]

والظلم نَقْل الحق من صاحبه إلى غيره .

ومن ظلمهم : مـا قالوه لموسى ـ عليـه السلام ـ بعد أن عـبر بهم البحر ، ومـرُّوا على قوم يعكفون على أصنام لهم ، فـقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة . قال تعالى :

﴿ وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَـٰمُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ .. ﴿١٣٨﴾ ﴾ [الأعراف]

ومن ظلمهم : أنهم عبدوا العجل من دون الله .

ومن ظلمهم لموسى ـ عليه السلام ـ : أنهم لم يؤمنوا به . كما قال تعالى :

﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ﴿٨٣﴾ ﴾ [يونس]

ومن ظلمهم :

﴿ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء]

إذن : بسبب ظلمهم وأخذهم غير حقِّهم حرَّم الله عليهم أشياء كانت حلالاً لهم ؛ لذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ﴾ [النحل]

ظلموا أنفسهم بأن أعطوا لأنفسهم متاعاً قليلاً عاجلاً ، وحرموها من المتعة الحقيقية الباقية .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ ﴾

الحق سبحانه وتعالى يعطى عبده فرصة ، ويفتح له باب التوبة والرجاء ، فمن رحمته سبحانه بعباده أنْ شرع لهم التوبة من الذنوب ، ومن رحمته أيضاً أن يقبلها منهم فيتوب عليهم . ولو أغلق باب التوبة لَتحوَّل المذنب ـ ولو لمرة واحدة ـ إلى مجرم يُعربد فى المجتمع ، وبفتح باب التوبة يقى الله المجتمع من هذه العربدة .

ويبين الرسول ﷺ مكانة التوبة فيقول :

« لله أشد فرحاً بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة[1] فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه فأيس منها فأتى شجرة فاضطجع فى ظلها قد أيس من راحلته ، فبينا هو كذلك إذ

(١) الفلاة : الصحراء الواسعة التى لا ماء بها ولا أنيس ، فهى أرض قفر لأنها فُليت عن كل خير . [لسان العرب ـ مادة : فلا]

هو بها قائمة عنده فأخذ بخطامها[1] ثم قال من شدة الفرح : اللهم أنت عبدى وأنا ربك . أخطأ من شدة الفرح »[2]

وقوله تعالى فى بداية الآية : ﴿ثُمَّ﴾ تدلُّ على كثرة ما تقدم من ذنوب ، ومع ذلك غفرها الله لهم ليُبيِّن لك البَوْن الشاسع بين رحمة الله وإصرار العُصَاة على الكفران بالله ، وعلى المعصية .

وقوله تعالى : ﴿بِجَهَالَةٍ﴾

أى : بطيش وحُمْق وسَفَه ، وجميعها داخلة فى الجهل بمعنى أنْ تعتقد شيئاً وهو غير واقع ، فالجهل هنا ليس المراد منه عدم العلم ، إنما الجاهل مَنْ كانت لديه قضية مخالفة للواقع وهو متمسك بها ، والمراد أن ينظر إلى خير عاجل فى نظره ، ويترك خيراً آجلاً فى نظر الشرع .

وقد ورد هذا المعنى فى قول الحق سبحانه :

﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ ﴿١٧﴾﴾ [النساء]

بجهالة : يعنى فى لحظة سَفَه وطيْش ، فالعاصى يعلم الحكم تماماً ، ولكنه فى غفلة عنه ، وعدم تبصُّر بالعواقب ، ولو فكَّر فى عاقبة أمره ما تجرّأ على المعصية .

لذلك نقول : إن صاحب المعصية لا يُقدِم عليها إلا فى غيبة العقل .

---

(١) الخطام : أن يأخذ حبلاً من ليف أو شعر أو كتان ، فيجعل فى أحد طرفيه حلقة ثم يشد فيه الطرف الآخر حتى يصير كالحلقة ، ثم يقلد البعير ثم يُثنَّى على مُخطَّمه . [اللسان - مادة : خطم] .

(٢) الحديث أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٤٧) من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه .

ولذلك قال ﷺ :

« لا يزنى الزانى حين يـزنى وهو مؤمن ، ولا يسرق السـارق حين يسرق وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن »[(١)]

ولو استحضر قسوة الجزاء لما أقدم على معصيته ، ولكن سفهه وطيْشه يُغلّف الجـزاء ويستره عنه ويُزيّن له ما ينتظره من لذة ومتعة عاجلة .

وهَبْ أن شخصاً ألحتْ عليه غريزة الجنس ، وهى أشرس الغرائز فى الإنسان ، فـفكّر فى الفاحشة والعياذ بـالله ، وقبل أنْ يقع فى هذه الوهدة السحيقة أخذناه إلى موقد النار ، وذكّرناه بما غفل عنه من جزاء وعقوبة هذه الجريمة.

بالله عليك ، ماذا تراه يفعل ؟ هل يُصِرّ على جريمته ؟ لا ، لأنه كان ذاهلاً غافلاً ، وبمجرد أن تذكره يرجع .

إذن: طيشه وسفهه صرفه عن التفكر فى العاقبة وأذهله عن ردِّ الفعل ، وجعله ينظر إلى الأمور نظرة سطحية متعجِّلة .

وقوله : ﴿ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا . .(١١٩) ﴾ [النحل]

والتوبة هنا هى التوبة النصوح الصادقة ، التى ينوى صاحبها الإقلاع عنها وعدم العَوْد إليها مرة أخرى ، ويعزم على ذلك حال توبته ، فإذا فعل ذلك قَبِل الله منه وتاب عليه .

ولا يمنع ذلك أن يعود للذنب مرة أخرى إذا ضعُفَتْ نفسه عن المقاومة ، فإنْ عاد عاد إلى التوبة من جديد ، لأن الله سبحانه من

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٥٧) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه ، وكذا البخارى فى صحيحه (٢٤٧٥) .

أسـمائـه ﴿ التواب ﴾ أى : كـثـيـر التوبة ، فلـم يقل: تائب بل تواب ، فلا تنقطع التوبة فـى حق العبد مهما أذنـب ، وعليه أنْ يُحدِث لكل ذنبٍ توبة .

بل وأكثـر من ذلك ، إذا تاب العـبد وأحسن الـتوبة ، وأتى بالأعـمال الصالحـة بدلاً من السيئـة ، منَّ الله عليه بأن يُبـدِّل سيئـاته حسنات ، وهذه معاملة رب كريم غفور رحيم .

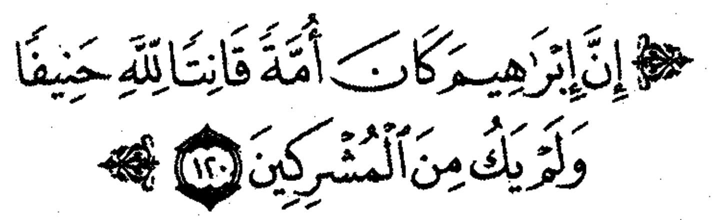
وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٩) ﴾ [النحل]

فيه إشارة لحرص النبى ﷺ علينا ، وأنه يسرُّه أن يغفر الله لنا .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ يا مـحمـد غـفور رحـيم ، فكأنه سـبحـانه يمـتنُّ على نبيه ﷺ أنه سيغفر للمذنبين من أمته .

ثم يقول الحق سبحانه واصفاً نبيه إبراهيم عليه السلام :



بعد أن ذكـرتْ الآيات طرفاً من سيـرة اليهود ، وطرفاً من سـيرة أهل مكة تعرَّضتْ لخليل الله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام .

والسؤال : لماذا إبراهيم بالذات دون سائر الأنبياء ؟

ذلك لأنه أبو الأنبياء ، وله مكانته بين الأنبياء ، والجميع يتمحكون فيـه ، حتى المشـركون يقولون : نحن على ديـن إبراهيم ، والنصارى قالوا عنه : إنه نصرانى . واليهود قالوا : إنه يهودى .

فجاءت الآية الكريمة تحلل شخصية إبراهيم عليه السلام ، وتُوضّح مواصفاتها ، وتردُّ وتُبطِل مزاعمهم فى إبراهيم عليه السلام ، وهاكم مواصفاته :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً..(١٢٠) ﴾ [النحل]

أمَّة : الأمة فى معناها العام : الجماعة ، وسياق الحديث هو الذى يُحدِّد عددها ، فنقول مثلاً : أمة الشعراء . أى : جماعة الشعراء ، وقد تكون الأمة جماعة قليلة العدد ، كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ..(٢٣) ﴾ [القصص]

فسمى جماعة من الرعاة أمة ؛ لأنهم خرجوا لغرض واحد ، وهو سَقْى دوابهم .

وتُطلَق الأمة على جنس فى مكان ، كأمة الفرس ، وأمة الروم ، وقد تُطلق على جماعة تتبع نبياً من الأنبياء ، كما قال سبحانه :

﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) ﴾ [فاطر]

وحين نتوسَّع فى معنى الأمة نجدها فى رسالة محمد ﷺ تشمل جميع الأمم ؛ لأنه أُرسِل للناس كافّة ، وجمع الأمم فى أمة واحدة ، كما قال تعالى :

﴿ إِنَّ هَـٰذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً (٩٢) ﴾ [الأنبياء]

ومعنى أمة واحدة . أى : جامعة لكل الأمم .

فـالمعنى - إذن - أن إبراهيم - علـيه السـلام - يقوم مـقام أمـة كاملة ؛ لأن الـكمالات المطلقـة لله وحده ، والكمالات المـوهوبة من الله لخلْقه فى الرسل تُسمَّى كمالات بشرية موهوبة من الله .

أما مـا دون الرسل فقـد وُزِّعت عليهم هـذه الكمالات ، فـأخذ كل إنسان واحداً منهـا ، فهذا أخذ الحلم ، وهذا الشـجاعة ، وهذا الكرم ، وهكذا لا تجتمع الكمالات إلا فى الرسل .

فإذا نظرتَ إلى إبراهيم - عليه السلام - وجـدتَ فيه من المواهب ما لا يُوجد إلا فى أمة كاملة .

كذلك رسولنا مـحمد ﷺ حينما حَدَّد موقـعه بين رسالات الله فى الأرض يقول :

« الخير فىَّ - وهذا هو الكمال البشرى الذى أعطاه الله إياه - وفى أمتى »[1] .

أى : أن كل واحـد منهم أخـذ جـزءًا من هذا الكمـال ، فكأن كماله ﷺ مُبعثر فى أمته كلها .

لذلك حـين تتتـبع تاريخ إبراهيم - عليـه السـلام - فى كتـاب الله تعالى تجد كل مـوقف من مواقفه يعطيك خَصْـلة من خـصال الخير ، وصفة من صفات الكمال ، فإذا جـمعتَ هذه الصفات وجدتها لا توجد إلا فى أمة بأسْرها ، فهو إمام وقدوة جامعة لكل خصال الخير .

---

(١) قال ابن حجـر العسقلانى : لا أعرفـه ، ولكن معناه صحيح . ذكـره القارى فى « الأسرار المرفـوعة » (٤٥٧) وكذا السيـوطى فى « الدرر المنتثرة » (٢٢٠) ، والعـجلوني فى كشف الخفاء (١/٤٧٦) .

ومن معـانى أمة : أنه عليه السلام يقـوم مقام أمة فى عـبادة الله وطاعته .

وقوله : ﴿ قَانِتًا لِّلَّهِ ..(١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : خاشعاً خاضعاً لله تعالى فى عبادته .

﴿ حَنِيفًا (١٢٠) ﴾ [النحل]

الحنف فى الأصل : المـيْل ، وقـد جاء إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ والكون على فســاد واعوجاج فى تكوين القيم ، فـمال إبراهيم عن هذا الاعوجاج ، وحَاد عنِ هذا الفساد .

والحق سبحانه وتعـالى لا يبعث الرسل إلا إذا طَمَّ الفساد ، إذن : ميْله عن الاعـوجاج والفساد ، فمـعناه أنه كان مسـتقيماً مـعتدلاً على الدين الحق ، مائلا عن الاعوجاج حائدا عن الفسـاد .

ثم يُنهى الحق سبحانه الآية بقوله :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

وهذه هى الصـفة الرابعـة لخليل الله إبراهيم بعـد أن وصفـه بأنه كان أمة قانتـاً لله حنيفاً ، وجميعها تنفى عنه الشـرك بالله ، فما فائدة نَفْى الشرك عنه مرة أخرى فى :

﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

يجب أنْ نُفرّق بين أنواع الشـرك ، فمنه الشرك الأكـبر ، وهو أن تجعل لله شركـاء ، وهو القمة فى الشرك . ومنه الشـرك الخفى ، بأن تجعل للأسباب التى خلقها دَخْل فى تكوين الأشياء .

فالآية هنا : ﴿ وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : الشرك الخفى ، فالأوصاف السابقة نفتْ عنه الشرك الأكبر ، فأراد سبحانه أن ينفى عنه شركَ الأسباب أيضاً ، وهو دقيق خفىٌّ .

ولذلك عندما أُلقىَ - عليه السلام - فى النار لم يلتفت إلى الأسباب وإنْ جاءت على يد جبريل - عليه السلام - ، فقال له حينما عرض عليه المساعدة : أما إليك فلا[1] . فأين الشرك الخفى - إذن - والأسباب عنده معدومة من البداية ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾

قوله تعالى : ﴿ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ (١٢١) ﴾ [النحل]

فيه تلميح لأهل مكة الذين جحدوا نعمة الله وكفروها ، وكانت بلدهم آمنة مطمئنة ، فلا يليق بكم هذا الكفر والجحود ، وأنتم تدَّعُون أنكم على ملّة إبراهيم - عليه السلام - فإبراهيم لم يكن كذلك ، بل كان شاكراً لله على نعمه .

وقوله : ﴿ اجْتَبَاهُ (١٢١) ﴾ [النحل]

اصطفاه واختاره للنبوة ، واجتباء إبراهيم - عليه السلام - كان عن اختبار ، كما قال تعالى :

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

أى : اختبره ببعض التكاليف ، فأتمها إبراهيم على أكمل وجه ، فقال له ربه :

---

(١) أورده القرطبى فى تفسيره (٦/٤٤٨٢) فى تفسير قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) ﴾ [الأنبياء] من حديث أُبىّ بن كعب . وأن إبراهيم عليه السلام قال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » .

﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا (١٢٤) ﴾ [البقرة]

ولكنه لحبه أن تتصل الإمامة فى ذريته قال :

﴿ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي (١٢٤) ﴾ [البقرة]

فعدَّل الله لـه هذه الرغبة ، وصحَّح له ، بأن ذريتك سـيكون منها الظالم ، فقال :

﴿ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]

لذلك تعلَّم إبراهيـم ـ عليه السـلام ـ من هذا المـوقف ، وأراد أن يحتاط لـنفسه بعد ذلك ، فـعندما أراد أن يطلب من ربه أن يرزق أهل مكة من الثمرات قال :

﴿ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

فـصـحَّح الله له أيضـاً هذا المطلب ، فـالموقف هنـا مخـتلف عن الأول ، الأول كان فى إمامة القـيم والدين ، وهذه لا يقوم بها ظالم ، أمـا هـذه فـــرزق وعطاء ربوبيـة يشـــمل المـؤمن والكافـــر والطائع والعاصى ، فالجميع فى الرزق سواء ، فقال تعالى :

﴿ وَمَن كَفَرَ .. (١٢٦) ﴾ [البقرة]

أى : سأرزق الكافر أيضاً[1] .

---

(١) قال ابن عباس : كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس ، فأنزل الله (وَمَنْ كَفَرَ) أيضاً أرزقهم كمـا أرزق المؤمنين ، أأخلق خلقاً لا أرزقهم ؟ أمتـعهم قليلاً ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصيـر ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ كُلاًّ نُّمِدُّ هَـٰؤُلاءِ وَهَـٰؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) ﴾ [الإسراء] . ذكره ابن كثير فى تفسيره (١/ ١٧٥) .

وهنا تتجلى عظمة الربوبية التى تُربِّى الأنبياء ، وتصنعهم على عَيْنها ، فكل مواقف الأنبياء تتجمع فى النهاية ، وتعطينا خلاصة الكمال البشرى .

ويدل على دقة إبراهيم - عليه السلام - فى أداء ما طُلِب منه موقفه فى بناء البيت ، فبعد أن دَلَّه الله على مكانه أخذ يُزيح عنه آثار السيول ، ويكشف عن قواعده ، وكان يكفى إبراهيم لتنفيذ أمر ربه أنْ يرفع البناء إلى ما تناله يده من ارتفاع ، ولكنه أحب أن يأتى بالأمر على أتمِّ وجوهه ؛ وينفذه بدقة واحتياط ، ففكَّر أن يأتى بحجر مرتفع ، ويقف عليه ليزيد من ارتفاع البناء ، فجاء بالحجر الذى هو مقام إبراهيم ، كل ذلك وولده يساعده ؛ لذلك لما أتى بالحجر جاء بحجر لا يرفعه إلا رجلان .

وكذلك موقفه الإيمانى وتخلّيه عن الأسباب ، حينما ترك زوجه هاجر وصغيره إسماعيل فى وادٍ غير ذى زرع ، وفى مكان خالٍ من مُقوّمات الحياة وأسباب العيش[1] .

إنه لا يؤمن بالأسباب ، إنما يؤمن بمُسبِّبها ، وطالما أنه سبحانه موجود فسوف يُوفّر لهم من الأسباب ما يحفظ حياتهم ؛ لذلك حينما سألته هاجر : أهذا منزل أنزلكه الله أم من عندك ؟

فلما علمت أنه من الله قالت : إذن لن يُضيِّعنا . وكأن إيمان

(١) وذلك قوله تعالى عن إبراهيم أنه قال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧) ﴾ [إبراهيم]

إبراهيم نضح على زوجته ، وملأ قلبها يقيناً فى الله تعالى .

وقوله سبحانه :

﴿ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٢١) ﴾ [النحل]

كيف .. بعد كل هذه الأوصاف الإيمانية تقول الآيات (وَهَدَاهُ) أليست هذه كلها هداية ؟

نقول : المراد زاده هداية ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْأَخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ (١٢٢) ﴾

الحق سبحانه يُبيّن أن جزاء إبراهيم ـ عليه السلام ـ عظيم فى الدنيا قبل جزاء الآخرة ، والمراد بحسنة الدنيا محبة جميع أهل الأديان له ، وكثرة الأنبياء فى ذريته والسيرة الطيبة والذكر الحسن .

وها نحن نتحدث عن صفاته ومناقبه ونفخر ونعتز به . وهذا العطاء من الله لإبراهيم فى الدنيا ؛ لأنه بالغ فى طاعة ربه وعبادته .

وقد طلب إبراهيم ـ عليه السلام ـ من ربه هذه المكانة ، فقال :

﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤) ﴾ [الشعراء]

حُكْماً : أى : حكمة أضع بها الأشياء فى مواضعها .

ولسان صدق : هو الذكر الطيب والثناء الحسن بعد أن أموت .

وقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ﴾ [النحل]

فإنْ كان هذا جزاءَه فى الدنيا ، فلا شكَّ أن جزاء الآخرة أعظم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾

الحق سبحانه وتعالى بعد أن ذكر بعضاً من صفات الخليل إبراهيم من كونه أمة قانتاً لله حنيفاً ، ولم يك من المشركين ، وأنه شاكر لأنعمه ، واجتباه ربه وهداه .. إلخ قال :

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

يا محمد :

﴿ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا (١٢٣) ﴾ [النحل]

كأن قمة مناقب إبراهيم وحسناته أننا أوحينا إليك يا خاتم الرسل أن تتبع ملته .

وملة إبراهيم : أى شريعة التوحيد .

ثم يُؤكِّد الحق سبحانه براءة إبراهيم من الشرك فيقول :

﴿ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) ﴾ [النحل]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾

بعد أن تحدّث الحق سبحانه عن إبراهيم أبى الأنبياء ، وذكر جانباً من صفاته ومناقبه تكلّم عن بنى إسرائيل فى قضية خالفوا فيها أمر الله بعد أن طلبوها بأنفسهم ، وكأنَّ القرآن يقول لهم : لقد زعمتم أن إبراهيم كان يهودياً ، فها هى صفات إبراهيم ، فماذا عن صفاتكم أنتم ؟ وأين أنتم من إبراهيم عليه السلام ؟

ويعطينا الحق سبحانه مثالاً عن مخالفتهم لربهم فيما يأمر به ، وأنهم ليسوا كإبراهيم فى اتباعه ، فيذكر ما كان منهم فى أمر السبت .

و (السبت) هو يوم السبت المعروف التالى للجمعة السابق للأحد ، والسبت مأخوذ من سَبَتَ يَسْبِت سَبْتاً . يعنى : سكن واستقرّ ، ومنه قوله تعالى :

﴿ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ ﴾ [النبأ]

ذلك أن بنى إسرائيل طلبوا يوماً يرتاحون فيه من العمل ، ويتفرغون فيه لعبادة الله ، وقد اقترح عليهم نبيهم موسى - عليه السلام - أن يكون يوم الجمعة ، فهو اليوم الذى أتمَّ الله فيه خَلْق

الكون فى ستة أيام ، وهو اليوم الذى اختاره الخليل إبراهيم ، ولكنهم رفضوا الجمعة واختاروا هم يوم السبت وقالوا :

إن الله خلق الدنيا فى ستة أيام بدأها بيوم الأحد ، وانتهى منها يوم الجمعة ، وارتاح يوم السبت ، وكذلك نحن نريد أن نرتاح ونتفرغ لعبادة الله يوم السبت ، وهكذا كانت هذه رغبتهم واختيارهم .

أما العيسويون فرفضوا أن يتبعوا اليهود فى يوم السبت ، أو إبراهيم عليه السلام فى يوم الجمعة ، واختاروا يوم الأحد على اعتبار أنه أول بَدْء الخلق .

أما أمة محمد ﷺ فقد اختار لها الله يوم الجمعة يوم الانتهاء وتمام النعمة(١) .

إذن : اليهود طلبوا يوم السبت واختاروه للراحة من العمل والتفرغ للعبادة ، فهذا مطلبهم ، وقد وافقهم ربُّهم سبحانه وتعالى عليه ، وأمرهم أنْ يتفرغوا لعبادته فى هذا اليوم ، ووافقهم ليُبيِّن لجاجتهم وعنادهم ، وأنهم لن يُوفُوا بما التزموا به وإن اختاروه بأنفسهم ، ووافقهم ليقطع حجتهم ، فلو اختار لهم يوماً لاعترضوا عليه ، ولكن هاهم يختارونه بأنفسهم .

كما أن قصة السبت مع اليهود جاءت لتخدم قضية عقدية عامة ،

---

(١) أخرج مسلم فى صحيحه (٨٥٦) كتاب الجمعة من حديث أبى هريرة وحذيفة رضى الله عنهما أنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « أضلَّ الله عن الجمعة من كان قبلنا ، فكان لليهود يوم السبت ، وكان للنصارى يوم الأحد ، فجاء الله بنا فهدانا ليوم الجمعة ، فجعل الجمعة والسبت والأحد ، وكذلك هم تبع لنا يوم القيامة ، نحن الآخرون من أهل الدنيا ، والأولون يوم القيامة المقضىّ لهم قبل الخلائق » .

هى أن الآيات التى تأتى مُصـدِّقة للرسل فى البلاغ عن الله تعـالى قد تكون من عند الله وباختياره سبحانه ، وقـد تكون باختيـار المرسَل إليـهم أنفسـهم ، وقد كـان من بنى إسـرائيل أنْ كذَّبوا بهـذه وهذه ، ولذلك قال تعالى :

﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ (٥٩) ﴾ [الإسراء]

أى : لكونهم يقترحـون الآية ثم يُكذِّبونهـا ، فأمْـرهم تكذيب فى تكذيب .

وقصة السبت ذُكِرَتْ فى مواضـع كثيرة ، مثل قوله تعالى :

﴿ وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ[1] الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

لقد نقض اليهود عهدهم مع الله كعادتهم ، وأخلفوا ما التزموا به ، وذهبوا للصـيد فى يوم السبت ، فكادهم الله وأغـاظهم ، فكانت تأتيهم الحيتان والأسماك تطفو على سطح المـاء كالشراع ، ولا ينتفعون منها بشىء إلا الحسـرة والأسف ، فيقولون : لعـلها تأتى فى الغد فيـخيب الله رجاءهم :

﴿ وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ .. (١٦٣) ﴾ [الأعراف]

وقـد سمَّى القـرآن الكريم ذلك منهم اعـتـداءً ؛ لأنهم اعتـدوا على ما شرع الله ، قال تعالى :

---

(١) اختلف المفسـرون فى تحديد هذه القرية ، فقال ابن عباس : هى قـرية على شاطىء البحر بين مصر والمدينة يقـال لها أيلة . وقال ابن شهاب الزهرى : هى طبرية . وقـال سعيد بن جبير : هى مدين . أوردها السيوطى فى الدر المنثور (٣/٥٨٧) .

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (٦٥) ﴾ [البقرة]

وقوله تعالى :

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ[1] .. (١٢٤) ﴾ [النحل]

كلمة (اخْتَلَفُوا) تُوحى بوجود طائفتين متناقضتين فى هذه القضية ، والحقيقة أن الخلاف لم يكُنْ بين اليهود بعضهم البعض ، بل بينهم وبين نبيهم الذى اختار لهم يوم الجمعة ، فخالفوه واختاروا السبت ، فجعل الله الخلاف عليهم .

فالمعنى : إنما جُعِل السبت حُجّة على الذين اختلفوا فيه ؛ لأنه أثبت عدوانهم على يوم العبادة ، فبعد أن اقترحوه واختاروه انقلب حُجة عليهم ، ودليلاً لإدانتهم .

ولو تأملنا قوله :

﴿ عَلَى الَّذِينَ .. (١٢٤) ﴾ [النحل]

نجد أن كلمة (عَلَى) تدلُّ على الفوقية أى : أن لدينا شيئاً أعلى وشيئاً أدنى ؛ فكأن السبت جاء ضد مصلحتهم ، وكأن خلافهم مع نبيهم انقلب عليهم .

ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد]

---

(١) أى : فى يوم الجمعة . اختلفوا على نبيهم موسى وعيسى . ووجه الاتصال بما قبله أن النبى ﷺ أمر باتباع الحق ، وحذر الله الأمة من الاختلاف عليه فيشدد عليهم كما شدد على اليهود . [قاله القرطبى فى تفسيره ٥/٣٩٢٧] .

يؤولها بعضهم على معنى (مع ظلمهم) نقول : المعنى صحيح ، ولكن المعية لا تقتضى العلو ، فلو قلنا : مع ظلمهم فالمعنى أن المغفرة موجودة مع الظلم مجرد معية ، أما قول الحق سبحانه :

﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ .. (٦) ﴾ [الرعد]

أى : أن المغفرة علَت على الظلم ، فالظلم يتطلب العقاب ، ولكن رحمة الله ومغفرته علَتْ على أنْ تُعامل الظالم بما يستحق ، فرحمة الله سبقتْ غضبه ، ونفس الملحظ نجده فى قول الحق سبحانه :

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ (٣٩) ﴾ [إبراهيم]

فالكبر كان يقتضى عدم الإنجاب ولكن هبة الله علت على سنة الكبَر .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾

فبعد أن تحدثتْ الآيات عن النموذج الإيمانى الأعلى فى الإنسان فى شخص أبى الأنبياء إبراهيم ، وجعلتْ من أعظم مناقبه أن الله أمر خاتم رسُله باتباعه ، أخذتْ فى بيان الملامح العامة لمنهج الدعوة إلى الله .

قوله : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ .. (١٢٥) ﴾ [النحل]

الحق تبارك وتعالى لا يُوجِّه هذا الأمر بالدعوة إلى رسوله ﷺ إلا وهو يعلم أنه سيُنفِّذ ما أُمِر به ، وسيقوم بأمر الدعوة ، ويتحمل مسئوليتها .

﴿ادْعُ﴾ : بمعنى دُلّ الناس وارشدهم .

﴿سَبِيلِ رَبِّكَ(١٢٥)﴾ [النحل]

السبيل هو الطريق والمنهج ، والحكمة : وَضْع الشيء في موضعه المناسب ، ولكن لماذا تحتاج الدعوةُ إلى الله حكمةً ؟

لأنك لا تدعو إلى منهج الله إلا مَن انحرف عن هذا المنهج ، ومَن انحرف عن منهج الله تجده ألف المعصية وتعوَّد عليها ، فلا بُدَّ لك أنْ ترفقَ به لتُخرجه عما ألف وتقيمه على المنهج الصحيح ، فالشدة والعنف في دعوة مثل هذا تنفره ، لأنك تجمع عليه شدتين :

شدة الدعوة والعنف فيها ، وشدة تَرْكه لما أحبَّ وما ألفَ من أساليب الحياة ، فإذا ما سلكتَ معه مَسْلَك اللِّين والرِّفق ، وأحسنت عَرْض الدعوة عليه طاوعك في أنْ يتركَ ما كان عليه من مخالفة المنهج الإلهي .

ومعلوم أن النصْح في عمومه ثقيل على النفس ، وخاصة في أمور الدين ، فإياك أن تُشعر مَنْ تنصحه أنك أعلم منه أو أفضل منه ، إياك أن تواجهه بما فيه من النقص ، أو تحرجه أمام الآخرين ؛ لأن كل هذه التصرّفات من الداعية لا تأتي إلا بنتيجة عكسية ، فهذه الطريقة تثير حفيظته ، وربما دَعَتْه إلى المكابرة والعناد .

وهذه الطريقة في الدعوة هي المرادة من قوله تعالى :

﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ..(١٢٥)﴾ [النحل]

ويُروى في هذا المقام ـ مقام الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة

الحسنة - قصة دارت بين الحسن والحسين رضى الله عنهما ، هذه القصة تجسيدٌ صادق لما ينبغى أنْ يكون عليه الداعية .

فيُروى أنهما رأيَا رجلاً لا يُحسِن الوضوء ، وأرادا أنْ يُعلّماه الوضوء الصحيح دون أنْ يجرحَا مشاعره ، فما كان منهما إلا أنهما افتعلا خصومة بينهما ، كل منهما يقول للآخر : أنت لا تُحسن أنْ تتوضأ ، ثم تحاكما إلى هذا الرجل أنْ يرى كلاً منهما يتوضأ ، ثم يحَكم : أيهما أفضل من الآخر ، وتوضأ كل منهما فأحسن الوضوء ، بعدها جاء الحُكْم من الرجل يقول : كل منكما أحسن ، وأنا الذى ما أحسنْتُ .

إنه الوعظ فى أعلى صورة ، والقدوة فى أحكم ما تكون .

مثال آخر للدعوة يضربه لنا الرسول ﷺ ، حينما أتاه شاب فى فَوْرة شبابه ، يشتكى عدم صَبْره عن رغبة الجنس ، وهى - كما قلنا - من أشرس الغرائز فى الإنسان .

جاء الشاب وقال : « يا رسول الله إئذن لى فى الزنا » .

هكذا تجرأ الشاب ولم يُخْفِ علّته ، هكذا لجأ إلى الطبيب ليطلب الدواء صراحة ، ومعرفة العلة أولَ خطوات الشفاء . فماذا قال رسول الله ؟

انظر إلى منهج الدعوة ، كيف يكون ، وكيف استلَّ رسول الله ﷺ الداء من نفس هذا الشاب ؟ فلم يزجره ، ولم ينهره ، ولم يُؤذه ، بل أخذه وربَّت على كتفه فى لطف ولين ، ثم قال :

« أتحبه لأمك ؟ قال : لا يا رسول الله ، جُعلْتُ فداَك . قال : فكذلك الناس لا يحبونه لأمهاتهم ، قال : أتُحبه لأختكَ ؟

قال : لا يا رسول الله جُعِلْتُ فِداك ، قال : « فكذلك الناس لا يحبونه لأخواتهم » .

وهكذا حتى ذكر العمة والخالة والزوجة ، ثم وضع رسول الله ﷺ يده الشريفة على صدر الشاب ودعا له : « اللهم نَقِّ صدره ، وحَصِّن فَرْجه » فقام الشاب وأبغض ما يكون إليه أن يزنى ، وهو يقول : فوالله ما هَمَّتْ نفسى بشىء من هذا ، إلا ذكرْتُ أمى وأختى وزوجتى[1] .

فلنتأمل هذا التلطُّف فى بيان الحكم الصحيح ، فمعالجة الداءات فى المجتمع تحتاج إلى فقه ولباقة ولين وحُسْن تصرف ، إننا نرى حتى الكفرة حينما يصنعون دواءً مُراً يغلفونه بغُلالة رقيقة حُلْوة المذاق ليستسيغه المريضِ ، ويسهل عليه تناوله . وما أشبه علاج الأبدان بعلاج القلوب فى هذه المسألة .

ويقول أهل الخبرة فى الدعوة إلى الله : النصح ثقيل فلا تُرْسِله جبلاً ، ولا تجعله جدلاً .. والحقائق مُرّة فاستعيروا لها خِفّة البيان .

وكان ﷺ إذا سمع عن شىء لا يرضيه من ذنب أو فاحشة فى مجتمع الإيمان بالمدينة كان يصعد منبره الشريف ، ويقول :

« ما بال أقوام قالوا كذا وكذا »[2] .

---

(١) أخرجه أحمد فى مسنده (٥/٢٥٦ ، ٢٥٧) ، والطبرانى فى معجمه الكبير (٨/١٩٠ ، ٢١٥) من حديث أبى أمامة رضى الله عنه ، وفيه أن رسول الله ﷺ قال : « اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه وحصن فرجه » فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شىء .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (١٤٠١) كتاب النكاح من حديث أنس رضى الله عنه أن نفراً من أصحاب النبى ﷺ سألوا أزواج النبى ﷺ عن عمله فى السر . فقال بعضهم : لا أتزوج النساء . وقال بعضهم : لا آكل اللحم . وقال بعضهم : لا أنام على فراش . فحمد الله وأثنى عليه فقال : « ما بال أقوام قالوا كذا وكذا ، لكنى أصلى وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » .

ويكتفى بالتوجيه العام دون أنْ يجرحَ أحداً من الناس على حَدِّ قولهم فى الأمثال : إياك أعنى واسمعى يا جارة .

ومن ذلك ما كان يلجأ إليه العقلاء فى الريف حينما يتعرض أحدٌ للسرقة ، أو يضيع منه شىء ذو قيمة ، فكانوا يعلنون عن فَقْد الشىء الذى ضاع أو سُرِق ويقول : ليلة كذا بعد غياب القمر سوف نرمى التراب .

ومعنى « نرمى التراب » أن يحضر كل منهم كمية من التراب يلقيها أمام بيت صاحب هذا الشىء المفقود ، وفى الصباح يبحثون فى التراب حتى يعثروا على ما فُقِد منهم ، ويصلوا إلى ضالّتهم دون أنْ يُفتضحَ الأمر ، ودون أن يُحرَج أحد ، وربما لو واجهوا السارق لأنكر وتعقدت المسألة .

وقوله سبحانه :

﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ..(١٢٥) ﴾ [النحل]

والجدل مناقشة الحجج فى قضية من القضايا ، وعلى كُلٍّ من الطرفين أنْ يعرضَ حُجّته بالتى هى أحسن . أى : فى رفق ولين ودون تشنُّج أو غَطْرسة .

ويجب عليك فى موقف الجدال هذا ألاّ تُغضِبَ الخصْم ، فقد يتمحّك فى كلمة منك ، ويأخذها ذريعة للانصراف من هذا المجلس .

وقوله سبحانه :

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) ﴾
[النحل]

قد يتساءل البعض : ما علاقة هذا التذييل للآية بموضوع الدعوة إلى الله ؟

يريد الحق سبحانه أن يُبيِّن لنا حساسية هذه المهمة ، وأنها تُبنى على الإخلاص لله فى توجيه النصيحة ، ولا ينبغى للداعية أبداً أنْ يغُشَّ فى دعوته ، فيقصد من ورائها شيئاً آخر ، وقد تقوم بموعظة وفى نفسك استكبار على الموعوظ ، أو شعور أنك أفضل منه أو أعلم منه .

ومن الناس ـ والعياذ بالله ـ مَنْ يجمع القشور عن موضوع ما ، فيظن أنه أصبح عالماً ، فيضر الناس أكثر ممّا ينفعهم .

إذن : إنْ قُبِل الغش فى شىء فإنه لا يُقبل فى مجال الدعوة إلى الله ، فإياك أنْ تغشَّ بالله فى الله ؛ لأنه سبحانه وتعالى أعلم بمَنْ يضل الناس ، ويصدهم عن سبيل الله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ثم يقول الحق سبحانه[1] :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾

نلاحظ أن هذا المعنى ورد فى قوله تعالى :

﴿ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ .. (١٩٤) ﴾

[البقرة]

(١) سبب نزول الآية : روى الدارقطنى عن ابن عباس قال : لما انصرف المشركون عن قتلى أحد ، انصرف رسول الله ﷺ فرأى منظراً ساءه ، رأى حمزة قد شُق بطنه ، واصطُلم أنفه ، وجُدعت أذناه ، فقال : « لولا أن يحزن النساء أو تكون سنة بعدى لتركته حتى يبعثه الله من بطون السباع والطير لأمثِّلنَّ مكانه بسبعين رجلاً » فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ .. (١٢٧) ﴾ [النحل] فصبر رسول الله ﷺ ولم يمثل بأحد . ذكره القرطبى فى تفسيره (٣٩٢٨/٥) والواحدى فى « أسباب النزول » (ص١٦٢) .

وبمقارنة الآيتين نرى أنهما يقرران المثلية فى رد الاعتداء :

﴿ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

و ﴿ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ .. (١٩٤) ﴾ [البقرة]

إذن : الحق سبحانه ، وإنْ شرع لنا الرد على الاعتداء بالمثل ، إلا أنه جعله صعباً من حيث التنفيذ ، فمَن الذى يستطيع تقدير المثلية فى الرد ، بحيث يكون مثله تماماً دون اعتداء ، ودون زيادة فى العقوبة ، وكأن فى صعوبة تقدير المثلية إشارةً إلى استحباب الانصراف عنها إلى ما هو خير منها ، كما قال تعالى :

﴿ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

فقد جعل الله فى الصبر سَعة ، وجعله خيراً من رَدِّ العقوبة ، ومقاساة تقدير المثلية فيها ، فضلاً عما فى الصبر من تأليف القلوب ونَزْع الأحقاد ، كما قال الحق سبحانه :

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) ﴾ [فصلت]

ففى ذلك دَفْع لشراسة النفس ، وسَدٌّ لمنافذ الانتقام ، وقضاء على الضغائن والأحقاد .

وقوله : ﴿ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

الخيرية هنا من وجوه :

أولاً : فى الصبر وعدم رَدِّ العقوبة بمثلها إنهاءٌ للخصومات ،

وراحة للمجتمع أن تفزعه سلسلة لا تنتهى من العداوة .

ثانياً : مَنْ ظُلِم من الخلق ، فصبر على ظلمهم ، فقد ضمن أن الله تعالى فى جواره ؛ لأن الله يغار على عبده المظلوم ، ويجعله فى معيته وحفظه ؛ لذلك قالوا : لو علم الظالم ما أعدَّه الله للمظلوم لَضنَّ عليه بالظلم .

والمتتبع لآيات الصبر فى القرآن الكريم يجد تشابهاً فى تذييل بعض الآيات .

يقول تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

وفى آية أخرى :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

ولا ننسى أن المتكلم هو الله ، إذن : ليس المعنى واحداً ، فلكل حرف هنا معنى ، والمواقف مختلفة ، فانظر إلى دِقّة التعبير القرآنى .

ولما كانت المصائب التى تصيب الإنسان على نوعين :

النوع الأول : هناك مصائب تلحق الإنسان بقضاء الله وقدره ، وليس له غريم فيها ، كمن أُصيب فى صحته أو تعرَّض لجائحة فى ماله ، أو انهار بيته .. إلخ .

وفى هذا النوع من المصائب يشعر الإنسان بألم الفَقْد ولذْعة الخسارة ، لكن لا ضغن فيها على أحد .

إذن : الصبر على هذه الأحداث قريب ؛ لأنه ابتلاء وقضاء وقدر ، فلا يحتاج الأمر بالصبر هنا إلى توكيد ، ويناسبه قوله تعالى :

﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ [لقمان]

أما النوع الآخر : فهو المصائب التى تقع بفعل فاعل ، كالقتل مثلاً ، فإلى جانب الفَقْد يوجد غريم لك ، يثير حفيظتك ، ويهيج غضبك ، ويدعوك إلى الانتقام كلما رأيته ، فالصبر فى هذه أصعب وحَمْل النفس عليه يحتاج إلى توكيد كما فى الآية الثانية :

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى]

فاستعمل هنا لام التوكيد ؛ لأن الصبر هنا شاقّ ، والفرصة مُتَاحَة للشيطان لِيُؤلِّب القلوب ، ويثير الضغائن والأحقاد .

كما نلاحظ فى الآية الأولى قال : (وَاصْبِرْ) .

وفى الثانية قال : (صَبَر وغَفَر) لأن أمامه غريماً يدعوه لأنْ يغفر له .

ويُحكى فى قصص العرب قصة اليهودى المرابى الذى أعطى رجلاً مالاً على أنْ يردّه فى أجل معلوم ، واشترط عليه إنْ لم يَفِ بالسداد فى الوقت المحدد يقطع رَطْلاً من لحمه ، ووافق الرجل ، وعند موعد السداد لم يستطع الرجل أداء ما عليه .

فرفع اليهودى الأمر إلى القاضى وقَصّ عليه ما بينهما من اتفاق ، وكان القاضى صاحب فطْنة فقال : نعم العقد شريعة المتعاقدين ، وأمر له بسكين . وقال : خُذْ من لحمه رَطْلاً ، ولكن فى ضربة

واحدة ، وإنْ زاد عن الرطل أو نقص أخذناه من لحمك أنت .

ولما رأى اليهودى مشقة ما هو مُقْدِم عليه آثر السلامة وتصالح مع خصمه .

والسؤال الآن : ما علاقة[1] هذه الآية :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ . .(١٢٦) ﴾ [النحل]

بما قبلها :

﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ(١٢٥) ﴾ [النحل]

الدعوة إلى الله منهج يلفت الإنسان ـ خليفة الله فى أرضه ـ أنْ يلتزمَ بمنهج الله الذى استخلفه ، ووضع له هذا المنهج ليُنظِّم حركة حياته ، والداعية يواجه هؤلاء الذين يُفسدون فى الأرض ، ويحققون لأنفسهم مصالح على حساب الغير ، والذى يحقق لنفسه مصلحة على حساب غيره لا بُدّ أن يكون له قوة وقدرة ، بها يطغى ويستعلى ويظلم .

فإذا جاء منهج الله تعالى ليعدل حركة هؤلاء ويُخرجهم مما ألفُوه ، وينزع منهم سلطان الطغيان والظلم ، ويسلبهم هذا السوط الذى يستفيدون به ، فلا بُدَّ أنْ يُجادلوه ويصادموه ويقفوا فى وجهه ، فقد جمع عليهم شدة النصح والإصلاح ، وشدة تَرْك ما ألفوه .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره (٥/٣٩٢٨) : « المعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسناً ، لأنها تتدرج الرتب من الذى يُدْعى ويوعظ ، إلى الذى يجادل ، إلى الذى يُجازى على فعله ، ولكن ما روى الجمهور اثبت » وذلك فى أن هذه الآية مدنية .

فعلَى الداعية - إذن - أن يتحلى بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن يجادلهم بالتى هى أحسن ، فإذا ما تعدَّى أمرُهم إلى الاعتداء على الداعية ، إذا ما استشرى الفساد وغلبت شراسة الطباع ، فسوف نحتاج إلى أسلوب آخر ، حيث لم يَعُدْ يُجدى أسلوب الحكمة .

ولا بُدّ لنا أن نقفَ الموقف الذى تقتضيه الرجولة العادية ، فضلاً عن الرجولة الإيمانية ، وأن يكون لدينا القدرة على الرد الذى شرعه لنا الحق سبحانه وتعالى ، دون أن يكون عندنا لَدَد فى الخصومة ، أو إسراف فى العقوبة .

فجاء قوله تعالى :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

وفى الآية تحذير أن يزيدَ الردّ على مثله ، وبذلك يتعلم الخصوم أنك خاضع لمنهج رباني عادل يستوى أمامه الجميع ، فهم وإن انحرفوا وأجرموا فإن العقاب بالمثل لا يتعداه ، ولعل ذلك يلفتهم إلى أن الذى أمر بذلك لم يطلق لشراسة الانتقام عنانها ، بل هدّأها ودعاها إلى العفو والصفح ، ليكون هذا أدعى إلى هدايتهم .

وهذا التوجيه الإلهى فى تقييد العقوبة بمثلها قبل أن يتوجه إلى أمته ﷺ توجّه إليه ﷺ فى تصرُّف خاص ، لا يتعلق بمؤمن على عموم إيمانه ، ولكن بمؤمن حبيب إلى رسول الله ، وصاحب منزلة عظيمة عنده ، إنه عمه وصاحبه حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء رضى الله عنه .

فقد مثّل به الكفار فى أُحُد ، وشقَّتْ هند بطنه ، ولاكت كبده ،

فشقَّ الأمر على رسول الله ﷺ ، وأثَّر فى نفسه ، وواجه هذا الموقف بعاطفتين : عاطفته الإيمانية ، وعاطفة الرحم والقرابة فهو عمه الذى آزره ونصره ، ووقف إلى جواره ، فقال فى انفعاله بهذه العاطفة :

« لئن أظهرنى الله عليهم لأُمثِّلنَّ بثلاثين رجلاً منهم »[1] .

ولكن الحق سبحانه العادل الذى أنزل ميزان العدل والحق فى الخلق هَدَّأ من رَوْعه ، وعدَّل له هذه المسألة ولأمته من بعده ، فقال :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ .. (١٢٦) ﴾ [النحل]

والمتأمل للأسلوب القرآنى فى هذه الآية يلحظ فيها دعوة إلى التحنُّن على الخصم والرأفة به ، فالمتحدث هو الله سبحانه ، فكل حرف له معنى ، فلا تأخذ الكلام على إجماله ، ولكن تأمل فيه وسوف تجد من وراء الحرف مراداً وأن له مطلوباً .

لماذا قال الحق سبحانه : (وإنْ) ولم يستخدم (إذا) مثلاً ؟

إن عاقبتم : كأن المعنى : كان يحب ألاَّ تعاقبوا .

أما (إذا) فتفيد التحقيق والتأكيد ، والحق سبحانه يريد أنْ يُحنِّن القلوب ، ويضع ردّ العقوبة بمثلها فى أضيق نطاق ، فهذه رحمة حتى مع الأعداء ، هذه الرحمة تُحبِّبهم فى الإسلام ، وتدعوهم إليه ، وبها يتحوّل هؤلاء الأعداء إلى جنود فى صفوف الدعوة إلى الله .

---

(١) أورده ابن كثير فى تفسيره (٢/٥٩٢) وعزاه لمحمد بن إسحاق فى السيرة .

كما أن فى قوله : (عَاقَبْتُمْ) دليل على أن ردَّ العقوبة يحتاج إلى قوة واستعداد ، كما قال تعالى :

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ..(٦٠) ﴾ [الأنفال]

كأنه يقـول : كونوا دائماً على اسـتعداد ، وفى حـال قوة تُمكنكم من الردِّ إذا اعـتُدِى عليكم ، كـما أن فى وجـود القـوة والاسـتعـداد ما يردع العدو ويرهبه ، فلا يجـرؤ على الاعتداء من البداية ، وبالقوة والاستـعداد يُحـفظ التوازن فى المـجتـمع ، فالقوى لا يفـكّر أحد فى الاعتداء عليه .

وهذا ما نراه الآن بـين دول العالم فى صـراعها المـحمـوم حول التسلُّح بأسلحة فاتكة .

وكلمة : ﴿ مَا عُوقِبْتُم بِهِ..(١٢٦) ﴾ [النحل]

نلاحظ أن الردَّ على الاعـتداء يُسمَّى عـقوبة ، لكن الاعـتداء الأول لماذا نُسميه أيضاً عقوبة ؟

قالوا : لأن هذه طريقة فى الـتعبير تسـمَّى « المشاكلة »[1] ، أى : جاءت الأفعال كلها على شاكلة واحدة .

ومن ذلك قوله تعالى :

---

(١) المشاكلة : مصطلح من مصطلحات بديع القرآن معناه : ذكر الشىء بلفظ غيره لوقوعه فى صحبته تحقيقاً أو تقديراً . [الاتقان فى علوم القرآن ١/ ٢٨١]

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ﴿٤٠﴾ ﴾ [الشورى]

لأن ردَّ السيئة لا يُسمَّى سيئة .

ولسائل فى هذه القضية أن يسأل : طالما أن الإسلام يسعى فى هذه المسألة إلى العفو ، فلماذا لم يُقرِّره من البداية ؟ وما فائدة الكلام عن العقوبة بالمثل ؟

نقول : لأن المجتمع لا يكون سليم التكوين إلا إذا أَمِن كل إنسان فيه على نفسه وعِرْضه وماله .. إلخ . وهذا الأمن لا يتأتّى إلا بقوة تحفظه ، كما أن للمجتمع توازناً ، هذا التوازن فى المجتمع لا يُحفظ إلا بقوة تضمن أداء الحقوق والواجبات ، وتضمن أن تكون حركة الإنسان فى المجتمع دون ظلم له .

كما أن للحق سبحانه حكمة سامية فى تشريع العقوبة على الجرائم ، فهدف الشارع الحكيم أنْ يَحُدَّ من الجريمة ، ويمنع حدوثها ؛ فلو علم القاتل أنه سيُقتل ما تجرأ على جريمته ، ففى تشريع العقوبة رحمة بالمجتمع وحِفْظ لسلامته وأمْنه .

ونرى البعض يعترض على عقوبة الردة ، فيقول : كيف تقتلون مَن يرتد عن دينكم ؟ وأين حرية العقيدة إذن ؟

نقول : فى تشريع قتل المرتد عن الإسلام تضييق لمنافذ الدخول فى هذا الدين ، بحيث لا يدخله أحد إلا بعد اقتناع تام وعقيدة راسخة ، فإذا علم هذا الحكم من البداية فللمرء الحرية يدخل

أو لا يدخل ، لا يغصبه أحد ، ولكن ليعلم أنه إذا دخل ، فحكم الردة معلوم[١] .

إذن : شرعَ الإسلامُ العقوبةَ ليحفظ للمجتمع توازنه ، وليعمل عملية ردع حتى لا تقع الجريمة من البداية ، لكن إذا وقعتْ يلجأ إلى علاج آخر يجتثُّ جذور الغِلِّ والأحقاد والضغائن من المجتمع .

لذلك سبق أن قلنا عن عادة الأخذ بالثأر فى صعيد مصر : إنه يظل فى سلسلة من القتل والثأر لا تنتهى ، وتفزِّع المجتمع كله ، حتى الآمنين الذين لا جريرة لهم ، وتنمو الأحقاد والكراهية بين العائلات فى هذا الجو الشائك ، حتى إذا ما تشجَّع واحد منهم ، فأخذ كفنه على يديه وذهب إلى ولىِّ القتيل ، وألقى بنفسه بين يديه قائلاً : ها أنا بين يديك وكفنى معى ، فاصنع بى ما شئت ، وعندها تأبى عليهم كرامتهم وشهامتهم أنْ يثأروا منه ، فيكون العفو والصفح والتسامح نهاية لسلسلة الثأر التى لا تنتهى .

ثم يقول الحق سبحانه[٢] :

﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾

---

(١) عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من بدل دينه فاقتلوه » أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ٢٨٢ ، ٣٨٣) ، والبخارى فى صحيحه (١٢/ ٢٦٧ ـ فتح البارى) ، وابن ماجه فى سننه (٢٥٣٥) ، وكذا الترمذى (١٤٥٨) .

(٢) قال ابن زيد : هى منسوخة بالقتال . وجمهور الناس على أنها محكمة . أى : اصبر بالعفو عن المعاقبة بمثل ما عاقبوا من المُثْلة . [تفسير القرطبى ٥/ ٣٩٣٠] .

بعد أن ذكرتْ الآيات فضل الصبر وما فيه من خيرية ، وكأن الآية السابقة تمهد للأمر هنا (وَاصْبِرْ) ليأتمر الجميع بأمر الله ، بعد أنْ قدّم لهم الحيثيات التى تجعل الصبر شجاعة لا ضعفاً ، كما يقولون فى الحكمة : من الشجاعة أنْ تجبُنَ ساعة .

فإذا ما وسوس لك الشيطان ، وأغراك بالانتقام ، وثارت نفسُك ، فالشجاعة أنْ تصبر ولا تطاوعهما .

قوله تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ.. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل]

من حكمة الله ورحمته أنْ جعلك تصبر على الأذى ؛ لأن فى الصبر خيراً لك ، والله هو الذى يُعينك على الصبر ، ويمنع عنك وسوسة الشيطان وخواطر السوء التى تهيج غضبك ، وتجرّك إلى الانتقام .

والحق سبحانه وتعالى يريد من عبده أن يتجه لإنفاذ أمره ، فإذا علم ذلك من نيته تولّى أمره وأعانه ، كما قال تعالى :

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [محمد]

إياك أن تعتقد أن الصبر من عندك أنت ، فالله يريد منك أن تتجه إلى الصبر مجرد اتجاه ونية ، وحين تتجه إليه يُجنّد الله لك الخواطر الطيبة التى تُعينك عليه وتُيسِّره لك وتُرضيك به ، فيأتى صبرك جميلاً ، لا سخطَ فيه ولا اعتراضَ عليه .

ثم يقول تعالى :

﴿ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ.. ﴿١٢٧﴾ ﴾ [النحل]

لقد امتنّ الله على أمة العرب التى استقبلتْ دعوة الله على لسان رسوله ﷺ ، بأنْ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم ومن أوسطهم ، يعرفون حَسَبه ونَسَبه وتاريخه وأخلاقه ، وقد كان ﷺ مُحباً لقومه حريصاً على هدايتهم ، كما قال تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [التوبة]

أى : تعز عليه مشقتكم ، ويؤلمه عَنَتكم وتعبكم ، حريص عليكم ، يريد أن يستكمل لكم كل أنواع الخير ؛ لأن معنى الحرص : الضَّنّ بالشىء ، فكأنه ﷺ يضِنّ بقومه .

وقد أوضح هذا المعنى فى الحديث الشريف :

« إنما مثلى ومثَل أمتى كمثل رجل استوقد ناراً ، فجعلت الدواب والفراش يقعن فيه ، فأنا آخذ بحجزكم[(١)] وأنتم تقحّمون فيه »[(٢)] .

لذلك حزن رسول الله ﷺ على قومه لما رأى من كفرهم وعنادهم وتكبُّرهم عن قبول الحق ، وهو يريد لهم الهداية والصلاح ؛ لأنك إذا أحببتَ إنساناً أحببتَ له ما تراه من الخير ، كمن ذهب إلى سوق ، فوجدها رائجة رابحة ، فدلّ عليها من يحب من أهله ومعارفه .

كذلك لما ذاق رسول الله ﷺ حلاوة الإيمان أحبَّ أنْ يُشاركه قومه هذه المتعة الإيمانية .

---

(١) حُجزة الإنسان : مَعْقد السراويل والإزار . واحتجز بالإزار إذا شدّه على وسطه ، فاستعاره للالتجاء والاعتصام والتمسُّك بالشىء والتعلق به . [لسان العرب ـ مادة : حجز] .

(٢) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٢٨٤) كتاب الفضائل ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه .

والحق سبحانه وتعالى هنا يُسلِّى رسوله ، ويخفف عنه ما صُدِم فى قومه ، يقول له : لا تحزن عليهم ولا تُحمّل نفسك فوق طاقتها ، فما عليك إلا البلاغ . ويخاطبه ربه فى آية أخرى :

﴿ فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [الكهف]

أى : لا تكن مُهْلكاً نفسك أسفاً عليهم .

وقوله : ﴿ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ ﴾ [النحل]

الضيق : تأتى بالفتح وبالكسر ، ضِيْق ، ضَيْق[1] .

والضيق : أن يتضاءل الشىء الواسع أمامك عما كنت تُقدِّره ، والضيق يقع للإنسان على درجات ، فقد تضيق به بلده فينتقل إلى بلد آخر .

وربما ضاقت عليه الدنيا كلها ، وفى هذه الحالة يمكن أنْ تسعه نفسه ، فإذا ضاقتْ عليه نفْسه فقد بلغ أقصى درجات الضيق ، كما قال تعالى عن الثلاثة[2] الذين تخلفوا عن الجهاد مع رسول الله :

﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ .. ۝١١٨ ﴾ [التوبة]

---

(١) قال الفراء : الضّيق ما ضاق عنه صدرك . والضَّيق ما يكون فى الذى يتسع ويضيق . مثل الدار والثوب . وقال ابن السكيت : هما سواء . [تفسير القرطبى ٥/٣٩٣٠] .

(٢) هم : كعب بن مالك ، وهلال بن امية ، ومرارة بن الربيع . تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك دون عذر ، فعوقبوا بأن هجرهم المسلمون نحواً من خمسين ليلة بأيامها وضاقت عليهم أنفسهم وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ولكنهم صبروا لأمر الله وثبتوا ، حتى فرج الله عنهم بسبب صدقهم مع رسول الله ﷺ فى تخلفهم وأنه كان عن غير عذر . [تفسير ابن كثير ٢/٣٩٩] بتصرف .

فـالحق سبحـانه ينهى رسـوله ﷺ أنْ يكون فى ضـيق من مكر الكفـار ؛ لأن الذى يضيق بأمـر ما هو الذى لا يجـد فى مجـال فكره وبدائله مـا يخرج به من هذا الضـيق ، إنما الذى يعرف أن لـه منفذاً ومَخْرجاً فلا يكون فى ضيْق .

فالمعنى : لا تَكُ فى ضيق يا محمـد ، فالله معك ، سيجعل لك من الضيق مخرجاً ، ويرد على هؤلاء مكرهم :

﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأنفال]

ولذلك يقـول : لا كرب وأنت رب . فـساعـة أن تضيق بك الدنيـا والأهل والأحباب ، وتضيق بك نفسك فليسعْك ربك ، ولتكُنْ فى معيته سبحانه ؛ ولذلك قال تعالى بعد ذلك :

﴿ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

هذه قضـية معـيّة الله لمن اتقـاه ، فمَن اتقى الله فهـو فى جواره ومعـيتـه ، وإذا كنت فى معـية ربك فـمَنْ يجرؤ أن يكيـدك ، أو يمكرُ بك ؟

وفى رحلة الهجرة تتجلى معيـة الله تعالى وتتجسد لنا فى الغار ، حينما أحاط به الكفار ، والصـدِّيق يقول للرسول ﷺ : لو نظر أحدهم تحت قدميه لَرآنا ، فيجيبه الرسول ﷺ وهو واثق بهذه المعية :

« يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما »[1] .

---

(١) متفق عـليه . أخرجه البـخارى فى صحيحـه (٤٦٦٣) ، ومسلم فى صحـيحه (٢٣٨١) من حديث أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

فما علاقة هذه الإجابة من رسول الله بما قال أبو بكر ؟

المعنى : مادام أن الله ثالثهما إذن فهما فى معية الله ، والله لا تدركه الأبصار ، فمَنْ كان فى معيته كذلك لا تدركه الأبصار .

وقوله : ﴿ اتَّقَوا .. (١٢٨) ﴾ [النحل]

التقوى فى معناها العام : طاعة الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ، ومن استعمالاتها نقول : اتقوا الله ، واتقوا النار ، والمتأمل يجد معناهما يلتقى فى نقطة واحدة .

فمعنى « اتق الله » : اجعل بينك وبين عذاب الله وقاية وحاجزاً يحميك ، وذلك باتباع أمره واجتناب نهيه ؛ لأن للحق سبحانه صفات رحمة ، فهو : الرؤوف الرحيم الغفور ، وله صفات جبروت فهو : المنتقم الجبار العزيز ، فاجعل لنفسك وقاية من صفات الانتقام .

ونقول : اتقوا النار ، أى : اجعلوا بينكم وبين النار وقاية ، والوقاية من النار لا تكون إلا بطاعة الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، إذن : المعنى واحد ، ولكن جاء مرّة باللازم ، ومرّةً بلازم اللازم .

وقوله : ﴿ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ (١٢٨) ﴾ [النحل]

المحسن : هو الذى يُلزم نفسه فى عبادة الله بأكثر مما ألزمه الله ، ومن جنس ما ألزمه الله به ، فإنْ كان الشرع فرض عليك خمس صلوات فى اليوم والليلة ، فالإحسان أن تزيدها ما تيسَّر لك من النوافل ، وإنْ كان الصوم شهرَ رمضان ، فالإحسان أنْ تصومَ من باقى الشهور كذا من الأيام ، وكذلك فى الزكاة ، وغيرها مِمَّا فرض الله .

لذلك نجد أن الإحسان أعلى مراتب الدين ، وهذا واضح فى حديث جبريل حينما سأل رسول الله ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان ، فقال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنْ لم تكُنْ تراه فإنه يراك »[1] .

والآية الكريمة تُوحِي لنا بأن الذين اتقوا لهم جزاء ومعيّة ، وأن الذين هم محسنون لهم جزاء ومعيّة ، كُلٌّ على حسب درجته ؛ لأن الحق سبحانه يعطى من صفات كماله لخلْقه على مقدار معيتهم معه سبحانه ، فالذى اكتفى بما فرض عليه ، لا يستوى ومَنْ أحسن وزاد ، لا بُدَّ أن يكون للثانى مزيّة وخصوصية .

وفى سورة الذاريات يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۝١٥ آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ۝١٦ ﴾ [الذاريات]

لم يقل « مؤمنين » ؛ لأن المؤمن يأتى بما فُرِض عليه فحسب ، لكن ما وجه الإحسان عندهم ؟

---

(١) حديث متفق عليه . أخرجه البخارى فى صحيحه (٥٠ ، ٤٧٧٧) ، وكذا مسلم فى صحيحه (٩) كتاب الإيمان من حديث أبى هريرة رضى الله عنه . قال ابن حجر فى الفتح (١/ ١٢٠) : « إحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود . بأن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه ، وهو قوله « كأنك تراه » . وأن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل ، وهو قوله « فإنه يراك » .

يقول تعالى :

﴿ كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

وكلها أمور نافلة تزيد عما فرض الله عليهم .

ويجب أن نتنبه هنا إلى أن المراد من قوله تعالى :

﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

ليست الزكاة ، بل هى الصدقة ، لأنه فى الزكاة قال سبحانه :

﴿ حَقٌّ مَّعْلُومٌ .. (٢٤) ﴾ [المعارج]

